

جامعة تونس الأولى

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

التاريخ الحضاري لجنوب بلاد الشام فلسطين والأردن في عصر الأيوبيين ودولة المماليك الأولي البحرية

[من سنة 567 – 784هـ / 1171 – 1382م

رسالة دكتوراه الدولة في

التاريخ الحضاري الإسلامي

-العصور الوسطى –

اعداد الباحث

أحمد نهار عيسى شناق

اشراف الاستاذة /الدكتورة

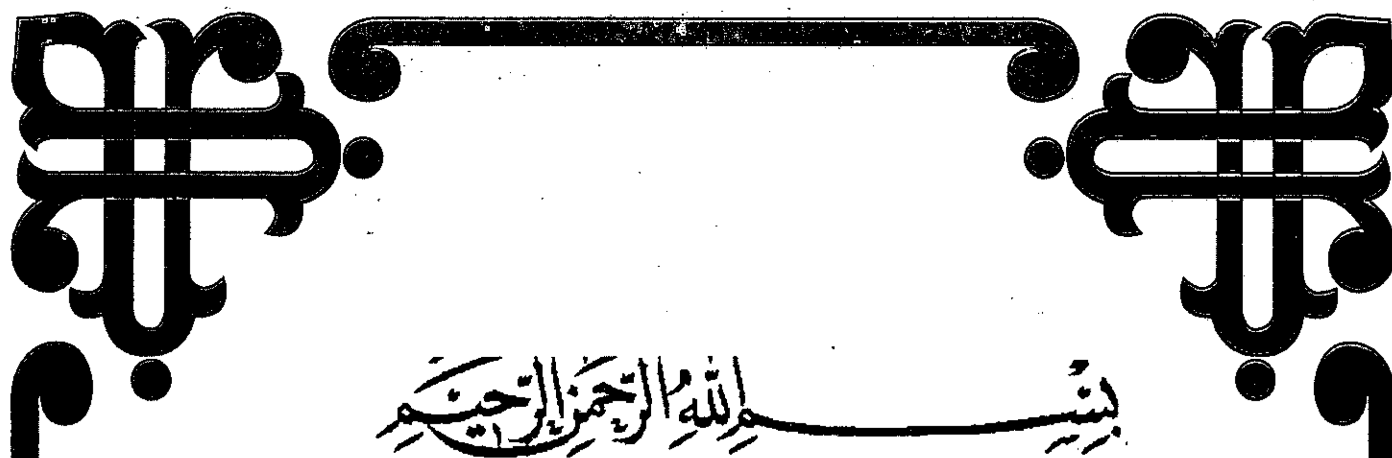
منيرة شابوطو

استاذة تاريخ العصور الوسطى في كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

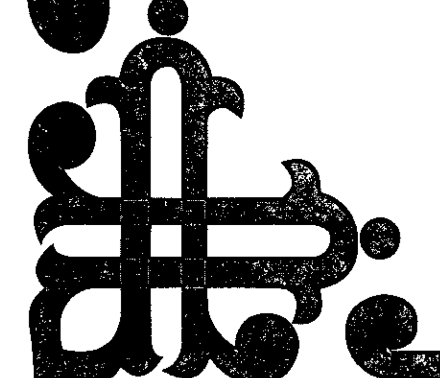
[جامعة تونس الأولى]

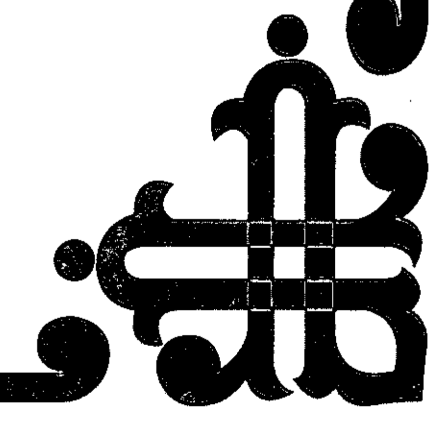
28 جويلية – 1997 تونس





اللهم إني أشهدك وأشهد حملة عرشك
وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت
وحدك لا شريك لك وأنّ محمداً عبدك ورسولك أدّى
الرسالة وبلّغ الأمانة ونصح الأمة وإنا على ذلك لمن
الشاهدين والحمد لله رب العالمين





شكر وتقدير

وفي بداية التعريف بالبحث يتوجه الباحث العربي بالحمد والشكر لله تعالى الذي منحني الصحة والعافية والقدرة على التحمل والصبر والسهر الطويل.

كما يتوجه الباحث بالشكر الجزيل إلى استاذي الفاضل الدكتور هشام جعيط الذي بدأ معي المشوار الطويل وكان له أكبر الأثر في إخراج هذا البحث إلى دائرة الضوء خلا ل خمس سنوات والذي لم يسعفه العمر بإكمال اشرافه على هذا البحث لإحالته على التقاعد.

فكانت عناية الله ورحمته بي بأن منّ عليّ بالاستاذة الجليلة العالمة / الدكتورة منيرة شابوطو التي أكملت الإشراف على هذا البحث رغم أعبائها الثقافية الثقيلة فكانت بعلمها الغزير وتوجيهاتها السديدة وراء كل كلمة من كلماته وكان تشجيعها خير حافز على مواصلة الطريق وتَخطّي العقبات والصعاب فلها شكري وتقديري ما حييت كما أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان وصادق الثناء للأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على ما يبدونه من ملاحظات وتوجيهات علمية لإخراج هذا اليحث التاريخي في كتاب قيم للأجيال الإسلامية .

ولايسعني إلاّ أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لمسؤولي دار الكتب المصرية بولاق -القاهرة ومسؤولي مكتبة عين شمس للرسائل الجامعية ومسؤولي مكتبة جامعة اليرموك/اربد ومكتبة بلدية اربد ومكتبة زايد في جامعة الأمارات العربية المتحدة

ولمسؤولي مركز الدراسات التاريخية والوثائق بأبو ظبي وإلى مسؤولي مركز التراث والتاريخ بأبوظبي والعين والى مكتبة وزارة الأعلام في مدينة العين وإلى رفيق الدرب الأستاذ علي مراشدة الذي راجعها لغوياً وإلى السيد صالح "محمد امين " الشناق الذي اخرجها بهذا الشكل المتقن والجميل، جزاه الله عنا كل الخير.

وأختم شكري إلى من يستحق الشكر والتقدير إلى زوجتي وأبنائي العشرة الذين أخذت من حقوقهم عليّ في الأشراف والتربية لتفرغي للدراسة والبحث اليومي بعد العمل الشاق من سفر وتواجد في المكتبات العامة والخاصة.

والله ولي التوفيق

فهرس المصطلحات

عاصمة	سكة حديد
مدينة	مجرى مائي دائم
حدود دولية	مجرى مائي غير دائم
خط هدنة	نقطة ارتفاع ▲١٧٦٤
حد اداري	قاع ملحي
طريق رئيسي	قاع طيني

تحت سطح البحر . ٢٠٠ ٥٠٠ ١٠٠٠ ١٥٠٠ ١٠٠٠ فأكثر

٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ كم

مقياس الرسم

الموقع الجغرافي للأردن وفلسطين

يمتد الاردن بين خطي طول $34.\overline{52}$ و$39.\overline{12}$شرقاً وبين دائرتي عـرض $29.\overline{17}$ و $33.\overline{23}$ شمالاً أي فيما يقرب من اربع درجات طولية وأربع درجات عرضية.

ويتميز هذا الموقع كونه يقع بين بيئتين مختلفتين، البيئة الصحراوية وبيئة البحر المتوسط، كما يعد جزءاً من الأرض التي نزلت فيها الديانات السماوية الثلاث[1].

تبلغ مساحته 89.5444كم^2 وترتيبها 105بين دول العالم البالغة 170دولة[2] وعـدد السكان 3.000.000 بموجب تقدير عام 1989 وترتيبها 102 بين دول العالم من حيث تعداد السكان عام 1986، وعاصمته عمان. اما عملته النقدية فهي الدينار الاردني ويبلغ الدخل القومي للفرد 1710دولار سنوياً عام 1982[3].

وأما فلسطين فمساحتها 20.770 كم^2 المتنوعة من سهول ساحلية ومرتفعات غربية وشرقية واغوار منخفضة وترتيبها 131بنسبة للمساحة، وعاصمتها القدس، وعدد سكانها حسب تقدير 1986م مايزيد عن اربعة ملايين نسمة (4.489.000)، وترتيبها بين الدول 95 بموجب تقدير عام 1986 والدخل القومي للفرد 5360دولار سنوياً[4] وعملته النقدية كانت الجنيه الفلسطيني ثم الدينار الاردني في عصرنا الحاضر.

ومن القاء نظرة على خريطة جنوب بلاد الشام نجزم القول بأن فلسطين والاردن وحدة جغرافية وبشرية متكاملة لايمكن تجزئتها.

وبالنسبة لموطني الأصلي شرقي الاردن فإنه يتجاوز في اهميته وفي مغزاه الجغرافي نطاق رقعته الارضية البالغة تسعين ألف كليو متر مربع وسكانه الرابين على أربعة ملايين ونصف اليوم. فهو بحكم موقع متوسط بين أقطار عربية يشكل مزيجاً من عناصر الجغرافية الطبيعية والبشرية لمجال أرضي أوسع، يمتد عبر شمال شبه الجزيرة العربية على ملتقى

---

(1) د. حابس سماوي: السياحة والاستجمام في الأردن، عمان 1415هـ،1994م، ص8.

(2) الاطلس المدرسي الاردني- المركز الجغرافي الملكي الاردني، وزارة التربية والتعليم، ط1،1409هـ-1989م. ص100.

(3) ن م، ص88.

(4) ن م ن ص.

الصحراء بالاستبس بعالم البحر المتوسط ليضم بين جناحيه طابع البداوة الاصيل في الجنوب والشرق والشمال الشرقي، وأسلوب الاستقرار العريق في الشمال والغرب، وينعكس هذا على كل انتماءات الاردن الذي يبدو كبضعة من سورية وتمام لفلسطين، وكأنه امتداد للعراق والسعودية حيث نرى استقامة حدوده البرية مع شقيقاته العربية.

أما موارده الطبيعية فهي قليلة لكبر مساحة الصحراء المتمثلة في بادية الشام في اقصى الشرق والصحراء المدارية في الغور كما يمتاز بتنوع هضابه وجباله الحرجية في عجلون وبيئاته النهرية الفيضية حول نهر الاردن الذي أكسبه لمحة طبيعية من أرض النيل والرافدين، بالاضافة لواحاته في الازرق شرقاً الممتدة للجوف "الداخلة" بشمال المملكة العربية السعودية.

أما سكانه على قلتهم فتجسيد حقيقي لخصائص الامة العربية ومشاكلها، من نزوع البدو الى التوطن، وهجرة الريفيين للمدن ولاجئين في مخيمات، بالاضافة لهجرة نحو الشرق (هجرة العقول باتجاه الخليج العربي) بحثاً عن الرزق لكثرة الطاقات البشرية المتعلمة المتخرجة من جامعاتها الرسمية والاهلية التي نافت الآن عن خمس عشرة جامعة.

جدول الرقعة والحدود بالكيلو متر المربع.

الضفة الشرقية	الضفة الغربية	البحر الميت	المجموع
88000	5200	950	94150

الحدود بالكيلو متر

السعودية	العراق	سوريا	نهر الأردن	البحر الميت	وادي عربة	خليج العربة	المجموع
726	133	455	100	90	190	30	1724

-تم حساب الاطوال والمساحات من الخارطة الطبغرافية للمملكة الاردنية الهاشمية الصادرة عن مديرية المساحة العسكرية الاردنية عام 1978م.

بمقياس 1:250.000.

ونقلت هذه الجداول من كتاب جغرافية الاردن للدكتور صلاح الدين بحيري -قسم الجغرافية-الجامعة الاردنية- مكتبة الجامع الحسيني-عمان 1973م.


المقدمة

كان الباحث مدركاً بوعورة الطريق لطول المدة الزمنية للبحث والتي زادت عن قرنين من الزمن.

كما توقع الباحث أنه سيجد صعوبات جمّة عندما يتصدى لدراسة جميع الجوانب الحضارية والإدارية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية.

لقد كانت كل الأمور في تقدير الباحث، ومع ذلك فقد أقدم على اختيار البحث وقد وافق الأستاذ الدكتور هشام جعيط أستاذ تاريخ العصور الوسطى في جامعة تونس الأولى على هذا الموضوع وتلمست منه التشجيع والإرشاد والتوجيه المناسب بينما انتقدت الدكتورة منيرة شابوطو هذا البحث لطول المدة الزمنية للبحث وتشعيب جوانبه وكانت ترى اختيار جانب حضاري فقط في هذه الفترة الزمنية ولكن إنسانيتها وشفقتها على الباحث بعد إكمال بحث رأت أن لا تعيد الباحث من درجة الصفر رأفة به وتقديراً لجهوده الطويلة في البحث ومراعاة لكبر سنة. وقد حاول الباحث أن يسلك السبيل العلمي السليم بقدر الإمكان مستهدفاً الصدق والحقيقة والدقة في التعبير لإظهار الصورة الحضارية لجنوب بلاد الشام مستمدة كما تقدمه المصادر في معلومات متوخياً إبراز الحقيقة العلمية بصرف النظر عن كيفية تقبل الناس لها.

فبدأ الباحث السعي والجد في البحث في بطون الكتب التاريخية والجغرافية والأدبية انطلاقاً من المنهج الذي اتبعه الباحث وهو دراسة التاريخ الحضاري لجنوب بلاد الشام زمن الأيوبيين ودولة المماليك الأولى إدارياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً بعد النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي والتي ذكرت مآثر هذا العصر وما تخلد آثارهم في بطونها.

وأما الجوانب التاريخية في هذه الدراسة المتواضعة فقد قمت بكتابة التعليقات عليها والإشارة إلى الكتب التي زخرت بها مصادر ومراجع ما كان منها أحداثاً وما كان منها أعلاماً من ملوك ووزراء وعلماء وأسماء مدن ونحوها.

وقد اشتمل البحث على خمسة فصول ومقدمة وخاتمة فضلاً عن قائمة المصادر والمراجع والملاحق.

وأما الفصل الأول وهو بعنوان "عروبة المنطقة وأهميتها الحضارية" :

فقد تحدثت فيه عن الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير، ودور القبائل العربية في الأردن وفلسطين أثناء الحروب الصليبية والمغولية.

وقسمت الفصل الثاني وهو بعنوان "النظام الإداري في جنوب بلاد الشام، فلسطين والأردن" إلى:

- لمحة إدارية "أصل التسمية وفضائل الشام".
- التقسيم الجغرافي لبلاد الشام وحدوده الجغرافية.
- التقسيم الإداري الأيوبي في جنوب بلاد الشام .{567-648 /1170-1250}

ويشمل أ - الجهاز الإداري زمن الصليبين.

ب - السياسية الأيوبية الداخلية.

ج - الإدارة ايوبية في شرقي الأردن.

د - الجيش الأيوبي.

هـ - السياسة الأيوبية الخارجية.

- النظام الإداري المملوكي في جنوبي بلاد الشام.

ويشمل:

أ- التقسيمات الإدارية.

ب - الجهاز الإداري في الدولة المملوكية.

جـ - اساليب الحكم المملوكي ويشمل:

- السياسية الداخلية والخارجية.

وكان الفصل الثالث: بعنوان "**الحياة الإقتصادية**".

مشتملاً على:

- النظام الاقطاعي الصليبي والأيوبي والمملوكي.
- الحياة الزراعية في فلسطين والأردن.
  - أ- الزراعة الأيوبية.
  - ب- الزراعة المملوكية.
- الصناعات في جنوبي بلاد الشام القائمة على الانتاج الزراعي والحيواني والثروة المعدنية.
- التجارة الداخلية والخارجية.
- النقود.
- النظام المالي الأيوبي والمملوكي.

وأما الفصل الرابع فكان بعنوان "الحياة الاجتماعية" وأشتمل على الأحوال السكانية:

- الطبقات الاجتماعية.
- الحياة الاجتماعية لأهل الذمة.
- اللباس.
- العادات والتقاليد.

وكان الفصل الخامس بعنوان "الحياة الفكرية" مشتملاً على:

- الحياة الدينية.
- الحياة الأدبية.
- الحياة العلمية.

وقد أوضح الباحث أثر الحياة الأدبية في الحياة العلمية والاجتماعية إذ اتخذت الدولة الأيوبية والمملوكية لوناً تركياً وعربياً مما أحدث تغييراً في الحياة الإجتماعية وسبّبَ الكثير من المتاعب وشجع العديد من العصبيات على الظهور، وَوَسّع نواحي الثقافة ونوع تركيب المجتمع وظهرت عيوب ونتائج لم تكن مألوفة في المجتمع العربي الأصيل وإنما هي صدى لجانب منحرف من الخلق الفارسي والتركي ويرى الباحث أنه " إذا كانت الحياة السياسية تصنع الإطار العام لتصور العصر فإن الحياة الاجتماعية تصور البيئة التي عاش فيها الشعراء والعلماء والبيئة الفكرية والأدبية التي تعوض النقص في ذكر الحوادث التاريخية في ذلك العصر.

أما **الخاتمة** فقد اشتملت على نتائج الدراسة الحضارية وتحليل للدوافع والمعوقات الحضاريّة في عصر الأيوبيّين والمماليك بما فيها من سلبيات وإيجابيات.

واختتمت البحث بقائمة المصادر والمراجع والملاحق من خرائط ورسوم بيانية وقائمة سلاطين الأيوبيين والمماليك البحرية وغيرها.

تحليل مصادر البحث الأساسية

لقد كانت منهجيتي في البحث إتباع المنهج التحليلي والمنهج المقارن وحرصت على التعمّق في الدراسة مع التزام الأمانة العلمية في تناول وعرض المادة التاريخية فكان اعتمادي على المصادر الأساسية الأصلية للمؤرخين والكتّاب الذين عاصروا فترة البحث الزمنية والرجوع أحياناً للمصادر الثانوية للمقارنة بين وجهة نظر هذه المصادر والمراجع ليكون بحثي أقرب إلى الواقع والصحة.

فاعتمدت في بحثي على مجموعة من المصادر المختلفة كالمخطوطات وكتب التاريخ العام وتاريخ الأسرتين الأيوبية والمملوكية وتاريخ بعض المدن العربية كبيت المقدس وعكّا والكرك وغيرها وكتباً أخرى من التراجم كوفيات الأعيان لأبن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وخريدة القصر للاصفهاني والأعلام لخير الدين الزركلي، وأعلام النساء لكحالة وغيرها وأرى أنّه من الضروري استعراض وتحليل المصادر الأصلية التي كان بعضها معاصراً للفترة موضوع الدراسة وبعضها متقدمّ أو متأخّر نسبياً، لكنها بمجموعها شكلت الأساس التي قامت عليه هذه الدراسة وسأقوم بعرض وتحليل لبعض المصادر الأساسيّة التي رتبتها بحسب أهميتها للبحث ولعلّ من الإنصاف أن أبدأ بالمؤرخ الأديب **عماد الدين الاصفهاني**، أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد بن حامد المتوفي عام 597هـ/1200م المولود بأصفهان عام 519هـ/1125م[1].وتفقه بالمدرسة النظاميّة في بغداد وتخرّج منها فقيهاً شافعيّ المذهب، اتصل بخدمة الوزير ابن هبيرة زمن المسترشد بالله ثم رحل إلى دمشق بعد وفاته عام

---

[1]ياقوت: معجم الأدباء، ج18،ص11، وابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج4،ص332، وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5،ص147، وأبو شامة: ذيل الروضتين، ص27 وابن شاكر الكتبي: الوافي بالوفيات،ج1،ص133،والسبكي: طبقات الشافعية ج6،ص176.

552هـ/1156م، واتصل بنور الدين وصلاح الديـن الأيوبـي[1].ويعتبر هذا المؤرخ من أبـرز كُتاب ومؤرخي عصر صلاح الدين ومن أكثرهم صحبة لـه فقد أحاطـه بثقافة عصره ومارس عدة وظائف في التدريس وديوان الإنشاء في الدولتين النوريّة والصلاحيّة[2].

وقد وصفة القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين بقوله:"العماد كالزّناد الوقّاد"[3].

وقد صنّف أكثر من عشرين كتاباً في التاريخ والشعر أهمها:"البرق الشامي" والفتح القسـيّ في الفتح القدسي" وخريدة القصر وجريدة العصر"[4]. التي أفادتني قصائدها في معرفـة الحركـة الأدبية التي تزعمها الشعراء لدفع الناس إلى تحرير القدس.

وكِتَاب "البرق الشامي" سبع مجلدات تحدث فيه عن نفسه ورحلتـه مـن العراق إلـى الشام وخدمته السلطانين نور الديّن وصلاح الديّن.

وسبب تسميته بالبرق لأنـه شبه أوقاتـه فـي تلك الأيـام بـالبرق الخـاطف لطيبها وسرعة انقضائها[5] وخَتَمَهُ عند وفاة صلاح الدين. وهكذا يكون قد ضمنّه أحداث ثمانٍ وعشـرين سـنة، وهي فترة التحاقه بديواني نور الدين وصلاح الدين هذا وقد لازم صلاح الدين في حطين وفتح الساحل الشامي "السوري والفلسطيني" وكتب كتب المستأمنين الصليبيين وكتب البشائر إلى الأقاليم بالنصر[6] ومن الجدير بالملاحظة أنه لا يوجد من السبع مجلدات سـوى الجزء الثالث الموجـود

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية،ج13،ص30-31، حيث ولاه نور الدين التدريس في المدرسة التي انشأها في باب الفـرج بدمشـق وأطلـق عليهـا: المدرسـة العماديـة" وذكـر مؤلفاتـه: الجريـدة والفتـح القســي والــبرق الشامي:والصفدي: الوافي بالوفيات: باعتناء هلمون بيتر، طبعة فسبالن، المانيا 1961،ج1،ص139.

(2) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص27. والسيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب،ص26.

(3) ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير/ ج9،ص64،بغداد،1934.

(4) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في عصر الامارات، ج5،ص322،561. وقد وصـف الخريـدة بـ"دائـرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي" حتى عام 570هـ/1174م.

(5) سنا البرق الشامي" اختصار البنداري، تحقيق دكتور: رمضان ششن، دار الكتـاب الجديد، بيروت، 1971م، ص52: وقد قام بهذا الإختصار بناءً على رغبة الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق. انظر ن م. ص49. وتكلم عن الأحداث ما بين563-589هـ.

(6) انظر الفتح القسي في الفتـح القدسـي، تحقيق وشـرح محمـود صبـح، طبعـة الـدار القوميـة للطباعـة والنشـر. القاهرة،1965،ص132.

الآن في مكتبة بودلين بجامعة اكسفورد رقم Bruce 11 والجزء الخامس تحت رقم Marsh 425[1].

لذا فقد اعتمدت على مادة هذا المصدر فيما نقله الينا أبو شامة في الروضتين بالإضافة إلى المختصر الذي ألّفه البنداري المتوفي (643هـ) بأسم:"سنا الرق الشامي" الذي حققه الدكتور رمضان شنشن بيروت 1971م.

وقد اشتمل "سنا البرق الشامي" على الكثير من روايات "البرق الشامي" وأفادني هذا المختصر بإلغاء الأضواء على كثير من الجوانب الحضارية لعصر صلاح الدين بالإضافة للعلاقة السياسية بين صلاح الدين ونور الدين أما أسلوبه في الكتابة فقد استخدم في كتابته صيغة الجمع، فكان يقول: "وأشرفنا على جبله" و " رحلنا ظهر يوم كذا"[2].

وقد علل المستشرق "جب" أسباب هذه الصيغة بقوله:"لا تجوز نسبة هذه إلى الغرور والإعتداد بالنفس بل إلى عادته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين"[3].وأما كتابه الثالث الذي اعتمدت عليه فهو: "الفتح القسي في الفتح القدسي" والذي شرع بتأليفه بعد وفاة صلاح الدين عام 589هـ/1193م.

وشرح فيه أعمال صلاح الدين البطولية في فتح القدس من 583-589هـ/1187-1192م ومعرفة رسائل الصليبين التي استخدموها ضد المسلمين كسلاح الجنس إلى جانب الأسلحة المادية.

وهذا الكتاب غني بالتراجم والإقطاعات والمصطلحات والأوقاف والأسلحة[4].

ويلاحظ على كتاباته التاريخية السجع والمحسنات اللغوية من تورية وجناس وطباق، والاقتباس من آي الذكر الحكيم، وتضمين الشعر، مما جعل هذا1 كله يتعب القارئ في استخلاص الحقائق التاريخية بسهولة، مما جعل بعض المؤرخين القدامى والحديثين ينتقدون

---

(1) Cohen & Leweis, Population and revenue in the towns of Palestine, U.S.A. 1978,P.55.

(2) د. سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1962، ص23.

(3) انظر جب: صلاح الدين الأيوبي ،تحرير يوسف ايبش، بيروت، 1972.

(4) تحقيق وتقديم، محمد محمود صبح، القاهرة، 1965.

اسلوبه الخطابي أمثال أبي شامه[1] ولين بول [2] وقد سمى كتابه الفتح القسي:باعتبار انتصار المسلمين في حطين: هجرة الإسلام الثانية إلى بيت المقدس وذلك باقتراح زميله القاضي الفاضل[3]، كما سلك نظام الحوليات كمذكرات يومية يرويها شاهد عيان، ولوحظ مبالغة في ذكر الأرقام[4].

والاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة لإبن شداد والمتوفي 684هـ/1286م وهو عز الدين أبي عبدالله محمد بن ابراهيم بن شداد الحلبي[5]المولود في حلب عام 613هـ/1217م والمتوفي في مصر وهو في خدمة الظاهر بيبرس ودفن فيها بسفح جبل المقطم.

وهذا الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء اعتمدت منها على الجزء الثاني الخاص بتاريخ دمشق والاجناد الثلاثة الأخرى (لبنان والأردن وفلسطين) والذي نشره الدكتور سامي الدهان 1963م، وقد أشرف المعهد الفرنسي على طباعتها في المطبعة الكاثوليكية والكتاب كله حققه يحيى زكريا عبارة -منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومية - دمشق، 1978.

---

(1) أبو شامة: الروضتين ، ج1، ق1ص8.

(2) جب: صلاح الدين الأيوبي، ص72، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1،ص133.

(3) الفتح القسي، ص49-57، الصفدي. ن م، ج1،ص140.

(4) ابن الأثير: الكامل، طبعة دار صادر، بيروت، 1966، ج11،ص429.

(5) هناك التباس بين بهاء الدين بن شداد الحلبي مؤرخ صلاح الدين الايوبي المولود في الموصل والذي توفي في حلب عام 632هـ/1234م. مؤلف كتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " والذي عمل قاضياً لحلب ومشرفاً على أوقافها: انظر ابن شداد: ن م، المقدمة ص4، وقد أخذت منه في التعرف على علاقة الأيوبيين زمن صلاح الدين مع الصليبيين في الشام وخاصة في فتح القدس وصلح الرملة وعلاقته مع الاباطرة البيزنطية في القسطنطينية، انظر ابن رشد : ن م ص133، ذكر في إحدى الوثائق التي ارسلها صلاح الدين إلى القسطنطينية كيفية إقامة الخطبة بالمسجد الإسلامي فيها وترجع أهميته إلى أنه كان سماعاً أو مشاهداً أو مشاركاً.

د. أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص265، والعُزّي: نهر الذهب في تاريخ حلب،ج1ص11.

وترجع أهميته لأن ابن شداد عاصر أواخر الدولة الأيوبية والظاهر بيبرس ويعتبر هذا الكتاب شاملاً للحياة الإقتصادية من تجارة وزراعة وأسواق واقطاعات[1].

إذ عمل وزيرٌ للسلطان الظاهر بيبرس وأهداه هذا الكتاب، فكان كاتباً بليغاً ووزيراً سياسياً وشاهد عيان حيث دوّن معلوماته عن كل بلد مرّ به مضيفاً لذلك ما كتب عن هذا البلد في المصادر المكتوبة فكان هذا الكتاب أوسع ما كتبه العرب في تاريخ الشام وكأنه موسوعة موجزة في التاريخ والجغرافيا والأدب والفن[2] لأنه أخذ عمّن سبقه مثل ابن عساكر في تاريخ دمشق وقرأ كتب المسالك والممالك وإن لم يصرّح بأكثر من ذكر أسمائها وأضاف عليها ليخرج كتاباً في الشام كله[3] مرتباً ذلك ترتيباً زمنياً بالإضافة للمعلومات الجغرافية عن مدن الأردن وفلسطين والمقدسات فيها لجميع الطوائف الدينية ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية منذ القرن الخامس الهجري كما ذكر[4].

ثقافته: تثقف بعلوم القرآن، والحديث التي سادت القرن السابع الهجري بالإضافة للغة العربية وعلومها، وقد توسع في دراساته التاريخية وإطلاعه على مؤلفات كبار المؤرخين كالطبري وابن الأثير وابن العديم وابن عساكر وكتب المذكرات ككتاب الاعتبار وغيره، واطلع على دواوين الشعراء فحفظ لنا أروع ما جاءت به قرائح الشعراء.

أسلوبه: كان أسلوبه مترسلاً كغيره لسيادة مذهب الترسل في القرنين الخامس والسادس الهجريين، فاعتنى بالصناعة اللفظية والزخرفية القولية، مكثراً من استخدام البديع والموازنة والسجع والازدواج، إذا استخدم الجمل القصيرة ذات الفواصل، كما تأثر بإسلوب القاضي الفاضل.

---

(1) ن م، ط1، 1306هـ/1962م.

(2) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة،جـ2، ق1، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1956.

(3) ن م ، المقدمة ص 10-11،20-22، وسيشار له فيما بعد: ابن شداد: الاعلاق الخطيرة.

(4) ن م ، ج1،ص37.

مدح المؤرخين له: لقد مدحه ابن كثير بقوله: "كان فاضلاً مشهوراً ....وكان معنياً بالتاريخ"[(1)].

ومدحه اليافعي بقوله:" الرئيس المنشيء البليغ"[(2)].

وأما صلاح الصفدي فسمّاه:"الصدر المنشيء الجلبي الكاتب، الأديب الفاضل"[(3)].

بينما قال عنه ابن الفرات:"الصاحب" كان الوزير المشير عز الدين فاضلاً دَيّناً مؤرخاً رئيساً، مُعظماً عند الأمراء الأكابر محبوباً إليهم"[(4)].

كما ذكره المستشرق الروسي كراتشكو فسكي:" بأن أصله من حلب وأنه شغل منذ شبابه الأول مناصب إدارية لدى الأيوبيين وكان خبيراً في الشؤون المالية، الأمر الذي ينعكس بشدة في كتابه وأخذ طرفاً في النشاط الدبلوماسي لعصره فشارك في النضال العسكري ضد الزحف المغولي..... ثم هاجر للقاهرة، بعد استيلاء المغول على حلب عام 658هـ/1260م. وهناك تمتع برعاية الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وتُوفي في القاهرة.

وله تراجم في الأعلام[(5)] ومعجم المؤلفين[(6)] ودائرة المعارف الإسلامية[(7)] ويرى البعض أنه ظلم نفسه لأنه لم يؤرخ لنفسه أُسْوةً بسابقيه كالحموي ومعاصره ابن العديم وغيرهما، فقصر في حق نفسه، وبقيت جوانب كثيرة من حياته مطموسة، مثل شيوخه الذين تتلمذ عليهم.

وأما كتاب المقريزي" السلوك لمعرفة دول الملوك: لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المولود عام 766هـ/1364م، المتوفي عام 845هـ/1441م، شيخ المؤرخين المصريين وصاحب مدرسة تاريخية: سمَتُها العامة: "تنوع مادة الكتابة في التاريخ السياسي والاقتصادي وخاصة الدولية الأيوبيّة والمملوكيّة حتى عصره متبعاً نظام الحوليات، إذ دوّن

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ12،ص305.
(2) اليافعي: مرآة الجنان، جـ4،ص201.
(3) الصفدي: الوافي بالوفيات،جـ4،ص189-190.
(4) ابن الفرات: تاريخ ان الفرات، جـ8،ص23.
(5) الزركلي: الاعلام،جـ7،ص173.
(6) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين،جـ10،ص299.
(7) دائرة المعارف الإسلامية،ج1،ص326.

حوادث كل عام بفصل مستقل تحت عنوان باسم ذلك، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها[1].

كما اشتملت كتابته بالموضوعية والواقعيّة وخاصة أحداث العصر المولكي التي كتبها على شكل مذكرات يوميّة، ونقل عن مؤرخين ضاعت آثارهم وكانت موجودة في عصره.

وقد استفدت منه كثيراً في معرفة الكثير من المعلومات الإدارية وأنواع الوظائف المدنية والدينيّة والعلميّة والعسكرية والأوضاع الإقتصادية وعلاقة نواب الشام بالسلاطين والعادات الاجتماعية وأخبار أهل الذمة ودورهم في إدارة الدولة[2] ومعرفة العلاقات الخارجية الأيوبية او المملوكية مع الدول الصليبية وبيزنطه وأثر ذلك على النصارى داخل الدولة الإسلامية[3].

وقد اعتمدت على القسم الثاني/ الجزء الثالث ص23 الذي حققه وقدمه ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى/ كلية الآداب، جامعة القاهرة، مطبعة دار الكتب 1389هـ/ 1970م.

أما الجزء الأول والثاني فقد حقق كل منها في ثلاثة أقسام سنة1958 المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة المتوفي عام 1968م.

---

(1) زيادة: المؤرخون في مصر، ص94.

والمقريزي:والسلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق محمد مصطفى زيادة: وسعيد عاشور، 4أجزاء كل جزء ثلاثة أقسام.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1970م،ص512.

ذكر فيه:"إصدار السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 700هـ/1300م. بإلزام أهل الذمة بالقيود لتطبيقها في جميع أنحاء البلاد المصرية والشاميّة ماعدا الكرك والشوبك لأن غالبيّة سكانها من النصارى.

(3) المقريزي: ن م، ج3، ق1، ص106، يذكر فيه عن الفرنج:"... وانضم اليهم من كان بالثغر من النصارى ودلّوهم على دور الأغنياء فأخذوا ما فيها": حوادث عام 767هـ/1365م، أثناء حملة لوزجنان على الاسكندرية.

أما كتابه "الخطط المقريزية" المعروف باسم المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار فهو جزآن جـ1: 498صفحة وجـ2 521 صفحة من الحجم الكبير حيث أرّخ فيه لمدينة القاهرة على مر العصور، وذكر معالمها بالإضافة لأحوال أهل الذمة[1] لتوليه منصب المحتسب في مصر.

واستفدت منه في معرفة رتب الأمراء المماليك وإقطاعاتهم بحسب رتبهم العسكرية ومرتبات الأجناد، وذكر بالتفصيل عن النظم الحضارية في عهد صلاح الدين والضرائب التي ألغاها، ودور العلم والخوانق التي أنشأها.

وقد ألف هذا الكتاب بعد زيارته مكاتب دمشق والقاهرة ومكة، وقد إعتمد المقريزي على كتاب المؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدي حيث نقل مسوّداته دون الإشارة لذلك كما قال السخاوي[2]. ويلاحظ إشادة المستشرقين الغربيين بالمقريزي، واعتبروه ثقة واختاروا الأجزاء الأولي من السلوك وترجموها إلى لغاتهم يقول عنها وليم موير[3]:"وكتاباته الكثيرة لها مكانتها العظيمة من التقدير، وتمتاز سجلات حوادث الأزمنة السابقة بأنها نتيجة بحث مجتهد وتدقيق تاريخي، أما حوادث زمنه فكان فيها شاهد عيان عدل فذكرها غير متجهز".

ويعتبره المؤرخ المعاصر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذاً له[4].والحق أن كتاب السلوك يضم أخباراً هامة عن الأيوبيين أيضاً قل أن أوردها مؤرخ معاصر لهذه الأسرة.

---

[1] محمد مصطفى زيادة: السلوك للمقريزي "مجلة الرسالة الإنسانية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مجلد2، جـ9، 1964، ص512-513 وقال عنه" لكن المقريزي عاد واعترف بأنه استعان بمسوّدات الأوحدي ومصادرها من كتبه المسماة:"دور العقسود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة" .

[2] ن م، ص513 .

كما ذكر زيادة : قول السخاوي الساخر:" إنه كتاب مفيد لكون المقريزي ظفر بمسودة الأوحدي فأخذها وزاد عليها زوائد غير طائلة".

[3] وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، القاهرة، 1924م،ص7.

[4] محمد مصطفى زيادة: السلوك لمعرفة دول المماليك، القاهرة، 1958،ج3،ق3.

ومن المخطوطات الهامة التي قمت بتحليلها "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمحي الدين بن عبد الظاهر السعدي المصري (ت692هـ/1292م)[(1)].

ويعتبر هذا الكتاب حلقة مهمة في سلسلة التاريخ الإسلامي والعربي، فهو مخطوط في استانبول تحت رقم 4367 وعدد ورقاتها 194 وفي كل ورقة صفحتان وفي كل صفحة 17 سطراً حققها عبد العزيز الخويطر واستعاظ عن الأجزاء المفقودة منها بمخطوطة المتحف البريطاني [(2)] المسجلة تحت رقم 239331 ونال بها شهادة الدكتوراه عام 1960م من جامعة لندن وكاتب هذه المخطوطة موثوق به لأنه عمل في ديوان الإنشاء في عهد قطز، واستمر في عهد بيبرس ونال ثقته، ورافقه في حملته إلى الشام ضد المغول[(3)].كما ترجع أهميتها بما حصل عليه المؤلف المعاصر للأحداث من الوثائق الرسمية التي كان بعضها من إنشائه وظيفياً فيما يتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية[(4)].

فكانت مصادره شفهية من السلطان بيبرس[(5)] وشخصيات حكومية بارزة، ومصادر كتابته من المؤلفين السابقين لزمانه كالبلاذري في فتوح البلدان وابن الأثير في الكامل والسمعاني في تاريخه وابن حمدون في التذكرة وغيرهم.......

ويقول عبد العزيز الخويطر أنها كُتبت زمن الظاهر بيبرس لاستعماله "كلمة نَصَرَهُ الله" حينما يتكلم عن بيبرس وكلمة "زيدت عظمته حين يتكلم عن ملك المغول بركة رئيس القبيلة الذهبية المعاصرة لبيبرس [(6)].

[(1)] ابن عبد الظاهر/محي الدين السعدي المصري(ت 692هت/1292م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض،ط1، 1396هـ/1976م) وسيشار له "ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر).

[(2)] ن.م، ص3.

[(3)] أبن عبد الظاهر، م س، ص9.

[(4)] ن.م،ص15.

[(5)] ن.م،ص21.

[(6)] ن.م،ن ص.

اسلوبه: ترتيب الحوادث حسب السنوات حتى مات بيبرس عام 676هـ دونها بذكر اليوم والشهر والوقت من النهار[1] وكان شاهد عيان للأحداث لحضوره مجالس السلطان وسماعه المناقشات.

ويبقى في نظرنا كونه كاتباً رسمياً للسلطان قد ينقص من صحة المعلومات تأثير السلطان عليه. وهو يكتب سيرته إذ ذكر "بأن الظاهر بيبرس قام بقتل قطز وحده" في حين يذكر شافع بن علي في المختصر:"أن الذي ضرب الضربة الأولى هو سلاح دار قطز ولم تكن قاتلة فأجهز عليه بيبرس"[2].

ومن كتب الموسوعات الإسلامية التي اعتمدت عليها فكانت:

كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد المعروف بالنويري، المتوفي سنة 733هـ/1333م.

وهو عبارة عن موسوعة كبيرة شملت كثيراً من المعارف الأدبية والتاريخية في العصر المملوكي المكونة من إحدى وثلاثين جزءاً طبع منها ثمانية عشر جزءاً، والباقية من 19-31 وهي القسم التاريخي، فما زالت مخطوطة.

وترجع أهميتها إلى عمل مؤلفها بنسخ الكتب، وتقلّبه في عدة مناصب إداريّة ومالية بالإضافة إلى ناظر الجيش في طرابلس وكتابة الانشاء 710هـ/ 1301م زمن السلطان الناصر محمد وناظر أملاكه. ثم انقطاعه وتفرغه للدراسة والمطالعة، حيث فكر أخيراً في تأليف هذه الموسوعة[3] وقد أخذت منه في الجزء الثامن عن الزراعة في بلاد الشام من حيث الحاصلات الزراعية والري وخراج الأرض الزراعية وطريقة مقاسمة الأرض عند الفلاحين.

---

(1) ن م، ص22.

(2) شافع بن علي، مختصر السيرة، ص9.

وللمزيد من المعرفة عن رواياته خوفاً ورهبة من السلطان انظر:

ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص202، وابن واصل: مفرج الكروب ج2،ص422. والنويري: نهاية الأرب ج29، ص2.

(3) عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1388هـ/1969م، ص62-63(وسيشار له فيما بعد، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية).

كما احتوى كتابه على المعرفة اللازمة كطبقة الكتاب، وأشار إلى وجود السُّقاة والغلمان الملاّح والجواري الحسان في مجالس المماليك، ونقل عنه ابن يغري بردي في النجوم الزاهرة، ولم يختلف عن أبن الفرات إلاّ في ترتيب الأحداث، أما المادة التاريخية فتكاد تكون متطابقة وقد مزج بين القضايا التاريخية والإدارية والجغرافية في إطار أدبي ممتع وطبع في 17 مجلداً بدار الكتب المصرية منذ 1348هـ/ 1930م.

كما يعتبر مصدراً موثوقاً لأواخر الدولة الأيوبية ونهاية إمارة الكرك، لأنه حضر نص اليمين الذي حلفه بيبرس للمغيث عمر أمير الكرك ثم نكثه باليمين وإصدار الأمر بقتله[1] وأنهت موسوعته عند أحداث سنة 730هـ .

وموسوعة: "**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**" لشهاب الدين احمد بن محي الدين بن فضل الله العمري المتوفي سنة 749هـ/1348م.(20حزء، 43مجلد)[2].

يعتبر هذا المؤلف من كتاب الموسوعات، ومن مواليد دمشق، وقضاتها، ورئيساً لديوان الإنشاء فيها، وفي القاهرة[3] في العصر المملوكي وترجع أهمية الكتاب لكونه موسوعة سياسية واجتماعية وجغرافية وعلمية[4] ويعتبر مصدراً رئيسياً لتاريخ الشام ومصر في العصر المملوكي حيث اعتمد عليه القلقشندي في موسوعته صبح الأعشى، لغزارة مادته وتنوعها ونفاستها، ومازال معظم اجزائه مخطوطة، ولم يُنشر منها إلاّ الجزء الأول نشره الأستاذ أحمد زكي باشا عام 1924م.

واستفدت من الجزء الأول الباب السادس الخاص بمصر والشام، والذي حققه أيمن فؤاد سيد ودوريتا كرافولسكي، من حيث الحياة الاجتماعية والمحاصيل الزراعية في بلاد الشام

---

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 549 معارف عامة، جزء 27، ورقة 105.

(2) عنان: م.س،ن ص.

(3) كراتشكوفسكي، م .س، ج1، ص 410-411.

(4) الصفدي: خليل بن أبيك بن عبدالله ، (ت 764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات، ج2، تحقيق، محمد يوسف نجم، فيسبادن، فرانز تسكاينز ، ط2، 1982،ص252، قال عنه: ما أعلم أن لأحد مثله ....

وكذلك الديارات النصرانية في بلاد الشام وحسن العلاقات بني المسلمين والنصارى، حيث ذكر استضافة الرهبان وإكرامهم له، واصفاً ذلك بشعره.

وكتابه: التعريف بالمصطلح الشريف فقد استفدت منه في عمل الدواوين وتحديد المناطق الجغرافية في بلاد الشام.

وموسوعة القلقشندي، أبو العباس أحمد المتوفي عام 821هـ/1418م.

بعنوان "صبح الاعشى في صناعة الإنشا " الموسوعة الكبرى المولفة من أربعة عشر جزءاً والتي تعتبر سجلاً عظيماً لمختلف أنواع المعرفة السياسية والإقتصادية والاجتماعية والثقافية طوال العصور الوسطى[1].

لقد برع المؤلف في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء كما عمل بنسخ الكتب[2] وتقلّب في عدة وظائف مالية وإدارية وكاتباً في ديوان الانشاء ثُم رئيساً له عام 791هـ/ 1389م، فكان رئيساً لكتاب الدواوين وأعمال الإنشاء فجاء كتابه وافياً. مما ساهم في اخراج موسوعته العلمية الشاملة لميادين التاريخ والادب والاقتصاد والاجتماع الأُسَرِي وحفظ العديد من المعاهدات والمراسلات بين سلاطين الأيوبيين والمماليك مع الدول الأوروبية[3] وقد أخذت من هذه الموسوعة في معظم فصول هذه الدراسة بمعلوماته عن نيابات بلاد الشام وفي تفسير الكثير من المصطلحات والوظائف والرتب العسكرية وأوضاع البدو في عصر المماليك وقد أخذ معلوماته الجغرافية من

---

(1) احمد عزت عبد الكريم: ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، القاهرة، 1973،ص9.

(2) القلقشندي، "صبح الاعشى في صناعة الانشاء " ج5، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، ص317، وانظر كراتشكوفسكي: إنماطوس يوليا نوفتس، تاريخ الآدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، لجنة التأليف والترجمة،جامعة الدول العربية، القاهرة، ج1،ص401.

(3)القلقشندي، "صبح الاعشى في صناعة الانشا " ج5، شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، جـ8،ص317، شرح وتعليق يوسف علي الطويل، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 378هـ/1987م،ص28، عنان، محمد عبدالله، مؤرخو مصر الإسلامية، م س، وسيشار له: القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة ط1، 388هـ/1969م. ص76-79، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الفصل الأول

أولاً: لمحة عن الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير.

ثانياً: عروبة المنطقة وأهميتها الحضارية.

ثالثاً: دور القبائل العربية في الأردن وفلسطين اثناء الحروب الصليبية والمغولية.

أولاً : لمحة عن الحالة السياسية في العصر العباسي الأخير

تمهيد:

لقد تميز العصر العباسي الأول بقوة الخلافة، عندما كانت الخلافة العباسية تملك القوة السياسية والعسكرية ورئاسة المسلمين الدينية والدنيوية، كما كان الخليفة العباسي يعين الولاة والسلاطين الذين كانوا يعترفون بسيادة الدولة عليهم وتقديم الولاء للخلفاء، لذا لم يستطع أحد منهم تجاوز حقوق الخليفة.

أما في العصر العباسي الثاني، عندما دبَّ الضعف في كيان الخلافة الاسلامية لسيطرة الأتراك عليها، شق بعض الأمراء عصا الطاعة، نتيجة لظهور بوادر النزعات القومية والإقليمية والطائفية، فقامت الدول التركية الإنفصالية عن الخلافة العباسية كالطولونية في مصر والشام والحجاز والأخشيدية والحمدانية العربية في شمال الشام، والفاطمية في شمال أفريقيا والذين اعتبروا أنفسهم خلفاء حقيقيين للنبي صلى الله عليه وسلم، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان عام 279/900م.

ومن الناحية الحضارية فقد امتد النشاط الفكري والسياسي الى المشرق حيث حصل امتزاج حضاري بين الثقافات الفارسية والهندية والسريانية والنبطية والرومية فبلغت الحياة العلمية أوجها، وأصبح العالم الاسلامي حافلاً بالمراكز الحضارية الكبرى في المشرق والمغرب على السواء، بالاضافة الى ازدهار الحالة الاقتصادية واستمرت الحالة السياسية للخلافة العباسية في تداعيها في العصر العباسي الأخير مما جعلها تفقد حقوقها الدنيوية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث أصبح الخليفة رئيساً روحياً في بغداد فقط بعد أن نازعه عليها المتغلبون والطامحون والمتثرون وراء دعوات باطنية إذ بدأوا يجهرون في الانفصال عن جسم الدولة العباسية، بعد أن أصبح الوزراء والقادة الكبار وأصحاب الدواوين منهم، أما السلاطين والأمراء السنيين فقد احتفظوا بولائهم وطاعتهم لتلك السلطة كالزنكيين والأيوبيين وخاصة أيام الخليفة المستضيء بالله الذي كان يرسل لهم الخلع الثمينة في كل المناسبات، فكان غرضهم من تأييدهم للخلافة العباسية نابعاً من إيمانهم بقدسية الخلافة والحصول على تأييدها

الروحي والمعنوي عند المسلمين ليتمكنوا من الصمود أمام هجمات الصليبيين وبعض الأمراء المسلمين المعارضين لهم.

وهكذا أصبح الوضع السياسي والاقتصادي والديني في القرن الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر الميلادي معقداً للغاية نتيجة للقوى الحاكمة المختلفة والمتناقضة فيما بينها من أجل البقاء والسيطرة ناهيك عن المنازعات المذهبية والسياسية بين الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر والخلافة العباسية السنية في بغداد، والقوى المحلية الأخرى السنية كالسلاجقة والزنكيين والأيوبيين، ثم تحول الصراع في العصر العباسي الأخير بين الخلافة العباسية والسلاجقة سياسياً رغم مذهبهما السني حيث كانت الخلافة العباسية تناضل من أجل الإبقاء على كيانها ضد السلاجقة الأتراك[1]، كما كانت تخوض بعد سنة 555هـ/1161م صراعاً عنيفاً للمحافظة على سلطانها وإعادة هيبتها المفقودة.

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحاً لصراع العباسيين، والفاطميين، والقبائل العربية المحلية، والأتراك السلاجقة "التركمان" والقادة الأتراك العسكريين، والخوارزميين وذلك نظراً لأهميتها السياسية والاقتصادية والدينية بالنسبة لهذه القوى، في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين[2] تنتهز الفرصة الملائمة لتوقع بينهم كي يخلو لها الجو لتأسيس ملكاً لها على انقاض هؤلاء وتم لهم ذلك، ومما يؤسف له فرحة الفاطميين بالانتصار الصليبي في الحملة الأولى شماتة بالعباسيين وقصر نظرهم السياسي، ثم ابتُلِيَ العالم الاسلامي بالهجوم المغولي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

---

[1] أنظر: أحمد شناق: رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، 1990.

[2] لقد كثرت التسميات لهذه الحروب ولمن اشترك فيها، فبعض المؤرخين العرب كابن تغري بردى مثلاً اسماهم الفرنجة: حيث أطلق اسم الفرنجة على كل محارب مسيحي غير عربي بينما أطلقها Emanual Sivan اللاتيني على المسيحيين الغربيين لا على الروم. بينما ارتبط اسم الحروب الصليبية بشعار الصليب الذي رسموه باللون الأحمر على اكتافهم وسلاحهم وبالنسبة للمسيحيين فهي ذات مدلول ديني حديث أطلق على كل من يدين بالنصرانية سواء اشترك في الحروب ضد الشرق الاسلامي أم لم يشترك. بينما ذكرت المصادر الاسلامية كلمة النصارى كما ورد في القرآن الكريم الذي لم يرد فيه "المسيحيون". أنظر بالنسبة للتسميات: "ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، جـ5، ص146، أبو شامه: الروضتين جـ1، ص32. رانسيمان: المدينة البيزنطية، ص210، وعبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين في مصر، ص448.

هذا بالاضافة لوضع المسلمين المؤسف في الطرف الغربي للعالم الاسلامي في الأندلس عام 484هـ/1090 زمن ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين، فكانت جميع هذه الأحوال المساعدة آنذاك ملائمة لغزوات الصليبية ونجاحها فوجهوا ضربتهم الأولى لسوريا عام 490هـ/1096م، بينما كان أمراء المسلمين مختلفين متنابذين.

وهكذا نلاحظ أن هذا الضعف والانقسام واللامبالاة بالمصلحة العليا للاسلام والمسلمين، كان من العوامل الهامة في نجاح الصليبيين في شن حربهم على المسلمين مما مكنهم من تأسيس الامارات اللاتينية في الرها وانطاكية والقدس وطرابلس في بلاد الشام.

أما بالنسبة لدور الدولة السلجوقية في القرن السادس الهجري في بلاد الشام فقد كانت قوة عسكرية قادة جيشها من المماليك الأتراك "الأتابكة" لأنهم لم يعتمدوا على الأمراء في القيادات العليا وإمرة الأمراء فكانوا يستعينون بالضرورة بالأرقاء الذين تم شراؤهم لتربية أولاد السلاطين والأمراء الحكام، كما كان في معية السلاطين مماليك مجلوبون من القبجاق "من أذربيجان" وكانوا يكافؤون على خدماتهم الهامة بالعتق وتولي المناصب الكبرى في القصر أو الجيش – وهذا مكنهم من الحلول محل ساداتهم حين ضعف سلاطين السلاجقة، وانقسمت دولهم الى إمارات كثيرة بإدارة المماليك، كما عملوا نواباً للسلاطين السلاجقة الصغار الذين حولوا هذه النيابات الى حكومات حقيقية كما حدث مع طغتكين مملوك تُتش "أحد سلاجقة الروم" حيث كان أتابكاً لدقاق والذي أصبح طغتكين سلطاناً بعد وفاة دقاق، وكذلك عماد الدين زنكي مؤسس دولة الأتابكة في الموصل وحلب والذي كان مملوكاً للسلطان ملكشاه السلجوقي بخراسان وهكذا كانت الدولة السلجوقية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي باستثناء سلاجقة الروم – في يد هؤلاء القادة الذين شكلوا مجموعة مميزة من الدول الصغيرة.

ومما يلاحظ على دور السلاجقة الأتراك تطلعهم لحكم بلاد الشام ومصر بحجة توحيد العالم الاسلامي تحت السيادة العباسية، وبالنسبة لتطلعهم لبلاد الشام فقد استولى القائد السلجوقي اتسز أيام ألب ارسلان على الرملة ثم القدس 463هـ/1071م من الفاطميين[1] وأعلن فيها

---

[1] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص152، 169، وابن الجوزي: المنتظم، جـ8، ص284، وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، جـ5، ص87.

الخطبة للعباسيين والسلاجقة دون معارضة أو إراقة دماء واتخذ القدس قاعدة انطلاق للسيطرة على جنوب بلاد الشام فاستولى على طبرية وما يجاورها عدا عسقلان، حيث كان همهم الاستيلاء على دمشق وعكا الساحلية كمركزين تجاريين هامين في التجارة البرية والبحرية.

ثم تنبه اتسز لأهمية شرقي الأردن للقضاء على قوة القبائل العربية هناك، أو استمالتهم اليه ولموقع شرقي الأردن الهام في السيطرة على الطرق التجارية بين مصر والشام وطرق الحجاج الى بيت الله الحرام، فقام اتسز بالهجوم على حصن عمّان "مركز البلقاء"[1] واستولى عليه[2].

ثم تحرك جنوباً فاحتل جنوبي الأردن، وعاد مرة أخرى لفلسطين لاحتلال مدينة الرملة "قصبة فلسطين، فوجدها خرابا نتيجة للزلزال عام 460هـ/1068م[3] فأعاد تعميرها، وجلب لها الفلاحين وزرعوها بالزتيون، ثم تطلع لتأمين مراكز استراتيجية في شمالي فلسطين نحو عكا وصيدا اللتين كانتا خاضعتين لبدر الجمالي الذي استمال القبائل العربية هناك من بني كلب لذلك فشل السلاجقة في احتلاها[4].

وهكذا نجح السلاجقة بالاستيلاء على شرقي الأردن ومعظم فلسطين وأخبر اتسز الخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي في بغداد ملكشاه، وأرسل للخليفة مبالغ مالية مع الهدايا الثمينة، بلغت قيمتها ثلاثين ألف دينار[5] رمزاً لتبعية السلاجقة للخلافة العباسية.

ولم ييأس اتسز في محاولة غزوه لعكا واحتلالها حيث نجح في الاستيلاء عليها عام 476هـ/1078م كما استطاع بعد محاولات عديدة احتلال دمشق عام 468هـ/1071م فأصبح

---

(1) ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص15.

(2) سبط ابن الجوزي: وآة الزمان، ص153.

(3) ياقوت الحموي،ن م، جـ4، ط69، سبط بن الجوزي: ن س، ص155، وابن الجوزي: م س، جـ8، ص248.

(4) سبط ابن لجوزي: ن م، ص1403، وابن الأثير: الكامل، جـ15، ص60.

(5) سبط ابن الجوزي: ن م، ص197.

سيد البلاد دون منازع وخطب للخليفة المقتدي بأمر الله وملكشاه[1] وتلقب بالملك العظيم وسماه المؤرخون صاحب الشام[2].

ولكن هذا التوسع السلجوقي أدى الى صراع مستمر بين الشام ومصر مما أضعف هذه المنطقة اقتصادياً وعسكرياً الأمر الذي سهل احتلال الصليبية لها في ظل الفرقة والتجزئة لهذا الصراع السلجوقي الفاطمي كما أحدث هذا الصراع تغيرات اجتماعية وفكرية في جنوب بلاد الشام بعد دخول عناصر كردية وتركمانية وتركية، كما انتشر فيها نظام الإقطاع العسكري، وقيام أتابكيات متعددة ومتصارعة على حساب الفاطميين والقوى العربية المحلية التي انتهى وجودها على أيدي السلاجقة والصليبيين.

---

(1) ابن الأثير، م س، جـ15، ص68، وابن تغري بردى : م س، جـ5، ص101-102، وابن أبي الدم: التاريخ المظفري، ورقة 147 "مخطوط 1".

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ20، ص46-48.

لذا نلاحظ فشل محاولات الوحدة بين الشام ومصر ضد الخطر الصليبي الداهم على الجميع، حتى قيض الله لهم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي اللذان نجحا في بناء الوحدة الشاملة بين مصر والشام والجزيرة الفراتية، وذلك لقطع الطريق على المحاولات الصليبية في احتلال مصر أيام ضعف الفاطميين حيث انجزوها كما نعلم وأعادوا مصر بعد اسقاط الخلافة الفاطمية الى الخلافة العباسية، فوضعوا أساس دولة جديدة هي الدولة الأيوبية[1]، هذا وقد عاصر صلاح الدين الأيوبي الخليفة العباسي في بغداد الناصر لدين الله. وتوفي في دمشق متأثراً

---

[1] ابن اياس: بدائع الزهور، جـ1، ق1 ص285. وقامت دولة الأكراد من بني أيوب من عام 567هـ/1174م حيث يرجع أصلها الى أذربيجان من بلاد الكرج ويعتبر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الكردي مؤسس هذه الدولة ولقب بالملك الناصر أبو المظفر والذي ولد بقلعة تكريت شمالي بعداد عام 532هـ/1137م عندما كان أبوه في خدمة زنكي "عماد الدين" وبعد استشهاد عماد الدين زنكي على يد خادمه نتيجة مؤامرة حاقدة ومدبرة بعد استرجاعه مدينة الرها عام 539ه/1144م استمر أيوب وأولاده في خدمة ابنه نور الدين الذي استولى على بلاد الشام في محاولته جمع شمل المسلمين في مصر والشام لتكوين جبهة اسلامية قوية، فكان أن أرسل الى الخليفة الفاطمي العاضد الذي استنجد به ليخلصه من صراع الوزراء الذي كاد أن يؤدي لاحتلال الصليبيين لمصر، أخاه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الذي عين وزيراً في مصر وبعد موته، انتقلت الوزارة لابن أخيه صلاح الدين الذين أعلن إلغاء الخلافة الفاطمية وضم مصر للخلافة العباسية في بغداد، مما جعل نور الدين محمود يبقيه في حكم مصر نيابة عنه، حيث قام باصلاح الديار المصرية وابطل المكوس والمظالم الفاطمية.

انظر ابن اياس: ن م، جـ1، ق1، القاهرة ط1402/2هـ/1982م، ص237.

حتى قال الشاعر:

أصبح الملك بعد آل عُبيد مشرقاً بالملوك من آل شادي
وغدا الشرق يحسد الغرب عدلاً ومصر تزهو على بغداد
لا كفر عون والعزيز ومن كان بها كالخصي والأستاذ

ولفظ الأستاذ: يعني كافور الإخشيدي. ابن اياس، ن.م 238.

وتوفي الملك السعيد نور الدين محمود زنكي المرابط المجاهد صاحب دمشق عام 1374/569م. ودفن في دمشق، حيث كان أول من لقب بالسلطان مع وجود الخلفاء بعد ملكشاه السلجوقي وأول من استخدم الحمام الزاجل في البريد.

انظر ابن اياس، ن.م ص24 علماً بأن لقب السلطان يطلق على من يملك عدة بلاد من الموصل والشام ومصر وفي ولايته عدة ملوك وعسكره عشرة آلاف فارس.

وبعد وفاته انفرد صلاح الدين بمصر والشام ولقب بالسلطان وكان أشهر أعماله في مصر:

أ) تأسيس جيش من الأكراد بحدود اثني عشر ألفاً بدلاً من جيش الفاطميين السابق والمكون من الصقالبة والأرمن والعبيد الزنج وشناترة العرب.

ب) حول الجامع الأزهر من مركز لدعوة الشيعة الى مركز للدعوة السنية.

جـ) بنى سور القاهرة عام 572هـ/1177 بدلاً من سور جوهر الصقلي باني القاهرة عام 361هـ/972م فجعل له صلاح الدين أحد عشر باباً بإشراف الخصي بهاء الدين قراقوش ابن اياس: ن م ص243.

د) وشرع في بناء قلعة الجبل في القاهرة لتكون داراً لملكه.

بمرضه في صفر عام 589هـ/1194م، ودفن في مدرسة مجاهد الدين عن عمر يناهز واحداً وسبعين عاماً، وكانت سلطنته بالشام ومصر حوالي اربعاً وعشرين سنة منذ أيام العادل نور الدين محمود[1].

والملاحظ على علاقة الدولة العباسية في بغداد بصلاح الدين الأيوبي بأنها اعتراف وتأييد للأيوبيين بعد رجحان كفتهم وقضائهم على الدولة الفاطمية في مصر، لذا قامت الدولة الأيوبية مستقلة عن الخلافة العباسية وكذلك لم ينظر الناس اليهم كعرب أو أكراد، بل كانت الظروف تحتم على الجميع النظر اليهم بحكم العقيدة الدينية وتبنيهم للحضارة العربية الاسلامية.

كما يلاحظ اعتماد صلاح الدين في تأسيس دولته على اخوته وأبناء عمومته ثم أبنائه، حيث خصهم بالاقطاعات الكبيرة والمناصر العالية وبعد وفاته حدث صراع مرير على الحكم بين هؤلاء مما كان له الأثر السيء على الجبهة الاسلامية وتقويض صمودها أمام الفرنجة المحتلة لجنوبي بلاد الشام.

ويهمنا في هذا البحث، أيوبيو الكرك[2] الذين حكموا من عام 584-661هـ 1186-1263م. فكان على المعظم عيسى حماية جبهة الشام وعلى أخيه انقاذ الجبهة المصرية من خطر الصليبيين ايضاً، واستطاعا انقاذ البلاد من الحملة الصليبية الخامسة على دمياط في مصر عام 618هـ/1221م.

ومما يؤسف له هنا عودة الصراع بين الأخوة الثلاثة أبناء العادل -الكامل والمعظم والأشرف- حيث اضطر الكامل الى الاستنجاد بعدوه فريديريك الثاني ضد أخيه المعظم عيسى مقابل تسليمه بيت المقدس وما فتحه صلاح الدين في الساحل الفلسطيني فاعتبر خائناً لمقايضة فلسطين بدمياط خوفاً من تقدم الفرنج نحو مصر كما تبعه أخوه المعظم بعقد حلف مع جلال

---

[1] ابن اياس: ن م، جـ1 ق1، ص247.

[2] العادل الأول: سيف الدين أبو بكر نجم الدين أيوب من 584هـ - 592هـ/ 1186-1191م. والمعظم عيسى بن العادل الأول : 592-615هـ/1194-1218م. والناصر داوود بن المعظم عيسى في فترات حكمه 615-626هـ/1218-1229م. 626-647هـ/1229-1250م. والمغيث فتح الدين عمر بن العادل الثاني أبو بكر بن الكامل محمد. أنظر ستانلي بول : الدول الإسلامية، ترجمة صبحي فرزات، 1995، ص166-167.

الدين الخوارزمي ضد أخيه الأشرف عام 623هـ/1226م[1]. وبعد وفاة المعظم عيسى عام 624هـ/1227م انتقلت السلطة لابنه الناصر داود الذي استطاع استرداد بيت المقدس من الصليبيين[2] عام 637هـ/1239م ولكن الصالح اسماعيل –صاحب دمشق تنازل عنه مرة ثانية للصليبيين مقابل مساعدتهم له ضد ابن أخيه الصالح ابن الملك الكامل صاحب مصر[3] الذي أصيب بمرض الغانغرانا بعد قطع فخذه والذي استطاع تخليصه ثانية من الصليبيين عام 641هـ/1244م بمساعدة الخوارزميين وحرر طبرية ونابلس، وتمكن من توحيد الدولة الأيوبية، مما أغضب الغرب وقاموا بالحملة السادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذي وقع في الأسر[4] وتوفي الصالح أيوب بعد أن أكمل المعركة وهزم الصليبيين في المنصورة وتوفي عام 647هـ/1249م في الأوقات الحرجة التي داهمت فيها الأخطار الدولة الأيوبية وأنذرت بانهيارها مما دفع زوجة أبيه شجرة الدر الى اخفاء موت زوجها وأرسلت لابنه الوحيد توران شاه للحضور من حصن كيفا وديار بكر حيث كان نائباً لأبيه هناك[5] واستعدت القاهرة لاستقباله حينما وصل اليها بعد اعلانه سلطاناً في دمشق[6].

ولكنه قتل عام 648هـ/1250م بعد سبعين يوماً من حكمه نتيجة لمؤامرة بعض أمراء المماليك الذين احسوا بخطره عليهم للمحافظة على مكاسبهم، بعد أن شعروا بسلوكه المعادي لهم بالاضافة لحقد سرية أبيه شجرة الدر لمطالبته اياها بمال أبيه ومجوهراته فنصبوا شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب "أم خليل" الذي توفي في حياة والده". على أن يكون الأمير المعز أبيك التركماني مدبر المملكة معها فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بني أيوب وخطب لها على المنابر[7].

---

(1) سعيد عاشور، مصر والشام ص69-83. وأمينة بيطار: تاريخ العصر الأيوبي، دمشق (1401-1402هـ/1981-1982م) ص184.

(2) بعد أن تنازل عنه الكامل لفردريك الثاني الصليبي عام 626هـ/1229م، بالاضافة لبيت لحم والناصرة وتبنن وحيفا مع عقد هدنة لمدة عشر سنوات. سعيد عاشور: ن م، ص91. وانظر مولر: القلاع، ص24-25.

(3) أمينة بيطار: م س، ص94.

(4) المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص361، ابن تغزي بردى: م س، دار الكتب المصرية، 1963، جـ6، ص 325-364، وعاشور: م س: ص106. وانظر أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين: حوادث 642هـ.

(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ6 ص364، بيروت ط3 1987م جـ13 ص194.

(6) المقريزي: السلوك: جـ1 ص351-353، وابن كثير: البداية والنهاية: تحقيق أحمد أبو ملحم ورفقاه ومحمد مختار باشا: التوفيقات الالهاية في مقارنة التواريخ الهجرية.

(7) ابن اياس: م س ص 285، بالسنين الأفرنجية والقبطية، دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمد عماره المؤسسة العربية للدراسات 1400هـ/1980م، جـ1، ص681. ابن اياس، ن م، ص286 أن مرتبة خاتون ونوبه خاتون التي تدور في القلعة بعد العشاء بالطبل.

وهنا لابد من التنويه لموقف الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد الذي غضب لتولي امرأة إمرة المسلمين حيث بعث لهم رسالة ضمنها حديثاً شريفاً بما معناه "لا يفلح قوماً ولّوا أمرهم إمرأة" فخلعت نفسها أمام الأمراء والقضاة فكانت مدة سلطتها "80 يوماً" ثمانين يوماً كما اشار عليها القاضي تاج الدين بن بنت الأغر بالزواج من الأمير المعز آبيك التركماني، فوافقت فبايعوه كأول ملك من ملوك المماليك الترك بمصر[1].

---

[1] المقريزي: السلوك: جـ1 ق2، ص358-359، 368. وأورد ما في رسالة المستعصم: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلاً"..

وانظر ابن اياس: ن م، ص287 حيث ذكر شعر أبو الحسين بن الجزار بهذه المناسبة فيمن ولي ملك مصر من ملوك بني أيوب الأكراد.

ثم تولاها الصلاح يوسف ثم العزيز ابنه امتنصف
ثم اتى الأفضل نور الدين وبعده العادل ذو التمكين
ثم ابنه الكامل ثم العادل كلاهما بالحكم فيه عادل
ثم اتى الصالح وهو الأعظم ثم تولاها ابنه المعظم
وبعده أم خليل ملكت وطالت الأفعال منها وزكت
والملك الأشرف كان طفلاً فلم يدير عقدها والحلاً.

وشجرة الدر: تركية الأصل، وقيل أرمنية، اشتراها الصالح نجم الدين أيوب وحظيت عنده بمكانة رفيعه، ودام حكمها ثمانين يوماً بعد وفاته لاعتراض الخليفة العباسي عليها.

انظر: المقريزي: السلوك جـ1 ق2، ص361.

ثم تنازلت لعز الدين أيبك التركماني عن الحكم ظاهرياً بعد زواجها منه وبدأت سعيها للتخلص منه عام 654هـ/126م فقتلته، ولكنها قتلت بأوامر السلطان نور الدين علي بن عز الدين بواسطة جواري أمه بالقباقيب والنعال حتى ماتت واتخذ قطز أتابكاً له.

المقريزي: السلوك،جـ1،ص384، 401.

وانظر: ابن اياس بدائع الزهور، جـ1 ق1، ص294.

أما عز الدين أيبك التركماني الملقب بالملك المعز أيبك فكان أصله من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، إذ اشتراه واعتقه وصار أميراً في حياة أستاذه الملك الصالح وبقي أتابكا للعسكر بعد مقتل الملك المعظم توران شاه، وأصبح سلطاناً بعد خلع شجرة الدر من السلطة: ابن اياس: ن. م، ص288.

هذا ويذكر ابن اياس في ص 291 أنه حدث في أيام المعز حوادث طبيعية أنذر الله بها زوال ملك بني العباس حيث حدث عام 648هـ/1250م هبوب رياح شديدة في مكة مزقت أستار الكعبة الشريفة واحتراق المسجد النبوي الشريف، ومنبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهكذا قامت دولة المماليك الأتراك في مصر.

أصل الأتراك: ابن اياس: بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص288 ذكر عن الحسن البصري قوله: "أصل الترك من ولد يافث من نوح عليه السلام، فيافث هو أبو الترك، ويأجوج ومأجوج بنو عم الترك، وانما سميت الترك تركاً، انّ الاسكندر ذو القرنين، لما بنى السد علي يأجوج ومأجوج، كان منهم طائفة غائبة وقت بناء السد، فما علموا ببنائه، فتركوا خارج السد، "فسميت هذه الطائفة "تركاً" كونهم تركوا خارجاً عن السد، فالترك طائفة من نسل تلك الشرذمة التي تركت، والله أعلم بحقيقة ذلك".

كما ذكر ابن اياس قول صاحب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" إن طائفة هذه الترك كانوا عدة قبائل، يسكنون بالبلاد الشمالية، لا يتخذون جداراً، ولا يستوطنون وطناً، بل ينتقلون من الأرض في أماكن شتى، عند مصايفهم ومشاتيهم، وقد تناسلوا وكثروا وتفرقوا في البلاد".

وفي سنة 626هـ/ اجتاح بلادهم المغول فكروهم ونهبوا أولادهم ونساءهم وباعوهم للتجار، فاشترى الملك الصالح بن نجم الدين أيوب منهم، واسكنهم في قلعة الروضة، حيث مكن الله لهم الأسباب، وعوضهم بعد المذلة والهوان بعد دخولهم في الاسلام بالملك والسلطان. ابن اياس، ن. م ص289.

ولم يتقبل الناس هذا الوضع الجديد باستيلاء العبيد المماليك على السلطة من أسيادهم بغير وجه حق[1].

كما رفضت الإمارات الأيوبية في بلاد الشام الاعتراف بسلطة المماليك الجديدة لاسقاطهم السلطة الأيوبية في مصر وانقسام المماليك وفرار بعضهم الى الشام وتحريضهم للأيوبيين في بلاد الشام على غزو مصر، فكانت فرصة سانحة لضرب سلطة المماليك واضعافها في مصر أراد الأيوبيين استغلالها بعد انقسام المماليك على أنفسهم بقيادة الناصر يوسف بن أيوب حيث سيطر على سوريا وحتى عجلون في شرقي الأردن وتوجهوا لقتال المماليك في مصر العباسية فتنبه عز الدين أيبك الذي تولى الحكم بعد شجرة الدر من الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق (648هـ/1250م – 649هـ/1250م). فخرج الي بلدة العباسية وعكسر فيها لمدة ثلاث سنوات تحسباً لهجوم عسكري من بلاد الشام[2] حتى أنهت الخلافة العباسية حالة الطواريء هذه بوساطتها بين المماليك والأيوبيين وعقد صلح بين الطرفين بعد نجاح وسيطها المفوض نجم الدين البادرائي عام 651هـ/1253م بترسيم الحدود بينهما على أن يكون لأيبك الديار المصرية وساحل الشام الى فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن وبعدها للملك الناصر يوسف الأيوبي. فكان هذا اعترافاً رسمياً من الأيوبيين بسلطة المماليك الجديدة في مصر[3]. وخدمت

---

(1) ابن تغري بردى (جمال الدين يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن دار الكتب، ج7، ص13 (سيشار له فيما بعد هكذا): ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة.
ذكر قول الناس: "لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة".

(2) العباسية: بليدة أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية/ ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979، جـ4، ص75. (سيشار له فيما بعد هكذار: ياقوت الحموي: معجم البلدان).
وانظر: ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ4، تحقيق عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1972 ص386-787.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، م7، جـ13، ص209 واليونيني: ذيل مرآة الزمان طبعة الهند 1955 ص58. والمقريزي: السلوك جـ1، ق2، 358/ وابن تغري بردى: ن م: جـ7 ص12 وأبو الفداء: المختصر: جـ3، ص195، 199 وابن خلدون: العبر مجلد 5 ص801، 810، هذا واعتبر ابن اياس م. س، جـ1، ص95 بأن أول المماليك البحرية المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي ولكن لين بول ومعظم كتب التاريخ الأوروبية تعتبر شجرة الدر أول ملوك المماليك وهو خطأ واضح.

الظروف السياسية الطارئة على الساحة الاسلامية لإثبات شرعية حكمهم بتحملهم مسؤولية الدفاع عن البلاد برد جحافل المغول التتارية المتوحشة التي أسقطت الخلافة العباسية في بغداد بعام 656هـ/1258م بعد تدميرها وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله (640-656هـ / 1242 - 1258م).

واستمر زحفها الى بلاد الشام والاستيلاء على مدنها بعد عجز الأيوبيين عن مواجهة هذا الخطر[1].

فأثبتوا قدرتهم في الدفاع عن البلاد بعد انتصارهم بقيادة المظفر قطز على المغول بقيادة كتبغابن نوين في معركة عين جالوت في 26 رمضان 658هـ/ 3 أيلول 1260[2]. مما أكسبهم الحق في حكم البلاد وإنهاء الصراع مع الأيوبيين على السلطة بعد ضمهم للامارات الأيوبية في بلاد الشام الى حكمهم.

التعريف بالمماليك البحرية:

يرى الباحث ضرورة التعريف بالمماليك البحرية وذلك للدور الهام والخطير الذي لعبه المماليك[3] في التاريخ الاسلامي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وعلمياً واجتماعياً منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله 218-227هـ/ 833-842م بينما كان أول من أحضرهم الى مصر هو أحمد بن طولون[4] ثم أكثر منهم قادة الأخشيديين والفاطميين والسلاجقة والأيوبيين للاستعانة بهم[5]. ثم استقدمهم الى مصر السلطان الأيوبي الصالح نجم

---

(1) أبو الفداء: المختصر، جـ3، ص20، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ2، ص291.

(2) عين جالوت: بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، ياقوت الحموي، م س: جـ4، ص177، معجم البلدان وابن كثير: البداية والنهاية، م7، ج13، ص233.

(3) المملوك: هو العبد الذي يشترى ويباع واقتصرت هذه التسمية على فئة الرقيق الأبيض من أسواق النخاسة البيضاء الذين اشتروهم الخلفاء والسلاطين لتكوين فرقاً عسكرية خاصة حتى اصبحوا يشكلون معظم الجيش للدول الاسلامية المتأخرة: البلاذري (أبو العباس أحمد): فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص432. وأحمد العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - دار النهضة العربية، بيروت 1969 ص11.

(4) ابن اياس: م س: جـ1، ق1، ص162.

(5) ابن تغري بردى: م س : جـ4، ص256.

الدين أيوب[1]، حتى تكمنوا من تسلم سدة الحكم لمدة ثلاثـة قرون تقريبـاً عرفت باسـم العصـر المملوكي (648- 923هـ/1250 - 1517م).

وانقسم عصرهم الى قسمين دولة المماليك البحرية "التركية" (648 - 782هـ/1250- 1382م"، ودولة المماليك البرجية "الجركسـية" والتـي تبعتهـا مصـر والشـام بعد اسقاطها لحكم الأيوبيين الذي استمر ما يقارب السبعين عاماً. (567-648هـ/ 1171-1250م).[2]

وكان عز الدين أيبك التركماني أول سلطان فـي الديـار المصريـة والشـامية وكـانت مـدة الملك المعز في السلطنة بالديار المصرية والبـلاد الشـامية سبع سـنين وثلاثـة أشـهر، منهـا مـدة انفراده بالسلطنة خمس سنين وثلاثة أشهر، وقد شاركه في السلطنة من الأيوبيين الملك الأشـرف عيسى بن الملك مسعود صاحب حماة سنة وثلاثة أشهر.[3]

---

[1] لقد جلب الصالح نجم الدين أيوب 638هـ/1240م عدداً كبيراً من الأتراك وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة خاصـة بجزيرة الروضة في نهر النيل بالقاهرة لإسكانهم فعرفوا بالمماليك الصالحية، المقريـزي: تقـي الديـن أحمـد بـن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعـة لجنـة التـأليف والنشـر، القـاهرة، ط2، 1957، جـ1، ق1 ص339-340 (سيشار له فيما بعد المقريزي: السلوك).

وانظر: أبو الفداء و(عماد الدين اسماعيل): المختصر في اخبار البشر، المطبعـة الحسـنية المصريـة، 1325هـ جـ3، ص176 (سيشار له فيما بعد: ابو الفداء: المختصر والنجوم جـ6، ص359)

والعبادي: ن م، ص94 وسماهم بالبحرية بالنسبة الى بحر النيل، المقريزي ن م، جـ1، ق2، ص340 - 341 والقلقشندي: صبح الأعشى: جـ4، ص469 حيث يرجع أصولهم الى بلاد القوقـاز وآسيا الصغـرى وشـواطيء البحر الأسود.

وظهروا على مسرح الأحداث العسكرية بتصدي فرسانهم للصليبيين في معركة المنصورة بقيادة تـوران شـاه ابن نجم الدين أيوب بمصر عام 647هـ/1249م بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب وتسلم شجرة الـدر مقـاليد الحكم.

[2] ابن كثير : البداية والنهايـة فـي التـاريخ، تحقيـق احمـد أبـو ملحـم ورفقـاه، دار الكتـب العلميـة، بـيروت ط3، 1987، م7، جـ3، ص194، وابو الفداء، ن م، جـ3، ص181، وأبو شامة، شهاب الدين المقدسـي : تراجـم رجال القرنين السادس والسـابع المعروف بـالذيل علـى الروضتيـن، تحقيـق محمـد زاهـر الحسـن الكوثـري، مراجعة عزة العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت 1974، ص185 "سيشار له "الذيل"".

[3] أبو شامة، ن م، ص295.

هذا وقد خلفه ابنه الملك المنصور نور الدين علي وكان قطز نائب السلطنة في مصر أيام الملك المنصور عام 655هـ/1257م وعمره احدى وعشرين سنة[1]. وقام على تدبير ملكه الأمير علم الدين سنجر الحلبي.[2]

وفي عهده هجم هولاكو على بغداد 656هـ/1258م وخربها وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله ثم تعدى الفرات الى حلب وحماه واحتلهما وزحف على البلاد الشامية، يريد التوجه لمصر، فجمع قطز نائب السلطنة بمصر القضاة ومشايخ العلم وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضي الله عنه.[3]

ثم اتفق الأمراء مع القضاة في إقامة سلطان تركي تهابه الرعية بعد اضطراب الأحوال في بلاد المسلمين، فوقع الاتفاق على سلطنة الأتابكي قطز، وخلع السلطان الملك المنصور بعد أن حكم ثلاث سنين إلا أربعة أشهر، حيث كانت أمه تدبر أحوال مملكته لأنه كان طائش العقل يلعب بالحمام مع الأولاد والغلمان، وسجن مع أمه وإخوته في ثغر دمياط وعين ركن الدين بيبرس البندقداري اتابكاً للعسكر[4] وبويع قطز بالسلطنة يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة 657هـ/1259م. وكان قطز من مماليك المعز أيبك التركماني اشتراه من سبايا التتر ورقّاه حتى أصبح أتابك العسكر بمصر. وأسمه محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد ملوك الشرق عندما وقع في سبايا التتر.[5]

ووصل جيش هولاكو إلى العريش ثم خرج المظفر قطز في شعبان 658هـ/1260م، الى الريدانية ثم الى عين جالوت في فلسطين وانتصر على التتار[6] ودخل قطز دمشق فخلع على الأمير علم الدين سنجر الحلبي وعينه نائباً للشام، واستخلص البلاد الشامية من أيدي أولاد بني

---

(1) أبو شامة، ن م، ص296.

(2) أبو شامة، ن م، ص297.

(3) أبو شامة، ن م، ص301.

(4) أبو شامة، ن م، ص302.

(5) أبو شامة، ن م، ص303.

(6) أبو شامة، ن م، ص306.

أيوب، وقرر العودة الى مصر، هذا وقد اتفق جماعة من الأمراء على قتله بقيادة بيبرس البندقداري الذي قتله وجلس على عرش السلطنة ودفن بالقرين قرب الصالحية بدمشق.

كما واستمرت قوتهم الضاربة للدفاع عن العالم الاسلامي بجهود أربعة وعشرين سلطاناً منهم أربعة عشر سلطاناً من أسرة قلاوون حتى انتهت عام 784هـ/1382م. فكانت الدولة التي ابتدأت بإمرأة وانتهت بصبي[1].

وللحق نقول بأنهم لعبوا دوراً بارزاً في ميادين الغزو والجهاد ضد المغول والصليبيين[2]، حيث انهوا الاحتلال الصليبي لبلاد الشام بعد جهاد طويل، ولكن آثار هذه الحروب بقيت في أعماق النفوس في الشرق والغرب حيث ظهرت مرة أخرى بشكل الاستعمار الحديث في عصرنا الحالي.

ومن الجدير بالذكر أن ننوه بالنسبة، لتسمية هذه الدولة التركية بدولة المماليك البحرية، حيث نرى بأن هذه التسمية لا تتفق مع الحقائق التاريخية، بل هي تسمية اصطلح عليها المؤرخون الحديثون من باب التعميم، وذلك لأن السلطان قطز لم يكن من المماليك البحرية بل كان مملوكاً للسلطان المعز أيبك التركماني ولم يكن من مماليك الصالح نجم الدين أيوب[3].

أما بالنسبة للدول التي عاصرت الحروب الصليبية، فنرى أنها قامت على أساس فريضة الجهاد، وعندما تخلت عن هذه الفريضة أو تقاعست فقدت مبرر وجودها الشرعي وأدى ذلك لسقوطها لتحل محلها دولة أخرى تقيم فريضة الجهاد.

فالدولة السلجوقية اكتسبت شرعتها بجهاد البيزنطيين، وعندما عجزوا عن صد الحملة الصليبية الأولى سقطت وحلت محلها الدولة الزنكية التي قامت بفريضة الجهاد بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وحين عجزت عن إقامة فريضة الجهاد بعد موت نور الدين

---

(1) المقريزي: الخطط، جـ2، ص241.

(2) استطاع قلاوون منذ عام 685هـ/1287م الاستيلاء على قلعة المرقب الحصينة واستولى على طرابلس 1291/689م وباقي ممتلكات الصليبيين في انطاكية، وفي عام 691هـ/1293م سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين في فلسطين بيد ابنه الأشرف خليل، حيث غادروا بعدها المدن الساحلية، وارتحل الفرسان والتجار الى قبرص مؤذناً بانتهاء سلطنة الفرنجة التي استمرت ما يعادل قرنين من الزمان. انظر: مولر: القلاع ص31. فانتهت هذه الحروب في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي (490-691هـ) (1096-1293م).

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ص391، والمقريزي: السلوك، جـ1، ص437.

محمود حلت محلها الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي أفنى حياته في جهاد الصليبيين وحرر القدس، وبعد وفاته بدأ حلفاؤه يتقاعسون عن آداء فريضة الجهاد فأخفقوا في الوقوف أمام الصليبيين لذا فقدت الدولة مبرر وجودها الشرعي وسقطت بأيدي مماليكها "دولة المماليك البحرية" الذين اكتسبوا الشرعية لدولتهم من جهادهم وهزيمتهم للمغول في عين جالوت واقتلاع آخر الجذور الصليبية من بلاد الشام فدرأوا الأخطار عن بلاد المسلمين.

كما لوحظ معاناة بلاد الشام من التمزق السياسي والحروب الأهلية نتيجة عدم الوعي للقوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى لعدم إدراكهم بمدى وأبعاد الخطر المغولي، ولا سيما حين أخذ المغول منذ وقت مبكر في الإغارة على العراق والجزيرة لمراقبة القوى الاسلامية في هذه المناطق ومعرفة امكانياتها وقدراتها على الصمود تمهيداً للغزوة الكبرى بقيادة هولاكو.

كما لم يدرك حكام المسلمين في بلاد الشرق الأدنى مغزى سياسة المغول التي قامت على الإنفراد بكل دولة اسلامية على حدة، حتى يسهل القضاء عليهم جميعاً مثل الخوارزمية والسلاجقة والأيوبيين، حيث دأب الخوارزميون على مشاركة المغول في نهب وتدمير كل المناطق التي يمرون بها دون أن يؤثر إسلامهم في سلوكهم، فكانت بلاد الشام خراباً على أيدي الخوارزمية قبيل الغزوة المغولي بينما تحالفوا مع الأيوبيين ضد الصليبيين مما يدل حرصهم على مصالحهم الخاصة كما أخضع المغول دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة 641هـ/1243م فطوقوا بذلك العراق والجزيرة وبلاد الشام من الشمال والشرق الأمر الذي سهل مهمة هولاكو فيما بعد. هذا بالإضافة إلى عدم وعي الأيوبيين بخطر المغول وليس أدل على ذلك من المواقف المتناقضة للناصر يوسف صاحب الشام الذي كان يتصل بهم لمساعدته.

وبالنسبة للوضع الإداري والوزاري في العصر العباسي الأخير فكان مضطرباً تبعاً للإضطراب السياسي العام في الدولة، فالخلافة ضعيفة، وحياة الناس فوضى وأصحاب المطامع والأغراض يعملون في الخفاء على زعزعة أركان الدولة وتجزئتها وأصحاب الدواوين والقادة العسكريين والوزراء يتنازعون الأمر فيما بينهم حتى أدى ذلك الى إنزواء الخلفاء العباسيين في قصورهم يحاولون استعادة مكانتهم الدينية والاجتماعية فقط بانصرافهم الى إقامة الشعائر

الدينية، فكانت الخلافة العباسية، في هذا العهد رئاسة دينيــة تشريعية فقط واستمرت علـى ذلـك النهج حتى قضى عليها هولاكو المغولي بقتل آخرهم المستعصم بالله 656هـ/1258م.

وننوه هنا بأن ما حدث للخلافة والمسلمين من ويلات ونكبات كان سُخطاً من اللـه كدليـل على غضبه لابتعادهم عن أوامر الله ونواهيه وبقي العالم الإسلامي بـدون خليفـة إلـى أن قيّض الله لهم عام 658هـ/1260م الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر باحياء الخلافـة العباسـية باستقدامه الأمام أحمد بن الامام الظاهر بالله العباسي الذي نجـا مـن مذابـح المغـول وبايعـه هـو والأمراء والعلماء في مصر وتلقب بالمستنصر باللــه، واسـتمرت الخلافـة العباسـية الاسـمية فـي مصر طيلة عهد المماليك حتى قضى عليها العثمانيون بقيادة سليم الأول العثماني.

ثانياً : عروبة المنطقه وأهميتها الحضارية

مقدمة :

لقد برع العرب في باب الأنساب، فاتبعوها من جدٍّ الى جد، حتى وصلوا بها الى بعد سحيق من تاريخ الانسانية. فقد فاخر النعمان بن المنذر ملك الحيرة في العراق كسرى أنو شروان ملك الفرس بقوله عن قومه العرب بأنهم حفّاظ أنساب[1].

فهذه ميزة خصّ الله بها الأمة العربية " كنتم خير أمة اخرجت للناس"[2] حتى لا تذيب أصولها الشعوبية والاستعمار الحديث الذي حرص على طمس الهوية العربية وعمل على منع قيام وحدة عربية، بل خلّف وراءه عقداً نفسية في نفوس العرب من حيث "احتقار النفس"، أي "الكفر بالذات " والإستجداء للغير " ليعمل على ذوبان الشخصية العربية في الشخصية الاوربية ، وكبت العقل العربي من الإنطلاق. علماً بان تاريخنا الحضاري المجيد يبرهن على ذكاء العقل العربي الخلّاق المبدع[3] فعلينا كعرب أن نؤمن بشخصيتنا العربية ونعمل دائبين على استعادة مجدنا الخالد واسترداد تاريخنا المندثر. هذا بالاضافة لإحساس ملايين العرب بالإحباط والأسف والحسرة لماحل بأمتنا العربية من ضعف وتخاذل وهزائم أمام الصهيونية وليدة الاستعمار الحديث، ومنذ سنين طويله مرت من عمر أمتنا العربية والاسلامية بين جد وهزل، ألف المستشرقون والصهاينه ومقلدون من المؤرخين المحدثين والكتاب العرب[4] مئات الكتب والتي

---

(1) سمير عبد الرزاق القطب، أنساب العرب، منشورات دار البيان، بيروت،ص7 ذكر قول النعمان بن المنذر في مفاخرة أمام كسرى:"وأما أنسابها واحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت أباءها وأصولها، وكثيراً من أولها، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ولا يعرفه، وليس لأحد من العرب إلا يسمي آباء وأباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوابه أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه".

(2) سورة آل عمران، أيه 110.

(3) فالحضارة الاوربية قامت على الحضارة الاسلامية العربية في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي والاندلس في العصور الوسطى، بل نجد الآن في مكتباتها ومتاحفها ماسرقته من تراثنا فنسبته الى نفسها زوراً وبهتاناً، وها هي اليوم تبيعنا أفكار أجدادنا بأغلى الأسعار، فهذه حقيقة ينبغي لها ان تبقى راسخة في أذهان أجيالنا العربية حتى الأزل.

(4) د. احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص19
وبريستيد: العصور القديمة، الترجمة العربية بيروت، 1926، ص 15
وكرايمر: الاساطير السوريه، الترجمة العربية، ص42-44 حيث ذكر تأثير الاداب السوريه على الاداب التورايته
وجوستاف لوبون : تاريخ الحضارات الأولى ص146. ولفنجستون : تاريخ اللغات السامية ص78.

سببت لنا هزيمة فكرية ألحقت بقضايا أمتنا المصيرية أفدح الأضرار بإتاحتها الفرصة الذهبية للاستعمار والصهيونيه أن يكسبا الجولة الأولى في فلسطين حتى أن اسرائيل قد استعانت على اغتصاب فلسطين بتزييف الحقائق أكثر مما عنينا نحن بايضاحها أمام العالم. حيث كتبت الصهيونية مؤلفات أسطورية مزيفة فرضتها على العالم لطمس الحقائق التي تقلب تاريخ اليهود رأساً على عقب ويصبح بحاجة الى إعادة تدوينه من جديد على ضوء الجديد من المكتشفات الأثرية والابحاث العلمية التاريخية[1] والحقائق التي تنبع من القرآن الكريم الشاهد الأمثل على تزييفهم للتوراة والتاريخ الانساني. وقرآننا الكريم لا يعترف إلابالتوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى " وكتبنا له الألواح من كل شيئ موعظة وتفصيلاً لكل شيء"[2] ولكن اليهود تخلصوا من هذه التوراة وكتبوا غيرها بما يتلاءم مع مخططاتهم لاستعمار فلسطين وشرقي الاردن الى النيل والفرات[3]. كما لعنهم الله بادعائهم بأنهم شعب الله المختار[4] وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تبرهن على كذبهم وتزويرهم وتضليلهم وادعائهم بأن التوراة الحالية المزيفة هي من عند الههم الشرير -يهوه- الذي يأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف[5] ثم أضافوا لهذه التوراة المزيفه ما اقتبسوه من حضارة الكنعانيين والبابليين أيام اسرهم على يدي بنوخذ نصر الكلداني، وحضارات الامم الاخرى، في وادي النيل وبلاد الرافدين بوجه عام.[6]

ولقد قصدت من هذه المقدمة اثبات عروبة المنطقة موضوع البحث (فلسطين وشرقي الاردن) وفضح زيف الصهيونيه سليلة تلك الجماعات المشاكسة وغير المرغوب فيها والتي

---

(1) وول ديورات، قصة الحضارة، الترجمة العربية جـ2 ص367 حيث قال لا يمكن اعتبار اسفار التوراة ومدونات التلمود مرجعاً أصيلاً. ص368-370.

(2) سورة الأعراف، آية 145.

(3) سورة النساء أيه 46 قال تعالى"من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه" وسورة البقره آيه 79 قال تعالى:"فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروابه ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون".

(4) سورة المائدة : آيه 13 قال تعالى:" فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيه يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به".

(5) سورة البقرة، آية 75. "وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون".

(6) أنظر د.محمود الشريف : " اليهود في القرآن الكريم " ص 29-35.

خرجت من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد والتي ادعت فيما بعد ببني اسرائيل دونما أيّ حق أوصلة تربطها باسرائيل......

فالمعروف تاريخياً أنّ سكان فلسطين الاصليين كانوا عرباً ساميين هاجروا من شبه الجزيرة العربيه حوالي سنة 2500 ق.م أي أكثر من ألفي عام قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الأحداث، حيث اقتبس الموسويون حضارة الكنعانين وثقافتهم فيما بعد.[1] ففي الميدان الحضاري الذي هو موضع البحث وَضُحَ لنا بأنهم لم يكن لهم مخلفات حضارية ترفع من شأن الإنسانيه من علوم وصناعة وفنون بل كان مجمل تاريخهم الوحشيه في القتل والاسر للبشرية، وارتكابهم المنكرات كالمغول، فلم يتجاوزوا مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ،[2] حيث أباحوا لأنفسهم ظُلماً وعدوانا اخراج العرب من فلسطين ديارهم الأصلية منذ القدم عام 1948م، هؤلاء العرب الذين وصفهم الله بقوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس"[3] ولكن اليهود للحق كارهون[4] بقولهم أنهم من أعقاب بنى اسرائيل الأوائل بينما يشهد التاريخ بانهم من شذاذ الأفاق الذي جاؤوا لفلسطين من خمس قارات وما يقارب مئه ودولتين بعد صدور وعد بلفور المشؤوم في 2-11-1917م. " قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين"[5]. فالحجة لاتقرع الإبالحجة. وهكذا افتضح أمرهم في العصور الحديثة بعد صدور " بروتوكولات حكماء صهيون " التى تعتبر بحق أسوأ نموذج للسلوك الانساني في التاريخ البشري لما يدعون اليه من اقتراف الموبقات وارتكاب الفاحشه والفتنة ليستقيم لهم الأمر وحدهم بهدف استعمار العالم كله سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعسكرياً وبوادر هذا واضح للعيان اليوم من تحكمهم في السياسة العالمية والاقتصاد العالمي والصحافة العالمية لذا فجهادنا لتحرير مقدساتنا يهدف ايضاً لتحرير الانسانية من هذا الأخطبوط السرطاني الشيطاني. فعلى الأجيال العربية الفتية الصاعدة أن تنطلق بعزم وإصرار وايمان للبحث في تاريخها وآدابها لتجد ركائز أصيلة لبناء نهضة

---

(1) د.احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص19 ونتيجة اكتشافاته التاريخيه التي استمرت خلال عام في العراق وأخذبها العلماء بالاجماع تقريباً .

(2) أنظر غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعتير وفيليب حتى.

(3) سورة آل عمران، آية 110.

(4) سورة المومنؤن، آية 7.

(5) سورة البقرة، آية 111.

حضارية انسانيه شاملة ومستقبل مشرق ليصبح ذي وزنٍ بالغ في الميزان الدولي وذي قيمة ذاتيه في تاريخ الحضارة. وقد شهد تاريخنا المجيد قادة مخلصين جمعوا الأمة على الجهاد ووحدوا صفوف الأمة العربية لمواجهة الغزوات الصليبية والتتارية خاصة في بلاد الشام شمالها وجنوبها. لذا نرى ضرورة الإشارة الى عروبة المنطقة موضوع البحث عبر التاريخ البشري قديماً وحديثاً لمعرفة صلات العرب القويه بها.

القبائل العربية في جنوب بلاد الشام

لقد اتفق النسابون العرب[(1)] على إرجاع العرب الى جدهم سام[(2)] في شبه الجزيرة العربية وقسموهم الى ثلاثة أقسام هي:

أولاً : العرب البائده: وهم الذين بادوا، ولم يصلنا من أخبارهم إلاماورد في القصص القرآني الكريم والأحاديث الشريفة وبعض كتب الأدب القديمة. وكان من أشهر قبائلهم الكنعانيون وطسم وجديس وعاد وثمود وعمليق وعبد نجم وأميم وعبيل وجرهم .... وغيرها[(3)] وسنشير الى بعض القبائل التي لها علاقة مع جنوب بلاد الشام حيث نزلت هذه القبائل فلسطين في عهدها الكنعاني الممتد من عام 2500-1000 ق.م.[(4)]-

---

(1) الانساب: فن عربي أصيل منذ الجاهلية حيث فاخروا به في أسواقهم التجارية (عكاظ، ومجنة، وذي المجاز). حيث كانوا يفاخرون بانسابهم، وكان لعلماء الأنساب منزلة رفيعة في المجتمع العربي قبل الاسلام ويعتبرون من أهل الرأي، وكان ابو بكر الصديق " نسابة سمير عبد الرزاق القطب: م.س ص9 وظهرت كتب الانساب مثل " جمهرة النسب: لهشام ابن السائب الكلبي المتوفي عام 206هـ و " نسب قريش لمؤلفه: مصعب بن عبد الله المتوفى عام 236هـ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم المتوفى عام 456هـ/1060م.

(2) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ1، دار المعارف بمصر، 1960، ص 209 وابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ1، بيروت، 1957-1958 ص 42: ذكرا حديثاً شريفاً نصه: " سام أبو العرب ".

(3) الطبري: ن م، جـ1 ص 402 ذكر : ((....... معاذ وثمود والعماليق وأميم وجديس وطسم وهم العرب .... لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي)).

(4) د. مصطفى دار الدباغ: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1399هـ/1979م. ص11 فقد نزلت جماعة من جديس وطسم بلاد مدين: التي تجاور أرض معان الأردنية (القلقشندي) نهاية الأرب، ص 19. وغور البلاونة: بغور الاردن المجاور لغوره ابي عبيدة ومزارة، والوهادنه في محافظة اربد اليوم، والغور وكورة جبل جرش قرب الغور: انظر كرد علي خطط الشام، دمشق 1925 - 1928، جـ1 ص 65. ومصطفى الدباغ، ن م، جـ1، ق1ص712 هذا ومن سلائل طسم في شرقي الاردن: المطيريين في البلقاء، الذين نزح منهم فرع الى الفالوجة في غزة د.مصطفى الدباغ: ن م، جـ1ق2 ص225.

هذا وقد ذكر القرآن الكريم عاداً ونبيهم هود في شرقي حضرموت بالاحقاف والشحر[1]، ويلاحظ علاقة هود ببلاد الشام من وجود بقاع تحمل اسمه كقرية النبي هود من أعمال اربد – جرش كما تذكر الروايات بانه مدفون فيها.[2] وكان هوداً أول ملك عربي طال عمره وكثر ولده، واستولى ولده شداد على بلاد الشام[3] والعراق والهند. كما هاجر النبي صالح ومن آمن معه من قوم ثمود العربيه جنوبي العقبة من مدائن صالح إلى فلسطين[4] في الرمله[5] وبقي فيها حتى وفاته[6] ولسيدنا صالح مقامات كثيره في فلسطين في غزة والخليل وعكا[7]، كما توجد في فلسطين قرية النبي صالح من أعمال رام الله نسبة إلى هذا النبي العربي الذي نزلها. كما كانت منازل ثمود في حسمي جنوب الاردن،[8] وذهب البعض إلى ان قبيلة الحويطات جنوبي الاردن هي من بقايا ثمود ومدين[9] وتقطن ما بين تيماء والكرك، كما أن الجرامقه في جبال صفد بفلسطين هم من ولد جاثر ولد ثمود[10] أما العمالقه فهم والكنعانيون شعب واحد،[11] سكن جدهم عمليق في جوار مكة المكرمة ثم انتشرت قبيلته في الجزيرة العربيه والشام ومصر

---

(1) سورة الاعراف، آية 65. وسورة هود، آية 50. وسورة الاحقاف، آية 21. قال تعالى : "واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف...".

(2) ناصر خسرو، سفرنامة ص 51 يذكر بانه زار قبر هود في قرية (اعبلين) من أعمال حيفا وبحضيرته شجرة خروب.

(3) اليعقوبي: أحمد بن ابي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1960، جـ2، ص13 وابن خلدون: عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1966-1968 جـ2، ص 35 وأن المقصود " بارم ذات العماد " هي إرم أو " بئر ارم " شرقي العقبة في الاردن. (الدباغ، م س جـ1، ص 18. بينما يقول النويري: " ان اليهود لما دخلوا أريحا بقيادة " يوشع بن نون " في القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان بها بقية من عاد: النويري: نهاية الارب جـ13 ، ص265.

(4) ابن الاثير، الكامل، (بيروت 1965،1966)، جـ1، ص93.

(5) المسعودي : مروج الذهب، بيروت 1966م، جـ2،ص17.

(6) النويري: نهاية الارب في فنون الأدب، 21 جزء، القاهرة 1923 – 1976، ج13، ص85. بينما يزعم البعض بان هوداً وصالح توفيا في مكة، الدباغ، ن م، ص21.

(7) انظر د.مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين جـ1 ق2 ص211، جـ5 ق2 ص 360-365. وياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت 1955-1957 هـ ص 320.

(8) الدباغ ن. م ، ص 23. وعلي جواد : تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 1950، 1972، جـ4، ص167.

(9) الدباغ، جزيرة العرب، جـ 1، ص78، 131،132.

(10) ابن خلدون، م س، بيروت، 1966، جـ2، ض14.

(11) الطبري،م س، جـ1، ص20: " وسلائل عمليق نزلت جنوب بلاد الشام في جهات الخليل وعرفوا بجبابرة الشام لكبر أجسامهم. يقول د.مصطفى الدباغ : ن م، جـ5، ص 298. " ان العمالقة هم الذين بنوا بيت جبرين " من أعمال الخليل ".

والعراق.[1] كما أن العمالقه الكنعانيين كانوا أول شعب عربي حارب اليهود لصد غزواتهم على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبمساعدة جيرانهم المؤابيين[2] والمدينيين[3] الذين سكنوا مرج ابن عامر في فلسطين وأذلوا اليهود هناك[4]. ثم عادوا الى جنوب فلسطين.[5] وقد بعث الله النبي شعيب الى قبيلة مدين[6] وتوجد اليوم مواقع ومزارات في فلسطين نسبة للنبي شعيب العربي الفلسطيني، في طبريا[7] وحطّين[8]، ومقام النبي شعيب جنوب مدينة السلط في الاردن. ومن القبائل العربية البائدة الذين نزلوا فلسطين في عصرها الكنعاني العربي الأموريون[9]، والمعنيون[10] والأدوميون والمؤابيون والعمونيون[11] والذين تصدوا لليهود عندما جاءوا لغزو فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. هذا وقد اختفى اسم الأدوميين وأبناء عمومتعم من العرب البائدة في بوتقة الكنعانيين العرب في فلسطين ونرجّح أنّ فلاحي فلسطين اليوم هم من ذراري الكنعانين ومن امتزج بهم من القبائل العربيه الأخرى رغم موجات الغزوات والفتوحات التي مرت عليهم.

---

(1) الطبري : ن م، ن ص.

(2) ابن قتيبة :عبد الله الدينوري، : عيون الاخبار، القاهرة جـ4 ص43.(بدون تاريخ)

(3) المدينيين : عرب نسبة الى مدين بن النبي ابراهيم من زوجته " قطورا بنت يقطين " الكنعانية (الدباغ : القبائل العربية ص 27 وقد أخرجت إحدى قوافلهم في القرن السابع عشر قبل الميلاد يوسف بن يعقوب من البئر التى القاه بها اخوته. " النويري: نهاية الارب، جـ13/ص 168.

(4) الدباغ: بلادنا فلسطين، جـ1، ق1، ص408.

(5) المقريزي : الخطط جـ1 ص 331.

(6) الطبري: م س، جـ 1، ص 309. وابن الأثير: الكامل، جـ1، ص157، سورة هود آية 94،95.

(7) وفيها مسجد الانبياء فيه قبر ينسب الى شعيب وبنته زوجة موسى، الدباغ: القبائل العربيه ص31.

(8) الهروي، علي، كتاب الإرشادات على معرفة الزيارات، دمشق 1953م ص20.

(9) الأموريون: انشأوا مدنهم في " تل الحسي " على مسافة 18 كم جنوب غربي بيت جبرين في فلسطين و 26 كم للشمال الغربي من غزه " الدباغ " القبائل العربية، ص32 ط2 1986. وفي " تل النجيلة" الذي يبعد 28كم شمال شرقي غزة وفي شعليم: قرية سلفيت جنوب شرقي اللد. الدباغ : ن م، ص33.

(10) المعنيون: دولتهم في اليمن ما بين 300 -630 ق.م وصلوا بتجارتهم الى شواطئ البحر الابيض المتوسط، فكانت مدينة معان الاردنيه مركزاً لسلعهم وتجارتهم في فلسطين وقد غزا جماعة منهم جنوبي فلسطين وكانوا دولة حتى عهد الاسكندار الكبير انظر: الدباغ: بلادنا فلسطين.جـ1 ق1، ص403-406، 409.

(11) في حوالى عام 1500 ق.م نزلت القبائل العربية المؤابية والأدومية والعمونية جنوب شرق الشام بجانب الكنعانيين في فلسطين ولبنان فقد نزلت القبائل الأدومية ما بين " العقبة ".وبين نهر الحسا الذي يصب في البحر الميت وامتد نفوذهم الى الخليل وبيت جبرين وكان منهم النبي أيوب الذي ذكر في القرآن الكريم أربع مرات " سورة النساء آية 163 وسورة الانعام آية 84 وسورة الأنبياء،83، وسورة ص 41. وهو النبى الذي عرف بصبره وانظر الدباغ: بلادنا فلسطين جـ1 ق1، ص498-499.

ثانياً : العرب العاربة: وهم اليمانيون من نسل قحطان بن عامر بن سام بن نوح ويرى بعض المؤرخين أنه عاش في نحو القرن العشرين قبل الميلاد[1]. هذا وللقحطانين صلات وثيقة بفلسطين منذ ايام الفتوحات الاسلامية التي كان يغلب على جيوشها القحطانيون والباقي من العدنانيين ثم زاد عددهم في بلاد الشام بالهجرة والتوالد. لأن الشام كانت ملجأ العرب منذ القدم، فقد انتشرت قبيلة قضاعة الحميرية في زمن تيطس الروماني (79-81م) في المناطق الواقعة بين جبل الشيخ وجبال فلسطين والبلقاء والغور والعقبة وجبال الكرك[2] وفيها كبار الصحابة أمثال : دحية بن خليفة بن عامر الكلبي الذي بعثه الرسول الكريم في السنة السادسة للهجرة الى قيصر الروم يدعوه للاسلام، وشهد اليرموك وسكن فلسطين وتوفى في قرية الدحي[3] من أعمال الناصرة في خلافة معاويه[4] كما نُسِبَ الى الجد عامر مرج بن عامر في فلسطين وكانت الرئاسة لبني بحدل الكلبي زمن الأمويين حيث ساعدوا مروان بن الحكم في معركة مرج راهط عام 684م، كما تزوج منهم معاوية ميسون بنت بحدل الكلبي وهي أم ولده يزيد[5] ومن العشائر الفلسطينية التي تنسب اليوم الى بني كلب عشيرة السراحين في بئرالسبع والهديبات في جبل الخليل والفحيلي في قضاء طبرية[6] أما بالنسبة للعشائر الاردنية التي تنسب الى بنى كلب في الوقت الحاضر

---

(1) الدباغ: القبائل العربية جـ39، ط2. 1988 بيروت، ص43. ومن أمهات قبائل قحطان: حمير وكهلان.

(2) الدباغ : ن.م ص43-44 ومن بطون قضاعة في فلسطين بنو كلب، وجهينه، وقدامة، وبنو بهراء وبنو عذرة. وانظر القلقشندي: م س، جـ1 ص316 ذكر بني كلب في دومة الجندل وتبوك واطراف الشام في الجاهلية، ثم نزلت غور الاردن وجنوبي عكا والساحل في أوائل الأموي. وانظر: ولها وزن : يوليوس: الترجمة العربية الدولة العربية سقوطها دمشق، 1956، ص 143، يذكر ان عاصمة بني كلب تدمر، وكانت تنتشر في دومة الجندل وتبوك ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون جـ2 ص521 وأنظر ابن حجر: احمد بن علي: الاصابة في تمييز الصحابة، القاهرة 1328هـ، جـ1 ص563 وابن عساكر تهذيب تاريخ ابن عساكر: دمشق، 1332هـ جـ2،ط39 حيث ينسبون الى بنى كلب حارثة بن شرحبيل الكلبي " أبو زيد بن حارثه مولى رسول الله وجد اسامة بن زيد الذي سكن الرملة في فلسطين ومات فيها سنة 5هـ، ابن الاثير : م س، جـ 2، ص311.

(3) الدباغ: بلادنا فلسطين : جـ7 ق2، ص21.

(4) ابن حجر: الاصابة، جـ1، ص 473.

(5) الدباغ: القبائل العربية، ط2، ص84 ط2.

(6) ن م. ص 49.

- العوران : في محافظة الطفيلة[1]

- والرواشدة: في قرية " عي " بالكرك وفي قرية قميم و " الكتة " في لواء عجلون[2] وكان من فروع قبيلة قضاعة أيضاً قبيلة بلي والنسبة اليها بلويّ التي سكنت في جبال الشراة ومعان وأيلة[3]، ومن عشائرها اليوم في جنوب فلسطين " عرب البلاونة " في قضاء بئرالسبع ومنهم ابو سليل وعشيرة الظلام " عرب المريد في صفد"، "عرب النقر في حيفا"[4].

أما في شرقي الاردن فمنهم بنو عطا في وادي موسى والسلايطة والشخاتره والشنيكات[5] والشرايرة في اربد وضواحيها[6] ومن قبائل قضاعة أيضاً في جنوب بلاد الشام قبيلة جهينة، التي كانت تسكن الجولان وحوران والغور الفلسطيني " غرب نهر الاردن"[7] وبعد الفتوحات الاسلامية انتشرت جهينة في مختلف انحاء الشام ومصر ومن بطون هذه القبيلة " الجرادات " في فلسطين وشرقي الاردن اليوم في " سال " و" بشرى " ومن فروعها " الجبور " إحدى بطون الكعابنه في شرقي الاردن[8] هذا بالاضافة الى قبيلة بنى جرم من بطون قضاعة التي سكنت ما بين غزه وجبال الشراه في الكرك[9] ومن سلالة جرهم في شمال الاردن عشيرة العزام في قم وصيدور وججين وكفرعان. ومن بطون قضاعة في فلسطين "بنو قدامة " في بلاد جمّاعين من أعمال نابلس الذين نزحوا أيام الغزو الصليبي عام 1153هـ الى دمشق في حي الصالحية[10] وأما بنو عوف في شرقي الاردن فكانوا في " جبل عوف " بالقرب من عجلون ودخلوا في طاعة

---

(1) بيك، فريدريك : تاريخ شرق الاردن وقبائلها، القدس، 1934 ص 343 وهم من الشرارات من بني كلب من القحطانيه.

(2) فردريك بيك، م س، ص 355، وقد سمى العرب سهل البقاع اللبناني قديماً "بقاع كلب" نسبة لهذه القبيلة ثم بقاع العزيز نسبة الى العزيز بن صلاح الدين الأيوبي عزيز مصر وسوسة، (1193 - 1198م). أنظر الدباغ : بلادنا فلسطين، جـ1، ق1، ص602.

(3) كحالة: معجم قبائل العرب: جـ1 ص105.

(4) دباغ: ن م، جـ3، ق2، ص372، وجـ1ق1ص236، وجـ6ق2،ص233.

(5) بيك، ن م، ص 250، 258.

(6) ن.م ص 275 والشرايرة أبناعم البلاونة في الغور الذي سمى باسمهم والذي يوجد فيه الأن مزار " الصحابي الجليل ابو عبيدة عامر بن الجراح " وقد زرته وصليت في مسجده. ومن عرب البلاونة ايضاً: الزفنة في اليادودة وقويسمة وخربية السوق في محافظة عمان. بيك : ن م، ص 257.

(7) الدباغ: القبائل العربية جـ2 ص55.

(8) ن.م .ص57.جـ2 وبيك: ن م، ص22.

(9) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر " تاريخ ابن خلدون، جـ 2 ص517،ص535 يقول: تقع جبال الشراه شمال محافظة معان وتمتد من الشوبك الى رأس النقب وعلى بعد 38كم من مدينة معان، وفي جنوبها تبدأ جبال حسمي.

(10) القلقشندي: م س، ص 397، والمقريزي: البيان والاعراب عمن حل بأرض مصر من الاعراب، مصر 1334هـ، ص 397.

صلاح الدين الأيوبي بعد بناء اسامة بن منقذ أحد امراء صلاح الدين الأيوبي قلعة عجلون[1] " قلعة الربض اليوم " التي ينسب اليها " عشيرة الربضي في عجلون اليوم وقد هاجر فرع منها عام 1825م الى رام الله في فلسطين عرفوا بـ " آل العجلوني"[2] وبنوطيء من بني كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان بن سام نزلوا في اليمن والحجاز ونجد ثم انتشروا في العراق والشام بعد الفتوحات الأسلاميه، وكانوا أصحاب الرئاسة في العرب[3] ومنهم بنوا الجراح في البلقاء والرمله، وآل ربيعة من بني الجراح زمن الزنكيين ومنهم آل فضل من ربيعة زمن المماليك الذين أبلوا بلاءً حسناً في محاربه الافرنج والمغول[4] ومن آل فضل اليوم آل طوقان في نابلس الذين يتفرع منهم: آل خليفة والخواجة والبيكات ورَحّال والأغوات وعبد الرزاق. وتعرف طيء اليوم باسم قبيلة " شمّر" في نجد والحجاز وجنوبي بلاد الشام مثل عشيرة الحجايا في الكرك، والعربيات في السلط والغيالين من تابعي بني صخر[5] بالاضافة الى عشيرة الحيارات في بئرالسبع والجربان في يعبد، والعجاجرة في الغور الفلسطيني[6] أما بنو جرم فهم من بطون طيء الفلسطينة في غزة والداروم[7] وتوجد قرية الجرم في محافظة اربد في الغور. أما بنو جذيمة: فمنهم بنو سهيل في الداروم، والعبادلة في خان يونس[8] والقدره ببلاد غزه، وبنو لام جنوب حيفا الساحلية[9] وبنو سُنبس من بطون طيء الذين نزلوا جنوبي فلسطين، وتنسب اليهم اليوم " خربة سُنبس " في اقليم غزة[10] ومنهم قبيلة الحارثية[11] ومن بني سُنبس عشيرة

---

(1) القلقشندي: ن س : جـ4 ص 86.

(2) الدباغ: القبائل العربية ط2 ص 63.

(3) النويري : م س، ص 326، وابن خلدون، م س، جـ2/ص530.

(4) القلقشندي: س، ص 111.

(5) بيك: م.س، ص 22.

(6) الدباغ: القبائل العربية، ط2، ص 79.

(7) الداّروم هي الاقسام الجنوبية من بيت جبرين في العهد الروماني ومن مدنها اليوم " السموع " و " يطّة " و " دوما " و " خويليه " (1)لدباغ: ن.م. ص 80.

(8) انظر النويري: ن م، ص 298 والدباغ: بلادنا فلسطين جـ1 ق2 ص296.

(9) نزل هناك الخليفة هشام بن عبد الملك الآموى في بلدة بنى لام انظر القلقشنيدي: ن م، ص 448.

(10) الدباغ: بلادنا فلسطين جـ1 ق2 ص249.

(11) ابن خلدون: تاريخه، جـ6، ص 12 يقول عنهم " أنهم من اوفر القبائل عدداً متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لايجاوزونها الى القفار ومنهم " ابن طرباي" الذي ايد السلطان العثماني سليم الاول فاتح الشام،و واحمد طرباي بن علي الحارثي " امير اللجون (979-1057هـ/1571-1648م) انظر بلادنا فلسطين: جـ3،ق2، ص43.

الروسان شمال الأردن وأما قبيلة ثعلبة من بني طيء فقد نزلوا جنوب بلاد الشام وكانوا مجاهدين ضد الفرنج[1] كما تزعمهم عام 750 هـ/1352م " سنجر بن علي" الذي انتصر على جرم ونهب القدس والخليل واللد والرملة، ولكن المماليك اضطروه للفرار الى البادية واخرجوه من القدس بعد تطويقهم له قرب اللد[2] ومنهم في فلسطين بنو زريق وبنو درما[3]، والنفيعا[4] والعليميون[5] والمساهرة[6] في غزه والعقيليون[7] ومنهم آل الشوّا في غزه اليوم ومن احلاف ثعلبة طيء ببلاد الشام والنعيمات في بلاد سبع والخليل والبلقاء والكرك.[8] ومن قبائل كهلان :

أ-كندة التى استقرت في بلاد البلقاء بعد الفتوحات الاسلاميه ومنهم شرحبيل بن حسنة الذي فتح شمال فلسطين ومات في طاعون عمواس ودفن في الغور. ومنهم امرؤ القيس بن عابس الكندي[9] ومن فلسطيني كندة رجاء بن حيوة الكندي المولود في بيسان والمتوفي عام 112هـ/730م الذي كان اميناً على بيوت وأموال وخزائن عبد الملك بن مروان ثم مستشاراً لعمر بن عبد العزيز ومنهم عبادة بن منسي القاضي الملقب بسيّد أهل الآردن المتوفي عام 736/118 والشاعر المحدث بن المبارك الطبراني[10]

ب- ومنهم الصعوب في طولكرم والحوت في يافا وبنو الصدف في ديرغسانة من اعمال رام الله[11]

جـ- ومنهم بنو خثعم الذين نزلوا فلسطين أيام الفتح، ومنهم الصحابي تميم بن ورقاء الذي حضر فتح قيساريه الفلسطينيه عام 19هـ/640 م ومنهم التابعي: مالك بن عبد الله الخثعمي الذي

---

(1) المقريزي: البيان والاعراب ص3، والقلقشندي، ن م ص195.

(2) المقريزي: السلوك: جـ2 ق3،ص 804-807.

(3) القلقشندي: م س، ص251؛271.

(4) شقير، نعوم، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، القاهرة 1916 ص 110.

(5) القلقشندي: صبح الاعشى جـ1 ص 323.

(6) القلقشندي: نهاية الأرب ص 159.

(7) الدباغ: بلادنا فلسطين جـ1 ق2، ص 388.

(8) الدباغ: القبائل العربية، ط2، ص 93.

(9) ابن حجر: الاصابة م.س ، جـ1 ص63-64.

(10) ابن عساكر: علي بن الحسن، تهذيب تاريخ ابن عساكر، دمشق 1332هـ ، جـ4 ص361.

(11) الدباغ: القبائل العربية ص96-97.

كان قائد جيوش الصوائف زمن معاويه وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان والذي غزا بلاد الروم عام 46هـ/661م وغنم منهم واستشهد عام 55هـ/670م[1]

د- بنو زبيد من كهلان : في غزه ومنهم عرب السواعد في قضاء عكا وحيفا ومنهم الفريحات في جبل عجلون وجبع قضاء جنين[2] والديكة في شرقي الاردن[3].

هـ- ومنهم بنو الأشعر الذى ينسب لهم ابو موسى الأشعري الذي سكن مدينة الرملة وولاه عمر بن الخطاب البصرة وعينه عثمان على الكوفه وكان ما كان من امره في التحكيم[4] وقد نزل الأشعريون ايام الفتوحات الاسلامية في طبرية، عاصمة جند الاردن، وقد مدحهم الرسول الكريم[5] أما بنو جذام قبل الاسلام فقد حاربوا عبدالله بن رواحة في غزوة مؤتة عام 8هـ/629م وكانت منازلهم ما بين عمان ومعان ومدينه غزة، ومنهم روح بن زنباع[6] وزير عبدالملك بن مروان. هذا وقد انحاز الجذاميون الى معاوية في نزاعه مع علي بن أبي طالب[7]، كما بايعوا مروان بن الحكم في الجابية قرب دمشق متاثرين بخطبة روح بن زنباع[8]، فاستعمله مروان على فلسطين بعد معركة مرج راهط بعد هزيمة الضحاك بن قيس[9] والي الزبير على أهل الشام عام 65هـ/684م الذين بايعوا ابن الزبير عدا أهل الاردن وشمالي فلسطين ولكن وجاهة هذه العائلة اضمحلت بقيام الدوله العباسيه، عدا الفرع الزنباعي في مصر حيث تولى أحد احفاد روح بن زنباع (حمل اسمه روح بن زنباع)

---

(1) ابن حجر : م س جـ3 ص347.

(2) الدباغ: القبائل العربية، ص 101.

(3) بيك، م.س ص 221.

(4) انظر القلقشندي: م س، ص 168،كحالة " معجم قبائل العرب جـ1 ص31 وابن حجر: الاصابة جـ4 ص187.

(5) النويري: م س، جـ7، ص64. ذكر حديثاً شريفاً نصه: " يابنى هاشم ان زوجوا الاشعريين وتزوجوا إليهم. فانهم في الناس كصرة المسك وكالأترج الذي إن شميته ظاهراً وجدته طيباً وان اختبرت باطنه وجدته طيباً ".

(6) انظر ابن حجر م.س جـ1 ص524 الاصفهاني، الاغاني جـ9 ص 232 وابن تغري بردي، م س، القاهرة جـ1، ص205. وانظر الدينوري عيون الاخبار جـ1/ص102.

(7) الدباغ القبائل العربية ص 113.

(8) الطبري.م س. جـ5 ص536.

(9) وانظر الاندلسي أحمد بن عبدربه، العقد الفريد القاهرة، 1953،ص14 يذكر بانه أشار على عبد الملك بتعيين الحجاج بن يوسف الثقفي اميراً على الجند فثبت ملك الأمويين ومات روح في شمالي فلسطين عام 84هـ/703م في عهد عبد الملك، لمزيد من المعلومات انظر: الاصفهاني: الاغاني ص227 وما بعدها وابن عساكر، م س، جـ5/ص339.

ولاية مصر على الصلاة والخراج عام 176هـ/795م.[1] ومن فروع بني جذام في بلادنا اليوم بنو عائد: الذين كانوا يقيمون بين بلبيس في مصر الى أيلة والكرك وبنو عقبه في الكرك.[2] هذا وقد اكرم الظاهر بيبرس امراء العائد في غزة عام 661هـ/1263م وكلفهم بخدمة البريد وإحضار الخيل اللازمة له. كما كلفهم بحراسة الحجاج الى العقبه[3] وتنتسب اليهم عشائر العبابيده في بئر السبع وعائلة هيكل في يافا والعايدي من التياها. والشبول والربيع في الأردن وعرب السواحر في بيت لحم ومن جذام اليوم قبيلة بنى صخر من أقوى عشائر شرقي الاردن الى الشرق من عمان ومأدبا ولهم فروع في فلسطين مثل الكعابنة في الخليل وهم أحلاف آل فضل في الشام ويحتمل ان يكون " الدعجيون " ومنازلهم حول الكرك هم " الدعجة " المستقرون في بلاد الكرك اليوم[4] وقبلية لخم تمت بالقرابة لقبيلة جذام[5] وقد انتشروا قبل الاسلام في الشام والعراق وباديتها وفي فلسطين ومنهم المناذرة ملوك الحيرة بالعراق وقد نزلوا في أواخر القرن الثاني الميلادى جنوبي فلسطين وامتدوا غرب البحر الميت[6] وشاركوا في فتح مصر ونزلوا في الرملة وامتدوا حتى نابلس ومن تبوك الى زُغر "غور الصافي" ثم بحيرة لوط والخليل وصفورية وحوران والجولان وغيرها[7] ومن اشهر قادة المسلمين الذين ينتسبون الى اللخميين موسى بن نصير

---

(1) ابن تغري بردي : م س، جـ2 ص83 وظهر من اتباعه عائلة بني عبد الظاهر الزنباعى الذي نبغ فيها عبدا لله بن عبد الظاهر الزنباعي (620-692هـ/1122-1293) المولود في مصر في عهد الملك الكامل الأيوبي حيث كان أشهر قضاة المماليك البحرية حيث اشتهر في عهد بيبرس وقلاون وتوفي في عهد الآشرف خليل الذي طهر البلاد من فلول الفرنجة. ومنهم محمد الزنباعي المولود عام 638هـ/1233م بالقاهرة. وأول من سمي بكاتب السر في الديار المصريه فكان صاحب ديوان الانشاء فيها وخدم بيبرس وقلاون انظر الزركلي: خير الدين، الاعلام، القاهره 1954-1959 جـ4، ص232وتوفي بدمشق عام 691هــ/1293م. دائرة المعارف الاسلامية القاهرة جـ1/337-338.

(2) ابن خلدون: تاريخه جـ2 ص535.

(3) القلقشندي – م س، ص 333.

(4) بيك م.س ص 258

(5) ابن عبد ربه: م س، جـ3 ص401 وقيل سُميَ بهذا الاسم لانه لطم " لخم وجه اخيه فقام أخوه وجذم اصبع أخيه الذي سمى جذاماً ". وقيل ان القافلة اللخميه اخرجت يوسف بن يعقوب من الجب عام 1678ق.م الذي يقع قرب قرية عرابة في قضاء جنين. وقيل ان اصحاب الكهف منهم انظر عمر بن يوسف : طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، دمشق 1949، ص33.

(6) الدباغ، بلادنا فلسطين، جـ1، ق1، ص710.

(7) كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق، 1949 جـ3 ص712 وغور الصافي على شاطىء البحر الميت الجنوبي الشرقي ومنهم تميم الداري: الذي أعطاه الرسول الكريم حبرون "الخليل" بقلعتها وحرمها وبيت ابراهيم وبيت عينون الطبري،م س، جـ3 ص174.

(19-97هـ/640-715م والذي اختلف في مكان ولادته[1] والذي ولاه الوليد بن عبد الملك جيمع مقاطعات افريقيا الشماليه جيث اسلم البربر على يديه وكان له فضل فتح الاندلس لكن سليمان بن عبدالملك عزله وأهانه وعاش بقية حياته فقيرا[2] ومنهم : القاضي الفاضل (529-566 هـ/1135-1172م) اللخمي العسقلاني من أهل عسقلان والذي كان أبوه قاضي بيسان وكانوا اخوة ثلاثة نزلوا في الاسكندريه وكان القاضي الفاضل يحب الكتابة والانشاء فخدم بديوان الانشاء في الاسكندريه أيام الخليفة الفاطمي الحافظ ثم نقل إلى ديوان المكاتبات في القاهرة الذي كان يرأسه ابن الخلال. وبلغت مسودات رسائله حوالي مائة مجلد[3] تم وزر القاضي الفاضل لصلاح الدين الأيوبي ولولديه في مصر والشام من بعد[4] ومن رؤساء اللخمين المتدينين الشيخ الامام عبد العزيز بن الحسين الداري الخليلي الذي أنشأ المدرسة المجدية في مصر ودرس فيها ابنه عمر[5] وكان عبد الرحمن بن عمر اللخمي المولود في القدس عام 749هـ/1352م أحد محدثي بيت المقدس[6] ومن فروع لخم " بنو نبهان " في بئر السبع وإجزم من أعمال حيفا، والمساعيد في الغور النابلسي ودار الديك في جبل نابلس والرفيدات في نابلس والقدس وقرية الرفيد شمالي اربد وبنو سماك حول الكرك[7]، والمجالي في الكرك وهم من رهط تميم الداري. وهكذا نرى بأن أهل فلسطين كانوا ومازالوا من لخم وجذام وكثيراً ما سميت الشام بـ " أرض لخم وجذام "[8]

---

(1) انظر المقري: نفح الطيب في غص الاندلس الرطيب، بيروت جـ1 ص288 والبلاذري: احمد بن يحيى، فتوح البلدان، بيروت 1957م ص 346 والذي يقول فيه " كان نصير أبو موسى سبي أيام أبي بكر من جبل الجليل بالشام وولدله موسى بقرية كفرمري، مما جعل البعض يظن انها قرية بشري في ظاهر بيروت. وانظر ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص471 فيذكر مولده بقرية " كفرمتري) وسبي ابوه من جبل الجليل واعتقه بعض بني اميه ورجع الى الشام وولد له موسى بقرية يقال لها كفرمتري وقد تكون كفرمتري هي قرية كفرمتي في فلسطين.

(2) انظر: المقري: ن م، جـ1 ص 283، 284،287 وابن خلكان: وفيات الأعيان جـ4 ص402، وابن الأثير الكامل جـ5 ص22.

(3) انظر: ابن خلكان: ن م، جـ2، ص333 ، 334، 335.

(4) ابن خلكان ن م، جـ2 ص337.

(5) الذهبي، محمد بن احمد: العبر في اخبار من غبر، الكويت، 1961م، ص329.

(6) الدباغ: القبائل العربية جـ1 ص147.

(7) القلقشندي: صبح الأعشى جـ334/1.

(8) الدباغ: م س،ص 150 ذكر بان تحية ملوك لخم وجذام " أبيت اللعن " ومعناها: " أبيت أن تأتي من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه " وقالوا : أول من حي بتحية الملك، " أبيت اللعن وانعم صباحاً "يعرب بن قحطان".

وأما الغساسنة " بنو جفنة " فكانوا من الأزد من كهلان في اليمن، وهاجروا في اواخر القرن الثالث الميلادي الى تدمر وحوران واليرموك واعتنقوا النصرانية تحت الحماية البيزنطية. واليهم ينسب " بناء القسطل " و "الزرقاء " و " أذرح " و " الجرباء " و " معان القديمة " وغيرها في شرقي الاردن ومن شيوخهم جبلة بن الأيهم[1] وقد ارتبط اسمهم في قرية " دير غسانة " من أعمال رام الله ومنهم الحدادين في فلسطين وخاصة ببيت المقدس.وأما الفرع الذي نزل بشرقي الاردن فقد تفرق في قرى شمالي الاردن مثل " عنبة " و " سموع " و " خنزيرة " الاشرفية اليوم ودير ابي سعيد وفي الصلت بالبلقاء[2] ومنهم آل سماوي في الناصرة وحيفا وعمان والفحيص[3] والعزيزات والمعايطة في ديرة الكرك، ومنهم بنو نمر في الحصن من أعمال اربد ومنهم أكثر المسيحيين العرب[4] لقد ذكر ابن اياس قول صاحب كتاب " روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر " أن أول من ملك الشام من بنى غسان بن جفنة بن عمرو بن ثعلبة فدانت له قبيله قضاعه، ثم نقل الملك في أولاده الى أن انتهى في جبله بن الأيهم الذي تنصر زمن عمر بن الخطاب ويعود أصل غسان إلى قبيلة الأزد من ولد كهلان بن سبأ من اليمن الى الشام حيث نزلوا في ضيعة من أعمال الشام تسمى غسان فسموا بها واطلق عليهم اسم بنو غسان[5] وكان ملكهم قبل الاسلام باربعمائة سنه ، حيث كان أول ملوكهم الحارث بن عمرو بن عامر بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، ثم تداول ملك الشام منهم سبعة وثلاثون ملكاً ومدة ملكهم ستماية وست عشرة سنة الى أن كان آخرهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم وارتد الى النصرانيه في زمن عمر بن الخطاب[6] الذي هدده بضرب عنقه ان ارتد فهرب الى القسطنطينة عند ملكها هرقل مع هداياه الجزيلة وأقام عنده الى ان مات بها. وكثر نسله في القسطنطنية ، وهم العرب المتنصرة، وسكنوا بلدة كسا بالقرب من ارض الروم فاكتسبوا هذه العجمة في

---

(1) للمزيد من المعلومات: انظر: كحالة/ معجم قبائل العرب جـ3، ص882 والقلقشندي: م س، جـ1 131، والنويري، م س، ص 388.
(2) بيك: م.س، ص 246.
(3) بيك، ن.م ص 247-248.
(4) حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان، بيروت 1959، جـ1، ص 444.
(5) ابن اياس محمد بن الحنفي بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ1 ق2 ص313.
(6) ن.م ن ص- ذكر قصة الرجل الذي وطيء ازاره وهو يطوف البيت العتيق وضربه له ، ورفضه حكم عمر باضاء خضمه.

ألسنتهم، وقد استدلوا على أن الجراكسه من العرب لسمرة ألوانهم ونحافة أبدانهم[1] وأما الأوس والخزرج " الأنصار " فكانا أخوان في موطنهما الاصلي اليمن ونشبت بينهما حروب داميه لمدة عشر سنوات قبل الاسلام انتصر فيها الاوس وهم اربع عشرة قبيله[2] ومن سلالتهم في فلسطين آل الصامت في منطقة الرملة والقدس[3] ومنهم آل غانم من الخزرج في بورين من أعمال نابلس نسبة الى جدهم غانم بن علي الخزرجي المولود في بورين عام 562هـ/1164م والذي ولاه صلاح الدين الأيوبي " الرباط الصلاحي " أي الخانقاه الصلاحيه للعلماء الصوفيين وفي القدس اليوم " حارة الغوانمة " بجوار الحرم الشريف. وسمي باب الحرم المؤدي الى الحارة " بباب الغوانمة"[4] ومنهم آل نسيبه في القدس[5].

ثالثاً : العرب المستعربة : الذين يرجعون بنسبهم الى النبي " اسماعيل بن ابراهيم[6] وسموا بالاسماعلين ثم بالعدنانيين نسبة الى عدنان من رجال القرن السادس قبل الميلاد، وكانت منازلهم في الحجاز وتهامة ونجد. ومكة " قريش " وقد ولد عام 1794 ق.م من امه هاجر جارية سيدنا ابراهيم في فلسطين وقد اختلف في مكان ولادته بفلسطين[7] وقد

---

(1) ابن إياس، ن.م ص314و 315 حيث ذكر ابن اياس قول قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني في تاريخه عن أصلهم: بان سبب تسمية هذه القبلية بالجراكسة بسبب جر كساء جبلة بن الأيهم، وقد أيد ذلك بن البارع ناصر الدين بن قانصوه في قصيدته.

جركس نيل الملوك وما ... وما عزهم في قيصر مكتسب
أيهم المذكور جرهم ... من الى غسان ينتسب
وأبوهم مثله ملك ... وكذا أباؤه النجب
هذه بالحق نسبتهم ... وبصدق تشهد الكتب
كان طومان باي آخرهم ... ملكا أعني الذي صلبوا

(2) عمر بن يوسف: طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، ص 9

(3) العليمي، الانس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل جـ3/ص4.

(4) الدباغ: القبائل العربية ص 161.

(5) العليمي، ن م، ص 417. ومن سلائل الأزد في فلسطين " المنارة " في مدينة طبرية، والشقران وآل جرار في جنين ونابلس.

(6) المسعودي: م س، جـ2 ص21 ذكر: " وقيل انما سمي اسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حيث هربت من سيدتنا سارة، وقيل ان الله سمع دعاء ابراهيم ".

(7) انظر: الطبري: م.س، جـ1 ص311، وعنه اخذ ابن الأثير: الكامل: جـ1 ص104 وياقوت الحموي، معجم البلدان جـ4 ص 373، ودائراة فن للبستاني، بيروت، 1876م جـ1، ص 245.وقضى سنيناً من طفولته في " رامة الخليل " على بعد كيلو مترين شمال مدينة الخليل. الدباغ، بلادنا فلسطين جـ5 ق 2 ص 163.

وردت قصته في القرآن الكريم[1] وقد تزوج اسماعيل بفتاة من قبيلة " جرهم " فولدت له اثنا عشر ولداً هم آبـاء العـرب المستعربة اليوم ومنهـم عدنـان الـذي ينتهـى اليـه نسب الرسول الكريم، وشارك اسماعيل والده في بناء الكعبة[2] ومن بطون العدنايين بنـو إيـاد الذين هاجروا من الحجاز الى العراق والبحرين وجنوب الشام وخضعوا للغساسنة حيث تنصروا كاكثر عـرب الـروم[3] وكذلك بنـو عـنزة التـي دخلـت حـوران وشـرق الاردن واصبحت سيدة بادية الشام حتى وادي الفرات واطراف العراق[4] ومن سـلالة غـزة فـي فلسطين قبيلة الترابيين في بئر السبع التي تعـود الـى بنـى عطيـه الحجازيـة التـي ينسـب اليها آل النتشة في الخليل،وعائلة الهباب في يافا. وفي شرقي الاردن أفخاد ينسبون الـى بني عطية في محافظة الكـرك كعيـال هليلـة وبعـض عشـائر الحويطـات جنـوب الكـرك وعرب السوالمة شمال يافا وهم من الرولة عشيرة النصيرات في منطقـة بنـي عبيـد فـي محافظة اربد ومنهم ايضاً عشيرة العبيدات في محافظة اربد و " الجزازية " فـي السـلط. ومن قبائل ربيعة العدنانية " آل النمر " في نابلس وينتسب " بنو هاني" في محافظة اربد الـى عشـيرة آل النمـر[5] وأمـا عشـيرة بكـر بـن وائـل العدنانيـة فقـد نزلـت بجنيـن ومـا جاورها[6] وكذلك قبيلة بنو كنانـه العدنانيـه التـي هـاجرت مـن جهـات مكـة ونزلـت فـي فلسطين بجوار عسقلان بجانب لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وغيرهـا[7] هـذا وتنسـب

---

[1] سورة ابراهيم آية 37 " ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ".

[2] سورة آل عمران آيه 96، وسورة البقرة آيه126. وهو ولده الذبيح على " منى " على يسار الذاهب لعرفات على رأي أكثريه المؤرخـين " سورة الصافات " آيات 101-107. وقد دفن سيدنا ابراهيم في مدينة الخليل. كما عاصر عدنـان بختنصـر حـوالي (605-562 ق.م) القلقشـندي: م س، ص 353.

[3] القلقشندي: م س، ص 353،424 وانظر البكري: ابي عبيد الله عبد الله، معجم ما استعجم، القاهرة 1947-1951جـ1 ص75 ومنهم قس بن ساعدة الآيادي الذي يضرب به المثل في البلاغة وتوفي عام 625/23.

[4] بيك: م س، جـ2، ص5 وما بعدها.

[5] القلقشندي: م س، ص77،432.

[6] القلقشندي: صبح الاعشى جـ338/1

[7] ابن سعد، طبقات ابن سعد جـ1 ص20 ذكر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " ان الله اصطفى من ولده ابراهيم اسماعيل واصطفى مـن ولد اسماعيل بنى كنانة واصطفى من بني كنانه قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنـى هاشـم والى بـني كنانـه ينتسـب العلمـاء المشهورون ابن البلان: علي بن عبدالله العسقلاني من القراء المشهورين والمتوفي في دمشق 636هـ/1238م "انظر: ابن الجزري: محمد بن محمـد: طبقات القراء، مصر 1932، جـ1 ص 554. والمفتي المدرس احمد بـن ارسـلان الرملـي المولـود في الرملـة عـام 773 ثـم سـلك طريـق الصوفيـة السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت،جـ1 ص 282 واحمـد بـن علـي الكنـاني العسـقلاني المعـروف بـابن حجر من أمة العلم والتاريخ (773-852هـ/1372-1444م).

الى بنى كنانه عائلة الخطيب "في بيت المقدس[1] وأما بنو مُضر فهم قبيلة عدنانية من مُضر بن نزار من بنى عدنان في الحجاز الذين كانت لهم الرئاسة بمكه[2] وهاجرت الى فلسطين بعد ظهور الاسلام في ديار نابلس، كما نقل هشام بن عبدالملك الأموي كثيراً من بطونها وافخاذها الى بلاد الشام ومصر[3] وخاصة نابلس[4] ومنها قبلية قيس عيلان التي هاجرت الى أريحا وعمان وبئر السبع وحوران[5]، وتفرع من قيس عيلان "بنو عدوان" الذين هاجروا من الحجاز[6] وسكنوا منطقة البلقاء في غور نمرين والكفرين وحسبان ومن القبائل العدنانية التي نزلت الشام جنوب بلاد بنو ذبيان في الغور الفلسطيني وبنو جشم جنوبي فلسطين[7] وبنو هلال في بئر السبع وحوران[8] ومن قبائل الحجاز في جنوب بلاد الشام قبيلة 'الحويطات' في جنوب الأردن وسيناء. وقريش العدنانية التي استقرت بعد الفتح الاسلامي في أريحا وعمان[9] هذا وقام النبي القرشي العدناني محمد صلى الله عليه وسلم بثلاث رحلات الى جنوب بلاد الشام فمر في معان والحسا، وخان الزبيب " أبنى" وعمّان، والمفرق في الاردن اليوم[10] وفي غزوة تبوك

(1) الدباغ: القبائل العربية ص 187.

(2) ابن خلدون: تاريخه، جـ2 ص 630. وانظر: القلقشندي صبح الاعشى جـ1 ص339.

(3) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الاسلامي، القاهره، جـ4 ص 68.

(4) القلقشندي: صبح الاعشى جـ339/1.

(5) الدباغ: بلادنا فلسطين جـ2، ق2 ص510.

(6) القلقشندي: م س، ص 354.

(7) وهم الذين قاوموا رجوع اليهود الى فلسطين بعد السبي البابلي على يد كورش الفارسي " 550-530 ق.م " الدباغ: بلادنا فلسطين جـ1 ق1 ص585.

(8) النويري: نهاية الارب جـ1 ص وحاربوا مع القرامطة الفاطميين، فنقلهم الوزير الفاطمي اليازوري في خلافة المستنصر بالله الفاطمي 427-487هـ/1036-1094م.

(9) الدومنيكي، الأب أ.س مرمرجي: بلدانية فلسطين العربيه، بيروت 1948، ص10، وانظر النويري نهاية الأرب جـ16 ص37 ذكر بان هاشم وعبد شمس التوأمان لأبيهم عبد مناف وأنهما كانا يخرجان للتجارة في بلاد الشام وماتا بغزه في عام واحد ومن أولاد عبد شمس أميّة جد الأمويين الذي نزل بصفوريه في منطقة الناصرة بفلسطين كما كان ابو سفيان بن حرب ينزل في بلاد الشام للتجارة في قرية يقنيس" بالقرب من حسر وادي شعيب في بلاد السلط.

(10) كانت الرحلة الاولى وعمره اثنا عشرة سنة حيث وصل بصرى من بلاد حوران التي تبعد 40كم للجنوب الشرقي من درعا محمد حسنين هيكل، حياة محمد، القاهرة 1935،ص112-113 والرحلة الثانية وعمره خمس وعشرون سنة خرج باموال خديجة برفقة ميسرة غلام خديجة محمد حسنين هيكل: ن م جـ119-120 والرحلة الثالثة: هي رحلة الاسراء والمعراج عام 621م. سورة الاسراء، آية 1. وسورة النجم من الآية 1-18 والنويري: نهاية الارب جـ16، ص283.

عام 9هـ/630م حضر " يوحنا بن رؤية " صاحب العقبه وصالح الرسول(ص) على جزية سنوية فأهدى الرسول بغلة بيضاء واهداه الرسول بردة كما اقبل عليه ممثلون عن اهل "أذرح" و "جرباء" في جنوب الاردن معلنين خضوعهم واذرح تبعد 22كم شمال غربي معان وبها كان التحكيم. ومن سلالات أو نسل الرسول الكريم في جنوب بلاد الشام عائلة الدباغ في يافا والتي تعود بنسبها الى الأدارسة من الحسنيين أولاد الحسن بن علي بن ابي طالب ومنهم " الزعبيّة " في الناصرة وقراها، ويافا وحيفا، وطوباس، والسلط وعجلون والرمثا، وعائلة زيد الكيلاني، وعشيرة الملكاوية في محافظة اربد وأبناء عمهم في حيفا والناصرة وبيت المقدس[1] وعائلة " أبو الرب " في جنين و " آل البرقاوي " في طولكرم وغيرهم ومما يجدر ذكره ان العائلتين المالكتين في الاردن والمغرب من أحفاد الحسن رضي الله عنه. أما العشائر التي تعود الى الحسين، عشائر المومنية والصمادية والقضاة، والخصاونه وسعادة في ام الفحم " بالاضافة الى عائلات ترجع نسبها الى الحسين بن علي في بيت المقدس وغزة ويافا ونابلس والسلط[2]

وأما الجعافرة: وهم بنو جعفر الطيار بن أبي طالب الذي استشهد في مؤته ومن أحفاده عائلات هاشم والحنبلي والنقيب في نابلس والنوايسة في قرية "عي" في محافظة الكرك[3] ومن بني المطلب الإمام الشافعي (محمد بن ادريس) المولود في غزة عام 150هـ/767م والحسن بن حمد النابلسي الحنبلي المتوفي عام 772هـ/1370م العالم القارئ الف معجم ذكر فيه عدة رجال وشيوخ من مصر والشام، أما العباسيون من سلالة العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم فمنهم في فلسطين " آل الغصين " في غزه والرمله، والقلازين من التياها في ديرة بئر السبع،

---

(1) الدباغ: القبائل العربية ص 217. ومن اشهر الحسينيين الفلسطينيين ظاهر العمر من عشيرة الزيادنه في الناصرة وبعض قرى الجليل وفي منطقة العارضة في محافظة اربد.

(2) الأشراف: ويطلق على سلالة السبطين الحسن والحسين ابناء فاطمة الزهراء اسم الاشراف: الدباغ: القبائل الغربية ص21 ومن خلفاء الفاطميين الحادي عشر الحافظ لدين الله ابو الميمون عبد المجيد بن محمد المولود في عسقلان بفلسطين عام 554هـ/1149م والملقب باسم الامير عبد المجيد العسقلاني وخدم في كنفة القاضي الفاضل العسقلاني في ديوان انشائه وتوفي هذا الخليفة عام 524هـ/ 1129م. الدباغ: القبائل العربية ص 221.(الدولة الفاطمية من 297-567هـ/ 909-1171م).

(3) القلقشندي: م س، ص 124 ،جـ1 ص 360.

وآل العباسي في صفد والحوائرة في جبل نابلس[1] وبالنسبة للأمويين أبناء امية بن عبد شمس بن عبد مناف، فقد سكنوا سواحل فلسطين وفي القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي كان سكان العقبة ومعان من بني أمية ومواليهم[2] ومن أمويي فلسطين يحيى بن على بن عبدالله القريشى النابلسي المالكي (584-662هـ) كان من حفاظ الحديث واصبح رئيساً للحديث بالديار المصرية، ومنهم آل طهبوب في الخليل[3] وأما العمريون فهم بطن من بني عدي بن كعب من قريش العدنانيه/ من أقارب عمر بن الخطاب ويتواجدون في القدس وبيت عور وعجلون والبلقاء[4] وعشيرة العمريين والمسادين من عشائر الكورة في منطقة اربد شمال الاردن. وللمسادين فروع في فلسطين في قرى برقين وفقوعه وعرّابه من أعمال جنين، وصفورية من أعمال الناصرة[5] وأما بنو فهر القرشيين فمنهم في فلسطين بنو الجراح والجوهري والخماش وأبي الهدى في نابلس، والجرارحة والشرمان في قرية المزار من أعمال اربد.[6] وبنو مخزوم بطن من مرة بن كعب بن لؤي من قريش، منهم خالد بن الوليد وابو جهل، ومن العائلات التي تنتسب لبني مخزوم في الأردن الشريدة في دير أبي سعيد من أعمال اربد، وأقاربهم من عائلة الخالدي في القدس وقدورة في صفد[7] كما توجد عائلة الخالدي ايضاً في جنين وحطين من أعمال طبرية وفي قرى الرملة وقيسارية من أعمال حيفا[8] وبنو عروة بطن من الزبير بن أسد بن العربي بن قصى من قريش العدنانيه وكان من أحفاد عقبة في فلسطين العالم محمد بن محمد الزبيري العزيري العزي المولود بالقدس (724-808هـ/ 1326-1406م)[9].

---

(1) الدباغ: القبائل العربية ص 223-224.

(2) الدباغ بلادنا فلسطين جـ2 ق2 ص487، 496.

(3) الدباغ: القبائل العربية ص 226.

(4) المرادي: سلك الدر في أعيان القرن الثاني عشر، بغداد، جـ4 ص238 والزركلي: الاعلام جـ7 ص 321، وانظر القلقشندي م س، ص122.

(5) الدباغ: القبائل العربية ص229.

(6) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى جـ7، ص398، لمعرفة الشخصيات العلمية.

(7) بيك .م.س، ص 322

(8) الدباغ: القبائل العربية ص 233،ص234-548هـ ومن علماء قيسارية محمد بن مضر المخزومي (478-548هـ) كان شاعراً واديباً وعالماً بالهندسة والحساب والنجوم ومنهم وزير نور الدين محمود زنكي: خالد بن محمد المتوفي عام 588هـ ومنهم زمن الظاهر بيبرس: عبدالله بن محمد الذي كان وزيراً للسعيد ابن الظاهر بيبرس وكان أديباً وشاعراً.

(9) الدباغ: القبائل العربية ص 235.

وبنو شيبه: فهم بطن بن عبدالدار من قريش العدنانية وهم حجبه الكعبة منذ زمن قصي ومنهم في فلسطين " السعديون " في قرية المزار من أعمال جنين، وفي عكا وسيلة الحارثية وغيرها[1] ومن أشهر علمائهم في فلسطين الذي أسهموا في النهضة العلمية.محمد بن ظاهر الشيباني المقدسي، محدث ومؤرخ وشاعر ولد في القدس وتوفي في بغداد عام 1113/507م[2] وشهاب بن خراش الشيباني: صحابي ومحدث[3].

وبنو عامر بن لؤي بن فهر من (قريش) العدنانيين فمنهم في غزة عائلة " النخالة " ومن علمائهم في فلسطين عبد الحميد الكاتب الأموي لعبد الملك وابنه يزيد ومروان بن محمد والذي ضرب به المثل في البلاغة[4] وقتل مع مروان بن محمد في مصر عام 132 هـ/750م.

وبنو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر من (قريش) الذي يتصل بنسب الرسول الكريم فقد استقر قسم منهم في فلسطين في سنجل، وسلواد، وترمس عيّا وبدّو من أعمال رام الله[5]

وهكذا نرى ان سكان جنوبي بلاد الشام كانوا قبائل متعددة من أصول قحطانية وعدناينه، بالاضافة الى من نزلها من الافرنج والأتراك والاكراد والألبان (الأرناؤط) والشركس والبشناق والأروام والآرمن وغيرهم ممن تعربوا، وحمل هؤلاء المهاجرون أسماء الأقوام أو المدن التي انتسبوا اليها أو الصناعة التي امتهنوها أو الوظيفة التي شغلوها فقيل عائلة البشناق والاستانبولي والكرد والترك، والشركس، والارناؤهط والعنتابلي.

وبما أنني قصدت في هذا البحث من تعريف القارئ بحقيقة تاريخ جنوب بلاد الشام ودور الحضارة العربية في تكوين المجتمعين الفلسطيني والأردني وتصحيح بعض الأخطاء الشائعة التي وقع فيها معظم الكتاب والمؤرخين العرب من ارجاع تاريخ اليهود الى عهود قديمة لم يكن

---

(1) ن.م ص 236.

(2) الزركلي: الاعلام جـ7 ص41، وابن خلكان:وفيات الأعيان جـ3، ص415.

(3) ابن عساكر: تاريخه جـ6 ص342.

(4) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار جـ1 ص26-27 وابن عبد ربه، العقد الفريد جـ4 ص 165.

(5) ابن سعد: م.س،جـ7 ص398، وابن حجر : الاصابة، جـ 2، ص49.

لهم فيها أي وجود[1] ولاظهار بطلان ادعاءاتهم في فلسطين وشرقي الأردن وغيرها من الأراضي العربية السامية، أهل الحضارة والثقافة، ولأنوه للأخطار المحدقة بأمتنا العربية والتي

---

[1] تواجد الكنعانيون في فلسطين قبل ظهور النبي موسى وأتباعه بألفي عام "د. سوسة : م س ص19

وأما مصطلح اسرائيل فالمقصود به : يعقوب حفيد ابراهيم الخليل وأبناؤه هم بنوا اسرائيل وكان دورهم محصور في منطقة "حاران" حرّان اليوم في الجزيرة الفراتية حيث تعتبر وطنهم الأصلي أما فلسطين فهي أرض غربتهم فكان عهد ابراهيم الخليل هناك في القرن 17 ق.م قبل هجرتهم لفلسطين وكانت لغتهم هي اللغة الأم للشعوب السامية من كنعانيين وآراميين وعموريين وغيرهم علما بان سيدنا ابراهيم كان ينتمي للعشائر الآرامية وتكلم لغتهم د. سوسة : م س ص27.

وكلمة اسرائيل : كانت اسما لمكان في فلسطين وهي تسمية كنعانية وردت في الكتابات المصرية التي ترجع الى ما قبل عصر موسى كما أن أسماء ابرام "ابراهيم" ويعقوب ويوسف وردت في كتابات مصرية تعود الى عصر ما قبل موسى مما يدل على أنها كنعانية. أما كلمة موسوي أو قوم موسى : فهم من الجنود الفارين من جيش الفرعون تصحبهم جماعة من بقايا الهكسوس وكانوا يدينون في البداية بديانة أخناتون التوحيدية "فرعون مصر" وكان هذا بعد ستماية عام من ظهور بني بني اسرائيل حيث هاجر الموسويون في عهد الفرعون رمسيس الثاني 1290 ق.م أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهناك رأي في عهد منفتاح (1232 - 1224 ق.م) وأن موسى تلقى الألواح في مدين ومات فيها.

بينما يقول فيليب حتي : ان النبي عاموس "موسى" أول موحد في التاريخ البشري في القرن الثامن قبل الميلاد (750 ق.م)وأن اخناتون عاش ما بين 1375 - 1358 ق.م أي بعد ابراهيم الخليل بستماية عام اذ بعث ابراهيم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. د. فيليب حتي، سوريا، الطبعة الانجليزية ص213 - 214. S. Ferued, "Moses and Monotheism, p 35.

وخلفه في قيادة اليهود الى فلسطين يوشع ووصلوا الى اريحا عام 1186 ق.م واصطدموا بأهلها من الكنعانيين والبيوسيين فكتب موسى الواحه بالهيروغليفية المصرية، فموسى مصري تربى في البلاط الفرعوني وتزوج من امرأة حسب زعم التوراة "يوسفوس" انظر غوستاف لوبون : م س، ص 33.

غير أن شريعة موسى هذه لم يعثر عليها حتى الآن. وعندما هاجر هؤلاء الموسويون لفلسطين تكلموا بلغة الكنعانيين وقلدوهم في كل شيء حتى ديانتهم الوطنية وانحرفوا عن ديانة موسى وشريعته وهؤلاء هم الذين عرفوا فيما بعد باليهود د. سوسة م س، ص27،28.

وتسمية (يهود) فهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر الى بابل في القرن السادس قبل الميلاد / نسبة الى مملكة يهوذا المنقرضة. وكانت لهجتهم قبيل السبي الآرامية د. سوسة ص28، وبها دونوا التوراه الحالية أيام الأسر في بابل أي بعد سيدنا موسى بثمانماية عام وعرفت هذه اللهجة "بآرامية التوراه" وهذه بلا شك غير توراة موسى ويمكن تسميتها "بتوراة اليهود".

وأما كلمة عبري أو عبراني : فقد اطلقت في الألف الثانية قبل الميلاد على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة، حتى صارت كلمة "عبري" مرادفة لابن الصحراء بوجه عام، وبهذا المعنى وردت كلمة "الابري" و "الهيبري" و "الخبيرو" و "العبيرو" وذلك في المصادر المسمارية د. سوسة، م س، ص 25. في بلاد الرافدين والفرعونية في مصر، د. سوسة، م س، ص25، ولم يكن للاسرائيليين والموسويين واليهود أي وجود بعد. لذا فان نعت ابراهيم الخليل "بالعبراني" كما ورد في التوراة انما اريد به معنى العبريين" "العبيرو" وهم القبائل البدوية العربية، ومنها القبائل الآرامية التي ينتمي اليها ابراهيم الخليل لذا يجب التمييز بين العبري من جهة وبين الاسرائيلي أو الموسوي أو اليهودي في بحث تاريخ فلسطين القديم حيث لم يرد مصطلح عبري أو "عبراني" في القرآن الكريم مطلقا وانما ورد ذكر "الاسرائيليين" و "قوم موسى" و "يهود" الذي هادوا.

ويتضح من هذا ان عصر ابراهيم الخليل هذا هو عصر عربي ليست له صلة بعصر اليهود وقد نبه القرآن الكريم لذلك بقوله تعالى : "يا أهل الكتاب لما تحاجون في ابراهيم * وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده * أفلا تعقلون .... ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا * ولكن كان حنيفا مسلما * وما كان من المشركين" سورة آل عمران آية 65.

هذا وقد استعمل حاخامت اليهود كلمة عبري في وقت متأخر في فلسطين. انظر : دائرة المعارف البريطانية ط1 1965، ج11،ص79. و M. F. Unger : "Israel and Arameans of Damascus, 1975, pp. 10 - 11 وعبد الحق فاضل، سومر، عدد 14، 1985، ص180 - 189.

تستهدف وجودها التاريخي والحضاري والقومي لاستئصالها واذابتها في مشروع "الشرق أوسطية" والعالم الجديد بعد حرب الخليج العراقية سنة 1990م، لذا يتضح مغالطات التوراة الحديثة الصهيونية بإدعائها بوجود بني اسرائيل في عصر ابراهيم الخليل في القرن 19 ق.م قبل ان يخلق يعقوب "اسرائيل" الذي هو من أحفاد ابراهيم كما ذكرت وجودهم بعد عهد يعقوب بحوالي ستمائة عام أي في عهد موسى عندما دخلت جماعته أرض كنعان "فلسطين" بعد هجرتها من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والأحداث كيهود الخزر والأتراك الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق ويهود اوروبا وأمريكا والعالم أجمع، فهم على رأي التوراة نفس ابناء يعقوب الذي عاش قبل 3700 سنة فهذا منطق غريب ولكن الأغرب منه هو قبول كثير من الباحثين والمؤرخين لهذا الخلط.

والهدف من ذلك كله هو جعل فلسطين موطنهم الأصلي على الرغم من تأكيد التوراة ذاتها بانها أرض غريبة بالنسة لابراهيم واسحق ويعقوب وابناء يعقوب (اسرائيل) الذين ولدوا في حرّان ونشأوا فيها، وابتدع اليهود مدونو التوراة فكرة "منح الرب أرض كنعان الى ابراهيم وذريته" وأنه أمرهم بإبادة الكنعانيين أطفالا وشيوخا ونساء، كما نسبوا هذا الدين الى ابراهيم ويعقوب وموسى زورا لذا سماهم القرآن الكريم "كفارا" لكذبهم على موسى وتحريفهم التوراة

قال تعالى : "ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا ...... وباءوا بغضب من الله .... ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق * ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون"[1]. هذا وقد فرق القرآن الكريم بين بني اسرائيل ذرية ابراهيم الخليل من جهة وبين

---

(1) سورة آل عمران، الآية 112.

اليهود المتأخرين من جهة أخرى، وذلك باستعمال اسمين فاطلق اسم "بني اسرائيل" في مواضع الرضا، وسموا باليهود في حالات السخط عليهم.[1]

وهكذا يمكن القول بان ابراهيم كان عراقي المولد عربيا في قوميته نسبة لوطنه الأصلي في شبه الجزيرة العربية وبادية العراق والشام بانتمائه للقبائل الآرامية هناك[2].

وهذه القبائل التي هاجرت من شبه الجزيرة الى ضفاف الفرات في شمال سوريا، ثم انتقل بعض أسرها الى بلاد الرافدين ومنها اسرة ابراهيم الخليل وكانت هجرته حوالي الألف الثانية قبل الميلاد، ويؤيد القرآن الكريم هذا الرآي "ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين[3].

---

(1) هذا وقد قسم الدكتور احمد سوسة تاريخ فلسطين العربية الى ثلاثة أدوار :

اولا : عصر ابراهيم الخليل واسحق ويعقوب : ويرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو عصر عربي قائم بذاته لغة وثقافة ودينا حيث نبه القرآن الكريم بربط ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق وليس بفلسطين والتي كان مغتربا فيها ويتأكد من التوراة ذاتها علما بان ابراهيم الخليل كان رسولا وزعيما عربيا يحمل رسالته الانسانية لكل الأمم بدعوته الى فكرة التوحيد وقد عرف الكنعانيون والآراميون الاله "ايل" الذي دعا ابراهيم الخليل لعبادته.

ثانياً : عصر سيدنا موسى عليه السلام : ويبدأ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو عصر متصل بمصر ولغة هذا العصر الهيروغليفية المصرية في بداية الأمر ثم الكنعانية بعد الهجرة وانتهى هذا العصر بالسبي البابلي على يد نبوخذ نصر الكلداني في القرن السادس قبل الميلاد وكانت الثقافة كنعانية لان العبرية تكونت فيما بعد ما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد عندما بدأوا يدونون التوراة بالآرامية بمعنى أنه لا توجد لغة خاصة لليهود وقد أشار لذلك بريستيد : العصور القديمة، الترجمة العربية، بيروت، 1926، ص55.

ثالثاً : عصر اليهود : ويبدأ في القرن السادس قبل الميلاد في اعقاب السبي البابلي وهو عهد يهودي بلغته وثقافته ودينه ويمثل بداية اليهودية ويؤكد الدكتور سوسة في ضوء المكتشفات الأثرية بان التوراة التي بين ايدينا مقتبسة من الديانات الكنعانية والبابلية والمصرية وأنها كتبت بعد عهد النبي موسى بعدة قرون من عصر اليهود أي حوالي ثمانماية عام حيث كتب موسى بالهيروغليفية المصرية. د. سوسة / م س : ص30 - 37.

(2) عبد الحق فاضل : مغامرات لغوية، بيروت، بدون تاريخ، ص 21.

ولفنستون : تاريخ اللغات السامية، ص78، 164.

وويلز : تاريخ معالم الانسانية، الكتاب الرابع، ص 290 - 291.

ديورانت : قصة الحضارة، الترجمة العربية، ج2، م1، ص368 - 370 "قصة الطوفان".

د. سوسة : فيضانات بغداد في التاريخ، ج1، ص49-201

و S. Daiches, "The Hewisin Babylonian, p. 7

و P. Hiti. History of syria, pp. 128 - 140

Jastrow : Hebrew and Babylonian Tradition 1914, pp. 108 - 109.

(3) سورة آل عمران، آية 67. وقال تعالى : "يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون" آل عمران، آية 56.

وهكذا يتضح لنا البرهان القويم على عروبة فلسطين كما آن الآوان للباحثين للتحرر من التقيد بنصوص التوراة في اثناء بحثهم في تاريخ فلسطين القديم كما يؤكد الدكتور احمد سوسة بالرجوع للكشوف الأثرية ومعرفة النصوص القديمة التي سبقت التوراة بعشرات من القرون وذلك للتمييز بين الغث والسمين واقتضاء التواريخ حسب تسلسلها الزمني وتعد هذه العجالة من الشواهد التاريخية الأكيدة على عروبة فلسطين بعرض الأصول السكانية والقبائل العربية التي سكنت جنوب بلاد الشام.

وقد حتمت الضرورة وللضرورة احكام إثبات عروبة بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى[1] وخاصة بعد اعلان حكومة اسرائيل تهويد القدس واتخاذها عاصمة للدولة العبرية (Urusalim) فقد هاجر سكانها الأصوليون وهم الكنعانيون من شبه الجزيرة العربية الى بيت المقدس قبل خمسة آلاف سنة، ودعوها مدينة السلام نسبة الى "سالم" أو "شالم" إله السلام عندهم. ثم انتقل هذا الاسم الى الشعوب القديمة عن طريق سكان بلاد الرافدين الذين كانوا يلفظونه "أورسالم" بمعنى مدينة السلام، والذي حُرّف فيما بعد الى "يروشالايم" و "هيروسوليما" و "جيروزالم" وجيروسليم اليوم.[2]

وهكذا حرفت الأمم القديمة اسم مدينة السلام في نقوشهم التاريخية، فذكرها الأكاديون "اورسالم" uruslim، كما ورد اسمها في نقش مصري قديم يعود للقرن التاسع قبل الميلاد باسم "Aushamen" .

وهكذا نرى اسماء بيت المقدس عند الأمم القديمة تعود الى تحريف اسمها الكنعاني

فذكرها اليهود "yerushayim" "أورشليم"[3]

وذكرها اليونان واللاتين "Hirosolyma"

وذكرها الغرب اليوم "Jerusalem"

---

(1) سورة الاسراء : "سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ....."، آية 1.

(2) الدباغ : بلادنا فلسطين، ج9، ق2، ص5.

و ur : كلمة سومرية معناها مدينة، ص23.

(3) مصطفى الدباغ : م س، ص24.

هذا وبلغت مساحة البلدة زمن اليبوسيين ما بين 16-18 فدانا[1] كما نسب ابن العبري بناءها الى ملكي صادق ملك اليبوسيين وسماها "بيت السلام"[2]، ثم تمكن النبي داوود بن عيسى من الاستيلاء عليها فأزال صبغتها الكنعانية العربية التي اصطبغت بها قبله بألفي عام وسماها مدينة "داوود" ثم خلفه ابنه سليمان فوسع مساحتها حتى أصبحت "155" فدانا وبنى الهيكل فوق المكان الذي تعبد فيه "ملكي صادق" حيث موقع الحرم الشريف اليوم وهكذا نلاحظ بأن داوود وسليمان كانا مجددين لبنائها وليسا المؤسسين كما خضعت لحكم المصريين في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد بعد طرد الهكسوس، ثم تمكن البدو "الخابيري" في عهد اخناتون (1375-1358 ق.م) فلم يعد اليها الحكم المصري الا في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد في عهد سيتي الأول (1317-1301 ق.م).[3]

هذا وقد سميت "اورشليم" منذ القرن العاشر قبل الميلاد الى عام135م وكانت عاصمة للملكة اليهودية التي حكمها عشرون ملكا خلال 337 سنة[4] كان أولهم رَحُبْعام بن سليمان اذ هاجم شيشق فرعون مصر الليبي المملكة عام 926 ق.م واستولى على القدس فاضحى اليهود عبيداً له[5] ولما تمكن الأشوريون سنة 722 ق.م بقيادة سرجون الثاني من تدمير مملكة اسرائيل وحمل سكان السامرة الى الأسر أعلن حزفيا بن آحاز ملك القدس خضوعه التام. ثم أتى الى سنحاريب بن سرجون (705-681 ق.م) ودفع جزية كبيرة من الفضة والذهب.[6]

وفي أثناء حكم يهوياكين (598-597 ق.م) تمكن نبوخذ نصر الكلداني من احتلال بيت المقدس وسبى عائلته ورؤساء اليهود الى بابل عام 597 ق.م

وكان آخر ملوك اليهود في أورشليم صدفيا بن يوشا (597-586 ق.م) واسمه الحقيقي "مشنيا" والذي غير اسمه نبوخذ نصرعندما عينه عوضا عن ابن أخيه يهوياكين، ولما تمرد على

---

(1) الفدان : 0.40 من الهكتار ويعادل 4 دونمات والدونم يساوي الف متر مربع.

(2) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص14، وهو المؤرخ غريغوريوس ابو الفرج ولد عام 1226م في مدينة ملاطية بتركية وتوفي عام 1286م. وانظر : الحنبلي، مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل ص5.

(3) مصطفى الدباغ : ن م، ص40.

(4) الدباغ : ن م، ن ص.

(5) الدباغ، ن م، ج9، ص41.

(6) ن م، ص49، وبوست، قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص306.

نبوخذ نصر هرب من القدس الى اريحا حيث اسره البابليون وهكذا انتهت الأسرة المالكة، اسرة النبي والملك داوود، في اورشليم واحرق بختنصر الهيكل وأسر آلاف السكان فأذاق اليهود الذل والمهانة وبعد ذلك خضعت اورشليم تحت الحكم الفارسي زمن الملك كورش[1] وزوجته "استير" واسمها بالعبرية "هداسا" أي شجرة لاس لجمالها ما بين 538-332 ق.م، وعين زربابل ملكا عليها الذي أعاد بناء الهيكل سنة 515 ق.م حتى سنة 20 ق.م عندما بنى هيردوس الكبير الهيكل الجديد.

وظلت القدس تحت الحكم الفارسي حتى احتلها الاسكندر المكدوني فدخلت تحت الحكم اليوناني من سنة 332-63 ق.م، وذلك عندما استولى عليها الاسكندر سنة 332 ق.م.[2]

ثم خضعت لحكم البطالسة في مصر بعد وفاة الاسكندر سنة 322 ق.م بقيادة بطليموس الأول ثم انتقلت سنة 198 ق.م الى حكم السلوقيين في سوريا ثم انتقلت الى حكم الرومان سنة 63 ق.م.[3]

ويعتبر هيرودوس الروماني باني الهيكل والقصر الذي يدعى قلعة داوود خطأً على مقربة من باب الخليل من الجهة الشرقية الجنوبية أعظم بناء في القدس وفي أواخر حكم هيرودوس ولد المسيح عليه السلام.

وخلف "أرخياوس" اباه هيرودوس على أورشليم ولكن أوغسطس قيصر خلفه من الملك سنة 6 ق.م بعد حكم عشر سنوات.

وتولى القدس ولاة رومانيون مثل بيلاطس البنطي (26-36م) الذي حدثت وقائع سيدنا عيسى عليه السلام في عهده.

وكانت قيصيرية - قيسارية مركز الولاية فكان بيلاطس يأتي الى أورشليم لينظر في أمرها. ووافق تحت ضغط اليهود على محاكمة المسيح وجلده وصلبه.[4]

---

(1) كورش اسم عبراني معناه "راعي" قاموس الكتاب المقدس، جـ1، ص53.

(2) سليم ابراهيم صادر : تاريخ اليوسيفوس اليهودي، بيروت، المكتبة المعرفية، ص27 - 28.

(3) بوست : قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص165. والدكتور علي حسين الخربوطلي، العرب واليهود في العصر الاسلامي، ص9.

(4) انجيل متى ج27، ص25. الدباغ، م س، ص66.

هذا وقد دمر الرومان أورشليم مرتين الأولى عام 70م على يد طيطوس "تيطس" الذي دمرها وأحرق الهيكل ومرة ثانية سنة 135م على يد هدريان الذي مسحها من عالم الوجود وشتت أهلها ولم يبق منها سوى الذكريات وانقطعت صلة اليهود بها مدة ثمانية عشر قرنا متواصلة وسميت المدينة باسم الملك ايلياء بعد إسكان اليونانيين محل اليهود، وبنوا برجا على باب الهيكل وسمي اليوم محراب داوودفلم يسكنها يهودي واحد لمدة الف سنة، كما لم يكن فيها في القرون الخمسة التي تلت المدة المذكورة أكثر من خمسين يهوديا.[1]

وقد بنى ايلياء سوراً لبيت المقدس الذي بنى فوقه الأسوار الحالية السلطان سليمان القانوني[2]

ولما اعتنق الامبراطور قسطنطين (306-337م) المسيحية جعلها ديانة الحكومة الرسمية، وحضرت والدته "هيلانة" الى القدس عام 326م. وأمرت ببناء كنيسة القيامة عام 335م والتي يعتقد المسيحيون أنها ضمت قبر المسيح قبل رفعه الى السماء.[3]

وقد سمح قسطنطين لليهود بدخول القدس مرة واحدة في السنة حيث منعهم هدريا من دخولها بتاتا، وأعاد قسطنطين اسمها "أورشليم" عام 324م. ولكن اسمها ايليا بقي متداولا بين الناس، فهو الاسم الذي عرفه المسلمون عند الفتح الاسلامي في القرن السابع للميلاد وسميت بيت المقدس أي المكان المطهر من الذنوب.[4]

ومكان الحرم القدسي الشريف

قدس البشر منذ آلاف السنين، حين كان ملكي صادق وجماعته من الموحدين يتعبدون فيه، وذهب الكثيرون الى ان الصخرة هي المكان الذي أراد ابراهيم ان يضحي ابنه عليها، وبعد ذلك بقرون عديدة أقام النبي والملك سليمان بن داوود هيكله، وفي القرن الثاني الميلادي بنى هدريان الروماني عليه معبده الوثني ...، وأخيراً الاسراء والمعراج، فالمسجد الذي بناه عمر بن

---

(1) أوراق عارف العارف : المجموعة التاسعة، ص79، والدباغ، م س، ص72.

(2) قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص134، 1964م.

(3) (طوطح وشحادة، خليل وبولس، تاريخ القدس ودليلها1940)، ص19,

(4) النويري، نهاية الارب في فنون الأدب ج1، ص325.

الخطاب ومن بعده عبد الملك بن مروان ولهذا قدسه الموحدون الأوائل (ملكي صادق وابراهيم وجماعته) واليهود والوثنيون والمسلمون.

ويتالف الحرم القدسي الشريف من مسجدين : مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وما بينهما وما حولهما من منشآت حتى الأسوار اذ تبلغ مساحتها (104900م^2) بنى هذين المسجدين عبد الملك بن مروان سنة 66هـ/685م وأوقف عليهما خراج مصر لمدة سبع سنوات.(1)

فأما مسجد الصخرة : فيعتبر من آثار الأمويين الرائعة حيث بنوا قبة الصخرة عام 70هـ/690م على مكان الجامع البسيط الذي بناه عمر بن الخطاب على شكل مثمن.

وبالنسبة للمسجد الأقصى : فيقع على بعد 500م جنوب مسجد الصخرة الشريفة، ويبدو ان عبد الملك شرع في اقامته بعد أن أتم بناء مسجد الصخرة، وأنه تم بناؤه في عهد ابنه الوليد، والأمويون كانوا أول من استحدث المئذنة والمحراب في المساجد(2) كما أعاد عبد الملك وابنه الوليد بناء القدس وتجميلها بالمساجد والقصور بعد ان خربها الفرس سنة 614م.(3)

وفي عام 407 هـ سقطت قبة الصخرة. ثم اعيد بناؤها عام 413هـ/1022م في عهد الظاهر علي أبو الحسن الخليفة الفاطمي السابع (تولى الأمر 411-427 هـ/1020-1035م) وقيل أن الحاكم بأمر الله هو الذي قام بتعميرها.(4)

وفي عام 165 هـ/1071م سقطت القدس بايدي السلاجقة، ثم استردها الفاطميون منهم في 26 آب من عام 1098م من الأرتقيين عمال السلاجقة، وبعدها احتل المصريون كل فلسطين

---

(1) الدباغ : ص119، وانظر : سامح كمال الدين : العمارة في صدر الاسلام ص19. وعارف العارف : تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ص74،75.

(2) الدباغ، ص123.

(3) العابدي : نحن والآثار، عمان سنة 1972، ص16-105

والآثار الاسلامية في فلسطين والأردن والقصور الأموية في جنوب الأقصى، 123-134، كما أمر عبد الملك بن مروان بتعبيد الطريق بين بيت المقدس ودمشق مرورا باريحا.

(4) حتى، فيليب : تاريخ العرب المطول، ج3، ص736.

وانظر الذهبي : العبر في خبر غبر، ج3، ص96. ج3، ص269، في حين ذكر ثورة أهل القدس ضد السلاجقة سنة 469 هـ/1077م فقضى على هذه الثورة القائد التركماني أتسز بن أوق حيث قتل ما يقارب من ثلاث آلاف شخص.

وانظر كرد علي، خطط الشام، ج1، ص265، أما الذين احتموا بالصخرة فاخذ منهم مالاً كثيرا.

ومدوا نفوذهم الى نهر الكلب شمالا ونهر الأردن شرقا[1] وبعد ذلك بعام احتل الافرنج بيت المقدس سنة 1099م.

وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس)، ويزورونها ويضحون اضحية العيد اذ يبلغ عدد الزائرين أكثر من عشرين ألف شخص.[2] ومن أقدم من ذكرها بهذا الاسم الشاعر ابو العلاء المعري المتوفي سنة 449 هـ/1057م اذ قال :

واخلع حذاءك اذا حاذيتها ورعاً كفعل موسى كليم الله في القدس[3]

كما ذكر القدس الشريف يحيى بن سعيد الانطاكي في كتابه "تاريخ الذيل" الذي الفه عام 458 هـ/1063م.[4] كما ذكرها بهذا الاسم ابن بطوطة في رحلته في القرن الرابع عشر الميلادي، والظاهري في قول منه في القرن الخامس عشر، ومجير الدين تاريخه (901هـ/1496م) وقد ثبت العثمانيون هذه التسمية : القدس الشريف – "قدس شريف"[5]

وذكر البكري الأندلسي المتوفي سنة 487 هـ في كتابه "معجم ما استعجم" حول أسماء بيت المقدس مثل ايلياء : ومعناها : بيت الله.[6]

ونحو كلمة صهيون : قال اسم لبيت المقدس بكسر الصاد[7] وأما صهيون بفتح الصاد فاسم قبيلة.

وشلم : اسم لبيت المقدس

قال الأعشى :

وقد طُفْتُ للمال آفاقه عمّان فحمص فأوري شليم

قال ابو عبيدة : شليم بكسر اللام : بيت المقدس. قال ثعلب هو سليم، بالسين معربة.[8]

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص237.

(2) ناصر خسرو : سفرنامة، ص55-57.

(3) الدباغ، م س، ص135.

(4) الدومنيكي، الأب، م س، بلدانية فلسطين العربية، بيروت، سنة 1948، ص33.

(5) مصطفى الدباغ، ص137.

(6) البكري الأندلسي : معجم ما استعجم، ج1، ص217.

(7) ن م، ج2، ص844.

(8) ن م، ج2، ص807.

واليه أسري بالرسول الكريم والذي عرج منه الى السماء.

هذا وقد نصت الوثيقة العمرية لبطريرك القدس بانه لا يسكن المدينة أحد من اليهود كما قام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد باعادة بناء القدس وتجميلها بالقصور والمساجد، وعبدوا الطريق بينها وبين العاصمة دمشق.[1]

وبعد تحريرها من الافرنج في العهد الأيوبي بنيت فيها المدارس والمساجد والحمامات والمستشفيات والزوايا والرباطات للحجاج القادمين واستعاد الحرم الشريف بهاءه، وبنيت حوله السبل وأقنية الماء وصهاريجه، واصبحت ساحته بأروقتها مدارس لمختلف العلوم الدينية يفد إليها العلماء من مختلف الأقطار "كالمدرسة الصلاحية" التي اعتبرت من اشهر معاهد العصور الوسطى العلمية.

كما بنى الظاهر بيبرس سنة 668 هـ/1269م مقام النبي موسى، الذي كان يقصده أهل بيت المقدس سنويا بعد فصل الشتاء، فتحول الى موسم وطني فلسطيني كبير، واليوم تحاول الادارة الاسرائيلية المحتلة القضاء على الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية منذ عام 1967م حيث حاولوا حرق المسجد الأقصى عام 1969م لتصبح القدس يهودية بعاداتها وسكانها، ويقولون ان للمسلمين مكة وللمسيحيين روما وهذا يكفيهم، وليس لنا سوى القدس.[2]

ان المدينة المقدسة ستكون سعيدة باحياء اتفاقية "عمر" العربي المسلم وصفرونيوس – السوري المسيحي وسيعود للعالم سلامه واطمئنانه اذا شملت هذه الاتفاقيات عموم الديار المقدسة وذلك عملا بقول المسيح "ان الخلاص هو من اليهود"[3]

والحقيقة الواضحة كضوء الشمس بان الصليبيين القدماء بمذابحهم لأهل بيت المقدس والجدد ممثلين بالبريطانيين الذين ساعدوا على إخراج سكانها من وطنهم بالقوة.

---

(1) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج9، ص8.

(2) الدباغ، ن م، ج9، ص10.

(3) انجيل يوحنا، جـ4، ص22، كما قال البابا عام 1973م بمناسبة حرب تشرين : "عندما يغادر العرب القدس ترحل المسيحية في ركابهم" نشرة بطريركية الروم الكاثوليك بمناسبة حرب تشرين أول 1973، دمشق، كانون ثاني 1974، ص44.

وهكذا نرى ان الصليبيين أهلكوا أهلها العرب قديما وحديثاً، والادارة الاسرائيلية منذ استيلائها على القدس في 1967/6/7 خططت للقضاء على المقدسات الاسلامية والمسيحية لتصبح القدس يهودية. لذا فلا يجوز للاوروبيين أو اليهود حكم القدس.

كما اود الاشارة الى حقيقة تاريخية بالنسبة للوجود اليهودي في فلسطين حيث كان ضئيلا لا قيمة له من الناحية الديمغرافية السكانية ولم يكن لهم تأثير حضاري فيها كما سنرى في الفصول التالية المعطيات الحضارية العربية سواء كانت علمية او ثقافية أو معمارية منذ 5000 ق.م وحتى اليوم. حيث تشكلت أول دولة عربية من الأنباط في جنوب الأردن في القرن السادس قبل الميلاد، متخذين من سلع "الرقيم" والبتراء اليوم عاصمة لهم والتي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم مما قدموه للبشرية من ترتيب الحروف الأبجدية "أ، ب، ج، د، هـ، و، ز" وميز الخط النبطي حذف الحركات الممدودة في الكتابة واثباتها في النطق مثل كلمة (مالك) التي كتبت "ملك بدون الف وتنطق مالك" وفي القرآن الكريم الكثير من خصائص الخط النبطية، وقد سميت زمن الرومان ببلاد العرب الصخرية Arabia Perea أو Arabia Petrix.

وقبيل الاسلام مرّ الرسول الكريم بالهضبة الاردنية في رحلتين لحساب عمه وخديجة بنت خويلد مما يثبت العلاقات التجارية الحجازية بجنوب الأردن، حيث كان سكان جنوب الأردن عربا كما ذكرنا في الفصل الأول من الجزيرة العربية هاجروا اليها منذ فجر التاريخ بالاضافة الى العلاقات الدينية والروحية قبل وبعد البعثة النبوية، كما عبرت الجيوش العربية الاسلامية الفاتحة الاردن الى باقي أجزاء الشام،وازدهرت في العصر الأموي، فقصورهم الأثرية ما زالت الشاهد التاريخي على ازدهار حضارتهم، كما تشكلت في جنوب الأردن أول حركة سرية في تاريخ الاسلام في "الحميمة" الدعوة العباسية التي أطاحت بالدولة الأموية.

وفي العصر الحاضر تصدى بعض المفكرين المحققين المراعين للأمانة العلمية للأساطير الصهيونية التي اقاموا عليها سياستهم الحالية وتأتي أهمية كتاب روجيه جارودي انه يهودي الأصل درس التوراة وفند الأساطير التأسيسية للسياسة الاسرائيلية والتي تتمثل فيما يلي :

اولا : شعب الله المختار : "مقولة لا تملك أي اساس تاريخي لانه يعتمد على تفسير خاطئ للوعد بالأرض حسبما جاء في سفر التكوين".

ثانيا : ربطت الصهيونية النص الديني بالفعل السياسي اليومي المباشر، فحولت الاسطورة السابقة الى تاريخ ومطامع من خلال "الفهلوة التاريخية" وتحويلها الى تبرير سياسي، واستخدام روايات التوراة كأدوات، لأن هذه الروايات ظلت تلعب دورا حاسما في صيرورة العالم الغربي من حيث أنها كانت وما زالت تستخدم كغطاء فكري لكل اعمالها الدموية منذ اضطهاد اليهود على يد تيطس الروماني، ثم على ايدي المسيحيين وحتى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش و "الأحلاف المقدسة" والسيطرات الاستعمارية التي مارستها الصهيونية "الشعب المختار" وصولا الى عمليات الاغتصاب والابتزاز الاسرائيلية في الشرق الأوسط وعبر الولايات المتحدة الأمريكية من خلال ضغط اللوبي الصهيوني للسيطرة على العالم سياسيا وفطريا واقتصاديا واجتماعيا بتصدير الانحلال الخلقي ونزع الشباب من دينهم.

وهكذا تمكنت الصهيونية من تحويل الأسطورة الى تاريخ باستغلالها هذا الماضي الأسطوري لتوجيه مستقبلها السياسي وكيانها الدخيل على الأرض الفلسطينية العربية.

علما بان التوراة تمجد وتعظم سياسة الابادة والتصفية العرقية كما ورد في سفر "تثنية الاشتراع"[1] "ويسلمهم الرب الهك بين يديك ويوقع عليهم اضطرابا شديدا حتى يفنوا، ويدفع ملوكهم الى يديك، فقمحوا أسماءهم من تحت السماء فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم" فكان نتيجة ذلك إبادة ملوك مدين العرب وسبي نسائهم وأطفالهم ثم قتلهم زمن سيدنا موسى عليه السلام كما تزعم التوراة، ثم خلفه يشوع الذي استمر في فتح كنعان" فلسطين على سياسة التصفية العرقية التي أمر بها اله الجيوش وذلك في طريقهم من لاكيش "الجش" في بلاد الرافدين الى عجلون في شرقي نهر الأردن وأبادوا سكانها تماما وتقدم نحو "حبرون" الخليل اليوم واباد سكانها الكنعانيين وسار على هذه التصفية العرقية في معظم قرى ومدن كنعان الفلسطينية[2]

---

(1) جريدة الخليج، العدد 6199، ص29، الشارقة، دولة الامارات العربية المتحدة، 21 ذي الحجة 1416 هـ/ 8 مايو 1996م / نشرت كتاب روجيه جارودي المفكر الفرنسي اليهودي الأصل ضد الصهيونية.

(2) عندما يبدأ غزو فلسطين "كنعان"، "فسمع الرب صوت اسرائيل ودفع اليهم الكنعانيين فأبسلوهم هم ومدنهم، "العدد ، الفصل الحادي والعشرين، الآية 3".

وأما فيما يختص بالاموريين وملكهم فتقول الآية : "وأخذ اسرائيل جميع تلك المدن فسكنوا في جميع مدن الأموريين" الفصل الحادي والعشرين، الآية 135.

ومن المشين مفاخرتهم بتسمية هذه الابادة الجماعية "التصفية المقدسة" في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وهكذا نرى من شارون الى مائير كاهانا الطريقة التي يتصرف بها الصهاينة تجاه فلسطين فالطريق الذي سلكه يشوع هو الطريق نفسه الذي سلكه مناحيم بيجن عندما قام بمذبحة دير ياسين في 9 ابريل سنة 1948م وذبح سكانها البالغين 254 من الرجال والنساء والأطفال كوسيلة ارهابية لتفريغ فلسطين من سكانها وكما فعل رفائيل ايثان في مجازرصبرا وشاتيلا في مخيمات لبنان الفلسطينية سنة 1982. وبهذا حققوا التصفية العرقية التي تنبع من مبدأ "النقاء العرقي الذي يحرم اختلاط الدم اليهودي بـ "الدم النجس" لكل الآخرين"[1].

---

(1) اسفار موسى الخمسة.

الأثر الحضاري للقبائل العربية في جنوب بلاد الشام

لقد كان للقبائل العربية في جنوب بلاد الشام قبل الاسلام أهمية ونفوذ في شؤون المنطقة، وخاصة في دولة الغساسنة أمثال : ابن زنباع الموظف الكبير في جمارك الغساسنة، وفرو بن عمرو الجذامي من كبار موظفي الادارة عند الروم حيث كان بنو جذام على رأس القبائل القحطانية في فلسطين.

كما تعاون بنو جذامة بزعامة روح بن زنباع مع بني أمية لتثبيت ملكهم والقضاء على الثورات والفتن في معركة صفين وضد ابن الزبير في الحجاز أيام يزيد بن معاوية.

لذا أصبح روح مستشارا سياسيا لعبد الملك بن مروان في دمشق والعراق وأشار بتعيين الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراق الذي كان له الفضل الأكبر في استقرار الأمور في الشرق الاسلامي. واستمر أولاد روح في زعامة بني جذام في فلسطين حتى زالت دولة الأمويين.

كما كان لقبيلة كندة العربية نفوذ ومكانة في نفوس الأمويين خاصة زمن سليمان بن عبد الملك الذي عين رجاء بن حيوه الفقيه البيساني الكندي مستشارا له والذي أشار عليه بجعل الخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز، كما كان أمينا على خزائن الأموال زمن عبد الملك حتى توفي عام 112 هـ/720م..

هذا بالإضافة إلى عبد الحميد بن يحيى الكاتب الشهيد من بني عامر وزير مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقتل معه عام 132 هـ/750م. وموسى بن نصير اللخمي فاتح الأندلس من جبل الجليل، والذي كان والده رئيس حرس معاوية.

وفي العهد العباسي : كان للحميمة[1] أثر كبير في التاريخ العباسي حيث ولد بها السفاح وأخوه المنصور والمهدي بن المنصور.

هذا وقد اكتسب المنصور علمه وفراسته وفصاحته وشجاعته من بدو المنطقة من لخم وجذام وغسان وغيرهم.

---

(1) الحميمة : على يمين الطريق من معان الى العقبة ببعد 12كم وتبعد عن العقبة 87كم.

وبعد مقتل أبو مسلم الخراساني ولّى المنصور الربيع بن يونس الكيساني من جبل الجليل في فلسطين منصب الوزير وولّى ابنه الفضل منصب الحاجب.

واستمرا في عملهما زمن ابنه المهدي وبقي الفضل وزيرا للهادي وحاجبا لهارون الرشيد ووزيراً لابنه الأمين وولى ابنه العباس بن فضل بن الربيع حجابته ويرى بعض المؤرخين أنّ نكبة البرامكة كانت على يد الفضل بن الربيع الذي تولى الوزارة بعدهم[1]. مما يشير الى انتصار القومية العربية على الفارسية التي قامت عليها الثورة العباسية، كما برز من طبريا الوزير العباسي "معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الطبراني زمن المهدي وألف كتاب الخراج والوزير أحمد بن أبي خالد بن عبد الرحمن الكاتب من جند الأردن زمن المأمون، كما عين الأمين محمد بن سعد السرح الكناني على اليمن.

دور القبائل العربية زمن الفاطميين في جنوب بلاد الشام

لقد عين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427-487هـ/1026-1094م) الداهية الفلسطيني "الحسن بن علي أبي محمد اليازوري"[2] لانقاذ البلاد من الأزمة المالية فنجح بذلك. وكان له الفضل في تعريب الجزء الأكبر من المغرب بارساله قبائل عربية للاستيطان: وتوفي عام 450هـ/ 1049م.

فسادت الفوضى مما جعل المستنصر بالله يستدعي بدر الجمالي حاكم عكا للقاهرة لتولي الوزارة مستصحبا معه جند الفلسطينيين فساد الأمن وعم الخير الناس 466هـ/1068م. كما وزر ابنه من بعده "الأفضل أحمد ابو القاسم" واسترد بيت المقدس من السلاجقةعام 491هـ/1093م.

هذا بالإضافة الى ابن الخليفة الفاطمي الحادي عشر الحافظ لدين الله عبد المجيد بن المستنصر[3] الذي كان من مواليد عسقلان عام 467هـ/1069م.

---

(1) الدباغ : فلسطينيات6، ص82.

(2) يازور : قرية فلسطينية تبعد 7كم عن يافا، وكان قاضيا في الرملة كما كان فقيها يكرم العلماء. انظر ابن كثير: البداية والنهاية ج12، ص72.

(3) تولى الخلافة عام 524هـ/1126م. وتوفي عام 544هـ/1146م. الدباغ : فلسطينيات، جـ6، ص84.

ويلاحظ أن سكان بلاد الشام العرب كانوا يعتبرون الدولة دولتهم يشاركون في سياستها وادارتها. لذا كانوا يثورون ضد أي خليفة ينحرف عن تقاليدهم ومعتقداتهم، فينفصلون عنه. كما حدث زمن الحاكم بالله الفاطمي (386-411هـ/488-1013م).

فاستقلوا عنه وخلعوا بيعته وبايعوا الحسن بن جعفر العلوي الحسيني شريف مكة الذي استدعوه الى الرملة، والمعروف أنّ بني الجراح من قبيلة طي "شمّر اليوم" كانوا قد أسسوا امارة لهم في البلقاء وباديتها وامتد نفوذهم الى نواحي القدس والرملة التي اتخذوها مقراً لهم. حتى انتهت ضربات الفاطميين عام 420هـ/1022م على يد الخليفة الفاطمي علي بن الحاكم بأمر الله بعد أن استمرت سبعاً وخمسين سنة من 363-420هـ/965-1022.[1]

وكان ظهور آل جراح على مسرح الأحداث السياسية في جنوب بلاد الشام منذ عام 358هـ/968م أي منذ قدوم الفاطميين لبلاد الشام فتحالف زعيمهم حسان بن المفرج بن الجراح على القرامطة لمهاجمة الفاطميين في مصر عام 361-363هـ/973-975م.[2]

وكانت علاقة آل جراح مع الفاطميين غير ثابتة من حيث الولاء والعصيان والخروج عن طاعتهم وذلك لرغبتهم في تكوين إمارة خاصة بهم[3]، ونجحوافي ذلك حيث أسسوا امارة لهم في فلسطين والأردن مركزها مدينة الرملة بعد تحررهم من نفوذ الحمدانيين في الموصل وحلب.[4]

وعندما أصبحت بلاد الشام وحدة سياسية وادارية زمن الفاطميين وخاصة في عهد المستنصر بالله.[5]

---

(1) الدباغ : فلسطينيات، ج6، ص30، وعبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر : مكتبة الحرية الحديثة بالقاهرة، 1985، ص128-149. هذا وكان الفاطميون قد نجحوا في احتلال بلاد الشام والتغلب على القوى المحلية فيها كآل جراح ما بين 358-362هـ/962-972م. د. جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي لبلاد الشام والعراق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957، ص40-41.

(2) ابن القلانسي، ابو يعلى حمزة، المتوفي 555هـ/1160م : ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ط1، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر 1403هـ/1983م، ص16،18،20. وابن خلدون : (ت 808هـ/1406م)، العبر، تحقيق خليل شحادة، بيروت، راجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، 1981م ج4، ص108.

(3) ابن القلانسي : ن م، ص103، حاشية "1". وابن خلدون :/ العبر، ج4، ص32.

(4) ابن خلدون : ن م، ن ص. ومصطفى الحياري: الامارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ط1 1977م، ص32-44.

(5) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، جزآن، ط3، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1985، ج1، ص135-190.

رأى فيهم الفاطميون خطراً على نفوذهم في بلاد الشام، لذا حاولوا كسب ولاءهم عن طريق المال والاقطاعات بعد أن كانوا موالين للعلويين في الحجاز[1] وكانت هذه العلاقة تخضع للظروف السياسية ومصلحة الطرفين، فعندما تنكر الفاطميون لآل جراح لعدم وفائهم بعهودهم معهم، وخرجوا عن طاعتهم لمدة سنتين وخمسة أشهر، وسيطروا على فلسطين ونهبوا الأهالي اضطر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله 386-411هـ/996-1020م أن يخمد شوكتهم بالقوة العسكرية فهربوا الى الصحراء، متوسلين له بالسماح لهم بالعودة مقابل التوقف عن أعمال الفوضى والشغب في المنطقة[2] فوافق الخليفة الفاطمي عام 404هـ/1013م. والتزم آل جراح بذلك.

ولكنهم عملوا على استعادة نفوذهم بعد وفاته والاستقلال في فلسطين[3] بتحالفهم مع عرب الشام سنة 411هـ/1022م، لتقسيم بلاد الشام بينهم على أن تكون الرملة وما يتبعها الى حدود مصر لآل جراح الطائيين مما يؤول حكم دمشق وما حولها للكلبيين، وحلب وما يتبعها للمرداسيين[4]

وحاولوا الاستعانة بالروم ولكنهم فشلوا لعلاقة الفاطميين الوطيدة مع الروم آنذاك[5] فاعتمدوا على أنفسهم وبدأوا بتنفيذ الاتفاق بينهم عام 414هـ/1025م، وهكذا خرجت معظم بلاد الشام عن طاعة الفاطميين وسادتها الفوضى والاضطرابات حتى عام 419هـ/1028م حيث قضى عليهم الخليفة الفاطمي بقوة عسكرية، ثم أرسل حملة عسكرية أخرى لحماية حصون الفاطميين بسواحل الشام[6] وعزز ذلك بعقد معاهدة حسن جوار مع الروم عام

---

(1) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذل الخطط والآثار، جزآن، ج21، مكتبة الثقافة العربية، ج2،القاهرة، 1987م، ص157-158، 287.

(2) المقريزي : ن م، جـ2، ص157- 158. وجمال سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ص46. وابن خلكان : شمس الدين ابو العباس أحمد ت 681هـ/1232م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ثمانية أجزاء، ج2، ص175. وابن الأثير : الكامل، ج9، ص123 (13 جزء، دارصادر، بيروت، وابن خلدون : العبر، ج4، ص73.

(3) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ص27،141.

(4) المقريزي : اتعاظ الحنفاء،ج2، ص155-166. وجمال الدين سرور : ن م، ص141. وابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب، 3 أجزاء، تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي، دمشق، 1951-1968م

(5) جمال سرور : ن م، ن ص. والحياري، مصطفى : ن م،ص51.

(6) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج2، ص150-162. وابن القلانسي : م س ، ص119.

Lane poole Ahistory of Egyptian middle Ages, p. 160

418هـ/1027م[1] كما حدث صدام عسكري آخر بينهم عام 420هـ/1024م انتهى بهزيمة الأمراء العرب وهروب آل جراح نحو البادية ومنها لشمال الشام في ضواحي أنطاكية والتجأوا للروم[2].

وبقي آل جراح حتى عام 423هـ/1041م يتحينون الفرص عندما سادت الفوضى بلاد الشام بعد وفاة حاكم دمشق الدزيري فعادوا واستولوا على فلسطين[3] ولكن الفاطميين اخضعوهم ونقلوا العناصر القيادية الى الدلتا في مصر[4] ولكن آل جراح استمروا في سياستهم العدائية ضد الفاطميين وساهموا في هزيمة قواتهم امام بني مرداس الكلابيين عام 442هـ/1050م[5] وعام 448هـ/1050م[6].

وهكذا نلاحظ أن تعارض المصالح بينهما بالإضافة الى الخلاف المذهبي (السني والشيعي) وسوء معاملة الولاة الفاطميين لهم وشعورهم بأنهم أصحاب البلاد الأولى بالسلطة من الفاطميين الغزاة دفعهم لاستغلال الفرص المناسبة للثورة واشاعة عدم الاستقرار في مناطق نفوذ الفاطميين في جنوبي بلاد الشام عندما كانت الدولة الفاطمية تعاني من أزمات سياسية واقتصادية في مصر.

وفيما يتعلق بالكلبيين فقد كانت قبيلة بني كلب العربية القحطانية الأصل اليمانية تتمركز في دمشق وما حولها مثل البقاع وحمص وتدمر وباديتها وفلسطين والأردن حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي[7] ولم يكن لها اسرة تتزعمها كآل جراح.

وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي انتشرت هذه القبيلة في بادية الشام[8]وظهرت على مسرح الأحداث السياسية منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في بلاد الشام

---

(1) العريني : الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، 1982، ص778-719.

(2) ابن الجوزي : المنتظم، ج8، ص45. وابن الأثير الكامل، ج9، ص230-231. والعيني : عقد الجمان، ج19، ص577.

(3) ابن خلدون: العبر، ج4، ص79، 352. وابو الفداء: المختصر، (ت 732هـ/1331م) 4 أجزاء في مجلدين، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص160.

(4) هاملتون جب : صلاح الدين، مترجم، ص27.

(5) ابن العديم/ م س، جـ1، ص266.

(6) ن م، ج1، ص278-279.

(7) ابن حزم : ت 456هـ/1062م، جمهرة انساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1962، ص456-459. والبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر : (ت 279هـ/892م): أنساب الأشراف، ط بيت المقدس، ج5، ص138.

(8) ابن خلدون : العبر، ج4، ص326.

كغيرها من القبائل التي خضعت للحمدانيين مما اثار مخاوف الفاطميين وتأرجحت علاقاتهم بهم كآل جراح وفقاً لمصالحهم المتضاربة[1]حيث وقف زعيمهم سفيان بن عليان الكلبي بجانب والي دمشق منغوتكين عام 387هـ/997م ثم انقلبوا عليه حينما أغراهم الفاطميون بالمال ثم اتحدوا مع آل جراح عام 414هـ/1023م لاقتسام الشام معهم واستمر هذا الحال حتى عام 419هـ/1083م، وعادوا لطاعة الفاطميين بعد وفاة سنان الكلبي.

ثم انقلبوا على الفاطميين بوقوفهم مع عرب الشام مع حاكم حلب ثمال بن صالح عام 442هـ/1055م، 448هـ/1056م[2] كما خرجوا عن طاعتهم منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بوقوفهم الى جانب اعدائهم من العرب في بلاد الشام مستغلين الأزمات الاقتصادية الخانقة التي كانت تعاني منها الدولة الفاطمية أيام المستنصر بالله لمدة سبع سنوات (457-465هـ/1064-1070م)[3] فثاروا ضد والي دمشق بدر الجمالي ثم هرب لصيداً ولاحقه مسمار بن سنان وهكذا استمر الكلبيون بمساعدة أهالي دمشق ضد الفاطميين حتى مجئ السلاجقة فوقفوا الى جانبهم لمقاومة الفاطميين.

ونرجع هذا الى نفس الاسباب التي جعلت آل جراح يثورون ضد الفاطميين، لذا كان حكم الفاطميين لبلاد الشام غير مستقر مستدلين بثورة العربان وكثرة عزل وتعيين الولاة الفاطميين.

وهكذا نلاحظ بالنسبة لدور القبائل البدوية انه كانت توجه للبدو دائما تهمه الاخلال بالأمن من نهب وقطع الطرق التجارية وفرض الأتاوات كبني طيء في فلسطين وكلب في منطقة حوران والثنية والبلقاء وبالمقابل فقد استخدموا في فترات اخرى حراسة الطرق التجارية والقوافل[4].

---

(1) ابن القلانسي : م س، ص77-78.

(2) المقريزي : اتعاظ، م س، ج2، ص210، وابن العديم : م س، ج1، ص66، 278-279.

(3) ابن عساكر : التاريخ الكبير، 19 جزء، مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم 3366، ويوجد منه نسخة مصورة في مكتبة جامعة اليرموك بالاردن، ورقة 302.

(4) ابن حوقل : صورة الأرض، ص165.

هذا وفي أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عندما كان اقليم الشام يتبع الخلافة الفاطمية في القاهرة، فقد خضع جزء من جنوب الشام لزعامات بدوية أمثال بني الجراح في الرملة وبني مرة من كلب الذين تمركزوا حول صرخد.

ونلاحظ هنا عدم استقلالية بني الجراح وبني كلب كالمرداسيين "من بني كلاب أيضاً في شمال سوريا" وبسبب قربهم الجغرافي من مصر الفاطمية. وربما رضي الفاطميون بالدولة المرداسية تحت ضغط الظروف العامة والموقع الجغرافي وذلك للوقوف أمام الدولة الكردية في الجزيرة ودولة بني عقيل في نصيبين والموصل.

وفي عام 462هـ/1064م كان بدر بن حازم الجراح الطائي يسيطر على البلقاء وما حولها من قلاع في عمّان، وحسان بن مسمار الكلبي يسيطر على جبل حوران وما حوله كحصن صرخد الذي بناه لنفسه، فلم يبق لوالي الشام الفاطمي بدر الجمالي غير عكا وصيدا[1] وكان جميع هؤلاء على الولاء الاسمي للخلافة الفاطمية في القاهرة. وذلك بعد محاولة الكلابيين قبل ذلك عام 415هـ/1024م تشكيل حلف بدوي شامي لطرد الفاطميين وتقاسم حكم الشام فيما بينهم حيث تقام دولة طائية في الجنوب في الرملة بفلسطين وتكون من نصيب بني الجراح وحسان بن المفرج، ودولة كلبية في دمشق بزعامة سنان بن عليان ودولة كلابية في حلب لبني مرداس ولكن هذا الحلف فشل عام 419هـ/1028م لتفرق القوى البدوية وتمزقها الداخلي، ففرض النظام الفاطمي نفوذه على جنوب بلاد الشام.

وهكذا كانت حالة بلاد الشام السياسية والاقتصادية قبيل وصول الأتراك اليها وذلك نتيجة الفقر ومظالم الفاطميين المالية والحروب والمنازعات الداخلية والأوبئة والمجاعات. ومنذ عام 463هـ/1070م وصلت جماعات سلجوقية عسكرية في عملية فتح سياسي عسكري ليرتبط تاريخ الشام مع تاريخ الترك[2].

---

(1) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان،ورقة 121،(مخطوط).

(2) ابن العديم : زبدة الحلب، ج2، ص16.

ويلاحظ على السياسة الفاطمية في جنوب بلاد الشام استعانتها منذ عام 462هـ/1069م بالناوكية "جماعة من التركمان الخوارزمية" لكسر شوكة العرب البدو[1]، حيث كان من زعمائهم في جنوبي الشام ابن أخ ابن خان الخوارزمي عام 464هـ/1072م[2].

ويذكر المؤرخون ظهور زعامة جديدة لهم بقيادة اتسز بن أوق[3] اذ فتحوا الرملة وبيت المقدس، ثم طبريا واقتسموا غلات البلاد، وندم بدر الجمالي على استخدامه لهؤلاء الاتراك الخوارزميين بعد انقلابهم عليه وسيطرتهم على كافة المناطق الداخلية لولايته الشامية[4] وفتح بيت المقدس وتأسيس مملكة اتسز في فلسطين ما بين 463-471هـ/1070-1078م[5].

وبقي الوضع كذلك حتى دخلها السلاجقة زمن ملكشاه بعد ضعف اتسز بزعامة تتش عام 472هـ/1079م[6].

وحاصر تنتش القدس حيث كان بها اتباع اتسز فيها عام 478هـ/1079م ولم يتمكن منها حتى عام 475هـ/1082م[7].

وهكذا كان دخول الأتراك الغز لجنوبي بلاد الشام لملء الفراغ السياسي نتيجة الصراعات البدوية والضعف العسكري، ولم يدخلوا كغزاة طامعين وإنما دعاهم الوالي الفاطمي لجنوبي بلاد الشام كما دعاهم الأمير المرداسي في شمالي الشام، وقد رافق دخولهم الفتن والتمزق السياسي الفاطمي والبيزنطي أيضاً بالإضافة للتدهور الاقتصادي ويلاحظ أن الموجة التركمانية جاءت معها بعدد كبير من أبناء الشعوب الأخرى، كالأكراد الذين أصبح لهم دور قيادي فيما بعد صلاح الدين الكردي، هذا مع العلم بأن الجماعات التركمانية التي توطنت في بلاد الشام تراوح عددها ما بين 15-20 ألفاً قبيل مجيء الصليبيين.

---

(1) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، صورة مخطوط بباريس ، ص134 وجها وظهرا، دار الكتب المصرية.

(2) ابن العديم : ن م، ج2، ص31.

(3) ابن كثير : ن م، ج10، ص103، "يذكر اسم اقسيس والصحيح انه اتسز واما المقريزي فيكتبه أطز.

(4) سبط ابن الجوزي : ن م، ص135. ذكر اسباب الاختلاف بين الناوكية الخوازميون والجمالي ما بين عام 462-463هـ : "طلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا فقال ما عندي مال. وما سلطتكم على العرب الا ان تقنعوا بنهبهم وما اقطعكم من الشام فقالوا نحن اخذنا البلاد بسيوفنا .... ثم جاؤوا فنزلوا على طبرية ...".

(5) سبط ابن الجوزي : ن م، ص146 وجها وظهرا، وابن الأثير : الكامل، ج1، ص68.

(6) سبط ابن الجوزي : ن م، ص47، وابن العديم : م س، ج2، ص56.

(7) سبط ابن الجوزي : ن م، ص 174-175.

وبالنسبة لدور القبائل العربية في جنوب بلاد الشام زمن الحروب الصليبية:

لقد أدت سياسة الصليبيين ضد السكان من مسلمين ومسيحيين في القدس وغيرها من مدن فلسطين ومن مذابح جماعية[1] وطرد سكاني جماعي بهدف الاستيطان في مدينة القدس[2]، إضافة الى سوء معاملتهم للمسلمين في المناطق التي خضعت لسيطرتهم وايذاء المزارعين بالحبس والعقاب والضرائب الباهضة[3]. كل هذا الى ازدياد كراهية السكان للغزاة الصليبيين المستعمرين لبلادهم وخاصة عندما حاولوا تغيير معالم الأرض العربية الاسلامية ومقدساتها كتحويل قبة الصخرة الى كنيسة لاتينية باسم معبد السيد "Templum Domini"، وغيروا اسم المسجد الأقصى لمعبد باسم معبد سليمان[4] "Templum Solomonis"، وقسموه الى ثلاثة أقسام الأول صار كنيسة والثاني مسكناً لهيئة الداوية والثالث مستودعاً لذخائرهم ومهماتهم العسكرية.[5]

هذا بالإضافة الى إحراقهم المصاحف وإرسالهم رؤوس القتلى المسلمين الى بلادهم كنوع من الدعاية للحروب الصليبية[6] ولتحويل أرض المسلمين الى أرض لاتينية تدين بالمسيحية الكاثوليكية على مذهب كنيسة روما[7] بعد القضاء على الإسلام.

---

(1) Runciman, Vol. I, P.187.

(2) براور، عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده وخليفة، ط1 القاهرة 1981م، ص98.

(3) ابن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، جـ1، ص26.

(4) جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص228. وعبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط القاهرة، ص200. وعارف العارف، تاريخ القدس، ط القاهرة، ص74.

(5) جوزيف نسيم، م س، ص228. وللمزيد من المعرفة عن تحويل مساجد المسلمين في القدس الشريف الى كنائس أنظر اب جبير: الرحلة، ابن شداد الحلبي، الاعلاق الخطيرة، جـ2، ص202..وسعيد عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى: ط بيروت 1977م، ص200. Runciman, Vo;. II, P.340.

(6) الذهبي، دول الاسلام، جـ2، ص119، وابن ايبك الدواداري، الدرر المطلوب ص213. وابن واصل، فرج الكروب في أخبار بني أيوب/ جـ4، ص44. وشاكر بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ط.بيروت 1972، ص259. وميخائيل اسكندر، القدس عبر التاريخ، ط1. القاهرة 1972، ص58.

(7) جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص265.

لذا كانت ردة فعل المؤرخين والأدباء والكتاب المسلمين الى وصفهم بعبارة "الكافر"(1) أو في صيغة الجمع "الكفرة"(2) و "كفار"(3) أو "عبدة الصليب"(4).

هذا وقد غلبت هذه التعبيرات على المصادر الاسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي بعد نجاح حركة الجهاد الاسلامي في تصفية الوجود الصليبي في جنوب بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجرية / الثاني عشر والثالث عشر الميلادية.(5)

لذا كانت نتائج سياسة مملكة بيت المقدس العدوانية ذات الطابع الهجومي بعد اكثارهم من القلاع والحصون التي انطلق منها فرسانهم لتهديد حياة المسلمين(6) ومصدر رزقهم وذلك بما رافق عمليات القتل والابادة الجماعية من سلب ونهب وتخريب للممتلكات الاسلامية والمحاصل الزراعية وتعطيل تجارتهم بفرض الرسوم الباهضة(7)، كل هذا أدى الى ملء قلوب المسلمين كراهية ورغبة في التخلص من هذا الكيان الصليبي الغريب على الأرض العربية فهبوا مدافعين عن كيانهم ولبوا نداء الجهاد الذي رفعه صلاح الدين الأيوبي للمشاركة في تحرير أراضيهم في معركة حطين الحاسمة 583هـ/1187م، وما تلاها من مواجهات حتى أضعفوا الكيان الصليبي من خلال نشاطهم العسكري في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وطردهم نهائياً أيام المماليك.

وهكذا يلاحظ ارتباط حركة الجهاد الاسلامي ضد الوجود الصليبي بعوامل السياسة الصليبية في المنطقة، وعوامل أخرى سياسية وفكرية نبعت من حركة المجتمع الاسلامي نفسه، ويلاحظ أيضاً دور الفقهاء والعلماء المسلمين(8) في تشجيع وتنشيط حركة الجهاد

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، تحقيق صبيح، ص378. وبراور، عالم الصليبيين، ص74. وابن أيبك الدواداري: الدرر المطلوب، ص160، ص378.

(2) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، ورقة 33.

(3) القاضي الفاضل، انشاءات القاضي الفاضل، تحقيق فتحية البنراوي، ط1 القاهرة 1960م، ص107.

(4) ابن ايبك ن م، م س، ص198.

(5) لامونت، الحروب الصليبية والجهاد، في دراسات اسلامية، ط. بيروت 1960م، ص107. وكاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، ط.بيروت 1973، ص316.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ2، ص269.

(7) ابن جبير: م س، ص210.

(8) المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص529.

الاسلامي بالإضافة للمدارس وأماكن العبادة وخاصة المسجد بدوره الهام في حياة المجتمع الاسلامي حين كان مركزاً للحياة الدينية والمدنية.[1]

وقد أثبتت الأحداث التاريخية موقف أهالي جنوب بلاد الشام البطولي برفضهم الاحتلال الاجنبي المتمثل بالصليبية والمغول، فقاوموه قدر استطاعتهم لكن الظروف العامة المحيطة بهم من الصراعات الاسلامية المتمثلة بين الفاطميين والسلاجقة عام 495هـ/1101م[2]، وما لحق بهم من ظلم وقهر نتيجة هذا الصراع[3] ، وموقف هؤلاء المخزي من مجريات الأحداث وتخاذلهم في التصدي للحملة الصليبية الاولى، بل شلت الخيانة عقول بعض قادتهم كالافضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين في مصر الذي مد يده لمصافحة المعتدين الصليبيين لاقتسام بلاد الشام معهم متأثراً بأنانيته البغيضة[4] لانتزاع ملك مصر من الفاطميين واضعاف السلاجقة الاتراك وتثبيت حكمه، مما دفع أهالي جنوب بلاد الشام إلى الاعتماد على انفسهم والتضحية والاستشهاد من أجل الدفاع عن بلادهم ومقدساتهم وخاصة بعد استيلاء الفرنجة على بيت المقدس والذي امتد حكمهم له من 492-583هـ/1099-1187م، ولم ينجدهم احد[5] فرفضوا التعامل والتعاون معهم، مما دفعهم للهجرة الى شرقي الاردن وسوريا الامر الذي نتج عنه اهمال الزراعة في الساحل الفلسطيني كعقاب اقتصادي للمعتدين[6] . مما اضطر الصليبيين الى

---

(1) حسين مؤنس، المساجد، ط.الكويت 1981م، ص34. وعبد المنعم ماجد، الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، ط. القاهرة 1963م، ص94-95.

(2) لقد تحالفت قبائل طيء وبني كلب العربية عام 414هـ/1023م لاقتسام البلاد الشامية فيما بينهم . فهاجمهم الفاطميون وقضوا على هذا الحلف لشعورهم بخطر هذا الحلف على حكمهم. وانظر الاثير: الكامل،ج7،ص244، وابن العديم: م س، ص323، 230 وابن خلدون: العبر: مجلد4، ص 582 وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص74. كما كان لقبائل ربيعة دور طليعي ومؤثر زمن الاتابك زنكي صاحب الموصول وطغتكين السلجوقي حاكم دمشق علماً بان بني ربيعة هم ابناء حازم من بني الجراح من طيء عرب الجنوب في بلاد الشام. انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص203، كحالة: م س، ج2، ص421.

(3) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: بيروت، 1908، ص140.

(4) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5، ص153 حيث قال: ((واشتغل بها عن السواحل الشامية حتى استولت الفرنج على عاليها، وندم على ذلك حين لا ينفع الندم). والمقريزي: اتعاظ الحنفاء، جـ3، ص24، "والأفضل هو أبو القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ولد في عكا من أصل أرمني عام 408هـ/1061م".

(5) ابن القلابنسي، م س ، ص140.

Wiliam of Tyre, Ahitozy of deads done boyond the Sea, U.S.A. 1943, vol,1, P.345.

(6) حيث اعتبر وليم الصورى ترك الزراعة كعقوبة ليعاني الصليبيون من الجوع. وانظر فوشيه دي شاركر :

Wiliam of Tyre,op. Cit vol 1 p.409 Fulcher of chaers, op. cit, vol, 1, p.130.

تشجيع الهجرة المعاكسة نحو فلسطين فقاموا. بتهجير سكان البلقاء والسلط ووادي موسى النصارى الى القدس بالترغيب والترهيب واسكنوهم في حي اطلقوا عليه اسم ((حي المشارقة)) للعمل بالتجارة والصناعة لقلة السكان. ثم تحركوا نحو جنوب شرقي الاردن عام 504هـ/1106م لاستراتيجيها بين الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية والعراق، ولكثرة قلاعها، وخيراتها بقيادة "بغدوين الاول" الذي جدد بناء قلعة الشوبك وسماها (مونتريال) وبنى قلعة "فرعون" في العقبة، فأرعبوا البلاد كلها مما دفع بعض القبائل للسيطرة على طريق بيت المقدس -الرملة وقد وصف وليم الصوري هذه المقاومة الوطنية المشروعة تجنياً على الحقيقة بحرب العصابات، وسمى سكان القرى بـ (Casalia) لرفضهم الاحتلال الصليبي، وانضمامهم الى صفوف المجاهدين في بلاد الشام حيث عملوا كأدلاء لهم عند دخولهم فلسطين وحولوا كل البلاد لمقاطعة من الرعب حيث لم يجرؤ أحدٌ منهم علىالخروج من التحصينات[1] كما خرج بنو عياد من الكرك تلبية لنداء صلاح الدين الايوبي الى الشام ومصر بعد ان اجبرهم الصليبيون على تقديم خدمات لهم كناقلي اخبار وأدلاء طرق. فأراد صلاح الدين حرمان الفرنجة من هذه المميزات.

وهكذا نرى الموقف الايجابي البطولي لسكان جنوب بلاد الشام من الاحتلال الصليبي وبالمقاومة قدر استطاعتهم والحقما شهدت به الاعداء[2]. بينما اغفلت المصادر التاريخية العربية الاشارة اليها، وذلك لاشتغال المؤرخين الرسميين بالتأليف لكبار الامراء والخلفاء والسلاطين، وربما بسبب انعزال تلك المقاومة في داخل فلسطين، بينما تركزت مراكز حركة التأليف التاريخي للصراع الاسلامي الصليبي قبل تحرير بيت المقدس عام 1187/583 خارج تلك المناطق التي شهدت عنف تلك المقاومة.

---

(1) ابو المحاسن : م س، ج5 ، ص153.

(2) حيث ذكر وليم الصوري : ((...... وكانت البلاد مليئة بالعصابات مما دفع بغدو الاول لمهاجمة سكان القرى المحيطة بالقدس، وسفك دماء كثيرة...)).كما تابع وليم الصوري: حقده الصليبي على شعبنا بقوله : ((انهم كانوا اعداء قساة على شعبنا وعلموا عدونا كيفية تدميرنا، لامتلاكهم معلومات كافية عن حالتنا، اذ لا يوجد اكثر دماراً وتأثيراً من وجود عدو داخل ابوابنا وحولوا كل البلاد لمقاطعة من الرعب.. Wiliam of Tyre, Op. Cit, vol, 1, P.408.

فابن القلانسي ركز على دمشق وحركة الجهاد الاسلامي، ويبدو عدم وصوله روايات كافية عن حجم المقاومة الداخلية، فاغفل الاشارة اليها في تاريخه. وقد اشار الرحالة الاوربيون في مملكة بيت المقدس الى مقاومة القبائل العربية، أمثال ((سايو لف)) البريطاني الذي قام برحلة ما بين 1102-1103م زمن الملك بلدوين الاول والذي يذكر ايضا بان الصليبيين استولوا على عكا Acras وتسمى أيضا "Accaron" عام 1104[1] .

وكان عنوان الرحلة :

Saewulfiad Peregrinatione saewulfiad Hiersolymanet Terrae Sanctam.

وقد اعتمد الدكتور محمد مؤنس احمد على الترجمة الانجليزية لهذه الرحلة[2] وتمثل هذه الرحلة الى فلسطين اهمية خاصة كرحلة مبكرة خلال السنوات الأولى للاستقرار الصليبي في بلاد الشام والتي تعطينا صورة هامة عن الصراع الاسلامي الصليبي خلال ذلك العهد المبكر وتوضح الصعاب التي واجهت بعض الحجاج الصليبيين في طريقهم الى الاماكن المقدسة بالإضافة الى مظاهر التدمير والتخريب لكثير من المدن في فلسطين.

ومن الجوانب الهامة في رحلته وصفه للمقاومة العربية الاسلامية ضد الحجاج الصليبيين القادمين من اوربا خلال الطريق[3] من يافا الى بيت المقدس حيث قطعها في يومين ووصف هذا الطريق في ص9-8 من يافا Joppa الى بيت المقدس Jerusalem كانت خطيرة بسبب تواجد

(1) المقدسي: أحسن القاسم، ط ليدن 1967م، ص 162-163، ناصر خسرو: سفرنامة تحقيق الخشاب ط. القاهرة 1945، ص15، الادريسي: نزهة المشتاق الى اختراق الافاق: تحقيق جابريلي وديلاميلا وآخرون، طبعة نابلي، جـ4، ص365، ابن جبير، الرحلة ط بيروت 1980م ص27، ابن بطوطة: الرحلة ، ط بيروت 1962 ص35.

(2) د. محمد مؤنس، الرحالة الاوربيون ص42-45 و ص262 الملحق. William of Tyre, vol.1, PP. 454-456.

(3) لقد وصف الدكتور محمد مؤنس محمد عوض هذا الطريق بين يافا والقدس بطبيعته الجبلية بطول سبع وستين كيلومتراً، حيث يبدأ من غرب بيت المقدس من الباب الغربي ((باب يافا)) ويمتد على هضبة القدس عبر دير ياسين وابو غوش ثم الرملة- وشيد الصليبيون ستة حصون لتأمين هذا الطريق: د. محمد مؤنس أحمد عوض: التنظيمات الدينية الاسلامية والمسيحية بلاد الشام، ص375.

وانظر : سيد فرج: القدس عربية اسلامية، القاهرة العدد3، السنة 8 يناير 1984م ص12 وانظر د. محمود الحويري: الاوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ط1، القاهرة، 1979 ص186، والواقع انه اخطأ في ذكر قلعة شقيف ارنون بين يافا وبيت المقدس، حيث تقع هذه القلعة في جنوب لبنان، وربما نقل عن احد الرحالة الاوروبية وانظر عبد العزيز عبد الله: دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس، اللاذقية حتى عام 1187م. رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب، جامعة الزقازيق، 1988، ص122.

القبائل العربية في تلك المناطق الجبلية الوعرة، حيث كانوا يختبئون في الكهوف الصخرية لمراقبة هذا الطريق ليل نهار لمهاجمة الحجاج الصليبيين وبصورة فجائية واختفائهم بسرعة، وروى رؤيته لجثث الصليبيين على جانبي الطريق تلتهمها الوحوش.

وهكذا يتضح لنا عنف المقاومة الاسلامية في ذلك الطريق حيث بلغت حداً من السرعة دفعت الصليبيين الى تجنب دفن قتلاهم خوفاً من هجوم المسلمين المباغت عليهم .

وقد وصف سايولف الانجليزي هذه المقاومة بالقرصنة والسلب والنهب ونسي مجازر الصليبيين في بيت المقدس وحيفا ويافا وعكا عند فتحها تعبيراً عن حقده الدفين على المسلمين.

فكان هؤلاء العرب المسلمون يقومون بواجب الجهاد وتحرير اراضيهم من الصليبيين القراصنة اصحاب المجازر البشرية في فلسطين.

كما ادركت القبائل العربية الاسلامية بأن اولئك الحجاج يشكلون دعماً بشرياً للكيان الصليبي من حيث المشاركة في المعارك الحربية او المساعدة في بناء القلاع والحصون.

وقد ظهر التعصب الديني في وصف سايولف للمسلمين حيث يشير الى بلاد العرب Arabia بقوله ((وعلى الجانب الاخر من الاردن (نهر الاردن) توجد بلاد العرب وهي التي تناصب المسحيين عداءً شديداً ولا تصادق كل الذين يؤمنون بالله))[1] .

كما ظهر حقده على العرب بنسبة كل مكان مخرب بهدم في فلسطين الى العرب[2] .

ونرد عليه بان مثل هذا التدمير –ان وجد– في المدن الفلسطينية فقد كان نتيجة للحروب الاسلامية الصليبية، كمدينة بيت لحم حيث ذكر بانه لايوجد منزلاً تركه العرب قابلاً للسكن، بل تم سلب كل شيء ونهبه[3] ، وكذلك ما حدث في مدينة الخليل[4] ، التي نهبت وخربت على أيدي العرب كما خربوا مدينة الناصرة بصورة كاملة[5] .

---

(1) Saewulf. P. 23.

(2) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط. القاهرة 1948م، ص 82.

(3) Saewulf , p.24.

(4) Ibid, P. 24.

(5) Ibid, P.24. وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق او وضمن حوادث عام 1106/500 فساد الصليبيين في أعمال الواد وقيامهم بالتخريب والنهب والسلب.

هذا وقد اكد الرحالة الروسي دانيال "Abbot Daniel" الى بيت المقدس عام (1106-1107م) مقاومة القبائل العربية الاسلامية حجاج بيت المقدس في طريق يافا - بيت المقدس، مما جعل مملكة بيت المقدس تعهد بأمر الدفاع عن هذا الطريق الى عناصر فرسان الداوية ((Templars)) مما جعل الحجاج الصليبيين في رعب دائم خلال هذا الطريق الجبلي[1] .

ومن المرجح ان عناصر البدو من أبناء القبائل العربية قد ساهموا بنصيب وافر في هذا المجال.

كما يدل هذا على عدم تمكن الصليبيين من سيطرتهم على هذه المناطق خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الاستقرار الصليبي في المنطقة فقامت حركة المقاومة العربية الاسلامية على هذا الطريق الممر الحيوي والرئيسي للحجاج القادمين من اوروبا لزيارة بيت المقدس بما يشبه حرب العصابات ضد الصليبيين التي اعتمدت على اسلوب الكر والفر والمباغتة لتحقيق اكبر الخسائر في صفوف الصليبيين. فكان هذا هو الحل المنطقي لمواجهتهم بعد احتلالهم لاجزاء هامة من بلاد الشام.

كما أبرز دانيال الروسي صوراً أخرى للمقاومة العربية متمثلة في حامية عسقلان ((Ascalon)) حيث نفذت هذه الحامية ثلاث غزوات كبيرة ضد أملاك الصليبيين في الاعوام (1101م، 1102م، 1105م). وثلاث غزوات صغيرة خلال أعوام (1107،1113،1105م)[2].

ويؤكد فوشية الشارتري ((Fulcher de Chartres)) شجاعة وبطولة حامية عسقلان قليلة العدد بتفوقها وانتصارها على القوات الصليبية كثيرة العدد حيث تمكن من اختراق الصفوف الصليبية والوصول الى اسوار القدس وإشعال الحرائق هناك[3] . كما شكلت قاعدة للاسطول الفاطمي هناك[4] مما حفز الصليبيين لاسقاطها واخضاعها لهم.

---

(1) د. محمد مؤنس عوض، ص 79.

(2) ن م، ن ص.

(3) Fulcher of Cartres, p.29, p.250.

(4) Stevenson, The Crusades in the east, p.172. Lane poole Ahistory of Egypt in the middle east, London, 1901, p.173.

وهكذا كشفت هذه الرحلة طبيعة الاخطار الحربية والاوضاع الامنية غير المستقرة التي عانى منها الصليبيون في بداية استقرارهم هناك وجدير بالذكر أن هؤلاء الرحالة سايولف ودانيال الروسي وغيرهم امثال متليوس (1118-1130) ويوحنا الورز برجي الالماني (1160-1170م) ، وايوفرو زين الروسيه (1162-1172) .

وغيرهم الى بيت المقدس، قد حرصوا على اظهار الصعاب والمخاطر التي عانوا منها للوصول الى الاماكن المقدسة في فلسطين من عواصف وهجمات المسلمين عليهم، وذلك ليباهوا معاصريهم والاجيال اللاحقة بهم لقوة ايمانهم وتقواهم التي امدتهم بالصبر والمثابرة، وليظهروا لهم ايضاً بطولاتهم الفردية لرفع معنويات هذه الاجيال لتتبع خطاهم والقدوم الى الاماكن المقدسة.

ثم تطورت المقاومة العربية في عهد الصحوة الاسلامية زمن صلاح الدين الايوبي على شكل متطوعين في الجيش الصلاحي او ادلاء للجيوش ما بين مصر والشام.

اذ ساهم بدو سيناء وجنوبي فلسطين مساهمة فعالة ونافعة كأدلاء لعساكر صلاح الدين التي تنطلق من مصر باتجاه الشام أو بالعكس[1] كما ساهم أهل غزة بفلسطين بصناعة سروج الخيل المعدة للفرسان المسلمين[2] هذا وقد اعتمد عمه أسد الدين شركوه على القبائل العربية في مصر والشام، والمعروف أن لفظ العرب كان يطلق على الجماعات البدوية او ابناء القبائل، رغم ان سكان المدن كانوا عرباً كذلك.

ثم سار صلاح الدين على خُطى عمه في ادخال العرب الى جيشه حيث ظهر في العرض العسكري الذي أقامه صلاح الدين يوم 8 محرم 11/567ايلول 1171 قبيل وفاة العاضد بيومين وعلى اثر قطعه للخطبة الفاطمية في المسجد يوم الجمعة، وشوهد في هذا العرض العسكري العرب الجذاميون[3] ، وكان عددهم سبعة الاف فارس، ثم خفض عددهم الى الف وثلاثمائة فارس، وخفض راتبهم الى العشر مما كانوا يأخذونه، أي الى مائة الف دينار، وهذا ما فعله مع

---

(1) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص11.

(2) ن.م ص113.

(3) المقريزي: السلوك، جـ1، ص47.

العرب الثعالبة ايضاً، مما اثار معارضتهم وجعلهم يلوحون بترك الخدمة والانضمام الى الفرنجة[1]، علماً بان موطن الثعالبة بين العريش ورفح أي مما يلي أرض مصر من جهة الشام، اما قبيلة جذام فكان موطنها بين القاهرة وعقبة ايله[2] ، وكانوا قد قدموا مصر مع الفتح الاسلامي[3] .

كما تعاونت جماعات اخرى من العرب مع صلاح الدين رغبة في الجهاد، او الحصول على الغنائم ، بصفة جنود غير نظاميين، كما حصل مع نور الدين زنكي عندما تعاون معه عرب الشام امثال بنو بحتر القحطاني الذين اقرهم على ما بأيديهم[4] كما اعتمد نور الدين على العرب القاطنين في جنوب بلاد الشام كأدلاّء لجيشه، بين مصر والشام[5] والذين استمروا بهذه المهمة في جيش صلاح الدين الأيوبي على الرغم من أن قسماً منهم تحولوا للعمل لحساب الصليبيين[6]، لاسيما مع ريتشارد قلب الاسد[7] .

ونرجح أن أسباب انضمامهم للصليبيين كان نتيجة للصراع القبلي بين بدو المنطقة أو طمعاً في زيادة المكافأة المالية التي دفعها لهم الصليبيون زيادة عما كان يدفع لهم صلاح الدين لتهريب الحبوب الى الفرنجة[8] بالإضافة الى النزعة البدوية التي كان يعوزها الوعي الديني

---

(1) ن.م، ن.ص.

(2) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق د. عبد المجيد عابدين، ملتزم الطبع والنشر عالم الكتب، القاهرة، 1961، ص19.

(3) ن.م، ص23.

(4) صالح بن يحيى، كتاب تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1969، ص90. وابراهيم علي طرخان: النظم الاقطاعية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1988، ص32.

(5) اسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، مطبع جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930، ص11.

(6) ابو شامة: الروضتين، جـ1، ق2، ص526 ، سبط ابن الجوزي، ابو المظفر شمس الدين قزا وعلي التركي (ت256/654م: مرآة الزمان في تاريخ الاعيان مطبعة حيدر آباد الدكن، الهند، 1951، ج8، ق1، ص293.

(7) ابن شداد الأسدي: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق الشيال، القاهرة 1964، جـ1، ق2، ص526. وابن واصل (ت1299/697) : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب القاهرة 1953م، جـ2، ص28 ، ابو شامة: الروضين في اخبار الدولتين، مجلد يضم ج1، ج2، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1287هـ/جـ2 ص192.

(8) المقريزي: السلوك، ج1 ص71 وانظر: البنداري: قوام الدين الفتح بن علي (ت القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي: سنا البرق الشامي) تلخيص البرق الشامي للعماد الاصفهاني، تحقيق د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971 وحب : صلاح الدين ص173 (نقلا عن مخطوط البرق الشامي ج3 ورقة 170.

والتوجيه والتنظيم لمسايرة حركة الجهاد، مع العلم بأن معظمهم ظلوا تائبين على موقفهم من الجهاد الاسلامي والتطوع في صفوف الجيش الاسلامي.

ولكن البدو المتعاونين مع الصليبيين اصبحوا مصدر متاعب لجيش صلاح الدين وخاصة قبيلة بني عبّاد والتي كانت تسكن منطقة صرخد الملاصقة لحوران من جهة الاردن[1] .

مما أجبر صلاح الدين على ابعاد مائتي فارس من ابطال الحرب من هذه القبيلة وغيرها عام 568هـ/1170م الى دمشق، وطلب من نور الدين محمود اعطاءهم إقطاعات اقليمية ليبعدهم عن ساحة الحرب مع الصليبيين، لانهم كانوا يشكلون خطراً على المنطقة العراقية بين مصر والشام لمعرفتهم بطرقها[2] .

كنما تشير المصادر التاريخية الى استخدام الكمائن[3] البدوية العربية في جيش صلاح الدين وخاصة بعد عام 585هـ/1189م للتحرش بقوى اعدائه الصليبيين، ليشاغلهم ولكي لا يفسح المجال لراحة جنودهم وليمنعهم من جمع قواتهم حول عكا، فكان على الجيش الايوبي، ان يدافع عن عكا من جهة، وأن يفرض الحصار على الصليبيين الذين يحاصرون عكا من جهة اخرى، ويرسل الكمائن للتحرش بالجماعات الصليبية هنا وهناك من جهة ثالثة. ومما هو جدير بالذكر أن مواصفات فارس الكمين كانت متوفرة بشكل عام في جماعات البدو من عرب جنوبي بلاد الشام حتى حدود مصر، فشكل هؤلاء احتياطاً جيداً في تزويد جيش صلاح الدين بالقوات الضرورية في أوقات الحرج لشن الغارات على العدو مع القدرة على التظاهر بالهزيمة والضعف امام العدو، مع القدرة على الاندفاع السريع لخفتهم[4] .

---

[1] البنداري: ن م، ج1، ص125، والقلقشندي، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، مطبعة النجاح، بغداد 1958، ص4-13.

[2] دريد عبد القادر نوري: سياسة صلاح الدين، مطبعة الارشاد، بغداد 1976، ص102-103.

[3] الكمائن: تعني ارسال عدد قليل من المحاربين الفرسان الى جهات العدو ومباغتته، والايقاع به في مناوشات محدودة لا تصل الى حد القتال الواسع النطاق، فكانت الكمائن سرية الأوسي الانصاري، عمر بن ابراهيم (أوائل القرن التاسع/اوائل القرن الخامس عشر الميلادي): تفريج الكروب في تدبير الحروب، حققه وترجمه الى الانجليزية الدكتور جورج سكانلون، منشورات الجامعة الامريكية بالقاهرة، 1961، ص71.

[4] ابن شداد: ن م، ص108.

وكانت الاحراش الكثيفة والجبال المغطاة بالاشجار في فلسطين عاملاً اساسياً في نجاح عمل الكمائن بالإضافة لشجاعة البدو من القبائل العربية هناك ومعرفتهم الاكيدة بالطرق الوعرة ليلاً ونهاراً بين جيش صلاح الدين والصليبيين في الساحل.

فقد ارسلت هذه الكمائن للقيام بعمليات عسكرية محدودة الاثر لاحراج العدو وجعله لا يشعر بالامان، بما يشبه اليوم الأعمال الفدائية أو المغاوير فكان لجماعات البدو وامراء العرب دور بارز في عمليات الكمين في العهد الايوبي.

ولعل من أبرز حوادث الكمين ما وقع في جمادي الاخرة عام 585هـ/1189م حيث ارسل صلاح الدين كمينا من العرب ليمنع الصليبيين من الخروج من صور الى جبل تبنين[1] ، لجمع الحشيش أو الحطب ويبدو أن الصليبيين قد علموا بأمر الكمين فاستعدوا لذلك ودار قتال بينهم حيث قتل من الفرنجة زهاء عشرة أشخاص ستة منهم واربعة من امراء العرب من بني ربيعة كالأمير زامل بن تبّل، والأمير حجّي بن منصور، والامير مطرف بن رفيع، واخر معهم[2].

وهكذا نلاحظ دور بني ربيعة الطليعي في جيش صلاح الدين باستشهاد هؤلاء الامراء من أبناء ربيعة.

كما ذكر ابن شداد قائلا ((خرج العدو للاحتشاش من طرف النهر، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب...لخفتهم)) فهجموا على الفرقة الصليبية على حين غرة ((وقتلوا منهم خلقاً عظيماً واسروا جماعة، واحضروا رؤساء عدة بين يديه، فخلع عليهم وأحسن اليهم))[3].

ويذكر ابن شداد انه خرج مع السلطان صلاح الدين ليطلع على اعمال كمين من العرب في بطون أحد وديانة جنوبي الشام[4] فقتلوا من الصليبيين ستين صليبياً فعاد السلطان الى خيمته شمال طبرية فعاتبه الملك ريتشارد على ذلك.

---

(1) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين صور ودمشق. الحموي: معجم البلدان، جـ2 ص14.والعماد: الفتح القسي، ط. القاهرة، ص135.

(2) العماد الأصفهاني: ن م، ص294. ابن شداد: م س، ص151، ابن الاثير، م س، جـ11، 30-31.ابو شامة: الروضتين ج2/ص141، ابن واصل: مفرج الكروب ج2 ص287-288.

(3) ابن شداد: ن م، ص 108، العماد: م س، ص306، وابن واصل : ن م، ج2، ص294.

(4) ابن شداد: ن م، ص200 العماد الكاتب، ص559-560، تحقيق محمد صبح، الدار القومية للطباعة، القاهرة 1965،ص394.

ومن حوادث الكمين الكثيرة ما نصب مراراً اثناء حصار عكا، وكان أعظمها ما حدث في 22 شوال عام 586هـ/1190م حيث وضع السلطان صلاح الدين كميناً في سفح جبل شمال عكا اطلق عليه المؤرخون اسم ((وقعة الكمين[1])).

حيث حضره المؤرخ ابن شداد كشاهد عيان والعماد الكاتب، فخرج قسم من الكمين لمناوشة الصليبيين بالنشاب فلحقهم مائتا فارس[2] وطاردوهم على الخيل حتى أتوا الى كمينهم الذي خرج اليهم فجأة فانهزم الصليبيون، فقتلوا عدداً منهم واسروا الباقي مع خيولهم وبشروا السلطان بالنصر فخرج لاستقبالهم في تل كيسان[3] وتفقد الاسرى الصليبيين وكان بينهم مقدم العسكر الفرنسي، وخازن الملك، فقيدهم وأرسلهم إلى دمشق[4] .

وفي الختام نشير الى تطوع ابناء القبائل العربية في شمال الشام وجنوبها بالانضمام لجيش صلاح الدين حباً في الجهاد في سبيل الله ورغبة منهم في تحرير الارض العربية الاسلامية من الاحتلال الصليبي وذلك عندما وصل عهد الصحوة الاسلامية الى ذروته ايام صلاح الدين والذي بدأ بظهور المجاهد عماد الدين زنكي وابنه الشهيد نور الدين محمود، فلا غرابة اذ وجدنا ذروة التطوع في جيش صلاح الدين في موقعه حطين وفتح بيت المقدس والمعارك التي اعقبت ذلك في حصار عكا وغيرها، فكان هذا التطوع مدهشاً لدرجة انه استدعى انتباه المؤرخين[5] حيث قصده العلماء والصالحون للتطوع[6] .

هذا واختلفت واجبات الجند المتطوعة عن واجبات أفراد الجيش النظامي، حيث توكل اليهم الإغارة على العدو قبل نشوب المعركة لازعاجه في قواعده، وتخريب طرق امداداته وتموينه وقطع طرق المواصلات لعرقلة تجمعاته، كما توكل اليهم مهمة مطاردة العدو بعد

---

(1) ابن شداد: ن م، ص150، العماد الكاتب:ن م، ص448، ابو شامة: م س، جـ2 ص180 ابن واصل: مفرج الكروب ص 344.

(2) ابن شداد: ن م ، ص151، العماد الكاتب، م س، ص448 وفي الروضتين م س اربعمائة فارس نقلاً عن البرق الشامي.

(3) تل كيسان: موضع في مرج عكا من سواحل الشام، معجم البلدان، ج2، ص43.

(4) ابن شداد، م س ص151، العماد . م س ، 449 ابو شامة: م س ج180/2، ابن واصل: م س، ج2 ص 344-345 .

(5) ابن كثير: م س، جـ12 ص322. Lane Poole, Salaelin, p. 204.

(6) ابن كثير: ن م، ص324.

تقهقرهم[1] ، او أن يوضعوا في جناحي الجيش النظامي للاحاطة بجناحي العدو دون اختلاطهم بالجند المدربين. ولم يكونوا مدربين جيداً على صنوف القتال.

وربما كان تطوع بعض ابناء القبائل العربية الاسلامية للحصول على مكاسب مادية[2] فقد اعطاهم نور الدين من بيت المال من نصيبهم من الصدقات ((الزكاة)) لانهم كانوا يتمتعون بحظوة كبيرة عند نور الدين وصلاح الدين، فنالوا كل تقدير واحترام مادي ومعنوي.

ويُذكر أن أصحاب نور الدين عاتبوه لكثرة الأشعطيات للمتطوعين فقضى وقال لهم: ((والله إني لأرجو النصر بأولئك ... كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني، وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء))[3] .

وكثيراً ما كان يندفع هؤلاء العرب المتطوعين بحماس ديني دون خبرة حربية فيكونون اول الضحايا ويسببون الارباك والفوضى في صفوف الجيش الصلاحي ومن أمثلة ذلك ما حصل في جمادي الأولى عام 585هـ/1189م عندما خرج صلاح الدين مع عديد قليل من جنده وصعد الجبل لاستطلاع ما يفعله الفرنج المخيمون على مسافة قصيرة من المسلمين فظن العرب المتطوعون في جيشه وبعض العجم ان صلاح الدين ذهب للحرب فتوغلوا في أرض العدو وبعدوا كثيراً عن جيشهم ورفضوا الرجوع عندما ارسل صلاح الدين من يقنعهم بالرجوع[4] وتوغلوا داخل قوات الفرنج الذين قتلوهم جميعاً مما دفع صلاح الدين الى الثأر لهم والانتقام من الصليبيين قتلاً وغرقاً[5] .

---

[1] فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، نشر الدار القومية ، القاهرة، 1966، ص271-272.

[2] النويري: نهاية الارب، ج6، ص153، ابو يعلى الفراء: الاحكام السلطانية تصحيح وتعليق: محمد حامد النقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر، 1938/1356 ص23. وسعداوي، جيش مصر، ص17 نقلاً عن ابن منكلي – مخطوط.

[3] ابن الاثير: م س، جـ11، ص296، ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبد الحي (ت1089/1678) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مطبعة القديس، القاهرة، ط1350/1931) ج4، ص181.

[4] ابن الاثير: ن م، ج12، ص29.

[5] ابن الاثير، ن م، ص30، ابن واصل. م س ، ج2 ص285-286.

ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء المتطوعين كانوا ينتمون الى مختلف الفئات الاجتماعية من المسلمين من أبناء القبائل العربية في القرى والمدن فقراء وأغنياء، فقهاء وصوفية[1] .

وقد أطلق نور الدين اسم الأحداث على المتطوعين[2] ، كما كان لخطباء المساجد الأثر الكبير في توجيههم لرفد الجيش الصلاحي بعد خطبة الجمعة، فيخرجون من المساجد وهم يرددون الهتافات والدعوات زرافات ووحدانا ملتحقين بمعسكر الجيش الصلاحي، حيث كان صلاح الدين يوكل اليهم أحياناً قتل الاسرى بايديهم كما حصل في بيت الاحزان[3] عام 575هـ/1179م، وكما حدث بعد معركة حطين بقتلهم اسرى الفرقتين الصليبيتين الداوية والإستبارية[4] .

وهكذا لاحظنا أهمية القبائل العربية في الشام عامة وجنوبها خاصة أيام الحروب الصليبية، إذ زودوا الامراء المسلمين بقوات إضافية للإغارة على الصليبيين في عدة مناسبات، كما حدث عام 574هـ/1179م حيث استعان بهم صلاح الدين الايوبي في حروبه الحاسمة ضد الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ((ريكاردوس)) الملقب بقلب الاسد على طريق القدس، حيث اسهمت القبائل العربية بتقديمها العساكر والخيالة[5] .

كما كان أفراد هذا القبائل العربية يلتحقون بالجيش الاسلامي حباً في الجهاد او طمعاً في الغنائم وهو ما يطلق عليه بالمتطوعين لقتال الصليبيين ((الجند الاضافيون في جيش صلاح الدين)) كما حدث عام 575هـ/1179م أثناء الهجوم على قلعة صليبية عند مخاضة الاحزان قرب حطين، كما أشعلوا النيران في العشب اليابس يوم حطين 583هـ/1187م مما ساعدت الريح على حمل النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر النار والدخان وحر القتال، مما

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص340.

(2) د.سعداوي، م س، ص16.

(3) ابو شامة: م س، ج2، ص11، البنداري: سنا البرق الشامي (تلخيص البرق الشامي للعماد الكاتب الاصفهاني) تحقيق د. رمضان شنش، بيروت ج1، ص336.

(4) فليب حتي: تاريخ العرب، ص 634، محمد العروس المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب دار الكتب الشرقية، تونس 1954، ص70، وتعني الداوية: وهي تحريف الكلمة سريانية بمعنى فرسان المسيح الفقراء، والاستبارية : فرسان القديس يوحنا .

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص7، وابن شداد: النوادر السلطانية ، ص213-215.

عجل بهزيمة الصليبيين المنكرة ويسرت للمسلمين تحرير بيت المقدس[1] ، كما أشار بعض المؤرخين الى فضل بدو الشام في تزويد صلاح الدين بقوات اضافية للاغارة على الصليبية[2] .

وهكذا كانت القبائل الرحل من القوة الاحتياطية الاقليمية ايضاً.

وكان صلاح الدين الايوبي يوكل لأفراد العصابات من الأعراب بالمرابطة على التلال وتعقب الصليبيين في فصل الشتاء، عندما كان يسمح لعساكره بالعودة الى اهاليهم.

كما حدث عام 587هـ/1191م لمهاجمة جيش ريتشارد قلب الاسد المرابط قرب اللد حيث كانوا يهجمون على جنوده بين الفينة والاخرى، حتى ان بعض الشجعان من رجال البدو كانوا يدخلون على معسكرات الصليبيين ويأسرون بعضهم مع معداتهم وأموالهم بوضع الخناجر على نحورهم، وهكذا كان الاعراب يلحقون الخسائر الفادحة بمؤخرات المعسكر الصليبي[3] .

كما شاركت عشيرة الدوايمة في فلسطين صلاح الدين الايوبي في معارك التحرير لاخراج الصليبيين من قلعتها الحصينة، بعد طردهم من قلعة الداروم قرب غزة كما اهتم بها المماليك لموقعها العسكري والاستراتيجي[4] .

وبالنسبة لدور قبائل بني عوف في عجلون شمال شرقي الاردن عندما كانت الحرب سجالاً بين بلدوبين الصليبي وطغتكين السلجوقي في دمشق عام 514هـ/1115م. فقد وقفوا على الحياد من صراع الصليبيين والسلاجقة المسلمين لذا لم يهتم بهم الطرفان ولطبيعة البلاد الجبلية الصعبة وحياد أهلها. خاصة بعد تدمير بلدوين الثاني حصن جرش[5].

---

(1) ابو شامة: م س، ج2، ص11.

(2) نوري، دريد عبد القادر، سياسة صلاح الدين الايوبي في مصر والشام والجزيرة ، 570-589هـ/1174-1193م، ص457، وحب صلاح الدين، ص573. حيث اشير الى بني منقد أصحاب شيزر، وقبائل بني طيء كمتطوعين أيضاً في جيش صلاح الدين وابن واصل، م س، جـ2 ص285 ذكر اهمية المتطوعين في معركة حطين في ملاحقة الصليبيين الفارين من المعركة لقطع الطريق عليهم والثأر منهم، علماً بانه نصحهم بعدم اللحاق بجيشه في هذه المعركة و لم يجبروا على ذلك.

(3) ابن شداد: النوادر السلانية، ص192-193.

(4) مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل، بيروت، 1963، جـ2، ص386. وانظر : موسى عبد السلام ، قرية الدوايمة، دار الجليل للنشر، عمان، 1985م ص29.

(5) فرردبك بيك م.س ص 142 هامش 63 يذكر ان مسيحيا يدعى عجلون بني ديرا على هذه البقعة وان قرية كفرنجة (كفر الفرنجة) كان يقطن بها بعض اسرى الصليبيه الذين استخدموا في بناء القلعة القدية على التل المقابل.

وعندما جاء الايوبيون بزعامة صلاح الدين الايوبي واحرز انتصارات عديدة على الصليبية في شرقي الاردن وجه أنظاره الى شمال شرقي الاردن فاوعز الى احد امرائه عز الدين اسامة ببناء قلعة عجلون ليحمي طرق المواصلات بين سوريا ومصر ولتكون نداً لقلعة كوكب الهوا اللاتينية غربها في فلسطين ، وبعد سقوط مملكة اللاتين في فلسطين بعد معركة حطين عام 583هـ/1187م استسلمت قلاعهم في شرقي الاردن كقلعة الكرك 584هـ/1188 وكوكب الهوا وصفد والشوبك 585هـ/1189م وطهر صلاح الدين شرقي الاردن من الصليبيين ولم يمهله العمر حيث توفي 589هـ/1193م وتقاسم أفراد عائلته مملكته الواسعة فكانت جنوبي بلاد الشام ودمشق من نصيب ابنه الاكبر الافضل.

وبالنسبة لقبائل الصلت في شرقي الاردن فقد تعرضت قبيلة بني رحمان من سكان قرية كفر يهوذا المجاورة لمدينة الصلت لقافلة ايوبية فنهبوها وسبوا جواري الملك المعظم عيسى فهاجمهم المعظم عيسى ودمر القرية وقتل عدداً كبيراً منهم[1] في حوالي عام 594هـ/1198م، فكانت هذه الحادثة سبباً لبنائه قلعة السلط لحماية مسالك طرق البلقاء التجارية.

وفي عام 618هـ/1220م استنجد الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ابي يكر ايوب بعربان الشام بعد احتلال الفرنجة دمياط لمدة ستة عشر شهرا واثنين عشرين يوماً فلبى عدد كبير من البدو العساكر الشامية بحضورهم الى مصر مع عساكر السلطان التي بلغت عشرين ألف مقاتل[2] فأصبح عدد العساكر اربعين الف مقاتل[3].

اضطر بعدها الفرنجة لطلب الامان والرحيل عن دمياط وعقد الصلح بينهما واطلاق الاسرى [4].

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، 39/ص 81.

[2] ابن اياس : م س ، ج1 ، ق1، ص259.

[3] ن م، ص261.

[4] ن م، ص262.

نشاط أهل فلسطين في طرد الفرنجة زمن المماليك.

لقد شكل الامير شهاب الدين القمري جيشاً من التركمان والعربان وسار الى ابواب عكا لمهاجمة الفرنج، فاسروا جماعة منهم مع دوابهم[1] ، وكان ذلك بأمر من بيبرس عندما كان يحاصر قلعة قيسارية ليشغل الصليبيين في عكا ويمنعهم من ارسال نجدات للفرنجة المحاصرين في قيسارية[2] وذلك عام 663هـ/1265م

وفي 669هـ/1271م سار السلطان بيبرس سراً الى الكرك، وعين علاء الدين ايدكين استاذ الدار نائبا على الكرك بعد نقله عز الدين أيدمر من الكرك لنيابة الشام، وذلك عندما سمع بخروج العربان مع شيخهم عيسى بن مهنا فوزّع على خواصه اربعمائة الف درهم واثني عشر الف دينار لكسب ولائهم لمنازلة العربان المتمردين عند اللزوم[3] .

هذا وقد تمتع هؤلاء العربان بمركز اجتماعي اعلى من مرتبة الفلاحين[4] لما قدموه من مساعدات عسكرية وقت الحروب الصليبية والداخلية زمن المماليك كما فأوكل المماليك الى مشايخهم حفظ الامن والنظام في مناطقهم[5] كما قاموا بدور ارشاد الحجاج المسيحيين وحمايتهم مقابل مبالغ من المال لشيوخهم[6] ثم بدأت قبائل العربان التي استوطنت بيت المقدس وما حوله تتحول تدريجياً الى شعب زراعي مستقر. اما بالنسبة للالتزامات العسكرية على البدو فان المماليك سجلوهم في ديوان الجيش لمعرفة قبائلهم واعدائهم وخدماتهم الحربية للدولة وهي التجارية والمهمات الشريفة[7] .

---

(1) ابن عبد الظاهر : محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص231.

(2) ن م، ن ص.

(3) ابن ظاهر م س، ن ص.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص193.

(5) العبادي: قيام دولة المماليك الاولى، نشر مؤسسة شباب الجامعات اسكندرية 1982، ص129.

(6) Herry Formly (Rev): Avisit to the East, London. 1843 pp.328-329. حيث اشاد الرحالة الاوربيون بهذا الدور.

(7) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص103-136.

فقد ذكر ما يلي: "فالتحاريد تنقسم على نوعين نوع الى الغزوات ونوع الى المحاربين البغاة سواء كان في ذلك السلطان بنفسه او يعين من يختاره من جيشه فيكون على برمر واستعداد من الخيالة والرجالة والرماة بحيث انهم اذا صاروا الى العدو المخذول فهزموه مع الفروع والاصول، واما المهمات الشريفة فقد أصبحت ضرورة ثغر من الثغور او لشيء من الاطراف او حفظ ما يقتضي حفظه او ما يناسب ذلك.

واما عن الالتزامات غير الحربية، فقد خلع الظاهر بيبرس على امرائهم، وضمنهم البلاد والزمهم بجمع الزكاة ((العداد)) المفروضة على قطعان القبائل العربية والتركمانية سنوياً حيث قدرت بالالاف. هذا بالإضافة الى خدمة البريد واحضار الخيل برسمه[1] .

أما بالنسبة لدور القبائل العربية في العصر المملوكي بشكل عام

فقد ظهر دورها الكبير في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي في معركة عين جالوت 658هـ/1260م، والتي ادت لطرد الغزاة التتار وتحطيم احلامهم على قلعة الصمود العربية.

كما ساهمت هذه القبائل بتحرير الساحل الشامي[2] من الصليبيين المحتلين، حيث انزلوا الهزيمة بهم اثناء حصار عكا عام 696هـ/1291م في عهد الاشرف خليل بن قلاوون.

وهكذا طُردوا خاسئيين مطأطئي الرؤوس والحسرة تملأ قلوبهم وهم هاربون الى بلادهم حيث نسوا أنهم مُغتَصبون وأن الشعوب لا تنسى حقها، وأن صاحب الحق لابد يوماً أن يستعد لاسترجاع حقه، والحرب سجال ولكل زمن دولة ورجال.

كما نلاحظ نموذجاً من الوحدة القبلية والقومية عند قبائل عرب الشام عند مجئ المماليك مما ساهم في نجاحها في القيام بدور حربي وحضاري في بلاد الشام[3] مثل آل مهنا وآل علي وآل مراد وآل دغفل وآل ثابت ومن هؤلاء تفرعت فروع ربيعة عن ابنه فضل[4] والذين كان لهم دور سياسي في العصر المملوكي، فقد برز منهم ما بين عهد المعز ايبك التركماني وعهد المنصور قلاوون زامل بن علي بن حديثة امير آل علي واخوه ابو بكر بن علي احد امراء آل علي[5] ، وأحمد بن حجي امير عربان آل مراد بالبلاد القبلية في جنوب بلاد الشام، والذين كان لهم شرف الدفاع عن الشام ضد التتار، ومن بلادهم هضبة الجولان ومرتفعات طبرية وصفد[6]،

---

(1) المقريزي: السلوك جـ1، ق 2، في حديثة عن سنة 661هـ.

(2) القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص178.

(3) القلقشندي: ن.م، ج12، ص130.

(4) ابن خلدون: العبر، مجلد2، ط لبنان 1977، ص532.

(5) القلقشندي: ن م، ج1، ص203.

(6) المقريزي: السلوك ج1، ص3، 690، 785.

وعيسى بن مهنا امير عربان آل فضل بالبلاد الشرقية والشمالية[1] ويرجع هؤلاء في نسبهم الى بني الجراح في الاردن وفلسطين[2] .

أما دور بني الجراح في الاردن وفلسطين في زمن المماليك فقد ظهر ذلك ايام ((مهنا الاول)) أمير آل عيسى احد بطون آل جراح والذي ساهم في انتصار قطز بمعركة عين جالوت عام 658هـ/1260م.

كما استقبل ابنه ((عيسى بن مهنا)) الظاهر بيبرس بعد معركة عين جالوت عندما فر من خصومه لاجئاً اليه، فحماه وأعطاه من خيار خيله فرساً اصيلة، لذا كافأه بيبرس عندما اعتلى العرش عرفاناً بالجميل فعينه اميراً على آل فضل إلى ان مات، حيث عهد لابنه مهنا بن عيسى بالامارة على عربه واستمر في ذلك حتى زمن المنصور قلاوون والذي اغدق عليه واجله واحترمه[3] .

وكان من أمرائهم العظام عام 743هـ/1345م، عيسى بن الفضل والذي لم يمهله القدر اذ توفي في بيت المقدس عام 744هـ/1346م في زمن اسماعيل بن الناصر بن قلاوون.

كما لعبوا دوراً سياسياً عام 660هـ/1262م في احياء الخلافة العباسية عندما رافق اميرهم ناصر الدين بن مهنا شيخ العرب في بلاد الشام[4] الامام احمد بن أمير المؤمنين الظاهر بامر الله وعم الخليفة المستعصم بالله واخو الخليفة المستنصر بالله حيث كان معتقلاً عند جماعة من عربان العراق، فشهد الشيخ ناصر الدين بن مهنا وعربه بنسبه امام القضاء في القاهرة، فبويع بالخلافة، وتلقب بالمستنصر بالله على لقب أخيه خليفة بغداد وفوّض للظاهر بيبرس أمر البلاد الشامية والمصرية.

---

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص265.

(2) لقد اسسوا امارتهم في البلقاء والرملة والتي استمرت عاصمة لهم من (360-420هـ و/971-1028م.
وبرزوا في عهد نور الدين زنكي من (511-569هـ/1118-1174م) حيث نبغ منهم (ربيعة بن حازم بن علي بن دغفل بن جراح الذي كون امارة مرموقة نالت حفاوة عند نور الدين زنكي ووالده، وبعد ربيعة خلفه ابنه فضل الذي سيطر على البادية بين الشام والعراق ونجد زمن المماليك، وسطروا صفحة مضيئة في جهادهم ضد الفرنجة.

(3) القلقشندي: نهاية الارب، ص111.

(4) ابن اياس: م س: ج1 ص31-314.

واستشهد هذا الامير في حملته على التتار عام 661هـ/1263م[1] وكذلك عندما جاؤوا من بغداد فيما بعد مع شخص آخر اسمه الامام احمد من اولاد الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله بن المقتدي واثبتوا بنسبه فبويع بالخلافة ولقبوه الحاكم بامر الله ونقش اسـمه علـى الدنـانير والدراهم مع اسم السلطان[2] .

وبالرغم من هذا الدور القيادي والبطولي والمؤيد لسلاطين المماليك فقد ظهرت حركـات معارضة للمماليك وخاصة زمن الظاهر بيبرس حينما خرج عليـه الامـير زامـل امـير آل علـي احدى قبائل الشام فعزله عن الامارة وصادر اقطاعاته وسجنه في مصـر ثـم أفـرج عنـه واعـاده لامارته واقطاعاته بعد تعهـده بـالولاء والطاعـة لـه، ولكنـه حـاول الخـروج عليـه مـرة اخـرى، فصادر اقطاعاته ومنحها لاحد أخويه.

لقد ادرك الظـاهر بيبرس اهمية شرقي الأردن منذ اعتلائـه عـرش السـلطنة المملوكيـة الاولى اثناء حروبـه ضـد المغول والصليبيين فعمـل علـى تقويـة قلاعهـا فـي كـل مـن عجلـون والصلت والكرك والشوبك ليقيم بذلك خطاً دفاعياً حصيناً امام اعدائه التتار والفرنجة بعد شـحنها بالجنود والعتاد والمؤن.

وأوكل اليهم توفير الامن والحماية التجارية على طريـق دمشـق القـاهرة ودمشـق الحجـاز للسيطرة على تجارة الترانسيت الشرقية وطرق الحجيج من مصر والشام .

وبالنسبة لدور قبائل شـرقي الاردن فـي زمنـه فقد اعتمـد علـى القبـائل العربيـة المحيطـة بالكرك حيث اقطعهم اراضي زراعية كثيرة[3] بعد العفو عنهم[4] وجعل بلدتهم الكرك نيابة هامـة

(1) ن.م، ص314.

(2) ن.م، ص320.

(3) النويري: نهاية الارب، ج28، لوحة 23، (مخطوط)، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 ص492، وابن بطوطة، الرحلة ج1 ص23.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب (تارخ الواصلين)، لوحة 420 "مخطوط".

تولى رعايتها بنفسه، حيث زارها حوالي خمس مرات ايام حكمه عام 661هـ/1263م، لاعتماده على جيشها وكان يغدق عليهم من الخلع والعطايا(1) .

كما ساهم امراء بني عقيل وغيرهم من امراء العربان حول قلعة الشوبك في خدمته بعد حركة عصيان الكرك الايوبية عام 669هـ/1270م(2).

واغدق على خواصه اربعمائة الف درهم واثني عشر الف دينار ليكسب ولاءهم ولمنازلة العربان المتمردين عند اللزوم(3). حيث قدموا له الجمال والخيول والسلاح والمؤن مما مكنه من دخول قلعة الكرك لذا اولى الشوبك عنايته وجدد فيها وزاد عليها.

كما أكرم قبائل عجلون وأقام لهم مسجداً بقيادة قاضيها أحمد بن عبد الصمد المصري الاصل الشافعي المذهب عام 643هـ/1246م نظراً لخدماتهم وكسب ولاءهم وأمر واليها عز الدين أيبك العلائي بتجديد قلعتها وتوسيعها(4) وزيادة ابراجها، وتنظيف الخندق المحيط بها. لاتخاذها مركزاً للقيادة العسركية والاشراف على المواصلات بين الشام ومصر(5) .

وكذلك فعل مع أهالي الصلت وحسبان وعمان وزيزاء(6) كما اتخذها سجناً لخصومه السياسيين من امراء العرب كالاميران سعد الدين خضر بن حجي أمير بني بحتر، والامير عمر بن مخلول(7) كبير امراء آل فضل .

---

(1) النويري: نهاية الارب، ج28 لوحة 39 "مخطوط" المقريزي ن م، ج1، ص555. وذلك بعد ان سقط عن فرسه وكسرت فخذه عند بركة زيزاء في الثامن من محرم 1267/0665م وتماثل للشفاء. اليونيي: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص360، النويري: ن م، ج28، لوحة 39، مخطوط، ابو الفداء: المختصر، ج4، ص4.

(2) اليونيني: ن م، جـ1، ص555، النويري:ن م، ج28 لوحة 53، 54، مخطوط، المقريزي: ن م، ج1 ، ص595.

(3) ابن اياس: م س، ج1، ص391.

(4) اليونيي: م س، ج4، ص101، 102.

(5) المقريزي: السلوك:ج1 ص446، 534. ومازال يوجد نقش تذكاري يخلد اعماله في قلعة عجلون على كتلة من الصخر ملقاة في ساحة البرج الجنوبي الغربي من القلعة، كتب عليه : "عمل في ايام مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس الصالحي اعز الله انظاره ينظر العبد القصير الراجي عفو الله وغفرانه ملك الامراء عز الدين أيبك العلائي بتاريخ العشرين من شعبان سنة تسعة وخمسين وستمائة)).

(6) اليونيي: ن م، ج3، ص260.

(7) ن.م، ج3 ص7، العمري: مسالك الابصار، ج16، ق3، لوحة 623، مخطوط بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج9، لوحة 114، مخطوط.

هذا كما ساهم العربان في مراحل الصراع بين امراء المماليك كما حدث بين الملك السعيد بن الظاهر بيبرس وأمرائه عام 678هـ/1279م[1] .

وفي سنة 679هـ/1281م خرج الامير شمس الدين سنقر الاشقر نائب السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفي الصالحي النجمي السابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية، في دمشق عن طاعة السلطان وتسلطن في بلاد الشام، وجمع العساكر العربان من جنوب بلاد الشام ووجههم بقيادة الامير شمس الدين قرر سنقر المعزي الى غزة فالتقوا بالعسكر المصري، وانهزم العسكر الشامي وأسر جماعة من أعيان الامراء كما انضم اليه احد الامراء العرب شرف الدين عيسى بن مهنا وهربا من دمشق الى قلعة صهيون.

ولما استقر الملك المسعود نجم الدين خضر بالكرك بعد وفاة اخيه الملك السعيد عام 1280/678 وزع مماليكه الاموال على الناس لينضموا اليهم وتوجه جماعة منهم الى الصلت واستولوا عليها وانضم اليهم العربان طمعاً بالمال. وحضروا عند الملك المسعود معلنين الطاعة والولاء وتقربوا اليه بالنصيحة حتى حصلوا على الاموال الوفيرة ففارقوه بعد أن نفذت اموال الكرك ومؤنها التي كان قد خزنها السلطان الملك الظاهر لوقت الشدة، وكاتب مماليكه سنقر الاشقر نائب السلطنة بدمشق للانضمام اليه ثم وجّه السلطان له الامير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة واستسلم الملك المسعود بعد أن حصل على الامان في صفر سنة 685هـ/1287م وعين عز الدين ايبك الموصلي المنصوري في نيابة السلطنة بالشوبك بعد استعادتها من الملك السعيد[2].

كما شارك عربان الشام ومن انضم اليهم من امراء القبائل العربية امثال الامير شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مري في ميمنة جيش السلطان الملك المنصور سيف الدين

---

(1) ابن الفرات: م س، ج7، ص144 ص157-160، ابن دقماق: الجوهر الثمين، لوحة 124، (مخطوط)، المقريزي: السلوك، ج1، ص653،655،669، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7، ص268،277.

(2) النويري: نهاية الارب ج31 ص29.

بن قلاوون في مواجهة التتار عند هجومهم على حماة وحمص بقيادة أبغابن هولاكو وانتصر السلطان بهذه الموقعة قرب حمص سنة 680هـ/1281 وعاد السلطان لمصر[1].

وفي عام 683هـ/1284 توفي الامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة امير العرب وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب. وتولى امارة العرب منذ الدولة الظاهرية -وصلحت العربان به لانه كان تقيا ورعاً خيراً انتفع الاسلام به في مواطن كثيرة.

هذا وقد عين السلطان المملوكي الملك المنصور ابنه الامير حسام الدين مهنا اميراً على عرب الشام وزاده السلطان اقطاعاً، فسلك طريق والده في الخير والاحسان، فأطاعه العرب كافة، وعظم شأنه عند الملوك وغيرهم[2] .

وفي عام 692هـ/1292م اعتقل السلطان الاشرف خليل بن قلاوون أمير لعرب حسام الدين مهنا بن عيسى واخوته في سلّمية وولى ابن عمه الامير محمد بن أبي بكر علي بن حذيفة[3] .

كما امر السلطان الاشرف عام 692هـ/1292م الامير عز الدين ايبك الافرم بهدم قلعة الشوبك[4] وكان من الاولى تحصينها لانها معقل من معاقل الاسلام وذخائر المسلمين فدل هذا على فساد الرأي[5] .

كما هدم قبلها عكا وخربها بعد احتلال الصليبيين من 587-690هـ/1189-1391م، من صلاح الدين الى 690/1391م بعد حصارها 44 يوماً، حيث خضعت للافرنج 130 سنة[6] .

وربما فعل ذلك حتى لا يعود اليها الفرنجة من البحر مرة ثانية وكان من الأولى تحصينها ووضع حاميات بها.

---

(1) النويري: ن م، ج31، ص33.

(2) النويري : ن م ج31، ص121.

(3) النويري: م س، ج31 ص251، ابن الفرات، م س، ج8، ص156.

(4) النويري: ن م، ج31، 252 ابن الفرات ،ن م، ج8، ص156.

(5) ابن الفرات، ن م، ج8 ص156.

(6) النويري: ن م، ج31، ص199، ابن الفرات، ن م، ج8، ص112، المقريزي: السلوك، ج1، ص765.

وفي عام 767هـ/1369م حضر الامير حبار بن مهنا امير آل فضل من عربان حماة بعد عصيانه على السلطان الاشرف قلاوون، بخلع عليه واقره في إمرة آل فضل[1] .

كما شارك العربان بزعامة امرائهم في ثورة سنقر الاشقر نائب دمشق عام 678هـ/1280م والامراء الظاهرية اصحاب الكرك[2] ، ضد السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون مثل الامير شرف الدين عيسى ابن مهنا امير العرب بالبلاد الشرقية والشمالية والامير شهاب الدين احمد بن حجي امير العرب بالبلاد القبلية (جنوب بلاد الشام)[3] وعندما اساءت المجموعات التجارية الصليبية والايطالية عام 689هـ/1290م باعتدائهم على التجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم خارقين بذلك المعاهدة المعقودة بين قلاوون سلطان المماليك وهنري الثامن ملك القدس مما دفع قلاوون لاعلان الجهاد وطلب من كل قرية ومدينة في بلاد الشام المشاركة في الاعداد للحملة لتطهير البلاد من الصليبيين من آخر معاقلهم في عكا فلبوا نداءه من كل حدبٍ وصوبٍ باسلحتهم الثقيلة والخفيفية ولكن القدر فاجأه بالموت فقاد الحملة ابنه المجاهد الاشرف خليل فشارك عربان الكرك بقيادة أميرهم سابق الدين عبية أمير بني عقبة[4] زمن السلطان الاشرف خليل بن قلاوون في حصار عكا عام[5] 690هـ/1291م لطرد الصليبيين منها بالإضافة لقبائل بلاد الشام[6] التي ساهمت في تطهير سواحل الشام من الفرنجة بعد استيلاء المماليك على عكا وصيدا وصور وبيروت وحيفا وعتليث وطرطوس[7] .

---

(1) ابن اياس: م س، ط2، ص29.

(2) لقد انعم السلطان قلاوون على عربان الكرك واقطع امراءهم وجعل الكرك خزانة وحصنا له ولأولاده بعد ان أصلح ما تهدم من قلعتها ومنازلها العيني عقد الجمان ج20، ق4، لوحة 706، والمقريزي، السلوك، ج1 ص732، والنويري: ن م، ج29، لوحة 37 ((مخطوط)) وابن الفرات: ن م، ج8، ص38.

(3) وتشمل بلاد حوران وشمالي الاردن والاغوار ولانها تقع قبلي دمشق. القلقشندي: م س، ج4، ص103. وانظر : اليونيني: م س، ج4، ص36، الذهبي: م س، ج2، ص180 ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ج7 ص167، المقريزي: م س، ج1 ص676.

(4) المقريزي : السلوك، ج1، ص760.

(5) ن م، ج1، ص765.

(6) ابوالفداء: المختصر في اخبار البشر، ج4، ص25، وابن الوردي تتمة المختصر، ج2 ص235، وذكر بانه شارك في الاستعدادات العسكرية ونقل المنجنيق لحصار عكا وانظر: بيبرس الدوادار. زبدة الفكرة، ج9، لوحة 283، مخطوط، حيث كان نائبا للكرك وشارك بقيادة جيش الكرك في حصن عكا.

(7) المقريزي: السلوك ج1، ص765، ابو الفداء: ن م، ج4، ص27، الذهبي: دول الاسلام ج2 ص180، ابن كثير: البداية والنهاية ج13، ص321، (Setton, op, cit, vol.2 p597, Muir the mameluke p.44)، Mameluke, P.44.

وبهذا النصر المبين تحرر الشرق العربي من الاستعمار الصليبي بعد قرنين من الزمان (492-690هـ/1099-1291م).

وفي زمن الناصر محمد بن قلاوون وقفت قبائل شرقي الاردن بجانبه عندما قرر استرداد عرشه بقيادة زعيم عرب آل زبيد في عجلون بالإضافة لقبائل حوران من قيسية ويمينه وقبائل حسبان وعربانها التي غمرها بعطاياه وخلعه ورتب امور منطقة البلقاء وقراها وعربانها عام 717هـ/1319[1] وقبائل حسبان وعربانها التي غمرها بعطفه الزائد فخفف عنهم المكوس، وبنى فيها منشآت عديدة، واستمر في زياراته المتكررة لها[2].

وكما خص قبائل هذه المناطق بعطفه وعنايته فقد كان للكرك شأن كبير في عهده حيث جعلها مقراً لابنائه وخزانة امواله ووصفها بالارض الطيبة التي لم يخلق مثلها في البلاد[3]، ومقابل ذلك لم يتهاون مع الاعراب الخارجين على طاعته عام 717هـ/1319م كأنباء عشيرة بني نمير وبني ربيعة الذي خرجوا على السلطنة وتحصنوا في قلعة سلع Sala (الجيش) في المدخل الغربي لوادي موسى باتجاه البتراء حيث سيّر اليهم عدة حملات عسكرية اخمدت ثورتهم وقتلت حوالي عشرين شخصاً منهم[4] فعمل بذلك على توفير الأمن والاستقرار للمنطقة.

ومن القبائل التي خصها الناصر محمد بكرمه وعطاياه واقطاعاته بنو عقبة وبنو مهدي، وبنو زهير[5] هذا بالإضافة لتكريمه لبعض الشخصيات من العلماء وغيرهم، كالحبراصي أبي

(1) ابن ايبك: كنز الدرر، ج9، ص206، الذهبي، دول الاسلام، ج2، ص215.

(2) النويري: ن م، جـ31، لوحة 6 "مخطوط". والمقريزي: السلوك، جـ2، ص272،335. وابن الوردي: م س، جـ2، ص296. وانظر النهضة العمرانية، في شرقي الاردن زمن الناصر محمد الفصل الخامس.

(3) القلقشندي صبح الاعشى، ج12، ص224، 222، 226، 228.

(4) السلع: شق في الجبل واصلها عبري بمعنى (الصخر) وبترا Petrae لفظ يوناني بمعنى الصخر وتعني الجيش: طريقا طيعا في سفح جبل (انظر ياقوت: معجم البلدان ج3، ص117، المقريزي: السلوك ج2، ص176، Robert, The Holy Land, vol.3 p.2.

(5) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص80.

العباس احمد بن موسى الزرعي الحنبلي احد الامرين بالمعروف والناهين عن المنكر في قرية حبراص شمال مدينة اربد[1] .

وعالم الكيمياء الكركي المدعو يوسف الكيماوي الكركي الذي اغدق عليه اموال لاكمال تجاربه العلمية ولكنه قتله في النهاية لعدم قدرته على تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب حسب دعواه[2].

وفي الكرك ترعرع الامير احمد بن الناصر محمد بن قلاوون منذ عام 726هـ/1328م وأحبه اهلها وتمسك بعاداتهم وتقاليدهم فأحبوه وتقربوا منه فأصبح كانه واحد منهم فبدأ ثورته بمساندتهم له في الكرك لتسلم السلطة من المماليك بعد عزلهم لأخيه الملك المنصور أبي بكر على يد الأمير قوصون[3] ثم قتله في قوص بصعيد مصر عام 745هـ/1347م[4] فكان اغتياله من عوامل نجاح ثورة احمد بن الناصر محمد بن قلاوون بمساندة اهل الكرك واقصاء الامير المملوكي قوصون عن سدة الحكم وباشر سلطنته من الكرك[5] بعد أن اعترف به الخليفة ابو العباس احمد بن المستكفي وكتب بتولي السلطنة في مصر و الشام[6] وبويع الناصر احمد بالسلطنة في مصر عام 742هـ/1344م.

ولكنه انتقل الى الكرك لكثرة ما عانى من تآمر امراء المماليك ضده، وجعل حراسه وخاصته من الكركيين[7] حتى أنه لبس لباسهم[8] .

---

(1) ابو المحاسن: م س، ج11 ص12، وابن كثير: م س، ج14، ص274.

(2) النويري: م س، ج31، لوحة 105، 106، العيني: عقد الجمان ج24، ق1، لوحة 17، 18 "مخطوط".

(3) المقريزي: السلوك ج2 ص593، ابو المحاسن: م س، ج10، ص49، ابن كثير: م س، ج14، ص195.

(4) ابو المحاسن: ن م، ج10، ص32.

(5) ابن كثير: ن م، ج14، ص199، ابو المحاسن: م س، ج10، ص34.

(6) القلقشندي: م س، ج6،ص426-430، ومآثر الانافة، ج3، ص265-273.

(7) ابن قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ اهل الاسلام، ج1، لوحة 26 مخطوط، ابن خلدون:العبر، ج5، ص445، ابو المحاسن: م س، ج10، ص59.

(8) كان لباسهم كاملية مفرجة وعمامة بلتامين، ماير: الملابس المملوكية ص25، وانظر المقريزي: السلوك ج2 ص610، 617،618 وأبو المحاسن: ن م، ج10، ص67،69. وابن قاضي شهبه: ن م، ج1 لوحة 27، 38، مخطوط وابن دقماق: الجوهر الثمين لوحة 158، "مخطوط". وابن الوردي: م س، ج2، ص335، وابن خلدون: العبر، ج5، ص445.

كما نصره اهالي شرقي الاردن بما فيهم أهل الكرك والشراة ومـؤاب عندمـا خلعه امـراء المماليك لاتخاذه الكرك مركزاً لحكمه ونصبوا اخاه اسماعيل في السلطنة 743هـ/1345م بعد ثلاثة اشهر وثلاثة عشر يوماً من حكمه[1] .

فيما شارك اهل صفد في حصار قلعة الكرك مع قوات السلطان اسماعيل في حملته الثامنة ضد القلعة[2] .

وكان امير عرب الفضل في بادية الشام وفلسطين عيسى بن فضل بن عيس بـن مهنـا بـن مانع شرف الدين من آل الفضل من طيء ، تولى امارة عربه بعد وفاة ابن عمه سليمان بن مهنا 743هـ/1345م، ولكنـه توفـي 744هـ/1345م فـي عهد اسماعيل بن النـاصر بـن قـلاوون السلطان السادس عشر من سلاطين المماليك البحرية[3] .

ولكن كثرة الحملات وشدة الحصـار لقلعـة الكرك واغراء زعمـاء الكرك كالشيخ بـالغ ومسعود ابن ابي الليث بالوعود والخلع والمال والاقطاعـات مقـابل خيانـة النـاصر أحمد لتسليم مدينة الكرك بشرط منحهم الامان من قبل السلطان اسـماعيل فـي مصـر، فسـاهموا فـي هزيمـة الناصر أحمد وسقوط قلعة الكرك لصالح أخيـه السلطان اسماعيل[4] وربمـا كـان تصـرف أهـل الكرك هذا بعد خسائرهم الكبيرة في الرجال والعتـاد نتيجـة للحمـلات الثمانيـة للقوات المصريـة والشامية والصفدية بقيادة سنجر الجا ولي وتيقنهم بخسارة المعركة فمالوا الى الكفة الرابحة بعد أن نفذت أقواتهم وقاية لانفسهم مما لا تحمد عقباه لو استمروا مع النـاصر احمـد الـذي وقـع فـي

---

[1] المقريزي: السلوك، ج2 ص618، 624، ابو المحاسن: ن م، ج10، ص70،81، وابـن الصيرفي: نزهـة النفوس والابـدان، ج1، ص42، ويقول المقريزي: بان قبائل بني ربيعة وبني نمير وقفوا بقوة وحزم لجانب الناصر احمد بينما انحاز بنو عقبة من عرب الكرك الى جيش اخيه السلطان اسماعيل ، انظر: ابـن قـاضي شـهبه: ن م، ج1، لوحـة 516، مخطـوط، حيـث يحلـل انضمـام عـرب بنـو عقبـة للسلطان اسمايعل ضد الناصر احمد لان زعيمهم كان يتمتع باقطاعات وامتيازات سيفقدها اذا خالف السلطان في القاهرة وعليه تقديم المعونة بموجب نظام الاقطاع العسكري المملوكي. المقريزي: السلوك، ج2، ص799.

[2] ابن قاضي شهبه: ن م، ج1، ص63 مخطـوط، المقريزي: السلوك، ج2، ص660 والعيـني: عقـد الجمـان، ج24، ق1 لوحـة 71، مخطوط، وابو المحاسن: ن م، ج1 ص91.

[3] ابـن خلـدون: تـاريخ ابـن خلـدون، منشـورات دار الكتـاب اللبنـاني، 1968 مجلد 5 ص 943 وابـن قـاضي شـهبه: م س، ج5، ص291.

[4] ابن كثير: م س، ج14، ص212، ابن قاضي شهبة: م س، ج1، لوحة 63، مخطوط، المقريزي: السلوك، ج2، ص654-661 ابـو المحاسن: م س، ج1، ص92.

الاسر وقتل خنقا وقطعت رأسه في ليلة ربيع اول 745هـ/17 يوليو 1244م[1] بيد الامير منجك اليوسفي الناصري وقدم لأخيه السلطان اسماعيل الذي هاله منظر الرأس ففجع بأخيه وأصيب بالصرع حتى وفاته في 4 ربيع الآخر 746هـ/13 اغسطس 1345م[2] فانتقلت السلطنة الى اخيه سيف الدين شعبان ولقبوه بالكامل. ولكنهم قتلوه في جمادي الاخرة 747هـ/19 سبتمبر 1346م.

وهكذا انتهت أكبر ثورة واطول حصار دام مدة سنتين تقريبا[3] وبدأ نجم السلطنة المملوكية بالأفول والتدهور حتى اصبح السلاطين ورقة لعب بايدي المماليك[4] ونصبوا أخيه زين الدين حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون وتوالت الكوارث على دولة المماليك الاولى ببلائهم بمرض الطاعون الذي قضى على كثير من سكان شرقي الاردن وفلسطين وذلك في جمادي الاولى 748هـ/1347م اغسطس[5] فكان من الطبيعي ان يترتب على ذلك نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة لقلة المشتغلين بالزراعة لموت الفلاحين[6] ، فانعدم الامن الاقتصادي والاجتماعي لكثرة السلب والنهب وقطع الطرق، حيث أعلنت العربان عام 750هـ/1349م شق عصا الطاعة، ضد السلطة المركزية في القاهرة، كعرب الكرك والبلقاء وبنو ربيعة وبنو نمير، الذين هزموا نائب الكرك جكتمر[7] ، فتشجعت عربان ثعلبة وجرم والعائذ بغزو فلسطين وقطع طرقها ونهب المسافرين[8] واسر نائب غزة الامير يلجك واندفعوا

---

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج8 ص90، ابن كثير: م س، ج14 ص213 المقريزي: السلوك، ج2، ص662، ابو المحاسن: ن م، ج10، ص71،93 ابن بهادر: فتوح النصر، لوحة 661، مخطوط.

(2) المقريزي: السلوك : ج2، ص677، العيني: عقد الجمان، ج24، ق1، لوحة 74، مخطوط ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج10، ص95.

(3) المقريزي: ن م، ج2، ص713، ابو المحاسن: ن م، ج10، ص140 ابن كثير: ن م، ج14، ص219.

(4) ثم قتلوه بعد عام يوم 12 رمضان 748هـ/17 ديسمبر 1347م ونصبوا أخاه الامير حسين سلطان مكانه. المقريزي: ن م، ج2، ص744، ابو المحاسن، ن م، ج10، ص172.

(5) ابن بطوطة: الرحلة، ج2، ص176،177، المقريزي: ن م، ج2، ص774، 775، 777، 784، ابو المحاسن: ن م، ج10، ص197، 198، 209.

Jacob, Hisstory of Palestine, p306, Ziadeh, Urban life in syria, p.61.

(6) المقريزي: ن م، ج2، ص775؛ ابو المحاسن: ن م، ج10، ص198.

(7) المقريزي: ن م، ج2، ص771، 799.

(8) ن.م، ج2، ص798.

نحو الاغوار حيث وصلوا القصير المعيني (الشونة الشمالية) وقتلوا اعداداً كثيرة من سكان جبال عجلون، وعمال معاصر السكر ونهبوها[1] ثم اتجهوا الى فلسطين فهاجموا القدس والخليل واللد والرملة واعتدوا على السكان ونهبوا ممتلكاتهم فارسل اليهم السلطان حملة عسكرية لتأديبهم فهربوا الى الحجاز[2] واحتال سيف الدين النجمي نائب غزة على زعمائهم وقبض عليهم 750هـ/1349م[3] ، كما احتال الامير قبلاي على أمير بني جرم شادي بن فضل واعتقله، فخلا الجو لعدوه سنجر بن علي امير ثعلبة الذي استفاد من هذا الوضع، وعم الهدوء بلاد الشام ومصر بعد فترة طويلة من الاضطرابات والفوضى مما اضعفها امام التوسع المغولي بقيادة تيمورلنك.

وفي عام 751هـ/1350م احتاج السلطان الناصر حسن الى رجال بني مهدي في البلقاء وبني عقبة في الكرك وعرب شطي والامير فضل بن عيسى بن مهنا لضرب كبار امرائه المتنفذين في مدينة العقبة لمنع أي اتفاق قد يعقد بين الامير طاز ويبغا روس[4] ، فحاول بذلك القبض على الكثير منهم وسجنهم، مما أوغر صدور كبار الامراء الطامعين في الحكم بقيادة صرغتمش واجبروه على التنازل عن العرش وسجنه[5] وتعيين اخيه صالح بن الناصر في 28 جماد الاخر 752هـ/23 اغسطس 1351[6] .

وبالنسبة لسياسة المماليك تجاه القبائل العربية زمن السلطان الملك المنصور قلاوون، بعد أن شعر السلاطين بضرورة استقرار هذه القبائل العربي فتدخل في وقف الحرب بين القبائل العربية في سوريا الوسطى التي نشبت بسبب المراعي والاستيطان، وبسبب الصراع بين أفراد الاسرة الواحدة حول رئاسة القبائل، فجعل زعامة القبائل العربية هناك لآل فضل وآل علي، بعد

---

(1) ن م ، ص864.

(2) ن م، م ص805.

(3) ن م، ن ص.

(4) ن م، ص826ن ابو المحاسن: م س، ج10، ص222.

(5) ابو المحاسن: ن.م ص231.

(6) المقريزي: ن م، ص849، ابوالمحاسن: ن.م، ص254.

أن حدد لكل قبيلة منازلها وواجباتها، وعين لزعامتها الشيخ الامير فخر الدين عثمان على آل فضل وآل علي وحدد واجباته بالطاعة للمماليك[1] .

هذا بالإضافة للدور الذي لعبته قبائل شرقي الاردن وعربانها وفلاحيها في صراع الامراء المماليك على النفوذ السلطاني فيما بينهم وفي صراعهم مع السلاطين -فقد وقعت فتن وحروب بين هذه القبائل كما جرت عام 762هـ/1361م في عهد السلطان الملك المنصور محمد بن حاجي، حيث اقتل فلاحو قرى عجلون بانقسامهم الى فريقين: يمنية وقيسية وهلك عدد كبير من الطرفين، ودمرت قرية عين جنا القريبة من عجلون وقطعوا اشجارها وعاثوا فساداً في تلك المنطقة[2] ، مما حدا بالسلطان للتدخل واقرار الامن حيث ارسل اليهم حملة عسكرية بقيادة نائب دمشق الامير علاء الدين الذي اجبرهم على الصلح فعاد الهدوء والاستقرار الى نواحي عجلون[3] لمدة عامين حيث تم عزل السلطان عام 764هـ/1363م وعينوا مكانة ابن عمه الملك الاشرف شعبان بن حسين الذي كان طفلاً في العاشرة من عمره، فعادت المناوشات بين القبائل التي ساهمت في صراع الامراء والسلاطين على الحكم[4] بالإضافة الى الكوارث الطبيعية كأسراب الجراد التي اكلت محاصيل الزراعة[5] .

فأدى ذلك الى خرابها واضمحلال شأنها واصبحت الكرك في اواخر عصر دولة المماليك البحرية منفى للثوار وسجناً لهم .

وفي عام 773هـ/1372م ثار الامير حبار بن مهنا ضد الامير قشتمر نائب السلطنة في حلب وقتله ، ثم حضر للقاهرة لتقديم الولاء فخلع السلطان عليه واقره في إمره العرب على عادته بعد أن عفا عنه[6] لأن ما يهم سلاطين المماليك تأمين مصالحهم بجميع الوسائل وشتى

---

(1) ابن الفرات: م.س، ج7، ص177-179.

(2) ابن كثير: م س، ج14، ص289، وقد ذكرها باسم (عين حيثا) والظاهر انه هناك خطأ في التنقيط، حيث مازالت هذه القرية تحمل اسم (عين جنا حتى اليوم).

(3) ن م، ج14، ص290.

(4) المقريزي: السلوك: ج3، ص82-83، (ذكر وفاة السلطان المنصور في سجنه عام 801هـ) وابو المحاسن : م س، ج11 ص7.

(5) القلقشندي: م س، ج1، ص457.

(6) محمد بن اياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة 1403هـ/1983م، ط2، حققه محمد مصطفى، ج1، ق2، ص123.

الأساليب كما شارك عربان جبل نابلس والتركمان في ثورة وتمرد الامير طشتمر نائب الشام ضد السلطان على بن الاشرف شعبان لتعينه الامير أينبك البدري أتابكا للعسكر في القاهرة، فهجم الجميع على سجن الكرك واطلقوا من كان فيه من الامراء[1] وقرروا السير لمصر ولكنهم رجعوا بعد علمهم بسجن ايبك في الاسكندرية نتيجة ثورة ضده كما حدث بالنسبة لسجن المماليك الاجلاب[2] كبرقوق وبركة وجركس الخليل وغيرهم[3] والظاهر أن المماليك اهملوا منطقة شرقي الاردن في نهاية حكمهم وهذا أمر طبيعي ان دل علي شيء فانما يدل على حالة الضعف العام والفساد الاداري والاجتماعي حيث كان النظام السياسي يعاني من سكرات الموت حيث كان على حافة الانهيار وخاصة في عهد الملك الاشرف شعبان حيث لم يرد ذكر شرقي الاردن في عهده الا في مناسبتين هما :

- وقف بستان وحمام وقرية أدر بشرقي الكرك للنفقة على مدرسة برأس الرميلة بالقاهرة[4] .
- واثناء عزمه على الحج حيث وصل الى مدينة العقبة ولكن الاقدار عاكسته بقيام الامراء المرافقين له بعزله ومحاولة اغتياله في العقبة، فقفل راجعاً الى القاهرة، فعينوا ابنه ((علي)) قبل ان يصل اليها في 778هـ/1377م وخنقوه في قلعة الجبل بعد وصوله[5] حيث تمكن المماليك الاجلاب من السيطرة على الحكم نتيجة هذه الفتنة بمصر فسقطت بذلك دولة المماليك الاولى من السلطان علي بن الاشرف الذي اتاح لهم فرصة السيطرة على مقاليد الحكم[6] .

---

(1) ن م، ج1، ق2، ص206.

(2) المماليك الاجلاب: هم المماليك الذين يجلبون من بلادهم كباراً، اصحاب مهن مختلفة وغير مدربين على الفروسية، اساؤوا الى الناس بظلمهم وشرورهم في مصر والشام ، د. يوسف غوانمة: التاريخ السياسي الشرقي الاردن في العصر المملوكي، ص270.

(3) المقريزي: السلوك، ج3، ص153، 155، وكان الاشرف شعبان قد سجن برقوق العثماني عام 779هـ/ لمدة خمس سنوات في الكرك وقد استغل هذا الامير المتنفذ القرارات والقلاقل في الوصول الى السلطنة والحكم، وأقام بذلك دولة المماليك الجراكسة.

(4) د. يوسف غوانمة: ن م، ص271.

(5) المقريزي: السلوك، ج3، ص269، 270، 273، 530، وابن خلدون: العبر، ج5، ص464 وابن الصيرفي: نزهة النفوس والابدان، ج1، ص114.

(6) المقريزي: ن م، ج3، ص286، 289، 308.

كما ثار عربان منطقة الازرق في شرقي الاردن قـرب العقبـة فـي موسـم الحـج مـن عـام 780هـ/1379م حيث هاجموا الحجاج العائدين من أداء فريضة الحج ونهبوهم وادى ذلك لمـوت نصف الحجاج من الذين هربوا خوفاً الى الصحراء فظلوا الطريق وماتوا عطشاً وجوعاً[1] .

وفي شهر ذي الحجة من عام 781هــ/1378 توفـي الامـير العربـي قـازان بـن مهنـا بـن عيسى بن مانع بن حديثه بن فضل بن ربيعة امير آل فضل[2] .

ويجول في خاطرنا سؤال هنا لماذا أبقى عليهم بالرغم من خروجهم على طاعته والجواب هو حاجته الماسة لهؤلاء العربان حيث كانوا يشكلون نصف جيشه وهو يواجه اشرس عـدو مـن التتار الذين كانوا متجهين نحو مصر، وحاجة المماليك اليهم ايضاً في استخدامهم احيانـاً للقضـاء على معارضيهم من الامراء كما حدث عندما طلب السلطان محمد بن قلاوون من الامير العربي موسى بن مهنا بالقبض على تنكر نائب الشام المملوكي عـام 740هـ/1340م[3]. وهكذا لعبـوا دوراً في القضاء على الفتن السياسية بين سلاطين المماليك ونواب الشام التابعين لهم، بالإضافـة الى دورهم العسكري حيث كانوا يشكلون جزءاً مـن الجيش المملوكـي كمـا نـرى. كمـا سـاعدوا بعض السلاطين لاعادته الى ملكه كالسـلطان النـاصر محمـد بـن قـلاوون عـام 709هـ/1309م حيث استرجع بمساعدتهم سلطنته للمرة الثالثة فكافـأهم، بـان جعـل الامـرة فيهـم والحـق أمـيرهم شطي[4] بن عقبة بآل فضل وأمراء آل مرة لرفع منزلتـه حيـث أقطعـه والبسـه الخلـع السـلطانية واجزل له ولعربه العطاء[5] واقام فيها مؤسسات الخدمات العامـة كالمستشفيات والمـدارس ودار العدل والمساواة.

---

[1] ابن اياس: م.س، ص238.

[2] ن.م، ص252.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص465، 535. وابن خلدون: العبر، مجلد5، ص941.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) ورقة 420، مخطوط، والنويري: نهاية الارب ، ج28، ورقة 23، مخطوط. أورد توليـة الظاهر بيبرس بني عقبة عرب الكرك وبني مهدي عرب البلقاء أمن البلاد وحماية طرق الحجاز مقابل اخذ الرهائن منهم لضمان قيامهم بهذا الواجب وهذا يدل على عدم الثقة بالعربان الذين كانوا يتصرفون حسب مصالحهم.

[5] القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص243، حيث يصف امتيازات عربان الشام من عطاء الذهب والفضة والدراهـم والخلـع المطـرزة وملابس النساء المزركشة والنويري: م س، في معرفة انساب العرب ص88، 89.

أما عرب آل مرا ((من آل ربيعة بن طيء)) في شمال الاردن الممتد من الزرقاء والظليل الى حوران وبصرى والجولان[1] ، فقد عهد اليهم بدر ك من حوران الى البلقاء بالإضافة الى تقديم الف جندي من الفرسان للدولة[2]. وكان أميرهم يعين بمرسوم سلطاني من القاهرة[3] .

وبالنسبة لدور القبائل زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون

فقد واجه ثورة قبائل آل فضل وآل علي وذلك حين ثار احد أمراء آل فضل وانضم الى قرا سنقر الاقرم عدو السلطان الناصر محمد بينما بقي اخوه شجاع الدين مخلصاً للسلطان الناصر، مكافأة بتعيينه اميراً على آل فضل 718هـ/1317م[4].

ويلاحظ على هذه القبائل العربية عدم خضوعها للحكم المركزي لبداوتها حيث كانت تثور ضد المماليك بالرغم من الامتيازات الممنوحة لها فيهاجم العربان قوافل الحجاج وينهبونهم، كما يهاجمون القرى البعيدة على اطراف الصحراء عندما يوقف السلطان اقطاعات احد أمرائهم[5] مما ادى لخراب كثير من المدن والقرى بالإضافة الى ما نجم عن الكوارث العامة كالزلازل وانتشار الأوبئة والأمراض.

بينما يرى الدكتور غوانمة ان هذه الثورات كانت مظهراً اوليا لانبعاث الروح القومية العربية ضد السيطرة المملوكية الاجنبية وذلك لمشاركة العرب (مسلمين ومسيحيين) في هذه الثورة[6] .

هذا ونلاحظ تولي الامراء مناصب قيادية في عربانهم كرئيس للقبيلة او امير لها، فكانوا سادات العرب ووجوهها، حيث نالوا الحفاوة عند سلاطين المماليك بعد تعاونهم معهم، فاقطعوهم

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص80. النويري: م س، ص97، والقلقشندي: ن م، ج7، ص188، ج12، ص130، الخالدي: المقصد الرفيع المنشأ: ورقة 156 مخطوط.

(2) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص105.

(3) القلقشندي: ن م، ج4، ص241، ورقة 157 مخطوط. والخالدي، ن م، ص157/ مخطوط.

(4) القلقشندي: ن م، جـ12، ص118-120.

(5) السبكي: م.س، ص75،76.

(6) د. يوسف غوانمة، دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، ص28.

الاقطاعات الكبيرة[1] كما خصوهم بميزانيات مالية ثابتة للنفقة عليهم اثناء ضيافتهم للسلاطين حيث ذكر القلقشندي ان ما انفقه احد السلاطين لاستضافة بعض امراء هؤلاء العربان ما يقارب ستة وثلاثين الف دينار[2] .

وهكذا نلاحظ أهميتهم كقوة ضاربة في جيش المماليك للدفاع عن بلادهم حيث شكل المماليك كتائب خاصة بالقبائل مثل كتيبة آل مرا الذين كان عددهم في الجيش حوالي مائة فارس[3] واحياناً كتائب مشاة من اربعة الاف فارس حسب الظروف والحاجة اليهم في احدى المعارك ضد التتار[4] .

كما كان تنظيمهم داخل الجيش على اساس القبيلة فتبقى القبيلة متحدة في عناصرها الوطنية متراصة الصفوف في المعركة. وقد ذكر بعض المؤرخين[5] انقسام الجيش المملوكي الى قسمين هي ديوان الجيش الشامي وديوان الجيش المصري الذي ضم المماليك والتركمان والاكراد وغيرهم من قبائل مصر العربية اما الجيش الشامي فقد تكون من آل علي وآل مرا وبني عقبة وبني مهدي والعائد، حيث بلغ مجمل عددهم تسعة وعشرين الفاً ما بين فارس وراجل، وكانت اسلحتهم الرمح والسيف والترس والقوس.

وكان العرب فرساناً شجعاناً يجيدون فن القتال حيث اهتموا بخيولهم مما جعل سلاطين المماليك ينفقون عليهم حيث أغدقوا عليهم العطاءات امثال بيبرس ومحمد بن قلاوون.

وكان جيش الكرك اول من استخدم سلاح المدافع في بلاد الشام سنة 743هـ/1342م اثناء ثورة الناصر احمد بن قلاوون الذي اتخذ الكرك عاصمة له واصدر منها المراسيم السلطانية الى مصر والشام وغيرها. واستعان برجال الكرك بالوظائف الكبيرة مما أثار حفيظة امراء المماليك خوفاً على جنسيتهم ومصالحهم فقروا القضاء على هذا الاتجاه واعادوا العاصمة للقاهرة[6] .

---

[1] ابن كثير: م س، ج13، ص220، وابن خلدون: العبر، ج5، ص820، وابن تغردي: م س، ج7، ص300،363.

[2] النويري: نهاية الارب، ص102-207.

[3] النويري: ن م، ج6، ص189. وابن شاهين، م س، ص105.

[4] المقريزي: السلوك : ج1، ص3، 690.

[5] خليل بن شاهين: (غرس الدين بن خليل (ت 873هـ/1468م: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، 1893، ص105.

[6] د. يوسف غوانمة، ن م، ص30.

هذا وتجدر الاشارة الى احفاد آل الفضل بن ربيعة اليوم في جنوب بلاد الشام فمنهم عشيرة الحيارى والعابد والفاعور في السلط وعرب ((العيسى)) في شمال شرقي الاردن وجبل الدروز، والصبابحة في محافظة عمان.

أما في فلسطين فمنهم آل طوقان في نابلس وآل الريماوي في قضاء رام الله وعرب الحذيفات في قضاء طبرية وكعوش في صفد والذين امتد فرعهم الى وادي موسى وغور دامية في شرقي الاردن.

هذا ونعتز بدورهم البطولي في تصديهم للصليبيين والمغول وغيرهم فقد قاوم احفادهم ((عرب الفاعور)) جيوش المستعمرين والغزاة من بريطانيين وفرنسيين وصهاينة بعد الحرب العالمية الاولى[1] .

وقد هدد البدو قوافل الحجاج زمن المماليك البحرية واستمروا في ذلك زمن المماليك الجراكسة مما دفع سلاطينهم لبناء القلاع والحصون على طول الطريق الى الحجاز فمنعوا البدو من الغزو والسلب، ولكن البدو عادوا لنشاطهم بعد أن دب الضعف والفساد في اواخر المملكة المملوكية فاغاروا على الكرك والقدس بين عامي 907-910هـ/1502-1505م وصدّ أمراء سوريا هذه الغارة. ولكن الاتراك العثمانيين قضوا على دولة المماليك في سوريا ومصر بعد معركتي مرج دابق والريدانية بعد ان دامت حوالي 257عاماً.

(1) هذا نقد وصفهم ماكسي فون ابنهايم ((Oppenheim)) في مطلع القرن العشرين حيث قال: ((تقع مضاربهم في شمال غربي الجولان بين القنيطرة وبحيرة الحولة شمال طبرية، ومازال شيوخهم من أعرق البيوتات في بلاد الشام)). انظر الدباغ: القبائل العربية ص78.

الفصل الثاني

النظام الإداري في جنوب بلاد الشام

(فلسيطن والأردن)

أولاً : أصل التسمية لبلاد الشام

لقد اختلف في سبب هذه التسمية، فقد قيل لكثرة قراها وقربها من بعضها البعض فشبهوها بالشامات التي في جسم الانسان((الخال)) لاختلاف لون ارضها كالحمرة والبياض والسواد، فسمي شاماً كما سمي الخال في الجسم شامة.

كما قيل لأن قوماً من كنعان نزلوها فتشاءموا لها، كأهل اليمن من يمنهم، كما يقال تيامنوا وتياسروا فسميت باليمن، وفي اللغة أشأم أي أتى الشام[1] وقيل أن معنى الشأم: الطيّب، وإنما سميت شأماً لأنها عن شمال الكعبة كما سمي باليمن ما كان عن يمين الكعبة[2] ، هذا وورد في قوله تعالى ((الذي باركنا حوله))[3] قال السهيلي هي الشأم وقال تعالى : ((وأصحاب المشأمة))[4] وقيل أنها مأخوذة من اليد الشؤمى أي اليسرى[5].

وقيل أنه سمي شاماً من أسماء أحد أبناء نوح -شام بالسريانية وهو ((سام بن نوح))، وقيل لوجود شامات أي أراضي بيضا وحمراء وسوداء[6].

كما لفظه العرب الشأم والشام الذي يشمل سوريا ولبنان وفلسطين والاردن.

أما كلمة أردن فتعني الجريان الدائم للماء أي النهر، ففي المعجم الوسيط نجد معنى أردن تعني: دام، والدوام هنا لجريان الماء وعدم انقطاعه[7].

---

(1) ابن شداد: عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن الحلبي (ت684هـ/1286م): ((الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والاردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، 1962م. ج2، ق1 ص8.
والنويوي: ابو زكريا محي الدين بن شرف (ت 676هـ/1278: تهذيب الاسماء واللغات، دار الكتب ببروت، ج1، ق2، ط71 ويشارك النويوي: تهذيب.
وابن منظور: ابو الفضل جمال الدين مكرم: لسان العرب، دار صادر بيروت، 1968، م12، ص324ـ وسيشارله ابن منظور ((لسان)).
وشيخ الربوة : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي (ت727هـ/1327م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، المطبعة الاكاديمية، المانيا، 1865، ص169.

(2) الظاهري : عز الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راوسيس، مطبعة باريس، ط1، 1894، اعاد النشر دار العرب للبستان، القاهرة 1988-1989، ص31، وابن عساكر، ابي القاسم علي بن الحسن (الجزآن 1،2،) ، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق. (1371-1373هـ/1951-1954م) جـ1، ص8-9، وقيل أن اسمها كان سوريا في أول الأمر.

(3) آية (1) سورة الاسراء، آية 10.

(4) سورة الواقعة آية:9، والعمري: م.س، ص170.

(5) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص190.

(6) البدري: نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، 1341هـ/1923م، ص12، وما بعد وأبو الفداء، تقويم البلدان، ط باريس، 1860، ص235.

(7) ابراهيم مصطفى واحمد حسن الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، جزءان، دار الدعوة، استانبول، 1986، جـ1، ص339.

كما ورد اسم الاردن في حديث شريف:((لا تزالون تقاتلون الكفار، حتى يقاتل بقاياكم الدجال ببطن الاردن، انتم من غربيه والدجال من شرقية..، قال الأوسي ما كنت ادري أين الاردن حتى سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم))[1].

وفي عصر الخلفاء الراشدين ذكر جندُ الاردن وقصبتها طبريه[2] ولجند الاردن من الكور صور وعكا وقدس وبيسان وبيت راس وأفيق والجولان وفحل وجرش، وغلب على سواد الاردن وجميع أراضيها أخلاط من العرب والعجم[3].

وقد فتحها شرحبيل بن حسنة زمن ابي بكر الصديق عنوة عدا طبرية حيث صالح أهلها على انصاف منازلهم وكنائسهم ولكنهم نقضوا العهد في خلافة عمر بن الخطاب فأمر أبو عبيدة الجراح عمرو بن العاص بغزوهم على رأس اربعة، الاف مجاهد ففتحها على مثل صلح شرحبيل بمساعدة يزيد بن أبي سفيان عام 14هـ/635م[4].

أما معاوية بن أبي سفيان فقد نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن صور وصيدا عام 42هـ/662م[5].

---

(1) البكري: عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم، نشر وستفلد في مجلدين في غوتنجين ، سنة 1877، ص90. وانظر الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج1، ص200، قال : ((وللاردن عدة كور منها كورة طبريا وكورة بيسان، وكورة بيت راس، وكورة حدث وكورة صفورية وكورة عكا وذكر بان هشام بن عبد الملك نقل الصناعة من الاردن بعكا الى صور.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، نشر دي غويه، ليدن، 1866م، ص116.
واليعقوبي: البلدان، نشر دي دي غويه، ليدن، 1891، ص159، وتأريخ اليعقوبي، ص329.

(3) اليعقوبي: ن م،، نشر هوتسما، ليدن، 1883، ص327. والمقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي غويه، ليدن، 1906، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: نشر وستفلد في غوتنجن، 1849، ص95. ذكر من مدن الأردن : قدس، صور، عكا، اللجون، بيسان، أذرعات، ص154.

(4) البلاذري، م.س، ص114، واليعقوبي: البلدان، ص327.

(5) البلاذري، ن.م، ن ص116.

أما في العصور الحديثة فقد اطلق المؤرخ الصليبي وليم الصوري لاول مرة اسم شرقي الاردن على بلادنا بتسميتها : ,Trans Jordanen و Ulta Jordanen[1].

ثم نقل عنه بعض مؤرخي الحروب الصليبية وغيرهم من المؤرخين المحدثين[2] هذه التسمية حتى استقر الرأي على اسم Trans Jordan ومعناها وراء الاردن ((شرقي الاردن)).

بخلاف المؤرخ فردريك بك الذي قال : (بأن اسم شرقي الاردن كان معروفاً بين عامي 873،810 ق.م، أيام غزو الاشورين لسوريا وفلسطين[3].

بينما سماها المؤرخ الاردني المعاصر، د. يوسف غوانمة بامارة الكرك الأيوبية التي اسسها الملك الناصر داوود بن المعظم عيسى[4].

ويلاحظ أن الاراضي الواقعة شرقي نهر الاردن كانت قسماً من سوريا في مختلف عهود التاريخ، ولكنها كانت قسماً مهملاً طوال العهد العثماني[5].

اما فلسطين فقد ذكر ياقوت عدة روايات في اسمها[6] :

فقد قيل بأنها سميت بهذا الاسم نسبة الى فلسطين بن سام بن أرم بن سام بن نوح، وقال هشام: انما سميت نسبة الى مليستين بن كسلوفيم من بني يافث بن نوح ثم عرب فليستين وقال الزجاجي سميت بفلسطين بن كلثوم من ولد فلان ابن نوح.

وقال ابن الكلبي: في قوله تعالى "ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم" هي ارض فلسطين وفي الارض التي باركنا فيها للعالمين..)) قال هي فلسطين.

---

(1) د. يوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الاردن في العصر المملوكي((المماليك البحرية))، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1982، ص25، وأضاف قائلا بأنها ضمت بلاد جلعار وعمون ومؤاب ، كما سماها في موضع آخر Trans Jordanen.

(2) Ziadeh, Urban Life in syria, . Runciman Ahistory of the crusades, Cambridge, 1967, vol,2 p.230. Beirut, 1953, p.68.
وفيليب حتى : العرب: تاريخ موجز – دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1965م، ص16. واحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى 1969 ، ص208.

(3) فرردبك بك: تاريخ شرقي الاردن ص13.

(4) د. يوسف غوانمة: ن م، ص26، حيث ذكر حدودها الجغرافية من نهر اليرموك شمالاً الى معان وخليج العقبة جنوباً ومن الازرق وباير شرقاً الى نهر الاردن والبحر الميت ووادي عربة غرباً، وهي تمثل الكيان الاردني الحالي. ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ج1، ق1، ص83-84. Smith, The historical geograhpy of the Holy land. p.535.

(5) أحمد السلمان: تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة، ص223.

(6) ياقوت الحموي: المشترك ص334 وانظر الدباغ: بلدانية فلسطين العربية – المدن ص13.

وكذلك كانت كلمة فلسطين غربي نهر الاردن تسمى ارض كنعان كما ورد في التوراة : ((من الاردن أي نهر الاردن عَبَر يوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام -العسكري الى ارض كنعان لفتحها والسيطرة عليها بعد أن رفض الشعب المختار الانصياع لأوامر موسى وذلك لشدة رعبهم من أصحاب الارض)) ولم تطلق كلمة اردن في حينه على الارض الواقعة شرقي النهر بل اقتصرت على النهر نفسه))[1].

وقيل سميت بذلك لأن أول من نزلها فلسطين بن كيسوحين بن لقطين بن يونان بن يافث بن نوح..))[2].

كما قال عنها الادريسي : (فلسطين أول أحواز الشام وحدودها من المغرب من رفح الى اللجون وعرضها من يافا الى اريحا مسيرة يومين[3].

واما سبب تسمية مدينة القدس ((ببيت المقدس)) فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، قال تعالى :((ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين))[4]. والمقدسة : أي المطهرة التي أمركم الله بها، وقيل الطور وما حوله ، وقيل دمشق وفلسطين وبعض الاردن، وقيل الشام نقله العلامة البيضاوي[5].

فضائل الشام

لقد أنعم الله على أهل الشام بفضل سكناهم فيه لقدسية ارضه كما ورد في الاحاديث الصحيحة "ولكن الارض المقدسة لا تقدس احداً ، وانما يقدس الانسان عمله" [6].

---

(1) يوشع، 3: 15-16 مقال في جريدة السبيل الاردنية عدد 39 السنة الأولة الثلاثاء من 26 تموز الى 1 آب (اغسطس، 1994، ص14) تحت عنوان : ((الاردن في التاريخ)).

2 مجير الدين الحنبلي، م.س، ص416.

3 : الادريسي، م.س، ص11.

(4) سورة المائدة ، آية 21.

(5) ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت 1083هـ) تحفة الادباء وسلوة الغرباء، ((رحلته)) تحقيق رجاء محمود السامرائي/وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة كتب التراث(12) ص76.

(6) ابن تيمية، مناقب الشام وأهله، ط1، بيروت ، 1370هـ/1960م، المكتب الاسلامي ص8.

هذا وقد ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء[1].

ففي القرآن الكريم وردت آيات تشير الى فضائل الشام كقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"[2].

وقوله تعالى : "وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطاً الى الارض التي باركنا فيها للعالمين"[3].

وقوله تعالى : "ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين"[4].

وهكذا نرى مسرى الرسول الكريم اليها وهجرة ابراهيم قبله اليها، ومملكة سليمان بها وفيها ايضا الطور الذي كلم الله عليه موسى[5] ، وقوله تعالى : "والتين والزيتون وطور سينين"[6].

واليها المحشر والمعاد[7] لأول الحشر[8] فبنه على الحشر الثاني، فمكة بعد مبدأ وايلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الامر حيث أُسري بالنبي الكريم من مكة الى ايلياء ، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام[9].

---

(1) يروي شيخ الاسلام ابن تيمية ايام غزو التتار لدمشق أنه سافر لمصر عام 700هـ لاستدعاء العسكر المصري وبعد ان أمر اهل دمشق بلزوم دمشق ونهاهم عن الفرار لمصر، ورجع قبل الجيش المصري وكتب رسالة قارن فيها بين غزوة الخندق وموقف المسلمين تجاه التتار وبشر المسلمين بالنصر، فالرياح التي جاءت يوم الخندق قابلها ثلوج وامطار فاقت المألوف والمعتاد وكانت من اسباب رحيل التتار. ورحيل الاحزاب عن المدينة بعد مناوشات بسيطة، قابلة رحيل التتار عن الشام هذه السنة، بعد مناوشات بسيطة حول دمشق وحماه. ابن تيمية، ن م ، ص73.

(2) سورة الاسراء ، آية 1، وحوله هي ارض الشام.

(3) سورة الانبياء، الاية 70، 71، ومعلوم ان الله نجى ابراهيم ولوطاً الى ارض الشام من ارض الجزيرة والعراق.

(4) سورة الانبياء الاية 81، أي انها كانت تجري الى ارض الشام التي فهيا مملكة سليمان.

(5) سورة مريم، الاية 52، ((وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجياً)).

(6) سورة التين، الايتان 1،2.

(7) ابن تيمية. ن م، ص78.

(8) سورة الحشر، الاية 2.

(9) ابن تيمية، ن م، ص78.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ستجدون أجناداً ، جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق، فقال الحوالي يا رسول الله اختر لي؟: قال : عليك بالشام فانها خيرة الله من أرضه يجتبي اليها حزبه من عباده، فمن أبى فليلحق بيمنه وليتق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله[1] وقال صلى الله عليه وسلم : ((إن ملائكة الرحمن باسطة اجنحتها على الشام"[2] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "طوبى للشام"[3] فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله ؟ قال : لان ملائكة الرحمة باسطة اجنحتها عليها وقوله : "وغفر دار المؤمنين بالشام"[4].

وقوله صلى الله عليه وسلم : لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق الى ان تقوم الساعة"[5].

وقال صلى الله عليه وسلم : "ينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق[6] ويكفي الشام فضلاً وجود بيت المقدس فيه حيث قال صلى الله عليه وسلم : "من زار بيت المقدس محتسباً أعطاه الله ثواب ألف شهيد"[7].

وفي حديث قدسي آخر: "قال الله تعالى لبيت المقدس أنت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي من يسكنك فبرحمة مني ومن خرج منك فبسخط مني عليه"[8].

---

(1) ابن تيمية ص82، ((يقول انه حديث صحيح، اخرجه احمد والطحاوي في ((مشكل الاثار)) وابو الحسن الربعي في ((فضائل الشام ودمشق)) من طرق خمسة عن عبد الله بن حواله مرفوعاً بعضها صحيح الاسناد.

(2) ابن تيمية، ن م، ص84-85.

(3) ن.م، ن.ص. رواه زيد بن ثابت واخرجه احمد جـ5/ص184، 185، وابن ابي شيبه في المصنف (1527) والترمذي، وابو الحسن الربعي، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(4) ابن تيمية: ن.م، ص85 قال : انه حديث صحيح اخرجه احمد (جـ4/ص104) وابن سعد في الطبقات (جـ7/ص427-428) والبغوي في ((مختصر المعجم)) (جـ9/ص130) وغيرهم.

(5) ابن تيمية: ن م، ص62، ذكر الرواية عن ابي هريرة وقد أورده ابن حبان في ((الثقات)) واورده الهيثمي في موضعين من "المجمع" (جـ7/ص288).

ورواه الطبراني في ((الاوسط)) وابو يعلى ورجالة ثقات.

(6) ابن تيمية: ن.م ص58 ويذكر انه حديث صحيح اخرجه مسلم (جـ8/ص197) وابو داود (جـ2/ص213) وابن ماجة (جـ2/ص508-512) والترمذي(جـ2/ص37) والحكم (جـ4/ص492-494) واحمد (جـ4/ص181) وقال الترمذي حديث صحيح والحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(7) الظاهري: ن م، باريس، 1893م، ط1، ص17.

(8) العليمي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، النجف، 1968م، ج1، ص228.

ونختم حديثنا عن مناقب الشام وأهله برواية ابي عمرو الشيباني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس يعد من الخلفاء الا من ملك المسجدين المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس الشريف"[1].

وهكذا نرى أهمية الحديث السياسي الذي يقلل من شأن قادة المسلمين الذين لا يسعون بجدية لتحرير تلك الاراضي من الصهاينة والصليبيين الجدد لان مكانة بيت المقدس كبيرة في قلوب المسلمين، فمن يفرط في حق المسجد الاقصى فقد فرط في حق من حقوق الله.

فقد روى أبو داود وابن ماجة عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس فقال صلى الله عليه وسلم : "أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فان صلاةً فيه كألف صلاة في غيره، قلت أرأيت إن لم أستطع ان أتحمل اليه؟ قال: فتهدي له زيتاً يُسْرجُ فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه" [2].

وللشعر نصيب في بيان مناقب الشام وأهله[3] :

بلاد الشام من خير البلاد	لأجل الأنبياء ذوي الرشاد
فان بها مدافنهم جميعاً	سوى طه الرسول إلى العباد
وحدُّ الشام طولاً من عريش	إلى ارض الفرات المستجاد
ومن جسر المسيح يقال عرضاً	إلى طرسوس البلد المراد
ومن يافا كذاك إلى معانٍ	فشام كل ذلك من بلاد

كما أكد الرسول الكريم على ملكية العرب لمدينة الخليل[4] ((حبرون)) حين اقطعها لتميم الداري وإخوانه فيما يحاول اليهود اقتسام مدينة الخليل اليوم مع المسلمين.

---

[1] الظاهري: ن م، ج1، ص341.

[2] جريدة الاتحاد، عدد يوم 5 رمضان 1416هـ/1996/1/27م دولة الامارات العربية المتحدة. ص11.

[3] النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل (ت 1143هـ/1721): الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق عبد الحميد مراد، ط دار المعرفة، دمشق 1989، ص476.

[4] هذا البلد المقدس الذي جاء في الحديث الشريف عن اهميته وقدسيته ((عن ابي هريرة قال : قال الرسول:((ولما أسري بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال : انزل فصل ركعتين فان هناك ولد اخوك عيسى ثم الى الصخرة وشرقي الحرم تربة لوط)) وبداخل المسجد قبر يوسف بنى مسجدها سليمان بواسطة الجن وبداخل المسجد الغار المكرم المقدس وفيه بنو ابراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم. "اي داخل الحرم الإبراهيمي". مجير الدين الحنبلي الانس الجليل – القاهرة، مصر ، 1866/1283، ص425. وأورد صورة النسخة. بسم الله الرحمن الرحيم ((هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري)) وإخوته حبرون والمرطوم)) ((وبيت عينون وبيت ابراهيم وما بينهن)) ((نطية بتٌ بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم)) ((ولأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله. فمن آذاهم)) لعنهم الله. شهد عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وكتب علي بن أبو طالب وشهد)) هذه نسخة كهيئته.

ثانياً : التقسيم الجغرافي لبلاد الشام

لقد اطلق اسم الشام على كل ما يقع وراء نهر الفرات الى سواحل البحر المتوسط غرباً والبادية من أيلة الى الفرات، ثم من الفرات الى حدود آسيا الصغرى شرقاً، وبلاد الروم حتى الثغور شمالاً وصحراء سيناء حتى رفح جنوباً[1].

وقال بعضهم ان معدل طول بلاد الشلام حوالي ألف كيلومتراً وعرضه من الغرب الى الشرق نحو اربعمائة وخمسين كيلومتر[2].

كما قدر القدماء طوله من العريش الى الفرات بمسيرة شهر وعرضه من جبلي أجا وسلمى[3] الى البحر المتوسط نحو عشرين يوماً.

هذا وتقع بلاد الشام فلكياً مابين خطي طول 34-37، وخطي عرض 31،34، كما تقع في وسط غرب قارة آسيا على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط من خليج الاسكندرون شمالاً حتى شواطئ شبه جزيرة سيناء جنوباً[4]. فكانت صلة الوصل بين آسيا واوروبا وافريقيا.

كما قدر الجغرافيون طولها بالزمن الذي يستغرق لقطعه بنحو شهر من العريش الى الفرات.

اما عرضها فقدروه بعشرين يوماً تقريباً من جبلي طيء أجا وسلمى من القبلة الى بحر الروم[5] وأغلب جغرافي هذه الفترة اتفقوا مع ياقوت في تحديد بلاد الشام بينما خالفه شيخ الربوة حيث قال : ان طول بلاد الشام يمتد من فلسطين الى العريش بنحو سبعة وعشرين يوماً

---

(1) ابن حوقل: صورة الارض، ليدن، 1938، ص154. والقلقشندي: صوء الصبح المسفر، القاهرة، 1906، ج1، ص279-281. وفتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية، الكتاب الأول، القاهرة، ص160.

(2) محمد كرد علي: خطط الشام، دمشق، 1983، ج1، ص12.

(3) أجأ وسلمى: جبلان جنوب الشراه في شرق الاردن.

(4) الطرزي عبد الله: ((جغرافية الاردن، الموسوعة الاردنية ج1، ص18-19.

(5) ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص313.

العريش : مدينة على الحدود بين مصر والشام، على ساحل بحر الروم، خربها الافرنج،ش البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن، (ت739/1338)، مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، تحقيق علي البجاوي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1954، ج2، ص935، وأما أجا: أحد جبلي طي، فيه قرى بني طيء والمسافة عشر ليال من دون فيد الى اقصى أجا الى القريات من ناحية الشام. البغدادي: ن م، ج1، ص28.

وعرضها من منبج الى طرسوس[1]. وهكذا اختلف الجغرافيون الاوائل في وصف حدود بلاد الشام وطبيعتها الجغرافية حسب تقسيم المنطقة في عصره كوراً او أجناداً

فقد ذكرها اغلب الجغرافيين بشكل عام دون ذكر الحد الشمالي مع الروم، لعدم ثبات هذا الحد في أيدي المسلمين، وتعهد البعض الى إغفاله، ثم النظرة الاسلامية لمسألة الحدود لبلاد الشام وبقيت هكذا حتى تم تقسيمها الى أربع دول بعد الحرب العالمية الثانية.

---

(1) الاصطنحري: ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي(ت933/321)، المسالك والمملك. د:ت، ص55. وشيخ الربوة: نخبة الدهر، ص192. ملطية: بلدة من بلاد الروم تحادي الشام، ياقوت: م.س، جـ5، ص192. ومنبيح/ مدينة غنية بفواكهها وخضرواتهـا، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، ياقوت: ن م، جـ5، ص206.

والمقدسي: شمس الدين ابو عبد ا لله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت999/390) ، أحسن التقاسيم، تحقيق غازي، طليمات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1980، ص150، اللذين اعتبرا بلاد الشام وحدة جغرافية. كما جعل ابو الفداء حد الشام الجنوبي من رفح الى ما بين الشوبك وأيلة، علماً بان أيلة هي الحد الذي ذكره غيره من الجغرافيين أبو الفداء: تقويم البلدان، ص257. بينما حددها ابن فضل ا لله العمري بموجب التقسيمات الادارية في زمنه حيث قال : ((فأما ما هو في زماننا وعليه قانون ديواننا، فانه اذ قال السلطان: بلاد الشام ونائب الشام لا يريد الا دمشق ونائبها ولايته من لدن العريش–حد بلاد مصر الى اخر سلمية مما هو شرق بشمال والى الرحبة مما هو شرق حمص، وقد اضيف اليها في أيام.سلطاننا بلاد جعبر وحقها أن تكون مع حلب فعلى هذا قد صارت مملكة دمشق مشتملة على الشام الأعلى وما يليه وما يلي بعضه الادنى وليس يخرج عنها من ذلكم الا حماة، وما أخرج مع صفد، ومع طرابلس وأفرد به والكرك ويكون في نيابة نائبها نيابة غزة ونيابة دمشق ونيابة حمص وبعض شيء مما يقتضي الحق أن يكون في نيابة حلب)).

ابن فضل ا لله العمري: ابو العباس شهاب الدين احمد بن يحي(ت1348/744): التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص225-226.

وسلميه: بلدة في ناحية البرية من أعمال حماة، بينها مسيرة يومين(البغدادي، مراصد، ج2، ص818 وجُعبر: تقع على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، نسبت الى اسم ملكها الاعمى من بني قسنير: البغدادي، ن م، ج1، ص335.

وبالس: على الفرات من الجانب المغربي، البغدادي، ن م، ج1، ص157. والشوبك: قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وأيلة قرب الكرك، البغدادي، مراصد، ج2، ص818. وأيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام البغدادي: مراصد، ج1، ص138.

وللمزيد من المعرفة عن حدود بلاد الشام، انظر القلقشندي، صبح، ج4، ص75-76 والسيوطي، ابو عبد ا لله محمد بن شهاب الدين احمد بن علي ابن عبد الخالق المنهاجي (ت1475/880)، اتحاف الإخصا بفضائل المسجد الاقصى، تحقيق احمد رمضان، الهيئة المصرية، القاهرة، 1984م، ق2، ص132. والنابلسي: ن م ، 1989م، ص476.

أسماء الشام وحدوده الجغرافية

لقد كان الهمداني(ت945/334) أول جغرافي اعتبر بلاد الشام وحدة بلدانية واحدة[1]. أما الاصطخري فقد (كتب ما بين 318-321هـ/930-933م) وأطلق عليها ((أرض الشام[2] بينما ذكر المقدسي (ت378هـ/988) اقليم الشام قاصداً بذلك وحدة بلاد الشام الجغرافية[3]، وذكر ابن حوقل صاحب كتاب صورة الارض اسم كلمة ((الشام)) مجرده[4].

أما بقية جغرافيي القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي الذين كتبوا عن الشام فقد كتبوا عن الكور التي تتكون منها ديار الشام وأجنادها[5]. كابن خرداذبة (ت 272 هـ / 885 م) في كتابه ((المسالك والممالك))[6] واليعقوبي (ت 288 هـ / 891 م)[7]. وهكذا نلاحظ اختلاف الجغرافيين حول تسمية وتحديد اجزاء الشام حيث يذكر ابن خرداذبة "كورقنسرين" وكورة دمشق وكورة الاردن لكنه يقول اقليم حمص وبعدها[8].

بينما نرى اليعقوبي يذكر التسمية التي تعود الى صدر الاسلام فيقسم الشام الى أجناد الاردن وفلسطين ودمشق وحمص ولا يذكر جند قنسرين[9]. بخلاف الاصطخري الذي يذكره ويصف الجبال والشراه[10].

---

(1) اذ عنون الفصل الخاص بها بقوله :((القول في الشام)) الهمداني ص91.

(2) الاصطخري: المسالك والممالك ص43، د. عبد الكر غرايبة ورفاقه: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر، ط1، الدار المتحدة للنشر ، بيروت، 1974م، ص147-148، فالاصطخري يقول: ((وأما الشام فان غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة الى الفرات ثم من الفرات الى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها حد مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور. الاصطخري: المسالك والممالك، نشر وتحقيق آصف بن علي أصغر، القاهرة، جزءان 1955-1961م، ص43.

(3) وصف المقدس التلوين الطبيعي لاقليم الشام ص151: ((ووضع هذا الاقليم ظريف هو اربعة صفوف، فالصف الأول ما يلي بحر الروم وهو السهل، رمال منعقدة ممتزجة، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل. والصف الثاني الجبل: مُشَجَّر ذو قرى وعيون ومزار يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وقدس والبقاع وانطاكية والصف الثالث: الاغوار، ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان ايلة وتبوك وصغر واريحا وبيسان وطبريا وبانياس والصف الرابع، هو سيف البادية)).

(4) ابن حوقل، صورة الارض ص 153.

(5) عبد الكريم غرايبة ورفاقه: م.س، ص147. والمقدسي: م.س، ص151.

(6) ابن خرداذبة: مس، ص75-76، ذكر الكور التي تكون فيها بلاد الشام.

(7) اليعقوبي: البلدان ص324 وما بعدها ذكر أحفادها.

(8) ابن خرداذبه: م.س، ص75-76. ذكر الكور التي تكون ذكر أجنادها.

(9) اليعقوبي،ن م، ص234 وما بعد منها بلاد الشام، وعبد الكريم غرايبة ورفاقه: م.س، ص148-149.

(10) الاصطخري: م.س، ص43،44.

وأما المقدسي فيضيف اليها كوراً سادساً هو كور الشراه وعاصمتها صُغُر[1] ويحدد معنى كلمة : ((المصر)) فقهيا ولغوياً:[2].

كما يلاحظ اختلافهم على أمر المدينة والقصبة التابعة لهذه الاجناد وذلك بسبب الحالة السياسية لبلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كما اختلفوا في وحدة قياس المسافات بين المدن حيث استعمل ابن خرداذبة الفراسخ والاميال[3] ، واستعمل الاصطخري اليوم والمرحلة بنفس المعنى[4] وهما متساويان، بينما استخدم المقدسي اليوم والمرحلة والبريد في معنى واحد[5].

وأورد في الاصطخري بالنسبة للمسافات بين مدن جنوب بلاد الشام ان المسافة من دمشق الى طبرية اربعة أيام، ومن طبرية الى الرملة ثلاثة ايام ومن الرملة الى رفح يومان، وقدر المسافة من يافا- الرملة- القدس-اريحا-زُغُر-جبال الشراة-معان بستة ايام. ومن الرملة الى يافا بنصف يوم ومن الرملة الى بيت المقدس بيوم، ومن بيت المقدس الى مسجد ابراهيم بيوم، ومن بيت المقدس الى اريحا بيوم، ومن بيت المقدس الى البلقاء بيومين ومن الرملة الى قيسارية بيوم، ومن الرملة الى نابلس بيومين ومن اريحا الى زُغُر بيومين. ومن زُغُر الى جبال الشراه بيوم ومن جبال الشراة الى آخر الشراة بيوم ((ومركزها أذرح)).

ويذكر ان قصبة فلسطين : الرملة.

وأما طبرية فانها قصبة الاردن فمن طبرية الى صور يوم ومنها الى عقبة فيق يوم ومنها الى بيسان يومان خفيفان، والى عكا يوم، واشار الى ان الاردن كان اصغر اجناد الشام واقصرها مسافة[6].

---

(1) المقدسي: احسن التقاسيم، ص154-155. وغرايبة ورفاقه، م.س، ص149.

(2) المقدسي : ن م، ص47، يذكر رأي المقدسي: وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد دخله السلطان الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلّدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقاليم مثل دمشق.. وربما كان لمصر او للقصبة نواح... فالاقاليم اربعة عشر، ستة عربية..ثم الشام.. وثمانية عجمية..ولابد لكل اقليم من كور ثم لابد لكل كور من قصبة ثم من كل قصبة من مدن..وليس كل قصبة مصراً)).

(3) ابن خرداذبة: م.س، ص97-100.

(4) الاصطخري: ن.م، ص48.

(5) المقدسي ن.م، ص190.

(6) الاصطخري:ن م، ص48-49.

هذا ويذكر المقدسي اسماء اربعة وسيتين مدينة في اقليم الشام واعتبر مدينة دمشق مصراً وست مدن قصبات تتبعها مدن أخرى مثل طبرية والرملة وزُغَر ودمشق وحلب وحمص والباقي مدن عادية[1].

وأما الثغور البحرية في جنوب بلاد الشام فهي سواحل جند الاردن مثل صور وعكا وسواحل جند فلسطين قيسارية وارسوف ويافا وعسقلان وغزة[2].

وبالنسة لحدود بلاد الشام :

فقد لاحظنا اختلاف الجغرافيين بالنسبة لحدود الشام كما ورد في التعريف في المصطلح الشريف للعمري و((تقويم البلدان)) لأبي الفداء.

ففي التعريف: جعل العمري: حده الشمالي الى البحر الرومي وحده الغربي الى مصر، اما في ((تقويم البلدان فجعل حده الشمالي البلاد التي بين الفرات والبحر الرومي ((المتوسط)) فادخل بلاد الارمن المتصلة بشمال حلب، وجعل حده الغربي البحر الرومي من طرسوس الى رفح.

ونرى بان سبب هذا الخلاف هو موقع البحر الرومي عن الشام غرباً وشمالاً مما جعلهما يختلفان بالنسبة لموقع الجهة – لان بعض هذه الحدود قد تكون شرقية عن بعض الشام وجنوبية عن البعض الاخر كالبلقاء: فهي جنوبية عن حلب وشرقية على غزة.

بينما ذكر القلقشندي[3] بان حدوده من القبلة ((الجنوب، تيه بني اسرائيل وبر الحجاز والسماوة الى مرمى الفرات بالعراق وهذه كلها من جهة جزيرة العرب وحده من الشرق طرفي السماوة والفرات ، وحده من الشمال البحر الرومي وحده من الغرب حد مصر.

---

(1) المقدسي: م.س، ص47-48-54-151 وما بعدها ويقول: بان الصف الرابع هو سيف البادية وهي جبال عالية وباردة، متصلة مع البادية ذات قرى عيون واشجار يقع فيها من البلدان مآب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب /المقدسي:ن م، ص62-63. بينما يذكر ابن خرداذبة، م.س، ص75 عدد المدن 35 مدينة واليعقوبي م.س، ص30، مدينة والأصطخري م س، ص43، 25 مدينة وابن حوقل: م.س، ص153، 31 مدينة.

(2) ابن قدامة: خراج ابن قدامة، ص252-255، و د. عبد الكريم غرايبة، م.س، ص158.

(3) القلقشندي/ م.س، ج1، ص75.

ثالثاً : التقسيم الاداري لجغرافية جنوب بلاد الشام

لقد قسمت صحاري الشام الى قسمين رئيسيين هما بادية الشام والبلقاء مركز عبور القوافل الصحراوية بين الشام والجزيرة العربية والعراق، وفيها السهول والمنخفضات التي يجري فيها نهر الاردن المسمى "بالشريعة"، وفرعه اليرموك المتفرع من أنهار تنبع من جبل الشيخ شمال لبنان ويمتد جنوباً الى فلسطين، وهناك عدة أنهار منها نهر العوجاء الذي يجري من جبل الجليل في فلسطين[1].

وقد خضعت جنوب بلاد الشام الى تقسيمات ادارية مختلفة عبر العصور التاريخية على اساس ان كل تقسيم اداري كيان مستقل بذاتـه، فجعل بعضهم من بلاد فلسطين والقدس شاماً (الشام الاعلى) أو (الشام الأولى)، وجعلوا الاردن الشام الثانية ومركزه طبرية، والشام الثالثة فكانت تشمل الغوطة ومركزها دمشق والشام الرابعة فكانت حمص ومركزها مدينة حمص[2]. أما الشام الخامسة فكانت قنسرين ومركزها حلب[3].

وأما تسمية الشام بسوريا فكان ذلك في العصر البيزنطي، والفارسي، وبالنسبة للاقسام :

كما قسم العرب الاوائل الشام الى خمسة أقسام[4] :

- الشام الأولى ((فلسطين)): وحدودها من طريق العريش وغزة والرملة وبيت المقدس ومركزها الرملة.
- الشام الثانية ((الاردن)): ومدينتها العظمى طبرية وتشمل الغور واليرموك وبيسان.
- الشام الثالثة : وهي دمشق وطرابلس.
- الشام الرابعة: هي ارض حمص.

---

(1) القلقشندي، م.س، ج4، ص75.

(2) ن.م، ج4، ص683، ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة، 1305، ج4، ص278، حسن ابو العينين: لبنان، دراسة جغرافية بيروت، 1980، ص13.

(3) القلقشندي: م.س، ج4، ص83.

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج6، ص251. وكان من أنبياء فلسطين اسماعيل عليه السلام (عبد السميع)) والنبي شعيب امير مدين بين العقبة ومعان في القرن 13 ، ق.م، الدباغ فلسطينيات، ص30-32. والنبي أيوب في خرائب العيسى، من أعمال معان في الاردن في منتصف القرن 13 ق.م، الدباغ: ن م، ص34-35. والنبي شعيب: امير مدين بين العقبة ومعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقبره في طبرية انظر: الدباغ: فلسطين، ج1، ص34-35.

- والشام الخامسة: وهي قنسرين ومدينتها العظمى حلب وانطاكية.

وأما الجغرافيون الاوائل فقد قسموا الشام الى خمسة اقسام ادارية[1] هي:

اولاً : فلسطين: من حدود مصر وتشمل غزة ورملة فلسطين، ومن مدنها: ايليا لبيت المقدس، وعسقلان، واللد ونابلس والخليل (حبرون) وعرضها من يافا الى اريحا ومسيرة فلسطين طولاً اربعة ايام.

ثانياً : حوران: ومركزه طبرية، ومن مدنها الغور واليرموك وبيسان.

ثالثاً : الغوطة: ومركزها دمشق، ومن مدنها طرابلس وصفد وبعلبك.

رابعاً : حمص وفيها سلميه، ولا تدخلها حية ولا عقرب، نزلها خمسمائة من أصحاب الرسول وفيها مزار علي بن ابي طالب كرم الله وجهه.

خامساً : قنسرين: ومركزها حلب ومن مدنها: حماة، وسربين وانطاكية التي قيل انها قرية حبيب النجار.

كما ذكر مجيد الدين الحنبلي تقسيماً آخر للاوائل بالنسبة لبلاد الشام كما يلي:

- الشام الأولى - فلطسين واوسطها الرملة[2].
- الشام الثانية - حوران ومركزها طبرية.
- الشام الثالثة - الغوطة ومركزها دمشق.
- الشام الرابعة - حمص.

---

(1) الظاهري: م.س، ص42.

(2) مجير الدين الحنبلي م.س،ـ ص416. اما ابن حوقل: فقد لفظها الشأم فقال: ((وكور الشأم فهي جند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم والثغور، وبين ثغور الشأم وثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بينهما، وجبل اللكام جبل داخل في بلد الروم)). ابن حوقل م.س، ص154، انظر الملحق صورة الارض لابن حوقل.

وانظر بالنسبة لهذا التقسيم ايضا: الأصطخري:م.س، مجلد 3، ص675،687. وانظر ابن حوقل ن.م، ص157، فقد قال عن جند فلسطين ((وهو اول اجناد الشأم مما يلي المغرب وعرضه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفح الى حد اللجون، وعرضه من يافا الى ريحا مسيرة يومين، ونواحي زُغُر وديار قوم لوط والشراه والجبال فمضمومة الى هذا الجند، وهي منها في العمل الى ايلة. وديار قوم لوط والبحيرة الميتة وزُغُر الى بيسان وطبرية يسمى الغور لانها بين جبلين وسائر مياه بلاد الشأم يتع اليها وبعضها من الاردن وبعضها من فلسطين)). ((أما الاردن فمدينتها الكبرى طبرية وهي على بحيرة عذبة الماء.وبعض الغور من حد الاردن الى ان يجاوز بيسان، فاذا جاوزه كان من حد فلسطين)). ابن حوقل، ن.م، ص160.

- الشام الخامسة - قنسرين ومركزها حلب ونلاحظ تتشابهاً بين هذين التقسيمين.

تقسيمات ادارية لجنوبي بلاد الشام زمن الفرس لمدة قرنين من الزمان (538-332 ق.م)

لقد كانت سوريا الكبرى ((بلاد الشام)) الولاية الخامسة في مملكة الفرس والتي شملت ايضاً قبرص (وما وراء النهر) وعاصمتها دمشق.

هذا وقد قسم الفرس هذه الولاية الى عدة ألوية منها :

((لواء فينيقيا)) و ((لواء العربية)) ويشمل فلسطين وشرقي نهر الاردن وصحاريها وكان على رأس كل ولاية حاكما محلياً من أهل البلاد مستقلاً في ولايته ادارياً وسياسياً[1] وكانت جميعها تستخدم اللغة الارامية وتنقشها على مسكوكاتها وفي وقائعها الرسمية والمكاتبات العادية.

وعندما خضعت جنوب بلاد الشام للدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) مع بداية القرن الخامس (400م) قسموها الى ثلاثة اقسام:[2].

- فلسطين الأولى Palaestine Prima وتضم القدس ونابلس والخليل ومعظم مدن الساحل حتى رفح، وعاصمتها قيسارية.
- فلسطين الثانية Palaestine Secunda وتشمل على الجليل وام قيس وطبرية وقلعة الحصن وعاصمتها بيسان.
- فلسطين الثالثة Palaestina Tiertia وتضم بلاد العرب الانباط ومنطقة بئر السبع وعاصمتها البتراء وحتى جزر تيران عند مدخل خليج العقبة.

هذا بالاضافة لعدة اقسام ادارية اخرى شملت جميع البلاد الشامية منها فنيقية البحرية (فنيقيا الأولى) التي ضمت الاراضي الفلسطينية مدن حيفا وعكا ثم فنيقيا الثانية، وسوريا الأولى

---

(1) الشيخ نسيب الخازن، من الساميين للعرب، بيروت 1912، ص84. واحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص226. وسليم عرفات المبيض، النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الاجنبية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام 1946م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989م، ص31.

(2) الشيخ نسيب الخازن ن.م، ن.ص، وانظر الملحق: خريطة التقسيمات الادارية في الفترة البيزنطية من كتاب سليم عرفات، النقود العربية الفلسطينية ج131، ص143، (جند الاردن وجند فلسطين) وبالنسبة لمدن السك الفلسطينية انظر الملحق خريطة ، من كتاب سليم عرفات، ص141، صدر الاسلام و ص145، في العصر الاموي ص159، في العصر العباسي والطولوني والاخير، ص169، مدن السك في العصر الفاطمي والسلجوقي، ص181، مدن السلط الصليبية.

والثانية، وقد اسمرت هذه التقسيمات الادارية حتى الفتح الاسلامي[1]. حيث ادخل عليها تعديل بسيط.

فاشتمل جند الاردن: على شمال الاردن (اربد وجرش وطبرية وصفد والناصرة وعكا وحيفا وعاصمته طبرية.

اما جند فلسطين فشمل باقي فلسطين + السلط والشوبك والكرك[2].

هذا ولم ترد كلمة سوريا في مصادر التاريخ الاسلامي، لان كلمة سوريا أصلها بيزنطي[3].

كما استمر التقسيم الاداري البيزنطي في العصر الاموي والذي كان مبنيا على اساس وجود معسكرات الجيش واخذت اسم الجند لوجود الاجناد التي كانت تتغير من وقت لآخر فكانت في العصر الاموي خمسة اجناد هي :-

جند فلسطين ومركزها بيت المقدس.

وجند الاردن ومركزها طبرية.

وجند الغوطة ومركزها دمشق ومن سواحلها طرابلس.

وجند حمص ومركزها حمص.

وجند قنسرين ومركزها حلب.

وقد لعبت قبائل الشام العربية دوراً هاماً في العصر الاموي وخاصة القيسية واليمنية.

وتغير الحال في العصر العباسي، فلم يحتل الشام المكانة الأولى كالعصر الاموي نتيجة للظروف السياسية المستجدة في بلاد الشام فحدث تغيير في التقسيم الاداري تحت حكم الطولونيين والاخشيديين ثم الفاطميين في مصر.

---

(1) سليم عرفات المبيض: م.س، سنة 1989، ص129.

(2) انظر الخريطة رقم التقسيمات الادارية لبلاد الشام في العصر الاسلامي.

(3) القلقشندي: م.س، ج1، ص83، ذكرها وهو يصف التقسيم القديم للشام وذكر تقسيم الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ولم يذكر كلمة سوريا، كما ذكر كلمة بلاد الشام، ونائب الشام ولم يكن يقصد بها سوى دمشق ونائبها.

وبقي التقسيم الاداري كولايات كما هو حتى العصر الأيوبي حيث قسمت الى ولايات عندما قسم صلاح الدين الأيوبي الشام بين ابنائه واخوته، واطلق على كل قسم منها اسم ((مملكة وحاكمها الملك)) مثل مملكة الكرك ومملكة صرخد ومملكة حمص[1].

وأما الأيوبيون فقد اضافوا الى الشام الجزيرة الفراتية، وقسموها اقطاعات وامارات مثل: دمشق، حلب، حمص، حماة بعلبك، الكرك، الشوبك، بيت المقدس، ديار بكر ، ماردين، آمد، ميافارقين، لبنان (اطلقوا عليه اسم الغرب (القسم الساحلي) ويشمل: بيروت وصيدا وصور وطرابلس ويافا وعكا وعسقلان وغزة.

أما اصل الأيوبيين فيشير ابن الاثير الى ان جدهم نجم الدين أيوب من بلدة دودين من أكراد اذربيجان (الرّواديّة)[2].

والحقيقة بان هذا لا يهمنا كثيراً سواء كانوا عرباً ام اكراداً فهم مسلمون ولا عصبية في الاسلام.

وأبو الفداء من أحفاد الأيوبيين.

هذا وقد اقتسم الناصر داوود وعمه الكامل اقتسما ادارة المناطق التالية:

فأخذ الناصر : الكرك واعمالها مع الصلت والبلقاء والاغوار جميعها ونابلس واعمال القدس وبيت جبريل.

بينما أخذ الملك الكامل: دمشق والشوبك والخليل وطبرية وغزة وعسقلان واللد والرملة وما بأيدي المسلمين من الساحل[3].

وبعد وفاة الملك عام 635هـ/1237م بدمشق عاد الصراع بين ابناء ملوك بني ايوب على اقتسام البلاد.

---

(1) القلقشندي: م.س، ج4، ص91، محمد راغب الحلبي، اعلام النبلاء بتارخ حلب الشهباء، بيروت 1923، ص283،293.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، 1402، 1982، ج11، ص341. اما بهاء الدين بن شداد والعماد الاصفهاني لم يلحقوهم بالاكراد. وأما ابن خلكان: فانه يرجع نسبهم الى العرب من عدنان وآدم عليه السلام ابن خلكان: وفيات الاعيان ، تحقيق الدكتوراحسان عباس، دار صادر بيروت، فيما ادعى ابو الفداء:م.س، بانهم من بني امية، 1969، ج7، ص140.

(3) المقريزي: السلوك ج1، ص235.

واستطاع الناصر داود استرجاع القدس بالقوة في 6 جمادي الأولى سنة 637هـ-7 كانون الأول سنة 1239م وطرد الفرنج منها[1] ، وبعد اربع سنوات رجع اليها الفرنج باتفاق مع الناصر داود صاحب الكرك والقدس والصالح اسماعيل صاحب دمشق عندما ساعدهما في حربهما ضد صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل فشربوا الخمرة بالصخرة وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى عام 641هـ/1243م[2] بينما تغيرت التسمية في عهد المماليك وسميت الاقسام الادارية بالنيابات بسبب تعيين السلاطين نواباً لهم على تلك الاقاليم واعلاها دمشق[3].

فنيابة الكرك : ترجع لعهد صلاح الدين الأيوبي الذي فتحها عام 584هـ/1188م واصبحت نيابة في عهد الظاهر بيبرس المملوكي عام 1266/665[4] حيث اشتهرت كمركز استراتيجي للمواصلات في الشام والتي كان يلجأ لها سلاطين المماليك غالباً في حالة طردهم من السلطة.

وهكذا نرى بان التقسيم الاداري للشام الى نيابات لم يستقر الا بعد عام 1331/732 بوفاة عماد الدين اسماعيل (أبو الفداء) آخر ملوك حماة من البيت الأيوبي، وولاية ابنه الافضل محمد حيث اصبحت سادس نيابات الشام عام 742هـ/1343م.

---

(1) المقريزي: ن م، ج1، ص291.

(2) المقريزي، م.س، جـ2، ص315.

(3) القلقشندي: م.س، ج12، ص199.

(4) القلقشندي، ن م، ج4 ، ص176.

رابعاً : النظام الإداري الأيوبي في جنوب بلاد الشام. (567-648هـ/1169-1250م).

مقدمة إدارة:

لقد ورث الأيوبيون تراث الخلافة الفاطمية في مصر وأضافوا اليه تراث الخلافة العباسية في بغداد بما فيها حركة الاحياء السلجوقي في الشرق وذلك خلال ثمانين عاماً من حكمهم 567-648هـ/1171-1250) مما ساهم في اخراج مزيج حضاري أيوبي ناضج في مصر والشام والعراق.

هذا وكان لسقوط الدولة الفاطمية الشيعية اثر كبير في احياء الدعوة السنية، في ظل الخلافة العباسية السنية، كما أثر هذا في تقريب اوجه الخلافات السياسية والكلامية بين الفرق الاسلامية بعد ممارسة الفرق الشيعية المتمثلة في الدعوة الفاطمية بمصر والنزارية في ايران واتباعها في الشام.

وبالنسبة لنظام الحكم والإدارة فقد سارت على النظم الدينية السنية التي عرفتها الدول الاسلامية من قبل.

أمّا إمارة الأيوبيين في بلاد الشام فقد كانت إمارة استيلاء تابعة للخلافة العباسية ، مع تمتعها بحكم ذاتي مميز سياسياً وشرعياً، حيث فوضهم الخليفة العباسي سلطاته في بلاد الشام ومصر ومنحهم الخلع التي منحها للبويهيين والسلاجقة من قبل لضعفه.

ومن الامثلة على التفاف ملوك الاطراف الأيوبيين حول الخلافة العباسية إجتماعياً وسياسياً وعسكرياً عند استجابة السلطان الأيوبي العادل الأول الذي استجاب لدعوة الفتوة الناصرية[1] التي تزعمها الخليفة العباسي الناصر لدين الله، مما كان له الاثر في دعم فريضة الجهاد ضد الصليبية وطردهم من بلاد الشام.

---

(1) كانت دعوة سياسية نهجت نهج الفتوة العربية القديمة وما ارتبط بها من فروسية وتعاليم اخلاقية لدعم الدولة العباسية لجذب الفتيان، والنقابات في تنظيم الفتوة.

وهكذا نلاحظ أن الإدارة في بلاد الشام في العصر الأيوبي تضيف الى النمط الذي كانت عليه في العصر الفاطمي، لأن الأيوبيين كانوا قوما حديثي العهد بالدولة ووارثي دولة عريقة في النظام والإدارة، فكان طبيعياً ان يحافظوا على اسلوب الإدارة القديمة إلا ما اقتضته طبيعة السياسة الجديدة والخلاف المذهبي،إذ أبعدوا الموظفين الشيعيين وغيروا اسلوب القضاء بما يلائم المذهب الشافعي بدل المذهب الفاطمي.

وأما من حيث السلطان الأيوبي أو نائبه فكانت سلطته مطلقة من حيث التصرف في شؤون البلاد، يساعدة نائب ومجموعة موظفين بالاضافة للقضاة الذين يساعدون السلطان في إدارة البلاد من النواحي القضائية أو المدنية، حيث أنشأ الملك العادل نور الدين محمود في دمشق داراً للقضاء سماها (دار العدل) كان يجلس فيها للفصل في القضاء والقيام بالاعمال الادارية والاصلاحية.

كما انشأ صلاح الدين الأيوبي دار عدل في مصر أيضاً للنظر في المظالم لاحقاق الحق حيث كان يجلس فيها في ايام مخصصة ومن حوله قضاة المذاهب الاربعة ومعهم صاحب بيت المال وامراء الجيش يساعدهم مجموعة من أصحاب الوظائف الكبرى وموظفي الإدارة وهكذا كان يفعل نوابه في أقاليم الشام وغيرها في دور العدل التي شيدوها على غرار ذلك.

كما كان للمحتسب شأن كبير لملاحقته اهل المنكر والمفسدين واهل الغش وتأديبهم وقمع مفاسدهم، بالاضافة الى مراقبة الطرق وتوسيعها وتنظيمها والحكم على اهل المباني المتداعية بازالتها.

مستيعناً بصاحب الشرطة وصاحب القضاء بتنفيذ العقوبات وتأديب اهل المنكرات وإقامة التعزيرات.

كما كان صاحب الشرطة من كبار رجال الدولة واكثرهم نفوذاً وجاهاً، وكان له مقر خاص يجلس فيه، ويبعث اعوانه ووكلاءه لتنفيذ الاحكام واقامة الحدود.

وأما الحاجب فكان ايضاً من أرباب المناصب الادارية العليا لتوليه أمر باب السلطان، وقد أكثر الأيوبيون والمماليك من الحجاب لان المماليك ساروا على النمط الأيوبي في الإدارة مع تعديلات وزيادة في شعب الإدارة كما سيأتي لاحقاً.

وأما بالنسبة للإدارة في جنوب بلاد الشام فقد كانت إدارة صليبية قبل دخول الأيوبيين اليها، لذا كان لابد من الاشارة الى نموذج اداري صليبي في جنوب بلاد الشام لان الحضارة مزيج من خبرات الشعوب.

واكتفيت بنموذج الإدارة في بيت المقدس، المملكة الصليبية الرئيسية في جنوب بلاد الشام لان استمرار الحملات الصليبية وتأسيسهم دويلات في بلاد الشام ألهب مشاعر المؤرخين القدامى من المسلمين والصليبيين فيما وضعوه من التاريخ الحولي وأهملوا النظام الاداري والدبلوماسية سوى بالاشارة المقتضبة فقصدت بهذه سد بعض الثغرات في التأليف التاريخي إدارياً وسياسياً ودبلوماسياً.

الإدارة في بيت المقدس في عهد الصليبيين:

مقدمة:

بعد أن استقر الصليبييون في بلاد الشام واستوطنوا سواحل الشام لتأمين الاتصال مع المغرب اقاموا ممالك لهم في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس ويهمنا في هذا البحث مملكة بيت المقدس كجزء من جنوب بلاد الشام.

فكان من الطبيعي أن يطبقوا في هذه المملكة النظم التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الاوربي، فكان ملك بيت المقدس على رأس النظام الاقطاعي.

ويليه اربعة من كبار الامراء لكل منهم موظفوه، ثم اعقب ذلك مجموعة الامراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، ولم يتمتع ملوك بيت المقدس بالسلطة التامة على قواتهم العسكرية الأوروبية كما أن الحجاج المسيحيين لم يكونوا ملزمين بالخضوع لهم.

أما الرهبان الفرسان وأتباعهم من المقطعين في الحرب فكانوا ملزمين الى حد ما فقط وعلى وجه العموم فإن ملوك القدس الستة الأوائل تمتعوا بقدر كامل من السلطة.

وبالنسبة لمواردها الاقتصادية فكانت كثيرة وافرة منها طرق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الاسلامية بهدف السلب والنهب، وما يأخذونه من الحقول والمزارع التابعة لهم.

بالاضافة للضرائب التجارية التي فرضت على الصادرات والواردات والموانئ والضمان والحجاج.

واخيراً كانت وسائلهم لتوطيد حكمهم في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، هي الحروب المستمرة للسيطرة على المزيد من الأراضي وطلب النجدات من الغرب.

لذا كان من الطبيعي ظهور طبقة ارستقراطية عسكرية تستغل الشعوب الخاضعة لها اقتصادياً، ثم تكيفهم مع البيئة الشرقية اجتماعيا لتوطيد مركزهم بين هذه الشعوب. فتولّد شعب جديد في بلاد الشام.

نظام الحكم:

لقد تم تتويج بلدوين الأول خلفاً لأخيه جودفري البويوني يوم عيد الميلاد الموافق 26 ديسمبر 1155م، في كنيسة العذراء ببيت لحم حيث وضع دايمبرت بطريرك بيت المقدس ومندوب البابا في الاراضي المقدسة التاج على رأسه، فكان أول ملوك القدس من الصليبيين فأقام دولة علمانية، وانتهت فكرة إقامة حكومة دينية في القدس[1]. ولكن بالحفاظ على ممارسة البابا لحقه في شؤون الدين والدنيا عن طريق مندوبه بقصد المحافظة آنذاك على نظرة السمو البابوي التي ترجع الى ايام البابا جريجوري الأول 590-604[2].

واستطاع بلدوين الأول التخلص من مندوب البابا دايمبرت واستبداله بابرمار بطريركا للقدس لما لمسه فيه من الابتعاد عن الشؤون السياسية[3].

وهكذا تمكن بلدوين الأول من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى في حكومة بيت المقدس بعد ان أضعف سلطة بطريرك المقدس حيث أصبح يتدخل في اختياره دون التدخل في المسائل الدينية داخل الكنيسة[4].

---

(1) William of Tyre, 1, p. 427-28. Runciman, ahistory of the crusades. Vol,11, P297.

(2) BRYCE (j) The Holy Roman Empire, (London 1950).

(3) William of Tyre, 1 , p.468.

(4) Runciman, Ahistory of the Crusades, 11, op. cit, p.167 Wiliam of Tyre, 1, pp.481-483.

كما نرى اعتراف البابوية بالسلطة العلمانية القوية للتصدي لهجمات المسلمين في فلسطين دون المساس بحرية الكنيسة الدينية في القدس[1].

وبالنسبة للوضع الاداري لبيت المقدس أيام الاحتلال الصليبي فقد اعتمد الحكم على الأسس الاقطاعية والقضائية كما ورد في دستورها: Assize of Jeraslem. ففي عهد الملك غودفري، قسمت البلاد الى أربع إقطاعات كبرى هي : يافا والكرك والجليل وصيدا بالاضافة الى اثنتي عشرة اقطاعية صغرى، كما كانت القدس وطبريا وعكا اقطاعات خاصة للملك، وكان رؤساء هذه الاقطاعات الكبرى والصغرى يُقْطعون جُزّءاً من أراضيهم لأتباع جدد مقابل تعهدات مالية وعسكرية[2].

أما حكومة بيت المقدس:

لقد نظمت على اسس اقطاعية بان قسمت إلى عدد من الاقطاعات والضياع للأمراء الموالين للملك [3].

وقد شملت املاك مملكة بيت المقدس الضفة الغربية كلها فيما بين الخليل في الجنوب ونابلس في الشمال، بينما كانت املاك الملك الخاصة ((الدومين)) على الساحل الفلسطيني هي صور ويافا وعكا بالاضافة للقدس ثم أُضيف اليها الداروم "مدينة دير البلح حاليا" جنوب غزة، بعد ذلك[4].

ثم يأتي بعد الملك اربعة بارونات في يافا وعسقلان ومقاطعة الكرك ((ومنتريال)) وامارة الجليل، ومقاطعة صيدا، ولكل منهم جهازه الاداري، فكانوا اشبه بالملك نفسه[5].

---

(1) Runciman Ahistory of The Grusades, 11, p.310.

(2) د. عبد القادر يوسف: علاقات بين الشرق والعرب، ص87. و د. خاشع المعاضيدي ورفقاه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ط2، 1986.

(3) Mayer, The Grusades.

(4) براور: عالم الصليبية، ترجمة وتقديم وتعقيب دكتور قاسم عبده قاسم. و د. محمد خليفة حسن، ط1، دار المعارف، 1981. ص130.

(5) ARCLE, The Crasades, p.116.

كما كان يتبع مملكة بيت المقدس اثنتا عشرة مقاطعة صغيرة[1] وهي نابلس والخليل وقيسارية وارسوف وحيفا وبيسان، وقيمون وتبنين وبانياس واسكندرونه واللد وبيروت.

وكان اهم بارونات هذه المقاطعات بارونات قيسارية وتبنين لدورهما الهام في تاريخ مملكة بيت المقدس.

كما كان نظام الحكم في بيت المقدس بالنسبة للأمراء انتخابيا من حيث المبدأ وفقا للتراث السياسي الجرماني في العصور الوسطى[2] بتأييد من الكنيسة[3].

اما بالنسبة للملك فقد كان إنتخابياً في الفترة الأولى من استيطانهم في فلسطين ثم اخذوا بمبدأ الوراثة 572هـ/1174م عند تولية بلدوين الرابع ملكا بعد أبيه[4].

ونتج عن ذلك وراثة الاقطاع ولم يفرّق الصليبيون من بين الذكور والاناث[5] فأدّى هذا لنتائج خطيرة وهي انتقال العرش الى أسر جديدة عند عدم وجود ورثة ذكور وانتقال الاقطاعات من الوارثة لزوجها كما حدث زمن بلدوين الثاني 525هـ/1127م[6] ، فكان نظام الوراثة هذا من عوامل ضعف المملكة لكثرة الطامعين بالعرش من زوجاتهم رغم عدم توافر الصفات الجديرة بالعرش الملكي فنتج عن ذلك كثير من الصراعات التي ادت لتدخل المحكمة العليا للفصل بين المتنازعين[7].

ويرى البعض بأنّ الملك لم تكن له السلطة الحقيقية الكاملة في هذا النظام الاقطاعي الشامل للاقطاعات البارونية على النمط الفرنسي، فكان سيداً إقطاعيا مسيطراً[8] وقد اختلف المؤرخون المحدثون حول هذا الموضوع فبينما يرى باركر سيطرة الارستقراطية في بيت المقدس وتفوقها

---

(1) Conder, Jenusalem, [.162.

(2) جمعة الجندي، حياة الفرنج ونظمهم في الشام، رسالة دكتوراه عين شمس، 1985م، ص185 فما بعد.

(3) كانتور: التاريخ الوسيط ج1، ص180،181.

(4) باركر: الحروب الصليبية ص66، ويرى باركر ان فكرة المساواة بين الملك والنبلاء، التي سادت في بيت المقدس آنذك قد ادت الى هذا التغيير.

(5) ن.م، ص67.

(6) ن.م، ن.ص.

(7) Wiliam of Tyre, 11, p.38. عاشور المعركة الصليبيةن ج1، 535، باركر، ن. م، ص68.

(8) Brooke, Ahistory of Europe, 1911-1198 (2nd, london, 1947) p.317. وليم الابجر: موسوعة تاريخ العالم ،ترجمة د.مصطفى زيادة القاهرة، 1959، ج2، ص700. باركر: ن.م.

على الملكية لانها سبقتها[1]. يرى براور أن النظام الاقطاعي الفرنجي في فلسطين لم يؤد إلى ضعف السلطة المركزية، لان الملك كان القائد الاعلى للجيوش[2] ونحن نميل إلى هذا الرأي ليستطيع مواجهة الاخطار الخارجية للاحتفاظ بالاراضي المحلية وكان ملوك بيت المقدس يمنحون الاقطاعات والضياع، والقرى لإتباعهم ليضمنوا لهم مصدر رزق ثابت وليمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية كما فضل ملوك بيت المقدس الاحتفاظ بالارض تحت إشرافهم الخاص في بداية الامر ليضمنوا السيطرة على النبلاء والفرسان بمنحهم الإقطاعات المالية والتي يجوز منحها مدى الحياة، ويصح توارثها[3].

وهكذا نرى بأنّ الطبقة الأرستقراطية التي تكونت في مملكة بيت المقدس خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، كانت غير قادرة على الاستقرار في الاقطاعات الهامة لان الملك كان يستطيع نقل ملكية الارض من عائلة الى اخرى[4] اذا غضب الملك عليهم.

أما الملك فكان يمارس السلطة القضائية في بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وله سلطة النظر في الدعاوي والفصل. إذ من حقه مصادرة أي اقطاع بلا دعوى قضائية وكذلك الجرائم الاخرى[5].

كما خضعت طوائف الرهبان لسلطة الملك لضعفها كقوة اقطاعية عسكرية تابعة للملكية القوية التي توجت بمباركة البابوية منذ زمن بلدوين الأول. فكان عصيان اوامر الملك او القدح في اعمال الملوك يعرض للاعدام[6].

وهذا في رأينا يشبه نظرية الحق الملكي المقدس عند آل ساسان والتي سادت اوروبا في العصر الحديث قبيل الثورة الفرنسية.

---

(1) باركر: م.س، ص67.

(2) براور: م.س، ص128، ويؤيد هذا الرأي الباز العريني: نمو طبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي.

(3) Runciman, 11, p.298, Keer, The crusades pp.36-37.

(4) Mayer, The Crusades, p.155.

(5) ن.م، ن.ص.

(6) Runciman, 11,p.300. . William of Tyre, 11, p.394.

وكان الملك القائد الأعلى للجيوش أيام الحروب والسلام.

كما تولى رئاسة المحكمة العليا Haute Cour[1] وينوب عنه احد كبار الموظفين في حالة غيابه[2].

وكانت هذه المحكمة بالاضافة لاقرارها العدل في المجتمع تمثل مجلساً استشارياً للحكم حيث يناقش فيها أمور السياسة الخارجية وإعلان الحرب والسلام وفرض الضرائب الاستثنائية وكان رأي الملك فيها حاسماً [3].

كما امتد نفوذ الملك خارج حدود فلسطين إلى الرّها وإنطاكية وطرابلس لاعتبارات كثيرة، ولو من الناحية النظرية وذلك لأن السيد المسيح رسمه ملكاً عليها ولأن القدس مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة مقصد الحجاج المسيحين[4].

فكان ملك بيت المقدس يتدخل لحل الخلافات بين امراء الكيانات الصليبية الاخرى في الشرق[5].

ثم بدأت سلطة الملك تضعف بنمو قوة طبقة الفرسان والنبلاء وبعد أن رست أقدام الأسرات[6] الأرستقراطية في اقطاعاتها[7] ما بين (1130-1160م).

وقد وردت واجبات الملك نحو مقطعيه في قوانين بيت المقدس منذ زمن جودفري.

حيث يلتزم الملك باحترام حقوق اتباعه فإذا لم يحافظ على ذلك كان لهم الحق شرعا وقانوناً في رفض ما هو مطلوب منهم من الخدمة العسكرية وحتى القيام ضده بثورات مشروعه وهو الحق الذي عرف باسم (diffidati)[8].

---

(1) Runciman, 11, p.300.

(2) Brooke, Ahistory of Europe, p.317 . وباركر: م.س، ص73، وقد شبهها باركر بمحكمة الاقران أي ان تولي الملك لرئاستها لم يكن لاتساع حقوقه Judicum Parium وانما للمحافظة على حقوق النبلاء كما هو حادث في انجلترا.

(3) براور: م.س، ص131-132.

(4) Runciman, 1, p.299. وعاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص478. ونيقولا: زيادة: الرحالة، ص18.

(5) ابن القلانسي، م.س، ص163.

(6) Mayer, The Crusades, p.155.

(7) العريني: نمو طبقة النبلاء الاقطاعية، ص46.

(8) جمعة الجنيدي: م.س، ص185.

وبالنسبة للضرائب فكان فرض الضرائب الإستثنائية غير الاقطاعية من اختصاصات الملك كما حدث 564هـ/1166م في المحكمة العليا بنابلس عندما دَعىَ الملك ((أموري)) الأول لفرض ضريبة العشور على كل المنقولات في المملكة فأقرتها المحكمة العليا[1] ، وفي سنة 581هـ/1183م، فرضت المحكمة العليا ضريبة غير اقطاعية على العقارات والمنقولات على جميع المواطنين دون التفرقة بين جيش ودين[2].

وقد ضعفت مملكة بيت المقدس في أواخر سنة 582هـ/1186م وأوائل سنة 583هـ/1187م وتلاشت هيبتها عندما أخبر جاي صلاح الدين الأيوبي عن عجزه لإخضاع تابعية وإلزامهم باحترام الهدنة مع المسلمين[3] حتى أسقطت معركة حطين (4 يونيو 1187) هذه المملكة اللاتينية الأولى[4].

وأما المحاكم الاخرى في بيت المقدس فكانت :

المحاكم البورجوازية Cour de Bourgeois:

وهي تخص الاحرار الصليبيين من غير النبلاء في عهد اماري الأول ((أموري)) في ظل مدينة المدن الصليبية الكبرى[5].

وقامت بمهام تسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين الاحرار وقبول طلبات الاستئناف من المتضررين من السكان الأصليين[6].

وكانت هناك محاكم ايطالية في الاحياء الايطالية يرأس كل منها القنصل[7].

وبلغ عدد المحاكم في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ثلاثاً وثلاثين محكمة من المحاكم البورجوازية[8] حيث كانت تعقد ايام الاثنين والاربعاء والجمعة فيما عدا الاعياد[9].

---

(1) William of Tyrey, 11, p.314.

(2) Prawer: Latinkingdom, p.120.

(3) Williamd of Tyre, 11, p.499. . Grousset, Histoire des Croisades, 1, p.778. وابن واصل،م.س، ج2، ص185، وابن الأثير: م.س، ج9، ص174.

(4) ابو شامة: م.س، ج2، ص76-83، ابن الاثير ج8، ص177-179. وابن شداد: م.س، ص81-82، ابو المحاسن: م.س، ج6، ص31-34.

(5) Runcima, 11, p.310, Brooke, Ahistory of Europe,. p.317.

(6) براور: م.س، ص136. Mayer, the crusales p.171.

(7) باركر: م.س، ص79.

(8) Mayer: The crusades, p.171.

(9) Runcimen, 11, p.302.

هذا وقد راعى الفرنج ديانات الأهالي الأصليين فيما يتعلق بحلف اليمين في محاكم المدن فكان المسلمون يقسمون على القرآن الكريم واليهود على التوراة والأرمن والسريان واليونان على الصليب[1].

وكان يسمح للمسلم أن يُبَرِّئَ نفسه بحلف اليمين اذا لم تكن أدلّه كافية ضده حتى لو كان هذا الطرف من الفرنجة.

وبالنسبة للأجناس المختلفة أو الاديان المختلفة فلا يُدان المتهم إلاّ إذا شهد شهود اثبات من نفس جنس المتهم[2]. وقد شهد المسلمون بعدالة القضاء الفرنجي[3] كما رضي المسلمون بعدالة الفرنج[4].

ومن المحاكم الاخرى محاكم السلسلة التي اخذ اسمها من السلسلة التي تغلق باب المواني في العصور الوسطى Cour de la Chaine وكان يتولى رئاستها القناصل او وكلاؤهم للفصل في القضايا المتعلقة بشؤون البحرية[5] كرسوم الجمرك ورسو السفن حيث تبلغ نتيجة الحكم الى محكمة المدينة للتنفيذ[6].

الجهاز الاداري في مملكة بيت المقدس.

كان الملك يختار مجموعة من كبار الموظفين في بلاطه وأعلاهم رتبة هو القهرمان "SENESCHAL"[7] المعروف باسم الصنجيل عربيا، وكان يشرف على المواكب والإحتفالات ويحمل الصولجان يوم تتويج الملك ويتقدمه في المواكب، وهو من أعضاء المحكمة العليا ويتولي رئاستها عند غياب الملك[8]. وكان له السيادة على كافة حجاب المحاكم في مملكة

---

(1) ن.م، ن.ص.

(2) ن.م، ن.ص.

(3) اسامة بن منقذ: م.س، ص 64-65 اورد قضايا من ذلك.

(4) ابن جبير: الرحلة ص211.

(5) Runcimayn, cit, p.302.

(6) براور: م.س، ص137.

(7) Keer, The Cusady p.173.

(8) Prawar, Latin Kingdom. p38.

بيت المقدس ويشرف على املاك واموال الملك الخاصة. والحصون والقلاع ويعين ويطرد موظفيها[1].

كما ينوب عن الملك في الاشراف على شؤون الجيش في حالة غيابه[2] كما يشرف على ديوان الجند وصرف مرتباتهم.

ويليه المقدم العسكري الأول الكونستابل "Constable" الكنداسطبل"[3] وفاقت سلطاته سلطات القهرمان لحالة الحرب المستمرة بين المسلمين والصليبيين لانه كان قائداً للجيش تحت رئاسة الملك العليا ويشرف على تنظيماته وامداداته[4].

ويليه قيمّ المراسم المارشال "Marshal" من كبار القادة العسكريين ويدين للكونستابل بالطاعة ووظيفته الإشراف على شؤون الجند المأجورين.

ويليه الياور"Chamber Lain" وكان اقرب الموظفين للملك المشرف على شؤون الملك الخاصة وهو ما يشبه اليوم وزير البلاط الملكي ويقطعه الملك خمس قرى قرب عكا[5].

ويليه الساقي الملكي "Buticularius" مسؤول احتفالات[6].

فان هناك نائب ((فيكونت)) له واجبات ادارية وقضائية وتشبه وظيفته وظيفة النواب في انجلترا في عهد النورمان[7]. أي ممثل الماك في إقطاعاته، كما يمثل السيد الاقطاعي في مدن بارونية ويتولى جباية الضرائب المحلية، وكان مسؤولاً عن المحاكم البورجوازية وعن استتاب الامن ووظيفته غير وراثية.

ثم كبير كتاب الانشاء Chancellor يختار من بين رجال الدين وهي وظيفة كنيسية[8].

---

(1) ابن واصل م.س: ج2، ص76.

(2) AR cher, The Curusales , p.124.

(3) ابن القلانسي: م.س، ص197.

(4) Keer, p.178.

(5) Runciman, 11, p.303-304, Keer, p.38, Prawer, p.1124.

(6) William of Tyre: 11,p.344, Mayer, The crusade, p.161.

(7) Keer, p.38.

(8) Rumciman, 11, p.304.

وهكذا تعددت الوظائف في محكمة بيت المقدس لتعكس النظام الاوروبي منذ عهد شارلمان مستمراً لمدة قرنين في فلسطين.

فكانت مملكة محافظة لم يحدث صراع وظيفي فيها لان الملك يعين فيها من اراد من كبار النبلاء الذين تربوا تربية سياسية خاصة.

هذا ونلخص اجهزة الحكم في بيت المقدس زمن الصليبيين كما يلي :

1- المؤسسة الملكية: وعلى رأسها الملك وهو القائد العام للجيوش.

2- المؤسسات القضائية وتتكون من:

أ- المحكمة العليا: برئاسة الملك وأعضاؤها من كبار الإقطاعيين.

ب- المحاكم الصغرى في المدن: برئاسة نائب الملك ويساعده اثنا عشر محلفا من اتباعه اللاتين.

ج- المحاكم الطائفية او المحلية: للنظر في قضايا الناس حسب تقاليدهم الدينية، وهي مؤلفة من خمسة اعضاء على شرط ان يكون اثنان منهم من اللاتين، والبقية من سكان الطائفة الدينية.

د- المحاكم التجارية: وهي خاصة بتجار المدن الايطالية للفصل في خصوماتهم حسب قوانين بلادهم.

3- المؤسسة الادارية.

4- الجيش الصليبي في بيت المقدس فكان يعتمد في تكوينه على :

أ- التعهدات الاقطاعية: حيث كان امراء المدن يجهزون عدداً من الفرسان.

ب- الحرس الملكي الخاص: وهويعتمد على الاقطاعات الملكية مقابل رواتب نقدية او نوعية.

ج- فرق الفرسان الدينية وهي:

1) فرسان المعبد "Knights of The Temple" وهي فرق فردية ديرية اسسها فرنسي (هيوبايان) مع سبعة من زملائه في القدس، حيث خصصت رواقاً في المسجد الاقصى في ساحة معبد سليمان بن داود، وتحولت لمؤسسة عسكرية.

2) فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) وهم اصحاب المستشفيات العسكرية ويسميهم المسلمون بالداوية لعلمهم بالتطبيب، ثم تحولت هذه المؤسسة الدينية الخيرية لمؤسسة عسكرية.

3) فرسان التيوتون: وهي فرقة المانية اسسها بجارة السفن الالمانية اثناء الحملة الصليبية الثالثة عام 585هـ/1189م اثناء حصارهم لعكا، فقد تبرعوا بسفنهم كمستشفيات عسركية ثم كونوا فرقة عسكرية.

د- اساطيل المدن الايطالية التي ساهمت في احتلال السواحل مقابل امتيازات اقتصادية في فلسطين كالبنادقة والجنويين والبيزنيين.

هـ-الوافدون المسلحون: فكانوا مصدراً عسكرياً مؤقتاً[1].

5- ديوان بيت المال "Secnete" وتخزن فيه كل مستحقات الملك الاقطاعية، ويصرف منه من المرتبات ضمن سجلات رسمية[2].

---

(1) د. عبد القادر يوسف: علاقات بين الشرق والغرب ص89.

(2) رينسيما ن: م.س، ج2، 486. ولمعرفة المزيد انظر:واسامة بن منقذ ، الاعتبار و Runciman,vol 11. Wiliam of Tyre vol 11. وبراور: م.س، و Keer, the crusades.

خامساً : السياسة الداخلية الأيوبية

أولاً: علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية: 567هـ - 589هـ / 1171 - 1193م

لقد أبدى الولاء والإخلاص والطاعة للخليفة العباسي، ففي عام 567هـ/1171م بدأت علاقته بالخلافة العباسية عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي في مصر وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي بأمر نور الدين زنكي والدعوة للخليفة العباسي المستضيء بالله العباسي السنّي، وأسقط الدولة الفاطمية الشيعية. فكاتب صلاح الدين المستضيء بالله[(1)].

وفرح الخليفة العباسي بذلك، وسَيّر الخِلَعَ الى نور الدين وصلاح الدين، مع عدد من الأعلام السود -شعار العباسيين- لرفعها فوق الدواوين والمساجد[(2)] وبعد وفاة نور الدين محمود طلب صلاح الدين من الخليفة تقليده ما كان للولاية الفوريّة في مصر والمغرب والشام واليمن[(3)]. فعينه المستضيء بالله سلطاناً على مصر والشام بعد أن وَثِقَ بقوته كحارسٍ أمينٍ لها.

فكان صلاح الدين يطلع الخلافة العباسية على جميع إنجازاته وتحركاته وذلك لكسب تأييدها ضد الأمراء النوريين المناوئين له[(4)].

كما أوعز الى مستشاريه وقضاته وكتابه أمثال عماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين شداد والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الفلسطيني ليرسلوا رسائل وكتباً الى الخلفاء العباسيين والأمراء وأصحاب الشأن وشيوخ القبائل العربية كتعبئة فكرية للشعب العربي المسلم لمواجهة الغزو الصليبي.

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ5، ص343-344. كتب في رسالته للمستضيء با لله أن الجمعة أصبحت جامعة، والمذلة في شيع الظلال شائعة وذلك بأنهم اتخذوا عباد ا لله من دونه أولياء، وسموا أعداء ا لله أصفياء". أي أن الخلافة العباسية أصبحت ظاهرة.

(2) ابن الأثير، م س، جـ1، ص369-371، أبو شامة: م س جـ1، ص991. وابن واصل: م. س جـ1، ص218.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ13، ص82-90. وقد صور الشاعر ابن الدهان العلاقة بين الخلافة وصلاح الدين سنة 570هـ/1171م بقوله:

وأتاك منشور الخلافة شاكراً ... لك إنْ أعدت الحق حياً منشرا
لما أعدت الحق في أربابه ... ورددت للمستوجبيه منبرا
خِلَعٌ أتتك وللعلي في طيّها ... نشر وطي عداك في أن تنشرا

ديوان ابن الدهان جـ1، ص53-45.

(4) أبو شامه: م س، جـ1، ص254، القزاز: الحياة السياسية في العراق، ص256-257.

ثانياً: علاقة الخلافة العباسية بالسلطنة الأيوبية:

لقد فوض الخلفاء العباسيون لسلاطين بني أيوب جميع سلطاتهم الشرعية بما فيها الدينية والإدارية والحربية، وترك لهم حق اختيار الأكفاء من رعاياهم للوظائف الكبيرة[1]. وفي كل البلدان التي ضمها الأيوبيون الى ممتلكاتهم فبالنسبة لسلطات الخليفة الشرعية التي فوضها الخليفة العباسي الناصر لدين لله لصلاح الدين الأيوبي فكانت السلطات السياسية العامة التي يمنحها الخليفة للسلاطين، والتي يمنحها السلاطين بدورهم لكبار الأمراء والموظفين كقيادة الجيوش، وإقامة الصلاة ونظر المظالم والحسبة ونظرة الأوقاف والجبايات الشرعية وصرفها في الأوجه الشرعية وخاصة ولاية القضاء التي تقوم على العدل والمساواة بين الناس في أحكامها[2].

ومن السلطات الدينية التي فوضها الخلفاء العباسيون للسلاطين الأيوبيين إمامة السلطان في صلاة الجمع والأعياد، والإشراف على تعمير المساجد وحماية وتأمين قوافل الحج[3].

ومن السلطات الحربية التي خولها لهم ايضاً ضرورة جهاد الفرنجة كفريضة اسلامية[4].

وتتبع فلول الشيعة وهي من المهام الموكلة الى المحتسب[5].

(1) القلقشندي: مآثر الآناقة في معالم الخلافة، أورد وثيقتين لتقليد الخليفة العباسي الناصر لدين الله لصلاح الدين الأيوبي جـ3: ص86-98 وتقليد الخليفة العباسي المستنصر با لله العباسي للملك الكامل محمد بن العادل ابي بكر جـ3، ص99-121. وترجع أهمية هاتين الوثيقتين لزمن صدورهما في قيام الدولة الأيوبية وفي عصر استقرارها واتساعها زمن الكامل.
وكانت هذه التقاليد تعدد فضائل ومناقب البيت العباسي ويلاحظ عليها الأخذ بمبدأ "عظمة الأئمة" وأنه حَازَ "مواريث النبوة والامامة أي أن الله اختاره بعصمته القوية كما اختاره إماماً للمسلمين:
وهذا يتشابه مع جنوح السياسة الفاطمية الشرعية بالنسبة للخلافة والتي تأخذ بمبدأ "التنصيص" و"عصمة الأئمة": أي مبدأ "الحكم الإلهي" والمفاهيم "الثيوقراطية للدولة، كما أشارت هذه الفكرة الى طاعة الخليفة الواجبة على الناس، كما اتصفت هذه التقاليد الخليفية بالصفات الدينية كصيغة "صلوات الله عليه وسلامه" وهي ايضاً صيغ شيعية.
القلقشندي: ن م، جـ3، ص100-101، 102، 103، 104 وانظر عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين جـ1، ص51-77.
كما نلاحظ هذا في التفويض الخليفي من حيث ارتكاز المفاهيم السياسية على أساس أخلاقي من السنة النبوية. كما تشير الى وجوب طاعة الخليفة العباسي والولاء للخلافة العباسية. القلقشندي: ن م، جـ3 ص87-89 تقليد صلاح الدين، وتقليد الملك الكامل، ص107-110.

(2) القلقشدني: م س، جـ1، ص74-80 ولوحظ من هذه التقاليد بتوضيح الخليفة لكل سلطة مخولة للسلطان الأيوبي، والشرح لكيفية اختيار الموظفين لها.

(3) انظر القلقشندي: ن م، جـ3، ص114-115، ورد ذلك في تقليد الملك الكامل.

(4) ن م، جـ3 ص94، ص 94، ورد ذلك في تقليد صلاح الدين.

(5) ن م: جـ3، ص93-94 وص111-115 "في تقليد الملك الكامل".

أما الألقاب التي منحها الخلفاء لسلاطين بني أيوب فكانت متشابهة لحد ما حسب مهمات السلطان الموكلة اليه[1]، كما كان يُذيلّها بالأسباب التي جعلته يستحق هذا اللقّب[2] ويلاحظ أن هذه الألقاب منحتهم السلطة الشرعية في العالم الاسلامي أمام بقية ملوك الأطراف التابعين.

كما استخدم الأيوبيون التصوف كوسيلة أساسية بجانب المدارس السنية لمحاربة الدعوة الإسماعيلّية بمصر، كما عملوا على إحياء الخلافة العباسية بالعراق بعد أن تردّدت نِداءات استصلاح الدين والخلافة العباسية في أرجاء العالم الاسلامي داعية لوحدة المسلمين للجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين.

كما استمر شعار الوحدة الاسلامية حول الخلافة العباسية مرفوعاً طوال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بحيث كانت فكرة قيام خلافة أخرى أمراً مستهجناً من مؤرخي المشرق الاسلامي، حيث أوكلت القيادة السياسية في بغداد قيادة حركة الجهاد الاسلامي إلى الأيوّبيين منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، فنهضوا بها بكل جدارة بعد أن ورثوا ممتلكات الفاطميين بجنوب الشام والحجاز واليمن وبرقة وممتلكات الزنكيين في الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام، كما امتد نفوذهم إلى أرمينية "خلاط وميافا رفين" فجاوروا شمالاً دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى والدولة الخوارزمية بإيران.

ونلاحظ أن جميع غزوات صلاح الدين وفتوحاته للساحل الشامي قد تمت باسم الخلافة العباسية، فكان يستشير الخليفة العباسي، ثم يرسل اليه مكاتبات رسمية فيها خبر البشارة بالنصر وتفاصيلها[3].

---

(1) القلقشندي: (م س) جـ3، ص87، 88، ص1-2، ص12-14.
فكان لقب صلاح الدين الملك الأجل، السيد صلاح الدينِ عزُّ الاسلام، عماد الدولة، جمال الأمة، فخر المِلةّ، صفيّ الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قاهر الخوارج والمتمردين، ألب غازي بك يوسف بن أيوب" أما الملك الكامل فكان لقبه "الملك الأجل، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط، عز الدين، ركن الاسلام، أثير الأنام، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، ألب غازي بك: محمد بن أبي بكر بن أيوب.

(2) ن م جـ3، ص106، ص4-6، وقد ذكر الخليفة: بأنه تم منح هذه الألقاب رعاية لسوابق خدمته وخدمة أجداده وآبائه، ان لقب "ألب غازي بك يشير الى بجدهم في محاربة الفرنجة".

(3) القلقشندي:م س، جـ8، ص281-289، جـ6، 517-520، 496 504،506. والعماد: الفتح القسي، ص183-189، 279-284، 365-368.

وتلقب آخر سلاطين الأيوبيين الملك الصالح نجم الدين ايوب "بشهريار الشام" سلطان العرب والعجم صاحب الحرمين الشريفين ملك البرين والبحرين، ملك الهند والسند واليمن" ليُظْهر بلوغ الدولة أقصى اتساعها في أيامه.

ونرى أن الألقاب الرسمية والفخرية لسلاطين الأيوبيين، أوضحت النفوذ السياسي والديني لصلاح الدين، وأهميّة السلطنة الأيوبيّة بالنسبة للعالم الاسلامي والخلافة العباسية، وأن الخلافة العباسية بذلت جهوداً دبلوماسية كبيرة لجمع ملوك الأطراف للتصدي للصليبيين والمغول.

وفي سبيل استكمال الوحدة السياسية والمذهبية لبلاد المشرق الاسلامي حول الخلافة العباسية منذ عصر الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي عاصر صلاح الدين الأيوب، وبلغت الخلافة في عهده أقوى مراحل يقظتها حيث جمع الأمراء والسلاطين حول الخلافة في تنظيم اجتماعي عسكري عرف بنظام الفتوة[1] منذ عام 578هـ/1182م حيث لبس الخليفة وحاشيته سراويل الفتوة[2] وأغلب الظن أن الخليفة الناصر لدين الله قد أراد جمع شمل رعية كل ملك في تنظيم شعبي عسكري قوي ضد الصليبيين بحيث تم تجميع القوى المعنوية الاسلامية والقيم الأخلاقية والمهارات الحربية للفتوة في سبيل الإعداد المعنوي والحربي للأمة تحت راية الخليفة العباسي الزعيم الروحي للاسلام.

ويُلاحظ أنّ سلاطين بني أيّوب كانوا أول من قصدهم الخليفة الناصر ليضمهم الى الفتوة، ففي عام 599هـ/1202م بعث الخلع وسراويل الفتوة الى الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده مع عبد الجبار والعقاب، نقيبي تنظيم الفتوة بالعراق، فلبس العادل الخلع والسراويل[3]. واعترف به سلطاناً على جميع البيت الأيوبي[4].

وهكذا حققت الفتوة النفوذ السياسي للخليفة العباسي لدى ملوك وسلاطين المسلمين، ونجحت في محاربة بقايا التشيع الاسماعيلي، وضم شيعها للدعوة السنية، فأوجدت مفاهيماً ومُثُلاً عُلْيا للفتوة والفروسية الاسلامية، مما أحدث ردود فعل في الغرب الأوروبي، جسدتها في خيال

---

(1) عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب، د.ت، ص246-247.

(2) ابن العماد الحنبلي: كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، بغداد، 1956م، ص152-168.

(3) سبط الجوزي، مرآة الزمان، جـ8، ص513.

(4) ابن ايبك : الدرر، ص165.

الأوروبيين سيرة البطل العربي الشهير اسامه بن منقذ[1] وسيرة البطل الكردي الاسلامي صلاح الدين الذي اصبح اسمه "Salahdin" رمزاً للعظمة والمجد والفخار فنقلت أوروبا نظام الفروسية عن العرب الذي ظهر في نظام فرسان المعبد[2].

ويمكننا تشبيه نظام الفتوة العباسي وخاصة للشباب والفتيان والأحداث بأقرب ما يكون الى تنظيمات المقاومة الشعبية في العصر الحاضر أو هيئات الكشافة، ولا ريب، أنّ إطلاق تسمية الفتوّة على التدريبات العسكرية والرياضية التي يتلقاها طلبة المدارس الثانوية والجامعات اليوم هي تسمية قديمة جداً ولها دلالتها المستمدة من أحداث التاريخ الاسلامي.

وقد نقل المماليك عن الأيوبيين نظام الفتوة، بحيث صار السلطان المملوكي، هو الرئيس الأعلى لطائفة الفتوة في عصره[3].

السياسة الداخلية للأيوبيين :

لقد عمل الأيوبيون كمن سبقهم من الزنكيين والسلاجقة في تأمين طريق الحج ورفع الضرائب عن الحجاج وتخصيص الأوقاف للصرف عليهم وإرسال كسوة الكعبة المشرفة من مصر بعد كتابة اسم الخليفة العباسي عليها بطرز النسيج وتعيين الموظفين لخدمة الكعبة وحمايتهم لركب الحجاج الوافدين، إذ أن لواء الحج كان من أكبر الوظائف الاسلامية التي ينيب فيها الخليفة وملوك الأطراف "السلاطين" كبار أمرائهم لذا كان يخطب في الحرمين الشريفين بذكر الخليفة العباسي والسلطان الأيوبي بعده ولم تخضع جنوب بلاد الشام للأيوبيين إلا في أواخر أيام صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين واستيلائه على الكرك وبيت المقدس وكانت بلاد الشام في عصر صلاح الدين إمارة خاضعة للامارات الصليبية اللاتينية أو خاضعة لإمارات أيوبية ذات استقلال ذاتي. وقد وردت نسخة لتوقيع السلطان صلاح الدين لأخيه العادل

---

(1) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار أو سيرة أسامة، وقد نشره Derenbourg بباريس 1899م، واعاد نشره فيليب حتّى عام 1930م.

(2) عمر الدسوقي : م س، ص267-276.

(3) المقريزي : السلوك، ج1، ص725.

أبـي بكـر باقطـاع الديـار المصريـة، وبـلاد الشـام وغيرهـا ((بـلاد الجزيـرة وديـار بكـر 580هـ/1184)) بعد هدنته مع نصارى عكا[1]

ولما كانت النظم المملوكية امتداداً للنظم الأيوبية فقد قلدوهم في أنظمتهم حتى أنهم أوعزوا لفقهاء عصرهم بتأليف كتب تحمل أسماء سلاطينهم وألقابهم وتوضع في خزائنهم لـيرجعوا إليها وقت الحاجة، ليتخذوها منهجاً في سياسة الدولة والرعية على أساس شـرعي، بحيث شمل ذلك جميع سلاطين الأيوبيين والمماليك البحرية[2].

وكانت بلاد الشام بعد خضوع أغلبها لصـلاح الدين عـام 583هـ/1187م من الناحية الإدارية والمالية تابعة للدواوين المصرية في الإدارة المركزية للسلطنة الأيوبية في مصر[3]، أو على الأقل كانت الدواوين بالشام فروعاً للدوانين المصرية المركزية، خاصـة وأن صـلاح الدين بعد خروجه من مصر عام 573-هـ/1177م قاصداً جهاد الصليبيين لم يرجع لمصر ثانية حتـى توفي بدمشق سنة 589هـ/1193م.

ثالثاً: السياسة الداخلية في عهد صلاح الدين الأيوبي داخل بيت المقدس :

لقد تمثلت سياسته الداخلية بإزالة آثار العدوان الصليبي فـي بيت المقدس ككشف الجدار الساتر لمحراب المسجد الأقصى الذي بناه الصليبيون في وجه المحراب وأعاد نصب المنبر في المسجد الأقصى لإقامة خطبة الجمعة، وفرش صحـن الجـامع بالبسـط الثمينـة، وأضـاء المسجد الأقصى بالقناديل الجميلة[4].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ13، ص144-148.

(2) أهم المؤلفات في السياسة الشرعية التي وصلتنا بهذا الخصوص من عصر المماليك البحرية، 648-784هـ مثل: آثار الأول في ترتيب الدول: لمحمد بن عبدالله العباسي بدأه سنة 708هـ، ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ1 ص284-287.

(3) المنذري، زكي الدين: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار معروف، مطبعة الآداب في النجف الأرشف، 1388هـ/1968م، جـ1، ص189.

(4) أبو شامة : م س، جـ2، ص108-109،112، وابن واصل: م س، جـ2، ص217. أحضر المنبر من حلب وكان قد صنعه نور الدين محمود وهو الذي أحرقه اليهود في أغسطس 1969م. الدباغ: بلادنا فلسطين، ص197. وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية: جـ12، ص326، وابن الأثير م س: جـ11، ص546 وكان الافرنج قد بنوا على الصخرة كنسية ومذبحاً وجعلوا فيها الصور والتماثيل فأمر بكشفها: الحنبلي، محيي الدين: الأنس الجليل، ص218-219. غي لي استرنج strange: فلسطين في العهد الاسلامي ص115 الترجمة العربية، ن م، عمّان 1970.

هذا وقد افتتح المدارس في القدس لتدريس الفقه على المذهب الشافعي وحوّل دار البطريك هرقل رباطاً لفقراء الصوفية بعد مغادرته[1]. وكان اول خطيب يخطب خطبة الجمعة، بحضور صلاح الدين الأيوبي الإمام القاضي محيي الدين بن الزكي بأمر من صلاح الدين[2]. فكان لهذه الخطبة أهمية كبيرة لتعبيرها عن وجدان المسلمين بعد أن نصرهم الله بعودة بيت المقدس.

وبالنسبة لإنجازات صلاح الدين العمرانية في بيت المقدس:

فقد أنشا المدارس والمعاهد والمستشفيات والملاجيء والأربطة ورمّمَ أسوار البلدة وحصونها.

وأما الوظائف الإدارية في القدس: فقد عين صلاح الدين الأمير التركي سباروخ والياً على بيت المقدس، كما عيّن موسى بن غانم الأنصاري على الأوقاف وأبا عبدالله محمد بن أبي بكر بن خضر القرشي وكالة بيت المال كما ولّى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي المولد والمنشأ الحلبي الشافعي، المعروف بابن شداد قضاء بيت المقدس والعساكر والتدريس في المدرسة الصلاحية[3].

ومن مشاريعه العمرانية تحويل كنيسة جند حِنّه إلى مدرسة شافعية عند باب الأسباط[4]. وتحويل دار البطريرك قرب كنيسة القيامة إلى رباط (خا نقاه) وقد أوقفها للصوفية وأوقف أوقافاً للنفقة عليها وعيّن برهان الدين بن غانم شيخاً للمدرسة الصلاحية[5] والتي كان عميدها "شيخها" يعين من قبل السلطان لأهميتها.

---

(1) أبو شامه: م س، جـ2، ص114.

(2) أبو شامه: ن م، جـ2، ص110-111، وابن واصل، م س جـ2، ص218-228. وابن خلكان، م س جـ6، ص180-182. والحنبلي، م س، جـ1، ص332-336.

(3) ن م، ص327-387، وابن شداد ، م س، 539-632هـ/1145-1234م) وقد نسب لإخواله بني شداد لموت أبيه وهو صغير ونشأته عندهم، وهو مؤرخ وقاضي كبير، اصطحبه صلاح الدين في بعض غزواته فدونّ كثيراً من أخباره منها "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين وتوفي في حلب.

(4) بنيت هذه الكنسية في أواخر القرن الخامس الميلادي فوق بيت والدة مريم العذراء "حنّه" في أواخر القرن الخامس الميلادي، الدباغ: م س، ص205.

(5) اصبحت فيما بعد الحرب العاليمة الأولى كلية علمية دينية زمن جمال باشا العثماني (الدباغ م س ص206).

ب- الإدارة في شرقي الأردن زمن الأيوبيين:

مقدمة:

بعد إقامة السلاجقة إمارات مستقلة في بلاد الشام كدمشق وبيت المقدس وغيرها، أصبحت عمان والبلقاء والشراة تابعة لإمارة دمشق السلجوقية.

واستمرت عمّان في زهوها أيام الزنكيّة حيث مرت منها جيوش نور الدين محمد زنكي بقيادة اسد الدين شيركوه والتي كانت متوجهة الى مصر للقضاء على صراع الوزراء الفاطميين في فترة الصراع الصليبي مما يشير الى بقائها خارج السيطرة الصليبية بعكس الكرك والشوبك التي احتلها الصليبيون[1].

وبعد أن اصبح صلاح الدين نائب نور الدين زنكي في مصر كوّنَ جبهةً قويةً ضمّت دمشق والقاهرة لتحرير بيت المقدس فيما بعد. ولكن هذه الجبهة العسكرية كان يعوزها الاتصال وطرق الحج والتجارة التي سيطر عليها الصليبيون في الكرك فجهز نور الدين محمود حملة عسكرية عام 565هـ/1170م لغزو الكرك ماراً بعمان والبلقاء فحاصر الكرك وعاد لعدم تمكنه من فتحها[2].

واستمرت محاولة انتزاع الكرك من الصليبيين بعد وفاته بقيادة صلاح الدين الأيوبي عام 579هـ/1183م الذي مر في الزرقاء وعمّان وحسبان، ولكنه لم يستطيع فتحها ايضاً لمناعة أسوارها وقلاعها[3]. ثم تمكن من فتحها بعد معركة حطين 583هـ/1187م.

وهكذا دخلت شرقي الأردن كلها في نطاق المملكة الأيوبية وإذا قدر لعمّان والزرقاء والبلقاء النجاة من الاحتلال الصليبي الغاشم إلاّ أنّ المغول كانوا لها بالمرصاد بعد احتلالهم دمشق عام 658هـ/1260م، إذ تقدموا جنوباً نحو شرقي الأردن وعاثوا فيها خراباً ودمروا

---

(1) ابن القلانسي: م س، ص158.

(2) ابو شامه: م س، جـ1، ق 2، ص464، حيث رافق هذا المؤرخ هذه الحملة ووصفها لنا.

(3) ابن الأثير: م س، جـ11، ص502.

قلاعها في عجلون وقتلوا أعداداً كبيرة في عمّان والصلت وعجلون ووصلوا إلى زيزاء قرب عمان[1].

وجاء الفرج لشرقي الأردن بعد عين جالوت 658هـ/1260 حيث اهتم بها المماليك اهتماماً كبيراً لموقعها الاستراتيجي بين دمشق والقاهرة مركز السلطنة.

وهكذا نرى بأنّ الدور السياسي والحضاري لجنوبي الأردن بدأ في العصر الأيوبي وازدهر في عصر المماليك البحرية، فقد كانت الكرك مركزاً لنيابة السلطنة عام (661هـ/1263م) وولّوا عليها أميراً برتبة كبيرة.

كما أن الناصر محمد ولّي على الكرك ابنه الناصر أحمد، وجعلها مركزاً لتربية أبنائه وتعليمهم الفروسيّة[2].

وبالنسبة لمدينة عمّان فقد ذكر ابن شداد "أن عمّان مدينة البلقاء، سميت بعمّان بن لوط كما يذكر ابن كور جند الشام تسعة منها كورة الظاهرة ومدينتها عمان[3].

ففي زمن السلاجقة كانت عمّان والبلقاء والشراه تابعة لإمارة دمشق السلجوقية[4].

وفي عهد الأيوبيين أقطع صلاح الدين الصلت والبلقاء لأخيه العادل سنة 588هـ/1192م بعد أن أصبحت شرقي الأردن تابعة للحكم الأيوبي بعد معركة حطين 583هـ/1187م واشترط صلاح الدين على أخيه العادل تقديم ستة ألاف غرارة غلة من لبلقاء والصلت تُرسل إلى بيت المقدس[5].

وبالنسبة للصلت فقد أقطعها صلاح الدين لأخيه العادل اضافة للشوبك والكرك[6].

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ص424.

(2) د. يوسف حسن غوانمه، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص27.

(3) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص41، 83 (المتوفي عام 684هـ/1280م) "يذكر كورة دمشق واقاليمها: كورة حوران، كورة الجولان، وظاهر البلقاء، جبل الغور، وكورة مؤاب وكورة جبال الشراه، وكورة عمّان والجاتيه وابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص77.

(4) ابن القلانسي: م س، ص158. Jacob, History of Palestine, P.183 Ann: Jordan, P.39.

(5) المقريزي: السلوك، جـ3، ص30. ذكر صرغتمش نائب السلطان حسن بن محمد بن قلاوون (755-762هـ/1357-1364م) نقل اليها الولاية والقضاء من حسبان.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص244.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حدث صراع بين أبنائه وإخوانه على الحكم فاز به عمُهم العادل حيث استولى على معظم ممتلكات صلاح الدين، وبعد وفاة العزيز بن صلاح الدين حاكم مصر عام 594هـ/1198م عين أولاده عُمّالاً على الولايات، فكان الكامل على مصر، والمعظم عيسى على دمشق وجنوب سوريا (عجلون والبلقاء والصلت) بعد خلعه عز الدين أسامة عن حكمها عام 609هـ/1211م وسجنه في الكرك وعين بدلا منه أيبك ابن عبدالله، أحد مماليكه، الذي اثبت حسن الإدارة والمقدرة في عمران البلاد وتصليح قلعة الربض وتوسيعها عام 611-216هـ/ 1214-1215م، ونشر الأمن والاستقرار بعد أن قضى على ثورة أهل الصلت وبناء قلعتها الجبلية لتشرف على جميع أنحاء البلده، واتخذها عاصمة للبلقاء عوضاً عن عاصمتها القديمة حسبان، كما بنى قلعة الأزرق لتأمين طريق الحج بعد أن أكثر ايضاً من بناء المخافر والقلاع لحماية قوافل الحج وبقي حاكماً للبلقاء وعجلون والصلت حتى عام 637هـ/1239م حيث عزل ونفي لإتهامه بتشجيعه لأحد أولاد سيده ضد والده العادل الذي توفي عام 614هـ/1218م والذي خلفه ولده المعظم على سوريا والكامل على مصر وبعد وفاة المعظم 624هـ/1227م خلفه ابنه الناصر داود على سوريا وكانت شرقي الأردن ضمن مملكته[1].

واستمر الصراع بين الكامل وابن أخيه الناصر داود على السلطة حتى سيطر الكامل على دمشق ولم يبق للناصر إلا غور الأردن والبلقاء وقسم من الكرك كما استمر الصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية في مصر والشام حيث انتزع الصالح أيوب سلطان مصر عام 645هـ/1247م مملكة الناصر داوود ما عدا قلعة الكرك التي سقطت عام 647هـ/1249م.

وبعد وفاة سلطان مصر الصالح أيوب خلفه ابنه توران شاه، الذي كان غائباً في ديار بكر. ولكن شجرة الدر إحدى جواري السلطان وزوجته أخفت موت السلطان خوفاً من تنازع الأمراء على العرش، وحكمت بمؤازرة ثلاثة من الأمراء المخلصين حتى عودة توران شاه ولكن توران شاه قتل بعد سنة من تسلمه العرش فانتخب أمراء المماليك شجرة الدر ملكة عليهم ولقّبوها "عصمة الدين" فانقسمت الدولة الأيوبية الى قسمين: دمشق مع عجلون والبلقاء واستأثر

---

[1] انظر: فردريك بيك، م س: ص147-148، 149.

بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب وبقي جنوب شرقي الأردن قسماً من المملكة المصرية[1].

ثم تزوجت شجرة الدر أحد المماليك عز الدين أيبك التركماني والذي كان قائداً للجيوش المصرية ترضية للرأي العام. فأطلق سراح المغيث عمر أحد أحفاد الكامل الذي سجنه الصالح أيوب في قلعة الشوبك[2]، ولكنه انقضّ على قلعة الكرك واحتلها وقاد ثورة لإعادة السلالة الأيوبية لرئاسة الحكم فهزمه عز الدين أيبك ولكنه أبقى له جنوب شرقي الأردن لإرضائه وكَسْبِ وُدِّه.

ولكن شجرة الدر قتلت ايبك عام 655هـ/1257م غيرة بعد اعلانه عن رغبته في الزواج من ابنة لولو أمير الموصل بعد أن أحرقتها نار الغيرة، مما أثار غضب امراء المماليك الذين سجنوها ثم أعدموها وألقوها في خندق القلعة ثُم دفنت جثتها قرب مقام السيدة نفيسة في القاهرة[3].

وهكذا يعتبر جلاء الملك الناصر يوسف عن قلعة الربض انتهاءً لحكم الأيوبيين في سوريا وشرقي الأردن. كما انتقلت مصر إلى أيدي المماليك بعد اغتيال توران شاه 648هـ/1250م.

بعد ذلك فوجيء العالم الاسلامي بالزحف المغولي الذين استولوا على دمشق وزحفوا الى عجلون والصلت عام 658هـ/1260 والتي أعاد بناءها الظاهر بيبرس ودمروا قلاعها مثل الربض وقلعة بيبرس. ولم يمكثوا كثيراً لهزيمتهم في عين جالوت على يد قطز.

وأما بالنسبة لأهم المؤسسات في الدولة الأيوبية فكانتا الوزارة والجيش كنموذج اداري للنظام الأيوبي.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، مجلد 4، ص72. Stephenson: The crusaders in the East. P. 317.

(2) Stanely Lane Poole: A History of Egypt, 1941 2nd. ed, P. 257.

(3) فردريك بيك، م س، ص152.

الوزارة الأيوبية:

لقد تحول زعماء الأيوبيين بالنسبة لوضعهم السياسي والشرعي من وزراء تفويض الى سلاطين مفوّضين زمن الفاطميين وبعد سقوط الفاطميين اتخذ الأيوبيون وزراء تنفيذ من أرباب الأقلام وكذلك كان وزراء المماليك ايضاً وزراء تنفيذ بمصر بعد أن استولى السلاطين على جميع السلطات الفعلية، ولاعتبار السلطان من الناحية الشرعية وزير تفويض للخليفة العباسي في العصرين الأيوبي والمملوكي[1].

هذا وقد لوحظ من دراسة التاريخ السياسي للأيوبيين أن سلاطينهم اسندوا الى وزرائهم من اسرة أولاد شيخ الشيوخ[2] مهاماً عسكرية قيادية لبراعة أولاد شيخ الشيوخ بالقلم والسيف[3].

مهام الوزير في العصر الأيوبي

لقد رأينا مما سبق أن وزراء الأيوبيين نفّذوا أوامر السلطان بتدبير الملك والإشراف على دواوين الدولة وأجهزتها التنفيذية، فكانوا يتلقون الأوامر من السلطان، وقاموا بدور الوساطة بين الشعب والسلطان وشغلوا منصب السفارة بين السلاطين وغيرهم من الملوك، ورشّحوا الموظفين للسلطان ليعينّهم في الوظائف الإدارية، وأشرفوا مباشرة على دواوين الإدراريين المركزية

---

(1) الخالدي: المقصد الرفيع، م س، ورقة 192 مخطوط/ المقريزي: الخطط، جـ2، ص305، الماوردي: الأحكام السلطانية، ص20، ص28-32.

ومما يوكد هذا أن ألقاب الوزير في العصرين الأيوبين والمملوكي كانت مطابقة لألقاب وزراء التنفيذ التي حدّدها الفقهاء مثل الوزير الأجل السيد، الصدر الكبير، جلال الدين، شرف الإسلام فخر الأنام، فهو لم يلقب بـ"أمير الجيوش" انظر القلقشندي: صبح الأعشى جـ11، ص38-39. والمقريزي: الخطط، جـ2، ص304، ص19-28. هذا بالإضافة الى أن أوصاف الوزير كما جاءت في تقليده تنطبق على وزير التنفيذ التي حددّها الفقهاء انظر القلقشندي: ن م، جـ11، ص38، ص12-18. كما لوحظ أن مهام الوزير في نص التقليد تنطبق على مهام وزير التنفيذ من حيث تدبير الملك وعمارة البلاد، انظر الماوردي: م س، ص25-28، النويري: م س، جـ6، ص124-127، القلقشندي: ن م، جـ11، ص38، ص12-18.

(2) وهو زعيم الترك المسلمين في الشمال انظر: ابن ايبك: الدرر: ص309، 310، 320، 329، 366، 373-376.

(3) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص145-146، وابن واصل: م س، جـ5، ص189-200، جـ4، ص256-257. حيث أرسل الملك العادل الثاني وزير أبيه عماد الدين بن شيخ الشيوخ لمحاصرة دمشق 635هـ/1237م وفي سنة 638هـ/1240م أرسل الملك الصالح نجم الدين بن شيخ الشيوخ لتأديب الملك الناصر داود في الكرك. انظر أبو المحاسن: م س: جـ6، ص345 وابن واصل: م س،جـ5، ص300-310. وابن أيبك الدرر: ص347 كما ارسل الملك الصالح نجم الدين فخر الدين ابن شيخ الشيوخ 644هـ/1246م لمحاصرة الملك الناصر داود في الكرك وكان فخر الدين أكثر أولاد الشيخ مشاركة في المهام العسكرية. سبط الجوزي: مرآة الزمان، جـ8، ص77، وابن العميد: م. س ص158، المقريزي: السلوك، جـ1، ص113.

والمحليّة، وقد زاد أبناء شيخ الشيوخ في امتيازاتهم الوظيفية الادارية بأن كلفوا بمهام عسكرية كقيادة الجيوش كما لوحظ تعدد الوزراء في أرجاء دولتهم[1].

وهكذا يلاحظ أن تَعَدّد الوزراء في الدولة الايوبية كان نتيجة للاستقلال الذاتي لملوك الأطراف ولامركزية الادارة التي أوجدها نظام الأقطاع الإداري الحربي في جميع أرجاء دولتهم جرياًعلى العرف الإقطاعي السلجوقي وقد استمرت ظاهرة تعدد الوزراء في العصر المملوكي بمصر والشام أما النسبة لدار الوزارة في القاهرة فقد كان هناك داران للوزارة منذ نهاية العصر الأيوبي وطوال العصر المملوكي، وهي: دار الوزراء الكبرى بالقاهرة وقد تحولت إلى دار ضيافة واقامة المراسيم الحكومية مثل التحليف للسلطان الجديد، ودار الوزارة التي كانت بالقلعة وتعرف بقاعة الصاحب[2]. هذا وقد بدأ منصب الوزارة في التداعي تدريجياً منذ بداية العصر الأيوبي وذلك لتصدي بعض السلاطين كالملك العادل لمهام الوزارة وعدم استوزاره للوزراء، وفي المقابل شهدنا تعاظم نفوذ بعض الوزراء الأيوبيين من أولاد شيخ الشيوخ وجميعهم بين سلطتي السيف والقلم.

أما في العصر المملوكي: فقد استمر نفوذ الوزراء في التقلص وأصبحت مهمتهم الإشراف على الشؤون المالية وخاصة الجبايات، حيث اضطر بعضهم الى جباية المكوس بنفسه أيام الأزمات، مع العلم أن الأيوبيين ألغوا ضريبة المكوس لعدم شرعيتها[3]،فلم يكن لهم شأن يذكر، ولم يظهر وزراء كبار كنتيجة طبيعية لهذه الدولة العسكرية الاقطاعية القائمة على القوة، وكان

---

(1) فقد كان للسلطان العادل وزيره الخاص: الصفي بن أبي بكر بينما كان لولي عهده الملك الكامل وزيراً آخر هو: ابن قاضي دارا. انظر: الماوردي:ن م، ص27، وابن واصل: م س،جـ2، ص129،167. وأبو شامة: م س، ص52. والقلقشندي: صبح الأعشى: ج5،ص452.

(2) المقريزي: السلوك، ط1، ص326،343، ج3،ص333،378،362-363.

(3) السبكي: معيد النعم، ص27-28.

وانظر ابن خلدون: المقدمة، ص230: الذي ارجع ضعف منصب الوزارة في العصر المملوكي الى سيطرة السلطان والحاجب على أهم اختصاصات الوزير "... فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أؤلئك عنها، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور "الخليفة العباسي بمصر ونظره ومع ذلك متعقب وأحقب بنظر الأمير... وبقيت مرؤسه ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة- العالية في الدولة عن اسم الوزارة ... واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية. وانظر: سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ص76، ذكر ان انشاء وظيفة نائب السلطان في العصر الأيوبي أضعف أهمية الوزير ، فانحطت الوزارة في العصر الأيوبي والمملوكي.

وانظر المقريزي: الخطط: ج3،ص362-363" قال: "وكانت وظيفة الوزراة أجل رتبة، أرباب الأقلام .... إلا أن ملوك الدولة التركية قدموا رتبة النيابة على الوزارة، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها... ثم انقسم. ما كان للوزير الى ثلاثة: هم الناظر في المال، وناظر الخاص، وكاتب الديوان، فإنه كان يوقع في دار العدل ما كان يوقع به الوزير بمباشرة واستقلال ... ثم تلاشت الوزارة في أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد...".

لقب الوزير: "لصاحب" وكان عمله لتدبير أمور المملكة الادارية[1]. وكانت تصدر مراسيم سلطانية لتقليد الوزراء كمرسوم تقليد الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس للصاحب، بهاء الدين بن حنّا الوزارة من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر[2] ومرسوم تنصيب الناصر بن قلاوون بتقليد الصاحب تاج الدين محمد فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين علي بن حنا الوزارة عام 693هـ وكان من انشاء شهاب الدين محمود الحلبي[3].

هذا وقد لعبت الكرك دوراً هاماً في تاريخ العصر الاسلامي الوسيط ضد الفرنجة الصليبيين الذين استعمروا جزءاً من عالمنا الاسلامي بعد أن قيض اللـه للأمة الاسلامية القيادة الايوبية في مصر والشام التي تصدت للمستعمرين الغاشمين في بيت المقدس والذين تستروا وراء قناع ديني كاذب[4] مستغلة بذلك ظروف الشرق الاسلامي المتمثلة في التفكك وضعف الخلافة العباسية وانحلال وعجز الخلافة الفاطمية، وتدهور القوة السلجوقية مما ساعدهم على قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية، وتأمين مناطق استراتيجية لحمايتها وامدادها لمنطقة شرقي الأردن بعد تأسيس قلعتي الشوبك والعقبة سنة 509هـ / 1110م لاحكام السيطرة على تجارة البحر الاحمر، وجددوا بناءها.أما بالنسبة للنموذج الاداري الأيوبي في جنوب شرقي الأردن فكانت مملكة الكرك الأيوبية في جنوب شرقي الأردن.

مقدمة تاريخية عن مدينة الكرك : إذ يعود تاريخها الى 850 ق.م. عندما أكمل بناءها الملك المؤابي يشع والكرك كلمة آرامية الأصل أو سريانية[5] عربت وأدخلت الى اللغة العربية

---

(1) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2،ص217-121.

(2) القلقشندي: م س، ج11،ص270،272، والسيوطي:م س، ج2،ص217-221.

(3) القلقشندي:ن م، جـ11،ص275-278.

(4) سعيد عاشور: تاريخ الحركة الصليبية، القاهرة، 1963م، ج1، ص27-43، جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص37-110، اسكندرية، 1967، ص 37-110، عمر كمال: مملكة بيت المقدس الصليبية، مطبعة رويال بالاسكندرية، 1958م.

(5) يذكر فيليب حتى: تاريخ سوريا وفلسطين، ج3،2138بأن الآراميين بعد تنصرهم باعتناق المسيحية سموا لغتهم بالسريانية بدل الآرامية. وأصلها "كرحا" أو "كاركو" وحرفت حتى أصبحت الكرك.

وعن الآرامية أخذها اللاتين[1]. وبالنسبة لوضع الكرك أيام المعظم عيسى (615-624هـ/1218-1227م. بعد أن أصبح والياً عليها من قبل أبيه الملك العادل -حيث حولها الى مدينة غنية بالاسواق ومزدهرة بعمرانها. وقد اعتمدت على مياه الأمطار كقلعتها التي وفرت مياه الشرب في صهاريج[2] خاصة أما المنطقة المحيطة بالمدينة والمسماة "بالثنية" فكانت منطقة استراحة للحجاج ومكاناً لتجميع الجند، ومكاناً للانتظار قبل دخول المدينة وقلعتها لمن يرغب بطلب الأذن للدخول اليها[3] إضافة إلى خصب الوديان وكثرة أشجارها المثمرة، لذلك ازدحمت بالسكان الذين عملوا بزراعة القمح الذي اعتمدت عليه مملكة بيت المقدس ونواحيها[4] أما أبراجها العالية فكانت تشرف على البحر الميت والقدس، ويذكر المورخ "ستانلي" كيفية الاتصال بين برج داوود ببيت المقدس وأبراج الكرك بايقاد النار ليلاً في مناور الحصن لارسال اشارات ضوئية يُفهم منها طلب النجدة[5] وقد أسس الملك الناصر داوود امارة الكرك الأيوبية 626هـ / 1229م. وشملت الكرك وأعمالها والبلقاء والصلت وعجلون والأغوار[6] جميعها ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل والخليل. وقد نعمت الأردن بالأمن والاستقرار في هذه الفترة.

---

(1) يوسف غوانمة امارة الكرك الأيوبية ط3، وقد ورد اسمها في التوراة (1) تحت اسماء "كيرحارسة" Kir-Hareseth فالمقطع الأول (كير) يعني الحصن أو القلعة والمقطع الثاني "حارسة" تعني "تلاً" يعلوه بناء بالعبرية: أي أنها تعني "المدينة المحصنة" أو القلعة المحصنة على تل ارجع الأصل التسمية ، غوانمة: ن م، ص43-51.

S Tanley "Arthur P.: Sinai and Palastine, P. 523

ورانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العرتي، بيروت 1967-1968، ج2، ص371، ياقوت الحموي م س، ج4، ص390-341، القاهرة 1407، جـ4، ص390-391، حيث يقول بأنها كلمة عجمية لقلعة حصينة في نواحي البلقاء في طرف الشام. تميزاً لها عن كرك نوح بين بعلبك ودمشق، وبها قبر نوح. ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج3، ص270. ونسق الازهار في عجيب الأقطار، ص42، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 439 جغرافيا. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، حققه أحمد زكي باشا، القاهرة 1924، ج1، ص215.

(2) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج20، ورقة 493 مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 544 معارف عامة.

(3) العمري :مسالك الأبصار، ج2،قسم 1، ورقة 171 مخطوط، وابن بطوطة الرحلة، ج1،ص 67.

(4) رانسيمان: م س، جـ2، ص371

(5) Stanlye Sinai and Palastine, P. 167.

(6) الغور: غور الأردن بالشام بين دمشق وبيت المقدس وهوارض منخفضة عنها ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة أيام في نهر الأردن وعرضه نحو فرسخين، وفيه قرى كثيرة وهضبة بيسان وفي طرفه الغربي بحيرة طبريا وفي طرفه الشرقي بحيرة زغر ، ياقوت، م س، جـ4،ص574،216-218. سبط الجوزي، مرآة الزمان، جـ8، ص432. ابن ايبك: كنز الدرر، جـ7. واليونيني: م س، جـ1، ص129. انظر ابن شداد الاغلاق من الخطيرة ص65.

بهذه الإشارة اكتفي بالنسبة لموضع الكرك لأن المؤرخ الدكتور يوسف حسن درويش غوانمة قد أشبع هذا الموضوع في كتابه إمارة الكرك الأيوبية(1).

وبالنسبة للوضع الاداري لإمارة الكرك زمن الأيوبيين:

لقد كانت الكرك والشوبك من اقطاعات صلاح الدين لأخيه العادل عام 583هـ/1187م. ثم أضاف اليها الصلت والبلقاء عام 588هـ/ 1192، على أن يقدم ستة آلاف غرارة من غلتها الى بيت المقدس(2) وفي عام 594هـ1189م. اصبح المعظم عيسى نائباً لوالده في دمشق فأصبحت أملاكه: بلاد الغور والكرك والشوبك والصلت وصرخد وأرض فلسطين بما فيها القدس والساحل(3) فركز اهتمامه بمنطقة شرقي الأردن ونشر فيها الأمن والاستقرار ورمّم ما هدمه الصليبيون وأعاد بناءه وشجّع الزراعة(4) وبنى قلعتها(5) كما ضمت الصلت لامارة الكرك عام 626هـ1229م. تحت حكم الناصر داوود ابن المعظم عيسى(6) مؤسس هذه الإمارة واستمر تقدمها واستقرارها زمن المماليك تقديراً لأهميتها الاستراتيجية(7).

وبالنسبة لمدينة عمّان فقد أصبحت في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مركزاً لكورة البلقاء التابعة لدمشق(8). من أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بسبب منافسة حسبان والصلت لها في زعامة البلقاء(9). ثم تبوأت مركزها الأول عند منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أيام السلطان حسن بن محمد قلاوون (755-

(1) د. غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، دائرة العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، دار الفكر، عمان، ط2، 1982م.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص244، أبو شامة: م س، ص9، 197. وابن واصل: مفرج الكروب، ج2،ص379، م س، ج2. ص104. والغرارة: 12 كيلة: ابن الوردي: تتمة المختصر، ج2،ص104.

(3) المقريزي: السلوك ج1،ص168.

(4) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج2، ص 233.

(5) ابن شداد. م س، جـ2، ص84.

(6) د. يوسف غوانمه: امارة الكرك الأيوبية، ط2،عمان، 1982. ص18. وقال: أن هذه الامارة تمثل الكيان الأردني الحالي.

(7) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ8، ص423، ابن أبيك كنز الدرر، جـ7، ص295. اليونيني:م س، جـ1، ص129.

(8) ابن الوردي: (فريدة العجائب)، ص22، 23. وابن شداد: م س، جـ3، ص41، ص175.

(9) البلقاء: نسبة الى بانيها: البلقاء بن سورية من بني عمان بن لوط. (القلقشندي:م س، جـ4، ص106.

762هـ)[1] حيث جعلها نائبه الأمير صرغتمش مركزاً للبلقاء بدلاً من حسبان بعد نقله القضاء والولاية لها[2].

وبالنسبة للأيوبيين في الكرك

1- العادل الأول	584-651هـ/1188-1218م
2- المعظم عيسى	615-624هـ/1218-1227م
3- الناصر داوود	624-647هـ/1227-1249م
4- الصالح نجم الدين أيوب	647هـ/1249م
5- المعظم توران شاه	647-648هـ/1249-1250م
6- المغيث عمر	648-658هـ/1250-1260م

وبالنسبة للخلفاء العباسيين في بغداد المعاصرين للأيوبيين فهم :

1- الناصر لدين الله	575-622هـ/1178-1225م
2- الظاهر بأمر الله	622-623هـ/1225-1226م
3- المستنصر بالله	623-640هـ/1226-1242م
4- المستعصم بالله	640-656هـ/1242-1258م

(1) المقريزي: السلوك، جـ3، ص30.

(2) المقريزي: ن م، جـ3، ص30. ومنذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي نافستها مدينتا الصلت وحسبان وتقوقعت في قرية صغيرة، وفي العصر العثماني هاجر اليها الشركس واستمرت على هامش الأحداث حتى القرن العشرين حين اصبحت عاصمة لشرقي الأردن (خير الدين الزركلي: عاما سن في عمان، ص6).

سادساً : الجيش الأيوبي

مقدمة

لقد كانت بلاد الشام مركزاً للمقاومة الاسلامية ضد الصليبيين منذ زمن نور الدين محمود عام 549هـ/ 1154م عندما كانت تحت حكم مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابكه[1]، ثم اتخذ صلاح الدين دمشق عام 570هـ/1174م مركزاً للحكم الأيوبي في بلاد الشام لقربها من الأماكن التي يحتلها الصليبيون ناهيك عن متانة أسوارها ورخاءها المعيشي وطيب هوائها ومنها انطلقت القوات الأيوبية للإغارة على حصن الكرك المنيع عدة مرات والى طبريا وحطين عام 583-584هـ/1187-1188م وإلى صفد وكوكب وبيسان وغيرها[2]. وكانت الجيوش تعود لها بعد انتهاء الحروب[3] بصفتها مركز القيادة والامداد والتموين والتدريب[4]ومعسكراً للأسرى لذا كان لابد من الاشارة الى الاقطاع الحربي الأيوبي والمؤسسات العسكرية في الجيش الأيوبي باختصار لأهمية هذا الجيش في التصدي والانتصار على أعداء الأمة العربية والاسلامية.

الإقطاع الحربي في الشرق الاسلامي

من المعروف أن هذا النظام تأسس زمن السلاجقة الذين تميزت دولتهم بالصفة الحربية العامة نتيجة لظروفها الداخلية والخارجية إذ استبدلت الرواتب والأعطيات النقدية بالنظام الإقطاعي الحربي بمنح البلاد لكبار القادة العسكريين وذلك على يد الوزير نظام الملك ليقوموا بشؤون البلاد وإعمارها[5].

---

(1) ابن الأثير: م س، ج11، ص197.

(2) جان سوفاجيه: دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1936م، ص34.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب من تارخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، طبع 1967م. جـ3، ص9-21،26-27،55،56،72-73،74،79، 84، 91، 101، 108.

(4) ابن جبير: الرحلة، ص261، م س، و:أبو الفداء: م س، ص91/90، وأبو شامة: م س، ج1،ق2، ص579.

(5) حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص26،34، ونظير حسان سعداوي: جيش مصر في أيام صلاح الدين، ص2.

وعندما جاء الأيوبيون طبق صلاح الدين الأيوبي هذا النظام بمنحه قادة جيشه الإقطاعيات مقابل تقديم الخدمات الحربية عند الحاجة له طالما يؤدي الخدمة العسكرية المتفق عليها في شروط عقد الإقطاع غير الوراثي حيث يتمتع بالأرض المقطعة طالما يؤدي الخدمة العسكرية المتفق عليها بعكس الإقطاع الزنكي حتى لا يرث أطفال الإمراء ذلك مما يسبب الارتباك والفوضى[1].

وللمقطع الحق في جمع الضرائب للنفقة عليه وعلى معيشة جنده مقابل تقديم الخدمات كالخدمات الماليه مثل الضرائب الحربية للسلطان والزكاة والجوالي. وخدمات مدنية: كرعاية شؤون الأمن والعناية بالزراعة وصيانة الجسورمما وفر على السلطان نفقات الجيوش من حيث الأموال والمؤن والأسلحة[2]، ولكن كان لهذا النظام آثار سلبية سيئة على القوة العسكرية وسير المعارك من حيث عودة القادة المقطعين بعساكرهم في مواسم الحصاد الى اقطاعاتهم للاشراف على جني المحاصيل وتخزينها مما قد يسبب حرجاً عسكرياً للسلطان والحاق الهزيمة بـه[3] هذا وكانت شخصية صلاح الدين وحنكته السياسية وعقيدته الجهادية برفع راية الجهاد دائماً تخفف من هذه الآثار السلبية لنظام الإقطاع الحربي حيث عادت هذه الآثار السلبية لتطفو على سطح الأحداث بوضوح بعد وفاته وذلك نتيجة احتفاظ الأمراء والقادة المقطعين بجيوش خاصة بهم مما دفعهم الى محاولة الاستقلال عن السلطان الأيوبي والاستبداد بالسلطة وتوسيع اقطاعياتهم على حساب الآخرين[4] بالاضافة الى سعي الإمراء الذين ليس لهمم اقطاعيات للحصول على

---

(1) Cahen Article Ayyubids in Encyclopadea of Islam, New edition; Hassaneinrabie, the financial System of Egypt, pp 28,30,32,57.

(2) حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص26،34، ونظير حسان سعداوي: م س، ص2.

(3) Rabie, Ibid: pp64-70 كما حدث لصلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام عام571هـ/1175م فاضطر لتوقيع صلح مع صاحب طرابلسعندما سمح للجيوش بالعودة لجني المحصول فكادت الهزيمة أن تلحق به وكما حدث مع الملك العادل الأيوبي عام 603هـ/1207م عندما عرف ضجر عساكره ورغبتهم في العودة لجني الفواكه والثمر في موسم الحصاد ببلاد الشام فاضطر لتوقيع صلح مع صاحب طرابلس.

(4) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27(ت733هـ/1331م)، دار الكتب المصرية رقم 549، معارف عامة. ورقة 222،مخطوط كما حدث عام 607هـ/1210م عندما اكتشف العادل توسع الأمير عز الدين اسامة في جنوب بلاد الشام بضمه عجلون وكوكب فاستدعاه للتحقيق وسجن بالكرك وصادر أمواله.

هذا وقد اقطع ابنه المعظم عيسى اقطاعات واسعة في بلاد الشام شملت الساحل الى العريش جنوباً وبيت المقدس والكرك والشوبك والغور وعاصمتها جميعاً القدس. الصفدي: الوافي، جـ2، ص236. والمقريزي: السلوك ج1، ص168-169.

اقطاعات لهم من السلطان مستغلين ظروفه وضعفه الأمر الذي أوجد حالة من الارتباك السياسي وعدم الاستقرار الأمني في البلاد. حيث تقلب الأمراء في ولائهم لسلاطين الأيوبيين لمن يمنحهم إيراداً أكثر كما لوحظ تشابك إقطاعات أبناء السلاطين[1] وكبار القادة العسكرين. أما الآثار السلبية للاقطاع الحربي فإنه حوّل الفلاحين إلى ما يشبه عبيد الأرض الخاضعين لرحمة طبقة كبار الإمراء الاقطاعيين.

فاستدركت الدولة الايوبية هذا الأمر بوضع قيود على الإمراء الاقطاعين شملت الأمر بالمعروف، والمحافظة على الإقطاع وحسن الجوار مع جيرانه من الإمراء المقطعين[2]. كما أضافوا اجراءات ضبط أخرى كتحديد الايجار والجباية الذي يدفعه الفلاح لسيده الإقطاعي مما حمى الفلاحين من تعسف الإمراء الاقطاعيين وحدّ من نفوذهم وثروتهم غير المشروعة[3]. وبالنسبة لحجم الجيش الايوبي فقد تحدث كثير من المؤرخين عن أعداد الجيش الأيوبي[4]، واتفق الجميع على أن أكبر حجم وصل اليه الجيش الأيوبي الموحد كان في موقعه حطين 583هـ/1187م.

الاقطاع العسكري[5] : لقد سار صلاح الدين الأيوبي على النظام النوري "نور الدين محمود" لأن الدولة النورية الأيوبية نشأت من خلال الدولة الزنكية وكانت متممة لها واحدث بعض التغيرات في هذ النظام بسبب الظروف المستجده.

---

(1) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص232، ذكر أن العادل خلف سبعة عشر ولداً كان معظمهم يحكم في بلاد الشام والجزيرة ومصر، وسعى أبناؤه الصغار التابعين لإخوتهم الكبار للحصول على ممتلكات أوسع عندما يكبرون.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج1،ص33-43، ج3،ص144-148.

(3) انظر Poliak: The Ayyubid Feuadalism. p430

(4) ابن الأثير:م س، ج11،ص531:ذكر عددهم "اثني عشر ألف فارس ممن كان له الإقطاع والجامكية سوى المتطوعة. وانظر: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب ج3،ص92، أبو شامة: م س، ج2،ص76، ابن واصل: م س، ج2،ص187، والمقريزي: السلوك جـ1،ص93، ابن كثير: م س، ج2،ص320، والجامكية: راتب من يخدم في دواوين السلطان، القلقشندي: ن م، جـ3،ص460، ج5، ص140 وهي لفظ فارسي. وانظر نسمان: تاريخ الحروب الصليبية: ج2،ص798-790 وقدر عدد الجيش النظامي لصلاح الدين باثني عشر ألفاً وانضمام كتائب المقطوعة من خلفائه حتى بلغ ثمانية عشر ألف رجل.

(5) ومعنى ذلك: هو توزيع "إقطاع" الأراضي على كبار إمراء الدولة وأقرباء السلطان ومنحهم حرية التصرف في ادارة هذه الأراضي بدل منحهم الرواتب ، وصرف وارداتها لاتباعهم داخل اقاطعية مقابل اسهامهم في المعارك الحربية التي يعلنها السلطان بارسال الجند اللازم مع نفقاتهم كاملة للميدان. وانظر: البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، طبع شركة طبع الكتب العربية، مطبعة الموسوعات1900م ص55، والحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، نشر كلية بنجاب، الأهور 1937م، ص68. بولياك: النظم الإقطاعية ص59-60.

وكان النظام الإقطاعي العسكري في بلاد الشام أكثر وضوحاً من بلاد مصر وذلك لانقسام بلاد الشام السياسي عبر تاريخها. فقد خصص له ديوان سمي بديوان الإقطاع المُشرف على الجيش[1] ولم يكن هذا الإقطاع وراثياً بالمعنى الكامل، بل كان يُوَرِّثُ الأمير إقطاعه لإبنه الأكبر الراشد أحياناً، أما إذا كان طفلاً صغيراً جعل عليه وصياً بمثابة أتابك له حتى يكبر[2].

وكان لكل أمير ديوان إقطاعي يسجل فيه أسماء جنده وسلاحهم ودوابهم[3] وكان الأمير ينفق ثلثي دخل الإمارة على تجهيز وإعاشة الجند[4] ليبقى جاهزاً وعلى أتم الاستعداد لحين الطلب[5] ويبقون في اراضيهم في موسم الزراعة والحصاد إلا إذا كان هناك حالة حرب، وكان الاعداء يستغلون موسم الحصاد للهجوم وهكذا كان هؤلاء الجند الإقطاعيون "جند الإقطاعيات عماد الدولة العسكري في الدفاع عن نفسها".

وكان ديوان الإقطاع "ديوان المجلس" ملحقاً بديوان الجيش، ولايستطيع صاحب ديوان الجيش أن يغير شيئاً من الاقطاعيات أو الأجناد إلا بمرسوم[6] لأن حدود الإقطاعية محددة في الشهادة الممنوحة للإقطاعي.

---

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف - مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312هـ،ص35-68 وانظر محمد حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبين، مطبعة جامعة القاهرة، 1964م،ص35. ذكر مهمة المقطع: وهي قيامه بتأدية خدمات حربية بقيادة عدد من الجند المشاة والفرسان عند خروجه للحرب مع السلطان.

(2) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل وحلب، تحقيق د.عبدالقادر طليمات، طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة 1963م.ص169، أبو شامة: م س، جـ1،ص20. ابن واصل،م س، جـ1،ص280.

ومعنى أتابك: "الأمير الأب" بالمعنى اللغوي: القلقشندي: م س، جـ4، ص18، وابن الأثير: جـ10، ص8، ود. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص123.

(3) ابن الأثير: الباهر، ص169.

(4) برنارد لويس، العرب في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1995م، ص222.

وانظر ابن الأثير: الباهر، ص169 حيث نقل على لسان نور الدين محمود قوله: "نحن كل وقت بصدد التغيير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد، دخل الوهن على الاسلام". وابن واصل: م س، جـ1، ص280.

(5) ابو شامة: لروضتين، جـ1،ق2، ص565، يذكر نقلاً عن ابن أبي طيء : "أن الصقليين بقيادة جورج لما تحركوا ليقوموا بإنزال قواتهم على الاسكندرية عام 569هـ/1173م، كتبوا الى الملك الفرنجي أن العساكر -يقصد عساكر صلاح الدين- متباعدة في نواحي إقطاعاتم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم".

(6) القلقشندي: ن م، ج3،ص488، المقريزي: الخطط، طبعةأوفست:جـ2،ص242.

وقد ورث صلاح الدين الأيوبي الإقطاع النوري والفاطمي[1] محاولاً الاستفادة منه لصالح الجهاد الاسلامي ولمصلحة الحكم الأيوبي.

ويشمل الإقطاع الأمراء الشجعان الذين يلحقون الهزائم بالعدو بينما يسجل باقي الأمراء على لوائح العطاء فتصرف لهم الجامكية، فهم جزء من الجيش النظامي المستعد للقتال دوماً الى جانب جنود الأمراء الاقطاعيين، وسُمَّي الخارجون عن الإقطاع "بالبطالين"[2].

ومن أمثلة ذلك عندما استبدل صلاح الدين القوات الموجودة داخل عكا بقوات جديدة، أمر بالمناداة بالبطالين لقبض النفقات[3].

كما لم يعرف عدد الفرسان والرحال الذين يقدمهم كل أمير إقطاعي إلى جيش صلاح الدين[4] إلا أنه كان من المؤكد أن الخدمات الحربية الاقطاعية، كانت تزيد بزيادة الإقطاع كما كان صلاح الدين يعيد النظر بالاقطاعات الممنوحة من وقت لآخر كما حدث مع اخيه الملك العادل في عام 587هـ/1191م. عندما طلب منه التنازل عن كل اقطاعياته بالشام ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء والأجزاء الجنوبية لبلاد الشام، وكذلك عن نصف ما يملكه بمصر وعوضه باقطاعه في البلاد الشرقية[5].

(1) كان الاقطاع الفاطمي بمثابة اقطاع استغلال أي يكون للأمير حق استثمار الأرض والانتفاع من انتاجها بينما لا يحق له توريثها أو تمليكها ملكية مطلقة بل يتمتع بها حسب المدة المقررة. انظر الماوردي: الاحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعه مصطفى البابي الحلبي، مصر 1960، ص194-197.

(2) أبو شامة: م س، ج1، ق2، ص532 نقلاً عن ابن ابي طيء، المقريزي: السلوك، ج1،ص36.

(3) الأصفهاني، عماد الدين الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة 1965م، ص457.

(4) المقريزي: الخطط، طبعة بولاق، ج1،ص147، ذكر سبب ذلك هو أنه لم يحاول احداً من المؤرخين افراد الجيوش والعساكر بتأليف خاص.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938م، جـ6، ص99. د.طرخان: النظم الاقطاعية، ص39.

عناصر الجيش الأيوبي

لقد كانت عناصره مكونة من:

- بعض عساكر الدولة النورية[1]
- بعض عساكر الفاطميين[2]
- والفرسان التركمان من قبيلة ياروك[3]
- وقوات شيركوه الخاصة من مماليكه الأسدية[4]
- وعربان الشام والأكراد[5] وبقية عشائر التركمان[6] وهؤلاء كونوا الجيش الشعبي كما هو الحال في عصرنا الحاضر.

ويلاحظ أن صلاح الدين الأيوبي ربما أحَسّ بضرورةِ اعادة النظر في كيفية توزيع أقاليم الدولة وحصونها على أبنائه. وكان من أمراء صلاح الدين في جنوب بلاد الشام ذوي الحظوة والجاه عنده كعز الدين أسامة الذي اقطعه كوكب وعجلون[7]. وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري "المشطوب" والذي اقطعه نابلس وأعمالها[8] وبعد موته عام 588هـ/ 1192م خلفه ابنه عماد الدين.

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج11،ص336، أبو شامة: م س، ج، ص155، ابن كثير: م س، ج12، ص255.

(2) وبعد اسقاط صلاح الدين للدولة الفاطمية الشيعية عام 567هـ/ 1171م كان من الطبيعي أن يبعد عساكر الفاطميين، هذا وقد اقيم عرض عسكري لجيشه عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي الذي بلغ أربعة عشر ألف فارس من الطواشية والذي يبلغ راتب الفارس منهم 700–1200 دينار. حب: صلاح الدين الأيوبي، ص161، هامش 31.

والطواشية: جندي من الفئة الأولى والأعلى من مرتبة الجنود النظاميين. أنظر العريني: مصر في عهد الأيوبيين، ص154 هامش رقم1، ثم يأتي بعدهم في المرتبة: القراغلامية: وهم الجنود العاديون، ن م، ن ص، هامش 2. وهم فرق الاستطلاع المكلفة بمراقبة الطرق اثناء سير الجيوش. المقريزي: السلوك، جـ1، ق1، ص75، هامش رقم 3.

(3) حب: ن م، ص154.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج1،ص172–173.

(5) المقريزي: البيان والأعراب في تاريخ العروبة في وادي النيل، تحقيق تأليف عبد المجيد عابدين، القاهرة، 1961، ص117.

(6) زكي، محمد أمين، تاريخ الكرد وكردستان، ترجمة محمد علي عويس، القاهرة، 1961، ج1،ص145.

(7) ابو الفداء: المختصر، ج5، ص115.

(8) ابن كثير:ن م: ج12، ص352.

تنظيم الجيش الأيوبي : لقد اتبع صلاح الدين الأيوبي نظاماً خاصاً لجيشه كالتالي :

أ- نظام التخميس على شكل كتائب تشبه الصليب من حيث الجذع في الوسط "قلب" ومقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة بما يشبه جسم الانسان[1].

وكان السلطان يعبّئ العسكر ويتفقّد الصفوف بنفسه[2]. ويتصل بجميع أقسام الجيش بحيث يكون مشرفاً على سير المعركة.

ب- الحلقة الخاصة والمماليك السلطانية: وكانت مكونة من عساكر محيطة بصلاح الدين بما يشبه الحراسة وكان لها أهمية خاصة في المعارك المختلفة[3].

كما عرف الجيش الأيوبي نظام المماليك[4] فنشأت مجموعة من سلاطين المماليك والحرس الأرقاء للسلاطين الأيوبيين وقد أسسها صلاح الدين الأيوبي، لذا كان الجيش المصري في عهد المماليك من بقايا الجيوش الأيوبية التي كان معظمها من المماليك الأتراك وبقايا الأكراد[5] كما أطلق على خاصة مماليك السلطان اسم الحلقة الخاصة[6].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأيوبيين لم يكونوا اتابكة ولم يكونوا مماليك لأحد ولم يجر عليهم رِقّ[7]. وقد وضح لنا قوة المماليك في الجيش الايوبي بعد وفاته[8] كالفرقة الصلاحية التي كانت بقيادة فخر الدين جهاركس والتي ناصرت الملك عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، والفرقة الاسدية بقيادة سيف الدين يازكوج مملوك شيركوه. التي ساندت الملك العادل.

---

(1) العماد الاصفهاني: م س، ص89، 154.

(2) د. محسن، محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، بيروت ص148.

(3) ابن الاثير: الكامل، ج12/ص15،81، وانظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص147، 178 وذكر ابو شامة: في الروضتين، جـ1، ق2، ص438 بأن هذه الفرقة هي الفرقة الصلاحية أو الناصرية.

(4) انظر: أبو شامة: ن.م.ن.ص، "فكان المحاربين تحت امرة القائد الكبير يسمون باسمه لأنهم من مماليكه أو غلمانه فالنورية: مماليك نور الدين والأسدية مماليك اسد الدين شيركوه". وابن تغري بردي:م س: ج6،ص124.

(5) ابن تغري بردي: ن م، ن ص.

(6) ابن شداد:النوادر السلطانية، ص178، وابن الأثير: الكامل، ج12،ص15، أبو شامة: م س، ج1، ق1، ص504.

(7) ابن تغري بردي:ن م ، ج6، ص5.

(8) ابن تغري: ن م، ج6، ص13، المقريزي السلوك، ج1، ص125.

وبالنسبة لزي العسكريين من قادة وجنود فكانت كالتالي:

لباس الرأس : الكلوتات[1] الصفر على الرؤوس المكشوفة بغير عمائم وذوائب، شعورهم مرخاة تحتها للجميع[2].إلا أن صلاح الدين استحدث لباساً آخر يحمل السنجق على رأسه والزم الأجناد بشد السيوف في أوساطهم وجعل الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب[3]. بينما استحدث المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق عام 651-624هـ/1214-1227م عادة لبس الكلوتة الصفراء بلاشاش[4] بعكس صلاح الدين الذي أمر بلبسها مع الشاش واستمر لباس المعظم عيسى زمن المماليك حتى عهد الملك الاشرف خليل ابن السلطان محمد بن قلاوون الذي أمر باعادة الشاش على الكلوتة كعهد صلاح الدين[5]. وأما لباس البدن: فكان الأقبية[6] التترية الواسعة والتكلات فوقها ثم القباء الاسلامي فوق ذلك. مع شد السيف من جهة اليسار والصولق[7] والكزلك[8] من جهة اليمين، وكان لباس الصيف يختلف عن لباس الشتاء.

كتائب الجيش وسلاحها:

لقد استخدم الجيش الأيوبي نظام الأطلاب الذي يقوم على أساس تقسيم الجيش الى مجاميع "كتائب" حيث يكون على رأس كل 170-200 فرس أمير مقدم[9] ولكن ليس بالدقة والتنظيم

(1) الكلوتات : نوع من اللباس الهندي والمصري للامرء: انظر: دوزي: المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب، ترجمة: د. أكرم فاضل، طبعة دار الحرية، وزارة الاعلام، بغداد، 1971م، ص85.

(2) القلقشندي: م س، ج4، ط3،ص5، 39.

(3) أبو الفداء: المختصر، جـ4، ص311. والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ4، ص6.

(4) الشاش قطعة من البز تلف حول طاقية أو عرقية أو حول الرأس. وهي كلمة معادلة للعمامة، دوزي، ن م، ص197-199. وانظر القلقشندي: ن م، ج4، ص5.

(5) ن.م. جـ4،ص6.

(6) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

(7) الصولق: كيس من جلد يربط على الجانب الأيمن من الحياصة توضع فيه حاجات السفر من الزاد وجمعه صوالق. انظر المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص789، واللفظ تركي يعني جهة اليسار.

(8) الكزلك: السكين أو الخنجر انظر سعيد الديوجي: الموصل في العهد الاتابكي، مطبعة شفيق، بغداد 1958، ص72.

(9) المقريزي، الخطط، طبعة المعهد، ج2، ق1، ص16.

المملوكي[1] ومن الجدير بالذكر أن الجيش الايوبي انقسم الى ثلاثة أصناف بالاضافة للاصناف الجانبية وهي:

1- صنف الفرسان "الخيالة" وهو عصب الجيش في حروب العصور الوسطى ومن مهام الفرسان الاستطلاع والقتال لسرعتهم المميزة في الكشف والقتال والمطاردة وقطع طرق الإمدادات ونجدة المواقع الأخرى المعرضة للخطر المفاجئ، وكان وضعهم الطبيعي خلف المشاة[2].

2- صنف المشاة "الرجالة" وهو القسم الأعظم من الجيش الذي يقوم بأعباء القتال وتحمل نتائجه وأسلحتهم خفيفة تقليدية كالسيف والرمح والقوس وكانوا يُخرجون الأعداء من خنادقهم ويقتلونهم[3] وسموا أيضاً بجماعة الأخبار[4].

3- والصنف الثالث كانت الفرق المساعدة التي عرفت باسماء الأسلحة التي تستخدمها كالنفاطين والمنجنيقيين والنقابين والخراسانية الذين يقاتلون في الدبابات[5] والتموين والمخابرة والجاندرية: المختصين بعمليات الحصار[6].وكان صلاح الدين يستعرض فرق الجيش قبل المعركة ويتفقد الأسلحة والخطط العسكرية كما فعل قبل التوجه الى حطين حيث نظم مواقع كل الفرق وقياداتهم في الميمنة والميسرة ثم جعل الجاليشية "الرماة" أمام الجيش[7] وكان بجانب صلاح الدين شخص يلقب بالجاويش مهمته إعلان القتال واستنفار الجند، وأمر

---

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص76،148،160،185: الأصفهاني، عماد الدين الكاتب: م س، ص69، 70، 115.

(2) د. محسن محمد حسين، م س، ص154، نقلها عن مخطوطة الطرسوسي: تبصرة ارباب الألباب. ونقل نصاً من قول الطرسوسي "ولتكن الخيالة والأبطال من وراء الرجالة ينتظرون الحملة فاذا هموا بها، فتح لهم باب يحملون منه"

(3) طه الهاشمي: دروس في المعلومات الجغرافية، مطبعة الشعب، بغداد 1936، ص166.

(4) أجناد: تستخدم هذه اللفظة في المصادر على ثلاثة معاني فهي ستخدم بصفة الجمع للفظ. جندي "أجناد": كما تطلق على الفرسان في القوات النظامية وتستخدم في صيغة الجمع للدلالة على القوات العسكرية في منطقة ما. حب، م س، ص174. كما تطلق على الولايات أو الأقاليم العسكرية المجاورة لبلاد العدو فكانت بلاد الشام مثلاً اربعة أجناد هي: دمشق وحمص والاردن وفلسطين. العمري وزملاؤه: الجيش العربي في صدر الدولة العباسية، بغداد، 1963، ص123

(5) الدبابة: برج مربع خشبي على اربع عجلات ثم أصبحت على ثمان عجلات زمن العباسيين وتتسع لعشرة رجال وبداخلها سلالم مستعرضة لتسلق الحصون، العمري، ن م. ص120.

(6) العماد الاصفهاني: ن م، ص69-70. رحب، م س، ص174-176. والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ4، ص8،

(7) الجاليشية: الراية العظيمة التي في راسها خصلة شعر ثم أطلقت على مقدمة القلب في الجيش على الطليعة منه.

بعض أفراد الجيش بمهمات حسب ظروف المعركة[1]وتشجيع المقاتلين ببث نتائج النصر بكلمات حماسية كندائه" " يا عساكر الموحدين"[2].

وبالإضافة للجيش الدائم ضم جيشه فرقاً مساعدة من العرب والأكراد والتركمان مقابل الأجور[3]. بالاضافة إلى المتطوعين في الجيش الأيوبي حباً في الجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض العربية الاسلامية من الاحتلال الصليبي الغاشم. كما كان يلحق بالجيش فرقاً هندسية خاصة لقتال الأسوار والخنادق ونصب المعدات الحربية كالمنجنيق والدبابات والأقواس الثقيلة. وقاذفات النفط وبناء المعسكرات والأسوار وتشييد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفر الآبار وتغيير مجاري الانهار لتعطيش الاعداء[4] وقد استعان صلاح الدين الايوبي بالفرق الهندسية في حصاره لبيت المقدس[5].

هذا بالاضافة للفرقة الطبية المتخصصة بالاسعافات للجرحى والمرضى بما يشبه مستشفى الميدان اليوم حيث كانت تحمل على ظهر الحيوان وتنصب الخيام للعلاج والإسعاف[6]. كما كان يرافق الجيش فرقة الموسيقى العسكرية لإثارة حماس المقاتلين بعد مناداة الجاويش بالعسكر للاستعداد للقتال، فتُشد الرايات وتضرب الكوسات[7]مما يدل على اهتمام صلاح الدين بالموسيقى العسكرية 'المارشات' اليوم وسمي المكان المخصص لها بـ"الطبلخاناه" أي مكان الطبل عسكرية بعد نشر الأعلام والبيارق[8].

---

(1) الجاويش أو الجاووش أو الجاوش أو الشاويش: كلمة تركية، المقريزي: السلوك، ج1، ص70، هامش 2، وابن واصل: م س، ج2،ص 295، هامش 1

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص190، وابن واصل، ن م، ج2، ص29، 326.، أبو شامة: م س، ج2، ص76.

(3) Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 316

(4) أبو شامة: ن م، ج2، ص62–63، وابن واصل: ن م، ج2، ص162.

(5) ابن الأثير: م س ، ج11، ص547، أبو شامة: ن م، جـ2، ص9، ابن تغري بردي: م س، ج6، ص36:

(6) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، اصدار دار الفكر، بيروت، 1957م، ج3، ص191، ص259، 265، 268،297،298،299، والعماد الأصفهاني: م س، ص576، 577.

(7) الكوسات: صنوج تشبه الترس الصغير يلق بأحدهما على الآخر بايقاع خاص، القلقشندي صبح الأعشى، ج4، ص9. وابن شداد: ن م، ص149.

(8) المقريزي: الخطط، طبعة الأوفست، ج2، ص233. وابن شداد: ن م، ص119. ذكر: "أن اسم النافخ في البوق كان يسمى منفراً والذي يضرب بالصنوج النحاسية كان يسمى كوسي والناقر على الطبل "بنداد" حيث كانت تعزف الفرق الموسيقية في أوقات القتال وبقية الأيام بمعدل ثلاث مرات يومياً والمقريزي، الخطط، ج2، ص233. وعند قدوم شخصية عسكرية هامة بعد نشر الأعلام والبيارق.

وكان هناك حملة أعلام الجيش السلطاني والحفاظ عليها والتي كانت تُميّز جماعة عسكريةعن غيرها. وسميت الرنوك[1]. أما لون علم صلاح الدين فكان الاصفر وفي وسطه صورة النسر[2] رمزاً للفرق بالاضافة لأنواع أخرى للرايات الصلاحيّة الأخرى كالعصابة المصنوعة من الحرير الأصفر المطرز بالذهب والمكتوب عليها ألقاب السلطان، والجاليش الراية التي في رأسها خصلة من الشعر والسناجق: الرايات الصفر الصغار[3].

وأما القوات البحرية المتمثلة بالاسطول: فقد بلغت قطع الاسطول عام 575هـ/1179م ثمانون قطعة بحرية فيها ستون من المراكر الضخمة المسماة بالشواني والمزودة بالأبراج والقلاع والتي تحمل حوالي 150 رجلاً والمستخدمة في الدفاع والهجوم[4] والباقي منها عشرون طرادة من السفن الصغيرة سريعة الحركة وحاملة للخيول[5]. هذا وقد قسمه صلاح الدين الى قسمين مهمة الأول منها حماية شواطئ مصر والدفاع عنها ويتكون من ثلاثين سفيهة ومهمة الثاني مهاجمة الصليبيين وموانئهم في سواحل بلاد الشام ويتكون من ثلاثين سفينة ايضاً[6]. أما معدات السفن الحربية فكانت من معدات العصور الوسطى مثل: الزرد والخوذ والتروس والرماح والكلاليب والسلاسل برمانة حديد في رؤوسها "الباسليقات" وغيرها. بالاضافة الى صناديق في أعلى السفينة "التوابيت" يصعد اليها الرجال قبل الاقتراب من سفن العدو، ومعهم

---

(1) ابن شداد: ن م، ن ص. وابن واصل: ن م، جـ2، ص373-374. جمع رنك: وهي لفظ فارسي (كردي) معناه اللون، حيث يدل على الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له على إمارة معينة. د.عبد الرحمن زكي، السلاح في الاسلام، دار المعارف، القاهرة، 1951م، ص29.

(2) وبالنسبة لعادة استخدام صورة النسر فكانت عادة قديمة منذ السومرين أنظر حتي، فليب، تاريخ سورية ولبنان، ترجمة كمال الياجي مراجعة د. جبرائيل جبور، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين المطبعة البوليسية، بيروت، 1959م، ص251. كما نقش عماد الدين زنكي صورة النسر على النقود ورسمه الأرتقيون على راياتهم وعنهم أخذ صلاح الدين مبتكراً اللون الاصفر لرايته "العماد: م س: ص10، وأبو شامة: م س، جـ1، ق2، ص697. بينما لم يستخدم جميع سلاطين الأيوبين هذا اللون الاصفر حيث اتخذ الملك الناصر داوود صاحب دمشق "جند الملك العادل" اللون الاسود لارضاء الخليفة العباسي : انظر: د. الباز العريني م س. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1967، ص227. وقد اشار الى استخدام الرنوك في المشرق والمغرب منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

(3) د. سعاد ماهر: البحرية في مصر الاسلامية، ص352.

(4) د. سعاد ماهر: ن م، ص352

(5) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص339. وأبو شامة: الروضتين، ج2، ص11، حيث بلغت قطع اسطوله عام 575هـ/ 1879م. نقلاً عن ابن أبي طيء ستين سفينة وعشرين طراداً.

(6) أبو شامة: ن م، ج2، ص22.

حجارة صغيرة أو قوارير النفط الحارقة لرمي الأعداء بها، كما زودت السفينة باللحام "أداة كالفأس في مقدمة السفينة مكونة من حديدة طويلة كسنان الرمح لتثقب سفن العدو، والكلاليب التي يسحبون بها سفن العدو، والألواح كالجسور الخشبية التي يعبرون عليها ويقاتلون جنودها[1]. وقد فتح باسطوله عكا وحاصر مدينة صور وكانت له قواعد بحرية في مصر وبيروت. وقام الاسطول بواجبه من حيث مهاجمة موانئهم في عكا وإقلاق راحتهم على الساحل الفلسطيني وساحل البحر الأحمر برده غارة ارناط صاحب الكرك قرب ايله عام 578هـ/1182م[2]. فاثبت وجوده في البحر الأحمر والبحر المتوسط وخاصة بعد موقعة حطين 583هـ/1187م، واستيلائه على عكا، وهكذا كان الاسطول اليد العاملة الثانية بجانب القوات البرية لاخراج الصليبين من ساحل الشام.

ولكن مما يؤسف له عدم اهتمام خلفاء صلاح الدين بالاسطول بعد وفاته مما أدى لضعف قوته وأثره في المعارك مع الصليبين[3] حتى آواخر الدولة الأيوبية عندما فكروا في الاهتمام به أيام الحملتين الخامسة 616هـ/ 1219م، والسابعة 646هـ/1249م على مصر[4].

هذا وقد وردت الراية الصلاحية الصفراء في قصائد المديح عند تحقيق النصر على الصليبيين[5].

---

(1) ماهر: البحرية في مصر، ص203-204، والصالح: النظم الاسلامية، بيروت 1465، ص517

(2) كانت السفن تصنع في دار الصناعة بمصر وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال الى شاطئ البحر الأحمر حيث يتم تجميعها وتركيبها بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ وانتصر على اسطول ارناط الصليبي. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج2، ص788.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص194.

(4) النويري: نهاية الأرب، ج28، ورقة 192، مخطوط ذكر وصية الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه بالاهتمام بالاسطول لمواجهة الاعداء.

(5) قصيدة الشاعر بهاء الدين أبو الحسن الساعاتي الخرساني (ت604هـ-1207م) الذي هنأ بها صلاح الدين الأيوبي عند انتصاره على الصليبين عام 575هـ/1179م في بيت الأحزان قائلاً:

"وما رُفعت أعلامُك الصّفر ساعة ... الى أن غدت أكبادها السود ترجفُ

كبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ ... وساد به دينٌ حنيفٌ ومصحفُ

أتسكن أوطان النبيين عصبةٌ ... تمين لدى أيمانها حين تحلفُ

نصحتكم -والنصحُ في الدين واجبُ ... ذروا بيت يعقوب، فقد جاء يوسفُ"

كما مدحه الشاعر: العلم الشاتاني بقصيدته الرائية:

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا ... فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى

انظر" ابن خلكان: م س، ج7، ص211، والبنداري: سنا البرق الشامي، ج1، ص250، وأبو شامة: م س، ج1، ق2، ص696.

وهكذا كانت الراية على مر العصور التاريخية رمزاً للسيادة حيث ترفع على مؤسسات الدولة والقلاع والحصون والمؤسسات الحربية الرئيسة، كما كان التقليد العسكري في الحرب نزع راية المهزوم ورفع راية المنتصر مكانها[1].

التعبئة والتموين في جيش صلاح الدين

فبالنسبة للتعبئة فقد اختار القادة العسكريين الأفذاذ القادرين على القتال المستمر دون هوادة بالاضافة الى التخطيط المسبق للمعارك ومتابعته للجند في جميع معاركه[2]. وكان يقسم جنده الىعدة أقسام لاراحتهم لمواصلة القتال[3]. واستخدم في تنظيم جيشه أثناء المعركة المقدمة والقلب الذي يوجد فيه مع حرسه الشخصي والميمنة والميسرة والمؤخرة أو الساقة بالإضافة الى فرق الاستطلاع والكمائن[4].

أما التموين أثناء المعركة: فقد اعتمد الجندي على ما يحمله من مواد غذائية بسيطة بالاضافة الى ما يستولي عليه من مؤن العدو[5]. هذا بالاضافة الى قافلة التموين المرافقة للجيش والتي تحمل ما يحتاجه الجند من سلاح وغذاء توزعها جماعة خاصة على القادة والأمراء لتوزيعها على جنودهم.

بينما كانت راية الصليبين المصنوعة من خرقة بيضاء على شكل صلبان وكانت تحمل على عربة مسحوبة بالبغال: "ابن شداد: النوادر، ص149، وابن واصل:م س، ج2، ص343. وربما يشبه الآن علم منظمة الصليب الأحمر الدولية.

(1) كما فعل الصليبيون عند احتلالهم عكا وانزالهم علم الاسلام: انظر ابن شداد: النوادر، ص171، وابو شامة: م س، ج2، 2ص188.

(2) البنداري: م س، ج1، ص210-211.

(3) ابن شداد: م س، ص92،

(4) سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص225.

(5) ابن شداد: ن م، ص53، 62، أبو شامة: ن م،ج1، ص27.

المؤسسات الإدارية العسكرية الأيوبية

أولاً: ديوان الجيش: المختص بشؤون الجيش حيث يشرف على جميع الشؤون العسكرية وخصص له صلاح الدين الأيوبي ميزانية كبيرة للصرف على الأجناد بالاضافة الى توزيع اقطاعاتهم[1].

وهو ما يشبه وزارة الدفاع اليوم ويتولاه خبير مسلم برتبة عالية[2]، إلا أن مسؤوليته تنحصر في معرفة أحوال الجند، وتسجيل الأمور الخاصة بحضورهم وغيابهم وأوضاعهم الصحية ووفاتهم[3].وقد تولّى ديوان الجيش أيام صلاح الدين في مصر، المهذب بن أبي المليح مماتي حتى وفاته (577هـ/1181م)،إذ تولاه ابنه الأسعد: " صاحب كتاب الدواوين" سيرة صلاح الدين" و"قوانين الدواوين"[4].

(1) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص360، 361، حب: م س، ص202-203

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص488.

(3) ن.م. ن.ص

(4) العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شؤون مصر، نشر أحمد أمين، شوقي ضيف، وإحسان عباس، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1990،ج1، ص13.

ثانياً : البريد والاستخبارات العسكرية الأيوبية :

لقد خصص الأيوبيون ديواناً خاصاً لتنظيم أمور البريد العسكري حيث كان موظفو البريد يرسلون الأخبار بواسطة الأبل السريعة "النجب"[1]، التي تنتقل بين المحطات البريدية المزودة بالماء والزاد والعلف. حيث يستبدلون هناك هجناً مستريحة لإكمال واجبهم بأقصر وقت[2].

كما امتاز بريد واستخبارات صلاح لدين الأيوبي بالتفوق في الاداء على بريد الصليبيين[3]، كما اشترى العملاء الصليبيين لتزويده بأخبار قومهم عند عزمهم الهجوم على عكا[4] وأخبار الحملة الألمانية[5].

كما استخدم موظفو البريد الحمام الزاجل والسباحين لمعرفة أوضاع المسلمين المحاصرين في عكا وإرسال المال اللازم لهم فالبطل الأيوبي العوام عيسى الذي كان يخترق الحصار البحري الصليبي على عكا للوصول الى المسلمين بعد تثبيت قطع الذهب والرسائل المشمعة على وسطه والحمام في يده[6].

---

(1) النجيب من الأبل: هو القوي منها وسريع الحركة. انظر الزبيدي، أبو الفيض محب الدين محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت1206هـ/1791م: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ، ج1، ص477. بينما كان البريد يرسل قبل آل زنكي والأيوبين بواسطة خيول مقصوصة الأذناب تمييزاً لها عن غيرها، وانظر العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص186-187، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص37.ومحمد كرد علي: خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، 1925، ج5،ص18.

(2) د. عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين، مطبعة الاعتماد، منشورات الفكر العربي، ص132. الأوسي عمر بن ابراهيم: اوائل القرن التاسع الهجري/ اوائل القرن الخامس عشر الميلادي. تفريج الكروب في تدبير الحروب، حققه وترجمه الى الانجليزية الدكتور جورج مكانلون، منشورات الجامعة الامريكية بالقاهرة، 1961م، ص17، حيث ذكر صفات موظفي البريد "العيون والجواسيس" ذوو حكمة وفراسة وشجاعة وذكاء ودهاء وصاحب حيل وخداع خبير بالاسفار.

(3) نسيمان، م س، ج2، ص671، 673، نقلاً عن وليم الصوري يذكر حادثة هزيمة صلاح الدين سنة 573هـ/1177م، في الرملة جنوب فلسطين ونجاح بريد صلاح الدين في القضاء على الشائعات في مصر بمقتل صلاح الدين وخوفاً من انقضاض الطامعين في الحكم على الحكم الايوبي.

وانظر Treece, Henry: The Crusades, New York, 1962, p131

وأبو شامة: م س، ج1، ق2، ص207، والبنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت في القرن السابع هـ/الثالث عشر الميلادي: سنا البرق الشامي "تلخيص الرق الشامي" للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت 1971م، ج1، ص260.

(4) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص131،134.

(5) ن.م.ص140.

(6) ن.م.ص135-136، وانظر العماد الأصفهاني: م س، ص423، وأبو شامة: ن م، ج2، ص16

ثالثاً : اليزك[1] "فرق الاستكشافات"

والتي ترسل الىجهة العدو قبل تحرك الجيش نحوه. بخلاف الجاليش الجزء الأمامي من مركز القلب. هذا وكانت مهمة اليزك ايصال المعلومات العسكرية الحالية لقيادة الجيش بالسرعة الممكنة بما يشبه الاستخبارات العسكرية في الجيوش الحديثة اليوم.وكانوا يركبون الجياد الهادئة السريعة ويتحاشون الاشتباك مع العدو[2].

وكان يتولى أمر اليزك شخصيات عسكرية كبيرة من الامراء وغيرهم كالملك العادل أخي السلطان[3] وابنه الملك الأفضل[4] وكبار امرائه[5] الذين يتناوبون على قيادة اليزك[6] كما كان واجب اليزك تفقد أحوال المدن خاصة بيت المقدس حين هددها الصليبيون بعد تحريرها عام 583هـ/1187م برئاسة أخيه الملك العادل الذي سار في رمضان عام 587هـ/1191م[7].

ثم أضاف صلاح الدين مهمة الكمائن لليزك بعد ذلك كما حدث في طريق يافا بقيادة الأمير بدر الدين دلدرم الذي كمن حول الطريق لقافلة صليبية تحمل أرزاقاً ونجح في الاستيلاء عليها[8]، ثم أمر اليزك فيما بعد بمقاتلة الصليبيين في مناسبات كثيرة من حيث حماية الجيش الأيوبي من هجوم مباغت كما حصل عند انطاكية[9]، وكاد مرة يأسر الملك ريتشارد، قلب الاسد، بعد اصابته بطعنه[10].

وهكذا يلاحظ أهمية التنظيم العسكري الذي ضم في صفوفه خيرة الجنود والفرسان وأشجعهم، وكانت أعدادهم تتوقف على نوع المهمة التي يقومون بها فوصل الى ألف فارس

---

(1) اليزك: كلمة فارسية معناها طلائع الجيش، ابن واصل: م س، ج1،ص38، هامش 3 وانظر أدي شير: الألفاظ الفارسة المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1908م، ص16. ومحمد التونجي: المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت ط1، 1969،ص619.

(2) الأوسي: تفريج الكروب، ص601، والهرثمي: مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون، القاهرة، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص48-49.

(3) ابن شداد: م س، ص192.

(4) ابن الأثير: الكامل: ج12، ص69.

(5) ابن شداد: ن م، ص212، 232، 217، 231، والعماد الأصفهاني: م س، ص541، 542. وأبو شامة: م س، ج2، س191.

(6) ابن شداد: ن م، ص182

(7).ن.م. ص192، 231.

حول عكا حينما غادرها صلاح الدين، كما نلاحظ تطور مهماته من استطلاع أخبار العدو الى المواجهة العسكرية مع العدو الصليبي والدفاع عن المدن الاسلامية والجيش الأيوبي بالاضافة للكمائن والهجوم ومفاجاة العدو بهجوم سريع.

رابعاً : حمام البريد "الحمام الزاجل" أو الحمام الهوادي لقدرته العجيبة على الإهتداء إلى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة(1) ولهذا ارتفعت اثمانه إلى ما يزيد عن ألف دينار حتى وصل ثمن بيضه الى عشرين دينار ايضاً(2). كما كان لهذا الحمام البريدي مطارات منتظمة "الأوكار" يشرف عليها حراس "برّاجون" للإعتناء بشؤون الحمام من تدريب وإطعام وإطلاق واستقبال وراحة(3). ويمنع البرّاج من قطع الرسالة من رجله بل يأخذه للسلطان لوجود اسرار عسكرية وغيرها حتى ولو كان السلطان نائماً فيوقظه مراعاة للأمور العاجلة(4).

وبالنسبة للرسائل التي يحملها الحمام فقد كانت خالية من البسملة وعلى ورق خفيف مؤرخه بالساعة واليوم، وتربط تحت الجناح لحمايتها من المطر، ثم تنقل في البرج الثاني لجناح حمامة أخرى وهكذا حتى ينتهي الى برج المدينة التي فيها السلطان أو الشخص المرسل اليه ليفتحها بنفسه(5).وكان من الاجراءات الاحترازية لتأمين وصول الرسائل هي كتابتها على نسختين وإرسالها مع حمامتين يفصل بينهما فارق من الزمن بما يقارب الساعة حتى إذا قُتِلت إحدى الحمامتيين بواسطة الطيور الجارحة أو وقعت في أيدي الأعداء أمكن الاعتماد على

---

(1) الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1938، ج3،ص214. وسماه الدميري: "الشيطانة، انظر الدميري، كمال الدين أبو البقاء (ت808هـ/1405م) حياة الحيوان الكبرى، دار الطباعة، القاهرة 1292هـ، جـ1، ص296. بينما وصفه القاضي الفاضل باسم "ملائكة الملوك" لامانته. انظر ابو شامة: م س، ج1، ق2، ص521. والسيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص166. وأمين الخولي: الجندية والسلم، مطبعة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة1960، ص72. بأنه يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد "اي حوالي ألف كيلو متر في الساعة" ويرى بأن هذا غير معقول وفيه مبالغة.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص39.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص184، يذكر المسافة بين مطار وآخر 4 فراسخ أي حوالي 12كم.

(4) السيوطي: ن م، ج2، ص166

(5) القلقشندي: ن م، ج1، ص119.

الحمامة الأخرى[1]. هذا ومن المعلوم بأنه كان للحمام الزاجل البريدي شأن كبير في مخابرات الأمم القديمة إلاّ أنّ المسلمين كانوا أكثر عناية به من سواهم[2]. وخاصة زمن الدولة الأتابكية أيام نور الدين محمود وبعده صلاح الدين الأيوبي نظراً لظروف الصراع مع الصليبيين[3].وبالنسبة لمحطات الحمام في فلسطين: فقد وجدها الأيوبيون إرثاً عن الزنكيين وكل ما فعله صلاح الدين أنه زاد من ربط الشام بمصر بواسطة البريد الجوي من بلبيس الى الشام والصالحية وقطياً[4] ثم الى غزة جنوب فلسطين ومنها إلى مدينة الخليل ثم الى اللد ومنها الى قاقون[5] ثم أتى جنين وصفد وبيسان واربد وطفس والصنمين[6] ودمشق. كما كان هناك خط من كل من هذه المراكز الى ماجاورها من المدن. فمن بيسان الى أذرعات[7]. كما كان الجيش الأيوبي يصطحب معه حمام الجهة التي ينوي الاتصال بها أو طلب المعونة[8] منها هذا كما استخدم الأيوبيون رموزاً خاصة لايفهمها العدو بما يسمى اليوم بالشيفرات[9]. ولم يذكر المؤرخون أية اشارة حول استعمال النار والدخان في عهد صلاح الدين أو نور الدين كإحدى وسائل الاتصال البريدي عند المغول الذين استعملوه في الشام وايران[10].

---

[1] القلقشندي. ص118-119، ويذكر المقريزي بأنه جرت العادة ألا تطلق الحمامة في الجو الممطر ولا قبل تغذيتها: المقريزي: الخطط، مطبعة الأوفست، جـ2، ص231-232.

[2] جورجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، مؤسسة خليفة للطباعة بيروت، 1967، جـ1، ص233.

[3] ابن فضل الله العمري: التعريق ، ص196، الذي يقول أن نور الدين استخدمه عام 565هـ/1169م. والظاهري: زبدة كشف الممالك ص117، ود.عطية مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، مطبعة الاعتماد، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت، ص132-136). وانظر ابن الاثير: الباهر: ص37، حول استخدام الأتابكة للحمام. والظاهري: زبدة كشف الممالك ص117. ومادة بريد: حول استخدام الاتابكة للحمام في دائرة المعارف الاسلامية، ص1933، جـ3، ص610 بقلم هارتمان، والعماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص119، وأبو شامة: م س، جـ1، ص520-521، وابن واصل: م س، جـ1، ص28.

[4] قطيا قرية مصرية قرب الفرما: الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص374.

[5] قاقون : اسم حصن قرب الرملة بفلسطين على مسافة نصف يوم من قيسارية الحموي: ن. م. ج4، ص299. بنيامين التطلي: رحلة بنيامين، المطبعة الشرقية سنة1954،ص 95.

[6] الصّنمين: قرية في أوائل حوران من أعمال دمشق، بينها وبين دمشق مرحلتان. الحموي: م س، جـ3، ص431.

[7] أذرعات: بلد في أطراف الشام تجاور أرض البلقاء، وعمّان: ن، ياقوت الحموي: ن.م.، ج1، ص130

[8] ابن الاثير: الكامل، ج11، ص452-453، يذكر عام 574هـ/1178م حين هاجم الصليبيون دمشق وارسال صلاح الدين ابن اخيه عز الدين لنجدتها فأمره باعلامه باخباره عند وصوله دمشق. انظر أبو شامة: م س، ج2، ص6 في حادثة 575هـ/ 1179م وانظر ابن شداد: النوادر، ص 141، في احداث عكا عام 586هـ/ 1190م مع الصليبيين.

[9] العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص360.

[10] صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص35، وهذا يبرز الفروق الحضارية عند المسلمين والمغول.

ويهمنا أن نشير الى دور القبائل العربية في جيش صلاح الدين الأيوبي حيث استخدمهم في الكمائن[1] للعدو الصليبي التي تختبئ وتباغت العدو وتوقع به في مناوشات محدودة تقوم بها سرية[2] أو جريدة[3] من المحاربين فقد ساعدت أحراش فلسطين الكثيفة وجبالها الوعرة على صلاحيتها للكمائن المعدة للعدو الصليبي حتى تحرق الأرض تحت قدميه فتجعله لا يشعر بالأمان بما يشبه العمل الفدائي اليوم والمغاوير[4]. كما حدث في كمين شمال عكا في 22 شوال عام 586هـ/1190م الذي سماه المؤرخون وقعة الكمين.

هذا وقد استمر صلاح الدين الايوبي في استخدام الكمائن حتى وقع صلح الرملة مع ريتشارد قلب الاسد.

ويلاحظ أن قيادة صلاح الدين الأيوبي كانت جماعية واستشارية ولم تكن فردية دكتاتورية إذ كان يساعده في التخطيط وإدارة المعارك مجلس حربي بما يشبه اليوم "أركان الجيش" المكون من صلاح الدين وإخوته خاصة العادل وأولاده الكبار "الأفضل علي و"غازي" وأولاد أخيه أمثال "تقي الدين، عمر" " وخالد شهاب الدين محمود الحارمي" وكبار الأمراء والقادة القدامى والجدد ومستشاره "القاضي الفاضل" وقاضي العسكر "بهاء الدين بن شدّاد" المؤرخ، و"قراقوش" وسيف الدين الهكاري، وغيرهم من الأمراء. فكان صلاح الدين يستشيرهم قبل بدء المعارك وعند الحصار والضرورة[5].

ويلاحظ على هذه التشكيلية الاستعانة بالأقارب كالأنظمة الملكية اليوم.

ويلاحظ أيضاً أن صلاح الدين كان يشاور أصحابه في كل المناسبات والأحداث الخطيرة ويأخذ برأي الأكثرية حفاظاً على مصالح المسلمين وحرصاً على احترام رأي امرائه.

---

(1) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص294، ابن شداد: النوادر ص101، ابن الأثير: الكامل، ج11، ص303-31، وأبو شامة م س، جـ2، ص141، وابن واصل :م س، جـ2، ص294.

(2) السرية: مجموعة من العساكر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت429هـ1036م) فقه اللغة وسر العربية مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1959م، ص329.

(3) الجريدة: قلة من العساكر أقل من السرية، جردت من سائرها ن م، ن ص.

(4) ابن شداد: النوادر: ص150، العماد: ن م، ص448، وأبو شامة: ن م،ج1، ص18. ذكر أن عدد الكمين 400 فارس نقلاً عن البرق الشامي.

(5) ابن شداد:ن م. ص 114، 126، 131، 203، 204. حيث يروي ما كان يحدث في جلسات المجلس الحربي لأنه كا عضواً فيه وانظر : العماد: ن م ص322-324، 393-394، 413. وأبو شامة: ن م: ج2، ص146.

ثامناً : السياسة الخارجية لملوك أيوب

أولاً: مع الخلافة العباسية:

لقد توطدت العلاقة بينهما حين أسقط صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية في مصر عام 567هـ/1171م وإعلان الخطبة للخليفة العباسي، الأمر الذي دفع الخلافة العباسية إلى إرسال الخلع والتشريعات لصلاح الدين الأيوبي احتفالاً بعودة الوحدة للعالم الاسلامي بعد انقسامه زهاء قرنين من الزمان من قيام الخلافة الفاطمية 358-567هـ/ 969-1171م[1] فما كان من صلاح الدين إلا إكرام رسل الخليفة العباسي لتأكيد ولائه الدائم للخلافة العباسية وكسب الشرعية في كل الأعمال التي يقوم بها، ثم أتبعها بخطوة راسخة من العلاقات باقتلاعه جذور التشيع من مصر. كما حرص خلفاؤه على إعلان تبعيتهم الاسمية والروحية للخلافة العباسية والاعلان دائماً عن الولاء له رغم ضعفها وانحلالها، وذلك لصبغ حكمهم بالصبغة الشرعية كما فعل الابن الأكبر لصلاح الدين الأفضل[2] صاحب دمشق بعد وفاة ابيه 589هـ/1193م إذ أرسلَ ارسال هديةً للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) الصلبوت الذهبي "الصليب" الذي غنمه صلاح الدين في معركة حطين والذي يزن عشرين رطلاً بالاضافة للتحف الجميلة الأخرى[3].

وكذلك فعل الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب[4] والسلطان العادل الأيوبي، بعد سيطرته على مصر والشام 599هـ/1202م. حين ارسل الهدايا للخليفة الناصر لدين الله[5].

(1) ابن الأثير: الكامل، ج11، ص368-371، البنداري: سنا البرق الشامي، جـ1، ص115-117، ابن واصل: م س، ج1، ص200، المقريزي: السلوك ج1، ص47.

(2) ارسل رسالتين: من انشاء العماد الكاتب للخليفة العباسي ذكرهما ابن واصل: ن م، ج3، ص5-8.

(3) أبو شامة: م س، ج2، ص225، العماد الاصفهاني: م س، ص65، وابن واصل: ن م، ج3، ص8، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8،ص435.

(4) ابن واصل: ن م، ج3، ص9.

(5) ابن واصل: ن م، ج3، ص206، أبو شامة: ن م، ص33، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تارسخ العصور الوسطى، ص80. وانظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج8، ص534، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ج5، ق1، ص63-65، وأبو الفداء: المختصر: ج3، ص108-109، ابن ايبك: كنز الدرر، ج7،ص166.

وهكذا يتضح لنا حرص الأيوبيين علـى احترام الخليفة العباسي لإضفاء الشرعية علـى حكمهم. لمكانة الخلافة العباسية في نفوس عامة المسلمين في بلاد الشام بصفـة الخليفة العباسي إماماً للمسلمين ورمزاً للوحدة. وذلك على الرغم من ضعفها وعدم قدرتها على التـأثير فـي سير الحوادث في التّصدّي للصليبيين[1].

وتمسك حكام بني أيوب بهذه العلاقة حتى في أيام الصراع الداخلي بينهم كما حدث بين المعظم واخويه الكامل والأشرف عام 622هـ/ 1225م[2]. لأنهم كانوا يرون في الخلافة العباسية الملاذ الأخير لهم وقت الأزمات كما حصل مع ابن الناصر داوود وعمه الكامل عام 633هـ/ 1235م حينما لجأ ابن الناصر مستغيثاً بالخليفة العباسي المستنصر بالله، فذهب ومعه الهدايا، فخلع عليه وعلى أصحابه بعد أن مدحه بقصيدة:

فأنت إمام العدل والعرف الذي ... به شرفت أنسابـــه ومناصبه

ويأتيك غيري من بلادٍ قريبـــةٍ ... له الأمن فيهـــا صاحب لايجانبه

فيلقى دنواً منك لم ألـق مثلـه ... وَيحظى ولا أحِظى بما أنا طالبه[3]

وعاد الى دمشق مع رسول الخليفة لعمه العادل، فقبل شفاعة الخلافـة فيـه[4] وهكذا لعبت الخلافة العباسية دوراً في رأب الصدع وتسوية الخلافات بين ملوك بني أيـوب فـي الوقت الذي دهم فيه خطر المغـول مـن الشـرق عـام 635هـ/1237م[5]، لأنها كانت أكثر إحساساً بخطر المغول الذين هددّوا عاصمة الخلافة العباسية مع اقترابهم من بغداد فـي الوقت الذي اشتدّ فيه الصراع بين مماليك مصر وبقايا الأيوّبية في بلاد الشام الأمر الذي دفع الخليفة العباسي الأخير المستعصم باللـه للسعي فـي توحيد جهود المسلمين عندما أرسل رسالة الـى النـاصر يوسف

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص204.

(2) سبط ابن الجوزي: م س، ج8، ص634، ابن تغري بردي: م س، ج6، ص260- 261، أبو شامة: م س: ص147-148، ابن كثير: م س، ج13، ص112. ابن ايبك: م س، ج7، ص280-281.

(3) نص القصيدة في تاريخ ابن الفرات، ج6، لوحة 333-336، مخطوط ابن واصل: م س، ج5، ص102-106.

(4) ابن واصل: ن م، ج5، ص110-114، ويذكر ابن واصل بأنه رافق الناصر داوود الى الكرك بعد خروجه من دمشق سنة 633هـ ومعه الأعلام السود التي جعلها رنكة:

والرنك: جمع رنوك: لفظ فارسي معرب معناه اللون، ومعناه الشعار أو العلامة التي يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره وينقشها على أبواب بيوته وممتلكاته، كما يضعها على سروج خيوله وسيوفه ابن واصل: ن م، جـ5، ص112.

(5) ابن واصل: ن م، ج5، ص152، ابن كثير: ن م، ج3، ص148. والمقريزي: السلوك، ج1، ص 257-258.

الأيوبي صاحب حلب يأمره فيها لمصالحة المعز أيبك التركماني في مصر وأن يتفقا على حرب التتار وذلك عام 651هـ/ 1253م و 654هـ/1256م، 656هـ/ 1258م[1] حين طلب من المعين صاحب الكرك والناصر داوود ارسال العساكر لمواجهة المغول، فسار الناصر داوود نحو بغداد ماراً بدمشق حيث بلغه آنذاك سقوط بغداد بأيدي المغول[2].

وهكذا ظلت الخلافة العباسية حتى آخر لحظة من عمرها تنهض بمسؤولياتها وتعمل قدر طاقتها على توحيد جهود المسلمين لمواجهة الأخطار الخارجية الصليبية والمغولية.

علاقة الأيوبيين مع السلاجقة:

لقد فرض الوضع الجغرافي لدولة سلاجقة الروم بجواره للدولة الايوبية في شمال الشام وأعالي الجزيرة علاقات متشابكة بين الدولتين، تميّزت بالجذب والشدّ حسب مصالح الطرفين، حيث ساد الود حيناً والمنافسة والعداء حيناً آخر كما حدث زمن صلاح الدين الأيوبي من علاقات حسنة[3]، بينما ساءت زمن أخيه العادل عندما استولى على ممتلكات ابن اخيه الأفضل ابن صلاح الدين في شمالي الجزيرة، مما دفع الأفضل سنة 597هـ/1203م الى انحيازه لسطان سلاجقة الروم وخطب له ببلاده نكاية في عمه العادل، مما دفع السلاجقة الى إرسال الخلع للأفضل وضرب السكة باسمه[4].

كما احتفظ الملك الظاهر في حلب بعلاقات حسن الجوار مع دولة السلاجقة الروم لتداخل الحدود بينها ولعدم قدرته على مجابهة السلاجقة ثم ساءت العلاقات بينهما لطمع سلطان لسلاجقة كيكاوس في قلاع حلب بل في حلب نفسها عام 616هـ/ 1118م عندما انتصر عليه الأشرف بن العادل وفشلت حملته على حلب[5].ولكن العلاقات عادت الى طبيعتها بعد موت كيكاوس سنة

---

(1) بيبرس: التحفة الملوكية، ورقة 7أ، وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص55-56. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص331،398، وابو الفدا:م س، جـ3، ص177.

(2) أبو الفدا: المختصر، ج3، ص195، وابن تغري بردي:م س، ج7، ص25، وسعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص81-82. وابن كثير: م س، جـ13، ص184.

(3) ابن الأثير: الكامل: ج2، ص 761، 201.

(4) ن.م. ج2، ص182،183، ابن واصل: م س، ج3، ص 150-153، ابن كثير:ن م، ج13، ص41.

(5) ابن الأثير:ن م، ج12/ ص349، وابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص183، ابن واصل: م س، ج3،ص286.

616هـ/ 1219م وتولّي أخيه العرش[1] "علاء الدين كيفياذ بن كيخسر" و"616-634هـ/1219-1236م" إذ ارسل الأشرف واتفق معه بينما ساءت العلاقات بين السلطان الكامل الايوبي واخيه الملك الأشرف مع سلاجقة الروم وحدثت بينهما حروب استمرت من 631-633هـ/1234-1236م حتى استعاد الرها وحران من السلاجقة[2].

وهكذا استمرت العلاقة صعوداً وهبوطاً حسب المصالح المشتركة والظروف السياسية التي فرضت نفسها على المنطقة.

علاقة الأيوبيين مع الدولة الخوارزمية:

لقد أدّى الصراع بين ملوك بني ايوب الى استنجاد بعضهم بالخوارزمية الذين لم يعرفوا الإخلاص والولاء إلاّ لمن يدفع أكثر كما حدث عام 637هـ/1239م بعد اعتقال الصالح ايوب بالكرك[3]. وكذلك عام 640هـ/1242م[4] وعام 644هـ/ 1246م[5] ولكن الدور الإيجابي الذي يستحق الذكر في بلاد الشام حينما استجابوا لدعوة الصالح ايوب لاسترداد بيت المقدس عام 642هـ/1244م من الصليبيين[6].

وهكذا نرى دور الخوارزمية والسلاجقة المزدوج والمتناقض في الوقت نفسه في بلاد الشام، حيث نشروا الخراب والدمار في بلاد الشام والجزيرة واضعفوا الحياة الاقتصادية

---

(1) ابن العديم: م س، ج3، ص188، ابن واصل: م س: ج4، ص30/ ج5، ص184، المقريزي، السلوك، ج1، ص221، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: مخطوط ج6، لوحة 434-435، مخطوط. وابن كثير:م س، ج13، ص146، وابن الأثير: الكامل، ج12، ص489.

(2) انظر: ابن واصل: ن م، ج5، ص34،74،76،77،78،82،98،99،109،110، المقريزي: ن م: ج1، ص247-248، وابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص216-218، وابن الفرات: ن م ، ج6، لوحة 257، لوحة 260-261، ابو الفداء:م س، ج3، ص154-155، وابن تغري بردي: م س، ج6، ص 282-283. وابن كثير: ن م، ج13، ص144. وابن ايبك: كنز الدرر: ج7، ص315-316.

(3) انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج5، ص178-179، 205-506، وسبط ابن الجوزي:م س، ج8، ص704، ابو الفداء: المختصر ، ج3، ص162، المقريزي: السلوك، ج1، ص269،280.

(4) ابن العديم: ن م، ج3، ص262-265، ابن واصل: ن م. ص309-311. وانظر أبو الفداء: ن م، ج3، ص171، سبط ابن الجوزي: ن م: ج8، ص738.

(5) ابن واصل: ن م: ج5، ص313-314.

(6) ن.م.؛ ص282-287.

والعمران قبيل الغزو المغولي، من ناحية، بينما ساهموا في استرداد بيت المقدس من ناحية أخرى.

ثانياً :علاقة الأيوبيين مع القوى غير الاسلامية:

كملكة ارمينة الصغرى: غربي الفرات وشماله، لقد ساهم ملوكهم في مساعدة الصليبيين في تأسيس أول امارة صليبية في الرها 491هـ/1098م[1]. وووقفوا في الجهة المعادية للمسلمين واستمروا في عدائهم أيام الحملات الصليبية على بلاد الشام وخاصة زمن ملكهم ليو الثاني[2]. حيث دخل في صراع عسكري مع ملوك الأيوبيين وخاصة زمن الملك الظاهر وعمه العادل[3].

أماً مع الامبراطورية الرومانية المقدسة: فقد أصبحت العلاقات حسنة بعد أخذ الامبراطور فردريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية "بيت المقدس" عن طريق الصلح من السلطان الكامل الأيوبي عام 626هـ/1229م واتسمت علاقة فردريك الثاني بالود والصداقة بصورة عامة مع المسلمين[4].

ويرى بعض المؤرخين أن فردريك الثاني لم يُقِمْ أيّ اعتبار للبابوية ولا لمصالح الصليبية في بلاد الشام، حتّى "بيت المقدس" لم يكن من أهدافه إلاّ لحفظ مكانته في الغرب الأوروبي وإبطال أي حجة تتذرع بها البابوية ضده[5]. وبعد مدة عرض على السلطان الكامل إعادة بيت المقدس له[6]. ويرى البعض بأن ظروف الكامل الأيوبي الصعبة من حيث المنازعات الداخلية

---

(1) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينيا في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص234-237.

(2) ابن واصل: م س، ج3، ص 140،153،154-155، ابو الفدا: ن م، ج3، ص105، والمقريزي: السلوك، ج1، ص162-163، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص946.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص156-158، وابن واصل:م س، ج3، ص170-171، وابن الأثير: الكامل ، ج2، ص238-239، ابن تغري بردي،م س، ج6، ص190.

(4) ابن واصل:ن م، ج4، ص234،242،244-245. والمقريزي: السلوك ج1، ص231-232. العليمي الحنبلي: م س، ج1، ص405-406، سبط ابن الجوزي: م س، ج8، ص655-656.

(5) المقريزي:ن م، ج1، ص230، حيث ذكر رسالة فردريك لسفير الكامل فخر الدين الشيخ يعتذر فيه للكامل ويقول:"بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك فما له من غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج".

(6) ابن الفرات: م س، مخطوط، ج6، ورقة 48، مخطوط. وابن واصل، ن م، جـ4، ص246.

الأيوبية مع السلاجقة الروم والخوارزمية قد حالت بينه وبين استرداد القدس كيلا يفتح جبهة جديدة مع الصليبيين في بلاد الشام ومع البابوية والغرب الأوروبي[1].

مع التزامه بموجب اتفاقية يافا مع الكامل بعدم المشاركة والمساعدةفي أيّة حملة صليبية ضد أراض الدولة الأيوبية. وقد استمرت العلاقات المتينة بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان الكامل 635هـ/1237م أيام ابنه العادل الثاني[2]. وكذلك زمن الصالح أيّوب الذي استولى على مصر والشام فتراسل بالود والصداقة مع فردريك الثاني638هـ/1240م[3]. كما هو وضع الأمة العربية حالياً وخاصة السلطة الفلسطينية مع الصهاينة. واستمرت العلاقة الحسنة بين الامبراطورية الرومانية المقدسة ودولة المماليك البحرية زمن ما نفريد ابن فردريك عام 659هـ/1261م[4].

علاقة الأيوبيين مع المغول:

من المؤسف حقاً أن الناصر يوسف ملك بلاد الشام لم يكن يدرك أبعاد الخطر المغولي وطبيعة المرحلة القادمة[5] فأرسل ابنه العزيز محمد إلى هولاكو سنة 655هـ/ 1257م بالهدايا طالباً منه نجدةً لانتزاع مصر من أيدي المماليك[6].ونحن نرى بأن ظروفه الصعبة في نزاعه مع مماليك مصر ومع المغيث عمر صاحب الكرك ومع ركن الدين بيبرس قائد المماليك البحرية الفارين الى الشام سنة652هـ/ 1254م هي التي دفعته إلى ذلك ولكن لا نعتبر ذلك مبرراً للاستعانة بالعدو المغولي كنوع من الأمانة وحب الذات انطلاقاً من المصالح الشخصية.

---

(1) د. علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكة المكرمة، ط1، 1408هـ/1988م، ص363.

(2) ابن الفرات: م س، مخطوط، جـ6، ورقة 48، مخطوط. وابن واصل:م س، جـ4، ص246.

(3) رنيسيمان: الحروب الصليبية، جـ3، ص382.

(4) يذكر ابن واصل انه ذهب في سفارة من قبل السلطان الظاهر بيبرس الى الملك مانفريد ابن فردريك. ابن واصل: ن م، جـ4، ص248.

(5) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، مجلد2، جـ1، ص305، اليونيني: ذيل مرآة لزمان، جـ، ص145، وابن تغري بردي: م س، جـ7، ص56.

(6) المقريزي: السلوك، جـ1، ص410-411.

ومهما يكن فان تخاذل ملوك وحكام بلاد الشرق الأدنى وتفرق كلمتهم قبل الغزو المغولي هو الذي مهد لانتصارات المغول[1]. وتجدر بنا الإشارة إلى وعي ركن الدير بيبرس قائد طائفة المماليك البحرية الهاربة لبلاد الشام بإدراكه خطر المغول حين طلب من الناصر يوسف سنة657هـ/1259م أن يمده باربعة آلاف فارس للسير الى شاطئ الفرات لحراسته ومنع المغول من اقامة الجسور للعبور الى بلاد الشام، ولكن للأسف رفض السلطان الناصر يوسف هذا الطلب فراسل السلطان سيف الدين قطز في مصر وتناسى الخلافات معه وسار الى مصر وانضم إليه حيث لعب دوراً حاسماً في صد المغول بعد معركة عين جالوت[2]. كما تجدر الإشارة إلى حقيقة هامة في صراع المسلمين مع أعدائهم الصليبيين والمغول ومحاولتهم إقامة تحالف للقضاء نهائياً على المسلمين في بلاد الشام الذي لو نجح لكانت الكارثة الكبرى ولما تحقق النصر للمسلمين في عين جالوت حيث سيهددون مؤخرة جيش المماليك في فلسطين فكانت رحمة الله بالمسلمين المجاهدين من فشل جهود الغرب الأوروبي في إقامة هذا التحالف الصليبي المغولي باستثناء الدور الذي لعبه هيثوم ملك أرمينيا الصغرى الذي شارك في هجوم المغول على بلاد الشام وشاركه بوهيمند السادس صاحب انطاكية بينما تقاعس بقية الصليبيين عن اجابة هيثوم الى طلبه[3].

---

(1) قال اليونيني:"والله ما خرجت البلاد عن ايدينا الا بتخاذل بعضنا عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى"اليونينين ن م، جـ1، ص344.

(2) ابن تغري بردي: م س. جـ7، ص100-101.

(3) لمزيد من المعلومات: انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص1048-1049، حسن حبشي: الشرق العربي بين شقي الرحى، ص36-37، جوانفيل: القديس لويس، ص84،87.

تاسعاً : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية الصليبية

مقدمة:

لقد عرف العرب والمسلمون أصول وقواعد الدبلوماسية ولم يعتمدوا على السيف فقط. كما بدا للبعض من المؤرخين الغربيين والمستشرقين الذين ألصقوا بالاسلام تهماً ومزاعم باطلة، فالقرآن الكريم وضع اسس الدبلوماسية في العلاقات الخارجية للمسلمين سلماً أو حرباً.

وقد وضحت الدبلوماسية الاسلامية للعالم في أدق مرحلة تاريخية من حياتها عندما تعرضت لعدوان الصليبيين[1] خلال قرنين من الزمان وبدا للكثير أن العلاقة كانت بين المسلمين والصليبيين عدائية ومعارك مستمرة لذا مازالت العلاقات الدبلوماسية العربية الاسلامية بحاجة لمزيد من الدراسة والبحث لتوضيح النشاط الدبلوماسي الاسلامي من حيث إيجاد الحلول للمشاكل مع أعدائهم قبل ايقاف القتال وتبادل الأسرى.

وعلى الباحث أن يميز في دراسته بين التاريخ السياسي العام والتاريخ الدبلوماسي وعليه أن يرجع الى الوثائق الدبلوماسية، وديوان الانشاء، وقواعد الشريعة الاسلامية التي تتعلق بالدبلوماسية والعلاقات السلمية، العلاقات الاقتصادية التي اسهمت في قيام تلك العلاقات، والدبلوماسية مصطلح قديم يرجع الى أصول كلاسيكية يونانية[2] ثم انتقل منهم الى الرومان ثم الى اللغات الأوروبية الحديثة كالفرنسية والانجليزية كما انتقل الى العربية وغيرها من اللغات. ومهما قيل عنها فإنها علاقات سلمية رسمية بين الدول تشمل عناصر ومقومات ومهام أساسية وتحتاج الى مهارة وحذق في إدارة العلاقات الدولية وإجراء المفاوضات.

---

(1) حسب تعريف المؤرخين الغربيين أو (الفرنجة) حسب تعريف المؤرخين العرب والمسلمين وعلى وجه التحديد من سنة 491-690هـ/1097-1291م وهم الأوروبيون الغربيون الذين استوطنوا الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

(2) د. عمر كمال توفيق، دراسة تحليلية زثائقية في التاريخ الدبلوماسي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1986، ص17: اشتقت من الفعل اليوناني diploo دبلو ومعناه: يطوي أو يثني، ومنه جاء اسم تلك الوثيقة أو المكاتبة الرسمية التي تطوى أو تثنى والتي عرفت باسم دبلوما diploma التي كان يبعث بها الحكام وأصحاب السلطات بعضهم الى بعض في علاقاتهم الرسمية، وكانت تخول لحاملها امتيازات ومعاملة خاصة اثناء سفره لأداء المهمة الملقاة على عاتقه، وقد استخدم اللفظ بهذا المعنى السياسي أو المشرع الروماني شيشرون، وفي العصر الحديث اعتمد على معناها في معجم اكسفورد أي إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات بواسطة السفراء أو المبعوثين، وأن الدبلومسية هي عمل الدبلوماسي وفنه في ادارة العلاقات انظر كلمة diplomacy في The Oxford English Dictionary, by Lewis and Short.

وقد تدرجت العلاقات الدبلوماسية منذ التاريخ القديم فعرفتها دول الشرق الأدنى القديم إبان ازدهار حضاراتها القديمة، ودول الإغريق والرومان، وفي العصور الوسطى انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين: القسم الغربي الذي اجتاحته القبائل الجرمانية وانشأت به عدداً من الممالك والامارات المستقلة، وسيطرت عليه الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابوية، وساد فيه النظام الإقطاعي.

والقسم الشرقي الذي عرف ببلاد الروم أو الدولة البيزنطية، وساد فيه المذهب الارثوذكسي والثقافة الهلينيستية، وكان لها نشاط واضح في استخدام الدبلوماسية في علاقاتها الخارجية، أما المسلمون فقد اعتمدوا على وسيلتين اساسيتين هما الجهاد والعلاقات السلمية أو الدبلوماسية. وقد ورد في القرآن الكريم ما يسمح للانسان باختيار دينه قال تعالى:"لا إكراه في الدين"[1] و "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" "وجادلهم بالتي هي أحسن"[2] كما ورد :"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"[3] و "قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين"[4] و "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله...."[5] وهنالك أيضاً "ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة"[6].

هذا وقد اختلف فقهاء المسلمين في أصل علاقة الدولة الاسلامية بالدول غير الاسلامية ولكن من المؤكد أن المسلمين عرفوا العلاقات الدبلوماسية في سياستهم الخارجية منذ فترة مبكرة من تاريخهم، حيث اهتدوا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة للدخول في هذه العلاقات وعقد الصلح والمعاهدات وفقاً لما تسمح به الشريعة الاسلامية زمن الرسول (ص)[7] والخلفاء الراشدين والأموين والعباسين وفقاً لما اقتضته الظروف حيث كان هناك دار الاسلام وهي البلاد

---

(1) سورة البقرة، آية 256

(2) سورة النحل، آية 125.

(3) سورة العنكبوت، آية 46.

(4) سورة البقرة، آية 190

(5) سورة الانفال، آية 61.

(6) سورة البقرة، آية 208

(7) انظر ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1383هـ/1963م، ج3، ص781، حيث عقد الرسول صلح الحديبية سنة 6هـ لمدة عشر سنين مع مشركي قريش و لم تدم سوى سنتين لأن أهل مكة نقضوا العهد.

الاسلامية ودار الحرب وهي البلاد غير الاسلامية التي لم يغلب الاسلام على أهلها وزاد عليها فيما بعد دار العهد أو الصلح[1] فقامت علاقات دبلوماسية بين دار الاسلام ودار الحرب.

مصطلح المعاهدة والتعريف به

تحتل المعاهدات مكانة خاصة بين الوثائق الدبلوماسية، لأنها تحدد أسس التعامل السلمي بين الدول، أو لكونها المرحلة النهائية لجهود السفراء في مفاوضاتهم مع الطرف الآخر، لذا تعد المعاهدات مصدراً اساسياً لدراسة التاريخ الدبلوماسي. وبالنسبة للمسلمين كانت هناك شروط شرعية بصياغة معينة.

مقارنة بين المعاهدة والاتفاقية:

يطلق مصطلح المعاهدة علىالعقود الدولية التي لها أهمية خاصة بالنسبة لأهدافها أو لموضوعها أو لمكانة الدول المشتركة بها في حين أن الاتفاقية تتضمن تعهدات ثانوية محدودة، قد تخص مسائل ثقافية أو تجارية أو اقتصادية.

لذا يصعب التمييز بينهما في بعض الأحيان[2].وقد عرف المسلمون نظام العهود والمواثيق والتعامل مع المجتمعات السياسية غير الاسلامية منذ فجر الإسلام، من الناحية الشرعية واللغوية باستعمالهم كلمة عهد وما يُشْتَق منها، وجاءت في المعاجم العربية كلمات المعاهدة أو التعاهد، والتعهد والاعتهاد كأمر واحد، وهو إحداث العهد بما عهدته.

والعهد هو كل ماعاهد الله عليه وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد. والمعاهد، من كان بينك وبينه عهد، وأُطلق غالباً على أهل الذمة، وقد يطلق على الكفار إذا عقد معهم صلح لترك الحرب[3].

---

(1) الشافعي: الامام ابو عبد الله محمد بن أدريس: الأم، ط1، القاهرة 1322. ص103-104.

(2) فاضل زكي: الدبلوماسية في النظرية والتطبيق، ص214-215 أو (عمر كمال، م س، ص189).

(3) السرخسي: شرح السير الكبير للشيباني، ترجمة صلاح الدين المنجد وعبد العزيز حسن، ج5، القاهرة 1971-1972، باب 60، ص1689. وانظر مجيد خوري: الحرب والسلم في مشرعة الاسلام، بيروت، 1973، ص271-273. وانظر مادة عهد لسان العرب لابن منظور.

والعهد في القرآن الكريم أوسع من معناه في القانون الغربي "وأوفوا بعهد اللـه اذا عاهدتم"[1] وقوله تعالى:"إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظهروا عليكم احداً فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم أن الله يحب المتقين"[2].

وقد سمّىَ المسلمون المعاهدات في المجتمعات السياسية الاسلامية باسم عقود الصلح ومع الدول غير الاسلامية:" المهادنة" و"الموادعة" أو "المسالمة" أو "المقاضاة" أو "المواصفة". و"المهادنة" في اللغة هي المصالحة، والاسم "هدنة"، و"الموادعة" لأن بمقتضاها تحل الراحة من تعب الحرب ومسؤولياته، والمسالمة لأن بتحقيقها يسلم كل من أهل الجبهتين من الآخر، و"المقاضاة" بمعنى الفصل والحكم لأن الاتفاقية تصف ما يوقع عليه الصالح وفي الشرع[3]، فالمهادنة وما يراد منها عبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر أو بين نائبيهما[4] وقد شهد النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي اضطراباً واضمحلالاً في قوى الفرنجة بالشام، نتيجة لتزايد الصراع الداخلي بإماراتهم والذي شمل الملوك والامراء الإقطاعين والجماعتين الداوية والاسبتاريّة والقومينات التجارية في الشام، ناهيك عن انصراف دول الغرب عن القضية الصليبية لتهتم بمصالحها المحلية، فانتهت تلك الفترة بسقوط آخر المعاقل الصليبية في الشام 1291م.

وهكذا نرى بأنّ للمعاهدات مكانة خاصة بين الوثائق الدبلوماسية لأنها تحدد أسس التعامل السملي بين الدول وأنها المرحلة النهائية لجهود السفراء في مفاوضاتهم، لذا تعتبر المعاهدات مصدر أساسي لدراسة التاريخ الدبلوماسي، وبالنسبة للمسلمين في هذه الفترة، فقد برز السلطان بيبرس كبطل قومي في جمع كلمة المسلمين بعد صلاح الدين الأيوبي لتخليص البلاد الشامية من الحكم الأجنبي خاصة بعد انتصار المماليك على المغول في موقعة عين جالوت عام 658هـ/1260م. واستمراره في توجيه أشد الضربات للصليبيين لاسترداد البلدان الاسلامية

---

(1) سورة النحل، آية 91.

(2) سورة التوبة، آية 4.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، ج14،ص2-3، السرخسي،م س، ج5، ص689.

(4) القلقشندي: ن م، ص3.

المحصنة من قبل الداوية والاسبتارية، وقد سار على خطته بحماس زائد في رفع راية الاسلام السلطان قلاوون، ومن الملاحظ أن تعاهد المسلمين مع أطراف متعددة من الفرنجة في الشام ودول الغرب الأوروبي لافتقارهم الى تمركز السلطة بينهم. لذا نجد المسلمين يعقدون معاهدات مع جماعة الاسبتارية في حصن الأكراد والمرقب في زمن السلطان بيبرس 4 رمضان 665هـ/ مايو 1267م وتاره أخرى مع الإسبتارية المقيمين في قلعة عكا. كما عاهدوا ملكة الفرنجة في بيروت[1] زمن بيبرس 6 رمضان 667هـ/ مايو 1269م. وعاهدوا الفرنجة في عكا زمن السلطان قلاوون (5 ربيع الأول 682هـ/ 5 مايو 1283م) هذا وقد عقد المسلمون معاهدات مع المسؤولين في الغرب الأوروبي مثل ملك أرجون زمن قلاوون (689هـ/1291م) وحكام جنوة المهتمين بالشرق الأدنى الاسلامي سياسياً واقتصادياً ودينياًزمن قلاوون أيضاً، الأمر الذي دفعهم لعقد معاهدات دبلوماسية مع المسلمين حيث كانت جنوة إحدى الوحدات السياسية الرئيسية التي انقسمت اليها شبه الجزيرة الايطالية في العصور الوسطى، والتي أصبحت بفضل موقعها الاستراتيجي من أعظم القوى البحرية التجارية في ايطاليا. وكان لها مستعمرات ومراكز في الشرق الأدنى والبحر الأسود، مما أثار غيرة منافستيها البندقية وبيزا، وعرفها المسلمون باسم مملكة الجنويين[2].

وكان النظام السياسي في جنوة يقوم على أساس نظام القومون[3]. وبعد ازدياد التنافس بين العائلات النبيلة في القومون، اتفق النبلاء على ايجاد وظيفة الحاكم podesta (بودستا) بشرط أن يكون غريباً عن المدينة ومن أصل نبيل مهمته حفظ السلام بداخل القومون. وكانت حكومة جنوة مثل البندقية يسيطر عليها التجار الأثرياء الذين أصبحوا يحكمون عن طريق قنصلين اثنين، ومع ازدياد قوة الطبقة البورجوازية المتوسطة، ظهرت وظيفة قبطان الشعب capitano de

(1) عمر كمال: م.س. ص257، 259، 280، وأورد نص المعاهدة في ص282-285.

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ج،3، ص235، ج5، 405، 406.

(3) تحريف لكلمة commune وأساسه حلف أو اتحاد من التجار والصناع وغيرهم أقاموه في عدد من المدن لضمان حقوقهم المدنية في وجه سلطة امراء الإقطاع في أوروبا في العصور الوسطى، ومع تطور هذا النظام أصبح يدل على المدن المستقلة التي تتمتع بحقوقها السياسية والاقتصادية، وهكذا تحول القومون الى وحدة سياسية مستقلة لها نظمها وجهازها الاداري برئاسة كبار المسؤولين الذين يحكمون بالنيابة عن مواطني القومون، د. عمر كمال: م س، ص280-281.

populo (ممثل العناصر البورجوازية غير النبلاء) وهو المسؤول أمام النقابات بداخل المدينة، وكان لكل من البودستا والقبطان مجلسه الاستشاري الخاص.

العلاقات السياسية مع الصليبيين:

لقد رأيت في البداية المقارنة بين سياسة الصليبيين والأيوبين وقد قارن المؤرخ ستيفن رنسنمان بين وحشية الصليبيين في مذابحهم في القدس عندما دخلوها، ورحمة المسلمين وتسامحهم عندما حرروها بقيادة صلاح الدين الأيوبي فلم يُخْرج المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة وبقوا في بيت المقدس مقابل دفع الجزية والفدية المقررة عليهم، ولم تُهْدم كنيسة القيامة، وأرسل امبراطور القسطنطينية اسحاق انجيلوس سفارة لتهنئة صلاح الدين، وطلب منه إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، فاستجاب صلاح الدين لطلبه[1]، واستمر الحجاج المسيحيون يتوافدون عليها إبان عهد صلاح الدين الايوبي[2].

لذا فقد تمثلت هذه العلاقات في عقود الصلح والمراسلات السياسية والسماح للرعايا النصارى بزيارة بيت المقدس وللمسلمين بزيارة انجلترا ومن أمثلة هذا صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا 588هـ/1192م[3]. وصلح عكا بين السلطان المنصور قلاوون وحكام عكا من الفرنج سنة 682هـ/1285م[4]. والمعاهدة التي عقدت بن الملك الأشرف صلاح الدين وخايمي الثاني صاحب برشلونة من بلاد الأندلس سنة 692هـ/1293م وتضمنت حرية التنقل بين بلاد المسلمين والأندلس[5]. وبالنسبة لوجود القناصل كممثلين للدول الأجنبية لرعاية شؤون الحجاج في القدس سنة 620هـ/1223م عندما أصدر البابا هونريوس الثالث مرسوماً باعتراف الكنيسة الكاثوليكية بالرهبان الفرنيسكان في القدس، ليسند اليهم حق رعاية الأماكن المقدسة فوق جبل صهيون[6]. بعد الاتفاق مع الايوبين سنة 643هـ/1245م على رعاية

---

(1) رنسمان: م س، ص281-282. ج2، ص752-756.

(2) العماد الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، وزارة الثقافة والارشاد القومي - القاهرة، ص134.

(3) صلح الرملة في شعبان 588هـ/12 ايلوم (سبتمبر) 1192م، أمر فيه صلاح الدين بالمناداة بما يلي: "الا أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل"، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص234،235.

(4) صلح عكا: سمح فيه للنصارى بحرية الحج الى بيت المقدس وزيارة كنيسة الناصرة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص73.

(5) القلقشيدي، ن م، ج14، ص8.

(6) دراج، أحمد، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ص22

هذه الأماكن[1]، وزاد نفوذ الفرنسيسكان السياسي زمن المماليك حيث أصبح لهم قنصل يمثلهم مع ترجمان[2].

ويلاحظ أن تسمية السلطان صلاح الدين الأيوبي للملك الصليبي بولدوين الرابع "بحافظ بيت المقدس" و"ليس بملك بيت المقدس"، إنما يدلّ علّى تحفظ السملمين لأهمية هذه المدينة بالنسبة لهم وعدم استعدادهم للتنازل عن حقهم في حكمها[3].

ومن الصيغ التي استخدمت في رسم مكاتبة بابا (باب) روما[4]:

"ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية، الباب الجليل، القديسي، الروحاني ، الخاشع، العامل بابا رومية، عظيم الملة المسيحية" قدوة الطائفة العيسوية، ملك ملوك النصرانية، حافظ الجسور والخلجان، ملاذ البطاركة والاساقفة والقسوس والرهبان، تالي الأناجيل، معرف طائفته التحريم والتحليل، صديق الملوك والسلاطين".

أما صيغ رسم مكاتبة ملوك الفرنجة فكانت[5]:

"... الملك الأجل الأعز الكبير المؤيد الحظير، العالم العامل الظهير العادل الأوحد المجتبي، شمس الملة النصرانية، جلال الطائفة الصليبية، عضد الأمة الفرنجية، فخر ابناء المعمودية، عمدة المماليك ضابط العساكر المسيحية ... ثبّت الله نِعَمِه وعَزّزَ مَوارد جوده...".

ومن الرسوم الواردة المستعملة في مخاطبة ملوك الفرنج:

"الحضرة السامية، الملك الجليل الهام، الأسد الباسل الضرغام الغضنفر... بطل النصرانية، عماد بني المعمودية، حامل راية المسيحية، وارث التيجان، شبيه يوحنا المعمدان محب المسلمين صديق الملوك والسلاطين"، وبالنسبة لرسم مكاتبة الملكة الافرنجية[6]:

---

(1) ن م، ص25، شافعي، أهل الذمة في مصر، ص268

(2) ن م، ص38.

(3) القلقشندي: م س، جـ7، ص115-116. ذكر النص: "خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالسعد الصاعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد".

(4) ن م، ج6، ص173، ج8، ص43.

(5) ن.م. ، ج6، ص176،ج7،ص118.

(6) ن.م.، ج6، ص174،ج14، ص40.

"الملكة الجليلة المُكَرمة المُبَجلة الموقرة المُفخّمة المُعزّزة فلانة، العاملة في ملتها العادلة في مملكتها، كبيرة دين النصرانية، نصيرة الملة العيسويّة حامية الثّغور، صديقة الملوك والسلاطين".

وأما رسم مكاتبة النّواب والقناصل[1]:

"القومس الجليل المبجل المعزّز الهام الضرغام... فخر الامة المسيحية رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية".

ومن أمثلة مخاطبة المسؤولين عن المدن التجارية الايطالية: دوك Doge البندقية[2]:

"الدوك الجليل المكرم المبجل الموقر البطل الهمام الضرغام الغضنفر الخطير مجد الملة النصرانية فخر العيسوية، عماد بني المعموديّة، معز بابا رومية، صديق الملوك والسلاطين".

ورسم مخاطبة حكام جنوة (وهم البودستا والكبطان والمشايخ) "حضرة البودستا والكبطان الجليلين المكرمين الموقرين المبجلين الحظيرين فلان وفلان، والمشايخ الأكابر المحترمين، اصحاب الرأي والمشورة، الكمنون (القومون) بجنوة، أمجاد الآلهه المسيحية أكابر النصرانية"[3].

وأما المخاطبات في الحالات المناسبة لتحقيق التقارب والتفاهم فكانت كالتالي :

"... وجعل الله من السلامة يداً لا تُزَعْزِعُه من أوطانه، ولا تنزعه من سلطانة، ولا تُوجِدُ له إلاّ الإستقرار لتيجانه، واستمراراً لملكه على مادارت على حصونه مناطق خلجانه..."[4]

حفل استقبال السفراء والقناصل:

لقد أعد المسلمون "بروتوكولات" رسوم خاصة لاستقبالهم حسب قواعد دقيقة لتحقيق الفائدة التي يرجونها وراء ذلك. فقد لجأوا إلى الظهور بمظاهر القوة والعظمة في مراسم الاستقبال لإرهاب أعدائهم والتأثير في من يتصل بهم، كما أظهروا كثيراً من الحفاوة والكرم مع

---

(1) المقريزي: السلوك: ج1،ص966 (من رسالة بيبرس الى أمير انطاكية وطرابلس.

(2) القلقشندي:م س. ج6، ص179، ج8، ص47.

(3) ن م: ج8، ص46.

(4) ن م: ج8، ص51.

السفراء لاستمالتهم وكسب ودهم إضافة للأمان الذي ضمنوه للسفراء الأجانب، هذا وقد خصصوا ميزانية خاصة لاستقبال الرسل والسفراء، وكلفوا موظفين خاصين لاستقبالهم والعناية بهم[1]. وكان اختيارهم يعتمد على الشخصية والخبرة واللباقة والمعرفة باللغات ويلاحظ أن عمل المهمندار يشبه عمل مدير المراسم والتشريفات في العصر الحديث[2].

وقد منح وضع المسلمون امتيازات للسفراء الأجانب كما فرضوا عليهم التزامات أثناء إقامتهم في دار الإسلام فضلاً عن حصانتهم وسلامة مرافقيهم وإعفائهم من دفع الضرائب والمكوس طالما لم يتاجروا، كما سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية مع الالتزام باحترام معتقدات المسلمين وشعائرهم وعدم إيذائهم بادخال المحرمات[3].

أما النظام القنصلي فقد سبق نظام التمثيل الدبلوماسي الدائم وقام بعلاقات سليمة بين المسلمين والصليبيين. وقد اقتضى ضرورة ظهور هذا النظام تطور التجارة الدولية الذي يتطلب سفر التجار والإقامة في بلاد نائية تختلف في قوانينها عن بلادهم، فاختار التجار من بينهم من يتولى شؤون جاليتهم، ويقضي في المنازعات الداخلية بين أفرادها وفقاً لشرائعهم الوطنية الخاصة. ولقب هذا الشخص بالقنصل الذي استمر حتى العصر الحديث ومع امتداد النشاط التجاري الخارجي لدول غرب أوروبا إلى الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط انتقل هذا النظام الى ذلك الاتجاه للدولة البيزنطية والدول والامارات الإسلامية في الشرق الأدنى، ثم انتشر هذا النظام القنصلي في البلاد الاسلامية بعد أن اسهمت الحركة الصليبية في نموه وازدهاره. فكان القنصل يرعى شؤون مواطنيه في المدينة الموجودة بها من حيث التجارة والمصادقة على توقيعات العقود والصكوك ويرأس المحكمة الخاصة بهم[4].

---

(1) صلاح الدين المنجد: النظم الدبلوماسية في الاسلام، ص153، وعمر كمال، م س، ص128 من القابهم نائب صاحب الدار في الدولة الفاطمية وفي العصر الأيوبي المملوكي عرف هذا الموظف باسم المهمندار: وهو لفظ فارسي يطلق على من يتصدى لتلقي الرسل ويقوم بأمرهم، القلقشندي: م س، ج5، ص459.

(2) القلقشندي: ن م، ج4، ص58-59 حيث أورد نصاً مفصلاً للنظام المتبع في استقبال السفراء الصليبين والرسل.

(3) لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق1، ص221-223، ابو يوسف: كتاب الخراج، ص188.

(4) د. عمر كمال توفيق: م س، ص138-139، وانظر Consul in The Oxford English Dictionary.

الدبلوماسية الأيوبية بعد صلاح الدين:

لقد اسهمت الأحوال الساسية في الدولة الأيوبية من نهر دجلة الى نهر النيل في قيام العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والفرنجة وذلك بسبب الصراع الداخلي بين أمراء البيت الأيوبي -خاصة في مصر مركز الثقل في العالم الاسلامي- مما أدى إلى اضعاف قوتهم في مواجهة الصليبيين خاصة زمن كل من السلطان الملك العادل (ت615هـ/1218م والسلطان الملك الكامل (ت635هـ/1237م)[1]. واستمرت حرب الوراثة بعد موت العادل بين ابنائه الثلاثة، الملك الكامل في مصر والمعظم في الشام (دمشق) والأشرف في اقليم الجزيرة، وزاد لهيب هذه الحرب تحالف المعظم والأشرف ضد الكامل في مصر الذي كان يتهدده حظر الصليبين بقيادة الامبراطور فردريك الثاني الألماني والملقب بأعجوبة الدنيا Stuper Mundi والذي اقسم للبابا سنة 1225م على القيام بحملة صليبية[2]، فدفعت هذه الظروف الداخلية والخارجية الحرجة الملك الكامل الأيوبي للدخول في مفاوضات عام 624هـ/1226م مع الامبراطور في صقلية ترأسها فخر الدين مقابل توماس[3] رسول الامبراطور التي انتهت بعقد اتفاقية يافا في 18فبراير/1229م /626هـ تلك المعاهدة التي استنكرها اكثريّةُ الصليبيّن والمسلمين على حد سواء. والتي كان من شروطها تسليم بيت المقدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يمتد من اللد الى يافا على البحر المتوسط، إضافة الى الناصرة وغرب الخليل على أن يبقى في أيدي المسلمين منطقة الحرم والصخرة والمسجد الأقصى[4].

كما ورث المماليك من بعدهم هذه المشاكل السياسية الداخلية والخارجية والتي أجبرتهم على الدخول في علاقات دبلوماسية مع الصليبين وهكذا كانت مشاكل المماليك امتداداً لأوضاع

---

(1) انقسمت دولة صلاح الدين بعد وفاته بين ابنائه: الأفضل في دمشق، والعزيز في القاهرة، والظاهر في حلب، وأخيه الملك العادل سيف الدين في الكرك والشوبك. فكان هناك ما يشبه حرب الوراثة في البيت الأيوبي مما دفع الملك العادل للعمل على توحيد الدولة الأيوبية -هذا الجهد المضني الذي يحتاج الى علاقات سلمية مع الصليبين فعقد صلحاً معهم في الأول من يوليو عام 595هـ/1198م على أساس قواعد صلح الرملة الذي عقده صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد عام 589هـ/1192م. انظر المقريزي: السلوك ج1، ص141.

(2) د. عمر كمال، م.س. 72.

(3) المقريزي: ن م، ج1، ص221-222.

(4) المقريزي: ن م، ج1، ص223، رنسيمان: م س، جـ3، ص331 أورد نص حرفي للمعاهدة ص 86-87.

العهد الأيوبي من حيث طبيعة النظام الإقطاعي وصراع الأمراء على السلطة وأخطار المغول الخارجية.

ومن قراءتنا للمفاوضات التي دارت بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد نستطيع تكوين فكرة تفصيلية عن طبيعة المفاوضات بين المسلمين والصليبيين خلال قرنين من الزمان. بحيث نستطيع تكوين انطباع عن الاشخاص الذين يقومون بالمفاوضات، والموضوعات، وما تتطلبه تلك المفاوضات من مهارة وحذر مع الألتجاء إلى الشدة والتّرهيب عند الضرورة، واستعمال اللبّاقة حتى يتيسر الوصول الى حلول للخلافات والمنازعات.

وعلى أيّة حال، فالمفاوضات إنما كانت السبيل المؤدي لعقد الهدنة والمعاهدات.وهكذا يكون من الملاحظ على لجوء المسلمين لعقد صلح "هدنة" أو "اتفاقات" مع الصليبيين لضرورات متعددة بهدف التعرض لهجماتهم أو بهدف مواجهة إمارات اسلامية أخرى أو بسبب الصراع على الحكم بين الوزراء، أو لضمان وقوف القوى الصليبية على الحياد للتفرغ لبعض القوى الصليبية الأخرى[1]، كما دفع ذلك الأمراء المتنافسين الناشئين الى اقامة أحلاف عسكرية معهم لمواجهة القوى الاسلامية المنافسة لهم. كما نرى أسباباً أخرى اسهمت في قيام علاقات دبلوماسية في موضوع الأسرى والتفاوض في اطلاق سراحهم بالتبادل أو الفدية.كما فعل صلاح الدين مع الدولة الشرقية البيزنطية الارثوذكسية[2] مما أثار هاذ التصرف جواً من القلق في الممالك الصليبية[3] كما لوحظ على أعضاء البعثات الدبلوماسية جمع المعلومات السياسية والإقتصادية والاجتماعية والمعنوية بما يشبه عمل السفارات اليوم بما تقوم به من أعمال تجسس[4] لصالح دولتها، لذا اتخذت الامارات الاسلامية الاحتياطات اللازمة لمنع السفراء والمبعوثين الأجانب من الاطلاع على أحوالهم بتخصيص من يستقبلهم لمرافقتهم الى الداخل.

---

(1) ابن القلانسي:ذيل تاريخ دمشق، ص336، يذكر بأن نور الدين هادن الصليبيين ودفع لهم الجزية لمدة سنة بعد ضمه لدمشق، شوال 551هـ/نوفمبر1156م.

(2) تقرب صلاح الدين الى امبراطورهم اسحق الثاني بإرسال سفارة له مع 190 أسير من رعايا دولته ليكسبه لجانبه مستغلاً عداوة هذا الملك الصليبين لأسباب دينية وعدم ثقته بالصليبين لذا أخبره صلاح الدين بانتصاراته على الصليبين وفتح القدس، أسد رستم: الروم وصلاتهم بالعرب، بيروت، 1965م، ج2، ص166-167.، ود. عمر كمال تاريخ الامبراطورية البزنطية، القاهرة 1967، ص146.

(3) أسد رستم: م س، ج2، ص171-172.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص123-124 كتب عن الجواسيس والاستخبارات.

وقد لجأ المسلمون لوسيلة أخرى لمعرفة أحوال العدو وذلك بالسماح لرسل الفرنجة بالتردد على البلاد الاسلامية أثناء إجراء المفاوضات لاستخلاص بعض المعلومات لمعرفة ما هم عليه من قوة أو ضعف[1].

أما بالنسبة للصليبيين فنلاحظ أن أهدافهم من وراء المفاوضات السعي لعدم قيام جبهة اسلامية موحدة ضدهم فلجأوا إلى توجيه رسلهم إلى بعض الإمارات الإسلامية والدخول معها في مفاوضات لاستمالتها وتحييدها ولو بشكل مؤقت[2]. فعملوا على ايجاد شرخ وتصدع في الوحدة الاسلامية في مرات عديدة سواء كان ذلك في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر للميلاد وفي الختام نضيف بعض العوامل الأخرى من حيث الرقعة الجغرافية المجاورة للامارات الاسلامية[3] والقوة العددية للعناصر الصليبية المستقرة في الشرق، والنظم السياسية[4] التي عاشت في ظلها وعلاقاتها مع المغرب الأوروبي من حيث الامدادات والمساعدات والمذاهب الكنسية المختلفة من ارثوذكسية في بيت المقدس ومارونية (المسيحيون الشرقيون) في طرابلس وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح.

---

(1) ابن شداد: النوادر، ص231، حيث علق على سماح صلاح الدين الأيوبي لرسل الافرنج بالتردد أثناء المفاوضات بأنه كان يقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل.

(2) كما فعلوا عندما علموا بالعداء المذهبي بين السلاجقة والفاطميين وتنازعهم على بلاد الشام فارسلوا سفارة الى مصر أثناء مرورهم بأسيا الصغرى وذلك بناء على نصيحة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومين الخبير بشؤون الشرق الأوسط. أنظر: رنسمان: م.س. ج1، ص326، وابن الأثير: الكامل، ج10، ص273 اصدار سنة 491هـ.

(3) رنسمان:ن م، ج2، ص473 يذكر على سبيل المثال استمرار وجود المسلمين بأعداد كبيرة في الامارات التي خضعت للفرنجة بمدينة نابلس وعلى امتداد الطريق من عكا لبانياس حيث كان معظمهم من الفلاحين المسلمين كما وجدت قبائل بدوية على امتداد الطريق الجنوبي للمملكة وفيما وراء نهر الأردن.

(4) كانت السلطة العليا في الامارات الصليبية ملكية إقطاعية تحد من سلطاتها عدة هيئات ونظم داخلية منها الكنيسة بامتيازاتها والجماعات الرهبانية المحاربة كالداوية Temlars والاسبتارية Hospitalier وامتيازات قومونات Commnnes المدن التجارية الايطالية والبروفنسالية في مدن المملكة الصليبية في الشام وامتيازات النبلاء الصليبيين الذين شاركوا في الغزو انظر: رنسيمان:ن م. ج2، ص498، د. عمر كمال:م.س. ص80.

النظام الاداري المملوكي في جنوبي بلاد الشام:

أولاً : لمحة سياسية عن كيفية استيلاء المماليك على بلاد الشام:

وذلك عندما أرسل المغر إيبك التركماني قائد الجيش فارس الدين اقطاي الجمدار على رأس ثلاثة آلاف فارس فوصل غزة واستولى على الساحل ونابلس الى نهر الأردن في مستهل سنة 649هـ/ 1251م، فتصدّى له الناصر يوسف الأيوبي واستعاد غزة وهنا تدخلت الخلافة العباسية في بغداد عام 650هـ/1252م رغم ظروفها الصعبة بإرسال مبعوثيها لعقد صلح بين الطرفين واستغل المماليك الوساطة والمفاوضات[1] والزحف العسكري لتعزيز مواقعهم في المفاوضات للحصول على تنازلات من الطرف الآخر[2]. وتم الصلح عام 651هـ/1253م.

---

[1] ابن ايبك: م س ج8، ص19. وابن كثير: م س، ج13، ص181، المقريزي: السلوك، ج1، ص381.

[2] ابن ايبك: ن.م.|،ج8، ص22، حيث تسلم المماليك قلعة الشوبك سنة 651هـ/1253م فوافق الناصر يوسف على عقد الصلح الذي اشرف عليه الخليفة وللناصر يوسف الأيوبي بقية بلاد الشام وإطلاق الأسرى وتم الصلح عام 651هـ/1253م. فكان ذلك احياءً للخلافة العباسية في القاهرة.بعد أن شعر سلاطين المماليك بضرورة احياء الخلافة العباسية لاضفاء الشرعية على حكمهم الذي اغتصبوه من سادتهم الأيوبين، إذ حاولوا في البداية التحايل على الأيوبين باشراك بعضهم في الحكم بالاضافة الى اغتصاب السلطة من بعضهم عندما اغتصب الظاهر بيبرس منصب السلطان من قطز قاهر المغول في عين جالوت ولمواجهة الثورات ضده، أنظر النويري: نهاية الأرب ج28، ورقة 18(مخطوط). لذا اسرع الظاهر بيبرس لاستدعاء الأمير العباسي -أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي من دمشق الىالقاهرة وبايعه أمام الشهود والفقهاء ولقبه المستنصر با لله. فقام الخليفة بعد ذلك بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة في حفل كبير في جهة المطرية بالقاهرة وهكذا أخذ التفويض بالحكم من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الاسلامي وهي الخلافة، المقريزي: السلوك، ج1، ص453-457. وضرب النقود باسم السلطان والخليفة بالإضافة للدعاء له قبل السلطان مما جعله يتضايق فيما بعد من ذلك ففكر في الخلاص منه بعد أن كسب الرأي العام في العالم الاسلامي فأعلن بأنه يرغب في اعادة الخليفة لبغداد ، فصحبه الى دمشق ثم تركه يتجه عبر الصحراء برفقة جماعة من الأعراب والترك نحو بغداد. :السيوطي تاريخ الخلفاء ص317-318 مما أدى لمقتله على يد المغول: انظر السيوطي ن م، ن ص. وابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ ، ج20،ورقة 430 (مخطوط). ونصب مكانه الأمير العباسي ابو العباس أحمد وبايعه بالخلافة سنة 662هـ/ 1264م ولقبه الحاكم بأمر الله ولكنه حرص على الحد من نفوذه. انظر السيوطي:ن.م.، ص.ن. ص. والنويري: م س، ج28، ص129
هذا واستمر الوضع طوال العصر المملوكي على هذه الحالة بأن يفوض الخليفة الأمور العامة للسطان ويُدْعى له قبل السلطان على المنابر. وكان يكتفي بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالأعياد: القلقشندي: صبح الأعشى، ج34، ص275، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين: المقريزي: المواعظ، ج3، ص249.

وهكذا تم اعتراف الناصر يوسف بقيام دولة المماليك وسيطرتها على أجزاء هامة من جنوب بلاد الشام[1] وقد تجددت الحروب بين الأيوبين والمماليك منذ عام 655هـ/1257م[2].

وفشل الأيوبيون بقيادة المغيث عمر صاحب الكرك في استرداد مصرمن المماليك بزعامة سيف الدين قطز عام 656هـ/1258م[3]. واستمر الصراع العسكري بين الأيوبيين انفسهم[4] وبينهم وبين المماليك في مصر في ظل اجتياح المغول لشرقي العالم الاسلامي وزحفهم على الجزيرة وبلاد الشام مما أدى لضعف المواجهة الاسلامية لبقايا الصليبين في بلاد الشام بالاضافة الى استنزافها للكثير من الطاقات البشرية والمادية التي كان من الممكن ادخارها لمواجهة زحف المغول على بلاد الشام.

---

(1) سبط ابن الجوزي: م س، ج8، ص78، ابو الفداء: م س، ج3، ص186، ابن ايبك:م س، ج8، ص22-23، والمقريزي: السلوك ج1، ص385-386، ابن تغري بردي:م س، جـ7، ص10 .

Lanepoole: Palestine Under The Moselems, P.441.

(2) سبط ابن الجوزي:م س، ص785.

(3) بيبرس: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج9، تحقيق زبيدة محمد عطا (رسالة دكتوراه لم تطبع) القاهرة، عين شمس ص13. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص195، ابن تغري بردي: م س، ج7، ص98-99..

(4) بين الناصر يوسف والمغيث عمر، بيبرس زبدة الفكرة ج9، ص14، المقريزي: السلوك، ج1، ص411-414.

ثانياً: النظام الإداري المملوكي في جنوبي بلاد الشام :

أولاً : لمحة إدارية

ثانياً : التقسيمات الإدارية في بلاد الشام وشرقي الأردن

ثالثاً : الجهاز الإداري في الدولة المملوكية

أ- الوظائف العسكرية.

ب- الوظائف الديوانية "وظائف أرباب الأقلام".

ج- الوظائف الدينية.

د- المصطلحات المملوكية.

رابعاً : أساليب الحكم المملوكي.

أ- السياسة الداخلية.

ب- السياسة الخارجية.

1- مع الدول الإسلامية.

2- مع الدول غير الإسلامية

أولاً : لمحة ادارية:

لقد سار المماليك على النمط الأيوبي في الحكم بعد زوال ملك الأيوبيين واستيلائهم على دفة الحكم، ولكنهم زادوا في شُعَبِ الادارة، كما كان السلطان رأس النظام، فإذا كان طفلاً تَولىّ الأمرَ عنه القيّم المُسمّى "أتـابك" أو وصياً ويحق لـه التصـرف فـي أمـور المملكـة ويليـه كبير الأمراء "قائد الجيش" والملقب بـ"أتابك العسكر" ويليه "مقدمو الألوف"[1].

كما يلاحظ على النظام المملوكي أنهم لم يستطيعوا تـأصيل الشـرعية فـي نفوس أمـراء وضباط الجيش المملوكي وذلك بعد قتل بيبرس لقطز، والجلوس معه كما لم يتركوا إلاّ المناصب الدينية والقضائية والتجارية والأدبية لأفراد الشعب مما أدى الـى ضعفهـم فـي النهايـة، وبالنسـبة لعلاقاتهم مع الخلافة العباسية كان لابد من تأصيل فكرة شرعية الخلافة العباسـية[2] علـى الرغـم من خلع السلاطين لبعض الخلفـاء أمثـال النـاصر محمـد بـن قـلاوون الـذي خلـع الخليفـة الواثـق ونصب مكانه الحاكم بأمر الله[3]. وكان يتم بعد المبايعة اصدار الخليفة الوصايا للرعية والحكـام لتطبيق العدالة وحثهم على الجهاد لاسترجاع ما اغتصبه الاعداء مع الوعيد والتهديـد والـترغيب ثم يعلن أنه قلد السلطان الملك الناصر ما وراء سريره...... وأمير المؤمنين قد وكل عنه....... عيناً لا تنام، وقلد سيف بطل هُمام[4].

وقـد تمكـن بعـض الخلفـاء مـن توريـث ابنـائهم الخلافـة أو إخوتهـم ان لـم يكـن لهـم ولـد كالمعتضد بالله الذي عهد لابنه المتوكل سنة 763هـ/1365م.

---

(1) غرس الدين خليل الظاهري، زبدة كشف الممالك، طبعة باريس، ص112 وكان في مقدمة كل واحد منهم مائة مملوك وهو مقدم على ألف جندي وتدق على بابه طبول وزمور يومياً بشكل معروف وأوقات معروفة. ومن وظائف مقدمي الألوف امارة السلاح، وامـارة المجلس، وامارة الأخوار السلطاني.

(2) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيـم، القـاهرة، ج2، ص59-60، 63، 67.

(3) ويذكر: أن الملفت للنظر هو طريقة أخذ البيعة والعهد للخليفة، وأن الخليفة مصدر السلطات وأنه هو الذي ينصب السـلاطين ويعزلهـم وأن الجميع يضحون في سبيل الله وفي سبيله وسبيل شرعية الخلافة وهيبتها حيث كان يجمع على هذه البيعة اصحاب العقد والحل وولاة الأمور والحكام والأعلام وجملة الاعلام وحماة السيف والأقلام، ن م، ج2، ص70-79.

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج2، ص70-74.

والواقع أن منصب الخليفة كان منصباً اسمياً لا أهمية له بعد أن تمتع الخلفاء بدورهم ولم يكن دورهم سوى التوقيع على المراسيم فقط. وإصدار الغهود والألقاب الفخمة كما ظهر عندما بايع السلطان الملك الظاهر بيبرس المستنصر بالله بالخلافة والذي لقبه بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني...[1]

كما حاول السلاطين تأكيد شرعيتهم في نفوس الناس كالظاهر بيبرس بتقليد ولي عهد له الملك السعيد اعتماداً على القوة علماً بأن جميع السلاطين كانوا يحرصون على استصدار هذه التقاليد لاضفاء الشرعية على سلطنتهم وفعل ذلك المنصور قلاوون لإبنه الكامل الصالح علاء الدين[2].

وقد لوحظ أن الخليفة الحاكم بأمر الله أصدر ثلاثة تقاليد اسلامية للناصر وكتبغا ولاجين رغماً عنه وقد حدث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أن ترك العرش ولجأ الى الكرك لمضايقة شخصين له هما ركن الدين بيبرس الجاشنكيز وسيف الدين سلار خوفاً منهما ويتضح ذلك من كتابته لهما بأنه ذهب إلى الكرك للترويح عن النفس وللاقامة بشكل دائم... ودعاهم الى طاعة نائبه[3] ولكنه استقال بعد اصرارهما على تنازله عن العرش[4]. وارسل لبيبرس مرسوماً باسم الملك المظفر ... وارسل له مرسوماً يمنحه حكم الكرك وملكها مدى الحياة معلناً للناس تنازله عن العرش برغبته في الاعتكاف للعبادة والزهد في الدنيا عام 708هـ/1309م ولحق به المؤرخ النويري وكان هذا للمرة الثانية وعاد للحكم عام 709هـ/1310م[5]. وهاذ مشابه لما يحدث اليوم في الأنظمة الحديثة بعد انقضاض العسكرين على الحكم بما يعرف بالانقلاب

---

(1) ن.م.، ج2، ص53-58. والذي عهد لابنه خليل ولقبه بالملك الأشرف صلاح الدين.

(2) المقريزي: السلوك، ج1،ص 964-971

(3) ابن تغري بردي: م.س. القاهرة، دار الكتب المصرية، 1929، ج8، ص180-181.
قال:["فإن كنتم مماليكي ومماليك أبي فأطيعوا نائبي ولا تخالفوه في أمر من الأمور فأنا لا أريد لكم إلا الخير ... وإن كنتم لا تسمعوا مني فأنا متوكل على الله والسلام". ولكن جوابهما كان قاسياً بأنهما لن يدعاه في الاستقرار بالكرك: "... ولو كثر شاكروك، ويخرج الملك من يدك". فاستقال الملك واعتزل في قلعة الكرك ووافقه بيبرس على ذلك.

(4) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرون لجنة التأليف والنشر، 1934، ج2، ص46.

(5) النويري: شهاب الدين أحمد "نهاية الأرب في فنون الأدب" ، ط2، القاهرة 709هـ/1310م دار الكتب المصرية، 1924، ج8، ص159-163 أورد ذكر الملك الناصر بالشكر ولَقبَّ الأمير بيبرس بالملك والسلطان ولقّب نفسه بالمملوك محمد بن قلاوون.

الأبيض وإجبار الحاكم "رئيس الدولة" على الأعلان عن رغبته في التنازل عن العرش لظروف صحية.

وبعد مدة أصبحت الكرك ملجأ لكل معارض وساخط على الملك المظفر بيبرس فساءت العلاقات بينهما بعد علمه بتجميع الملك السابق للمعارضة حوله، فانذره بضرورة إرسال المماليك الموجودين عنده وإرجاع الخيل والمال التي أخذها معه الى الكرك[1].

فرد عليه الناصر ببراعة سياسية بإظهار الخشوع والطاعة له حتى يكمل استعداده للجولة الفاصلة بينهما[2].

كما حاول هذا السلطان الملك المظفر بيبرس إغراء زعيم المماليك في بلاد الشام قراسنقر الأشقر بأرسال الخلع والمال ولكن ذلك لم يقنعه بما حدث فبدأ بتشكيل جبهة معارضة من نائب طرابلس ونائب حماة لخلع الملك المظفر وإعادة الملك الناصر لعرشه حيث بدأ الثلاثة بزعامة قراسنقر يراسلون الناصر ويخططون للثورة حيث طلب الناصر منهم الإستعداد والتأني والصبر لجمع القوة المناسبة والمكافئة لقوة الملك المظفر في مصر[3] وفعلاً نجحت خطة الناصر وعاد لعرشه في مصر وأرسل المظفر من مخبئه رسالة للملك الناصر يعترف بسلطته وطاعته[4].

هذا وقد لوحظ أن معظم الولاة كانوا من العسكريين، فعندما ضعف السلاطين بعد بيبرس وقلاوون والناصر؟، أصبحوا خطراً يهدد السلطة لأن الوالي كان قائداً للجيش المرابط في تلك الولاية كما كان الإقطاع العسكري هو الأساس في دولة المماليك حيث اقطعوا فرسانهم وضباطهم وجنودهم إقطاعات حسب اهيمتهم، فأصبحت هناك طبقة عسكرية حاكمة، وبقي الشعب يعمل في هذه الإقطاعات. وإقطعوا الذين أبلوا بلاء حسناً في المعارك ضد المغول كما فعل بيبرس[5] وتفاوتت الإقطاعات بين إقطاع فرد قرية بكاملها أو اميرين قرية واحدة مناصفة أو ثلاثة أو أربعة. ويقدم الفائض من المحاصيل الى المقطِعن.

---

[1] المقريزي: السلوك، ج8، ص256-297.

[2] ن.م.ن ص

[3] ابن تغري بردي، م.س. ج8، ص241-242

[4] ن م، ج8، ص270-271.

[5] المقريزي: ن م. ج1، ق2، ص530-534.

وكان للسلطان مجلس استشاري مثل الظاهر بيبرس: أمثال العز بن عبد السلام في مصر والنووي في دمشق وبلاد الشام الذين كانوا ينصحونه، ويوجهونه وينبهونه الى أخطائه فيلتزم بذلك[1].

ويعتبر السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك[2] لأن الفترة الطويلة نسبياً التي قضاها في الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدراً من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها بعد أن قيّض الله له النصر على أعدائه من المغول والفرنجة والأرمن فملك دمشق وبعلبك وعجلون والصلت والشوبك والكرك وصرخد وغيرها حتى شملت دولته مصر وسوريا وكثير من بر الأناضول وأفريقيا والنوبة وبرقة وبعض بلاد العرب وكان أول ما فعله مبايعة الخليفة العباسي أحمد بن الإمام ابن الإمام الناصر الذي حضر مع عربانه من بغداد إلى دمشق ثم القاهرة. فبايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله سنة 659هـ/1261م وأشهد الفقهاء والأئمة والأمراء في القلعة ولقبوه بالإمام المستنصر بالله، ثم قام الخليفة بتولية السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما سيفتحه من البلاد الأخرى ثم بايع الناس، وكتب السلطان بيبرس الى البلاد ليأخذ البيعة له[3].ومما تجدر الإشارة اليه أنه استحدث نُظُماً إدارية جديدة مما يجعلنا نجزم القول بأن دولة المماليك اتخذت في عهده طابعها المميز الإداري الذي سارت عليه حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي كما كان كغيره من المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة[4].

---

(1) السيوطي، م س، ج2، ص97-103

(2) وبالنسبة لوصول المماليك للحكم فكانت البداية منذ أن قتلت شجرة الدر زوجها السطان عز الدين أيبك التركماني خوفاً من الزواج عليها عام 650هـ/1252م فقتلها مماليكه وولوا ابنه المنصور عي بن أيبك. وفي عام 657هـ/1261م قبض الأمير قطز مستشار الملك المنصور بن المعز عليه وتسللطن محله ولقب نفسه بالملك المظفر ثم قتله بيبرس واستلم الحكم. المقريزي: السلوك، جـ1، م2، ص405-417. وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص52. وابن واصل: م س، ق1، ص39. وفيليب حتي، م س، م2، ص880.

(3) المقريزي: السلوك، جـ1، ص450. وابن عبد الظاهر: ن م، ص101، وأمر بذكر اسم الخليفة على المنابر ونقش السكة باسمهما وخطب الخليفة يوم الجمعة الموافق سابع عشر من رجب في جامع القلعة وفي يوم السبت السادس من شوال 659هـ/1261م سافر بيبرس وبرفقته الخليفة الى الشام حيث ترك الخليفة في جبل الصالحية في دمشق. ابن عبد الظاهر: ن م، ص111-112.

(4) وذلك لأن نظرتهم للسلطان كانت على أنه مملوك كبير انتخبه رفاقه الذين يشعرون بأن كل منهم ندّ له ويعتقدون بأولوية الامراء الكبار والشجعان والاذكياء والأكثر اتباعاً والأغنى مالاً.

انظر ستانكي بول: سيرة القاهرة، ص180، وابن عبد الظاهر: ن م، ص203-215. Muir The Mameluke, p86.

إلا أنه غلبت عليه غريزة الأبوة فتحدى طبيعـة المماليك و نظـامهم وورَّث العرش لابنه البكر سعيد بركة، حيث أخذ البيعة له من كبار الأمراء بعد أن أقسموا يمين الطاعة للملك السعيد بركة عام 660هـ/1262م[1]، كما أوصاه ابنه بضرورة الحيطة والحذر من كبار الامراء عند موته[2].

هذا وقد تحققت نبوءته بحيث ظلّوا ينظرون لابنه السلطان بركة بعين الصبي، وسببوا له المتاعب في مصر والشام حتى أجبره كبار أمراء المماليك على خلع نفسه عام 678هـ/1380م مقابل إقطاعه الكرك وأعمالها[3] وإقطاع اخيه خضر الشوبك وأعمالها وذلك لأنهم لم يقتنعوا بمبدأ الوراثة في الحكم.

ويلاحظ فشل النظام الملكي الوراثي عند المماليك بتساوي كبار أمرائهم في الأصل والتربية، وتقارب قوتهم العسكرية وذلك على الرغم من محاولة بعض السلاطين توريث أبنائهم كما ذكرنا كالسلطان الظاهر بيبرس عام 662هـ/1264م والناصر محمد بن قلاوون حيث ورّث

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص468–515 حيث أقام احتفالاً كبيراً قرأ فيه عهد السلطنة للملك السعيد على القضاء والفقهاء والأمراء.

(2) ابن واصل: م س، جـ2، ص240 فقال في وصيته "فهؤلاء الامراء الاكابر يرونك بعين الصغير فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته، لا ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً في هذا وافعل ما امرتك في هذا ، وافعل ما أمرتك به والا ضاعت مصلحتك.

(3) انظر بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، لوحة 137مخطوط والنويري م س: ج28 صوحة 126 مخطوط والعيني:م س: ج20، ق4، لوحة 644، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة. واليونيني: ذيل مرآة الزمان: ج4، ص5، وابن كثير: م س، ج3، ص288.وأبو المحاسن: م س، ج7، ص269، وأبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص66، والمقريزي: ن م، ج1، ص655. وبعد موت الملك السعيد في الكرك عام 678هـ/1280م ودفنه في مؤته بالقرب من مقبرة جعفر الطيار حيث نقل فيما بعد الى دمشق ودفن بمقبرة والده الظاهر بيبرس.

وقيل أن السلطان المنصور قلاوون هو الذي أمر بدس السم له للتخلص منه كمنافس على السلطة. واعتبر المؤسس الثاني لدولة المماليك في مصر والشام واستمر في عائلته حوالي مائة سنة :(انظر ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور، ص178، وبيبرس الدوادار: ن م، ج9،لوحة 273 وابو الفداء: م س، ج4 ،ص25.

واليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج13، ص33، الصفدي: الوافي بالوفيات،م س، ج2، ص272، والمقريزي: ن م ، ج1، ص669، وأبو المحاسن:ن م، ج7، ص272، وتسلم الملك بعده أخوه نجم الدين خضر ولقبوه بالملك المسعود. والذي قام بثورة ضد الملك المنصور قلاوون في مصر وحدثت مجابهة بينهما حتى أصبحت الأردن مقسمة بين ثلاث فرق هي: القسم الشمالي منها: تحت سلطة سنقر الأشقر الثائر بدمشق والقسم الأوسط (البلقاء ومؤاب والشراه بيد الملك المسعود" والشوبك بيد المنصور قلاوون. انظر بيبرس الدوادار: ن م ، ج9، لوحة 148، مخطوط. والنويري: ن م: ج29، لوحة 6 مخطوط، وابن خلدون: العبر، ج5، ص395 – المقريزي: السلوك ج1، ص669. ومن الجدير بالملاحظة أن السلطان قلاوون عين المؤرخ بيبرس الدوادار في نيابة الكرك بعد نقل نائبها عز الدين ايبك الرملي الى نيابة قلعة صفد وجعل بامرته مائة فارس: (بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، لوحة 261 مخطوط.

ولده ابي بكر المنصور قبل وفاته[1] واستطاع ستة من أبنائه الذكور الاثني عشر الوصول للسلطة لفترات قصيرة[2]. وكانت القيادة الجماعية مكونة من ثمانية أمراء لتحمل أعباء السلطة باتباع مبدأ الشورى بينهم[3]. وكانوا من حاشية السلطان في القاهرة والمكونة من الجاشنكير[4] والخزندار[5] والسلحدار[6] واميرجاندار[7] والحاجب[8] والاستادار[9]. ومن سلاطينهم الكبار سياسياً وعسكرياً السلطان المنصور قلاوون في صراعه مع الصليبين والمغول[10]. وابنه السلطان الأشرف خليل فاتح عكا آخر معاقل الصليبيين في فلسطين عام 690هـ/1292م ثم السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب أطول فترة زمنية في حكم المماليك بما تقارب ثلاثاً واربعين سنة[11]. هذا ويعتبر المؤرخون عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتوفي في 741هـ/1343م عصر القوة والازدهار[12] وخلفه ابنه المنصور أبو بكر[13] كما يلاحظ بشكل عام صراع البيوتات المملوكية[14] على النفوذ والحكم مما أدى لانقسامهم وتكتلهم ضد السلطان

(1) المقريزي: الخطط، ج2، ص304

(2) ن.م. ج2، ص305.

(3) د. يوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، ص145 وهم سيف الدين سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير وحسام الدين الرومي، وعز الدين أيبك الخزندار، وسيف الدين عبدالله السلحدار وسيف الدين بكتمر امير جاندار وجمال الدين آقوش الأفرم، وسيف الدين اللحاجب ويذكر : "ان أول رئاسة جماعية شكلت في القاهرة كانت لمدة إحدى وأربعين يوماً حتى وصول الناصر بن قلاوون عام 698هـ/1299م.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص21، ج5، ص460: وهو الذي يتذوق طعام وشراب السلطان خوفاً من دس السم ايه، ثم أصبحت من وظائف أرباب السوف العالية يتسلمها أحد الأمراء المقدمين.

(5) ن.م، ج5، ص462، والخزندار : متولي خزانة السلطان.

(6) ن.م.ن.ص.السلحدار: السلاح دار: الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويشرف على السلاح خاناه "مستودع الأسلحة: وهي من وظائف أرباب السيوف الكبار في الدولة

(7) ن.م. ص461، والمقريزي: الخطط، ج3، ص360 الأمير جاندار: الذي يستأذنه الناس في الدخول على السلطان أو الأمير أيام المواكب أو الجلوس بدار العدل، ويقدم البريد له اذا قدم مع الدوادار وكتاب السر أو ينفذ حكم الاعدام.

(8) الحاجب: القلقشندي: صبح الأعشى ج5، ص449، 450. يذكر تطور مهنة الحاجب في عصر المماليك حيث أصبح يبلغ السلطان حاجات الرعية وينظر في المظالم بين المتخاصمين فأصبحت من وظائف أرباب السيوف الكبرى.

(9) ن.م. ج5، ص45، والمقريزي: الخطط، ج3، ص361: الاستادار: متولي مال السلطان أو الأمير وصرفه في البيوت السلطانية كلها وينفق على أسفار السلطان.

(10) Lane Pole, A history of Egypt in the middle Ages, p.281-82.

(11) انظر المقريزي : السلوك، ج1، ص183و ج2، ص357.

(12) المقريزي: الخطط، ج2، ص305، يذكر فضل نائب الشام سيف الدين شنكيز عام 712هـ/1312م و740هـ/1340م في تثبيت دعائم الحكم المملوكي والاستقرار . الصفدي: الوافي بالوفيات، ج10، ص420-435، وابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص552-562. والاسدي: محمد بن خليل الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طلمات، القاهرة 1387هـ/1967م، ص68.

(13) المقريزي: السلوك، ج2، ص55، وابو المحاسن. م.س ،ج1، ص3.

(14) على مبارك باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، القاهرة 1989م، وط2، ص 103-104.

الأمر الذي ساعد على طغيان نفوذ الأمراء[1] عليه حتى بلغ الأمر أن يحل الأمير القاتل محل السلطان المقتول[2] وهكذا يمكن القول بأن مبدأ القوة والغلبة كانت المؤهلات الكافية لاعتلاء العرش.

ثانياً: التقسيمات الإدارية في بلاد الشام وشرقي الأردن:

مقدمة :

لقد تغيرت خريطة الحكم المملوكي بعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت 658هـ/1260م نتيجة لهذه التغيرات والتطورات السياسية المستجدة والأوضاع الدولية الناتجة عن التواجد الصليبي في المنطقة في الساحل الشامي، والتهديد المغولي المستمر لبلاد الشام، ولأهمية المنطقة السياسية والعسكرية والاقتصادية، فتعاظمت قوة المماليك نتيجة لهذه الظروف المحلية والدولية خاصة بعد طردهم للصليبيين من بلاد الشام بعد تحرير عكا عام 690هـ/1292م على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون 689-693هـ/1290-1292م. ولكن الرياح السياسية جاءت بما لا تشتهي السفن حيث تحولت بلاد الشام إلى مصدر للثورات على السلطة المركزية المملوكية في القاهرة مما أدى لتقسيمها إلى عدة نيابات[3] لإضعاف نواب السلطنة في بلاد الشام وربطهم بحكم سلاطين المماليك المركزية في القاهرة والقدرة على مراقبتهم للسيطرة على تحركاتهم العسكرية توقعاً لثوراتهم الإنفصالية بما حفز سلاطين المماليك الى الاهتمام بنيابات بلاد الشام بتقديمهم خدمات عامة لكسب سكانها من انشاء مؤسسات اجتماعية وثقافية في بلاد الشام[4].

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص99-100، ق2، ص284، 286، 435. وابن تغري بردي: م س، جـ8، ص48-49، 173، جـ16، ص186، جـ11، ص76. ابن خلدون: العبر، ج5

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص45-46 وحتي م.س. مجلد 2 ص 873.

(3) تشكلت النيابات تدريجياً حسب الظروف السياسية، فتشكلت نيابة الكرك بعد استيلاء الظاهر بيبرس عليها من المغيث عمر ونيابة صفد، ونيابة غزة التي تشكلت في مرحلة لاحقة 711هـ/1313م أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونيابة القدس عام 795هـ/1396م. وللمزيد من المعرفة عن النيابات أنظر : القلقشندي: م س، 1987، جـ4. وعبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية 1966م، ص300. و د. غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، 1982.

(4) عن المتغيرات التي حدثت في بلاد الشام زمن المماليك صدرت مؤلفات حديثة هامة. غوانمة: نيابة بيت المقدس، طه طراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق بيروت 1982م (سيشار اليه فيما بعد هكذا: (الطراونة: مملكة صفد.

محمود عطا الله: نيابة غزة في العهد المملوكي ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986م (سيشار له فيما بعد هكذا : عطا الله: نيابة غزة.

محمد أحمد دهمان: ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق، ط2، 1981م، سيشار له فيما بعد هكذا: دهمان: ولاة دمشق.

نعمان جبران: مملكة حماة في العدين الأيوبي والمملوكي الأول، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1981، (سيشار له فيما بعد هكذا جبران: مملكة حماة. نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت، 1966، سيشار له فيما بعد هكذا: زيادة: دمشق. وسالم: طرابلس الشام. ومن المراجع الأجنبية الحديثة المترجمة. ايرا لابيدوس: مدن اسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987. سيشار له فيما بعد هكذا: لابيدوس: مدن اسلامية.

كما رتب السلطان بيبرس الخفر على السواحل وألزمهم بدركها عام 666هـ/1268م بعد خلط الأموال المحصلة من هذه البلاد بغيرها وخصصها لمأكله ومشربه، وأسكن التركمان البلاد الساحلية لحمايتها على شرط أن يقدموا خيلاً وعدة[1].

الإدارة في بلاد الشام زمن المماليك

لقد تشكلت في بلاد الشام ست نيابات على فترات متباعدة تبعاً للظروف السياسية هي: نيابة دمشق، وطرابلس، وحماة، ونيابة صفد ونيابة الكرك[2]، ونيابة غزة[3]، ونيابة القدس[4] وكان هذا التقسيم ملائماً لطبيعة بلاد الشام الجغرافية بالاضافة لكونها اقساماً إدارية قبل عصر المماليك كما أبرزت الظروف أهمية أقاليم الشام وخاصة أيام الحروب الصليبية مما تطلب جعلها نيابات كنيابة الكرك الواقعة على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز والتي تأسست عام 661هـ/1263م في عهد السلطان بيبرس وكما برزت نيابة صفد مثلها عام 722هـ/1321م[5] وزادت أهمية النيابات الشامية بقلاعها ومدنها ومساحاتها الكبيرة مما جعلهم يقسمون كل نيابة الى أقسام إدارية صغيرة[6].

ونلاحظ مما سبق أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن بيت المقدس لم يصبح نيابة مستقلة يولى نائبها من السلطان في القاهرة إلا بعد عام 796هـ/1393م[7] وكان يتبعها ولاية الخليل وولاية نابلس وولاية الرملة[8]. وذلك زمن السلطان برقوق.

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص563.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، طبعة مصوره عن الطبعة الأميرية بالقاهرة، ج4، ص91، 180.

(3) أنشأها الناصر محمد بن قلاوون. (أبو المحاسن: م س، ج9، ص193. بعد أن كانت ضيعة من ضياع الرملة وولى عيها 699هـ/1301م الامير ركن الدين الجمالي.

(4) مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل، ج2، ص272، وولى عليها الأمير علم الدين سنجر به عبد الله الجالي وأضاف إليه وظيفة "ناظر الحرمين الشريفين" وكان يعين معظم وظائفها نائب دمشق. القلقشندي: م.س.، ج4، ص199. وانظر عن نيابة المقدس ابن حبيب: درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب المصرية ج1، ورقة 98، ذكر ايضاً أن الأمير تمراز المؤيدي تولى هذا المنصب عام 777هـ/1375م. بدر الدين حسن بن عماد الدين تولى هذا المنصب عام 782هـ/1382م كما تولاها بدر الدين حسن.

(5) المقريزي: السلوك: ج1، ص747، أبو المحاسن: م س، ج7، ص321.

(6) القلقشندي: م س، ج2، ص6 "سماها النيابات الصغار"

(7) مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل، ج2، ص272، 274، 308، 323، وهذا رد على المؤرخين المستشرقين والباحثين الغربين أمثال لويس وغيره الذين يقولون بأن القدس لم تلق الأهتمام والعناية في العصر الاسلامي بل كانت مدينة عادية كمدن بلاد الشام. Cohen Lewis Populotion & Revenue in the towns of Palestine p9. وعن وضع بيت المقدس زمن المماليك الشراكسة. انظر المقريزي: السلوك ج3،ق3، ص83، ج4، ق1، ص81، 88، 109، 188، وأبو المحاسن م.س.: جـ14، ص10-32. وابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، جـ2، ص287، جـ3، ص44، 348.

(8) الخالدي: المقصد الرفيع المنشأ، ورقة 147، مخطوط.

وربما كان هذا الاهتمام بمدينة القدس من قبل سلاطين المماليك لتقف بقوة وحزم أمام الأطماع الصليبية والمغولية، لذلك عينوا عليها أميراً كبيراً.

وبالنسبة لجيش نيابة القدس فلم تذكر المصادر عدد هذا الجيش وانما أوردت احصائيات عن جيوش نيابات بلاد الشام في حماة والكرك وصفد[1] بينما استنتج الدكتور يوسف غوانمة بالمقارنة بجيوش نيابات كل من الكرك وصفد وحماة أن جيش نيابة بيت المقدس كان حوالي الألف فارس بالاضافة رجال القبائل العربية في جبل القدس وجبل نابلس والخليل[2].

هذا وقد ارتأيت في هذه الدراسة تقديم صورة واضحة عن نواحي الحياة الإدارية في جنوبي بلاد الشام فاخترت بعض المدن الهامة كالقدس وغزة وصفد والكرك كنموذج كامل وعقدت مقارنة بين نيابة غزة وبيت المقدس في فلسطين وعجلون والكرك وكانت الوظائف الإدارية المملوكية مقسومة الى ثلاثة أقسام هي الوظائف العسكرية والديوانية والدينية:

وكانت أهمية المماليك قد ظهرت بعد معركة عين جالوت 658هـ/1260م كدرع واق للعالم الاسلامي وضمت جنوب بلاد الشام لها وسنتناول نيابة بيت المقدس وصفد وغزة لأهميتها العسكرية امام الغزو الصليبي ووكدرع واق لبيت المقدس من هجوم صليبي متوقع من عكا. وتشهد الفترة المملوكية في فلسطين عهد الاستقرار والأمن نتيجة للاهتمام بها والخدمات العامة التي اهتم بها المماليك منذ منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وبالنسبة: لنيابة بيت المقدس ونيابة صفد ونيابة غزة فقد اختلف المؤرخون في نيابات فلسطين في العصر المملوكي حيث ذكر لويس وعدد من الباحثين أن فلسطين اشتملت على نيابتين فقط هما نيابة صفد ونيابة غزة[3] وذلك لخبث المستشرقين في إظهار عدم اهتمام المسلمين ببيت المقدس في العصور الاسلامية كالمدن الأخرى وهذا تجن على الحقيقة التاريخية. في العصور الاسلامية. ومن نواب القدس الأمير

(1) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، 1894م، ص104، 105.
(2) د. يوسف غوانمة، دراسات، م س، ص231.
(3) Cohen Lewis Populotion & Revenue in the towns of Palestine in the sixteenth Century, princetom, 1978 p9
كما ذكر الخالدي المقصد الرفيع المنشأ، مخطوط ورقة 147، جامعة القاهرة أن نيابة دمشق كانت مكونة من ست نيابات هي القدس وعجلون وصرفد وبعلبك ومصياف. وأن نيابة القدس أصبحت طبلخاناه عام 767هـ/1365م وأضيفت اليها الرملة ونابلس.

كراي المنصوري عام 709هـ/1309م كما ولّي الناصر محمد قلاوون الأمير علم الدين سخر الجاولي نيابة غزة ونظر الحرمين الشريفين ونيابة القدس والخليل عام 703هـ/1305م[1] كما تولى الأمير فخر المؤيدي هذا المنصب عام 777هـ/1379م[2] وكذلك تولى الأمير بدر الدين حسن بن عماد الدين العسكري هذا المنصب عام 782هـ/1380م[3].

كما أختلف المؤرخون المسلمون في تاريخ فصل نيابة القدس عن نيابة غزة[4] ممايوحي بأن نيابة القدس كانت تابعة لنائب دمشق حتى ربطها الناصر محمد بنيابة غزة ثم فصلها عن غزة سنة720هـ/1322م عندما تمرد على أوامره نائب غزة سنجر الجاولي فانتزع منه نيابة القدس وسجنه في الاسكندرية.

---

(1) ابن حبيب: درة الاسلاك في دولة الأتراك، مخطوط، ج1، ورقة 98 أبو المحاسن: المنهل الصافي: مخطوط، ج2، ورقة 92، مجير الدين الحنبلي:م س، ج2، ص272.

(2) ن م،جـ2، ص272، أبو المحاسن: م س، ج15، ص388

(3) الحنبلي: ن م، ص272.

(4) يذكر أبو المحاسن:ن ن، ج9، ص36 بأن الناصر محمد بن قلاوون هو الذي أسس نيابة غزة وعين عيها سنجر بن عبد الله الجاولي (ت745هـ) وابن حبيب: ن م، مخطوط، ج1، ورقة 98.

كما يذكر أبو المحاسن أنه أضاف اليها ولاية القدس ونابلس والخليل والرملة واللد وغيرهما أنظر أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مخطوط ج2، ورقة 92. ويؤيده بذلك الحنبلي :ن م، مكتبة المحتسب عمان، ج2، ص272، 1973م. وأن الناصر محمد بن قلاوون أمر سنجر الجاولي بعمل الروك في بلاد الشام: أبو المحاسن: م.س. ج2، ص36. والروك: كلمة قبطية ومعناها: قياس الأرض وتثبيت ذلك في سجلات خاصة لمعرفة درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها. أبو اللمحاسن : ن م، ج9، حاشية ص42. وكانت القدس قبل ذلك نيابة صغيرة تابعة لدمشق في عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير 709هـ/1311م ونائبها الأمير كراز المنصوري: أبو المحاسن:ن م، ج8، ص258-268 ويظهر ان الناصر محمد بن قلاوون ربط جميع نواب الشام بنيابة دمشق 714هـ/1316م وانه فصل بيت المقدس عن غزة عقاباً لسنجر الجاولي الذي رفض مراسلة السلطان عن طريق الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق فاعتقله الناصر سنة 720هـ/1322م في الاسكندرية. أنظر ابن حجر: م س، ج2، ص267، والقلقشندي، م.س. ج4، ص199، حيث ذكر القلقشندي أن نيابة بيت المقدس استحدثت عام 777هـ/1379م والحق بها نظر القدس والخليل بينما يرى العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي: تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر بأن الذي جعل بيت المقدس نيابة هو الظاهر برقوق. ويرى الدكتور يوسف غوانمة عدم الأخذ برأي القلقشندي استناداً الى الأحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة 777هـ/ 1379م لعدم وجود الضرورة الى ذلك بالنسبة الخطر الصليبي. بينما يرى الحنبلي : الأنس الجليل، ج2، ص317 أن السلطان الأشرف شعبان هو الذي رفع مرتبة نائب القدس الى طبلخاناه مع بقاء ارتباطها بدمشق لحمايتها من الخطر الصليبي، فزودها بالعتاد. وأمير الطبلخاناه: الذي يكون بخدمته أربعين مملوكاً وتدق على بابه يومياً أحمال طبلخاناه بعد صلاة المغرب.

ثالثاً:الجهاز الإداري في الدولة المملوكية

أولاً: الوظائف العسكرية "أرباب السيوف" التي اقتصرت على امراء المماليك العسكريين وتشمل:

1- **نيابة السلطنة:** هي أعلى الوظائف بعد السلطان، وتلحق بها كافة الدواوين والوظائف الأخرى، ويحكمها نائب السلطنة أو الكافل(1)، ويعين نائبها بمرسوم سلطاني من القاهرة(2).كما أن نائب السلطنة يعتبر ممثلاً للسلطان في عامة الأمور المتعلقة بمملكته "نيابته"(3) فكان من واجبات نائب السلطنة تطبيق الأحكام الشرعية ورعاية الأوقاف ومراقبة الموظفين، ومعاملتهم معاملة حسنة، وعمارة البلاد وتفقد عساكر النيابة وحفظ الأمن وحماية الثغور واقامة العدل، وتعيين فقيه في كل قرية لتعليمهم أمور دينهم(4).بما يشبه وظيفة المحافظ اليوم فيي شرق الأردن.

وكان النائب يقيم بقصر النيابة(5)، وله خاتم خاص ابتدعه الظاهر بيبرس عام 661هـ/1263م في الكرك(6). وكان يساعده في إدارة النيابة استاداراً(7) ويخدمه عدد من المماليك بما يقارب الثمانين طواشيا(8).وقد جرت العادة أن يعيد السلطان تعيين النائب سنوياً مع إرسال خلعة يلبسها في احتفال كبير(9). ثم يرسل النائب الهدايا الثمينة للسلطان بالاضافة الى المال المقرر عليه سنوياً لخزينة السلطان من مكوس نيابته(10)

---

(1) القلقشندي: م.س. ، ج4، ص184، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص44، وذكر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص53، قال كان من المنتظر أن يخلف السلطان، ص54. والباشا: الألقاب الاسلامية: ص434.

(2) الحنبلي : م س، ج2، ص33، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص65-73.

(3) القلقشندي،ن م.، ج4، ص184،223، العمري: ن.م. ص65.

(4) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص21،22، العمري،ن م.، ص92-93، القلقشندي: ن م، ج4، ص16.

(5) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج2، ص266.

(6) العيني: م س، ج20، ق3، ورقة 493، مخطوط. المقريزي: السلوك، ج1، ص492.

(7) الاستادار: من وظائف أرباب السيوف، وهو الأمير الذي يتولى مصروف البيوت السلطانية كلها ويشرف على شؤون إقطاعه وفلاحيه. انظر القلقشندي: ن م، ج5، ص457، السخاوي: الضوء اللامع، م س، ج10، ص217، والسبكي: ن م، ص39.

(8) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج3، ورقة 261، مخطوط. والسخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، 389.

(9) ابن واصل : مفرج الكروب، تاريخ الواصلين، ورقة 40، مخطوط. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج1، ص252، 253، 261.

(10) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص132 حيث ذكر أن مكوس نيابة الكرك سنوياً بلغ عشرة الاف مثقال من الذهب التي تحصل على جسر الحسا.

وبالنسبة لنيابة الكرك فقد كان السلاطين ينعمون على نواب السلطنة، بإقطاعات كبيرة تختلف من نائب لآخر حسب أهميته ومنزلته، فقد منح الظاهر بيبرس نائب الكرك الأمير عز الدين أيدمر الظاهري بلد الخليل إقطاعاً له عام 661هـ/1263م[1]. وأما الناصر محمد بن قلاوون فقد زاد في إقطاع نائب الكرك سبع قرى أخرى[2]. وكانت تتبعها أربع ولايات هي ولاية الكرك وولاية الشوبك وولاية زُغر وولاية معان[3]. ومن الامتيازات الأخرى التي خص بها سلاطين المماليك نيابة الكرك لاهميتها لهم أنهم كانوا يعينون عليها أميراً كبيراً كان من الملقبين بأتابك العسكر[4] ويتمتع بالخصائص التالية:

- كان يكتب على الورق الأحمر الشامي كنائب دمشق دون غيرة من النواب[5].
- يراسل السلطان مباشرة بينما كان بقية نواب الشام يراسلونه عن طريق نائب دمشق الأمير تنكز[6].
- كثرة إقطاعاته وثرائه بخلاف النواب الآخرين[7].
- كانت تصنع باسمه أوانٍ نحاسية تحمل اسمه كدليل على الثراء والرقي والكمال[8].
- كما كان يركب مرتين في الأسبوع برفقة الأمراء والحجاب وكبار موظفي النيابة أثناء خروجه من الكرك وعودته بنفس الحفاوة والتبجيل كبقية نواب الشام[9].

---

(1) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج3، ص242، والمقريزي: السلوك، ج2، ص44.

(2) بيبرس، الدوادار، م س، ج9، وكرقة 303، مخطوط.

(3) القلقشندي: م س، ج4، ص242. وأما ابن فضل الله العمري فقد ذكر ولاية زُغر ومعان ومؤتة والشوبك، مسالك الأبصار، ص210-215.

(4) أتابك: "أتا" بمعنى أب و"بك" بمعنى أمير أو سيد: فيصبح المعنى الأب الأمير أو الأب السيد، ويطلق عليه مقدم عسكر المملكة أو الأمير الكبير. انظر القلقشندي: ن م، ج6، ص25، ج12، ص225، وابن شاهين الظاهري:م س، ص113.
D.Ayalon “Atabak Al - “Asakir”. E.I2. vol.1, p732.

(5) القلقشندي: ن م ، ج6، ص193، ج8،ص 54، وابن شاهين: م س، ص132. بينما كان نواب الشام يخاطبون نائب السلطنة في دمشق الأمير تنكز، وكان النائب يقيم في قصر النيابة في المدينة ويمثل السلطان في جميع الأمور والتواقيع عى المناشير والمراسيم.بما يشبه المحافظ اليوم. أنظر ابن حجر: م س، جـ2، ص266. والقلقشندي: ن م، جـ4، ص16. والعمري: التعريف، ص65.

(6) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج9، ص38.

(7) أبو المحاسن: ن.م.، ج8، ص179.

(8) د. غوانمة: التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط1، 1982م، عمان ص32.

(9) القلقشندي: ن م، ج4،ص179.

وكانت نيابة الكرك تحتل القسم الجنوبي لمنطقة شرقي الأردن، واشتملت نيابتها على أربع ولايات هي الشوبك، ومعان، وزُغر، والبر[1] وكان نائب الكرك يعين ولاة لهذه الولايات تابعين له ولا يراسلون غيره[2]. بالإضافة إلى مرابطة جنود في الولاية لمساعدة الوالي ايضاً[3].

وكان لكل نائب خاتم خاص بإدارته في النيابة منذ سنة 661هـ/1263م زمن الظاهر بيبرس[4] ومساعد النائب: الاستادار[5] ومماليكه ثمانين طواشياً[6] للاشراف على شؤون الإقطاع للنائب في الولاية وعلى الفلاحين ونفقات بيت النائب[7]. ومن إقطاعات الكرك زمن السلطان الظاهر بيبرس إقطاع الأمير عز الدين أيدمر الظاهري 661هـ/1263م بلد الخليل في فلسطين[8] ثم تبع هذا الإقطاع لنائب الكرك زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اذ منحه سبع قرى جديدة[9] مما جعله من الاثرياء لحصوله على المال الوفير من هذه الإقطاعات[10]. فكانت قصوره تشبه قصور السلاطين في القاهرة[11].

وكان السلطان في القاهرة يجدد نيابته سنوياً بإهدائه خلعة سلطانية يلبسها في احتفال كبير حيث يمر من أمام الأهالي. تأكيداً لنيابته وإظهاراً لثقة السلطان به[12]. فيرد النائب الجميل، بالعرفان وذلك بارساله الهدايا القيمة له وكان قبول السلطان لها تعبيراً عن رضائه عن النائب كما كان النائب يقدم مبلغاً من المال الى خزينة السلطنة لكثرة واردات النيابة من المكوس[13].

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص183، القلقشندي:م س، ج4، ص156.

(2) القلقشندي:م س، ج7، ص180.

(3) الخالدي: م س، ورقة 154، مخطوط.وكان هولاء الولاة يراسلون من قبل نائب السلطنة في الكرك.

(4) العيني: م س، ج20، ورقة 261 مخطوط، المقريزي:م س، ج1، ص 492.

(5) السخاوي: الضوء اللامع، جـ10، ص217.

(6) بيبرس الدوادار: م س، جـ3، ورقة 261، مخطوط.

(7) السبكي: م س، ص39.

(8) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ5، ص 242.

ثم انتزعه منه عندما نقله لنيابة دمشق ومنحه لنائبها الجديد الأمير علاء الدين ايدكين الفخري مما يظهر الأهمية الخاصة لنائب الكرك.

(9) بيبرس الدوادار: ن م، ج4، ورقة 303 مخطوط.

(10) المقريزي: ن م، ج2، ص44.

(11) د. يوسف غوانمه،التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص32 حيث ذكر وجود طبق من النحاس الاصفر يعود سنة 708هـ في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة نقش عليه اسم نائب الكرك جمال الدين آقوش، كدليل على الثراء الفاحش.

(12) ابن طولون: م س، ج1، ص252، 253، 261.

(13) هذا فقد بلغت واردات الكرك من المكوس المحصل من جسر الحسا عشرة آلاف مثقال ذهب: ابن شاهين: م.س. ص132.

ومن الوظائف الإدارية في الكرك زمن الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون بعد مبايعته بالسلطنة في القاهرة 742هـ/1342م حيث بدأ بعملية التطهير بين صفوف الامراء المشاغبين وعين بدلاً منهم المخلصين له وأمر بالأخباز[1] والرواتب[2] والإنعام[3] والأمريات[4] لأعوانه في الكرك وكانت ثقته بهم كبيرة فاتخذ خاصته منهم لحراسته وحمايته وخاصة الجاشنكير يوسف بن النصّال وأبو بكر البازدار[5] الكركيان الأصل وأخيراً قرر اتخاذ الكرك حاضرة لملكه لجو القاهرة المشحون بالكراهية والمؤامرات السرية بين الطامعين في الملك فحمل اليها الأموال والذخائر عام 742هـ/1342م ورافقه الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله أحمد[6]. وخواصه من الكركيين وكاتب السر وناظر الجيش بعد أن نقل اليها كل الخزائن السلطانية وشعائر السلطنة[7] وبدأ بتحصين قلعة الكرك وشحنها بالسلاح والغلال[8].

---

(1) النويري: نهاية الأرب، ج2، ص209، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص50، ج13، ص153، الأخباز: وتعني الإقطاعات الممنوحة للجند والامراء مع حق استغلالها وحق التصرف فيها كيفما شاءوا.

(2) الرواتب: ومعناها الجوامك: ومعنى الجامكية: الأجر اليومي، وكانت الجوامك الشهرية تشمل الحبوب والطعام والعليق، وكانوا يمنحون إقطاعات أحياناً بدل الرواتب، القلقشندي:ن م، ج4، ص41.

(3) إلانعام: ما ينعم به السلطان أو الأمير على خواصه واتباعه في المناسبات كالخلع والخيول والعقارات وكسوة القماش، القلقشندي: ن م، ج4، ص52-55.

(4) الأمريات: اعطاء رتبة أمير. وكان الأمراء أربع طبقات أعلاها المئين: مقدموا الألوف وبعدها طبقة امراء الطبلخاناه ثم امراء العشرات ثم امراء الخمسات، القلقشندي: ن.م.، ج4، ص144-150 وابن شاهين: م س، ص113-115

(5) البازادار: حامل طيور الصيد والجوارح على يده وهي وظائف أرباب السيوف: القلقشندي: ن.م. ج5، ص469 وما زالت هذه الوظيفة موجودة في دول الخليج العربي وخاصة دولة الامارات العربية المتحدة.

(6) المقريزي: السلوك، ج2، ص610. وأبو المحاسن: م س، جـ10، ص67.

(7) ابن كثير: م س، جـ14، ص20، وابيه قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج1، ورقة 27 مخطوط. وهذا ما جعلني أميل الى رأي د. يوسف غوانمة الى انه كان ينوي الاستقرار بالكرك بصفة نهائية واتخاذها دار سلطنة بالرغم من عدم إشارة المورخين لذلك وكان شعار السلطنة (القبة والطير والغاشية والمنجاة)، أما الغاشية : سرج من أديم مخروز بالذهب تحمل بين يدي السلطان في المواكب، وأما المنجاة: خنجر مقوس شبه السيف يطلق عليه أيضاً "دشن" و "سيخ" أو "سكين". ماير: الملابس المملوكية، ص67. وأبو المحاسن: ن م، جـ10، ص79، ذكر الطائر الذهبي الذي يوضع عليه القبة وما زالت عادة لباس الخنجر المقوس في اليمن وسلطنة عُمان حتى اليوم.

(8) ابن قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ الاسلام، ج1، لوحة 37 مخطوط، ورقة 38. المقريزي: ن م: ج2، ص620. وأبو المحاسن: ن م، جـ10، ص69.

حيث ذكروا في رده على أمراء المماليك عندما طلبوا منه العودة للقاهرة: "إن الشام ملكي وديار مصر ملكي، والكرك ملكي، وقد أقمت نائباً وحاجباً ووزيراً يقضوا اشغال الناس وإن أي مكان خطر لي أقمت فيه... ومن تكلم فيما لا يعنيه قتلته". ولما أيقنوا من قرارة البقاء في الكرك قرر أمراء مصر والقاهرة عزله وتعيين أخيه اسماعيل ولقبوه بالملك الصالح عماد الدين اسماعيل الذي عزل الناصر ولرفض المماليك لسياسته بإدخال العنصر الأيوبي في القيادة المملوكية. د. غوانمة: التاريخ الحضاري، ص245.

ولكن الشؤم لاحقه ولم يهنأ بالإقامة بالكرك إلا ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً[1] حيث قتله الامير منجك اليوسفي الناصري المرسل من قبل أخيه السلطان اسماعيل خنقاً وقطع رأسه في ليلة 4 ربيع أول 745هـ/ 17 يوليو "تموز" 1243م وحمله لاخيه في القاهرة[2].

بالاضافة إلى مجموعة من الوظائف العسكرية الصغرى كنقابة الجيش التي تشرف على العسكر، ونقابة القلعة التي تشرف على حفظ وصيانة القلعة وشد الأوقاف المشرفة على شؤون الأوقاف وأحباسهم وقد تولى أمرها صغار الأمراء[3].

وبالنسبة لجيش الكرك فقد كان لها جيشاً محلياً للدفاع عنها زمن الايوبيين والمماليك.

فشارك الجيش في العهد الأيوبي فيها في فتح آمد[4] 629هـ/1231م مع قوات الكامل محمد السلطان الأيوبي في مصر وشارك في فتح بيت المقدس 637هـ/1238م بقيادة الناصر داود عندما طهرها من الصليبيين الذين كانوا قد تسلموها من الملك الكامل الأيوبي اثناء الحملة الصليبية السادسة. كما حاول المساهمة في استرجاع عرش الأيوبين في مصر بداية دولة المماليك الأولى ولكنه فشل لتفوق جيش المماليك.

وأما الجيش المملوكي في الكرك فكان جيشاً إقطاعياً كبقية الجيوش في دولة المماليك بمصر والشام، حيث كان السلطان في القاهرة يصدر مراسيم الإقطاعات للأمراء وأجناد الحلقة وحفظت هذه المراسيم لدى ناظر جيش الكرك. أما الأجناد الباقين في الكرك فتصدر مراسيم من امرائهم[5].

ويلاحظ بأن مهمة هذا الجيش كانت حربية وانتصارية لحماية الدولة خارجياً من الاعداء وداخلياً بحفظه الاستقرار لتنشيط الأنتاج الزراعي والصناعي والتجاري. وكانت عناصر جيش

---

(1) .المقريزي: السلوك، ج2، ص618، ابو المحاسن، م س، ج10، ص70.

(2) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج8، ص90، وابن كثير: م س، ج14،ص213. المقريزي: ن م، ج2، ص662، أبو المحاسن: ن م، ج10، ص71، 93.

(3) القلقشندي: م س، ج4، ص186-187.

(4) آمد: مدينة محصنة بسورها الحجري الأسود، وبداخلها ينابيع ولها بساتين وزرع كثير (انظر القلقشندي:م س، ج4، ص324.

(5) المقريزي: الخطط، ج3، ص350.

الكرك مكونة من المماليك والقبائل العربية[1] حول الكرك بالإضافة لأهالي الكرك ومنطقة جبال الشراة ومؤاب الجبلية[2] وبالنسبة لقيادة هذا الجيش فكانت تتكون من ناظر الجيش[3] المعين من قبل السلطان للحفاظ على إقطاعات الامراء والأجناد في النيابة[4] بمساعدة كتاب وشهود[5] ثم أمراء الطبلخاناه[6] وأمراء العشرينات[7] وامراء الخمسات[8] وأجناد الحلقة والبحرية[9] والغلمان السلطانية.

ويلاحظ وجود مماليك سلطانية في جيش الكرك بخلاف جيوش نيابات الشام الآخرى والتي لا يتوفر فيها هؤلاء المماليك السلطانية لأهميتها الخاصة عند السلاطين فميزوها عن غيرها[10].

أما أعداد الجيش المملوكي في الكرك: فقد تطورت حسب الظروف السياسية والعسكرية زمن سلاطين المماليك وتبعاً للحاجة. فكانت جيوش النيابات الصغيرة في صفد والكرك وحماة صغيرة في بداية عهد المماليك[11].

ومن النشاطات العسكرية التي شارك فيها معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م مع جيش مصر والشام، وساعد الظاهر بيبرس في إرجاع الكرك من المغيث عمر سنة

---

(1) من فرسان بني عقبة عرب الكرك، وفرسان بني مهدي عرب البلقاء المخصصين لخدمة السلطان بموجب النظام الإقطاعي العسكري المملوكي وكان عددهم حوالي الف مقاتل: ابن شاهين:م س، ص105.

(2) المقريزي: السلوك، ج1،ص670. والنويري: نهاية الأرب، ج24، ورقة 6 مخطوط.

(3) ابن شاهين:ن م، ص132، القلقشندي: م س، ج4، ص241، 242، ج9، ص 258، ج12، ص232.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص30، 31، 190

(5) المقريزي: الخطط، ج3، ص368.

(6) أمير الطبلخاناه: الذي بخدمته اربعين مملوكاً وتوقد المشاعل أمام منزله بعد صلاة المغرب: ابن شاهين: ن م، ص113

(7) أمراء العشرينات: ومفردها أمير عشرة وهو الذي بخدمته عشرين مملوك: ن م، ص113

(8) أمير الخمسة: الذي بخدمته خمسة مماليك: ن م، ن ص.

(9) أجناد الحلقة: أهم فرقة من المماليك زمن الأيوبين والمماليك حازت على الإقطاعات بعد المماليك السلطانية وفي المرتبة التالية وسلحوها بسلاح جديد وهو المكاحل "البنادق": القلقشندي: ن م، ج4، ص16،، غوانمة، ن م، ص46.

(10) القلقشندي: ن.م. ج5، ص182.

(11) النويري، نهاية الأرب، ج28،ورقة 70، مخطوط، حيث ذكر اثناء تمرد جيوش الكرك على الظاهر بيبرس فقرر شنق 600 فارس غير المشاه ثم عفا عنهم واستبدلهم بقوات عسكرية من القاهرة. ويقدر د. يوسف غوانمة أعداد جيش الكرك ما بين 600-1000 فارس عدا المشاة ومماليك الأمراء المرتبين فيها لعدم وجود نص صريح يتضمن عدد جيش الكرك. غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، ص44، 45.

661هـ/1263م فكافأهم[1]. كما شارك في حرب المغول زمن السلطانين الملك المنصـور سيف الدين قلاوون والسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون[2].

وشارك ايضـاً في فتح عكا سنة 690هـ/1292م بقيادة المؤرخ القائد الأمير بيبرس الدوادار نائب الكرك[3]. ومن السلاطين الذين اهتموا بهذا الجيش بالاضافة إلى الظاهر بيبرس كما ذكرنا سابقاً الملك المنصور قلاوون سنة 685هـ/1288م[4] والسلطان الملك الصالح اسماعيل سنة 745هـ/1343م بعد قضائه على ثورة الناصر أحمد في الكرك[5].

قائمة نواب الكرك زمن المماليك (مأخوذة من السلوك، جـ3، ق1، للمقريزي)

اسم النائب	مدة ولايته	السلطان المعاصر له
الملك السعيد بن الظاهر بيبرس	678هـ/1279م	كان مستقلاً في الكرك
الملك المسعود بن الظاهر بيبرس	678-685هـ/1280-1286م	كان مستقلاً في الكرك
الملك محمد بن قلاوون ونائبه جمال الدين أقوش	708- 709 هـ/1308-1309م	كان مستقلاً في الكرك
السلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون	742-745هـ/1341-1344م	كان مستقلاً في الكرك
الأمير أحمد بن القِشتمرى	764هـ/1362م	الاشرف شعبان
الأمير أقتمر عبد الغني	775هـ-1374م	
الأمير طيدمر البالسي	775هـ/1374م	الاشرف شعبان

(1) حيث صرف مرتباتهم من أمواله الخاصة لمدة ثلاثة أشهر مقدماً ومنحهم الإقطاعات: المقريزي: السلوك، ج1، ص491 كما زود هـذا الجيش بجماعة من البحرية والظاهرية (ن م، ص492)، والنويري: نهاية الأرب ج2، ورقة 23مخطوط.

(2) المقريزي:ن م، ج1، ص691.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ورقة 283-285 مخطوط.

(4) المقريزي: ن م، ج1، ص732.

(5) المقريزي: ن م، ج2، س662،666، وأبو المحاسن: م س، ج5، ص93.

الأمير تمرباي التمرتاش	777هـ/1376م	الاشرف شعبان
الأمير ملكتمر	778هـ/1377م	كان مستقلاً في الكرك زمن الشرف شعبان[6]

[6] المقريزي: السلوك، جـ3، ق1، ص268.

النظام الإداري في القسم الشمالي من شرقي الأردن :

لقد قسمه المماليك الى ثلاثة أقسام هي :

اولاً: نيابة عجلون: وكانت تابعة لنيابة دمشق حيث كان نائبها يُعَيّنُ من قبل نائب دمشق المملوكي[1]، وكذلك قاضيها المعروف بقاضي عجلون[2]. ولقد أهتم بها المماليك وطوّروا النظام الإداري فيها[3] نظراً لمركزها الاستراتيجي كحلقة وصل بين دولة المماليك في مصر والشام عبر الأغوار الى مدينة اربد فأدرعات "درعا اليوم" الى دمشق كما كان يستريح فيها السلطان أثناء زيارته لدمشق وغيرها ويلقى بها التكريم وتقام له الاحتفالات من مأكولات ومشروبات[4].

وبالنسبة لجهاز عجلون الإداري فقد تكون من النائب المقيم في قلعتها التي استخدمت ايضاً كمستودع للذخيرة والسلاح والغلال حيث كان يحرسها عدد من الجند زمن السلطان الظاهر بيبرس سنة 659هـ/1261م[5].

ثانياً : ولاية البلقاء: كما كانت تشكل المنطقة الوسطى لشرقي الأردن : وكان وضعها الإداري يتبع الحالة السياسية حيث كانت تتبع أحياناً بنيابة دمشق[6] وأحياناً أخرى بنيابة الكرك كما حصل أيام السلطان الملك المسعود بن الظاهر بيبرس[7] وأحياناً للسلطنة في القاهرة زمن المنصور قلاوون في القاهرة[8]. والذي أهتم بها بعد أن خلّصها من السلطان المسعود بن

---

(1) القلقشندي: م.س. ج12، ص105

(2) المقريزي: السلوك، ج2، ص795، 746، ابن ايبك : كنز الدرر، ج434، اليونيني: م س، ج3، ص433، 434. والسبكي، م س، جـ5، ص23. والقلقشندي: ن م، جـ4، ص200. والخالدي: ن م، ورقة 148، مخطوط.

(3) انظر: ابن طولون: مفاكهة الخلان: ج1، ص40-41، 170 يذكر أن نائبها أصبح يعين من قبل السلطان في القاهرة زمن دولة المماليك اعتباراً من 814هـ/1411م.

(4) المقريزي: السلوك، ج4، ص156

(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص433، 434، والمقريزي: السلكوك، ج2، ص795. ابن ايبك:ن م: جـ9،ص 93، والسخاوي: م س، ج4، ص746.، الصفدي: م س: ج7، ص66، 67.

(6) العمري، ن م، ص178.

(7) أثناء ثورته بالكرك وتوسعه نحو البلقاء وضمه الصلت الى امارته في الكرك. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ9، ورقة 148، مخطوط. وابن بهادر: فتوح النصر، ورقة 312، مخطوط.

(8) النويري: نهاية الأرب، ج29، ورقة 6، مخطوط، بيبرس الدوادار: ن م، ج9، ورقة 148، مخطوط.

الظاهر بيبرس 678هـ/1280م وتعيينه للأمير جمال الدين آقش الشريفي ولقبه بنائب السلطنة الشريفة "بالصلت والبلقاء"[1] ثم أعادها كإحدى ولايات نيابة دمشق بعد القضاء على ولدي الظاهر بيبرس في الكرك، وانتقل مركز الولاية من الصلت الى مدينة عمّان كمقر للوالي[2]. ثم تحول مركزها الى مدينة حسبان[3].

وقد أكرم الناصر محمد بن قلاوون أهالي البلقاء لوقوفهم الى جانبه أيام محنته في الكرك. حيث زار حسبان سنة717هـ/1315م عندما أصبح سلطاناً في القاهرة ومكث بها مدة طويلة رتب فيها أمورها، ثم زار القدس والكرك[4].

وبالنسبة للجهاز الإداري في ولاية البلقاء فقد كان كالتالي :

حيث كان الوالي على رأس الجهاز[5]. ثم القضاة كقاضي البلقاء[6] وقاضي الصلت[7] وقاضي حسبان[8].

ثالثاً: **منطقة الأغوار الشمالية** " من الباقورة شمالاً وحتى أريحا جنوباً" فكانت تابعة لنيابة دمشق لأهمية القبائل فيها[9]. بينما ضمت الأغوار الجنوبية جنوب البحر الميت الى نيابة الكرك[10] كما كانت مدينة بيسان على الضفة الغربية لنهر الأردن مركزاً لولاية

---

(1) المقريزي: السلوك: ج1، ص 665، ابن الفرات: م س، ج7، ث154. ويعتقد الدكتور غوانمة، التاريخ الحضاري، ص48، بأن السلطان قلاوون جعلها نيابة وعين نائبها الأمير جاندار وزودها بالعتاد ليقفوا أمام أطماع الملك المسعود بن الظاهر بيبرس.

(2) القلقشندي: م س، ج12، ص321.

(3) العيني:م س، ج22، ورقة 110، 137 مخطوط. حيث كتب والي حسبان لنائب دمشق يخبره بتحرك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك باتجاه دمشق في سلطنته الثالثة.

(4) أبو الفداء: م س، ج4، ص85. الخالدي: م س، ورقة 154، مخطوط مصور بجامعة القاهرة.

(5) كان الوالي أمير طبلخاناه يعاونه عدد من الجنود : القلقشندي: ن م، ج4، ص201.

(6) أبو شامة: م س، ص201 .

(7) السبكي: م س، ج5، ص132-133

(8) ن م، ص133.

(9) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص178.

(10) العمري:م س، ن ص.

الأغوار[1]. هذا وقد ذكر النويري وجود والٍ آخر في الشونة الشمالية "القصير المعيني"[2].

وهكذا نرى أن المماليك قسموا شرقي الأردن الى قسمين رئيسيين هما :

القسم الجنوبي : ومركزها الكرك التي أصبحت إحدى النيابات الست الهامة في بلاد الشام "نيابة السلطنة بالكرك"[3] وتتبعها ولاية الشوبك وولاية معان وولاية زغر وولاية البر.

والقسم الشمالي : ويشمل على نيابة عجلون[4] ومنطقة الأغوار[5] وولاية البلقاء[6] وجميعها يتبع نيابة دمشق[7].

---

(1) ن م، ن ص. والقلقشندي:م س، ج4، ص104.

(2) النويري: م س، ج28، ورقة 50 مخطوط. وكانت معظم أراضي الأغوار من أملاك السلطان الخاصة لوجود قصب السكر حيث عهد لنائب دمشق بالاشراف على صناعة السكر بتعيينه أميراً برتبة استادار "استادار الأغوار" انظر ابن قاضي شهبه: م س، ج3، ورقة122، مخطوط.

(3) أبو المحاسن:م س، ج9، ص 193، والقلقشندي، ن م، ج4، ص163 والنيابات الست هي نيابة دمشق، وحلب، وحماة، وطرابلس، صفد، الكرك ويضيف بعض المؤرخين نيابة سابقة هي نيابة غزة التي انشأها الملك محمد بن قلاوون، أبو المحاسن: ن م، ج9،ص 193. وتمتد نيابة الكرك الى العقبة جنوباً والى نهر الموجب وزيزياء شمالاً ومن الأزرق شرقاً الى البحر الميت ووادي عربة شبه بني اسائيل سيناء غرباً. والعمري : التعريف بالمصطلح الشريف، ص183.

(4) نيابة عجلون تمتد من نهر الزرقاء جنوباً الى نهر اليرموك "الشريعة القبلية" شمالاً ومن نهر الأردن والأغوار غرباً الى البادية شرقاً، العمري: مسالك الأبصار، ج1، ص82، وتضم كثيراً من المدن والقرى هي: مدينة اربد وبيت راس وحبراص وملكا وأم قيس (جدارا) وايدون، والمفرق، والظليل، والرمثا، وارحابا، وغيرها وتشمل هذه النيابة على منطقة الصويت الممتدة من شرقي جبال عجلون وجرش حتى أم الجمال في بادية الشام، لمعرفة مزيد من المعلومات انظر ابو الفداء: تقويم البلدان، مطبعة المثنى، بغداد، 1850م، ويوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص38.

(5) قسمها الجغرافيون العرب الى ثلاثة أقسام هي الغور الأعلى وهو غور القصير "الشونة الشمالية حالياً وبيسان والأوسط وهما عمتا (أبو عبيدة حالياً) ودامية واريحا، والأسفل وهو غور زغر ويربطها مع فلسطين عدد من الجسور على نهر الأردن.

(6) تمتد ولاية البلقاء من نهر الموجب جنوباً الى وادي الزرقاء شمالاً ومن نهر الأردن والأغوار غرباً الى الأزرق والبادية شرقاً، العمري: مسالك الأبصار، ج3،ق3، ورقة 441 مخطوط

(7) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص178 والقلقشندي،: ن م، ج4، ص 103، 106. والنويري: ن م، جـ28، ورقة 50، مخطوط.

وبالنسبة لنائب بيت المقدس في العهد الأيوبي وحتى بداية الحكم المملوكي فيتم تعيينه من قبل نائب السلطان في دمشق الذي يعين أميراً من امرائه ويسمه والياً[1] ثم اطلق عليه اسم "نائب" عندما تحولت الى نيابة عام 777هـ/1375م.[2]

هذا وكانت اختصاصات النائب في نيابة السلطان في حكم المدينة[3] ومنذ 777هـ/1375م زادت واجبات نائب القدس بحيث اصبح يقوم بمهام نيابة مدينة الخليل إدارياً، والنظر في الحرمين الشريفين "القدس والخليل" فلقب بناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف، وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام[4]. ومنذ هذا التاريخ أصبح نوابها من أمراء الطبلخاناه[5]، يعينه السلطان في مصر.

وبالنسبة لولاية صفد في فلسطين: فقد تولى نيابتها زمن الظاهر بيبرس الأمير عز الدين العلائي عام 664هـ/1266م[6]. وتولى نيابتها أكثر من مرة الأمير سيف الدين طغاي من سنة 720-736هـ/1318-1336م في عهد الناصر محمد بن قلاوون[7] وكان يتبعها إحدى عشرة

---

(1) مجير الدين الحنبلي: الأنيس الجليل، ج2، ص212، 213 وانظر القلقشندي، م س، ج4، ص119، لأنها كانت ولاية تابعة لدمشق. وعندما اصبحت نيابة أصبح نائب القدس يختار والياً للمدينة فكانت مهمته الاشراف على مدينة القدس وحماية السكان، ومنع المنكرات من خمرة وحشيشة ولا يحق له التجسس على الناس وكبس بيوتهم بمجرد الوشاية، والمحافظة على الأمن: السبكي: معيد النعم، دار الكتاب العربي مصر 1948ص43. كما يسميه مجير الدين الحنبلي بصاحب الشرطة "حكام الشرطة من النواب" مجير الدين، ن م، ج2، ص604. كما كان مسؤولاً عن سلامة الحجاج الذين يقدمون للمدينة. نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، دمشق، 1966م ص154.

(2) القلقشندي: ن م،ج4، ص197-199، ج12، ص104.

(3) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج3، ص144، حيث وصفه بأنه نائب مختص فيما هو ناء عن الحضرة وأن النائب هو المتصرف المطلق في كل أمر" فكان يتابع ويشرف على كل ما يتعلق بالجيش والمال والبريد والموظفين وحماية المملكة وأهل الذمة وتطبيق الشرع وتولية ولاة الأعمال وصغار النواب على المدن الصغيرة والقلاع ويوظف من يشاء في الوظائف العامة انظر القلقشندي: ن م، ج12، ص229، 232.

(4) مجير الدين ن م. ج1، ص608.

(5) وهي مرتبة عسكرية يخدم صاحبها اربعون مملوكاً. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص113. ويدق على باب أمير الطبلخاناه الطبول كالسلطان وامراء المئات ولكن بصورة مصغرة وقد تزيد مرتبه أمير الطبلخاناه الى امرة سبعين أو ثمانين مملوكاً المقريزي: السلوك . ج1، ص238 هامش رقم 1 وكان يعاقب أهل الجرائم بسوط معتدل طري يضربه متحاشياً الوجه، والمقاتل انظر السبكي: م.س. ص44.

كما كان يفضل أن يكون هذا الوالي من ابناء القدس الذين عاشوا فيها وربما تربوا فيها من أصل مملوكي، لأنه يشترط فيه أن يكون عارفاً بالعرف والعادة. انظر القلقشندي:ن م، ج12، ص330، 331.

(6) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص264، المقريزي: ن م، ج1، ص547-548، وابن تغري بردي: م س: ج3، ص139.

(7) المقريزي: ن م، ج2، ص183، 321- 322، وابن تغري بردي: ن م، ج10، ص244.

ولاية: كولاية بر صفد وولاية الناصرة وولاية طبرية وولاية تبنينوولاية عتليت وولاية عكا وولاية الشاغور وولاية جنين والشقيف[1]. وكان لنائب صفد عند السلاطين ميزة خاصة به للمخاطبة عند تعيينه[2] ومن الملاحظات الهامة حول نائبها أيضاً أن بعضهم قد عين للتخلص من معارضته للسلطان كالأمير سيف الدين الأبو بكري عام 722هـ/1322م.[3]. والأمير آرغون شاه عام 747هـ/1345م لابعاده عن القاهرة[4]. وكذلك الأمير أحمد الساقي (شاد الشرابخاناه) عام 749هـ/1347م [5].

ويلاحظ لجوء بعض السلاطين للتقليل من شأن الأمراء بتعيينهم نواباً لصفد عند الغضب عليهم كالأمير سيف الدين طغاي الحاصلي الذي غضب عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فعينه نائباً في صفد عام 718هـ/1320م[6]. والأمير الحاج ملك نائب السلطنة في مصر الذي غضب عليه السلطان وعينه نائباً لصفد عام 746هـ/1344م[7]وقد أُنشِئ ديوان البذل[8] في عهد السلطان الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون (753-755هـ/1351-1353م وانتشر في مختلف انحاء سلطنة المماليك، ومن شروط نائب صفد أن يكون أميراً من مقدمي الألوف[9].

وبالنسبة لراتب نائب صفد فكان من إقطاعه الخاص، وإذا لم يف بحاجته يُزَاد من الخاص السلطاني كما حدث عام 676هـ/1278م عندما أخذ الأمير علم الدين سنجر الحموي من الخاص السلطاني، وكذلك الأمير طشتمر البدري الساقي عام 737هـ/1335م[10].

---

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص240-241، وابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص207-208.

(2) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف، ص70-73. أورد النص "ضاعف الله همة الجناب اللعاي الأميري، الأجل الكبير، العادلي المرابطي...".

(3) المقريزي: ن.م، جـ2، ص338.

(4) المقريزي: ن.م. ص720، وابن تغري بردي، ن.م. جـ10، ص153.

(5) المقريزي، ن م، ص761..وابن تغري بردي : ن م، ص192.

(6) ابن ايبك الدواداري: الدر الفاخر، ص293.

(7) المقريزي:ن م، ج2، ص681، 682، 697، 698.

(8) ابن تغري: النجوم، ج11، ص292، وكان من له حاجة يأتي الى صاحب هذا الديوان، ويبذل فيما يريد من الوظائف.

(9) القلقشندي: ن م، ج4،ص14. ومقدموا الالوف: مفردها مقدم ألف وهو الأمير الذي يتقدمه مائة فارس ممن دونه من الأمراء ويسمى "أمير مائة" وهي أعلى الرتب العسكرية المملوكية.

(10) ابن الفرات: م.س. ج7، ص90، المقريزي: ن م، ج2، ص403، ابن تغري: ن م، ج9، ص145-147.

أما نواب غزة فكان منهم زمن الأشرف شعبان وابنه علي :

اسم النائب		اسم السلطان المعاصر له
الأمير أرغون الأزفي	769هـ/1368م	الأشرف شعبان[1]
الأمير محمد بك الشيخوني	770هـ/1369م	الأشرف شعبان[2]
الأمير شرف الدين موسى الأزكشي	774هـ/1373م	الأشرف شعبان[3]
الأمير الحاج آل ملك	775هـ/1374م	الأشرف شعبان[4]
الأمير زين الدين مبارك شاه العلاي المشطوب- مكث شهراً ثم نقل حاجباً لطرابلس	779هـ/1378م	العادل علي بن الأشرف[5]
الأمير مبارك شاه الطازي	780هـ/1379م	العادل علي بن الأشرف[6]
الأمير ناصر الدين بن الحبغا العادلي	781هـ/1380م	العادل علي بن الأشرف[7]

(1) المقريزي:م س، ص177.
(2) ن م، ص176.
(3) المقريزي: ن م، جـ3، ق1،ص202.
(4) ن م، جـ3، ص219.
(5) ن م، جـ3، ص320.
(6) ن م، جـ3، ص327.
(7) ن م، جـ3، ص275.

ومن نواب صفد زمن المماليك

اسم الأمير		اسم السلطان المعاصرله
الامير قطلو أقتمر الصلاي أمير جاندار، بدلاً من الأمير عمر بن أرغون	شهر رجب766هـ/1366م	الأشرف شعبان
الأمير أزدمر- بدلاً من قطلوأقتمر	رمضان 766هـ/1366م	الأشرف شعبان
الأمير عزالدين أزدمر الناصري الخازندار	769هـ/1369م	الأشرف شعبان
الأمير قطاوبقا المنصوري حاجب السلطان الأشرف شعبان – بعد عزل الأمير علمدار المحمدي – ثم نقل في نفس السنة إلى نيابة غزة وعين محله	775هـ/1375م	الأشرف شعبان[1]
الأمير أشتمر	775هـ/1375م	الأشرف شعبان[2]
الأمير منجك	775هـ/1375م	الأشرف شعبان[3]
الأمير منكلي بغا البلدي	775هـ/1375م	الأشرف شعبان[4]
الأمير أقتمر عبدالغني	778هـ/1377م	الأشرف شعبان[5]
الأمير فيغا الجوهري	788هـ/1377م	الملك العادل على الأشرف[6]

وهكذا لوحظ تبادل النواب بين الكرك وصفد زمن الأشرف شعبان بالإضافة لقصر مدة الوالي لعدم الثقة بهم وزيادة في الحيطة والحذر حتى لا تسول لهم أنفسهم بالتمرد.

---

(1) المقريزي:جـ3، ص219.
(2) ن م، ص223.
(3) ن م، ص224.
(4) ن م، ن ص.
(5) ن م، ص268.
(6) ن م، ص327.

2ـ **نيابة القلعة**: كانت مستقلة عن نيابة السلطنة لتبعيين صاحبها من قبل السلطان مباشرة، ولا يخضع لنائب السلطنة[1] ويكون صاحبها من مقدمي الألف أو أمراء الطبلخاناه، وأول من أحدث هذه الوظيفة بقلعة الكرك سنة 674هـ/1276م الظاهر بيبرس، وبالنسبة لمهمة نائب القلعة فكانت حفظ القلعة وصيانتها وترميمها وخزن[2] الذخيرة الحربية فيها، والحرص على مفاتيحها بحيث لا يسلمها إلا بأمر السلطان لمن يأتي بعده[3] كما كان بمثابة جهاز الأمن الذي يراقب أعمال نائب السلطنة[4] وجميع الموظفين في النيابة ويقوم على خدمته بعض الجنود[5] واستخدم الحمام الزاجل لارسال تقاريره[6] وبالنسبة لقلعة القدس الحصينة فكانت بالجانب الغربي من القدس قرب باب الخليل. وكانت عادة المماليك تعيين أميراً للقلاع من قبل السلطان لتفقدها كما حدث عام 713هـ/1313م عندما تولى هذه المهمة بدمشق "الأمير عبدالله الدواداري المهمندار" والد المؤرخ ابن أيبك والذي قام بجولة تفقدية لقلاع البلقاء وعجلون حيث انزلقت يد فرسه في وادي الزرقاء فمات ودفن في أذرعات[7].

---

(1) القلقشندي: م س، ج2، ص184،ج4، ص199، ج12، ص125.

(2) المقريزي: السلوك، ج3، ص657، أبو المحاسن،م س، ج11، ص348. وابن واصل، م س، ورقة 491، مخطوط. حيث عين عليها الأمير شمس الدين السهيلي.

(3) ن.م. ن. ص.،و العمري: التحريف، ص148

(4) على ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، 1944، ص250، سعيد عاشور، مصر والشام، ص311

(5) العمري: التعريف، ص149، القلقشندي: م س، ج4، ص185، ج12، ص326

(6) العمري: ن م، ص 46، والقلقشندي:: ن.م. ج11، ص92.

وبالنسبة لقلعة القدس فقد هدمها الملك المعظم عيسى الأيوبي اثناء الحملة الصليبية الخامسة 616هـ/1218م حتى لا يستفيد منها الفرنجة، فاعاد الفرنجة بناءها بعد الحملة السادسة سنة 626هـ/1229م. أنظر الحنبلي: م س، جـ2، ص342. وابن واصل: م س، جـ4، ص22، 24. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص204. Roger of wendover: The crusade of Fredrick II. From Sources of Medival History, Edited by Edward Roters, USA. 1971, P. 52.

كما أخرجهم منها الملك الناصر داوود الأيوبي سنة 637هـ/1239م وأعادها للحكم الأيوبي. انظر ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان ، ج3، ص232.

كما حدد في القلعة في زمن المماليك الناصر محمد بن قلاوون سنة 710هـ/1310م، وبنى فيها الجامع الحالي وكان نائبها يعين من قبل نائب القدس وفيها ابراج الحمام والذخائر والاسلحة وتقوم بمهمته البريد. انظر القلقشندي: ن م، ج4، ص 199، ج2، ص325. والخالدي: م س، ورقة 147، مخطوط. وكان نائب القلعة ذا رتبة عسكرية ويطلق على من يتولاها لقب وال ايضاً. القلقشندي: ن م، جـ4، ص199، وكان يدق على بابها الطبول ما بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد، مجير الدين:م س، ج2، ص405، ومن واجبات صاحبها حفظ القلعة، وتفقد اسوارها ورجالها وحمايتها من الأعداء، وتقوى الله، القلقشندي: ن م، ج4، ص149.

(7) ابن ايبك، كنز الدرر، ج9، ص267، محمد الحنبلي: الأنس الجليل، ج2، ص610

كما عين طبيب لكل قلعة لعلاج نائبها وجنوده وأهالي المدينة المجاورة وبالنسبة لقلعة الكرك: كان البيمارستان الخاص بها يعالج رجال القلعة والأهالي ومن أطبائها أبو المنصور بن الحكيم موفق الدين بن صقلاب، وشمس الدين الخسر وشاهين وابو الفضل بن أبي سليمان[1] وكذلك كان طبيب قلعة عجلون أبو الفرج بن موفق الدين يعقوب ابن احق ابن القف المتوفي عام 685هـ/1287م[2] أما بالنسبة لقلعة صفد فقد كانت نيابتها ايضاً مستقلة عن نيابة السلطنة فيها[3]وقد كثرت في نيابة صفد القلاع الحصينة[4].

وبالنسبة لمعرفة الوقت في القلعة ليلاً فكان يعرف من دق الطبل في القلعة[5] كما اشتملت على الخزانة السلطانية كخزانة قلعة الكرك المملوءة بالذهب[6] بجانب خزانة السلاح والذخيرة "الزردخاناه"[7].

وكان بها سجن لكبار المعارضين للسلطان كما كان في قلعة صفد كما كانت قلعة عجلون مقراً لنائب عجلون زمن الظاهر بيبرس عام 659هـ/1261.

3ـ الحجابة[8]:

كان من وظائف الحاجب الانصاف بين الأمراء والجند بنفسه أو بالرجوع الى النائب. والفصل في المخاصمات وإقامة العدل، والتحقيق من تنفيذ أوامر السلطنة ويستعرض الجند.

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جـ2، ص273، 274.

(2) ابن أبي أصيبعه، جـ2، ص123، 126. ويعتقد بعض المؤرخين بأن هذا النظام اتبع في معظم قلاع الأردن. د. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص35.

(3) انظر المقريزي: السلوك: ج2، ص717، وابن تغري بردي: م س، ج10، ص125، 134، انظر ملحق نواب قلعة صفد، وملحق نواب السلطنة، ملحق نيابة صفد عندما خالف نائب القلعة الأمير فرجي نائب صفد عام 747هـ/1346م.

(4) مثل قلعة الشقيف والقرين وتبنين وهونين والطور المشرفة على طبريا التي بناها العادل أيوب وهدمها". القلقشندي: م س، ج4، ص155 وقلعة كوكب جنوب بحيرة طبريا فتحها صلاح الدين الأيوبي سنة 584هـ/1188م، وعادت للفرنجة زمن اللصالح اسماعيل 638هـ/1240م. ولم يكن لها أهمية في العهد المملوكي. ابن الأثير: م س، جـ12، ص22-23. وانظر رنسيمان: م س، جـ2، ص608.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4،ص185، والحنبلي: الأنس الجليل، ج2، ص55. حيث يعرف الثلث الأول من الليل عندما يدق الطبل دقة واحدة. وفي الثلث الثاني ضربتين، وفي الثلث الأخير ثلاث ضربات حتى يؤذن الصبح.

(6) ابن واصل: م س" تاريخ الواصلين"، ورقة 427، مخطوط.

(7) انظر العمري: التعريف، م س، ص149

(8) الحجابة: حفظ باب الخليفة أو الملك أو الوزير والاستئذان للدخول عليهم وصاحبها: الحاجب، ويشترط فيه الحكمة والذكاء والحزم وأن يكون في منتصف العمر. أنظر ابن هلال الصابئ: رسوم دار الخلافة، ص71.

وينوب في غيبة نـائب السلطنة[1] أو بالنسبة لحجابـة نيابـة الكرك فكـان يحدث تولـي حـاجبين فيها[2]. وكان في القدس أمير حاجب كغيرها من النيابات الأخرى في بـلاد الشـام[3]، كمـا رجـح الحنبلي وجود أربعة حجاب في نيابة صفد مثل غيرها من نيابات الشـام[4] الأمـير صـارم الديـن الصفدي. من الذين تولوا الحجابـة فـي نيابـة صفـد أيـام الأمـير سيف الديـن تنكـز نـائب دمشـق (712-741هـ/1312-1340م والأمير بيبرس الذي تولى حجابة صفد مرتين كـانت الأولـى زمن الناصر محمد بن قلاوون وكانت الثانية بعد وفاة الناصر محمد حيث استمر بها حتى وفاتـه عـام 743هــ/ 1341م[5]. ومـن حجـاب صفـد نـاصر الديـن بـن محمـد البخـاري عـام 753هـ/1351م[6].

4ـ الولاية:

وصاحبها الوالي الذي يكون من امراء العشرات[7] ويحكم المدينة التابعة للنيابة[8] وبالنسبة لوالي مدينة الكرك عام 685هـ/1286م فقد عين السلطان المنصور قلاوون الأمـير عـز الديـن أيبك النجمي والياً عليهـا[9] وكـان مـن أختصاصـه أيضـاً حفظ الأمـن والقبـض علـى اللصـوص والمفسـدين، ومراقبـة الخمـارين وجلـد السـكارى بـالعصي[10]. والمحافظـة علـى أرواح النـاس

---

(1) القلقشندي:ن م، ج4، ص19، ص185. العمري: مسالك الأبصار ص117، المقريزي: الخطط، ج2، ص219. والسيوطي: حسن المحاضرة: ج2، ص131

(2) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 132، القلقشندي:ن م، ج4، ص241-242، أو الخالدي:م س، مخطوط، ورقة 135 فذكر أنه كان للكرك حاجباً واحداً في عهده

(3) الحنبلي: الأنس الجليل، ج2، ص281، والخالدي: رجال الحكم والإدارة، ص74

(4) ابن حجر: م س، ج4، ص12.

(5) الصفدي: م س، ج10، ص352-353

(6) المقريزي: السلوك، ج2، ص866، زمن نائبها الأمير الطنبغا برناق.

(7) السبكي: م.س. القاهرة، 1948م ص 43، والقلقشندي: م.س. ج4، ص18.

(8) ولقب بصاحب الشرطة في عهود ما قبل المماليك، العمري: مسالك الأبصار، ص119. والمقريزي: الخطط، ج3، ص 362 وربما يشبه اليوم المحافظ.

(9) العيني: عقد الجمان، ج20، ق4، ورقة 705، مخطوط. ويذكر العيني انه عين الأمير عز الدين ايبك الموصلي نائباً للسلطنة فيها والأمير بدر الدين العلاي على نيابة القلعة. بينما يذكر ابن شداد ان أول من ابتكر هـذه الوظيفـة هـو الملـك الصـالح نجـم الديـن ايوب عـام 647هـ/1249م: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج3، ص75

(10) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص626-630.

وأموالهم، لذا كان يساعده بعض رجال الشرطة والحراس، مما يوحي لنا بأن عمل الوالي كان يشبه عمل المحتسب وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبالنسبة لوالي مدينة القدس فكان يعين من قبل نائب بيت المقدس[1] وبالنسبة لولاية صفد فقد عُيِّن علم الدين سنجر الكرجي والياً على مدينة صفد عام 679هـ/1281م من قبل السلطان قلاوون كما ولي الأمير بدر الدين بن درباس ولاية جنين ومرج بن عامر[2].

أما والي البلقاء فكان أمير طبلخاناه ، يعاونه بعض الجند[3] كما أصبحت مدينة عمان مركز ولاية البلقاء عام 757هـ/1356م بمرسوم الأمير صرغتمش نائب السلطنة بالديار المصرية حيث صدر بنقل الولاية والقضاء من حسابن الى عمان[4] وبالنسبة لولايات نابلس والرملة والخليل فكانت تابعة لنيابة القدس لأن نائبها كان يتولى نظر الحرمين في الخليل والقدس. ففي عام 682هـ/1238م كانت اللدو والرملة تابعة لنيابة بيت المقدس وواليها الأمير غرس الدين بن شاور[5] وكذلك ضمت ولاية نابلس لنيابة بيت المقدس[6].

5- كاشف بيت المقدس:

وهو أحد أمراء الطبلخاناه من المماليك، الذي يعينه نائب القدس، وهو المسؤول عن الإشراف علىالأراضي والجسور، كما أطلق عليه أحياناً والي الولاة[7].

أما ترجمان القدس: الذي كان يستقبل الحجاج والرحالة الأجانب بيافا والقدس لاثبات شخصياتهم في سجلات ترسل نسخة منها فيما بعد الى السلطان ويشترط فيه أن يكون مسلماً[8].

---

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص199.

(2) ابن الفرات: م.س. ج7، ص 158، المقريزي: ن م، ج1، ص732. كما عين الأشرف خليل الأمير علم الدين أيدغدي ولاية صفد 690هـ/1291م وتولى الأمير عثمان بن محمد الدمشقي ولاية بر صفد حتى وفاته 736هـ/1334م ابن حجر : ن م، ج7، ص65. والمقريزي: ن م، ج1، ص732، وابن تغري: م س، جـ8، ص9.

(3) القلقشندي: م س، جـ4، ص201.

(4) المقريزي: السلوك: ج3،ص30.

(5) ن.م.، ج1، ق1، ص715.

(6) ن.م. ج4، ق2، ص975. فكان نائب بيت المقدس يعين والياً "كاشفا" في كل من الرملة ونابلس لينوب عنه في حكم الولاية: انظر الحنبلي: الأنس الجليل، ج2، ص374، وفي سنة 682هـ/1283م عين السلطان قلاوون الأمير علم الدين سنجر الصالحي والياً على الرملة "المقريزي: ن.م. ج1، ق3، ص715.

(7) القلقشندي: ن م، ج4، ص24-25.

(8) أحمد دراج: المماليك والفرنج ص 138.

ويعرف بعض اللغات اللازمة للتفاهم معهم وتأمين اقامتهم في المدينة. وكان يساعده عادة شخص سماه فيلكس فابري"الفاهالو"[1].

6. الدوادارية[2]:

وصاحبها الدوادار وهو الذي يبلغ عامة الأمور الموقعة من السلطان ومن النائب الى رسل الولاة وكبار الموظفين ويقدم النصيحة والمشاورة لمن يحضر اليه. كما يفتح الرسائل الواردة الى السلطان والنائب ويوقع منه جميع المناشير الصادرة عنهما[3].ولم تكن الدوادارية موجودة في كل النيابات، فقد وجدت في نيابة صفد ولم توجد في نيابة الكرك حيث قام بوظيفة الدوادار المهمندار الذي يستقبل الرسل وأمراء العربان في دار الضيافة لتلبية مطالبهم[4] ففي صفد أُرسل نائبها الطنبغا برناق الدوادار شهاب الدين أحمد للقبض على شخص بقرية حطين حيث ادعّى بأنه السلطان المنصور[5] وكذلك وجدت في بيت المقدس[6].

7ـ الأتابكية:

وتعني قيادة الجيش، والأتابك لقب الأمير الكبير أو مقدم عسكر المملكة[7]. فبالنسبة للكرك فقد كان نائبها برتبة أتابك العسكر[8] المسؤول عن حراسة النائب أثناء خروجه وعودته وتنفيذ

(1) Bernard von Brydenbach and His jurney to The Holyland 1483- London. 1911; p. xv; Pero Tafur: Travels and Adventures 1435-39, London, 1962pp. 72-73. Palestine pilgrims Text - Sociity, vol IX, London 1987 (P. 103).

(2) الدوادارية: لفظ مكون من كلمتين إحداهما عربية"دواه" والثانية فارسية "دار" ومعناها ممسك أي ممسك الدواة ويطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير.

(3) العمري: مسالك الأبصار، ص 118، والمقريزي: الخطط، ج2، ص222، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص131، والقلقشندي: م م س، ج4، ص19.

(4) السبكي: م س، ص 42، د. يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص35. وذكر السبكي أنه يجب على المهمندار أن يوهم الرسل بقوة المسلمين.

(5) ابن الفرات: م.س. ج9، ق1، ص59، المقريزي: السلوك: ج2، ص866، وابن تغري: م س، ج1، ص 276.

(6) د. يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص34.

(7) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص113، 134. والأتابك كلمتين تركيتين: أتا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير وكان السلاجقة يطلقون لفظ أتا "أطا" على كبير أمرائهم يولونه الوصاية على سلطان قاصر أو أمير صغير، وغالباً ما يتزوج الأطا أم القاصر فيصبح بمثابة الأب وصار معناها في وقت لاحق أب الأمراء أو مقدمهم وقائد الجيوش ورأس العسكر. القلقشندي: م س، جـ4، ص184. مثل الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي أتابك خليل بن الملك الصالح والذي لقب بالملك المعز فيما بعد. ن م، جـ4، ص52. D.Ayalon: Atabak" Al-Asakir E.L.2, vol1, p732.

(8) القلقشندي: م س، ج12، ص225، وابن شاهين:ن م، 132.

أوامره وأوامر حاجبه من حيث اعتقال الأمراء أو الجند[1] وكذلك كان نائب مملكة صفد بفلسطين برتبة مقدم العسكر (أتابكاً). وذلك من زمن الظاهر بيبرس عام 664هـ/1266م حيث كان الأمير علاء الدين ايد غدي السلاح دار مقدماً لعسكر صفد[2]. والأمير جمال الدين أيدغدي عام 688هـ/1289م[3].

8- الأجناد في النيابة: وتتكون من فرقتين عسكريتين:

أ- أجناد الحلقة: وهم غير مملوكين لأنهم ليسوا من مشتريات السلطان أو عتقائه وذلك منذ زمن الأيوبيين[4].

ب- مماليك النائب والأمراء: الذين اشتروهم ليكونوا حرسهم الخاص[5] وكان هناك قوات مساعدة إحتياطية من العرب والتركمان وقت الحاجة كالتي أرسلها الظاهر بيبرس عام 663هـ/1265م[6] للإغارة على عكا وتلك التي خرجت مع الأمير طشتمر العلائي نائب صفد سنة 783هـ/ 1381م. أما رواتب هذه الأجناد فقد كانت تعتمد على الإقطاعات كبقية العساكر المملوكية.

أما في الكرك فوجدت وظيفة أخرى هي نقيب الجيش[7] وكانت وظيفة نقيب الجيش هي إحضار أي من الأمراء أو الجند للنائب أو الحاجب أو والي جيش أو القبض على أحد العسكريين بالاضافة لحراسة النائب[8].

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص260

(2) ابن عبد الظاهر: م س، ن ص.

(3) ابن عبد الظاهر: تشريف الايام، ص374-375.

(4) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص104، وذكر عددهم في صفد بما يقارب الألف موزعين في صفد والقرى التي حولها مثل قرية كفركنا في ولاية طبريا، وقرية اكسال في ولاية الناصرة.

(5) ن.م. ن. ص.

(6) المقريزي: السلوك، ج3، ص442-443.

(7) ابن شاهين الظاهري: ن م، ص132.

(8) القلقشندي: م س، ج4، ص186، والمقريزي: الخطط: ج3، ص362.

9- **تقدمة البريد:**

وهي وظيفة تعني بشؤون البريد من مراسلات لابلاغ النائب بأحوال نيابته[1]. وصاحبها مقدم البريد الذي يعينه نائب السلطنة والمسؤول عن جميع موظفي البريد كما كان بالكرك[2]. وكان مقدم البريد يرجع إلى كاتب السر في النيابة لأن إدارة البريد تتبع ديوان الإنشاء[3].

10- **شد الدواوين:**

وصاحبها شاد الدواوين المسؤول عن جمع الأموال السلطانية من مصادرها المعروفة، ويرافق ناظر النظار أكبر موظفي أرباب الأقلام[4] وكان عثمان بن محمد بن لؤلؤ الدمشقي شاد الدواوين في نيابة صفد عام 736هـ/1334م والأمير بهادر الكركي عام 741هـ/1340م[5].

11- **خزاندارية القلعة:**[6]

وهو المسؤول عن خزانة القلعة العسكرية من حيث حفظ وصيانة الأسحلة في القلعة هذا وقد تولاها عام 678هـ/1280م الأمير سيف الدين بليان الجوادي[7].

ومن الوظائف الهامة الأخرى كان هناك وظيفة : **المشارف:** الذي يجمع ضريبة المحاصيل ويختمها بالإضافة لمهامه المماثلة لمهام نظر الجهات[8]. **والخازن:** الكاتب الذي يتولى قبض الغلات وخزنها وإخراجها ويطالب بما لم يحصله لعجزه عنه[9].

---

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص187.

(2) ن.م. ن.ص.

(3) على ابراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص285.

(4) القلقشندي: م س، ج4، ص186.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص 65، و ص33، عن حياة بهادرالكركي.

(6) خزندار: مؤلفة من كلمتين إحداهما عربية "خزنة" والثانية فارسية وهي "دار"، ومعناها ممسك" أي ممسك الخزانة.انظر القلقشندي: ن م، ج2، ص187، ج5، ص463.

(7) ابن الفرات: م س، ج7، ص158.

(8) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص 302

(9) ن.م. ص306.

الجيش المملوكي :

لقد حوى الجيش المملوكي عدة جنسيات مختلفة كانت غالبيتها من المماليك المبتاعين بالإضافة للبدو والتركمان والأكراد والروم[1] وبالنسبة للرتب العسكرية فكانت كالتالي:

إمرة مائة فارس ولقب قادتها أمراء الميئين وكان من صلاحياتهم أيضاً قيادة ألف فارس في المعركة فلقبوا "مقدمي الألف"، علماً بأن هذه الوظيفة كانت من أعلى الرتب العسكرية حيث كانت مقصورة على كبار موظفي الدولة[2].

ثم إمرة "الطبلخاناه" وهي قيادة ما بين الأربعين والسبعين فارساً وتليها "إمرة العشرة" وهي قيادة ما بين العشرة والعشرين فارساً [3].

وأخيراً "جند الحلقة" الذين كانوا يتناولون مناشيرهم من السلطان مباشرة بعكس "جنود الأمراء" الذين يتسلمون مناشيرهم من أمرائهم[4] وكان جنود الحلقة مقسمين إلى فصائل تحوي كل فصيلة اربعين فارساً يتقدمهم أحدهم وقت الحرب[5]، ولم يكونوا جنوداً دائمين لأصولهم التي تعود إلى أبناء المماليك وليسوا من المماليك أنفسهم أو فئات اجتماعية اخرى. فشكلوا قوى احتياطية لوقت الضرورة العسكرية فقط، وقد كان ثلث جيش الناصر محمد بن قلاوون منهم[6].

---

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص93.

(2) ن.م. ص114.

بينما يذكر محمد بن محمد بن خليل الأسدي" التيسير والاعتبار ص70-71 ،أمراء المئين :"النائب والوزير وأتابك الجيش ورأس نوبة الأمراء وأمير السلاح، وأمير المجلس، والدوادار الكبير وأمير أخوركبير وأمير آخور ثاني، وحاجب الحجاب، ورأس نوبة النواب، والخازندار الكبير.

(3) ابن فضل العمري: م س. ص60، والأسدي:م س، ص70-71، حيث يذكر اسماء الموظفين الذين كانوا يحصلون على هذه الرتبة كالدوادار الثاني، الخازندار الثالث، رأس نوبة ثاني، الحاجب الثاني، شد الشرابخاناه، رأس نوبة الجمدارية، استادار الصحبة، مقدم المماليك السلطانية، زمام الدور الشريفة، نائب القلعة المعمورة، متولي مجلس العرب السعيد والزردكاش".

(4) ن م، ن ص.

(5) ن م، ص161. والمناشير الديوانية: المقصود بها ممارسة الأعمال الحكومية كالوثيقة الرسمية التي يرد فيها مقدار الاقطاع الذي يختص به الفارس المملوكي. القلقشندي: م.س. ج13، ص153، وابن تغري بردي، م.س. ج8، ص91، والمقريزي: المواعظ، ج2، حاشية 2، ص212.

(6) ابن فضل الله العمري:ن م. ص61.

أما بالنسبة لنفقات الجيش:

فكانت جميع رواتبهم عن طريق إقطاعات الأراضي أو كمرتبات نقدية أو من مصادر أخرى[1]وقد حسبوا قيمة الإقطاعات بالدينار الجيشي[2] والذي لم يكن متداولاً في السوق كعملة نقدية علاوة على أن قيمته كانت تختلف من إقطاع لأخر، حيث تراوحت قيمته أيام الناصر محمد بن قلاوون (715-772هـ/1314-1371م) ما بين عشرة الى سبعة دراهم[3] ثم ارتفعت في أواخر عصره الى ما يقارب الثلاثة عشر درهماً[4].

أما بالنسبة لسلاح الجيش المملوكي: فقد كان بالإضافة الى الأسحلة التقليدية من السيف والرمح والقوس والمجانيق والمدافع[5] زمن السلطان الناصر أحمد بن محمد قلاوون في قلعة الكرك ضد المهاجمين كما استخدموا النفط[6]. وبالنسبة للأسهم المنطلقة من الأقواس فكانت نصولها من فضة مطعمة بالذهب وقد نقش على بعضها هذان البيتان من الشعر زمن الناصر أحمد:

ومن جُودنا نرمي العُداة بأسهم　　من الذهب الأبريز صيغَتْ نُصُولِها
يُداوي بها المجروح مِنها جِراحه　　وَيشْرِي بها الأكفان منها قتيلها[7]

---

[1] ن م. ن.ص.

[2] ن.م.ن.ص.

[3] ن.م.ن.ص. و

H. Rabie, The Size And Value Of The Iqta In : Studies In The Economic History Ot The Middel East, (Ed.M.A. Cook. Oxford 1978) Pp. 132-133; .H. Rabie The Financial System Of Egypt Pp48-49, R.A.S Cooper: .Anote On The Dinar Jayshi In: Jesho 16c 1973)Pp. 317-318

[4] ن.م.ن.ص.

[5] صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص10.

[6] وانظر الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص201، ذكر استخدام النفط وانظر العمري مسالك الأبصار، ج16، ق3، ورقة 710"مخطوط وابن بهادر: فتوح النصر: ورقة 608 مخطوط.

وبالنسبة للمدافع: فتسمى مكاحل البارود التي يرمى عنها بالنفط وأنواعها مختلفة فبعضها يرمى عنهم بأسهم عظام تكاد تخرق بالحجر، وبعضها يُرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال مصر الى ما يزيد على مائة رطل، وهي مصنوعة من نحاس ورصاص ويُرمى به ببندقية محماة تنطلق لمسافات بعيدة :القلقشندي.م.س. ج2، ص144، 145. وأما بالنسبة لقوارير النفط: فكانت قدور من نحاس ونحوها يجعل فيها النفط ويُرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق، القلقشندي، ن م. ج2، ص145.

[7] صالح بن يحيى: ن م، ص106.

ومن السفن الحربية الهامة أيام الظاهر بيبرس الشواني[1] والحراريق[2] والطرائد[3] والسلالير وغيرها[4].

الإقطاعات والمرتبات

لقد كان راتب الوزير شهرياً 250 دينار جيشيه 2500درهم لأنه كان على رأس موظفي الدولة المدنين[5] ويأتي بعده راتب القاضي الذي لم يزد على 50 ديناراً جيشية '500درهم) وكانت من الإدارة السلطانية المباشرة أما العسكريون فقد تراوحت من زمن لآخر ففي زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان راتب الفارس العادي ما بين 300-900 دينار جيشية (3000-9000 درهم). ويتلقونها عن طريق الاقطاع لذا كان صاحب الإقطاع يخصم عليهم بعض النفقات الانتاجية والادارية.[6]

وبالنسبة لإقطاعات كبار الضباط (الأمراء) فتراوحت ما بين (7000-100.000) دينار جيشية (70.000-1000.000) درهم في العام[7]

وبمقارنة هذه المرتبات مع الأسعار في القاهرة كما أوردها العمري تكون معتدلة ناهيك عن الأسعار المنخفضة للسلع في المدن والأقاليم الأخرى.

وبالنسبة للروك الناصري في عامي 712هـ/1312م و 715هـ/1315م. أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمسح جديد لأراضي الشام ومصر ونفذ الأوامر الأمير سنجر الجاولي[8]، حيث أعاد تقسيم الإقطاعات بين أمراء الجيش.

---

(1) الشواني : جمع شيني: سفن حربية هامة ومركزها في جزيرة الروضة بالنيل. السيوطي: حسن المحاضرة، جـ11، ص22، محي الدين ابن عبد الظاهر، م س، ص83.

(2) الحراريق: جمع حراقة: سفن في أوقات السلم، تُرمى من فوقها مواد النفط الملتهبة ويمكنها الإقلاع في البحار والأنهار. محيي الدين بن عبد الظاهر،ن م، ص83.

(3) الطراريد: جمع طريدة: سفن لحمل الخيل وتحمل الواحدة عادة أربعين فرساً. ن م، ن ص.

(4) السلالير: شبيهة بالحراقة، ن م، ص83.

(5) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوريتا كرافولسكي ص62. ذكر

(6) ن م، ن ص.

(7) ن م، ن ص.

(8) العمري: م س، ص63. وابن حجر: الدرر اللكامنة، جـ2، ص61. وابن كثير: ابداية والنهاية، جـ11، ص69.
P. Holt: The Age of the Crusades pp. 116-117.

ومن خلال هذه الإقطاعات تم التعرف على رتب أمراء الجيش ورواتبهم وإقطاعاتهم محسوبة بالدينار الجيشي وقيمته بالدرهم آنذاك كما مر معنا.

فقد أور المقريزي[1] المتوفي عام (845هـ/1442م) قائمة الرواتب في الروك الناصري، كما أورده المؤرخ محمد بن خليل الأسدي[2] الذي عاش حوالي العام (855هـ/1450م) نفس القائمة وذكرا عدد أفراد الجيش المملوكي بمصر عام 715هـ/1315م بأربعة وعشرين ألف فارس كما كان عدد جيش الشام مماثلاً لذلك، مقسمين رتباً ورواتب[3] كما في الملحق رقم ( )

كما لوحظ على إقطاعات الروك الناصري لأراضي الشام عام 712هـ/1312م، وأراضي مصر عام 715هـ/1315م لم يستمر طويلاً بعد وفاته. وذلك في عام 746هـ/1345م عندما صدر منشور سمح منه ببيع أراضي الإقطاعات واستبدالها، مما دفع بعض المجموعات من جند الحلقة لاستغلال هذه الفرصة فباعوا إقطاعاتهم والعمل في حرف أخرى[4] مما أسهم في ضعف القوة العسكرية للمماليك، بينما كان هدف الناصر محمد بن قلاوون من هذا الروك الناصري كان تقوية الجيش والحفاظ على الروح العسكرية من حيث النظام والانضباط.

وقد تَجنّى بعض المؤرخين الأوروبيين على هذه الحقيقة حقْداً وتشويهاً لحضارتنا ونطمنا الاسلامية[5] علماً بأن المقريزي والمفضل أبي الفضائل وغيرهما من المؤرخين أشادوا بهذا النظام[6].

---

(1) العمري: ن م، ن ص. والأسدي: التيسير والاعتبار، المقدمة، ص5.

(2) العمري: ن م، ن ص. المقريزي: الخطط جـ2، ص217-219.

(3) للمزيد من المعرفة عن الروك الناصري بمصر أنظر دراسة جديدة عن توزيع الاقطاعات لأيالون ينقلها محمد هالم.

(4) العمري: م س، ص67. والمقريزي: الخطط، جـ2، ص219. وصف نتائج ذلك بهذا القول: "فكثر الدخيل بذلك. واشترت السوقة والأراذل الإقطاعات حتى صار في زماننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب الحرف والصناعات. وخربت أراضي إقطاعاتهم" وبالنسبة لكلمة "الروك": أي مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال والذي كان المصدر الرئيسي للدخل، ومنه تصرف أعطيات الجند ورواتب الولاة وموظفي الدولة وكانت جباية الخراج معرضة للتعديل حسب خصب الأرض وجدبها بالزيادة والنقصان، وكان الخراج مقسماً الى أربع وعشرين قيراطاً، للسلطان منها أربعة قراريط. النويري: م س، جـ1، ص345. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص846.

(5) بينما يتجنى D. Ayalan عندما يقول بأن الروك الناصري كان العلّة الحقيقية وراء تفكك أجناد الحلقة.

(6) المقريزي: الخطط، جـ2، ص206-207. حيث وصف الإيوان الكبير بقلعة الجبل : "وأول ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعي بمضافيه من تقدمه على قدر منازلهم، فيقم الجندي الى السلطان فيسأله : أنت ابن من، ومملوك من – ثم يعطيه مثالاً.

وفي ترجمته للسلطان الناصر كتب يقول "وراك ديار مصر وبلاد الشام، وعرض الجيش بعد حضوره في عام 712هـ/1312م وأقطع ثمانمائة من الجند، ثم قطع في إمرة أخرى ثلاثة وأربعين جندياً عام 741هـ/1340م .... ثم يضيف وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه، ومماليك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم. المقريزي : ن م، جـ2، ص306. والمفضل بن أبي الفضائل : النهر السديد، ص99-100، واختتم قوله "وهو يعي انحطاط الدولة ومشكلات العصر".

نفقات البيوت السلطانية : لقد كانت تصرف على الخزائن، والحوائج خاناه[1] والطبلخاناه[2]، أو السلاح خاناه[3]،والركبخاناه[4]، والفرشخاناه[5] وكانت تكاليفها جميعاً خمسمائة ألف دينار[6] سنوياً. ووظيفة الطشت خاناه والمتعلقة بالملبوسات الملكية والأقمشة والكسوات[7].

---

(1) الحوائج خاناه: بيت الحوائج، تحت يد الوزير، منها يصرف اللحم للمطبخ السلطاني والدور السلطانية، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية، وسائر الجند وغيرهم من أرباب الرواتب وكذلك توابل الطعام للمطبخ السلطاني، والدور السلطانية، والزيت للوقود، والحبوب وغير، ولها مباشرون منفردون بها يضبطون أسباب أرباب المستحقات ومقادير استحقاقاتهم. القلقشندي: م س، جـ4، ص12-13.

(2) الطبلخاناه: بيت الطبل، ويشمل طبول عديدة وأبواق وزمر، وآلات أخرى ويشرف عليها أمير من أمراء الفرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وكذلك في الأسفار والحروب، ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه يساعده رجال مثل الدبندار: ضارب الطبل، ومنقر وهو ضارب البوق، وكوسى وهو ضارب صنوج النحاس ببعضها بعض. القلقشندي: ن م، ن ص، وابن شاهين الظاهر، وزبدة كشف الممالك: ص122-127.

(3) السلاح خاناه أو "الزردخاناه" : بيت السلاح، وفيها الدروع الزرد، والسيوف والقسي العربية والنشاب والرمح والقرقلات المتخذ من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك من أنواع السلاح التي تخزن سنوياً في داخل القلعة، بالإضافة لوجود الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديدها ما ويخدم فيها غلمان وفراشون. وأما "السلاح دار" فهو الذي يتحدث عن السلاح دارية من المماليك السلطانية والسلاح خاناه السلطانية ويناول السلطان آلة الحرب وقت القتال وفي أيام الأعياد وغيرها. ابن تغري بردي: م س، جـ7، ص82. والقلقشندي : م س، جـ4، ص18.

(4) الركاب خاناه: سروج الخيل، واللجم والكنابش والاصطبلات (المراكيب والاجلال والمخالى). القلقشندي: ن م، جـ4، ص12.

(5) الفرشخاناه: أنواع الفرش من البسط والخيام ولها مهتار تحت يده جماعة من الغلمان مخصصين للخدمة في السفر ويسمون "الفرّاشين" ولهم مهارة نصب الخيام حتى أن أحدهم يستطيع نصب خيمة كبيرة لوحده كما يشدون الأحمال على البغال في المواكب، ويبلغ الحمل خمسة عشر ذراعاً.

(6) محيي الدين بن عبد الظاهر: م س، ص81. والقلقشندي: ن م، جـ4، ص11.

(7) ابن شاهين الظاهر: م س، ص122-127.

وأما المقرر على بيت المال : في جامكيات المماليك البحرية فكانت نفقاته ثلاثمائة وثمانون ألف دينار[1].

والمقرر على الديوان وبيت ماله : لنفقات أسر الملوك وأولادهم في السنة فكانت أربعون ألف دينار[2] وبالنسبة للمقرّر لأرباب الرواتب وجاميكات المستخدمين بالباب والأعمال، وما ينفق على الفقراء مائة وسبعون ألف دينار[3] وكان أيضاً من نفقات السلطان الشراب خاناه[4]. وعشرون ألف اردب غلة، ما يحتاجه لخاصته ومماليكه في السنة للمخابز وأما عليق خيله فكانت مائة وعشرين ألف اردباً.

ويلبس كل يوم بدلة كاملة ولا يعود للبسها مرة ثانية وأما صدقات شهر رمضان فكانت خمسة آلاف فرد كل ليلة وبالنسبة لصدقة السر في دولته فكانت من أوقافه المخصصة لذلك بما يقارب ستمائة كوة سنوياً وأما نظر البيوت فكان المسؤول عنه الأستادار دار[5]. ونظر الاسطبلات: وهو المسؤول عن اصطبل السلطان وعليق خيوله وأرزاق المستخدمين فيها[6].

---

(1) محيي الدين بن عبد الظاهر:م س، ص81.

(2) ن م، ن ص.

(3) ن م، ن ص. هذا بالإضافة لهداياه من القماش والخبز بمقدار ألف قنطار كما يعتق ثلاثين عبداً في رمضان.

(4) الشراب خاناه:أنواع الأشربة المخصصة للسلطان ومشروبه الخاص من السكر والأقسما، هذا بالإضافة لأواني الطعام من الصيني الفاخروالقاشاني واللازوردي وغيره بما يساوي السكرجة الواحدة منه ألف درهم مما هو له. القلقشندي، م س، جـ4، ص10.

(5) العمري: مسالك الأبصار، ص121. والمقريزي، الخطط، جـ2، ص227.

(6) العمري: ن م، ص121. والمقريزي: الخطط، جـ2، ص227. والسيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص132.

ثانياً: الوظائف الديوانية "وظائف أرباب الأقلام":

1- **الوزارة**: لقد كانت الوزارة أعلى وظائف أرباب الأقلام في الدولة لكنها لم تكن مقصورة عليهم إذ كان من الممكن أن يليها أميرٌ من الجيش "أرباب السيوف"، ويأتي الوزير بعد السلطان في السلم الوظيفي. إلا أن سلاطين المماليك قدموا رتبة النيابة على الوزارة. وَوَلِيَها أفراد من أرباب السيوف أو من أرباب الأقلام[1]. وتوزعت اختصاصات الوزير بين ثلاثة موظفين هم ناظر المال[2]، ناظر الخاص[3]، وكاتب السر[4]، الذي كان يوقع في دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة واستقلال[5].

وهكذا نرى انحطاطها وتراجعها أمام وظيفة نيابة السلطنة[6] كما نلاحظ بأن هؤلاء الثلاثة الذين تقاسموا مهمة الوزير لم يكونوا مستقلين تماماً بتصرفاتهم بل كان لا بد من الرجوع لموافقة السلطان عليها.

---

(1) شهاب الدين ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص114-115.

(2) ناظر المال أو شاد الدواوين: وهو المكلف بتحصيل المال وصرف النفقات..ن.م.ص119.

(3) ناظر الخاص: وهو المكلف بتدبير جميع الأمور وتعيين المباشرين. العمري: ن.م. ص119-120.

(4) كاتب السر: كان يقرأ الرسائل الواردة للسلطان ويجيب عليها بعد توقيع السلطان عليها. ذكر المقريزي : "أنه كان يكتبها بخطه أو بخط كتاب الدست ـو كتاب الدرج وأضاف بأنه كان يجلس تحت الوزير ثم أصبح يجلس فوقه. أنظر الخطط، جـ2، ص226. واصدار المراسيم بتوقيع السلطان والتوقيع بدار العدل مما كان يُوَقع فيه الوزير على حسب ما يرسم له السلطان: المقريزي: الخطط. ج2، ص226 الذي وصفه المقريزي بصاحب ديوان الانشاء وناظر ديوان الانشاء، انظر السيوطي: حسن المحاضرة. ج2، ص132.

(5) وانظر المقريزي:ن م ، ج2، ص223-224.

(6) السيوطي: ن م، ج2، ص130، ابن شاهين الظاهري،م س، ص93، فما بعد، حتى أصبحت سلطات الوزير محصورة ومقيدة بالنسبة للولاية والعزل فاقتصرت مهمته على الشؤون المالية العمري.ن.م. ص119، 120، والسيوطي: ن.م.ص131.

وقد تطور منصب الوزير المملوكي عبر سلم المملوكية منذ ورث السلطان الظاهر بيبرس منصب الوزارة عن أسلافه الأيوبيّن وحتى وفاته عام 676هـ/1278م فخلفه ابنه الملك السعيد بركة الذي ثبت وزير أبيه[1] بهاء الدين على بن عمر بن سليم بن حنا[2] تنفيذاً لوصية أبيه عام 676هـ/1278م وجاء تقليده لمنصب الوزارة بمنشور رسمي[3] وكانت وفاة هذا الوزير عام 677هـ/1279م[4] وفي زمن السلطان المنصور قلاوون (678-689هـ/1279-1290م). عيّن الأمير علم الدين الشجاعي وزيراً له فكان أول وزير من أرباب السيوف[5]، وفي عام 697هـ/1299م عين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فخر الدين عمر بن الخليلي وزيراً له[6].

وفي المرة الثالثة لحكم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عام 709هـ/1310م عين خمسة وزراء متتالين قبل إلغائه لمنصب الوزارة ونيابة السلطنة[7] عام 729هـ/1328م وعندما أعيد منصب الوزير بعد وفاته كان قد فقد دوره وصلاحياته التاريخية.

2- نظر المملكة: وصاحبها ناظر المملكة وناظر النظار الملقب بالوزير والذي يشرف على دواوين المملكة المدنية ويعين بمرسوم سلطاني من القاهرة[8] وكانت سلطته استشارية تعتمد على قوة شخصيته[9].ووصفه البعض بأنه سلطان مختصر" المطلق التصرف في كل الأمور سواء كانت خاصة بالجيش "ديوان الإقطاع" أو المال والمراسلات

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص643.

(2) لقد عينه بيبرس عام 659هـ/1261م، المقريزي، ن م، ج1، ق2، ص447.

(3) السيوطي: م س، ج2، ص225، وأورد نص المنشور: (أن القلم المبارك الصاحبي البهائي في جميع الممالك مبسوط، وأمر تدبيرها به منوط، وعناية شفقته لها تحوط، وله النظر في أحوالها وأموالها، واليه أمر قوانينها ودواوينها وكتابها وحسابها ومراتبها وواراثيها وتصريفها ومصروفها، واليه التولية والصرف، واليه تقدمة العدل والنعت والتوكيد والعطف، وهو صاحب الرتبة التي يحلها سواه... فلما كان والدنا الشهيد يخاطبه بالوالد خاطبناه بذلك وخطبناه..."

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص649.

(5) ابن خلكان: م س، ص90-91. الصفدي : م س، جـ15، ص475. وابن الفرات: م س، جـ8، ص188.

(6) النويري: م س، جـ3، ص337. والمقريزي: ن م، جـ1، ق2، ص836.

(7) السيوطي:ن م ، ج2، ص220 ذكر آخر وزرائه الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي من أرباب السيوف. السيوطي: ن.م. س223-224. ويذكر العمري:"... وأما الوزارة فإنه أبطلها، واستخدم في أيام هذا السلطان وظيفة يسمى مباشرها نظر الخاص، أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً في ما هو خاص بمال السلطان، يتحدث في مجموع الأمر الخاص بنفسه وفي القيام بأخذ رأيه فيه فيبقى ولسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه" العمري: مسالك الأبصار، ط2، ص115.

(8) القلقشندي: م س، ج4، 187، ج5، ص463، المقريزي: الخطط، ج3، ص364.

(9) لأنه كان يعين الأمراء بمشاورة السلطان، العمري: م.س. ص 116، Ziadeh Urban Life, p. 21 وكانت هذه الوظيفة تسمى الوزارة في العهد الأيوبي وسمي بوزير السلطنة في الكرك ثم سمي بناظر الكرك الذي يعين بمرسوم سلطاني من القاهرة فكان من وزراء الناصر داوود الايوبي الوزير شمس الدين الانصاري: انظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ8، ص447.

والبريد وجميع وظائف النيابة ثم اضمحلت اهميتها بعد الناصر محمد بن قلاوون[1]. كما لقب بكافل الممالك "السلطان الثاني" وجميع نواب الممالك، ويقود العسكر في ايام المواكب[2] ومن الأمراء الذين تولوا هذا المنصب في صفد كريم الدين الصغير عام 723هـ/1322م لمدة سنة[3]وذكر القلقشندي ان الوظيفة كانت موجودة في زمنه[4] وكان ديوان النظر يمثل الادارة المالية في النيابة باشرافه على المصروفات والإيرادات.

3- **ديوان الإنشاء**: كان صاحبها كاتب السر[5] الذي يطلع على جميع المكاتبات والرّد عليها بعد توقيعها من نائب السلطنة في المملكة وينوب عنه احياناً كاتب الدست في الرد على الكتب الواردة والصادرة عن النيابة والتي ترد لنائب السلطنة ويعين بمرسوم سلطاني من القاهرة من الأشخاص الموثوق بهم لدى السلطان لأنه كان بمثابة عين على النائب أيضاً[6] ويشترط فيه الثقافة والعلم وأن يكون على معرفة تامة بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والحكم والأمثال وسير الأولين بالأضافة إلى الفصاحة والبلاغة[7].

وبالنسبة لكاتب السر في الكرك فكان المسؤول عن الصادر والوارد من مراسلات النيابة أي متولي ديوان الإنشاء كما كان يجلس بدار العدل بالكرك للإطّلاع على تظلمات الشعب[8].

وقد تسلم هذا المنصب في نيابة صفد الشيخ شهاب الدين أحمد بن غانم كما باشر الانشاء بنيابة غزة أيضاً وقد شغل هذه الوظيفة في القدس أكثر من كاتب دست"[9] وضم ديوان الانشاء في صفد كُتّاب الدّرج أو الدّست أو الموقّعين. وكان منهم في صفد المؤرخ صلاح الدين خليل

---

(1) العمري: م س، ط2،ص115،117 " ولما كانت النيابة قائمة على هذه الصورة لم يكن السلطان يتصدى بنفسه لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى بل كان يكتفي بالنائب".

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص65-68، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص130-131.

(3) المقريزي: السلوك: ج2، ص24. وابن أيبك: الدر الفاخر، ص312-314.

(4) القلقشندي صبح الأعشى، ج4، ص23.

(5) ابن شاهين الظاهري: م س، ص98، الباشا: الألقاب الاسلامية، ص10،21.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص189، ج9، ص258، والمقريزي: الخطط، جـ2، ص226، والعمري: مسالك، ص120.

(7) ابن شاهين الظاهري: ن م،ص98.

(8) القلقشندي: ن م، جـ1، ص294، وابن الفرات، م.س. ج9، ص321، وابن خلدون: العبر، ج5، ص489،494، والمقريزي: السلوك، ج3، ص666، بينما ذكر القلقشندي أنه كان مجرد كاتب درج يقوم مقام كاتب السر ويكتب الولايات والمكاتبات يصرف الوارد والصادر: القلقشندي: ن م، ج5، ص465، ج11، ص423.

(9) ابن حبيب: درة الأسلاك، ج2، ورقة 171/م، مخطوط. والكتبي: فوات الوفيات: ج1، ص128، والقلقشندي: ن م، ج5، ص465.

بن أيبك الصفدي متولي كتابه الدرج في ديوان الانشاء بصفد في أوائل القرن الثامن الهجري[1]/ الرابع عشر الميلادي ونجم الدين الصفدي وزين الدين الصفدي، وبهاء الدين بن غانم حتى سنة 727هـ/1327م[2].

هذا وقد ارتبط البريد بديوان الانشاء وكاتب السر زمن الظاهر بيبرس حتى أن الخبر أصبح يصل إلىالقاهرة من دمشق في أربعة أيام مما مكنه الاطلاع على ما يجري في سلطنته بدقة فمكنه ذلك من معالجة كافة الأمور من القاهرة[3].

وبالنسبة للبريد المملوكي:

فقد استخدم في هذا العصر لأغراض رسمية وشخصية دنيوية، كشراء المماليك وحمل الجواري والأمتعة، مما جعل قاضي القضاة السبكي ينتقد ذلك ويستنكره[4].

وقد تم تأسيس نظام البريد منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس لحاجته الماسة لمعرفة أخبار الأعداء الذين كانوا يُهدّدون أرض الدولة واستقلالها داخلياً وخارجياً كالمغول شمالاً والصليبيين في أجزاء من الشام وسواحلها، بالإضافة لبقايا البيت الأيوبي واهتم الظاهر بيبرس بتطوير نظامه سنة 659هـ/1261م[5]، إذ أنفق عليه أموالاً كثيرة وجعله تابعاً لديوان الإنشاء في القاهرة ليضمن ربط أجزاء الدولة في مصر والشام.

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص176.

(2) الصفدي:م س: ج4، ص76-77، وابن حبيب: م س، ج2، ورقة 156، مخطوط.

(3) ابن عبد الظاهر:م س، ص95، والمقريزي:ن م، ج1، ص446.

(4) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص46.

(5) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص187، ويذكر بأنه هو الذي اشار على بيبرس بتطوير البريد والإهتمام به، فكلف عمه شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب العمري كاتب الانشاء بدمشق بذلك.

وقد انقسم البريد في العصر المملوكي إلى قسمين: البريد البري والبريد الجوي.

أ- البريد البري: وقد اقيمت له مراكز محطات على الطرق بمسافات معينة مع تزويدها بالطعام والعلف والمأوى بالأضافة لبعض الخيول لاستخدامها، حيث كان البريدي يُبَدّل فرسه المنهكة من السفر في المحطة بفرس أخرى، حتى يصل للمكان المقصود.

وكان من موظفي البريد البري السوّاق الذي يرافق البريدي في الطريق ويَسُوق فرسه والهجّان أو النجّاب الذي يركب الهجن السريعة ويقطع الصحراء وكان هؤلاء يرسلون في مهمات سرية للسلاطين مثل الهجّان صخر الذي أرسله الناصر محمد من الكرك إلى حلب لايصال رسالة لأميرها قراسنقر[1].

وأما شارات البريدي: فكانت لوحاً من الفضة على صدره منقوشاً عليها[2].

وكانت شروط اختيار البريدي تتلخص في وجوب توفر سرعة الفهم والاجابة السريعة، والتأدب في الكلام، كتوماً للسر، أميناً، صامتاً لا يتكلم إلا عند الضرورة صادقاً[3].

وقد اختار بعض السلاطين اشخاصاً معينين ممن تتوفر فيهم هذه الصفات ولثقتهم بهم أيضاً مثل: البريدي الأفوش عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون المشهور بسرعته[4] وكان له بريدي آخر اسمه أُوران الذي استخدمه أثناء ثورته في الكرك لايصال كتبه إلى أعوانه في مصر[5].

---

(1) العيني: عقد الجمان، جـ22، ق1، ورقة 99، مخطوط.

(2) نقش على أحد الوجهين: لا اله الا الله محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، ضرب بالقاهرة المحروسة. أما إذا كان البريد من إحدى نيابات الشام نقش عليه وضرب في الكرك أو دمشق وهكذا، (القلقشندي: م س، ج14، ص372.

ونقش على الوجه الآخر: (عز لمولانا السلطان الملك الفلاني...) القلقشندي: ن.م. ص371. ويوجد في اللوح نقب به قطعة حرير أصفر ذات بندين يدخلها البريدي في رأسه فيصبح اللوح على صدره وقطعة الحرير الصفراء على ظهره.

(3) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص47.

(4) قطع المسافة من مصر الى حلب في خمس ليال وكانت مسيرة شهر، ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص45.

(5) العيني: م س، ج22،ق1، ورقة 111 مخطوط.

كما حرص سلاطين المماليك على تمهيد الطرق لسير الخيول البريدية بين القاهرة ودمشق وكان لا يسمح بركوب خيل البريد لغير البريدي إلا بمرسوم سلطاني[1] وكان يقوم على رعاية الخيول سواس.

أما حراسة طرق البريد فقد عهدها إلى القبائل العربية مقابل إقطاعات خاصة زمن الأيوبين والمماليك. حيث وجدت خمس عشرة محطة بريد في الشام ومصر ابتداء من السعيدية إلى الخروبة بحراسة قبيلتي جذام وثعلبة اللتين كانتا يقدمان لكل مركز عشرة خيول جديدة كل شهر فلقبوا بالشهارة[2]، وكانوا يسمونها بخاتم السلطان عند قدومها أما المراكز البريدية السلطانية فامتدت من مركز الزعفة إلىغزة والكرك ودمشق[3].

وكان السلاطين ينفقون على المراكز البريدية من الأوقاف[4]. كما روعي في هذه المراكز أن تكون بقرب قرية أو نبع ماء، حيث اختلفت المسافات فأسّسوا خانات لمبيت البريديين[5]وبجانبه دكان لشراء حاجياته وساقية كالأستراحات السياحية في عصرنا الحديث مما ساهم في توفير الأمن على هذه الطرق بين القاهرة والشام[6].

---

(1) النويري: نهاية الأرب، ج28، ورقة 50، مخطوط، يذكر أن السلطان بيبرس منع من ركوب هذه الخيول في احدى المراكز سنة 673هـ/1275. في مركز القصير العيني "الشونة الشمالية اليوم".

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص189. وابن أيبك: كنز الدرر/ جـ3، ص114.

(3) أي أن خيلها من اصطبلات السلطان مع كامل تجهيزاتها "القلقشندي: م س، ج14، ص377. أما أيام الصليبين في فلسطين فقد كانت طريق البدرية -الغقبة-عبر صحراء سيناء والتي يشرف عليها قبيلة العابد فرع من جذام لكونها المنقذ الوحيد ثم الغيت هذه الطريق بعد طرد الصليبين لأنها اصبحت طريق الهاربين من دفع المكوس، ابن ابيك: ن م، جـ9، ص115.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج15، ص157.

(5) وقد لاحظ ذلك ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص31 وأكد ذلك المقريزي: الخطط، ج1، ص367. وكانت هذه الخانات لتجار أغنياء يكسبون منها حيث توفرت فيها حاجة المسافرين. العمرين م ، ص193، ويذكر د.غوانمة بأنه ما تزال هذه الخانات في الأردن. د. غوانمة: التاريخ السياسي، م س، ص63.

(6) المقريزي : الخطط، جـ1، ص367. حيث ذكر بأن المرأة كانت تسافر من القاهرة للشام بمفردها ماشية أو راكبة لا تحمل زاداً ولا ماءً. وقد ذكر العمري:ن م، نى ص، بعض الخطوط البريدية بين فلسطين والأردن ودمشق والتي تبدأ من محطة الطيرة، قاقون، جنين، ويتفرع الخط الى جهتين أحدهما الى صفد مركز نيابة صفد ماراً ببنين وحطين والآخر من جنين وزرعين وعين جالوت وبيسان والمجامع و زحر-اربد، وطفس والضمين وغباغب والمورة فدمشق. أما ابن شاهين الظاهري: م س، فقد حذف بنين وصفد والمجامع وزحر وأضاف بدلاً منها: زرعين رأس الماوالظاهر أنها قرى بسيطة لم يهتم بذكرها على طول الخط ويمر الخط من أراضيها فذكر قاقون فحمة وجنين وحطين وزرعين وعين جالوت وبيسان واربد وطفس ورأس الما والضمين وغباغب والكورة ودمشق وذكر بأن هناك خطاً مباشراً آخر بين دمشق وصفد ماراً ببرج الفلوس-اربنبة.

وأما المراكز البريدية بين القاهرة والكرك: فكانت: السعيدية-الخطارة-قبر الوالي-الصالحية آخر مكان معمور في مصر ثم -بئر غزى-القصير-حبوة - الغرابي - قطيا - صبيخة نخلة معن - المطيلب - السوادة - الواردة - بئر القاضي - العريش - الزعفة[1]- رفح- الداروم - غزة - ملاقيس - بيت جبريل - الخليل - جنا - الزوير - غور الصافي الى الكرك.

أما المراكز البريدية بين غزة ودمشق فكانت: الجيتين ، عين بيت دارس، مفطري، فالعوجاء، فالطيرة، فقاقون(بين العوجاء وجنين) التي بنى فيها الأمير سنجر الجاولي خاناً للسبيل، ففحمة ، فجنين، فزرعين، فعين جالوت، فبيسان، المجامع(جسر المجامع اليوم) ثم الى القصير المعيني (الشونة الشمالية) ثم قرية زحر[2]، ثم اربد، طفس فالجامع فالصمنين،غباعب، الكسوة فدمشق.ومن دمشق تتفرع شبكة مواصلات تربطها مع كل النيابات والمدن الشامية حتى البيرة والرحبة على الحدود الشرقية لبلاد الشام[3].

كما كانت المراكز ما بين الكرك ودمشق كالتالي : الربة[4]، قاطع الموجب، ذيبان، قنبس[5]، حسبان، البرج الأبيض (مرج الحمام)، عين البردية، قرية الكتيبة، طفس، الجامع، الصمنين، غباغب، الكسوة، دمشق[6].

---

(1) الزعفة: احدى مراكز البريد بين العريش ورفح على حدود مصر من جهة الشام، القلقشندي: ن م، ج1، ص378.

(2) العمري: م س، ص192، القلقشندي: م س ج14، ص380. ذكر بأن الطريق كانت أولاً من بيسان الى الطيبة حيث يقطعون الشريعة بمعديات فكان في ذلك خطورة ومشقة خاصة في فصل الشتاء، لذا عملوا على تحويل الطريق من بيسان الى جسر المجامع ثم القصير "الشونة الشمالية" فزحر الى اربد. وما تزال هاتين البلدتين تقعان غربي اربد وتبعد زحر عن قرية سوم الشناق التي يسكنها الباحث 3كم وهي الآن متصلة بها من حيث العمران والأراضي، أما مدينة اربد فتبتعد عن سوم الشناق حوالي 9كم شرقاً.

(3) العمري: ن.م. ص187.والقلقشندي: م.س. ج44، ص379.

(4) الربة : قرية في طرفي الغور الجنوبي وسميت بهذا الاسم نسبة الى إحدى بنات لوط عليه السلام. ياقوت: م س، جـ2، ص725، وقد ذكرها القلقشندي والعمري خطأ باسم "اكربة" وربما يكون هذا خطأ كتابياً.

(5) قنبس: ربما تكون قرية بقنس من قرى البلقاء. ياقوت: ن م، جـ1، ص702.

(6) القلقشندي: ن.م. ج14، ص383، العمري: التعريف، ص124 وأما المراكز ما بين الكرك والشوبك فكانت ثلاثة.

ب- البريد الجوي: كان أول من استخدم للحمام الزاجل لنقل الرسائل الفرس وأخذ عنهم اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، ثم الرومان، ثم المسلمون منذ العصر العباسي زمن المعتصم بالله عام 222هـ/837م، وكان لهم دور كبير في تنظيم نقل البريد بواسطة الحمام الزاجل[1]

وخاصة زمن الفاطميين[2] وآل زنكي "الدولة النورية".

هذا وقد زاد إهتمام الأيوبين منذ 608هـ/1211م زمن الملك العادل االذي استخدمه في تتبع حركة الأمير عز الدين اسامة صاحب قلعة عجلون الذي خرج من مصر متخفياً، فأُخبر الملك العادل بذلك فأرسل المعظم عيسى للقبض عليه فسجنه في الكرك الى أن مات[3]. كما استخدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب في استقصاء أخبار عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك، المعارض له والطامع في حكم مصر الذي أوهمه برغبته في السير الى نابلس بينما كان يخطط لاحتلال دمشق[4]، كما خرَّب الملك الناصر داوود بُرجَ الحمام في الواردة عند عودته من دمشق الى عجلون ماراً بجيشه في الكرك حتى وصل غزة واستولى على الواردة ليمنع أخبار تحركه نحو مصر للاستيلاء عليها[5].

وفي زمن المماليك زاد اهتمامهم باستخدام الحمام الزاجل منذ زمن الملك الظاهر بيبرس باللإضافة للبريد البري وذلك لتتبع أخبار المغول والصليبين، فأصبحت القاهرة مركزاً رئيساً لشبكة الاتصالات الجوية بين أجزاء مملكته حيث جعلها سلاطين المماليك تحت إشرافهم مباشرة[6] وجعلوا لها أبراجاً في قلعة الجبل بالقاهرة حيث قاربت أعداده الألف وتسعمائة طائر[7].

---

(1) صالح يحيى: تاريخ بيروت، ص35، وابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص117. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص203، وآدم متيز: الحضارة الاسلامية: ج2، ص416.

(2) المقريزي: ن م، ج1، ص275-276.

(3) النويري: نهاية الأرب، ج27، ورقة 17، مخطوط

(4) أبو الفداء:م س، ج3،ص173 (4 اجزاء، المطبعة الشاهنامية، القسطنطينية، 1286.

(5) النويري: نهاية الأرب، ج27، ورقة 56 مخطوط.

(6) المقريزي: الخطط، ج3، ص 376.

(7) القلقشندي: م س، ج2، ص97.

أما عن طريق استخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل: فقد كانت الرسائل عبارة عن بطاقات صغيرة خفيفة مكتوبة بخط دقيق أيضاً "سموه الغبار"[1] بما يشبه البرقية اليوم وتثبت بواسطة خيط رفيع تحت جناح الطائر لحفظها من المطر أو تحت ريش أذنابها[2] ولضمان وصول الرسالة، استخدمت حمامتان حيث تطير الحمامة الثانية بعد الأولى بساعتين تحسباً للطيور الجارحة في الجو هذا وقد مُيِّزت حمائم السلاطين عن غيرها بعلامات على مناقيرها أو أرجلها[3] كالوشم في الخيول.

مراكز البريد الجوي:

لقد أقيمت للحمام الزاجل أبراج في المراكز المخصصة لذلك حيث يقوم على خدمته موظفون يُلقبون بالبرّاجين أو الخُفراء[4] مقابل مرتبات وأعلاف للحمام من قبل السلاطين مع تزويدها بالأقفاص والبغال لنقلها للمراكز المختلفة.

وقد كان البرّاج يوقع على الرسالة عند وصولها لمركزه، ثم يربطها بحمامة أخرى حتى تصل للمكان المرسلة إليه. كما كانوا يعيدون الحمام إلى مراكزه التي خرج منها بأقفاص محملة على البغال[5]. أما المركز الرئيس للبريد في القاهرة فقد كان يوجد به حمام من كل نيابة وقلعة لاستخدامها في الطوارئ لإخبار النيابات في نفس اليوم[6] ومثلها وضع حمام تحت تصرف والي كل قلعة وكل ولاية في النيابات الأخرى لاخبار السلطان في الأمور الهامة بنفس اليوم[7]وكانت أبراج الحمام موزعة بين القاهرة والكرك كما يلي: القاهرة - بلبيس - الصالحية - قطيّا - الواردة - غزة - الخليل - الصافية - الكَرك.

---

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للنشر، بيروت 1969، ص213.

Jacob de Haas: History of Palestine, NewYork, 1934, P.289

(2) المقريزي: الخطط، ج3، ص 376

(3) ن.م. ن.ص.، سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1962، ص144.

(4) اليونيني: م س: ج3، ص261.

(5) المقريزي: الخطط، ج3، ص 376.

(6) ن م، جـ3، ص277. والقلقشندي: م س، جـ2، ص97.

(7) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص96.

أما من غزة لدمشق فكانت كالتالي: غزة – لد – قاقون – جنين – بيسان – اربد – طفس – الصنمين – دمشق.

ومن دمشق الى الكرك كانت تبدأ من الصمين – طفس – أذرعات (درعا اليوم) – البرج الأبيض (مرج الحمام اليوم)[1] – الكرك[2].

وكانت هناك شبكة مواصلات جوية في دمشق لتغطي أخبار الحدود الشمالية في حلب والبيرة والفرات والمدن الساحلية كبيروت وطرابلس وصيدا، بالإضافة للمدن الداخلية كعجلون وعمّان وحُسْبان[3].

وقد استخدم المسلمون نظام الإشارات الضوئية في العصور الوسطى الذي أخذوه عن البيزنطيين والمسمى باسم "المنائر" أو "المناور" بواسطة إيقاد النار ليلاً والدخان نهاراً في أبراج مرتفعة على رؤوس الجبال كمحطات إنذارٍ بقدوم العدو وخاصة في الثغور والسواحل وقد أشاد ابن خلدون بنظام الإشارات الضوئية لوصولها في ليلة واحدة من سبته إلى الإسكندرية[4]. ويلاحظ عليها أنها كانت متتابعة ويكمل بعضها بعضاً في الاضاءة الليلية، وقد استخدمها الصليبيون في فلسطين وشرقي الأردن حيث استطاعوا الإتصال من الكرك ببيت المقدس في شهر رجب 579هـ/ نوفمبر1182م أثناء حصار صلاح الدين للكرك لطلب النجدة[5].

ويّذكر ابن الجوزي بأنّ نساء النصارى العرب الخيالة في عكا كن يتتبّعن بالإشارات الضوئية عن طريق الشموع المضاءة في بيوتهن المقابلة لجبل الكرمل المُشرف على عكا لاخبار المسلمين بتحركات الصليبيين وأعدادهم[6] مما دفع الملك المعظم عيسى الى وضع رجال

---

(1) مرج الحمام: إحدى ضواحي عمان السكنية اليوم.

(2) العمري: ن م، ص197. والقلقشندي: ن م، جـ14، ص292-293.

(3) العيني: عقد الجمان، ج22، ق1، زرقو 111، مخطوط، ابن ايبك: كنز الدرر، ج9، ص259، القلقشندي: م س، ج14، ص393.

(4) ابن خلدون: العبر ج4، مطبعة العامرية، القاهرة، 1284، 7 أجزاء، ص434. وكانت المناور: عبارة عن محطات إرشاد بريدية اذ تشتعل النيران في قمم الجبال ليلاً وكانت في نيابة صفد ثلاثة مناور أولها في جبل فحمة بجنين ويرى منه المنور والثاني بجبال قاقون ثم المنور الثالث بجبال نابلس ومنها الى غزة ثم الى مصر، انظر صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص35، العمري ن.م. ص201.

(5) رانسيمان: م س، ج2، ص712.

(6) سبط ابن الجوزي: أبو المظفر يوسف بن غزا أو غلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ8، ورقة426، مخطوط نسخة مصورة بشيكاغو في امريكا.

متخصصين في ذلك في جبل الكرمل لتلقي هذه الاشارات وإرسالها الى دمشق لأخذ الحذر والخروج للقتال[1].

وذكرت المصادر بأن كل شمعة مضاءة من طاقة البيت كانت تدل على مائة فارس وكانت توضع في الجهة الجغرافية للبلد المقصود بالغزو أي في اتجاه نابلس أو دمشق[2].

وقد زاد اهتمام المماليك بهذه المنائر الضوئية لتتبع اخبار المغول والصليبيين، فإقاموها في أقصى الثغور الاسلامية الشرقية كالبيرة والرحبة لتصل الأخبار الى قلعة الجبل بالقاهرة في يوم واحد من الفرات الى القاهرة[3].

وقد امتدت هذه المنائر من الرحبة -كوائل- مناقب- حفير أسد الدين – السخنة – منظرة ارك – البويب- منظرة تدمر- منظرة البيضاء – الحير – جليجل – القريتين – السعطنة – تبنة – العقاب – مئذنة الروس – دمشق (في الجبل المطل علىبرزة) – المانع – تل قرية الكتيبة – الطرة – جبل اربد – قلعة عجلون – جبل طيبة اسم[4] – الجبل المنحدر تجاه بيسان – جبال الريف قرب نابلس – جبل جينين – جبل فحمة – شرفة قاقون- جبل مجدل يافا – يازور- غزة ومنها ترسل بواسطة الحمام الزاجل أو البريد البري[5].

وهكذا ساهم كل من البريد البري والجوي في استتباب الأمن وحفظ الاستقرار في جميع أجزاء الدولة، لمعرفة السلطان في القاهرة بما يدور في جميع ارجاء دولته بطرقها السالكة وقوافلها التجارية الآمنة فانصرف الناس إلى الإنتاج مما أدى لانتعاش الحياة الاقتصادية، فظهرت مدارس فنية تخصصية صناعية ومعمارية وازدهرت حركة فكرية كان من نتاجها بلوغ أعظم المؤرخين والفقهاء، فكانت الكرك وبيت المقدس ودمشق وحلب وغيرها مراكز إشعاع حضاري ماثلة للعيان حتى اليوم.

---

(1) القلقشندي: م س، ج14،ص398، العمري: م س، ص199.

(2) سبط ابن الجوزي: ن م، جـ8، ن ص.

(3) القلقشندي: ن م، جـ14،ص398، العمري: ن م، ص200.

(4) ماتزال اربد وعجلون والطرة عامرة في محافظة اربد اليوم شمال شرقي الأردن على الحدود السورية،كما تُسمى الطيبة اليوم بطيبة بني علوان، ناحية الوسطية نسبة إلى عشيرة العلاونة.

(5) القلقشندي: م س، ج14، ص399. العمري: مسالك الأبصار،ن م، ص200، 201.

4ـ نظر الجيش: الذي يهتم بشؤون العساكر المحلية واحتياجاتهم وإقطاعاتهم وصار ناظر الجيش المرافق لنقيب الجيش من أرباب السيوف حيث يحتفظ بسجلات الإقطاعات العسكرية وأصحابها ولمن تؤول بعد موتهم والاحتفاظ بالمناشير السلطانية الخاصة بحسابات العساكر المُقْطَعين[1] وقد مُسِحَت أراضي الشام وقُسِّمت من جديد عام712هـ/1312م بما يعرف "بالروك الناصري ببلاد الشام" نسبة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان ناظر هذا الديوان يعين بمرسوم سلطاني من القاهرة[2].

ولكنة كان يسند لبعض القضاة[3] أحياناً ولكاتب السر أحياناً أخرى[4] وكان يساعده كتاب وشهود[5].

(1) العمري: ن م ، ص120. فقد ذكر : "هذا الناظر معه من المستوفين من يحرر كليات المملكة وجزئياتها، فرأسهم هو مستوفي الصحبة. والمقريزي: الخطط، جـ2، ص227، والسيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص132. والقلقشندي: ن م، جـ4، ص190.

(2) القلقشندي: ن م، جـ4، ص234.

(3) القاضي شمس الدين بن الحافظ الحنفي قاضي صفد عام 716هـ/1316م بالإضافة لعمله. أنظر الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ2، ص19، 64-65، جـ4، ص265.

(4) ابن حجر : أبناء الغمر، جـ3، ص274: ذكر أنه أضيف الى كاتب صفد.

(5) القلقشندي:ن م، جـ4، ص31. ابن شاهين الظاهري،ن م، ص134. ومن الذين تولوا هذه الوظيفة في نيابة صفد: شهاب الدين الواسطي 687هـ/1288م. ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ3، ص249. يساعده بوظيفة المشد الأمير سيف الدين كرد، والمستوفي والأبحد مستوفيا. "ابن الفرات: م س، جـ8، ص67-68. تولاها الأمير سيف الدين يكتمر الحاجب سنة 702هـ/1302م. الصفدي : ن م، جـ10، ص19.

5- **الكاشفية: وصاحبها الكاشف**: المشرف على عمال الأراضي الزراعية وقنوات الري والجسور وصيانتها كالمشد والمستوفي حيث يشبه اليوم مدير دائرة الزراعة في النيابة "المحافظة" هذا وقد ذكرها ابن شاهين الظاهري ي عصره في صفد وكان أجناد الحلقة في صفد ومماليك الكامل والأمراء 2000.

6- **ناظر ديوان المواريث الحشرية**: الذي كان يهتم بتركات الأموات الذين لا وارث لهم[1] وقد أقر ذلك السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 700هـ/1300م على الأموات من المسلمين واليهود والنصارى السامريين ذكوراً وإناثاً في سائر البلاد الاسلامية وليس لهم وارث، فإذا ظهر ورثة لهم بعد ذلك يأخذون حقوقهم من الإرث ويضاف باقي التركة لبيت المال[2].

7- **ناظر بيت المال**: وهو المشرف على مالية النيابةي من واردات ومصروفات ورواتب موظفين ويشترط فيه العدالة والعلم والتقوى[3] وكان يساعده شهود بيت المال وكاتب المال وصرّافي بيت المال[4] ويُعين جميع هؤلاء الموظفين من قبل نائب السلطنة[5]. وكانت موجودة في العصر الأيوبي وعرف صاحبها بناظر الخزانة في الكرك[6] كما عرف بناظر الجهات الذي كان يحصل الضرائب التجارية والجمركية براً وبحراً باللإضافة لمسؤوليته عن الجهاز المالي من واردات ومصروفات[7] وعرفت هذه الوظيفة أيضاً في نيابة صفد

---

(1) القلقشندي: م س، ج4، ص33. والمقريزي: السلوك،ج2، ص770.

(2) القلقشندي: ن م، ج11، ص384،385، المقريزي: ن م، ج2،ص436. والنويري: م.س. ج31، ص217.

(3) القلقشندي: ن م، ج4، ص31، ج5، ص465، والعمري: م.س. ص 122، والمقريزي: الخطط، ج2، ص224، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص132،

(4) القلقشندي: ن.م. ن.ص.، المقريزي: الخطط، ج3، ص364-365 وقد تسلمها في الكرك الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسن علي الشافعي عام 714هـ/1314م "العيني: عقد الجمان، ج23، ق1، ورقة 40 مخطوط،وكانت تسمى أحياناً "وكالة بيت المال" القلقشندي، ن م، ج4، ص241-242، ويورد الدكتور يوسف غوانمة ذكرها في وثائق المتحف الاسلامي بالقدس: غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص47. ووجدت في صفد عام 720هـ/1320م تولاها علي بن الرسام الصفدي (ت746هـ/1345م). العيني: ن م، جـ20، ق3، ورقة 50، مخطوط.

(5) القلقشندي: ن م، ج4، ص220.

(6) العمري: مسالك الأبصار، ص121، والمقريزي: الخطط، ج2، ص227، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص132. هذا وقد تولاها شرف الدين بن مزهر في عهد الملك المغيث عمر.

(7) ابن قاضي شهبه: تاريخه ج3، ص649-650

والقدس وغزة[1] وقد ساعده "العامل" منظم الحسابات و"الصيرفي" الذي يقبض المال ويصرفه بمساعدة الصيارفة وكتاب الدرج أي "الأرشيف"[2].

كما كانت هناك وظائف ديوانية صغيرة لأرباب الأقلام في النيابات يعينهم نائب السلطنة في النيابة مثل "ناظر خزائن السلاح " لحفظه وصيانته وناظر الاسواق وناظر مراكز البريد وناظر الأحباس المشرف على شؤون المساجد والربط والزوايا والمدارس المحبوس عليها من الاقطاعات[3] وكاتب الخراج[4] وكاتب خراج الناحية[5].

كما سمي في القدس وكيل بيت المال عندما عيّن صلاح الدين الأيوبي الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القدسي وكيلاً لبيت مال القدس حيث فوضه ببيع الأملاك الخاصة ببيت مال القدس واشترى به كنيسة صند حنا التي حولها لمدرسة الصلاحية[6].

ثم استمرت هذه الوظيفة في عهد المماليك الذين ساروا على سياسة الأيوبين ونظمهم الإدارية، وكان تولي هذه الوظيفة يتم عن طريق نائب بيت المقدس حيث اعتبرها القلقشندي – الذي عاصر سلاطين المماليك حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي– من الوظائف المتوسطة[7].

ونقابة الجيش: فكان النقيب كأحد الحجاب الصغار الذي يرافق الجند عند عرضهم في المواكب السلطانية ومسؤول عن خزانة السلطان في المواكب والسفر[8].

ونقابة الأشراف: وهي وظيفة نفيسة وشريفة مهمة واليها التدقيق في أنساب الأشراف عن ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، والقضاء

---

(1) القلقشندي: ن م، ج4، ص199.

(2) القلقشندي: م س، ج5، ص466.

(3) القلقشندي: ن م، ج4، ص191، ابن شاهين الظاهري: م س، ص109.

(4) كاتب الخراج: خبير الحساب والمقاسمات بالاضافة لمعرفته المساحة والتقسيط. القلقشندي: ن م، جـ1، ص143-144.

(5) كاتب خراج الناحية: ووظيفته توزيع الأحواض على المزارعين مقدرة بالفدادين (الفدن) ويسجل ذلك في سجل خاص. ن م، جـ3، ص454، الباشا: الفنون الاسلامية، جـ2، ص194.

(6) ابن حجر: انباء الغمر، ج2، ص487..

(7) القلقشندي:ن م، ج12، ص7، فقال :"فتارة يولى فيها السلطان وتارة يولى فيها النواب، إلا أن تولية السلطان فيها في النيابات الكبار كالشام أكثر...".

(8) العمري: مسالك الأبصار، ص119، والمقريزي: الخطط، ج2، ص223، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص31.

بينهم وكانت تسمى نقابة الطالبيين قبل ذلك[1] وكان نائب القدس هو الذي يعين نقيب الأشراف في القدس والخليل ورعاية مصالحهم الاقتصادية أيضاً[2].

وناظر كنيسة القيامة: وهي من الوظائف المعروفة في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك، والتي لم تذكر في المصادر العربية[3].

وتؤكد المصادر الأوروبية[4] بأنه والحراس كانوا من المسلمين ووظيفة الحراس الخمسة عشر حراسة الحجاج عند دخولهم كنيسة القيامة وعند الخروج منها، وكان نائب بيت المقدس هو الذي يعين الناظر[5] لذا كان من المرجح أن يتقن بعض اللغات الأجنبية وربما كان يستعين بالمترجمين.

ومن المصطلحات الإدارية المملوكية:

الخشداش: والخجداش، معرب للفظ الفارسي خواجاناش أي الزميل في الخدمة أو الرق أو العتق، وكلما كثرت خشداشية أمير من الأمراء ازدادت مكانته. وأما المماليك السلطانية: فهم أصلاً جند السلطان الذي ينشأون في الطاعة ويتولى السلطان تربيتهم[6].

والجوكندار: وهو الذي يحمل جوكان السلطان اثناء لعبة الكرة. والجوكان هو المحجن الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان ايضاً.

---

(1) القلقشندي: م س، ج4، ص37.

(2) ابن تغري بردي: م س، ج12، ص153.

(3) وقد تكون هي التي أشار اليها القلقشندي تحت اسم :"شد متحصل قمامة" وان متوليها كان من المسلمين للإشراف على العجزة المسلمين والقسيسين والرهبان من أهل الذمة، القلقشندي: ن م، ج12، ص339.

(4) Newett: calala's Pilgrims to Jerusalem in the year 1494, Manchester, 1907, pp. 258-259

وانظر ص 249 ذكر الرحالة كازولا الذي زار بيت المقدس تحت اسم Abrayano والذي اشرف على اعداد الحجاج المسحين وجعل منهم موجب السلطان بعد تدوين اسمائهم وأعمارهم وجنسياتهم وأوصاف أجسامهم بالتفصيل من حيث الطول ولون العينين، ولون الشعر وغير ذلك ثم يوقع على هذه المعلومات، وتحفظ نسخة في القدس وترسل الأخرى الىالسلطان في القاهرة.

(5) القلقشندي : م س: جـ1، ص7.

(6) النويري: م س، تحقيق د. الباز العريني، مراجعد. عبد العزيز الأهواني، ج31، ص8(الهامش).

والجوكان : عصا طويلة مدهونة طولها حوالي أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطية معقوفة تزيد عن نصف ذراع[1].

والطواشية: والمفرد: طواشي: ويقصد بها الجندي الفارسي، ويتقاضى راتباً يتفاوت بين 700-1000 دينار ويبلغ في بعض الأحوال 1200 دينار وله غلام يحمل سلاحه في الحرب[2].

وأما الاستاذ: في المصطلح المملوكي: فهو السيد الذي ينتمي اليه المملوك وينتسب اليه وقد يعتبر تاجر المماليك أول استاذ المملوك الذي يجلبه من خارج الدولة المملوكية وينتقل المملوك من استاذ الى آخر. غير أن أهم الاساتذة هو الذي يستبقي المملوك في حوزته بالشراء ويظل حتى عتقه ويبقى متصلاً به بعد عتقه بروابط وثيقة ومخلصاً له حتى آخر يوم في حياته[3].

الأستاذ دار : وهو المسؤول عن إقطاع الأمير، ويتحدث مع الدوادين والفلاحين في القرى وعن بيوته[4].

أستاذ دار الصحبة : هو لقب متولي أمر مطبخ السلطان في سكنه وسفره، يشرف على الطعام والشراب، ويمشي أمام السلطان، ويحكم في غلمانه وباب داره، ويقف على السماط، ويشرف على كل نفقات بيت السلطان وكسوة من فيه[5].

إمرة جاندار : أمير جاندار: بمعنى حامل السلاح، ووظيفته أن يستأذن للأمراء بالدخول على السلطان، ويدخل أمامهم، ويطوف بالزفة حول السلطان في سفره وهو المستلم للزردخاناه وتحت إمرته الدوادارية. وطوائف الركابية والخازندارية وينفذ أمر السلطان بتعزير أو قتل أحد الأشخاص ولها أميران.

---

(1) النويري: ن م، ج31، ص19، طبعة 1992، القاهرة.

(2) النويري:م س، ج31، ص20. والمقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص86.

(3) النويري: ن.م. ج31، ص7، العريني: الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك، ص180-181.

(4) العمري: مسالك الأبصار، ص122. المقريزي: الخطط، جـ2، ص224.

(5) العمري: مسالك الأبصار، ص118. والمقريزي: ن م، جـ2، ص222. والسيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص131. والقلقشندي: م س، (جـ4، ص20-21، جـ5، ص457)

شـاد العمـاير : المسـؤول عـن العمـائر السـلطانية مـن بنـاء وتجديـد وترميـم القصـور والمنـازل والأسوار وهي إمرة عشرة[1].

البابية : جمع بابا وذكر القلقشندي بأنه لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ممن يتعاطى الغسـل والصقل، وهو لفظ رومي معناه الآباء لأنه يعمل في ترفيه مخدومه من تنظيـف أدماته وتحسين هيئته، يكون أشبه بالأب فلقب بذلك[2].

زمام دار: تحريف لكلمة زنان دار الفارسية، زنـان ومعنـاه النسـاء ودار ممسـك، فيكـون ممسـك النسـاء بمعنـى أنـه الموكـل بحفظ الحريـم، غيـر أن العامـة والخاصـة قلبـوا فيـه بميمين فعبروا عنه بالزمـام دار ظنـاً بـأن الـدار علـى معناهـا العربـي، والزمـام بمعنى القائد[3].

المهمندار : صاحب هذه الوظيفة يتصدى لتلقي الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم وهو مركب من لفظيـن فارسـيين. مهمـن : ومعنـاه الضيـف، ودار: ومعنـاه ممسـك فيكـون المعنـى ممسـك الضيـف والمـراد المتصدي لأمراه[4].

والقراغلامية: سائر الأجناد[5].

وأما الناظر: وهو عادة رئيس ديوان الجيش، ويختص بالنظر في أصول ما يتحصل من الأموال وما يجري صرفـه، والفـائض منـه والمتـأخر، وتقديـر الخـراج والكشـوف الجيشـية ويفحص ما يقوم به الموظفون من الأعمال والحسابات[6].

والمستوفي: يلي الناظر في الوظيفة، ومن أعماله مطالبة المستخدمين بما يجب عليهم دفعه مـن الحسـابات ويراجـع مـا يـرد عليـه مـن الحسـاب ويسـتوفيه وضبـط ايـرادات الدولـة

---

(1) القلقشندي: م س، جـ4، ص22. ناظر الخزانة الكبرى بقلعة الجبل وكانت من الوظائف الجبلية. المقريزي: المواعظ، جـ2، ص227.

(2) القلقشندي: ن م، جـ5، ص470.

(3) القلقشندي: ن م، جـ5، ص454-460.

(4) القلقشندي: ن م، جـ5، ص459.

(5) النويري: م س، ج31، ص40.

(6) النويري: ن.م. ج31، ص110.

ومصروفاتها ويلقب بـ "قطب الديوان" وكان يتحمل مسؤولية الإهمال في مواعيد جباية الأموال والمتحصلات، لذا كان يراقب الموظفين المكلفين بجمع الأموال[1].

ومن الاصطلاحات اللفظية المملوكية الهامة:

والجواشن: مفردها جوشن وهو الدرع[2].

التراكيش: مفردها تركاش، وهو لفظ فارسي الأصل، ومعناها: الكنانة أو الجعبة التي يوضع فيها النشاب[3].

الكلوتات: مفردها كلوتة، وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة واستحدث الأيوبيون لبس الكلوتة بمصر وكانت من الجوخ الأصفر، وإضيف اليها منذ زمن السلطان المنصور بن قلاوون الشاشات[4].

تطابيق بيطارية: مفردها تطبيقة، صفيحة من الحديد ينعل بها حافر الدابة لوقايتها[5].

الرخت: لفظ فارسي معناه المتاع[6].

الترسيم: الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة بالتحفّظ على شخص موضع ومنعه من الفرار، وهو من العقوبات العسكرية[7].

القبق: لفظ تركي معناه القرعة ووصف المقريزي القبق بأنه عبارة عن خشبة عالية، تنصب في براح الأرض، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ويقف الرماة بقسيهم، يرمون بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها الىغرض هناك، وكان في رأس الخشبة العالية قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف ويكون في القرعة طائر ويتبارى اللاعبون وهم على

---

(1) النويري: م س. ج8، ص301-302، ابن مماتي : قوانين الدواوين ص301، 302، القلقشندي: م س، ج5، ص466.

(2) النويري: ن.م. ج31، ص130.

(3) النويري: ن.م. ج31، ن.ص.

(4) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص48، القلقشندي: ن م، ج4، ص5-6. النويري: ن م،ج31، ص130.

(5) النويري: ن.م. ج31، ص131.

(6) المقريزي: السلوك، ج1، ص190.

(7) النويري: ن.م. ج31، ص154.

ظهور الخيل في رمي الهدف بالنشاب فمن أصاب منهم القرعة واطار الحمام، فاز بالسبق وأخذ القرعة مكافأة له[1].

الحبر: لفظ فارسي معرب، يقصد به المظلة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في المواكب وهي من رسوم الملك، ومن بقايا الدولة الفاطمية[2].

المصانعات: المقصود بها هنا أموال الرشوة والمدارة[3].

النقّارات: مفردها نقّارة، من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة بمصر منذ أيام الفاطميين، وكانت تُحملُ على عشرين بغلاً على كل بغل ثلاث وكانت تُحْمل في ركاب السلاطين الى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر، وفي الإيذان ببدء القتال[4].

الجوالي: مايؤديه أهل الذمة من الجزية وفقاً للأحكام الشرعية، فلا يؤديها النساء والصبيان والرعيان والعبيد والمجانين[5].

ومن العادات الإدارية في عصر المماليك أنه إذا عُينَ أحدُ من الأمراء في وظيفة أو نيابة يتوجه الى المدرسة المنصوريّة في القاهرة، بحضور القضاة الأربع ويقسم يمين الولاء[6].

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص518، حاشية 6.

(2) القلقشندي: م س، ج4، ص7-8. النويري:م س. ج31، ص305

(3) النويري: ن.م. ج31، ص307

(4) النويري: ن.م. ج31، ص312. والقلقشندي: ن م، ج3، ص 475.

(5) ابن مماتي: م س، ص317-318.

(6) النويري: ن م، ص348.

ثالثاً: الوظائف الدينية: وتشمل:

1. **القضاء** : كان قاضي القضاة الرئيس الأعلى للقضاء، يُعَيّنُ بمرسوم سلطاني من القاهرة، وهو الذي يعين جميع القضاة في ولايات النيابة[1] وقد أمر الظاهر بيبرس بأن يحكم أربعة من القضاة في معظم النيابات الشامية والمصرية من قضاة المذاهب السنية الأربعة[2] بشرط وجود اتباع لهذه المذاهب هناك:

وفي عام 689هـ/1290م عين الملك المنصور سيف الدين قلاوون 689هـ/1290م ثامن ملوك الترك في مصر، وخلفه ابنه الأشرف خليل الذي طَهّرَ عكا وحيفا وصيدا وصور من الصليبيين.

وعيّن شرف الدين المقدسي بعد وفاة القاضي نجم الدين المقدسي الحنبلي قاضي الحنابلة[3]. وفي عام 690هـ/1292م نقل السلطان الأشرف قلاوون الصالحي قاضي القدس. بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي الى الديار المصرية[4].وقد قتل السلطان الأشرف خليل على يد الأميرين بدر الدين بيدرا وحسام الدين لاجين[5]. فخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون[6].

وربما أراد تحقيق العدالة والنزاهة في احتكام أتباع كل مذهب إلى قاض من مذهبهم فيبعدهم عن الطعن في الأحكام الذي يثيره اختلاف المذهب.فالبنسبة لنيابة صفد فقد وجد أربعة قضاة أعلاهم قاض الشافعية[7]ويليه في المرتبة قاضي الحنفية في المرتبة الثانية[8] ثم قاضي المالكية[9] ثم قاضي الحنابلة[10].

---

(1) ابن اياس: بدائع الزهور، ص59.
(2) القلقشندي: م س، ج9، ص255.
(3) النويري: م س، جـ31، ص171، 177.
(4) ابن الفرات: م س، جـ8، ص127. والنويري: ن م، جـ31، ص220.
(5) ابن الفرات : ن م، جـ8، ص167.
(6) ابن الفرات : ن م، ص172. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص793. والنويري : ن م، ص267.
(7) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج2، ص37، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج12، ص18، وابن حجر: الدرر الكامنة ج3، ص179-180 وابن تغري بردي: المنهل الصافي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، دار الكتب، جـ1، ص40. وابن قاضي شهبه: م س، جـ1، ص222، ومنهم حسام الدين القدسي الشافعي 707هـ/1307م وشرف الدين النهاوندي 716هـ/1316م. وعلي بن الرسام الصفدي.
(8) الصفدي:ن م، جـ2، ص19، 64-65.
(9) ابن قاضي شهبه: ن م، جـ1، ص139-184.
(10) النعيمي: الدارس، جـ2، ص266.

أما فيما يتعلق بالقضاء لدى اليهود في القدس:

فقد كان لهم قضاة يحكمون في المنازعات بين طوائف اليهود المختلفة وكان يطلق على كل منهم لقب "الشيخ"[1]. كما كان قضاتهم منهم حسبما تؤكد وثائق الجنيزا التي كتبها اليهود في مصر وتناولت مختلف نواحي حياتهم[2] وبالنسبة لأجور القضاة اليهود فربما أخذوها من الأشخاص الذين يحتكمون اليهم أو من مساعدات الطائفة اليهودية لهم بشكل عام[3].

وهكذا نلاحظ تسامح المسلمين في عصر سلاطين المماليك مع اليهود بحيث سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية برئاسة حاخاماتهم، ويشهد بذلك مؤرخي اليهود أنفسهم[4] وكان معظم رؤسائهم الدينين من الإشكنازيم من شرق أوروبا[5].

وفي أواخر الدولة المملوكية استخدمت الرشوة لتولي منصب القضاء كما حدث مع قاضي القدس ابن سالم حيث دفع مبلغ الف وخمسائة دينار للسلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون عام 746هـ/1345م ومثلها لمن توسط له بذلك[6] وبالنسبة للقضاء بين الطوائف المسيحية في القدس زمن المماليك فقد كان بأيدي أبناء هذه الطوائف، فإذا حدث خلاف فيما يتعلق بالأماكن المقدسة المسيحية، يلجأون الى قاضي القدس المسلم، كما جاء في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس[7]، أما خلافات اليهود مع المسلمين فكان الفصل فيه للقضاه المسلمين الذين كانوا يحكمون بالعدل بينهم، وقد شهدت بذلك الوثائق التاريخية الموجودة لدى الرهبان الفرنسيسكان[8].

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع، جـ2، ص215، جـ1، ض12-13. وقد أكد ذلك الرحالة اليهودي اسحق بن شيلو الذي زار بيت المقدس عام 735هـ/1334م

(2) Ben-Sason Jewish Society threow the ages, NewYork, 1973, pp. 181-184.

(3) Adler: Opcit, pp. 151-153.

(4) Adiler: Opcit. p. 133

(5) Ibid. p. 146.

(6) المقريزي: السلوك، ج2، ق3، ص696.

(7) عارف العارف: تاريخ القدس، ص268-269.

(8) د. أحمد دراج: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي بالقاهرة1961م. ص63.

وكذلك وجد في القدس قاضي شافعي في عهد المماليك البحرية وكان يجمع بين قضاء القدس والرملة ونابلس وجنين وأعمالها وكان منصباً وراثياً[1] وجمع بين القضاء والخطابة[2]. كما كان زمن الأيوبيين أما بقية المذاهب فاستحدثت في عصر المماليك الشراكسة[3].

أما بالنسبة لقضاء شرقي الأردن فقد تولى القضاء في الكرك شافعي في المرتبة الأولى وحنفي في المرتبة الثانية[4]. في ولاية البلقاء التابعة لنيابة دمشق التي كانت تضم أحياناً لنيابة دمشق وأحياناً أخرى لنيابة الكرك كما سبق[5]. فقد كان هناك قاضياً شافعياً لمعاونة والي البلقاء ويتبعه قاضي حسبان[6] وقاضي الصلت[7] وقاضي عمّان[8] وفي نيابة عجلون كان القاضي الشافعي يتم تعيينه من قاضي القضاة بدمشق وكان هناك مُحَدِّثاً[9].

وبالنسبة لمرتبات القضاة فقد صرفت أرزاق للقاضي الشافعي والحنفي فقط في نيابة صفد[10] وللشافعي في نيابة القدس من الأوقاف بما يعادل عشرة دراهم فضة كل يوم وبما كان ذلك لعدم انتظام توليتها وقلة اتباع هذين المذهبين[11].

لقد ذكر المقريزي أن راتب القاضي الشهري كان خمسن ديناراً[12] بالاضافة للأنظار التي

---

(1) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل ج2، ص283، ص474-478.

(2) ابن تغري:م س، ج9، ص298.

(3) الحنبلي: ن م، جـ2، ص219، 244، 261، ص283.

(4) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص 78، وذكر بأنه عهد الى قاضي الشافعية بالكرك النظر في الأوقاف وقضايا بيت المال الخاصة ومحمد بن داود قاضي صفد عام 716هـ/1316م. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2، ص64-65.

(5) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص15، المقريزي: السلوك، ص665.

(6) السبكي: طبقات الشافعية، ج5، ص133، ابن حجر: أنباء الغمر، ج1، ص181، 186. وابن حجر: الدرر الكامنة، ج1، ص72، والسخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص202.

(7) السبكي: ن.م. ج5، ص132، 133، السخاوي، ن م، جـ5، ص99.

(8) أبو شامة:الذيل على الروضتين، ص154.

(9) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص33، ص101، 102، الصفدي: م.س. ج7، ص66، 67. ذكر اسم القاضي محمد بن عبد الصمدبن عبد الله بن أحمد المتوفى (سنة 680هـ/).

(10) ابن قاضي شهبه، م.س. ، ج10، ص139-145.

(11) مجير الدين الحنبلي: ن م، جـ2، ص562،588.

(12) المقريزي: الخطط، ج2، ص223، ابن حجر: انباء العمر، ج3، ص95.

يتولاها[1] والمناصب التي يتولاها بمرتباتها[2] ونفقة السفر والإنعامات الجزيلة المتكررة في المناسبات العديدة وتصرفهم بريع الأوقاف[3] والمعاش التقاعدي بعد نهاية خدمتهم.

لذا تمتع القضاة بثروة خيالية نتيجة وفرة الموارد المالية السالفة الذكر وبقدر تقربهم من الأمراء والسلاطين. كما استفاد ورثتهم من هذه الوظائف لأنها تُورّثُ له ويستغلها كبار العلماء مقابل الثلث[4]. كما كانت هذه الوظائف الثانوية الملحقة بهم وبالاً عليهم أيضاً وخاصة المتعلقة بإدارة الأوقاف حيث كانت سلاحاً ذو حدين إذ يفتح مجالاً للسلطان للتخلص من القضاة غير المرغوب فيهم ولاستخدامها وسيلة للضغط على القضاة لتنفيذ مطالبهم[5]:

ويُلاحظُ خضوع القضاء في عصر المماليك البحرية لنفوذ كبار أمراء الدولة في القاهرة ودمشق وذلك عندما عزل سيف الدين تنكز نائب دمشق زمن السلطان محمد بن قلاوون قاضي صفد النهاوندي لغضبه عليه، وولي الشيخ شمس الدين الخضري مكانه[6].

وكان يساعد القاضي موظفين كالكاتب[7] والحاجب[8] والنقيب[9] وأمناء القاضي[10] والشهود أي الشهود العدول المختصين في صحة الإجراءات القضائية وليس الشهود الحقيقين مع

---

(1) ابن طولون: قضاة دمشق، ص 106، يذكر بأن لقاضي دمشق في الشهر عشرة ألاف درهم فضة معاليم قضاء وانظاراً اذا كان نزيها وضْعفُ ذلك إذا كان غير ذلك (اي أنه يقبل الرشوة).

(2) المقريزي: السلوك، جـ1، ص773.

(3) المقريزي: ن م، ورقة 352ب، قضاة دمشق، مخطوط.

(4) جمال جرجي: القضاء في الدولة المملوكية، رسالة ماجستير، عين شمس، القاهرة، 1972، ص83.

(5) المقريزي : السلوك، ورقة 302أ. وابن تغري بردي: م س، جـ7، ص59.

(6) الصفدي: الوافي، ج4، ص90-91.

(7) السبكي:طبقات الشافعية. ص89، القلقشندي:م س، ج1، ص282. وذكر شروط الكاتب بتمكنه من اللغة العربية والعادات العربية، والذكاء وخبرة بالسجلات.

(8) السبكي: ن.م. ص89، والقلقشندي: ن.م.ن.ص. والحاجب الذي يسمح بدخول الناس على القاضي ويشترط به التقوى.

(9) السبكي: ن.م. ص86، ومهمة النقيب: تنبيه القاضي على الشهود أي ذكر اسماءهم.

(10) وهم المسؤولون عن حفظ أموال اليتيم والغائبين وصرف زكاة أموالهم ويشترط فيهم التقوى ايضاً السبكي: ن.م. ص87.

المدعي والمدعي عليه[1] ومن الجدير بالملاحظة أنه خُصص راتب شهري لكل من هؤلاء الموظفين[2] لتبدعدهم عن الرشوة وتعينهم على حوائجهم اليومية.

وكانت حاشية القاضي تشمل النائب والشاهدون من الحكم وكاتب الحكم والحاجب والنقيب والرسول والوكيل والجابي.

أما بالنسبة لمهمة القاضي فكانت النظر في المنازعات الشخصية والدعاوي الحقوقية، والأموال التي لا وارث لها وأموال المواريث المتنازع عليها وأموال الأوقاف لتنميتها ونفقتها على الأبواب التي خصصت لها بموجب الوجوه الشرعية والاشراف على أموال الأيتام، والمحجور عليهم[3]. كما لُقّبَ الموظفون التابعون للقاضي والذين سبق ذكرهم بالمباشرين[4].

وبالنسبة للإستئناف في القضايا والمظالم التي عجز القضاة عن حكمها[5] أو أهملوها وربما بضغط من الأمراء فكان يتم في مدينة الكرك إذ كانت هناك داراً للعدل[6] يجلس فيها نائب السلطنة بمساعدة عدد من القضاة يومي الاثنين والخميس للنظر في هذه القضايا كما حدث أيام الناصر محمد بن قلاوون[7].

دار العدل (دار المظالم):

وكانت هناك داراً المظالم يشرف عليها مفتي يعينه نائب السلطنة [8] وذلك للنظر في القضايا والمظالم التي لم يحكم فيها القاضي[9]، حيث يَنْظُرُ فيها نائب السلطنة بمساعدة بعض

(1) السبكي: م س. ص89، القلقشندي: م س، جـ1، ص282، 283.

(2) القلقشندي: ن م، ج10، ص282. ومن الجدير بالذكر أنه خصص راتب شهري لكل من هؤلاء الموظفين ليترفعوا عن الرشوة وتعينهم على قضاء حوائجهم اليومية.

(3) العمري: التعريف، ص116-123، وعلي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص354-355.

(4) القلقشندي: ن م، ص210.

(5) الماوردي: م س، ص210.

(6) المقريزي: الخطط/ جـ3، ص338، وكان السلطان يعين لها موظف للافتاء. القلقشندي: ن م، جـ4، ص192، جـ9، ص255.

(7) ابن كثير:م س، جـ14، ص47. العيني: م س، جـ22، ق1، ورقة51، مخطوط.

(8) القلقشندي: ن م، جـ4، ص192، جـ9، ص255.

(9) الماوردي: م س، ص210.

القضاة في يومي الاثنين والخميس وقد تولى الناصر محمد بن قلاوون النظر في مثل هذه القضايا عند لجوئه للكرك في سلطنته الثالثة[1].

وبالنسبة لِخَلع الخلفاء للقضاة: فقد كانت بيضاء للقاضي الشافعي وحمراء للقاضي الحنفي والحنبلي، وخضراء للمالكي[2]. وهكذا نلاحظ إكرام السلطان للقضاة في المناسبات والأعياد بهذه الخلع.

كما اشتملت اختصاصات القضاة: جميع أنشطة الحياة الاجتماعية، بالإضافة الى اختصاصات جماعية ينظرها جماعة من القضاة مثل ولاية الخلفاء والسلاطين والأوقاف والعتق والتعبئة العسكرية للتحريض على القتال ورفع معنويات الجند[3]. واختصاصت مشتركة بين المذاهب مثل الزواج والطلاق والسفر والإيجار وصحبة السلاطين.

ويُلاحظ من توسع اختصاصات القضاة أنها كانت لصالح السلاطين بواجهة دينية شرعية لجمع أموال العامة والتجار[4] ومصادرة الأوقاف وبيعها[5] والتلاعب في العملة[6] وكان حصر تركة السلاطين ومنح الخزائن يتم بطريقة جماعية أيضاً[7]. كما شملت الأحكام الجماعية عقوبة الإعدام في الجرائم الجنائية[8] وإمامة الصلاة أيام فيضان النيل[9].

---

(1) العيني: عقد، جـ22، ق1، ورقة 51، مخطوط. وابن كثير: م س، جـ14، ص47.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ2، ص12.

(3) أبو المحاسن:م س، جـ7، ص96، 390، 407.

(4) ابن اياس: م س، جـ3، ص179.

(5) أبو المحاسن: ن م، جـ6، ص179.

(6) المقريزي: السلوك، ورقة 289أ، 307ب.

(7) أبو المحاسن: ن م، جـ6، ص179.

(8) المقريزي: ن م، ورقة 164ب، مخطوط. ويقول ابن اياس: م س، جـ5، ص92، عندما كان السلطان يريد افساد القضايا الجنائية كالقتل فإنه يحولها إلى قضاة الشرع وإنما المختص بنظرها أصلاً هم الولاة.

(9) ابن اياس: ن م، جـ4، ص172.

وبالنسة لقاضي القضاة: فكان يرأس الهيئة القضائية ويعين القضاة في جميع ولايات النيابة[1]، ويعين قاضيين بالكرك شافعي وآخر حنفي[2] وكان قاضي الشافعية أعلى رتبة من الحنفية لذا كان يتولى القضايا الخاصة ببيت المال والأوقاف[3].

ولم يذكر القلقشندي إلا القاضي الشافعي ونرجح الرأي الأول نظراً لاتساع النيابة، وانتشار المذهب الحنفي في شرقي الأردن، ولأن السلاطين كانوا لا يعهدون لقضاة الشافعية في قضايا الإعدام لكره الشافعية لها كما مر معنا واعتدال الأحناف بالنسبة لجميع الأحكام وخاصة هدم الأبنية.

أما عن جلوس القاضي في المحكمة: فكان يجلس بجانبه الكاتب المُتمكن من اللغة العربية والخبير بالسّجلات[4] والنقيب الذي كان يُعَرِّفُ القاضي على الشهود والأمناء الموكلين بأموال الأيتام والغائبين والمخولين بصرفها حسب الأوجه الشرعية ، وكان القاضي يختارهم من أهل الصلاح والخير[5]. وأما الشهود فكانوا موكلين في النظر في صحة الإجراءات القضائية وليسوا شهوداً كما هو مألوف في الدعاوي القضائية ويجب أن تتوفر فيهم الأمانة والصدق والاستقامة ويخضعون لمراقبة القاضي[6].

وقد لوحظ أن قضاة الشافعية لم يصدروا حكماً بالإعدام بطريقة منفردة ويرجح هذا لعدم انتداب السلاطين لهم في القضايا الجنائية[7] لكراهة الشافعية للإعدام فكانوا يحولونها لقضاة المالكية[8] ويظهر هذا نوعاً من التحايل غير المباشر في الأمور الشرعية. وكان من الإختصاصات التي انفرد بها قضاة الشافعية النظر في أموال الأيتام وتولية النواب في جميع

---

(1) القلقشندي: م س، جـ9. ابن حجر : الدرر، جـ5، ص199. والسبكي: م س، جـ5، ص251. والولايات هي ولاية الشوبك وولاية معان وولاية زُغُر وولاية البر. الخالدي: المقصد الرفيع المنشأ، ورقة 154، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة.

(2) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص132.

(3) السبكي: ن م، ص78.

(4) ن م، ص85. والقلقشندي: ن م، جـ10، ص282.

(5) ن م، ص86، 87.

(6) ن م، ن ص.

(7) المقريزي: السلوك، ورقة 184ب، 390ب، 207أ، 407أ، 475أ، 481أ، مخطو بدار الكتب المصرية.

(8) أبو المحاسن: م س، جـ7، ص42. يذكر أن الشخص الذي كان يتوقع الحكم عليه بالإعدام يلجأ لأحد قضايا الشافعية لحقن دمه، كما حدث في عديد من المرات.

أقاليم مصر من أسوان الى غزة[1] والنظر في أموال الأيتام وتعيين الأوصياء وأمناء الحكم المشرفين على إدارة التركات والأوقاف ورؤية هلال الشهر العربي[2].

أما قضاة الحنفية فقد مارسوا أحكام الإعدام بتحفظ[3] بالإضافة الى اعتدالهم بالنسبة لاحكام هدم الأبنية[4]. لذا نلاحظ أن السلاطين أوكلوا معظم القضايا لقضاة المالكية لأن أحكامهم كانت توافق مزاجهم في قضايا الإعدام والزندقة وهدم الأبنية[5].ولم يتخصص قضاة الحنابلة بنوع معين من القضايا فحكموا في جميع القضايا[6].

مراسيم تولية القاضي:

أ- **طريقة اختيار القاضي:** تتلخص هذه الطريقة في ثلاثة اساليب وهي دفع الرشوة للسلاطين والوساطة والمصاهرة[7].

ب- **حفل تنصيب القاضي:** يكون بمقابله المرشح للقضاء السلطان بالقلعة بالقاهرة أو نائبه في الشام وطرابلس وغيرها فَيُوكَلُ إليه المنصبُ فتصبح ولايته للقضاء شرعية باعتباره ولي الأمر ثم يكتب له أمر التقليد الذي يحمل اسمه ولقبه ووصايا السلطان له وتمنياته له بالتوفيق وقد أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى العديد من التقاليد. ثم يَخْلَع عليه السلطان وينزل الموكب القضائي برفقة كبار الأمراء والأعيان من القلعة الى المدرسة الصالحية[8]. ويلحق بهم عدد من الناس للتهنئة عندما يكون القاضي من أصحاب السمعة الحسنة.

---

(1) ابو المحاسن، جـ5، ص627.

(2) المقريزي: السلوك، ورقة181أ، وابن طولون: قضاء دمشق، ص123.

(3) المقريزي: ن م، ورقة 475أ.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، ورقة 207أ.

(5) المقريزي: ن م، ورقة 184ب، 467أ، 459ب. وابن حجر: أبناء الغمر، م س، جـ1، ص488.

(6) ن م، ورقة 162ب، مخطوط.

(7) الصيرفي:ن م،ورقة 193أ،مخطوط. ابن اياس: م س، ج4، ص477 و ج3، ص168، 170. أبو المحاسن: ن م، ج6، ص288.

(8) المقريزي: الخطط، جـ2، ص373، (طبعة بولاق)، وذلك لاعتبارها المدرسة الأولى التي دُرِّ فيها الفقه على المذاهب الأربعة بعد الدولة الفاطمية، وقد بناها السلطان الملك الكامل عام 641هـ.

كما وكانت تجري محاكمات صوريّة إشعاراً بتسلم القاضي لمهام منصبه[1] أما الألقاب فقد تغيرت من المجلس العالي الى الجانب العالي[2] وأول من كُتِبَ له هذا اللقب قاضي القضاة عماد الدين أحمد الكركي[3] ثم يتلو القاضي المُعَيّن إحدى الآيات القرآنية ويفسرها أمام الحضور من كبار الموظفين وذلك بعد الانتهاء من قراءة تقليده[4].

الحسبة:

ومن شروط هذه الوظيفة الدينية أن يكون المحتسب عالماً بأحكام الشريعة خلوقاً بشوش الوجه رقيق القول، ولاتأخذه بالله لومة لائم من تطبيق الأحكام الشرعية بخشونة[5]وقد لوحظ انحطاط هذا المنصب لفساد الإدارة المملوكية نظراً للأموال المفروضة على هذا المنصب[6].

وكان للمحتسب سلطة تنفيذية كسلطة القاضي في مجال التعزير إذ كان يجلس في مكان يسمى "دكة المحتسب" وكانت داخل المسجد الأقصى، حيث أتخذ وسيلة للتعزير بالضرّب بالسوط والدرة المصنوعة من جلد البقر أو الجمل المخزُوز والمقرعة المصنوعة من أغصان الشجر[7].

وكان المحتسب في بداية عصر المماليك يُخْتَارُ بدقة من قبل نائب السلطنة، وبالنسبة للقدس[8] فقد كان فيها محتسب واحد نظراً لصغر حجمها[9].

---

[1] أبو المحاسن: ن م، جـ7، ص141.

[2] القلقشندي: م س، جـ5، ص484، جـ9، ص255.

[3] أبو المحاسن:م س، جـ5، ص358.

[4] الصيرفي:م س، جـ1، ص98.

[5] ابن فضل الله العمري: التعريف، م س، ص125. وابن الأخوة، م س، ص52. وابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، الهيئة المصرية للكتاب 1976، ص10-13.

[6] د. علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ص161.

[7] ابن الأخوة: ن م، ص184.

[8] القلقشندي: ن م، جـ12، ص60-61.

[9] مجير الدين الحنبلي: م س، جـ2، ص487.

الخطابة:

فقد اختصت بالخطبة الدينية في المساجد كما كان يفعل الرسول الكريم والخلفاء من بعده، لذا أعتبرت من أشرف الوظائف الدينية ولأهميتها الاجتماعية في الوعظ والإرشاد وتعديل السلوك فكان يُعَيّنُ خطيباً للجمعة والأعياد واستمرت خطابة المساجد حتى يومنا هذا بالإضافة للمؤذنين وخدم المساجد الذين كان يتم تعيينهم من قبل نائب السلطنة [1]في مدن وقرى شرقي الأردن[2] وفلسطين[3] وبالنسبة لخطيب المسجد الأقصى فقد كان يجمع بينها وبين القضاء أو التدريس في المدرسة الصلاحية ببيت المقدس، كما جمع أحياناً معها منصب القضاء والإمامة والإفتاء وذلك لشهرته في العلم والصلاح بين الناس وقد اشتهر ابناء عائلتي بني القلقشندي وبني جماعة بالقدس، كما تولوا مشيخة الخانقاه الصلاحية فكان أحدهم يستمر في نصف وظيفة الخطابة بالمسجد الأقصى، ونصف المشيخة بالخانقاه الصلاحية[4].

نظر البيمارستان: فهو ما يشبه المستشفى اليوم وكان يشرف عليه ناظر لإدارته ومراقبة الأطباء[5] وتدريس الطب في شرقي الأردن[6] وفلسطين[7].

أما الإشراف على أوقاف هذا البيمارستان فكانت من مهام القاضي[8].

---

(1) القلقشندي : ن م، جـ4، ص193.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب "تاريخ الواصلين" ورقة 419، مخطوط. والنويري: نهاية الأرب، جـ28، ورقة 231، مخطوط. المقريزي: السلوك، جـ1، ص491: ذكر هؤلاء : "أنه كان في الكرك خطيب خاص كما ذكر ابن قاضي شهبه خطيب قرية ملكا بشمالي الأردن الشيخ علي عبد الرحمن بن أبي الفتح (ت764هـ). ابن قاضي شهبه: الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، جـ2، ورقة 170، مخطوط. والسبكي: م س، ص34.

(3) المقريزي: ن م، جـ4، ق1، ص98. ذكر"فكان للمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الابراهيمي في الخليل خطباء يعينون من قبل قاضي القضاة" ... "وفي أواخر أيام الدولة تدخل السلطان في تعيين إمامة المسجد الأقصى والصخرة". المقريزي: ن م، جـ4، ق1، ص110.

(4) مجير الدين الحنبلي: م س، جـ2، ص479-486.

(5) القلقشندي: م س، جـ4، ص38.

(6) القلقشندي: ن م، جـ4، ص191. "فكان في الكرك بيمارستانا بناه الناصر محمد بن قلاوون عام 711هـ/1312م، وعين له ناظراً للاشراف عليه". وابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص228.

(7) البيمارستان الصلاحي في القدس الذي بناه صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس عام 588هـ/1192م قرب كنيسة القيامة، وزوده بالأطباء والأدوية والعقاقير وأوقف للنفقة عليه. العماد الأصفهاني: الفتح القسي: م س، ص612. ومجير الدين الحنبلي: م س، جـ1، ص391.

(8) العماد الأصفهاني: ن م، ن ص. ومجير الدين الحنبلي: ن م، ن ص، جـ2، ص102.

ويلاحظ إهتمام الأيوبين والمماليك بالطب وتدريسه[1] للعناية الصحية التي أعطوها أولوية هامة للوقاية من الأمراض.

2- ناظر الحرمين الشريفين[2]

لقد أوجد الأيوبيون والمماليك هذه الوظيفة الخاصة بحرمي القدس والخليل حيث يتولاها أمير كبير برتبة طبلخاناه[3] وكان تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة مرفق بخلع سلطانية يلبسها عند تعيينه ودخوله القدس حيث يستقبله نائب السلطنة والقاضي وأعيان النيابة ثم يدخل الى المسجد الأقصى ليقرأ مرسوم السلطان بذلك[4].

وكان من مهامه الإشراف على الحرمين في الخليل وبيت المقدس وترميمهما، والإشراف على أوقافهما[5] باللإضافة إلى احتفاظه بأموال الأوقاف الزائدة[6] ودفع رواتب العاملين فيها، وكذلك الإشراف علىموارد المياه التي تمد الحرمين الشريفين في القدس والخليل، مثل قناة السبيل التي كان الناظر ومعه العمال والصناع والالات يصلحونها من وقت لآخر[7]. وكان نائب القدس يقوم بهذه المهام منذ عام 777هـ/1375م[8].

(1) بنيامين التيطلي: رحلته، ص134، 135. فقد ذكر عدد الأطباء في أحد هذه البيمارستانات الأيوبية ستين طبيباً، وقسم البيماريتان الى أربعة أقسام، قسم الجراحة وقسم النساء، وقسم لرمد العيون، وقسم للحميات.

(2) الحرمين الشريفين: هما مكة والمدينة من جهة وحرمي القدس والخليل من جهة أخرى. مجير الدين الحنبلي: م س، جـ2، ص271، حيث ذكر ناظر الحرمين الشريفين القاضي شرف الدين عبد الرحمن عام 697هـ/1297م المعين من قبل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين.

(3) أنظر : الحنبلي: ن م، جـ2، ص270،. ذكرنا ناظر الحرمين في فلسطين الأمير علاء الدين ايدغوي الصالحي زمن الظاهر بيبرس. وانظر: المقريزي: السلوك، جـ3، ص221، 224: اذ ذكر ناظر الحرمين في القدس والخليل الأمير أحمد بن آل ملك عام 775هـ/1373م، وفي عام 780هـ/1378م، وليها الأمير بوري الأحمدي، المقريزي: ن م، ص338.

(4) مجير الدين الحنبلي : ن م، جـ2، ص336.

(5) المقريزي: ن م، جـ4، ق1، ص81.

(6) الحنبلي : ن م، جـ2، ص275.

(7) ابن فضل الله العمري: م س، ص108-109. والحنبلي: ن م، جـ2، ص605، 614.

(8) السخاوي: التبر المسبوك، ص208، 251.

3- **مشيخة المدرسة الصلاحية:** في بيت المقدس نسبة الى صلاح الدين الأيوبي الذي بنى المدرسة الصلاحية ببيت المقدس عام 583هـ/1187م[1].

وقد خصصها لتدريس المذهب الشافعي، ويتم تولية الشيخ المشرف عليها بمرسوم سلطاني من القاهرة[2] حيث يأتي هذا الشيخ في المرتبة الثالثة بعد نائب السلطنة وناظر الحرمين وكان يعهد لهذا الشيخ أحياناً بمنصب قاضي القضاة في بيت المقدس[3] ويجمع بين مشيخة الصلاحية ونظر الحرمين الشريفين أحياناً أخرى[4] وكانت مهمته الاشراف على جماعة المدرسين والمعيدين والطلبة والخدام وغيرهم وتوفير كل ما يلزمهم من مأكل وملبس ورعاية أوقافها وتنميتها. لذا كان لمشيخة الصلاحية أهمية خاصة لدى السلاطين، ويتضح ذلك من الحفاوة الكبيرة عند استقبال الشيخ في القاهرة حيث يصطحبه أمير كبير الى قلعة السلطان في الجبل حيث يجلس عن يمينه[5].

4- **مشيخة الخانقاه الصلاحية:**

وكانت مكاناً للصوفين والمجاورين ببيت المقدس، حيث أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بعد فتحه القدس عام 585هـ/1189م وما زال بناؤها موجوداً حتى اليوم[6].

وقد استمرت هذه الوظيفة في عهد المماليك، حيث عُيِّنَ شيخ الخانقاه بمرسوم سلطاني من القاهرة[7] وكان يتناوبها شخصان أحياناً وتقسم مناصفة بين شخصين أحياناً أخرى[8]. كما وجدت وظائف مماثلة لمشيخة الخانقاه الصلاحية في بيت المقدس كمشيخة المغاربة ومشيخة

---

(1) العماد الأصفهاني : م س، ص145، وما بعدها. الحنبلي: م س، جـ2، ص41، ويذكر أنه بناها مكان كنيسة حنة وهي والدة مريم العذراء حيث كانت تسكن في مكان هذه الكنيسة داخل أسوار القدس وخارج الحرم في الشمال قرب باب الأسباط.

(2) الحنبلي : ن م، جـ1، ص41.

(3) ن م، جـ2، ص283.

(4) المقريزي: السلوك، جـ4، ص440، 483، كما جمع بعضهم بين مشيخة الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى أو نصف خطابة المسجد الأقصى مثل : محب الدين بن جماعة. الحنبلي: ن م، جـ2، ص298، وكان البعض يعين محله في نصف المشيخة أحد شيوخ القدس بينما يظل هو في القاهرة. المقريزي: ن م، جـ3، ق2، ص858. والحنبلي: م س، جـ2، ص304.

(5) المقريزي: ن م، جـ4، ق1، ص312.

(6) محمد كرد علي: م س، جـ6، ص154.

(7) القلقشندي: م س، جـ12، ص105، 106.

(8) مجير الدين الحنبلي:ن م ، جـ2، ص485-486.

الأمينية والتنكزية حيث كان شيخها يعين من قبل نائب السلطنة بدمشق، ثم أصبح تعيينه من نائب القدس عندما اصبحت نيابة. وقد تولى مشيختها أكثر من شخص واحد في وقت واحد كالصلاحية[1]. كما كانت هناك وظائف دينية أخرى مألوفة لجميع المسلمين مثل أئمة المساجد والمؤذنين والمكبرين والمؤقت والقارئ كما هي الحال في معظم المساجد الكبيرة في العالم الاسلامي.

---

[1] ن م، جـ2، ص579-583.

السياسة الداخلية

مقدمة:

لقد اخترت نموذجين للسياسة الداخلية أيام السلطان بيبرس[1] المؤسس لدولة المماليك (648-783هـ/1250-1382م بدءاً من شجرة الدر وايبك وقطز والسلطان الناصر محمد بن قلاوون المؤسس الثاني والحقيقي لدولة المماليك علماً بأن استقرار دولة المماليك البحرية ثم بعد حكم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وولديه خليل والناصر محمد.

فأما الظاهر بيبرس فأدرك أهمية شرقي الأردن كجزء متمم لمملكته فبنى جسراً جديداً على نهر الأردن تسهيلاً لحركة جيوشه بين عجلون وسوريا[2] كما بنى سلسلة من محطات الحمام الزاجل والأبراج لنقل الأخبار بالإشارت بين مصر والعراق مارة بقرى الطرّة واربد وعجلون وذلك خلال اثنتي عشرة ساعة[3] بالاضافة الى ترميم القلاع المهمة كقلعة الربض وقلعة الصلت وقلعة الكرك الى أن توفي عام 675هـ/1277م حيث دب الصراع بعده بين امراء المماليك على السلطة الخاصة الى أن استطاع خليل بن قلاوون أن يوجه الضربة القاضية للصليبيين في فلسطين وسوريا عام 689هـ/1291م بطردهم من طرابلس وعكا.

(1) نسب الظاهر بيبرس: ولد في سنة 622هـ/1223م في بلاد القبجاق وبيع بدمشق للامير علاء الدين أيدكين البندقداري وقيل أنه بيع بسيواس. المقريزي: السلوك، ج1، ص574، .Enc. IsL. Art, Baibars, I, P 350, 436

وتوفي يوم الخميس السابع عشر من محرم عام 676هـ/ 1277م ببقايا سم كان قد قدمه لسم الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن المعظم عيسى بن العادل بن أبي بكر بن أيوب غيرة منه لشجاعته واقدامه في المعارك فاراد بيبرس الخلاص منه، وقد بلغ من العمر ما يزيد على خمسين عاماً وحكم حوالي سبع عشرة سنة وشهران واثنتا عشر يوماً المقريزي: السلوك: ج1، ص636.

وكان تبجاقي الأصل، طويل القامة، اسمر اللون في عينيه زرقة وبأحدى عينيه لقطة صغيرة صوته جهور، شجاع أحضره تاجر الى حماة وعرضه على صاحبها الملك المنصور محمد فلم يعجبه: انظر ابن واصل: مفرج الكروب، ص404) ثم بيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم رد الى صاحبه لبياض في احدى عينيه، فاشتراه علاء الدين ايدكن البذقداري -مملوك الملك الصالح الأيوبي- فترقى في الخدم وتنقلت به الأحوال الى ملك مصر والشام وكانت الأمراء تخافه حتى أنهم لم يجرؤا من الدخول عليه عند مرضه الا بأذنه وكان شجاعاً مقداماً يتفقد أحوال مماليكه بنفسه، وقد بلغ عدد عساكره اثني عشر ألف ثلثها بمصر وثلثها بدمشق والثلث الآخر في حلب وكان عند قيامه بالغزو يخرج معه أربعة الآف يسمون بجيش الزحف، فان احتاج استدعى اربعة أخرى، وأن اشتد به الأمر استدعى الأربعة الاف التالية ومن المدن التي فتحها: قيسارية وارسوف وهدمها؛ وفتح صفد وعمرها، كما فتح طبريا ويافا والشقيف (شقيف ارنون) وملك دمشق وعجلون والصلت والكرك والشوبك. وسائر اقليم مصر والشام حتى وصفه بعض الشعراء الروم.

(2) ويوجد على الجسر كتابات تظهر تاريخه 671هـ/1273م، وقد شاهد الباحث ذلك.

(3) فردريك بيك، م.س. ص155-156.

ولكن المغول لم يدعوهم ينعموا بالراحة والاستقرار بعد زوال الخطر الصليبي الذي صادف صراع الأمراء المماليك على الحكم بعد مقتل المنقذ خليل بن قلاوون سنة 691هـ/ 1293م وآلت الكرك الى الناصر محمد بن قلاوون الذي ابتدأ حكمه للمره الثالثة عام 719هـ/ 1318م واهتم بإعمار شرقي الأردن حيث أعاد بناء قلعة الشوبك وجدّد بناء حصن العقبة وبنى مقاماً على قمة جبل هارون لايزال قائماً حتى الآن[1].

وقد ساعد على الاستقرار سياسة الناصر محمد بن قلاوون الذي كان يصدر مراسيم لأعفاء الناس المتهربين من دفع الضرائب كما أكسبه شعبية كبيرة ضد منافسيه[2] هذا بالإضافة الى اهتمام أوائل المماليك بالشؤون القضائية والدينية والتعليمية كما سيمر معنا وبعد وفاه الناصر محمد عام 750هـ/ 1349م حدث صراع على الحكم بين أبنائه حتى مكث ابنه اسماعيل ثلاث سنوات في الكرك، واستمر الصراع واشتعلت الفتن والثورات حتى عام 783هـ/1382م حينما غنم برقوق العرش كأول سلاطين الشراكسة أو البرجية الذين حكموا مصر حوالي 135 عاماً، حيث ظلت الأردن جزءاً من المملكة المصرية، لكنها فقدت أهميتها كحلقة اتصال بين سوريا ومصر بعد خروج الصليبيين من فلسطين.

وقد ترجم سلاطين المماليك سياستهم الدينية الى واقع ملموس لكي يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرتهم اليهم، لذا ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية في مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة النقدية مثل "نصير أمير المؤمنين" و "سلطان الاسلام والمسلمين" و"محي العدل في العالمين" و "ظل الله في أرضه، حامي الحرمين الشريفين والقبلتين، القائم بسنته وفرضه" وأعلى هذه الالقاب الدينية كان 'قسيم أمير المؤمنين[3].

وهذا كله أيضاً للتأكيد على الشرعية التي تمتعوا بها بعد احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/1261م من قبل الظاهر بيبرس عندما بايع بحضور العلماء والأعيان والشهود وجميع كبار الدولة وكبار التجار أبا أحمد العباس أحمد ولقبه بالمستنصر الذي قلده فيما

---

(1) توجد لوحة معلقة فوق مدخل قبر هارون على أن سمعان بن الناصر محمد قلاوون بنى هذا المقام عام 739هـ/1338م.

(2) حيث أعفى الناس في بلاد الشام عام 702هـ/1302م من الضرائب الباهظة عليهم. القلقشندي: م.س. ، ج13، ص28-30.

(3) القلقشندي: م ن، القاهرة، 1913، المطبعة الأميرية ، ج6، ص108-124. وعبد المنعم ماجد: دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، طبع القاهرة 1970م، ج1، ص29.

بعد البلاد الاسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفار[1] ثم أحياها مرة ثانية عام 661هـ/1263م بعد مقتل الخليفة العباسي الأول في حربه مع التتار في العراق كما مر معنا. ولقب بالحاكم بأمر الله، فقلده أمور البلاد والعباد ولقبه بـ"قسيم ألمؤمنين[2] لذا اعتبر بيبرس أول من تلقب بهذا اللقب من قبل خليفة. وكانت استفادتهم من إحياء الخلافة العباسية في القاهرة الحماية الروحية حتى الفتح العثماني.

المراسم الملكية السلطانية:

كان من العادة أن يركب السلطان زمن الايوبيين والمماليك بمصر بعد وفاء فيضان النيل ثلاث مرات متتالية في كل سبت، حيث ينزل من قصره أول النهار من باب الاصطبل وهو راكب على الهيئة المذكورة في العيد[3] بدون حمل الجتر على راسه، وتحمل الغاشية أمامه في أول الطريق وآخره، ويصل الى الميدان لينزل في قصوره، وينزل الأمراء الذين برفقته الى منازلهم على قدر طبقاتهم، ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر برفقة الأمراء، ويستمر في لعب الكرة الى آذان العصر، ثم يركب على الهيئة التي كان عليها في أول النهار، ويذهب الى قصره.

أما المقصود بالميدان الأكبر فهو الميدان السلطاني الذي بناه الملك الصالح نجم الدين أيوب في باب اللوق[4].

وعندما استقبل بيبرس الأمير أبا القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستنصر بالله العباسي –الملقب بالزراتيني (لقبه به العامة)[5]– مع جماعة من عرب بني مهنا بعد هربه من بغداد أثر مقتل الخليفة المستعصم بالله على يد هولاكو عن طريق دمشق الى مصر حيث بالغ السلطان في استقباله بصحبة وزيره بهاء الدين بن حنا

---

(1) أبو شامة: الذيل على الروضتين، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، ط2، نشر دار الجيل، بيروت 1974م، ص 230، والمقريزي: السلوك، ج1، ص451، 457.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، ص 451، 1327هـ، ج1، ص 87. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، تصحيح بوليس راوبيس، باريس، 1894، ص89. وأحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص 190.

(3) القلقشندي: م س، ج4، ص46، 47.

(4) ن م، ج3، ص378.

(5) ابن تغري بردي:م س، ج6، ص777.، والسلوك ج1، ص448.

وقاضي القضاة وسائر الأمراء وجميع العسكر وجمهور أعيان القاهرة ومصر ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين وأعيان الصوفيّة والتجار والشيخ عز الدين بن عبد السلام فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد وجلس السلطان متأدباً معه بغير كرسي ولا طُرّاحة ولا مسند وشهد العربان والقضاة بأن الأمير هو ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين[1] وبايعوه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والشيخ العز بن عبد السلام وبعد البيعة قلد الإمام المستنصر بالله الظاهر بيبرس البلاد الاسلامية[2].

وكان الظاهر بيبرس قد عزم على إعادة الخليفة لبغداد، فسافر معه لدمشق، ولكن نصحه أحد السلاطين بأنه اذا استقر الأمر له في بغداد نازعك وأخرجك من مصر[3] وقد قُتِل الخليفة قرب هيت سنة 660هـ/1262م على يد المغول ونجا الأمير أبي العباس أحمد الذي قدم لمصر وتلقب بالحاكم بالله ومعه بعض الأمراء العرب مثل ناصر الدين بن مهنا[4]. بعد ان شغر منصب الخلافة مدة ثلاث سنين منذ مقتل المستعصم بالله فكان المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس. وقد لقب بلقب أخيه المستنصر باني المدرسة المستنصرية في بغداد.

مراسيم تنصيب الخليفة للسلطان بيبرس:

وفي يوم الاثنين رابع شعبان سنة 659هـ/1261م ركب السلطان بيبرس الى خيمة ضربت في البستان الكبير خارج القاهرة، ومعه أهل الدولة، وحملت الخلع بصحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجي، وخادم الخليفة المستنصر بالله، فدخل السلطان الى خيمة أخرى، وفيضت عليه الخلع الخليفية، وخرج بها: وهي عمامة سوداء مذهبة مُزركشة، ودُرّاعة[5] بنفسجية اللون، وطوق ذهب، وقيد من ذهب عمل في رجليه، وعدة سيوف تقلد منها واحداً، وحملت البقية خلفه، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران وَتُرْسٍ، وقُدمٍّ له فرس أشهب في عنقه مشدة

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص449.
(2) أبو الفداء: م س، ص147.
(3) المقريزي: ن م، ج1، ص462.
(4) المقريزي: ن م، ج1، ص467.
(5) الدراعة: جبة مشقوقة من الأمام، مصنوعة من الصوف، والجمع دراريع(محيط المحيط). المقريزي: ن م، ص452 والدراعة أيضاً صدرية تلبسها البنات.

سوداء[1] وعليه كبرش[2] أسود وطلب الامراء واحداً بعد واحد وخلع عليهم، وخلع على قاضي القضاة تاج الدين، وعلى الصاحب بهاء الدين وعلى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الانشاء، ونَصّب منبراً، فصعد عليه ابن لقمان بعد ما لبس ثوب حرير أطلس أصفر، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان وهو من إنشائه ونصه بعد البسملة: "الحمد لله الذي اصطفى الاسلام بملابس الشرفا، وأظهر بهجة دوره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف، وشيدها وهي من علائه حتى انسى ذكر ما سلف، وقَيضّ لنصره ملوكاً اتفق على طاعتهم من اختلف ... أحمده على نعمته... وأمير المؤمنين يعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية. وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حتى أصبحت بالمكارم فرداً ولا جعل منها بلداً من البلاد، ولا حصناً من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى، فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملاً." والله يُمِدّك باسباب نصره ويُوَزّعك شكر نعمه فإنّ النعمة تستمر بشكره[3].

الولاة في عهد بيبرس:

في سنة 659هـ/1261م جهز حملة بقيادة الأمير بدر الدين ايبك الأيدمري للذهاب الى الشوبك في الأردن وتسلموها من نواب الملك المغيث فتح الدين واستقر في نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المختصي. وفي سنة 660هـ/ 1262م وقع الصلح بين السلطان بيبرس وبين الملك المغيث صاحب الكرك[4].

وفي رجب من تلك السنة قدم بغداد جماعة من مماليك الخليفة المستنصر[5] الذين تأخروا بالقاهرة بعد مقتله، وعلى مقدمتهم الأمير سيف الدين سلاّر، حيث اكرمهم السلطان وأعطى الأمير سلار إمرة خمسين في الشام ونصف مدينة نابلس، ثم نقله الى إمرة طبلخانا بمصر. وفي

---

(1) القلقشندي: م س، ج4، ص8.

(2) ن م، البردعة: تحت سرج الفرس.

(3) المقريزي: م س: جـ1، ص457، 459.

(4) المقريزي : ن م، ج1، ص468.

(5) أبو الفداء: م س، ص148.

عام 661هـ/ 1263م حضر الأمير أبو العباس أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد المسترشد بالله العباسي، الى الإيوان الكبير بقلعة الجبل، وجلس الى جانب السلطان، وقُرئَ نسبه على الناس بعد ما ثبت على قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ولُقّب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[1] وبايعه الظاهر بيبرس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها، وقد خطب الخليفة بالناس يوم الجمعة وحثهم على جهاد التتار ومدح السلطان بيبرس[2] وقد دُعِي له على منابر القاهرة وأبلغ الولاة بذلك فكان الخليفة التاسع والثلاثين من خلفاء بني عباس وآخر ملك التتار بركة وكان عدواً لهولاكو.

البريد:

لقد رتب الظاهر بيبرس البريد في سائر الطرقات بانفاقه أموالاً على ترتيبه حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل في القاهرة الى دمشق ماراً بالأردن وفلسطين في اربعة ايام ويعود في مثلها. وهكذا اصبحت أخبار الممالك ترد اليه في كل أسبوع مرتين ويتحكم في سائر الممالك من العزل والولاية وهو مقيم بقلعة الجبل[3].

كما استخدم اصطلاح أماير[4]: في المكاتبات السلطانية بمثابة علامة سرية متفق عليها للاطمئنان على صحة ما يتبادل من مراسلات أو مشافهات بين طرفين. وحملوا البريد في الفوطة[5].

---

(1) ن م، نفس الصفحة، المقريزي: السلوك، ج1، ص477. ويلاحظ في كلام أبي الفداء نوع من الغمز على أنه كان قد شكك في نسب الخليفة السابق المستنصر وهذا نصها: "وفي أواخر ذي الحجة من هذه السنة 661هـ جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً، واحضر شخصاً من نسل بني العباس يسمى أحمد بعد أن ثبت نسبه، وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين..." وقد قيل في نسبه أبو العباس أحمد بن الأمير محمد بن الحسين بن أبي بكر بن الحسن بن علي القبي بن الحسن بن الراشد بن المسترشد القبي نسبة الى قبة الكوفة "الرحبة": ياقوت : معجم البلدان ج4، ص33.

(2) المقريزي: ن م، جـ1، ص478-479، "ذكر نص الخطبة".

(3) المقريزي: ن م: ج1، ص446-447، محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص45

(4) الأماير: جمع إمارة بفتح الهمزة: ومعناها العلامة المكتوبة أو الشفوية التي تتخذها الجهات الرسمية وغيرها بمثابة علامة سرية متفق عليها. المقريزين: السلوك ،ج1، ص529.

(5) ن م، ص578. والفوطة: مرادف البقجة وهي قطعة من القماش الحريري الاسكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة الى حضرة السلطان.

ومن أهم الدواوين في عهد بيبرس التي تميز بها عن الدواوين السابقة : ديوان المفرد:[1] والذي يرجع تأسيسه الى أيام الفاطميين، وكانت تخرج منه زمن الدولة المملوكية نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعَلَيق وكسوةٍ. كما تَميّز عهده ببعض الموظفين البارزين أمثال قصة دار[2]. وجماعة كتاب الدرج[3] والدست[4] وأمير علم[5]. ومن المراسيم الاقطاعية أيضاً المثالات[6]. كما سميت ضرائب الغرامات التأديبية في زمنه بالجنايات[7].

---

(1) القلقشندي: م س، ج3، ص357، وابن شاهين:م س، ص107. والمفاردة: نوع من عساكر حلقة السلطان، ويظهر أنهم افردوا بهذا الاسم لتبعيتهم مباشرة لديوان المفرد المذكور: ن م، ج1، ص480.

(2) القلقشندي: ن م، ج13، ص154. قصة دار: هو الموظف الذي يرفع صاحب الشكوى أو الحاجة شكواه الى السلطان بواسطته، والقصة: هي الطلب أو الالتماس، وقد تكون القصة خاصة بطلب تحديد إقطاع انتهى عقده، أو بارتجاع إقطاع انتقل عن صاحبه لسبب من الأسباب، فتعرض الحالة أولاً على ناظر الجيش، ليكشف عنها قبل عرضها على السلطان.

(3) القلقشندي: ن م: جـ5، ص464-465. أما كتاب الدرج: فهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كاتب الدست، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والايمان والأمانات، ونحو ذلك، وسموا كتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات في دروج الورق، والمراد بالدرج :الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، ويجوز أن يُطْلَقُ عليهم كتاب الانشاء، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقّعين وصارت مهمتهم محصورة في خلاص الحقوق، وصغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب في القطع الصغير. أما كُتابُ الدست فهم المتصدرون لكتابة المهم من كتابة الدرج كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع.

(4) القلقشندي: ن م، جـ13، 137. الدست : من موظفي ديوان الانشاء، وكذلك كتاب الدست. فكتاب الدست: هم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواكب حسب ترتيب منازلهم، بموجب الأقدمية ويقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر ويُوقعون على القصص كما تُوقع من كاتب السر. وسموا بكتاب الدست إضافة الى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه. وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الانشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم.

(5) القلقشندي: ن م، جـ4، ص22، ج5، ص456، 463. أمير علم: يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر الاعلام السلطانية والطبلخاناه، وكانت العادة ايام المماليك أن يكون المسؤول عنها من طبقة أمير عشرة، وكان هناك وظيفة أخرى اسمها "علم دار" وصاحبها هو الذي يحمل العلم في ركاب السلطان.

(6) القلقشندي: ن م، جـ13، ص153 ومابعدها. والمثالات: جمع مثال: وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية ايذاناً باعطاء أحد المماليك اقطاعاً من الاقطاعات الخالية، وكان المثال يخرج من ديوان الجيش، ويقدمه ناظر هذا الديوان الى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة، أرسله ناظر ديوان الجيش الى ديوان النظر لتسجيله وحفظه "ويكتب بذلك "مربعة" فيها اسم المعين على الاقطاع، ورتبته وتفصيلات أخرى، ثم ترسل المربعة الى ديوان الانشاء، فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع كآخر أدوار تلك العملية.

(7) المقريزي: ن م، جـ1، ص488.

علاقة الظاهر بيبرس بالأردن

بعد أن استقر بيبرس في غزة في موسم الصيد في الحادي عشر من ربيع الأول سنة 661هـ/1263م[1] قدم عليه جماعة من الأيوبيين وعلى رأسهم أم الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك، فأنعم عليها ومن معها، وطلب منها حضور ابنها الى السلطان[2] وعادت الى ابنها بالكرك، ومن جملة ما زوَّدها به من صيده خمسة عشر حملاً، وسار معها الأمير شرف الدين الجاكي المهمندار، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر[3]. وحضر الملك المغيث من الكرك فأظهر الاحتفال به وخدعه، وكتم أمره عن الناس، فلما وصل بيسان ركب السطان للقائه[4] في السادس عشر من جمادي الأول سنة 661هـ/1263م واصطحبه الى الدهليز السلطاني وقبض عليه، واحضر بيبرس الملك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان من دمشق والشهود والأجناد ورسل الفرنج وأطلعهم على كُتُبِ الملك المغيث إلى التتار وكتب التتار اليه، وأخرج فتاوي الفقهاء بقتله، وأحضر المراسلين بين المغيث وهولاكو[5]. ثم كَتَبَ السلطان لأهل الكرك يَعدِهُم ويُحَذِّرهم وأرسل الأمير بدر الدين بيسرى والأمير عز الدين الأستادار بالكتب والخلع والأموال، وسجن المغيث في قلعة الجبل بمصر، ثم قتله عام 662هـ/1264م[6] وأطلق حواشيه وبعث بحريمه الى مصر وأطلق لهم الرواتب[7]. ونزل في خيمة الأمير شمس الدين سُنْقُر الرومي الذين أخرج موميا وسقاه. كما خلع على امراء العربان من العابد وجرم وثعلبة في بلاد

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ص481. "حيث نزل في خيمة الأمير شمس الدين سنقر الرومي الذي أخرج موميا وسقاه"، والموميا: لفظة يونانية الأصل-مادة دواء يستعمل شراباً وضماداً ويستخدم لجبر العظام المكسورة وهي مادة تنحدر من بعض الجبال مع الماء ويفوح رائحة تشبه رائحة الزفت كما تطلق على السائل الأسود داخل حجارة في صنعاء اليمن فتغلى الحجارة والسائل لتقذف ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السيالة. ن م، ن ص.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ص 412.

(3) المقريزي: ن م، ج1، ص481.

(4) ابن واصل،ن م، ص412،

(5) ابن واصل، ن م، ص413، ورد في أجوبة الملك المغيث الى ملك التتار هولاكو يعده فيها باقطاعه من بصرى الى غزة مقابل عشرين الف فارس تتري ليفتح بها مصر.

(6) المقريزي: ن م، جـ1، ص492، حيث قال لأهل الكرك: "اعلموا أنكم قد أسأتم إلي في الأيام الماضية وقد غفرت لكم ذلك لكونكم ما خامرتم عليها صحابكم وقد ازددت فيكم محبة".

(7) ن م، جـ1، ص482-483.

التركمان وضمنهم البلاد والزمهم بالعداد[1]، وشَرَطَ عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه، كما كتب الى ملك شيراز وأهلها والى عرب خفاجه يستحثهم على قتال هولاكو، بعد هزيمة ملك التتار بركة أمامه. كما أحضر الأمير عبية وغيره من عرب بني مهدي[2] وألزمهم دَرَكِ البلاد وخفَرها إلى أرض الحجاز لحراسة طريق الحج من مصر للحجاز بالإضافة لتحصين الكرك.

كما كتب عام 662هـ/1264م الى أمرائه في الشام المخلصين بتوريث أبنائهم حيث ورَثَ أبناء الأمير شهاب الدين القيمري نائب السلطنة بعد وفاته جميع ما يملك[3] فلما تخلص من الملك المغيث توجه إلى الفرنج الذين لم يحترموا الهدنة فأمر بإحضار البيوت الفرنجية[4] فحضر رسل من عندهم إلى السلطان عند وصوله الى بلاد الشام ومطالبهم برد ما أخذوه من البلاد وإعادة أسرى المسلمين[5].

ثم أمر بإخراج الرسل –وكانت العادة عدم ايذاء الرسل– ثم وجه الأمير علاء الدين طيبرس الى كنيسة الناصرة –أجل مواطن عبادتهم– فهدمها، ولم يقاومه أحد، كما وجه الأمير بدر الدين الأيدمري الى عكا فاقتحموا أبوابها وعادوا، ثم أغاروا ثانية على مواشي الفرنج وغنموا منها الكثير.

وفي ليلة السبت الرابع من جماد الآخرة سنة 661هـ/1263م خرج السلطان بعساكره من منزله الطور لحصار عكا، فهدم الأبراج التي حولها وحرق الأشجار حتى خفت الرؤيا من الدخان وفتحوا عكا ثم سار الى الناصرة ودخلها ثم عاد الى الصفة التي بناها قبالة الطور، كما عين الأمير ناصر الدين القيمري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ورحل السلطان من الطور يوم الأثنين ثالث عشر جمادي الآخرة متوجهاً الى القدس حيث خص المسجد منها بخمسة الآف

---

[1] العداد: هنا زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركمانية، وكان التركمان يدفعون للسلطان سنوياً عشرة آلاف من الغنم زكاة أغنامهم. المقريزي: م س، جـ1، ص481.

[2] القلقشندي: م س، جـ4، ص121–213، 242–243، والمقصود هنا عرب بني عقبة القاطنون حول الكرك وهم أحد فروع بني مهدي.

[3] المقريزي: ن م، جـ1، ص509.

[4] المقصود بالبيوت هنا البيوت الصليبية الباقية بالشام مثل بيت الإسبتار وبيت الداوية وإمارة يافا وإمارة انطاكية (ابن واصل، م س ص414، والمقريزي: ن م، ص 484.

[5] ن م، جـ1، ص484–486، ذكر "الحوار الذي دار بين بيبرس ورسل الفرنجة، وذل الرسل وطلبوا الرحمة وعدم نقض الهدنة السابقة مع المسلمين فقال لهم كان هذا قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء ووصول العساكر الى هنا".

درهم كما أمر ببناء خان خارج القدس، ونقل اليه من مصر باب القصر المعروف بباب العيد[1].

ثم سار للكرك حيث وصلها يوم الخميس ثلاث وعشرين جمادى الأخرة من نفس السنة بعساكره وأحضر السلالم الخشبية من الصلت والحجّارين والبنائين والنجارين والصنّاع من مصر ودمشق، وكتب الى من في الكرك فخافوا، ثم تبادل الرسل بينه وبين الكرك حيث تم الاتفاق على أن يعطي الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث إمرة مائة فارس، فوافق على ذلك فاستقبله أولاد المغيث وقاضي المدينة والوجهاء ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة، فطمأنهم السلطان بقسمة لهم وإرضائهم، ودخل الكرك في الرابع والعشرين ليلة الجمعة 661هـ/1263م بعد أن أرسل الأمير عز الدين أيدمر الاستادار والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا لتسلم القلعة ودعي له صباح الجمعة على الأسوار ونُصِبَت سناجقه على الأبراج ودخل القلعة ورتب أمر جيش الكرك. وانفق عليهم خاصاً وأنعم على أولاد الملك المغيث بجميع ما كان في القلعة من مال وقماش وآثاث وصلّى بها صلاة الجمعة، وبعث إلى العزيز بن المغيث والطواشي بهاء الدين صندل، والامير شهاب الدين صعلوك أتابكه بالخلع والقماش وكتب بالبشارة الى مصر والشام بأخذ الكرك وارسال الغلاّت إليها. كما رتّب الاقطاعات للعربان والأجناد فكتب حوالي ثلاثمائة منشور وسُلِّمت إلى أصحابها بعد أن أقسموا يمين الولاء أما م السلطان وكُتِبَت لأهل الكرك تواقيع بمناصب دينية ودنيوية[2].

ثم أمر باعتقال الأمير سيف الدين الرشيدي الذي فوض اليه أمر المملكة بغيابه. واعتقل معه الأمير عز الدين ايبك الدمياطي والأمير شمس الدين أقوش البرلي ، لورود أخبار تفيد بأن سيف الدين نصح المغيث بعدم المجيء إلى القاهرة وأمر أهل الكرك بأن لا يسلموا الكرك لبيبرس[3].

ثم وردته رسل ملك التتار بركة تطلب النجدة لمحاربة هولاكو حيث اعلنوا إسلام بركة وقومه في الأول من رجب عام 661هـ/1263م وخطب الخليفة الحاكم بأمر الله في الثامن

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص435، والقلقشندي: م س، جـ3، ص350 وهذا الباب كان أحد أبواب القصر الكبير الفاطمي وقيل له باب العيد لأنّ الخليفة كان يخرج منه في يومي العيدين للصلاة.

[2] المقريزي، ن م، جـ1، ص492

[3] ابن واصل، م س، ص432.

والعشرين من شعبان بحضور رسل الملك بركة ودعا للسلطان وللملك بركة وصلّى بالناس. وأكرم بيبرس رسل الملك بركة وأمر بالدعوة له على المنابر في المدينة والقدس ومصر بعد الدعاء له[1].

وفي شهر ذي القعدة سنة 667هـ/1269م مَرّ السلطان بيبرس بالكرك في طريقه الى الحج وبرفقته الأمراء والعسكر دون الجهر بذلك[2]. وتابع سفره الى الشوبك خِفْيَةً حتى وصل الى المدينة المنورة في الخامس والعشرين من ذي القعدة وكَسَى الكعبة[3]، وأحسن الى أمير مكة. وبعد ان أكمل مناسك الحج مَرّ وبالكرك خِفْيَة أيضاً، ولم يعلم أحد بوصوله الا عند قبر جعفر الطيار بمؤتة فدخل الكرك وهو لابس عباءة وبات فيها ليلة واحدة[4].كما صلى عام 668هـ/1270م الجمعة بالكرك وسار لدمشق دون الاعلان عن ذلك ويلاحظ على سياسته هذه التشدد في الحيطة والحذر من أعدائه الطامعين في الملك فكان لا يثق بأحدٍ من أمرائه.

كما نلاحظ تَفَقّدَ الولايات بنفسه باستمرار للإطمئنان وكسب الولاء كما كان يقود المعارك بنفسه أيضاً ولا يعلم أحداً بمسيرة الجنود كما حدث في السير إلى صفد مع عسكر الشاميين فاسر كثيراً من الفرنج عام 668هـ/1270م. وعاد لدمشق[5].

وفي سنة 670هـ/1272م وصل الى الكرك سراً في السادس من صفر ونزل بقلعتها، وعين نائباً للكرك علاء الدين أيدكين الفخري، ونقل نائبها السابق عز الدين أيدمر الى نيابة الشام[6].

أما علاقة بيبرس مع ملك المغول بركة فقد كانت حسنة على عكس علاقته مع هولاكو. إذ أسلم بركة وطلب النجدة ضد جيوش هولاكو[7]. فأكرم رسله وأرسل هدية جليلة للملك بركة مع

(1) المقريزي، السلوك، جـ1، ص498.

(2) المقريزي: ن م، جـ1، ص580: ذكر أن الأمير جمال الدين ابن الداية كتب الى السلطان: "إنني اشتهي التوجه بصحبة السلطان الى الحجاز"، فأمر بقطع لسانه فما تفوه أحد بعد ذلك.

(3) ن م، ص581.

(4) ن م، ص582.

(5) ن م، ص585.

(6) ن م، ص598.

(7) المقريزي: م س، جـ1، ص495.

رسالة في سبعين ورقة بغدادية[1]. وأمر الخطباء بالدعوة له على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة بعد الدعاء للسلطان الظاهر بيبرس[2].

ومن سياسته الداخلية المحمودة عام 661هـ/1263م أمره بتطهير الاسكندرية من الخواطي الفرنجيات[3] كما أمر سنة 662هـ/1264م بعدم تقليد المرأة للرجل في اللباس "أي ليتشبه بهم". كما أقبلت عليه في هذه السنة جماعات من المغول أسلموا وهتفوا بأجمعهم، وعندما ارتفعت الأسعار في مصر سنة 662هـ/1264م أمر بإبطال التسعيرة. وأمر ببيع خمسمائة أردب كل يوم لضعفاء الناس من الأهراء[4] فأمر باعطاء كل فقير كفايته لمدة ثلاثة شهور وَوزّع الفقراء على الأغنياء والتجار.

وفي الثاني من محرم عام 662هـ/1264م خرج السلطان من دمشق عائداً الى القاهرة وسار جزءٌ من حاشيته الى الكرك ونزل ببِرْكَةِ زيزاء، وسقط عن فرسه خلال الصيد، فتأخر هناك أياماً حتى شفي، فأكثر من الإنعام على جميع عساكره وأمرائه من غلات الكرك وأموالها. كما استدعى أمراء غزة وأحسن اليهم. وأعطى نائب الكرك عز الدين أيدمر ألف دينار وخلع عليه، وأرسل الخلع إلى أهل الكرك ثم تابع سفره الى غزة ثم الى القاهرة برفقة الأمير عز الدين الحلي[5].

---

(1) ن م، ن ص. القلقشندي:م س، ص2، ص476، وما بعد. حيث يصف الورق البغدادي بأنه أجود أنواع الورق وأكبر سعة وكان مخصوصاً لكتابة المصاحف، ومكاتبة كبار الملوك.ويصف القلقشندي أنواع الورق المستعمل للكتابة في الدول الأسلامية: القلقشندي: ن م، ج6، ص190 وما بعد.

(2) المقريزي: ن م، ج1، ص498.

(3) الخواطي: جمع خاطية، وهي المرأة الداعرة، وتسمى أيضاً مخطية والجمع مخطيات. المقريزي: ن م، جـ1، ص500، 503.

(4) الاهراء السلطانية: الأماكن التي تخزن فيها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان تحفظ احتياطاً للطوارئ

(5) المقريزي: ن م، جـ1، ص555.

علاقة بيبرس بفلسطين:

في عام 662هـ/1264م أمر بيبرس الأمير ناصر الدين القيمري بالغارة على قيسارية[1] وعتليت[2]، فسار إليهما ونهبهما وقتل وأسر من الفرنج الموجودين فيها مما جعل الفرنجة يتراجعون في هجومهم عن يافا[3]. كما أغار عسكر بيبرس على الفرنجة ببلاد الساحل حتى وصلوا أبواب عكا عام 662هـ/1264م فكافأهم بتوزيع مائتي الف درهم عليهم[4]. وفتح حيفا عام 663هـ/1265م وفر منها الفرنجة بعد قتلٍ وأسرٍ عدد كبير هذا وقد أمر السلطان بيبرس في هذه السنة أيضاً بوقف عدة قرى بأعمال الشام والقدس[5] ليصرف ريعها على المتطوعين المشاة المدافعين عن القدس، وأنشأ خاناً وفرناً وطاحوناً في القدس. وجعلها تحت مسؤولية الأمير جمال الدين محمد بن نهار.

أما في عام 663هـ قام بيبرس بزيارة لمدن فلسطين بهدف الصيد والجهاد وبرفقته أربعة آلاف فارس، فهدم سور قيسارية عندما وصلها إذ باشر الهدم بقطّاعته حتى جرحت يده[6] وقصفها بالمنجنيق وحرقوا أبوابها واقتحموها فاختبأ أهلها الفرنجة في قلعتها الخضراء ثم أرسل الأمير شهاب الدين القيمري الى بيسان، وسيَّر جماعة من التركمان والعربان الى عكا وأسروا جماعة من الفرنجة[7]. كما ملك أمراءه وخواصه البلاد المفتوحة حول قيسارية وأرسوف. ثم ركب من العوجاء وغابة أرسوف وقيسارية للتعرف عليها وعاد إلى الدهليز حيث أعد المنجنيقات ورحل قرب عيون الأساور[8] من وادي عارة وعرعرة.

---

(1) قيسارية: بلدة في ساحل فلسطين مقابل طبريا، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص214.

(2) عتليت: حصن بساحل فلسطين بين حيفا وقيسارية، وكان يعرف بالحصن الأحمر في الحوليات الصليبية أي حصن الحجاج casrellum peregrinomun وحصّنه فرسان الداوية في أواخر الحروب الصليبية كمركز رئيسي لقواتها في الشام. Stevenson: Crusaders in Palestine, P. 308. وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص616.

(3) المقريزي: ن م، ن ص.

(4) ن م، ن ص.

(5) ن.م. ص 527

(6) ن.م. ص 525.

(7) ن.م. ص 527.

(8) مكان قرب ريمون والرملة من أعمال فلسطين. ابن شداد: النوادر. ياقوت: م س، جـ4، ص218.

ومن إقطاعاته لأمرائه في فلسطين وخواصه بأن أعطى الأمير جمال الدين إيدغدي العزيزي نصف زيتا، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي نصف طولكرم، والأمير بدر الدين بيليك الخازندار النصف الآخر من طولكرم (والمعروفة اليوم بطولكرم). والأمير شمس الدين الكركي ربع زيتا والأمير سيف الدين فليح البغدادي ربع زيتا الآخر، والأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحي أفراسين بكاملها والأمير علاء الدين البندقداري باقة الشرقية بكاملها والأمير عز الدين أيدمر الحلبي الصالحي نصف قلنسوة والأمير شمس الدين سفر الرومي نصف قلنسوة الآخر، والأمير سيف الدين قلاوون الصلاجي نصف طيبة الاسم، والأمير عز الدين إيغان سم الموت النصف الآخر لطيبة الاسم، والأمير جمال الدين أقوش النجيبي نائب السلطنة بالشام أم الفحم بكاملها من قيسارية، والأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي بتان بكاملها، والأمير جمال الدين أوش المحمدي الصالحي نصف بورين، الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي نصف بورين الآخر، والأمير جمال الدين أيدغدي الحاجي الناصري نصف بيزين، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري الصالحي النصف الآخر من بيزين[1]، الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث ثلث حلبة، والأمير شمس الدين البغدادي ثلث حلبة الآخر، والأمير صارم الدين صراغان ثلث حلبة، والأمير ناصر الدين القيمري نصف البرج الأحمر، والأمير سيف الدين بلبان الزينبي الصالحي النصف الآخر من البرج الأحمر، والأمير سيف الدين ايتامش السعدي نصف يميا، الأمير شمس الدين اقسنقر السلاحدار النصف الأخر من يميا[2]. والملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة نصف دنابة، والملك المظفر صاحب سنجار النصف الآخر لدنابة، والأمير بدر الدين محمدي ولد الأمير حسام الدين بركة خان دير الغصون بكاملها، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار نصف الشويكة، والأمير سيف الدين كرمون آغا التتري النصف الآخر من شويكة، الأمير بدر الدين الوزيري نصف طبرس والأمير ركن الدين منكورس الدويداري نصف طبرس الآخر، الأمير علاء الدين أخو الدويدار نصف عرعرا، والأمير سيف الدين فقجق البغدادي، نصف عرعرا، الأمير سيف الدين قشتمر العجمي

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص532.

(2) ن م، ص533.

علار بكاملها، الأمير سيف الدين كجك البغدادي نصف فرعون، الأمير علم الدين سنجر الأزكشي نصف فرعون الآخر، الأمير علم الدين طرطج الاسدي أقتابة بكاملها (سباهيا)، الأمير حسام الدين ايتمش بن أطلس خان سيدا بكاملها، الامير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس الصفرا بكاملها، الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري نصف أرتاح والأمير شمس الدين سنقر الألفي نصف أرتاح الآخر، والأمير علاء الدين طيبرس الظاهري نصف باقة الغربية، الأمير علاء الدين التنكري نصف باقة الغربية الآخر، الأمير عز الدين الأتابك الفخري القصير بكاملها الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري أخصاص بكاملها الأمير ركن الدين بيبرس المغربي نصف قفين، الأمير شجاع الدين طغرل الشبلي أمير مهمندار نصف كفرراعي والأمير علاء الدين كندغري الحبيشي مقدم الأمراء البحرية نصف كفرراعي[1]، الأمير شرف الدين أبي القاسم نصف كستا، الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري نصف كستا الآخر، الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستادار العالية نصف برنيكية، والأمير علم الدين سنجر الحلبي الغزاوي نصف برنيكية الآخر، الأمير علم الدين سنجر نائب أمير جاندار نصف حانوتا من أرسوف، والأمير سيف الدين بيدغان الركني فرديسيا بكاملها من قيسارية، الأمير عز الدين أيدمري الظاهري نائب الكرك ثلث حبلة أرسوف، والأمير جمال الدين أقوش السلاحدار الرومي ثلث حبلة، الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهري ثلث حبلة، الاخير الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح جلجوليه، الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي ثلث جلجولية الثاني، الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومي ثلث جلجولية الأخير، والأتابك فارس أقطاي الصالحي عِتيّل.

وكتب من كتب التمليك الشرعي الجامع عدة نسخ، فأعطى لكل أمير نسخة، ونقلت المنجنيقات إلى قلاع الكرك وعجلون[2] وبعدها رحل الظاهر بيبرس من ارسوف بعد استكمال هدمها يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رجب 663هـ/1265م الى غزة ومنها لمصر، وفي عام 664هـ/1266م.

---

[1] المقريزي: م س، ن ص.

[2] المقريزي: ن م، ج1، ص534.

سار السلطان بيبرس في أول شعبان الىغزة وأرسل الأمير أيدغدي العزيزي، والأمير قلاوون، في عسكرهما إلى العوجاء بفلسطين، وتقدم السلطان الى مدينة الخليل ثم الى القدس، ومنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل ابراهيم عليه السلام، وكانوا قبل ذلك يدخلون، وسار بعد ذلك الىعين جالوت[1]، ثم الى مدينة عكا، بينما سار الأمير ناصر الدين القيمري إلى عتليت، فطلب أهل عكا من الأتابك التحدث في الصلح، واهتم السلطان بأمر صفد فأرسل اليها العساكر بقيادة الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح بالدهليز السلطاني ثم أتبعه بعسكر الأميرين البندقداري والأمير عز الدين أوغان وحاصروها، فيما كان السلطان مُحاصِراً لعكا، وسار من عين جالوت الى صفد أحدى معاقل الفرسان الداّويّة[2]، ثم جاءه المدد من عساكر مصر والشام في يوم العيد، حيث تم فتحها في الثامن عشر من شوال بعد أن طلب الفرنج الأمان فَأَمنهم السلطان على أن يُفَتشُوا عند خروجهم وتسلم المسلمون صفد وولي قلعتها الأمير مجد الدين الطّوري، كما وَلِيَ الأمير عز الدين العلائي نيابتها[3]. وقرر نفقة رجال القلعة في الشهر مبلغ ثمانين ألف درهم وامر ببناء جامع في القلعة وجامع بالربض[4]. ثم سار من صفد في السابع والعشرين من رجب 664هـ/1266م فأنعم على أمراء دمشق وقضاتها وأرباب المناصب العليا بالتشاريف وتأكد من نسب مبارك بن الإمام المستعصم[5] ويتضح لنا من هذا عدم حسم نهاية الخلافة العباسية بعد خلافة الحاكم بأمر الله. كما أوقع عقوبات ادارية على أهل غزة عام 666هـ/1268م بأن قطع أنوف الجمالين الذين اعتدوا على الزروع.

وعندما قدمت شكوى اليه على الأمير علم الدين سنجر الحموي أنه عبر بفرسه في زرع، فأنزله عن فرسه واعطاه بما عليه من السرج واللجام لصاحب الزرع[6]. ثم رحل الى العوجاء بفلسطين.

---

[1] المقريزي: م س، جـ1، ص545.

[2] ن م، جـ1، ص 546.

[3] ن م، ص 547، حيث أخرج خيالة الفرنج ومن معهم من صفد فضربت أعناقهم على تل قريب من صفد و لم يبق منهم سوى نفرين، أحدهما الرسول (كان فارساً من الداوية) الذي اسلم واقطعه السلطان، والآخر ترك حتى يخبر الفرنج بهذا الفتح وهو من الاسبتارية.

[4] ن م، ص 548.

[5] ن م، جـ1، ص549.

[6] ن م، جـ1،ص564.

سياسة بيبرس في القدس:

لقد اهتم بالقدس لمكانتها الدينية في نفوس المسلمين جميعاً. وباقي الديانات الأخرى من رعايا دولته. فقام باصلاح قبة الصخرة عم 661هـ/1263م وخصص لنفقة المسجد الأقصى خمسة آلاف درهم سنوياً، كما أصلح قبة موسى، وزار القدس عام 668هـ/1270م حيث بنى فيها خاناً كبيراً وجدّد قبة السلسلة وبنى على باب أبي عبيدة الجرّاح مشهداً وأوقف عليه[1] كما أوقف على الخان الذي أسّسه باسم "خان الظاهري" نصف قرية "لفتا" في فلسطين وغيرها من القرى وأضاف للخان فرناً وطاحوناً ومسجداً ومقاماً له، وأمر بتوزيع الخبز على بابه والاعتناء بالنازلين فيه[2]. وأنشأ دار الحديث بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسة وتم انشاء المدرسة الأباصيرية تجاه الرباط المنصوري بجوار باب الناظر[3]. وبالنسبة لمدينة الخليل استرجع عدة ضياع من أوقاف الخليل كانت قد دخلت في اقطاع الأمراء بتعويضهم عنها ووقف على مقام الخليل قرية إذنا[4]. كما اهتم المنصور قلاوون بالقدس، إذ تم في عهده إنشاء الرباط المنصوري بباب الناظر "أحد أبواب المسجد الأقصى" وعمّر سقفه من جهة القبلة عند جامع الأنبياء[5].

أما حياة الناصر محمد بن قلاوون وسياسته الداخلية : ولد سنة 684هـ/1285م بالقاهرة، وتولي السلطة الأولى وعمره ثماني سنوات وكانت اسميّة، وعُزِلَ في 12محرم 694هـ 3ديسمبر 1296م بتقليد نائبه زين الدين كتبغا المنصوري سلطاناً للمماليك في مصر والشام ثم عزل كتنبعا في 10 صفر سنة 696هـ/8ديسمبر1268م من قبل نائبه حسام الدين لاجين المنصوري الذي تسلم زمام سلطنة المماليك فارسل الناصر محمد الى الكرك حتى يبلغ سن الرشد[6]. ثم عزل مرة أخرى[7]، واعتزل الحكم للمرة الثالثة لمدة إحدى وثلاثين سنة

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص491، الكتبي، فوات الوفيات، طبع بولاق- القاهرة، 1283هـ ج1، ص114.

(2) ابن تغري: م س، ج7، ص121، مجير الدين الحنبلي:م س، ج2، ص434.

(3) عارف العارف: م س، دار المعارف 1951، ص87-88.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق فاطمة صديق، أكسفورد، 1956، ص89.

(5) مجير الدين الحنبلي:ن م، ج2، ص434.

(6) المقريزي:ن م، ج1، ص832-833،وابن خلدون : العبر، جـ5، ص88. وابن حجر : الدرر، طبعة جيد أباد، جـ4، ص144-145.

(7) المقريزي: ن م، ج1، ص794-806،وابن حجر، الدرر، ج4، ص161. والمقريزي: المواعظ والاعتبار، ج3، ص177.

بشخصية جديدة أعطت حكمه طابعاً مميزاً للاستقرار السياسي والاجتماعي مع تمسك أمرائه وقضاته بتعاليم الشريعة الاسلامية حيث كان حريصاً على إنجاز الكثير من الضمانات الإجتماعية كإلغائه الكثير من الضرائب وحرصه على توفير كل أنواع الغلال على مدار السنة بأسعار رخيصة بالاضافة للمشاريع الزراعية في مختلف بلاده مع اهتمامه بنظام الوقف كرديف اجتماعي لتحقيق الاستقرار المعيشي. وكان ذلك بعد مقتل حسام الدين لاجين بمؤامرة من كبار الأمراء لتقريبه مملوكه منكوتم واستدعوا الناصر محمد من الكرك وسلموه الحكم مرة ثانية[1] وشُكِّلَ مجلسٌ رئاسي من ثمانية أفراد[2] لادارة شؤون الدولة حتى يصل الناصر من الكرك الذي اعتبر واجهة لارضاء الخواطر.

وكانت هذه الفترة الثانية من حكمه الاسمي فقط حيث كانت الأمور تُدارُ بين كبار الأمراء كسيف الدين سلام نائبه وبيبرس الجاشنكير استاداره إذ تدخلوا في طعامه وشرابه أيضاً كما اشار المقريزي[3] وعندما قررّ عَزْلِهما لاستعادة سلطته اكتشف محاولة انقلاب على نفسه فاعتزل الحكم[4] بعد عشرة سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيام حيث تظاهر في الحج ولكنه اتجه للكرك للاستقرار واعتزال الحكم[5] وبدأ التنافس بينهما بهدف الإنفراد بالحكم[6] حيث أخبرهما من الكرك برغبته في ترك السلطنة لهما فوضعهما في موضع حرج بعد انسحابه من الحياة السياسية حيث كانا يَتَستّران تحت الشرعية فأصبح بيبرس الجاشنكير سلطاناً وسيف الدين سلار نائباً له[7].

(1) ابن الفرات : تاريخ الدول والممالك ج8، ص143، السلوك،م س ج1، ص806-807، ابن حجر: الدرر ج3، ص262، النجوم ج8، ص49-50

(2) أبو المحاسن: م س ، ج8،ص224

(3) المقريزي: ن م، ج1، ص869.

(4) المقريزي: ن م، ج1، ص879. ابن حجر: ن م، ج1، ص505، ج3، ص263. طبعة حيدر أباد.

(5) المقريزي:ن م، ج2، ص33-36. أبو المحاسن: ن م ، ج8، ص170-173.

(6) أبو الفداء: م س، ج4، ص54-55. المقريزي: ن م، ج2، ص43-45، أبو المحاسن: ن م، ج8، ص174-176. وابن حجر: ن م، ج4، ص145-146. طبعة حيدر أباد.

(7) أبو المحاسن: ن م، ج8، ص230.

ونتساءل هنا لماذا ترك الحكم وعمره خمس وعشرون سنة؟! والحقيقة أنه كان مُجْبَراً على ذلك لأن سلطته معهما كانت إسميّة فأراد التحرر من سيطرتهما بل وإسقاطهما بعد ان يكشف الأمور للعامة وليكسب الوقت لاتخاذ الخطوات المناسبةلاسترجاع حكمه. فحدث ما توقع إذ غادر عدد من الأمراء المماليك القاهرة متوجهين الى الكرك بعد اشتداد الصراع بين الأميرين لمناصرة الناصر محمد[1] وتعاون مع نواب الشام لاستعادة حقه المغتصب فكان انتظاره بالكرك تخطيطاً للفرصة المناسبة[2].

وفعلاً توَجّه لدمشق في 12شعبان عام 709هـ/12 يناير1310م ووصل القاهرة في 16 رمضان عام 709هـ/ 17فبراير سنة 1310م فهرب بيبرس الجاشنكير وأرسل للناصر رغبته في نيابة صهيون بالشام[3] ولكن الناصر ألقى القبض عليه وقتله خنقاً[4] وأعطى نائبه السابق سيف الدين سلار[5] نيابة الشوبك في بداية عهده الثالث ثم قبض عليه سنة 710هـ/1311م وسجنه حتى مات جوعاً واستولى على ثروته وقبض على عدد من الأمراء المعارضين وسجنهم[6] وهكذا بدأ يستخدم سياسة القوة والإنتقام من خصومه ومنافسيه فسجن اثنين وعشرين أميراً من ذوي الرتب العالية[7].

وعيّن مكانهم من مماليكه المقربين إليه وكان ذكياً لدرجة أنه بدأ يُخَطِّطُ للتخلص من الأمراء الموالين له خوفاً منهم ومما يدل على شدة حذره وعدم ثقته بمن حوله، اذ ربما تسول لهم أنفسهم التخلص منه اذا سنحت لهم الفرصة المناسبة، فأسرع في التخلص منهم، فقبض أولاً على الأمير اسندمر كرجي نائب حلب وقتله في سجنه وصادر ثروته في ذي القعدة سنة

---

(1) المقريزي: م س، ج2، ص53، 59-60. أبو المحاسن:م س، جـ8، ص247-250. ابن حجر: م س، ج1، ص505،

(2) أبو الفداء: المختصر، ج4، ص56. المقريزي: ن م، ج2، ص56-59. أبو المحاسن: ن م، ج8، ص181، 245، 247، 256-257.

(3) المقريزي: ن م، ج2، ص68-72، أبو المحاسن، ن م، ج8، ص264-271، ابن حجر، ن م، ج1، ص506(طبعة حيدر أباد)

(4) المقريزي: ن م، ج2، ص78-81، ابو المحاسن، ن م،ج8، ص272-275، ابن حجر ، ن م، ج1، ص506-507(طبعة حيدر أباد)

(5) المقريزي: ن م، جـ2، ص88، ابو المحاسن، ن م ، ج9، ص18.

(6) المقريزي: ن م، ج2، ص72، 523.

(7) المقريزي: ن م، جـ2، ص76. أبو المحاسن: ن م، جـ9، ص15.

721هـ/نوفمبر1321م[1] ثم سجن نائبه في الديار المصرية بكتمر الجوكندار في جمادي الأولى سنة711هـ/ سبتمبر 1311م في الاسكندرية[2].

وهكذا أصبح متمكناً من نفسه ومن سلطته التي أصبحت فعلية، مستخدماً أساليب الدبلوماسية والضرب دون رحمة في حفظ هيبة سلطنته مقابل اطماع الأمراء الشخصية في السيطرة على الحكم والنفوذ، ولكن الناصر أكد لهم عن عزمه على التمتع بسلطته فاعلن عن جلوسه كل يوم اثنين في دار العدل لسماع شكاوي الناس وإنصافهم[3] وذلك ليقوي مركزه بين عامة الناس ومكافأة معنوية لهم على مساندته في محنته السابقة ليدلل على طيب أخلاقه وأصالته الدينية. إذ كان مُصَمِّماً على تأسيس حكم فردي أوتوقراطي لا ينافسه فيه أحد والاطاحة بكل رؤوس الإمراء الكبار[4] كما يتبين لنا من ملاحقته لنائب حلب شمس الدين قراسنقر المنصوري الذي صادر ثروته البالغة اثنين وثلاثين ألف دينار وعدد من النفائس الذهبية والفضية[5] فأصبح الحاكم بأمره.

كما شهدت البلاد ازدهاراً اقتصادياً واجتماعياً في ظل حكمه الفعلي المطلق في الفترة الثالثة من عهده وسط تيارات سياسية متعددة ومتناقضة.

وقد استمر حكمه إحدى وثلاثين سنة وتوفي عن عمر يناهز الستين عاماً في 21 ذي الحجة 741هـ/7 يونيو 1340م[6].

الجوانب الروحية في شخصية الناصر محمد بن قلاوون:

لقد اجمعت مصادر التاريخ المملوكي على أنه كان مُتديناً يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية[7]. ويعاقب القضاة الظالمين كما فعل سنة 738هـ/1337م عندما عزل القاضي جلال

---

(1) المقريزي: ن م، جـ2، ص93، 94، أبو المحاسن: ن م، جـ9، ص27.

(2) المقريزي: ن م، جـ2، ص102، أبو المحاسن: ن م، جـ9، ص28، ابن حجر : ن م، ج1، ص485(طبعة حيدر أباد)

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص103، ابن بطوطة، ، م س، جـ1، ص24.

(4) أبو المحاسن: ن م، جـ9، ص12-13

(5) النهج السديد، م س، جـ3، ص228.

(6) المقريزي: ن م، جـ2، ص72، 523.

(7) المقريزي: المواعظ والاعتبار (طبعة بيروت سنة 1959م)، ج3، ص272. المقريزي: ن م، ج2، ص386-387، 391، 440، 429، 442 حيث قال عنه المقريزي: "لم يعرف عنه قط أنه شتم أحد من خلق الله ولاسفة عليه ولا كلمه بكلمة سيئة" وقال: "كان السلطان حشم النفس يكره الفحش"، "وكان السلطان يمقت على السكر"و "كان السلطان لا يرتشي، ويمقت من يرتشي ويعاقبه أشد العقوبة" ابن حجر: م س، ج4، ص120-123.

الدين محمد القزويني لسوء خلق ولده جمال ولهوه وشربه[1]. ولم تذكر المصادر المملوكية المختلفة أن أحداً سبقه من السلاطين في عقابه لشاربي الخمرة ومساعدته للمظلوم واحقاقاً للحق[2]. كما اهتم بالحرمين الشريفين وإعانة الحجاج بالماء والطعام والجمال[3]، كما حرص على أداء فريضة الحج حيث حج ثلاث مرات عام 712هـ/1312م وعام 719هـ/1319م، وعام 732هـ/1332م. كما زار القدس الشريف والخليل مع الإكثار من الصدقات اثناء رحلاته الدينية هذه[4]. كما كان يحترم أهل العلم وأصحاب المناصب الشرعية[5].

وبالنسبة لاهتمامه بقضايا شعبه:

فقد عمل على رفع المظالم عن الناس بإلغاء الضرائب الإجتماعية كما فعل سنة 715هـ/ 1315م إذ ألغى أربعاً وعشرين ضريبة اجتماعية، رغم أنها كانت من مصادر الخزانة. مثل نصف السمسرة، رسوم الولاية، مُقَرّرْ السجون، مُقَرّرْ الحوائص، طرح الفراريج، مقرر الفرسان، رسوم الأفراح، جباية المراكب، ضمانة تجيب، كشف مراكب النوبة، شد الزعماء، حقوق السودان، حقوق القينات، مُقَرّرْ المشاعلين، متوفر الجراريف، ثمن العباءة، زكاة الرحالة، كوة السواس، قود الخيل، عداد النخيل، مُقَرّرْ المناشير، قطائع العربان، ضمان الطريق، ضمان الملح، حقوق النّحالين[6]. فأزاح بذلك عبئاً ثقيلاً عن كاهل الفقراء وهذا دليل على حسن تدبيره وتصرفه وشفقته على الرّعيّة وانصاف المظلومين.

كما كان يتدخل أثناء الازمات الغذائية وارتفاع الأسعار بجلب الغلال من غزة والكرك والشوبك ودمشق إلى القاهرة[7]. وحدّد سعر القمح, وهكذا تمكن من التغلب على الأزمة

---

(1) المقريزي: ن م، جـ2، ص429-442، وابو المحاسن: ن م، جـ9، ص173، حيث اكد إبن تغري بردي ما سبق ذكره "وكان في الجود والكرم والأفضال غاية لا تدرك". أبو المحاسن: ن م، جـ9، ص174.

(2) المقريزي: م س، جـ1، ص419.

(3) ابن بطوطة: تحفة النظار، ج1، ص22.

(4) النهج السديد، ج2، ص222. وأبو الفداء: م س، جـ2، ص73، 88، 89، 110. وابن حجر: م س، جـ4، ص264-265. والمقريزي: ن م، جـ2، ص119، 195-198، 350-351.

(5) ابن حجر: ن م، ج4، ص264.

(6) ابن حجر: ن م، ج4، ص286، والمقريزي: ن م، جـ2، ص150، 151، والمواعظ والاعتبار، (طبعة بيروت 1959م)، ج1، ص158، 159، وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص45، 46، 47، 48،

(7) المقريزي: ن م، جـ2، ص368، 392، 394، أبو المحاسن:م س، جـ9، ص49. .Lapidus. Muslim cities. p 51-52

الاقتصادية وحصل الناس على الخبز فانخفضت الأسعار بعد وصول القمح من بلاد الشام وبلاد الصعيد. كما توضح هذه الصورة نظرته الشاملة المتكاملة لدولته سواء كان ذلك في مصر أو الشام أو الحجاز. حيث اهتم بالإصلاح الزراعي وتعمير الأراضي كما فعل سنة 711هـ/1311م[1]، وأنشأ الجسور وشق قنوات للري 714هـ/1314م وسنة 724هـ/1323م والقناطر والسواقي للري فازدهرت البساتين والحقول[2].

وبالنسبة لسياسة الأشرف شعبان: في أواخر أيام دولة المماليك البحرية فقد تمثلت بالأهمية الدينية من قضاء وحج.

القضاة:

فبالنسبة للقضاء فقدكان عند السلطان الاشرف شعبان بن قلاوون عام 778هـ/1376م أربعة قضاة هم

1. قاضي القضاة الشافعي برهان الدين بن جمّاعة (من فلسطين)
2. والقاضي الحنفي: جلال الدين جادالله النيسابوري
3. والقاضي المالكي: بدرالدين عبدالوهاب الأخناي

والقاضي: الحنبلي ناصرالدين نصرالله

بالاضافة الى قاضي العسكر شيخ الالام سراج الدين عمر البلقيني والقاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر والقاضي تقي الدين عبدالرحمن ناظر الجيش. وقد رافقه هؤلاء القضاة الى الحج ماعدا القاضي الحنبلي لمرضه. وقامت عليه ثورة من بعض المماليك السلطانية المرافقين له مطالبين بزيادة أجورهم فرفض وهرب الى القاهرة ثم قتل في ذي القعدة عام 778هـ/1376م على يد المملوك جركس أحد مماليك الأتابكي الجاي اليوسفي ورموه في بئر بعد أربع وعشرين عاماً من العمر ومدة حكمه في الديار المصرية والشامية بلغت اربع

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار، (طبعة بيروت 1959)، ج1، ص301. وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص217.

[2] المقريزي: ن م، (طبعة بيروت) ج1، ص301، ج3، ص34-35، والسلوك، ج2، ص137-138، 449-4451. وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص18، ص38، 40، 80-84،

عشر سنة وشهرين وواحداً وعشرين يوماً حيث ولي الملك وله من العمر نحو احدى عشرة سنة[1].

وقد أخطأ السلطان في عدم سماعه نصيحة مقدم الهجانة محمد بن عيسى، شيخ العايد الذي هرب به من العقبة ليلاً الى القاهرة حيث عرض عليه أخذه لبلاد الشام والاستنجاد بعربانها لتقوى شوكته ويلتحق به مؤيدوه من الأمراء والنواب ويقال أن، الأمير ارغون شاه هو الذي أجبره ومنعه من التوجه الى الشام ونصبوا مكانه في غيبته الى الحج ابنه الملك المنصور علي بن الأشرف بن محمد بن قلاوون[2] في ذي القعدة 778هـ/1376م وهو الثالث والعشرين من ملوك الترك وعمره سبع سنين وأشهر حيث بايعه أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله الذي سيطر على الحكم في زمنه الأمير برقوق العثماني والأمير بركة الجوباني عام 779هـ/1377م فساءت أحوال الناس في بلاد الشام ومصر لفسادهما وانتشار الرشوة لتوليه الوظائف حتى قال الناس. "برقوق وبركة، ضربا على الدنيا شبكة"[3].

هذا وقد أجرى الأمير برقوق العثماني التنقلات الإدارية التالية للامساك بزمام السلطة عام 780هـ/1378م فعين: الأمير مبارك شاه الطازي نائباً في غزة بدلاً من الأمير أقبغا الجوهري الذي نقل الى نيابة صفد بدلاً من الأمير صراي تمر المحمدي الذي قبض عليه وسجنه بالكرك[4].

كما عين الأمير كتبغا الحموي نائباً للشام بدلاً من بيدمر الخوارزمي الذي سجنه السلطان في الاسكندرية عندما حضر لمقابلته[5]. وكانت مساوئ برقوق بعد الرشوة والبراطيل الاستيلاء على عدة اقطاعات وفرقها على مماليكه مخالفاً بذلك القضاة والفقهاء الذين عارضوا ذلك شرعاً

---

(1) ابن اياس: م س، جـ1، ص181.

(2) ابن إس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص111.

(3) ن م، ج1، ق2، ص220.

(4) ن م، ص222.

(5) ن م، ص231.

وبدأ ظلمه يتزايد(1). وعين الأمير أقبغا عبد الله نائباً في غزة عام 781هـ/1379م الذي توفي في نفس العام(2). كما عين الأمير أشتقمر نائباً للشام بدلاً من بيدمر عام 782هـ/1380م(3).

وهكذا يلاحظ سيطرة المماليك الأجلاب على الحكم في عهد السلطان علي بن الأشرف شعبان واشاعتهم الظلم والفساد في الديار المصرية(4). وانفق كل واحد من المماليك السلطانية خمسمائة دينار وعددهم نحو ثلاثة آلاف مملوك(5).

كما أنعم السلطان على برقوق العثماني بإمرة طبلخاناه وكان جركسياً من مماليك يلبغا العمري فصار في يوم واحد أمير طبلخاناه وبدأ يصعد في الترقيات العسكرية. وأنعم على خشداشه بركة الجوباني بإمرة طبلخاناه وكان من جملة المماليك الجمدارية(6)، وقاد برقوق في ربيع الأخرة من نفس العام حركة تمرد ضد الأمير أينباك البدري والسلطان بعد توجههما الى الشام لاخضاع ثورة الأمراء ونواب السلطنة هناك وتم سجن الأمير أينبك في كفر الاسكندرية في ربيع الأخر 779هـ/1377م وأصبح من القائمين على أمور الدولةثم مقدم ألف ثم أمير خوركبير في مدة شهرين فضحك له الحظ تمهيداً لتأسيس دولة الجراكسة بعد تخطيطه للقضاء على جميع الأمراء الأقوياء.

وتجدر الإشارة الى وفاة ابن قاضي شهبه عام 782هـ/1379م احد فقهاء الشافعية بدمشق. ونبوغ ناصر الدين محمد بن قرطاي الكركي الذي تقلب في مناصب عليا في سلطنة المماليك بمصر كنائب السلطان في الاسكندرية ونقيباً للجيش(7) عام 783هـ/1381م وفي يوم الأحد الثالث والعشرين من عام 783هـ/1381م توفي السلطان الملك المنصور علي بن الاشرف شعبان ودفن ليلاً بتربة جدته خوندبركة بالتبانة وكانت مدة سلطنته خمس سنين وثلاثة

(1) المقريزي: م س، جـ3، ق1، ص345-346. وابن اياس: ن م، ص326-327.

(2) ابن اياس: ن م، ص252.

(3) المقريزي: ن م، جـ3، ق1، ص389.

(4) ن م، ص192-193.

(5) ن م، ص 196.

(6) ابن اياس: م س، جـ1، ق2، ص204.

(7) المقريزي: م س، جـ3، ق1، ص410.

أشهر وعشرين يوماً وعمره نحو اثنتي عشرة سنة، حيث لم يكن له من السلطنة سوى الاسم والجلوس على العرش وله نفقة كل يوم[1].

وتسلم الملك بعده أخوه الصالح صلاح الدين أمير حاج حاجي بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن محمد بن قلاوون[2] (783-784هـ/1381-1382م) وكان آخر سلاطين المماليك البحرية عندما دخل الخليفة محمد المتوكل على الله[3]. وكانت مدة سلطنته سنة وسبعة أشهر وبه زال ملك بني قلاوون الذين امتد حكمهم مائة وثلاث سنين والذين مات أكثرهم اغتيالاً بالسيف.

وقد تحكم بأمور تعيين الولاة وعزلهم برقوق وبركة، أما بالنسبة للوظائف السلطانية أو مجلس الأمير الكبير برقوق فقد كانت بيد برقوق الذي باعها للسفلة والأرذال بالمال مما كان وبالاً على مصر والشام وأدى لخرابهما[4]. ثم بدأ التنافس بين الأمير برقوق والأمير بركة وقرر كل منهما الخلاص من الآخر ليخلو له الجو، ونشبت الحرب بينهما انتصر فيها برقوق وسجن الأمير بركة في الاسكندرية وقُتِل هناك[5].

ثم قبض على الأمراء من عصبة الامير بركة وحاشيته فقامت بعد ذلك دولة الجراكسة وسقطت دولة الاتراك الخفاجة "القبجاقية"[6] ونادىَ في القاهرة بالأمان بعد أن صار غالبية الأمراء جراكسة من أتباع الأتابكي برقوق الذي أحضر والداه من بلاد جركس من ضيعة يقال لها اكسا[7] بصحبة الخواجا عثمان الى القاهرة عام 782هـ/1380م فخرج برقوق لاستقباله مع عامة العسكر وارباب الدولةوالوزراء وكان الخواجا عثمان قد اشتراه من هناك فاعتق والده وأدخله الاسلام وختنه، ثم تزوج خوند ابنة الأمير طشتمر.

(1) ابن اياس: ن م، جـ1، ص284. المقريزي: ن م، جـ3، ص412، (رقم الايداع بدار الكتب المصرية 3197 عام 1970م).

(2) ابن اياس: ن م، جـ1، ص285، وبعد أن بايعه الخليفة محمد المتوكل والقضاة الأربعة والأتابكي برقوق.

(3) ن م، ص310.

(4) المقريزي: ن م، جـ3، ق1، ص324.

(5) ابن اياس: م س. ص 258-261.

(6) ن م، ص262. والمقريزي: ن م، جـ3، ق1، ص386.

(7) قال بعض المؤرخين ان قبيلة آكسا كانت من نسل جبلة بن الأيهم الغساني. ابن اياس: ن م، ص312.

كما شرع برقوق في نفس العام في عمارة جسر الشريعة الموجود بطريق الشام قرب قرية أريحا على نهر الأردن، وكان طوله مائة وعشرين ذراعاً وعرضه نحو عشرين ذراعاً إذ أنفق عليه أموالاً طائلة لخدمة المسافرين والتجار[1]. وفي شهر ذي الحجة من عام 782هـ أبطل برقوق ضمان الملح من عيتاب ومن الكرك وأبطل ضمان المغاني من حماة والكرك[2].

---

(1) ابن أياس، م،س ص 279 ومدحه الشاعر الشهاب أحمد بن العطار

أيا ملكاً بني جسراً بعـــدل — به حمل الأنام على الشريعة

له شرف على الجوزاء سام — وفوق الحوت أركان منيعة

(2) ن.م. ص280.

السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية:

مقدمة:

لقد أثبت المماليك قوة دولتهم في مواجهة المغول وبقايا الصليبيين في الوطن العربي من المحيط الى الخليج مما أكسبها احترام شعوب الدولة الاسلامية والعربية وهابها الأعداء خارج حدودها فعملوا على احترامها ومهادنتها اتقاءً لبطشها.

كما أكسبهم إحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سقوطها في بغداد لقب زعامة العالم الاسلامي وحماة الخلافة مما جعل القاهرة دائماً ملتقى الأصدقاء والأعداء من حيث تردد السفراء والتجار لعقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة. مما جعلها تَحْظَى بنشاط دبلوماسي واسع النطاق مما جعل ديوان الإنشاء يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم في ذلك الوقت.

السياسة الخارجية:

اشتملت العلاقات الخارجية لدولة المماليك البحرية بالدبلوماسية الواسعة حيث شملت علاقات ودية مع الدول الاسلامية وعدائية مع المغول والصليبين. وكانت سياستهم الخارجية نابعة من الأوضاع السياسية الدولية والحرص على مصالحهم معتمدة في سيرها على شخصية الملوك والحكام لأن المفهوم العام للسياسة هو المصلحة والمنفعة الذاتية فلا عداوة ولا صداقة دائمة بين الدول.

وتنوعت هذه العلاقات بين سياسية واقتصادية نتيجة لموقع الدولة الجغرافي الممتاز بين بلاد حوض البحر المتوسط وأوروبا. لهذا شملت علاقاتهم السياسية والعسكرية سلاطين الروم في آسيا الصغرى والبيزنطيين واليمن والحبشة وبلاد النوبة ودول شمالي افريقيا والأندلس وجنوا والبندقية ومملكة صقلية ومملكة الأراغون. وخاصة زمن الظاهر بيبرس وتوسعت زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث شملت افريقيا واليمن[1] وتلمسان ومملكة المغرب الأقصى

[1] المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص702-703. والقلقشندي: م س، جـ6، ص422-426.

زمن آل مرين[1]. كما توسعت لتشمل ملك غرناطة أبو عبدالله محمد بن الأحمر[2] زمن ابنه الملك الأشرف شعبان بن الملك الناصر.

كما نلاحظ أن الدول غير الاسلامية كانت هي البادئة بطلب إقامة هذه العلاقات الودية مما يدل على قوة دولة المماليك في تلك الفترة وأهمية موقعها الاستراتيجي بين الشرق والغرب كما حدث مع السلطان قلاوون وصاحب سيس التكفور "ليفون ابن قيوم" الذي طلب الهدنة وأقسم بالله والمسيح والصليب والانجيل وكذلك مع أهل جنوة لتأمين حرية التنقل والتجارة البحرية بين البلدين ومع ملك أراغون "أذوفتش" وأخيه ملك صقلية بخصوص حرية التجارة واحترام السيادة وطلاق سراح الأسرى وتبادل اللاجئين والتعاون بينهما[3]. والسماح لرعاياها بالدخول الى بيت المقدس[4]. وكذلك فعل ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن آل باليولوغ سنة 680هـ/1282م ماداً يده للسلطان بخصوص التجارة فقبل قلاوون هذه المعاهدة[5]. وهذا يدل على عظمة قلاوون وأهمية دولته وسياسته الخارجية وخاصة عندما اصدر أمراً بمنح حق الرعاية والحماية لجميع التجار القادمين لدولته لتوفير الأمن لهم مما أكسب دولته شهرة سياسية وتجارية[6].

علاقة المماليك السياسية مع الدول الاسلامية:

لقد تميزت العلاقة مع دولة سلاجقة الروم المتاخمة للحدود الشمالية لسوريا بعدم الاتزان والثبوت بسبب تصادم المصالح بينهما مما دفعت السلاجقة أحياناً بالتحالف مع المغول ضد المماليك الأمر الذي دفع السلطان الظاهر بيبرس لغزوهم وألحق الهزيمة بهم ولكنه أبقى اسرى السلاجقة وأعدم أسرى الروم[7].

---

(1) القلقشندي: م س، ج7، ص 389-395.

(2) ن م، ن ص.

(3) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأنام والعصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص156-162.

(4) ن م، ص170.

(5) ابن الفرات: م س، ج7، ص229-233

(6) القلقشندي: ن م، ج13، ص340-342.

(7) القلقشندي: ن م، ج14، ص 139-165.

وأما بالنسبة للعلاقة بين المماليك ومغول القفجاق[1] زمن الظاهر بيبرس وملكهم بركة فقد كانت حسنة على عكس علاقته مع هولاكو، حيث اسلم بركة وطلب النجدة ضد جيوش هولاكو[2] فاكرم بيبرس رسله وأهداه هدية ثمينة مرفقة برسالة مكونة من سبعين ورقة بغدادية[3]، فكانت الرابطة بين الدولتين روحية قوية ضد خطر مشترك وأمر الخطباء بالدعوة له على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة بعد الدعاء للسلطان بيبرس[4].

كما استمرت العلاقة بين خليفة بركة خان "منكوتمر سنة 665هـ/1267م بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس بقيادة أبغا[5] أما الناصر محمد بن قلاوون فقد تبادل السفارات والهدايا مع طقطاي ملك القفجاق للمشاركته في محاربة غازان إيلخان زعيم مغول فارس[6] عام 703هـ/1303م. ووحد العلاقات مرة أخرى مع زعيم القفجاق "أزبك خان" عام 715هـ/1315م في فترة حكمه الثالثة، وذلك بطلبه الزواج من أميرات بيت جنكيز خان[7] فارسل له أزبك خان إحدى أميراتهم عام 719هـ/ 1319م المسماة "دلبنية" ويقال طولونية الى الاسكندرية بحراً وتزوجها السلطان الناصر محمد [8].

وهكذا وطد هذا الزواج السياسي العلاقات بين الدولتين واستمرت بين السطان الحسن ابن الناصر محمد و"جاني بك" ابن ازبك خان[9] عام 748هـ/1347م ثم بدأ الفتور يعتري هذه

---

(1) دولة مغول القفجاق: القبيلة الذهبية نسبة الى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مجتمعاتها وملكها جوجي ابن جنكيز خان والواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا. وانتشر الاسلام بين هذا الفرع من التتار بعد اعتناق رئيسهم بركة خان الاسلام مما وثق العلاقة مع دولة المماليك وزاد عداؤهم مع مغول فارس، واخذ يستقبل المغول المسلمين الخاضعين لهولاكو والفارين من حكمه الى الشام. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص117-118. انظر توماس: ارنولد، الدعوة الى الاسلام ص 259-260.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ص495، وقد حارب بركة هولاكو لاعلاء كلمة الله كما ذكر العيني: عقد الجمان، جـ20، مجلد 3، ورقة 494 مخطوط.

(3) ن.م. ن. ص. القلقشندي، م س، جـ2، ص476. ذكر "فالورق البغدادي: كان أجود أنواع الورق وأكبره سعة وكان مخصصاً لكتابة المصاحف ومكاتبة الملوك". القلقشندي: م.س. ج6، ص190.

(4) المقريزي: ن م، ج1، ص498.

(5) العيني: م س، ج20، مجلد 3، ورقة 357 "مخطوط".

(6) المقريزي: السلوك، ج2، ص7.

(7) النويري: نهاية الأرب، ج3، ص30، ورقة 137، "مخطوط". حيث يذكر تردد رجال أزبك خان وتشددهم في المهر وكثرة الشروط بل وتمنعهم مما جعل السلطان الناصر محمد يؤجل ذلك مؤقتاً.

(8) المقريزي: ن م، ج2، ص304-305.

(9) القلقشندي: ن م. ج7، ص295-296.

العلاقات بعد هذا التاريخ لزوال خطر أيلخانية مغول فارس ثم ظهور عوامل ضعف وانحلال دولة مغول القفجاق بعد ذلك.

العلاقة مع دولة هندستان وسلطان دهلي 724-751هـ/1324-1351م:

لقد استطاع محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلي في توطيد علاقته مع المماليك عندما ارسل سفاراته محملة بالهدايا الثمينة الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون وطلب منه المساعدة ضد المغول عام 730هـ/1329م وعندما حصل على تقليد من الخليفة العباسي في القاهرة المستكفي بالله العباسي لشرعية ولايته على بلاده وكذلك فعل خليفته فيروزشاه الثالث سنة 751هـ/1349م بالحصول على التفويض العباسي فارسل له الخليفة المعتضد بالله ذلك سنة 756هـ/1354م[1].

العلاقة بين دولة المماليك والحجاز:

لقد أهتم المماليك بالإشراف على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة لتعلق قلوب المسلمين بها مما دفع السلطان الظاهر بيبرس للتدخل في صراع أمراء الحجاز على الإمارة عام 664هـ/1266م بين الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة والشريف جماز أمير المدينة فاصلح بينهما باقتسام السلطة مناصفة بينهما وتدخل أيضاً عام 666هـ/1268م في صراع الشريف نجم الدين أبي نمي وبين عمه وشريكه في الإمارة الشريف بهاء الدين ادريس فاصلح بينهما وقرر لهما مبلغ عشرين ألف درهم سنوياً على أن لا يجمعوا مكوساً من أحد ولا يتعرضوا للتجار أو أي أحد من زوار المسجد الحرام، هذا بالاضافة الى الخطبة باسمة في الحرم وكتابة اسمه على النقود[2]. ولتأكيد سلطته أدى فريضة الحج عام 667هـ/1269م وغسل الكلعبة بيديه وعين أحد أمرائه شمس الدين مروان نائباً عنه في مكة[3] الأمر الذي لم يعجب أمير مكة جماز ومالك اللذين رفضا مقابلته وفراً من مكة. وبعد وفاة بيبرس لم تستقر العلاقات مع المماليك لاستمرار الصراع بين أمراء الحجاز كما حدث زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي

---

[1] سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص342.

[2] المقريزي: السلوك، ج1، ص560، 579.

[3] العيني: م س، ج2، مجلد 3، ورقة 551، مخطوط. والنويري: نهاية الأرب، ج28، ورقة 51، 52، مخطوط.

تدخل في الصراع بين الشريف منصور وابن اخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع من عمه إمارة المدينة مما دفع الناصر لنجدة الشريف منصور فارسل بعض الجند لمعاونة منصور الذي استنجد به[1]. كما تدخل السلطان الناصرمحمد عام 713هـ/1313م خلال فترته الثالثة في الصراع بين امراء مكة وخاصة الأخوين حميضة وأسد الدين رميثه عندما شكى الناس منهما فارسل جيشاً وعزلهما وأحل أخيهما أبي الغيث محلهما في الحكم[2].

كما حَرِصَ سلطان المماليك على أداء فريضة الحج للاطلاع على أوضاع الناس هناك للمساهمة في حل المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين، ووزع القمح والغلال على الفقراء والمحتاجين لاقرار النظام والأمن[3].

علاقة المماليك مع اليمن:

لقد ارتبط حكام اليمن من بني رسول بعلاقات ودية مع سلاطين المماليك في مصر والشام فارسلوا لهم السفارات والهدايا مثل التحف والطيور والحيوانات والفيلة وخاصة للسلطان بيبرس عام 666ه/1268م، 669هـ/1271م، 674هـ/1276م فسر الظاهر بيبرس وأحسن استقبال السفارات وردّ على الهدايا باحسن منها[4]. واستمرت العلاقات الودية بينهما زمن المظفر شمس الدين حاكم اليمن 680هـ/1282م والسلطان قلاوون عندما ارسل له الهدايا من العنبر والعود الصيني وغيره بعد توتر بسيط في العلاقات بينهما فبعث المظفر يطلب الأمان من قلاوون فاعطاه ذلك[5].

---

(1) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص118.

(2) أبو الفداء: م س، ج4، ص72.

(3) المقريزي: السلوك، ج2، ص197، 238.

(4) المقريزي: ن م، ج1، ص 563، 595، 621. هذا ويرجع بعض المؤرخين ذلك الى خشية بني رسول سطوة سلاطين المماليك في مصر ولأن قيام الخلافة العباسية في مصر منح المماليك نوعاً من الولاية على بقية العالم الاسلامي كما ورد سابقاً في تقليد الخليفة العباسي المستنصر با لله للسلطان للظاهر بيبرس الديار المصرية والشامية والحجازية واليمنية والفراتية. د.سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص339.

(5) بيبرس الدوادار: م س، ج9، ورقة 123، أورد النص على ألا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا، ما دام ملازماً لشروط مودتنا..."محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص130.

كما حرص سلاطين المماليك على إخبار أهل اليمن عن انتصاراتهم على المغول زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 701هـ/1302م[1].

ومن الملاحظ، أن المظفر ملك اليمن كان يستغل انشغال سلاطين المماليك بحرب المغول وغيرهم فيعلن العصيان والانفصال لموقع اليمن البعيد في جنوب الجزيرية العربية وما يشير الى هذه الحقيقة تمرد ابنه الملك المؤيد هزبر الدين داوود ابن المظفر عام 702هـ/1303م الذي تمرد على سلطة المماليك ناصر وضايق التجار المصريين وامتنع عن ارسال المال المقرر لمصر.

هذا وتعود أسباب تذبذب العلاقات اليمينة المملوكية الى الأوضاع الداخلية في اليمن أحياناً كالمنازعات بين امراء اليمن من جهة أو بين الامراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى مما أتاح الفرصة لسلاطين المماليك للتدخل في شؤون اليمن وارسال النجدات لبعض الأمراء في صراعه مع الآخرين[2].

العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ومالي:

لقد كانت هناك صلات ثقافية وتجارية وأخرى تتعلق بشؤون الحج كالطريق إلى الأماكن المقدسة[3]. وكذلك مر أحد ملوك ماليو"التكرور منساولي" بمصر في طريقه الى الحج أيام بيبرس[4] وحج أيضاً أمام السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث قدم للسلطان هدايا ذهبية كبيرة فأكرمه وأهداه الخلع والسيوف والخيول والجمال والمؤونة[5].

ويلاحظ من اسلوب المكاتبات بين ديوان الانشاء في سلطة المماليك وملوك السودان الغربي بأنهم كانوا يخاطبونهم "الجناب الكريم العالي" بينما كانوا يخاطبون ملوك شمال افريقيا

---

(1) محمد جمال الدين سرور:م س، ن ص.

(2) المقريزي: السلوك، ج2، ص259-260.

(3) ابن خلدون: العبر، ج5، ص434

(4) القلقشندي:م س، ج5، ص293، يذكر أن منسا: تعني السلطان، وولي: تعني علي. وانظر ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج2، ص275.

(5) العمري: مسالك الأبصار، ص943، 954-955.

بلقب المقام العالي[1]، مما يدل على أنهم جاؤوا في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد ملوك شمال افريقيا كما أقامت بعض طوائف التكرور في مصر طلباً للعلم على مشايخ الأزهر أمثال ابن جوزي وابن حيّان[2] وبني تجار التكارو ومدرسة للمالكية بمصر عرفت بمدرسة رشيق.

العلاقة بين سلطنة المماليك والدول الاسلامية في شمال افريقيا:

لقد ارتبطت هذه الدول بعلاقات ودية مع سلطنة المماليك في مصر انطلاقاً من رابطة الدين الاسلامي ورابطة الحج للأماكن المقدسة ورابطة الخلافة ورابطة الجوار الجغرافي ورابطة خطر الغرب الأوروبي المشترك الذي كان يهدد العالم الاسلامي ولكن تلك الروابط لم تمنع توتر العلاقات أحياناً وخاصة زمن بني حفص حكام تونس ابتداءً من 626هـ/1228م والذين لم يطلبوا تفويضاً بالحكم من الخليفة العباسي في بغداد لدرجة أن بعضهم من مثل أبي عبد الله الأول الحفصي (647-676هـ/1249-1278م) اتخذ لقب الخلافة والإمامة وتلقب بالمستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الامراء الراشدين[3]. فعندما أعلن الظاهر بيبرس سنة 658هـ/1260م إحياء الخلافة العباسية في القاهرة أوجد ذلك نوعاً من الكراهية بين سلطنة المماليك وملوك الحفصيين في تونس عندما حاولت سلطنة المماليك التقليل من شأن خلافة الحفصيين[4]. كما يلاحظ من المراسلات الصادرة عن ديوان الانشاء ما يشير الى عدم اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين "فلقبوهم بأمير المسلمين" وليس "بأمير المؤمنين" لأنه أقل رتبة ويعني أحد أمراء المسلمين الذين يعملون تحت لواء الخلافة[5].

---

(1) القلقشندي:م س، ج8، ص7.

(2) السخاوي: الضوء اللامع، ج7، ص2، وانظر المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص365، والمقريزي: السلوك، ج1، ص649.

(3) القيرواني: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، ص128. حيث ذكر أن الذي شجعه على هذه الخطوة شريف مكة أبو نمي بن الحسن الذي اعترف بسيادة الحفصيين على مكة وكذلك سفارتان من سلطان بن مرين وملك التكرور في السودان.

(4) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص12، "بأن ملك تونس يُخَاطَبُ بأمير المومنين في بلاده" وكذلك شكك القلقشندي بنسب الحفصيين لقريش، القلقشندي:ن م، ج7، ص377 وتبعه أبو المحاسن:ن م، ج 7 ، ص32. حيث قال: "وفيها 652هـ وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على افريقيا وادعى انه خليفة وتلقب بالمستنصر".

(5) د. سعيد عاشور: م س، ص344.

ولكن الأخطار الخارجية الغربية المتمثلة في نزول الصليبين في تونس بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا عام 668هـ/1270م بادر بالاستعدادات العسكرية لنجدتها[1]. هذا وكانت العلاقات ودية بين الملك الناصر محمد بن قلاوون وصاحب تلمسان غرب الجزائر وذلك من خلال المراسلات الودية بينها[2].

كما سادت العلاقات الحسنة بين الدولة المملوكية والمغربية من آل مرين زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وبودلت الهدايا بينهما[3] كما حاولت غرناطة التقرب من السلطان الملك الأشرف شعبان زمن حاكمها أبو عبد الله محمد بن يوسف الأحمر حوالي سنة 767هـ/1365م[4].

ويلاحظ على الروابط التي ربطت المغرب العربي بسلطنة المماليك بأنها علاقات وثيقة لأسباب عديدة كالخطر الأوروبي المشترك وخطر المغول الذي داهم الشرق الاسلامي مما جعل المماليك يحرصون على إرسال البشائر إلى المغرب بعد انتصاراتهم على المغول والصليبين.

بالإضافة إلى أن مصر كانت ملجأً للمعارضة الهاربة من المغرب ومقراً لهجرة المغاربة إلى مصر طلباً للعلم[5] والرزق حيث كان معظمهم من الصوفيين الفقراء بالاضافة للعلاقات التجارية بين البلدين[6].

علاقة دولة المماليك مع الدول غير الاسلامية:

لقد لوحظ من الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك وحكام الدول غير الاسلامية أن هذه الدول هي التي كانت البادئة بطلب ود المماليك البحرية أيام قوتهم ومهابتهم، وثروتهم وموقع بلادهم الاستراتجي الهام، كالبيزنطيين والأحباش، ودولة سيس الآرمنية شمالي سوريا، ومع

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص950.

(2) القلقشندي:م س. ج8، ص85-87.

(3) ن.م.، ج7، ص389-395.

(4) ن.م.، ج8، ص107-114.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ3، ص327، 361-362، جـ4، ص327. والسيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص86. وابن خلدون: المقدمة، ص294.

(6) ابن خلدون، ن م، جـ7، ص451، والمقدمة: ص294.

حكام جنوا والبندقية وصقلية وغيرها من دويلات ايطاليا، ومع مملكة أراغون. فلقد أظهر ملوك الحبشة تذللهم للظاهر بيبرس[1] وكذلك "زمشكد" ملك النوبة الجديد الذي اقسم الولاء للملك الظاهر بيبرس[2] ويظهر من هذه الرسائل بأن ملوك الحبشة وبلاد النوبة في شمالها كانوا شبه تابعين لسلاطين المماليك الأقوياء.

وكذلك فعل "ليفون ابن قيوم" صاحب سيس عندما شعر بضعفه أيام السطان قلاوون فطلب الهدنة مع يمين الولاء بالاخلاص[3]. كما فعل حكام جنوة مع السلطان قلاوون بطلب الهدنة والسماح لحرية التجارة بين البلدين بعد أن أقسموا بعدم خيانة هذا العهد[4].وأرسل ملك أراغون وأخوه ملك صقلية هدية للسطان المنصور قلاوون يطلبون عقد هدنة معهم، والسماح بحرية التجارة، وإطلاق سراح الاسرى، وتأمين بلاد الطرفين وثغورهما وأساطيلهما والتعاون بين الطرفين[5]. بعد أن أقسم كل منهما بعدم نقضها[6]. وكذلك فعل ملك الحبشة مع قلاوون عندما طلب الصلح مع إرساله الهدايا الثمينة طالباً السماح لرهبانه بزيارة بيت المقدس[7] وقد توجت هذه العلاقات بالفخر والاعتزاز عندما أراد ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن "آل باليولوغ" التقرب الى السلطان قلاوون بارساله رسالة يقسم فيها بالله والمسيح والإنجيل بالولاء للسلطان عام 680هـ/1282م طالباً حرية التجارة بين البلدين وعدم الإعتداء، والاعفاء من الرسوم وتبادل اللاجئين[8] فرد قلاوون بالقبول[9]. فبرهن علىاهتماه بالتجارة الخارجية مع الهند والصين بمنحه الحماية والرعاية والأمن للتجار. وتتابعت العلاقات الودية مع دول وسط أوروبا النصرانية حتى أن ملك الصرب "فراكس" طلب الأمان له ولأتباعه من السلطان الملك الناصر

---

(1) ابن الفرات: م.س. ج7، ص24-25.

(2) ن.م. ج7، ص47-48

(3) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص93، 102.

(4) ن.م. ص165-169.

(5) ابن عبد الظاهر: ن م، ص156-162.

(6) ن.م. ص162-164.

(7) ن.م.ص170.

(8) ابن الفرات:ن م. ج7، ص229-231.

(9) ن.م.، ج7، ص231-232.

محمد بن قلاوون لزيارة بيت المقدس فأمنه على ذلـك[1] وعندما دب الضعف فـي جسد الدولـة المملوكية بعد وفاة الملك الناصر محمد بـن قـلاوون نتيجـة للصـراع الدمـوي علـى العـرش بيـن أولاده وهجوم تيمورلنك على بلاد الشام، كل ذلك أدى إلى الاضطراب الأمني في البلاد وركـود حركة التجارة حتى جاء عهد المماليك الشراكسة زمن السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق.

علاقة دولة المماليك مع الصليبين:

المماليك والدبلوماسية:

لقد دخل سلاطين المماليك في علاقات دبلوسيا مع الصليبيين أسفرت عن عقد العديد من المعاهدات معهم نتيجة لمشاكلهم الداخليـة والخارجيـة والتـي كـانت امتداد للاوضـاع فـي العهـد الأيوبي من حيث طبيعة النظام الإقطاعي الذي قـامت علـى أساسـه الدولـة والنزاعـات الفرديـة للأمراء ورغبتهم في الاستقلال عن سلطة السلاطين مما أدى الى تجدد النزاع والفرقة في دولة المماليك، هذا بالاضافة الى الأخطار الخارجية المتمثلة بالخطر المغولي[2].

لقد راسل السلطان الظاهر بيبرس سنة 666هـ/1268م أوك بن هزي "Hugh"[3] صـاحب عكا بقصد الصلح فتم الاتفاق على ما يلي: أن تكون حيفـا للفرنـج مـع ثـلاث ضيـاع، وأمـا عكـا وبقية مناطقها وبلاد الكرمل فمناصفة بينهما[4]. وبلاد صيدا المنخفضة للفرنج والمناطق الجبليـة للسلطان بيبرس ومدة الهدنة عشر سنوات مع إطلاق الرهائن والاسرى ثم أرسل بيبرس القاضـي محي الدين عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شت إلى صاحب عكا ليوقع على الهدنـة حيـث أوصاهما بعدم التواضع له فلما دخلا كان الملك جالساً على كرسية فلم يجلسـا حتـى وضـع لهمـا كرسيين فجلسا قبالته، وتقدم الوزير ليأخذ الكتاب منهما فرفضا حتى مد الملك يده وأخذه، حيث لم يوافق علـى بعض الأمـور المكتوبـة وتركوه ولـم يوقـع[5]. وفـي شـهر جمـادي الأخـرة

---

(1) القلقشندي: م.س. ج13، ص327-328.

(2) د. عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الاسلامية، ص73، 74.

(3) العيني: عقد الجمان، ص236. Stevenson: Crudaders in The East, P. 342.

(4) الكرمل: حصن بالجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام، ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص267.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ص571.

777هـ/1375م قدمت رسل صاحب القسطنطينية على السلطان على بن الأشرف شعبان بالهدايا حيث كان فيها صندوق من العجائب لاحتوائه على العاب زمنية مختلفة[1].

أما فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) فقد كان يمتلهم الرهبان والقنصل لدى السلطات المملوكية في فلسطين حتى أوائل القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، ثمّ توترت العلاقات معهم بسبب غاراتهم المشتركة مع قراصنة القبارصة على الشواطئ الشامية والمصرية في شرقي البحر المتوسط[2].ومما تجدر الإشارة اليه أن أعداد الحجاج قد تأثرت بالظروف السياسية التي تمثلت بعلاقات السلطات الإسلامية بالمغرب الأوروبي.

ومن المعاهدات اتي عقدت بين الطرفين لتأمين زيارة الحجاج المسيحين للقدس معاهدة قلاوون مع فرنج عكا سنة 682هـ/1284[3].

"... وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم على اختلاف اجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويُصلّي بالكنيسة الأقساء والرهبان. وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة. وإذا ألقيت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى براً، ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بنائه، ولا يتعرض للاقساء والرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق...".

وهناك معاهدة بين السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وملك أرجون الفرنجي692هـ/1293م:

"... وعلى أنه اذا وصل من بلاد الملك "دون حاكم" وبلاد أخويه وصهريه. ومعاهديه من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك "دون حاكم" وختمه الى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف، يفسح له في الزيارة مسموحاً بالحق، ليقضي زيارته، ويعود

[1] ابن اياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط2، ج1، ق2، القاهرة 1987/1403، ص158.

[2] دراج، م.س. ص146، هامش رقم 95.

[3] المقريزي: م س، جـ1، ص944. والقلقشندي: م س، جـ14، ص61-62، 69. والمقريزي: ن م، جـ1، ص990، ذكر نصاً من معاهدة قلاوون مع أفرع عكا أعلاه وأبن الفرات: م س، جـ7، ص262-270.

الى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة، بحيث أن "دون حاكم" لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء الملك الأشرف في أمر الزيارة شيء"[1].

وأما بالنسبة للتحول من دين لآخر تهرباً من التزامات مادية فقد لجأ الطرفان لمواجهة تلك التصرفات في معاهدتهم كما ورد في معاهدة قلاوون مع افرنج عكا سنة 682هـ/1284م: "... وعلى أنه متى هرب كائناً من كان من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعنية في هذه الهدنة وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر بإرادته، يرد جميع ما يروح معه ويبقى عرياناً وإن كان ما يقصد الدخول في دين النصرانية ولا يتنصر رد إلى أبوابها العالية. بجميع ما يروح معه بعد أن يعطي الأمان وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلسة الداخلة في هذه الهدنة، ويقصد الدخول في دين الاسلام، وأسلم بأرادته يُرَدُّ جميع ما معه ويبقى عرياناً[2].

وإن كان ما يقصد الدخول في دين الاسلام ولا يسلم، يُرَدُّ إلى الحاكم بعكا وهو كفيل المملكة والمقدمون، بجميع ما يروح منه بشفاعة، بعد أن يُعطى الأمان"[3].

العلاقة بين المماليك والحبشة :

لقد كانت العلاقات السياسية بين الحبشة وسلطنة المماليك نابعة من طبيعة المذهب الكنسي في الحبشة حيث كانت الكنيسة الحبشية تتبع الكنيسة المرقسية بالاسكندرية التي كانت تعين رجال الدين "المطارنة" وترسلهم الى كنيسة الحبشة فيقوم ملك الحبشة بارسال مبلغ ضخم من المال على شكل ضريبة من رعاياه"[4]. ثم توترت العلاقات بين الدولتين بسبب الحروب الداخلية في الحبشة والتي جعلت ملك الحبشة يتأخر في الرد على رسالة الظاهر بيبرس مما أغضبه فمنع إرسال "مطران" لكنيسة الحبشة" الأمر الذي أجبر ملك الحبشة على إحضار مطران سرياني سوري من بلاد الشام فلم يعجبهم فعاد ملك الحبشة يرجو ويتوسل الى السلطان بيبرس لارسال

---

(1) القلقشندي: م س، ج14، ص69.

(2) أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص210. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص991-993. وانظر: القلقشندي: ن م، جـ14، ص45، ذكر "هدنة بيبرس مع الإستبارية عام 669هـ".

(3) المقريزي: ن م، جـ1، ص944، القلقشندي :ن م، ج14، ص61-62. وابن الفرات: م س، ج7، ص262-270.

(4) ابن الفرات: م س، جـ7، ص24-26. وسعيد عاشور: م س، ص303

مطران من كنيسة الاسكندرية فكان بيبرس يعتبر ذلك عقاباً لملك الحبشة لتأخره في الرد على سفارته.

ولما جاء السلطان المنصور قلاوون 678هـ/1279م استجاب لرغبة ملك الحبشة فسمح بإرسال المطران المطلوب لكنيسة الحبشة وكانت صيغة المراسلات تتسم بعبارات التملق[1] حتى خيل لبعض المؤرخين اعتبار ذلك شبه تبعية لسلاطين المماليك[2].

وأما العامل الديني الثاني فكان مرور الحجاج الأحباش المسيحيين بمصر في طريقهم الى القدس لزيارة كنيسة القيامة بل وكان لهم دير كبير في المدينة المقدسة يتشرف على الجالية الحبشية المتواجدة في بيت المقدس إذ كان ملوك الحبشة يرسلون لرهبان الدير الهبات والهدايا فضلاً عن الالتماس من السلاطين المماليك في حسن معاملة أولئك الرهبان كما جاء في رسالة ملك الحبشة "يجبأصيون" الى السلطان المنصور بن قلاوون"[3].

ومن الأهمية بمكان أن نُشير، الى تنبه الغرب الصيلبي والبابوية الحاقدة الى هذه العلاقة ووجود الجالية الحبشية الكبيرة في بيت المقدس في الإستفادة منها في محاربة المسلمين خاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية "في حرب التحرير والتصفية الاسلامية" التي قام بها المماليك فاستجاب ملوك الحبشة لنداءات البابا واعد حملة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب عندما هاجمها ملك قبرص بطرس لوزجنان عام 765هـ/1325م زمن السلطان الأشرف شعبان بن حسن[4].

(1) كقولهم: "... وهذا الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ويهلك الله عدوه..." النويري، نهاية الأرب، ج28، ورقة 46، مخطوط. ابن الفرات : م س، جـ7، ص24-26. سعيد عاشور: م س، ص303.

(2) انظر السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ظ210. والعمري: التعريف بالمصطلح الشريف: ص48.

(3) محي الدين عبدالظاهر: م س، ص170،173. وابن اياس: م س، جـ5، ص22.

(4) ولمزيد من التفاصيل: أنظر أبو المحاسن: م س، جـ6، ص637-640، طبعة كاليفورنيا. وسعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ2، ص1213-1214.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

أولاً : النظام الإقطاعي

أ- الصليبي.

ب- الأيوبي.

جـ- المملوكي.

مقدمة:

تُعدّ الحياة الاقتصادية أكثر المظاهر تأثراً بالوضع السياسي والاحداث الاجتماعية، فهناك علاقة طردية بين الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في جميع المجتمعات البشرية، حيث كانت الأزمات السياسية في جميع العصور التاريخيه سبباً رئيسياً في حدوث الاضطراب الاقتصادي وارتفاع الاسعار بالاضافة للجفاف وتوقف نزول المطر.

فقد أعاق الصليبيون عجلة الحضارة الاسلامية وعملوا على تأخرها وعدم ازدهارها، بينما كانت نعمة على الأوربييّن الذين تأثروا بهذه الحضارة الراقية من صناعات : كصناعة الاسلحة والحديد والنسيج والورق والزيوت وغيرها، وفنون حربيه، ناهيك عن نهر الثقافة العربية الاسلامية التي شربوا منها حتى الثمالة، فذخلت لغتهم كثير من الكلمات العربيه، وعلى الجانب الآخر فقد تأثر المسلمون بهم في كثير من عاداتهم في البيوع والتجارة واللباس والطعام، كما نقلوا أصول الهندسه المعمارية في بناء قصورهم وكنائسهم وزخرفتها.

وعندما هلّ العصر الأيوبي باحداثه الهامة والتغيرات الكبيرة في بلاد الشام معاصراً للغزو الصليبي والتنافس السياسي بين الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في القاهره على بلاد الشام لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية، أعاد الوحدة الوطنية والقومية بل وحدة الخلافتين في المشرق والمغرب الاسلامي أمام الزحف الصليبي وخاصه بعد معركة حطين الخالدة، كما أعاد التقدم الحضاري في كافة الميادين على الرغم من كثرة الحروب واستمرارها مما جعل تركيز الباحثين ينصبُّ على الاحداث العسكرية والسياسية في هذه الفترة وإهمال الجوانب الحضارية الأخرى عدا إشارات بسيطة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، كما كانت بلاد الشام بعد خضوع اغلبها لصلاح الدين الأيوبي تخضع من الناحية الادارية والمالية للدواوين المصرية في الادارة المركزية للسلطنة الأيوبية في مصر أو على الأقل كانت الدواوين بالشام فروعاً للدواوين المركزية في مصر

خاصة بعد خروجه منها عام 573هـ/ 1177م بقصد جهاد الصليبيين ولم يرجع لمصر ثانية حيث توفي بدمشق عام 589 هـ/ 1193م هذا واستمر خطر الصليبيين أيام المماليك يهدد أمن البلاد واقتصادها لتزييفهم النقود، وشنّهم الحروب بالتحالف مع المغول فكان الشعب الفلسطيني يدفع الثمن كمسرح للعمليات العسكرية لقتلهم الرجال واستيلائهم على الابقار والمواشي والأغنام[1].

فكانت هذه الحروب نزيفاً لاقتصاديات فلسطين وشرقي الأردن انعكس على حياة السكان في المدن والأرياف، مما دفع القبائل البدوية التي كانت تعيش على هوامش المدن إلى نهبها وسلبها كما حدث في غزة ونابلس لإهمال الدولة لهم أثناء الحروب هذا بالاضافة إلى محاربة الصليبيين وعقد اتفاقية معهم عام 682 هـ / 1284م حيث اصبحوا يسيطرون على كل فلسطين باستثناء مدينة عكا الساحلية كقاعدة صليبية[2].

وبالنسبه للعلاقة بين مملكة بيت المقدس وشرقي الأردن زمن الصليبين:

فقد سيطرت على منطقة شرقي الأردن اقتصادياً حيث امدتها بالقمح من حقولها الخصيبه، فضلاً عن المورد المالي من الضرائب التي فرضتها على القوافل المارة عبر الأردن من العراق إلى الشام وإلى مصر وبالعكس، كما حولت القوافل التجارية اليمنية إلى ميناء عكا[3].

كما سيطرت عليها عسكرياً ببناء القلاع والحصون شرقي الأردن اذ اعتبرتها خط الدفاع الأول عن بيت المقدس ضد المسلمين، كما تحكمت في حركة المواصلات بين اجزاء العالم الاسلامي وخاصة طريق الحجاج لمدة ثلاثة أرباع القرن (من 509 – 84 هـ)[4]. ومنعت قيام وحدة عسكرية بين دمشق والقاهرة وبين انحاء الأمة العربية.

---

[1] أبو شامة: المقدسي :الذيل على الروضتين، ط 2، بيروت 1974، ص 20.

[2] عارف العارف : تاريخ غزة، م س، ص 140.

[3] عاشور : الحركة الصليبية، جـ1، ص 489.

[4] العمري : مسالك الابصار، جـ2، مجلد 3، ورقة 55 ص، مخطوط.

النظام الإقطاعي في فلسطين زمن الصليبيين :

لقد تمثلت املاك الفرنجه في فلسطين في مملكتهم في بيت المقدس التي قسّموها إلى أربع بارونيات هي: بارونية شرقي الأردن، وبارونية يافا، وبارونية الجليل، وبارونية صيدا.

وقد طبقوا على فلسطين نظام الإقطاع الأوروبي، حيث كان الملك أعلى سلطة إقطاعيه، يليه أربعة من كبار الأمراء حكام البارونيات ذات الإدارة المستقله "دويلات المدن" أو ممالك المدن وهؤلاء الأمراء يتبعون الملك ويلبون مطالبه المادية والعسكرية في حرب المسلمين.

ثم اسسوا محكمة تشريعية اتحادية عليا، لفض المنازعات بين النبلاء وللمصادقة على القوانين الجديدة في المملكة.

الإقطاع الصليبي في جنوب بلاد الشام:

كان لابد من الاشاره لهذا النظام الاقطاعي لأنه عاصر إقطاع الأيوبيين في جنوبي بلاد الشام. لقد جلب الصليبيون معهم من اوربا تقاليد المؤسسات الإقطاعية ؛ لذا فإن الافراد الذين منحهم الحاكم الصليبي الارض احتفظوا بها بشرط أن يؤدوا له خدمات معينه، بارسال مسلحين في الوقت والمكان المعنيين بموجب طلب الحاكم[(1)].

هذا بالإضافة إلى المدن التي التزمت بتجهيز الفرسان وفقاً لثروتها[(2)].

ويلتزم نبلاء المدن والنبلاء الذين يملكون مساكن فيها، بينما تقدم الطبقة البورجوازية الضرائب نقداً[(3)].

وكان المقطع يؤدي الخدمة طوال العام عند الضروره العسكرية، بينما كانت خدمة المقطع في غرب اوربا اربعين يوماً.

كما كان السيد الإقطاعي يدعو أتباعه لتأدية الخدمة المقدرة، فاذا زادت عن ذلك دفع لهم نفقات زائدة عن المقررة لهم بينما لم تحدد مدة الخدمة في بيت المقدس لأنها كانت في حالة حرب مستمرة[(4)].

---

(1) Smaile, Crusading Warefare, p. 88

فكان على كبار المتطرفين في مملكة المقدس وهم : كونت يافا وعسقلان، وسيد صور، وأمير الجليل أن يقدم كل واحد منهم مائة فارس للملك بكامل عدتهم، بينما يقدم أمير شرقي الأردن (الكرك ومونتريال) ستين فارساً.

(2) فكان على بيت المقدس ان تقدم واحداً وستين فارساً ونابلس خمسة وسبعين فارساً وعكا ثمانين فارساً، وصور ثمانية وعشرون فارساً، وبيروت واحد وعشرين فارساً، والداروم فارسين حيث بلغ المجموع ستمائة وستون فارساً.

(3) Runciman, Ahistory of the Crusades, II, P. 298

(4) Smail op cit. p. 142.

وفي حالة توقف الملك عن دفع أرزاق اتباعه من حائزي الإقطاعات النقدية يحق لهم ان يبيعوا سلاحهم ويُعفَي أولادهم من الخدمة العسكرية.

أما صاحب الإقطاع العقاري فكان لا يُعفى من الخدمة المقررة على إقطاعه الا اذا وقع الإقطاع في ايدي المسلمين ولم يسترجع سيده هذا الإقطاع وهنا يستطيع التحلل من يمين الولاء والطاعة وما التزم به من خدمات. اما اذا حاول سيده استرجاع هذه الأراضي وفشل فله التحلل من الخدمات مع بقائه على الولاء والطاعه[1].

هذا وتتساوى الإقطاعات النقدية مع الإقطاعات العقارية من حيث الولاء والخدمة بينما كان الإقطاع النقدي المبذول من الملك افضل من الإقطاع العقاري المبذول من سيد آخر في الخدمة الشخصية، حيث يعتبر البارونات اتباعاً للملك كما يعتبر أتباع البارونات أتباعاً للملك أيضاً، وعليهم جميعاً تأدية الخدمةالشخصية له. لذا كان الإقطاع النقدي هاماً بالنسبة لمملكة بيت المقدس اكثر من الإقطاع العقاري في الغرب الاوروبي لانهم كانوا يؤدون خدمات عسكرية مستمرة طويلة الامد لمملكة بيت المقدس.

ويتضّح لنا عوائد هذا النظام الإقطاعي على الطرفين حيث ان العلاقة هي ميدان القتال لأن مهمة الملك حمايتهم في حين كان الواجب على الأمراء هو الخدمة في جيش الملك[2].

وكان هناك إقطاع من نوع ثالث هو الإقطاع الديني أي إقطاع رجال الدين والكنائس الذين كانوا يقدمون الجنود بما يتناسب مع إقطاعاتهم من الأراضي، فكان على اسقف بيت المقدس تقديم مائتي جندي واسقف اللد مائتي جندي أيضاً.

بينما كان أسقفا عكا وصور يقدمان مائة وخمسين جندياً، اما رئيس اساقفة قيسارية ودير جبل الزيتون، ومدينة صور مائة جندي لكل منها أما اسقفية جبل نابلس ثلاثمائة جندي، ودير جبل صهيون مائة وثلاثون جندياً وقد قدّر المؤرخون الصليبيون عدد الجنود الملتحقين من قبل الإقطاعات الكنسية بخمسة آلاف وخمس وعشرين جُندياً[3].

---

(1) جمعة الجندي : حياة الفرنجة، رسالة ماجستير، ص 204.

(2) Step Honson, Mediaeval Feudalism, pp. 27 - 28.

(3) Smial , Crusading Warfare, p 93.

وكـان المصـدر الرابـع لجنـود مملكـة بيـت المقدس يتمثـل فـي الفرســان الرهبــان وخاصـــة الداَويــة والإسبتاريّه الذين كانوا في الأصل منظمة طبية علاجيه، ثم تحولـت إلـى هيئـات ذات طـابع حربـي لحماية الكيان الصليبي في بلاد الشام[1]. واعتمدوا في تمويل نشاطهم الحرببي على إقطاعاتهم الواسعة في اوربا[2].

---

(1) Smail : Crusading Warfare, p. 95 Runciman , Ahistor of the crusades, 11 mayer : The Crusdaes. Archer. The Crusades, ؛210 ص ن.م، جمعه الجندي: 218، ص 8، جـ م.س، ابن الأثير: وللمزيد انظر: .P.128, 16111 p. 312 p. 127. 128.

(2) ستيفنسن : الحروب الصليبية، ص 193. Painter, Middle Ages, p. 211, Smail , Crusading Warfare, p. 103

وثمة ملاحظة هامة لفتيات الامة العربية يتوجب الاشارة اليها وتتعلق بمدى مشاركة المرأة الفرنجية في الحروب الطاحنة بدافع ديني عقائدي متخفية في زيها العسكري ولم يكن يكتشف امرها الا بعد اسرها او قتلها[1].

الإقطاع الأيوبي

مقدمة

لقد ورث الايوبيون نظامهم الإقطاعي عن الزنكيين[2] الذين ورثوه عن السلاجقة والذين نقلوه عن البويهيين مع بعض التعديلات التي قام بها نظام الملك وزير اب ارسلان السلجوقي على مدى ثماني سنوات (457-465هـ) لاصلاح البلاد الواسعة والتي كانت تحتاج لنوع من الاستقلال الذاتي تمنحه السلطة للأمراء هناك كما هو الحال في اتساع حدود الدولة الأيوبية لذا كان هذا القطاع استغلالاً وليس تمليكاً، فكان الجندي يرث أباه في حقه باستغلال الاقطاع فقط بخلاف إقطاع الغرب الأوروبي وقد تضمن هذا الإقطاع معنى الولاية والحكم وانتقل فيما بعد لدولة المماليك[3].

كما لوحظ على هذا الإقطاع أنه لمصلحة الدولة العليا وليس لمصلحة الأمراء فقط، فتأثر به صلاح الدين أيام الدولة الزنكية ومن خلاله حكمه لمصر ايام الفاطمين عندما تسلم كافة إقطاعات الضباط الفاطمين ووزعها على امرائه بعد اسقاط هذه الدولة وعزا ذلك لتقوية مذهب السنة في مصر[4] وكان يرفض استقلال المقطع بإقطاعاته وتوريثها[5].

---

(1) انظر ابو شامة : م س، جـ2، ص 149 ن ص 162.

قال " : وفي يوم الواقعه طلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة وفيهن مع لينهن قسوة وليس لهن سوى السوابغ كسوة، فما عُرفن حتى سلبن و عرين ومنهن عدد سبين واشترين... ".

وللمزيد من المعلومات : انظر : ابن شداد : م س : ص 130، 167، 178, وابن الاثير، م.س، جـ 12، ص 334، والاصفهاني: م.س، ص 228، 231، و 349، وابن واصل: م.س، ص Lanepoole , Saladin, p. 264.308

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، جـ1، ص 122، حيث ذكر العماد الأصفهاني في البرق الشامي طريقته في الإقطاع فقال: "انه إذا أقطع الامير اقطاعاً وعيّن بعبرته ضياعاً قرر عليه رجالاً ذوي عدد، لا ينقصون في خيل وسلاح وعدد. فإذا نقص مغل الاقطاع عن المبلغ أتم له نقداً من خزانته".

(3) ابراهيم طرخان علي: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، 1388هـ/ 1968م، ص 21-22، ص 49.

(4) ابن شداد م س، ص 41.

(5) حيث رفض عام 579 هـ / 1183م مطلب اخيه العادل في منحه الاستقلال بمدينه حلب فرد عليه : " اظننت ان البلاد تباع او ما علمت ان البلاد لاهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاه للدين وحراس لاموالهم ". ذكر ذلك : ابو شامه، ن م، جـ2، ص 5،2.

لذا عمد صلاح الدين في إقطاعاته إلى تكليف احد الأمراء الثقات بادارة المدن والقلاع بكفاءة على ان يرسل عساكره في اوقات الحروب أي ان هذا النظام كان نوعاً من الادارة للاقاليم بالنيابة عن السلطان بهدف المصلحة العامة وتقوية الجهاد في سبيل الله فكان يعزل من يتبع هواه ويخرج عن هذه الخطة[1].

وهكذا كان صلاح الدين يرسل تعليماته لولاته في الاقاليم حول التصرف في ادارة إقطاعاتهم ليحصلوا على ثقة رعاياهم فكانت حرية ولاته المُقْطَعين مقيدة بشروط من اجل الصالح العام والولاء للدولة [2]. والتزاما بتعاليم الدين الاسلامي حيث كان مقياس استقامة الوالي ومدى تمسكه بتقوى الله ومدى قدرته ولباقته في مداراة ارباب الدولة والأمراء[3]. وكسب ثقة الناس محبتهم وولائهم وطاعتهم للسلطنة بتوزيع الأموال عليهم[4].

وتذكرنا هذه السياسه بسياسة معاوية بن ابي سفيان : في توزيعه الأموال بهدف كسبه ولاء بني هاشم واهل الحرمين وبني أمية أيضا بالاضافة لاستخدام السياسة والإعتذار اذا وجب لأنه كان يرى في استقامة الولاة والمقطعين استقامة الرعية. وكانت مناشيره بخصوص الإقطاعات تبدأ غالباً بذكر البسمله ثم الحمد لله تعالى ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأتي موضع المنشور "التوقيع"[5].

---

[1] ابن واصل : م.س، جـ2، ص 163-164.
حيث اورد نص بعض مناشير الإقطاع لاحد الأمراء في إربل جاء فيه : " ان الله لما مكن لنا في الارض، ووفقنا في اعزاز الحق واظهاره لاداء الفرض، رأينا ان نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فوضح سبيله.. فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضه واقتناء هذه الفضيله يحظى من عوارفنا الجزيله بحسن الضيعه، ومن اخلد إلى الارض واتبع هواه واعرض عن حق دينه باقباله على باطل دنياه فان تاب ورجع قبلنا، وان اصر على غوايته ازلنا يده وعزلناه".
[2] ابو شامه، م.س، جـ2، ص 124، وابن واصل، ن.م، جـ 2، ص 224.
[3] ابن العديم، زبدة الحلب، جـ 3، 123.
وقد جاء ذلك في وصيته لابنه الملك الظاهر بدمشق عام 588 هـ / 1192م، : " اوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير، وامرك بما امرك الله به، فان سبب نجاحك، واحذرك من الدماء والدخول فيها، والتقلد لها، فان الدم ينام، واوصيك بحفظ قلوب الرعيه والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت وما بلغت الا بمداراة الناس، ولا تحقد على احد، فان الموت لا يبقي على احد... ".
[4] البنداري : م س، جـ1، ص 298.
[5] وقد اورد ابن يحيى نموذجاً لتوقيعات : لجمال الدين حجي بن بحتر باقطاعه جبل بيروت وهو " الحمد لله وبه توثيقي"
بسم الله الرحمن الرحيم
وبإجراء الأمير جمال الدولة على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور لما وصل إلى الخدمة السلطانية... في العشر الآخر من جماد الاولى ثلاث وثمانين وخمسمائة ".
ابن يحيى : تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بني المغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت 1898م، ص 75-76.

وأما الديوان الذي كان ينظم هذه الإقطاعات بالنسبة لاجناد السلطان واجناد الأمراء فهو ديوان الجيش كما مرَّ معنا في فصل الادارة حيث كان يسجل اسماء المقطعين وإقطاعاتهم وجميع افراد الجيش دون استثناء كما كان من اختصاص هذا الديوان منح إقطاعات للجنود على ان يأخذ الجندي المقتطع الجديد لأول مرة دخل إقطاعه من تاريخ تعيينه فقط وليس من أول السنة الهلالية أو الخراجية كما يخصم عليهم مدة غيابهم بدون اذن شرعي[1].

ومما يؤخذ على سياسة صلاح الدين الأيوبي باسناد الوظائف المهمة لابنائه وأقربائه وخاصة ولاية البلدان وامارة قطعات الجيش مما يشبه الأنظمة الوراثية المحافظة اليوم مما يناقض اهدافه في المساواه والعداله والتقوى بين الناس[2]، ومما أدّى للصراع على الحكم بعد وفاته فكان يعين أبناءه واخوانه واقاربه الامر الذي ادى لضعف الدولة وسقوطها.

وبالنسبة للملكيّة في العصر الأيوبي:

فقد كانت ملكية الأراضي في العصر العباسي ثلاثة انواع وهي:

أراض الصوافي : ويملكها بيت المال، كما يتصرف بها الخليفة بطريقة الهبة أو الاستغلال أو الإقطاع.

وأراضي الخراج : أي الأراضي المفتوحة بالقوة العسكرية، ويدفع مستغلوها الخراج.

وأما النوع الثالث فكانت الأرضي الميتة التي تُسْتَصْلَح، وهي ملك لمن يشتغلها كأرضٍ عشرية فكانت هذه الارض هي البذرة الاولى للإقطاع الذي نما وتوسع بعد تسلّط الأعاجم على الخلافة العباسية، فأخذ السلاطين والأمراء يقطعون الأراضي للجيش مقابل شروط معينه.

وهكذا وجد نوعان من الإقطاع هما المدني والعسكري

فالإقطاع المدني: هو ان يقسم السلطان الأراضي الزراعيه اقساماً يحتفظ لنفسه بنسبه معينة ويمنح البقية لأمرائه، والشخص المقطع يستغلها لنفسه[3]، وكان السلطان يمنح اقليماً بكامله مقابل ضريبة محددة او يقطع جزءاً من الارض مقابل العشر أو الخراج[4]، أو توزيع قطعة من الأرض كأجر أو معاش[5].

---

[1] حسنين ربيع: النظم المالية، ص 38-39، 62-63.

[2] ولمعرفة المزيد من ذلك : انظر : ابن واصل، م.س، جـ 2، ص 20، 23، 35، وابن الاثير : الكامل جـ 2، ص 97، 98، 99، وابو شامه، م.س، الروضي،ن جـ 2، ص 226-227.

[3] مصطفى الدباغ بلادنا فلسطين – الجليل- بيروت 1972، جـ 5، قسم 2، ص 7.

[4] أنور الرفاعي : النظم الاسلامية – دار الفكر 1392 هـ / 1973م، ص 171-172.

[5] دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثاني، ص 476، مادة إقطاع. الماوردي: ابو الحسن علي بن محمد ت (450هـ / 1058)، الاحكام السلطانية، طبعة الجربونا 1853، ص 330-343.

واما الإقطاع العسكري: فهو الذي يمنح للأمير أو الجندي حسب رتبته العسكريه وبلائه في الحرب وذلك كمصدر دخل سنوي[1].

وكان السلطان يقطع الأمراء الجنود مقابل الخدمة العسكرية[2]، والمحافظة على الامن الداخلي والخارجي للسلطنة، فكان هناك ديوانٌ للجيش تصدر منه أوامر الإقطاع العسكري، وتوسع هذا الإقطاع منذ عهد المعتصم بالله (218-227 هـ / 833 - 842م)[3].

ثم زمن البويهين ايام معز الدين البويهي الذي انفرد بالسلطة مدة اربعين يوماً فاقطع قواده وجنده من الاتراك ضياع السلطان وضياع الفارين وغيرها. وكان له الحق في الغائها حسب ارادته[4]. ولكن الجند لم يقيدوا بشروط الإقطاع وتصرفوا حسب مصالحهم[5].

واستمر هذا الإقطاع بطابعه البويهي زمن السلاجقة الذين سيطروا على السلطة في بغداد بعد طردهم البويهيين سنة 447 هـ / 1050م مما ساهم في تخريب البلاد فحاول الوزير نظام الملك زمن السلطان ألب ارسلان 457 - 465 هـ / 1065-1072 م ان يدخل تعديلات فعمَّم الإقطاع الحربي في جميع ارجاء الدولة السلجوقية[6] حيث وزع أراضي الدولة على الجنود مقابل تقديم المُقَطَعُ له عدداً من الجنود للخدمة في الجيش السلطاني وحَرِصُوا على عدم تركيز الإقطاع في يد واحدة خوفاً من الاستقلال والثورة[7] وفي زمن آل زنكي في عهد السلطان نور الدين امر سنة 558 هـ/ 1163م بإبقاء الإقطاع بيد اولاد الجندي المتوفي فأدخل مبدأ الوراثة للإقطاع [8] وكانت

---

(1) الباز العريني : المماليك، بيروت 1967، ص 171.

(2) طرفان ابراهيم علي : م س - القاهرة - 388 هـ / 1968، ص 94.

(3) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن (ت 346هـ-957م)، التنبيه والإشراف، بيروت 1968، ص 345.

(4) مسكويه : ابو علي احمد بن محمد (ت 421 هـ / 1029م)، تجارب الأمم باعتناء آمد روز القاهرة-اكسفورد 1920-1921، جـ2، ص 97، جـ3، ص 169. أبو يوسف: كتاب الخراج، القاهرة 1392هـ/ 1972م، جـ2، ص 61-62. ابن عساكر: ابو القاسم ثقة الدين علي بن الحسن (ت 571هـ) تهذيب تاريخ دمشق الكبير هذبه ورتبه عبد القادر بدران، دار السيرة، بيروت 1979، جـ3، ص 356.

(5) مسكويه: ن.م، جـ2، ص 98-99. حيث عرف الإقطاع بقوله : " ان تكون لصاحبه ملكية تامه، وقد تكون وراثيه أيضاً وعلى صاحبها دفع العشر ويُعطى من الأرض الموات لإحيائها أو من أراضي من توفي صاحبها دون وارث، وكان الهدف من الإقطاع في صدر الاسلام التعمير والاسكان ويرجع لعهد رسول الله (ص).

(6) انظر : ابراهيم طرخان،ن م، ص 21-22، والباز العريني، ن م، ص 165.

(7) العريني : ن م، ص 166. المقريزي: الخطط جـ 1، ص 153-154.

(8) المقريزي: ن.م، جـ 3، ص 54، الباز العريني: ن.م، 1978، ص 166-167.

إقطاعات آل زنكي مقابل خدمات حربية أو أمنية تمنح لاستمالة بعض الأمراء المتنفذين من خارج دولته كما فعل نور الدين عندما استمال ملك الارمن ضد الفرنجه بمنحه إقطاعات كبيرة لموقعه الاستراتيجي بسيطرته على الطرق المؤدية للشام لمنع الفرنجه من المرور بأراضيه[1].

وكما فعل صلاح الدين الأيوبي ايضا سنة 585 هـ / 1189م مع صاحب شقيق ارنون الفرنجي[2].

وهكذا قامت الدولة النورية المتفرعة من الدولة السلجوقية على نظام إقطاعي حربي يسمح بالوراثة الإقطاعية احياناً، وقد تربّى في ظل هذا النظام أفراد البيت الأيوبي، حيث استطاع صلاح الدين بعد قضائه على الدولة الفاطمية التي حكمت اكثر من قرنين من الزمان ان يدخل تعديلات في النظام الإقطاعي[3]، وخاصة العسكري المرتبط بالجيش عماد دولته واعتمد صلاح الدين الأيوبي في سداد نفقات جيشه[4] على نظام الإقطاع العسكري الذي اخذه عن السلاجقة. ووزع إقطاعات الجند الفاطميين على عسكره، وبلغ عدد افراد قواته من الفرسان ستة الاف سنة 570 هـ/1174-1176م عند استيلائه على دمشق[5].

وعندما سار إلى حطين كان عدد افراد جيشه ما يقارب اثني عشر الفاً من الفرسان المشاه[6]. وهكذا سار صلاح الدين على نهج سيده نور الدين زنكي، وقسم أراضي دولته على ابنائه واهل بيته على اسس إقطاعيه[7] وسار على خطته اخوه ابو بكر الملك العادل حيث وزعها على ابنائه مما جعل مصر والشام كلها إقطاعات عسكريه[8] حيث اصبحت أراضي مصر كلها إقطاعات للسلطان وامرائه وجنوده، وبالقياس فان أراضي الشام اصبحت كلها إقطاعات.

---

(1) ابو شامه: م س جـ 1، ص 8، ص123-125.

(2) للمزيد من المعرفة انظر ابن شداد :الخطط: النوادر السلطانية، القاهرة 1964.

(3) المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ 1، ص 158.

(4) كان جيشه مكوناً من طائفتين الاسدية نسبه لاسد الدين شيركوه في حملته الثالثة على مصر سنة 564 هـ / 1166 م وعددهم حوالي خمسمائة فارس من الاكراد والمماليك، والصلاحية من المماليك الخاصة به بقيادة ابي الهيجاء بعد انسحاب التركمان من جيشه وعودتهم لبلاد الشام. انظر : ابن الاثير، م.س، جـ 11، ص 227 (دار صادر بيروت 1402 هـ / 1982م) والباز العريني : الأيوبيون - دار النهضة - بيروت 1386هـ / 1967م.

(5) ابو شامه : ن م، جـ 1، ص 217، ص 248,

(6) هاملتون جب : التاريخ الاسلامي - دمشق - ص 107-108. والعريني : ن م ص 163.

(7) ابن كثير : م.س، جـ 12 - دار الفكر 1978، جـ13، ص 6.

(8) المقريزي :الخطط جـ 1 ص 179، والسلوك جـ 1 ص 11، ص 48، ص 91، جـ 2 ص 82.

وفي سنة 582 هـ / 1186م أقطع صلاح الدين ابنه الافضل علي دمشق[1] كما استرد من اخيه العادل ابي بكر حلب مقابل إقطاعه حران وميافارقين[2]، وعلى ان يتنازل عن جميع إقطاعاته في الشام ما عدا البلقاء والكرك والشوبك والتي عوّضه عنها بالبلاد الشرقية[3] والجزيرة واطراف دجلة.

كما اقطع ابن اخته حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين نابلس بعد طرد الصليبيين منها في اعقاب معركة حطين الخالدة سنة 583هـ / 1187م [4] هذا وقد سار على نهجه اخوه الملك العادل وأبناؤه كما أقطع العزيز بن صلاح الدين للأمير فارس الدين ميمون القصري نابلس سنة 591 هـ / 1194م[5] وذلك لبلائه في الحرب.

كما وزع ابناء الملك العادل ابي بكر جميع إقطاعاتهم على امرائهم لكسب طاعتهم وولائهم للمحافظة على الامن الداخلي والخارجي للسلطنة. حيث وزع المعظم عيسى البلاد الشامية على مماليكه للصمود أمام الصراعات الداخلية[6].

ويلاحظ من ذلك أنهم كانوا يقطعون جميع العناصر التي تؤيدهم وتعمل على نصرتهم بغض النظر عن جنسيتهم أو أصولهم السكانية.

إدارة الإقطاع:

لقد تشدد الأيوبيون في نظام الإقطاع بوضعهم شروطا خاصة لحماية الفلاحين من ظلم اسيادهم الإقطاعيين تقرباً إلى الله[7]، فشجع هذا النظام الفلاحين على احتفاظهم بأراضيهم[8].

وهكذا نرى ازدواجية في الادارة الأيوبية حيث تمثل ذلك بوجود جهاز مركزي كبير في العاصمة وأجهزة إقطاعية محلية صغيرة في الأقاليم في آن واحد وقيام كل من هاتين الادارتين بشؤون الصرف المالي[9].

---

(1) المقريزي : السلوك جـ 2، ص 82، وأبو المحاسن، م.س، جـ6، ص 113.

(2) ابراهيم طرخان : م. س، ص 38.

(3) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت – تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي – وكمال سليمان الصليبي ورفاقه، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية – بيروت ص 80 بدون تاريخ.

(4) المقريزي : السلوك جـ 1، ص 152.

(5) طرخان : م.س، ص 43.

(6) طرخان : ن.م، ص 44.

(7) انظر رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين : في كتاب الروضتين جـ 2، ص 205.

(8) حسنين محمد ربيع – النظم المالية – جامعة القاهرة 1964، ص 34، 80.

(9) ن.م، ص 80.

وكان مركز توزيع الإقطاعات هو ديوان الإقطاع " ديوان الجيش" للجميع[1]. وكانت سجلات هذا الديوان التي تثبت فيها اصحاب الإقطاعات وجميع افراد الجيش تُسمى " الجرائد الجيشيه"[2] حيث السنين القمرية[3] كما قام ديوان الجند بالصرف على القلاع الحربية والقوات البرية بينما اختص ديوان الاسطول بالصرف على القوات البحرية.

وهكذا استطاع الأيوبيون ترسيخ النظام الإقطاعي العسكري الذي ورثة المماليك والعثمانيون عنهم فيما بعد.

والذي اصبح من موارد الدولة المالية وذلك باجبار المقطع ان يدفع جزءاً من غلته نقداً بما يعادل 2-3 دراهم عن كل اردب حيث كان متوسط خراج الطرف من 2-3 اردب أي درهماً واحداً عن كل اردب[4] الذي يساوي اليوم 198 لتراً[5].

ومن الرسوم المقررة على الفلاحين ايضاً المساهمة في ميزانية الدولة[6] رسم الأوقاف 'الأحباس'، رسم الجراريف 'لإصلاح الجسور'، ورسوم الأجران[7] , ورسم الحراسة والمراعي والكيالة، والأتبان.

ويحق للمقطع التصرف بايرادات إقطاعه الا اذا نصّ المرسوم على ذلك[8]. وكما حدد له عدد الجنود الذي يجب اصطحابهم معه إلى الحرب حسب دخله[9]. فاذا أخل بهذه الشروط حرم من إقطاعه[10].

---

(1) ابن الفرات : ناصر الدين بن محمد بن عبد الرحيم (ت 807 هـ / 1404م). تاريخ الدول والملوك أو تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور حسن محمد السماع 1386 هـ / 1963م،البصرة، العراق، مجلد 4، جـ 1، ص 147.

(2) حسنين محمد ربيع م.س ص 62-63.

(3) النويري : م.س، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – وزارة الثقافة والارشاد القومي – المؤسسة المصريةالعامة للتأليف والترجمة والطباعة جـ 8 – ص 200-203.

(4) انظر : طرخان : م.س، ص 149، وحسنين محمد ربيع م.س ص 33.

(5) المقريزي : شذور العقود، مطبعة النجف 1967، ص 108.

(6) الباز العريني : الأيوبيون ص 197.

(7) الاجران : البيادر : وهي الأراضي التي يدرس عليها القمح والحبوب ومازالت حتى اليوم.

(8) الباز العريني : ن.م، ص 157.

(9) حسنين محمد ربيع، م.س ص 35، الدوري، عبد العزيز: نشأت الإقطاع في المجتمعات الاسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 20 لعام 1970.

(10) المقريزي : السلوك جـ 1 ص 64-65، العماد الاصفهاني : الفتح القسّي، ص 351-353، حيث اشاروا إلى سحب صلاح الدين إقطاعات الأمراء الهاربين أثناء هزيمتهم أمام عكا عام 573 هـ / 1175م، وهزيمتهم في موقعة الرملة سنة 587 هـ/ 1191م.

أما من حيث أساليب التوقيعات الإقطاعية الأيوبية فقد نصت على اتباع العدل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والابتعاد عن الرشوة وحسن إدارته الإقطاعية وعلى المحبة والتفاهم مع سادتهم[1] وعلى حسن الجوار. واما التوقيعات للأمراء الكبار فكانت تبدأ بـ " الحمد الله" [2]. بينما كانت عبارة " أما بعد" البداية توقيعات الأمراء الصغار[3].

وبالنسبة لتوقيعات العناصر الممتازة في الجيش فكانت تبدأ بعبارات المديح : القلم والريح قلمان..... أيها الأمير فلان أيدك الله[4].

وبالنسبة لاثر النظام الإقطاعي العسكري على الاقتصاد الأيوبي في بلاد الشام فقد لوحظ أنه شجع على ازدهار الاقتصاد لاهتمام الفلاحين بأراضيهم بعد حماية صلاح الدين للفلاحين من ظلم سادتهم عندما حرم المقطعين من اية حقوق ادارية أو سياسية على عمال الأراضي المقطعة[5].

وكان القمح المحصول الرئيسي للزراعة الشامية، إلى جانب زراعة الفواكة والقطن والقصب الذي كانت تحتكره الدولة كمورد نقدي ولاهتمامهم بنظام الري واستخدام الاسمدة والالات المناسبة وخاصة زمن الملك المعظم عيسى بن العادل الاول في الكرك التي اصبحت تضاهي دمشق بكثرة بساتينها وخضرتها وتدفق مياهها وطيب هوائها[6]، وكانت الحروب الأهلية تؤثر على الانتاج الزراعي.

اما من حيث آثار الإقطاع على الصناعة والتجارة فلم تكن واضحة حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية لاهتمامهم أهل الشام بتربية دودة القز وكذلك القطنية في المدن الشامية والتي كانت خاضعة لاشراف الدولة عن طريق المحتسب الذي منع الغش والاحتكار كما ازدهرت التجارة بعد توحيد مصر والشام وتأمين الطرق التجارية وخاصة عصر السلطان العادل 597-615هـ/1201-1218م وعصر ابن الكامل:من سنة 615 هـ -635هـ / 1218-1238م. فكانت ازهى عصور الأيوبيين بعد صلاح الدين[7].

(1) القلقشندي: صبح الاعشى جـ 11، ص 33-34، جـ 13، ص 144-148.

(2) القلقشندي: صبح الاعشى جـ 13، ص 144-148.

(3) ن.م جـ 13 ص 148-150.

(4) القلقشندي: ن. م، جـ 13، ص 150-152، ابراهيم طرخان : م.س، ص 391 - 392-393.

(5) احمد صادق سعد : تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، بيروت 1979م، ص 457.

(6) غوانمة : امارة الكرك الأيوبية – الناشر : بلدية الكرك 1400 هـ/ 1980م. ص 181.

(7) حسنين محمد ربيع : م.س ص 19.

وهكذا يلاحظ على الإقطاع الأيوبي أنه كان يمثل جزءاً من ممارسة إداريه أقدم عليها سلاطينهم وملوكهم الذين عينوا فيها الأمراء والولاه والوزراء والقضاة والجند وغيرهم من الموظفين الذين تقاضوا رواتبهم عن طريق توزيع الإقطاع المعادل للراتب النقدي[1] شأنه شأن الإقطاع السلجوقي وإقطاع الأراتقة والأتابكه والاتابلة والخوارزميين سابقاً الذي وزع على أمراء الاسرة المالكه وكبار الموظفين كالولاة والشحن وقادة الجيش مع بقاء هذه الإقطاعات في وحدة اقليمية[2]، وكان على المقطع له ان يأخذ نصيبيه منها وارسال الباقي إلى خزينة الدولة ليتم انفاقها على تعمير البلاد وايجاد شيء من اللامركزية لضبط امور الدولة، حيث نستطيع تسمية هذا النوع من الإقطاع " بالإقطاع الاداري"[3].

أما الإقطاع الحربي "العسكري" فقد اقترن بما يؤديه المقطع من خدمات حربية وخضع لسيطرة الحكومة المركزية فلم يكن وراثياً ومن النادر ان يكون مدى الحياة، واهتمت الادراة الأيوبية بتسجيل ما يقدمها لمقطع من الفرسان في خدمته[4].

وقد لوحظ على التوزيع الإقطاعي بانه سار على نموذج السلاجقة والزنكيين وعالج مشكلة الجند المقيمين في المدن والذين يديرون إقطاعاتهم بالوكلاء عنهم، فاصبح الفلاحون والمزارعون تابعين للجند الذين يزودونهم بالمال للانفاق على زراعة الارض[5].

---

(1) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، مجلد 1، ص 301.

(2) ابراهيم طرخان : النظم الإقطاعية، ص 11-47، والعريني : الشرق الادنى ص 192.

(3) العريني: ن.م، ن ص.

(4) ن. م.، ن ص وابن واصل : مفرج الكروب جـ 2، ص 175، حيث ذكر حالة نادرة على ان صلاح الدين الأيوبي اقطع لاولاد لأسد الدين شيركوه حمص وبلادها إلى ان هاجما المغول عام 658هـ / 1260م.

(5) ابراهيم طرخان: ن.م، ص 32.

كما كان على الأمير الأيوبي المقطع أن يكرس ثلثي وارده من الإقطاع لخدمة الفرسان المحاربين وقت المعارك والثلث الباقي لنفقاته الشخصية[1].

كما لوحظ أيضاً على حق المقطع " بالكسر" في استرداد إقطاعه من المُقطع " بالفتح" في الحالات التالية :

- اذا ساء " المقطَعُ " بالفتح " معاملة الرعية كما حدث عام 578 هـ 1181م، عندما اشتكى أهل نصيبين من سيرة ابي الهيجاء السمين والي صلاح الدين فعزله[2].
- وعند وفاة المقطَع " بالفتح" يعود الإقطاع للسلطان كما حدث عام 574هـ/ 1178م[3].

---

[1] ابن واصل م. س، جـ 3، ص 240.

[2] ن. م جـ 2، ص 124.

[3] ن. م جـ 2، ص 70، بعد وفاة صاحب حماة شهاب الدين الحارمي.

- وعند خوف " المقطع " بالكسر " على خروج الإقطاع من يده فقد استرجع الملك الظاهر صاحب حلب "قلعة نجم" بعدما اقطعها لاخيه الأفضل خوفاً من أخذ الملك العادل لها[1]، فكلما كان يشعر المقطع " بالكسر " بعدم ولاء المقطع "بالفتح" أمر بعزله وضم إقطاعه الى أملاكه كما حدث عام 629هـ/ 1289م.

كما يلاحظ استخدام الإقطاع وسيلة للدفاع عن الوطن عندما قرر سلاطين الأيوبين ابتداء من صلاح الدين الأيوبي ثم المعظم عيسى ثم الكامل محمد ثم الصالح أيوب إقطاع الساحل الشامي لمماليكهم مقابل حماية الساحل الشامي من غارات الصليبين ومواجهة كياناتهم المجزأة في الشام.

وعلى العموم فقد حولوا أراضي الإقطاع إلى أراضي انتفاع أي أن تبقى ملكية الأرض للدولة وللمقتطَع " بالفتح " حق الاستغلال فقط[2].

ومن امثلة الدفاع والمحافظة على الاستقرار إقطاع الملك العادل ابو بكر بن ايوب جبل عوف " جبل عجلون" لعز الدين أسامة، فبنى عليه قلعة الربض الحصينة خوفاً من أهلها الثائرين والمتمردين بعد سحق مشايخ بني عوف فبدأ باكمال البناء، هذا وقد بناها مكان دير لراهب اسمه عجلون فسميت باسمه[3] وأما قلعة الصلت فقد بناها الملك المعظم عيسى بن العادل[4] للتصدي لثورة قبائل المنطقة المتمردة حول مدينة الصلت في البلقاء.

هذا ويمكننا القول بان الادارة الأيوبية استطاعت استيعاب جميع نظم المنطقة المعمول بها قبلهم أو المعاصرة لهم كما استطاعوا تعديل بعضها بما يلائم ظروفهم السياسية، وتميزت بدقة التنظيم والادارة والابداع في العمل[5].

---

(1) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ورقة 264. ابن واصل: ن.م، مجلد2، ورقة 891-893، مخطوط، ذكر مصادر الملك العزيز لقلعة شيزر من صاحبها شهاب الدين يوسف التي كانت من اقطاعاته لأنه لم يستقبله استقبالاً يليق بمقامه.

(2) انظر : زكي المنذري : التكملية لوفيات النقلة، تحقيق بشار معروف، مطبعة الاداب في النجف الأشرف 1388هـ / 1968م، جـ 1، ص 189. وللمزيد من المعرفة انظر المخزومي (ت 585هـ / 1189م) : المنهاج في صناعة خراج مصر.

(3) العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ص 188، وابن شداد :ن م، جـ 2 ص 82-91، وخليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص 156.

(4) وكان سبب بناؤها ان بني رحمان من قرية كفر يهود اعتدوا على قافلة له وسبوا جواريه فبناها على قمة جبل يُعرف براس الأمير. ابن شداد :ن.م، جـ 2 ص 83-85. والظاهري ن. م ص 156.

(5) ابن الأثير : الكامل جـ 12، ص 164.

الأوقاف الأيوبية :

كانت نوعاً اخر من ملكية الأرضي لأغراض دينية وانسانية للمساجد والبيمارستانات والمدارس والجسور والقنوات والينابيع والخانات أو فك رقاب الاسرى والعبيد أو للمجاهدين[1].

وقد شاركت النساء الخواتين بالأوقاف بالانفاق على المساجد والمدارس والرباطات[2].

وقد سمي الديوان الذي يشرف على الوقف ديوان البر (الأحباس)[3].

(1) ابن جبير: م.س، ص 193، وابن بطوطه، م.س، دار التحرير 1386 / 1966م. ويذكر العماد الاصفهاني ما اوقفه صلاح الدين على امام جامع قبة الصخرة في بيت المقدس داراً وارضاً وبستاناً، العماد الاصفهاني :الفتح القسيّ ص 141-142.

(2) محمد ياسين الحموري :دمشق في العصر الأيوبي - المطبعة الهاشمية - دمشق - بدون تاريخ، ص52-53.

(3) كلود كاهن: تاريخ الشعوب الاسلامية من ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية المجلد الاول، ترجمة بدر الدين القاسمي ط1، بيروت 1972، ص 179-180.

الإقطاع المملوكي :

لقد كان الإقطاع العسكري النظام الأساسي لدولة المماليك البحرية حيث أقطع سلاطينهم الفرسان والضباط والجنود إقطاعات تتناسب مع رتبهم. فتكونت بذلك طبقة عسكرية حاكمه هي الفئة المقطعة، بينما يعمل بقية افراد الشعب في إقطاعاتهم... لتقدم الفائض من الحاصلات للمقطِعين.

ويلاحظ على هذه الإقطاعات أنها كانت تُمنح من قبل السلاطين لأمراء الجيش مكافأة لهم على نشاطهم العسكري في معاركهم مع المغول والصليبيين كما فعل الظاهر بيبرس عندما وزع واردت قيسارية وأرسوف على الساحل الفلسطيني على الذين ابلوا بلاء حسناً ضد الفرنجه بعد طردهم منها.

وقد تفاوتت الإقطاعات من أمير لأخر حسب أهميته حيث أقْطِع البعض قرية بكاملها أو أن تكون القرية مناصفة بين أميرين وأحيانا يقطع ثلاثة أو أربعة أمراء قرية واحدة[1].

واستمرت الدولة في الاستقرار في عهد قلاوون وابنه خليل والناصر الذي تقرب للناس باعفائهم من الضرائب التي كان يتهربون منها عام 702هـ/ 1300م[2] وبناء المساجد في معظم القرى.

كما كان الاقطاع في العرف المملوكي - وفي عرف جميع الدول الاسلامية - امراً شخصياً لا دخل لحقوق الملكية والوراثة فيه، فكان المقطَعُ يِحَلّ في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وايراداته، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق علهيا، أوبسبب وفاة المقطع اذا كان الإقطاع لمدى الحياة، او بسبب اخلال المقطع بشروط العقد القائم.

وكان هناك إقطاع آخر هو الإقطاع العادي او إقطاع الاستغلال، وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة[3].

ويلاحظ من هذه الصفة الشخصية للإقطاع الاسلامي بانه مشابه للإقطاع الاوربي في أوائل القرون الوسطى - أي حتى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تقريباً حيث كان الإقطاع هناك

---

(1) المقريزي : السلوك جـ 1 ص 530-534.

(2) ن.م، ن.ص، والقلقشندي : صبح الاعشى جـ 3، ص 28-30، وانظر المقريزي ن. م. جـ 2، ص 937-941.

(3) القلقشندي، ن م، جـ 13، ص 104-117.

هبة من الملك لأتباعه وليس هناك قواعد وقوانين تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشيئة الملك، ثم تطور بعد هذا التاريخ، فصار هناك عقد محدد بين الملك والمقطَعُ، وكان الابن يخلف اباه كوارث علماً بانه لم يكن هذا من شروط العقد الإقطاعي في اوربا[1].

لذا يمكن القول بان الإقطاع زمن المماليك في هذه الفترة المعاصرة لهم كان مختلفاً في صميمه عن الإقطاع الاوربي حيث استخدم بعض السلاطين الاقطاع لكسب القلوب والولاء[2].

الإقطاع المملوكي ومميزاته :

كما تعتبر النظم الإقطاعية المملوكية تنظيمات ادارية وسياسية واقتصادية واجتماعية وحربية ودينيه وقد اختلف هذا النظام عما كان في غرب اوربا من حيث الاهداف والتنظيم فبينما ادت الحروب الصليبية التي قامت على قوة الإقطاعيين إلى اضعاف الإقطاعيين في اوروبا والتمهيد للملكيه "Royalisn" ساعدت هذه الحروب علىتقوية هذا النظام في الاسلام[3] وأدت إلى نشوء الامبراطوية المملوكية الإقطاعية التي قامت على التصدي للاخطار المحيطة بالعالم الاسلامي من مغول وبيزنطين وصليبيين. فقد وزع المماليك على امرائهم واجنادهم بعد هزيمة المغول عام 1260/658م في عين جالوت وبعد انتصارهم على الصليبيين بالشام عام 660هـ/ 1262م أراضي من جنوب الشام وساحل فلسطين كإقطاعات على امرائهم وجنودهم والفرسان[4]. كما مر معنا سابقاً في فصل الادارة، فكتب الظاهر بيبرس ستاً وخمسين منشوراً من الاقطاع كما وزع أكثر من ثلاثمائة منشور إقطاعي على أصحابها بعد فتح الكرك للعربان والأجناد[5].

(1) المقريزي، ن.م، جـ 2، ص 509.

(2) كما فعل الظاهر بيبرس بابقاء إقطاع الأمير شجاع الدين والي سرمين (من اعمال حلب بعد اسر الفرنج له بيد اخوته وغلمانه استجلاباً للقلوب، ياقوت، معجم البلدان، جـ 3، ص 903.

وكذلك فعل قبله نور الدين محمود بن زنكي حيث انه " اذا مات الجندي اعطى السلطان إقطاعه لولده، فان كان صغيرا عين من يلي امره حتى يكبر، فكان اجناده يقولون : الإقطاعات من املاكنا يرثها اولادنا الولد من الولد ؛ فنحن نقاتل عليها، المقريزي: المواعظ، جـ 2، ص216. وجـ 1، ص 95-98، القلنشدي/ م.س، جـ4، ص 50-51.

(3) لقد اعتبر فقهاء المسلمين البلاد المفتوحة عنوة و لم يسلم اهلها ارض خراجية كارض السواد بالعراق وارض الشام منذ زمن عمر بن الخطاب ويصبح إقطاعها للفاتحين وكل ارض صولح اهلها عليها و لم يسلموا فهي كذلك ارض حرابه وتظل بايدي اصحابها وان اسلموا فهي عشرية وإقطاعتها في هذه الحالة إقطاع إرفاق أو استقلال. أبو يوسف : الخراج، ص 32،33، الماوردي : الاحكام السلطانية ص 185-187.

(4) المقريزي : السلوك جـ1، ص 433، و جـ 2 ص 490-491.

(5) أبو الفداء : البداية والنهاية جـ 13، ص 238، المقريزي م. س، جـ2، ص 462، 417-418. كماكتب بيبرس لاهل الكرك بهذه المناسبة " تواقيع "بتناصب دينية وديوانية. وانظر: الماوردي: م.س، ص 185.

كما منح بيبرس القادة الفاتحين للأرض واعتبرهم مالكين " لرقبة الارض" والتصرف بها بحرية على غير المتبع في التوزيع الإقطاعي العام القائم على الاستغلال الشخصي " الموقوت " فسمى هذا إقطاع التمليك كا حدث بعد فتح قساريه في فلسطين وحفظت الاوزان عند الدوادار(1).

أما الارض البور المستصلحه فكان اسمها " زايد فانون"(3) أي الزائدة أو الخارجة عن المساحة الاصلية، واستخدمت كلمة " قانون " لتدل على المساحة(3).

وكان السلطان يقطعها كغيرها من الأرضي كما حدث زمن الناصر محمد بن قلاوون ومن دراستنا للإقطاع المملوكي نستطيع ايجاز الاسباب العامة للتوزيع الإقطاعي كالتالي :

- تولي سلطان جديد السلطة فيوزع الإقطاعات لكسب الولاء لتدعيم عرشه(4).
- او منح المتخلي عن العرش المعزول إقطاعات لارضائه(5).
- عند حدوث الفتن والثورات المضادة يقوم السلطان بحركة تطهير إداري حيث يلجأ إلى حركة توزيع ومناقلات إقطاعية.
- كما كان السلطان يقوم بعرض الجيش(6) في وقت مفاجئ للجميع ليكتشف المخلص من الكسلان والعاجز والمشكوك في ولائه فيبعدهم. كما كان يعرض الجيش عندما يكون بحاجة إلى المال لتمويله وقت الحروب او عند رغبته في الانتقام من بعض منافسيه لذا حدث في مثل هذه الحالات الاعتداء علىالأوقاف رميه بالحل والإقطاع.
- كما وزع الأراضي البور المستصلحه والأراضي المفتوحة عنوة، ومن هذا النوع ما كان تمليكاً.

(1) سيف الدين الرومي : والدوادار حامل الدواة ويعين فيها أمير عشره او أمير مائة : العمري : مسالك الابصار جـ 2، ورقة 399، أبو المحاسن: م.س، جـ7 ص 185، والقلقشندي: م.س، جـ 13، ص 319.

(3) المقريزي : السلوك : جـ 2 ص 231 حاشية 2.

(3) ابن الجيعان التحفة السنية : ص 24، 27، 174.

(4) كما فعل بيبرس عام 659هـ / 260 عندما قتل قطز :ابن تعزي: م.س، جـ 7، ص 231..

(5) عندما تنازل السلطان الناصر محمد عام 708 هـ / 1310م لبيبرس الجاشتنكير فاقطع الناصر الكرك وإقطاعات مائة فارس وهي أرقى مرتبة في الجيش المملوكي. المقريزي : السلوك جـ 2، ص 470، ابو الفداء: م.س، جـ 3، ص 56-57.

وانظر ابن اياس: م.س، جـ 1 ص 133، ذكر تولية السلطان شعبان السلطنة عام 764هـ / 1366م حيث فرق الإقطاعات على طائفة من المماليك وجعل منهم أمراء طبلخاناه وأمراء عشرات بالاضافة للخلع وأمير الطبلخاناه، هو أمير اربعين في الجيش المملوكي : أي له الحق بشراء اربعين مملوكا ويعطي إقطاعاً مناسبا لهذا العدد ومن حقه ان يدق على بابه بطبل أما أمير العشرة فليس من حقه ذلك، ابن اياس : بدائع الزهور جـ 1، ص 274 وما بعدها.

(6) كما فعل الناصر محمد بن قلاوون عام 741 هـ / 1340م، المقريزي السلوك جـ 2، ص 518، حاشية 3، جـ 2، ص 517، حاشية 7.

وأما الأسباب الثانوية لتوزيع الإقطاعات فكانت للاجئين السياسيين الوافدين من الخارج من أصحاب السلطة[1] المعزولين والهاربين لتوفير الحياة الملائمة لهم وذلك من باب النخوه والشهامة والكرم.

وكان بعض السلاطين يرد على الهدايا بإقطاعات اذا أُعجب بالهدية او يمنح الإقطاعات مقابل المال بمايشبه بيعها عند حاجته للمال[2]. او يمنح الإقطاعات تبعاً لبعض هواياته الخاصة بتربية الخيول وركوبها[3].

كما خضعت المراعي " الكلأ المباح" للتوزيع الإقطاعي عند المماليك، حيث أصبح الأمير المقطَع يشرف على استغلالها لحسابه باعتبارها جزءاً من إقطاعه[4].

وبالنسبة لإقطاع المعادن فقد اقطعها المماليك وضمنوها وفرضوا علهيا المكوس فهناك ضمان الاطرون " مكس الاطرون"[5] وهو معدن.

وضمان الملح " مكسر الملح " وضمان معدن " الشب"[6] وكانت قاعدة استغلال هذه المعادن مقابل مبلغ يدفع للسلطان كما كان بعض السلاطين يحتكرونها لمصلحتهم.

---

(1) كما فعل بيبرس عام 659 هـ / 1261م، عندما أقطع اولاد أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ عند دخول التتار بلادهم، ابو الفداء :م.س، جـ2، ص 223.

(2) كما فعل السلطان الكامل شعبان عام 747 هـ / 1349م ن. م، ن ص.

(3) حيث أقطع الناصر محمد بن قلاوون عرب آل فضل وآل منها الإقطاعات بحلب وحماه لامداده بالخيول الممتازه (المقريزي: السلوك، ج2، ص 526-527، ص 528-529 و 842-843).

(4) المقريزي : الخطط، جـ 1 ص 173.

بينما تُشير ابن اياس بجواز إقطاع الارض الموات الخالية من الكلأ والعبث اما الأراضي المغطاه بها فلا يجوز لانها من الحمى المنهي عنه في حديث الرسول الكريم : " لا حمى الا لله ورسوله " وقوله صلى الله عليه وسلم "المسلمون شركاء في ثلاثة :الماء والنار والكلأ..." ابن عبد الظاهر :الروض الزاهر : جـ 1 ص 249. انظر : الماوردي: م.س، ص 176-178. وابو يوسف : م.س، ص 258-260.

وبالنسبة لإقطاع المماليك للأرضي العامرة فكان إقطاع استغلال للارض وما بها من كلأ فينتفع به بدون بيعه لانها من جملة اموال بيت المال الذي يسمح به السلطان للمقتطع من استغلالها.

ابراهيم طرخان : النظم الإقطاعية في دولة المماليك الاولى والثانية، جامعة القاهرة دكتوراه رقم 180 رقم التصنيف 962/020 ص 20.

(5) "الأطرون " او النطرون : معدن احمر واخضر، ن.م، ن.ص.

(6) الشب حجر مفيد في صبغ الاحمر. المقريزي : الخطط، جـ 1، ص 176-177.

ولمعرفة المزيد عن ضمان المعادن، انظر: الماوردي:م س، ص 187-188، والمقريزي: الخطط جـ 1، ص 155، 167 وابن مماتي:م س، ص328-329، وابن تغري :م.س، جـ 2، ص 62، وابن اياس، م.س، جـ 2 ص 123 و جـ 3 ص 290.

وبالنسبة للقاعدة العامة في التوزيع الإقطاعي فكانت وحدتها " القيراط، اذ قسم اخراج مصر إلى اربع وعشرين قيراطاً[1]، كان للسلطان منها اربعة قراريط للرواتب وتكاليف نفقاته، وعشرة قراريط للأمراء، والعشرة الباقية للاجناد.

وبالنسبة لنوعية الأرض المقطعة فكانت ثلاثة اقسام من حيث الجوده " الخصوبة، والري ووفرة الانتاج". لذا اختص السلطان نفسه وكبار امرائه باجودها وقد سمى القلقشندي هذا النوع من الأرضي بـ " الأرضي النفيسه"[2].

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ص 841، حاشية 3.

(2) كما حصل عندما اقطع قطز للأمير بيبرس عام 657 هـ / 1259م، ليرسله لحرب التتار، انظر التفاصيل في : المقريزي، السلوك جـ1، ص 420، وابن تغري بردى: م.س، جـ 7، ص 101.

ملكية الأراضي في النظام الإقطاعي:

هذا وقد ساد في بلاد الشام نظام الإقطاع في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية وساهم المماليك في تطويره لصالح الطبقة العسكرية الحاكمة.

وتعود جذور الإقطاع العسكري إلى ايام السلاجقة وآل زنكي،حيث كانت الإقطاعات للجنود والأمراء بدلا من الرواتب الشهرية مقابل خدمتهم العسكرية[1] وأماالإقطاعالمملوكي فلم يكن وراثيا وكان المقصود به مايتحصل من الارض من غله او مال او مكوس مفروض علىانتاجية إقطاعات اخرى[2].

فالإقطاع العسكر: كان القاعدة العامة لادارة أراضي بلاد الشام، أن تصدر أوامره من السلطان مباشرة بعد تكليفه للقاضي والفقهاء والائمة ووكيل بيت المال بالتحقق من الارض والضياع، وبعدرفع الامر للسلطان يكتب بتوقيعه منح الإقطاع بمثال أو مربعة، بحيث يوقع عليه الوزير والخزندار وديوان الحبس، وتسلم وثائق المنح للدوادارية لتفرقها على اصحابها[3].

هذا فقد قسمت الدولة المملوكية الإقطاع إلى ثلاثة أنواع :

أولاً : إقطاع التمليك : وينقسم أيضاً إلى ثلاثة أقسام هي :

موات، وعامر، ومعادن، : ولصاحب الإقطاع حق الملكية التامة مقابل دفعه العشر، وقد تكون الملكية وراثية[4].

ثانياً : إقطاع الاستغلال : وينقسم إلى قسمين إقطاع خراج، وإقطاع عشر واعتبرها السلاطين أرزاق للأجناد.

فإقطاع الخراج : يستغله الاجناد مقابل دفع الخراج.

---

(1) الأسدي: التيسير والاعتبار، ص 183-184، والمقريزي : الخطط، جـ 1 ص 176-177.

وللمزيد : انظر: Ziadeh : Nicola " Urban life in Syria Under the Early Momluks " Greenwood Press, Beirut, 1953 p. 42.

(2) الاسدي : ن.م، ص 72، ابن فضل الله العمري : المسالك والممالك، تحقيق ايمن فؤاد ص 49، Ziadeh , op, cit, p. 40

(3) ابن شداد الاعلاق، جـ 3، ص 1242. المقريزي: السلوك، جـ 1 ق2، ص 530، جـ3 ق2، ص 889.

(4) الماوردي : م.س، ص 239، المقريزي، الخطط، جـ 1 صص 179-180.

وإقطاع العشر : فهي زكاة الاصناف، والاصل فيها عدم جواز إقطاعها[1].

ثالثاً : إقطاع الأوقاف : وهو قسمان : القسم الخاص بالمعادن تحت سطح الارض والتي لا يمكن الحصول عليها الا بالجهد والعمل الدؤوب.

والقسم الثاني: يتعلق بالشوارع والطرق والاسواق، والرحاب بين العمائر على من تلحق ضررا بالمارة[1].

وتميز النظام الإقطاعي المملوكي بان تكون إقطاعات الأمراء موزعة في عدة مناطق على انها إقطاعات خدمة وليست املاكاً[2] مع عدم السماح للإقطاعي بزيادة نفوذه في المنطقة المقطعة اليه، كما فرض على الأمراء المقيمين في مصر ولهم إقطاعات في بلاد الشام السفر والاقامة فيها كإقطاعات فلسطين وسوريا عام 713هـ / 1313م[3].

أي بعد "الروك الناصري" إذ كانت الإقطاعات بعيده عن المقاطعة التي يخدم فيها الأمير والفرسان[4].

ومقابل منح الإقطاعات من قبل السلاطين فقد كان للسلطان إعفاؤهم بسبب العجز عن الخدمة او المرض، او لكبر السن. أو عندما يطلب المقطع اعفاءه حيث يعين له مرتباً ثابتاً أو يقطعه إقطاعاً صغيراً يساعده على باقي حياته كما حدث زمن الظاهر بيبرس عام 705هـ/1307م مع الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح الصالحي النجمي لكبر سنه ومرضه[5].

ثم تجري عملية حسابية باسم " تفاوت الإقطاعات بعد انحلال الإقطاع بالعزل أو الموت او الانتقال.

ويقوم ديوان الجيش بعملية تصفيه حسابية شاملة لنهاية الخدمة[6] لمعرفة مبلغ ما استولى عليه المنتفع من الضرائب والحقوق والمقررات حسب السنوات الميلادية وكانوا احيانا يطلبون السماح من السلطان حتى لا يطالب اهلهم وكان السلطان يسامحهم[7].

(1) الفراء : محمد بن حسين الحيلي، الاحكام السلطانيه، تصحيح محمد القيضي، ط2، القاهر 1966، ص 227-228، والقلقشندي: صبح الاعشى، جـ 13، ص 117.

(1) ابن جماعة :تحرير الاحكام، ص 15-116. والمظفر : احياء الأرضي الموات، دار الكتب، بغداد، 1972، ص 273.

(2) بولياك : أ. ن، م.س، ص 163.

(3) ابن الصيرفي : نزهة النفوس، جـ 1، ص 302.

(4) انظر صالح بن يحيى : تاريخ بيروت لمعرفة المزيد عن هذه الإقطاعات.

(5) ابو الفداء : المختصر، جـ 4، ص 52، المقريزي : السلوك، جـ 2، ق1، ص 19-20. جـ2، ق3، ص 619، والصفدي : م س، ج15، ص 188-189.

(6) المقريزي :ن م، جـ 2، ق1، ص 19, حاشية1.

(7) ن.م، جـ2، ق1، ص19-20.

وفـي أحيـان أخـرى الـزم ابنـاء الإقطـاعي بدفــع هــذا التفـاوت الإقطــاعي، كمــاحصل عــام 743هـ/1342م بالزام أولاد الأمير ايدغمش الناصري على دفع تفـاوت الإقطاعـات ممـا اضطرهـم لبيع الكثير من ممتلكاتهم لدفع ذلك.

هذا وكان الجيش المملوكي يتكون من ثلاث فرق هي :

أجناد الحلقة[1] وفرقـة المممـاليك السلطانية[2]، وفرقـة أجنـاد الأمـراء[3]، وكـانت فرقـة أجنـاد الحلقة أكثرها حظاً في حيازة الإقطاع لانها كانت عماد وقلب الجيش المملوكي في بلاد الشام[4].

---

(1) أجناد الحلقة : لقد كانت جيوش الأيوبين النظاميه مكونة من ثلاث فئات من الغرائب والاجـانب وكلهـا مـن الارقـاء الذيـن اشـتروهم مـن أسواق النخاسه بالقوقاز وآسيا الصغرى " تركيا" وشواطئ البحر الاسود. اما في زمن الدولةالمملوكية : فكانوا محترفي الجنديـه النظاميـه مـن مماليك السلاطين السابقين واولادهم ومرتباتها من ديوان الجيش: التعليي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، 1983، ص 615.

(2)المماليك السلطانية : هم مماليك السلاطين السابقين الذين يضمهم السلطان الجديد إلى مماليكه وكانوا شأنهم عظيمـا. ومقربـين مـن السـلطان حيث يؤمر منهم الأمراء بمختلف رتبهم، وكانوا يسجلون في الديوان ويـوزع عليهـم الإقطـاع وكـان يرأسـهم مقدمـوا المـماليك السـلطانية وتزايد عددهم زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وكانوا اصحاب جوامـك "راتـب " مـن السـلطان. البقلي : م س، ص 33، واصحـاب الجوامك: هم اصحاب الرواتب والمخصصات من الارزاق ويقال لهم ايضا بأرباب النقود والمكاييل. المقريزي : السلوك جـ1، ص 13.

(3) أجناد الأمراء : وهم مماليك الأمراء فكانوا تابعين لأساتذتهم في إقطاعاتهم،وللمزيد من المعرفة انظر : طرخان، ابراهيم : مصر في عصر دولة المماليك الجاركسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960.

(4) طرخان : النظم الإقطاعية ص148، والطراونة : طه ثلجي : مملكة صفد في عهد المماليك 1981، ص 54.

كيفية إدارة الأمير للإقطاع :

لقد كان الأمير يستغل إقطاعه كما يشاء بمساعدة جنده أول الأمر والمباشرين والدواوين المخصصة لذلك.

ثم تغير الوضع بعد ذلك حيث استغلت الدولة طاعت الأمير وجنده مقابل تقدير مبلغ من المال[1] لكل منهم في فترة ما قبل الروك الناصري وما بعده[2] وخاصة بالنسبة لإقطاعات الشام التي عادلت ثلثي إقطاع أمراء مصر سوى نائب الشام في دمشق[3].

الرتبة	قبل الروك الناصر	بعد الروك الناصري 715 هـ / 1317م
أمير مـ	132.000-52.000	66.000-56.000 دينار جيشي[4]
أمير طبلخاناه	20.000-14.000	26.000-15.000 دينار جيشي
أمير عشرة	6000 أول اقل	6500-3500 دينار جيشي
أمير خمسة	2000	
مماليك سلطانيه	-	1000-660 دينار جيشي
أجناد الحلقه	166	660-200 دينار جيشي

كما كانت الأرضي الخصبة للسلطان والأمراء والاقل خصوبة لجنود الحلقة والقبائل البدوية، وكان معدل الإقطاعات يتراوح ما بين قرية وعشرة قرى[5].

---

(1) بولياك : النظم الإقطاعية، ص 67-68، ماجد عبد المنعم، " نظم دولة السلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ط2، القاهرة 1979، جـ1، ص 142.

(2) ابن فضل الله العمري : م.س، تحقيق دوروثيا، جـ1، ص 94، القلقشندي : م.س، جـ 4، ص 50، المقريزي : الخطط، جـ 3، ص 53، الافضل الرسولي (ت 770 هـ / 1372م) : نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم 351 تاريخ، ورقة 137ب.

(3) القلشندي : ن.م، جـ 4، ص 51.

(4) الدينار الجيشي: مسمى لاحقيقية، فكانت قيمته للاجناد والاتراك والاكراد والتركمان دينارا ذهبيا، والقبائل والفرسان ومن في وضعهم فدينارهم نصف دينار ذهب وفي الغالب يكون دينار العريان : ثمن دينار ذهبي ويساوي في عرف الناس ثلاثة عشر درهما، القلقشندي: ن.م، جـ 3، ص 438.

(5) للمزيد من المعرفة انظر النويري : نهاية الأرب، مخطوطه جـ 27.

وبالنسبة لإقطاعات بلاد الشام فقد كان بعضها لاهداف سياسية كإقطاع الملك الناصر الأيوبي صاحب دمشق من المظفر بيبرس (676 -678 هـ / 1277 - 1279م) نصف نابلس وجنين وأعمالها ومائة وعشرين فارسا[1] في فلسطين.

وكان الأمير الإقطاعي يفقد إقطاعه اذا تم نقله ويمنح لأمير آخر كما حدث 709 هـ/ 1309م زمن المظفر بيبرس بعد وفاة الأمير زين الدين قبجق وكانت الشوبك من إقطاع قبجق فلما نقل إلى نيابة السلطنه بحماة ارتجعت منه الشوبك[2].

وكما حدث مع السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (749-757 هـ / 1347-1356م) حيث نقل الأمير عز الدين ايدمر الشمسي إلى دمشق وبعد وصوله ورد مرسوم بنقله الى فلسطين، فانتقل الى هناك ثم ورد منشور باقطاع جمال الدين عبد الله بن الامير سيف الدين الليثي بصفد ثم نقل الى دمشق[3].

وهكذا يتضح لنا من أن القاعدة الأساسية للإقطاع المملوكي في بلاد الشام هي عدم توريث الإقطاعات ماعدا بعض التجاوزات لهذه القاعدة بالتوريث لكسب المؤيدين او لحسن سيرة الأمير الإقطاعي.

ويتراءى لنا بأن سبب عدم التوريث هو اعتبارها إقطاعات خدمة وليست املاكاً[4]، كما يلاحظ توزيع إقطاعات الأمراء في عدة مناطق حتى لا يؤدي ذلك إلى زيادة نفوذ الإقطاعي في المنطقة المقطعة اليه، فأصبحت الإقطاعات في فلسطين بعد الروك الناصري 713 هـ / 1313م مبعثرة وبعيدة عن المنطقة التي يخدم فيها الأمير والفرسان[5] وبالنسبه للتصرف بالإقطاع فقد اصدر الناصر محمد قوانياً في مصر والشام تمنع بيع أراضي الإقطاع واستبدالها.

ولكن هذه القوانين الغيت بعد وفاته عام 746 هـ/ 1345م فباعت مجموعة من جند الحلقة إقطاعاتها وانصرفت لمهن اخرى[6] فدخلت إلى الإقطاع عناصر جديدة من اصحاب ارباب الحرف

---

(1) المقريزي : السلوك، جـ 1، ق 2، ص 415.

(2) ابو المحاسن : الدليل الشافي، جـ 2، ص 533.

(3) الصفدي : م س، جـ 10،ص 18.

(4) بولياك : النظم الإقطاعية، ص 163، عبد العزيز الدوري : م س، ص 31، 106

(5) ن.م، ص 64-65.

(6) ابن فضل الله العمري، م.س، جـ 1، ص 94، المقريزي : ن م، جـ 2، ق 3، ص 860.

مما أدى إلىفساد الإقطاع[1]، وظهرت جماعة المهيسيين "المحامين" كوسطاء بين اصحاب الحرف وأصحاب الإقطاعات مقابل 10٪ من ثمن الإقطاع المتنازل عنه[2].

عندما تنبه السلاطين لذلك الفساد ابطلوا المقايضات والنزولات في الإقطاعات عام 704هـ/1304م زمن السلطان الصالح اسماعيل[3].

كما لوحظ إقطاع الثقة لعدد من زعماء وشيوخ العشائر مقابل مساهمتهم في حفظ الامن وحماية الطرق وهو معفى من الخدمة العسكرية. كما تم منح بعض القبائل البدوية الأراضي مقابل تقديم الخيل للسلطان في مطلع كل عام حيث يصبحون جنوداً في جيشه وكانت مساحة الارض المقطعة تتناسب مع قوة القبيلة[4].

فاذا خرجت القبائل البدوية عن الطاعة تُوَزّعُ على أمراء عرب لا يزالون في طاعة الدولة كما حدث عام 720 هـ / 1320م بطرد آل عيسى وعام 745هـ / 1347م بعد عزل سيف بن فضل بن عيسى عن امارة العرب وتوليتها لأحمد بن مهنا فأعيد إقطاع فياض بن مهنا اليه واسترجع ما بأيدي العرب من الإقطاعات وجعله خاصاً ببيت المال[5].

وكانت هناك إقطاعات خاصة مدنية تمنح لعدد من الطبقات من القضاة في عجلون والكرك، فكانوا يخرجون إلى هذه القرى كل عام لجني المحصول[6].

وإقطاعات الشعراء والمحدثين والمغنين مقابل خدماتهم الخاصة مع منحهم حق الملكية التامة وحق توريثها من بعدهم[7].

---

(1) البلاطنسي : تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال، تحقيق فتح الله محمد، دار الوفاء، المنصورة 1989، ص 290.

(2) المقريزي : ن م، جـ 2، ق 3، ص 860.

(3) المقريزي : السلوك، جـ 2، ق 3، ص 891-892...

(4) بولياك : م.س، ص 38، 61، 62، طرخان : م.س، ص 67، وكانت اقوى القبائل البدوية في بلاد الشام في اواخر العصور الوسطى آل فضل وآل مهنا، كما حدث زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي اكرمهم بإقطاعات واسعة مقابل الخيول كما حدث عام 741هـ / 1340، والمقريزي: ن م، جـ2، ق2، ص 520-527.

(5) أبو الفداء : م س، جـ 4، ص 144، احمد بن مهنا ولي امرة العرب في عهد الناصر احمد وصرف عنها ثم اعيد اليها اعتقله طقتمر نائب الشام 745هـ / 1344م بدمشق ثم بصفد واطلقه الكامل 746هـ / 1345. انظر : ابن حجر العسقلاني : م س جـ1، ص 342.

(6) دغوانمة : التاريخ الحضاري، ص 106.

(7) الدوري : تاريخ العراق، ص 41.

أما بالنسبة لعمليات الـروك التي تمت للأرضـي الشـامية فـي العصـر المملوكـي فكـانت عـام (696 -697هـ/1299-1299م) زمن السلطان حسام الدين لاجين.

وعام (712-713 هـ / 1314-1315م) زمن الناصر محمد بن قلاوون حيث عهد بها إلـى الأمير سمجر الجاولي نائب غزه[1] ، وناظر الجيش بالشام ابن هبة الله بن حشـيش وأقـام الجـاولي عند الأمير تنكز نائب الشام [2] حتى انتهت عملية الروك[3].

وكان من أهداف عملية الروك أن يقوم السلطان باعـادة توزيـع واختبـار الإقطاعـات لاختيـار الأفضل له ولحاشيته[4]، فأدى هذا إلى الصراع بين الأمراء بسبب هذه الإقطاعات[5] وكانت الجهـة المسـؤولة عـن هذه الإقطـاعـات ديـوان الجيش، وديـوان الإقطـاع حيـث كـان المكتـب الرئيسـي فـي القاهرة، ويتفرع إلى فرعين:

-ديوان الجيش المصري.

-ديوان الجيش الشامي المخصص للإقطاعات في بلاد الشام ويرأس كل ديوان " المستوفي"[6].

وكان للسلطان وحـده حـق توزيـع الإقطاعـات علـى الأمـراء أمـاّ نـائب الشـام فلـه صـلاحيـات إقطاعات أجناد الحلقة بعد موت الجندي فيستخدم النائب عوضه ويكتب على نحو ترتيـب السلطان " مثالا ثم المربعة، وترسل مع البريد ليوافق عليها السلطان[7].

---

(1) علم الدين سنجر الجاولي، ولد بآمد واشتراه احد الأمراء المماليك يقال له جاول فنسب اليه، وتدرج في المناصب حتى اصبح استاداراً، وتقلد نيابة الشوبك وحماة وغزه، واستنابه الناصر محمد عام 711 هـ / 1311م لبناء منشآت عمرانيه كقصر النيابة، والمدرسة الشافعية والمدرسة والجامع والحمام ثم عهـد اليـه عـام 713 هـ / 1313م بـروك البـلاد الشـامية وتـوفي عـام 745 هـ / 1344م. ابن حجر العسقلاني : م.س، جـ 2، ص 266-268.

(2) ن. م جـ 2، ص 55-62.

(3) المقريزي : الخطط، ص 160-161، والمقريزي : السلوك، جـ 2، ق 1، ص 137.127 Rabie : " Iqta" p.

(4) طرخان : النظم الإقطاعية، ص 104. Rabi " Iqta" p. 136. كما فعل السلطان لاجين وكما فعل في الروك الشامي الناصر محمد 713 هـ / 1315م حيث اختار سنجر الجاولي ومماليكه أفضل الإقطاعات.

(5) ن.م، ص 105. . Rabi " Iqta" p. 135

(6) بولياك : م. س،ص 65.

(7) المثال : ورقه رسميه تصدر من ديوان الجيش بإقطاع احد من الناس ثم يؤشر عليها السلطان بالموافقه : (الاسدي : التيسير ص 200). المربعة : مراسيم تكتب في ورق شامي وتكتب من ديوان الخاصة بخط مباشريه، وتكتب بالإقطاعات في نصف فرخة مكسورة في القطع البلدي وتستهل بالبسلمه إلى ديوان الانشاء، فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعين على بعض كتاب الانشاء فيكتبها ويكون شاهداً (القلقشندي : صبح الاعشى،جـ 4، ص 201).

وكان للإقطاعي حق استخدام القوة المسلحة لجمع الضرائب من أراضيه وفلاحيه[8] بالاضافة إلى اعادة الفلاحين بالقوة اذا غادروا الارض قبل ثلاث سنوات[9].

وهكذا يلاحظ على النظام الإقطاعي العسكري المملوكي بأنه نظام عبودية وتسلط لظلمه للفلاحين إذ حولهم إلى أقنان للارض، لعدم قدرة الفلاح على امتلاك الارض الزراعية الخاصة به، وان حدث وملكها فانه لا يستطيع حمايتها من كبار الإقطاعيين،حيث كان يعمل كأجير في الارض عند سيده الإقطاعي.

---

(8) عوض ملكية الارض، ص 51.

(9) السبكي : م س، ص 74.

الملكية الخاصة:

كانت الملكية الخاصة في العصر المملوكي تتم عن طريق الوراثة اوالشراء أو إقطاعات التمليك من السلطان للأمراء يتصرفون فيها تصرفا حراً لا علاقة للدولة فيها الا فيما يتعلق بما تفرضه عليها من ضرائب[1].

كما فعل الظاهر بيبرس عام 663 هـ / 1265م، حيث فتح بلاد قيساريه على ساحل فلسطين وقسمها على الأمراء تمليكاً مؤبداً شرعياً[2] ليساهموا في استتباب الامن ورصف الطرق وبناء الجسور واعادة بناء مدينة صفد وتطور غزة ويافا.

وفي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي انتشر التمليك الجماعي في ارض المشاع المزروعة، في جمع انحاء بلاد الشام، حيث وزعت أراضي القرية على رجال القبيلة حسب ما يملك كل منهم من الحيوانات الزراعية وهو ما كان يعبر عنه بالفدان، اما الذين لا يملكون الحيوانات الزراعية فلا تعطي لهم أرض ويسمون بالفلاحين البطالين[3]، واما أراضي المشاع هذه المسماه بـ " الجدر" فقد لاحظ الباحث في قريته سوم الشناق وما حولها [4] بأن أراضي الجدر توزع على الذين يملكون الأراضي.

وبعد استعراض نظام الأوقاف والملكية زمن المماليك نرى ان زراعة أراضي الملكية كانت غير محمية في ظل الإقطاع بأشكاله المختلفة لاستخدامها بيدراً لدرس المحصول الزراعي لأنها لم تكن محمية من المصادرة والإقطاع لتعسف الدولة المركزية وتعديات حكامها وولاتها من عسكريين ومدنيين.

(1) القلقشندي : م س، جـ 13،ص 132، طرخان : النظم الإقطاعية، ص 73.

(2) المقريزي : السلوك : جـ 2، ق 2، ص 530، المنصوري : التحفة المملوكية، ص 55، النويري: م.س، جـ30، ص 275-280، قيساريه : بلد على ساحل بحر الشام تعد في اعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام (ياقوت: معجم البلدان جـ 4، ص421).

(3) د. غوانمه: بيت المقدس، ص 76، يقول: "... ان نشأة نظام المشاع كان ضرورة دفاعية مشتركة عن القبيلة أو أهل القرية".
Cohen "Population" p. 69

(4) وقد قامت دائرة الأراضي والمساحة في الأردن عام 1992 بتسجيل أراضي "الجدر المشاع" والدور المقامة عليها حسب مالكيها كما حدث لمنزلي في سوم الشناق/محافظة اربد، شمالي الاردن.

ثانياً: الزراعة في جنوب بلاد الشام في العصر الأيوبي :

أولاً: الحياة الزراعية في فلسطين والأردن:

لقد اعتمد سكان فلسطين والاردن منذ القدم على مياه الامطار لري محاصيلهم الزراعية وللشرب وقد اكد الرحالة الذين زاروها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[1] ومازالت كذلك حتى اليوم زراعة صلبية في فلسطين.

---

(1) بنيامن التطيلي، ص 02، الذي قام برحلة الى فلسطين عام (1165 – 1173م) حيث ذكر " ان معظم اهالي القدس يشربون ماء المطر بعد أن يجمعونه في صهاريج معدة لهذا الغرض في البيوت".

والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، 1389 هـ/1966م، ص 160 قال " ارض وضياع بيت المقدس كلها جبال شاهقه وليس بقربها ارض طيبه وزروعهاعلى اطراف الجبال.... وارضها كلها حجر... ويشرب اهلها ماء المطر، وليس فيها دار الا وفيها صهريج ومياهها تجتمع من الدروب، ودروبها حجريه ليست كثيرة الدنس، ولكن مياهها رديئة، وفيها ثلاث برك: بركة بني اسرائيل، وبركة سليمان وبركة عياض... ".

أماالمقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (طبع ليدن) مطبعة بريل، 1906، ص 166 وقد زار بيت المقدس في القرن العاشر الميلادي قال: ان الله جمع فيها " فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المستفادة كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز".

اما ناصرخسرو سفرنامه، ص 20، الذي زار فلسطين في اواخر القرن الحادي عشر فيذكر: " سواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها والزراعة واشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بدون ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة... "

ودانيال الروسي: الذي زار القدس في بداية القرن 12 م (1106 – 1107م) الذي وصفها بقوله "..... ان سكان المدينه والماشيه كانوا يعتمدون كلية على ماء المطر" كما يذكر ان محصول القمح والشعير في الدرجة الاولى Abbot Daniel , p. 25 وأن غلة ميكال البذور كانت تنتج لصاحبها تسعين او مائة امثال ويعزو ذلك للارادة الالهية ويذكر الاشجار المحيطه بالقدس من الزيتون والتين والجميز والكروم". وبوركهارد: الراهب الدومينكاني الذي كتب سنة 1283م burchard , p. 99.

"... ان كل الارض المقدسة كانت لا تزال احسن من كافة الارأضي، " كما ان الخليل يكثر فيها القمح والزيتون والكروم وجميع اصناف الخضروات واغنامها تلقح مرتين في العام، ونحلها يبني خلاياه في صخور جبالها المكسوه بالاشجار المثمرة كالزيتون والخرنوب والتين والتفاح وليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة. ص 46. وأما ثيوديرتش Theoderich، فقد قسم فلسطين الى ثلاثة اقسام طبيعية وهي الجليل، والسامرة وجبال القدس ووصف جبال القدس بالجمال لانها مكسوه بالزيتون والكروم والتين، كما ذكر بأن أوديتها مملوءة بالحبوب والبساتين وما زالت حتى اليوم.

كما يذكر براور prawor, Latinkingdon , p. 358-359. بأن الخبز الابيض من القمح كان يصنع في افران السكان حيث كان المحصول الرئيسي في الشرق الاوسط في ذلك الوقت، وكانت مناطق انتاج الحنطة زمن الصليبيين هي الاراضي الواقعة شرقي نهر الاردن وشمال شرقي بحيرة طبرية،والجولان وشرقي حوران وذكر اكبر مراكز لانتاج القمح في هذه المنطقة من نوى شرقاً إلى أودية الخليل حول تبنين غرباً Ibid , p 359. وذكر بان اجود انواع القمح كانت تزرع في شيفا يلالا المحصورة بين السهل الساحلي والجبال المركزية للضفة الغربية، تبدأ وزراعة القمح من وادي زرعين، ومرتفع قيصرية على الشاطئ، ممتدة جنوباً حتىالرملة وعكا وبيت جبرين. Ibid, p. 359

وحول عسقلان وغزة وقرب دير البلح، حيث كان سكان هذه المنطقة الجنوبية يصدرون قمحهم الى بيت المقدس، و بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس دمرت معظم الاراضي الزراعية. Ibid, p. 359

الزراعة زمن الصليبين:

عندما استوطن الصليبيون في بيت جبرين وتل الصافي حوالي عام 1140م ثم في عسقلان 1155م استصلحوا الجزء الاكبر من الاراضي المحيطة[1].

وقد زرع الصليبيون الشعير بعد القمح المحصول المفضل لديهم وذلك علفا للحيوانات ولاستخراج البيرة منه في اراضي الخليل وحول قرى الكرمل وسموع وحتى الشمال في اتجاه مدينة بيت لحم[2].

فاصبحت المناطق الممتدة من بيت لحم الى بيت المقدس والرملة مأهولة بالسكان الصليبين، وأصبح شراء الاراضي صعبا في هذ المنطقة بسبب الاستطان الصليبي[3].

كما تَنَافس الدومين الملكي وطوائف الفرسان الرهبان والكنائس والأديرة على شراء الاراض لجودة كرومها وقمحها من بيت لحم شمالاً الى البيرة والرّملة على الطريق المؤدي الى سبسطية[4].

ومن ملاحظتنا لجبال فلسطين في تلك المناطق يتبين لنا صعوبة الزراعة المدرجة على سفوح الجبال حيث يصعب استخدام الحيوانات وانما اعتمدوا في ذلك على العمل بايديهم بالمعازق كما نراه اليوم.

وقد زرع الفلاحون الذرة والشوفان والعدس لاستخدام الانسان والحيوان بالإضافة للخضروات، كاللوبيا والفاصوليا، وزرعوا الخيار والقثّاء والشمام " القاوون الاصفر" والبطيخ " القاوون الاحمر"[5] كما شوهد البصل والثوم والخردل على موائدهم.

كما استعمل الصليبيون التوابل من اعشاب فلسطين الطيبّة والعطرية مثل الشومر والميرميه والذاب[6].

وقد شاهد الحجاج المسيحيون في بداية القرن الثاني عشر الميلادي غابات الزيتون قرب الخليل ونابلس والقدس وبيت لحم وعكا حيث كثرت معاصر الزيتون المدارة باليد والحيوانات[7]. وما زالت حتى اليوم.

---

(1) Wiliam of Tyres 11, p. 236

(2) ناصر خسرو، م. س، ص 35، Theoderic, p. 53.

(3) prawer, op. cit , p. 360

(4) Prawen , Latin Kingdon, p. 360, 361

(5) ابن بطوطه: الرحلة، جـ 1، ص 42، ذكر ان البطيخ كان يزرع في نابلس وهو طيب وعجيب. Prawer, Ibid, p. 361

(6) نبته طبية ذات اوراق مرة "Rutagraveolens" الغمراوي: دراسة بين المنهج التطبيقي لتاريخ الطب العربي، القاهرة، 1979، ص60، هامش 59.

(7) العليمي: الحنبلي، م.س جـ 2، ص 61، 81، و Prawer , p. 361

حيث كان زيتها يصدّر الى البلاد المجاورة قبل الاحتلال الصليبي[1]، كما كانت كل المدن الساحلية من عسقلان جنوباً مروراً بيافا وارسوف وقيصرية وعكا محاطة بالزيتون[2].

ومن المزروعات الأخرى السمسم[3]. كما كثرت الكروم التي شجعها الصليبيون من اجل النبيذ لازدياد الطلب عليها في اراضي الجليل حول بحيرة طبرية والناصره وطريق سبسطية وحول نابلس والرملة والقدس بينما حدد المسلمون ايام الفتوحات عدد الزارعين اللازمين لزراعة الكروم لتحريم الاسلام تناول الكحول والإتجار بها[4] وبيت لحم والخليل وعسقلان وارسوف يافا وعكا وحيفا[5].

ويلاحظ إغفال الرحّالة لزراعة الزيتون في الخليل، مما يثير التساؤل والدهشة المخالفة للواقع الآن وربما كان ذلك حقيقة في ذلك الوقت او ان تكون اشارتهم مصادفة.

أما زراعة الفاكهة فكانت التفاح حول بيت المقدس وبيسان والكمثّرى والخوخ والكرز والبندق والجوز والبندق في سبسطية واللوز في سواحل يافا. أما زراعة النخيل[6] فكثرت في حيفا وقيسارية والرمله وبيت لحم واشهره في اريحا، وفي المدن الساحلية وقد صدر البلح ذو اللون الاصفر للخارج زمن الحكم العربي الفلسطيني[7].

زراعة قصب السكر:

وجد الصليبيون هذه الزراعة في وادي الاردن وفي مناطق ساحلية، وكان غير معروف قبل الحروب الصليبية في اوروبا[8].

---

(1) Ibid. I, p. 361

(2) ناصر خسرو، م.س ،ص20، حيث ذكر ان الدخل السنوي من الزيتون في نواحي القدس لبعض كبار المزارعين بلغ خمسين الف مُنٍّ والمن يساوي اليوم اربعة كيلوغرامات، ابن بطوطة: الرحلة جـ 1، (ص 40-41)، وذكر بأن نابلس كانت من اكثر بلاد الشام زيتوناً وتصدر زيتها الى دمشق ومصر، انظر الادريسي م س،جـ5،ص364. وما تزال حتى ايامنا هذه.

(3) Prawer, p. 362.

(4) ن.م،ن.ص.

(5) انظر: الادريسي جـ5، ص 364، 372، بنيامين التطيلي، م س،ص 95، 96. Theoderick , p. 53 وقد ذكر المقدسي نوعين من العنب هما الدروبلي والزيني اللذان يصدران للبلاد المجاورة. المقدسي: ص 179.

(6) سورة مريم اية 23 " فأجآءها المخاض الى جذع النخلة، قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً" وكذل قوله تعالى " وهُزّي اليك بجذع النخلة تُسَاقِطْ عليك رُطَباً جنيا " (سورة مريم آية 25).
ويذكر ابن بطوطه بانه شاهد مكان ولادة عيسى عليه السلام وبه أثر جذع النخلة ابن بطوطه، م.س جـ 1 ص 39.

(7) المقريزي، م. س ص 142، الادريسي، م. س، جـ5، ص 356، المقدسي م. س، ص 162، 164، ابن القرنسي، م.س، ص 178، ناصر خسرو: م.س، ص 18.

(8) محمد مصطفى الجندي، حياة الفرنج ونظمهم في الشام، ص 144.

لذا اعتنى به الصليبيون واعفوه من الضريبه لتشجيع زراعته التي انتشرت في القصير "الشونة الشمالية[1] وقرب البحر الميت[2] وعرفوه باسم " سكر الكرك والشوبك"[3]. وقرب بحيرة طبرية ووادي الاردن واريحا ومعظم المدن الساحلية مثل عكا وصور وعسقلان[4] وذلك بطريقة الحقل حيث يدفن في الارض زوجا زوجاً. هذا وقد صدر سكر الكرك والشوبك الى أسواق اوروبا الغربية وفلورنسا وعرف باسم سكر مونتريال[5].

وانتشرت زراعة البرتقال والليمون على الشاطئ قرب قيصريه وفي الداخل حول قلعة مونفورت وقرب بانياس شمالاً[6].

فقد كثرت زراعته على طول نهر الاردن والاودية المسطحة الرطبه وخاصة في اريحا[7] ولقد سماه الصليبيون " تفاح الجنة " [8] وما تزال زراعته هناك حتى عصرنا الحاضر.

كما كان التين من الفاكهة التي اهتم بها الصليبيون ما بين سبسطية او الخليل والرمله ويبنى وقيصريه[9].

والرمان بالرغم من وجوده على النقوش النقديه القديمه الا ان الحجاج المسيحيين لم يشيروا اليه الا نادرا ويكثر في نابلس وجرش وما وراء نهر الاردن[10].

وشجر الجميز الذي اهتم بزراعته الصليبيون لاستخدام اخشابه في البناء والشؤون الحربيه وذلك حول الخليل وعسقلان[11]. وأشار الحجاج الى شجرة التوت في جبال الضفة الغربيه وسبسطية وكان الغذاء الرئيسي لافراد الحملة الصليبية الثالثة عند محاصرتهم عكا[12].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 1، ص 147.

(2) النقاش، العلاقات، ص 176 -177، ود. غوانمة: التاريخ الحضاري ص 108.

(3) ابن الأثير: م.س، ص212.

(4) ابن مماتي، م.س، ص 260.

(5) رنسيمان: م.س، جـ3، ص 602.

(6) فايزه حجازي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اربد-الاردن، 1412هـ/ 1992، ص 101.

(7) ن. م، ص 13.

(8) Burchard, p. 100.

(9) Ibid, p. 102, Anonymous Pilgrims, p. 35
ناصر خسرو، ن.م، ص 19، (حيث يقول ان تين الرملة يعتبر من احسن اصناف التين الادريسي، م.س جـ 5، ص 363، ابن بطوطه م.س جـ 1، ص 46.

(10) Prawer, p. 356.

(11) Ibid, p. 356

(12) Ibid. p. 356

ومن المحصولات الزراعية الاخرى السّامان الذي يصنع منه الحصر السامانيه والذي كان يزرع في بيسان[1]. والكتان، والزعفران المسمى اليوم بالكركم او الورس او العصفر[2] المستخدم في الصباغة والدواء والطيب في الاعياد[3] والنيله وعروق الصبا [4].

أما نبات الخروب فكان ينبت من تلقاء نفسه وكان اليهود يطعمونه للخنازير[5]،هذا بالاضافة الى اهتمام الصليبيين بزراعة حجيرات هامة وعطرية كالقرنفل والنرجس والبنفسج والحنه والورد والريحان والاكاسير[6] مما حدابهم ان ينقلوا زراعته الى اوروبا كقصب السكر والمشمش والخوخ والكمثرى والتمر الهندي والبهارات والطيوبُ اهمها القرفة وهي من اصل هندي أو يمني، وكذلك الذره الشامية والسمسم والخروب والدخن والارز والليمون والبطيخ والثوم بدليل اسماء بعض هذه المزروعات في اللغات الفرنجيه بنفس لفظه من الاصل العربي[7]. المزارعين من سكان فلسطين الاصليين على مدى الاجيال والقرون في السهول والجبال والوديان.

إدارة الاراضي الزراعية زمن الصليبيين:

كان العرف يسود العلاقات الزراعية بين الناس في فلسطين قبل الاحتلال الصليبي حيث كانوا يتنازلون عن جزء من انتاجهم او جزء من المال الناتج عن بيع المحصول لملتزم الضرائب او لمالك الارض الذي يستأجرون ارضه وكانت الحكومه المركزية تمنح الفرد حق استغلال ارضه مقابل ارسال مبلغ سنوي للخزانه والذي كان يقدم للجنود في كثير من الاحيان وفي خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي اصبح العرف العام الوحيد في الادارة السلجوقيه وهو امتلاك الارض او حكم الاقليم مقابل الخدمات العسكرية.

(1) الادريسي، م.س جـ 5، ص 356.

(2) النويري، م. س، جـ 1، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ص 247.

(3) الزمخشري، محمود بن عمر (ت 538 هـ / 1146م): كتاب بالامكنه والمياه والجبال، تحقيق ابراهيم السامرائي، حيث ذكر اسماً آخر للزعفران "الجادي" نسبة الى جادية إحدى قرى البلقاء في شرقي الاردن المشهورة بزراعته. بغداد، مطبعة السعدون 1968، ص 60.

(4) النقاش م. س، ص 177.

(5) انجيل لوقا، ص 15،16، ابن بطوطه، م.س، جـ 1، ص 41، يقول عن نابلس: " وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ منه الحلواء ويجلب ذلك الرُّب الى مصر والشام.

(6) النقاش ن.م، ص 176، Burchard , p. 99.

(7) النقاش ن.م، ص 176، Ibid , p. 99.

وهكذا نشأت حالة مماثلة للنظام الاقطاعي في فلسطين واصبحت على استعداد لتقبل العادات الاقطاعية وكان التزام الفلاحين بدفعهم مبالغ للصليبين يمثل التزامهم الرئيسي تجاه السلطه.

كما ترك الصليبيون كعنصر حاكم لأصحاب الارض الاستمرار في استغلالها لصالحهم نظرا لجهلهم بظروف الارض[1] فاستمر منح السادة الاقطاعيين الاراضي لاتباعهم[2] ولم يغير الصليبيون عرف من سبقهم من الحكام أي انهم احتفظوا بنظام حصلوا بواسطته على الدخل الحكومي من السكان الوطنيين بترك الحرية لهم في إدارة شؤونهم المحليه على الرغم من رفض السكان في بعض الاحيان دفع تلك الضرائب المفروضه عليهم كما حدث في عهد بلدوين الثاني[3].

كما حاولوا فرض سيطرتهم على الفلاحين المسلمين شرقي نهر الاردن وحوران والبقاع لشهرتها بالقمح[4].

وهكذا يلاحظ في مجال الزراعة اعتماد الفرنجه على المواطنين الفلاحين في زراعة الخضروات والفاكهة والزيتون وكروم العنب وقصب السكر في غور الاردن والكرك والشوبك والساحل الذي نقلوا زراعته الى بلدانهم الاوروبية وكل هذه المنتوجات الزراعية صُدِّرت ايضا الى اوربا الغربيه كما صدّروا الزجاج والبسط والسجاد والاقمشة والملابس الحريرية ومنتوجات الشرق الهندية والصينية الى دمشق وعكا ويافا وبيت المقدس، وفرضوا الضرائب على القوافل التجارية المارة عبر الكرك مما مكنهم من جني الارباح الطائلة.

كما اغروا الايطاليين بالقدوم الى فلسطين بمنحهم الامتيازات التجاريه وخاصة تجار جنوا والبندقية وفلورنسا وبيزا، وملكوهم احياء خاصة بهم في يافا وعكا.

---

(1) القلقشندي، م.س، جـ14، ص 31، 42، 50. قابلتنا جماعة كبيرة من المسلمين يقودون الثيران والحمير وهم في طريقهم لحرث سهل واسع جميل وقد اثاروا الرعب في نفوسنا... ويقيمون في المدن والقلاع ويعيشون على العمل تحت إشراف ملك القدس أو رئيس الداوية...".

(2) ابن جبير، م.س، ص 210، وابن عبد الظاهر، م.س، ص 34-42.

(3) Wiliam of Tyre 11, p. 371.

(4) Runciman Ahistory of the crusades, 111, p. 352,

حيث قال " لولا مساعدة اقليم شرقي نهر الاردن لما تيسّر دائما لمملكة بيت المقدس ان تطعم نفسها، فاذا طلب المحصول كان لابد من استيراد القمح من سوريا.

ثانياً: الزراعة في جنوب بلاد الشام في العصر الايوبي:

لقد اهتم الايوبيون بها لتوفير الطعام والكساء لقواتهم العسكرية فاعتنوا بنظام الري لتنشيط الزراعة ونجاحها[1] باعتمد على الاراضي الخصبه والمناخ المعتدل الملائم والنشاط البشري، وتوفر ماء المطر ويمكن تقسيمها جغرافيا حسب الخصوبة الى اقاليم زراعية في العصر الايوبي:

اولاً الاراضي الخصبة جنوب بلاد الشام اشتملت على السهول الساحلية. في فلسطين عكا- حيفا- غزة كما امتازت بغزارة امطارها[2]. ومياهها، واشتهرت منذ القدم بالخصب والنماء[3]، وكانت تخضع في للصليبين ذلك الوقت.

ثانياً اقليم الجبال المحاذية للساحل الشمالي الى الجنوب مثل جبال فلسطين وجبال شرقي الاردن كجبال عجلون وجبال السلط والكرك وبهراء والسماق وتشتهر بكثرة اشجارها المثمرة[4].

ثالثاً اقليم الهضاب والسهول الداخلية والتي تقع شرق السلاسل الجبلية كسهول الكرك[5] والبلقاء وحوران والسهول المرتفعه في فلسطين وتربتها خصبة لانها من النوع البازلتي.

رابعاً اقليم الغور: والذي يشمل على اراضي بحيرة الحولة وطبريه وبيسان والصلت واريحا وشواطئ البحر الميت وهي امتداد لأغوار سوريا وتعتبر اراضيه وحتى اليوم من اغنى المناطق الزراعية بسبب تجدد تربتها من فيضان نهر الاردن[6] ونوعها من التربة اللحقيه الخصبة ويكثر فيها الازوت " النيتروجين"[7].

خامساً :الاقليم الصحراوي: والذي يقع شرقي السهول والهضاب الداخلية ويعرف ببادية الشام التي تتخللها بعض الواحات، وتنبت فيها بعض النباتات لسقوط الامطار شتاءً حيث تصل في معدلها الى 0.150سم تقريبا و يعيش فيها البدو وتربتها رملية كما تمتد التربة

---

(1) بروكلمان: م س، بيروت 1948، ص 364.

(2) كرد علي، محمد: م س، 6 أجزاء ط2، 1403 هـ / 1983م، الناشر مكتبة النوري، غوطة دمشق، ط2، مطبعة الشرقي بدمشق، جـ4، ص 139، فيما بعد 1371هـ/ 1952م.

(3) المقدسي: ليدن 1906 ص 162-174، الاصطخري: المسالك والممالك، القاهرة 1961م ص 167.

(4) ن.م، ص 156، المقدسي: م.س ص 186-188.

(5) عادل عبد السلام: جغرافية سوريه (طبيعية وبشرية) د مشق 1973، جـ 1، ص133-135، 138.

(6) زكريا، احمد وصفي: المفكرة الزراعية، مطبعة الترقي، 1930م.

(7) محمد كردعلي: ن م، جـ 4، ص 172.

الرملية ما بين حيفا وغزة. اما تربة الكرك وعجلون والسلط والبلقاء ونابلس فهي كلسية[1].

وهكذا تكون معظم اراضي جنوب بلاد الشام صالحة للزراعة عدا البوادي والجبال والتي يزيد ارتفاعها عن 1560م[2].هذا وقد ساعد ايضا على ازدهار الزراعة المناخ المعتدل والنشاط البشري الذي يشمل ملاك الاراضي والايدي العامله بالاجرة نقداً كانت ام غلة بالاضافة لتشجيع معظم سلاطين الايوبيين للزراعة والصناعة والتجارة لدعم القوة العسكرية[3].

وتميّز النشاط البشري في جنوبي بلاد الشام منذ القدم وحتى اليوم بالجدية وحسن استغلال الاراضي باستعماله الاساليب والطرق الناجحة فزُرِعَ القمح والشعير وباقي الحبوب في الحقول المروية بمياه المطر بينما غُرست الاشجار المثمرة كالزيتون واللوز والعنب والتين في المناطق الجبلية في حين زرعت منطقة الاغوار باشجار الفاكهة المتنوعة.

اما الغابات فكانت ومازالت تغطى رؤوس معظم الجبال وقد اشارت المصادر الجغرافيه والتاريخيه الى هذا النشاط الزراعي[4].

وعن جمع ماء المطر: ذكر ناصر خسرو اثناء مروره بفلسطين عن جمع الناس لمياه الامطار من اسطح البيوت في صهاريج لخزنها للاستعمال اليومي والزراعة عن طريق الاقنية[5]. وفي الغالب كانت بلاد الشام ومازالت تعتمد في ري معظم مزروعاتها على مياه الامطار، وقليل منها على الري كفلسطين مثلا التي تعتمد على مياه الامطار عدا نابلس التي تعتمد على الري من مياهها الجارية[6] ومن المياه الجارية في جنوب بلاد الشام التي نشاهدها اليوم نهر اليرموك ونهر الاردن[7] ونهر الزرقاء والعوجا وهو اهم انهار فلسطين بالاضافة

(1) محمد كرد علي: ن.م، جـ 4، ص 182.

(2) ن.م جـ 4، ص 172.

(3) ابن الاثير: الكامل، جـ11، ص 413، يذكر بان صلاح الدين الايوبي كان يصرف بعض الجنود في مواسم الحصاد لجني المحاصيل.

(4) المقريزي: السلوك، جـ1، ص 555، ابن طولون م س، جـ 1، تحقيق محمد مصطفى القاهرة 1962، ص 291. القلقشندي: م.س، جـ 12، ص214، اليونيني: ذيل مرآه الزمان: حيدر اباد 1954، جـ 2، ص 409.

(5) ناصر خسرو: م س، ص 47 وما بعدها.

(6) ن.م، ن.ص وما بعدها، والمقدسي ،م س، ص 163، ومصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين - دار الطليعة بيروت (1391هـ/1972م).

(7) يعتبر من اهم انهار بلاد الشام بعد بردى في ري المزروعات حيث ينبع من سفوح جبل الشيخ ويصب في البحر الميت، ومن روافده اليرموك والزرقاء شرقا والجالود غرباً. العمري: مسالك الابصار جـ 1، تحقيق احمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1342 هـ / 1924م ص80، والمسعودي التنبيه والاشراف، بيروت 1968، ص 64، والقلقشندي، م.س، جـ4، ص 81.

الأودية كوادي غزة ووادي صرار ووادي الحمام الذي يصب في البحر الميت ووادي الموجب " عرنون" ويصب ايضا في البحر الميت وكذلك وادي الحسا[1].

كما ساعد على نجاح الزراعة وتقدمها كثرة الينابيع[2] والبحيرات العذبة مثل بحيرة طبرية والحوله[3].

نظام الرّي في العصر الأيوبي:

أهتم الأيوبيون بصيانة الجسور والاقنية التي استخدمت لايصال المياه للدور والمساجد والقصور والزراعة، ففي المناطق التي يعلو فيها مستوى النهر عن مستوى الارض الزراعية تؤخذ المياه مباشرة لري الاحواض كالاغوار ونابلس، كما اقيمت السدود عندما تكون مياه النهر اخفض من الاراضي الزراعية كما استخدموا الدواليب والنواعير التي كانت نادرة في الاردن.

وبالنسبة لوحدات القياس الزراعية فقد استخدموا ذراع العمل: وطولها ثلاثة اشبار بشبر رجل معتدل والذراع الزيادي والهاشمي وهي اطولها واستخدمت جميعها لقياس الاراضي[4].

كما استخدموا القصبة ومقدارها ستة اذرع بالهاشمي وكل 400 قصبة مربعة تساوي فداناً وقد استخدمت لقياس الاراضي الزراعية[5].

وأما الفدان فهناك الفدان الرومي: وهو مقدار ما يحرثه زوج ثيران في يوم وليله واما الفدان العربي: فهو ما يحرثه الفدان في يوم كامل والفدان 400 قصبه مربعه او 24 قيراطاً، وكانت مساحة الفدان في العصور الوسطى 6388متر مربع[6].

---

(1) ادهم مصطفى وغسان مراد: الاطلس التطبيقي، ط1، 1956، ص 69، ويذكر ان نهر الزرقاء ينبع من شمال شرقي عمان ويصب في الشريعة جنوب مصب اليرموك.

(2) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 342-343، وناصر خسرو، م. س ص 33. حيث ذكر بعض الينابيع الفلسطينية في بيسان وعكا والخليل والصلت " السلط اليوم " وابن جبير: م.س، دار التحرير المصرية 1388 هـ / 1968م، ص224، والشوبك بلده كثيرة البساتين ينبع من طرف قلعتها عينان تشرفان البلدة.عبدالعزيز سالم: دراسة في تاريخ صيدا، بيروت 1970، ص 12.
العمري: مسالك الابصار، ص 89، القلقشندي: م س، جـ 4، ص 83-85.

(3) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 262-263.

(4) الفراء، ابو يعلى محمد بن الحسين، الاحكام السلطانية، القاهرة، 1938، ص 158، والقلقشندي: م.س، جـ 3، ص 442-443.

(5) الفراء ن. م ص 157، والقلقشندي: ن.م، جـ3، ص 442.

(6) القلقشندي ن م، جـ 3، ص 442.
هذا فقد ذكرت التسمية في اللغة اللاتينية Carruca وفي الفرنسيه Charrues أي الكمية من الارض التي يمكن زراعتها بوساطة عجلة محراث في فصل واحد ويساوي 35 هكتاراً. Prawer, the latin king dom, 11, p. 372

ملكية الاراضي :

لقد تكونت الملكيات الكبيرة في عهد الامويين نتيجة للشراء ومنح الاقطاعات " الالجاء" فظهرت طبقة ملاكين جدد، فملك بعض الامراء قرى بكاملها[1].

فقد كان لعمرو بن العاص ضيعه عجلان في بيت جبرين وناحية بئر السبع " وفيها سبع آبار" في فلسطين[2].

وتجدر الاشارة الى ان هذه الاراضي الاقطاعية تركها النبلاء الروم في دمشق وحوران وبعض جهات البلقاء مما أدى لاستقرار القبائل في القرى في اواخر العصر الاموي والعصر العباسي الاول[3]، فكانت هذه القرى علىاطراف البادية بين العشائر حيث كانت مشتركة في البداية ثم تطورت الى ملكية خاصة لكبار الملاكين من اشراف القبائل حيث كان لهم قصورهم وضياعهم، مما ادى لتحول عامة القبائل الى زراع في مجتمعات قروية لهم ملكياتهم الفردية او العائلية خاصة بعد توقف الفتوحات الأموية، كما حدث في ثورة فلاحي قبيلتي لخم وجذام وعاملة وبلقين بقيادة المبرقع اليماني سنة 227 هـ / 829م في فلسطين والاردن[4] مما يشير هذا الى تحول ملحوظ في حياة القبائل العربية بعد انتقال السلطة للعباسين وسياستهم الخراجية ومسح اجناد الشام لاعادة النظر في ضرائب الارض في الارياف سنة زمن المأمون[5].

وكان الاقبال على امتلاك الارض قوياً حتى تحولت اراضي الصوافي في اقل من نصف قرن إلى اقطعايات وضياع خاصه بالاضافة الى شراء الارض الخراج واستغلال الاراضي الخالية.

ويرى البعض ان هذا الاقبال الشديد على شراء الارض مع اساليب الجباية، وبعض الظروف العامة ادت الى اسلوب جديد الحماية وهو الالجاء والى تحويل اراضي وقرى الى ملكيات كبيرة مما حول الاشراف الى ارستقراطية ملكية اسهمت في توسيع نطاق الاراضي المزروعة الا ان هذه الملكيات الكبيرة قد تجزأت بسبب الوراثة بالاضافة لاتجاه العباسيين في تحويل الملكيات الكبيرة الى ملكيات صغيرة، ولمباعدة العباسيين لأراضي الأمويين واحدثوا لها ديوان الضياع[6] وكانت الصفة الغالبة على الملكيات الزراعية هي المزارعة والمغارسة

---

(1) البلاذري: م س، ص 249، ياقوت: معجم البلدان، جـ3 ص 14، وجـ 4، ص 15، ص 834، الجهشياري: تاريخ الوزراء، ص 26، وابن عساكر: م س، جـ 2، ص 186.

(2) ياقوت جـ 3، ص 34، البلاذري: ن.م، ص 138.

(3) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق جـ1، ص 594-595، جـ 7، ص 176-191.

(4) ن.م، جـ6، ص 125-126، واليعقوبي، م.س، جـ2، ص 460، ط بيروت.

(5) ابن عساكر جـ 4، ص 107-108.

(6) البلاذري: م س، ص 151، قدامه، ص 241.

والمسـاقاة حيث ان كبــار الملاكيـن كــانوا لا يزرعـون اراضيهـم، بـل يعهـدون باسـتغلالها الىالمزارعين.وبالنسبة لملكية الاراضي في العصــر الأيوبـي فقد اشـارت بعض المصـادر الـى الملكية في العصر الأيوبي كالمقريزي [1] اشارات بسيطه ومعبرة بانها كانت اقطاعية في مصر والشام[2]. بالاضافة الى الوقف كما ذكرنا سابقاً.

(1) المقريزي: الخطط، دار التحرير 1967-1968، جـ 1، ص 179، حث قال: " واما منذ كانت ايام صلاح الدين يوسف ابن ايوب هذا فان اراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وامرائه واجناده".

(2) ن.م، ن.ص، وبالمقارنة كانت ملكية اراضي بلاد الشام اقطاعية عسكرية لانها في ظل نظام واحد. ن.م. ن. ص.

الحاصلات الزراعية:

اشتهرت بلاد الشام منذ القدم بحاصلاتها المتنوعة وجودة اصنافها من الحبوب[1] والخضار والفواكه وغيرها[2] وخاصة في نابلس والخليل ومعان والاغوار[3] وعمّان[4].

وبصفة عامة فقد ساعدت زراعة الحبوب في بلاد الشام على ازدهار الحياة الاقتصادية لتنوعها وجودتها[5].

ويأتي بعد الخضار في الاهمية زراعة البقول على امتداد الاغوار من طبرية وحتى البحر الميت[5] لسد حاجات الاستهلاك المحلي.

وأما الموز فانتشرت زراعته في المنطقة الممتدة من الشراة الى الحولة وفي منطقة اريحا[6] وفي نابلس[7] والاغوار[8] وعسقلان[9] وفي القدس[10].

ويسمى قاتل ابيه لأن شجرته لا تثمر الا مرة واحدة في السنة وتموت ولا يحمل الاصل الواحد الا قنواً واحدا ثم يموت، وتخلفها الاخرى من اصلها[11].

كما زرعت الكَرْمَة في نابلس[12] والخليل واعنابها تلقح مرتين في العام[13].

ويذكر ابن حوقل ان اهالي مدينة زُغر قرب البحر الميت وجميع اهل فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم بمادة الحمر المستخرج من البحر الميت لتبقى عناقيده سليمة[14].

---

(1) في السهول الخصبة والمناخ المعتدل في الكرك والشوبك والبلقاء. المقدسي: احسن التقاسيم، ص 175، والقلقشندي: م.س جـ 12، ص 211. د. يوسف غوانمه، تاريخ شرقي الاردن، ص 55.

(2) القلقشندي: م س، جـ 4، ص 86-87،88، 98،127.

(3) محمد كرد علي: م س، جـ 4،ص 149.

(4) ياقوت: معجم البلدان، دار صادر بيروت 1404 هـ/ 1984م، جـ5، ص 151، ذكر بان عمان كانت معدن الحبوب.

(5) المقدسي، ن.م، ص 180-181، ابن خرداذبه/: المسالك والممالك، ص 105، والقلقشندي، م.س جـ 4، ص 86-87.

(5) النويري: نهاية الارب، ص 78، ابن الشحنه: ابو الفضل محب الدين محمد بن الشحنة (890 هـ / 1485م) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمدالدرويش، دار الكتاب العربي دمشق 1404 هـ / 1984م.

(6) الاصطخري: المسالك والممالك، ط 59، والمقدسي، م.س ص 165-166. وكرد علي: ن م، جـ 4، ص 148.

(7) الدباغ، م. س جـ2، ص 594.

(8) د. غوانمه: تاريخ شرقي الاردن، جامعة اليرموك، عمان 1979، ص 56.

(9) كرد علي: ن م، جـ 4، ص 147.

(10) المقدسي: م.س ص 166، 170، 179.

(11) البدري، نزهة الانام، ص 353.

(12) دباغ: م.س، جـ 2،ص 594.

(13) ن. م ص 58، 1938 م ليدن ط2، ق1 ليدن ص 166-169.

(14) ابن حوقل ابو القاسم محمد: صورة الارض وانظر: امينه بيطار، م.س ص 332.

واما التين فاشتهرت بزراعته البلقاء ونابلس والرملة[1]، واكثر جبال فلسطين[2] وغزه[3] والمنطقة الممتدة بين الخليل والقدس[4].

واماالرمان فاشتهرت زراعته في البلقاء وعكا[5] والشوبك ومؤاب والسلط والكرك ومنطقة الكفارات[6]. والزيتون الذي انتشرت زراعته في معظم بلاد الشام واكثره في فلسطين[7].

وبالنسبة للنخيل فكانت الاغوار الحارة اهم مناطق زراعته[8] كما زرع في الرملة وغزة واريحا[9] وبيسان[10]. وكانت اشجار الجوز تزرع في اودية حسبان والكرك[11]. كما كثرت زراعة الجمّيز (تين الفراعنه) في عسقلان والرمله وجبال فلسطين[12].

وقد اشتهرت مناطق جنوبي بلاد الشام بزراعة البطيخ حتى اليوم [13] واما الجمضيات والليمون والنارنج والاترج والبرتقال فقد اشتهرت زراعتها في فلسطين والاردن في الاغوار وعسقلان وعمان ويافا[14].

كما كانت هناك مزروعات نقدية صناعية مثل قصب السكر في الاغوار وطبرية [15]. وزرع القطن منذ زمن الحمدانيين في مرج ابن عامر وعكا وطبرية وحيفا ويافا والقدس والخليل وغزة والحولة[16] والحلفا في الاغوار [17]

---

(1) محمد كرد علي: م س، جـ 4، ص 148. ذكر بانه افضل انواع التين في العالم: ناصر خسرو م.س ص 55. وصُدِّر للخارج.

(2) ابن حوقل: م س، ص 113 - 118، والمقدسي، م س ص 180.

(3) الاصطخري: المسالك ص 58، والقلقشندي: صبح الاعشى، جـ 2، ص 98.

(4) ناصر خسرو، م س ص 32-55، المقديسي م س ص 172-173.

(5) ابن جبير: م.س، رحلة ص 218.

(6) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 245-247،249.

(7) المقدسي، م س ص 180، وابو الفداء: ن.م، ص 240- 241. وناصر حسرو، م.س، ص 53.

(8) حتي: تاريخ سوريا ولبنان فلسطين ص 277.

(9) كرد علي: ن م، جـ 4، ص 148.

(10) المقدسي،ن م، ص 162-164.

(11) د. غوانمه: تاريخ شرق الاردن ص 56.

(12) الاصطخري: ن م، ص 44، وابن حوقل ن م،ص 159. وابن القلانسي: م س، ص 47.

(13) البدري: نزهة الانام، ص 223، والدمشقي: شيخ الربوة: شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الأنصاري (ت727هـ/1326م). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . بطرسبيرغ 1281 هـ / 1856م،ص200.

(14) انظر المقدسي، ن م، ص 181، ومحمد كرد علي:ن م، ص 147، 181، ومتز، م.س، جـ 2، ص 281-249.

(15) الاصطخري:ن م، ص 64، والمقدسي ن م، ص 183، وابن حوقل ن م،ص169، ومحمد كرد علي: ن م، جـ 4، ص 140.

(16) انظر: المقدسي، ن م، ص 176-180/ محمد كرد علي م س، جـ4، ص 167-168، وآشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في الشرق العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، مراجعة احمد غسان سبانو - 1985، ص 59.

(17) د. غوانمه: تاريخ شرقي الاردن، ص 56.

والنيلة في الاغوار والقرس (القرمز)[1] للتلوين باللون الاحمر والسمسم فـي فلسطين وعجلـون ومرج ابن عامر ويستخرج منه زيت السيزج[2].

والبيلسان لاستخراج دهن البلسم منه ويزرع في الاغوار وعجلون[3] والورود في اريحا ويضرب المثل بورودهـا وازهارهـا، والنرجس والزعفران (الـورس) فـي البلقـاء[4] والبنفسج والزئبق والقرنفل والياسمين[5].

كما زرعت الاشجار المثمرة بكثرة لاهتمام السلاطين بها حيث جلب الملك المعظم ابن العادل الاول الاغراس الى الشوبك حتى اصبحت تضاهي دمشق[6] فانتشرت زراعة المشمش في مؤاب[7] والشوبك[8] والكرك[9] كما اشتهرت البلقاء[10] ومنطقة القدس[11].

اما الدراق والكمثرى والسفرجل والخوخ فقد اشتهرت بزراعته منطقة البلقاء[12] والساحل وخاصة عكا[13].

واما النباتات الطيبيعية:

فقد اشـتهرت منذ القدم فـي المنـاطق الجبلية غير المزروعـة فـي جبـال فلسـطين وشرقي الاردن ومازالت حتىعصرنا الحاضر.

---

(1) المقدسي، م س ص 56، كرد علي م س، جـ 4، ص 148.

(2) د. غوانمه، م س، ص 56.

(3) محمد كرد علي: م س، ط2، ص 178.

(4) المقدسي:ن م، ص 180-181.

(5) الادريسي: نزهة المشتاق، ص 368، فيليب حتّي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص 254.

(6) حتّي:ن.م، جـ 1، ص 255، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بغداد، نيويورك 1958.

(7) المقدسي:ن م، ص 178.

(8) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 246-247.

(9) ن م، ن ص.

(10) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين جـ 2، ص 594.

(11) أمينه بيطار: الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومـي، دمشـق 1980، ص 333.

(12) الدباغ: ن م جـ 2، ص 594.

(13) البدري الدمشقي، أبو الوفاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ت 887هـ/ 1482م)، نزهـة الأنـام في محاسـن الشـام، القاهرة، 1341هـ/ 1923م، ص 223-224، وابن جبير، م.س، ص 218.

وبالنسبة لاستثمار الاراضي:

فقد كانت الارض تستثمر اما مباشرة من قبل مالكها اذاكانت مساحتها صغيرة او بواسطة عمال ووكلاء ونواب عن صاحب الارض اذا كانت مساحتها كبيرة[(1)].

اما أملاك الدولة الاقطاعية فكان المقطع هو المسؤول المباشر عن استثمار اقطاعه حيث يشرف بنفسه على جميع العمليات الزراعية[(2)].

وقد برع سكان بلاد الشام باساليبهم الزراعية حيث كانوا يريحون الارض سنة من الزراعة واستمر هذا حتى الآن وتعرف بطريقة تبوير الارض[(3)].

ومن خبرات الشاميين الزراعية: زراعة الاشجار الطويله في اطراف البساتين كالصنوبر والسرو كمصدات للزياح[(4)]، وكانت الاشجار في صفوف متباعدة على خط مستقيم بترك مسافات بين كل شجرة واخرى بما يقدر بعشرين ذراعا[(5)] كما عرف اهل زغر بفلسطين تلقيح كرومهم بالطلع المذكر.[(6)]

ومن الادوات الزراعية التي استخدموها المحراث الذي تجره الثيران والحمير والخيل والبغال والذي ما زال مستخدماً في بلدان البحر الابيض المتوسط[(7)]. والفأس في المناطق الجبلية[(8)] والمسماة والمذراة والمنجل[(9)] والشواحه والغربال والفورج[(10)].

---

(1) كلود كاهن: م س ص 179 – 180، وعبد العزيز الدوري: م س،ص 48-49.

(2) آشتور: م.س، ترجمة عبد الهادي عبله، مراجعة احمد غسان سبان.

(3) الماوردي: م.س، ص 167، ابراهيم طرخان: م.س، ص 242، النويري: نهاية الارب، جـ 8، ص 256-257.

(4) آشتور: ن م، ص 71.

(5) الشيخ عبد الغني النابلسي (ت 1143 هـ / 1730م): علم الملاحة في علم الفلاحة: بيروت 1979، طبعة برخصة مجلس المعارف الموقر، ص 25.

(6) ابن حوقل، ابو القاسم محمد، صورة الأرض، ط2، ق1، ليدن، 1938م، ص 162.

(7) الدمشقي، الاشارة الى محاسن التجارة، صص 38.

(8) ياقوت الحموي: معجم الادباء جـ 5، ص 168.

(9) القاسمي: محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، المسمى بدائع العزف في الصناعات والحرف، لاهاي، 1960م، جـ2، ص 424، تحقيق ظافر القاسمي محمد سعيد.

(10) القاسمي: ن.م، جـ 2، ن.ص.

معوقات الزراعة في العصر الايوبي

تعتبر الكوارث الطبيعية والاوبئه والحروب الصلبية والاهلية من المعوقات الزارعة في العصر الايوبي لانه نتج عن الحروب احراق القرى ومصادرة المواشي فقل بذلك الانتاج كما نهب الفرنجه الغلال والدراس كما حدث سنة 614هـ/1216م[1].

كما ساهمت الحروب الاهلية بين افراد البيت الايوبي في ذلك والتي ادت لحصار المدن وقطع الانهار والاشجار كما حدث سنة 590هـ/1194م وسنة 595هـ/1198م و سنة 597هـ/1130م، وسنة 626هـ / 1228م عندما خرج الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين على الملك الناصر داوود بن عيسى المعظم من دمشق على ان يقيم بمدينة الكرك والشوبك ونابلس وما بين البلقاء والغور[6].

كما اثرت اعمال البدو على النشاط الزراعي:

إذ كانت قبائلهم تسيطر على معظم الطرق الداخلية، ويقوم بعضها بقطع الطريق ونهب القوافل التجارية، وفرض الاتاوات مقابل الحراسة والدلاله[1] بالاضافة الى اغارتهم احيانا على الأراضي الزراعية مما يؤدي لخرابها[2]. بالاضافة الى الحروب بين البدو والفلاحين[3].

ساهمت قلة المطر والزلازل في اعاقة الزراعة واتلافها للمزروعات كما حدث بين عامي 552 هـ-600 هـ/ 1156م-1202م من توالي الزلازل وسنة 597هـ/ 1300م إذ تأثرت بسببها عكا ونابلس [4]. وحدث زلزال مدمر ليلة الاثير 26 شعبان 598هـ / 1201م دمرت صفد ونابلس وتبنين التي لم يبق منها الا الجدران والاساسات وسقطت معظم دور عكا ايضا[5].

(1) ابن كثير: م س، جـ 13، طبعة جديدة 1398 / 1978م، ص 71.

(6) ابن كثير: ن م، جـ 12، ص 8، 9، 11، 12، ص 77، 124. وابن خلدون: العبر، بيروت سنة 1391هـ / 1971م منشورات مؤسسة الاعلى.

(1) ابن العديم كمال الدين: م س، تحقيق سامي الدهان، طبقة المعهد الفرنسي، 1954، جـ 1، ص 201.
وابن الاثير: ن م، (بيروت 1402 هـ / 1982) دار صادر جـ 1 ص 27.

(2) ابن العديم، ن م، جـ 1 ص 257، وابو الفداء: المختصر، المطبعة الشاهنامية القسطنطينية، 1286 هـ / 1863م جـ 2، ص 147-148. والمقدسي: م س. ليدن 1906م ص 183.

(3) ابن نظيف: التاريخ المنصوري – مطبوعات مجمع الغة العربية، دمشق / 1402هـ / 1982م، ص24.

(4) ابن القلانسي: م س،ص343، ابن العديم: ن م،جـ 2،ص 30 وابن الاثير: ن م،جـ 11، ص 170، وابن نظيف، م.س: ص 25.

(5) ابن ايبك: كنزل الدرر جـ 7، ص 157، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور حسن محمد الشماع البصرة – العراق، 1386 هـ / 1967 جـ 5، ص 16.

وكذلك ادى غزو الجراد لبلاد الشام الى هلاك الزروع والثمار كما حدث عام 619هـ/1222م[1]. وزاد على ذلك خطر الفئران سنة 659هـ/ 1261م[2].

وهكذا ادت هذه العوامل الى المجاعات العامة لكافة بلاد الشام فنتج عنها نقص في الايدي العاملة بسبب الاوبئة وكثرة الوفيات فاشتد الغلاء وعَمّ والبلاء.

وهكذا نلاحظ ان حياة الفلاحين كانت عموما مستقرة في ظل الحكم الايوبي لبلاد الشام لاهتمام السلطة المركزية بالفلاحين وحمايتهم من سادتهم لذا لم يقم الفلاحون بثورات ضد السلطة حيث ان المصادر لم تشر الى ثورات الفلاحين.

الثروة الحيوانية في بلاد الشام:

لقد تضافرت العوامل القاسية على الحيوانات، من تغيرات في البيئة كالجفاف والقحط، الى افراط الصيادين في قتلها، الى ويلات الحروب المتتابعه فكان الصيد عند عرب الجاهلية رياضة ومصدر رزق في نفس الوقت كما اشار اليه الشعر الجاهلي كالنابغة الذبياني في معلقته[3].

فقد تحدث الشعراء عن اسراب الحيوانات التي كانوا يطاردونها بواسطة الحصان والكلاب السلوقيه والنبال مثل الحمار الوحشي والثور والغزلان بأنواعها والنعام والطيور وكالقطى والحباري والأرانب واليرابيع.

اما الحيوانات المفترسة في بادية الشام فكانت الذئاب والثعالب والضباع، والاسد الاسيوي والنمر والفهد، والطيور الجارحة كالصقور والعقبان والتماسيح. الا ان غالبية هذه الحيوانات قد انقرض منذ اوائل القرن الخامس عشر الميلادي[4].

---

(1) ابن كثير: م س،جـ 13ص 98. لذا فقد برع العرب في الكرك في مكافحة الجراد عن طريق طائر السمرمر الذي يأكل الجراد وذلك سنة 619 هـ / 1222 وربما يكون طائر السنونو الان. د. يوسف غوانه: امارة الكرك الايوبيه ص 191.

(2) ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق بيراندرنكه، القاهره 1402 هـ / 1982م، جـ 8، ص 85، وانظر: ابن الأثير: م.س، جـ11، ص 451.

(3) ابو زيد القرشي: جمهرة اشعار العرب ص 112 و مابعدها.

(4) ن. م، ن.ص، كرشينا فيلبس، الصحراء السورية، ص 15.

الزراعة المملوكية

الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي:

مقدمة:

لقد طبق نظام الإقطاع الزراعي في العصرين الأيوبي والمملوكي[1] كما أسهم أهل الذمة من ملاكين زراعيين وفلاحين في النشاط الزراعي في بلاد الشام ودفعوا ضريبة الخراج على أراضيهم وغلاتهم الزراعية[2]، وكانت الدولة تعاقب البدو والفلاحين والعابثين[3].

وقد حرص بعض السلاطين على ازالة بعض المكوس[4] والحوادث[5] الظالمة على البساتين والغلة في بلاد الشام أماّ الزراعة فقد اعتمدت على الامطار على الرغم من وجود بعض الأنهار، فأقاموا السدود والنواعير وانشأوا القنوات وأستفادوا من أنهارها[6].

---

(1) الماوردي، م س، ص 188، حتّي، م س، ص 104.

(2) القلقشندي، م س، جـ11، ص 32، حيث أشار الى تأثر أهل الذمة بسياسة الدولة الزراعية من حيث التوقيع الخاص بالاقطاع الأيوبي، والذي يأمر بالمعروف وعدم أخذ الرشوة وحسن الجوار، واتباع العدل بالنسبة لرؤساء أهل الذمة. وذكر النص: "... فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروسهم بالتدبير لا تذوى، ومقاصلهم لا يمازجها شك ولا شكوى..." القلقشندي، ن.م، جـ11، جـ38، توقيع صادر برئاسة اليهود، كما ذكر المقدسي مقدار الضرائب التي كانت تفرض على الأردن مائة وسبعون ألف دينار وعلى فلسطين مائتا وتسع وخمسون ألف دينار أما خراج الأردن فكان ثلاثمائة وخمسون ألف ديناراً وخراج فلسطين خمسمائة ألف ديناراً. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 189.

(3) العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج1، ص64 .

(4) المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، تحقيق من محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1957، ص 650 ذكر اسقاط السلطان، السعيد ابن الظاهر بيبرس 676-678هـ/ 1278-1280م.

(5) الحوادث: جمع حدث وهي المكوس التي لا تستند الى سند شرعي، وهي عبارة عن إحداث تجديدات في الحكومة والإدارة. دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، جـ3، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، 1981م، ص94، كما أبطل السلطان الاشرف خليل بن قلاوون (689-699هـ/ 1290-1300م) عدة حوادث بأرض مصر والشام وسامح ما تأخر من البواقي من مال الخراج.
المقريزي: ن.م، جـ1، ق3، ص 795 وكما فعل السلطان محمد بن قلاوون سنة 724هـ/ 1323م حيث ألغى مكس الغلة الظالمة على الفلاحين والتي كانت قيمتها ثلاثة دراهم ونصف من كل غرارة: والغرارة: مكيال دمشقي للحنطة، تساوي 12 كيلاً أو 72 مداً دمشقياً، القلقشندي:ن م، جـ4، ص 188. وانظر: غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص 101، وغيره.

(6) النويري:م س، جـ8، ص 255، محمد كرد علي، م س، جـ4، ص 132-133.

والمعروف لدينا أن غور الأردن كان ينتج قصب السكر الذي صدر للبلدان الأخرى أما حُسبان بمنطقة البلقاء فاشتهر واديها بأشجاره وبساتينه وكثرة مزارعه، بالإضافة الى منطقة عجلون الزراعية المشهورة حتى اليوم والمشهورة بخصوبة تربتها وكثرة أشجارها[1].

وبصفة عامة فقد اشتهرت بلاد الشام كلها شمالها وجنوبها بانتاج الزيتون الوفير والعنب ومختلف الفواكه[2] والخضروات والحبوب حيث وصلت الى حد الإكتفاء الذاتي وصدرت ما يفيض عن حاجتها الى البلدان الأخرى.[3]

كما تمتعت الأردن وجنوبها بشكل خاص بازدهار اقتصادي وعلمي وديمغرافي في العصر المملوكي فكان عدد القرى شمال الأردن وحوران 400 قرية، و300 قرية في البلقاء، و400 قرية في الكرك وانتشر العلم فيها عن طريق المساجد وتعليمهم القراءة والكتابة عن طريق أئمة المساجد.

أما الغلات الزراعية: فكان أهمها قصب السكر في غور الصافي والشوبك وصنعوه وصدروه الى أسواق فلورنسا بايطاليا وبقية الدول الأوروبية الأخرى "سكر مونتريال"أي سكر الشوبك. ومن هنا انتقلت زراعته الى اوروبا عن طريق الحروب الصلبية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وبالنسبة للطرق التجارية بين مصر والشام وبلاد الشام وبلاد الرافين فقد لعبت دوراً هاماً في جنوب الأردن، حيث أقيم عليها خدمات للمسافرين كالخانات، واشهر الخانات في العقبة، وعنيزة والحسا، والقطرانه، وضبعة[4] ومراكز قبض المكوس كمركز "بويب العقبة والثاني عند جسر الحسا".

فأصبحت الأردن بموقعها المتوسط مركزاً لعبور تجارة الترانزيت للقوافل التجارية وقوافل الخليج. مما دفع الأهالي إلى الأسواق التجارية الموسمية في الزرقاء والرمثا وزيزاء، والبثنيّة من خارج الكرك ومعان والعقبة وجاءت بمردود اقتصادي مرتفع جداً.

وفي العصر الأيوبي كانت عمّان حاضرة تجارية مزدهرة وعامرة يؤمها التجار من دمشق وبغداد، وقد حضر اليها ياقوت الحموي في تجارة لحساب سيده في بغداد[5].

(1) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص 227-229.

(2) محمد كرد علي: م.س جـ4، ص 149-150.

(3) ن.م ج4، ص 131-198.

(4) د. يوسف غوانمه، م.س ص 32.

(5) ياقوت: معجم الأدباء، جـ1 ص 18-41.

الزراعة في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي

لقد قسم المقدسي بلاد الشام الى أربعة أقسام هي[1]:

- السهل الساحلي.
- سلسلة الجبال الغربية.
- والأغوار.
- سلسلة الجبال الشرقية.

فبالنسبة **للسهل الساحلي:** الذي يمتاز بخصب التربة ووفرة المياه مما جعله صالحاً لزراعة الحمضيات والتوت والمشمش وغيرها[2].

وأما **سلسلة الجبال الغربية** في جنوب بلاد الشام فتشمل جبال الجليل ونابلس والقدس[3] وتشتهر هذه المنطقة بكثرة قُراها وحقولها الزراعية الوافرة الغلات لغزارة أمطارها وثلوجها خلال الفترة من تشرين الأول الى أيار[4]. وأما الأغوار فتشمل أيلة، وصُغر[5] وأريحا[6]، وبيسان[7]، وطبرية[8] ممتداً من أيلة الى الحولة.

ويشمل **وادي الأردن** الذي يخترقه نهر الشريعة الممتد من طبرية حتى البحر الميت حيث تعني كلمة الغور الأرض الهابطة.[9]

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 170-171 انظر خريطة حدود الممالك الفلسطينية في العصر المملوكي، سليم عرفات، النقود العربية ص 215،الملاحق.

(2) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين دار الطليعة بيروت، د.ت، جـ1، ق1، ص27.

(3) محاسنه: محمد سلامة، الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير جامعة بغداد، 1986، ص 11.

(4) ابن حوقل: أبو القاسم النعيمي، (ت 367هـ/977م) "صورة الأرض"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص 153.

(5) صُغر: زُغر في اللغة الفصحى وهي مدينة جنوب البحر الميت (البحيرة المنتنة)، ياقوت معجم البلدان، جـ3، جـ411، وسمي البحر بأسماء منها زُغر، ولوط والمقلوبة، وسدوم وعاموراء، مياهه لا تزيد ولا تنقص في الشتاء أوالصيف ويطفو على سطحه القار الأسود أو الحُمر الذي كان ينقل الى قلعة الكرك ويدخل في النفط ويستخدمه الأهلي في حماية كرومهم واشجارهم من الدود بطليه سيقانها، انظر النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ/1331م) نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، جـ1، ط25، القلقشندي: صبح، جـ4، ص 83. والأصطخري: م س، ص 64، واليعقوبي: البلدان ص 329.

(6) اريحا: مدينة الجبارين في الغور، بينها وبين بيت المقدس يوم، البغدادي، مراصد، ج1، ص 63.

(7) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال: هي لسان الأرض ين حوران وفلسطين وبها عين الفلوس، البغدادي، ن.م، جـ1، ص 241.

(8) طبرية: بليدة معروفة مطلة على البحيرة المعروفة بها، من أعمال الأردن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، فيها عيون ملحة حارة بنيت عليها حمامات. البغدادي: ن.م جـ2، ص 935.

(9) الاصطخري:ن م، ص 45، ابن حوقل: ن م، ص 160 والقلقشندي، م س، جـ4، ص 283. وانظر ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 226 حيث ذكر سبب تسميته بالغور لأنه عبارة عن "بقعة ين جبلين سائر مياه الشام تنحدر وتجتمع فيكون نهر زخّار".

ويشتهر الغور منذ ذلك الوقت وحتى الآن بالقرى الزراعية والمحاصيل المتنوعة، كالموز، وقصب السكر، والبيلسان، والنيل وغيرها[1]. وأما **سلسلة الجبال الشرقية** في جنوب الشام فهي جبال عجلون وجبال البلقاء[2] "جلعاد" وجبال الكرك[3] والطفيلة ورم شرق العقبة في منطقة البادية جنوبي الأردن وسميت مرتفعات جنوبي الأردن "بجبال الشراه"[4] وقد كستها الغابات الكثيفة[5].

لقد ازدهرت الزراعة في بلاد الشام في فترات معينة في العصر المملوكي، وخاصة جنوب بلاد الشام ذات الأشجار الوفيرة من فواكه وحمضيات وحبوب وورود وتنوع الغلات الزراعية من محاصيل شتوية كالقمح والشعير والشوفان والعدس والمحاصيل الصيفية كالذرة والدخن، والسمسم، والأرز، الكزبرة والمقاثي والقطن[6].

وقد استخدم الفلاحون والمزارعون كثيراً من الطرق الزراعية المستعملة منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر فكان من هذه الأساليب التي مارسها الفلاح الشامي تبوير الأرض (استخدام نظام الحقلين أو المناوبة) منذ العهد الروماني[7] كما عرف أنواع التربة وخصائصها[8] كما عرف

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص160-162، حمارنه، صالح: "زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين" حولية دائرة الآثار الأردنية، 1977-1978 ع22، ص 12. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 56.

(2) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، وقبضتها عمان، ومنها قرى كثيرة، ومزارع واسعة (البغدادي: م.س، جـ1، ص23.

(3) الكرك: قلعة محصنة، تقع على الحدود السورية جهة منطقة البلقاء وسط الجبال، وتقع في منتصف المسافة بين القدس وأيلة على البحر الأحمر (ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص 262) والكرك كلمة آرامية تعني القلعة أو المدينة المحصنة القائمة بأعلى تل، لذا اطلق مؤرخو الحروب الصليبية اللاتينية على كل موقع حصين بأعلى الجبل الكرك، لذا سموا الشوبك منتريال أو كرك الشوبك "كرك مونتريال". انظر: رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ2/ ص 160، ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، بيروت، دار الطليعة، ط1، أيار سنة 1966م، جـ1، ق2، ص 320، ود. غوانمه: امارة الكرك ص 48 والشوبك كلمة آرامية بمعنى "تارك" أو "ساكب" وأطلق عليها اسم "مونتريال" MontRyal أي "جبل الملوك" وحرفت سماعياً من الفرنسية الى Le kark de montveal، بين مصر وبلاد الشام وقد بناها بلدوين الأول عام 1115م لازعاج التجار المسلمين.

(4) جبال الشراه: تقع في جنوب البلقاء، وتقع خلفه الرمال التي استقر فيها الفلاحون (سترانج، فلسطين ص 87).

(5) د.غوانمه، يوسف: تاريخ شرق الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، القسم الحضاري، جمعية المطابع التعاونية، عمان، 1979، ص56.

(6) النويري: نهاية الأرب، جـ8، ص257-258، ومحمد الصالح: نتائج الصدمة الاقتصادية والغزو والفرنجة مجلة تاريخ العرب، دار النشر العربية، بيروت 1989، ع123-124، ص 97.

(7) النويري: ن.م، جـ8، ص 255-257. والفرّاء "الأحكام السلطانية" ص 169، وطرخان: النظم الاقطاعية، ص242، د. غوانمه، التاريخ الحضاري: ص 56-57.

(8) ابن حجاج، ابو عمر أحمد (من أعيان القرن 5هـ/11م): المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار ورفيقه، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 198، ص 156. الأشرف الرسولي: يوسف بن عمر بن علي الغساني (ت 694هـ/1294م): ملح الملاحة في معرفة الفلاحة تحقيق عبد الله محمد علي المجاهد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1972، ص 29، 30، 33، وابن بصّال، عبد الله محمد بن ابراهيم، عاش في القرن 5هـ/11م: كتاب الفلاحة، تحقيق خوسي ماريه مياس ومحمد عريمان، ومحمد مولاي الحسن، تطوان 1955، ص 44، 46.

السقي والزمن المناسب له[1] لتوفر العيون والينابيع والأنهار كعين سلوان المدد لبيت المقدس بواسطة الأقنية[2] بالاضافة الى عيون اخرى نقلت مياهها بالأقنية في منطقة الخليل[3].

كما يعتبر الغور من مواطن الينابيع الهامة[4]، كما تكثر في منطقة الشوبك وجبال الشراة، ومؤاب ومنطقة عجلون[5] هذا بالإضافة الى مياه الآبار والبرك التي تجمع مياهها من المطر بهدف الشرب والأغراض الزراعية كبرك بيت المقدس[6] وآبار مدينة عسقلان في فلسطين[7]، وقد استخدموا ثلاثة طرق للري:-

أولاً: الآلات مثل الناعورة التي تدار بقوة المياه الجارية في النهر حيث يرفع الماء بدلاء مربوطة بدولاب الناعورة[8].

والدالية: التي تعمل على نفس مبدأ الناعورة ولكن تدار بواسطة حصان أو ثور[9].

والشاذروان في العصر المملوكي: وهي عبارة عن ألواح خشبية تدعمها أعمدة من الخلف لترفع مستوى المياه في النهر لسقي الأراضي المرتفعة[10]، كما استخدم الفلاحون الشادوف لرفع الماء من البئر[11] والدلاء العادية.

وقد اعتمد الفلاحون في جنوب بلاد الشام لتوفير المياه على الينابيع وتشييد الصهاريج لتجميع ماء المطر لسد حاجاتهم بالإضافة الى الآبار والقنوات[12].

ثانياً: القنوات لري الأراضي الزراعية ذات الانحدار الخفيف كقناة الرملة، وقناة ابراهيم في منطقة الخليل[13].

---

(1) البدري: أبو البقاء عبد الله بن محمد المصري الدمشقي، (ت 877هـ/482م): نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، مصر، (د.ت) ص 90.

(2) القلقشندي: م س، جـ2، ص 179، النابلسي: المختار، تحقيق احسان النمر، نابلس 1972، ص 46-47.

(3) غوانمه: بيت المقدس، ص 13.

(4) فالح: الحياة الزراعية، ص 33، 34.

(5) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 213، البغدادي، م.س، جـ2، ص 2566، القزويني، م س، ص 259.

(6) النابلسي "التحفة النابلسية"، ص 38، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 156.

(7) ابو الفداء، تقويم البلدان، ص 239، 295، النويري: نهاية الأرب، جـ1، ص 277، وابن طولون "القلائد"، ق1، ص 37.

(8) تقي الدين الراصد، محمد بن أحمد بن يوسف (ت 993هـ/1985م): الطرق السنية في الآلات الروحانية، تحقيق أحمد يوسف 1976، ص 56.

(9) الدوري: تاريخ العراق، ص 51.

(10) دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1990، ص 95.

(11) Watson, Agricultural: p. 108.

(12) البغدادي: راصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي البجاوي بيروت، 1957، جـ3، ص 1316. والقزويني: آثار البلاد ص198.

(13) ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 271، 291، فالح: الحياة الزراعية، ص 26.

ثالثاً: الجسور والقناطر على الأنهار: لانتقال الفلاحين الى حقولهم والتبادل التجاري[1] بين القرى والمدن ونقل المياه من النواعير الى قنوات تصل المزارع والمدن. وقد اهتم السلاطين ببناء الجسور والقناطر كالظاهر بيبرس الذي أمر ببناء جسر على الشريعة (نهر الاردن) عام 664هـ/1266م، حيث كلف الأميرجمال الدين بن نهار الصالحي لبنائه من أموال دمشق على أن يكون خمس قناطر[2]. وكان الفلاحون يقومون بعملية كرمي الأنهار والقنوات لتنظيف مجراها والأوساخ التي تعيق جريان الماء خلال شهري شباط وآذار[3] كما كانت عملية توزيع المياه تتم بالتناوب بالأيام والساعات.

وبالنسبة لأهم المحاصيل الزراعية في بلاد الشام في العصر المملوكي:

فقد كان القمح والشعير من أهم المحاصيل الزراعية في جنوبي بلاد الشام التي تعتمد على مياه الأمطار مما تسبب في تذبذب الانتاج وعدم كفايته محلياً واستيراد القمح والشعير من الديار المصرية[4]. وكان لانتاج جنوب بلاد الشام من القمح والشعير أهمية كبيرة زمن المماليك الذين خزنوا كميات كبيرة في اهراءات خاصة كاحتياط للازمات الغذائية أيام القحط في مصر[5] وغيرها كما حدث عام 736هـ/1335م عندما كتب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى نائب غزة والكرك والشوبك وغيرها ليحملوا الغلال الى مصر وكانت مناطق الصلت[6] والبلقاء وعمّان من أهم مناطق جنوب بلاد الشام خصباً ونماءً وخاصة القمح حتى وصفوا عمان بمعدن الحبوب لجودة حنطتها كما كانت مع الصلت المصدر الرئيسي لتزويد بيت المقدس وبعض المدن الفلسطينية إبان الاحتلال الصليبي لفلسطين.

---

(1) الزهري: ابو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط القرن 6هـ/ 13م) كتاب الجغرافية، تحقيق محمد صادق، (د.م، د.ت) ص 89.

(2) ابن عبد الظاهر: م س، ص 246. النويري: نهاية الأرب، جـ3، ص121.

(3) العطار الدمشقي: محمد بن حسين (ت 1243هـ/1827م) علم المياه الجارية في مدينة دمشق، تحقيق أحمد غسان سبانو ط، دار قتيبة، دمشق، 1984، ص 178. وأبو الفداء: المختصر، جـ4، ص 94.

(4) النويري: ن م، جـ8، ص 257-258، ومحمد الصالح، م.س، ص 97.

(5) اليوسفي محمد بن يحيى (ت 759هـ/ 1358م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، ط1، عالم الكتب بيروت، 1986، ص 300، وانظر غوانمه: التاريخ السياسي، ص 47، حيث جهز السلطان الظاهر بيبرس الطواشي جمال الدين محسن بخمسمائة غرارة من الكرك ليفرقها على الضعفاء بسبب القحط والجفاف كما استطاع نائب غزة الأمير أقسنقر أن يجمع من بلاد الشوبك ثلاثة آلاف غرارة شعير عام 742هـ/ 1341م. البخيت، محمد عدنان: مملكة الكرك في العصر المملوكي، 1976، ص 34.

(6) الصلت: بليدة وقلعة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها وهي تقابل اريحا مشرفاً على الغور وينبع من تحت قلعة الصلت عين كبيرة يدخل ماؤها بلدة الصلت، وللصلت بساتين كثيرة، وحب الرمان مجلوب منها، ابو الفداء تقويم البلدان، ص224.

سبّبَ نزوح السكان عن الساحل الفلسطيني ورفضهم زراعة القمح لتجويع الفرنجة إذ اشترط صلاح الدين الأيوبي على أخيه العادل بعد تحرير القدس إرسال ستة آلاف غرارة من القمح من الصلت والبلقاء الى القدس[1].

أما محصول الأرز في جنوب بلاد الشام فكان محدوداً في مدينة بيسان في غور الأردن[2] ومدينة صفد ومنطقة الحولة التي كانت تزود دمشق بالأرز[3].

وبالنسبة للخضروات: فقد عرفت جنوبي بلاد الشام في العصر المملوكي زراعة أصناف مختلفة من الخضروات كالبصل[4]، والملفوف، والقرنبيط، والباذنجان والبامية، واللفت والفجل والثوم والرشاد والقلقاس والكوسا والسلق[5] والبطيخ والشمام حيث اشتهرت نابلس بالبطيخ الأصفر الزائد الحلاوة[6] واشتهرت الأغوار في الأردن بالبطيخ المخطط كثير الحلاوة[7] وقد كان البطيخ علاجاً لمرض الطاعون في العصر المملوكي[8].

وقد كان لهذا الازدهار الزراعي الاثر الكبير في التوسع نحو الانتاج الصناعي، وخاصة استثمار الفائض من المحصولات الزراعية النقدية التي قامت عليها الصناعات مثل القطن والقنب في الحولة، وبيسان، واريحا[9]، وقصب السكر الذي كان يزرع في الأغوار حيث بنوا معاصر السكر[10] مما جعل سلاطين الأيوبين والمماليك يتخذونها إقطاعات خاصة بهم مثل الغور الشمالي الذي كان إقطاعاً للملك الناصر داود وأبنائه من بعده[11].

---

(1) ابو الفداء: المختصر، جـ3، ص85، ابن الوردي: م س، جـ2، ص 104، وياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص185، وغوانمه: امارة الكرك، ص168.

(2) عماد الدين خليل: فلسطين في الأدب الجغرافي والعربي، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام 1980، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1983م، م2، ص42.

(3) صالح بن يحيى، بن صالح بن الحسين بن أمير العرب (ت بعد سنة 840هـ/1436م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي دار المشرق، بيروت 1967، جـ2، ص 67.

(4) اشتهرت به مدينة عسقلان في فلسطين حتى اعتبر نباتاً خاصاً بها البصل العسقلاني، حتي: سوريا، جـ1، ص 325.

(5) ابن البيطار: ضياء الدين عبد الله بن احمد الاندلسي، (ت 664هـ/1268م)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية جـ3، ص 65.

(6) ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص 86، شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 200.

(7) الغزي: محمد بن احمد العامري رضي الدين (ت 935هـ/1528م)، "جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الملاحة" ميكروفيلم عن مخطوطة محفوظة بدار الكتب السلطانية رقم 134 زراعة، مجموعة أ، د. محمد صالحية ورقة 161.

(8) ابن الصيرفي "نزهة النفوس، جـ1 ص170،

(9) المقدسي: م س، ص362، القزويني: م س، ص 208، وابن الشحنة: م س، ص264.

(10) أبو دلو: ربى احمد "معاصر السكر في الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير في معهد الآثار، جامعة اليرموك، 1991، تحتوي على معلومات عن المسوحات الأثرية، وحمارنه: "قصب السكر" حولية دائرة الآثار، ع22، ص14-15.

(11) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 107.

والزيتون: الذي اشتهرت به فلسطين منذ عصر اليونان[1]. فكانت نابلس أكثر بلاد الشام زيتوناً[2] واشتهرت بزراعته كل من بيت المقدس[3] وبيت لحم والخليل[4] وقرية كفر كنا[5]، ويافا، وأرسوف[6]، وعسقلان[7]، وفي جنوبي الأردن في منطقة البلقاء ووادي موسى والحميمة[8] والكرك بالإضافة الى الكفارات وعجلون شمالي الأردن[9].

كما اشتهرت بلاد جنوب الشام بزراعة شجرة العنب أو الكرمة وجمعها كروم، وكان موعد قطف العنب عند النصارى يسمى عيد الصليب في اليوم الثالث عشر أو الرابع عشر من شهر أيلول، وعيد الزبيب في الخامس عشر من محرم أيام الدولة المملوكية[10]، ففي فلسطين اشتهرت كل من يافا وأرسوف في الساحل الفلسطيني[11] ورفح، ونابلس وبيت المقدس والخليل بزراعته. أما في شرقي الأردن فكانت زراعته في جبال عجلون، والبلقاء، والشراه، ومؤاب، وبيت راس المشهورة بنبيذها الذي تغنى به الشعراء[13] وكان معظم الانتاج يحول الى زبيب ودبس وخمور في المناطق الداخلية[13].

واشتهرت زراعة التين في بيت لحم[14] والخليل[15] وغزة[16] وسائر مناطق الاردن بالاضافة الى التين في جبال القدس والخليل[17]، وأما الرمان فاشتهرت بزراعته بلدة الصلت[18]

---

(1) ابن الشحنه: الدر المنتخب، ص 149.
Rusell: Michael "Palestine of the Holly Land" Third edition, 1833, p. 161.

(2) العليمي الحنبلي: الأنس الجليل، جـ2، ص75.

(3) السيوطي: اتحاف الاخصّا، ق2، ص 196،
Wikinnson: John "Jerusalem Pilgrims Before the Crusades", 1977, p. 82.

(4) ابن شداد "الاعلاق الخطيرة، جـ2، ق2، ص 239.
Wikinnson "Op. Cit" p. 123.

(5) بيركهارت "سورية"، جـ2، ص 67.

(6) الادريسي: نزهة المشتاق، جـ4، ص 364.

(7) ابن الوردي: زين الدين بن مظفر (ت 749هـ/1348م) خريدة العجائب، تصحيح احمد سعد علي، ط2، القاهرة، 1939، جـ 390.

(8) الباكوي: عبد الرشيد صالح، (من أعيان القرن 9هـ/ 16م) تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، ترجمة ضياء الدين ابن موسى، موسكو 1971، ص 64.

(9) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 55.

(10) صفوح: خير، غوطة دمشق، دراسة في الجغرافية الزراعية، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، 1966، ص 489.

(11) الادريسي: نزهة المشتاق، جـ4، ص 364.

(13) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 105.

(13) فضل الله: جغرافية لبنان، ص 131.

(14) ابن حوقل: م س، ص 159.

(15) الاصطخري: مسالك، ص 58، والمقدسي: أحسن التقاسيم، ص 163.

(16) القلقشندي: م س، جـ4، ص 98.

(17) المقدسي: م س، ص 183 .

(18) السّباهي زادة: محمد بن علي (ت 997هـ/1588م) أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، ميكروفيلم عن مخطوطة ليدن، المخطوطة بمركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية رقم 559، ورقة 66.

منطقة شمال الأردن وكذلك النخيل في الساحل في حيفا وقيسارية[1] وعسقلان[2] وايلة[3] وفي الداخل وفي بيسان[4] وأريحا والرملة[5]، والجفار[6].

وكثرت زراعة الحمضيات في الساحل الفلسطيني والأغوار كالاترج والنارنج والليمون والأسكي دنيا والجريب فروت وزرع الموز في أغوار الأردن وبعض مناطق الساحل الفلسطيني[7] وقد عرف في العصر المملوكي الصبر والجلوز[8] "البندق"، والخروب والبطم والسماق. والمشمش في اودية الشوبك والطفيلة جنوب شرقي الأردن[9].

كما اهتم سلاطين المماليك بزراعة الرياحين والورود في بلاد الشام التي تغنى بها شعراء المماليك[10]، وكانت تستخرج منها العطور[11] التي صدرت الى بلاد الحجاز والهند والسند والصين وغيرها[12]، واشتهرت طبرية بالياسمين[13] وكان سيد الرياحين الآس الأحمر المجوسي في غور الأردن[14].

هذا بالإضافة الى الاشجار الحرجية والغابات والمراعي التي تنبت في الجبال والبراري والسهول والأودية وضفاف الأنهار، دون جهد ومنها: أشجار البلوط، والخروب، والسماق، والصنوبر والعرعر، والحور، والصفصاف، والسنديان، والبطم، وغيرها. واشهر مناطقها جبل الكرمل[15] في فلسطين والسهل الساحلي في نيابة صفد، والقدس، وجبل النبي يوشع[16]، وقرية

---

(1) ناصر خسرو: م س، ص 50.

(2) اسحق المنجم: أكام المرجان، ص 13.

(3) المقريزي: الخطط، ط، جـ1، ص 340.

(4) ياقوت "المشترك"، ص 79، والادريسي :م س، ص 536.

(5) Watson: Andrew, "A Medieval Green revelution New Crops and Forming Techniques in the Early Islamic World, The Islamic Middle East 1960, pp. 7, 23.

(6) المقدسي:م س، ص 155-162.

(7) القزويني: آثار البلاد، ص 142، 162.

(8) ابن البيطار: الجامع، جـ1، ص 119، 166.

(9) ابن سعيد: "الجغرافيا"، ص186، ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص 504.

(10) النويري: م س، جـ11، ص 185، القصري "كتاب الورد"، جـ2، ص 39.

(11) شيخ الربوة: م س، ص 196.

(12) ابن طولون: تاريخ المزة، ص 35.

(13) ناصر خسرو: ن م، ص 49.

(14) ابن العوام "الفلاحة" مخطوطة ورقة 302.

(15) القساطلي، الروضة،ص117، فالح، الحياة الزراعية،ص117، كرد علي،م س،6 أجزاء،ط2،(د.ت) بيروت1969م،جـ4،ص4.

(16) بيركهارت: سوريا الجنوبية، جـ2، ص 77.

عسقلان وفي شرقي الأردن انتشرت الغابات في جبال عجلون والبلقاء[1] والتي مازالت حتى اليوم. والغور المليء باشجار السدر حول بحيرة الحولة وطبرية وغور بيسان[2] واشجار الجميز والعرعر في الغور[3] وعسقلان والساحل[4]، هذا بالاضافة الى المراعي الخصبة للسلاطين[5]، كما كثرت المروج "المراعي الواسعة" كمرج ابن عامر في فلسطين[6]، وكان من أشهر المراعي في شرقي الاردن مراعي البلقاء التي تنازع عليها قبائل العدوان وبني صخر[7].

ومن الأخطار التي تعرضت لها هذه الغابات والمراعي تقطيعها لغرض التجارة وتأثرها بثورات البدو وحروب المماليك مع الصليبيين والمغول "التتار". كما فعل صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ/1187م بغابات الكرك التي أمر بقطعها وإحراق غلاتها عندما قدم لمحاصرة أرناط أمير الكرك لحرمان الفرنجة من ثمار كرومها وزيتونها[8]، وفي زمن المماليك فعل ذلك السلطان الظاهر بيبرس عام 663هـ/1265م عندما فتح مدينة عثليت في فلسطين[9]، إلا أن بعض السلاطين أعطى فرصة للفلاحين والجنود باستغلال المواسم الزارعية على الرغم من تقطيعهم لاشجارها واتلافهم لمزروعاتها لاهداف عسكرية كما حدث عام 663هـ/1265م عندما سأل الفرنجة نواب السلطان أن يأذنوا لهم في زراعة البلاد وجني غلاتها[10].

وبالنسبة لغارات العربان على المزارع والكروم والمقاثي فكانت تسبب أضراراً كبيرة تؤثر على الوضع الاقتصادي والغذائي، مما دفع بعض السلاطين لتجهيز حملات لتأديب هؤلاء العربان كما حدث عام 796هـ/1396م حيث قاد نائب الشام حملة عسكرية الى البلاد القبلية

---

(1) فالح: الحياة الزراعية، ص 166.

(2) ن. م، ص 116.

(3) الدمياطي: معجم الأسماء، ص 36.

(4) البغدادي: الإفادة والاعتبار، جـ12، ص 22.

(5) ابن عبد الظاهر: م س، ص339 العيني: م س، جـ2، ص 40.

(6) ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص 416.

(7) بيركهارت: م س، جـ2، ص 94، من الامثال الشعبية منها "مثل البلقاء ما بنقلي".

(8) العماد الكاتب الاصفهاني: م س، (د.ت)، ص 59، 60.

(9) المقريزي: السلوك، جـ1، ق1، ص 513، وكانت تسمى الحصن الساحلي الأحمر للداوية.

(10) ابن عبد الظاهر: م س، ص 178، النويري: م س، جـ3، ص 95.

بسبب الأضرار التي سببها العربان من اعتدائهم على الفلاحين مما جعلهم يهربون وتمكن الناس من جمع غلاتهم(1).

وهكذا كان للحروب الأهلية بين المماليك وغارات البدو ونزاعهم بعد استغلالهم ضعف السلطة المركزية المملوكية أثراً على الحياة العامة من تخريب المدن وقطع الطرق والنهب والسلب ناهيك عن الآفات الطبيعية من جموع الجراد الصحراوي(2) والأوبئة التي كانت تهلك الحرث والنسل بالإضافة للجفاف وانحباس المطر.

ويتضح لنا من هذا العرض بأن الزراعة في جنوب بلاد الشام قد ازدهرت بتنوع اشجارها وثمارها وحبوبها بدليل كثرة الانتاج وتنوعه وامداد البلاد المجاورة به وقت الأزمات الاقتصادية غير أن العوامل الطبيعية والبشرية أثرت على الزراعة في فترات زمنية مختلفة مما تسبب في تدهور انتاج المحاصيل في العصر المملوكي.

انظر الملحق.

أصناف الاراضي الزراعية:

1 - **أرض الخراج:** والمقصود بها الأراضي التي تؤخذ منها ضريبة الخراج وتقسم الى ستة أقسام هي:-

- الأرض المفتوحة صلحاً تكون للمسلمين، ويسكنها أهلها من غير المسلمين بخراج معلوم يؤدونه فهي ارض فيء.
- الأرض المفتوحة عنوة ويوقفها السلطان على مصالح المسلمين.

---

(1) ابن صيصري "الدرة المضيئة"، ص 161.
البلاد القبلية، يقصد بها جنوب بلاد الشام وتشمل ولاية البلقاء ونيابة عجلون ومنطقة الأغوار، فكانت تابعة لنيابة دمشق ضمن صفقتها القبلية ويقول ابن فضل الله العمري: "وهذه الصفقة أولها من الجهة القبلية ومدينتها حسبان ثم الصلت ثم عجلون، وجبل عوف، ومدينة الباعونة، وعجلون اسم القلعة" ابن فضل الله العمري: التعريف ص178،وانظر ص110،والقلقشندي م س، جـ4، ص103.

(2) المقريزي: السلوك، جـ2، ق2، ص622-623، حيث غزا الجراد القدس وغزة الذي أكل الثمار كلها عام 743هـ/1742م. وزحف الجراد عام 1725/726 على البلقاء ووصل الى مصر فكال شعير تلك السنة، المقريزي: ن.م، جـ2، ق3، ص702-703 وزحف عام 770هـ/1368م من مكة للشام وكان أكثره بحوران والأردن حتى أكل الأشجار والأخشاب وأبواب الدور القلقشندي: ن م، جـ1، ص457.

- الأرض التي تخلى أهلها عنها خوفاً من المسلمين، فتصبح وقفاً للمسلمين، ويدفع خراجها من ينتفع بها مسلماً كان أو ذمياً.
- أرض الموات التي اشتراها الذمي من أراضي العشر فتصبح أرضاً خراجية[1].
- أرض الموات التي أحياها ذمي.
- أرض الموات التي أحياها مسلم، وكانت أقرب الى الأرض الخراجية منها الى الاراضي العشرية.

وكان الخراج نوعان:-

الأول: خراج مقاسمة: وهو ضريبة نسبية من محصول الأرض كالخمس والربع، والثلث، فإذا عطّل الفلاح الأرض فلا يجب عليه الخراج.

الثاني: خراج وظيفة: وهو مبلغ معين من المال يدفع سنوياً عن الأرض الزراعية سواء انتفع بها أم لا[2].

وبالنسبة لمقدار الضريبة على الأرض الخراجية: فكانت تقدر حسب جودة الأرض أو رداءتها وهي الغلة، قلتها وكثرتها، ونوعية الماء التي تسقى بها، ونوعية زروعها[3]. والموظف المسؤول على الأراضي الخراجية كان يسمى مباشر الخراج الذي يلزم رؤساء البلاد بحرثها وزراعتها[4].

وكانت معظم أراضي الشام إقطاعات استغلال (عشر وخراج) حيث يقطعها السلاطين الى الأمراء والأجناد مقابل تأديتهم للخراج الى بيت المال. وقبل الروك الناصري لبلاد الشام ومصر عام 713-715/1313-1315م كان للجوالي ديوان مستقل، ولكن بعد الروك الناصري أصبح جوالي كل بلد تضاف الى متحصل خراجها[5].

---

(1) ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد، (ت 681هـ/1280م) شرح فتح القديرة، ط3، دار الفكر، بيروت 1977، جـ6، ص32، 33، 34، 40، 42.

(2) النويري: م س، جـ8، ص 257.

(3) ابن جماعة "تحرير الأحكام"، ص 103.

(4) النويري: م.س، جـ8، ص 257، ذكر أن مصطلحهم في ذلك أن يقول المباشرة أحمر وأخضر فالأحمر يعني الكرب "الحرائة أو بالأخضر: الزرع شتوياً أو صيفاً".

(5) الروك: مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال ويعمل كل ثلاثين سنة وهي مأخوذة من كلمة روش ومعناها قياس الأرض بالحبل، المقريزي، السلوك، جـ2، ق1، ص 146.

2- **أرض العشر:** وهي الأرض التي تجب عليها الزكاة.

3- **أرض الموات:** وهي الاراضي التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحدفكان السلطان يقطعها لمن يحييها، فأصبحت نوعاً من أنواع إقطاعات التمليك ووجد في بلاد الشام أراضي موات[1].

وكان من طرق استغلال الأرض في العصر المملوكي عند الفلاح الشامي:-

أولاً: طريقة الاستثمار الشخصي: وهي التي يقوم بها صاحب الأرض بزراعتها مباشرة بمساعدة أفراد عائلته في المساحات الصغيرة على عكس المساحات الكبيرة التي يستأجر لها عمالاً بأجر يومي أو أسبوعي أو موسمي أو بأجور عينية كحصة من المردود أو الغلة، كما لجأ صاحب الأرض في بعض الأحيان الى تأجير الأراضي سنوياً لقاء مبلغ من المال[2] بالإضافة الى طريقة أخرى على اساس المشاركة بين المالك والفلاح لقاء أجر عيني من منتوج الأرض ومن الجدير بالذكر الى أن هذه الطرق مازالت مستخدمة في قرانا الأردنية حتى اليوم.

ثانياً: المزارعة: وهي طريقة استغلال الأرض الزراعية باشتراك المالك والمزارع "الفلاّح"، في الاستغلال حيث يكون البذار من المالك، والجهد على الفلاح، فيقسم الناتج بينهما بنسبة تذكر في العقد أو العرف[3] كالربع أو الثلث. فالامير (تنكز) اشترط في وقفيته استغلال أرض الضيعة الموقوفة بطريقة المزراعة[4].

ثالثاً: المساقاة: وهي شركة زراعية لاستثمار الشجر من جانب رب الشجر مقابل العمل في سقيه وتعهده بالرعاية الزراعية بواسطة المساقي، فيقسم التمر بينها بنسبة يتفق عليها الطرفان كالثلث أو النصف[5].

---

(1) ابن جماعة: تحرير الأحكام، ص108، وأبو يوسف: الخراج، ص64.

(2) السبع محمد: أسس الزراعة ونظمها عند العرب، الندوة العالمية الثالثة، لتاريخ العلوم عند العرب بعنوان: "اسهامات في علم الملاحة" 1983، ط1، مؤسسة الكويت، ص 94.

(3) الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب الشيرازي: القاموس المحيط، ط3، المطبعة الأميرية، مصر 1300م، جـ3، ص 33، مادة زرع. هذا وقد اختلف الفقهاء في جواز المزارعة أو النهي عنها، إلاّ أن الرسول (ص) عمل بها وأصحابه من بعده بمعاملته أهل خيبر شطر ما يخرج منها من زرع أو ثمر: ابو يوسف: الخراج ص 50-51. والسبكي: تقي الدين، (ت 728هـ/1327م)، الفتاوي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب بيروت، جـ1، ص 401.

(4) العسلي: كامل، وثائق مقدسية تاريخية، ط1، مطبعة التوثيق، عَمان، 1983، جـ1، ص 119.

(5) سابق، سيد، فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت) جـ3، ص 343. والأصل في المساقاة هو معاملة الرسول (ص) ليهود خيبر حيث ساقاهم على النصف من سوادها والنصف من بياضها مقابل تعهدهم بما يلزمهم من أعمال، وسار الشاميون على نهج السنة. السبكي: فتاوي، جـ1، ص 415. أجازها السبكي كطريقة المرابعة أي للمالك ثلاثة أرباع الانتاج وللفلاح ربعاً مقابل تقديم المالك الأرض وبقر الحراثة والبذار "التقاوي". وعلى العكس يأخذ المالك الربع أو الخمس والفلاح ثلاثة أرباع المحصول إذا قام الفلاح بالزراعة وقدم البذار وبقر الحراثة مقابل تقديم المالك الأرض فقط. انظر: السبع: أسس الزراعة، ص 95، النويري: نهاية الأرب، جـ7، ص106، 107. Ziadeh "Urban Life", P. 43

رابعاً المغارسة: وهي عقد بين طرفين هما: صاحب الأرض والمغارس الذي يقوم بغرس الشجر مقابل حصة معلومة من الأرض والشجر كالربع أو الثلث او النصف حسب الشروط المتفق عليها بينهما في العقد[1].

وتختلف مدة الاتفاق بحسب نوع الشجر فالزيتون يحتاج من 10-12 سنة حتى يثمر والكرمة من 4-6 سنوات، لذا وجب ذكر جنس الغرس ونوعه لاختلاف نوع الاشجار في وقت الاثمار[2].

ويحق للفلاح خلال المدة المتفق عليها أن يزرع الأرض البيضاء حتى يكبر الشجر ولصاحب الأرض النصيب الأكبر دائماً في المغارسة كما يجري الآن في بلادنا[3].

خامساً المقاسمة: وهي تقسيم المحصول السنوي بين المالك والمزارع بنسبة متفق عليها[4]، وكانت هذه النسبة تختلف باختلاف الأرض المزروعة فأراضي السقي تكون مناصفة بينما في معظم بلاد الشام مثالثة أو مرابعة[5]، أما المزارع الخالية من السكان تكون مخامسة أو مسادسة، والنواحي المجاورة للبحر عند حدود العدو فالنسبة مسابعة ومثامنة[6].

سادساً: الضمان أو التضمين: وهي اتفاق بين صاحب البستان ورجل آخر بحيث يدفع له مبلغاً معيناً من المال لقاء جني محاصيل الزيتون أو ثمار الفاكهة، فقط دون القيام بأي عمل زراعي آخر[7]، وذلك منذ بداية عقد الثمار على الاشجار[8] وينتهي هذا العقد مع انتهاء موسم القطاف.

ومازال هذا شائعاً في الأردن وفلسطين منذ العصر الأموي وحتى عصرنا الحاضر، كما يلاحظ سلبيات هذا الأسلوب على طرفي العقد إذ قد تحصل خسارة لصاحب

---

(1) الأجهوري: علي بن محمد (ت 1067هـ/1656م)، رسالة المغارسة، ميكروفيلم عن مخطوطة مكتب الكونجرس المحفوظة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية-عمان، تحت رقم 464 ورقة 1.

(2) ن.م، ورقة 2.

(3) السبع: أسس الزراعة، ص 96.

(4) المعجم الوسيط، جـ2، ص 734، مادة قسم. Ziadeh "Urban Life", P. 43

(5) النويري: نهاية الأرب، جـ9، ص 103.

(6) ن.م، جـ9، ص 104، ص 43-44. Ziadeh, Urban Life, p. 43

(7) السبع: أسس الزراعة، ص96.

(8) ن.م، ص 97، وانظر العلبي "دمشق"، ص 235.

المال بسبب العوامل البيئية والمناخية، وتدهور الاسعار، كما يتضرر صاحب البستان في اشجاره إذا لم تكن الطريقة سليمة وعلمية وخاصة في محصول السنة الثانية.

سابعاً: تأجير الأرض: وهو مقابل من المال باتفاق صاحب الأرض والفلاح على تحديد نوعية المحصول في العقد[1]. فتأجير الأرض بالنقد كان وما زال شائعاً في بلاد الشام حتى عصرنا الحاضر حتى أنه كان وما زال يوجد تسامح بين الناس بإعارة الأرض للفلاح دون أجرة. كما أنه قد يزرع صاحب الأرض أرضه، ويحصدها شخص آخر، وتعرف هذه الطريقة بالمخابرة[2] على الزروع، بحيث يأخذ صاحب الأرض محصولاً من ناتج الأرض لا مالاً و عليه تكون المزارعة والمخابرة شيئاً واحداً[3].

ويلاحظ تشابه هذه الطريقة بطريقة التسليف النقدي على ثمار الأشجار كالكروم والزيتون بما نستطيع تسميته استثمار الثمر مقابل تقديم المال قبل جني الشجر.

(1) أبو يوسف: الخراج، ط9، 92، وابن تيمية "الفتاوي" ص 152.

(2) النووي: تهذيب الاسماء واللغات، جـ1، ق2، ص 87.

(3) فالح: الحياة الزراعية ص 71.

الصناعات في جنوبي بلاد الشام

كانت الصناعة في العصرين الأيوبي والمملوكي تقوم على الانتاج النباتي والحيواني والمعدني كصناعة الخمور والسكر والنيل والصابون والزيت والبلسم والحصر وطحين الدقيق والفحم النباتي والمنسوجات والبسط والمراكب والنفط والسيوف والأقواس والكنائن والنبال، والخشب المرخلف المنقوش، والصياجة، وصناعة التحف الخزفية والتعدين للحديد والكبريت والنحاس والرخام وغيرها وسنورد بعض المعلومات الموجزة عن هذه الصناعات.

الصناعات القائمة على الانتاج الزارعي:

لقد اعتمدت هذه الصناعات على الانتاج الزراعي والحيواني لتوفر المحصولات الزراعية سابقة الذكر لكثافة الأشجار وخاصة الزيتون في شرقي الأردن وفلسطين، فكان زيت الزيتون – وما زال –أكثر السلع القروية للتصدير الى المدن والى خارج البلاد والحجاز والبراري مع العربان. فقد انتعشت صناعة الزيتون لاهتمام سلاطين المماليك به لجودته ونقاوته وقيمته الغذائية[1].

هذا بالاضافة الى صناعة الصابون النقي "الصابون النابلسي" القائمة على زيت الزيتون والذي كان يصدر الى البلاد الحجازية والمصرية الشامية والرومية[2].

وكان السكان في فلسطين يخزنون الزيت في الآبار والأحواض[3] تمهيداً لبيعه، لذا فرض السلاطين ضريبة على تجارة زيت الزيتون في بيت المقدس والرملة والخليل مقدارها خمة عشر ديناراً ذهبياً على القنطار الواحد مما أدى لخسارة كبيرة للتجارة لزيادة الضريبة عن ثمن البيع البالغ بستة دنانير[4].

كما سمي زيت بلاد الشام "بالزيت الركابي" لحمله على الابل بينما سماه المصريون بالزيت الفلسطيني[5]، لذا كثر انتشار المعاصر اليدوية في معظم قرى جنوب بلاد الشام والتي تدار بواسطة الحيوان، بالاضافة الى المعاصر القديمة المسماة بالمعاصر الرومية[6].

---

(1) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 84.

(2) شيخ الربوة: م.س، ص 200، زيادة، رواد المشرق، ص 183.

(3) ناصر خسرو: سفرنامه، ص 153، د. غوانمه، بيت المقدس، ص 77.

(4) غوانمه: بيت المقدس، ص 77، والقنطار مائة كغم حالياً، والقنطار مائة كيلوغرام.

(5) الرازي: القولنبح، ص 217، ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص 63.

(6) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، جـ1، ص 33، غوانمه: دراسات ص91.

ومن أكثر المناطق التي اشتهرت بمعاصرها "مملكة صفد" في شمال فلسطين فبلغت أربعاً وعشرين معصرة في عكا، وثلاث وعشرة في طبرية وكانت القرية الواحدة تحتوي معصرة واحدة[1].

وقد دلت التنقيبات الأثرية على وجود العديد من المعاصر الرومانية والاسلامية في معظم قرى فلسطين وشرق الاردن.

صناعة الخمور:

لقد اشتهرت جنوب بلاد الشام بزراعة الأعناب "الكروم" على سفوح جبالها في منطقة شرقي الأردن كجبال عجلون والبلقاء ومؤاب والشراة فقامت عليها صناعة النبيذ[2] وخاصة في مدينة بيت راس شمالي مدينة اربد شمالي الاردن والتي ذاع صيت خمرها لجودته منذ العصر الجاهلي حيث تغنى به الشاعر حسان بن ثابت على البحر الوافر[3].

وقد انتعشت صناعة الخمور أيام الصليبيين في جنوب بلاد الشام حتى استردها المماليك الذين سمحوا ببقاء بعض الحانات الخاصة في الكرك والشوبك مقابل ضريبة المغاني[4]، هذا وقد ساهم في نجاح هذه الصناعة توفر بساتين الكروم على سفوح جبال فلسطين وعجلون والبلقاء ومؤاب والشراة. كما شبهه الرحالة الاوروبيون بنبيذ بوردو المشهور في فرنسا[5].

هذا وقد عارض العلماء والفقهاء صناعتها طيلة العصر الأيوبي والمملوكي لمنافاتها للدين الاسلامي، وبقيت اقطاعات مكوس الخمر موجودة بتأييد من بعض السلاطين والحكام[6].

---

(1) الطراونه: مملكة صفد، ص 173. ذكر بأن قرية جولس من قرى صفد احتوت على ثلاث معاصر وقرية كفر ياسف التي اشتملت على أربع معاصر وقد استخدمت لعصر العنب أيضاً وما زلنا نشاهد هذه المعاصر في مختلف قرى شرقي الأردن وفلسطين حتى اليوم.

(2) ابو الفلاح، شذرات الذهب، جـ7، ص 330، الماوردي، م.س، ص 299، ابن قيم الجوزي، أحكام أهل الذمة، جـ2، ص 727.

(3) حسان بن ثابت: ديوانه، تحقيق سيد حنفي حسين ورفيقه، القاهرة، 1974، ص 71-73، يقول:

كأن سبيئة من بيت راس ... يكون مزاجها عسل وماءُ
على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح مقصرة الجناءُ
وتشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسد ما ينهنهنا اللقاءُ

ومعنى السبئية: الخمر، والسابئ: الخمّار. وذكرها شاعر الخمرة في العصر العباسي أبو نواس:

وتبسم عن أغرّ كأن فيه ... فجاج سلافة من بيت راس

ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، "معجم البلدان" 10 أجزاء، مطبعة دار الصادرة القاهرة، 1907، جـ1، ص 776-777.

(4) ابن الفرات:م س، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الامريكانية- بيروت، 1939- 1942، جـ9، ص85.

(5) فولني: ثلاثة أعوام في مصر والشام، جـ1، ترجم البستاني، دار المكشوف، بيروت، 1994، ص 199.

(6) اقطاعات مكوس الخمر: هي ضرائب الخمور لصالح الدولة، ضومط، انطون خليل، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، دارة الحداثة، 1980، ص 105.

وفي الحقيقة فقد انفرد اليهود بصناعتها وبيعها وتداولها[1]،وشربها المنحرفون من الشعراء المسلمين وغيرهم من المتنفذين[2] لذا فرض سلاطين الايوبيين والمماليك بعض القيود على بيع الخمور في معظم الأحيان[3] كما سمح به في أواخر العصر الأيوبي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر غازي صاحب دمشق عام648هـ/1250م وبمشاركته الشعراء[4] كما صدرت في العصر المملوكي مراسيم إراقة الخمور خاصة في بيوت النصارى واليهود عند انتشار الطواعين في البلاد كما فعل الظاهر بيبرس[5]،وقد فرض سلاطين المماليك ضريبة على "صناعة الخمرة" سميت "ضمان الخمر" في البلاد الساحلية وطرابلس[6]،و"ضمان المغاني" في الكرك والشوبك[7]حيث سمحوا بتناولها في حانات خاصة مقابل هذه الضريبة.

صناعة السكر:

لقد عرف العرب زراعة قصب السكر وصناعة السكر منه قبل الحروب الصليبية حيث نقله الصليبيون الى اوروبا بعد هذه الحروب إذ كانوا يستخدمون العسل لتحلية بعض أنواع طعامهم منذ القرن13م[8]واستمرت هذه الزراعة زمن الفاطميين والأيوبيين[9]والمماليك استناداً الى كميات السكر المستهلكة في الاحتفالات وشحنات تصديره الى جنوة والبندقية وبرشلونة ومرسيلية[10] فقد كانت تجارة السكر عماد الاقتصاد المملوكي.

(1) Adler, Jewish Travellers P. 180, Gucci, visit to the Holy Places, p. 122.

(2) العمري: م.س، جـ1، كرد علي: م.س، جـ6، ص 499، متز: م.س، جـ2، ص 47.

(3) ابن تيمينه: علاء الدين ابو الحسن علي بن محمد (ت 803هت/1400) \، فتاوى الخمر والمسكرات/ تحقيق محمد ابراهيم الحفناوي، طنطا، دار البشير للثقافة 1988م، ص 19، ذكر: بان صلاح الدين عام 589هـ/1193م فرض قيوداً بينما رفعها ابنه الملك الأفضل (ت615هـ/1218م) حتى توبته سبط ابن الخوري، مرآة الزمان، جـ8، ق2، ص 595، المقريزي: السلوك، جـ1، ق1، ص 118. والزبارات: الديارات النصرانية، ص 320، كما منعها الملك العادل سيف الدين أيوب (ت 615هـ/1217م) وأغلق الخمارات وبيت الخواطئ حتى أعادها ابنه المعظم عيسى (ت 624هـ/ 1226م) سبط ابن الجوزي، ن.م، ن.ص، و ص 597، وأبو شامة: م.س، ص89، والذهبي: دول الاسلام، حيدر آباد، مطبعة المعارف العثمانية، 1337هـ/ 1918م، جـ2، ص 88.

(4) ابن خلدون: م.س، تحقيق هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 1985، جـ3، ص 297.

(5) ابن اياس: م س، جـ4، ص 76، وان حجر العسقلاني، م.س، جـ8، ص 140، 149. ابن كثير: م.س، جـ13، ص 268، المقريزي، الخطط جـ1، ص 106، المقريزي: السلوك، ق1، ص553، وابن اياس:ن.م، جـ1، ق1، ص326. وانظر: الذهبي: تاريخ الاسلام (مخطوط)، جـ21، ورقة 8. وابن كثير: م.س، جـ13، ص 311، 295، والقلقشندي، م.س،جـ4، ص 418، 419، زيادة: دمشق في عصر المماليك، ص 200.

(6) المقريزي: السلوك، جـ2، ق2، ص 937-940، وابن كثير: م.س، جـ14، ص 50.

(7) غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 85.

(8) ن.م، ن ص، حيث أخذ الامبراطور فردريك الثاني عدداً من صناع السكر الشاميين الى جزيرة قبرص، د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 107.

(9) المقريزي: السلوك، جـ1، ق1، ص 95، 97، 189.

(10) آشتور: م.س، ص 391.

حيث شجعوا زراعته في الأغوار والسواحل الشامية[1]، وجعلوها املاكاً سلطانية خاصة[2].

أ- **صناعة السكر في عصر الصليبيين:** المستخرج من قصب السكر المزروع في منطقة الأغوار الشمالية والجنوبية في شرقي الأردن، حيث وجه الصليبيون عنايتهم الى غور الصافي قرب الكرك فسمي سكر الكرك والشوبك[3]، ثم نقلوا زراعته الى اوروبا أيام الحملة الصليبية السادسة بقيادة فريدريك الثاني عندما أخذ معه صناعاً متخصصة في السكر من بلاد الشام ووضفهم في جزيرة صقلية[4].

ب- **في عهد الايوبيين:** لقد اهتم الايوبيون بصناعة السكر المستخرج من قصب السكر المزروع في منطقة الأغوار والتي كانت من الاقطاعات الخاصة بالسلاطين والأمراء، ففي عهد الملك الناصر داوود كان معظم الغور الشمالي اقطاعات له ولابنائه[5] مثل غور ناعمه نسبه لقرية ناعمة التي كانت من أملاك الملك الظاهر شادي بن الملك الناصر داوود المتوفى سنة 681هـ/1282م والمدفون في بيت المقدس[6].

جـ- **زمن المماليك:** أقام المماليك مصانع للسكر في جميع أنحاء الغور والتي كانت أملاكاً سلطانية خاصة[7]، وكان السلاطين يعينون مشرفين على هذه المصانع وجمع انتاجها[8] وعينوا نائباً سموه استادار الأغوار[9].

كما كلفوا نائب دمشق بالاشراف ايضاً على مطابخ السكر في الأغوار والشونة الشمالية "القصير قديماً" حيث أقام في موسم عصر الأقصاب مدة شهرين ونصف تقريباً 779هـ/1377م[10].

---

(1) البغدادي: م.س، جـ2، ص 426، المقريزي: السلوك، جـ4، ق2، ص 792.

(2) المقريزي: السلوك، جـ2، ق3، ص 584-607. "ذكر بأن السلطان طشتمر اتخذ قرية قصير في غور الاردن اقطاعاً له عام 1341/742 وأحاط بما فيه من القنود: جمع قند وهو الدبس "عصير السكر" وكل ما جمد من عصير قصب السكر ثم يتخذ منه السكر، انظر: الانطاكي: تذكرة اولي الألباب والجامع للعجب العجاب، ص 264. وابن البيطار: م.س، جـ4، ص 40، والقلقشندي: م.س، جـ3، ص 472.

(3) رانسيمان: جـ3، ص 602، حيث لقب بسكر مونتريال لبياضه ونعومته.

(4) د. يوسف غوانمه: التاريخ الحضاري ص 107.

(5) اليونيني: ديل مرآة الزمان، جـ4، ص 476.

(6) ابن الفرات: م.س، جـ7، ص 256.

(7) المقريزي: السلوك، جـ 2، ص 584، والقلقشندي: م.س، جـ4، ص 190. وأبو المحاسن: م.س، جـ10، ص 64.

(8) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ص308، ويذكر الدكتور يوسف غوانمه بانه عُثر مؤخراً على مئات المعاصر للسكر في منطقة الأغوار، والأواني الفخارية التي كانت تستعمل لتجفيف عصير القصب، د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص107.

(9) ابن طولون: م س، جـ1، ص 97، 125، 142، 146.

(10) ابن قاضي شهبة: الإعلام بتاريخ أهل الاسلام، جـ2، ورقة 122، 143 مخطوط في دار الكتب المصرية، رقم 2402، المكتبة التيمورية.

هذا وقد كان له رواج واسع في الأسواق الأوروبية لنقائه وجودته المشهورة حيث ازدهرت به اسواق فلورنسا في ايطاليا ما بين 1310-1340م[1]، كما ازدهرت تجارته داخلياً واحتكره السلاطين وتحكموا في اسعاره مما اثار تذمر وسخط أهالي دمشق[2].

لذا كان لخصوبة منطقة الأغوار وكثافة زراعة قصب السكر فيها سبباً في إنشاء المعاصر والمطابخ التي يشرف عليها شاد خاص من قبل النائب[3]، لذا جعلوا من الأغوار ولاية يحكمها أمير برتبة "استادار" وسمي "باستادار الأغوار"[4] وجعلوا مطابخ السكر في الشونة الشمالية "وقرية القصير" وبقية الأغوار تحت اشراف نائب دمشق مباشره الذي كان يشرف بنفسه لمدة تمتد ما بين شهرين الى خمسة شهور على قطع القصب وعصره لأهميته الاقتصادية[5].

وقد دلت الإكتشافات الأثرية في منطقة الأغوار على اكتشاف كثير من معاصر قصب السكر ومطابخ السكر التي استخدمت في تجفيف السكر[6].

لذا فلا عجب من احتكار المماليك لزراعة قصب السكر لما تدر عليهم من أرباح طائلة لتحكمهم بأسعاره ولتصديره الى اوروبا وخاصة لأسواق فلورنسا وبريطانيا[7].

وبالنسبة لطرق عصر السكر في العصر المملوكي فكانت كالآتي:

- بواسطة حجارة الماء.
- بواسطة الأبقار.
- بواسطة السهام[8].

(1) Lopes and Rymond, Medival Trade in The Mediterranean world, New York, pp. 104-109.

(2) المقريزي: السلوك، جـ4، ص 792. ابن طولون: م س، جـ41-47.

(3) القلقشندي: م س، جـ4، ص188. الشاد: وظيفة من يتولى مطابخ السكر بتوقيع كريم من النائب في دمشق.

(4) ابن طولون:م س، جـ1، ص 97-125، 142، 146. الاستادار: كلمة فارسية من كلمتين: استاد ومعناها الأخذ ودار: ومعناها الممسك والمعنى المركب: متولي الأخذ وقبض المال: انظر: السبكي: م.س، ص 26. حاشية 4.

(5) ابن قاضي شهبة: م.س، جـ3، ص 180، غوانمه التاريخ الحضاري، ص 82.

(6) ابو دلو: معاصر السكر في غور الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اربد 1991، غير منشورة.

(7) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 83، فقد ذكر إشارة الوثائق الى وجود سكر الكرك والشوبك في اسواق مدينة فلورنسا ومدن اخرى في بريطانيا، وفرنسا بين السلع الشرقية الأخرى عام 710-741هـ/1310-1340م.

(8) النويري: م.س، جـ8، ص 271، ابو دلو: ن.م، ص21-34.

وقد بلغت كلفة قنطار السكر في السواحل الشامية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ما بين ثماني عشرة الى عشرين ديناراً. واشتهر سكر الكرك والشوبك باسم سكر 'مونتريال' لبياضه ونعومته[1].

صناعة الصابون:

تقوم صناعة الصابون على زيت الزيتون منذ قديم الزمان وحتى وقتنا الحاضر، ومما ساعد على قيام صناعة الصابون في العصرين الأيوبي والمملوكي توفر زيت الزيتون ومادة الصودا القلوية المضافة للزيت والمستخرجة من أعشاب "الاشنان" البرية فعرفت باسم عشبة الصابون[2].

هذا بالاضافة الى شهرة منطقة فلسطين وشرقي الاردن بزراعة اشجار الزيتون منذ القدم حتى أصبح الزيتون مورداً اقتصادياً هاماً في العصور الوسطى الاسلامية ومازال حتى اليوم. لذا فقد انتشرت معاصر الزيت في فلسطين والاردن منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر[3] ونتيجة لجودة هذا الزيتون راجت تجارته داخلياً في أسواق مصر وخارجياً مع اوروبا ويستخرج سكان فلسطين وشرقي الاردن من نوى الزيتون "الجفت" او الدق الذي يستخدم للتدفئة والطبخ وقد كان له دكاكين خاصة في مدينة عجلون لبيعه[4]. كما يصنع من زيته الصابون وحتى الوقت الحاضر واشهره الصابون النابلسي[5] بعد خلطه بمادة الصودا القلوية المستخرجة من رماد شجر الدردار والشمان المنتشر في الشراة، والبلقاء حنوب شرقي الأردن مما ساهم قديماً في ازدهار صناعة الصابون ومازال سكان شرقي الاردن يرسلون الفائض الى نابلس لاستخدامه في صناعة الصابون[6] وكانت اشهر المدن الفلسطينية في صناعة الصابون نابلس والقدس والرملة[7] ومازال الصابون النابلسي حتى اليوم متفوقاً على الأنواع الأخرى.

---

(1) غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 81.

(2) رادولف، رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين، ترجمة سليم التكريتي، العراق، 1978، ص34-35. ونهى محمد حسين مكاحله: الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ص 277 غير منشورة.

(3) مازالت بعض أنواع الزيتون يسمى بالزيتون الرومي، وخاصة في شمال الأردن وقد دلت الوثائق السلطانية على وجود معصرة رومية زمن دولة المماليك غربي قرية آدر القريبة من الكرك (وثيقة وقف السلطان شعبان رقم 49).

(4) النويري: م.س، جـ31، ورقة 91. مخطوط

(5) ابن بطوطه، جـ1، ص 47، الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصنعونه بالحمرة والصفرة،، حسين مؤنس: ابن بطوطه ورحلاته، تحقيق وتحليل دار المعارف 1980، ص 52. وهاملتون جب: المجتمع الاسلامي والغربي، جـ2، ص 144. وبيركهارت: رحلات بيركهارت، جـ2، ص 81، 82، 127.

(6) د. يوسف غوانمه، التاريخ الحضاري 86.

(7) العليمي الحنبلي: الانس الجليل، جـ2، ص 54، وجودت صادق، أحمد: مدينة الرملة 1986، ص 364.

صناعة الحصر:

لقد ازدهرت هذه الصناعة في جنوب بلاد الشام لتوفر النباتات اللازمة لصناعة الحصر، فمنها: الحصر السامانية، في مدينة طبرية نسبة الى نبتة السامان التي تنبت في مدينة الخليل فقط[1] كما استخدم نبات الحلفا أيضاً في صناعة الحصر المزروع في الشونة الشمالية[2] في غور الأردن الشمالي والذي صنع منه السرايج والقفف المستخدمة في نقل الفاكهة والتراب في أعمال البناء[3] كما اشتهرت مدينة الكرك بصناعة حصر الكركر او الكريكر او الكركي التي الملونة تُفْرش بها المساجد[4] والمنازل في بلاد الشام.

صناعة البسط (الأبسطة):-

لقد اشتهرت الكرك والشوبك بصناعة البسط ذات الرسوم والنقوش الجميلة والمنسوجات الحريرية التي نسبت الى مدينة أعناك شمال الأزرق[5]واستخدمها الملوك والسلاطين كهدايا في المناسبات وخاصة سلاطين المماليك كالاشرف شعبان778هـ/1377معندما كان في طريقه للحج[6].

ويرجح الدكتور غوانمه تصديرها لأوروبا من القاهرة ودمشق[7] ويرى الباحث صحة هذا القول لأهمية طنافس الكرك والشوبك لجودة صناعتها وزخرفتها.

كما امتاز المجتمع الاسلامي بالحرية المهنية والاتقان الجيد في العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث اهتمت الطوائف الدينية المحتلفة بالمهن المحببة لها[8] وكان من الصناعات الرئيسية:

أ- صناعة البناء: وقد شملت القلاع والحصون وأسوار المدينة والمدارس والمساجد والأضرحة الضخمة[9] التي برع فيها النصارى الأرمن[10] واليهود وغيرهم.

---

(1) الادريسي: م س، جـ4، ص 356.

(2) القاسمي، محمد سعيد بن قاسم، الصناعات الشامية، جزءان تحقيق ظاهر القاسمي لاهاي، 1960، جـ2، ص 361.

(3) غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 86، ويتجاوز ارتفاع نبات الحلفاء الذراع وساقه رخوة وذو زهرة بيضاء.

(4) ابن الأخوة: معالم القربة، ص 339، ط33، وكانت حصر الكرك ذات شهرة واسعة لألوانها وجودة صنعها باستخدام خيوط الكتان لشد بعضها الى بعض، وانظر: د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 111.

(5) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص 316، محمد كرد علي، م.س، جـ4، ص 284، 10 اجزاء، القاهرة دار المعارف 1907. وست أجزاء المطبعة الحديثة دمشق 1925.

(6) المقريزي: السلوك، جـ3، ص 530، وكان في استقباله نائب الكرك فأوصاه بصناعة اعداد من البسط لحسابه الخاص ونقلها للقاهرة ولكنه قتل عندما بوشر في صناعة بعضها فأمر السلطان برقوق باكمال الصفقة وارسالها للقاهرة ففرش بها دار العدل بقلعة الجبل بالقاهرة.

(7) د. غوانمه: ص 114.

(8) حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفسطين، جـ2، ص 289، Goitein, Studies in Islamic History, p. 266

(9) رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ3، ص 635.

(10) كريسي ارنولد، تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ترجمة زكي حسن، سورية، دار الكتاب العربي، 1984/، ص 157.

ومن مميزات العمـارة الأيوبيـة والمملوكيـة ارتفـاع المـآذن المربعـة والمتعـددة الأضـلاع، والواجهات الملونة على الأضرحة الضخمة، كمـا زينـت القبـاب بـالصـور[1]، ويلاحـظ اهتمـامهم بالمظـاهر الزخرفيـة باسـتخدام الرخـام والفسيفسـاء والمنحوتـات الجصيـة والحجريـة، والمقرنصات[2]، كما برع الحجارون وحتى اليوم في قطع الحجارة والرخام الملون من المحـاجر الفلسطينة والأردنية[3].

ومهروا فـي فن التصوير والزخرفة والنقش علـى الجدران وخاصـة اهل الذمـة[4] لأن المسلمين كان يتحرجون من التصوير لكرهه وتحريمه عند البعض ومن الجدير بـالذكر أن هـذه الصناعات مازالت مزدهرة حتى اليوم الحاضر فـي فلسطين وشرقي الاردن متصلـة بجذورهـا الايوبية والمملوكية.

ويرى الدكتور يوسف غوانمه ان الفنان الأردني قد ورث هذه الأساليب عن فن صناعة الفسيفساء الذي أتقنه أجداده وتعددت أمثلتـه في مأدبا وجرش والـذي ورثـوه عن البيزنطيين بالاضافـة للقصـور الأموية وفي مسجد عمان المقام في القرن السادس الهجري[5] / الثاني عشر الميلادي.

وقد انعكست آثار الازدهار الاقتصادي والسيولة النقدية على المنشآت العمرانية والمرافق العامة لرفع مستوى المعيشة للسكان. فقد جدد صـلاح الديـن الأيوبـي عمـارة الجـامع الأبيض بالرملة عام 586هـ/1190م وأما الظاهر بيبرس فقد بنـى القبـة فوق المحراب والبـاب المقـابل للمحراب وعمّر المنارة القديمة، وقد زالت، وعندما جاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون عـام 718هـ/1318م بنى المنارة من جديد حتى أصبحت من العجائب في العلوم والهيئة[6].

وفـي عـام 615هـ/1217م أنشأ المعظـم بـن العـادل فـي الكـرك مزيـداً مـن العمـران والتحصينات فيها حتى أصبحت الكرك مدينـة متكاملـة ذات اكتفـاء ذاتـي، بالاضافـة للمشـاريع الزراعية في قرى الكرك مثل البساتين والحدائق والأشجار بعد ان أجرى خلالهـا العيـون[7].كمـا أنشأ قلعة الصلت في جبال الغور الشرقية على رأس جبل الأمـير،وأدخـل إليهـا المـاء.مـن عيـن مجاروة[8].

(1) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة، أفرام البستاني، تحقيق أكرم العلبي، بيروت، المطبعة الكاثوكيلية، 1936، ص 41.

(2) ديماند، م.س، الفنون الاسلامية، ترجمة احمد عيسى، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1982، ص 108-109.

(3) ناصر خسرو، م س، ص 54-55، غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 123. هذا ويذكر المقريزي بان الحجارون والبناؤون والجيوش قد استخدموها للمساهمة في بناء الحصون وهدم الأسوار،المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص 559.

(4) حتي:م.س، جـ2، ص122.

(5) المقدسي: م س، ص 175.

(6) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ص 416.

(7) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، جـ2، قسم لبنان والاردن وفلسطين، ص 73.

(8) ن.م، ص 83-84، القلقشندي: م.س، جـ4، ص 106.

كما حصن قلعة الشوبك التي تسلمها من والده ونقل الى الشوبك الأشجار حتى ظاهت دمشق باشجارها وطيب هوائها وتدفق مياهها[1] كما ساهم الملك المعظم في توفير الراحة للحجاج والمسافرين ببنائه حمامين قرب مدينة معان جنوبي الاردن احدهما للرجال والآخر للنساء وأقام الخانات والدور ومهدّ الطريق الوعرة، وغرس الأشجار على جانبيها امتداداً من الشام الى الحجاز مع توفيره صهاريج الماء في الطريق بالاضافة لبناء المساجد والحصون على طرق المسافرين وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة لضمان استمرارها في تقديم الخدمات للحجاج والمسافرين والتجار.

2ـ صناعة الزجاج:

ازدهرت هذه الصناعة في بلاد الشام لتوفر المواد الأولية اللازمة كالبوتاس، ومهارة الصناع الذين كانت غالبيتهم من اليهود[2]في مدينة الخليل[3]ويهود السامرة في نابلس. وقد كانت الأواني الزجاجية تطلى بالذهب والمينا[4]كالاكواب والزهريات والدلاء[5]والمصابيح والمشكاوات[6].

جـ صياغة الذهب والفضة:

برع صيّاغ الذهب والفضة في صنع الحلي والسيوف والمصاحف المذهبة، والملابس وسروج الخيل، كما رصعوا أدوات الترف والتحف بالاحجار الكريمة[7]لارضاء أذواق السلاطين والملوك وحاشيتهم[8] وكان للصاغة أسواق خاصة في المدن، حيث كان معظمهم من النصارى واليهود[9].

(1) ن.م، ص 80. وللمزيد من المعرفة: انظر الفصل الرابع من هذه الدراسة.

(2) الادريسي: م س، جـ5، ص 365؛ القزويني: (ت 689هـ/ 1290م)، م س، ص 183، 184؛ التطيلي، الرحلة، ص92.
رنسيمان،م س، جـ2، ص 473؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 86.
Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.

(3) Frescobaldi, Visit to the Holly places, p. 68.

(4) رنسيمان، ن م، جـ2، ص 472.

(5) آل تقي الدين، محمد أديب، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، 3 أجزاء، تقديم كمال الصليبي، بيروت، دار الآفاق الحديثة. 1979م، جـ3، ص 1135. والمينا: كلمة فارسية اصلها مينة وتعني جوهر الزجاج، وهي أكاسيد معدنية لطلي الأواني والأدوات المعدنية لاظهار الرسوم والنقوش الجمالية ديماند، م.س، ص 238-242.

(6) كرسيني: أ.هـ، م س،ص57؛ والمشكاوات: مفردها مشكاة والمشكاة: غطاء مصباح يوضع بداخله سراج زيتي مثبت باسلاك فضية او نحاسية في حافة الغطاء.

(7) حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 593.

(8) رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص 108.

(9) غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص 123؛ السيد، القدس في العصر المملوكي، ص 204.
Goitein, Studies in Islamic History, P. 261.

وكما نلاحظ اليوم في مدن بلاد الشام وقد احتفظت بعض متاحف اوروبا ببعض الأواني المزخرفة والمنقوش عليها أسماء بعض سلاطين الأيوبيين[1] والمماليك[2].

وبالنسبة لمهنة الصياغة والتكفيت: فقد اختصت حرفة الصياغة في سبك المجوهرات والحلي وتزيينها وقد وجد عدد من الصاغة في عجلون والكرك أما التكفيت فهي حرفة تطعيم معدن بمعدن أثمن كتطعيم النحاس بالفضة وذلك بحفر الزخارف على سطح الآنية أو الحلية المراد زخرفتها وملأ الجزء المحفور بالفضة او الذهب أو النحاس الأحمر وغير ذلك وقد قامت هذه الصنعة في مدينة الكرك[3] وقد انتقلت هذه الصناعة من ايران الساسانية الى العالم الاسلامي وخاصة لدمشق والكرك والقاهرة، وكانت هذه الحرفة الجديدة في العالم الاسلامي نتيجة لتحريم الاسلام لأواني الذهب والفضة[4].

د- صناعة الحرير

اعتمدت هذه الصناعة على تربية دودة القز في بلاد الشام[5] ومن مراكز صناعته عكا وصور[6] وغيرها من مدن الشام حيث استخدم في صناعة الثياب النفيسة[7] وقد اشتغل يهود بلاد الشام في صناعة الحرير وخاصة نساءهم[8].

وقد شجع السلاطين والملوك بناء مصانع الحرير كمورد مالي في التجارة الخارجية في العصور الوسطى[9].

---

(1) ديماند، م.س، ص 154، ذكر وجود طشت نحاسي مكفت (ملبس) بالفضة في بروكسل يملكه دوق آرنبرج (Arenberg) ومنقوش عليه اسم الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر والشام (638-646هـ/ 1240-1249).

(2) ديماند: ن.م، ص 155، ذكر بان بلاد الشام انتجت روائع فنية من التحف المعدنية المطلية بالذهب والفضة ومنقوش عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

(3) لقد استخدم الملك الناصر احمد بن قلاوون المحاصر بالكرك سنة 743-745/ 1345-1347 كان يرى على المحاصرين نشاب نصولها من فضة مكفوته بالذهب ونقش عليها بيتان من الشعر:

من جودنا نرمي العداة بأسهم ... من الذهب الابرز صيغت نصولها

يداوي بها المجروح منها جراحه ... ويشري بها الأكفان منها قتيلها

وبلغ عددها سبع فرادات من النشاب. صالح بن يحيى، ص105،107.

(4) المقريزي: الخطط، جـ3، ص 170، وآرنستوكول: الفن الاسلامي، ص 79-81.

(5) Goitein, Studies inIslamic History, p. 261.

(6) رنسيمان، م.س، جـ3، ص603.

(7) كرسيتي، م.س، ص 61، ذكر اسمها المشهور في أسواق أوروبا. الدمسكي المشتق من (Damascus).

(8) Adler, Jewish Travellers, p. 135.

(9) كرسيتي: ن م، ن.ص.

ثالثاً: صناعة التحف الخزفية:

دلت الحفريات الأثرية في شرقي الاردن عن اكتشاف قطع أثرية من العصر الاسلامي فيها تأثيرات صينية وفارسية وسلجوقية، حتى تمكن الفنان الأردني من ابتكار نوعٍ من الخزف الاسلامي[1].

واستمرت هذه الحرفة الفنية في العصرين الأيوبي والمملوكي حيث تشابه الخزف الشامي والمصري، لتشابه المادة الخام المصنوعة منها تلك الأواني، والتشابه في الموضوعات الزخرفية[2] وقد اشتهرت الأواني الزخرفية الشامية الأيوبية بزخارفها الزرقاء والسوداء وصدرت الى اسواق اوروبا[3].

أما الخزف المملوكي فقد كان أكثر سمكاً وصلابة وغلب عليه اللون الزيتي الأخضر ويذكر الدكتور يوسف غوانمه مشاهدته لهذا الخزف الزيتي عند زيارته للحفريات الأثرية في مدينة حسبان مما يؤكد وجود هذه الصناعة في مدينة حسبان في العصر المملوكي، مع تأثرها بالاساليب الفنية الشامية والمصرية[4].

وقد انتشرت الأواني الفخارية في عصر الأيوبيين والمماليك كدوارق الماء والجرار الكبيرة لخزن النبيذ وزيت الزيتون وأطباق الطعام المزخرفة بخطوط هندسية وشطرنجية داخل نجوم مسدسة أو مثمنه أو داخل مستطيلات أو مربعات متشابكة الخطوط، ومثلثات متساوية الساقين، أو نجوم مثمنة الرؤوس داخل دوائر متداخلة في بعضها داخل اطار زخرفي جميل تشيع في نفسية الناظر اليها شعوراً بالراحة أحياناً وتثير فيه الانفعال أحياناً أخرى.

وقد وجد هذا النوع في حسبان والكرك، وذيبان وعجلون حيث كانت تفي بحاجة الناس كما وجد هذا النوع في فلسطين وسوريا ومصر، مما يؤكد تمازج الفنون الاسلامية في بلاد الشام ومصر في العصرين الأيوبي والمملوكي[5].

---

(1) الخزف ذي البريق المعدني Lustre Pottery وكان من ابتكار العراقيين زمن الدلة العباسية حيث انتشر من هناك الى جميع انحاء العالم الاسلامي، زكي محمد حسن: فنون الاسلام، ص 260.

(2) د. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص 119.

(3) زكي محمد حسن: ن.م، ص 321.

(4) د. غوانمه، ن م،ص 12.

(5) ن.م، ص 121-122.

رابعاً :التعدين:

لقد قامت في شرقي الأردن صناعات معدنية عسكرية ومدنيّة لتوفر المعادن كالحديد في منطقة عجلون حيث تصهر في أفران خاصة مجهزة في قلعة عجلون لصهره وتنقيته ويرسل الفائض الى دمشق[1] ووجد أيضاً في الأغوار[2].

أما الكبريت: فيكثر وجوده في البحر الميت على طول الجانب الشرقي ولقب بالكبريت الأبيض[3] كما توفر وجوده في غور الاردن. والحمر: وهو القار أو الاسفلت المستخرج من البحر الميت واستخدم في صناعة اسلحة النفط، وعلاجاً لسيقان الاشجار من الحشرات الزراعية ولحفظ عقاقير الصيادلة من الحشرات[4] كما كان النحاس يستخرج من وادي عربة جنوب البحر الميت هذا وقد قطع حجر الرخام ذي الألوان الجميلة من جبال العقبة[5].

كما توجد المغرة بجبال عمان، وبها جبال حمر يسمى ترابها السمقة وهو تراب رخو، وجبال بيض تسمى الحواره: لتبييض السقوف ويطيّن به السطوح، وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل، وبالأغوار معادن كبريت وغيره. والملح من بحيرة سدوم (البحر الميت)[6].

ومن الصناعات الأخرى صناعة الشمع والعسل[7] وأعمال الصباغة والدباغة[8] وصناعة السروج والصناديق الخشبية والسكاكين والأمواس والابر والأقفال وعصا الكحل[9] والأحذية[10].

(1) القلقشندي: م.س، جـ13، ص29، ص 30، حيث دل المرسوم الذي أصدره السلطان الناصر بن قلاوون، عام (702هـ/1302م)، حيث ورد فيه الاعفاء من ضرائب الفولاذ.

(2) د. غوانمه، م.س، ص 122.

(3) الاصطخري: مسالك الممالك،طبع ليدن 1927،ص64،والنويري:نهاية الارب،جـ1،ص251،وناصر خسرو،م.س، ص17.

(4) الاصطخري: ن.م، ن.ص.

(5) ابن النابلسي: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز مخطوطة بمكتبة، بلدية الاسكندرية، ورقة 487.

(6) المقدسي، م.س، ص 184.

(7) المقدسي: م. س، ص 184، قال أجود العسل مارعيَ السعتر (الزعتر) بأيلياء وجبل عامله وأجود المربى ما عمل باريحا. والقاسمي، قاموس الصناعات الشامية، جـ1، ص 110، العارف، المفصل في تاريخ القدس، جـ1، ص 462-465.

(8) رنسيمان، م.ن، جـ2، ص 473، سترانج،فلسطين في العهد الاسلامي، ص 39، غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص 123.

(9) Goitein, Studies in Islamic History, PP.. 257-258.

(10) Adler, Jewish Travellers, p. 135.

الصناعات الخشبية:

لقد ازدهرت هذه الصناعات ايضاً لتوفر الاخشاب وكان أهمها صناعة المراكب فكانت مدينة زُغُر جنوبي البحر الميت من اشهر المدن في صناعة المراكب البحرية المستخدمة في النقل بين أريحا شمالاً وزُغُر جنوباً[1] كما كانت أشجار الأرز اللبنانية مصدراً للأخشاب اللازمة لهذه الصناعة في السواحل الشامية[2]. ويؤيد الباحث رأي الدكتور غوانمه بأن مدينة العقبة كانت مركز صناعة السفن منذ أقدم العصور لأنه ميناء الأردن الوحيد بعد نقل الأخشاب من جبال الشراة ومؤاب اليها[3] وخاصة لاستخدامها في طرد الفرنجة من السواحل الشامية والتصدي لغاراتهم البحرية كما استخدمت في صناعة المجانيق لمحاصرة عكا عام (1290/689)[4]. واستخدمت الأخشاب أيضاً في تجهيز أسقف البيوت[5] وصناعة الفحم النباتي الذي خزن في القلاع في العصور الوسطى لاستعماله وقت الحاجة[6].

وقد اشتهر القرويون في عجلون بصناعة الفحم النباتي والمتاجرة به، حيث صدروه الى دمشق في فصل الخريف تمهيداً لفصل الشتاء لاستخدامه في التدفئة والطبخ[7].

أما طريقة صناعته المحلية فقد استمرت حتى اليوم اذ نشاهد الفلاحين يقطعون الأشجار بأطوال صغيرة محددة ترص جيداً في كهوف خاصة أو يجمعونه أكواماً مغطاة بالتراب لمنع الهواء من الدخول ليتم تفحيم الخشب، وبعد ذلك تفتح المغارة أو الكوم ليخرج ثاني اكسيد الكربون، ثم ينقل ويباع في أسواق القرى والمدن.

كما اشتهر أهل فلسطين بصناعة الحَفْر على الخشب والرخام بالاضافة لبعض قرى شرقي الاردن أيضاً كقرية المزار شمالي الاردن بين اربد وعجلون حيث تخصصت وحتى وقتنا الحاضر في صناعة الأجران الخشبية والمهابيج لدق البن لصناعة القهوة السادة العربية باستخدامهم خشب البطم من جبال عجلون[8].

---

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 183، القلقشندي، م.س، جـ4، ص 156.

(2) خرابشة: طرابلس، ص 237، وذلك لأنتشار الغابات على سفوح وقمم فلسطين والأردن.

(3) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 115.

(4) ابن كثير:م.س، جـ13، ص 335.

(5) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار في ممالك الأمصار، بيروت، 1986، ص 64، كما يذكر ناصر خسرو انه شاهد في مدينة بعلبك كثيراً من صناع السفن التي تسمى في حيفا جودي، ناصر خسرو: م س، ص 50.

(6) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 196، د. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 87.

(7) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، جـ2، ص 336.

(8) زريا: الحياة الاجتماعية، ص 75، د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 92، هذا وقد شاهد الباحث بام عينه صناعة الأجران الخشبية "والمهابيج" في قرية المزار عام 1958م عندما كان مدرساً في قرية ديريوسف العمرية بالقرب منها. بعد القيام بتجفيف خشب البطم وخزنه لعدة ايام، كما كانوا يزينون هذه الأجران بزخارف هندسية جميلة يحفرونها على الخشب لمعرفة المزيد عن هذا الطراز الزخرفي انظر: حسن، زكي محمد، فنون الاسلام مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1984م، ص284.

صناعة النيلة:

كانت تستخدم في صناعة النسيج وتلوينه باللون الأزرق، وصُدِّرت النيلة الى أسواق أوروبا[1]و كانت تُستَخرجُ من نبات النيلج او الوسمة المزروع في أريحا المشهورة بمصانع النيلة[2] وزغر ومنطقة غور الصافي[3] جنوب البحر الميت وغور الاردن الشمالي[4] وازدهرت صناعة النيلة في العهد المملوكي واستمرت الى القرن التاسع عشر الميلادي حيث كانت هذه المادة تنقل الى القدس والخليل وكان سعرها عالياً لجودتها عن نيل مصر بنسبة 20٪[5]، وقد كثر الطلب الاوروبي عليها لأنها تدخل في تلوين النسيج باللون الازرق.

صناعة طحن الغلال:

لقد انتشرت مطاحن الهواء الحجرية لطحن الحبوب والغلال في جنوبي بلاد الشام في العصور الاسلامية المختلفة، حيث أقيمت حول الأنهار ومجاري المياه كنهر ابراهيم ونهر العوجا وعمان وحسبان، والكرك وعجلون، والأغوار وأريحا والشوبك[6]، والتي مازالت آثارها باقية حتى اليوم.

وأما صناعة الخبز فكانت تتم في الفرن أو التنور"الطابون" الذي يدار بحرق القش والحطب وروث الحيوانات[7]وما زال هذا الفرن موجوداً في بعض القرى الاردنية حيث شاهدته عند جدتي.

صناعة العطور:

لقد ازدهرت صناعة العطور والزهور في بلاد الشام لتوفر الورود والأزهار المتنوعة كالزعفران، والمسك والعنبر المصنوع منها طيب الغالية وصدرت العطور من بلاد الشام لمصر

---

(1) متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي زيد، بيروت 1967، جـ2، ص309.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض ص 169.

(3) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص 428، 460.

(4) السباهي:م س، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 236.

(5) بيركهارت: م.س –سوريا الجنوبية– جـ2، ترجمة انور عارف، المطبعة الاردنية، عمان 1966.

(6) القلقشندي: م.س، جـ4، ص 106، ياقوت، معجم البلدان، جـ3، ص 719.

(7) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن، 1909م، ص 183.

وشبه الجزيرة العربية الى بلاد الهند والسند والصين[1] وقد استعمل ماء الورد النصيبي الدمشقي بشكل واسع في مناحي الحياة المختلفة حتى ان صلاح الدين الايوبي غسل به جدران المسجد الاقصى ومسجد عمر[2] بعد تحرير القدس من الصليبيين، كما غسل الظاهر بيبرس الكعبة عند تسلمه الحكم بماء الورد الدمشقي الذي يليه ورد المزة لصناعة العطور[3].

صناعة الأسلحة :

وقد تركزت هذه الصناعة في قلعة الكرك بوجود عمال متخصصين في صناعة الأسلحة المختلفة في دولة المماليك الأولى منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس سنة 661هـ/1263م حيث أعاد ترتيب السلاح خاناه[4].

وأهم الأسلحة التي صنعوها السيوف والرماح والنشاب والدروع المصنوعة من الزرد المانع والاطبار وصناعة النفط من معدن الكبريت الأبيض ومادة الاسفلت المستخرجة من سواحل البحر الميت الشرقية ويخلطون المادتين لصناعة قوارير النفط المحرقة[5] لتقذف بالمنجنيق على الاعداء لإحداث الحرائق وكانت تخزن في قلعة الكرك.

كما اشتهرت مؤته بصناعة السيوف المشرفية طوال العصور الاسلامية[6] وقد صنعت هذه السيوف من الحديد المحلي والمستورد من الصين[7]. كما اختصت بصناعة كنائن السهام[8] الحمراء المذهبة من الجلد أو من الخشب، والتي كانت موضع افتخار عند العرب[9]. أما السهام أو النبال ذخيرة الأقواس فقد اشتهرت بصناعته قرية عمتا بغور أبي عبيدة حيث نالت شهرة كبيرة عند العرب [10]. حتى قيل عنها "النبل الغايقة"[11] .

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ4، ص 187، ابن طولون: تاريخ المزة، ص 34-35.

(2) القلقشندي: ن.م، ن. ص، وابن طولون ن.م، ن.ص.

(3) القصري "كتاب الورد"، جـ1، ص 45، ولمعرفة المزيد عن صناعة العطور انظر: شيخ الربوة، نخبة الدهر: ص 195-198.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، تاريخ الواصلين، ورقة419، مخطوط.

(5) النويري: نهاية الارب، جـ1- ص 251.

(6) ووردت شهرة سيوفها في أشعار الشعراء:

أبى الله للشم الألوف كأنهم صوارم يجلوها بمؤته صيقل

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 275، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص 677.

(7) العيني: عقد الجمان، جـ2، ق1، ص 6 ورقه 136، "مخطوط". ذكر جلوس الناصر محمد بن قلاوون عند خروجه من الكرك في حسبان باتجاه دمشق على كرسي من الحديد الصيني الذي أحضره من الكرك.

(8) د. غوانمه، ص 116.

(9) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ2، ص 142، ومصطفى الدبّاغ: بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت: جـ1، 1965، ص109.

(10) ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص 722، وابن شداد. م.س، جـ3، ص 88.

(11) ياقوت، م س، جـ4، ص153.

بالإضافة الى شهرتها بصناعة المراكب من أخشاب الأشجار الموجودة على سفوح جبال الشراه حيث كانت المراكب تجوب البحيرة المالحة من زغر جنوباً الى أريحا شمالاً[1] أما في عهد الصليبيين فقد تم صنعها في الكرك زمن ارناط الصليبي حيث نقلها على ظهور الجمال الى العقبة لإعادة تركيبها لبناء أسطول للسيطرة على تجار البحر الأحمر وتهاجم الديار المقدسة[2].

صناعة الاسلحة الخفيفة:

واشتهرت بعض مناطق بلاد الشام في صناعة بعض أنواع الأسلحة الخفيفة التي استخدمها الجيش المملوكي كالنبال والسهام والأقواس الزغرية المفضلة لدى عساكر المماليك.[3] لصلابة عودها ونبال قرية النبل الفايقة[4].

صناعة تجفيف الفواكه

لقد اشتهرت بلاد الشام وما زالت بصناعة تجفيف الوفاكه وتصديرها، وقد عمل أهالي شرقي الأردن بتجفيف الزبيب والقطين "التين المجفف"[5].

أما أهالي فلسطين فقد عملوا أيضاً بتجفيف التين في مدينة الرملة وكان أجود أنواع التين المجفف في العام مما سهل تصديره الى بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها[6] والزبيب العينوني[7] فقد أشار النابلسي الى كثير من طرق تجفيف الفواكه في فلسطين كالمشمش والأجاص والخوخ والعنب وغيرها[8].

هذا بالإضافة الى صناعات أخرى لا يتسع البحث لذكرها منها صناعة دبس العنب[9] وصناعة البلسم في الأغوار وعجلون لنجاح زراعة شجر البليسان المسمى بالبليسان الشامي.

---

(1) د. غوانمه، م.س ص 114.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ4، ص 156، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 183.

(3) د. غوانمة: التاريخ الحضاري، ص91.

(4) المقدسي: م س، ص181.

(5) سترانج: فلسيطين في العهد الإسلامي، ص430، الزبيب العيوني، نسبة إلى قرية بيت عينوني جنوب القدس.

(6) النابلسي: علم الملاحة،ص200.

(7) د.غوانمة، ن م، ص57.

(8) البدري: نزهة الأنام، ص235، ابن بطوطة، الرحلة، جـ1، ص155، النابلسي: التحفة النابلسية، ص3.

(9) زيادة : فيلكس فابري: مؤتمر بلاد الشام الثاني ص196، لمزيد من المعومات عن صناعة البلسم وفوائده الطبية انظر غوانمة، التاريخ الحضاري،ص85-86، 256. Russell "Holy Land",

صناعة البلسم:

وازدهرت صناعة البلسم في العصور الوسطى لأهميته لدى الملوك والسلاطين الذين كانوا يتهادونه مع بعض كما يستعمله المسيحيون في طقوسهم الدينية، كما يستعمل في علاج بعض الامراض مثل حصى الكلى والعين وتطهير الجروح ونهش الحيوانات واستخدم في الاجهاض وفي علاج بعض الامراض الجنسية[1].

ويستخرج البلسم من عصارة شجر البليسان[2] الشامي في منطقة عجلون والأغوار، علماً بأن متوسط طول أشجاره 14 قدماً، وهو ذو ساق ناعمه وأوراق قصيره[3].

(1) النويري الكندري (محمد بن قاسم بن محمد) الالمام بالأحكام والأمور المقتضية في دمشق والاسكندرية، مخطوط، مصور بمكتبة بلدية الاسكندرية، رقم 4227ب، وتوجد نسخه في مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم 738. زيادة ملكس فابري: م س، ص 196.

(2) تشبه طريقة استخراج المطاط بشق ساق الشجرة وتجميع العصارة السائلة في وعاء ثم يسدون الشقوق خوفاً من موت الشجرة ثم تعرض لأشعة الشمس في اناء واسع لترسب الشوائب في قاع الاناء، أما زيته فيغلى على النار ليكسب لوناً احمر ورائحة عطره فسيمى عندئذ "دهن البلسم" وهو ارقى انواع البلسم وقد استورده المصريون القدماء لتحنيط موتاهم، د. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 115، وانظر: مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، جـ1، ص465.

(3) د. غوانمه: ن.م، ص 110. Russel, Holy Land, p. 256

الصناعات القائمة على الانتاج الحيواني

أولاً: صناعة المنسوجات الصوفية:

وقد اشتهرت بها كل من مدن غزة، وعسقلان[1]، وصفد[2]، والكرك، وقرية باعون بالقرب من عجلون شمال الأردن[3] وكان الصوف يغزل وينسج على أنوال يدوية[4] كما ازدهرت صناعة البسط في منطقة الشوبك والكرك التي نالت اهتمام سلاطين المماليك لجودتها كالسلطان الملك الاشرف شعبان عندما سافر الى الحج عام 778هـ/1377م ولقائه بنائب الكرك بمدينة العقبة حيث أوصاه بصناعة كميات كبيرة من البسط ونقلها الى القاهرة. وتم فعلاً نقل بعضها الى القاهرة لفرش ديوان السلطان المعروف بـ "دار العدل بقلعة الجبل بالقاهرة"، على الرغم من مقتل هذا السلطان[5].

كما اشتهرت مدينة أعناك شمال الأزرق جنوبي الأردن أيضاً بالقرب من الحدود السعودية بصناعة البسط المزركشة بالنقوش والرسوم الجميلة بالإضافة للمنسوجات الحريرية المنسوبة اليها[6]، وهكذا ازدهرت صناعة النسيج والحياكة في شرقي الاردن في العصور الوسطى[7] بالإضافة الى المنسوجات الكتانية القائمة في صفد على زراعة الكتان في جبال الجليل بشمال فلسطين[8].

صناعة النسيج والبسط:

لقد استخدم نبات الكتان في صناعة النسيج والبسط[9] كما اهتموا بنسج القطن والصوف وصبغه وخاصه في مدينة الرملة[10] وصفد في فلسطين[11] وقد حصلوا على القطن بزراعته في سهول

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص 747-748، وابن الوردي:م س، ص 43.

(2) الطراونه: صفد، ص 172.

(3) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 88.

(4) ابن شاهين:م س، ص 19، القزويني:م س، ص 162.

(5) المقريزي: ن م، جـ3، ق1، ص 284.

(6) ياقوت: م س، جـ1، ص 222.

(7) الحائك: الذي ينسج الغزل قماشاً، الشيزري: م س، ص 65.

(8) الطراونه، ن.م، ن.ص.

(9) Geitein, Studies in Islamic History, p. 261.

(10) الغزى: نهر الذهب، جـ1، ص 107.

(11) الطراونه: ن م، ن ص.

فلسطين[1]، كما اشتهرت الكرك والشوبك ببسطها الحريرية والصوفية التي نالت اعجاب سلاطين المماليك[2]، كما صنعت الأقمشة من وبر الجمال في جنوب بلاد الشام[3]

ثانياً: الصناعات الجلدية:

التي اعتمدت على جلود الحيوانات كصناعة الكنائن التي توضع فيها السهام[4] في مدينة زغر التي اشتهرت بكنائنها الحمراء المذهبة التي كان العرب يتفاخرون بحملها[5] هذا بالاضافة لصناعة الأحذية ودباغة الجلود.

ثالثاً: الصناعات الغذائية:

كالجبن والزبدة واللبن التي اعتنى بها فلاحو جنوبي بلاد الشام لغذائهم وتصريف الفائض منه الى أسواق المدينة[6] لبيعها وبمقايضتها بمواد أخرى كاللباس وغيره.

---

(1) رنسيمان، م.س، جـ3، ص 63.

(2) د. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص 113، كما اشتهرت مدينة الرملة بصناعة السجاد الذي اطلق اسمها عليه واشتهرت صفد بصناعة الثياب الصفدية المشهورة.

(3) خرابشه: مملكة طرابلس في العهد المملوكي، ص 241.

(4) ابن سيده: كتاب المخصص، جـ2، ص 67، القلقشندي، م.س، جـ2، ص 142.

(5) د. غوانمه: ن م، ص 91.

(6) القاسمي: م س، جـ1، ص 76، 105.

التجارة الداخلية

التجارة زمن الصليبيين

مقدمة:

بعد أن استولى الصليبيون على جميع المدن الساحلية على البحر التوسط بدأوا بحركة تجارة نشطة مع دول الغزاة في جنوب اوروبا، وذلك تلبية لاحتياجات الجنود والفرسان المقيمين والمتنقلين وكذلك التجار مما فتح أسواقاً أوروبية جديدة تستقبل منتجات فلسطين الزراعية والصناعية وبالعكس.كما قاموا بضرب النقود وظهور الحوالات المالية، فأقيمت فروع لشركات الصيارفة في المدن الاسلامية تابعة لجنوة وبيزا في ايطاليا، استخدمت الصكوك المالية من قبل فرسان الداوية[1].

وابتكروا طريقة الأوراق المالية الخاصة بتسجيل ما للعميل من المصارف "Credit Notes" هذا كما أوجدوا وظيفة القنصل كوظيفة تجارية وسياسية فجاء من جنوة أول قنصل في مدينة عكا الساحلية في فلسطين عام 576هـ/1180م ثم ارسل قناصل آخرون لمصر[2]. كما ارتفعت الأسعار الى ستة أضعافها بعد خروج الصليبيين من البلاد لما أصاب اقتصادها من دمار شامل[3] بالإضافة الى إهمال الزراعة، فلم يعد يعنيهم تقدم البلاد اقتصادياً فعملوا على تهريب الذهب الى اوروبا مثل البندقية ومرسيليا وبرشلونة فتدهورت كمية الذهب في الاسواق العربية وخاصة السوق الفلسطينية.

أما لدور الجاليات الايطالية التجاري من بنادقه وجنوية وبيزاوية فقد اشتركوا في الصفات العامة من حيث ممارسة نشاطهم في أحيائهم الخاصة بالقرب من الموانئ البحرية الشامية بالاضافة لمحاكمهم وكنائسهم ومخازنهم الخاصة والاعفاء من الضرائب وامتيازاتهم الخاصة التي حصلوا عليها من الصليبيين الذين استفادوا بدورهم من هذا النشاط التجاري بجمع الثروة

---

(1) د. فليب حتي، تاريخ العرب- دار الكشاف-بيروت 1951، جـ3، ص 791.

(2) د. عبد الرحمن فهمي، م س، ص 83.

(3) البرغوثي: عمر الصالح، تاريخ فلسطين-القدس، مطبعة بيت المقدس 1923، ص 209.

والامدادات العسكرية من طاقة بشرية ومادية، لذا بذلت هذه الجاليات أقصى جهد لها للاحتفاظ باستغلالها الاقتصادي وتلبية احتياجاتها اليومية مستغلة حاجة الصليبيين الماسة لهم وقرب بلادهم من الشام ومصر كما بذلوا اقصى جهدهم في المحافظة على علاقات طيبة مع حكام مصر والشام من الأيوبيين والمماليك خوفاً على مصالحهم التجارية في موانئ المسلمين وهذه السياسة المزدوجة ذات الوجهين مازالت في مصطلحات القاموس السياسي اليوم للدول الكبرى التي تنتهجها في الشرق الأوسط وخاصة في التعامل مع اسرائيل والدول العربية الأخرى للحفاظ على مصالحها وأمنها القومي.

وبالنسبة للأهمية الاقتصادية للاردن

في عصر الدولة الفاطمية والسلجوقية والصليبية:

كان الأردن: يمد مملكة بيت المقدس بالغلال والقمح اللازم لها بالإضافة الى مرور الطريق التجاري وطريق الحجاج عبر شرقي الأردن والقادمة من دمشق أو مملكة بيت المقدس، والتي تنتهي بموانئ فلسطين، كميناء عكا الذي كان يستقبل البضائع العربية الواردة من الجنوب العربي ودمشق وقد وصف ابن جبير نشاط ميناء عكا[1] بالإضافة للدخل الوافر الذي تحصل عليه مملكة بيت المقدس من الضرائب المفروضة على هذه البضائع[2]. بالإضافة الى سيطرتها على ميناء "ايلة" العقبة على البحر الأحمر المتحكم في حركة التجارة والمواصلات من بلاد الشام والسواحل الحجازية واليمن، ومصر وبلاد المغرب الاسلامي[3]، كما كانت خط الدفاع الأول لمملكة بيت المقدس من أي تقدم اسلامي أو لصد غارات القبائل العربية المجاورة لذا تفرغوا لتحصين المنطقة الجنوبية من الأردن، بعد مهادنة بلدوين الاول ملك بيت المقدس لظهير الدين صاحب دمشق سنة 502هـ/1108م واتفقا علىتقسيم السواد وجبل عوف (عجلون) أثلاثاً

---

[1] ابن جبير: الرحلة، ص 276-277.

[2] رانسيمان: م س،جـ3، ص 601.

[3] ابن خرداذبة: م س، ص 154. نعيم زكي: دائرة المعارف الاسلامية-طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص 141، القاهرة، 1973.

بين الاتراك حكام دمشق والافرنج والفلاحين سكان هذه المنطقة الخصبة حتى سنة 583هـ/1187 بعد انتصار المسلمين في حطين[1].

فاندفع بلدوين للشوبك وأعاد بناء قلعتها القديمة الضخمة عام (509هـ/1115)[2] التي لا يمكن الوصول اليها الا من طريق واحد[3]وجعلها قاعدة عكسرية لمراقبة الطرق بين مصر الشام والحجاز والسيطرة على القوافل التجارية القادمة من اليمن والبحر الأحمر وسماها اللاتين "مونتريال Montroal" تكريما لذكرى الملك بلدوين بانيها، كما أقاموا عدة حصون منيعة بوادي موسى[4] جنوب الأردن مثل هرمز[5]، الطفيلة[6]، سلع[7]، لإكمال السيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية اقتصادياً وعسكريا.

ثم أكمل بلدوين سلسلة الحصون المنيعة سنة 510هـ/1116م ببناء قلعة "ايلة" على طرف اللسان الشرقي للبحر الأحمر[8] وجعلها قاعدة عسكرية للسيطرة على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي[9] وللسيطرة على الطرق البرية بين مصر والحجاز، كما بنى قلعة حصينة في جزيرة فرعون Legraye قرب الساحل فأصبحت تجارة البحر الأحمر تحت رحمتهم[10].

---

(1) ابن القلانسي: م س، ص 164، رانسمان،ن م، جـ2، ص 157.

(2) د. ابراهيم العدوي: تاريخ العالم الاسلامي بعصر البناء والانطلاق، جـ1، ص306، القاهرة 1983.

رانسمان م س، جـ2، ص 160، عاشور: الحركة الصليبية جـ1، ص 327، Stevenson, The Crusaderss, p. 65

(3)الشوبك: تقع بين الطفيلة ومعان على يمين وادي عربة شمال شرقي البتراء تشتهر بكثرة بساتينها وعيونها وكان أغلب سكانها من النصارى. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 247، ياقوت الحموي:م س، جـ3، ص 332، يذكر أنها من بناء الفرس سنة 509م، على انقاض حصن قديم للتحكم في الطريق البري بين مصر والشام.

(4) وادي موسى: جنوب القدس بينها وبين الحجاز، تملوه أشجار الزيتون،

Lestrange "gey": Palestine under the Muslems, p. 584, Beirut, 1965.

(5) هرمز: قلعة بوادي موسى بين القدس والكرك، ياقوت الحموي:ن م، جـ4، ص 968.

(6) طفيل: قلعة بوادي موسى قرب البيت المقدس، ياقوت "معجم البلدان"، جـ3، ص 541، وهي الآن مدينة الطفيلة.

(7) سلع: السلوع: شقوق في الجبال وأصلها عبري بمعنى "الصخر" ويطلق عليها البتراء باليونانية ومعناها: "الصخر" أيضاً، وسلع قلعة حصينة بوادي موسى قرب القدس، ياقوت الحموي: ن م،جـ3،ص117، Lestrange,Ibid, p. 528

(8) رانسمان، جـ3، ص 160. Stevenson, Op.Cit, p. 65

(9) فيليب حتي:م س، جـ2، ص 231.

(10) ابن واصل: م س، جـ3، ص 294.

كمل الملك فولك ملك بيت المقدس (1113-1144م) تحصين المواقع الدفاعية حول بيت المقدس خوفاً من هجوم المسلمين من جهة المنطقة الواقعة شرقي البحر الميت فبنى قلاعاً من جهة الجنوب والشرق في تل الصافي[1] ويبنة[2]، وبيت جبرين[3] ولمحاصرة عسقلان[4] أيضاً آخر معقل لمصر في فلسطين، وأعاد تجديد بناء قلعة الكرك وتحصينها[5].

التجارة الداخلية بين فلسطين والأردن زمن الصليبيين:

لقد سمح جودفري البويوني أول حاكم صليبي لبيت المقدس لشيوخ شرقي الأردن أن يرسلوا فائض محصولاتهم الى مدن الساحل الشامي عبر فلسطين وشجع الايطاليون ذلك في الوقت الذي منعوا فيه التجارة بين الساحل الشامي ومصر، لتبقى هذه المدن معتمدة في تجارتها كلية على المسيحيين فاندمجت فلسطين كلها في وحدة اقتصادية شاملة مع الاردن وصار لها علاقات تجارية عبر البحر الى اوروبا كما حاول بلدوين الأول السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة "وادي عربة" ليقطعوا الاتصال بين مصر والعالم الاسلامي في الشرق وخاصة بعد سيطرتهم على ميناء "ايلة" العقبة، وليهددوا الحجاج المسلمين[6] لذا سيطر بلدوين الأول على وادي عربة جنوبي البحر الميت ثم بنى قلعة الشوبك 1115م، للسيطرة على وادي عرب[7]. أما بلدوين الثاني 1120م فقد شجع التجارة بمنحه التجار اللاتين والحجاج والزوار اعفاءات تجارية كبيرة من الرسوم الجمركية للبضائع الواردة والصادرة من مملكته[8].

---

(1) قلعة بجنوب فلسطين في مقاطعة الرملة ويسيطر على الطريق بين عسقلان وبيت المقدس، رانسمان، جـ2، ص 36.

(2) يبنة: تبعد عشرة أميال جنوب غرب اللد: رانسمان جـ2، 369.

(3) بيت جبرين حصن يقع على الطريق بين عسقلان والخليل (حبرون) وتحصن به الفرسان الاستبارية، رانسمان جـ2، ص 369.

(4) رانسنمان، جـ2، ص 369، Stevenson, Op.Cit, p. 146

(5) عاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص 601، Stevenson, Op.Cit, p. 146

(6) Fink, Latin States, p. 406.

(7) Runcimam, 1, p. 97.

(8) كما فتح في الوقت نفسه لجميع المسيحيين الشرقيين من السريان والارثوذكس والأرمن وكذلك المسلمين اعفاءات من دفع الرسوم في حال دخولهم كتجار الى بيت المقدس. Wiliam of Tyre, 1, p. 537

ولاحكام السيطرة التامة على طريق التجارة بين مصر والشام بنى فولك 1142م قلعة الكرك في صحراء البتراء[1].

حاولوا الاستيلاء على عدن جنوبي البحر الأحمر لاغلاق البحر الأحمر في وجه تجارة المسلمين وقطع طريق الحج عليهم. لذلك قاد "دي شايتون" 1182 حملة بسفنه التي نقلها على ظهر الجمال من شرقي الأردن الى خليج العقبة واستولى على ايلة ثم ابحر الى عيذاب وغيرها من الموانئ شمال شرقي جزيرة دهلك[2] فهزت هذه الحادثة العالم الاسلامي.

ومع ذلك استمرت التجارة بين المسلمين في دمشق والصليبيين في عكا[3].

وهكذا ظلت مدن الشام الساحلية موانئ للمدن الاسلامية الداخلية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[4].

وقد سمح الصليبيون للتجار المسلمين بالمرور بالأراضي التي احتلوها بعد وضعهم مراكز جمركية "ديوان" على الجسور ومداخل الأودية وأمام الحصون مثل عكا وكذلك عند حصني مرقب وتبنين ودير البلح وكان بين فلسطين ومصر مركزاً جمركياً في قطيا "أو قطنا"[5].

وكان الديوان عبارة عن خان لنزول القوافل ولنزول التجار والمسافرين وحفظ البضائع[6].

---

(1) ابن شداد، م.س، ص 66.

(2) المقريزي: السلوك، جـ1، ق1، ص79 . أبو شامة،م س، جـ2، ص 36-37، ابن واصل، م.س، ج2، ص 130.

(3) ابن جبير، م. س، ص 201، 209، يقول "واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين على عكا كذلك". وعلق في مكان آخر "وأهل الحرب مشغولون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب".

(4) ن.م، ص 14، 215.

(5) النقاش، العلاقات، ص191، ابن بطوطة، م.س، جـ1، ص 3، هذا وقد رافق ابن جبير أحد القوافل التجارية وأشار الى حسن معاملة الموظفين الصليبيين للتجار وتحدثهم بالعربية والكتابة بها، ابن جبير، ن.م، ص 211.

(6) ن.م، ص 261.

أما المسافات في الاصطخري[1]: فكانت الطريق من الشام الى حدود مصر كالتالي:

المراحل: من ملطية الى رفح:

من ملطية الى منبج أربعة أيام ومن منبج الى حلب يومان ومن حلب الى حمص خمسة أيام ومن حمص الى دمشق خمسة ايام ومن دمشق الى طبرية أربعة أيام ومن طبرية الى الرملة ثلاثة ايام ومن الرملة الى رفح يومان، فيكون مجموع ذلك خمسا وعشرين مرحلة.

وأما الطريق الآخر من فلسطين الى الشرق: من يافا الى الرملة الى بيت المقدس الى اريحا الى زغر ثم الى جبال الشراة، ثم الى معان ومجموعها ست مراحل.

والطريق الساحلي: يافا، الرملة، عسقلان، غزه.

أما عدد ايام السفر: من الرملة الى بيت المقدس يوم، وثم الى مسجد ابراهيم الخليل يومان ومن بيت المقدس الى اريحا يوم، ومن بيت المقدس الى البلقاء يومان، ومن الرملة الى قيسارة يوم، ومن الرملة الى نابلس يوم، ومن ريحا الى زُغَر يومان، ومن زُغر الى جبال الشراة يوم، ثم الى آخر الشراة يوم وقصبة الاردن طبرية، ومنها الى صور يوم، ومن طبرية الى عقبة في يوم، ومن طبرية الى عكا يوم.

هذا وذكر المقدسي[2] أن المسافة من بيت المقدس الى نهر الاردن مرحلة، ومن نهر الاردن الى عمان مرحلة ومن نابلس الى اريحا مرحلة، ومن اريحا الى عمان مرحلة، ومن صغر (يعني زُغر) الى مؤاب مرحلة، ومن عمان الى مؤاب مرحلة، ومن عمان الى الزريقا مرحلة (الزرقاء اليوم) ومن الزريقا الى أذرعات مرحلة (درعا)، ومن أذرعات الى دمشق مرحلتين. ومن يافا الى عسقلان مرحلة، ومن قيسارية: الى كفر سلام أو الى كفر سابا أو الى أرسوف: مرحلة.

---

[1] الاصطخري: أبو اسحق الفارسي، كتاب الأقاليم، نشر ملّر، غوتنمبرغ، 1839م، ص 65. وابن حوقل: ابو القاسم محمد، المسالك والممالك، نشر دي غيون، ليدن، 1872م، ص 170-173.

[2] المقدسي: م.س، ص 190.

بينما ذكر الادريسي[1]: من اريحا الى زُغر يومان، ومن زُغر الى آخر جبال الشراة يومان ومن أريحا إلى بيت المقدس مرحلة، ومن بيت المقدس الى عمان والبلقاء يومان، ومن الرملة الى يافا نصف يوم، ومن الرملة الى نابلس يوم، ومن صور الى طبرية يومان، ومن صور الى دمشق اربعة أيام ومن دمشق الى بيروت يومان، ثم الى بلبيس إحدى وعشرون ميلا ثم الى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً.

المكوس الصليبية:

لقد فرض الصليبيون مكوساً على التجارة المارة بالطريق التجاري الخارجي بين دمشق وعكا بمقدار دينارين وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس[2].

وهكذا نلاحظ أن النشاط التجاري كان مستمراً بين المسلمين والصليبيين بالرغم من المعارك الحربية المستمرة[3] كما ورد في المعاهدات بينهم في عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من (1267-1292) إشارات تتعلق بتأمين التجارة الصليبية بالشام وغيرهم من القادمين من أوروبا[4].

هذا بالإضافة الى النص الخاص بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شيء منهم وهو ما لم تجر به العادة[5] كما ورد في هدنة بين الملك والمنصور قلاوون ولديه الملك الأشرف خليل وبين الملكة الجليلة (مدام مرجريت بنت هنري بن الابرنسي)[6].

---

(1) الادريسي: م.س، ص2، 3، 7، 8، 9، 10.

(2) كان الدينار يساوي 24 قيراط كما فرضوا ضريبة اضافية على التجار المغاربة لاشتراكهم في الجهاد مع نور الدين زنكي ومقدارها دينار صوري على شكل شخص. ابن جبير :م س، ص 210.

(3) ابن واصل،م س، جـ2، ص 402، وما بعدها.

(4) القلقشندي، م س، جـ14، ص 31، لقد ذكر في هدنة السلطان بيبرس الصالحي النجمي وبين مقدمي الاسبتارية في عكا "حصن الأكراد والمرقب" كما ورد في هدنة بين بيبرس وملكة بيروت 1269 إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنجة وأن يكونوا آمنين، ن.م، جـ4، ص 37.

(5) القلقشندي، ن.م، جـ14، ص6، وهناك معاهدة أخرى بين بيبرس وابنه الملك السعيد والفرسان، الاسبتارية 1271م، تشير الى التجار المصريين والصليبيين بتقسيم المتحصل بينهم مناصفة، القلقشندي، ن.م، جـ 4، ص 45، وانظر جوزيف نسيم، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الاسكندرية سنة 1983، ص111، 112.

(6) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص 105.

ويلاحظ على هذه المعاهدات بأن نصوصها كانت تتأثر بالموازين السياسية بين الفريقين وقوة كل منهما حيث كان سلاطين المماليك في مصر يملون ارادتهم على الصليبين في الشام في ذلك الوقت حيث اتخذ المماليك في مصر زمام المبادرة في الوقت الذي التزم به الصليبيون سياسة الدفاع بوجه عام.

التجارة الداخلية في القرى والمدن في جنوب بلاد الشام:

لقد تبادل أهل القرى والمدن السلع التجارية عن طريق المقايضة كما حدث بين نصارى الكرك والشوبك في جنوبي الأردن، وسكان جزائر الغول في البحر الأحمر[1] الذين تبادلوا بالمقايضة مادة الزبيب والزيتون والزيت مقابل السمك المجفف والمملح الذي كانوا يحملونه الى الطور والسويس ثم الى الكرك والشوبك ومن الوسائل الأخرى لتبادل السلع التجارية نشاط الوسيط التجاري والذي يعرف اليوم "بالسمسار" الذي كان يسمى آنذاك "بالحدّار" الذي يطوف القرى لعرض بضاعته التي أحضرها من المدينة، كالخيطان والابر والمحارم والمناديل... وغيرها وكان يأخذ الدراهم أو يقايض بضاعته بمحصول الفلاحين من قمح وبرغل وعدس وكشك[2].

وقد شاهد الباحث عملية المقايضة هذه في الخمسينات والستينات في قرى شمالي الأردن في قرية سوم الشناق والذي مازلت اذكر اسم التاجر عبد المحسن الزيتاوي الذي كان يحمل بضاعته على حمار والذي اصبح اليوم تاجراً كبيراً من تجار الاقمشة في مدينة اربد ومازلت أتعامل معه حتى الساعة.

أما في شمالي الأردن فكانت هناك أسواق اربد التي تقع على الطريق التجاري بين دمشق والقاهرة، حيث كانت تعج بمختلف صنوف البضاعة المختلفة التي يحملها تجار بخارى وسمرقند وبلاد فارس والعراق والشام[3] وكان فيها بركة ماء لتزويد الحجاج بالماء، وما زلنا نشاهد آثار

---

(1) جزائر الغول:تزيد على مائة جزيرة وهي خراب الآن،وكان ياوي إليها سودان عراه كلامهم ثقيل ولهم مراكب وبيوتهم من قصب.

(2) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، جـ1، ص94، غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 125، هامش 93. ابن سعيد المغربي (ت 673/ 1275) كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط1، بيروت، 1970، ص 130.

(3) المقريزي السلوك، جـ2، ص 592، ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص 18، 110، 119.

هذه البركة من الجنوب الى المدينة مع كثرة خاناتها المخصصة لخدمة التجار والمسافرين وفي مدينة الحصن ايضاً.

كما كانت العقبة سوقاً كبيراً عند عبور الحجاج المصريين والمغاربة والسودان وغيرهم[1] وقد وصف العمري هذه الأسواق العظيمة التي تشمل الخيول والأغنام والأبل والسلاح والقماش والأقنعة[2].

وكان المسلمون من سكان الاردن يرافقون ركب الحجاج بينما لا يسمح لنصارى الأردن بذلك وحتى مدينة العل[3].

كما كانت الاردن معبراً لتجار الشرق الاقصى من الصين والهند واليمن والقادمة لدمشق عبر جدة–مكة حيث تنقل الركاب والبضائع التي تصل الى حوالي 80 ألف جمل[4] لتصل الى دمشق وتعود محملة ببضائع الشام واوروبا الى مكة وعدن فالهند والصين.

وكانت نيابة الكرك تحصل من التجار الرسوم الجمركية في ديوان جسر الحسا بما يقارب لعشرة آلاف مثقال من الذهب شهرياً.

أما التجار القادمون براً من الحجاز الى مصر فعليهم دفع الرسوم في ديوان بويب العقبة.[5] وكانت السلع المستوردة التي تجلبها قوافل تجار التوابل: كالبهار والفلفل، وجوز الطيب، والزنجبيل، والعطور: كالمسك، والعنبر، والقرنفل، والأحجار الكريمة: كاللؤلؤ، والعقيق الأحمر، واليماني، والمرجان، والفيروز، الصمغ العربي، والورق، والحرير الصيني، والنيل والمعادن: كالنحاس، والحديد، والرصاص والقصدير والذهب والعاج.

أما الصادرات التي تحملها القوافل من سلع مختلفة فكانت: اخشاب الصنوبر والخيول العربية والمنسوجات المصرية والدمشقية، والتحف[6].

---

(1) المقريزي: الخطط، جـ1، ص 327.

(2) العمري: مسالك الابصار، جـ2، ق1، ورقة 168، (مخطوط) و المقريزي: الخطط، جـ1، ق3، ص 325.

(3) ابن بطوطه: الرحلة، جـ1، ص 69، يقول: العلا قرية كبيرة فيها بساتين النخيل والمياه ويقيم فيها الحجاج أربع أيام وإليها ينتهي تجار نصارى الشام المرافقين للحجاج.

(4) المقريزي: السلوك، جـ4، ص 681، 768، 965.

(5) المقريزي: ن م، جـ4، ص 256، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها، ص 279.

(6) د. يوسف غوانمه: التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في العصر المملوكي ص 89.

التجارة البحرية في العقبة ميناء الأردن الوحيد [1]:

لقد كان موقع العقبة المميز في البحر الأحمر وما زال المنفذ الوحيد للاردن والمنفذ لبلاد الشام الى الهند والصين وسواحل افريقيا الشرقية وخاصة خلال العصر الايوبي والمملوكي حيث أقيم فيها مركز جمركي لقبض المكوس[2] المفروضة على البضائع الواردة اليها ليعاد تصديرها الى اوروبا[3].

بالاضافة الى طريق بحري داخلي عبر البحر الميت الذي كانت تجوبه السفن التجارية من الكرك الى اريحا والقدس وبالعكس مبتدئة من مدينة زغر على الطرف الجنوبي للبحر الميت[4] وكانت تحمل السلع والأفراد والغلال أيام المماليك.

ثالثاً: العلاقات التجارية الخارجية:

لقد تمتعت منطقة شرقي الأردن بعلاقات تجارية وثيقة مع العالم الاسلامي كالقاهرة ودمشق والساحل الفلسطيني وبيت المقدس والحجاز وبغداد[5] وذلك نتيجة لموقعها الاستراتيجي الذي يربط بين هذه البلدان. كما كان لشرقي الاردن علاقات تجارية غربية مع اوروبا عبر البحر الأحمر فقد ذكرت المصادر وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون للتجار الأجانب، من بنادقه وبيازنه وجنوبيين وغيرهم، كدار الطعم المشابهة لها في دمشق والوكالة بمصر[6] ووجدت في عجلون "القياسر التي تقوم مقام الوكالة لايواء التجار الاجانب وخزن سلعتهم[7]. كما أشار

---

(1) سميت في العصر المملوكي بندر الاردن، د. غوانمه، ن.م، ط2، 1982، عمان.

(2) ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي، نسق الأزهار في عجيب الامصار، ورقة 87، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 439، جغرافيا.

(3) د. غوانمه: ن.م، ص 90.

(4) وللمزيد من المعرفة انظر: القزويني: زكريا بن محمد بن محمود "آثار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت، 1960

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ1، ص 41، 91، 92، الذي ذكر بأنه حضر تاجراً لعمان لحساب سيده في بغداد مما يؤكد أهمية مدينة عمان كمركز تجاري هام.

(6) القلقشندي: م س، جـ4، ص 187، حيث يقول: "يتولاها شخص يسمى "شاد دار الطعم" كما يذكر المقريزي بأن السلطان الأشرف خليل قرر لنائب دمشق علم الدين سنجر الشجاعي عام 690هـ بثلاثة دراهم على دار الطعم بدمشق، المقريزي: السلوك، جـ6، ص 768.

(7) د. غوانمه: ن.م، ص 91، 92.

الدكتور يوسف الغوانمه الى الوثائق الاوروبية التي اخبرت عن وجود السكر الكركي والاسفلت والبلسم في أسواق فلورنسا مابين 1310-1340[1]، وقال عنها "إنها البصرة الصغرى" لشهرتها التجارية.

كما تؤكد العملات النقدية الذهبية ذات الصور الفرنجية التي منحها الملك الناصر محمد بن قلاوون عند خروجه في سلطنته الثالثة في دمشق لبعض اللاجئين اليه على وجود علاقات تجارية مع اوروبا[2]، بالإضافة الى العثور على العملات الاسلامية في كثير من أقطار اوروبا كالسويد، والتي تدل على وصولهم الى تلك البلدان وربما كانت من اجل شراء الفراء والجلود كما سمح المماليك للتجار الأجانب بدخول بلاد الشام حيث وصلوا بيت المقدس وحلب ودمشق وبغداد[3].

مما يؤكد وجود العلاقات التجارية الخارجية. كما يؤكد ذلك اتهام المماليك لتجار الشوبك الذين انتشروا في الطور بعد اضمحلال مركز عيذاب التجاري[4] بالتجسس لحساب الفرنجة في غزة فضيقوا عليهم[5].

ومما ساعد على تنشيط حركة التجارة داخلياً وخارجياً توفر الطرق الآمنة نتيجة تعيين حراس لها زمن المماليك منذ عهد الظاهر بيبرس حيث اسندوا حراستها الى بني عقبة من عرب

(1) ن.م: ص 92.

(2) المقريزي: ن م، جـ4، ق1، ص 305، يقول "بأن هذا النوع من النقود الذهبية لم ينتشر تداوله إلا بعد 790هـ-1388م". القلقشندي: م س، جـ3، ص 437. د. غوانمه، ن م، ص 92.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلاّن، جـ1، ص 120-121.

Newton, Trade and travellers of the middle ages, London, p. 125. Setton: A histry of the crasaders vol.2, p. 594, London, 1962.

(4) القلقشندي: م.س، جـ3، ص 465، يذكر بأن المماليك اهتموا بميناء الطور لاستقبال تجارة الشرق من الهند والصين بعد اهمالهم لمركزي عيذاب والقصير.

(5) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 12 جزء مكتبة القدسي، القاهرة، 1353-1355هـ، جـ3، ص 213، حتى هجموا على الاسكندرية، وخصوصاً الشوابكه متهماً اياهم بمآلاة الفرنجة، يقول: بأن يلبغا المملوكي ضيق عام 767هـ على النصارى.

الكرك، وبني مهدي عرب البلقاء هذا بالإضافة الى إقامة الخانات لراحة المسافرين والتجار مثل خان العقبة وخان الحسا، وخان القطرانه[1].

النشاط التجاري والمنشآت التجارية المملوكية

أولاً: التجارة الداخلية:

اهتم سلاطين الأيوبيين والمماليك بتنشيط التجارة بتأسيس الوكالات[2] والخانات[3] والفنادق[4] والقياسر[5] والأسواق والموانئ.

ولقد كثرت هذه المنشآت في جنوبي بلاد الشام لموقعها الاستراتيجي على طريق الحجاج، والقوافل التجارية بين مصر والشام والحجاز وبغداد، مثل خان الأحمر في فلسطين[6]. وخان

---

(1) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 94.

(2) الوكالات: مفردها وكالة، وهي دار تقوم بمهمة الخزن والتسويق في مختلف المدن الشامية والمصرية لخدمة التجارة الخارجية. فوكيل التاجر يقوم بخزن بضاعته وتسويقها دون تواجده ويسمى "صاحب الوكالة" كما سميت في دمشق (دار الطعم، وصاحبها "شاد دار الطعم"، الذي يعينه نائب الولاية لجبي المكوس من التجار. القلقشندي، م س، جـ4، ص 193.

(3) الخان: كلمة فارسية الأصل وتعني المأوى أو البيت أو القصر وتدل على المخزن أو المستودع، نعيم زكي فهمي، م س،ص294، هامش 64، سيشار له فيما بعد (فهمي: طرق التجارة).

N, Ellisseff, Encyclopaedia of, Islam Vo. I, IV, p. 1010.

انظر الملحق خريطة خانات فلسطين في العصر المملوكي ص 212، كتاب سليم عرفات، النقود العربية.

(4) الفندق: كلمة لاتينية الأصل (Pandokoion) وتعني تكدس البضاعة، وفي الايطالية (Fondachi) وتعني: مبنى ضخم من عدة طبقات حيث يشمل على غرف نوم ومخازن للبضاعة. آدم متز: م س، جـ2،ص326. فهمي: الطرق التجارية، 288.

S.D. Goitein, Amederranean Society, University of California Press, Berkelay, Losanglos, California, 1967. vol. 1, p. 27.

(5) مفردها قيسارية: وهي كلمة لاتينية محرفة عن كلمة (Cesarie) او Caesarea فهمي: طرق التجارة، 295-296، الريحاوي: خانات دمشق، ص 47، وهي من أصل يوناني وتعني البناء الامبراطوري حيث تعتبر من الاملاك التباعة للدولة.

Gaitein Amaditerranean, Vol. 1, p. 193.

وتعتبر من مخلفات العصر البيزنطي، وخُصصت للبضائع الأجنبية والمدخرات الثمينة التي يعرضها التجار في غير الأيام المخصصة للسوق، لذا كان فيها شرطة، وكانت تقوم بمهمة الأسواق.

والقيساريات: أبنية تقوم بمهمة الأسواق، وهي وجدت في بلاد الشام قبل مصر، وهي عبارة عن حوانيت تؤجر للتجار وتقوم بمهمة نزل واقامة التجار بالاضافة للبيع والشراء بالجملة والمفرق، حيث تبنى مساكن فوق الحوانيت لتأجيرها للتجار والعامة. د. غوانمه التاريخ الحضاري، ص 83، هامش رقم 19، ونلاحظ هذا البناء في أسواق البلديات في أبو ظبي قرب المساكن الشعبة.

ماسنيون: التنظيمات الحرفية والمدنية الاسلامية، دراسات المستشرقين ترجمها وعلق عليها: ابراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر، عمان، 1985، ص 61.

(6) N, Elisseff, Khan, p. 1013.

يونس بغزة[1]. وخانات شرقي الاردن كخان العقبة، وخان الحسا، وخان القطرانه، والتي قدمت خدماتها للحجاج والتجار[2].

وكانت الخانات تجارية وخانات السبيل كخان السبيل الذي بناه السلطان الظاهر بيبرس في القدس[3] والعقبة[4] وخان الامير طاجار الدوادار للسبيل (ت 742هـ/1341م) في جنين وكان مقربا من الملك الناصر محمد بن قلاوون[5]. وبالنسبة للاسبلة[6] فكانت من الأعمال الخيرية التي يقصد بها التقرب الى الله بتقديمها المساعدات الانسانية حيث انتشرت داخل المدن وخارجها على الطرقات منذ زمن السيدة زبيدة زوجة الرشيد (186هـ/788م) في مكة المكرمة[7].

ووجد في القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي عدد من الأسبلة، و 34 بئر لجمع ماء المطر لخدمة رواد المسجد الأقصى[8].

وقد شاهد كل من ابن جبير وابن بطوطه على طريق الشام-مصر ساقية للسبيل بجانب كل خان[9]، وكان يشرف عليه المزملاني[10]. كما عرفت الاسواق في جنوب بلاد الشام مهنة السقاية للمارة يقوم بها السقاؤون للتكسب[11].

---

(1) القلقشندي، م س، جـ14، ص 427.

(2) د. غوانمه: تاريخ شرقي الأردن، ص 188-202.

(3) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، قسم تاريخ لبنان وفلسطين،1962، ص237. وكان يقدم للحجاج والتجار وفقراء القدس ثلاثة أرغفة خبز وقرطاس، ويقوم باصلاح أحذية المسافرين بواسطة الخرّاز ومعالجة دواب المسافرين بواسطة طبيب بيطري (بيطار) بالاضافة لطاحون وفرن، وأوقف عليه قيراطاً ونصف من قرية الطرة، لواء الرمثا وقد عمل الباحث مدرساً في مداسها عام 1962،وثلث وربع قرية المشيرفة من بلد بصرى، ونصف قرية كيفا من أعمال القدس: ابن شداد: ن.م، ص 237.

(4) ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي/ تحقيق فهيم شلتوت، مطبعة الخانجي القاهرة، جـ1، ص 357، (سيشار له فيما بعد، ابن تغري بردي، الدليل الشافي).

(5) د. غوانمه: أيلة، العقبة، ص 129.

(6) السبيل: في اللغة الطريق وردت في القرآن الكريم "من استطاع اليه سبيلا" سورة آل عمران آية 97، وفي دائرة المعارف الاسلامية وردت معنى عين الماء ليشرب منها الناس بقصد وجه الله. ابن منظور، لسان العرب، مادة سبل، جـ11، ص 319. وهيكت، سبل، دائرة المعارف الاسلامية، م8، ص 269.

(7) ابن خلكان : مس، م2، ص 314.

(8) مجير الدين الحنبلي: م س، م1، جـ2، ص 23،علي: مدينة القدس، ص 243.

(9) ابن جبير: م س، ص 233، وابن بطوطه : م س، ص 50.

(10) عاشور: المؤسسات الاجتماعية، م3، ص 359، ذكر الأدوات المستخدمة في السبيل.

(11) الزوربا: الحياة الاجتماعية، ص 296.

ونشط سكان الشوبك والكرك في أعمال التجارة الداخلية والخارجية وخاصة بين مصر والشام والحجاز وجنوب الجزيرة العربية لموقعها الجغرافي المتوسط بين هذه البلدان[1] وكان من العوامل التي أدت لنشاط التجارة الخارجية طرق المواصلات الآمنة وعقد الهدنة مع الفرنجة.

وبالنسبة للأسواق:

فقد كانت الأسواق الشامية تحتفل بالمناسبات الدينية زمن المماليك بتزيين الحوانيت بالفوانيس في رمضان[2] ليلاً، ويعاقب المحتسب المفطر في رمضان-حتى وان كان مسافراً أو مريضاً بتعريضه للاستهزاء وسخرية الأطفال[3].

وكانت بلاد الشام تصدر بعض المواد الغذائية لمصر استعداداً لرمضان كالزيت والفستق والجوز والخرنوب والياسمين[4]. كما نشطت الاسواق الاسبوعية واليومية في المدن، حيث كانت تستقبل الفائض من انتاج أهل الريف بحيث تتم المقايضة بسلع أخرى[5].

كما اعتمد المماليك الأسواق المختصة بنوع السلع كاسواق عجلون النموذجية مثل سوق الجلود وسوق القطانيين وسوق الخليع[6]وسوق اللحامين وسوق الحنطة وسوق الاقباعين[7] وسوق الصاغة والبز العتيق،وحوانيت الخبازين،والطباخين والعلافين وحوانيت

---

(1) ابن واصل، م.س، جـ2، ص 185، ذكر: وكان أرناط صاحب الكرك قد هادن السلطان وسالمه فأمنت الطريق بين مصر والشام... وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذاهب والجائي...". وانظر ابن الأثير الكامل، جـ10، ص 142، والمقريزي، الخطط، جـ1، ص 425، ذكر: "... كانت الطرق الى الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا أن المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماءاً..."

وأبو الفداء: تقويم البلدان، ص 247، القلقشندي، م س، جـ3، ص 16. د. غوانمه، امارة الكرك الأيوبية، ص 62-67، زيادة نقولاً: الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1962، ص 265، 271، حيث ذكر: "... حمولة القوافل القادمة من الجزير العربية الى سواحل الشام من طيب وعطور وتوابل الهند والصين والحبشة واليمن لتصل الى دمشق لمستودع كبير لمنتجات الشرق انظر هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص 184.

(2) المقريزي: الخطط، جـ2، ص 96.

(3) احمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ص 245، القاهرة 1977.

(4) المقريزي: ن.م، ن ص.

(5) هاملتون جب: المجتمع الاسلامي والعرب: جـ2، ص 69، 143.

(6) المقريزي: الخطط، ن م،جـ3، ص 169.

(7) عمامة من الحرير او النسيج ماير:م س، ص 90.

الدق[1]والقياسر[2] التي استخدمها المماليك لاستثمار أموالهم وتبيع بالجملة [3]حيث ضمت أيضاً ما يشبه المصانع الصغيرة،وكانت عليها حراسة مشددة.كما ساهم تجاراهل الذمة في النشاط التجاري الداخلي في المواسم والأعياد حول معظم الكنائس والديارات [4] في بلاد الشام أثناء قدوم حجاج النصارى الى مدينة القدس[5] لوجود كنيسة القيامة فيها،حيث تركزت تجارة المجوهرات الثمينةوالثياب الفاخرة[6]والملونة والخمور[7]والرقيق[8] وأعمال الصرافة التي قامت مقام البنوك في الأعمال التجارية[9]

ودور سك النقود[10] في ايدي تجار النصارى واليهود[11].ومن الجدير بالذكر هنا مساهمة بعض التجار النصارى في مساعدة الفرنج على المسلمين[12]. بالاضافة الى ذلك فان الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجودة في الشرق الأدنى الى جانب عملات اوروبا. وكانت العملة الرئيسية في البلاد قبل الغزو الصليبي هي العملة المصرية أي الدينار الذهبي[13] والدرهم

---

(1) الدق: بقايا بذور الزيتون والمشمش المتفحمه نتيجة حرقها في الأفران، د. يوسف غوانمه، م.س، ص 83.

(2) القياسر: أبنية تشبه الفنادق وتقوم بالإضافة الى ذلك بمهمة الأسواق. المقريزي: ن م، حـ3، ص 144، وابراهيم طرخان: دولة المماليك الحاكمة، ص 368، ومن امثلتها قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر وقيسارية تنكيز في عجلون ويتبعها وكالات مثل دار الطعم "وكالة للتجار الأجانب كالفنادق اليوم". المقريزي: ن م،، حـ3، ص 144، وابراهيم طرخان، ن.م، ص 368.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، حـ1، ص 281-287. د. سعيد عاشور: العصر المملوكي، ص 20.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، حـ4، ص 147، في جبل الطور المشرف على طبرية ببقعة واسعة محكمة البناء مرتفعة الأرجاء يجتمع في كل عام بحضرتها سوق.

(5) السيد، القدس في العصر المملوكي، ص 208، غوانمه، دراسات، ص 235.

(6) Goitein, Studies in Islamic History, p. 261, 262.

(7) Adler, Jewish Travellers, p. 147.

(8) متز :م س، حـ2، ص 158.

(9) متز: ن.م، حـ2، ص 333.

(10) Goitein, Studies in Islamic History, p. 262.

(11) لابيدوس، مدن اسلامية، ص 202، ذكر دور الصيارفة في تعيين النسب المتعلقة بالاسعار زمن المماليك هذا وقد أورد المغربي شعراً كدليل على نفوذ اليهود التجاري في العهد الملوكي:

يهود هذا الزمان قد بلغوا — غاية آمالهم وقد ملكوا
المال فيهم والجاه عندهم — ومنهموا المستشار والملكُ
يا أهل ذا العصر قد نصحت لكم — تهودوا فقد تهوّد الفلكُ

المغربي: عبد القادر، يهود الشام، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق تشرين ثاني (نوفمبر)، 1929، م9، حـ11، ص 610.

(12) فايزة حجازي:م س، ص 126 "ذكرت... فقد احتال التاجر النصراني العفيف موسى الشوبكي في أيام دولة الملك المنصور قلاوون بتردده على عكا صادراً ووارداً الى أن نقل الى عكا كمية كبيرة من غلال السلطان وغلال بعض الأمراء وكان ذلك اعانه منه الى الفرنج".

(13) لفظة الدينار مشتق من اللفظ اليوناني اللاتيني Denartius-Aureus وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب. وقد عرف العرب هذه العملة الرومانية وتعاملوا بها قبل الاسلام وبعده. وقد اشار اليها القرآن الكريم في سورة آل عمران (آية 57): "ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك". هذا ومن المعروف أن الوزن الشرعي للدينار الاسلامي هو 4.25 جرام من الذهب الخاص وكان عياره 23.667 قيراط، لمزيد من التفاصيل عن الدينار والدرهم، انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 232-235.

الفاطمي. وكانت هذه العملات تختلط لا سيما في المدن البحرية بعملات أوروبا وبلاد ما بين النهرين، بل وعملات فارس. وكانت كميات من مثل هذه العملات لم تكن مدخرة، ترد الى دور السك الخاصة بالنقود الفرنجية من خلال الضرائب، بيد أنها ظلت متداولة بعد الغزو[1]. ومن الدرهم تركب الرطل[2] والقدح[3] والصاع[4] والمد[5].

وبالنسبة للأوزان فكانت:

1- الرطل: لقد اختلفت أوزان الرطل من منطقة الى أخرى مقدراً بالدرهم فكان في الأردن مثلاً يساوي 1200درهم في عجلون و 900درهم في الكرك[6]، وكذلك في فلسطين، وكان في غزة 720 درهمً، وفي لاقدس والخليل ونابلس 800 درهماً وفي عكا أكثر من 1200 درهم[7]. فكان أثقلها رطل عكا وأخفها رطل دمشق.

2- الأوقية: كان كل رطل يساوي اثنتي عشرة اوقية[8].وما زالت هذه الأرطار في قرى شمالي اربد حتى اليوم.

---

(1) براور: م.س، ص 224.

(2) الرطل: بكسر الراء وفتحها من الأوزان التي عاشت في ديار العرب منذ عهد الجاهلية -النقود العربية- الأب استاس ماري الكرملي. قال في اللسان: الذي يوزن به ويكال -رواه ابن السكيت بكسر الراء قال ابن احمر الجاهلي:
لها رطل تكيل الزيت فيه   وفلاّح يسوق بها حمارا، وقال ابن الاعرابي: الرطل يساوي اثنتا عشرة اوقية بأواقي العرب، والأوقية اربعون درهماً فذلك اربعمائة وثمانون درهما، وجمعه أرطال، والأوقية: أربعة مثاقيل، والمثقال: درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ثمانية دوانق، والدانق قيراطان، والقراط: طسوجان، والطسوج:حبتان والحبة حبة الحنطة "الكلام للسيوطي"، والرطل: تعريب اليوناني Litra ومثله في الرومي وقد اتفق جميع علماء اللغة من الغربيين على هذا الرأي وكذلك فريق المستشرقين. الأب الكرملي: النقود العربية، ص 38-39.

(3) القدح: قال صاحب اللسان: آنية للشرب وجمعها أقداح، والقدح باللاتينة cadus وهي من اليونانية xáδ05 بمعناه. وكان أصل معناه موضوعاً للسوائل، (الكرملي، ن.م، ص 39) ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرّم الانصاري (ت 630هـ/1232م)، لسان العرب، جـ9، طبعة مصورة عن بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص 83، فصل من حرف الدال.

(4) الصاع: مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد يذكر ويؤنث وجمعه أصواع وصيعان، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد وصاع النبي (ص) بالمدينة أربعة أمداد بمدهم المعروف عندهم، قال ابن الاثير والمد مختلف فيه فقيل هو راطل وثلث بالعراقي وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز فيكون الصاع خمسة أرطال على رأيهم وقيل هو رطلان وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق. فيكون الصاع ثمانية أرطال على رأيهم. ابن منظور:م س،ص83، فصل الصاد، حرف العين.

(5) ويقال على المد ما قلناه على الصاع. فالمد ينظر الى اللاتينية Modius أو Modium وهو عند الرومان مكيال للسوائل والجوامد، ثم اطلق عندهم على المكيال وهو ربع صاع وهو قدر مد النبي (ص) والصاع خمسة أرطال والجمع أمداد ومداد ابن منظور: ن م، فصل الميم حرف الدال. ص 406.

(6) ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي، (ت 1928/729) معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص 137-138، والشيزري: م س، ص 15-16.

(7) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 164-165.

(8) المقدسي: ن.م، ص 165.

وأما المكاييل فكانت:

1- الكيابجة وتساوي صاع ونصف[1].

2- المكوك: ثلاث كيابج، أي 4 صاعات ونصف وكان لا يستعمل إلا في كيل السلطان[2].

3- الويبة: مكوكان: أي تسع صاعات وتساوي ست كيالج[3].

4- القفير: أربع وبيات أي ست وثلاثون صاعاً[4].

وقد استخدم أهل الرملة في فلسطين هذه الأوزان والمكاييل بينما استخدم أهل القدس المديْ: وهو ثلث القفير أي اثنى عشر صاعاً[5]، والقب: وهو ربع مدي أي ثلاث صاعات[6]. كما استخدم أهل عمّان المديْ ويساوي ست كيالج أي تسع صاعات والقفيز الذي كان يساوي نصف كيلجة أي 75٪ من الصاع[7]، وكانوا يبيعون به الزبيب والقطين (التين المجفف).

هذا وقد اختلفت الأوزان في بلاد الشام، حيث كان لكل مدينة وزناً خاصاً بها كالرطل[8] العجلوني، والرطل الكركي. وكان الرطل يساوي 12 أوقية[9] واوقية عجلون تساوي 100 درهم واوقية الكرك تساوي 75 درهماً. وبالنسبة لأوزان الذهب فكانت: المثقال والدرهم والدانق والقيراط[10]. هذا وما زال الريف الأردني يستعمل الكيل، والمد، والصاع، حتى الوقت الحاضر[11].

---

(1) ن م،ص 181، ص 64-65، والقلقشندي، م.س، جـ4، ص1، جـ8، ص 216.

(2) ن.م، ن.ص.

(3) والكيلجة صاع ونصف، ن.م، ن.ص.

(4) ن.م، ن ص.

(5) ن.م، ن ص.

(6) ن.م، ن ص.

(7) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص 11-12، سترانج: م س، 197، ص 64-65.

(8) الرطل: اثنتا عشرة اوقية والاوقية من خمسين درهم الى بضع واربعين، ورطل قنسرين 8 أوقيات، المقدسي:م س،ص165، واستمر استخدام الرطل حتى اليوم واستبدل به الكيلو غرام من عشرين عام بينما لا زال الفلاحون والقرويون يستخدمون، الرطل حتى اليوم. يعود الأصل اللغوي للرطل الى اللغة البيزنطية Litra والاوقية ايضاً Quggia نتيجة الحكم البيزنطي لهذه البلاد. العدوي: ابراهيم احمد، الامبراطورية البيزنيطة والدولة الاسلامية، مطبعة لجنة البيان العرب، القاهرة، 1957، ص 123.

(9) الشيزري: م س،ص 16. بالنسبة للوزن كان الدرهم ستون حبة شعير، والدانق عشر حبات والقيراط ثلاث شعيرات ونصف والدينار اربع وعشرون قيراطاً أي = 84 حبة شعير، المقدسي: ن.م، ن ص.

(10) كان المثقال يعادل درهماً ودانقان ونصف=24 قيراطاً،أما القيراط يعادل3حبات وأربعة أسباع بجبة ويساوي المثقال85حبةوخمسة أسباع حبة وزن كل منها خمسة من حبوب الخردل المعتدل والدرهم الاسلامي يعادل ستة دوانق:ابن الاخوة م س،ص81-82.

(11) فالمد =2 صاع،والصاع = 2ربعية، والربعية = 8 ثمنية وهي الوحدة الصغرى للمكاييل حسب العرض والعادة في الريف الأردني. ويستخدمها أهل شرقي الأردن للحبوب والأشياء اليابسة كالزبيب والقطين (التين المجفف) وقد شاهدها الباحث أثناء استخدام والده لها في الخمسينات ومازالت محفوظة في بيته حتى هذه اليوم.

وفي مجال المقاييس استخدم السكان هنا "الذراع" لقياس القماش وهناك ذراع العمل[1] لقياس أراضي المنازل والدور، كما قاسوا الأراضي الزراعية بالفدان الاسلامي[2] والفدان الرومي[3] وكذلك القصبة التي تساوي 7.5 ذراع حديد[4].

ويلاحظ أهمية معرفة الأوزان والمقاييس الأخرى لعلاقتها بالنقود وبالنصاب الشرعي ولتقدير الحالات الاقتصادية وتفهم الحوادث التاريخية، وكان هذا من واجب الحسبة "البلدية اليوم" والتي من واجبها مراقبة العيارات في الأوزان لقوله تعالى: "واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" ويقول: "ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون"[5].

---

(1) ذراع العمل: ويساوي ثلاثة اشبار رجل معتدل وهناك ذراع أطول منه تسمى بالهاشمي استخدم زمن الدولة العباسية. وذراع القماش يساوي ذراع اليد وأربعة أصابع مطبوقه. القلقشندي: م.س، 14 جزء، القاهرة، مطابع كوستي توماس 1963، جـ3، ص 442-443.

(2) القلقشندي: ن.م، جـ3، ص 442، الفدان = 400 قصبة أو 24 قيراطاً والقصبة = 6 اذرع هاشمي، أو 8 أذرع يدوية.

(3) القلقشندي: ن.م، جـ4، ص 241.

(4) وثيقة وقف السلطان الأشرف شعبان رقم 49 بدار الوثائق القومية بالقاهرة ويلاحظ منها أن الكرك كانت تستعمل ذراع الحديد وطوله بين الذراع الهاشمي وذراع اليد.

(5) سورة المطففين، آية 3.

ثانياً: التجارة الخارجية

لمحة تجارية:

لقد ساعد موقع بلاد الشام الاستراتيجي وسيطرتها على عدد من أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب والذي ساهم بنجاح تجارة العبور "الترانزيت" مع العلم بأن الشريعة الاسلامية سمحت بممارسة التجارة مع البلدان غير الاسلامية في تصدير واستيراد السلع[1].

وقد قام التبادل التجاري بين المسلمين واوربا المسيحية في مرحلة مبكرة من العصر الاسلامي وخاصة مع شرق اوروبا (الدولة البيزنطية) لان غربها الكاثولوكي ساده النظام الاقتصادي الزراعي القائم على النظام الاقطاعي، وعندما قامت النهضة التجارية في غرب اوروبا امتدت آثارها الى الشرق الأدنى مع المسلمين للحصول على السلع الشرقية وتصدير ما يحتاجه المسلمون من سلعهم وتمثّل بداية ذلك النشاط في مدينة البندقية الايطالية كأقرب موانئ غرب اوروبا للشرق عبر البحر المتوسط، وتفوقها فيما يتعلق باقتصاديات نظام المدن والتجارة ولحاجة هذه المدن للبحث خارج حدودها عن موارد اقتصادية إضافية يُعتمد عليها بجانب مواردها المحلية التي لا تغطي متطلباتها، ثم ازداد نمو التعامل التجاري بين الشرق والغرب في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد وقامت حركة الاستيراد في اسبانيا وكورسيكا وسردينيا وصقلية، فأخذت اساطيل الغرب تتوافد الى الموانئ الاسلامية في مصر والشام كسفن البنادقة وجنوة ومرسيليا وذلك قبل الحركة الصليبية.

ولكن مع وصول الصليبيين للشرق ونجاحهم في تأسيس مملكاتهم في بلاد الشام وصل المد الغربي الى شرقي البحر المتوسط، وانتقلت السيطرة التجارية على البحر الميت من أيدي المسلمين الى الأساطيل الفرنجية[2].

---

(1) أبو يوسف: كاتب الخراج، ط3، القاهرة، 1982م، ص 188-190. حيث أورد تحريم الشريعة الاسلامية تصدير مواد حربية الى دار الحرب التي تساعد الاعداء ضد المسلمين وحرمت على التجار الاجانب إحضار وبيع السلع المحرمة كلحم الخنزير والخمور كما فرضت رسوم على بضائع التجار الأجانب عرفت باسم العشور.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 201-202. وقد علق على تحول السيطرة على البحر المتوسط كما عرض لعهد صلاح الدين وجهوده لاسترجاع ثغور الشام من يد الفرنجة: "... تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية، فأمدوهم بالعدد والأقوات و لم تقاوم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين منذ زمن طويل، عن ممانعتهم هناك، و لم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه...). انظر مختار العبادي: والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، بيروت، 1972م، حيث أوردوا المزيد من التفاصيل.

وقد ساهمت الحركة الصليبية في زيادة التعامل التجاري بين المسلمين والفرنجة حيث زادت معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه فأقبلوا عليها بنهم زائد كالتوابل والبهارات المختلفة لاعداد المأكولات كالقرفة والقرنفل وجوز الطيب والزنجبيل وكذلك السلع اللازمة لصناعة العقاقير مثل الأعشاب، وأخشاب البخور والعطور والحرير والأحجار الكريمة والخزف، هذا فضلاً عن السلع المنتجة في البلاد الاسلامية المجاورة للامارات الصليبية في الشرق الادنى، بالإضافة الى حاجة المسلمين لاستيراد سلع معينة من الغرب كالأخشاب ومعادن الحديد والنحاس وبعض الاسلحة والرقيق الذي أتى به التجار المغربيون.

اقتضت الضرورة التعامل التجاري بينهما مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن باستطاعة أحد الطرفين الانفراد بالتجارة واحتكارها دون الطرف الآخر، حتى ذهب البعض بقوله بوجود نوع من التكامل في التبادل التجاري بينهما[1] إلاّ أن مهمة نقل السلع من سواحل بلاد الشام ومصر الى موانئ الغرب أو بالعكس استأثرت بها الأساطيل الفرنجية.

وأما السلع الشرقية من جنوب شرقي آسيا فكانت تنقل من مَنْشَئِها في الشرق الأقصى وشرق افريقيا الى الشرق الأدنى الاسلامي الواقع تحت سيطرة المسلمين الذين ينقلونها براً الى موانئ بلاد الشام على البحر المتوسط أو بحراً عن طريق المحيط الهندي الى اليمن (ميناء عدن) لتواصل مسيرتها الى البحر الأحمر الذي تنقل منه البضائع الى الموانئ المصرية على البحر المتوسط وخاصة الاسكندرية، ولهذا فكر الغربيون في الاستيلاء على البحر الاحمر فارسلوا المزيد من الحملات الصليبية بغرض الاستيلاء عليها والتحكم في هذا الطريق وهذا ما يدفعنا الى الجزم بالقول عن محاولة ارناط "أمير الكرك الفرنجي" للاستيلاء على ميناء أيلة "العقبة" على البحر الأحمر كمؤشر واضح لكسر احتكار المسلمين لطريق البحر الأحمر أكثر منه مجرد محاولة لتهديد الأراضي المقدسة في الحجاز عام 578هـ/1185م، ويفسر هذا حرص المسلمين على منع الصليبيين من الوصول للبحر الأحمر الذي وضح من موقف صلاح الدين الحاسم تجاه هذه المحاولة[2] .

وهكذا نرى من الشواهد الحية حرص كل من المسلمين والفرنجة على نجاح التعامل التجاري بينهما[3] ، بالرغم من العداء السياسي والحروب، والتعصب الديني والعنصري لديهم

(1) د. عمر كمال: م.س ص 99 (هذا رأي الدكتور).

(2) أبو شامة:م س، جـ2، ص 35-37، في أحداث سنة 578هت/1182م،إذ أمر صلاح الدين نائبه أخيه الملك العادل باعدام كافة الأسرى أثناء قيامهم بتلك المغامرة.

(3) رنسيمان: م.س، ص 599-600.

وذلك سعياً وراء الأرباح الوفيرة[1] ، على الرغم من معارضة البابوية وانصارها للتجارة مع المسلمين[2] خوفاً من مساعدتهم في بناء قوتهم والتي لم توقف النشاط التجاري مع المسلمين ثم نضيف بعد ذلك شواهد على التعامل التجاري بين المسلمين والفرنجة ومن هذه الشواهد: رسالة السلطان صلاح الدين الأيوبي الى الخليفة العباسي المستعين بالله يوضح فيها أهمية التجارة مع اعدائه من البنادقة والجنوية والبيازنة (بيزا)[3] . ورسالة السلطان قلاوون 1276/678م للقاضي جمال الدين بن بصاصة، ناظر ثغر الاسكندرية يوصيه فيها بالحرص على حسن معاملة التجار الواردين اليها[4] فعقدوا المعاملات التجارية بينها لتتيح لتجار الطرفين ممارسة نشاطهم التجاري بحرية وأمان وسهولة تنقل[5] ، كما نصت المعاهدات على الرسوم الجمركية والابقاء عليها دون زيادة[6] وتأمين حق التاجر اذا مات في بلد الطرف الآخر[7] .

كما نصت المعاهدات على السلع الممنوعة والمحظور التعامل بها أو نقلها الى البلاد الاسلامية وبالعكس والاجراء المتخذ ضدها[8] كما وصف المؤرخ وليام الصوري تجارة الترانزيت بين المسلمين والصليبيين[9] ووصف النشاط التجاري الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي كان له نظره عميقة في الأمور التجارية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد[10] .

---

(1) ابن جبير، م.س،ص260-261،الذي زار الشرق الأدنى في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد.والذي قال: "واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك، وتجارة النصارى لا يمنع أحد ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم كما يؤدي تجار النصارى بكافة بلاد المسلمين..فالامن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً وحرباً وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفي الحديث عنه".كما ذكر رواية أخرى توضح مدى النشاط التجاري في ص281.

(2) وخير ما يصور ذلك قول البنادقة: "لنكن بنادقة أولاً ومسيحيين ثانية"، د. عمر كمال، م.س، ص 106.

(3) القلقشندي: م.س: جـ13،ص 8، يقول صلاح الدين: "كل هؤلاء تارة لا تطاق وضرورة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يجهزون سفاراً يتحكمون على الاسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهونة، وما بينهم الآن إلاّ من يجلب الى بلدنا آلة قتالة... وكلهم قد تقررت معه المواضعة وانضمت معه المسالمة، على ما يزيد ويكرهون ونؤثر ولا يؤثرون".

(4) ن.م، جـ11، ص41-42، ص 420-421.

(5) ن.م، جـ14، ص 46، ذكر فيها معاهدة بيبرس مع الاسبتارية بمدينة لد 661هـ. ومعاهدة بيبرس مع الاسبتارية.

(6) ن.م، جـ14، ص 41 (من معاهدة بيبرس مع ملكة بيروت 667هـ/1269م).

(7) المقريزي، السلوك، جـ1، ص 992، (من معاهدة قلاوون مع فرنج عكا 682هـ/1283).

(8) ن.م، جـ1، 990.

(9) القلقشندي: ن م، جـ3، ص 408.

(10) William of Tryre, 11, 336.

ومن أوجه التجارة الخارجية في جنوب بلاد الشام:

ما تمتعت به جماعات الرهبان المحاربين والتابعين للبابوية مباشرة كالداوية والاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) بموارد اقتصادية ضخمة عن طريق الهبات المسيحية وتحكمهم في عدد من الحصون والقلاع المشرفة على طرق التجارة بين المدن الكبرى بفرضهم رسوماً على القوافل التجارية، بالاضافة لعمل بعض الرهبان بأعمال الصيرفة المربحة، واتجهوا الى شراء المزيد من الأراضي نتيجة هذه الأرباح الطائلة فأصبحوا يملكون اقطاعات ضخمة وعدداً من أهم القلاع والحصون والمدن[1] . مما نتج عن أطماعهم الشخصية والمنافسة على الربح والملكية تحالف بعضهم مع الامارات الاسلامية ضد الأخرى خلال القرن الثالث عشر الميلادي. هذا بالاضافة الى استعانة الصليبيين بالمدن التجارية الايطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية والبروفنسالية في جنوب فرنسا (أقليم بروفنس) لعدم توفر الأساطيل اللازمة.

وقد ساهم الايطاليون[2] في نجاح هذه التجارة بالاضافة الى موقع فلسطين الاستراتيجي على البحر المتوسط مما جعل الصليبيون يستفيدون من هذا المركز التجاري الممتاز لجمع الثروة فعملوا على اصلاح الموانئ الفلسطينية وبناء مستودعات التخزين الكبرى. كما كان هدف البنادقة أيضاً الربح والكسب بتدعيم وجودهم التجاري على سواحل بلاد الشام واشتركوا مع الصليبيين في احتلال الموانئ الشامية حيث ساهموا بسفنهم في نقل الجنود والعتاد والحجاج من موانئ اوروبا الى موانئ مصر والشام[3] وبهذا حصل (البنادقه) على امتيازات تجارية مقابل مساعدتهم الحربية كحقهم في الاقامة بأحياء خاصة بهم في بيت المقدس واشرافهم على الفنادق ومخازن الحبوب والطواحين والحمامات واعفائها من الضرائب والمكوس مع حقهم في استخدام مكاييلهم ومقاييسهم وموازينهم[4]

بالاضافة الى حصولهم على مبلغ 300 بيزانت سنوياً ومنحهم محاكم خاصة بهم[5] وهكذا كان موقف البناقة من الحروب الصليبية تحت شعار الربح والخسارة، من حيث عدم اهتمامهم

---

(1) د. عمر كمال، ص 83.

(2) كأهل جنوة والبنادقة، وأهل بيزا "جماعة البيازنة". انظر: روبرت لوبيز، التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب"، ترجمة توفيق اسكندر في كتاب يشمل على خمسة بحوث مترجمة باسم "بحوث في التاريخ الاقتصادي" القاهرة 1961م، ص 175-176. حيث يذكر قول جيمس الفيتري "ان أهمية الايطالية لا تقتصر على دورهم في الحروب وانما أيضاً في نقل السلع والمتاجر والحجاج والمؤن والأسلحة الى الأراضي المقدسة.

(3) انظر: ارشيبالور لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط، ترجمة احمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، القاهرة، 1960، ص 383. William, The Tyre: vol. 1, p. 554

(4) Fulcher of Catters, pp. 240, 245, 270, William of Tyre, vol.1, pp. 552-560.

(5) William of Tyre: Ibid pp. 552-560

بالباعث الديني الا بالقدر الذي يحقق مصالحهم التجارية فكانوا يقولون: "نحن بنادقه أولاً ومسيحيون بعد ذلك"[1] وقد حصل الجنويون[2] والبيازنه[3] على نفس الامتيازات والحقوق من ملوك الصليبيين أيضاً.

ويلاحظ على الجنويين والبيازنة سياستهم المزدوجة "ذات الوجهين" بالنسبة للأيوبيين في مصر عام 1171م[4].

حيث رأوا أن مصلحتهم مساندة الصليبيين ضد المصريين مع الحرص على مصالحهم التجارية في مصر بالابقاء على العلاقات الطيبة مع مصر قدر الامكان[5].

وقد صدر الصليبيون الزجاج والأواني الزجاجية المذهبة والمطلية[6] بالمينا من مصانع عكا والخليل ودمشق وطرابلس وانطاكية والتي مازالت تحتفظ بها متاحف اوروبا [7]. ويلاحظ صغر الكميات الضئيلة المصدرة من زيت الزيتون[8] الى اوروبا لأن النبيذ والخمرة كان أكثر أهمية بالنسبة للاوربيين.

أما تجارة الفراء وجلود الحيوانات السيبيرية[9]، فقد كانت تمر عبر سوريا الى اوروبا. وأما البضائع المستوردة من اوروبا للعالم الاسلامي فكانت خيوط النسيج الوارد من شمالي فرنسا وانجلترا بالاضافة للمعادن[10] والسروج والاسلحة والمعدات مثل الخوذ والسيوف والرقيق[11] كما صدرت اوروبا لحم الخنزير للمستوطنات الصليبية في بلاد الشام[12].

---

(1) صبحي ليث، سياسة مصر التجارية، ص 126، وجوزيف نسيم يوسف: م.س، ص 80.

(2) ابن القلانسي، م س، ص 139. William of Tyre, vol.1, p. 353-380 حيث حصلوا على ثلث دخل ميناء عكا أيضاً وبناء كنيسة خاصة بهم.

(3) Jonathan Smith, "Government in Latin Syria", p. 110.

(4) القلقشندي: م.س، جـ5، ص 44، وحسن حبشي: نور الدين ص147، عاشور : الحركة الصليبية جـ2، ص 840-841، جوزيف نسيم، ن م، ص 88.

(5) جوزيف نسيم، ن.م، ن.س.

(6) لقد كان اليهود يحتكرون هذه البضاعة بالاضافة لصناعة الأصباغ ودباغة الجلود. Runcimam, 111, 353

(7) Conder, Jerusalem, p. 334.

(8) Runciman, 111, p. 353

(9) مثل القندس والسنجاب والقط الوحشي، Conder: Jerusalem, p. 332

(10) كالنحاس والرصاص والزئبق والحديد، Mayer, Ibid, p. 176.

(11) Ibid, p. 146

(12) وكان التجار المسلمون يأنفون حمل لحم الخنزير المحرم شرعاً كذلك صدرته اوروبا مباشرة للصين. Mayer, Ibid, p. 146

أعتمدت التجارة الخارجية زمن الصليبيين على المنسوجات[1] وتوابل وعطور الشرق التي كانت تصل الى الموانئ الشامية براً وبحراً ومنها الى اوروبا عبر البحر المتوسط بما يشبه تجارة اعادة التصدير لسلع الهند والصين وجزر الباهاما المشهورة بتوابلها. وقد رافق المنسوجات الشرقية المصدرة الى الغرب أدوات الزينة والأحجار الكريمة من زمرد زبرجرد وياقوت وعاج ومواد الصباغة والأخشاب [2]. بالاضافة الى العطور وكافة انواع البخور المستخدم في الطقوس الكنيسية[3] والسكر الأردني من المستوطنات الصليبية الأخرى والأدوية الشرقية المستخدمة في الطب العربي[4] حتى قيل إنَ معظم ما استهلكته اوروبا بالقرنين 12، 13م، كان من المستوطنات الصليبية في بلاد الشام[5] .

وبالنسبة لصلاح الدين الايوبي فقد ربط بين حركة التوسع الصليبية في المنطقة وبين المصالح التجارية[6]. كما أدى هذا التنافس والجشع التجاري بين هذه الجاليات الى نزاع مسلح في مدن فلسطين بالساحل الشامي وخاصة مدينة عكا كما حدث عام 1249م من الجنوية والبيازنه ثم امتد من 1256 الى 1276[7] . كما استعانت الجاليات الايطالية بالبابوية التي ساعدتهم كثيراً انطلاقاً من تبادل المصالح[8] .

ويرى الباحث ازدياد أهمية موانئ جنوبي بلاد الشام في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حيث اصبحت عكا ميناءً لدمشق[9] .وأدى ذلك الى قيام الحملة الصليبية الثانية عندما اصدرت بعض البابوات قراراً بمقاطعة مصر اقتصادياً لاخضاعها بعد تأكدهم من

---

(1) كالاطلس العربي "Atals" من الساتان والتفتاه من فارس والساتان والبطاطين من الشرق الأدنى والبكرم من بخارى والكامليون: وهو نوع من اللباس يصنع من وبر الجمال وربما كان من المخمل "Lescamelets" أي المنسوجات المخملية من مدن الشام كلها والكوز من غزة والموسلين من الموصل: أنظر Barker, The Crusades, p. 60
والقماش المصنوع من القطن والكتان اللذان يزرعان في سهل فلسطين بينما كانت صور وطرابلس مركزاً للحرير، هذا وقد ميز تلك الملابس ألوانها الزاهية، كما ميزت تلك الالوان الثياب الكنسية والملكية وثياب الأمراء وكبار القوم، انظر: براور، عالم الصليبين، ص232-233.

(2) Runciman, III, pp. 354-355. وأهما النيلة وحجر الشب
Pirenne, (H.). Economic and Social History of Midival Europ, London, 1937, p. 145.

(3) Runciman, Ibid, Crussades, p. 176.

(4) كالتمر الهندي، وزيت الخروع والنشادر والسنامكه والزعفران والصمغ العربي.
Runciman, A Hisory of the Crusades, vol. III, p, 354.

(5) الادريسي: م س، جـ5، ص 266، والنقاش: العلاقات، ص 181، والأفيون وهو المسكن الوحيد في ذلك العصر.
Mayer, The Crusades, p. 176.

(6) أبو شامة، م سن، جـ1، ص 234، وقد ورد ذلك في رسالة للخليفة العباسي حيث وصفهم بأنهم "تارة يكونوا غزاة وتارة يكونوا اسفارا (اي تجاراً)".
Conder, Jerusalem,p. 365.

(7) د. عمر كمال: م.س، ص 86. Mayer: The Crusades, p. 173

(8) براور: م.س، ص 164.

(9) Runciman, III, pp. 354-355

وصول النجدات العسكرية والامدادات منها الى بلاد الشام والى سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في ايدي اللاتين 602هـ/ 1204م الذي أدى لازدياد الحركة التجارية في الموانئ الشامية.

ولم تستطع مصر استرداد مكانتها التجارية في الموانئ الشامية بين الشرق والغرب إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي زمن المماليك، الذين شجعوا التجارة في موانئ الدلتا وحموا تجارة الكارم[1] بعد احتكارهم للتجارة الشرقية طوال القرن الرابع عشر حيث كانت السفن الايطالية تنقلها الى اوروبا.

وبالنسبة للرسوم الجمركية الصليبية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي فقد تراوحت ما بين 4.16-11.2٪ من قيمة البضائع المستوردة للاستهلاك المحلي، وكانت تجبى في ميناء عكا[2] وصور على البحر المتوسط اضافة لميناء يافا الصغرى بينما وصلت الى 25٪ في بعض الأحيان على البضائع المستوردة للاستهلاك المحلي.

أما طريقة تفريغ البضائع فكانت بواسطة السلالم أو ألواح الخشب المحمولة على ظهور الجمالين من الجنسين الاوروبي والاسيوي والمعروفين باسم بولاني لوضعها على الارصفة الضيقة المزدحمة[3]. وما زالت هذه الطريقة القديمة تستخدم في قرى بلاد الشام لتحميل الغلال الزراعية في الشاحنات والسيارات.

---

(1) الكارم: تجارة التوابل والسلع من الهند والشرق الأقصى عبر المحيط الهندي، انظر: ابن جبير،م.س، ص 69-70، جـ3، ص520، ص457، القلقشندي: م.س، جـ3، ص 457، 520.

(2) Mayer, The Crusades, p. 163, Runciman, III, p. 353
وابن جبير، ن م، ص 211، حيث قال في وصفه لميناء عكا: "هي قاعدة الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، وشبهها بالقسطنطينة عاصمة الدولة البيزنطية في كونها مجتمع السفن والرفاق وملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق". كما كانت عكا أيضاً الميناء الطبيعي لاقليم دمشق الذي يتجه اليه تجار اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية. Runciman, Ibid, p. 358.
بنيامين التطلي: م.س، ص 92، حيث يقول: "ليس في بلاد الدنيا ما يماثل هذا الميناء وشاهد عدد السفن عند زيارته لميناء عكا بـ احدى وثمانين سفينة.

(3) براور: عالم الصليبيين، ص 220.

التجارة الخارجية المملوكية:

ومما ساعد على نجاح موقع جنوب بلاد الشام وفلسطين والاردن الاستراتيجي في وقت الحرب والسلم على مر العصور وخاصة في العصور الوسطى حتى يومنا هذا، لانها كانت صلة الوصل بين الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية من جهة وبين مصر من جهة أخرى، فقد مثل شمالي الاردن الطريق الرئيسي بين فلسطين وبلاد الرافدين كما هو الحال اليوم كما وصلهما مع مصر من جهة أخرى[1] وكانت هذه القوافل التجارية تشكل ما يشبه اليوم تجارة العبور "الترانزيت".

أما جنوبي الأردن فقد كان وما زال يصل شبه الجزيرة العربية بدمشق ومصر حيث ينقسم الى فرعين أحدهما نحو الساحل الشامي والآخر نحو العقبة فساحل البحر الأحمر فالسويس[2] بالاضافة لطرق الحجاج المسلمين كمنفذ وحيد، والقادمين من بلاد الشام وايران والعراق علماً بأن قوافل الحج كانت محملة بالبضائع المختلفة والمعادن الثمينة من الأحجار الكريمة واللؤلؤ[3] . .

لما شجع سلاطين العصر الأيوبي والمملوكي التجارة الخارجية عن طريق عقد الهدنة والاتفاقات التجارية مع الممالیك الصليبية والدول الغربية[4] وبعد تحرير العالم الاسلامي من الاحتلال الصليبي استمرت حركة التجارة مع العالم الاسلامي في بلاد الشام[5] على الرغم من تحريم الكنيسة البابوية الاتجار مع الدولة المملوكية الاسلامية[6] .

وقد تعرضت بعض القوافل التجارية المتجهة الى بلاد الروم الى نهب وسلب من قبل التركمان على الحدود الاسلامية البيزنطية[7] ، كما ساهم تجار الكرك والشوبك في النشاط

---

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، جـ1، ص 268، القلقشندي: م.س، جـ12، ص 314.
Robert, The Holy Land, vol. 3, pp. 2-3.

(2) ابن طولون: ن.م، جـ1، ص 27، 28، 29، 129.

(3) ن.م، جـ1، ص 119.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 118، 283، 379، المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص 513.

(5) القلقشندي: م.س، جـ14، ص 75، "ذكر هدنة عقدت بين الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور وحاكم ارغون سنة 692هـ/1294 ادت هذه الاتفاقية الى استمرار التبادل التجاري بين تجار الشام وتجار جنوة والبندقية. وزاد هذا التبادل بعد استقرار النظام المملوكي في الموانئ والمدن الشامية انظر العليمي الحنبلي: الانس الجليل، جـ2، ص 52، الطراونه، مملكة صفد ص 176. وهايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص 140.

(6) آشتور، التاريخ الاقتصادي، ص 387.

(7) البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ3، ص 456.

التجاري الخارجي في السويس[1] والطور[2] والمدن الصليبية على سواحل البحر المتوسط مثل مدينة عكا[3]، وامتلكوا الوكلات والقياسر[4].

وكان مركز تجمعهم في قرية مزيريب على الحدود السورية الاردنية شرق قرية عمراوه الاردنية وقرب اذرعات السورية "درعا اليوم" والواقعة في سهل حوران، فكان يعقد بها الاسواق لاستقبال الحجاج[5]، وبعد راحتهم يواصلون السير عبر الرمثا-الزرقاء-زيزياء حيث يستريحون فيها ثلاث ايام ثم يواصلون بعدها الى الجنوب متجهين نحو الكرك وقبل وصولها يستريحون في قرية البثنه كمكان لتجمع الحجاج الشاميين الخبراء بالطريق[6] ليقودوهم الى الحسا للتزود بالماء متجهين نحو معان حيث يستريحوان فيها ويتزودوا بالطعام والماء عبر الصحراء الشاسعة نحو عقبة صوان وذات حج في طريقهم الى تبوك فالمدينة ثم الى مكة[7].

وهكذا يعتبر موسم الحج موسماً اقتصادياً بالنسبة للاهالي في القرى والمدن التي يمر بها الحجاج حيث تتم مقايضة البضائع فيجنون الأرباح الطائلة[8].

أما بالنسبة للبضائع المنقولة من بلاد الشام فكانت الزبيب والزيوت والزيتون[9] وجلب التجار من الشرق الى بلاد الشام التوابل المختلفة، كالقرنفل والقرفة والزنجبيل وجوز الهند

---

(1) السويس: قرب مدينة القلزم وهو أقرب الواصل الى القاهرة والفسطاط، القلقشندي، م.س، جـ3، ص 537.

(2) الطور: بين ايلة في العقبة والديار المصرية على ساحل البحر الأحمر، كثير الواصل اليه من اليمن بالبضائع المختلفة، القلقشندي، م.س، جـ3، ص 537.

(3) Setton, A History of the Crusades, vol.2, p. 594.
وعاشور، سعيد، الحركة الصليبية، جـ2، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ط4، 1982م، ص 117، حيث قتل في عكا 689هـ/1290م عدد من التجار المسلمين والنصارى الشرقيين بعد هجوم جديد للصليبيين.

(4) شقير: نعوم تاريخ سيناء، ص 514، شافعي، أهل الذمة في مصر، ص 182.

(5) ابن طولون: م.س، جـ1، ص 378-379.

(6) المقريزي: السلوك، جـ2، ص 122، وابن الفرات: م.س، جـ9، ص 313.

(7) العمري: م.س، جـ3، ق1، ورقة 171، "مخطوط". ويذكر ان الملك المعظم عيسى كان أول من سهل طريق الحجاج ومهدها واعتنى بها عبر الاردن عام 622هـ الممتدة من باب الجابية بدمشق الى جبل عرفات بمكه.

(8) للمزيد من المعرفة انظر: العمري:ن.م، جـ1، ق1، ورقة 17 "مخطوط".ابن طولون: مفاكهة الخلان، جـ1، ص10. وياقوت الحموي: معجم البلدان جـ2، ص 461.
Grant, The Syrian desert, pp. 223-224.

(9) البخيت: مملكة الكرك، ص 28.

والمنسوجات الحريرية الشرقية[1] والعاج والاحجار الكريمة، والاعشاب الطبية، والعطور، والجلود المدبوغة والورق والحبر، والسيوف، واللبان[2] كما أحضوروا من الغرب الأخشاب والمعادن والرقيق والجواري[3] بعد مبادلتها بالسلع الشرقية والمحلية من بلسم اريحا وزيت وصابون نابلس والقدس، والخليل ونيلة زُغر[4]، وسكر الأغوار الناعم والبلوري، وزجاج وحرير دمشق وبسط انطاكية ومصر[5].

التجارة في عكا:

لقد كانت عكاً في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مركزاً تجارياً بين المماليك والفرنجة المحتلين لها حيث ترددت عليها القوافل التجارية من الشام ومصر[6]، وجنوا الأرباح الطائلة خاصة باعتبارها المركز الرئيسي لنزول الحجاج والمسيحيين الذاهبين لبيت المقدس، وقد كان بها خاص لتجار ايطاليين من جنوة والبندقية وفلورنسا وبيزا[7].

كما تاجر سكان الكرك والشوبك مع سكان جزائر الغول في البحر الأحمر حيث تبادلوا معهم الزيت والزيتون والزيت مقابل السمك المقدد[8]. هذا ولم يفرض الأيوبيون والمماليك القيود على زراعة العنب بل فرضوا بعض القيود على بيع الخمور وتداولها عند النصارى.

---

(1) حيث احتلت مكانة لدى الاوروبين كالدمسقي "دمشق والبلدان" من بغداد والأطلسي العربي حيث تنافسوا عليها كتنافسهم على التوابل من قبل، انظر الادريسي: جـ5، ص 360. براور، يوشع: عالم الصليبيين، ترجمة وتقديم وتعقيب د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن، ط1، دار المعارف 1981، ص 222.

(2) ابن خرداذبة، م س، ص 153، هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص 142.

(3) ابن خرداذبه: ن.م، ص 153، هايد، ن.م، جـ1، ص142.

(4) زُغر: قرية بمشارف الشام، وقيل زغر: اسم بنت لوط عليه السلام التي نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، وهي تقع في طرف البحيرة المنشفة "البحر الميت حالياً" ياقوت الحموي، م س، جـ3، ص 143.

(5) د. غوانمه نيابة بيت المقدس، ص 92، ودراسات، ص 237، لا بيدوس، مدن اسلامية، ص 45.

(6) يرى الدكتور يوسف غوانمه: بقاء عكا في يد الفرنجة وعدم فتح المماليك لها مع قدرتهم على ذلك للاستفادة من حضارة اوروبا وتجارتها، ثم يضيف... وعندما شعر قلاوون بعقليته المتفتحة حاجة الغرب الماسة الى التجارة الشرقية المارة عبر الشام ومصر وأن الوقت قد حان فعلاً لان تتحكم دولته في هذه التجارة، قرر تصفية الوجود الصليبي فيها لتحقيق السيطرة على هذه التجارة مراعياً بذلك العامل الديني والسياسي. ويؤيد الباحث الباحث هذا الرأي التاريخي الواعي في حكمه على مجريات الأحداث في تلك الفترة. د. يوسف غوانمه: دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، ص 171.

(7) ن م، ص 186.

(8) فايزة حجازي: ص 98، وتقول: "بأن جزائر الغول "لعلها جزائر تيران" انظر العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، جـ2، ص61.

وبالنسبة لتجارة الثلج فكان لها حظ وافر في الصيف فقد نقلوه بحراً من بيروت وصيدا الى دمياط وعبر النيل الى ساحل بولاق ثم ينقل على البغال السلطانية الى الشراب خاناه[1] بقلعة الجبل فيخزن في صهريج مخصص له[2] وقد بلغ عدد مراكب الثلج زمن الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب في السنة والمزودة بعدد من الثلاجين ثم زاد عدهم حتى أصبح أحد عشر مركباً[3] .

الرسوم المفروضة على الحجاج النصارى في العصر الملوكي الى القدس:

أولا: رسم الدخول الى الأراضي المقدسة، بالإضافة الى المكس المقرر على بضائع الحاج والذي يدفعه في يافا إذا كان قادماً من البحر وفي غزة إذا كان قادماً من مصر[4] .

ثانياً: موجب الخفر: ما يدفعه الحجاج النصارى عند وصولهم مدينة الرملة، مقابل حراستهم طيلة زيارتهم للاماكن المقدسة[5] .

ثالثاً: موجب السلطان: الرسوم المقررة على الحجاج مقابل زيارتهم لكنيسة القيامة[6] بمعدل ثلاث مرات في الرحلة، لذا كان الحاج يدفع في المرة الأولى ستة دوكات ذهبية، وفي المرة الثانية أربعة دراهم فضية بندقية، وفي المرة الثالثة يدفع درهمين فضيين بندقيين، وكان أقصى ما وصلت اليه هذه الرسوم عشر دوكات ذهبية [7].

وبالنسبة للرسوم التي فرضت على الحجاج اليهود الى القدس فكانت كالتالي:

أولاً: الحجاج اليهود الذين يأتون عن طريق يافا يدفعون دوكات واحدة وعن طريق غزة عشرة دنانير فضية (10 دراهم فضية اسلامية)[8] .

ثانياً: رسوم المزارات المقدسة، مثل قبور ابراهيم ويعقوب واسحق في الخليل[9] .

---

(1) خزانة شراب السلطان، الثلاجة اليوم التي تحفظ فيها الأشربة والأطعمة والفواكه والعطور والأدوات المنزلية الثمينة النادرة، والأواني الصينية من الزبادي والصحون ويشرف على خزانة الشراب هذه أمير برتبة مقدم أو طبلخاناه، القلقشندي: م.س، جـ3، ص 472،جـ4، ص21.

(2) القلقشندي: ن م، جـ14، ص 396، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف.

(3) ن.م، جـ14، ص 396، والعمري: التعريف بالمصطلح الشريف.

(4) درّاج: وثائق دير صهيون، ص 70.

(5) القلقشندي، م.س، جـ13، ص 49.

(6) القلقشندي: ن.م، جـ12، ص 333، 334، دراج، م.س، ص 70.

(7) دراج، ن.م، ص 77، 78، 147، والدوكات الذهبية البندقية 22 ودوكات فضية بندقية والدوكات الفضية البندقية = درهم فضي اسلامي 6 دوكات ذهبية = 132 درهماً فضياً مملوكياً 10 دوكات ذهبية = 220 درهماً فضياً مملوكياً.

(8) Adler, Jewish Travellers, p. 242.

(9) التطيلي، الرحلة، ذكر بان هذه الرسوم عبارة عن أتاوة الى حارس هذه القبور.

ثالثاً: الرسوم لزيارة قرية ميرون في بر صفد ومدينة طبريا وغيرها[1] .

كما كان السلطان يأخذ قسماً من النذور التي تهدى للدير[2] . وكان ممثل السلطان يحتفظ بمفتاح كنيسة القيامة لتحصيل مبلغ من المال من الحجاج مقابل الدخول اليها[3] .

وفي نهاية الحياة الاقتصادية في جنوبي بلاد الشام نود ذكر أهمية الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك وغيره من السلاطين الكبار. ففي مجال الاقطاعات قسم الظاهر بيبرس أراضي فلسطين على هيئة اقطاعات ووزعها على الذين ساعدوه على النصر في عين جالوت[4] وساهموا في استتباب الأمن ورصف الطرق وبناء الجسور (جسر خندس) واعادة بناء مدينة صفد، وتطوير غزة ويافا.

كما نظم بيبرس البريد بتأسيس محطات جديدة على الطريق بين فلسطين ومصر حتى قال ابن إياس "بأن الأخبار الشامية كانت ترد إليه في الجمعة مرتين"[5] .

وفي ايام الأزمات الاقتصادية ضرب الناصر محمد (693-698هـ/1295-1299م) و(708-741هـ/1309-1341) فلوساً خفيفة الوزن بيعت بالوزن عام 1226/624 لأول مرة في تاريخ المنطقة فكان الرطل منها يساوي درهمي فضة[6] .

وتتضح الصورة للوضع الاقتصادي في الثلث الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عندما نرى أراضي قرية يبنا الفلسطينية جنوبي الرملة حيث كانت ضمن اقطاعات الأمير المصري المشهور بشتاك الناصري والتي باعها للسلطان المملوكي، محمد بن قلاوون بمليون درهم[7] . فكانت هذه الاموال الطائلة المكتنزة لدى الأمراء ضمن الأسباب الرئيسية لتدهور النقود.

---

(1) الدمشقي: نخبة الدهر، ص 118، الطراونة، مملكة صفد، ص 181.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص 539، القزويني، آثار البلاد، ص 185.

(3) Frescobaldi, Visiit to the Holy Places, p. 76.

(4) خالد طربية، آل طربية عبر التاريخ، م.س، ص 23.

(5) ابن إياس: المختار في بدائع الزهور ووقائع الأخبار، كتاب الشعب، القاهرة، 1960، ص89 و92.

(6) د. عبد الرحمن فهمي – النقود العربية، م.س، ص 105، وانظر عارف العارف: تاريخ غزة، م.س، ص 148، إذ يقول بأن سبب الأزمات الاقتصادية مضاعفة الكساد وعدم السيولة النقدية ما كان يكتزنه الامراء لأنفسهم مثل الأمير عز الدين الجناحي نائب غزة المتوفي عام 1299/697 حيث ترك وديعة عند أحد التجار الدمشقيين بلغت اثنين وثلاثين ألف دينار وأربعة وثلاثين ديناراً وحلياً قيمتها خمسون ألف دينار.

(7) ماير وآخرون: بعض البيانات الاسلامية الهامة، القدس، 1950، ص 25. وذلك حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأت مظاهر التفكك الاداري والسياسي في الكيان المملوكي.

وهكذا يمكن القول بأن البنية الاقتصادية في فلسطين وشرقي الاردن والتي اعتمدت على الزراعة والصناعة والتجارة تمتعت بقدر جيد من القوة والاكتفاء طيلة القرنين السابع والثامن الهجريين/ المطابقة لنهاية النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي في عصر الظاهر بيبرس وقلاوون وبرقوق، وقد عبر عن ذلك الرحالة العرب والمسلمون أمثال الدمشقي 1300/700 والقزويني 1308/708، والعمري 1347/748 وابن بطوطة 1355/756 وجميعهم امتدح مزروعاتها وصناعتها على الرغم من معاناة الشعب.

كما كان من عوامل ازدهار التجارة في بلاد الشام لموقعها المتوسط بين قارات العالم فكانت هدفاً لتجار البحرية بجنوا، والبندقية وبيزا أيام الاحتلال الصليبي وشجعهم على ذلك الامتيازات الواسعة التي منحها الصليبيون لهم مقابل مساعدة الصليبيين، لذا أسس تجار اوروبا مراكز لهم في المدن الساحلية مثل: عكا، وصيدا وصور وغيرها من الموانئ ليصدروا منها الى اوروبا المنسوجات القطنية والحريرية والأواني الزجاجية الشامية، والأخشاب، والعقاقير وتوابل الشرق الأقصى التي تأتي براً عن طريق القوافل عبر الجزيرة العربية والعراق الى دمشق ومنها الى موانئ الشام الساحلية لتحملها الى الغرب[1] . واستمرت التجارة بين المسلمين والصليبيين على الرغم من الصراع العسكري بينهما وقد وصف ذلك التبادل التجاري الرحالة ابن جبير عندما زار بلاد الشام[2] حتى انه رافق قافلة تجارية الى عكا[3] ، كما ذكر قدوم الصليبيين الى دمشق عام 1240/638م لشراء السلاح لقتال المسلمين وذلك بعد تحالف الملك الصالح، اسماعيل معهم ضد ابن اخيه الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، مما دفع شيخ الاسلام الشافعي عز الدين بن عبد السلام بالافتاء بعدم جواز بيع السلاح للصليبيين طالما انه يستخدم ضد المسلمين[4] .

وهكذا فان البلاد الشامية والمصرية بقيت بسبب موقعها الاستراتيجي التجاري حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وسوقاً للتعامل والتبادل التجاري بين آسيا وافريقيا من ناحية وبلاد البحر المتوسط ودول غرب اوروبا من ناحية أخرى.

---

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص 1199-1200.

(2) ابن جبير: م س، ص 271.

(3) ن.م، ص 275.

(4) ن.م، ص 278.

واستمر ذلك الوضع سنين عديدة حتى حركة الكشوف الجغرافية في أواخر العصور الوسطى وطلائع العصر الحديث، حيث انتقل مركز التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسي، وما ترتب عليه من نتائج خطيرة من ضعف حالة المسلمين الاقتصادية وضعفهم السياسي. وقد تطلب هذا النشاط التجاري نشاطاً دبلوماسياً لتنظيم المعاملات التجارية ومعالجة المشاكل عن طريق التمثيل الدبلوماسي بتبادل السفراء والرسل والمراسلات الرسمية، وعقد العديد من المعاهدات والاتفاقات التجارية.

"النقـــــــــــــود"

أهمية دراسة النقود

تعود أهمية دراسة النقود لأية أمة – للتعرف على هده الأمـة وكشـف جميـع سماتهـا التاريخية والجغرافية والفنية ومعتقداتها الدينية وحالتها الإقتصادية ووزنها السياسي بين الأمـم فـالنقود العربيـة الإسـلامية الـتي حملـت كلمـتي **"ضـرب فلسـطين "** وضـرب **"أسمـاء مـدن فلسطين"** إمتدت من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام 1946م ، لدا لا يمكن حصرها من قبـل فـرد أو مؤسسـة أو دولـة لمـا هـو مطمـور بـين طبقـات الأرض منـد زمـن الكنعـانيين والفينيقيين مروراً بأيام الفرس واليونان والرومان والعهد الإسـلامي والعصـر الحديـث . ولمـا تعرضت له من التزييف على أيدي الصليبـين ، كمـا اتفـق معظـم العلمـاء علـى أن أول مـن إستخدم الحروف الهجائية في الكتابة مند عام 185ق.م هـم الكنعـانيون في فلسـطين ، حيـث نقلها إخوانهم الفينيقين ما بـين 850–750 ق.م إلى الإغريـق [1]ثـم نقلتهـا عنهـم جميـع الأمـم الأوروبية آنداك متأثرين بها حتى اليوم ، وبهده الحروف الفينيقية نقشوا على نقودهـم كمـا كان الفينيقيون السباقين في إستخدام المقاييس والعبارات والوزن [2] وطريقة العد الحسابي مما كان له الأثر في عمليات التطور التجاري . ونقشوا صورة شجرة النخيـل وسـنابل القمـح[3] لذا فليس من المستبعد على مثل هذا الشعب الذي إمتلك هده المقومات الحضارية الإبداعيـة ان يكون أول شعب عربي قام بسك النقود بصورتها الراهنة [4] فالنقود الحالية كانت وليـدة معاناة إقتصادية طويلة وإرادة سلطة سياسية قوية ، شاركتها موهبة فنية قادرة على تنفيد مـا تريد كما كانت النقود وما زالت حلقة وصـل إقتصاديـة بـين النـاس لسـهولة حفظهـا علـى إختلاف مهنهم وحرفهم ، بالإضافـة إلى معرفـة التـاريخ الإقتصـادي لأي دولـة مـن خـلال نقدها ومـا تعرضـت لـه مـن هـزات إقتصاديـة أو فـترات إزدهارهـا كمـا اهتمـت الشـريعة الإسلامية بالنقود ، لما لهـا مـن أهميـة في العقـود والذيـة والصـداق فـارتبطت معهـا بتطبيـق

---

(1) د. أحمد سوسة –حضارة وادي الرافديـن – ج1 ، بغداد 1983 ص 314 –315 /هـاري بـارتز : تـاريخ الكتابة التاريخية – ترجمة د.محمد برج – الهيئة العامة القاهرة ، 1984 ص27

(2) عمر الصالح البرغوثي – تاريخ فلسطين – مطبعة بيت المقدس – القدس ، 1923 ص12.

(3) د. أحمد سوسة : م س ، ص479.

(4) وول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران. ج2 ، م1 ، ط1 – القاهرة 1961 ص306 –33 3 دكر أن النقود إنتشرت في فلسطين مند عام 650 ق.م وقبل مجيئ الفرس بثلاثة قرون.

القواعد الفقهية المرتبطة بالشؤون المالية زيادة ونقصان حسب قيمة النقود وما يتهددها من هزات إقتصادية .

لمحـــة تاريخية :

لقد ارتأيت ذكر لمحة عامة عن نشأة النقود حيث كانت الدراهم من ضرب الأعاجم الفرس مختلفة مثقالاً وقيراطاً [1] كالبغلية [2]وهي دراهم الفرس والدراهم (الجواز)[3] ، (الجوارقية) [4] وأما الورق [5] فهو الدراهم المضروبة وفي القاموس [الوَرْق الوُرَق ، والورَق] وسميت بالفرنسية **Monnaie** ويحق لنا أن نتساءل من أين جاءت هده الكلمة علماً بأن المضروب من الدراهم مأخود من الأمم المجاورة كالروم ، من لاتين ويونانيين وكاثوليك . فيقول الكرملي : ((إن الورق ليست سامية الأصل ، فإنها لا ترى بهذا التركيب في اللغات السامية وربما أنها فارسية الأصل أو يونانية منقولة من كلمة BAQOS ومعناها ثقل أو حَمْل ، ومعلوم أن أصل الأوزان والأثقال مأخود من ثقلها وهكذا وضعوا المثقال -والراحل- ، والأوقية إلى غيرها [6]

---

[1] ولبلادري كتاب النقود (نسخة الأستانة) نقلها نعمان الألوسي 1869 ص5 نشرها - دير الآباء الكرمليين - شبرا القاهرة 31 تموز (يوليو) 1939 - رسالة في النقود الإسلامية - المقريزي - نسخة الأستانة - الناشر فارس الشدياق ، مطبعة الجوائب 1933 ص3

رسالة في النقود الإسلامية - المقريزي نسخة الإستانه - نسخها شكري الفضلي البغدادي - نشرها الأب أنستاس - ماري الكرملي 31 تموز (يوليو) 1939م. ص3-7

[2] البغلية نسبة إلى (بغلْ) وهو إسم يهودي ضرب تلك الدراهم - رسالة المقريزي ص3 شاكر شكري الفضلي في مدينة أرمية في فارس.

[3] الجواز مشتقة من حاوز الدراهم : قبلها على ما فيها من الدخل ن.م ،ن.ص تنقص في العشرة ثلاثة فكل سبعة بقيمة عشرة بالجواز. ن م ، ن ص.

[4] الجوراقية : منسوبة إلى جورقان : قرية بنواحي همدان ، ن م،ن ص.

[5] المنجد ص897 حرف الواو باب "ورق" .

إبن منظور - لسان العرب - مجلد12 ص255 : قال إبن الأعرابي أي كثير الورق والمال الجوهري ،ورجل وراق فصل الواو حرف القاف كثير الدراهم ويقال أورق الرجل : كثر ماله ، والجمع أوراق :وقد ورد (في القرآن الكريم) دكر العملة الورقية ويراد بها النقود الفضية "قال تعالى : "فابعثوا أحدكم بورقكم هده إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه ، الكهف أيه 19.

[6] الكرملي : م س، ص163-164 وقال : " إن الباء قد تنقل من التعريب إلى الواو والهاء في الآخر قد تنقل إلى القاف أو (ج) أو (ق) ، والباحث يتخير رأياً من هدين الرأيين.

وإستمر إستخدام النقود الفارسية والبيزنطية أيام الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين [1] حتى عهد عبد الملك بن مروان الذي كان خامس خلفاء بني أمية وأول من ضرب النقود الرسمية عربية وإسلامية وأمر بالتعامل بها . حيث أبطل إستعمال هده النقود الأجنبية آخذاً برأي محمد بن على بن الحسين المعروف بمحمد الباقر[2]، وقد عرفت دنانير عبد الملك بن مروان بالدنانير الدمشقية ثم أمر الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً وإستمر من بعده ولاة العراق على ذلك[3] وكان أجود أنواع النقود الأموية "الهبيرية" نسبة لضاربها عمر بن هبيرة، واليوسفية[4] نسبة ليوسف بن عمر أو الخالدية نسبة لخالد بن عبد ا لله البجلي ، وجميعهم من ولاة العراق[5] وإستمرت هده الأصناف الجيدة زمن الدولة العباسية[6] علماً بأن أول من سك نقوداً على أرض فلسطين خالد بن الوليد عام 16هـ/618م في طبرية حيث سكها على الطريقة البيزنطية بترك الصليب والتاج والصولجان وكتب على أحد الوجهين إسمه باليونانية (XAAED) ومعها الأحرف

---

(1) المزيد من المعرفة أنظر : المقريزي : كتاب النقود الإسلامية القديمة ، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة 1987 ، ص99 ، الجهنسياري : كتاب الوزراء والكتاب ، حقيقة مصطفى السقا وآخرون ، ط2 القاهرة 1980 ص48 /جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، بيروت ، ج1 ، ص 135 .

(2) وانستانس الكرملي :م س، ص 99–100 ، 112 عبد الرحمن فهمي : م س، ص27 ، مصطفى العبادي : محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، 1982 ، ص186–187 .

(3) د. فهمي ، ن م، ص92 ويدكر أيضاً رأي إبن الأثير الذي يدكر أنه أخد برأي خالد بن يزيد بن معاوية .

(4) ن.م ن.ص دكر نقشت نقود بني أمية "الله أحد ، ا لله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد " ودلك في وسط أحد الوجهين وحولهما "محمد رسول ا لله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" وعلى الوجه الأخر بالوسط "لا إله إلا ا لله،حده لا شريك له " وحول ذلك " بسم ا لله ضرب هنا الدرهم في بلد كدا ، سنة كدا .

(5) .وما زال الناس في الأردن يضربون بها المثل فيقولون"أصفى من الدهب اليوسفي" وقد تردد إسم الدهب والفضة في القرآن الكريم قال تعالى " إن الذين يكنزون الدهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل ا لله فبشرهم بعذاب أليم" سورة التوبة أية 34 .

(6) د. فهمي ، ن.م ص93 .

Bou (I Y) ويعتقد المؤرخ الألماني ملران أن هذه الحروف ترمز لكنيسة :أبـو سـليمان وعلـى الوجه الآخر حرف M كدلالة على قيمة الفلوس[1] وفوقه صليب وأسفله التـاريخ الهجـري باليونانية [2] .

وفي زمن الدولة الفاطمية ضرب جوهر الصقلي القائد الفاطمي الذينار المغربي وفي أيام الحاكم بأمر الله نزل سعر الدرهم وتزايد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة هجرية حتى أصبح الذينار بأربعة وثلاثين درهماً فاضطربت أمور الناس[3]وكـان الفـاطميون قـد أعـادوا معظـم دور الضـرب القديمـة الفلسـطينية في اللـد والرملـة وعكـا وطبريـا وعسـقلان عـام 367هـ/961م[4] ولما سقطت الدولة الفاطمية على يد صـلاح الذين الأيوبي في سـنة سـبع وستين وخمسماية 569هـ/1171م قررت السكة بالقاهرة باسـم المرتضى بـأمر الله وباسـم العادل،نور الذين محمود بن زنكي،صاحب بلاد الشام،فرسم إسم كل منهما في وجه،وفيهـا عمت بلوى المصارف بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا من مصر[5]ويلاحظ ندرة الذهب في العصر الأيوبي ونستطيع تلخيص اسباب ندرة الذهب هده في عصر الأيوبيين بما يلي:

- إهمال إستغلال الذهب في وادي العلا بالصحراء الشرقية من قبل الدولة ، بل تـرك ذلـك للأفراد يجمعونه ويصدرونه خارج البلاد كما يدكر الإدريسي عام 1150م .

---

[1] جورجي زيدان : ن م ص135 وسليم عرفات المبيض : النقود العربية الفلسطينية وسكها المدينة الأجنبية ، الهيئة العامة للكتـاب 2989 ،ص139.

[2] د.فهمي : م س، ص27.

[3] المنسوب للخليفة الفاطمي المعز لدين الله 341هـ-936/365-967م نقش عليه في أحد وجهيه ثلاثة أسطر ، أحدهما دعي الإمام المعز لتوحيد الأحد الصمد وتحته سطر فيه "ضرب هذا الذينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة " وفي الوجه الآخر "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أرسله بالهدىُ ودين الحق ليظهرة على الذين كله ولو كره المشركون، علي أفضل الوصية وزير خير المرسلين."

- المقريزي كتاب النقود الإسلامية النسخة الفضلية ص5 وقد حمل الذينار إسم فلسطين عام 359هـ/961م

Gerge.C. Miles Rare Islamic Coins Newyork 1951,P.8 كما ضرب الذينار في الرملة عام 359هـ/961م

G.C. Ibid , P.12, د.فهمي : م س ص58.

[4] ن.م ص59.

[5] ن.م ، ص10،15. بينما يرى الدكتور عبد الرحمن فهمي أنه لا يمكن التسليم بكل النتائج التي وصل إليها المقريزي سيما وأن خزائن القصور الأيوبية كانت تفيض بالدراهم والدنانير والمصاغ والجوهر يشكل لايغن به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر ولا تشتمل على مثله الممالك ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة ، على حد تعبير المقريزي نفسه في كتابه "شذور العقود في دكر النقود" وتشير بعض المراجع إلى أن ما خلفه الملك الكامل الأيوبي من الذهب وحده ستة ملايين من الدنانير المصرية.

د. عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ط، 1964 ، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار العلم -18 شارع التوفيقية ص7-71.إبن منظور : لسان العرب فصل العين حرف اللام. مجلد 13 صفحة 514.

– توقف البحث عن الكنوز بين محتويات المقابر الفرعونية لكثرة المشاكل الداخلية الموروثة من العهد الفاطمي ودلك لتثبيت كيانها .

– هبوط الصادرات المصرية من الأقمشة بشكل خاص لبغداد سنوياً بما كانت قيمة 20،000 دينار سنوياً .

–نهب الصليبية لمدينة تنيس المصرية عدة مرات مما أوقف صناعة النسيج هناك في أواخر العهد الفاطمي .

–كثرة النفقات على العمليات الحربية بين المصرين والصليبيين وبين صلاح الذين وبقايا الفاطميين.

– نشاط الصليبية في تهريب الذهب في البندقية ومرسليا وبرشلونه فقلت كميات الذهب في الأسواق العربية بشكل ملحوظ[1] وتستطيع إرجاع السبب الرئيسي لندرة الذهب في عصر الأيوبيين إلى إكتناز "Thesaurisation" سلاطين الأيوبيين الدنانير الذهبية دون غيرها وتسرب الذهب من البلاد خلال العمليات الحربية المذكورة في مصر والشام منذ أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي حتى إن مرتبات الجنود الأيوبيين كانت تصرف بالدراهم الفضية رغم أنها مقدرة إسمياً بالذهب بسعر ستة عشر درهماً للدينار الذهبي وكانت ميزانية الدولة الأيوبية عامة مقدرة بالنقود الذهبية من الدنانير بينما كانت المصروفات بالدراهم الفضية .م ن.ص ،وفي زمن الدولة العباسية ضرب عبد ا لله بن محمد السفاح الدراهم [2] بالأنبار [3] وعملها على نقش الدنانير ، وكتب عليها السكة العباسية وقطع منها ،ونقصها حبة ، ثم نقصها حبتين وفي زمن أبو جعفر المنصور نقصها ثلاث حبات ، فصارت تلك الدراهم ثلاثة أرباع قيراط ، لآن القيراط أربع حبات ، فكانت الدراهم كدلك ، ثم الدراهم الهاشمية [4] على المثقال البصري ثم ضربت الدراهم ببغداد

---

[1] د. عبد الرحمن فهمي، م س، ص72.

[2] المقريزي النسخة الفضلية للنقود، ص4،5

[3] الأنبار : بلد بالعراق قديم على نشاط الفرات في غزبي بغداد أنهما عشرة فراسخ وكانت الفرس تسميها فيروز سابور وهي غير أنبار بلح في فارس ,

ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص257.

المقريزي : النقود الإسلامية الفضلية ، ص5،9.

[4] الهاشمية : مدينة بناها السفاح في الكوفة ياقوت الحموي(معجم البلدان مجلد 5 ص389.

ويقال أن المنصور رفض الدراهم الأموية إلا الهبيرهة (عمرو بن هبيرة) واليوسفية (يوسف بن عمر) والخالذية (حالد بن عبدا لله البجلي) زما زال الناس يضربون المثل بالدهب اليوسفي الآن في الأردن فيقولون أصفى من الذهب اليوسفي الكرملي ،م س 193.

والمحمدية [1] زمن الرشيد ثم الرباعيات [2] زمن المأمون وكتب على النقود إسم القدس لأول مرة بدلا من "إيلياء" وإتخدوا مدن عكا وطبريةو والرملة وغزة والقدس مكاناً لسك العملة في فلسطين عام 212هـ/814 [3] .

وضربت الدراهم أيام الدول المستقلة عن الدولة العباسية كالطولونيين والفاطميين ففي زمن أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية نسبة إليه[4]وشاع إستعمالها في فلسطين في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي وكتبوا إسم الأمير الطولوني بدلا من الخليفة[5] ويلاحظ إنقطاع النقود المستقلة بأسماء الخلفاء من سنة 334هـ / 936 م وتطور عيارها خلال المدة المتغلبة التي دامت حتى سنة 547هـ/1151م ففي أيام الخليفة المستنجد با لله عام 555هـ/1159م أصبحت جديدة ومستعملة ونالها النشاط أيام الخليفة الناصر لدين ا لله وصارت تضرب ببغداد وحدها إلا في حالات إستثنائية في "دقوفا" [6] وضربت في عهد الخليفة المستعصم با لله باربل [7] وحدث فيها بعض التبدل وشاعت هده النقود أيام المغول ومن بعدهم [8] وبالنسبة لوزن الذينار والدرهم الشائعة أيام المغول فقد دكر عباس العزاوي أنه كان ببغداد ديناران أحدهما يسمى العوال [9] وتساوي إثنا عشرة درهماً والدرهم بقيراط وحبتين والذينار عشرون قيراط كل قيراط ثلاث حبات وكل حبة أربعة فلوس والثاني (الذينار المرسل)وبه أكثر مبايعاتهم ومعاملاتهم ويساوي عشرون درهم (دوقا).

---

(1) المحمدية : قرية من قرى بين النهرين ياقوت، معجم البلدان ص6 مجلد 5. د.فهمي ص51-53.

(2) سميت الرباعيات لآن وزنها كان أربع حبات ، "الكرملي م.س ص48.

(3) مجلة الفجر الأدنى ، سكة فلسطين الإسلامية عدد مارس 1983م ص38.

(4) العزاوي تاريخ النقود العربية، ص17، د.فهمي ،ن م،ص 54-56.

(5) الموسوعة الفلسطينية ج4 ص 494 وانستاس الكرملي النقود الإسلامية وعلم النميات ص64.

Lone Poole Catalouge the Colection of Arabic Coins,cairo, 1984 P.141

ودكر دنانير الطولونيين بالرملة عام 892/290م

(6) مدينة بين أربل وبغداد الحموي –معجم البلدان مجلد2 ص459 حرف الدال

(7) إربلْ : بين الزابين مدينة من أعمال الموصل شمال العراق يقول بأنه وجد هذا في مخطوط أياصوفيا إسمه مسالك الأبصار –ج2 ،ص64.

(8) العزاوي : ن.م ، ص17. ن.م ن ص.

(9) العوال ربما كانت من العول أي زائدة للدلالة على أن وزنها يزيد على ... ن.م ، ن ص.

كما ضرب الأخشيديون نقودهم في اللد والرملة وطبرية وكتبوا عليها إسم الأمير الأخشيدي بدلاً من إسم الخليفة العباسي [1] وكان للعباسيين فضل السبق في ضرب النقود التذكارية التي كانوا ينثرونها على الناس في الأفراح والحفلات والمواسم العامة وضربوا دنانير أطلق عليها دنانير الخرافة " للإنعام بها على المغنيين وغيرهم كما أشار المقريزي في كتابة "إغاثة الأمة" [2]

---

[1] S. Lane Pole, catag ue, Ibid , P. 144

[2] د. عبد الرحمن فهمي : م س، ص66-67.

"مدن السك الفلسطينية أيام الصليبية"

لقد سك الصليبيون الدنانير والدراهم ، فضربها البنادقة اللاتين من البنادقة في فلسطين بكتابات عربية سميت بالعملة البيزنطية العربية,Besants Saracenati, Saracenate Byzantin عند رنسيمان وعليها تاريخ هجري على الرغم من أستياء البابا i أنوسنت الرابع من هده المأثورات الإسلامية [1] وقد ضرب بلدوين الثاني في عام (1152-1187م) دنانير دهبية بمدينة القدس عليها صليب في الوجه وعلى الظهر باللغة اللاتينية [2] وقد قام الصليبيون بتزييف النقود العربية إذ قلدوا الدنانير والدراهم الأيوبية والفاطمية المضروبة في دمشق عام699هـ/1201م وتحمل إسم الخلفية العباسي المستنصر با لله مع أنه قد مات عام 640هـ/1239م كما قلدوا دراهم الصالح إسماعيل المكتوب عليها ضرب دمشق 644 هـ/1246م وتحمل القاب المستنصر والمعتقد أنها ضربت بمدينة عكا [3] وأصدروا نقوداً زائفة باسم الخليفة الآمر بأحكام ا لله "495-524هـ/1197-1126م على مدار ثلاث سنوات حيث يوجد بعضها ضمن مجموعة دار الكتب المصرية [4]

---

(1) د. عبد الرحمن فهمي ، م س ، ص79 لانه كان يوجد عليها نقوش عربية وأيات قرآنية وكتابات تشير إلى الرسالة المحمدية في التاريخ الهجري وإستمر التعامل بها حق القرن السابع الهجري ، والثالث عشر للميلاد.

وأنظر Runciman Ahistory of the Crusades 111/p.363

-Prawer ,latin kingdom , P. 385 .

(2) سليم عرفات م س ص85.

(3) د. عبد الرحمن فهمي: ن.م،ص79.

(4) جوزيف نسيم يوسف : دراسات ص339

ويلاحظ المرء زيفها من خلال عدة ملاحظات أهمها :-

- الخط الردئ .
- تأريخ بعضها بالتاريخ الميلادي بدون الهجري .
- دس رسمة الصليب بين الكتابة .

تدني عيارها بين الذهب والفضة .

كما سك الصليبيون في مدينة عكا دنانير نقشوا عليها بالعربية عبارات مسيحية على هيئة حلقات على النمط الفاطمي [1] وضرب أيضاً بمدينة عكا عام 1270/468 دينار آخر [2] ويلاحظ أن معظم النقود ضربت بأمر القديس لويس عام 648هـ/1250م [3] وذلك لاستمرار حركة التعامل التجاري مع المسلمين وعدم إغلاق الباب في نفس الوقت وما بعدها تقليداً للنقود الأيوبية وقد تميزت في معظمها بعبارة التثليث (الأب والإبن والروح القدس)وشارة المسيحية على الظهر محاطة بعبارة ((**ا الله واحد هو الإيمان واحد والمعمورية واحدة**)) وقد ضربت من الذهب والفضة .

---

(1) جاء على بعضها الوجه : في المركز ، إله واحد

على الهامش: ضرب بعكا عام ألف ومائتين وواحد وخمسين تجسد ربنا المسيح.

أما الظهر : داخل دائرة : تفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به سلامنا وبه قيامتنا وبه تخليصنا . جاء وقبل هذا الذينار الذي ضرب عام 25 بمدينة عكا كتاب الدكتور العش.

أنظر - د.محمد أبو الفرج المعشي _ النقود العربية الإسلامية المحفوظة بمتحف قطر الوطني ، وزارة الأعلام - الدوحة-1984 ص22 وقد جاء مثل هذا الذينار الذي ضرب عام 1250 بمدينة عكا في كتاب المعشي.

(2) الوجه : في المركز: إله واحد ، الهامش : مقسم بواسطة صليب.

أما الظهر : في المراكز صليب والهامش : ضرب بعكا سنة ألف ومائتين وخمس S.Lane poole/ Catalouge Ibid, P 30

(3) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي ص329-330.

شيفنسون : الحروب الصليبية ، ص191. Mager The Crasades, p. 163

د. فهمي.م س ص81.

ويوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة نماذج منها كما ظهرت على الدراهم الفضية بعض المأثورات ضمن مربع [1] كما ضربوا نوعاً أخراً من النقود الدهبية [2] ونقش في منتصفها ويحيط بها عبارة Agnus Dei quitollit peccata mud وعلى الظهر sutsirCh incit Christus, Regnat Christus impetat v وبالنسبة لدراهم شرقي الأردن فقد كانت تتعامل بنقود المسيطرين عليها من صليبيين وأيوبيين ومماليك . لذا لم تكن لها دراهم خاصة لانها لم تكن ذات سيادة مستقلة في ذلك الوقت بل تتبع نظام الحكم في مصر والشام في هده الفترة فقد إستخدمت فيلادلفيا القديمة " عمان " نقوداً رومانية وبيزنطية وعربية وإسلامية لشهرتها كمركز تجاري في تلك الأحقاب الزمنية التي تعاقبت عليها وكان آخرها الذي يحمل إسم عمان سنة 386هـ/970م حيث أشتهرت بغداد بالدنانير العمّانية في العصر البويهي [3] أما الكرك في عصر الأيوبيين فقد سكت دراهم ناصرية باسم الملك الناصر داود [4] .

---

[1] د. عبد الرحيمن فهمي ، م.س ، نقد رقم 25 : وأنظر صورها في الملحق

كتب على الوجه: الأب والإبن والروح القدس إله واحد.

الهامش : ا لله المجد إلى أبد الآبدين آمين.

الظهر : صليب ضمن دائرة حولها كتابة مربعة في ثلاثة أسطر

ا لله واحد هو

الإيمان واحد

المعمودية واحدة

ويلاحظ عليها أنها ضربت بمدينة عكا فيما بعد بين 1251-1255 م وهده فترة إقامة لويس التاسع في الأراضي المقدسة كما يدل على وجود دار الضرب النقود في عكا ص3 : جوزيف نسيم : العدوان الصليبي ص329.

[2] Prawar Latin Kingdom, P. 387 وقد دكر قطر هده النقود حوالي 2و5 ملم وتتراوح وزنها ما بين 31و3 -62و3 جرام.وهي مصنوعة من السبائك.

[3] إبن هلال الصابئ ، رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني بغداد 1964 ص155. وقد أكد ذلك العثور في تل ياسين على دينار سنة 1973م ضُرب في عمان نتيجة التنقيبات الأثرية ويحتفظ به اليوم بالمتحف العراقي ببغداد قسم المسكوكات تحت رقم 15982 ووزنه 4و5غم وقطره 22ملم ومكتوب على الوجه : لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له القادر با لله ، فخر الدولة وملك الأمم. بسم ا لله ضرب هذا الدينار بعمان سنة ستة وثمانين وثلاثمائة.

أما الظهر فكتب عليه " محمد رسول ا لله ، الملك العادل صمصام الدولةوشمس المله أبو كاليجار محمد رسول ا لله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهرة على الذين كله ولو كره المشركون.

[4] د. يوسف غوانمة التاريخ الحضاري :ص103 نفس المصدر ص104.

وفي العصر المملوكي إستخدمت شرقي الأردن الذينار والدرهم المملوكي حيث عثر نتيجة الحفريات على هده الدراهم المملوكية في الكرك وحسبان وكان معظمها مضروب في القاهرة وقليل منها في دمشق [1] وبعضها محيت كتابته هذا وقد أنشأ الملك الناصر أحمد بن قلاوون داراً للسكة في الكرك بعد حصارها لمدة عامين (743 -745هـ/1342-1344م)[2] هذا ولم تكن قيمة النقود الصليبية ثابته لعدم الاستقرار السياسي وخاصة بعد معركة حطين حيث ظهر صراع البارونات على الفرس بعد وفاة الملك بلدوين الخامس [3] إذ ظهرت عملة السادة الإقطاعيين وهي عبارة عن سبائك من النحاس الخالص وقد جلبت للإقطاعيين أرباحاً كثيرة وأظهرت إستقلالهم السياسي عن ملك بيت المقدس بالرغم من قلة قيمتها وقلة تداولها ويلاحظ أن من نتائج النشاط التجاري بين المدن الأيطالية " البندقية ، جنوة، بيزا" والحجاج المسيحين من جهة وبين الجيوش الصليبية والمسلمين من جهة أخرى قيام نظام المصارف Credit -notes والأوراق المالية تمشياً مع الظروف المالية الجديدة التي تحتاج إلى سرعة التداول لإنجاز الصفقات التجارية فظهرت معارف الفرسان الداويه للإيداع والتسليف حيث زودوا الصليبين في بلاد الشام بتسهيلات مصرفية عامة بما يشبه القروض بفوائد مالية [4] .

---

(1) هده الدراهم موجودة في المتحف الأردني بعمان وبعضها بمتحف الكرك وتحتاج لدراسة علمية.

د. يوسف غوانمه :ن م ، ص104 وقد زار الباحث المتحف وتحققت من ذلك عام 1993م.

(2) الصفدي:م س، ج8 ، ص90

ذكر الصفدي بأنه ضُرب من الذهب المخلوط بالفضة والنحاس فكان الذينار يساوي خمس دراهم

وابن إياس : بدائع الزهور ج1 ، ص182 ويعتقد الدكتور يوسف غوانمة بأن دار السكة في الكرك المملوكية هي نفس الدار التي كانت سك فيها الدراهم الناصرية زمن الأيوبيين ونحن نميل إلى هذا الرأي لتعاقب الفترات الزمنية حيث ورث المماليك ملك الأيوبيين فاستخدموا نفس أجهزة السك في الدار الأيوبية ولعل التنقيبات الأثرية ستثبت صحة الرأي أو نفيه.

(3) Runciman,Ahistory of the crusades , 111, P.364

وعبد الرحمن فهمي : م س ، ص116-117.

(4) للمزيد من المعرفة أنظر جوانفيل ، القديس لويس ص175 - 177 ، 187 -188.

النقود العربية الأيوبية المتداولة في فلسطين والأردن

590–648/1192– 1250م

لقد اكتنز سلاطين الأيوبيين النقود الجيدة تحسباً للظروف الصعبة مع الصليبية وإتقاءً لنشر الفتن الداخلية بالإضافة لظروف الحرب المستمرة مما أرهق مالية الدولة ، حيث كانت الميزانية مقدرة بالنقود الذهبية في حين تسدد مصروفاتها بالدراهم الفضية دون سواها [1] بينما ضرب صلاح الذين الأيوبي نقوداً منذ تسلمه الحكم 564/1166 في القاهرة والإسكندرية. أما في دمشق وحلب وحماة فقد ضربها على النمط الفاطمي بحيث نقش على ظهر النقود إسم الخليفة العباسي بالإضافة لإسمه ومكان وزمان الضرب فضرب الدنانير وعليها كتابة بشكل حلقات ثلاث [2] بعد أبطال نقود مصر وضرب الذينار ذهباً مصرياً في شوال سنة 583هـ/1187م كما ضربت الدراهم الناصرية من فضة خالصة ونحاس مناصفه بالشامي بعد إبطال الدرهم الأسود [3] . كما ضرب صلاح الذين الدراهم الفضية الناصرية الرديئة لإرتفاع نسبة النحاس المخلوط [4] بها حيث أصبحت قيمتها الإسمية القانونية تتفوق على قيمتها المعدنية فسماها الناس "الزيوف" فكان لها المردود الإقتصادي السيئ على الناس

---

(1) د. عبد الرحمن فهمي ، م س ، ص69 – 71

(2) S.Lane Poole , Catalouge Ibid,P302.

كتب على الوجه : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الذينار بالقاهرة سنة سبعين وخمسماية (1) لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو محمد (2) المستضيئ بأمر الله أمير المؤمنين (3)

في المركز : الإمام الحسن.

الظهر : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الذين كله (1)ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله (2) الملك الناصر عال غايته (3) في المركز : يوسف بن أيوب.

(3) المقريزي : كتاب النقود الإسلامية النسخة الفضلية ص5. د. عبد الرحمن فهمي :ن م، ص10.

(4) د. عبد الرحمن فهمي. ن م، ص73 يقول : " وحتى الدراهم الناصرية التي أمر صلاح الذين بضربها بكثرة كانت رديئة تصل بنسبة النحاس فيها إلى النصف فلقبوها " بالزيوف" أي الزائفة مما سبب ضرراً للناس.

وهناك درهم آخر لصلاح الذين الأيوبي يحمل زخارف مميزه داخل نجمة سداسية مزخرفه .[1]

أما بالنسبة لفلوس صلاح الذين الأيوبي فقد كتب عليها إسمه فقط [2] ولقد عثر في مدينة دير البلح في غزة على قطعة نقدية نحاسية تحمل مأثورات تناقض ما ألغاه من عدم وجود صور للملوك العرب المسلمين ، فيبدو أنها ترجع لعهد صلاح الذين الأيوبي [3] . ولا يوجد مكان وتاريخ الضرب كما يبدو لنا أن هذه القطعة النقدية ربما ضربت تذكاراً لصلح الرملة بفلسطين بين صلاح الذين والصليبين .وفي عهد العزيز عماد الذين عثمان ضرب هذا الفلس عام 589هـ/ 1193 م [4] وهناك درهم نقشت عباراته داخل نجمة سداسية

---

[1] أنظر الملحق رقم : ظهر على وجه الدرهم بهيئة مربع في ثلاث سطور : الإمام إلنا صر لدين الله أمير المؤمنين

وعلى الهامش وفوق كل ضلع من المربع لا إله إلا الله محمد رسول الله :

والظهر : إسم الملك على هيئة مربع في ثلاث أسطر

الملك إلناصر

صلاح الذين

يوسف بن أيوب

[2] أنظر الملحق سليم عرفات ، م س ، ص192 -193.

الوجه ك داخل دائرة الملك الناصر

الهامش : صلاح الدنيا والذين سلطان المسلمين

الظهر : داخل دائرة يوسف بن أيوب

الهامش : ضرب بدمشق

[3] سليم عرفات : م س ،ص193

الوجه : وجه صلاح الذين يوسف بن أيوب بلحيته وشاربه وعلى رأسه غطاء أشبه بطاقية مرتفعة. وأمامه وجه رجل ربما هو ريتشارد قلب الأسد وعلى رأسه إكليل من الغاب يذكرنا بأكاليل الملوك الرومانيين واليونان.

ووجهه حليق : أنظر : عليه كتابة بالخط الكوفي الجميل داخل دائرة : االملك الناصر : صلاح الذين... دولة أمير المؤمنين .

أنظر الملحق : المرفق صورة نقود صلاح الذين

[4] سليم عرفات : ن م، ص193

الوجه : داخل دائر : عثمان

الظهر : داخل دائرة : سيف الملك العزيز / الملك الناصر أبو .

مزخرفة يرجع للظاهر غازي (582-613 هـ)1186هـ-1215م [1] وضرب الملك العادل سيف الذين أبو بكر الدنانير والدراهم والفلوس عام 596هـ/2000م [2] كما ضرب دراهم فضية مزخرفة بأسلوب متميز [3] وسكَّ فلوساً ضرب عليها إسمه دون الخليفة داخل دائرة ذات زوايا [4] أما الملك الكامل محمد بن العادل الذي تسلم السلطة عام 1218/615 ووحد الدولة وأبطل الدراهم الناصرية 1225/622م وضرب دراهم فضة تمثل وزنها $\frac{2}{3}$ وخلط الثلث الآخر نحاساً [5] وقد إنتشرت هذه الدراهم والدنانير والفلوس في فلسطين طيلة العصر الأيوبي وحتى مجيئ المماليك . فقد أمر الملك الكامل الناس تبديل الدراهم الناصرية لدى الصيارفة على حساب كل رطل منها بدرهمين ونصف كاملية [الدرهم الكاملي 39 ,3 غرام] أي ما يعادل 18 خروبة [الخروبة 0.194 أو غم] وكانت دنانيره تشبه النمط الفاطمي حيث تركزت الكتابة وسط دائرة في المركز محاطة بشهادة التوحيد على الهامش

---

(1) الوجه : الإمام الناصر أحمد الملك العادل أبو بكر — الهامش : غير واضح — الظهر : الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب

الهامش :.. غير واضح ويعتقد أنه ضرب مع بداية القرن السابع الهجري / أنظر : سليم عرفات : م س ص 194.

(2) S. Poole , Ibid, P200

الوجه : داخل دائرة : الإمام أحمد ابو العباس لناصر لدين الله أمير المؤمنين. — الهامش : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالإسكندرية سنة ست وتسعين وخمس مائة

الظهر : داخل دائرة : عادل الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب ولي عهده الملك الكامل محمد ؟؟ — الهامش :محمد رسول اله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهر على الذين كله

(3) P. Coins , Ibid , P266, No 1277.B.M . وأنظر صورة في الملحق

على ظهرها : سيف الملك العادل أبو بكر بن أيوب الذين — الهامش : ضرب /دمشق / سنة/ ثلث عشر وستماية

الوجه : الإمام الناصر / أنظر الملحق رقم — الظهر : الملك العادل

الظهر : الملك العادل

(4) سليم عرفات : م س ، ص195.

(6) د. عبد الرحمن فهمي : م س ، ص73.

على الوجه التالي [1] . كما ضرب دراهم على نمطين أحدهما كانت المأثورات داخل دائرة تشبة مأثورات الذينار السابق وآخر كان داخل مربع[2] أما في نهاية حكمه فقد حدثت أزمات إقتصادية عام 630/1233 نتيجة كثرة الحروب التي أدت إلى إنخفاض سعر الذينار من الدراهم الفضية ، وازدادت كمية الفلوس النحاسية [3] على حساب كميات الدراهم الدراهم الفضية وأطلق عليها " الدراهم والفلوس " أي فلوس الملك الكامل و لم تعد تسد حاجة التجار ، مما تسبب في دخول العملات الفضية الأجنبية للأسواق العربية كنقود البندقية المضروبة سنة 1203م ونقود فلورنسا مما أدى لإختفاء الفضة وتهريبها إلى أوروبا لصهرها وسكها وعودتها للأسواق العربية[4] وهكذا إستمرت النقود الأيوبية حتى سقوط

---

[1] Fig 23.Lane Poole , Ibid, P 229

الوجه : داخل دائرة : الإمام
المنصور أبو جعفر المستنصر
با لله أمير المؤمنين

الهامش : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الذينار
بالإسكندرية سنة إثنتين وعشرين وستمائة

الظهر : داخل دائرة : الملك الكامل
أبو المعالي محمد إبن أبي بكر بن أيوب .

الهامش : لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى
ودين الحق ليظهرة على الذين كله

وأنظر المقريزي : كتاب النقود القديمة النسخة الفضلية ص20.

[2] سليم عرفات : م س ، ص197 أنظر الملحق رقم..

الوجه : داخل دائرة : المؤمنين
الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر

الهامش: لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى
ودين الحق ليظهرة على الذين كله

وهناك درهم للملك ظهرت مأثوراته داخل مربع : سليم عرفات : ن م،ن ص

الوجه : داخل مربع تحيطه نقط : الإمام
المستنصر با لله أبو جعفر المنصور

الهامش : غير واضح

الظهر : داخل مربع الملك الكامل
ناصر الدنيا والذين محمد بن أبي بكر وكذلك فلوسه داخل مربع.

[3] الفلوس : مفردها فلس بمعنى الدراهم وهي نقود من نحاس ، إبن منظور لسان العرب ج8 الفاء حرف السين.
أما د. عبد الرحمن فهمي : م س ،ص11 فيقول "إن كلمة فلس لا تعني بالضرورة عملة نحاسية بالرغم من إستعمالها الشائع منذ فجر الإسلام ، ولفظ الفلس مشتق من اليونانية فقد إشتق العرب تلك السكة من البيزنطيين وكانت تسمى **Follis ولكن العرب لم يتقيدوا بهذا الوزن فتحهم لسوريا ومصر فضربوا فلوساً عربية في بعلبك.**

[4] سليم عرفات : ن م ، ن ص. ويذكر المقريزي في إغاثة الأمة نصاً يفهم منه أن إبتداء ضرب مصر كان في عهد السلطان الكامل والفلوس هي النقد النحاسي الذي عهدنا ضربه بمصر أيام الكامل الأيوبي بعد أن لم تكن. والواقع أن الفلوس هي النقد النحاسي الذي عهدنا ضربه بمصر قبل الفتح الإسلامي وبعده وقد سبقت الإشارة إلى أنواع كثيرة من الفلوس المصرية في فجر الإسلام و لم تكن توجد بمصر قبل عصر الأيوبيين والصحيح أن الكامل قام باصلاح النقد المصري كله من ذهب وفضة ونحاس وحدد سعر الدرهم الكاملي الفضي بثمانية وأربعين فلساً من النحاس ومند عهد الكامل تتابع الملوك في ضربها حتى كثرت الأيدي.
د. عبد الرحمن فهمي ، ن م ، ص104-105 نقلاً عن المقريزي.

الأيوبية وقد سميت الدراهم الفضية " النقرة " ومنها الدراهم الفلوس النحاسية والتي كانت كل ستة منها تساوي "النقرة" أي الدراهم الفضة وإستمرت الخلافات بعد ذلك بين الملك الصالح نجم الذين دعمه الصالح إسماعيل حيث حوصرت العديد من مدن فلسطين (صفد ، طبريا مما أثر على إقتصاد البلاد ، فضرب بالملك الصالح نقوداً في القاهرة ما بين 637-646/1240-1248م كما ضربت النقود في دمشق في الفترة الواقعة ما بين 644-645هـ وقد ضرب على نقوده في سنة 647/1249 م ولقب مولى أو ناصر دمشق [1] " الناصر دمشق" وقد ضرب الناصر "الثاني" يوسف بن محمد دراهم بدمشق جاءت مأثوراتها داخل مربع وتشبه تلك التي ضربها الكامل وبموت الملك توران شاه الذي لم يمكث في الحكم أكثر من شهرين سقطت الدولة الأيوبية 648هـ/1250م وتعتبر نقود "توران شاه من أندر العملات الأيوبية لأنه لم يحكم سوى واحد وستين يوماً إنتهى في 648 هـ/1250م وقد ذكرت معظم المراجع التاريخية كلها إسم ترنشاه في كلمتين هما "توران شاة" وسجل على النقود وهي الوثيقة الرسمية " نزنشاه" وسجل معه إسم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد المستعصم با لله كما فعل والده لصالح نجم الذين[2] .

الملك المعظم	الإمام
غيات الذين والدنيا	المستعصم با لله أبو أحمد
نزنشاه بن محمد	أمير المؤمنين

د. عبد الرحمن فهمي : م س ، ص77 .

---

[1] Lane Poole, Ibid , P. 230 Fig 54

وأنظر الملحق رقم : الوجه : الإمام
المستعصم با لله أبو أحمد أمير المؤمنين
الظهر : الملك الناصر صلاح الدنيا والذين يوسف بن محمد

الهامش غير واضح
الهامش : غير واضح /ضرب بدمشق سنة 651هـ/1253م

M. Broome , Hand Book of islamic coins, P. 123.

[2] د. عبد الرحمن فهمي، م س، ص77.

وفي هده الفترة إختفى الذهب والفضة من الأسواق مما شجع الصليبيين على إستيرادها لفلسطين وسك نقودهم في القدس وعكا وزادوا على ذلك تقليد وتزييف النقود العربية الأيوبية منذ 648هـ/1250م كأسلوب من أساليب المقاومة اليائسة بعد أن وصلوا مرحلة الإنهيار العسكري والسياسي فإنعكس ذلك على المواطنين في فلسطين [1]

[1] أبو شامة المقدسي الدمشقي : م س، ص211. إذ يذكر إبتلاء الناس بغلاء شديد في عام 658هـ عم جميع السلع الإستهلاكية الضرورية من مأكل وملبس بلغ.

فيه سعر رطل الخبز بدرهمين ، واللحم بخمسة دراهم وكذلك إرتفعت أسعار الثوم والجبن والعنب ، ويعلل الأسباب بقوله ما أحدثه الفرنج " الصليبيين " من ضرب الدراهم المعروفة "باليافية" بمناسبة لمدينة يافا الساحلية وكانت كثيرة الغش حيث قال "بلغني أنه كان في المائة منها خمسة عشر درهماً فضة والباقية نحاس" وإنتشرت هده الزيوف في البلاد إنتشاراً عظيماً حتى تخلص الناس منها بالشراء خوفاً من بطلانها وبطلت بالفعل في أواخر السنة حيث بيعت كل أربعة دراهم بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بمقدار النصف.

النظام المالي الأيوبي

مقدمة..

لقد وقفت طويلاً أمام عبارة إبن خلدون الإقتصادية "**إن من طبيعة الملك الترف**" حيث ربط بين موارد الدولة ومصروفاتها وبين قوتها وسقوطها وأوضح أن كثرة واردات الدولة تؤدي إلى زيادة مصروفاتها وإسرافها والإسراف، يؤدي إلى زيادة الضرائب والجبايات من الشعب [1] كما هو ملاحظ في أيامنا هذه كما دفعتني هذه العبارة إلى التساؤل عن واردات الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة عند تأسيسها على يد صلاح الدين الأيوبي.

لذا كان لا بد أن نشير إلى هذه الواردات وأنواعها وطرق جمعها وصرفها مما مكنه من تحرير الشام من أيدي الصليبيين.

أولا بالنسبة للواردات :

فقد إعتمد على الورادات الشرعية المعروفة في مصر والشام والجزيرة وألغى الضرائب الشرعية والمكروهة ودلك لكسب المحبة والولاء الشعبي لحكمه [2] وقد فعل صلاح الدين ذلك للإبتعاد عن سياسة الفاطميين السيئة في فرض الضرائب الباهضة على الحجاج السنيين حتى كرههم الناس وإمتنعوا أحياناً عن الحج وتمنوا الخلاص من ملكهم حيث رأوا في صلاح الدين المنقد الشرعي لهم من ظلم الفاطميين الشيعة الدي أعفاهم من هذه الضرائب غير الشرعية [3]

---

[1] إبن خلدون، مقدمة إبن خلدون، بيروت 1971م، ص140، 235.

[2] أسقط عن أهل مصر عام 567هـ/1169م سائر الضرائب غير الشرعية بما يقدر بمائة ألف دينار سنويا علماً بأن واردات مصر كانت تشكل المصدر الأول لميزانيته بينما منح البلدان الأخرى إستقلالاً داتياً مقابل المشاركة في بلاد الشام أو الجزيرة في حروبه مع الصليبين. إبن كثير، م س، ج12،ص268. كما ألغى عام 572هـ /1176م ضريبة الحجاج التي كان يأخدها أمير مكة من الحجاج المغاربة على الرؤوس مقابل تعويضة ثمانية آلاف إردب قمح سنوياً ترسل لساحل جدة.

أنظر البنداري : تلخيص البرق الشامي للأصفهاني ج1 ص 304 /وأبو شامة، الروضتين، ج2، ص3، /سبط إبن الجوزي : مرآة الزمان ق1 ج8، ص338.

[3] هذا ودكر إبن جبير مقدار ضريبة الحجاج المغاربة بسبعة دنانير ونصف (مصرية) على الرأس. إبن جبير :م ي، ص568.

أنظر أبو شامة :ن م، ج2، ص 4.

وإستمر في سياسته الهادفة لكسب الولاء والطاعة في إرجاء دولته الواسعة فألغى باقي الضرائب غير الشرعية أيضاً عن حجاج وتجار اليمن [1] وضرائب سنجار عام 578هـ/1182 م[2] وألغى عام 579هـ/1183م ضرائب حلب التي فرضها عماد الدين زنكي عليهم بالإضافة لضرائب الرقة [3].

كما ألغى صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ/1187م ضرائب الصليبين التي كانت مفروضة على البلقاء والسلط والجولان وجبل "عجلون" بحيث كان مقدارها نصف حاصل البلاد [4] والحقيقة أنه أبدل هذه الضرائب غير الشرعية التي فرضها الفاطميون الشيعة بالموارد الشرعية السُنية [5] فأنشأ ديوان الزكاة في مصر وسمي صاحبه بـ " متولي الزكاة " حيث بلغت عائداتها عام 587هـ/1190م حوالي إحدى عشر ألفاً وثمانمائة وإحدى وستون ديناراً 861 11, ولكن دولته في هذا العام كانت في ضائقة مالية [6] وعُين " ابن حمدان" للإشراف على جبايتها لسد العجز المالي وجمع ما يقارب إثنين وخمسين ألف دينار سنويا [7] وأما الضريبة الشرعية الثانية بعد الزكاة فكانت الخراج [8] بعد إدخال تعديلات

---

(1) إبن جبير، م س، ص8، 30.

(2) المقريزي، السلوك : ج1، ص74.

(3) أبو شامة، م س،ج2،ص47 حيث أورد نص المنشور الدي أوضح فيه صلاح الدين الأسباب الداعية لإلغاء هـذه الضرائب.وكـان مـن نص المنشور ((إن أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم من الحق من أخد الباطل من الناس وسماه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه ما أقرضه ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقه أشرفنا منها علـى سمـن يؤكـل وظلـم مـا أمـر الله بـه أن يقطع وأمر الظالمون أن يوصل، فأوجينا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها وبلغوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسرها ونعتق بلد الرقة من رقهاوتثبت الأحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحقها.. ويعفى خـبر هـذه الضرائـب مـن الدواويـن ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة ماضية الأحكام مستمرة الأيام...))

(4) أبو شامة : ن م، ج2، ص 79.

(5) المقريزي : الخطط ج1، ص108.

(6) ابن شداد، النوادر : ص148 - 153.

(7) المقريزي، الخطط ج1 ص108./ وقد أعفى من الزكاة بعض المواد الغدائية الضرورية للإستهلاك البشري كالزيتون والخضار والسمسم والكتان.إبن مماتي : قوانين الدواوين، ص310 -316.

(8) ضريبة الخراج : هي الضريبة المفروضة على الأراضي المزروعة حبوباً وفاكهة وعنباً ونخلاً والتي كـان يدفعهـا المزارع لصاحب الأرض الدي يدفعها بدوره لخزانة الدولة بعد خصم مصاريف الأرض. / أنظر حسنين ربيع : النظم المالية في مصر ص41.

على طريقة جمعه وأوقات الجمع لمخالفتها السنة الشمسية رحمة بالفلاحين فحول السنة القبطية إلى السنة العربية عام 567هـ/1171م [1]

وبالنسبة للمناطق الأخرى غير المصرية في جنوبي بلاد الشام وغيرها فإن صلاح الدين الأيوبي كان يأخذ منها الخراج حسب مساحة الأرض التي تقاس بالفدان، فكانت الضريبة على القمح والشعير إردبين ونصف لكل فدان و أما طريقة جمع الضرائب فكانت بواسطة المنتفعين بالأرض الذين يسلمونها بدورهم لديوان السلطان [2]، بينما أبقى ضريبة الفول والحمص التي كانت موجودة مثل قيام الدولة الأيوبية بمقدار (2,5 – 3) أرادب للفدان الواحد هذا بالإضافة إلى الضرائب النقدية الأخرى التي كانت مفروضة على الحاصلات الزراعية الأخرى والتي تراوحت ما بين دينار وخمسة دنانير على الفدان الواحد.

أما بالنسبة للأشجار والكروم فكانت ضريبتها ربع دينار على الفدان في السنة الأولى وثلاثة دنانير في السنة الرابعة. فكان ذلك مساعدة منه للفلاح لأن إنتاج الأشجار في السنوات الأولى أقل منها فيما بعد.بينما كان نوع الخراج الدي يؤخد على غابات الأشجار يعرف بإسم"مقرر السنط"علماً بأن صلاح الدين الأيوبي أصدر قوانين مشددة الحفاظ على الغابات [3] ودلك لأنها كانت تستخدم لصناعة الأدوات الحربية كالسفن والأقواس والنشاب والسيوف وبخاصة وأن الحرب كانت مستمرة مع الصليبين[4].وكذلك منع صلاح الدين التصرف في المعادن كالأخشاب لآهميتها في صناعة المواد الحربية من اسلحة وسفن أيضاً وفرض ضرائب على المعادن الثمينة كالذهب والفضة، كضريبة " دار الضرب" التي أخذها من أصحاب الأموال الذين يملكون الذهب والفضة مقابل سك الذهب فكان مقدارها ثلاثة وثلاثين دينار عن كل ألف دينار، وأما ضريبة الفضة فكانت $14\frac{1}{2}$ درهماً عن كل ألف درهم [5] وبالنسبة للضريبة الشرعية الثالثة فكانت الجزية التي يأخذها

---

(1) كانت تسابق الشهور العربية الشمسية بجعل خراج السنة سنوياً للسنة السابقة، وإستحقاقه في السنة اللاحقة لذا كانت العادة في مصر أنه إدا مضى ثلاث وثلاثون سنة اعتبر المكلفون بشؤون الخراج السنة الثالثة والثلاثون في السنة الخامسةوالثلاثون وإلغاء ما بينهما.

حسنين ربيع : م س، ن ص / إبن جبير :م س، ص 42.

(2) القلقشندي م س، ج13،ص73 .Elisseeff.Nur Salah Ad- Dln,ll, P.801.

(3) إبن مماشي : قوانين الدواوين ص345 –347.ن م، ن ص.

(4) ن.م ن.ص،

(5) ن.م ص332–333، ربيع، النظم المالية، ص49.

من النصارى واليهود والتي لا يأخذ منها سوى $\frac{3}{8}$ "ثلاثة أثمانها " والخمسة أثمان الباقية تنفق على أهل البلد في عوائد الأوقاف [1] وكانت هذه الضريبة تفرض على البالغين ويعفى منها الصبيان والنساء والعبيد والشيوخ والرهبان والفقراء والمجانين، وسميت " ضريبة الجوالي " التي راعت أحوال أهل الذمة المالية فكانت $4\frac{1}{6}$ دينار على كل فرد من أفراد الطبقة العليا وديناربن على كل فرد من أفراد الطبقة الوسطى وديناراً وجزءاً من الديناراً على أفراد الطبقة السفلى وأضاف عليها بالنسبة لجميع الطبقات درهمين ونصف كرسم لمصروفات الحياة [2] بما يشبة اليوم " غلاء المعيشة " ويلاحظ على هذه الضريبة الشرعية عدالتها وإنصافها، فقد كان مقدار ما يدفعونه يعادل رسوم الزكاة عند المسلمين. وأما الموارد الأخرى للخزانه المالية فكانت ضريبة الخمس على التجار الأجانب القادمين من إيطاليا وأوروبا إلى الأسكندرية بنسبة تتراوح ما بين (20–35 %)من قيمة بضائعهم [3] وذلك من مبدأ المعاملة بالمثل. ويعتقد بأن هذه الضريبة كانت مقابل الضرائب التي فرضتها دول أوربا على التجار المسلمين.

ثانياً- مصروفات الدولة الأيوبية :

لقد إتصفت سياسة صلاح الدين الأيوبي في الصرف بالإسراف لأنها كانت قائمة على صرفها للمستحقين وغير المستحقين وعلى جيشه في سبيل الجهاد لكسب مودة الشعب والجيش [4] مما دفعه أحياناً للإقتراض من كبار التجار والأمراء حتى تصل إليه الأموال المقررة من أرجاء دولته الواسعة [5].

---

(1) إبن جبير : م س ص42.

(2) إبن مماتي : م س، ص318.

(3) ن.م، ن ص، إبن جبير ن.م، ن.ص.

(4) إبن شداد : النوادر السلطانية ص18.الذي أورد قول صلاح الدين "إن قيمة الأموال هذه لا تزيد على قيمة التراب" وانظر: وول ديورانت :م س. ج5.ص45.

(5) البنداري : سنا البرق الشامي ج1 ص123. فقد ذكر بأنه أنفق كل ما في خزائن الفاطميين عام 567هـ/1171م، وانظر Lane pool, .Ahistory of Egypt , p.193. كما أنفق عام 583هـ/1187م ما جمع من القدس مع ما أرسل له الملك العادل بما يقارب سبعين ألف دينار في ليلة واحدة لذا أرسل له في اليوم الثاني ثلاثين ألف أخرى. /إبن واصل : م س. ج2، ص242.

لذا لم يهتم صلاح الدين نتيجة لهذه السياسة بكنز الأموال بل تجاوز سلبية أخرى وهي عدم محاسبة موظفي ديوان بيت المال [1].

وهكذا يتضح لنا بأنه لم تكن له سياسة مالية منتظمة و لم يهتم بميزانية دولته أو الموازنة بين الواردات والمصروفات لأن معظم نفقاته كانت على الإعداد العسكري من حيث التحصينات العسكرية وبناء السفن والباقي على بناء المساجد والمدارس والخانات واليمارستانات والزوايا هذا بالإضافة إلى مخصصات الفقراء والأيتام.

ثالثا- مصروفات السلطان الخاصة :

لقد أشرف على هذه المصروفات الديوان السلطاني الذي كان ينفق الأموال على شراء السلع وما يحتاجه السلطان وعلى خدم السلطان وطعامه وضيافته وإصطبلاته [2] بالإضافة إلى مكافأة الشعراء والفقراء ومن سيسأله كرمه [3] كما كان أحياناً ينفق من أموال الديوان على الجند لتشجيعهم وترغيبهم في مواصلة الفتوحات وإظهار البطولات في المعارك العسكرية كما فعل عام 575هـ/1179م [4]. بينما كان يشرف على مصروفات الجيش ديوان الجيش من حيث المرتبات للجند وما يتبعهم من عربان وصوفية وقضاة. وتسليحهم وتحصين قلاعهم والتعبئة العسكرية وبلغت مصروفات جيشه عام 577 هـ /1181 ثلاثة ملايين وخمسماية وسبعين ألفاً إضافة إلى مليون دينار أخرى صُرفت على العربان والصوفية والفقهاء والقضاه [5] فكانت مصروفاته اليومية تزيد أحياناً على أربعين ألف دينار، كما لوحظ حرية تصرف ولاته في النفقات العسكرية وغيرها لأنه كان قد منحهم إستقلالاً ذاتياً في ولاياتهم.

---

[1] إبن شداد، النوادر السلطانية : ص14-16.

[2] إبن مماتي، م س:ص354..

[3] إبن الأثير،م س ج12، ص97، البنداري / م س.ج1، ص234

[4] حسنين ربيع، النظم المالية : ص62 -63.

[5] المقريزي : السلوك، ق1، ج1، ص 75 اليونيني م س: ق1، ج8، ص 41.

"النقود المملوكية المتداولة في فلسطين"

648 - 923 هـ/1250-1520م

لقد كانت الفترة الأولى من حكم المماليك البحرية مملوءة بالأحداث العسكرية والسياسية لتصديهم للصليبيين في عكا وللمغول بمساعدة القبائل الفلسطينية من أبناء مهدي وبني عطية والسوالم في موقعة عين جالوت [1] وإستمرار الحرب بعدها سجالاً حتى عام 1322/722 حتى هزموهم في موقعة "عين الصقر" فطهروا البلاد من بقاياهم ، لذلك لم يتمتع سكان المنطقة بالإستقرار السياسي والإقتصادي ، وإستخدم المماليك النقود الأيوبية ، ولم يتخذوا المدن الفلسطينية دوراً لسك النقود وإكتفوا بضربها في دمشق وحلب وحماه والقاهرة والإسكندرية لكثرة الحروب وميل العديد من الأمراء للإكتناز وبيع ممتلكاتهم وإقطاعاتهم ومصادرة الحاصلات الزراعية مثل "الزيت" وبيهخ بأسعار خيالية للسكان ، ولكثرة الضرائب المفروضة على الناس لتغطية نفقات الحروب وما تعرضت له البلاد من كوارث طبيعية كالزلازل والقحط والأوبئة وإنتشار الجراد كل هذا كان سبباً في عدم إستقرار النقود العربية لسوء الأحوال هده .وفي سنة 650هـ/1252م أي في بداية العصر المملوكي سول لبعض الأمراء والسلاطين المماليك حب الفائدة فضمن ضرب الفلوس وجعل كل فلس يزن مثقالاً ، والدرهم يقدر بأربعة وعشرين فلساً ولم تكن الفلوس حتى ذلك التاريخ يشترى بها شيء من الأمور الجليلة وإنما هي لنفقات البيوت والأغراض وما يحتاج إليه من الخضر والبقول وغيرها إلى أن كانت سلطة "العادل كتبغا" فضربت فلوس خفيفة الوزن 695هـ/1297م وتقرر لأول مرة أن توزن الفلوس عند التعامل بها ، وأن يكون زنة الفلس درهما واحداً وحدد الرطل من هده الفلوس بدرهمين فضة "وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزناً لا عدداً [2] فترتب على ذلك إغلاق الباعة لحوانيتهم فلجأ والي القاهرة إلى إستعمال العنف معهم بضربهم بالمقارع والتشهير بهم.

---

[1] خالد محمد طربية – آل طربية عبر التاريخ – مطبعة دار الأيتام الإسلامية – القدس 1979 ص11-12.
أنظر المقدسي :م س، ط2 ، بيروت ، 1974 ، ص207.
[2] د. عبد الرحمن فهمي، م س، ص105-106.

وكانت الملكة "شجرة الدر" أول ملوك المماليك ضرباً للنقود التي نقشت عليها لقبها مع إسم الخليفة العباسي المستعصم با لله [1] كما حاول بعض الأمراء عام 1252/650 ضرب فلوس جعلوا وزنها مثقالاً وكل أربعة وعشرين فلساً تعادل درهماً وذلك لتلبية الإحتياجات المنزلية البسيطة من فواكه وخضروات [2] ثم ضرب " المعز أيبك" النقود عام 652هـ/1254 باسم الملك الصالح [3] ولم يسجل أيبك على النقود إسم الطفل الأيوبي "خليل" ابن شجرة الدر من الملك الصالح الأيوبي والذي جاء به إرضاء للأيوبيين في سوريا والكرك بل سجل إسمه مصحوباً باسم سيده الملك الصالح نجم الذين أيوب تعبيراً عن وفائه وليوحي للناس بأنه يحكم البلاد باسمه ولا يفصل بين الإسمين الإشارة على شكل رقم 7 [4] وربما كان ذلك للدلالة على أحد الرنوك التركمانية للمعز أيبك [5] وتولى بعده المنصور نور الذين علي بن أيبك البالغ من العمر إحدى عشرة سنه والذي سَكَّ نقوداً عام 1257/655 ، كتب عليها إسم الخليفة العباسي المستعصم با لله وهي تشبه نمط النقود الأيوبية من حيث المأثورات داخل مربع ضمن دائرة .وقد تميزت نقود أيبك بإضافة رقم (7) كرمز فوق إسم أيبك. [6] وفي عام 1259/657 نقش سيف الذين قطز إسمه ولقبه على نقوده الذهبية والفضية بعد أن قبض على نور الذين وبعد إنتصاره على المغول ، وكان وزن الدينار المملوكي 25و4 غم

---

(1) د. عبد الرحمن فهمي – النقود العربية – م س ،ص85-86.

الوجه : في المركز : المؤمنين

المستعصمية الصالحية

ملكة المسلمين والدة

الملك المنصو ر أمير

الهامش : لا إله إلا ا لله محمد رسول الله أرسله بالهدى

ودين الحق ليظهره على الذين كله

الظهر : في المركز : الإمام

المستعصم با لله أبو أحمد عبد ا لله

أمير المؤمنين

الهامش : بسم ا لله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالقاهرة

سنة ثمان وأربعين وستمائة

ويقول سليم عرفات: أنه لا يوجد من دنانيرها سوى دينار واحد بالمتحف البريطاني :

سليم عرفات : النقود العربية الفلسطينية ص203 الهامش.

(2) S. Lane Poole , Ahistory of Egypt , Ibid , P. 255 Giy 56.

(3) S. Lane Poole , Ibid 256 , Fig 57.

(4) الملك الصالح /نجم الذين أيوب (7) أيبك.

(5) د. فهمي : م س ، ص87.

(6) M. Bloome , Hand Book of islamic coins , Ibid, P. 124 Fig 188

هذا و لم تستقر النقود في بداية عصر المماليك لعدم إستقرار الحالة السياسية في الشرق العربي بعد اجتياح المغول للخلافة العباسية في بغداد وتخريبهم مراكز الحضارة في الشرق .

وفي عام 1260/658 ضرب بيبرس نقوده المتميزة شعاره الجديد "رنك" وهو الأسد والذي شوهد على بعض الأبنية أو المنشآت التي أقامها ولقبه "قسيم أمير المؤمنين" بعد نقله مقر الخلافة من بغداد للقاهرة 659هـ/1261م ليقوي مركزه السياسي والديني بمشاركة الخليفة العباسي له ، ولمجابهة التحديات الأيوبية في الشام فكانت الكتابة تشبه ما كتبته شجرة الدر كالتالي [1] كما ضرب بيبرس دراهم بمدينة "حماه" دراهم فضية لم يظهر عليها تاريخ الضرب كما كان عليها إسم الخليفة المستنصر وظهر على ظهرها رنك الأسد [2] كما ضرب دراهم فضية بمدينة دمشق ظهرت على مأثورات داخل دائرة[1] ويبدوا أن إشارة

---

[1]. S. Lane Poole Ahistory of Egypt Ibid P.263, Fig 58

الوجه : في المركز : لا إله إلا الله
محمد رسول الله
أرسله بالهدى

الهامش ضرب... سكندرية ستة وتسع وخمسون وستماية

الظهر : في المراكز : السلطان
الملك الظاهر
ركن الدنيا والدين بيبرس.

الهامش : غير واضح

[2] M. Bloome , Hand Book of islamic coins , Ibid, P. 124 Fig 188

(   ) فوق إسم (محمد رسول) على وجه الدرهم هـي بمثابة "رنـك" أو إشارة لضـارب النقود أو بمثابة "دمغة" وذلك لتكرار رسمها منذ أيام أيبك[2] كما ضرب بيبرس فلوساً نحاسية كتب عليها داخل دائرة[3] وكانت النقود المملوكية من الذهب والفضة والنحاس وقـد كـان الذهب في عهد المماليك البحرية قاعدة للنقد تقدر علـى أساسـه وحـدات النقـود الأخـرى، وقد خضع لتغيرات متعددةمن حيث المعيار والوزن والحجم وتحديد سـعره في ضـوء العـرض والطلب وبناء على رغبة السـلطان في الكسـب والإثـراء عـن طريـق ضـرب النقـود الذهبيـة لحسابه الخاص [4] وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع الميلادي ظل ضرب النقود أساساً بالذهب والفضة وإحتفظت النقود الفضية بنسبة ثابتة من معدن الفضة النقـي أي 983,1 غـم وتراوح صرف الدينار الذهب بعشرة دراهم [5] وبالنسبة لندرة الذهب المتداول في مصر فقد بدأ في عهد السلطان قلاوون 31 أكتوبر سنة 1284م عندما قرر مجلس شيوخ البندقية ضرب عملة ذهبية خاصة أطلق عليها في أروبا لفظ دوكات **Ducat** بينما عرفـت في الشرق باسـم

---

[1] سليم عرفات : م س ، م س ، ص206

الوجه : ضرب دمشق   الهامش....ستماية

لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين

الظهر : أمير المؤمنين

الملكركن .الدنياو الذين...

الملك الظاهر قسيم عرفات "الأسد"

[2] سليم عرفات المبيض : م س ، ص206 (باب الرنوك) الإسلامية في غزة / أما عن عبد الرحمن فهمي : م س فقد أورد صورة لبعض الدراهم الظاهرية ص95.

الإمام المنتصر

أبوا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر أمير المؤمنين الصالحي

السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والذين بيبرس قسيم أمير المؤمنين (رنك السبع)

وبعد مقتل أبي القاسم نقش إسم الخليفة الحاكم بأمر الله.

[3] سليم عرفات : ن م، ص207

الوجه : كتابة غير واضحة

الظهر : السلطان "صورة أسد يعدو لليسار "

الملك الظاهر.

[4] د.فهمي: م س، ص92 ويضيف "بأنه ليس من المحتم أن يلتزم لفظ "درهم" وزناً محدداً شرعياً لنقد الفضة أو النحاس ، ولكنه إستعمل ليشير إلى وحدة نقدية مختلفة القيمة كما كان الحال في النقود الرسمية التي أطلق عليها "درهم معاملة.

[5] ن م ، ن ص.

"بندقي" أو (أفرنتي) وقـد وصفهـا مؤرخـو مصر المملوكيـة باسـم المشـخصة [1] وفي عصـر المنصور سـيف الديـن قـلاوون عـام 677-682هـ/1279-1284م عملـة ذهبيـة أطلقـوا عليهـا دويكـات Ducat [2] وسماهـا أهـل فلسـطين والشـام "بندقـي" أو أفرنـتي" وسماهـا المؤرخـون العـرب "المشـخصة" لوجـود صـورة شـخص مـن القديسسـين عليهـا . ومـا زال بعـض الفلسطينيين يطلقون نفس التسمية على مثل هده النقـود .وضربـت فلورنسـا بإيطاليـا نقـوداً ذهبية سميت "أفلودي" ثابتة الـوزن 3,45 جـرام [3] ممـا زاد مـن ثباتهـا وتداولهـا في فلسـطين والشام ومصر في الوقت الذي كانت فيـه الدنانير المملوكيـة بـدون عيـار أو وزن ثـابت أو حتى قطر أوسمك معين لذا تسربت كميات كثيرة من الذهب من أسواق الشرق العربـي إلى إيطاليا لتزويد دور السَك فيها وقد ضرب قـلاوون الدنـانير الـتي كتـب علـى وجههـا إسـم السلطان ومكان وتاريخ الضرب بالخط والنسخ ، بينما نقش علـى الظهـر : "لا إلـه إلا ا الله محمد رسول ا الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره علـى الديـن كلـه "وضـرب دراهـم جـاء عليها داخل دائرة سجلت معظم مساحته بـالخط النسـخ [4] ولعـل مـن أهـم عوامـل إنتشـار دوكات البنادقة في مصر والشام والحجاز واليمن هو دقة سك هذا النوع من النقود الذهبيـة من حيث إستدارة القطعة تماماً ووزنها الثابت (3،45 جرام) وعيارها البندقي المرتفـع بينمـا يقابل ذلك دنانير "مملوكية" معاصرة ليس لها عيار وأوزان ثـابت أو سـك او قطـر محـدود) لذلك كان من السهل على التجار عند التعامل إستلام الدوكـات بـالعدد بـدلاً مـن الدنانـير المملوكية التي كان يضطر المتعاملون بها إلى وزنهـا وإضافـة قطـع دهبيـة أخـرى لإسـتكمال

---

[1] ن.م ، ص95.

[2] د.عبد الرحمن فهمي : م س ، ص95.

[3] ن م ، ن ص.

[4] سليم عرفات : م س ، ص207

الظهر : السلطان الملك

المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

أنظر الملحق :

الوجة سيف

لا إله إلا ا الله محمد رسول ا الله

أرسله بالهدى ودين الحق...

الوفاء عند الدفع . وقد أزعج هذا الهجوم النقدي للدويكات الذهبيــة علـى الدنانيرالمملوكيـة السلطان فرج بن برقوق في أوائل عهد المماليك البرجية مما جعله يجري سنة 803هــ ضـرب دنانير بوزن مثقال تماماً (4،25 غم) كي يلافي الإلتجاء إلى الوزن عند الدفع وأشرف علـى هذا النوع من النقود وزيرة يلبغا السالمي فسمى الواحد من هده الدنانير "بالسالمي" رغم أنـه جعل في وسط كل دينار دائرة نقش فيها إسم "فـرج" غـير أن هـده العملـة الجديـدة تطـرق إليها الفساد فيما بعد كما ذكر القلقشندي . وكما ضـرب قـلاوون نصـف درهـم ظهـرت عليه نفس الشارة ويحتمل أن يكون هذا النصف درهم قد ضرب بين سنتي 678هــ-688هـ/ 1280-1290م [1] كما ضرب الأشرف خليل 689-693/1291-695م دنانير عليهـا مـأثورات بالخط على هيئة سطور داخل دائرة [2] أما الناصر محمد "693-698هـ/1295-200م " (708-741/1308-1340م فقد ضرب دنانير ودراهم وفلوساً بدمشق والقاهرة تحمل مأثورات شبيهه في نمطها وخطها بنقود الأشرف خليل عام 1295/694 كله [3]

---

(1) M. Broome , hand Book, Ibid, P. 285 Fig No 191

الوجه : ضرب القاهرة	الظهر : السلطان الملك
لا إله إلا الله محمد رسول الله	المنصور سيف الدنيا والدين...

(2) Lane , Poole, Catalouge, Ibid P. 25 No 1509

الوجه : ضرب القاهرة	الظهر : السلطان الملك الأشرف
لا إله إلا الله محمد رسول الله	صلاح الدنيا والدين
أرسله بالهدى ودين الحق	خليل قسيم أمير المؤمنين
	بن الملك المنصور.

(3) Lane, Pooe , Ahistory of Egypt, Ibid P. 290 Fig 62

لوجه : لا إله إلا الله	الظهر : السلطان الملك الناصر
محمد رسول الله	ناصر الدنيا و الدين
أرسله بالهدى ودين الحق	كتبغا قسيم أمير المؤمنين

وضرب الناصر محمد ديناراً آخر بالقاهرة 1348/740 [1] واستمر ضرب النقود المملوكية في أيام السلطان حسن بن قلاوون [748-752] 1348 -1350م.

إنضرب فلوساً أسماها "الجدد" زنة كل فلس (25,4غم) والتي أخدت في التناقص حتى تلاشت ، وقد بقيت هده الفلوس حتى عصر القلقشندي تصنع من النحاس الأحمر[2]. وتميزت دنانير السلطان حسن بخط النسخ البديع داخل خطوط متموجة شبه دائرية [3] وقد أراد بذلك إصلاح الحالة الإقتصادية بعد غلاء الأسعار وثورة العامة ، وإستمر ضرب دينار السلطان حسن حتى عام 750هـ/1352م وعندما تولى الظاهر برقوق " 784-801هـ/1382 -1499م ضرب الدنانير في حلب والدراهم الظاهرية والفلوس [4] .

---

(1) Lane , Poole , Ahistory of Egypt , Ibid
أنظر الملحق رقم : P, 317, Fig No 73

الوجه : وما النصر إلا من عند الله
لا إله إلا الله محمد رسول الله
أرسله بالهدى ودين الحق

الظهر : ضرب القاهرة
السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والذين بن
الملك المنصور قلاوون

(2) د. فهمي، م س ص 106.

(3) أنظر الملحق : سليم عرفات : م س ، ص209.

الوجه : الله
وما النصر إلا من عند الله
لا إله إلا الله محمد رسول الله
أرسله بالهدى ودين الحق

الظهر : ضرب القاهرة
السلطان الملك الظاهر
ناصر الدنيا والذين حسن بن
الملك المنصور بن قلاوون سنة.......

(4) Lane Poole Cataloouge , Ibid , P P. 263 - 264.

"النظام المالي في العصر المملوكي"

الضرائب الزراعية

وقد إنقسمت إلى قسمين : الضرائب العادية وهي الضرائب الموروثة من العهد الأيوبي كالخراج والعشر والضرائب المبتدعة الجديدة: كضريبة الطرح والرمي، والتجاريد العسكرية، والحطب، والشعير ولم تكن الضرائب الزراعية بنوعيها وليدة العصر فحسب، بل كانت إمتداداً للعصور السابقة [1].

وكان للماليك جهاز ضرائبي دقيق ومنظم، بحيث يستحيل على الفلاح التهرب منه أو التحايل عليه، فكان المختص بالضرائب الزراعية يسمى مباشر الخراج، وإقامته في دمشق، ويلزم رؤساء البلاد بتغليق أراضيها بالزراعة والكراء [2].

وكان للخراج ديوان خاص به "ديوان الخراج" يجمع الربّاع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتزقين، ويقوم متولي ديوان الخراج بالإجابه على الكتب الواردة من ديوان الإنشاء ثم يعرضها على السلطان ليأخد موافقته بالتوقيع على المكاتبة به أو بغيره [3] وبالنسبة إلى موعد إستحقاق الجباية لخراج الأرض فهو أن تمضي مدة سنة ما بين إستحقاق وآخر، فإدا كان الخراج على أساس " مساحة الأرض فيحسب بالسبة الهلالية، أما إدا كان على أساس "مساحة الزرع" فيحسب بالنسبة الشمسية وهو النظام المتبع في بلاد الشام[4]، بعد مراقبة الزرع من قبل وكلاء مباشرو الخراج بدمشق وبعد حصده ونقله للبيادر، ثم دراسته وتذريته وتنظيفه للخزن حيث يحضر والي العمل مباشرة ليحصل ما يخص ديوان الخراج [5].

(1) د. صالحية : محمد عيسى، الطرح والرمي في العصر المملوكي، تحت الطبع، نسخة الباحث ص9.

2) النويري :م س، ج8، ص257 .

(3) القلقشندي : م س، ج2، ص492، ج6 ص213 .

(4) السامرائي : حسام الدين، "مجالات الضرائب على الأرض والإنتاج الزراعي، مجلة الحضارة الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، ج2 ، ص124.

(5) د. غوانمة : بيت المقدس، ص102.

وكانت وحدة قياس الأرض بالأفدنه المعروفة لدى شيوخ القرية وفلاحيها ومسجلة في ديوان الأمير المقطع [1].

وبالنسبة لإستخراج الضريبة فكانت سنوية سواء زادت الغلة أو نقصت [2] على أساس المقاسمة بالمناصفة والمثالثة والمرابعة في أراضي السقي ببلاد الشام، ويؤخذ الخمس والسدس في المزارع والنواحي الخالية من السكان والتي يزرعها المستكرون بالأجرة، ويأخذ السبع والثمن في الأراضي الساحلية على حدود العدو[3]

أما الأرض المفصولة أو المضمنة [4] في الضياع الإقطاعية في بلاد الشام المملوكية فكان عليها دفع الضريبة المقررة أو المقطوعة التي تُحَصّلُ عند نضج المحصول زادت الغلة أو نقصت دون مقاسمة أو توكيل.

وكان هذا النمط معروفاًفي سواحل بلاد الشام أيام الفرنجة واستمر بعد تحريرها [5] كميناء عكا في مملكة صفد حيث كان يضمنه بخمسين ألف درهم سنوياً [6]

ويتضح لنا مما سبق أن الضرائب التي كان يدفعها الفلاحون على نوعين :

الأولى - **ضرائب الفصل** " الثابته سنويا على الغلال بعد الحصاد بالنسبة لأراضي الساحل السوري الفلسطيني.

والنوع الثاني : **وهو الضمان**" على القرى الواقعة في السهول الداخلية وأكثر مزروعاتها من الأشجار المثمرة [7] كأشجار الزيتون والخروب والسماق والجوز والكروم والبساتين

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى، ج3،ص454 : ديوان الأمير المقطع : هو ديوان اصاحب الإقطاع وله مباشرون يمسحون أرض البلد ويكتبون أسماء المزاعين ويكتب أصل ذلك في أوراق يضمنونها بمبلغ من المال يؤدونه عنها في كل سنة وذلك بأوراق تسمى تاريخ القبائل، ثم تجمع أسماء المزارعين بأوراق المسجل تاريخ "الأسماء" وما إشتملت عليه مساحته وفي الغالب يزيد عن أوراق المسجل ويجمع ذلك وينظم به أوراق تسمى " المكلفة" ويكتب عليها الشهود، وحاكم العمل وتحمل للديوان المقطع نسخاً.

(2) النويري :ن م، ج8، ص259.

(3) ن م، ن ص.

(4) النويري : نهاية الأرب، ج8،ص161، الفصل : هذا اللفظ " المفصولة " كلمة مشتقة من الفرنسية Vassal ومعناها التابع الذي أعطاه سيده إقطاعات نظير واجبات يؤديها، وحرفت في الشام "الفصل" حسب النطق العربي وإشتق منها لفظ مفصولة ن.م ص261.

(5) ن.م، ن ص، طرخان : النظم الإقطاعية، ص241.

(6) الطراونه : صفد، ص180 ,

(7) بولياك : الإقطاع في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف أكرم ط1،بيروت 1948م،ص72.

والمقاثي على أساس عدد الأشجار عند نضج الثمار ويسمى إخراج العين [1]

أما بالنسبة للسكر فتؤخذ ضريبته بعد عصر القصب وجفافه وكان نائب بيت المقدس يجبي من فلاحي القرى والضياع في نيابته أربعة آلاف دينار سنوياً [2] مما إعتبرها الناس مغارم ثقيلة أثقلت كاهلهم، وبالنسبة للفارق الزمني بين السنة القمرية المعتمد عليها في إستخراج الخراج، والسنة الشمسية المعتمد عليها في ضبط الزروع والثمار ومواعيد الإستحقاق، كان الموكلين بأمور الخراج يقدمون السنة الهلالية سنة كلما نقصت ثلاث وثلاثين سنة فيها [3] كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتحويل سنة 712/1312م الخراجية إلى سنة 713/1313 م [4] وبقي نظام جباية الأرض كما كان من قبل أيام لأيوبيين مع تغير يلائم طابع الدولة الحربي حيث إستغلت الدولة الأرض من الفلاحين دون وسيط كالضمان والمتقبلين فزاد عدد موظفي الخراج [5] مع إعتماد السنة الشمسية[6]. وبالنسبة لضريبة العُشر فهي زكاة المسلم عن ثماره ومحاصيله [7] ويقدر العشر الموظف المسؤول وخبرة أهل المصلحة ويعاد التقدير عند البيدر " الجرن" لمنع تلاعب الأمير المملوكي الإقطاعي بمحصوله، وتستوفي مرة واحدة في السنةوكانت تتراوح بين العشر والنصف فكانت النصف في الأراضي المروية ويكتفي بالربع أو الثلث، أما الأراضي القريبة من البدو أو قرصان البحر فيؤخذ السبع أو الثمن ودلك لتعرضها للنهب والسلب.

---

[1] النويري : م.س، ج8، ص260 ، 261، Cohen, Population P. 54.

[2] المقريزي : السلوك، ج4، ق2، ص584.

[3] القلقشندي: صبح الاعشى،ج2، ص54، المقريزي : السلوك : ج1، ص273.

[4] إبن إياس: م س، ج1، ق1، ص444.

[5] المقريزي : الخطط، ج1، ص143 -144.

[6] ن م،ج2،ق1،ص39، كالماسح (القياسين) القياسي ومعهم الشهود العدول الدين يشهدوا القياسات ومعهم " قاضي العمل " الدي يعمل حكماً يرضيهم، والكُتاب الدين يحصون الأراضي المزروعة على أوراق تسمى "القنداق" وتجمع في أوراق تسمى "المكفلة" والشاد: الدي يشرف على جباية الخراج والجنود المرافقين للجابي، والكيالين والشيالين.

والنواتية : الدين يحملون الغلال إلى القاهرة والكشاف ويرأس هؤلاء جميعاً كاشف الكُشاف وهم يشرفون على أحوال الأراضي والجسور ماجد : دولة المماليك ، ج1،ص71-72.

[7] النويري :ن م، ج8 ص258-259.

أما الضرائب المبتدعة خلال العصر المملوكي: فكانت المستمرة والمؤقتة بهدف الحصول على الأموال بطرق غير مشروعة ومن أهمها :-

ضريبة المشاهرة أو الهلالية :لأنها كانت تُحصل في بداية كل شهر على المراعي، ومزارع قصب السكر، ومصائد الأسماك والأفران والرحى والطواحين التي تديرها الأبقار والعقارات "الأملاك المسقفة" (1) وتحصل من إقطاع الأمراء لصالحهم (2) وقد عرفت عند المماليك باسم "الموجب" (3) والحقوق السلطانية ورسوم الولاية، و المعاملات الديوانية " مما يدل على أنها كانت تفرض على كل شيء في أنحاء البلاد كلها (4) حتى وصفت بأنها شملت كل شيء حتى الهواء (5) ومن أمثلة هذه الضريبة في جنوب بلاد الشام ضريبة الأسماك على مصائد الأسماك في بحيرة طبريا شهرياً يحددها الجابي،(6) ومنها **ضريبة أقصاب السكر** في مملكة صفد المملوكية (7) **ومنها ضريبة المراعي** :في أراضي الدولة المخصصة لرعي المواشي والأغنام والماعز وكان الموظف المختص لجمعها شهرياً يسمى "عداد الغنم " الذي يستعين بعدد من الشهود والكتبة لعد الأغنام حيث تحصل عن كل رأس مقابل رعي مواشيهم في مراعي الدولة (8) وكان لبلاد الشام موظف خاص لجباية هذه الضريبة يسمى **"شاد الأغنام"** (9)

---

(1) النويري :م س، ج8، ص228، 271، أبو المحاسن م.س، ج9، ص49 /وابن كثير : م.س. ج8،ص228 Cohen Ibid Pouplation.Ibid P.646.

(2) إبن إياس : م س، ج1،ق1، ص536، القلقشندي: م س،ج3،ص467.المقريزي : السلوك،ج1، ق1، ص166.

(3) إبن إياس :م.س، ج3، ص15.

(4) المقريزي : ن م، ج1،ق2، ص384.

(5) ماجد عبد المنعم : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج1،ط2 مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1979. ص73.

(6) النويري : ن م، ج8، ص262-263، العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط1، "الشركة المتحدة للطباعة، سوريا، 1982 م.

(7) قانون نامه آل عثمان، ترجمة خليل ساحوري، مجلة الأبحاث، الجامعة الأردنية 1986، م13، ع3،ص164 / فقد أشار المسح العثماني إلى وجود هذه الضريبة على هذه المرافق، حيث أشارت إلى مجموع ما يحصل منها أيضاً.

(8) النويري :ن.م : ج8، ص262، الطراونه مملكة صفد، ص183.

(9) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج2، ص251.هذا فقد أشارت نتائج المسح العثماني وجود هذه الضريبة أيام المماليك حيث أشير إليها برسم حق المراعي وأحياناً "يرسم الربع" اذ تؤخذ شاه واحدة من كل ثلاثمائة رأس، وذلك مقابل إستخدام قطعانهم لمراعي الدولة. قانون نامة : ن م ص154.
البخيت، محمد عدنان "ناحية بني كنانه شمال الأردن في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي، منشورات الجامعة الأردنية :عمان1984 م ص11.

وضريبة صدقات المواشي : أي زكاة المواشي والتي كانت تعرف "بالعداد" [1] وقد وجدت في جنوب بلاد الشام كمملكة صفد[2] إذ وجدت وظيفة " عداد الأغنام والمواشي" فقد كانت واجبات الأمراء العرب تجاه الدولة المملوكية مساعدة موظفي الدولة في جميع زكاة المواشي من العرب [3]

وضريبة القدوم والمباشرة : التي تجبى من الناس للوالي الجديد القادم إلى بلاد الشام وضريبة المباشرة عندما يباشر عمله [4]

ضريبة الضيافة ورسم الأعياد والخميس[5]

- وهي سخرة إقطاعية يدفعها الفلاح شهرياً لصاحب الإقطاع "كالضيافة والهدايا" من منتجات الريف كالغلال والبرسيم والخراف والدجاج والكعك والكشك وغيرها ودلك عندما ينزل صاحب الإقطاع مع أتباعه في إحدى قرى إقطاعاته وكانت تسمى ببلاد الشام

---

(1) العَداد : زكاة مفروضة للسلطان على مواشي وأغنام القبائل العربية والتركمانية مند أيام الأيوبيين. ويدكر النويري : أنها كانت من أموال الهلالي بالشام ويعرف المشرف عليها بإسم "المسند" ويساعده شهود وكُتاب لعد الأغنام وأخد ضريبة معينه عن كل رأس بحسب ضريبة المنطقة وعاداتها :

النويري :م س، ج8،ص262. وأنظر القلقشندي،م س، ج2، ص130.

والمقريزي : السلوك، ج1، ق2، ص481.

(2) الطراونه :م س، ص184، خرابشة : سليمان عبد الله "مملكة طرابلس في العهد المملوكي " رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان 1989 م (غير منشورة)

(3) إبن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت 807 /1405) تاريخ إبن الفرات ج7، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية -بيروت، 1938 م، ص179، والحياري، مصطفى : الإمارة الطائية في بلاد الشام ط1، وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1977، ص93 .

Ziadeh : Nicola, Urban life in syria under the Early Manluk's Greenwoods, press, Beirut, 1953.P.34.

(4) إبن الصيرفي، الخطيب الجوهري على بن داوود، (ت 900/1494) "نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ؟ تحقيق حسن حبشي، ج1، مصر 1970-1971. ص211.

(5) النويري :ن م، ج8،ص162، طرخان "النظم الإقطاعية "، ص80، 250.

د. عوانهة : بيت المقدس، ص102

Rabi : Hassane " The size and value of the Igta in Egypt 564-741 AH /1169 - 1341 AD 'from studied in the Economic History of the Middle East London,1970,P.137.

"رسم الأعياد والخميس"[1] وقد أبطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذه الضريبة وادخلت ضمن عبرة الإقطاع عندما قام بالروك، ولكن هذا الإجراء لم يعف الفلاحين من أعبائها [2] ولأنه كان سيستعان بها عندما يعجز الديوان عن الوفاء بنفقة المماليك السلطانية مما أرهق الفلاحين[3].

ضريبة زكاة الدولبة أو رسم الطواحين :

وهي التي كانت تفرض على مستخدمي الدواليب (**عجلات الري وصناعة السكر**) ويمكن تسميتها بالضريبة الصناعية[4]. ومن أمثلة ذلك ما فرضه لؤلؤ الرومي المغربي الطواشي عام 732هـ/1331 في مصر وبلاد الشام وغزة والقدس وغيرها و لم تكن ثابته إذ كانت تلغى من قبل السلاطين كما فعل السلطان قلاوون عام 1280/678 لأنها ألحقت الظلم برعيته.[5]

ضريبة الزواج أو رسم العروس " دراهم النكاح"

وكانت ضريبة شخصية على الفلاح العريس من أهل الخراج ديناراً واحداً على الزوجة البكر ونصف دينار على الزوجة الثيب [6] وعند تجديد نكاح مطلقة .المسمى "برسم النكاح" [7].

---

(1) النويري : م س، ج8 ص162، طرخان ي: م س، ص250،80 : د. غوانمة : بيت المقدس ص102
Rabi, Hassaein" The Size and value of the Igta in Egypt,Ibid, p. 173

(2)، المقريزي: السلوك، ج4،ق2، ص798. طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي القاهرة – 1968 م ص250،81

(3) قانون نامة ص187

(4) المقريزي : ن م، ج1، ق3، ص664 هامش 1، الصباغ : ليلى : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1969، ص54.المقريزي:ن م، ج2، ق6، ص347-348.

(5) ن.م ج1، ق3، ص664.

(6) السامرائي، م س، 145.

(7) الصباغ، ليلى، ن م، ص55، والبخيت: م س، ص13.

ضريبة مال الزراعة :

ضريبة فلاحة شخصية سنوية يدفعها الفلاح المسلم والذمي حسب مساحة أرضه ونوعها وحسب حالته الإجتماعية فعلى المسلم المتزوج إثني عشر أقجة وعلى الأعزب ست أقج وعلى المتزوج أو الأعزب من أهل الدمة خمس وعشرون أقجة [1]، وكانت في العصر المملوكي وإستمرت في العصر العثماني.

ضريبة المسقفات :

التي كان يدفعها الفلاح على منزله الخاص به لصاحب الأرض حتى يحق له التصرف فيه [2]، وكان بعض السلاطين يلغونها للتقرب من شعبهم كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الدي ألغى ما كان يؤخد ممن يبيع ملكاً له بنسبة 1 : 1000 أي عن كل ألف درهماً [3] وتوجد هذه الضريبة في الأردن في العصر الحاضر.

ضريبة فتوح البيدر وعادة الدورة [4]

كانت تجبي من فلاحي القرى عند رجد المحصول وفتح البيدر.

---

(1) الأقجة : أصغر وحدة نقد مسكوكة من الفضة لدى الدولة العثمانية سكت في عهد أورخان بن عثمان : البخيت : بني كنانة، ص9، هامش 11.

(2) الصباغ : المجتمع السوري، ص55.

(3) إبن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص486.

(4) ورد دكرها في دفاتر التحرير العثمانية على أنها من رسوم الدولة المملوكية أنظر " البخيت " : بني كنانه، ص11، 13-14 نقلاً عن دفاتر التحرير العثمانيه رقم 263 وقد دكر " وجاء في قانون نامة ما نصه " وقد صدر الفرمان برفع ما كان يجبى من الولاية المدكورة من البدع السيئة كمعادة الدورة، والحماية، والمباشرية، وفتوح البيدر، ورسم الحصاد، والعادة الرجادية، إدا سمحت العواطف السلطانية برفعها جميعاً ".

ضريبة الطرح والرمي [5]

لقد طبقها سلاطين المماليك في بلاد الشام ،وإستخدم الأمراء والحكام المحليون والموظفون الطرح لزيادة ثرواتهم الخاصة حيث أصبح الطرح فيما بعد ظاهرة إقتصادية عامة مفروضة على المجتمع، إذ سيطر هؤلاء جميعاً على الأسواق الموسمية المحلية بما فيها من بضائع مستوردة كالأمير طرنطاي نائب دمشق الدي أمر أكابر دمشق عام 688هـ/1289 بدفع غلة سنة من أملاك الدولة [1] وحصل بيبرس كدلك على غلة سنة من كافة أنحاء الدولة [1] وكانت الدولة تضطر أحياناً تحت ضغط الشعب وثورته إلى إلغاء طرح القمح الغذاء الرئيسي، كما حدث عام 799هـ/1396 عندما إرتفعت الأسعار لكثرة طرح، ابن النشو للغلال والأصناف فقتلته العامة لاحتكارة الغلال [2] وإعفاء السلاطين للفلاحين من العديد من الرمايات التي كانت تثقل كاهلهم كما فعل المظفر حاجي عام 747هـ/1346 حيث أعفى النواحي من المغارم ورماية الشعير والبرسيم [3] وكان قصب السكر من الحاصيل التي احتكر سلاطين المماليك وأمراؤهم زراعته، وأنشأوا المعامل الخاصة بهم لتكريرة واستخراج السكر لطرحة على الناس بواسطة السماسرة مما أدى لارتفاع أسعاره في بلاد الشام وكدلك كما كان الزيت والصابون من الأصناف التي خضعت للطرح المملوكي في جبال نابلس والقدس [4]

---

(1) المقريزي : السلوك، ج3،ق3، ص1005،، ابن طولون تاريخ المزة ص47-48. وإبن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج2، ص29.

(2) المقريزي : ن م، ج1 ق2، ص481، إبن طولون : مفاكهة الخلان، ج1، ص41-42.

(3) أبو المحاسن :م س، ج15، ص150.

(4) المقريزي :ن.م، ج3،ق2، ص984 وللمزيد من المعلومات أنظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص280، والعليمي الحنبلي : الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد ت928 هـ/1522 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2 دار الجيل، بيروت 1973، ص365 - 366.

(5) الطرح : بمعناها اللغوي : الرمي بالشيئ لعدم الحاجة إليه، ولكن إختلف فهمه من قطر لآخر : المعجم الوسيط، ج2، ص553.

ومن الضرائب الظالمة التي كانت تفرض بين الحين والآخر :

ضريبة العوارض : وهي التي كان يأخذها السلطان سنوياً من البيوت في بلاد الشام ويعتقد أن الظاهر بيبرس هو الذي أحدثها حيث كان من أكثر السلاطين مصادرة لأموال الرعية لصرفها في حملاته الحربية، حيث كان يضطر لجبي جبايتين في السنة وفي وقت واحد مما عرف " **بالعوارض** " من السنة الجديدة والسنة القديمة [1]

وكما فرض السلطان قلاوون عام 689 هـ/1290 ضريبة عارضه على ضياع المرج وغوطة دمشق تقدر مابين الفين الى خمسماية درهم على كل رجل ودلك لمواجهة الفرنجة في عكا الدين تعرضوا لجيش المسلمين بقيادة الأمير سنقر المساح عندما نزل اللجون [2] فكان الناس في هذه الأحوال يدفعونها عن رضى للدفاع عن بلادهم كما حدث عام 700هـ/1300 عندما وردت الأخبار عن عودة المغول إلى الشام ففرض على أغنياء مصر والشام ثلث أموالهم لدعم الجيش على الرغم من جباية الدولة في تلك السنة من الأموال الكثيرة التي تسببَ في خراب الغوطة إذ أخذوا من أموال كل قرية ثلث ضمانها وأورد شعر الأكرمي في ضريبة العوارض في العصر المملوكي بقوله[3]:

لحا الله أيام العوارض إنها   هموم ولرؤياها تشيب العوارضُ
يضيق لها صدري فإني لشاعرٌ   ضليعٌ وبيتي ما عليه عوارضُ

ضريبة الجرائم الغليظة "الجنايات"

وهي من ضرائب سلاطين المماليك المبتدعة على الفلاحين كما حدث عام 688/1289 عندما فرض الظاهر بيبرس على الفلاحين من سكان الساحل ضريبة سماها "جنايات" بحجة التعويض عن ديات من قتل وليس له وارث أو عما نهبوه من مال جُهل مالكهُ كعقوبة على بلاد نابلس وبلاد الساحل ليكسر شوكة أهل الفساد والعبث الدين عاثوا فساداً في تلك المنطقة وتعاونهم مع الفرنجة هناك بنقل الأخبار لهم [4]

---

[1] كرد محمد علي: غوطة دمشق، ط2، مطبعة الترقي، دمشق، 1952 ص135 - 136.

[2] المقريزي : السلوك، ج1، ق3، ص754.

[3] المقريزي ن م، ج1 ق3، ص907.

[4] المقريزي : ن م، ج4، ق1، ص33.

ضريبة مكس الأقوات :

وهي الضريبة المفروضةعلى مبيعات الأقوات بما يعادل ثلاثة دراهم ونصف على الغرارة، و لم تكن ثابته بل كانت تزيد وتنقص تبعاً للغلاء والجفاف أو الخصب، كما حدث عام 724 هـ/1323 في بلاد الشام إذ كان الغلاء شديداً في بلاد الشام فأسقط السلطان مكس الأقوات، كما أسقطت هذه الضريبة أيضاً عام 742هـ/1341 [1].

ضريبة رسم المقايضات والنزولات في الإقطاعات :

وهي الرسوم المستوفاه عند صدور منشور الإقطاع لديوان الجيش فكانوا يأخدون عشرين درهماً في كل منشور مما أثقل كاهل الفلاحين، فأمر السلطان الملك الصالح صالح بن محمد قلاوون عام 654هـ/1256 بإلغاء المقايضات والنزولات في الإقطاعات [2]

ضريبة مستغلات العربان :

وهي الضريبة المستحقة على غلات البادية من أرض وعقار وسوق، وحانوت، وطاحون [3].

وضريبة غلة الساحل : ومقدارها ثلاثة دراهم من ثمن الغرارة.[4] فألغاها السلطان الناصر محمد بن قلاوون 724هـ/1323م لنقلها على الفلاحين لأنهم كانوا يدفعون ضريبة على القمح والخضار والقلقاس والجبن في كل من بيت المقدس وغزة [5] ، الغفارة أو الخاوة وهي التي يدفعها الفلاح للأشرار والأقوياء مقابل عدم الإعتداء على محاصيله[6].

---

[1] أبو الفداء : المختصر ، ج4، ص92، أبو الفلاح : شذرات الذهب، ج6 ن ص62.

[2] الملك الصالح : حكم ما بين 752-755 /1351-1354

المقريزي : السلوك، ج2، ق3، ص890 - 891.

[3] دهمان، محمد أحمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق 1990، ص138

[4] الغرارة : مكيال الحنطة في دمشق ومقدارها 12 كيلاً أو 72 مداً دمشقياً وعن العمري : إن الغرارة تساوي نصف غرارة من غرائر دمشق أي حوالي 5، 397 لتراً في أواخر العصور الوسطى (هنس فالتز : المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية عمان 1970 ص 64.

[5] إبن الشحنه : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص51.

[6] دهمان ن م، ص115.

ضريبة التصقيع والتقويم :

وهي التي يدفعها الفلاح من أجرة على ممتلكاته شهرياً وسنوياً،بأن تُقَوّم الدار ويدفع عن كل دينار درهماً عند أخد أجرة شهرين عن الأملاك [1]وسادت أنحاء بلاد الشام كلها[2].

ضريبة القمح :

ومقدارها خمسة دراهم عن كل إردب [3] وقد ألغاها السلطان الأشرف خليل لكسب ولاء الخاصة والعامة له [4]. وجباية حب الرمان المفضل عند السلاطين والمفروض على الأهالي كما حدث عام 700 هـ/1300م حيث بلغ المتأخر منه على أهالي بلاد الشام ألفاً وستمائة رطلٍ [5].

أما الضرائب المكروهة والمحرم بعضها شرعاً عند المماليك فكانت مقرر السجون [6] ورسوم الولاية [7]، ونصف السمسرة [8]، ومكس الساحل [9]، ومقرر طرح الفراريج [10]، وضمان المغاني والأفراح [11] وضمان البغايا "بيوت الدعارة" المحرمة شرعاً [12] وقد قاسى الناس من

---

(1) إبن عبد الظاهر : الروض الزاهر. ص27.

(2) أبو الفداء : تقويم البلدان، ص249.

(3) الإردب : مكيال سعته أربع وعشرون صاعاً لمعرفة المزيد من المعلومات عن ذلك انظر: المقريزي : النفود الإسلامية تحقيق محمد علي بحر العلوم، بغداد، 1967..

(4) إبن إياس : م س، ج1، ق2، ص366 - 367.

(5) الباشا: الفنون الإسلامية، ج2، ص825.

(6) وهو ما يدفعه السجين لمسؤول السجن عند دخوله السجن بمقدار ستة دراهم ولو أفرج عنه بعد ساعة من سجنه وقد كثر من يرغب بضمانه لكثرة ما يحصل منه : المقريزي : الخطط ج1، ص143 -144.

والسلوك ج2، ص151 - 152 وابو المحاسن : النجوم ج9، ص 46

(7) رسوم الولاية وهو مبلغ يجمعه الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الدعارة وقد ألغاه بعض السلاطين الأتقياء : إبن إياس، ن.م ج3، ص197. المقريزي : الخطط ج1،ص143،السلوك : ج2 ص151، وأبو المحاسن :ن م، ج9، ص46.

(8) أحدثه والي القاهرة زمن السلطان الناصر اذ كان يأخد درهماً "دلالة" عن كل مائة درهم من حاصل البيع في الأسواق بحيث يرسل درهماً منها للسلطان ويبقى له درهم، أبو المحاسن، ن.م ، ج9، ص45-46.

(9) مكس ساحل الغلة : مبلغ مقرر على ما يباع من الغلال بنسبة درهمين للسلطان عن كل إردب في مكان جمع الغلة "خص الكيالة" الدي يجلس فيه الموظفون والجنود للتحصيل. المقريزي: الخطط،ج1،ص143،وابو المحاسن،ن م،ج9 ص42 -45،والمقريزي: السلوك،ج2،ص150.

(10) الضريبة التي تفرض على بيع الفراخ في الأسواق : إبن إياس :ن م،ج1،ص216.

(11) مبلغ يفرض على النساء اللاتي يقمن بالغناء في بيوت الناس وقت الأفراح في الأعراس والختان / ابن إياس : ن.م ج1، ص230.

(12) وهو حقوق القينات: أي المبالغ التي المجموعة من خانات القاهرة الخاصة بالدعارة من الجواري والعبيد / المقريزي، خطط ج1 -، ص142 -144.

هذه الضرائب فكانت بلاءً شديداً لظلمهـا وعـدم شرعيتها مما حـط ببعـض السـلاطين إلى إلغائها عندما زاد تدمر الناس كالظاهر بيبرس والناصر محمد قلاوون.

موقف الفلاحين الشاميين من الضرائب في العصر المملوكي :

لقد عانى الفلاح الشامي كثيراً في العصـر المملوكـي لكـثرة الضرائـب الـتي أثقلـت كاهله، فعّبر البعض عن استيائهم بالفرار مـن أراضيهـم الزراعيـة، أو بالتعبـير عـن سـخطهم بالتذمر العلني أو التمرد ورفضهم الدفع وأحياناً يصل التذمر إلى الحاق الأذى بموظفـي طـرح الضرائب برجمهم بالحجارة أو حتـى قتلهـم ودلـك بعـد فشـل العلمـاء في إقنـاق السـلاطين لتخفيف الأذى الإقتصادي الإستغلالي غير الشرعي الدي سـاد النيابـات المختلفـة في الدولـة المملوكية، وأدى لكساد الزراعة وترك الفلاحين لأراضيهم.(1)

كما تفاقمت معاناة الناس نتيجة لإرتفاع الأسعار، ممـا كـان يدفـع بعـض السـلاطين لإلغـاء بعض الضرائب الزراعية كما حدث عام 696هـ/1268م عند أمر السلطان لاجين بمسامحة أهـل النواحي بما عليهم من بواقي الخراج المتكررة ودلك عندما بلغ ثمن إردب القمـح مـن 40-50 درهماً، وإردب الشعير 30 درهماً (2)، وكما فعـل السـلطان النـاصر محمـد بـن قـلاوون عـام 714هـ /1314م عندما أمر بإلغاء البواقـي في البـلاد الشـامية فتضـرع النـاس بالدعـاء (3) بعـد إعفائهم أيضاً من السخرة وإلغاء ضريبة الأقصاب (4) وألغـى كدلـك ضريبـة مكـوس سـاحل الغلة بالشام عام 724 هـ/1323 (5) وكما أسقط السلطان السعيد عام 677هـ/1278م مـا فرضـه والده على بساتين أهل دمشق (6) وإبطال الأمير سيف الدين أقطاي

---

(1) المقريزي : السلوك، ج4، ق2، ص584.

(2) المقريزي : ن م، ج1، ق1، ص830. وأبو المحاسن :م.س ، ج8، ص11.

(3) إبن حبيب، الحسن بن عمر ت (779/1377 : تدكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ج2، تحقيق محمد أمين وسعيد عبد الفتـاح عاشـور، القاهرة 1976 -1982، ج2، ص58 / المقريزي : ن م، ج2 ق1، ص136 - 137.

(4) المقريزي : ن م، ق3، ص759.

(5) كان مقدار مكوس ساحل الغلة بالشام ثلاثة دراهم عن كل غرارة وكان هذا المكس كل متحصـل الديـوان وعليه إقطاعـات الأمـراء والأخبار ومقداه 600،401 درهماً سنويا وعلية 400 مُقطع لكل منهم من 3000-10000 درهم ولكل أمير من 10000-40000. إبن كثير، م.س،ج3، ص296 / أبو الفداء : المختصر، ج4، ص92 / وإبن طولون : رسائل تاريخية ص20.

(6) إبن كثير :ن.م ، ج1، ص296.

نائب حلب عام 745هـ/1344 ضريبة الرمي عن الفلاحين ورخصَ الأسعار ومنع الخمور والفجور [1] وما قام به الأشرف خليل عام 689هـ/1290 عندما أبطل عدة حوادث في بلاد الشام وسامح بالمتأخر من البواقي [2]. وبالنسبة لدور العلماء والفقهاء من هذه الضرائب الظالمة بإعتبارهم ممثلين للطبقات الإجتماعية فكانوا يكتبون بدلك للسلطان أو يقابلونه لنقل شكوى الناس لإقناعه بإبطال المظالم أو التخفيف منها. كما فعل الشيخ محي الدين النووي عندما قابل الظاهر بيبرس لفرضه ضرائب كثيرة على أهل دمشق لمواجهة الأعداء، وكَلّمه بكلام خشن بينما رد عليه السلطان بلطف ووعده بإبطال هذه الضرائب بعد النصر على العدو. ولكنه أخلف الوعد بعد النصر وفرض مائتي ألف درهم على مدينة دمشق وعلى ضواحيها ثلاثمائة ألف درهم وعلى البلاد القبلية" جنوب بلاد الشام" تكملة ألف ومات السلطان عند إكمال جباية نصف المال [3] وكما فعل الشيخ أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي ت 762هـ/ 1361م من قرية حبراص في شمال الأردن حيث أبطل عدة مكوس ومظالم وكان جريئاً في مخاطبته للسلاطين وكان يخاطب بعض الحرافيش [4]

وهكذا نلاحظ أن الدولة المملوكية لم تُلَبِّ رغبات الرعية ومطالب الفقهاء بإستمرار إلا في بعض الأحيان واثناء الظروف الحرجة عند خراب الديار وإهمال المزروعات لفرار الفلاحين من أراضيهم كي يعودوا إليها لعدم إمكانية الإستغناء عن خدماتهم. كما يلاحظ معاناة الفلاح الشامي من ظلم المماليك واضطراره للتهرب من دفع الضرائب الكثيرة عن أرضه بوقفها على الأماكن المقدسة في بيت المقدس [5] التي كانت معفاة من الضرائب [6]. أو تركها دون زراعة والفرار إلى المدن حيث سكنوا في أحياء فقيرة وشكلوا طبقة فقيرة إمتهنت السرقة و قطع الطرق فسموا بالزعر أو الحرافيش أو الاوباش أو بهروبه إلى الصحراء أو إلى الكهوف القريبة من الماء.

---

[1] أبو الفداء : ن.م، ج4، ص144.

[2] المقريزي : السلوك ج1 ق3، ص759. وحوادث : جمع حدث وهي المكوس التي لا تستند إلى قانون شرعي/ المقريزي، ن م، ن ص حاشية 1.

[3] النويري : م.س، ج3، ص362 -363.

[4] أبو المحاسن : م.س، ج11، ص12، د. غوانمة : التاريخ الحضاري، ص128.

[5] إبن إياس : م.س،ج1، ق2، ص366 -367.

[6] Cohen "population" P. 16

فكان لذلك كله إنعكاس سلبي على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية مما أدى للتراجع و التاخر في مناحي الحياة العامة و أدى لثورة العامة إذ تكونت قناعات شعبية بانه لابد من اسقاط هذا النظام المملوكي الجائر بمغارمه الظالمة التي أثقلت كاهل الشعب، فكان ذلك من أسباب ضعف و سقوط المماليك لعدم وضعهم الحلول الاقتصادية الناجحة ولجوئهم الى الإجراءات المؤقتة برفع بعض الضرائب ثم إعادتها بأسعار باهضة على الفلاحين الدين يشكلون غالبية سكان المجتمع الشامي، الدي تميز بشكل عام بالنظام الإقطاعي الظالم الذي جعل من الفلاحين طبقة فقيرة مسحوقة لكثرة الضرائب ولوجودها داخل النظام الإقطاعي العسكري الدكتاتوري الظالم الدي حول معنى الإقطاع في بلاد الشام إلى معنى "رق الأرض" والفلاح الشامي عبداً قناً لا تابعاً [1] لسيده الإقطاعي الدي حرمه من حقوقه وجلده بالسوط وسجنه أو أمر بقتله [2] إذا غادر الأرض قبل ثلاث سنوات وبدلك فقد الفلاح الشامي إستقلاليته وحريته. فصنفهم المقريزي في المرتبة الرابعة من فئات المجتمع [3] بالإضافة إلى فقد كرامته وشرفه وعرضه لإعتداء عساكر المماليك على نسائهم [4] فبلغ من سوء حالهم إزدراء نظرة المجتمع لهم مما جعلهم مضرباً للأمثال فقيل " **ما انت إلا من العوام ولو كنت إبن عبد السلام** " [5] كما كان المماليك يكرهون وصول رجل من الأرياف إلى بعض الوظائف بقولهم " أما كان في مماليك السلطان من يعتمد عليه إلا هذا الفلاح [6]

---

[1] المقريزي : الخطط، ج1، ص175.

[2] بولياك :م س، ترجمة عاطف أكرم بيروت 1948 ص174.

[3] المقريزي : إغاثة الأمة ص75.

[4] السبكي : معيد النعم ، ص33، ص250 وإبن كثير :م.س ج14، م7، ص256.
ولابيدوس: مدن إسلامية في العصر المملوكي، ترجمة علي ماضي، بيروت،1987.ص250

[5] انظر إبن كثير :ن.م، ج13، ص248-249.

[6] مكاحلة، نهى محمد حسين : م س، ص245.
وجبران، نعمان محمود : مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول، رسالة ماجستير الجامعة الأردنية، عمان 1981 (غير منشورة) ص195. دكر عن المعز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، الشافعي المدهب، خروجه من الشام لإنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والشقف إلى الفرنجة فسار إلى الملك الصالح أيوب في مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وتوفي 660هـ/1262م ودفن بسفح المقطم.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

أولاً : الأصول السكانية
ثانياً : الطباقات الاجتماعية
ثالثاً : الملابس
رابعاً : العادات والتقاليد

أولاً : فضائل الشام والأصول السكانية:

فضائل بلاد الشام في القرآن الكريم:

قال تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير"[1].

وقوله تعالى في قصة ابراهيم: "وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين"[2]. ومن المعروف بأن الله نجّى ابراهيم ولوطاً بذهابهما من أرض الجزيرة والعراق الى أرض الشام.

وقوله تعالى: "ولسليمان الريحَ عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين"[3]. وكانت الريح تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

وقوله تعالى في قصة سبأ: "وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين"[4]. وهو ما كان بين اليمن من مساكن سبأ، وبين قرى الشام من العمارة القديمة كما ذكره العلماء. وفيها الطور الذي كلم الله عليه موسى[5] والذي اقسم الله به في سورة الطور[6]"والتين والزيتون وطور سنين"[7]. وهكذا نستخلص من هذه الآيات الكريمة فضائل الشام حيث ذكر الله أرض الشام في هجرة ابراهيم اليها ومسرى الرسول الكريم، ومملكة سليمان بها ومسير ملكة سبأ اليها ووصفها بأنها الأرض المباركة واليها المحشر والميعاد.

وبالنسبة لفضائل بلاد الشام في الأحاديث النبوية الشريفة فقد روى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني عن زيد بن ثابت الانصاري رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلى الله

---

(1) سورة الاسراء، آية 1.

(2) سورة الأنبياء، آية 70-71.

(3) سورة الأنبياء، آية 81

(4) سورة سبأ، آية 18.

(5) اشارة لقوله تعالى: "وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا" سورة مريم، آية 52.

(6) سورة الطور، آية 1.

(7) سورة التين، الآيتان 1-2.

عليه وسلم يقول: يا طوبى للشام يا طوبى للشام يا طوبى للشام" قالوا يا رسول الله وبم ذلك قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام"[1].

ورى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشام أرض المحشر والمنشر"[2]. وعن معاوية بن قره عن ابيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"[3].

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ستخرج نار في آخر الزمان من حضرموت تحشر الناس، قلنا فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال : عليكم بالشام".[4]

الأصول السكانية :

لقد أدت حالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لجنوبي بلاد الشام خلال العهود التاريخية، الى فراغ سكاني وهجرات متعاكسة بحثاً عن الأمن والسلام والرزق أو الاستيطان الأجنبي وكان الكنعانيون أول من نزل فلسطين في جنوبي بلاد الشام حوالي 3000ق.م. وخاصة منطقة الخليل، ثم شهدت موجة أمورية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد جاءت من بلاد الرافدين[5].

وتوالت الهجرات الأجنبية فقبل الميلاد بحوالي ألف عام هاجر الفلسطينيون من جزيرة كريت وسكنوا فلسطين، وفي العصر البابلي حدثت هجرة معاكسة حيث أفرغ نبوخذ نصر الثاني

---

(1) استخرجه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني من كتاب الحافظ أبي الحسن الربيعي (ت444هـ) وقام بطبعه المجمع العلمي بدمشق عام 1370هـ/1950م وأخرجه الترمذي (جـ2، ص331 طبع بولاق وقال : حديث حسن وزاد في بعض النسخ صحيح، وأحمد في المسند، جـ5، ص184.

(2) أخرجه الإمام أحمد، ص257، وابن ماجه، جـ1، ص429، 430 من أحاديثميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال : "أرض المحشر والمنتشر".

(3) مسند الطيالسي، ص145، رقم 107، وقال الترمذي " حديث حسن صحيح" ج2، ص30. وأخرجه أحمد، ج3، ص436، جـ5، ص35.

(4) حديث صحيح، أخرجه أحمد، ج2، ص8، 53، 69، 99، 119. ورواه ابن عساكر، جـ1، ص75، 76، 77.

(5) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج5، ق2، ص284.

فلسطين من اليهود بسببهم الى بابل حتى أرجعهم قورش الفارسي ثم أهلكهم وقضى عليهم تيطس الروماني سنة 70م. وبقيت تحت حكم الرومان حتى الفتوحات الاسلامية الى حدوث الهجرة الصليبية الشرسة التي أحدثت خللاً في المجتمع العربي .

وبالنسبة لأصول القبائل العربية في بلاد الشام فقد أرجع المؤرخون أصول القبائل العربية في بلاد الشام إلى اليمن وخاصة في أطراف الشام وباديتها والمناطق المجاورة لها حيث انتشرت على شكل هلال يمتد من جنوب بلاد الشام الى الشمال الغربي والشمال وذلك منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي[1]، فقد استقرت قبائل قضاعة في جهة البلقاء وجنوبي شرقي الأردن. ولخم وجذام في جنوبي الأردن وفلسطين، وغسان في منطقة دمشق وحوران وقبيلة كلب في تدمر والجنوب الشرقي من بلاد الشام[2]، أما قبيلة تغلب فاستقرت في الجزيرة الفراتية[3] وربيعة الى الشمال الشرقي منها[4].واستمرت هجرة القبائل اليمنية من حميد وهمدان ومذحج والأزد وطيء الى بلاد الشام أيام الفتح الاسلامي بعد معركة اليرموك، ولحقت بها قبائل قيسية من البوادي[5]، مما ساهم في ارسال قوات لفتح مصر والجزيرة وتجدر الإشارة الى قيس وأكثرهم بنو مرة في الجولان. وكانت مركز التجمع الأول للمقاتلين في الجابية من حوران على أطراف بادية الشام الجنوبية ويذكر البلاذري أن بعض القبائل اليمنية كتنوخ وطيء في الشام قد اسلمت بعد الفتح[6] وطالبوا بالعطاء كالجند الفاتحين[7] بينما بقي البعض على دينه كقبيلة سليم[8]. كما حتمت الظروف العسكرية ومناطق توطين القبائل اتخاذ الأجناد (مراكز رئيسية للمقاتلة)، ثم تطورت الأجناد الى مراكز إدارية وجغرافية مع

---

(1) الدورّي: العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام: ص25 "مقالة للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام في عمان المنعقد في 28ربيع أول - 3 ربيع الثاني1394هـ/ 20 نيسان 1974م يذكر الدكتور الدوري: انهم عبروا الى بلاد الشام من جنوب غرب وشمال غرب بادية الشام.

(2) ابن عساكر: تهذيب ابن عساكر، ج1، ص175، البلاذري فتوح البلدان ص145، ابن العديم: م س، جـ1، ص26-30.

(3) بين نهر الفرات وفرعه الخابور: البلاذري: فتوح البلدان، ص182.

(4) ن.م. ص245.

(5) البلاذري: فتوح البلدان ، ص150-151. أ.د. عبد الكريم غرايبة ورفاقه: المؤتمر الدولي لبلاد الشام، ص25،

(6) ن م، ص131، 138.

(7) ابن عساكر: ن م، جـ1، ص175.

(8) د. الدورّي: ن م، ص26.

ملاحظة سيطرة مجموعة قبلية في بعض الأجناد[1] مع وضع حاميات في المدن الساحلية وتوطينها أيام الخليفتين عمر وعثمان بمنح الأراضي لهذه الحاميات[2]. حتى جاء العهد الأموي إذ استقر توزيع القبائل وبالنسبة لجنوبي بلاد الشام فقد استقرت فيه قبائل قضاعة (كلب) وهمدان وغسان ومذحج، وخثعم والتي شكلت جند الأردن حيث كانت قضاعة هي الغالبية في الأردن والبلقاء[3]. كما استقرت في فلسطين قبائل لخم وجذام وكنانة وقيس وعاملة وكندة وبلقين وبعض من قبيلة كلب[4].وبالنسبة لقبائل شرقي الأردن، فقد برزت امة عربية في قلب الصحراء بعد عام 628م بعد انتصار هرقل الرومي على الفرس في معركة نينوى 627م، وفي عام 106م تقرب الرومان الى بدو الصحراء عن طريق المعاهدات والمال وذلك بعد ضعف وتمزق مملكة الأنباط[5].

وكانت تنوخ (من قضاعة) أول القبئل العربية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية غرباً حوالي عام 230م ونزلت على تخوم الرومان هرباً من الفرس الذين كانوا يضطهدون البدو فكانت أول قبيلة عربية تحالف الرومان[6].

ثم نزلت مراعي مؤاب والبلقاء الخصبة واعترف الرومان بسيادة التنوخيين حتى ظهور الغساسنة في سوريا وشرقي الأردن في أوائل القرن الرابع الميلادي[7] : عندما تحالف الرومان معهم بعد تحالف الفرس من قبائل المناذرة العربية. إذ استمر الطرفان من هؤلاء الأعراب في

---

(1) اليعقوبي: البلدان، جـ2، ص175، وبالنسبة للأجناد قال محمد بن جابر سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يقبضون اعطياتهم فيه، وجندت جنداً: أي جمعت جمعاً. الحموي: م س، جـ1، ص136. نشر ويستفيلد في 6 مجلدات، ليبزغ، 1866-1873م، وأجناد الشام خمسة منها جند فلسطين وجند الأردن.

(2) البلاذري: م س، جـ4، ص127، 131، 134.

(3) البلاذري: ن م، جـ4، ص128. اليعقوبي : ن م، ص327، حيث ذكر أن الغالبية على طبرية قوم من الأشعريين.

(4) البلاذري: ن م، جـ5، ص137ن 138، اليعقوبي: البلدان، ص329 حيث يشير الى استقرار جذام في كورة تحت جبر ين ورفح ص328، واضمنت اليها لخم انظر ياقوت: م س، جـ2، ص796.

(5) كلونيل فردريك: ج بيك، : تاريخ شرقي الأردن وقبائله، ترجمة بهاء الدين دوقان، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان 1934، جـ1، ص59.

(6) ن م، ص60، وذكر من ملوك العرب : النعمان بن عمرو، وعمرو بن النعمان والحواري بن عمرو.

(7) ن م، ص60 - 61، يذكر : "أن الغساسنة هم إحدى القبائل اليمنية التي هاجرت بعد انهيار سد مأرب، ونزلت على ماء في تهامة يسمى غسان فعرفوا "بالغساسنة" في أواخر القرن الثاني للميلاد وهذا يرافق رأي هوكارت Hogarth : History of Arabia.

حروبهم الطويلة واستمر الروم في تحالفهم مع الغساسنة حتى عهد هرقل الذي اسس المملكة الغسانية عام 629م. وتوج جبلة بن الأيهم ملكاً عليهم[1].

وبالنسبة لشرقي الأردن: فقد أصبحت في أواخر العصر الروماني وقبيل الفتح الاسلامي حلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب لكثرة الطرق التجارية المهمة التي تمر بها[2] وفي العهد الاسلامي شارك الرسول الكريم أيام طفولته أبو طالب في رحلات الى بلاد الشام ، وبعد هجرته الى المدينة اتصل بتجار البلقاء الذين كانوا يبيعون دقيقها وزيتها في الحجاز[3].

وبدأ الرسول الكريم بجمع المعلومات العسكرية عن قوة الروم تمهيداً لنشر الدعوة الاسلامية في بلاد الشام بعد توجيهه سرايا عسكرية الى جنوب سوريا ووادي السرحان، توجه الرسول الكريم غزوة الى الجوف أو دومة الجندل عام 625م وذلك لتأديب بدو هذه المنطقة لكثرة اعتداءاتهم على القوافل التجارية بين المدينة المنورة وسوريا وغنموا منهم كما أتبعها بحملة آخرى على قبائل بني كلب في الحجر في عام 5نوفمبر 626م بقيادة عبد الرحمن بن عوف ودخل بعضهم في الاسلام وجمع من الباقي الجزية[4].

وفي عام 6هـ/627م استشهد فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على عمان على يد الرومان بعد أن قتله الرومان لاعتناقه الاسلام وحدث أول اصطدام فعلي بين الاسلام والروم في غزوة مؤتة عام 8هـ/629م بعد مقتل حامل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى الحارث بن عمير على يد شرحبيل ابن عمرو الغساني سيد مؤتة بجوار الكرك[5].

وبقي الرسول يفتح أعين المسلمين ويستنفرهم لغزو الشام بارساله السرايا الى التخوم الرومانية شمال شبه الجزيرة العربية، حتى توجه بغزوة تبوك التي قادها بنفسه في أواخر شهر

---

(1) فردريك بك،ن م، ص56.

(2) ن م، ص66.

(3) محمد كرد علي: خطط الشام. جـ2، ص90، وفردريك بك، ن م، ص84.

(4) ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج3، ص338، ابن قتيبة: المعارف، ص182، Muir: The Life of Mohammed, P.299.

(5) ابن هشام: ن م، جـ3، ص203-208.

أيلول عام 9هـ/630م[1] واوصى بتسيير جيش اسامة بن زيد لمقاتلة الروم في آبل الزيت من مشارف الشام عام 11هـ/632م[2].

وتجدر الإشارة هنا الى أن هجرة القبائل العربية الى الشام والجزيرة كانت استيطانية حيث اعطيت القبائل المهاجرة الأراضي للزراعة والرعي كما اعطيت القبائل العربية القديمة اراضي جديدة لاعتبارات اقتصادية واستراتيجية[3]. زمن الراشدين والأمويين[4].

ويلاحظ أن بلاد الشام لم تشهد التوتر بين السلطة والقبائل على الأرض ونتاجها وذلك لنجاح سياسة الأمويين في توزيع القبائل على خمسة أجناد مع منحها الأراضي من الصوافي وغيرها. حتى أن قصور الأمويين الصحراوية كانت مراكز للاستثمار الزراعي على الحد الشرقي من بادية الشام لتوفير منشآت الري حولها، كما تعود أهميتها لقربها من مراكز أجناد دمشق مثل (تدمر، حوران ، البلقاء) والأردن (الغور بجوار طبريا)[5]. وهكذا يلاحظ أن العرب هاجروا إلى سوريا قبل الاسلام، وأن تغلغلهم كان من طرقي البادية الجنوبي باتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي باتجاه حاضرتي حلب وقنسرين. ولكن انتشارهم بالفتوح شمل بلاد الشام كلها. وكان مجيئ القبائل توسعاً استيطانياً منذ الفترة الأولى ولم يكن مجرد غزوات بدوية فلم يضروا بالقرى والمزارع بل أن العرب اكتفوا بالتقدم الى المدن ولم يتعرضوا لجماعات القرى كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة[6].وذكر بعض الجغرافيين العرب مثل

---

(1) ابن هشام :م س. ج4، السلسلة الأولى ص1693. ونزلت آيات كريمة لدعوة المسلمين لغزو الروم في سورة التوبة قال تعال: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض..." وقال تعالى: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا..." البلاذري : ن م، ط ابريل 1866، ص60 و دكتور: اسرائيل ولفنسون تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص178-182.
وانظر ابن عساكر: م س، ص112، واليعقوبي : م س، ص69، وفرض 300 دينار جزية على يوحنا رؤبة امير العقبة وكتب الرسول الكريم عهداً بقي حتى عهد عمر بن عبد العزيز 99-100هـ/717-720م، ويروي سكان تلك الجهات أن يهود الجرباء وقعنا وأذرح نزحوا الى الجبال المحيطة بالبتراء بعد هذه المعاهدة، واعتنقوا الدين الإسلامي وعرفوا "بالبدول" كما يزعم أهل وادي موسى أنهم أسلموا على قمة جبل "البيارة" بجوار البتراء فردريك بيك، ن م، ص91 وصالح أهل على مائة دينار وأهل الجرباء وقعنا على ربع ثمارهم.

(2) يحتمل أن تكون آبل الزيت هي قرية القويلبة اليوم من أعمال منطقة عجلون.

(3) البلاذري: الانساب، ص152، ويشير البلاذري في ص18 الى أن هذه الأراضي كانت خاليه في أماكن نائية أو استراتيجية أو أن أهلها جلوا عنها بعد الفتح، أو من الأراضي الموات، كما يسمي البلاذري هذا التقسيم بالاقطاع الاستيطاني للقبائل استخدمت منذ أيام الراشدين انظر ص178،177. حيث شجعت الهجرة الى الامصار في الفترة الاسلامية الأولى للوفاء بمتطلبات التعبئة من أجل الجهاد، وسجل كل مهاجر في ديوان الجند لأخذ العطاء والرزق. أما الفلاحين فقد تركت لهم الأرض لزراعتها بالمزارعة أو بنسبة من الحاصل.

(4) البلاذري، فتوح، ص150، ابن عساكر، تهذيب، جـ3، ص3، 340، اليعقوبي: ن م، ج2، ص34.

(5) البلاذري:ن م ، ص207.

(6) أبو يوسف: الخراج، ص23.

اليعقوبي بأن سكان عكا وبيسان والرملة ونابلس أخلاط من العرب والعجم[1]. كما يشير بعضهم الى وجود السامرة في الرملة وقيسارية ونابلس[2]. وأما المقدسي فهو الوحيد الذي يذكر وجود اليهود في القدس[3]. كما أشار الى انتشار التشيع في بعض المدن الشامية مثل طبريا ونابلس وبيت المقدس وعمّان[4].

ونرجح ذلك الى وجود الدول الشيعية مثل الدولة البويهية والحمدانية والفاطمية التي خضعت لها بلاد الشام.

هذا وقد أوصى الرسول الكريم قبيل وفاته بتسيير جيش أسامة بن زيد لمقاتلة الروم في آبل الزيت[5] من مشارف الشام عام 11هـ/632م وبعد الفتوحات الاسلامية التي بدأت زمن ابي بكر الصديق في ربيع عام 13هـ/634م[6]، رَحّبت القبائل العربية في بلاد الشام بالحكم العربي العادل الذي انقذها من ظلم الحكم الروماني الفاسد، بعد أن أصبح أبو عبيدة عاملاً على سوريا الكبرى زمن الخلفاء الراشدين.

وفي زمن الأمويين أصبحت الأردن مركز استجمام وراحة للخلفاء الأمويين لقربها من البادية واستقرار الامن فيها، فشيدوا فيها القصور والأبنية الفخمة خاصة في الجزء الشرقي منها كقصر الخزانة والعمري وقصر الحلابات. وحصن الموقّر بالبلقاء على مسافة ساعتين من عمّان، وحمام الصرخ. وقصر طوبة وقصر باير حيث يتجلى فيهما الفن العربي بوضوح كما أنشا الأمويون محلات لضرب السكة في شرقي الأردن.

---

(1) اليعقوبي: م س، ص307، 328، 329.

(2) اليعقوبي: ن م، ص328،329، الاصطخري: م س، ص44، وابن حوقل، م س، ص159. والمقدسي: م س، ص179، حيث يشير الى أن السامرة كانوا موجودين من جند فلسطين الى طبريا.

(3) المقدسي: ن م، 167، 183.

(4) ن.م. ص179: فهو يقول عن أهل الشام أن "مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة وأهل طبريا ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة".

(5) فردريك بك: م س، ص93، حاشية 29: "يحتمل أن تكون آبل الزيت هي قرية القويلبة اليوم من أعمال منطقة عجلون في الأردن، هذا ولم يتفق المؤرخون على المكان الذي وصل إليه جيش أسامة بن زيد.

(6) الطبري : م س، ص2076، 2106. وابن عساكر : م س، ص169. والخضري : محاضرات في تريخ الأمم الإسلامية، جـ1، ص287، وعبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدين، ص72.

ومن الحميمة "بين العقبة ومعان" في شرقي الاردن بدأت الدعوة العباسية على يد أبي هاشم بن علي بن أبي طالب في أواخر القرن الأول الهجري حتى سقطت الدولة الأموية عام 132ه/749م وقامت الدولة العباسية التي نقلت عاصمتها للعراق، مما أثر في الأحوال العامة لشرقي الأردن بعد إهمال قصورها وقلاعها وتغيير طريق الحج المار فيها حتى أواخر الدولة العباسية عندما سيطر الأتراك على الخلفاء مما مهد لقيام الدولة الفاطمية في الغرب عام 358هـ/969م وبسطوا نفوذهم على مصر وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن. وبعد ضعف الفاطميين والعباسيين عام 410هـ/1021م شبت الثورات في شرقي الأردن وفلسطين وسوريا لمدة سبع سنوات حتى هجوم الأتراك السلاجقة على دمشق والقدس عام 419هـ/1076م والاستيلاء على سوريا وفلسطين مما مهد لنجاح الصليبين في غاراتهم الأولى إذ استولوا على القدس عام 491هـ/1099م تحت زعامة جودفري ثم زحفوا شرقاً على الأردن 499هـ/1107م وشرعوا في تشييد القلاع والحصون خاصة بعد أن أدركوا أهمية القسم الجنوبي من شرقي الأردن لهم لحماية مملكة بيت المقدس من الغارات الشرقية والتحكم في خط المواصلات الرئيس بن مصر وسوريا والحجاز(1).

وورد في الأعلاق النفيسة(2):

أن عمر قسم الشام الى أربعة أجناد متفرقة في أيدي عمّاله وهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن أبي العاص، فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنسرين وكانت من ارض الجزيرة فصارت أجناد الشام أربعة: جند فلسطين، وهي الرملة وجند الأردن وهي طبرية وجند دمشق وجند قنسرين. كما ذكر الأصول السكانية بقوله.

(1) Gibbon: The Declime and fall of the Roman Empire, p.58 Stephenson: The Crusaders in the East 1907, P.44. 62. ذكر القلاع الهامة مثل : قلعة الحابس في علعال شمالاً وقلعة الشوبك والكرك جنوباً وأكمل الصليبيون سيطرتهم على جنوب شرقي الأردن عام 546هـ/1152م.

(2) الأعلاق النفيسة : تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رستة، م7، ط ليدن، مطيعة بريل، 1891، ص107.

"لجند دمشق من الكور الغوطة وأهلها غسّان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة وحوران ومدينتها بُصرى، وأهلها قوم من قيس من بني مرة خلا السويداء، فإن بها قوماً من كلب، والبثنية ومدينتها اذرعات[1]. وأهلها قوم من يمن ومن قيس وكورة الظاهر[2] ومدينتها عمّان وكورة الغور ومدينتها أريحا، وهاتان المدينتان تجمعهما أرض البلقاء وأهلها قوم من قيس وبها جماعة من قريش، وجبّال ومدينتها غرندل وأهلها قوم من غسّان ومن بَلقين وغيرهم ومآب وزُغَر وأهلها أخلاط من الناس وبها القرية المعروفة بمؤتة التي قتل فيها جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة والشّراة ومدينتها أذرح وأهلها موالي بن هاشم وبها الحميمة منازل علي بن عبدالله العباسي بن عبدالمطلب وولده والجولان ومدينتها بانياس وأهلها قوم من قيس أكثرهم بنو مرة وبها نفر من أهل اليمن وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة ولبنان صيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن وبعلبك وأهلها قوم من الفرس واليمن. ولجند دمشق الكور على الساحل كورة عرفة ومدينة طرابلس وأهلها من الفرس نقلهم معاوية اليها وجبيل وصيدا وبيروت وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم معاوية وكل كورة دمشق فتحها أبو عبيدة سنة 14هـ.

وبالإضافة للأصول العربية فهناك أخلاط عرقية من جنسيات مختلفة كالتركمان : الذين هاجروا من المنطقة الواقعة ما بين بحر آرال وبحر الخزر بعد معركة ملاذكرد عام 464هـ/1071م. وقد دخلوا في خدمة العباسيين زمن المعتصم بالله (218-227هـ/930-938م) وأصبح لهم دور سياسي في بلاد الشام امتد حتى عصر المماليك بعد أن انتشروا في جميع أنحاء الشام بين غزة وديار بكر وكانت قبيلة دلغادر البحرية من أهم قبائلهم[3] وفي عصر دولة المماليك البحرية شكلوا جزءاً هاماً في الجيش المملوكي إذ بلغ عدد فرسانهم مائة وثمانية آلاف فارس[4] وساهموا في هزيمة المغول والصليبيين.

---

[1] أذرعات هي مدينة درعا اليوم على الحدود الجنوبية لسوريا والمتاخمة للأردن وفيها مركز الجمرك والجوازات حيث تعتبر نقطة العبور البري من الأردن لسوريا.

[2] الظاهر: ظاهر البلقاء، ابن رستة ابي عليى أحمد بن عمر. الأعلاق النفيسة : مجلد 7، طبع ليدن، مطبعة بريل 1891، ص336.

[3] ابراهيم خورشيد: دائرة المعارف الاسلامية، م 9، ط الشعب، ص277.

[4] خليل بن شاهين الظاهري: م س، ص105.

ومن الأخلاط العرقية الأخرى **الأكراد** الذين ينتسبون الى اقليم كردستان شمالي العراق وظهروا أيام الدولة النورية "زمن نور الدين زنكي في الشام عام (522-569هـ/1128-1173م) وزادت أهميتهم في الجيش في عصر الأيوبيين شمال حلب وساحل لبنان واستمرت أهميتهم العسكرية أيام المماليك البحرية وقد استعرب قليل منهم[1] وكانت طموحاتهم وحتى اليوم تأسيس كيان كردي مستقل كما يلاحظ من صراعهم العسكري مع تركيا والعراق وايران.

وهكذا نرى أن سكان بلاد الشام يتكونون من عرب الجنوب خاصة اليمن ونسل عدنان من الشمال ومن أفراد القبائل العربية التي هاجرت لشام طلباً للرزق هذا بالإضافة للعصبيات العنصرية من أكراد وتركمان وأرمن وشركس.

أما الأصول السكانية للماليك فكانوا ينتمون الى جنسيات ومواطن مختلفة ولا رابطة بينهم إلا رابطة الرّق والعبودية[2] إذ جلبهم تجار الرقيق من منطقة الأتراك والروم والمغول والصقالبة والإسبان والأكراد والجراكسة والألمان من بلاد بعيدة ومختلفة كبلاد التركستان وما وراء النهر وفارس وشبه جزيرة القرم والقفجاق وآسيا الصغرى وغيرها[3].

وذكر فيليب حتى غلبة العنصريين القوقازي والقفجاقي "الترك" أو المغول عليهم[4] وابتسم الحظ لهذا الخليط الغريب بمستقبل زاهر زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي جلبهم لمصر والشام وجعلهم حرسه وأمراء عسكره وتسلطن منهم فيما بعد أيبك التركماني وقطز وبيبرس وقلاوون[5].

أما بالنسبة للاقلية اليهودية في جنوبي بلاد الشام فقد ثبت من مخطوطات البحر الميت لمحفوظة في الكهف في منطقة قمران وعين الفشخة[6] منذ 11قرناً والتي عثر عليها سنة

---

(1) ابن اياس: م س، جـ6، ص487. ومحمد كرد علي: م س، جـ9، ص61.

(2) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص12.

(3) المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص368، 416، 436.الظاهري:م س: جـ9، ص140. د. سعيد عاشور: ن م، ص12. ود. العبادي : قيام دولة المماليك، ص216.

(4) فيليب حتى: م س، 2، ص871، 874، 878.

(5) بدر الدين العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص202. وكان عز الدين أيبك التركماني قد أصبح سلطاناً منذ تنازل شجرة الدر عن العرش له أواخر ربيع الأول 648هـ/1250م الى أن قتلته ليلة الأربعاء 24 ربيع الأول 655هـ/1257م.

(6) قمران وعين الفشخة: حيث تقع قمران جنوب مصب وادي عربة على بعد 38كم من القدس و20كم عن أريحا وعين الفشخة: تقع شمال البحر الميت وهي من مواقع عرب ابن عبيد. أنظر الدباغ: بلادنا فلسطين، جـ8، ص4، 815.

1947م[1] أن فرقة من اليهود كانت تقيم في هذه المنطقة وتميزت بطقوس خاصة عن فرقتين يهوديتين كبيرتين. الفريسيّين والصدوقيّين اللتين حمل السيد المسيح عليهما في دعوته لتحريفهما التوارة وابتداعهما تعاليم وأحكام فاسدة ترجع في أصولها لشريعة حمورابي في بلاد ما بين النهرين لإنكارهم البعث والنشور واعتقادهم بأن عقاب المذنبين يحصل في حياتهم وأنّ المرض ناشئ عن تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين وهم لا يقبلون بالتوراه إلا الأسفار الخمسة، وقد نبت من الصدوقيين بعد تسعة قرون فرقة القرّائين في بغداد، والذين لا يقبلون شريعة التلمود وملتزمون بقدسية السبت[2].

ولعل هذا يشير الى الأصول التاريخية لليهود في بلاد الرافدين قبل هجرتهم الى فلسطين الكنعانية مما يدحض ادعاءاتهم التاريخية في فلسطين. إذ أنهم لم يتركوا آثاراً حضارية فقد كانوا بدائيّين متنقلّين وهذا ما يستدل من دراسة مجتمع قمران من خلال آثارهم الكتابية التي خلّفوها[3] والتي تأثرت بثقافة جيرانها في مصر وسوريا وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى بالرغم أنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً منفصلاً عن جيراهنم في العادات والتقاليد التي طالما تخلّوا عنها عندما كانت تتضارب مع مصالحهم ، كما تأثروا بعقائد البراهمة والمجوس والبوذيين وخاصة طائفة الاسينيّين[4] وقد أكدت مخطوطات البحر الميت في قمران أخيراً أنها مملوءة باشارات فنيقية وآرامية مما جعل علماء اليهود يشككون فيها باسم السامية المزعومة لفصل العرب عن المجموع الثقافي المصري والكنعاني، والبابلي، لإعطاء مكانة خاصة للغة العبرية في حين أنها ليست إلاّ فرعاً متأخراً من اللغة العربية، وكل ذلك من أجل إثبات توارتي لعملية الاستيطان الحالية في فلسطين. فهذه التوارة الحالية ترجمت لجميع اللغات الرسمية في العالم التي جرت

---

[1] حسين عمر حمادة: مخطوطات البحر الميت في كهوف قمران وعين الفشخة ، ط1، سنة 1982م دار المنار للنشر – عمان – الأردن، ص10.

[2] عجاج نويهض: بروتوكولات حكماء صهيون، مجلد 2، ج3، ص4-135. ولديورانت م س، ج3، م3، القسم 11، ترجمة محمد بدران – جامعة الدول العربية، ط3، 1973 القاهرة.

[3] لانكستر هاردنج : آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، المطبعة الوطنية، عمان، ط2 1971، ص229، وميلر بروز: مخطوطات البحرالميت، ترجمة محمود العابدي، المطابع التعاونية، عمان 1967، ص55-56.

[4] يورانت: قصة الحضارة، م3، جـ3، ص175، 215، 183. حسين عمر حمادة : م س، ص48-52. وعلي عبد الواحد وافي : بحوث الاسلام والاجتماع، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1978، ص269-272.

علينا المآسي والأخطار المتمثلة بالخطر الصهيوني الذي يهدد وجودنا كله في بلاد الشام والفرات والنيل كما يزعمون بحدود اسرائيل الكبرى وقد ورد هذا في اصحاحات سفر يشوع الأربع والعشرين[1].

لقد اثبت حاخامات اليهود في تعليماتهم المقدسة أن اليهودية جنسية تبحث عن أرض الميعاد وليست ديانة تستطيع التعايش مع بقية الأديان في وطن واحد. وهي حكر على شعب بعينه يكون أفضل الشعوب حتى لو سرق أو زنى أو أشرك بالله. ويدعون بأنهم ورثة الأنبياء وشعب الله المختار، الذين وعدهم الله بوراثة الأرض وإقامة دولة تمتد من النيل الى الفرات، بالاضافة الى ما تأثر به بعض مؤرخي المسلمين بفكر المستشرقين كالدكتور حسن صبري الخولي في نسبة اليهود الى النبي ابراهيم عليه السلام[2]. وأن ابراهيم واسحاق ويعقوب كانوا

---

(1) حسين عمر حمادة: مخطوطات البحر الميت، ص137، أورد نصاً من الاصحاح الثالث عشر من سفر يشوع، العدد 1-10 "وشاخ يشوع تقدم في الأيام فقال الرب أنت شخت تقدمت في الأيام وقد بقيت أرضي كثيرة للامتلاك، هذه هي الأرض الباقية كل دائرة وكل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر الى تخم عقرون. شمالاً تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزي والاشدودي والاشقلوني والحبشي والعتزومي والعويين من التيمن كل الكنعانيين ومغارة التي للصيد وتبنين الى افيق الى تخم الأموريين.وأرض الجبليين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون "جبل الشيخ" حتى مدخل حماة جميع سكان الجبل من لبنان الى مسرفوتايم وجميع مدن سيحون "بين النهرين بالعراق". وللمزيد من المعرفة عن حضارة اليهود المزعومة ومخطاتهم أنظر :

- بيرروسي : مدينة ايزيس – التاريخ الحقيقي للعرب – منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق 1980م، ص21-31.
- الكتاب المقدس : أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، مترجم عن اللغة اليونانية، المطبعة الأميركانية، بيروت 1909م.
- وليم ف. اولبرايت : آثار فلسطين، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1964.
- الكتاب المقدس : أي كتب العهد القديم والجديد – مترجم عن اللغات العبرانية والكلدانية واليونانية، إصدار جمعية التوراة الأمريكية، وجمعية التوراة البريطانية والأجنبية، القاهرة 1938م.
- د. أحمد سوسة : اللغة العبرية وصلتها باليهودية – مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد نيسان 197.
- أسد رستم : مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، مطابع مجلة المسرة، 1959.
- عباس محمود العقاد حياة المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث، كتاب الهلال 82، 1958م.
- لا نكستر هاردنج : آثار الأردن، المطبعة الوطنية، عمان 1971م.
- محمود نعناعة : المشكلة اليهودية وهل تحلها اسرائيل؟، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975م.
- محمود العبادي : قدسنا، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة 1972م، ص245-246.
- مخطوطات البحر الميت، منشورات دار الطليعة، بيروت 1974م.
- وليام هـ. براونلي وآخرون : فك رموز المخطوطات الجلدية الكاربانية، مديرية الآثار العامة.

(2) د. جمال عبد الهادي مسعود وزميله د. وفاء محمد رفعت جمعة. أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ط4، المنصورة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ص20-23. وهما استاذان مساعدان بقسم التاريخ الاسلامي كلية الشريعة والدراسات الاسلامية في جامعة ام القرى سابقاً

يهوداً. وأن اليهود الحاليين هم ورثتهم لأنهم من أصلابهم.. وأن الله قد وعد ذرية ابراهيم اليهود وراثة أرض فلسطين.

فانتشار هذا الفكر في المدارس والجامعات أدى الى انصياع بعض الجماهير العربية لمخطط الأعداء... لأن كتاب التاريخ أفهموها بأن الحق قد رجع الى أصحابه. لذا يجب على المؤرخ المسلم اعادة ثقة الأمة الاسلامية في وجودها وحقها في الاستقلال بأرضها وكرامتها وكيانها وذلك بالتنبيه الى خطورة ما تتعرض له الأمة على أيدي كتاب التاريخ وتصحيح هذه الأخطاء متبعاً المنهجية العلمية بما يجده في القرآن الكريم الذي يفضح هذا التزييف.الذي أحدثه كتاب التوراة المزيفة والتاريخ في سير الأنبياء والرسل. والحقيقة أن جميع الأنبياء والرسل دعوا الى الاسلام، واليهود لا يرثون الانبياء والرسل والمسلمين. فابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وداوود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام دينهم جميعاً الاسلام، ولم يكونوا هوداً أو نصارى والدليل قوله تعالى: "ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الاهاً واحداً ونحن له مسلمون"[1]. وقال تعالى: "ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"[2].

وقال تعالى: "وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين"[3].

وقال تعالى: "قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلو عليّ وأتوني مسلمين"[4].

---

[1] سورة البقرة، آية 130-133.

[2] سورة آل عمران آية 68

[3] سورة يونس، آية 84

[4] سورة النمل: آية 29-31.

وهكذا نرى حسم القرآن الكريم لقضية الدين والوراثة، فأنبياء الله المذكورون كانوا مسلمين وأن الذين لهم الحق في وراثتهم هم المسلمون الذين اتبعوا ملة ابراهيم ونبي الله محمد صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا بهم واسلموا لله رب العالمين.

قال تعالى: "إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا" "ولا ينال عهدي الظالمين"(1). وقال تعالى: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها عبادي الصالحون"(2).

لذا نرى بأن القرآن الكريم خاطب اليهود بأنهم ليسوا اتباعاً لابراهيم لأنه نبي مسلم ويقول لهم ايضاً ودليل انحرافكم هو أنكم لم تؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالتالي فلا حق لكم في وراثة هؤلاء الأنبياء والمسلمين، ولا حق لكم في شبر واحد من أرض الاسلام لأن، الكافر لا يرث مسلماً.كما اثبت القرآن الكريم بأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله تعالى، قال تعالى: "وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قولوا آمنوا بالله وما أُنزِل الينا وما أُنْزِل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أُوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"(3).

لذا يجب على المؤرخين المسلمين الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية عند التأريخ للأمة الاسلامية وعدم الاعتماد على المصادر غير الموثوقة ومنها التوراة والانجيل والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية وبعض المراجع الحديثة المتأثرة بالمستشرقين الذين قسَّموا التاريخ الى قديم ووسيط وحديث والتي وقعت في حرمة الاعتداء على ذا ت الله ورسله،

---

(1) سورة الأنبياء، آية 105

(2) سورة البقرة آية 135-136 وانظر ابو عبدالله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي: الجامع لاحكام القرآن، بيروت دار الفكر 1966، جـ1، ص132.

(3) من هذه المراجع : دائرة المعارف الاسلامية التي ألفها المستشرقون وقصة الحضارة لديورانت، ترجمة محمد بدران وزكي نجيب محمود، إدارة التأليف والنشر، جامعة الدول العربية، جـ2، م1، ص331-334. زعم فيها : "أن لليهود حق في فلسطين بحجة أنها ميراثهم عن أبيهم ابراهيم وكذلك سليمان اليهودي باني الهيكل تحت الحرم الشريف في المسجد الأقصى فلا عجب ان من محالولاتهم اليوم حفر الانفاق تحت المسجد الأقصى بحثاً عن هيكل سليمان المزعوم تحدياًلمشاعر المسلمين وزعم فيها أنه هاجروا مع نبيهم ابراهيم من أرض العراق الى فلسطين التي وعدهم الله إياها ".

وزعمت أن الأنبياء والمسلمين كانوا يدينون باليهودية وان لهم حق وراثة النبي الكريم ابراهيم وسليمان عليهما السلام... فكان هذا لخدمة الصهيونية.

ونخلص إلى القول بأن نسيان الأمة الاسلامية للحقيقة التي بينها الله رب العالمين لنا في كتابه وهي: "أن الاسلام هو دين الله في الأرض وفي السماء وأن اليهودية والنصرانية ليسا دينين سماويّيْن" وقد ورد ذلك في تفاسير القرآن الكريم فعندما تقرأ على سبيل المثال لا الحصر تفسير الإمام الحافظ ابن كثير لقوله تعالى: "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون"[1]. أي ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام، وأنتم تعلمون أن دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله، لأنهم أرادوا بزعمهم إلباس الباطل ثوب الدين ووراثة الأنبياء، وزيفوا تاريخ البشرية لخدمة مصالحهم بحق زعموه في فلسطين فالموعودين ليحتلوا في الأرض المقدسة وغيرها من أرض الله، علماً بأن المبَشَّرين بوراثة الأرض المقدسة هم المسلمون من ذرية ابراهيم بدليل نص الآيتين الكريمتين:

قال تعالى: "واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين"[2] فيكون قد حجب الإمامة "اي الرئاسة" عن الظالمين الفاسقين والكفرة من ذرية ابراهيم عليه السلام كما حسم الله الأمر بقوله تعالى: "إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين أمنوا والله ولي المؤمنين"[3].

ولو سلمنا بأن اليهود من ذرية ابراهيم عليه السلام فلن يستحقوا وراثته لعدم اتباعهم دين الاسلام ويأتي الحديث الشريف المروي عن رسول الله الكريم ليؤكد هذه الحقيقة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغردق فإنه من شجر اليهود"[4].

---

(1) سورة البقرة: اية 42، وانظر الامام الحافظ اسماعيل ابن كثير: تفسير القرآن العظيم دار الفكر، بيروت، ج1، ص84.

(2) سورة البقرة: 124.

(3) سورة آل عمران: آية 68.

(4) صحيح الجامع الصغير وزيادته : أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم. حديث رقم 7304.

وفيما يتعلق بنسبة التوراة المحرفة بأنّ ابراهيم عليه السلام كان يهودياً فهذه شبهة قديمة وقد رد الله عليها في كتابه الكريم بقوله: "يا أهل الكتاب لم تُحاجّون في ابراهيم وما أنزلت من التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا يعقلون، ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"[1].

هذا ولقد ألف اليهود كتاباً سموه التوراة والتي لا علاقة لها بالتوراة التي أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً"[2].

وشهد بذلك شاهد من أهلها ألا وهو موسكاني[3] في كتابه الحضارات السامية القديمة، وديورانت في كتابه قصة الحضارة[4].

ولقد أدرك اليهود، إن هناك قطاعاً كبيراً من بني البشر، لن يقرأ التوراة المحرفة ولن يقتنع بها .. ولذلك لجأوا الى كتب التاريخ يُزيِّفون ويشوهون بتاريخ الأنبياء والرسل ودين الله ومن له حق وراثة الأرض لكي يربوا في المدارس والجامعات أجيالاً تعتنق ذلك التاريخ المزيف حتى اذا ما وصلوا الى موقع المسؤولية في قيادة الأمة سلموا لليهود باغتصابهم فلسطين.

وقيام دولتهم من"النيل الى الفرات" وعاصمتها بيت المقدس "أورشليم" وزعموا أنهم جادون في البحث عن هيكل سليمان اليهودي أسفل المسجد الأقصى الذي بناه آدم عيه السلام وجدده داوود وسليمان وابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام والذي اليه تشد الرحال وارض الاسراء والمعراج والأرض المباركة حولها ارض فلسطين التي جعلها الله ميراثاً للأمة الاسلامية تُقيمُ

---

(1) آل عمران، آية 65-78، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج1، ص375.

(2) صحيح البخاري:

(3) موسكاني : الحضارات السامية القديمة، ص139.

(4) ديورانت:م س، م1، ج2، ص367، قال: "كيف كتبت هذه الاسفار ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال برئ لاضير منه، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ويجب أن نفرغ منه هنا بفقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب" فذلك يعني أن هذه التوراة مشكوك في نسبها الى نبي الله موسى عليه السلام.

حكم الله عليها بعد تحريرها، قال تعالى: "" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"[1].

وفي القرآن الكريم شواهد عظيمة على عداوتهم للمسلمين الى يوم القيامة منها قوله تعالى: "لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا"[2]. وقوله تعالى: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هُدى الله هو الهُدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير"[3].

وقوله تعالى: "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا"[4]..

وقوله تعالى: "لا يرقبون فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون"[5]

[1] سورة الأنبياء، أية 105

[2] سورة المائدة: آية 82

[3] سورة البقرة: آية 120

[4] سورة البقرة: آية 217

[5] سورة التوبة : آية 8.

ثانياً : الطبقات الاجتماعية

لقد غَرق العالم الإسلامي -وخاصة العربي- في أواخر ايام الدولة العباسية في صعوبات التفتيش عن صيغ جديدة لتركيب اجتماعي يؤمن استقلالية الذات العربية من جهة وانتمائها الخلاقّ لركب الحضارة الإنسانية من جهة ثانية، فكانت أزمة تشمل مختلف أنواع العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والروحية نتيجة التمازج الحضاري للشعوب الاسلامية المتعددة الجنسيات من أتراك وفرس وعرب ومماليك وصليبيين ومغول... لذا كانت بلاد الشام وخاصة أطرافها الجنوبية بحاجة لهمة قوية وجرأة متحدية للغزو الثقافي والفكري والتأثير الحضاري للصليبيين والمغول الخطير على الوجود والتراث، للوقوف أمام هذا المد الأوروبي والمد المغولي المتضخم باستمرار عن طريق الاحتلال والتدمير ونهب التراث والكتب العلمية لنقلها للقارة الأوروبية وحتى لا نكون تحت وصاية غيرنا، وللمشاركة في بناء الحضارة الانسانية في العصر الحاضر ولنعتبر من دراسة تلك الاحداث المتشابهة لما تمر به الأمة العربية والاسلامية اليوم.

وبالنسبة للطبقات الاجتماعية فقد قسمها العلماء بالنسبة للظواهر الاجتماعية[1]. فقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تصنيف طوائف المجتمع، فمنهم من لا يرى غير طبقتين[2]، ومنهم من صنف المجتمع في سبع طوائف[3]، أو ثلاث طوائف[4].

---

(1) يذكر علماء الاجتماع على أن المقصود بها نواحي النشاط الانساني من الدين والعمل والأسرة والتعليم، وما فيها من أعياد ومآتم وأفراح وأتراح وشتى الأمراض الاجتماعية وعللها.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 188 ذكر: أن المُلك سلطان ورعيّة "فالسلطان من له رعيّة والرعيّة من لها سلطان". وانظر عاشور: دراسات في الحياة الاجتماعية، ص10، ذكر راي المؤرخ لين بول الذي أشار الى طبقتين كبيرتين هما: "طبقة المماليك وهي أقلية عسكرية ممتازة وثانيهما طبقة تمثل سائر فئات الشعب، وعليها واجبات العمل والفلاحة ودفع الضرائب الباهضة، وهي محرومة من كل نفوذ وبعيدة عن الحكم".

(3) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص 72: الأولى: أهل الدولة من المماليك، والثانية أهل اليسار من التجار، والثالثة متوسطو الحال من السوقة والباعة، والرابعة أهل الفلح، والخامسة الفقهاء وطلاب العلم، والسادسة أرباب الصنائع وأصحاب المهنة والسابعة ذوو الحاجة والمسكنة.

(4) كما قسمها معاصر المقريزي (بيلوتي الكريتي Pilote do crete) الى ثلاث طبقات طائفة المماليك، وطائفة الشعب، وطائفة الأعراب: وانظر عاشور: دراسات في الحياة الاجتماعية، ص10.

ونرى خدمة للبحث تبني تصنيف المقريزي مع الإضافة إليه طائفة الأعراب وأرباب الملل والنحل من الطوائف الأخرى، وأهل الذمة من اليهود والنصارى.

الطبقات الاجتماعية في فلسطين زمن الفرنجة:

لقد انقسم المجتمع أيام الفرنجة الى ست طبقات هي:

- الطبقة الارستقراطية الأوروبية الحاكمة من النبلاء والفرسان.
- طبقة المحاربين الفرنجة: وهم من المحاربين المشاه الذين استقروا في فلسطين وتزوجوا من المسيحيين الفلسطينيين والأردنيين، فنشأ عن هذا الزواج مُولّدة من آباء غربيين وأمهات شرقيات أرمن أو سريان.
- ثم طبقة المسيحيين الشرقيّين من أرمن وسريان وقبط ويعاقبه وموارنة وهم الطبقة الدنيا، أصحاب الحرف البسيطة، وكانوا محرومين من المشاركة في الحكم.
- وطبقة التجار الايطاليين في المدن الهامة في حيفا ويافا وعكا وقيسارية حيث كانت طبقة بورجوازية لهم فنادقهم وأحياؤهم الفنية.
- ثم المسلمون سكان البلاد الأصليين في المدن، حيث هاجر قسم كبير من سكان فلسطين الى شرقي الأردن ودمشق حقداً على الصليبيين مما عطل الزراعة في ساحل فلسطين.
- طبقة الأقنان والعبيد الذين يباعون ويشترون من قبل الإقطاعيين الفرنجة[1]. ومنهم الأقليات اليهودية.

العلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية بين الصليبيين والمسلمين:

بعد أن فرض الصليبيون سيادتهم على السكان الأصليين، كانت العلاقات القائمة وثيقة الصلة بوضعهم العسكري حيث استمروا لمدة مائة وثلاثة وتسعين عاماً (1098-1291) سادها الحرب والسلام.

---

(1) د. يوسف غوانمه، دراسات، ص186-187.

فبدأت العلاقات بالمذابح الوحشية في بيت المقدس بحب الانتقام[1]. كما كان الصليبيون يعتقدون عند قدومهم للأراضي المقدسة أنهم أرفع منزلة من أهلها وأن المسلمين وثنيون يعبدون محمداً وصنمه"[2].

كما كان عليهم أن يجدوا أسلوباً للتعايش مع السكان الأصليين في الأراضي المحتلة لقلة أعدادهم التي أدخروها للعمليات الحربية، ولضرورة استخدام الفلاحين العرب في الأعمال الزراعية لتأمين مورد الرزق لهم، لذا ترك لهم الفرنج ادارة ذاتية مع تمتعهم بعاداتهم الخاصة، وكان هؤلاء الفلاحين يدفعون ضرائب للفرنجة: كضريبة الرؤوس وضريبة ثمار الأشجار[3].

وكان سكان القرى والضياع كلهم من المسلمين، لذا كانوا يخفون الأسير ويرسلونه للبلاد الاسلامية[4] كما كان لهم قاضي في جبله يحكم بينهم[5].

وقد أدّى اختلاط الصليبيين بالمسلمين إلى تأثرهم بالمسلمين في بعض الأمور السطحية وليس العكس، لأنهم كانوا في مستوى حضاري وفكري ومادي أقل بكثير مما كان عليه المسلمون في الشام. فاكتسبت هذه الأقلية الصليبية المتخلفة حضارياً من صفات وعادات المجتمع الاسلامي الأرقى حضارياً. كما تزوج بعض الفرنج من المسيحيات السوريات أو الأرمنيات والبيزنطيات كما تزوج بعض السوريين بالفرنجيات[6].

فنشأ جيل جديد سمي بولان Poulains، كما بقيت عائلات فرنجية بعد طردهم من بلاد المسلمين كالمار وينين في لبنان وعائلة الصليبي وفرنجة ودويهي وبروديل وصوابا وطربين ودريان[7].

---

(1) أسامة ابن منقذ: م س، ص13، وما بعدها، ص 274. قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، بيروت 1985، ص 271-272. Wiliam of Tyre, 1, p.37. حيث قال : "ان الغزاة أصابهم الاشمئزاز لما اقترفته أيديهم".

(2) Hitti, The Arabs, p. 243.

(3) ابن جبير : م س، ص211، ويقول وفيما عدا ذلك: "فإن مساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم".

(4) ابن منقذ: ن.م، ص82.

(5) ابن شداد: م.س، ص 89.

(6) عاشور: المجتمع الاسلامي. ص239، وابن منقذ: ن م، ص 130.

(7) حتى: تاريخ لبنان، ص 290.

ومن العادات الاسلامية التي مارسها الصليبيون استخدام الصبيان كخدم للحريم[1]. كما اتخذوا الطراز العربي في بناء بيوتهم وقصورهم ذات الأفنية الفسيحة التي تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها بحيرة صناعية يتدفق منها الماء عالياً بواسطة النوافير لتخفيف الحرارة[2]. بالإضافة لزخرفة جدرانها وسقوفها بالرخام والفسيفساء والذهب[3].

كما تأثروا بالروح الشرقية المشهورة بحب الترف في الاثاث من سجاد وطناقش من المصنوعات الدمشقية والأوعية النحاسية المنمقة والآنية الزجاجية والخزفية. واستخدموا الشموع المطيبة للاضاءة[4].

وعملوا بالزراعة والتجارة منذ أقدم العصور، مما مكنه من الاستقرار الذي ساهم في ابداعه الحضاري، وخير شاهد على ذلك الآثار الباقية حتى اليوم في البتراء وجرش وعمان ومادبا وبيت رأس وأم قيس والكرك والشوبك والقطرانة والحسا وعجلون.

الحياة الاجتماعية:

لقد كانت منازل السكان في المدن تتكون في معظمها من طابقين بما يشبه الفيلات الريفية اليوم وفرشوها بالسجاد والبسط، كما استعملوا الأثاث الفاخر والنحاس وكراسي الحديد[5].

ونقشوا اسماءهم على الأواني النحاسية مثل أدوات الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك. كما يوجد في المتحف الاسلامي بالقاهرة وهكذا عاش الأثرياء حياة البذخ والترف كما انتشرت الحمامات العامة في عجلون وعمّان والكرك وحسبان بالإضافة الى وسائل التسليه في أوقات الفرغ كالغناء والصيد ولعبة الكرة البولو.

فطبقة الخاصة من أمراء المماليك وسلاطينهم عشقوا الغناء والموسيقى في مجالس الأنس من اللهو والطرب في منازلهم، وكانت الكرك والشوبك مكانتهم. للترويح عن النفس لكثرة ما

---

(1) حبشي (حسن) نور الدين والصليبيون، حركة الافاقة والتجمع الاسلامي في القرن السادس الهجري، القاهرة، 1984، ص148.

(2) Hitti, The Arabs, pp, 43-44.

(3) النقاش: م س، ص 146.

(4) النقاش: ن م، ص147. Conder, Jerusalim, p. 182.

(5) العيني: عقد الجمان، جـ22، ق1، ورقة 136 مخطوط

فيها من الحانات والمغاني، كما استخدم الناس والمُغنّيات مقابل مبلغ حصين لإحياء حفلات الزواج والختان كما هو اليوم، لذا فرضت الدولة ضريبة على المغنين والمغنيات سميت بضريبة المغاني في الكرك والشوبك، حتى الغاها السلطان الظاهر برقوق سنة 782 هـ/380م[1].

هذا وقد ذاع صيت المغنية الكركية في القاهرة، فهام بها السلطان المظفر حاجي بالإضافة الى شهرة المغنية سلمى أيضاً كما شغف سلاطين المماليك وأمراؤهم مثل السلطان الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاون والناصر أحمد بن قلاون والأمير تنكر نائب دمشق الذي كان يهوى الصيد في الأزرق والبلقاء[2] ومارسوها في براري شرقي الأردن في فصل الربيع مستخدمين الصقور وكلاب الصيد لصيد الطيور والحيوانات، فكانوا يخرجون برفقة خبراء الصيد[3] ومنهم صيادي الغزلان. كما في الأزرق والأغوار والزرقاء وجبال عجلون والشراه.

ويلاحظ أن كثرة الحيوانات البرية في ربوع شرقي الأردن كالأرانب البرية والخنازير والغزلان والثعالب والذئاب وحمر الوحش والأسود والفهود هذا بالإضافة الى قطعان الخيول والإبل والأغنام في المراعي الواسعة والتي يربيها أهالي وعربان الأردن[4].

وقد تناولوا الأطعمة الشرقية من مربى وسمك ولحوم الغزلان والضأن والبتلّو، وأنواع الفواكه: كالبرتقال والعنب والليمون والموز كما تأثروا بلباس المسلمين ولغتهم حتى أن بعض المؤرخين وصفهم بأنهم نسوا لغتهم الأصلية وبلدانهم الأولى وأنهم قد تحولوا الى شرقيين في عاداتهم وتقاليدهم نمط حياتهم[5].

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ3، ص 405، ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، جـ1، ص 211.

(2) أبو المحاسن: م س، جـ10، ص209.

(3) العيني: م س، جـ2، ق1، ورقة 109 مخطوط.

(4) المقريزي: السلوك، جـ2، ص725.

(5) Fulcher of chartres, p. 271.

براور: عالم الصليبيين، ص147. وقد وضح ذلك في ملابس السيدات الصليبيات اللائي عاشرن المسلمات وخاصة من الصقليات حيث ارتدين ملابس طويلة بجرجرة الأذيال وقميصين مرسلين إلى القدمين: ابن جبير : م س، ص231. واستعملن المجوهرات الدمشقية والقاهرية والمساحيق والخضاب والمرايا الزجاجية والفراء وأقمشة وبر الجمل، حتي: تحفة الشرق والغرب، القاهرة 1926 (الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني، ص146). واستخدم بعضهن الخمار على وجوههن وعدم الخروج إلا للضرورة القصوى للكنائس والحمامات. أنظر : سعيد عاشور: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص240.

كما قلدوا الشرقيين في أعيادهم وحفلات لهوهم من مجالس الطرب والشرب[1]. كما اهتموا بتنظيم أوقات فراغهم بلعب الشطرنج والزرد في المنزل أو الحمّام أو حتى الحانات. فاشتهروا بلعب القمار والسكر[2].

فكانوا يذهبون الى المرافق العامة في عكا وصور حيث يرقص الرجال مع السيدات على أنغام الموسيقى[3]، كما كان الصيد الرياضة المفضلة عند فرسان السلاطين، مستعينين بالطلاب والشباك والصقور والبراة لصيد الآرانب والحجل والغزلان والثعالب والذئاب والضباغ والماعز البري[4]. وكانوا يحتفلون بالأعياد بكنسية القيامة[5]. كما احتفظوا بكثير من عاداتهم الدينية كتقديس الإيقونات[6].

وبالنسبة للحياة الاجتماعية "للقبائل":

فقد ارتبط البدوي في جنوب بلاد الشام بقبيلته برابطة الدم والمصلحة فكان ولاؤه لها قبل الولاية للدولة لتمسكه بالعادات والتقاليد مما أدى للصراع القبلي والمنازعات بالإضافة للأصول السكانية لبلاد الشام التي ترجع للأصول العمورية والآرامية والكنعانية وغيرها من القبائل التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية واستمرت الهجرة زمن الفتوحات الاسلامية بعناصرها العدنانية والقحطانية مما أدى لظهور عصبيات عرقية.

وبعد طرد الصليبين والمغول وتحرير بلاد الشام توحدت مصر والشام من جديد حيث أدى ذلك لاستقرار أهل الحضر فعملوا بالزراعة والصناعة والتجارة كما عمل البدو بحراسة الطرق والدفاع عن الحدود زمن الحرب.

---

(1) النقاش: م س، ط1، القاهرة 1974، ص148.

(2) بروار عالم الصليبيين، ص153.

(3) Cander, Jerusalim, p. 183.

(4) ستيفنس: الحروب الصليبين، ص 194.

(5) ابن واصل. م س، جـ2، ص231-232.

(6) ابن منقذ: م س، ص 99.

وقد انتشرت العشائر العربية في جنوب بلاد الشام ولكل منها افخاذ وبطون، فكان فيها عصبيات عنصرية كالأكراد والتركمان والأرمن وغيرهم من الأجناس الأخرى التي تسبب الصليبيون في مجيئها كالفرنجة الأوروبيين.

وفي العصر المملوكي كان مركز القبائل العربية في دمشق حتى أنها سميت بمفردها الشام واستمرت التسمية حتى اليوم لوجود أقوى القبائل العربية مثل آل فضل من ربيعة وترجع أصولهم الى طيء وهم من عرب الجنوب[1]. وكانت زعامة آل فضل في عهد الايوبيين حين نزل العادل أبو بكر بن أيوب بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة[2] أمير آل فضل في جموع كثيرة[3].

ثم ولي بعده حسام الدين مانع بن فضل وتوفي سنة 630هـ/1232م وولي بعده ابنه مهنا[4] وفي عصر المماليك شارك آل فضل ورئيسهم عيسى بن مهنا بن مانع في معركة عين جالوت فكافأه السطان قطز بإقطاعه مدينة سلمية من أعمال حماة[5]. ومن عرب بلاد الشام بنو خالد ومنهم الصيالة والزمول والشقرة وآل ملحم[6]. ولا زالت هذه القبائل في جنوب بلاد الشام حتى اليوم وخاصة في شرقي الأردن وفي عهد الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1278م) عزل الأمير زامل بن علي وعين مكانه الأمير عيسى بن مهنا زعيماً لجميع العرب بالشام[7]. وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون (689-693هـ/1290-1293م) ولي امارة آل فضل الأمير محمد بن أبي بكر من آل علي بعد عزل عيسى مهنا عنها[8]. ومن القبائل المؤثرة في الأحداث السياسية زمن العصرين الأيوبي والمملوكي في جنوب الشام بنو كلاب والذين ترجع أهميتهم السياسية والعسكرية في الدفاع عن الثغور الاسلامية منذ زمن الحمدانيين منذ

---

(1) ابن خلدون العبر، مجلد5، ص939،940.

(2) القلقشندي: نهاية الأرب، جـ4، ص101.

(3) ن م. ج4، ص206، ابن خلدون: العبر، مجلد5، ص937.

(4) القلقشندي: ن م، ن ص. ابن خلدون ن م، مجلد5، ص940-942

(5) القلقشندي: ن م، ج4، ص172.

(6) ن.م. ص244، عمر كحالة: معجم قبائل العرب، ج1، ص325.

(7) المقريزي: السلوك، ج1، ص2، 46، ابن خلدون: ن م، ج5، ص991.

(8) القلقشندي: ن م، ص107

القرن الرابع الهجري/ العاشر عشر الميلادي، وزمن الأخشيدين حيث كونوا دولة بني مرداس العربية شمال حلب 415هـ/1042م زمن الفاطميين فكثرعددهم في شمال الشام(1). وأَفَلَ نجُمهم بعد ظهور نفوذ الأتراك السلاجقة حتى بزغ من جديد في بلاد الشام في العصر الأيوبي لتعاونهم ضد الصليبين حيث قدموا لهم الخدمات كإمداد ملوك الأيوبيين بالجمال لحمل الغلال لمناطق الثغور الشامية خاصة زمن الكامل الأيوبي، وقاموا بدور الطلائع العسكرية زمن الملك الأشرف موسى الأيوبي(2) وارتفع نجمهم في العلياء زمن الناصر محمد بن قلاوون حيث مال اليهم ولبس زيهم وأمن الزعماء المعارضين لنواب الشام(3) وعين سليمان بن مهنا من آل ربيعة أميراً عليهم وهم أيضاً من عرب جنوب الشام(4). وهكذا أصبحوا تحت إمرة الأمراء من آل ربيعة.

أما عن الحالة الاجتماعية زمن الأيوبيين، فقد اختل التوازن الاجتماعي نتيجة انشقاق الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين وتقسيمهم مملكته الممتدة من مصر الى الشام والموصل واليمن والحجاز، وتبع ذلك اضطراب الأمن الذي نتج عنه اختلال القيم الأخلاقية لكثرة الدسائس في البلاط الملكي وقصور الأمراء وامتدت هذه الدسائس لطبقات الشعب مما أدى لضعف عصبية أسرة صلاح الدين واختلال نظامها الأمر الذي دفعها للاستعانة ببعض العناصر الأجنبية كالشركس والأتراك والصقالبة والروم ممن دخلوا في الاسلام، وأخذوا يتحينون الفرص لاستعادة أمجادهم السابقة عن طريق الاحتيال والدس وايقاع الفتنة بين رجال الأسرة الحاكمة أو بين الشعب وطبقاته فكان لهم الأثر القوي في الحياة الاجتماعية حين أصبح الملوك والأمراء الأيوبيين العوبة في أيديهم، كما أضحى الشعب مدفوعاً للأقتباس من أحوالهم وأخلاقهم إذ تأثرّ هولاء المماليك بأخلاق الشعب وعاداته، فأحبوا هذه البلاد فدافعوا عنها من الغزاة، فأصبحوا حماة بلاد الشام ومصر من المغول وشرور الصليبيين الذين أرادوا فرض انظمتهم وقوانينهم وأحوالهم الاجتماعية على البلاد.

---

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص148، 150.

(2) القلقشندي: ن م، ج4،ص233

(3) ن.م. ج4، ص215

(4) ن م، ج1، ص340، ابن خلدون م س مجلد 6، ص18.

وبالنسبة لأفراد الشعب، فأغلب الظن أنهم كانوا مَسُوقين كالقطعان يعملون على تقليد أمرائهم من الأيوبيين والمماليك، لأنهم أصبحوا في نظرهم القدوة الصالحة على الرغم من فسادهم وسوء أخلاقهم، إلا من رحم ربك.

كما احتلت دولة المماليك البحرية أهمية خاصة في التاريخ الاسلامي لأن نظامها قام على فلسفة خاصة من القوة وليس العدل، وترجع شهرتها للدور البارز الذي لعبته من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في قيادة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين والمغول بعد نهاية الخلافة العباسية كما عاشوا درجة القمة في السلم الاجتماعي من حياة البذخ واستخدامهم الرقيق الأبيض والأسود من المماليك. والعبيد من مختلف الأجناس مما ترتب عليه انتشار تقاليدهم وعاداتهم في البلاد التي حكموها.

وقد كان للماليك تقاليد وأحكام وشارات يتميزون بها عن غيرهم، وكانوا عدة طبقات، ولكل طبقة شارات خاصة بها مثل صور الأسد والفهد والنمر والصقر والطاووس وطبقة أخرى شاراتها صور الزهور كالزنبق والأقحوان والياسمين والقرنفل، وطبقة ثالثة شاراتها صور بعض الأدوات الحربية كالسيوف والسناجق والكؤوس والمغافر، ولكل طبقة لباس ملون خاص بها، وقد ساهم معظم أمراء الأيوبيين والمماليك في الرقي الاجتماعي بين طبقات الشعب لسعيهم الى مجاراة الخلفاء الفاطميين والعباسيين الذين ورثوا أرضهم وملكهم وحضارتهم ايضاً.

ومن الملاحظ أن الترف قد ازداد أيام المماليك لغنى بلاد الشام ومصر وتمركز أسواق التجارة من الشرق والغرب فكان ذلك سبباً لتفننهم في البذخ والترف والشراء مثل ترصيع المماليك لآنية شرابهم وطعامهم بالذهب والحجارة الكريمة، واتخذوا من مجالس شرابهم ولهوهم آنية وتماثيل ودمى من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة، واللؤلؤ، كما رصّعوا عصائب شعور نسائهم وثيابهن بالجواهر واللآلىء، كما لبسوا الثياب المزخرفة وتمنطقوا بالشال الهندي، وتسربلوا بالحرير، وكانت فُرُشهم من الخز والديباج والمخمل، واستخدموا آلات الشطرنج

والنرد المصنوعة من الذهب والفضة والأبنوس والعاج، كما وجد في خزائن بعضهم من أصناف الثياب والحلي والرياش والأثاث ما يقدر بملايين الدنانير[1].

ومن وسائل التسلية التي أولع بها سلاطين وأمراء المماليك، لعبة الكرة البولو في ميادين خاصة بها، حيث كان لها نظاماً خاصاً، وأوقات معينة لممارستها من ألعاب الفروسية باستخدام خيول أصيلة لذلك. كما سمي الموظف المشرف عليها بالجوكدار حامل عصا البولو (الجوكان)[2].

وقد مهر بها السلطان الظاهر بيبرس سنة 678هـ/1279م وكانت سبب وفاته بعد إصابته أثر سقوطه عن فرسه في الميدان الخاص بها في الكرك[3]، مما حدا بالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون توسيع هذا الميدان وتسهيله وتنظيمه أما احتفالات المماليك فكانت حافلة بالولائم والأسمطة الفاخرة والمواكب نتيجة لحياة الثراء والبذخ والترف التي عاشوها كالسماط الذي أقامه الملك الناصر داوود سنة 629هت/1231م[4]، في شرقي الكرك، تكريماً لقدوم عمه الملك الكامل سلطان مصر[5]، كما عمل الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك سماطاً فاخراً احتفاءً بقدوم الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الكرك.

وبالنسبة للمساكن فقد كان المنزل مكون من طابقين الى ثلاثة طوابق غالباً مع وجود منازل ذي خمسة طوابق أحياناً. وكانت سقوفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة في أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة للاستمتاع بها عند مغيب الشمس كما كانت جدرانها السميكة تحفظ الدفيء في الشتاء. عندما تصل الحرارة الى درجة التجمد. وكانت سقوف المنازل عالية الارتفاع[6].

---

(1) حتي : تاريخ العرب. ص 178.

(2) الجوكان : عصا مدهونة، طولها أربعة أذرع، راسها مخروطية الشكل بطول نصف ذراع، يضرب بها اللاعب الكرة من على ظهر فرسه. يوسف غوانمة : التاريخ الحضاري للأردن، ص98 .

(3) المقريزي: السلوك، جـ1، ص669.

(4) ابن حجر: م س، جـ2، ص267.

(5) ابن واصل : م س، تاريخ الواصلين، ورقة رقم 378، مخطوط حيث نصب خيمة كبيرة جدرانها مطرزة بالنقوش والصور الجميلة وذبح أعداداً كبيرة من الجمال والبقر والغنم والخيول، وكانت العادة أن يسمح للناس بهذا السماط كمظهر من مظاهر التسلية التي تضحك السلطان وهم يشاهدون هجوم الناس على السماط بعد تناول السلطان طعامه.

(6) براور : عالم الصليبيين، ص143-144.

وكانت الولائم تقام في الأعراس[1]. أما بالنسبة للمواكب المملوكية فقد كان لها نظام خاص حيث يخرج نائب المدينة في موكب فخم خارج المدينة مرتين في الاسبوع محاطاً بالأمراء والأجناد ومع عزف الطبلخاناه، فيخرج الناس للمشاهدة والاستمتاع بمشاهدة الموكب الحافل، كما كان هذا الموكب يتكرر عندما يخلعُ السلطان خَلعَهُ على النائب.

كما أقيمت احتفالات بمناسبة خروج ركب الحجاج الكركي وعند عودتهم. واتصفت هذه الولائم بالبذخ عندما يرافق ركب الحجاج أحد السلاطين حيث يخرج الناس الى مؤتة لاستقباله ويرافق ذلك إقامة الزينات وتُرْفَعُ الأعلام على أسوار المدينة والقلعة، ويستقبله الناس بالدعاء والهتاف والغناء وقرع الدفوف، كما ترمي المجانيق أمامه كما حدث عند استقبال السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بعد عودته من الحج 713هـ/1313م[2]. وما زال هذا التقليد السياسي موجوداً في مصر والشام وجميع الدول الأخرى عند اسقبال أحد رؤساء الدول الأخرى إذ تطلق المدفعية احدى وعشرين طلقة.

استخدام الثلج لتبريد المياه:

لقد استعمل المسلمون الثلج المنقول من جبال الشام لجيوشهم منذ زمن الأمويين والعباسيين الذين استعملوه في قصورهم وفي مواسم الحج وسار على هذا النهج الحمدانيون والفاطميون حتى أن الثلج كان جزءاً من رواتبهم المخصصة لهم[3].

كما استعمله الأيوبيون أثناء معاركهم مع الصليبيين[4]. وكان الثلج في الشام لا ينقطع صيفاً ولا شتاءً لتوفره على جبل الشيخ المحاذي لدمشق، وكان يباع بأسعار رخصية كما حدث سنة 762هـ/1361م، حيث بيع القنطار بعشرة دراهم[5]. فاستخدم على نطاق واسع في العصر

---

(1) ابن كثير: م س ، جـ14، ص47.

(2) العيني: عقد الجمان، جـ23، ق1، ورقة 3 مخطوط.

(3) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم،مس ، 12 جزء، دار حياد بيروت، 1966م، جـ5، ص57. وأبو المحاسن : يوسف بن تغري بردى: م س، 16 جزء، القاهرة 1932 - 1972م، جـ4، ص126.

(4) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ8، ص 252: حيث ذكرة تقديم صلاح الدين الماء المثلج لأسراه ما عدا أرناط أمير الكرك.

(5) ابن قاضي شهبه الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، جـ2، ورقة 159، مخطوط بدار الكتاب المصرية رقم 2402 المكتبة النحومية.

المملوكي إكمالاً لرفاهيتهم[1] في القصور وأيام الحج كما حدث عام 721هـ/1321م عندما حجت الأميرة الأدرالشريفة خوندطغاي إذ كانت أول من سقى الحجاج ماء مثلجا في عصر المماليك[2]. كما استعمله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الحجاز عام 732هـ/1322م[3] وكان من عادات المماليك تقديمه أيضاً للعلماء تكريماً لهم.

لذا فقد نتج عن هذا البذخ والترف الزائد أمراض اجتماعية كشرب المسكرات كالخمرة والحشيش وفعل الموبقات والتفنن في المنكرات، حتى اضطر الملك بيبرس 665هـ/1267م أن يصدر مراسيم يمنع تدخين الحشيش وإراقة الخمور وإغلاق بيوت المنكرات ومنع الحانات والخواطي (المحلات العمومية) بمصر والشام حتى قال بعض الشعراء:

ليس لإبليس عندنا أرب … غير بلاد الأمير مأداه

حرفته الخمر والحشيش معاً … حرمتا ماءه ومرعاه

وكانت اجراءاته شديدة حيث أمر بنهب الحانات المعدة للبغاء وسلب أهلها وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بذلك توثيقاً قُرِئ على المنابر في المساجد[4].

كما أمر بيبرس عماله في كافة المقاطعات بتنظيم الحسبة والتشديد على أهل الغش والدجّالين (الدجاجلة) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراقبة الأسعار وتحديد الأرباح بالإنصاف والعدل بين المشتري والبائع، ونتيجة لهذه الأوضاع الاجتماعية، أكثر أهل الوعظ والإرشاد من تأليف الكتب والرسائل لدعوة الناس للخير والابتعاد عن الشر، امثال عبد الرحمن بن نصر الشيزري 589هـ/1191م صاحب كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) تعرض فيه لمسائل المحتالين وأنواع غشهم[5].

---

(1) القلقشندي : م س، جـ14، ص395.

(2) ابن أيبك : كنز الدرر، جـ9، ص305.

(3) أبو المحاسن:ن م، جـ9، ص106. يذكر أنه سقاه مخلوطاً بالسم لأحمد بن بكتمر أحد أعدائه.

(4) جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، جـ1، ص 320

(5) ما يزال هذا الكتاب مخطوطاً.

ومنهم أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي مؤلف كتاب (الإشارة الى محاسن التجارة) بين فيه تدليس المدلسين وأنواع حيلهم ومنهم الامام الكبير تقي الدين ابن تيمية الحراني الدمشقي المتوفي (728هـ/1330م)[1].

الطبقات الاجتماعية زمن الأيوبيين والمماليك

أولاً: الطبقة الحاكمة:

لقد حكمت ثلاث دول خلال هذين القرنين، وكان توالي الحكم مصدر قوة لا ضعف كما ظهر ذلك خلال الأحداث الكبرى فأما الزنكيون الأتراك فقد اعتمدوا على أبناء جلدتهم[2]، ناهيك عن أنهم صنيعة السلاجقة الأتراك، ثم جاء بعدهم الأيوبيون الأكراد الذين ينتسبون للعرق الآري ولغة الأكراد فارسية مشوبه بألفاظ عربية وعراقية قديمة، وفي كل قرية من قراهم "مُلاّ"، وهو عندهم العالم الخبير بلغتهم[3]، وكان الأيوبيون أحراراً يعتمدون في دعم ملكهم على أبناء جلدتهم وعلى غيرهم من المماليك بخلاف الزنكيين لأرقاء الموالي للسلاجقة الأتراك.

وأما المماليك فكانوا ينتمون الى الأتراك والجركس والروم والأرمن وغيرهم[4].

وكان الملوك ينالون ثقافة خاصة منذ صغرهم من حيث تعليمهم القرآن الحديث، وآداب الشريعة، ثم يربون تربية عسكرية خاصة داخل القلعة التي يخرجون خارجها[5] وكانت المؤهلات الشخصية هي التي تَرَقّى بصاحبها في سلم الوظائف من قن رقيق حتى الأمير، وقد سار المماليك على سياسة الأيوبيين في الإكثار من جلب المماليك بهدف تكوين الجيوش والحرس السلطاني الخاص. والمتعة الشخصية والخدمة السلطانية، وخدمة الأمراء وركزوا على

---

(1) تاريخ العرب، جـ1، ص 179.

(2) ابن واصل،م س، جـ1، ص 183.

(3) عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر دمشق، 1409هـ/1989م، جـ11، ص70.

(4) فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك (مانجز بردي) الذي قتله المغول بقيادة جنكيز خان، والسلطان قلاوون قفجاجي تركي من قبيلة (برج أوغلي) ببلاد القفجاق، والسلطان كتبغا من أصل مغولي، جاء الى مصر أسيراً بعد موقعة حمص سنة 658هـ/ 1260م والسلطان لاجين أصله من البلاد الواقعة على ضفاف البلطيق.
وكان السلطان يشتري عدداً كثيراً من الأرقاء ويسلمهم الى الطواشي المشرق على طبقة جنسهم ليؤهلهم لخدمة الامراء والسلاطين: المقرزي: الخطط: ج2، ج218.

(5) ابن تغري بردى، المنهل الصافي -مخطوط- ورقة 6، 67، وذكر أن السلطان الأشرف برسباي هو أول من سمح لأبناء الملوك والسلاطين بالنزول الى القاهرة.

صغار السن من الترك والخطا والقفجاق[1]. وهكذا تكونت حكومة عسكرية مملوكية[2]. وكونوا طبقة ارستقراطية في المجتمع وجمعوا بأيديهم السلطة الكاملة بعد تأسيس القوات العسكرية الضاربة الموالية لهم بأقسامهم من مماليك سلطانية، ومماليك الأمراء، وأجناد الحلقة، حيث انقسمت الخدمة بالجيش الى نظامية وغير نظامية[3]. أما غير النظاميين فكانوا من العربان وعامة المصريين عند إعلان الحرب بإعلان التعبئة العامة عند التهديد الخارجي[4]. أما أبناء المماليك والأمراء وأولاد الناس فلم يلتحقوا بالجيش، بل مارسوا الأعمال الإدارية والكتابية[5].

أما نيابة السلطنة أو الأتابكية، فقد اقتصرت على أمراء المماليك دون غيرهم من الطوائف الاجتماعية الأخرى، والذين كانوا يقتلون السلطان أو يخلعونه ليحلوا محله اذا سنحت لهم الظروف، وقد انغمسوا فيما بعد بالملذات والمفاسد والفتن والاعتداء على طوائف الشعب الأخرى، ففقدوا كثيراً من صفاتهم الحربية والخلقية.

ثانياً: طبقة رجال الدين

هم أهل العمامة الذين تفقهوا في أمور الدين وأحكامه، فكسبوا حب واحترام الطبقة الحاكمة في معظم الأحيان، وقد انقسمت هذه الطبقة الى فئتين:

الأولى : الوظائف العامة التابعة للحكام كأمانة السر وكتابة التوقيع وتولي ديوان الإنشاء، والاشراف على الدواوين السلطانية الأخرى.

والأخرى : عكفت على العبادة وشغلت وظائف التدريس والقضاء والخطابة، غير أن كثرين منهم عزفوا عن تولي القضاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، "قاض في الجنة

---

(1) المقريزي: الخطط، جـ2، ص214، جـ3، ص 348 والسلوك جـ2، ص 3، ص 747، وابن الوردي تتمة المختصر، جـ2، ص 347، وابن حجر: م س، جـ2، ص430، العبادي قيام دولة المماليك ص216. والعيني : م س، حوادث سنة 688. تصحيح سالم الكرنوكي الألماني، ط، بيروت، طبعة القاهرة، 1967/1387.

(2) حتّي: تاريخ العرب، م2، ص 869.

(3) كان الجيش النظامي من المماليك المستوردين للسلاطين والأمراء وجند الحرب. المقريزي: السلوك، جـ4، ق1، ص462 وذكر "وقد اشتمل جند الحلقة على بعض العربان من غير المماليك".

(4) عبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك، جـ1، ص153.

(5) د. أحمد شلبي: الموسوعة التاريخية، ط3، القاهرة 1977، جـ5، ص241.

وقاضيان في النار"[1] وكان معظم رجال الدين يقولون كلمة الحق أمام الملوك والسلاطين دون خوف في خطبهم ودروسهم مثل عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء[2]، ومجد الدين اسماعيل الواسطي[3].

ثالثاً: طبقات الشعب:

تتكون من الفلاحين والتجار والصناع وسائر العوام. وكانوا يعاملون معادلة واحدة بنظرة ازدراء من الطبقة الحاكمة[4]. وكان الفلاحون يشكلون السواد الأعظم من الشعب، ويُورّثون مع الإقطاع، كأقنان ملحقين بالأرض زمن الدولتين الزنكية والأيوبية.

فأدى نظام الفلاحة هذا الى خراب القرى وهروب أبنائها الى المدن، وبعضهم تَحَوّل الى لصوص[5]، وقطاع طرق[6]، وصعاليك[7].

دور الفلاحين في الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي:

لم يكن الفلاحون بمعزل عن الحياة السياسية الصاخبة في دولة المماليك الأولى بالرغم من انصرافهم للأعمال الزراعية. فقد شاركوا بالثورات والفتن، التي أدت الى خراب كثير من القرى الزراعية وأتلفت المحاصيل الزراعية، كما شاركوا في الحروب ضد الصليبيين وضد المغول[8].

---

(1) أبو شامه: م س، جـ1، ص8، وابن واصل: م س، جـ1، ص 269، وذكر السيوطي رفض ابن دقيق العبد القضاء في عهد كتبغا ولم يقبل ذلك الا مكرهاً. السيوطي : حسن المحاضرة، جـ2، ص10.

(2) ابن حجر: رفع الإصر، مخطوط، ورقة 168.

(3) ابن الوردي:م س، جـ2، ص 225. الذي خاطب بيبرس في إحدى خطبه: "بأنك لن تُدْعَى أيها السلطان، ولكن تُدعى باسمك، وكل منهم يسأل عن نفسه إلا أنت، فإنك تسأل عن رعاياك، فاجعل كبيرهم أباً وأوسطهم أخاً، وصغيرهم ولداً".

(4) ابن شاكر، فوات الوفيات، جـ1، ص 367، حيث ذكر المثل الشائع في هذا العصر على ألسنة الناس وهو: "ما أنت إلا من العوام، ولو كنت بن عبد السلام".

(5) اسامه بن منقذ: م س، ص 44.

(6) كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام العدو يسرقون منهم الرحال، ن م، ص 79، 153، 220. وابن شداد، النوادر السلطانية، ص 145.

(7) أسامة بن منقذ: ن م، ص 147، ص 183، أورد قول رجل صعلوك: "أنا رجل صعلوك مالي شيء، ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة".

(8) الأسدي: محمد بن محمد بن خليل من أعيان القرن 9هـ/15م، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، ط1، دار الفكر العربي، 1968م، ص 19، وغوانمه: لتاريخ الحضاري، م س، ص 108.

وبالنسبة للقرية في بلاد الشام فكانت وحدة سياسية في حكمها لنفسها، واكتفائها الذاتي، حيث كان لها شيخ أو أكثر لحفظ النظام فيها، والمسؤول المباشر أمام الدولة والمملوك الإقطاعي الذي يملك أراضي القرية حيث يجمع الضرائب ويسلمها إلى الأمير المُقْطِع أو إلى الأستادار المعين من قبل الدولة[1] بالاضافة الى مسؤوليته في فض المنازعات داخل القرية[2].

وكان من سمات القرويين العامة البساطة والتدين والتوكل[3] وما تزال هذه الظاهرة تسود مجتمع الفلاحين في القرية بشكل عام في وقتنا الحاضر. أما أرباب الصناعات والمهن الحرة فكانوا أحسن حالاً من الفلاحين، حيث كانت لهم نقابات خاصة، برئاسة شيخهم الذي يدافع عن مصالحهم أمام أطماع الطبقة الحاكمة[4]. أما طبقة التجار: فكانت أحسن حالاً من سائر الفئات[5] فقد قرب السلاطين هذه الفئة الغنية لتمدهم بالمال حين الحاجة للجهاد[6].

كما عمد بعض السلاطين لمصادرة الأموال وقت المحن[7] ولكن غالبيتهم كانت تدفع الضرئب كسائر أبناء الشعب، وأعفى بعض السلاطين الناس من الضرائب كما اكتفى نور الدين وصلاح الدين من بعده بالخراج والجزية، ورفعا عن الناس المكوس والمغارم.

رابعاً: الأعراب:

الذين سكنوا بادية الشام، بحثاً عن المراعي، ولم تكن حياتهم مستقرة، وكانوا مصدر خطر يهدد الحواضر عند مواسم الجفاف وانعدام الكلأ فيقطعون الطرقات ويسفكون الدماء[8] وكان من أشهر القبائل العربية، الغساسنة وقضاعة وتنوخ وأسد وآل مرة وآل عقبة[9].

---

(1) السبكي: معيد النعم، ص 26، غوانمه: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص89.

(2) المجتمع العربي السوري، ص 62.

(3) عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام 1974م، الدار المتحدة عمان، 1974، ص 231.

(4) أسامه بن منقذ: م س، ص 179.

(5) ن م: ص14، كان يسميهم اسامة "البرجاسية" "هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا حضر القتال".

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 102، وابن واصل: م س، جـ2، ص 214، كما حدث مع صلاح الدين عندما طلب صلاح الدين مساعدة الخليفة ليدرأ هجوم الفرنجة ويكون الخليفة كفيلاً على ذلك.

(7) ابن الوردي: م س جـ2، ص 249، كما حدث في الشام ومصر سنة 700هـ حيث صودرت ثلث أموالهم لصد جحافل التتار.

(8) السبكي: ن م، ص 54.

(9) أنظر السبكي، ن م، ص 55، وبأن كثيراً منهم لا يتزوج بعقد شرعي، "ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ولا يمنعون الزنى".

خامساً: أهل الذمة:

هم أهل الكتاب المعاهدون، من نصارى ويهود بفئاتهم الدينية، وقد عاشوا مع المسلمين في قلاعهم وحصونهم وعليهم تأدية الجزية مقابل توفير الحماية لهم[1] لكنهم في بعض الأحيان كانوا يفضلون التجمع في احياء خاصة، و قرى خاصة، لكونهم أقلية بين المسلمين[2].وقد عامل الزنكيون أهل الذمة خير معاملة[3]. وسار على نهجهم الأيوبيون حيث أدخل صلاح الدين الأيوبي الكثير منهم في خدمته وكذلك فعل خلفاؤه من بعده.

وهكذا تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية الكاملة من صلوات وطقوس في أعيادهم الخاصة[4]. ولكن الحال تغير عليهم في عصر المماليك حيث لقي المعاهدون تضييقاً في المعاملة واللباس[5] كما منعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن قرع النواقيس زمن السلطان الناصر محمد[6]، وأمر بعض السلاطين المتعصبين كالظاهر بهدم كنسية الناصرة[7].

لذا فقد احدثت هذه المعاملة رَدّ فِعْلٍ لديهم فقابلوا ذلك بالكيد للمسلمين، فأحرقوا بعض الأماكن المقدسة للمسلمين، واختطفوا بعض المسلمين مما أغضب السلطان الظاهر بيبرس فأخذ صبيانهم مماليك، وبعث بهم الى مصر ليربوا هناك، فصار منهم أمراء وأجناداً[8] كما ابتهجوا بدخول هولاكو المغولي بلاد الشام سنة 658هـ/1260م[9].

---

(1) ابن واصل : م س، جـ2، ص284، ذكر نور الدين زنكي "وكان برسم نفقته في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية.

(2) ابن جبير : م س، ص194: ذكر قرية زارها تعرف بتل عقاب النصارى للمعاهدين الذميين في القرن السادس الهجري.

(3) أسامة بن منقذ : م س، ص158، قال : "ولم يعرف عنهم سوء المعاملة للذميين عدا القائد التركي صلاح الدين الباغستاني الذي كان يظلم الناس جميعاً مسلمين وغيرهم.

(4) ابن واصل : م س، ص231 232، ذكر عبيد سبت النور النصراني أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى، حيث كان للمسلمين ديوان خاص على باب كنيسة القيامة في القدس يجبي من كل زائر نصراني القطيعة المقررة.

(5) الصفدي : أعيان العصر، ورقة 6 و 235. وابن اياس: م س، جـ1، ص143. والسيوطي : حسن المحاضرة، جـ2، ص179. وذلك زمن المنصور قلاوون عام 689هـ حيث أمر بتصغير عمائمهم فلا يتجاوز 7-10 أذرع وأن تكون عمائم النصارى زرقاً وعمائم اليهود صفراً وعمائم السامريين حمراً.

(6) ن م، ن ص.

(7) ابن الوردي : م س، جـ2، ص216.

(8) ن م، ص216.

(9) ن م، جـ2، ص203، حيث ذكر ترحيب النصارى بالمغول ودق النواقيس وإدخال الخمر إلى المسجد الجامع بعكس اليهود الذين لم يؤذوا المسلمين خلال هذه المحنة.

كما فضل بعضهم الدخول في الاسلام زمن المماليك للعودة إلى مناصبهم في الدواوين، وللتخلص من القيود المفروضة عليهم كالطبيب اليهودي الكَحاّل عبد السيد بن المهذب[1].

ومهما يكن من أمر هذه الحوادث العارضة، فقد أحسن المسلمون معاملتهم ودافعوا عنهم تطبيقاً لوصية النبي الكريم عليه الصلاة والسلام[2].

الأعياد الدينية:

يحتفل المسلمون حتى الآن بأعياد الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف والهجرة والإسراء والمعراج. وقد بذل السلاطين الأموال الكثيرة لأحيائها، مع عطفهم على الفقراء والمساكين بهذه المناسبات بمد الأسمطة لهم وتوزيع الحلوى والدراهم عليهم، كما شارك المسلمون الطوائف الأخرى في أعيادهم[3].

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، ورقة 2، 263، مخطوط.

(2) ابن البيطار: حياة شيخ الاسلام ابن تيمية ص191، ذكر فيها رسالة ابن تيمية الى سرجواز ملك قبرص والتي أشار فيها الى مخاطبته قائد التتار غازان ونائبه قطلوشاه في إطلاق سراح المسلمين واليهود والنصارى، وبين له رحمة المسلمين لما في أيديهم من السبي كما أوصى النبي عليه الصلاة والسلام.

(3) أسامه بن منقذ: م س 125 ذكر أنّ قومه كانوا ينزلون للتفرج على النصارى في عيد الفصح، كما احتفلت الطائفة النصيرية العلوية بعيد النيروز المأخوذ عن الفرس.

الطبقات الاجتماعية في العصر المملوكي:

أولاً: الطبقة العليا وتشمل: أرباب السيوف وهم:

أ- السلاطين وإمرة السلاح: والدوادارية، وإمرة جاندار والإستادارية، والمهمندارية، ونقابة الجيوش، والولاة[1].

ب- ثم يليهم في السلم الاجتماعي فئة كبار موظفي الدولة المدنيّة "أرباب الأقلام". الوزارة، وكتابة السر، ونظر الجيش، ونظر الأموال، ونظر الخزانة ونظر البيوت، ونظر بيت المال، ونظر الاصطبلات[2].

ثانياً: الطبقة الوسطى:

أ- كانت مكونة من العلماء وعلى رأسهم القضاة والخطباء، والمحتسب، ووكيل بيت المال[3].

ب- ثم طبقة التجار.

ثالثاً: الطبقة الدنيا وهي الطبقة العامة:

وبالنسبة لأهمية هذه الوظائف فقد سميت الفئات الثلاثة الأولى من أرباب السيوف وأرباب الأقلام والعلماء بأهل الدولة[4] حيث كانوا يعيشون على الإقطاعات التي كانت تقدم لهم أو بدلات ماليه في صورة مرتبات شهرية مقابل خدماتهم.

وقد تغير هذا التقسيم للسلم الاجتماعي في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بسبب الانهيار الاقتصادي والإداري[5] الذي احدث شرخاً عميقاً في المجتمع، فاتسعت الهوة، والفوارق الطبقية في المجتمع.

---

(1) العمري مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى: ص 49.

(2) ن.م، ص49، 50.

(3) ن.م، ص50 والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ4، ص14-34. والمقريزي: الخطط، جـ2، ص221-228، والسيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص130-134. D. Ayalon; Studies on the Mamluks of Egypt, pp.57-70.

(4) المقريزي: الخطط جـ2، ص 227.

(5) العمري: ن م، ص50.

ومن الذين تأثروا بالتراجع الاقتصادي صغار الضباط "جند الحلقة" من أصحاب الإقطاعات الصغيرة حيث باعوا إقطاعاتهم وتحولوا الى تجار ومهنيين[1] لقلة الانتاج والأرباح.

وكذلك فئة العلماء والفقهاء الذين كانوا يشكلون الدرجة الثانية في السلم الاجتماعي فقد تراجعت الى الدرجة الخامسة، أما التجار فتحسنت أوضاعهم واحتلوا الدرجة الثانية في السلم الاجتماعي بعد كبار رجال الدولة من أمراء المماليك[2].

وهكذا نلاحظ أن العمري قسم الشرائح الاجتماعية الى خمس فئات أما المقريزي فقد قسمها في عهده الى سبع شرائح.

أخلاق العصر:

لقد اتصف الزنكيون بعدم التهاون في أمر المنكرات، وشدة الغيرة على النساء، وتحريم الخمرة وخاصة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين[3].

أما صلاح الدين فقد اعرض عن أسباب اللهو والمجون[4].

أما بالنسبة للناس فقد كان بعضهم يجهز باللهو والمجون في عهد ملك ويستسرون بل يمنعون في عهد آخر، هذا بالاضافة الى تعاطي فقراء الصوفية في بلاد الشام الحشيش مما أغضب الظاهر بيبرس من هذا الانحلال الخلقي، فأمر بإغلاق الحانات وهَدْمِ المواخير وحَرْق الحشيش، وإهراق الخمور[5].

---

(1) كانوا من أبناء المماليك المبتاعين ومن فئات احتماعية أخرى وكانوا يشكلون ثلث عدد الفرسان أيام الناصر محمد بن قلاوون. العمري: م س، ص51.

(2) ن.م، ص72-75.

(3) ابن واصل: م س، جـ، ص105، 264.

(4) ابن شداد، م س، ص 25، وابن واصل: م س، جـ1، ص168. والذهبي: سير النبلاء (مخطوط مصورة) جـ3، ورقة 63: هذا وقد اعترف قاضيه ابن شداد بشربة للخمرة قبل توليه الوزارة والمسؤولية ولكنه تاب عن ذلك بعد تسلمه السلطة.

(5) ابن إياس: م س، جـ1، ص105 يذكر بأن الظاهر بيبرس صلب ابن الكازروني وهو سكران وعلق الجرة والقدح في عنقه لتعزيره أمام الناس.

ولكن المدمنين على الحشيش والخمرة لم تمنعهم هذه الاجراءات الشديدة، وفضل الناس الحشيش على الخمرة، لرخص أثمانه، وتغنى الشعراء به، ونسبوه الى مكتشفه شيخ الصوفية حيدر.

وربما سهل اقبالهم عليه عدم ورود نص صريح في تحريمه، حتى ان بعض القضاة أفتى بجواز أكل الحشيش[1].

كما انتشرت الزندقة بسبب الاحتكاك بين الدين والفلسفات الأخرى، مما أدى لظهور جيل من الحكماء فاسدي العقائد، لتهاونهم بالأديان السماوية وساهم في انتشار الزندقة، تهاون بعض السلاطين انطلاقاً من حرية الرأي والاعتقاد، وقد تاثرت الفرق الاسلامية السنية والشيعية بالزندقة وانبرى بعض العلماء ايام صلاح الدين الأيوبي لمجابهة الزندقة، خوفاً من فتنة الناس في الوقت الذي تجابه به الأمة الأخطار الصليبية الخارجية فأفتوا بقتل الزنادقة[2].

وهكذا نرى انتشار الإباحية نتيجة لشرب الحشيش والخمرة والزندقة، على الرغم من تشدد رجال الدين ومحاولة السلاطين القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بفرض عقوبة الموت، مما جعل الإباحيّين يتخذون من الصوفية ستراً لهم[3].

---

(1) ابن حجر: رفع الأصر (مخطوط) ورقة 279. ذكر اسم القاضي جمال الدين الحلبي.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص80، وابن تغرى بردي: م س، جـ6، ص114 ذكر اسم الفيلسوف السهروردي وأمر صلاح الدين بقتله أخذاً بفتوى الفقهاء مخافة أن يدعي النبوة بعد قوله: إن الله قادر على أن يبعث نبياً خلافاً للسنة بأن سيدنا محمداً هو آخر الأنبياء والمرسلين.

(3) ابن الجوزي: تلبيس ابليس ص363.

الأمراض الاجتماعية في الطبقة الأرستقراطية المملوكية

لقد كان هم هذه الطبقة جمع المال والاسراف والبذخ في حياة الرفاهية التي عاشها السلاطين والأمراء وخاصة في أواخر ايامهم[1] وتقرب الأمراء من السلاطين بالهدايا لكسب رضاهم للاستمرار في نيابتهم مدة أطول[2] مما يدفعنا الى التساؤل من أين لك هذا؟ هل هو من ماله الخاص أم من مال الشعب؟ ولماذا قدمه للسلطان والأمراء؟ هل كان بدافع الحب والتقرب؟ أم أنه نوع من الرشوة للسلطان لضمان استمراره الوظيفي هناك لذا كان من الطبيعي أن يقلد السلاطين وكبار الأمراء[3] صغارهم وبعض كتاب الدولة الذين استخدموا دواة الحبر الذهبية والفضية المحلاة بالذهب وأكثروا من شراء المماليك والغلمان في الخدمة[4] لتحصيل الضرائب بالعنف والقسوة مما دفع الناس الى الشكوى للسلاطين من جور هؤلاء الولاة[5].

أما زوجات السلاطين والأمراء فكن من بنات الملوك أو الرقيق المملوكي من بني جنسهم وكان جل همهم السعي وراء ملذاتهم مما أدى لعدم الاستقرار العائلي حيث كان السلطان يطلق زوجاته دفعة واحدة لاشباع غريزته من محظية جميلة[6] وأما الأمراء وحاشية السلاطين فقد استحلّوا حرمة البيوت في غياب السلطان لاغتصاب النساء حتى وصلت الجرأة ببعضهم الى

---

(1) السلطان الناصر حسن: الذي اشترى قرية بأكملها من بيت المال وضيق على الرعية لجمع الأموال للعمائر الكبيرة. وكذلك السلطان المظفر حاجي: الذي ظهر اسرافه في الانفاق على محظياته وجواريه وفي عرس ابنه محمد انظر: السلوك، ج1، ق1، ص249. وابن حجر: م س، ج2، ص4. وزغلول سلام: الأدب، ج1، ص26

(2) قدم الأمير منجك نائب الشام عام 774هـ/1373م هدايا ثمينة للسلطان اشتملت على اسدين وضبع وايل، وثمانية واربعين كلباً سلوقياً واربعين فرساً وخمسين بقجة قماش وخمسة جمال بسنامين وقماشها من حرير واربع واربعين هجيناً وثلاثة قباقيب نسائية من ذهب مرصعة بالجواهر قيمتها مایة وخمسون الف درهم وغيرها من ملابس النساء الحريرية واشربة ومخللات وفواكه. المقريزي: السلوك: ج3، ق2، ص254. كما أحضر الأمير بيدمر نائب الشام عام 770هـ/ هدية عظيمة اشتملت على مائة وخمسون فرساً : السلوك، ج3، ق2، ص252-256

(3) كالأمير شيخو: شذرات الذهب/ ج6، ص184، والأمير يلبغا الذي كان دخله اليومي الف دينار. ابن حجر: ن م، ج4، ص483، والامير سلار المتوفي سنة 710هـ/1310م. وابن الكبتي: م س ، ج1، ص372. تاريخ ابن الفرات،م س، ج11، ص39. غ

(4) السبكي : معيد النعم، م س، 42.

(5) ابن الفرات : ن م، جـ1، ص39، والتبر المسبوك، ص426. Lane Poole, Social Life in Egypt, pp54-70.

(6) كما حصل عام 777هـ/1376م حيث طلق السلطان نساءه الثلاث وهن خوند ابنة عم السلطان حسن، وابنة الأمير تنكربغا. وابنة الأمير طغاي تمر النظامي. المقريزي: السلوك، ج3، ق2، ص259، جـ2، ق3، ص689، وابن تغري م س، ج10، ص122. ومن الأمثلة: الأمير قرطاي الطازي زمن السلطان علي بن شعبان سنة 778هـ انظر محمد وجدي فريد: دائرة معارف القرن العشرين، ج9، ص109-110.

اغتصاب النساء في الطرقات وخطفهن من الحمامات والأسواق وخاصة أيام الفتن والثورات[1]. وخاصة المماليك الأجلاب الذين غلب على سلوكهم الإجرام واشباع شهواتهم بالبحث عن اللذة[2].وهكذا عمت الفاحشة بين كبار الحكام والفقهاء أيضاً[3]. وأبناء القضاة والفقهاء[4]. وبالرغم من هذا الفساد الخلقي لهذه الطبقة الارستقراطية فاننا لا نعدم وجود بعض السلاطين الذين حاربوا هذا الفساد الاجتماعي[5] بعد تأثرهم بوعظ رجال الدين[6] فأمروا بمنع الحانات والخواطي والفواحش[7].

ومما يؤكد معرفة السلطان بمصادر هذه الأموال الخبيثة من ضرائب المغاني لإرضاء بعض المعارضين لهذه السياسة من كبار الأمراء حيث أعطى امير الكرك المعارض لسياسته هذه جمال الدين أقوش الأشرف[8] نيابة طرابلس بعد موت أميرها قرطاي[9] وخلع عليه وبعث له بألف دينار، مما يشبه اليوم نظام غسيل أموال المخدرات في بعض دول العالم.

---

(1) كما حدث في الفتنة بين السلطان الناصر محمد والأمير الأتابك حيث استغل المماليك هذه الفتنة واغتصبوا النساء في الحمامات، زغلول سلام، الأدب، م س، ج1، ص44.

(2) المقريزي: السلوك، ج2، ص389-390 مما دفعه لوصف الطبقة الارستقراطية المملوكية بقوله "ليس بهم الا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة وأفسد من ذئب، عيد عاشور، المجتمع العربي، ص27.

(3) زمن السلطان الأشرف علاء الدين كجك ابن الناصر محمد بن قلاوون عام 742هـ حيث ضبط متلبساً بجريمة الزنا فهاجمه الناس ونتفوا لحيته ونهبوا بيته. هذا بالإضافة الى ميل بعض القضاة للجواري التركيات كالقاضي ابراهيم أحمد بن هلال بن بدر القاضي برهان الدين الزرعي (688-741هـ) الفقيه بالمدرسة الصالحية بعد سجن ابن تيمية. أنظر ابن حجر: م س، جـ1، ص15-16.

(4) أمثال جمال الدين عبدا لله بن قاضي القضاة جلال الدين عام 732ه، المقريزي: السلوك، ج2، ق2، ص368.

(5) الظاهر بيبرس، السلوك، ج1، ق2، ص540، 554، وجمال سرور، دولة الظاهر بيبرس في مصر، ص154، والناصر محمد بن قلاوون. المقريزي: السلوك، جـ2، ق2، ص455.

(6) تأثر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنصيحة ابن تيمية ضد العرافين والزناة وعاقبهم: عبد الرحمن الشرقاوي: ابن تيمية: الفقيه المعذب، ص152-153.

(7) الظاهر بيبرس. المقريزي: الخطط، جـ1، ص197، الذي سجن الشيخ العدوي عام 671هـ لفساده الأخلاقي والأشرف شعبان حسن عام 775هـ الذي ألغى ضمان المغاني وأعلن ذلك على منابر المساجد رغم ما يدره ذلك من أموال كثيرة. السلوك، جـ1، ق2، ص189، 578، جـ3، ق1، ص217، والخطط، جـ1، ص198.

والمنصور قلاوون. ابن تغري :م س، جـ7، ص327-328، والناصر بن قلاوون، وبعض الأمراء كالأمير آرغون العلائي. المقريزي : السلوك، جـ2، ق3، ص704، وابن تغري: ن م، جـ10، ص130.

(8) ابن حجر: ن م، ج1، ص423-424.

(9) ن.م. ج3، ص332. والمقريزي: السلوك، ج2، ص371، أبو المحاسن، ن م، ج9، ص108-109.

كما استغل بعض الأمراء تطبيق السياسة الإسلامية كالأمير ايدكين الأزركشي والي القاهرة سنة 734هـ/1336م والذي عين من قبل النشو[1]. حيث كان هذا الأمير يتنكر في الليل ليسمع الغناء ويشم رائحة الخمرة فيقبض عليهم، فقد قبض على بعض التجار الفلسطينين جهاركي من قيسارية بتهمة انهماكه في اللهو فافتدى نفسه بتسعين ألف درهم كدين له على الخزانة السلطانية إذ أُجْبِرَ على التنازل عنها خطياً. وكما سلب الناس ثيابهم وتركهم عراة عندما فاجأهم في حديقة عامة يتفرجون على بعض الألعاب 734هـ/1334م وهذا اعتداء صريح على حرمات الناس الخاصة، وعندما أخبر قوهون السلطان الناصر محمد غضب عليه بدل أن يشكره وقال له "أنتم كلما وليت واحداً ينفعني أردتم إخراجه، ولو أنه من جهتكم لشكرتم منه كل وقت" واسمعه ما يكرهه ثم أضاف اليه ولاية مصر كرشوة لاسكاته ولم يجمع الولايتين قبله[2].

وهكذا انتشر الانحلال الخلقي بين كبار رجال الدولة وساهموا في تمكينه بالمجتمع بالسماح بالبغاء المأجور[3]. لما يدر عليهم من رسومه مبالغ كثيرة لصالح هذه الطبقة المترفة الفاسدة ونساؤها اللائي لم يسلمن من الطمع فيهن وكثرت في انحرافهن الأقاويل[4] حيث كان بعض السلاطين يهتك أعراض نساء الأمراء ويرقص معهن علناً في مناسباته[5] حتىأن بعض الأمراء وأعيان الدولة لم يتحرجوا من الذهاب الى أماكن دعارة النساء والغلمان في جزيرة حلمية ببولاق وجزيرة الطمية[6] في النيل وبركة الرطلي، والخليج الناصري. ففي عام

---

(1) ابن حجر: م س ، ج1، ص457.

(2) المقريزي: السلوك، ج2، ص372، وأبو المحاسن، م س، ج9، ص116، 132، 133، 134-135.

(3) بلا عقد شرعي بين الرجل والمرأة: المقريزي: ن م، ج2، ق1، ص150، ق2، ص492 والخطط، ج1، ص198. وللمزيد من المعرفة انظر المقريزي:: الخطط، ج2، ص44، مخطوط وابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص486،وابو المحاسن:ن م، ج9، ص47، حيث ذكر أهمية ديوان البغاء باعتماد الدولة عليه. وابن قاضي شهبه : الأعلام، جـ5، ص235. وسعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص174، 175، 176 وعبد الرحمن الشرقاوي:ابن تيمية، الفقيه المعذب، ص105-106.سعيد عاشور المجتمع المصري، ص227. وليم موير: تاريخ سلاطين المماليك في مصر، ص9. بينما ألغى السطان الناصر محمد حقوق الغواني والعاهرات وضمانة المغاني: السلوك، ج2، ق1، ص150، وكذلك السلطان الأشرف شعبان وابن قاضي شهبه: الأعلام، ج5، ص235. بينما ألغى السلطان الناصر محمد 710هـ حقوق الغواني والعاهرات وضامنة المغاني. المقريزي: السلوك، جـ2، ق1، ص150، والسلطان الأشرف شعبان 778هـ/1346م، المقريزي،ن م، جـ2، ق2، ص492.

(4) ابن اياس : م س، جـ1، ق1، ص486.

(5) المقريزي: ن م، ج2، ق2، ص326 زغلول سلام، الأدب م س، ج1، ص52. ووليم موير: تاريخ سلاطين المماليك في مصر، ص155 حيث ذكر مثالاً على السلطان الفاجر المظفر حاجي، ق1، ص22.

(6) المقريزي : ن م ، جـ2، ق3، ص455.

738هـ/1337م اشتكى الناس للسلطان عن ارتكاب المنكرات علانية من قبل الأمير ملكتمر الحجازي، حيث عبر النيل مع مماليكه وبرفقتهم أرباب الملاهي يظاهرون بالفاحشة باختطاف النساء من الشوارع، فاحضره السلطان ووبخه وهدده بالقتل، ونفى من مماليكه ستاً وثلاثين شخصاً الى بلاد الشام كما اتبعهم باربعين مملوكاً بتهمة شرب الخمر[1].كما كان من عادة هذه الطبقة الارستقراطية اصطحاب السلاطين والأمراء للنساء الجميلات في رحلاتهم وألعابهم خارج القلعة ومشاركتهن في ركوب الخيل واللعب الذي يؤدي للفاحشة[2]. فكان ذلك بما يشبه الدعوة المعلنة للفسوق.

لذلك نرى بأن فساد السلطان كان سلاحاً قوياً لمعارضيه والطامعين في حكمه لعزله عن الحكم[3].

ومن صور الفساد الأخلاقي جلب بعض طوائف التتار الأوبراتية وإسكانهم بالحسينّية لجمالهم وشذوذهم[4] الذي تمثل أيضاً في عشق الجواري ذات البشرة السوداء[5].

فكان هذا الفساد عاملاً هاماً في الهائهم عن تدبير ملكهم وضعفه وسقوطهم سجناء أو مقتولين كعقوبة إلهية على هذه الأفعال المشينة.

---

(1) المقريزي:السلوك، ج2، ص455، وابن حجر :م س، ج5، ص127-128.

(2) انظر المقريزي: الخطط، ج2، ص348-349، وابن حجر: ن م، ج1، ص477-478. واشهر مثال على ذلك السلطان اسماعيل بن الناصر حسن الذي وافق مائتي امرأة، المقريزي: ن م، ج2، ق3، ص317، 740، 678. وابن تغري بردي: م س، ج10، ص121،141. والسبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص72.

(3) كما حدث بين الأمير يلبغا اليحياوي نائب السلطان الكامل شعبان عام 747هـ/1346، المقريزي: ن م، ج2، ق3، ص707-709. وابن تغري بردي: ن م، ج9، ص17، 32-33. جمال سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص55.، وعلى ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص98.

(4) كالسلطان العادل كتبغا المنصوري: 694-696هـ/1294-1296م نظير سعداوي، صور ومعالم منن عصر المماليك ص36-39

(5) كالسلطان الصالح اسماعيل (743-746هـ/1342-1245م)، المقريزي: ن م، ج2، ق3، ص678. وابن اياس : م س، ج1، ق1، ص505، وابن تغري:ن م، ج10،ص96، 150. ذكر اسم المغنية السوداء "اتفاق" . يتخفى في الذهاب الى أماكن اللهو والدعارة الذي أدمن لخلعه من قبل الأمير قوهون،المقريزي: ن م، ج2، ق3، ص567 وعصر السلطان الاشرف شعبان ايضاً ، المقريزي:ن م، ج2، ق2، ص70، ابن حجر: م س، ج1، ص46. والسلطان المظفر حاجي الذي خلع 764هـ/1366م نتيجة لخلاعته أبن تغري: ن م ج11، ص7، وسعيد عاشور، المجتمع المصري، ص66.

ومن الأمراض الأخرى في هذه الطبقة الارستقراطية المنحلة الشذوذ الجنسي "اللواط" الذي تفشى بين سلاطينهم وأمرائهم[1]. حيث عشقوا الصبية الغلمان والمردان [2] وسقاة الشراب حتى أن بعضهم خلع نفسه[3] لأن هؤلاء كانوا مقربين من الأمراء والسلاطين لخدمة مجالسهم.

---

[1] للمزيد من التفاصيل انظر المقريزي: الخطط، ج3، ص169، وابن اياس م س، ج1، ص104، وابن تغري: م س، ج9، ص48، ابن حجر: م س: ج1، ص210 أنباء العمر، ج2، ص109، 300. والسبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص72.

[2] كعائلة النشو: ناظر الدولة: زمن الناصر محمد بن قلاوون باكملها. المقريزي: السلوك، ج2، ق2، ص387. وفوزي أمين: المجتمع المصري عهد سلاطين المماليك، ص362-369، أورد شعراً لبدر الدين البشتكي:

أقول لناتف خديه مهلاً   أترضى اللائطين مدى الدهر

فدع نتف العوارض عنك كيما   تنال بلحية مثل الحريم

والمردان: مفردها أمرد الذي ينتف شعر وجهه أو لا يوجد به أصلاً أنظر فوزي أمين: المجتمع العربي، ص362.

[3] السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري، (694-696هـ/1294-1296م انظر: المقريزي: الخطط، ج3، ص34، وسعيد عاشور: المجتمع المصري، ص229.

وقد اشار الشعراء في العصر المملوكي الى تفشي هذه الظاهرة[1] حيث لم يتحرج السلاطين من رغبتهم في الشذوذ الجنسي مع الغلمان والمردان من الصبية فاتخذوا منهم الخدم والمقربين ووصل بعضهم الى منزلة عالية وحظوة بالغة لدى السلطان[2] فكان الجمال والنعومة وسيلة للوصول الى السلطان والإمارة بعد أن اشتروهم بالآلاف الدراهم لحسنهم وجمالهم[3].

كما كان من الطبيعي أن يتفشى هذا الشذوذ بين أبناء السلاطين الذين كان يشفقون على ابنائهم ويحاولون إبعادهم عنه[4] ومن أشهر الوظائف التي عين بها هؤلاءئ الصبية المعشوقين لجمالهم والذين لم تتجاوز أعمارهم العشرين -وظيفة الحاجب، والجميدار والخاصكي والدويدار[5].

---

(1) قال الشاعر سيف الدين المشد في تلك الظاهرة:

بطل التناسل في الورى — من غير شك وافتراء

فإذا الرجال مع الرجال — كما النساء مع النساء

مما يدل على الغناء به — وحسبك من غناء

فوزي أمين: المجتمع المصري، ص362 حتى اتخذت طريقة الشذوذ وسيلة لتكسب في بعض فئات الشعب فوزي امين: ن م، ص359.

(2) كان السلطان ابي بكر بن الناصر محمد بن قلاوون 741-742هـ/1343-1344م محظياً من الشباب يسمى عطعط، المقريزي: السلوك، ج2، ق3، ص567، 635 و ج3، ص523، وابن حجر: م س ج1، ص223-224. وكذلك السلطان صالح بن محمد بن قلاوون 752-755هـ/1351-1254م الذي احب مملوكه طاز واخيه حنتر ففوض طاز في نظر أمور الدولة. المقريزي: السلوك، ج2، ق3، ص920. كما ذكر المقريزي أن السلطان أبي بكر بن الناصر محمد كان يعشق أميرين من الخاصكية يلبغا اليحياوي وملكتمر الحجازي الذي كان يناومه علاوة على جماعة من الخاصكية. المقريزي: ن م، جـ2، ق3، ص567. وملكتمر هذا كان يملكه السلطان المظفر حاجي (747-748هـ/1346-1347م). ابن حجر: ن م، جـ3، ص358، جـ5، ص127-128.

(3) كالمملوك طغتمر العمري مملوك الناصر محمد بن قلاوون (709-741هـ/1311-1342م) في سلطنته الثالثة. ابن حجر: ن م، ج2، ص223. وصرغمتش الناصري: اشتراه الناصر محمد بمائة ألف درهم. المقريزي: ن م، جـ2، ق3، والمملوك قوصون الذي بدأ ساقياً بالبلاط السلطاني ثم ترقى أميراً. ن م، ن ص.

(4) كالأمير أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون الذي أرسله ابوه الى الكرك لتعلم الفروسية فانحرف مع الصبية ومارس الفاحشة معهم، فاستدعاه أبوه الى مصر فاحضر معه الصبي شهيب الذي يعشقه المقريزي: ن م، ج2، ق2، ص467ثم اعاده للكرك بعد اقتناعه بعدم صلاحيته للسلطنة فزاد رقيقاً وفجوراً ولكن أصبح سلطاناً فيما بعد 742هـ/1341م ابن حجر:ن م، ج1، ص295، ووليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص92، 94.

(5) المقريزي: ن م، ج2، ق3، ص365-366 ابن حجر: ن.م. ج1، ص410 كالأمير سيف الدين الحاجب سنة 736 هـ أحد مماليك الناصر بن محمد.

ومن صور الانحلال الخلقي بين أفـراد الطبقـة الارسـتقراطية شـرب الخمـرة والمخـدرات كالحشيشـة[1] لأن الدولـة سـمحت بصناعتهـا وتجارتهـا مقـابل تحصيـل الرسـوم العاليـة لتمويـل الخزانـة السلطانية[2]. كمـا سـمحت الدولـة بتعـاطي المخـدرات كالحشـيش والأفيـون[3] وأبـاحت زراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه مقابل الضرائب العائدة للخزانــة السـلطانية[4] بالاضافـة لتعاطيـه في القصور والمناسبات الاجتماعية المختلفة على شرف السلاطين[5] حيث أصبحت الخمرو مـن مراسم الاحتفال[6] حتى تعدوا على حرمة رمضان بشرب الخمور فيها[7].

وكان من نتيجة هذا الشذوذ بين رجال الطبقة الارستقراطية انحراف نسائهم نحو السـحاق لوفرة الجواري في حريم السلطان وحريم الأمراء وجواريهم.

---

(1) يقول ك: ابن الأخوة: معالم القرية في أحكام الحسبة، ص117ـ أنهـم ورثـوا هـذا الـداء مـن العصـر الأيوبي الـذي ورثـه مـن العصـر الفاطمي. انظر المقريزي: الخطط، ج1، ص50. وابن حجر :م س ، ج1، ص509، ومن أمثلة ذلك ترخيص الناصر محمد بن قلاوون بادارة حمارة ابن جرادة الخمار حيث كان عائدها اليومي ألف درهم : المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص896

(2) المقريزي : ن م، جـ2، ق2، ص400، جـ1، ق3، ص896، جـ2، 694. وابن حجر : ن م، جـ1، ص509.

(3) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص230. تشريف الايام والعصور، ج2، ص282.

(4) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين/ ورقة 118، مخطوط وابن عماد الحنبلي: شذارات الذهب، ج6، ص2. والمقريزي: ن م ، ج2، ق1، ص230 وسعيد عاشور: المجتمع المصري، ص229. وعبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك، جـ1، ص116، 117.

(5) المقريزي: ن م، جـ2، ق1، 230، جـ3، ق1، ص304-306. وأبو الفداء : م س، جـ3، ص197، ذكر شغف الظاهر بيبرس بالخمرة: تشريف الأيام والعصور، جـ2، ص265، وكذلك الأشرف خليل بن قلاوون كان يدعو لمجلسها. ابن اياس: م س، جـ1، ص376.

(6) ابن تغري بردي: م س، ج5، ص655. والمقريزي: ن م، ج3، ق1، ص305. وابن دقماق : ن م، ص149. والذهبي: تاريخ الإسلام، جـ31، ص6-7. وجمال سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص55-56.

(7) كالسلطان الاشرف خليل بن قلاوون: المقريزي: ن م ، ج1، ق3، ص792. والسلطان أبو بكر بن محمد بن قلاوون: لم يكن يغفل عن كأس الخمر ابن حجر: م س، ج1، ص462-463. والسلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد : المقريزي: ن م،ج2، ق3، ص71. والسلطان المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون: وابنه محمد بن ظاهر، علي ابراهيم حسن دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص102-104.

وقال بعض المؤرخين بوجود علاقة بين الإدمان ومـدة حكم السـلاطين بنسبة عكسـية[1]. هذا كما عاقب بعض السلاطين امراءه بالعزل والنفي لشربهم الخمرة[2] وكان بعض الامراء قد استهلك من الخمر في يوم واحد ما يعادل خمسين رطلاً[3]. لذا كان من الطبيعي أن يدمـن علـى شـرب الخمـور بقيـة الموظفيـن الرسـميين والمحظيّيـن لـدى السـلاطين كالحـاجب[4] والأتابك[5]والدوادار[6]والجمدار[7]وأمير أخور[8] وأمراء الألوف[9]. لذا لم يسـلم الفقهاء والقضـاة

(1) كالظاهر بيبرس الذي عزف عنها وقام بابطالها طيلة حكمه ابن الوردي: م س، ج2، ص225، د. أحمد شلبي الموسوعة، م س، ج5، ص209

والسلطان قلاوون حكم عشر سنوات لمقاومته شرب الخمرة شلبي: ن م، ص211. والناصر محمد بن قلاوون في فترته الثالثة حكم حوالي اثنين وثلاثين سنة حيث أمر بمكافحة المخدرات والخمور: المقريزي، ن م، ج2،ص455 والخطط ج2، ص417، ثم كانت وفاته طبيعية: د. أحمد شبلي: ن م، ص212-213. وأما السلاطين المدمنين فقد قصرت مدة حكمهم كالملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس فخلع من حكمه بعد سنتين: ابن أياس: م س، ج1، ق1 ص290 وابن تغري بردي: م س، ج1، ق1، ص341 والسلطان أبو بكر بن محمد بن قلاوون المقريزي: السلوك، ج2، ق3، ص566-567. وابن حجر: م س، ج1، ص462-463، وابن تغري: ن م، ج10، ص12 وابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص136 والسلطان أحمد بن الناصر محمد، المقريزي: السلوك، ج2، ق2، ص 683، 710، 713. وابن حجر: ن م، ج1، ص296 والسلطان الكامل شعبان: المقريزي:ن م، ج2، ق3، ص683، 710، 713، وأبو المحاسن: م س، ج10، ص140والسلطان حاجي/ المقريزي: ن م، ج2، ق3، ص707. والسلطان محمد بن المظفر حاجي ابن محمد بن قلاوون حيث خلعه الأتابك يلبغا عام 764هـ/1363م لإدمانه: ابن اياس: م س، ج1، ق1، ص592. وعلي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية: والسلطان أبو بكر بن محمد بن قلاوون (741-741هـ/1340-1341م). المقريزي: السلوك، جـ2، ق3، ص566-567. وأبو المحاسن، ن م، جـ10، ص12. وابن حجر: ن م، جـ1، ص462. والسلطان صالح بن محمد بن قلاوون (752-755هـ/1351-1354م) الذي خلعه الأمير شيخون وحبسه والسلطان حسن بن محمد بن قلاوون الذي حبسه الأمير يلبغا وقتله لإدمانه الخمرة. ابن اياس: م س، جـ1، ق1، ص597. ومحمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، ص45.

(2) السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (708-709هـ/1308-1309م) عزل نائب السلطنة الأمير صدر الدين بن الوكيل لشربه الخمرة انظر ابن حجر:ن م، ج3، ص117 كما عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون (709-741هـ) الأمير اقبغاالحسني عام 716هـ ونفاه الى دمشق.المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص176 وعزل عام 710هـ الأمير صدر الدين محمد بن عمر المرحل أحد أعيان دمشق لشربه الخمرة، ن.م. ج2، ق1 ص88

(3) هو الأمير سيف الدين مكتمر الحجازي الناصري المولود والمتوفي في بغداد (654-741هـ) وهو أحد كبار أمراء الناصر محمد الذي زوجه ابنته، ابن تغري:م س، ج10، ص184 المقريزي: السلوك، ج2، ق2، ص365-366

(4) كالأمير الماس الحاجب على عهد السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة. المقريزي: ن م، جـ2، ق2، ص365-366.

(5) الأمير قرطاي الطاز زمن السلطان علي بن شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون، المقريزي: ن.م. ج3، ق1، ص305 وابن تغري: ن م، ج11، ص153

(6) كالأمير بغا الدويدار الناصري (737هـ/1336م) زمن السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة. ابن حجر: م س، جـ1، ص366.

(7) والأمير بيبرس الركن عام 740هـ. المقريزي: ن م، جـ2، ق2، ص487-488.

(8) الأمير أيبك زمن السلطان علي بن شعبان. المقريزي: ن م، جـ3، ق، ص305.

(9) الأمير مغلطاي. المقريزي: ن م، جـ2، ق1، ص54. وابن ثغري: ن م، جـ11، ص155.

وابناءهم من تعاطي المخدرات وشرب الخمرة[1] كما تجدر الاشارة إلى أنّ بعضهم سعى الى إصلاح الأنهيار الأخلاقي مع فقهاء عصره لنبذ المنكرات كالسلطان الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون كما مر معنا.

[1] ابن حجر العسقلاني: ابناء العمز، ج3، ص302، والمقريزي: ن م، ج2، ق3، ص591، وسعيد عاشور: المجتمع المصري، ص230 وعلي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص293.

الطبقة العامة وعلاقتها بالطبقة الارستقراطية الحاكمة:

يقصد بالطبقة العامة جمهور الناس من عامة الشعب سواء أكانوا من العاملين أم العاطلين عن العمل وتسمى أحياناً "بالعوام" وهم يشكلون فئة كبيرة من جمهور الشعب الشامي من السكان الأصليين الذين سلبهم سلاطين المماليك وامراؤهم من السلطة السياسية على الرغم من أنهم أصحاب الحق الشرعي في سيادة مجتمعهم.

ويصف المؤرخ بولياك Poliak العامة بأنهم من الفلاحين والبدو والعبيد والحرفيّين وصغار التجار الذين عانوا من الفوارق الطبقية التي نتجت عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، مما أدى لتمردهم المستمر ضد السلطات[1].

أحوال الطبقة العامة:

لقد ارتأيت دراسة أحوال الطبقة العامة في عصر المماليك ببعض من التفصيل لأهمية دورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولأن المؤرخين أشاروا إليها باختصار فحاولت كشف بعض ما تيسر لي في المصادر والمخطوطات لعلي أسدّ ثغرةً في هذا البحث.

فبالنسبة لدورهم السياسي فقد كان موقفهم سلبياً حيث أيدّوا من عمل لصالحهم، كما شاركوا في الثورة ضد الأقوياء الطامعين على حساب طبقتهم الفقيرة، وساهموا ايضاً في صد بعض الاعتداءات الخارجية، وإفشال المؤامرات الداخلية ضد السطان وذلك أملاً في توفير الاستقرار الاجتماعي في البلاد وخاصة عندما قاوموا غلاء الأسعار والاحتكار والغش أملاً في تخفيف معاناتهم الاقتصادية بكسبهم بعض المعونات المادية والمعنوية. بعد أن تعرضوا للظلم والقهر الاجتماعي المتمثل في أعمال السخرة والرشوة والمصادرة بالإضافة للأوبئة والمجاعات التي تسببت في الأزمات الغذائية مما دفعهم للمشاركة في الثورات العامة كما سيمر معنا.

---

[1] دكتور حياة ناصر الحجي، ص 16 نقلت عن (بولياك مؤرخ فرنسي اسم كتابه امبراطورية المماليك).

وبالنسبة لموقف العامة من الاضطرابات السياسية: فقد وضح عندما تعرضت دمشق لخطر المغول بقيادة غازات الذي دخل دمشق 699هـ/1299م فدب الفزع في قلوب الناس الذين فروا من المدينة فتوجه البعض الى مصر[1]. وحدث نهب وقتل ودمار وغلت الأسعار.

ومن جانب آخر ذكر المقريزي: "وذهب لأهل مصر مال كثير في حركة غازان، إلا أنهم لسعة أحوالهم لم يبالوا بذلك"[2].

فأسرع السلطان الناصر في التجهيز للمسيرة الى الشام من مال وسلاح وعسكر ويلاحظ هنا تكاتف المجتمع المصري والشامي تحت الحكم المملوكي في وقت الأزمات لإزالة آثار العدوان والعمل من أجل سلامة الدولة.

وقد تكرر هذا التلاحم الاجتماعي الاقتصادي 700هـ/1300م عندما وردت الأنباء بقدوم المغول نحو بلاد الشام فاشتد الطلب لجمع المال، للاستعدادات العسكرية، فتضرر الناس وأظهر العامة شماتتهم وسخريتهم لأجناد المماليك لهزيمتهم السابقة أمام التتار فأمر السلطان بعقوبة أي عامي يتعرض للجند أثناء جباية الأموال للتأهب للحرب[3].

وبحجة درء خطر المغول تعرض سكان مصر والشام لأضرار كثيرة نتيجة دفع مبالغ باهضة لدعم الجيش المملوكي حيث استنزفوا أموال الناس من الأملاك والأوقاف والدور والإسطبلات والبساتين والأراضي الزراعية في دمشق وضواحيها، كما أخذوا الأموال من الفقراء والأغنياء والتجار والفلاحين فعانوا الكثير من الآلام وقد استخدم المماليك التركمان والأكراد كمرتزقة في جيشهم مقابل رواتب معينة، ولكنهم هربوا أمام هجوم جيش غازان المغولي على الشام. وكانوا لا يحبذون تجنيد أهالي مصر والشام خوفاً من وصولهم للقوة العسكرية الأمر الذي قد يؤدي للتخلص من المماليك.

بينما كان يُطْلَبُ منهم الاستعداد دائماً للدفاع عن أنفسهم ضد المغول حيث أُمروا بتعليق سلاحهم في الحوانيت، وملازمة الرمي بالنشاب، كما رأينا صورة صادقة من المشاركة الشعبية

---

(1) ابن حجر: م س، جـ3، ص292-294، وابن تغري: م س، جـ4، ص122، ابن اياس: م س، جـ1، ص140-141.

(2) المقريزي: السلوك، جـ1، ص889، وابن اياس: ن.م، جـ1، ص 141، وابن تغري: ن.م. جـ8، ص127.

(3) المقريزي: ن.م، جـ1، ص906-907. وابن حجر: ن م، جـ2، ص273-274. وابن تغري، ن.م، جـ8، ص124، 128-129، 131-132.

في الدفاع غير الرسمي عن الاسكندرية وطرابلس ضد الصليبيين عندما ضحوا بأنفسهم في سبيل الدفاع عنها. خوفاً من وقوعهم تحت وطأة الحكم الأجنبي

وكانت الأسعار ترتفع أيام الأزمات والغزو الخارجي نتيجة حرص الناس على تخزين كميات كبيرة من الطعام، فتبع كثرة الطلب ارتفاع الأسعار بل واختفاء الغذاء من الأسواق كما سعى التجار لجني الأرباح الطائلة، وعادت الأسعار الى طبيعتها بعد زوال الأخطار الخارجية.

وقد التفت العامة في مصر والشام حول السلطان في دفع المغول وهزيمتهم في موقعة مرج راهط في الثاني من رمضان سنة 702هـ/30 نيسان - ابريل 1303م[1].

ويلاحظ هنا أنه لا فرق بين العامة في مصر أو في الشام من حيث الالتفاف حول السلطان ومساندته بالدعاء له والتبرع بأموالهم بل والتضحية بأنفسهم في سبيل هزيمة المغول.

ونستطيع أن نشبه هذا بدور المقاومة الشعبية في مساندة الجيوش النظامية ف عصرنا الحالي.

وعندما خرج نائب الشام عن طاعة السلطان الكامل شعبان انضم اليه نواب الشام وانقسم الأمراء في مصر الى قسمين : مؤيد ومعارض للسلطان الكامل شعبان لسوء سيرته وشغفه باللهو وشرب الخمر وانتهى الأمر بقتله يوم الأربعاء الثالث من جمادي الآخرة سنة 747هـ/أيلول سبتمبر 1446م بزعامة الأمير يلبغا اليحياوي نائب الشام، فحكم سنة وثمانية وخمسين يوما[2] وكان ظالماً متعسفاً في التسلط على ممتلكات الناس، جائراً في فرض الضرائب والموكس[3].

ويلاحظان قتل السلطان الكامل كان حلقة من حلقات الصراع بين كبار الأمراء إذ أن قتله كان انذاراً موجهاً للأمير نائب السلطان وزوج أم السلطان.

وهناك مثال آخر على التكامل الاقتصادي بين بلاد الشام ومصر كما حدث سنة 736هـ/1335 عندما ارتفعت اسعار الغلال حيث ارتفع سعر إردب القمح من خمسة عشر

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ص930-939. وابن حجر: م س، جـ4، ص145. وابن اياس: م س، جـ1، ص143-144. وابن تغري: م س، جـ8، ص157-166م. والعمري: المسالك، ورقة 36، 37 مخطوط.

(2) المقريزي: ن م، جـ2، ص713. وابن اياس: ن م، جـ1، ص184-186. وابن تغري: ن م، جـ15، ص140.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص713، وابن اياس : ن م، جـ1، ص184-186. وابن تغري: ن م، جـ1، ص140-141.

درهماً إلى ثلاثين وأربعين درهماً، فامتنع الأمراء وغيرهم عن البيع طمعاً في الربح الفاحش، فتدخل السلطان خوفاً من حدوث أزمة اقتصادية فأمر والي القاهرة علاء الدين المرواني[1] بجلد الطّحّانين والخبّازين بالمقارع لتعذر شراء الخبز في القاهرة أما السلطان فكانت أجراءاته حمل الغلال من غزة والكرك والشوبك وبلاد دمشق الى القاهرة وأمر بتحديد سعر إردب القمح بثلاثين درهماً ولكن الأمراء امتنعوا عن البيع حتى انتشر السماسرة بدفع ستين أو سبعين درهماً خفية، فتفاقمت الأمور بالنهب ونودي بالقاهرة : "من كان عنده غلّة ولا يَبيعُها نُهِبَتْ" وفعلاً نَهبَت السوقة والحرافيش بأمر والي القاهرة[2] وعين مراقب في كل مخبز كما وصل مصر من الشام أربعة الاف غرارة قمح فأخرج أرباب الغلال القمح خوفاً من كسادها.

وبالنسبة للسلطان الناصر محمد فقد تمتع بشعبية كبيرة بين صفوف العامة أثناء حكمه طيلة اثنين وثلاثين عاماً وحين اعتزاله الحكم في الكرك، مما مكنه من تأسيس دولة قوية مستقرة سياسياً واجتماعياً كما كان العامة يُعَبّرون عن أحاسيسهم بالأغاني الشعبية عند انخفاض مياه النيل ومن الأسباب الاقتصادية التي كانت تسبب قلق العامة تزييف النقد والفلوس حيث تُغلَق الأسواقُ وترتفع الأسعار ويَخْزِنُ الأمراء القمح في شُونهم وعدم بيعه للخبّازين[3] حتى يصبح تدخل السلطان ضرورياً.

لذا لجأ السلطان الناصر محمد إلى سك فلوس جديدةً مُعْتَمَدةً حكومياً بالوزن لاستقرار السوق المالي لضمان استتاب الوضع الإقتصادي والأمان الاجتماعي وخاصة العامة. كما حدث سنة 720هـ/1320م[4] إذ أبطل السلطان فلوس دمشق المسماة قراطيس، والقرطاس ستة فلوس والدرهم الفضة أربعة وعشرون قرطاساً، وضَرَبَ بدلاً منهًا فلوساً زنة كل منها درهم وصار الدرهم بثمانية واربعين فلساً مثل معاملة مصر بهدف توحيد النقد لإعادة الثقة المالية بالأسواق

---

(1) ابن حجر، الدرر، جـ3، ص110.

(2) ابن حجر: ن.م، جـ5، ص257-258. والمقريزي: السلوك، جـ2، ص394-396. وابن اياس: م س، جـ1، ص169

(3) د. حياة حجي: م س، ص192.

(4) ابن حجر: ن م، جـ3، ص15-18.

وزيادة النشاط التجاري. بعد وصول الغلال والنداء بارتفاع نسبة مياه النيل نزل سعر الخبز من ستة أرطال للدرهم الى ثمانية أرطال للدرهم(1).

وهكذا استطاع الناصر محمد محاصرة الأزمة الاقتصادية المفتعلة بسبب جشع الأمراء والتجار أيام الأزمات الاقتصادية وذلك بإحضار القمح من مدن الشام وتحديد سعر القمح، والتهديد بالعقاب الشديد بتسليط العامة لنهب من يُخَبّيء الغلال ويرفض بيعه كما عين ضياء الدين يوسف بن محمد محتسباً لمصر لإجبار الأمراء على بيع القمح المخزون بالسعر الرسمي فأخرج القمح بالقوة من الشوَنِ ووزّعها على الطحّانين بالإضافة لوصول القمح من الشام والصعيد.

ومن الأمثلة الأخرى على معاناة الناس في عهد الناصر محمد ما حدث سنة 740هـ/1339م اذ رفع سعر صرف الدينار بخمسة وعشرين درهماً بعد أن كان بعشرين درهماً وذلك لسداد الدين الذي كان على السلطان للتجار(2).

فنلاحظ هنا عادة السلاطين في الاستدانة من كبار التجار لتوفير حاجاته وكان يتم ذلك بواسطة ناظر الخاص القائم بالشؤون المالية في الخزانة السلطانية كما تدل هذه الظاهرة على تزايد مصاريف بلاط السلطان لإسرافه في البذل والمتعة، إذ أن دَخْلَ الخزينة كان لا يكفيه لمصاريفه الزائدة، فلما عجز السلطان عن سداد ديون التجار، اقترح عليه جمال الكفاة ناظر الخاص برفع سعر الدينار لتقليل قيمة المبالغ المدفوعة وسداد جزء من الديون فقط واهمال القسم الآخر، وبذلك لا يكلف الناصر محمد بسداد جميع الدراهم التي استدانها.

ونَعْتَبر هذا تلاعباً من السلطان من أجل منافع خاصة له على حساب أموال الناس وحقوقهم الواجبة على السلطان. فعم الضرر البائع والمشتري لنقص القيمة الشرّائية للدينار والدرهم وارتفاع سعر الذهب مما سبب تضخماً اقتصادياً أضر بالجميع ما عدا الأمراء الذين كانوا يعيشون في بذخ وترف فاحش.

---

(1) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص، 1956، ص 39. والمقريزي: السلوك، جـ2، ص394-396.
Lapidus, Ira Marvin, Muslim Cites in the Later Middle Ages, Harvard Univ. Press Cambridge Massachuyetts, 1967, p. 51.

(2) ابن حجر: الدرر، جـ1، ص82. وابن تغري: م س، جـ9، ص131. والمقريزي: ن م، جـ2، ص488.

ولم تقتصر ظاهرة الغلاء على إقليم مصر فقط، وإنما شمل ذلك الأقاليم المملوكية وجيرانها من الدول الأخرى إذ كان ارتفاع الاسعار في مصر يؤدي الى ارتفاع الأسعار في الأقاليم الشاميّة، بالاضافة إلى ارتفاع الأسعار بعد غزو الجراد القادم من شبه الجزيرة العربية للمحاصيل الشامية، وبعد القضاء على الجراد تتحسن الأسعار كما حدث سنة 1342/743م عندما غزا الجراد حلب ودمشق والقدس وغزة ثم هلك عند دخوله الرّمال حتى ملأ الطرقات فتحسنت الأسعار ببلاد الشام[1].

أما الظواهر غير العادية في السنوات الأخيرة من عهد الناصر محمد ما ذكره المقريزي سنة 738هـ/1337م عندما انخفضت اسعار الغلال، فكسدت، حتى اغضب ذلك كبار الأمراء مثل رزق الله أخو النشو كاتب الأمير ملكتمر الحجازي وولي الدولة صهره وهو كاتب المجدي، فباعا القمح زيادة درهمين للأردب بعسف وظلم عندما اجبرا الناس على شرائه زيادة عن سعر السوق[2].

هذه الحادثة تظهر اطماع وجشع امراء المماليك في تحقيق الربح الوفير على حساب أقوات العامة فكان ذلك نوعاً من الظلم الاجتماعي.

كما لوحظ أن انخفاض الأسعار أدّى لضعف عملية البيع والشراء فتعرضت التجارة للكساد. لذا كانت حاجة العامة الى سلطان قوي الشخصية يمنع تمادي أمثال هؤلاء الأمراء لتوفير العدل والمساواة بين الرعية.

ظاهرة الغلاء وأسبابها:

كانت سنوات القحط والأزمات الاقتصادية اسباباً رئيسية لزيادة الأسعار وتَفشّي ظاهرة الغلاء كما ذكر المقريزي عام 709هـ/1309م وذلك عندما توقفت زيادة النيل "فارتفع سعر القمح حتى بيع الاردب بخمسين درهماً واردب الشعير والفول بعشرين درهماً"[3].

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص622-623.

(2) ابن حجر: م س: جـ2، ص200-201، جـ5، ص127-128.

(3) المقريزي: السلوك، جـ1، ص914-915. وابن حجر: ن م، جـ2، ص276.

ويضيف ابو المحاسن قائلاً: "وخاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، وتشاءم الناس بسلطنة الملك المظفر بيبرس وأخذت دولة الملك بيبرس في اضطراب وذلك أنه أكثر من توهمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون"[1].

كما تَهجّم العوام على الأمير سلار الذي لقبوه "دقيق" لوجود شعيرات في حنكه لأنه كان أجرداً وسماه السلطان الناصر محمد بن قلاوون "الأعرج" لوجود بعض العرج في قدمه، ولقبوا بيبرس الجاشنكيز بـ"ركين" لأن لقبه كان ركن الدين، فأمر السلطان الناصر بجلد نحو ثلاثمائة من العوام فنفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام[2].

فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من حوادث تتضمن دلالات كثيرة تدل على أن توقف زيادة النيل كان يؤدي الى ارتفاع الأسعار والأزمات الاقتصادية فيلجأ الأمراء إلى عدم بيع المخزون من القمح في بيوتهم في أثناء حكم السلطان الضعيف ثم يبيعونه باسعار خيالية سعياً وراء الربح الفاحش[3].

وكان العامة يخرجون برفقة أئمة المساجد لصلاة الاستسقاء للدعاء بنزول الغيث، مع اعتبار ارتفاع الأسعار عند اعتلاء احد الأمراء كرسي السلطنة نذير شؤم وبالعكس فينالهم عقاب السلطان مما يدل على شجاعتهم في التعبير عمّا يجيش في صدورهم. وكما حدث سنة 694هـ/1294م في عهد السلطان العادل كتبغا في دمشق[4] ومصر من جفاف وهبوط نسبة الماء في النيل فمات الناس بالألوف يومياً[5] فاتخذ السلطان قراراً بتوزيع الفقراء على الأغنياء والأمراء للصرف عليهم[6] لتخفيف المعاناة عن أبناء هذه الطبقة الفقيرة خدمة للمصلحة العامة للدولة وكَأنّ للأزمات الاقتصادية في مصر انعكاساً مباشراً على بلاد الشام والحجاز، حيث

---

(1) أبو المحاسن، م س، جـ8، ص243-244.

(2) أبو المحاسن: ن.م، جـ8، ص245، المقريزي: السلوك، جـ2، ص56-59، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص56.

(3) ابن حجر: م س، جـ2، ص36-40.

(4) ابن حجر: ن م، جـ3، ص348-350.

(5) المقريزي: الخطط، جـ2، ص239. والسلوك، جـ1، ص808-809. وأبو المحاسن: ن م، جـ8، ص59.

(6) المقريزي: السلوك، جـ1، ص815. وأبو المحاسن: ن م، جـ8، ص57. وابن اياس: م س، جـ1، ص133-134.

"بيعت غرارة القمح في مكة بالف ومائتي درهم"[1] وكان القصاصون في مصر قد باعوا لحوم الكلاب والميتّة واضطر الناس لأكلها من أجل البقاء ومقاومة الجوع[2].

ومن الظواهر الاجتماعية التي تسببت في ارتفاع اسعار المواذ الغذائية كاللحوم والبقول والغلال هجرة سكان الريف الى المدن، وانتشار قطاع الطرق بين الريف والمدن، بالاضافة الى صراع القبائل البدوية وجماعات العربان في أقاليم بلاد الشام ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي في حودث شعبان 748هـ/تشرين الثاني نوفمبر 1347م من ارتفاع سعر القمح واللحم والمواد الغذائية لهجرة أهل الريف وقطاع الطرق بأرض مصر وبلاد القدس ونابلس وفئة العشير بعضهم مع بعض[3].

كما يشير المقريزي الى إحدى ثورات العامة سنة 740هـ/1341م عندما رجمت العامة ابن الأطروش المحتسب لضربه خبازاً خفّضَ سعر الخبز إذ باع كل ثمانية أرطال بدرهم بينما السعر المحدد من قبل الدولة كل سبعة أرطال بدرهم[4]. فَرَجْمُ العامّة للمحتسب وإهانته بُعَدّ تعبيراً عن سوء الحالة الاقتصادية لهؤلاء الناس نتيجة البطالة وسوء ظروفهم الاجتماعية المهنية وكساد التجارة والأزمات الاقتصادية الناتجة عن الأزمات السياسية والتي تؤدي للتوتر الاجتماعي إذ كان مطلبهم الوحيد الحصول على الغذاء اليومي بسعر رخيص مقابل حياة البذخ والترف لدى أمراء المماليك مع احتكارهم لاقطاعات الزراعة والتحكم بأسعار القمح والذرة وجميع الحبوب، بالاضافة لعدم فيضان النيل المسبب لارتفاع الأسعار فعَانى الفلاح من قلة المحصول مع الالتزام بدفع الضرائب والمكوس.

ومن الأسباب الأخرى لارتفاع الأسعار والغلاء الكوارث الطبيعية التي أثرت على الكثافة السكانية ايضاً في جنوب بلاد الشام زمن الأيوبيين والمماليك ما ذكر بنيامين التطيلي اليهودي

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ص909. وأبو المحاسن، م س، جـ8، ص57.

(2) ن م، ن ص.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص622-623، وابو المحاسن: ن م، جـ10، ص195.

(4) المقريزي: ن م، جـ2، ص758.

الاسباني حدوث زلزال في سوريا ما بين عام 555-568هـ/1157-1170م. وقتل من أهل فلسطين حوالي عشرين ألفاً أثناء زيارته لفلسطين[1].

وتعرضت عكا عام 659هـ/1260م الى زلزال هدم سبع جزر من البحر ودفن أهلها أحياءً[2] كما دمر زلزال عنيف اللِّد والكرك[3] عام 692هـ/1292م وألحق بهما مع العديد من مدن بلاد الشام الأضرار[4] الكبيرة.

هذا بالاضافة للجفاف وانحباس المطر الذي أدى لموت أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية ونزوح الناس عن أوطانهم كما حدث عام 1290/689 عندما أجدبت الشام من الغور إلى عريش مصر فخلت الفان وثمانمائة قرية من القبائل[5] وأما السيول فكانت تقتلع الأشجار والطواحين وتجرف المزارع كما حدث عام 1292/692 لمدن غزة والكرك وغيرها عندما هدمها سيل كبير[6]ولم تقتصر بلاد الشام في العصر المملوكي على الزلازل والجفاف والجراد والسيول والغلاء بل أصابها وباء الطاعون منذ أواسط القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي الذي أدى لهلاك السكان كما حدث عام 748هـ/1347م. إذ تعرضت بلاد الشام "للفناء العظيم" عندما أباد أهل القدس ونابلس، وعكا، وصفد، والغور، والكرك، وعرب البوادي وسكان الجبال، فلم تنج من بلدة جنين سوى عجوز فرّت منها.

أما مدينتي اللد والرملة فهلكوا جميعاً وفقدت غزة اثنين وعشرين ألفاً[7].وقد استمرت الأمراض الخبيثة في عموم بلاد الشام وخصوصاً دمشق وحلب وغزة وهلك خلق كثير. وفي

---

(1) زيارة نقولا، رواد الشرق العربي، ص86.

(2) ابن الوردي، "تتمة المختصر"، جـ2، ص306.

(3) المقريزي: السلوك، جـ3، ص783، أبو المحاسن :م س، جـ8، ص36.

(4) أبو الفداء: م س، جـ4، ص50.

(5) المقريزي: ن م، جـ3، ق2، ص609.

(6) انظر الذهبي: دول الاسلام، جـ2، ص132، 134، النويري: نهاية الأرب، جـ3، ص176، وابن طولون، رسائل تاريخية، ص26، وابن قاضي شهبه: تاريخه، جـ2، ص156، 157.

(7) المقريزي: الخطط، جـ1، ص409-413، 450-451، 183-184، 201-207، والسلوك، جـ2، ق3، ص774. حيث سماه الأوربيون الموت الأسود (Black Death). وفي المصادر العربية "الفناء العظيم". غوانمه: "الطاعون والجفاف" ع13، 14، ص74.

فالطاعون: مرض وبائي ينتقل عن طريق الفئران والجردان وبصيب الغدد اللمفاوية في الفخذ وتحت الأبط والأذن ومنها تنتقل الميكروبات للدم فيتقيأ لمدة ثلاثة أيام، وتكون الأورام بحجم حبة العدس، فإذا تقيحت نجا المريض وان بقت صلبة هلك في اليوم الخامس وأحياناً يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء.

عام 774هـ/1473 استمر الطاعون في بلاد الشام ستة أشهر هلك خلالها أعداداً كبيرة[1] و كان البرد الشديد والعواصف والثلوج سبباً في هلاك البشر والحيوانات والنباتات[2].

وهكذا يمكننا القول أن سبب قلة الكثافة السكانية في بلاد الشام وبالأخص جنوبها في العصر المملوكي ناتج عن عوامل بشرية وطبيعية خارجة عن إرادة وقوة الانسان بالإضافة الى حروب الفرنجة وغزوات المغول التي أهلكت البشر ودمرت المدن وأهلكت المحاصيل فأدى هذا التدني في الكثافة السكانية الى سوء الحالة الاقتصادية والإجتماعية والعمرانية والثقافية. مما يقودنا الى القول: بأن ذلك أدى الى تراجع حضاري في بلاد الشام في العصر المملوكي.

مشاركة الطبقة العامة في الثورات على حكم المماليك:

لقد كان بديهياً انضمام العاطلين عن العمل للثورات وكان تأييد الطبقة العامة للسلطان الجديد يتوقف على حالتهم الاقتصادية وشخصية السلطان فيتشاءمون منه اذا ارتفعت الأسعار كما حدث عندما تولى العادل كتبغا[3] السلطنة[4] وانتشار الوباء وكثرة الموت[5] فاعتبروه طالع نحس[6]، وكانت هذه العوامل من أسباب الاطاحة بحكمه[7].

وهذا يدل على عدم الاستقرار السياسي لسلطنة المماليك كما كان انخفاض الأسعار، وعموم الرخاء، وقلة الأمراض تفاؤلاً بالخير[8]، وذلك عندما تولى المنصور لاجين السلطنة[9].

---

(1) ابن قاضي شهبه: م س جـ3، ص468. وابن الوردي:م س، جـ2، ص442. والمقريزي: السلوك، جـ3، ص81-83.

(2) ن م، جـ3، ص613، ص3. والمقريزي: السلوك، جـ3، ص81-83. وابن الوردي:م س، جـ2، ص442.

(3) ابن حجر: م س، القاهرة، 1966، جـ3، ص262 فما بعد. وابن اياس: م س، القاهرة، 1893-1896، جـ1، ص133 وابن تغري بردي: م س: جـ8، ص7، 8، 42-43، 44، 45، 49-50، 55-57، 63-67.

(4) ابن تغري: ن.م، جـ8، ص55، 56، والمقريزي: ن.م، جـ1، ص806، ابن اياس،م س، جـ1، ص133.

(5) وابن تغري: ن.م، جـ8، ص57، 71، المقريزي: ن.م، جـ1، ص807، ابن اياس: ن.م، جـ1، ص133.

(6) ابن تغري: ن.م، جـ8، ص57، المقريزي: ن.م، جـ1، ص807،ابن أياس، ن م، ج، ص133-134.

(7) المقريزي: ن.م، جـ1، ص809، 810، المقريزي: الخطط، جـ2، ص239، ابن اياس، ن م، جـ1، ص133-143، ابن تغري: ن م، جـ8، ص57، 68.

(8) ابن اياس :ن م، جـ1، ص36، المقريزي: السلوك، جـ1، ص820.

(9) المقريزي: ن م، جـ1، ص828، 829-830، 831،832،833-837، 848-849، 856-857. وابن اياس: ن م، جـ1، ص136-139.

هذا وقد تمتع الشعب بالخير والرزق طيلة مدة حكمه لمدة سنتين وشهرين[1].

كما اكتشب الناصر محمد بن قلاوون شعبية كبيرة بين مختلف طبقات المجتمع[2] وهذا ما لاحظناه عندما بعث اليه الأمراء في الكرك أن يحضر لتولي الحكم إذ هيّأ له "نائب الكرك ما يليق به، وسار به الى القاهرة، فخرج الأمراء والعساكر وجميع الناس الى لقائه في القاهرة يوم السبت الموافق رابع جماد الأولى 698هـ/1300م[3].

وهذا يظهر بوضوح محبة الرعية بوجه عام للناصر محمد بل ولأسرة قلاوون جميعها لأنه كما يبدو كانوا رمزاً للاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي والطمأنينة الفكرية هذا على الرغم من حالة الضيق التي كان يعاني منها الناصر محمد من الأمير سيف الدين سلار[4] وبيبرس الجاشنكير[5] لسلبهما سلطته السياسية والمالية[6] فقرر الخلاص منهما بالاستعانة بالأمير بكتمر الجوكندار الذي انضم للأميرين السابقين اللذين طوقا القلعة بعسكريهما مما دفع بالسلطان الناصر محمد الى اعتزال الحكم[7].

ولكن العامة زحفوا نحو القلعة غضباً لما حدث لسلطانهم مطالبين بعودته للحكم فتم لهم ذلك[8]، فعين الأمير الجوكندار نائباً لصفد[9].

وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية الدور الذي لعبته العامة في المشاركة بطبيعة الوضع السياسي في دولة المماليك للمرة الأولى حيث كانت العامة ترغب في تقوية مكانة الناصر محمد المحبوب لديهم ضد كبار الأمراء المماليك الأوليجاركيه اصحاب السلطة الفعلية في الدولة

---

(1) الصفدي، نزهة المالك والمملوك، القاهرة ورقة 39، 42، مخطوط، ابن تغري:م س، جـ8، ص85. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص825، الخطط، جـ2، ص239. وابن حجر: م س، جـ4، ص144.

(2) ابن حجر: ن.م، جـ5، ص261-265. د. حياة حجي: م س، ص18.

(3) المقريزي: السلوك، جـ1، ص872، والخطط، جـ2، ص239، ابن اياس، م.س، جـ1، ص139، ابن تغري: ن م، جـ8، ص115-116. الظاهر: خليل بن شاهين مخطوط، تحقيق بول ريفز باريس 1894، ورقة 203.

(4) ابن حجر: الدرر، جـ2، ص179-182، وابن تغري: ن.م، جـ8، ص100، 105، 130، 160، 167، 170، 173،175، 180، 235، 240، 248، 250، 257، 270.

(5) ابن حجر: ن م، جـ1، ص502-507.

(6) المقريزي: ن م، جـ1، ص879، وابن تغري: ن م، جـ8، ص170، ابن حجر، ن.م، جـ1، ص505، جـ3، ص263.

(7) المقريزي: ن م، جـ2، ص33-36، ابن تغري: ن.م، جـ8، ص170-173.

(8) المقريزي: السلوك، جـ2، ص35-36، ابن تغري، ن م، جـ8، ص171-174.

(9) المقريزي: ن.م، جـ2، 34، ابن تغري: ن.م، جـ8، ص171-174.

والذين رضخوا لرغبات العامة بعد فشلهم في تهدئة ثورة العامة وإعادة الوضع الى حالته الطبيعية العادية باستخدام القوة.

وقد تأكد هذا التأييد والشعور بالمحبة الزائدة له سنة 709هـ/1309م "عندما شاع بين الناس سَيْرُ الملك الناصر من الكرك، فثارت العوام وضاحوا: "نصره الله" وركب الأجناد الى النائب فاستدعى من بقي من الأمراء والقضاة، ونادى: "معاشر اهل الشام مالكم سلطان إلا الملك المظفر"، فصرخ الناس بأسرهم: لا لا! مالنا سلطان إلا الملك الناصر"[1].

وعندما ترك الناصر محمد الكرك متجهاً الى دمشق ماراً بالكسوة استُقْبِلَ استقبالاً حافلاً من قبل الأمراء والأجناد وكافة العامة الذين توافدوا لاستقباله.

فكان هذا أروع صورة شجاعة للتعبير الشعبي في سلطنة المماليك رغم تهديد الأمراء بالعقاب مثل سلار وبيبرس فاستقبلوه بحفاوة بالغة عندما عاد للقاهرة لتولي مقاليد الحكم، فخرج الأمير بيبرس منها نحو الصعيد تحت ضغط العامة ورموه بالحجارة[2]. تعبيراً عن كراهيتهم له على الرغم من نثره المال والذهب عليهم الذي كانوا بحاجة إليه لفقرهم، وكان ذلك سبباً في تقوية سلطنة الناصر محمد حتى أنهّ تمكّن من عزل الخليفة العباسي وتولية آخر بدلاً منه[3].

وهكذا استمر الناصر محمد في حكمه يتمتع بذلك التقدير الشعبي الكبير حيث كان الناس يتسابقون لرؤيته متمنين ذلك يومياً[4] لحبهم الكبير له ورؤيتهم لحكمه باستمرار الاستقرار السياسي والاجتماعي.

فكانوا يرسلون له رسائل سرية مجهولة الاسم لإخباره بما يعرفونه أو يسمعونه عن المؤامرات التي كانت تحاك ضده في الخفاء للإطاحة به وكان الناصر محمد يُصَدّقُ ذلك لمصلحته الخاصة كما اشتكى بعض العامة في هذه الرسائل من تقريبه لأهل الذمة واستخدامهم في الدواوين وتطاولهم على العامة.

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص67، 70-71، ابن تغري: م س، جـ8، ص244، 270-271، ابن حجر: م س، جـ1، ص506، ابن اياس: م.س، جـ1، ص151-152.

(2) المقريزي: ن م، جـ2، ص71، ابن اياس: ن م: ن.م، جـ1، ص153، وابن تغري: ن م، جـ8، ص271.

(3) Arnold Thomas W. The Caliphat, London, 1965. pp, 99-100.

(4) المقريزي: ن م، جـ2، ص83، ابن اياس: ن.م، جـ1، ص135، ابن تغري: ن.م، جـ8، ص271.

وبعد وفاة الناصر محمد سنة 741هـ/1340م تولى الحكم من بعده ولده أبـو بكـر[1] باسـم السلطان المنصور الذي خلع سنة 742هـ/1334[2] وتولى بعده الأشـرف عـلاء الديـن كجـك[3] وعمره خمس سنوات وخلع بعد ستة أشهر[4]، وشهد عهده نفي أولاد الناصر محمد الـى قـوص في الصعيد[5] والذين أعيدوا للقاهرة بعد تولية أحمد بن النـاصر[6] الـذي اشـترط علـى امـراء المماليك عودة إخوته من المنفى[7]، وهرعت العامة لاستقبالهم بحفاوة.

وهكذا نلاحظ أن أولاد محمد الناصر كانوا يحظون بشـعبية كبـيرة عنـد العامـة فـانتصروا لهم وعرضوا أنفسهم للخطر في سبيل مساندتهم والدفاع عنهم علماً بـأن أحمـد بـن النـاصر كـان موجوداً في الكرك (الأردن) ليبشـروا بقدومـه للقـاهرة فركـب الهجـن بصحبـة عـرب الصحـراء الأردنية وخرج العامة للقاء السلطان[8] ابتهاجاً بقدومه كرمز للرخاء الاقتصادي الذي ينشدونه.

ولكـن حلـم العامـة لـم يكتمـل حيـث انتهـى حكـم الناصـر أحمـد فـي محـرم سـنة 743هـ/1342 حزيـران / يونيـو بتولـي أخيـه الصـالح اسـماعيل[9] سلطنـة المماليـك[10]، واستمـرت سلطتـه ثـلاث سنوات حتى سنة 746هـ/1345م وخلفه فـي الحكـم الكـامل[11] شـعبان بن الناصر محمد حتى قتل في السجن سنة 747هـ/1346م وتولـى بعـده المظفـر حاجي سادس أولاد الناصـر محمد الذين تسلموا حكم الممـاليك[12]، والـذي حكـم سـنة وثلاثـة أشهر وأربعة عشر يوماً بعد قتله فـي رمضـان 748هـ/1347م[13]. ونصـب أمـراء الممـاليك

---

(1) ابن حجر: م س، جـ1، ص494-496.

(2) ابن اياس: م س، جـ1، ص176-177

(3) ن.م، جـ3، ص351-352

(4) ن.م، جـ1، ص177-179.

(5) ن.م، جـ1، ص177.

(6) ن.م، جـ1، ص314-316.

(7) ابن تغري: م.س، جـ15، ص3، 21، 50، 55.

(8) ابن حجر، ن.م، جـ5، ص257-258، جـ2، ص203.

(9) ابن حجر: ن م، جـ2، ص289.

(10) ابن تغري:ن م، جـ10، ص78، ص289.

(11) ابن حجر: ن.م، جـ2، ص289.

(12) ن.م، جـ2، ص83-85.

(13) ابن اياس ن.م، جـ1، ص186-189. وابن تغري بردي: ن م، جـ10، ص145، 172-174.

بعده الناصر حسن[1] عام 748هـ/1347م فحكم ثلاث سنوات وتسعة أشهر لعزله بواسطة بعض الأمراء المماليك الأوليجاركية سنة 752هـ/1251م[2] وتولى بعده السلطان صلاح الدين صالح بن الناصر محمد سنة 752هـ/1351م والذي أحبه الشعب مثل والده وذلك لعدله ومساواته كوالده السلطان الناصر محمد.

وهكذا نرى بأن أولاد الناصر محمد كسبوا حب الشعب وتأييده[3] وأنهم لم يستقروا في الحكم مدة طويلة لتسلط أمراء المماليك الذي تحكموا بهم وكادوا يسلبوهم هذه السلطة لولا محبة العامة لهم التي أدت لاستمراريتهم في الحكم[4] لمدة تزيد على القرن (678-883هـ/ 1380-1484م) لأن أفراد هذه الأسرة كانوا رمزاً للأمان والطمأنينة والاستقرار مما أجبر أمراء المماليك الأوليجاركيه على الحرص ببقاء أبناء هذه الأسرة في سدة الحكم على الرغم من أن حكام النصف الأخير من هذه الفترة، كانوا أطفالاً لا سلطة لهم، في حين تمتع كبار الأمراء المماليك الأوليجاركيه بسلطات واسعة، حيث كان سلاطين أسرة قلاوون مجرد واجهة رسمية لاقناع الشعب باستمرار وجود هذه الأسرة على كرسي الحكم، ولكن ذلك التغيير المستمر لهؤلاء الأطفال وتنازع كبار الأمراء على السلطة، سببت القلق وعدم الاستقرار في المجتمع فقاموا بثورات من أجل هؤلاء وتجلى ذلك عام 775هـ/1374م حزيران- يونيه ضد الأمير الجاي اليوسفي مدبر أمور الدولة عندما حاول أخذ السلطة من السلطان الأشرف شعبان والذي أدى لغرقه في النيل[5]، فكان هذه تأكيداً لقوة الرابطة بين السلطان والأشرف ورعاياه من العامة الذين ضحوا بحياتهم في سبيل حمايته، فشكلوا جيشاً غير رسمي والذي كان دائماً على أهبة الاستعداد لمساندة أسرة قلاوون.

---

(1) ابن حجر: م س، جـ2، ص124-126؛ وابن تغري، م س، جـ10، ص173، 174 - 187. وابن اياس: م س، جـ1، ص190

(2) ابن اياس: ن م، جـ1، ص194، ابن تغري، ن.م، جـ15، ص230-233.

(3) ابن اياس: ن م، ن ص، ابن تغري: ن.م، جـ5، ص254.

(4) المقريزي: السوك، جـ2، ص876، ابن اياس: ن.م، جـ1، ص197.

(5) المقريزي: ن م، جـ3، ص214، 215، ابن اياس، ن م، جـ1، ص228، ابن تغري:النجوم، جـ11، ص60-62.

واستطاع السلطان الأشرف استغلال حب الشعب له بالقضاء على مماليك الأوليجاركية[1] بمساعدة العامة.

كما نلاحظ أن معظم ابناء اسرة قلاوون كانوا يقيمون في الكرك عندما يستدعيهم أمراء المماليك مما يدل على أنهم كانوا يفضلون البقاء بعيداً عن صراع المماليك الأوليجاركيه وأن العامة كانوا يشكلون وفداً للكرك لاحضار السلطان كالناصر أحمد. وأضفى الأمير ايدغمش طابع الرسمية على هذا الوفد[2]. وبعد قراءة روايات المقريزي عن العامة[3] وعلاقتهم بالسلطان نرى بان العامة كانوا على اطلاع بما يدور في البلاط السلطاني، إذ كانوا يظهرون مشاعرهم تأييداً للسلطان ضد أمرائه من المماليك، فكانت شجاعتهم العفوية من أهم ملامح فعاليتهم في المجتمع حيث تحالف معهم سلاطين المماليك للإطاحة بفئة من الأمراء أصحاب السلطة المطلقة كما ذكر المقريزي في مناصرة العامة للسلطان الناثر محمد وأسرته والتفافهم حولهم[4]. مما عرضهم للعقاب الشديد من قبل الأمراء الأوليجاركية. كما كانت الكرك منفى الأمراء المغضوب عليهم كالأمير قطلوبغا الفخري وطشتمر حمص اللذان سُجنا بقلعة الكرك بعد اهانة العامة للفخري عام 742هـ/1341م. كما نهب أهل الكرك حريم قطلوبقا الفخري وبالغو في الفحش والاساءة لهم[5]. و لوحظ تكاتف العامة وعسكر السلطة في رد العدوان الأجنبي الصليبي على الاسكندرية[6].

كما لوحظ في الدولة المملوكية ظهور أحزاب جديدة ذات قدرة سياسية وعسكرية كطائفة الأجلاب التي بدأت تمارس كثيراً من الصلاحيات في شؤون السلطنة ودواوين الأمراء حتى بلغ بهم الأمر تهديد الأمراء والتفكير بالانقلاب عليهم، وقد تآمر الأمير استدمر الناصري ضد السلطان الأشرف شعبان لوقوفه ضد مطالبهم وأطماعهم الشخصية. فهزمهم الأشرف شعبان لوقوف العامة معه.

وهذا يظهر أيضاً التدرج في السلك الوظيفي المملوكي في البلاط السلطاني.

---

(1) المقريزي:السلوك جـ3، ص215، وابن تغري:م س، جـ11، ص61-62.

(2) المقريزي: ن م، جـ2، ص595، وابن تغري بردي، ن م، جـ10، ص52.

(3) ابن اياس: م س، جـ1، ص178، ابن تغري: ن م، جـ5، ص24-28.

(4) المقريزي: ن م، جـ2، ص575، 576، 577، ابن اياس: ن.م، جـ1، ص178. ابن تغري: ن.م، جـ10، ص24-29.

(5) المقريزي: ن م، جـ2، ص160، ابن تغري: ن م، جـ1، ص68، ابن اياس، ن م، ص180، ابن حجر: م س، جـ1، ص421-422.

(6) المقريزي: ن م، جـ3، ص104. وابن تغري: ن م، جـ1، ص262. وابن اياس: ن م، ط1، ص195.

وكما حدث سنة 782هـ/1380م عندما وقعت الفتنة بين الأمير برقوق والأمير بركه[1] في عهد السلطان علاء الدين علي بن الأشرف شعبان بن الناصر محمد بقتال فئتين من العامة.

وهكذا استطاع بعض الأمراء استغلال بساطة العامة وتفانيهم في الاخلاص من أجل تحقيق أغراضهم الخاصة وطموحاتهم الشخصية والسياسية بدون أجر على أن هؤلاء لم يكن يتذكرون العامة إلا وقت الأزمات والمحن وكأنَّ شؤونهم وقضاياهم ليست جزءاً من مسؤوليات حكومة سلطنة المماليك مُستغلين نقاط الضعف عند العامة وهي الرغبة في السلب والنهب حيث يسمحون لهم بذلك أثناء الأزمات فهذا التّهاون من بعض الأمراء كان لأجل استتاب الأمن والاستقرار في المجتمع المملوكي بالرغم من معاناة الكبار والصغار من عبث العامة في أملاكهم وكأن السلطة الرسمية تبيح ذلك في سبيل تحقيق منافعهم الشخصية، فلا بأس اذن من تسليط العامة. كما كَوّنَ بعض كبار الأمراء فرقاً عسكرية كبيرة خاصة بهم لحمايتهم وقت المحن ومهاجمة أعدائهم عند الضرورة أثناء الصراعات الشخصية الحزبية بين أصحاب السلطة من كبار أمراء المماليك الأوليجاركية مما سهل استباحة الدماء وسرقة البيوت وهدم دور الأمراء والتطاول على نساء الأمراء مثيري الفتن ومدبري المؤامرات لذا كان هؤلاء الأمراء يحرصون على تأمين نسائهم عند من يثقون بهم من الأتباع وقت الأزمات وهذا الشيء لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال مهما كانت اسبابه.

كما برزت ظاهرة الحروب الإقطاعية في عهد أحفاد الناصر محمد بسبب الصراع على السيادة والسلطة بين الأمراء خاصة في ظل حكم سلطان صغير السن مسلوب الإرادة، ليس له من الحكم إلا الإسم، لذا حرص الأمير المنتصر على مكافأة العامة بعد النصر بتلبية مطالبهم في تعيين من يريدون من الولاة لمدينة القاهرة ووظيفة المحتسب وقد أظهر العامة استياءهم تجاه المواقف غير المسؤولة واللائقة في مواقف أجهزة الدولة الإدارية ومرافقها التعليمية والتوجيهية كما حدث في ذي القعدة سنة 778هـ/ آذار مارس 1377م عندما رفضوا وسخروا من تعيين

---

[1] المقريزي: السوك، جـ3، ص381-283. وابن اياس : م س، جـ1، ص245-248. وابن تغري:م س، جـ1، ص174-178.

جمال الدين محمود القصيري العجمي الذي كان من من فقراء العجم يجلس ليبيع الثمر وكان بدون منزل يأوى اليه[1].

كما أنّ ما ذُكر لا يعني أن العامة لعبوا على الدوام دور المشارك في كل ما يقع من حوادث وفتن ومؤامرات، فكان موقفهم أحياناً المشاهدة والتفرج كما حدث سنة 693هـ/1295م مع بداية سلطنة الناصر محمد عندما عاقب علناً بالقتل وتقطيع الأيدي لمدبري الفتنة والمؤامرة من كبار الأمراء التسعة أمام الناس[2]. هذا بالاضافة الى عدم معرفة عامة الشعب في مصر والشام أحياناً بما يجري من حوادث سياسية إذ كانوا يفاجؤن بها ولا يملكون سوى تقبلها كما حدث عام 696هـ/1298م عندما خلع العادل كتبغا عن كرسي السلطنة[3] وتولية المنصور لاجين مقاليد الحكم.

وقد وقف العامة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون ضد الأمير تنكر الحسامي نائب الشام فدأبوا على مناصرة السلطان وتأييده المطلق ضد المؤامرات والفتن هتافاً وصياحاً والسعي إلى حمايته بحمل السلاح فاعتبر السلطان الناصر محمد محظوظاً في التمتع بهذه الشعبية الواسعة بين طوائف العامة، فاستفاد من هذه الركيزة البشرية في سبيل تحقيق الكثير من المكاسب في حقل السياسة والحكم، مما جعل الأمراء الأوليجاركيه ينكلون بأولاده انتقاماً من سياسته بعد وفاته عام 741هـ/1340م حيث بدأوا بخلع السلطان المنصور أبي بكر بن الناصر محمد ونفيه مع جميع أخوته الى قوص في الصعيد.

فكانت هذه الواقعة بداية تسلط كبار الأمراء الأوليجاركيّة مما أدى لتفاقهم حدة النزاع بين الأمراء في سبيل الاستئثار بالسلطة، حيث اقتصر دور أولاد الناصر محمد كواجهة شرعية للحكم دون معرفتهم بشؤون الدولة الداخلية والخارجية، بعد أن كانت كلمة والدهم الناصر محمد العليا في الدولة إذ لم يجرؤ أحد من الأمراء على مناقشته في أي قضية فكان السلطان في هذه الحقبة يقوم بوظائف البروتوكول الرسمي من استقبالات رسمية يومياً في البلاط السلطاني لأنه

---

(1) ابن حجر: م س، جـ5، ص105-106. والمقريزي: السلوك، جـ3، ص292.

(2) المقريزي: ن م، ص795-796. وابن اياس: م س، جـ1، ص127. وابن تغري: م س، جـ8، ص19.

(3) المقريزي: ن م، جـ1، ص528. وابن اياس: ن م، جـ1، ص135. وابن تغري: ن م، جـ8، ص65-66.

لا يملك من السلطة سوى لقب سلطان فيظل هكذا محجوراً عليه حتى يعزل أو يقتل أو يموت فجأة. فيُولىّ طفلٌ غيره من أبناء أسرة قلاوون.

وبالنسبة لموقف العامة هنا كان الشعور بالألم والحزن حين يكونوا عاجزين عن الوقوف في وجه هؤلاء الأمراء المتسلطين، حيث كان سلاحهم الحجارة مقابل جيش مسلح وربما يرجح السبب الى عدم وجود شخصية قوية يمكن الركود اليها والالتفاف حولها عندما يكون السلاطين أطفالاً لا حول لهم ولا قوة.

وبالنسبة لدور بدو الشام في الاضطرابات العامة:

فقد وقعت بينهم حروب كثيرة عام 750هـ/1348م، في سائر انحاء سلطنة المماليك، فكثر فسادهم ببلاد القدس ونابلس[1]، وفسدت الطرق على المسافرين مما أدى لفساد أحوال الناس[2]. فأرسل السلطان العساكر لمقاتلة العربان ولكنها هُزِمَت ونهبوا العسكر مما زاد في قوة العشائر البدوية فاتجهوا نحو غور الأردن واحتلوا القصير المعيني ونهبوه وذبحوا الأطفال، وقطعوا الطرقات بين الشام ومصر واتجهوا نحو القدس والخليل فهرب الناس من المدن، واتجهوا نحو اللد والرملة ونهبوهما. فولى السلطان سيف الدين دلنجي نيابة غزة وعُهد اليه بإخماد ثورة العربان في جنوب بلاد الشام[3]، ولقيهم بالقرب من اللد، واستخدم الحيلة معهم، بمراسلة مشايخهم بالقدوم فحضر أكثر من المائتين فألقى القبض عليهم وعاد الى غزة وقد تفرق جمعهم[4].

ومن هذا يتضح لنا خطورة التهديد الكبير لثورات البدو للاستقرار السياسي في سلطنة المماليك من تعريض التجار والحجاج لاعتداءات قطاع الطرق بين مصر والشام المعبر الرئيسي لحجاج البيت الحرام والقدس، فحرصت الحكومة على تعيين كبار الأمراء في مناطق

---

[1] المقريزي:السلوك، جـ2، ص804

[2] ن.م، ن ص.

[3] ابن حجر، الدرر، جـ2، ص192.

[4] المقريزي: ن م، جـ2، ص804-805.

الحدود كغزة وحلب للدفاع عنها، فكانت أغلب الحملات العسكرية ضد هؤلاء البدو تنتهي بتأديبهم وكانت العامة تبتهج لانتصار الجيش على البدو باقامة الاحتفالات.

كما يتضح لنا من تمرد الأتابك (الأمير يلبغا ضد السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر عام 768هـ/1366م[1] وتعيين أخوه سلطاناً [2] خطورة منصب الأتابكية حيث تمتع الأتابك بسلطات مطلقة في الدولة والبلاط السلطاني فكان الحاكم الفعلي لسلطنة المماليك خلال هذا العهد عندما يكون السلطان صورة فقط مما أثار الاضطراب والفوضى في البلاد[3]، وكان الناس متفرجين على القتال بين اليلبغاوية وعسكر السلطنة ثم انضمت العامة لجانب الأشرف شعبان وهزمت خصومه ونهبت منازلهم واسطبلاتهم فصدرت الأوامر السلطانية بمنع ذلك. وعندما حاول الأشرف الامساك بزمام السلطة تكتل الأمراء ضده وأطاحوا بحكمه عام 778هـ/1377م وولوا ابنه الملك العادل علي وعينوا نائبه الأمير أقتمر الحنبلي[4]. ولكن السلطان الأشرف شعبان تمكن من الهرب مما أوقع الخلاف بين أمراء المماليك بين مؤيد ومعارض، والقى القبض عليه وأعدم.

وهكذا نلاحظ مدى ارتباط الاستقرار السياسي وازدهار النشاط الاقتصادي، فحين يقع الاضطراب السياسي تضعف حركة التجارة وترتفع الأسعار وتختفي الأقوات من الأسواق، فيجتمع عامة الناس تحت أسوار القلعة مطالبين الحكام باصلاح الوضع الاقتصادي.

وكان التوتر في كلا المجالين السياسي والاقتصادي يحدث بلبلة بين الناس فيتركز اهتمام الناس على متابعة التطورات السياسية أو التقلبات الاقتصادية لرغبتهم في الاستقرار الاجتماعي.

ومن الملاحظات الاقتصادية تشدد السلطات في وقت الأزمات والمحن في جمع الضرائب من جميع الرعية دون تميز بين الطبقات لدعم الجهاز العسكري كما يُظْهرُ هذا النظام إهمال دولة المماليك في بعض الأحيان للاستعدادات العسكرية وتأمين جهاز حربي مُهَيّء دائماً للقيام بواجب الدفاع عن الدولة كما اجتهدت الدولة وقت الأزمات في توزيع المال على الزُعُر وحملة

---

(1) ابن حجر: م س، جـ5، ص213-215.

(2) ن.م، جـ1، ص447.

(3) المقريزي: السوك، جـ3، ص130-135. وابن اياس: م س، جـ1، ص217-219. وابن تغري: م س، جـ11، ص35-40.

(4) المقريزي: ن م، جـ3، ص277-278. وابن اياس: ن م، جـ1، ص232. وابن تغري: ن م، جـ11، ص73.

السلاح من العامة ليقاتلوا بجانب السلطان وحزبه من المماليك السلطانية وبعض كبار الأمراء، فكان ذلك بمثابة طلب رسمي الى العامة كافة وكل من يقدر على حمل السلاح، لمساندة السلطان والحرب لجانبه مما يبين حاجته الى هذه المساندة الشعبية والتأييد العام، وكان لهذه السياسة انعكاسات خطيرة على الناس لسوء استخدام هؤلاء الزُّعر للسلاح للسلب والنهب فأرعبوا الناس مستغلين انشغال الدولة بمواجهة الاضرابات العسكرية. مما يؤكد فقد السيطرة على هذه الطوائف من حرافيش العامة في أوقات المحن والأزمات.

وعندما فاض النيل عام 776هـ/1375م عَمّ النفع مع بقاء ارتفاع الأسعار مما يوضح طمع التجار وجشعهم في جني الأرباح الكثيرة ولَبت الحكومة طلب الشعب بعزل محتسب القاهرة وتعيين آخر محله كما ذكر المقريزي في حوادث عام 776هـ/1375م.

كما نتج عن نقص الغذاء انتشار الأوبئة والأمراض كما حدث عام 776هـ/1375م إذ ازداد عدد الموتى من الفقراء والمساكين جوعاً فيقول المقريزي كنت اسمع: الصغير يصرخ بأعلى صوته: "لله لبابة قدر شحْمة أذني، أشمها وخذوها، فلا يزال كذلك حتى يموت"[(1)].

وكانت ردة فعل السلطان على هذه الظاهرة بإظهار عطفه الانساني إذ يأمر بتوزيعهم على الأمراء المماليك والأغنياء والتجار، ليطعم كل منهم عدداً من الفقراء حتى نهاية الأزمة كما أمر السلطان بمنع الشحاذة التي انتشرت بين طوائف الحرافيش والأوباش والبطّالين في طرقات المدن، وإلزام الأغنياء بإطعام الشحّاذين كما يذكر المقريزي في شهري رجب وشعبان 776هـ/1375م كانون الثاني يناير شباط - فبراير[(2)] كما كان يأمر بطلب ارسال الغلات الفائضة من الأقاليم الأخرى في الشام لتخفيف المحن[(3)].

وقد اعتبر البعض عدم نزول المطر عقاباً من الله للناس على خطاياهم مما أدى لازدحام المساجد بالمصلين والمبتهلين تضرعاً وإعلاناً للتوبة وهذا يبين أثر الوازع الديني لدى عامة الناس بالإقبال على التصوف.

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ3، ص233-234. وأبو المحاسن: م س، جـ11، ص66.

(2) المقريزي: ن م، جـ3، ص235-237. وابن حجر: م س، جـ5، ص130-131. وأبو المحاسن: ن م، جـ11، ص66.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص395، كما حدث عام 782هـ/1380م. وأبو المحاسن: ن م، جـ11، ص266.

وكان السلطان يلجأ أحياناً لعزل المحتسب تلبية لطلب العامة كالعجمي عدة مرات لقوة شخصيته. كما حدث سنة 783هـ/1381م[1].

كما كان من صور عطف السلاطين على العامة توزيع الصدقات عليهم طمعاً في الأجر والثواب وشفاء مريض عزيز عليهم أو شفاء السلطان نفسه أو احتفالاً ببناء قصره كما ذكر المقريزي في حوادث عام 746هـ/1345م[2] وحوادث عام 717هـ/1317م[3]. وحوادث عام 723هـ/1323م[4] وحوادث عام 747هـ/1346م[5]، كما كانوا يوزعون الأموال والصدقات والزكاة في مواسم الحج على فقراء البيت الحرام وإلغاء الضرائب والمكوس في تلك البلاد والخلع على حكامها وتوزيع الإقطاعات الواسعة الخصبة في مصر والشام لكسب الولاء السياسي لهم كما ذكر المقريزي في حجة السلطان الناصر محمد عام 719هـ1319م[6].

وبالنسبة لوسائل الترفيه عند العامة فاقتصرت على مشاهدة الاستعراضات العسكرية الرسمية بالاضافة لمشاركتهم في المناسبات الدينية كالأعياد مثلاً حيث كان الميدان الكبير هو مقر الاحتفالات إذ يصطف العامة على جانبي الشوارع الرئيسية أثناء مرور الأمراء من القلعة، إلى المدرسة المنصورية[7] وكان هذا الميدان بالنسبة للعامة المنبر الحر الذي يتيح لهم المطالبة بحرياتهم والتخلص من بعض الأوضاع الشاذة التي يعيشونها الأمر الذي كان يعرضهم لسخط الأمراء وعقابهم الشديد بعد ذلك.

(1) المقريزي: ن م، جـ3، ص457. وابن اياس: ن م، جـ1، ص254. وابن تغري: ن م، جـ10، ص94.

(2) المقريزي: السلوك، جـ2، ص676-677. وابن اياس: م س، جـ1، ص182. وأبو المحاسن: م س، جـ15، ص94.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص171. وابن حجر: م س، ص406.

(4) المقريزي،ن م، جـ2، ص61، 93، 103، 165، 243-244، 211-241. وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص76.

(5) المقريزي: ن م، جـ2، ص702، والخطط، جـ2، ص165. وأبو المحاسن: ن م، جـ10، ص127. وابن حجر: ن م، جـ1، ص375.

(6) المقريزي: ن م، جـ2. وابن تغري: ن م، ص702، الخطط، جـ2، ص165، ابوب المحاسن:ن م، جـ15، ص127، وابن حجر:الدرر، جـ1، ص375.

(7) المقريزي: ن م، جـ1، ص928، وأبو المحاسن،ن م، جـ8، ص154-156.

الظلم الاجتماعي بالنسبة لسكان القرية أيام المماليك:

لقد تمثل هذا في معاناة فلاحي بلاد الشام من تعسف أمراء الإقطاع والأجناد[1] حيث كان يلزم بالبقاء في الأرض مدة ثلاث سنوات متتالية، وان ترك يُعَادُ قهراً الى الأرض ليفلحها[2]، وسبب هذا الظلم الاجتماعي هجرة أعداد كبيرة من الفلاحين الى المدن الكبيرة، فلم يجدوا العمل المناسب، وشكلوا طبقة فقيرة لُقبَّت باسم الحرافيش والأوباش كالخدم، ورجال الاسطبلات، وعمال المطابخ، واللصوص، والمجرمين[3]. وكان من موظفي القرية خطيب وفقيه معين من نائب السلطنة ليعلم أبناءهم القرآن والكتابة[4] بالاضافة الى حارس القرية[5] والطوفين حراس البساتين والمساكن الواقعة خارج القرية[6].

ومن صور الاضطهاد الاجتماعي في عصر المماليك لأهل الذمة من العامة منعهم من ممارسة ألعابهم المعتادة في أعيادهم الدينية كعيد النوروز كما حدث سنة 782هـ/1380م[7]، كما ساءت أحوال العامة في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إذ زاد تعسف الطبقة الحاكمة بحرمانهم مثلاً من ركوب الخيل العربية الأصيلة، ومنعهم من تحميل أمتعتهم على ظهور الأكاديش كما أشار لذلك المقريزي في حوادث سنة 791هـ/1389م.

ويلاحظ معاناة العامة من الجوع والألم والعري لحساب المتعة السلطانية ومتطلبات رفاهيته حيث كان يتم اقتطاع جزء كبير من أرزاق الناس لتوفير الحاجات اللازمة لسفر السلطان الى الحج وكان يشمل ذلك مصر وبلاد الشام من الفرات الى غزة، حيث أمر الأمير

---

(1) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، ص26، 52.

(2) وقد ألزم ديوان الجيش في عصر المماليك الفلاحين بذلك: انظر: السبكي: ن م، ص54 حيث كان اقطاع الأمير يتراوح ما بين قرية الى عشر قرى موزعة في مناطق مختلفة المملوك السلطاني: فتراوح اقطاعه بين قرية ونصف قرية واقطاع جندي الحلقة: جزءاً من زمام قرية واصبح الاقطاع لاسباب أمنية منذ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حيث أعطي الآن أجزاءاً أو حصصاً من قرى مختلفة ومتباعدة. انظر: مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، 1920م، جـ1، ص139-144.

Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London, 1939, p. 19.

(3) Lapidus, op. cit, p. 196.

(4) السبكي: ن م، ص22.

(5) السبكي: ن م، ص145.

(6) السبكي: ن م، ص146.

(7) المقريزي: السلوك، جـ3، ص673، والخطط، جـ1، ص269. والقلقشندي: م س، جـ2، ص419.

طقتمر الصلاحي بأن لا يصرف لأحد في بلاد الشام من الفرات الى غزة رواتبهم وأرزاقهم، وأن يحصل منهم ومن الأوقاف ألف ألف درهم لتسهيل سفر السلطان للحجاز من جمال ومال، مما أدىّ الى وقف رواتب الفقراء مما أثار حقد العامة وكثر دعاؤهم على من قطع أرزاقهم"[1]. فاختلت موازين الأوضاع الاجتماعية مما أدىّ لظهور عوامل التوتر والفوضى فزاد الوضع سوءاً بضياع حقوق الكثيرين كما حدث سنة 747هـ/1346م عندما عم الإعتداء على النساء وفساد الجواري وكثرة الفتن فقال "خلوا كل واحد يعمل ما يريد"[2].

فزادت الفوارق الاجتماعية والفساد الاقتصادي من سيطرة الأمراء الأوليجاركية كما مر معنا على زمام السلطة وتحكّموا في رقاب الشعب المسحوق سياسياً سعياً وراء تحقيق المنافع الخاصة على أكتاف السلاطين ضعيفي الشخصية مما أدى الى الانحلال الاجتماعي، حيث كثر الفساد عامة في بلاد الشام ومصر من قطع الطريق، والنفاق، وولاية الوزير منجك جميع أعمال المملكة المالية، وانفراده وأخيه الأمير بيبغاروس النائب بتدبير الحكم[3] كما لاحظنا من دراسة تاريخ المماليك صوراً أخرى للظلم الاجتماعي الوظيفي كوضع الرجل غير المناسب في المناصب الحساسة كالجهلاء للإشراف على وظائف الأوقاف مما أتاح العبث والفساد فعطل هذا الحقل من آداء خدماته الإنسانية على أكمل وجه للصالح العام[4] لتلاعبهم بالحسابات وتعطيل المساعدات الصغيرة لسد رمق العيش كما حدث سنة 752هـ/1351م[5] وذلك عندما تم تعيين ابن الأطروش الجاهل على الأوقاف وعزله نستغرب إعادة تعيين هذا الجاهل مرة أخرى محتسباً للقاهرة مما عرضه لسخرية العامة[6] وتفسيرنا لهذا هو بيع الوظائف الإدارية الرئيسية

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص697، وابن حجر: م س، جـ2، ص325، وابن اياس: م س، جـ1، ص184، وابو المحاسن، م س، جـ10، ص124.

(2) المقريزي: ن.م، جـ2ن ص703، ابن اياس: ن.م، جـ1، ص 184، وأبو المحاسن: ن م، جـ10، ص128-130.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص772، وابن اياس،ن م، جـ1، ص222.

(4) Lapidus, op.cit., p.4.

(5) المقريزي: ن.م، جـ2، ص835-836، وابن اياس: ن.م، جـ1، ص184، ابن حجر: ن م، جـ2، ص44.

(6) المقريزي: ن.م، جـ2، ص836،876، و جـ3، ص58، 59. والخطط، جـ2، ص98-99. وابن حجر: ن م، جـ3، ص328. وص 361. وابن اياس: ن.م، جـ1، ص209.

لمن يدفع أكثر بغض النظر عن كفاءته وصفاته الشخصية فأدى ذلك لظهور الإهمال تارة والفساد تارة أخرى، وأدى ايضاً لتخلخل الجهاز الإداري لعدم توفر الكفاءات المناسبة.

وكان من صور الظلم الاجتماعي أيام حكم المماليك أيضاً عدم الإستماع لشكوى الفقراء للوزراء وطردهم وتمزيق طلباتهم(1). كما كان محرماً على العامة التحدث في الشؤون السياسية في مصر والشام أو اعتلاء أي سلطة سياسية، أو إدارية بحجج واهية وهي حرص الحكام على الاستقرار الاجتماعي ونشر السلام والأمن بحجة أن العامة يطلقون الشائعات الكاذبة حول طبيعة الوضع الداخلي كقرب نشوب حرب، أو احتمال حدوث فتنة فيقومون بقتلهم. علماً بأن هذه اسباب واهية لا يتقبلها العقل أو المنطق، كما حدث سنة 778هـ/1376م عندما قتل الأمير حسين بن الكوراني والي القاهرة جماعة لإرهاب العامة عندما أشاعوا عن الحرب(2)، كما كانوا يتعرضون لهجوم فجائي من رجال السلطة نتيجة لغضب الحكام وينالون الوان العذاب حتى الموت كما حدث سنة 780هـ/1378م من الأمير برقوق(3).

ومن صور الظلم الاجتماعي الأخرى السخرة إذ عانى العامة في مختلف فترات العصر المملوكي من أعمال السخرة، بدون أجر في أعمال البناء والاصلاحات عن طريق القوة والإجبار من قبل ولاة الأمراء وذلك أيام الاستقرار السياسي في أواخر حكم الناصر محمد بن قلاوون حين عم الخير والرخاء ونشطت الأعمال العمرانية والبناء كما حدث عام 713هـ/1313م(4)، وعام 716هـ/1316م(5) وعام 723هـ/1323م(6)، وعام

(1) المقريزي: السلوك، جـ3، ص148.

(2) المقريزي: ن.م، جـ3، ص307، والخطط، جـ2، ص188، وابن اياس، ن.م، جـ1، ص164. وابن حجر، ن.م، جـ2، ص152.

(3) المقريزي: ن م، جـ3، ص347، وابن اياس: ن.م، جـ1، ص244-245، وأبو المحاسن، م.س، جـ11، ص165-166.

(4) المقريزي: ن م، جـ2، ص131، 137-138، وابن اياس: ن م، جـ1، ص164، 165، 168، 175. وابو المحاسن: ن م، جـ9، ص39-40، 192. وابن حجر: ن م، جـ1، 416-417، 454، 455، 458، جـ2، ص22-23، ص29، 76-77.

(5) المقريزي: ن.م، جـ2، ص165، وابو المحاسن، ن.م، جـ4، ص82، 124-128.

(6) المقريزي: الخطط، جـ2، ص166-167، 130، 131.

738هـ/1337م[1]، وعام 740هـ/1339م[2]، وكانت أعمال السخرة تتم بدون أجر أو مقابل دراهم قليلة للفقراء، أو بالاستعانة بما يملكه الفلاحون من أبقار وأدوات البناء والزراعة.

وقد خدمت أعمال السخرة التعسفية بعض المصالح العامة لحماية الأراضي من فيضان النيل وزيادة كمية الانتاج الزراعي وبناء السدود والجسور وبناء الزرائب لحفظ الماشية فازدهرت الزراعة على اشلاء فقراء العامة بعيداً عن العدالة والمساواة كما تعتبر السخرة مظهر اجتماعياً سيء السمعة للمماليك.

إن هذا الاسلوب مرفوض أخلاقياً على الرغم من العديد من الانجازات العظيمة في العصر المملوكي التي تمت بواسطة السخرة كتشييد العمائر الكبيرة والسدود والقناطر والجسور الضرورية كالمرافق المائية لأجل الري والإنشاءات الزراعية، بالاضافة الى بناء المدارس والمساجد والخوانق كمنشأت خيرية خاصة في عهد الناصر محمد، ويظهر أنّ بعض الولاة تمادوا في تطبيق الأوامر السلطانية الى درجة نشرت الرعب بين الناس بدلاً من مشاعر الاستقرار الاجتماعي والطمأنينة النفسية[3]. ومن أمثلة السخرة في الكرك في عام 745هـ/1344م قرر نائب الكرك الأمير ملكتمر السرجواني إعادة بناء ما تهدم من قلعة الكرك وخاصة برجها، فأحضر معه من القاهرة مائة من مماليك قوصون[4] وبتشاك[5] الذي أسكنهم الناصر محمد في قلعة القاهرة وأخرج منهم مئتان الى دمشق وحمص وحماة وطرابلس وحلب وصفد في فلسطين، وعائلاتهم تنوح وتبكي عليهم وسخروا لهم خيول الطواحين[6].

ومما يلاحظ من قراءة الأحداث التي أوردها المقريزي سنة 729هـ/1328م من صور التسلط والتعسف المملوكي ضد العامة عندما وصلت معاملتهم كالذميين مما يدل على انحدار

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص433-434، 447، 450-451. وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص120-127، جـ2، ص7، جـ3، ص277. وابن حجر: ن م، جـ1، ص437، 418-419، جـ5، ص129.

(2) المقريزي: السلوك، جـ2، ص472، والخطط، جـ2، ص383-386. وابن حجر: ن م، جـ2، ص10-12، جـ3، ص342-344، جـ5، ص129. وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص114، 191-192، 143-144، جـ10، ص93.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص300-301. وابن اياس: ن م، جـ1، ص165. وابن حجر: ن م، جـ3، ص328-329.

(4) ابن حجر: ن.م، جـ3، ص342-344.

(5) ن م، جـ2، ص10-12.

(6) المقريزي: ن.م، جـ2، ص666، ابو المحاسن،ن م، جـ15، ص93.

طبقة العامة الى منزلة طبقة أهل الذمة الدنيا(1)، مما يعني مساواة العامة بالذميين الذين يتمتعون بقدر قليل من الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتمتع بها الطبقة الارستقراطية المملوكية.

ومن صور السخرة الأخرى إجبار صغار التجار على المشاركة في افراح المناسبات المملوكية حيث يجبرون على تزيين بعض مناطق القاهرة على حسابهم، وشراء الشموع والقناديل كما حدث في احتفال تأمير أحمد بن الناصر محمد(2). بالاضافة إلى إجبار التجار شراء البضاعة بسعر مرتفع لصالح الخزانة السلطانية كما يذكر المقريزي سنة 733هـ/1332م(3).

وقد لوحظ من صور الظلم الاجتماعي الهامة المصادرات فقد كان العامة عرضة للمصادرة في أي وقت وخاصة عندما يصل بعض الشخصيات الى مناصب السلطة فيبدأ بالمصادرة سعياً وراء المنفعة المادية على حساب هذه الطبقة الضعيفة، التي يستخدمها في أعمال السخرة، ولا ينتهي هذا الظلم والتعسف إلا بعزل هذه الشخصية أو سجنه أو موته فترتاح العامة وتظهر فرحها علناً في الشوارع تنفيساً عما يكبتونه من حقد على الظلمة، كما حدث عندما قتل الشجاعي سنة 693هـ/1295م مطاف العامة برأسه مرفوعاً على رمح في شوارع القاهرة والناس يضربون الرأس بالنعال ويبصقون عليه ويقولون "هذه رأس الملعون الشجاعي"(4).

وكان يتم قطع أرزاق المرتزقة من أصحاب الرواتب(5). كما كانوا يجبرون التجار على شراء القماش بضعف ثمنه كما فعل النشو مع تاجر بقيساريه جهاركس عام 736هـ/1335م فاشتكى هذا التاجر على يد سيف الدين ياغي نائب صفد فعز له النشو عن إمرة صفد واستدعى

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص373 حيث ذكر: "رسم للحاجب ان يتقدم بألا يباع مملوك تركي لكاتب ولا عامي ومن وجد عنده مملوك فليبيعه، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً طولع به السلطان، فباع الناس مماليكهم، وأخفوا بعضهم"، وانظر ابو المحاسن، ن م، جـ9، ص92.

(2) المقريزي: ن م ، جـ2، ص335، وابن حجر: ن م، جـ1، ص314-316.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص361، وأبو المحاسن: ن م، جـ9، ص111-114، 115، 118، 131، 132-133، 323-324.

(4) المقريزي: ن م، جـ1، ص802، ابن اياس: ن م، جـ1، ص131-132. ابو المحاسن، ن م، جـ8، ص46.

(5) المقريزي: ن م، ن.م، جـ2، ص165-166. وابو المحاسن: ن م، جـ9، ص53-54.

السلطان النشو ولكنه كان ذكياً في الاجابة فاتهم هذ التاجر بتهربه من دفع دين لخزينة السلطان بقيمة ثلاثين ألف دينار وهذا المبلغ من إرث جاريه تزوجها التاجر من جواري الشهيد الملك الأشرف خليل، فأمر السلطان تحصيل مبلغ خمسين ألف درهم وعاقبه بقيساريه حتى أخذ منه هذا المبلغ[1].

وعندما تأكد السلطان من صحة الشكاوي المجهولة ضد النشو [شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله "المعروف بالنشو]، أمر بعزله وتعيين جمال ابراهيم كاتب الأمير بشتاك كناظر للخلاص بدلاً من النشو[2] وأمر بسجنه هو وأقاربه ومؤيدوه[3].

ومات نتيجة هذه العقوبة القاسية ثاني ربيع الآخر 740هـ/ العاشر من تشرين الأول أكتوبر 1342، وحقره السلطان بعد موته بدفنه في مدافن اليهود بكفن بسيطة بقمية أربع دراهم، كما أمر بحراسة قبره لمدة أسبوع خوفاً من نبش العامة لقبره وربما حرقه.

وهكذا فرح الناس بموت هذا الظالم الذي نكد عيشهم، فاحتفلوا لمدة سبعة أيام بتزيين القاهرة ومصر، كما شارك الشعراء بأشعارهم بهجائه وهو الكمال جعفر الأدفوي[4].

إنّ يوم الاثنين يوم سعيد   فيه لا شك للبرية عيد
أخذ الله فيه فرعون جهراً   وغدا النيل في رُباه يزيدُ

ومن صور الاضطهاد الاجتماعي الأخرى لنظار البلاط المملوكي ما فعله ناظر الدولة موفق الدين الذي منع صرف مرتبات العاملين في الجها الوظيفي عام 742هـ/1341م، فتصدى له قاضي القضاة وحسام الدين فوشوا به للسلطان ليعاقبه[5].

فيلاحظ تأثيرهم على السلطان لقربهم منه مما يعرض بعض الناس للظلم والاضطهاد.

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص390-391، وابو المحاسن: ن.م، جـ9، ص116، وابن حجر: م س، جـ2، ص12-13، 314.

(2) المقريزي: ن م، جـ2، ص480-481، والخطط، جـ2، ص227-228. وابن حجر: ن م، جـ1، ص82. وأبو المحاسن، ن م، جـ9، ص137-138.

(3) ابن حجر: ن.م، جـ5، ص127-128.

(4) ن.م، جـ2، ص72-73.

(5) المقريزي: ن.م، جـ2، ص566، والقلقشندي، م.س، جـ4، ص29، وصف القلقشندي هذا المنصب: "أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه، ويشاركه في الكتابة في كل ما يُكتبُ فيه ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تبعاً له، وإن كان الوزير صاحب سيف، وكان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات وما يتعلق بها والوزير مقتصر على النظر والتفتيش".

هذا ومن صور المصادرة التي حدثت بالكرك سنة 740هـ/1339م على يد أبـي بكـر بـن السلطان، فاستدعاه لأنه كان يقتل كل من يتمنع عليه ويصـادر أموالـه فمات جماعـة مـن النـاس تحت العقوبة فاحضر هدية للسلطان بقيمة مائتي ألف درهم حيث أخذهـا مـن النـاس علـى سـبيل القرض[1] ليكسب رضا السلطان والنجاة من عقوبته.

وقد لوحظ على السلطان الناصر محمد تخفيفه المعاناة على الشعب بابطـال الضمانـات والمكوس والضرائب سنة 714هـ/1314م عندمـا أمـر "بمسـامحة أهل الشام بـالبواقي وابطـال المقرر على السجون، واعفاء الفلاحيـن من السـخر، وابطـال مقرر الأقصـاب، ومقرر ضمـان القواسين، ورسوم الشد، والولاية فأبطل ذلك كلـه من جميـع ممـالك البـلاد الشـامية بأسرها"[2]. وكان يستجيب لطلب العامة بعزل نائب الأقليم لتعسفه وظلمه لرعية كالأمير كراي نـائب دمشق عام 711هـ/1311م وسجنه بـالكرك[3]، وهـذا يظهـر رحمتـه بالرعيـة عندمـا كـانوا يضربـون لتحصيل الضرائب الباهضة والمكوس الكبيرة بالقسوة والشدة، وكان الفقهاء والقضاة يقفون دوماً في صف المدافعين عن هؤلاء المضطهدين[4].

ومن صور العطف السلطاني على العامـة اهتمـام أمـراء الممـاليك بمسـاعدتهم فـي أوقـات المحن والأزمات مثل منكوتمر 698هـ/1300م الذي تبرع لله تعالى بواردات اقطاعات الجنـدي التابعة لديوان النيابة بملبغ مائة ألف درهم كما ذكر المقريزي فكرهه بقية الأمراء وايقنوا أنهم لا يستطيعون عزله إلا بقتل السلطان فتم لهم ذلك[5]. كما وجد بينهم من حـارب عـادة السخرة فـي البناء والاصلاحات دون رحمة أو شفقة كما فعل سنة 729هـ/1328م الفخر ناظر الجيش[6].

بالاضافة الى اهتمام بعض امراء المماليك فـي بنـاء المـدارس والمسـاجد والخوانـق ودور تدريس القرآن للأيتام، ومغاسل السبيل للموتى الذين لا أهل لهم لغسلهم وتكفينهم كما حـدث سـنة

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص492، ابن اياس: م س، جـ1، ص176. وابن تغرى بردي: ن م، ص110-111.

(2) المقريزي: ن م: جـ2، ص136-137. وابن اياس: ن م، جـ1، ص159.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص104. وابن ايـاس: ن م، جـ1، ص157. وابـن حجـر: ن م، جـ3، ص352-353، جـ4، ص29، جـ1، ص374.

(4) د. حياة حجي: م س، ص236.

(5) المقريزي: ن م، جـ1، ص858، ابن اياس: ن م، جـ1، ص138.

(6) المقريزي: ن.م، جـ2، ص302، ابن اياس: ن.م، ص165، ابو المحاسن، ن.م، جـ9، ص90-91.

713هـ/1313م عندما أمر الأمير علم الدين سنجر الجاولي بشق عين ماء وقناة الى الخليل في فلسطين واضاف أبنية إلى مساجد ابراهيم الخليل عليه السلام وخصص لها أوقافاً للنفقة عليها[1].

كما اهتم البعض الآخر كالأمير تنكز الحسامي بالقضاء على المنكرات من خمرة وخمارات وحانات في دمشق وأعمالها سنة 737هـ/1336م في سبيل الصالح العام[2].

كما برع كبار أمراء المماليك في التقرب الى الناس ببناء الخوانق والمساجد والمدارس كنوع من الصدقات كما فعل نائب دمشق سنة 707هـ/1307م[3] ونائب الكرك الأمير جمال الدين آقوش سنة 730هـ/1330م[4] حيث جمع القضاة والفقهاء لعمل منبر بالمدرسة الصالحية بين القصرين في القاهرة لإقامة الجمعة بها فافتوه بذلك فعين لها خطيباً براتب شهري قدره خمسين درهماً، وستة مؤذنين براتب عشرة دراهم لكل منهم، وقارئ للقرآن يوم الجمعة وخصص وقتاً لذلك وتصدق في هذا الشهر بنحو ثلاثة ألاف إردب من الغلال، وكذلك ما حدث عام 736هـ/1335م[5] بهدف الخير عندما بنى السلطان المنصور قلاوون البيمارستان المنصوري لتوفير الرعاية الصحية والخدمات الطبيّة للجميع.

كما سعى بعض الأمراء مثل الأمير الحاج آل ملك سنة 744هـ/1343م لإبطال الضمانات التي شملت جميع أنشطة الحياة اليومية، والتي كانت نوعاً من الظلم الاجتماعي بسبب صفتها الرسمية من قبل الحكومة[6]. وسعى البعض الآخر من رجال السلطة الى تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية وفرائضها الأساسية، بترك التجارة وقت الصلاة" كما حدث عام 744هـ/1343م من قبل الأمير الحاج آل ملك نائب السلطان[7] وعاش البعض الآخر حياة البساطة والتقشف والزهد اقتداءً بالمسلمين الأوائل كالأمير طنبغا الناصري عام

(1) المقريزي: السلوك، جـ2، ص131، ابن حجر: م س، جـ2، ص266-268.

(2) المقريزي: ن.م، جـ2، ص510-511، ابن حجر، ن.م، جـ2، ص55-56، وأبو المحاسن، م س، جـ9، ص152، وابن اياس: ن.م، جـ1، ص171-172.

(3) المقريزي: ن م، جـ2، ص36، الخطط، جـ2، ص416-417. ابو المحاسن: ن م، جـ8، ص174-175.

(4) المقريزي: ن.م، جـ2، 317، والخطط، جـ2، 374-375. وابن حجر: ن م، جـ1، ص451-452.

(5) المقريزي: ن.م، جـ2، ص390، والخطط، جـ2، ص238، 406-408، 425. وابن حجر: م س، جـ2، ص342، 344.

(6) ابن حجر: ن م، جـ3، ص341.

(7) المقريزي: ن م، جـ2، ص651، ابن اياس: ن م، جـ1، ص181، 182، أبو المحاسن، ن م، جـ10، ص88-89.

744هـ/1343م[1] والأمير تغري برمش لأمير سلاح الذي لبس لباس الفقراء، وفرق عنه مماليكه وحاشيته وجلس بجناح قوصون خارج باب زويلة وجمع عليه طائفة من العامة[2] عام 783هـ/1381م كما باع بعضهم كالوزير منجك عام 749هـ/1348م إقطاعات للعامة[3]، ويرى البعض بأن سعيه هذا كان وراء المنفعة الشخصية لكسب ربح مادي[4].

ومن الصور الانسانية الأخرى مساعدة الأقاليم الأخرى التي يحصل فيها الجفاف والأزمات الاقتصادية من قبل كبار أمراء المماليك كما حدث عام 766هـ/1365م من غلاء للأسعار بمكه[5]، وبلاد الشام عام 682هـ/1284م زمن السلطان المنصور قلاوون[6]، كما تعهد رجال الدين الميسورين بتربية اليتامى وأبناء الفقراء من العامة فلقبوا "مربي الفقراء"[7]. وشجعت الدولة هذه الروح الخيرية بتخصيص جزء من الصدقات أو الرواتب الشهرية لمساعدة هؤلاء المربين بشكل منتظم لاستمرار هذه الخدمة الاجتماعية.

ومن مظاهر رفع الظلم عن العامة جلوس السلطان الناصر محمد كل يوم اثنين في دار العدل برفقة القضاة للنظر في مظالم الناس واستمر حتى وفاته[8]. وذلك للتخفيف من معاناة العامة من ظلم المماليك وعزمه على اضعاف المركز القومي للكبار أمراء المماليك، وربما للتأكيد على حرصه على ارساء العدل والمساواة في سلطته[9].

---

(1) ابن حجر: ن م، جـ2، ص331-332، المقريزي: ن.م، جـ2، ص651.

(2) المقريزي: السوك، جـ3، ص457، أبو المحاسن، ن.م، جـ11، ص210.

(3) المقريزي: ن.م، جـ2، ص759، ابن حجر: م س، جـ5، ص130-131، جـ2، ص44-45، ابن اياس: ن.م، جـ1، ص190، أبو المحاسن، ن.م، جـ15، 189، 190، 192.

(4) د. حياة حجي: م.س، ص249

(5) المقريزي: ن م، جـ3، ص93.

(6) ن.م، جـ1، ص717-718.

(7) ن.م، جـ3، ص148.

(8) المقريزي: الخطط، جـ2، ص206.

(9) المقريزي: ن م، جـ2، ص490، 103.

ويؤيد هذا الرأي عدد من المؤرخين المعاصرين. وكان رأي السلطان هو الغالب والناقد فلا يستطيع القضاة إلا الطاعة لأنه كان صاحب الكلمة العليا في الدولة فكانوا عاجزين عن عمل الحق والصواب اذا عارض ذلك رأي السلطان[1].

(1) د. حياة حجي: م س، ص23. وأبو المحاسن: م س، جـ9، ص145. وابن حجر:م س، جـ5، ص212-213.

ثالثاً : الحياة الاجتماعية لأهل الذمة في بلاد الشام

أولاً: طوائف أهل الذمة في جنوب بلاد الشام

لقد شمل هذا المصطلح النصارى واليهود والمجوس وغيرهم كالتالي:

أولاً : النصارى : انقسموا الى طائفتين رئيسيتين هما: اليعاقبة[1] والملكانيون[2].

ثانياً : اليهود: انقسموا الى ثلاث طوائف رئيسية وهي: الربـانيـون[3] والقراؤون[4] والسامرة[5]

---

(1) اليعاقبة: القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح أي أن المسيح هو الله بشكل انسان، فهو جوهر من جوهرين، ومشيئة من مشيئتين، وعرفوا بالمونوفيزيتس Monophsite: انظر المقريزي: الخطط، ج3، ص528ن القلقشندي: م س، ج3، ص281، حتي: تاريخ سوريا وفلسطين، ج2، ص137، النقاش، زكي: أضواء توضيحية على تاريخ المارونية، لبنان، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر، 1970م ص21 (وسيشار اليه فيما بعد هكذا، النقاش: آراء توضيحية على تاريخ المارونية.

وسماهم خصومهم بهذا الاسم نسبة الى يعقوب الذي اختلفت الروايات في أصله فقيل هو: ديسقورس ثامن بطاركة كنيسة الاسكندرية، وقيل هو تلميذه وقيل هو تلميذ بطرك انطاكية الذي كان يدعو لمذهب ديسقورس كما لقب بالبراذعي لارتدائه خلق البراذع انظر المقريزي: ن م، ج3، ص529، القلقشندي: ن م، ج13، ص281. وقيل هو براديوس مطران الرها المتوفي سنة 578م انظر حتيّ، مختصر تاريخ لبنان، ص110. وشكلت طائفة اليعاقبة الغالبية في بلاد الشام الذين اشتهروا بالنشاط العلمي في العصور الاسلامية انظر فيليب حتي: ن م، ج2، ص138-139.

(2) الملكانيون: القائلون بأن للمسيح طبيعتين وجوهرين ومشيئتين اتحدت في قوام إلهي واحد أي أن المسيح هو الله وإنسان في آن واحد. وسموا بهذا الاسم نسبة الى ملك السريانية ومعناها الملك مرقيان البيزنطي (450-457م) مؤسس هذه الطائفة. انظر حتي، ن م، ج2، ص142، النقاش: ن م، ط2، ص21. وكان أغلبهم من الروم والفرنجة ومن والاهم. انظر المقريزي: ن م، ج3، ص529، القلقشندي: ن م، ج13، ص279، عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ص55، كما تمتعت بحماية كنيسة الدولة البيزنطية والسلطة الحاكمة الا أن انتشارها لم يتعد شمالي بلاد الشام وفلسطين ومصر، انظر حتي، ن م، ص142-142. الموسوعة العربية الميسرة، اشراف محمد شفيق غبريال، م2، بيروت، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر. 1981م، ص742، وسيشار لها فيما بعد هذا الموسوعة العربية الميسرة.

(3) الربانيون: نسبة لكلمة ربانيم العبرية وتعني الحبر أو الفقيه، وعربت الى رباني، لاتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقهائهم في التلمود والمشنا، وأخذوا بتأويل نصوص التوراة فابتعدوا عن النصوص الألهية للتوراة والتلموذ : (كلمة عبرانية تعني التعليم، مشتقة من التلمذة والتلموذ هو السنّة في الشريعة اليهودية أي التوراة الشفوية التي هي عبارة عن مجموعة قوانين وأحكام ووصايا سياسية وحقوق مدنية ودينية مع شرحها) انظر الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص572.

أما المشنا: فهي إحدى قسمين للتلموذ: وتعنى بمجموعة القوانين اليهودية والسياسية والدينية والحقوقية والقسم الثاني هو: الجمارا : وهي مجموعة الشروح لتفسير المشنا انظر الموسوعة الفلسطينية، ن م، ج1، ص572.

وقد سيطر هؤلاء على حياة اليهود حيث تكالبوا على الحياة الدنيا فانذرهم المسيح بالويلات: انظر نعيسة، يوسف، يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة ، 1988م، ص10. وورد ذكرهم في القرآن الكريم: "إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء" سورة المائدة، آية 44. وكانوا الغالبية في العدد ومنهم معظم أغنياء اليهود وكبار الموظفين والإداريين، انظر نعيسة: ن م، ص10، ولا يعتقدون بالقدر السابق كالقدرية عند المسلمين انظر الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم أحمد (ت548هـ/1153م) الملل والنحل، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة 1985، ص95.

(4) وأما القراؤون: سموا بنو مقرا ومعنى مقر الدعوة، أي أصحاب الدعوة، المؤمنين الذين يحكمون نصوص التوراة ولم يتقيدوا بنصوص التلموذ أو تأويل التوراة، ويعتقدون بالقدر كالأشعرية عند المسلمين. القلقشندي: ن م، ج13، ص261.

وقد اتفق الربانيون والقراؤون على نبوة جميع الأنبياء من بعد موسى عليه السلام وقبلتهم في الصلاة هي صخرة بيت المقدس، وأن الله كلم موسى من على طور سيناء. اسم الجبل بقرب أيلة عند رأس بحر القلزم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص48. ويتشدد القراؤون بحرمة السبت، ويختلفون مع الربانيين في بعض المسائل الشرعية كالقصاص، انظر القلقشندي: ن م، ج13. ص261. وزاد عدد القرائين عن الربانيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. انظر التطيلي : الرحلة، ص191، ملحق رقم 1.

(5) السامرة: نسبة الى سكنهم في سمرون (شمرون) مدينة نابلس: المقريزي: السلوك، ج3، ص508 وهم اتباع السامري الذي ذكره القرآن الكريم : "وأصلهم السامري" سورة طه: آية 85 ودعاهم لعبادة العجل القلقشندي: ن م، ج13. ص270. وأنهم جاءوا من الشرق الى فلسطين وتهودوا فهم ليسوا من بني اسرائيل: المقريزي: ن م، ج3، ص508 وينقسمون الى فريقين دوستانية: الذين يقولون بأن العقاب والثواب في الدنيا، والكوستانية المقرون بالآخرة الشهرستاني ن م، ص98 وقبلتهم في الصلاة طور نابلس لاعتقادهم بأنه الجبل الذي كلم الله عليه موسى.الشهرستاني: ن م، ص98. والقلقشندي: ن م، ج13، ص271. ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة لذا فإنهم لا يغسلون موتاهم ولا يحممونهم وإنما يستأجرون كذلك بعضاً من المسلمين لأن السامري لا يطهر الا اذا رش نفسه بعد عزلة سبعة أيام بدماء بقرة صغيرة مقررة الصفات، وطهارتهم للصلاة قريبة من وضوء المسلمين انظر المقريزي، ن م، جـ13، ص509، ويعودون لأصول غير عربية سكنت مدينة صفد في فلسطين، نعيسة ن م، ص9، والسامرة كانت الطائفة اليهودية الوحيدة الموجودة في صفد قبل الهجرة اليهودية من اسبانيا والبرتغال سنة 898هـ/1500م انظر الضراونة: مملكة صفد، ص141

هذا وقد تجمع اليهود والنصارى في مدن الشام في حارات خاصة بهم كأقليات دينية سعياً وراء الطمأنينة[1] كما قسمت حارات أهل الذمة بحسب مذاهبهم وطوائفهم[2] وكانت الحارة تقسم الى أزقة ودخلات ضيقة غير نافذة ولها باب يغلق ولها باب يغلق عند الحاجة وعليه حراس من أبنائها، وذلك زيادة في الأمن، وكان لكل حارة شيخ يعد بمثابة صلة الوصل مع السلطات الحاكمة[3].

العلاقات الاجتماعية بين الصليبين واليهود:

لقد كان اليهود في القدس بعد استيلاء الصليبين عليها من الأقليات الطائفية فقد وصف الحاخام اليهودي المؤرخ بنيامين التطيلي رحلته في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الجمعة 27 رجب 583هـ/ 2 اكتوبر 1187م حيث سمح لليهود بالعودة اليها وعفى عنهم مما جعل المؤرخين يقدرون هذا الموقف المتسامح له[4] على عكس وحشية الصليبين عندما دخلوها مع المسلمين واليهود[5].

ولما شعر اليهود بسماحة المسلمين المتمثلة بأخلاق هذا القائد العظيم وعدم تعصبه الديني أخذوا في العودة من مخابئهم الى أرض فلسطين والقدس ابتداء من عام 588هـ/1192م وكتب الشاعر الأديب اليهودي يهودا الحريزي الذي زار القدس بعد ربع قرن من عودتها للمسلمين حوالي 615هـ/1217م يقول: "ولكن لماذا لم يسمح لليهود بالبقاء في فلسطين حين كانت في قبضة الصليبين المسيحين.... قيل أن السبب في ذلك أننا المتسببون في قتل إلههم وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياءً إذا تمكنوا منّا، لكنّ الله أرسَل الملك العادل صلاح الدين وزوّده بالحكمة والشجاعة فسار بجيشه من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه المدن في يده

---

(1) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة أفرام البستاني، تحقيق أكرم العلبي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1936. ص36.

(2) ن م، ص81

(3) ن م، ص12.

(4) عارف العارف: تاريخ القدس والقاهرة، 1951م، ص78، 79.

(5) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص29، Runiciman, Ibid III,P.466

وعندئذ أرسل السلطان منادياً في أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة ابراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التي لجؤا إليها"[1].

وبالنسبة لمعاملة الصليبين لليهود والنصارى الشرقيين:

لقد أشرنا سابقاً الى مذبحة المسلمين في بيت المقدس في الثاني والعشرين من شعبان عام 492هـ/ 15يوليو 1099م بعد طرد حاميتها من الجند الفاطمي والتي راح ضحيتها سبعين ألفاً من المسلمين[2] شيوخاً وأطفالاً ونساءاً ولم يستثنوا من الطوائف الأخرى من سكان بيت المقدس كاليهود والنصارى الأرثوذكس "نصارى الشرق" فحاصروا اليهود في معبدهم الكبير واحرقوا المعبد مع من فيه، فلقى جميع اليهود -والذين احتموا فيه مصرعهم[3] وكانت هذه المذبحة اليهودية استمراراً لمذابح الصليبين لهم في القرى والمدن الأوروبية اثناء زحفهم لبيت المقدس[4].

وقد وُجِدَ بعض الكتاب من النصارى واليهود الحاقدين على المسلمين، إذ تآمروا على صلاح الدين الايوبي خلال الأعوام: 564هـ،568هـ،569هـ/1168م،1173م،1173م وذلك باتصالهم بالصليبين عن طريق جواسيسهم في القاهرة وكاتبوهم للاطاحة بحكومة صلاح الدين الذي عاقبهم بالصلب والأعدام[5].

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى سخاء وتسامح صلاح الدين الأيوبي مع اليهود بعد تخليص القدس من أيدي الصليبين بعد معركة حطين واعادتها للسيادة العربية فكان من كرم

---

(1) القوصي: صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية المصرية، مجلد 24، 1977، ص41.

(2) المقريزي: انعاظ الحنفا، ج3، ص23، وابن الأثير: الكامل، جـ19، ص105. وابن العبري: م س، ص342. وحسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى: القاهرة 1970م، ص81، 82، وعاشور الحركة الصليبية ج1، ص241، ملر: مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين، ج1، القاهرة،1971م، ص486، رنسيمان، م س، ج1، ص404.

(3) ملر:م س، ص487، رنسيمان، م س، ، ج1، ص405، حسن حبشي ،م س، ص77، ويذكر ابن القلانسي:م س، ص37، أن الصليبين جمعوااليهود في الكنيسة واحرقوها عليهم وابو المحاسن: م س، ج5، ص150.

(4) عاشور:م س. ج1، ص141-143.

(5) أبو شامة، م س، ج1، ص178، 220، 221، وابن واصل: م س، ج2، ص479 علماً بأن معظم أقباط مصر كان احساسهم ضد الصليبين، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص168.

أخلاقه السماح لهم بالعودة لمن فر منهم إلى المدينة والاستقرار بها[1]، كما سمح لتدفق الهجرة اليهودية من غرب أوروبا استجابة لخاطر طبيبه الخاص موسى بن ميمون رئيس الطائفة اليهودية في مصر[2].

وأشار الرحالة والشاعر اليهودي الاندلسي يهودا الحريزي الذي زار القدس عام 613-614هـ/1216-1217م الى هجرة اليهود الكبيرة الى الأراضي المقدسة[3] لحسن معاملة صلاح الدين لهم وتشجيعهم على الإقامة فيها.

ونحن نرى خطأ هذه السياسة لما تركته من عواقب سياسية وخيمة على أمتنا العربية والإسلامية من تشجيع للهجرة اليهودية الاستيطانية في فلسطين والتي تبنتها الصهيونية العالمية إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

أما عن موقف الصليبيين "اللاتين" من النصارى الشرقيّين خاصة الأقباط الأرثوذكس فقد وضعوا جميع الأماكن المسيحية المقدسة تحت اشراف بطريركهم اللاتيني الجديد "أرنولف" لإقامة شعائرهم الدينية وفق مذهب كنيسة روما[4]. كما اضطهدوا المسيحين اليونانين القاطنين في القدس من اتباع بيزنطة باعتبارهم منشقين عن كنيسة روما[5]، وذلك بطرد القسس الذين كانوا يقيمون الصلاة والشعائر الشرقية في كنيسة القيامة[6]، وعذب أرنولف رجال الدين والقسس الأرثوذكس ببيت المقدس في ظل سيطرة اللاتين. لذا لم يستطع رجال الدين الأرثوذوكس تعيين لأنفسهم اساقفة أو بطريركاً في ظل هذا العداء المذهبي اللاتيني[7]. كما أساؤا الى رعاة الكنائس ودور العبادة التابعة للكنيسة القبطية، ومنعوا أقباط مصر من الحج الى

(1) رنسيمان: ن م، ج2، ص775.

(2) د. الخربوطلي: العرب واليهود في العصر الأسلامي، ص71. والاسلام وأهل الذمة ص219.

(3) Setton: op, Cit vol. 1, p621.

(4) حسن حبشي : م س، ص94. ورنسيمان: م س، جـ1، ص415.

(5) ملر: م س، ص488

(6) عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص252.

(7) رنسيمان: ن م، ج1، ص515، 516

بيت المقدس لاتهامهم بالكفر والإلحاد[1]، وهذا كله بسبب الخلاف المذهبي بين الطوائف المسيحية.

وشتّان ما بين معاملة صلاح الدين الأيوبي عند دخوله القدس عام 583هـ/ 1187م للنصارى وبين معاملة الصليبيين لهم وحتى تسامحه مع الصليبيين أنفسهم عندما سمح لهم بمغادرة بيت المقدس بعد دفع الفدية المتفق[2] عليها وسامح العاجزين من دفعها[3]. كما أعطى الأمان ووفر الأمن لنساء وملوك وأمراء الفرنجة المترهّبات، ولمن معهن من الجواري والعبيد وأرسل من يحرسهن مع أموالهن[4] كما سمح للبطريرك اللاتيني واتباعه من رجال الكنيسة بالمغادرة مع أموالهم من لذهب والفضة[5]. كما سمح للنصارى بالتعبد في كنيسة القيامة بعد ثلاثة أيام لتوفير الأمن والاستقرار[6].

أما نصارى القدس الاصليين والذين ليسوا من الفرنجة فقد طلبوا من صلاح الدين السماح لهم في الاقامة بمساكنهم التي كانوا هجروها مقابل الجزية[7].فوافق صلاح الدين على ذلك مع

---

(1) وليم سليمان: الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية، القاهرة، 1968م، ص15. كما يذكر وليم سليمان: "أن السبب في كراهية الصليبيين لأقباط في مصر انما يرجع الى أنهم أعرضوا تماماً عن النظر إلى الغزاة الصليبين على أنهم مسيحيون تربطهم بهم عقيدة واحدة، وكان حزن الأقباط كحزن المسلمين عندما اقتحم الصليبيون المدينة المقدسة وليم سليمان: ن.م. ن.ص. لذلك غضب الصليبيون عليهم لعدم مساعدتهم لهم وعدم تعاطفهم اثناء اجتياح الغزو بل وقف أقباط مصر بجانب السلطات المسلمة الحاكمة حيث عبر بطريرك الكنيسة القبطية في مصر "ميخائيل الرابع" عن فرحه بسلامة العودة للأفضل شاهنشاه وابن بدر الجمالي بعد قتاله الصليبين في عسقلان عام 492هـ/1099م. د.سلام شافعي محمد: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي: والأيوبي، القاهرة، ص288..

(2) وبالنسبة للفدية فقد وافق صلاح الدين على طلب الصليبيين بالصلح والامان والخروج وأموالهم عدا الخيل الحربية والسلاح الى مدينة صور، ودفع الرجل منهم فدية بمقدار عشرة دنانير والطفل من الذكور والاناث دينارين وخمسة دنانير للمرأة مدة أربعين يوماً للنجاة من العبودية. ابن الأثير : الكامل، جـ11، ص208.

(3) عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص822، 823.

(4) ابن واصل:م س،، ج2، ص216.

(5) العماد الكاتب: م س، ص135. ومجير الدين الحنبلي : م س، جـ1، ص330. إذ يقدر الأموال التي أخذها البطريرك بمائتي ألف دينار ولم يأخذ منه سوى العشرة دنانير. ابن واصل: م س، جـ2، ص216، كما أطلق سبعمائة أسير هبة لهذا البطريرك. رنسيمان:م س، ج2، ص752، 753. وعاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص822.

(6) ابن واصل: م س، ج2، ص231، والعماد الكاتب: م س، ص145، والمقريزي: السلوك: ج1، ق1، ص97، ورنسيمان،م س، ج2، ص752، 756. لين بول: ن م، ص185ن وعارف العارف: ن م، ص79.

(7) العماد الكاتب: ن م، ص136.

اعفاء عدد كبير من فقرائهم[1]. علماً بأن أغنياءهم قد اشتروا من الفرنجة المغادرين أملاكهم وامتعتهم بأثمان رخيصة جداً[2].

كما سمح لهم بمباشرة طقوسهم بحرية تامة[3]. وهكذا نرى استفادة الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها من خروج الصليبين الكاثوليك من بيت المقدس فاستعادوا هيمنتهم على الأماكن المسيحية المقدسة.

وكان الامبراطور البيزنطي "اسحق الثاني انجليوس" قد ارسل سفارة الى صلاح الدين لتهنئته بانتصاره على الصليبين وطلب منه اعادة جميع الكنائس والأماكن المقدسة الى الكنيسة الارثودكسية[4] فاجابه لطلبه[5] وأدى ذلك لتحول الكنائس اللاتينية الى الشعائر اليونانية فتحسنت علاقة صلاح الدين بالبيزنطيين.

لقد ساهم التسامح الديني بمتانة العلاقات الاجتماعية بين السكان على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم[6]. فأدى ذلك الى تعاون مستمر بينهم ومشاركة في كثير من الأعمال والمهن[7]. بالاضافة الى المشاركة في الأفراح والأحزان[8] والمشاركة في المواسم والأعياد وتبادل الهدايا من السمك والعدس والبيض[9].

---

(1) رنسيمان: ن م، ج2، ص752.

(2) ابن الأثير: ن م، ج11،ص209.

(3) المقريزي: ن م: ج1، ق1، ص97.

(4) Setton: A history of the Crudsdes, vol. 1> p 620.

(5) رنسيمان: ن م، جـ2، ص756.

(6) عاشور: الحياة الاجتماعية، ص6، لابيدوس، مدن اسلامية، ص147.

(7) Goitein, Staudies in Islamic History, PP. 151, 302.

(8) كرد علي: خطط الشام، ج6، ص299، المجتمع الاسلامي في بلاد اشام، ص209.

(9) ابن الحجاج: ابو عبد الله محمد العبدري الفاسي، (ت 737هـ/1336م) المدخل الى الشرع الشريف، ج2، بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1972، ص50، المقريزي: الخطط، ج1، ص498، ومتز: الحضارة الاسلامية، ج2، ص285. ذكروا مشاركة المسلمين للنصارى في اعيادهم مثل خميس العهد، وعيد الفصح "العيد الكبير عند النصارى" وعيد الصليب في الرابع عشر من ايلول ذكرى إظهار خشبة الصليب على يد هيلانة أم قسطنطين ابن الحجاج، ن م، ج2، ص50 والمقريزي: ن م، ج1، ص499، كرد عي، ن م، ج6، ص279، وعيد النيروز (أول يوم في السنة عند السريان اليعاقبة الذي يصادف أول يوم من كانون الثاني وسمي المقدس بالشام بالقلندس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص458. وعيد ميلاد المسيح، ابن الحجاج، ن م، ج2، ص61. اليوم الذي عمد فيه المسيح بنهر الأردن وشاركهم بعض المسلمين في غمس أولادهم في الماء رغم شدة البرد لاكسابهم المناعة ضد المرض طوال حياتهم، ابن الحجاج ، ن م، ص61، المقريزي: ن م، ج1، ص497.

كما شارك أهل الذمة المسلمين في عيدي الفطر والأضحى بصنعهم الكعك وبيعه للمسلين، ابن الحجاج، ن م،جـ1، ص281. ففي سنة 624هـ/1226م تصادف عيد الفطر وعيد النصارى وعيد اليهود فتبادل الجميع التهاني والاحتفالات.

كما سمح صلاح الدين لأقباط مصر الارثوذكس بزيارة القدس بعد حرمان دام ثمانية وثمانين عاماً هي فترة حكم الصليبيين لبيت المقدس لاعتبارهم كفرة وملحدين هراقطة كما ذكرنا سابقاً وأعفى حجاجهم من الضرائب باعتبارهم من رعاياودولته في مصر[1]. وغمرهم بكرمه باعادة كنائسهم وأملاكهم التي كان الصيبيون قد سلبوها منهم[2]. بل زاد في عطائه بمنحهم المكا ن الذي اصبح معروفاً باسم: "دير السلطان" نسبة اليه[3].

وقد أعفى الحُجاج من نصارى الحشبة من جميع الرسوم[4]. وشمل برعايته دير الرهبان الأحباش في بيت المقدس[5]. كما استمر في السماح لأفراد الجيش الصليبي بزيارة القدس بالرغم من مطالبة ريتشارد قلب الأسد بمنعهم إلا بإبراز موافقة موقعة منه بل أمّن حراستهم في طريق عودتهم الى يافا[6]. فرفض صلاح الدين هذا الطلب.

ورُبما كان ذلك لاسباب نفسية دينية لينزع الحقد من نفوسهم بعد حجهم للاماكن المقدسة فيرجعون الى بلادهم ويأمن المسلون شرهم ولأسباب سياسية حتى لا يجعل للملك ريتشارد أي سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس وليثير جنوده ضده فيعودون لبلادهم.

ثالثاً: الحالة الاجتماعية لأهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي:

لقد نعم أهل الذمة بالتسامح الديني وحسن الجوار في جميع العصور الاسلامية[7] وخاصة زمن الأيوبيين والمماليك من حيث الحج والزيارة للأماكن المقدسة[8]، وما تقلده اليهود

(1) شحادة خوري: ونقولا خوري: خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الأرثوذكسية، ص78-80.

(2) جرجس فيلوناس: املاك القبط في القدس الشريف، جـ1، ص16.

(3) ن.م. ج1، ص9، 15

(4) عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى: المجلة التاريخية، مجلد 14، السنة 1968، ص22.

(5) ن.م. ن.ص.

(6) ابن واصل، م س، ج2،ص 406

(7) ابن شداد: الاعلاق من الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج2، ق3، تحقيق سامي الدهان، دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1962م مقدمة ص25، هذا وقد شجع الاسلام على التعامل مع أهل الذمة حتى لا يشعروا بعزلتهم في المجتمع الاسلامي قال تعالى: "وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلّ لكم وطعامكم حِلّ لهم" سورة المائدة، آية 5. وانظر ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة، جـ1، تحقيق صبحي الصالح، دمشق، جامعة دمشق، 1961، ص244-245.

(8) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر 1964، ص132

والنصارى لأرقى المناصب الادارية[1] والمالية وامتلاكهم الثروات نتيجة إنعام السلاطين والملوك على أطبائهم[2] كما كانوا من أرباب الحرف والصنائع[3]. يدل على التسامح الديني معهم عكس ما كتبه المستشرقون عن قصد عن الاضطهاد الذي تعرضوا له أوقات الحروب والاضطرابات وخصوصاً زمن الحملات الصليبية والغزو المغولي دون الاشارة الى الأسباب التي أدت لتلك المضايقات نتيجة لجرائم الصليبية في بلاد الشام والتي أثارت مشاعر الكراهية في نفوس المسلمين ضد النصارى[4]. لذا نرى أن أحوال الطوائف الدينية كانت تتأثر بالسياسة الخارجية للدولة ونتيجة لتدخل قوى خارجية لصالحهم كبيزنطة والحبشة والدول الصليبية[5]. وشتان ما بين وضعهم أيام الحكم الإسلامي ووضع الفلسطينين من المسلمين والنصارى تحت حكم اليهود اليوم. وتهمنا الإشارة هنا الى وضع أهل الذمة زمن الأيوبيين والمماليك حيث تمتعوا بكامل حقوقهم الدينية[6] والمدنية كما مارسوا بحرية نشاطهم الزراعي والصناعي والتجاري

---

(1) المقريزي: السلوك: لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب 1970م ص512

(2) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، بيوت، دار المسيرة 1970، ص242، 243، 253.

(3) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، باشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف زالنشر، 1946م، المقدمة.

(4) رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ1، ص461، 307، 350، 415.

(5) المقريزي: السلوك، جـ3، ق1، ص106.

(6) كان للنصارى في بلاد الشام بطركان احدهما لطائفة الملكيه والآخر لليعاقبة، وكان مسؤولاً عن تصرفات ابناء طائفته أمام السلطان والتي كانت تختاره دون تدخل السلطان إلا ما ندر. زيادة، نقولا: دمشق في عصر المماليك، بيروت، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1966، ص164 وبالنسبة لليهود فكان يرأسهم أحد الربانيين -أكبر طوائف اليهود الثلاثة: الربانيون، القراؤون، السامرة-ولقب بالناغد يشرف على جميع شؤونهم الدينية والقضائية. العمري، شهاب الدين أحمد فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، 1312هـ/1894م ص144، ذكر أنه كان للسامرة رئيس خاص بهم. وبالنسبة لمرسوم التعيين لبطرك النصارى ورئيس اليهود، فكان يعين غالباً عن نائب السلطان وأحياناً من السلطان كموظفين رسميين موجهين بنصائح ووصايا ملزمة لهم بالنسبة لابناء طائفتهم. انظر القلقشندي: م س، ج12، ص5، نسخة توقيع اليعاقبة، ج11، ص381 (نسخة توقيع رئاسة اليهود) ص387، (نسخة توقيع بطرك الملكية) وكان البطرك ورئيس اليهود هما الوسيطان بين أبناء طوائفهم وبين الدولة. القلقشندي: ن م، ج11، ص387 الذي ذكر دعاءهم للدولة في صلواتهم وذكر القلشندي: الألقاب التي كانت تطلق على رؤساء الطوائف كمظهر من مظاهرا احترام الدولة لهم: القلقشندي: ن م، ج12، ص289 ذكر ألقاب رئيس اليهود "الرئيس" الأوحد الأجل الأعز" والقاب بطرك النصار: البطرك المحتشم، المبجل، مجلس القسيس، الجليل، الروحاني..." كما تسامح الأيوبيون والمماليك في السماح لهم بتعمير وتجديد كنائسهم متجاوزين بذلك العهد العمري" بعدم بناء كنائس جديدة وعدم تجديد ما هدم منها: أرنولد: الدعوة الى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1970.ص99. وانظر ابن واصل: ن م، ج2، ص407، والعماد الاصفهاني: م س، ص145، وأبو شامة م س، ج2،ص114. د. غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص37، 166 وذلك بالنسبة لسياسية صلاح الدين تجاه الكنائس بعد فتحه بيت المقدس 583هـ/1187م وكذلك بالنسبة لخلفاء صلاح الدين كالملك المعظم عيسى. انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص204، رنسيمان، م س، ح3، ص280 ترتون اس: أهل الذمة في الاسلام: ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1967م، ص159.وكذلك بالنسبة لأماكن العبادة اليهودية التي انتعشت في العصر الايوبي من اعادة ترميم، انظر خان : ظفر الاسلام: تاريخ فلسطين القديم، بيروت، دار النفائس، 677هـ/1279م، ص176، 187، رنسيمان: ن م، ج3، ص141. وبالنسبة لسياسة سلاطين المماليك البحرية إزاء الكنائس والأديرة وخاصة زمن الظاهر بيبرس 709هـ/1309م والسلطان الناصر محمد بن قلاوون 710هـ/1310م انظر دراج، أحمد. وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968م، ص44، 48، بالنسبة للوثائق المنشورة في فهرس كستلاني ، العارف عارف: المسيحية في القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، 1951م ص73.

والتعليمي في بلاد الشام كشريحة من شرائح المجتمع العربي الاسلامي، حيث تقلدوا المناصب الرفيعة وكان منهم الاطباء الخصوصيون للسلاطين والحكام، فمنحوهم الاقطاعات والمكافآت المالية.

وهكذا نرى ونؤكد نتيجة اطلاعنا على هذه المراسيم والوثائق بأن الطوائف النصرانية واليهودية تمتعت بالحرية الدينية أيام الأيوبيين والمماليك.

وأما بالنسبة للالتزامات المالية المترتبة على أهل الذمة فقد شملت الجزية "الجوالي"[1] والضرائب فأما الجزية في العصرين الأيوبي والمملوكي فقد كانت تُجبى من قبل ناظر يعينه السلطان ويساعده موظفون مثل شاد وعامل وشهود، [2] وكانت تدفع في بداية شهر محرم من كل سنة هجرية[3]، فكان يؤخذ منها مبلغ معين لبيت المال والباقي مساهمة في رواتب القضاة وأهل العلم[4] وأحياناً تُرصدُ لبعض الأعمال العمرانية كما فعل السلطان المنصور قلاوون عام 682هـ/1284م بالنسبة لجزية أهل الذمة بالقدس والخليل وبيت لحم وبيت جالا[5]، وأما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد وزّع الجوالي عام 715هـ/1317م على اقطاعات غيرهم في كل بلدة[6].

---

(1) الجوالي: جمع جالية وتطلق على أهل الذمة، لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا عن أوطانهم: البقلي، محمد: التعريفات بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1983م ص94.

(2) القلقشيدي: م س، ج3، ص53، ج12، ص306. وبالنسبة لمقدار الجزية زمن الايوبيين فقد كانت تنحصر في ثلاث مستويات: المستوى الأول أربعة دنانير وسدس الدينار على كل فرد في السنة، والمستوى الثاني ديناران وقيراطان والمستوى الثالث دينار وربع الدينار وحبتان من الدينار. فالترهانس: المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان ، منشورات الجامعة الأردنية 1970، ص10، وانظر القلقشندي، ن م، ج4، ص187: ذكر بان الدرهم كان يساوي 64 فلساً وكل أربعة فلوس منها تساوي حبة. ويضاف درهمان وربع الدرهم على كل فرد للشاد والمبلشرين وأما الحبة فهي وزن حبة الشعير العربية وهي في الغالب وزن عمله لا وزن بضاعة بحسب البلد الذي يستعملها.

(3) القلقشندي: مآثر الأناقة ، ج3، ص117، والمقريزي: الخطط، ج1، ص199، حيث ذكر أن مجموع الجزية عام 587هـ/1189م مائة وثلاثين ألف درهم. انظر النويري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ص241 حيث ذكر بأنها كانت تجمع في العصر المملوكي سلفاً وتعجيلاً في بداية السنة أو قبل شهر أو شهرين.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص530، السخاوي، محمد بن عبد الرحمن محمد : التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية، ص249.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، 1941م ، ط2، 1970م، ص712.

(6) المقريزي: ن م، ج2، ق1، ص169، والخطط، ج1، ص165 وانظر النويري: نهاية الأرب، ج8، ص241.

وبالنسبة للضرائب الاضافية فكانت تجبى منهم مكوس يعرف برسم نفقة الأجناد[1] كما فرض الظاهر بيبرس عام 661هـ/1263م ديناراً على كل شخص في القدس برسم نفقة الأجناد والألتزام بخسائر الحريق[2] كما استفاد الملاك والفلاحون من أهل الذمة من الاعفاءات المالية وهكذا نرى بأن المتاعب المالية التي واجهها أهل الذمة في بلاد الشام كانت نتيجة لبعض الاضطرابات التي يسببونها أو لتعسف الولاة والسلاطين لحاجتهم للمال أو حاجة الدولة للأموال نتيجة الظروف الاقتصادية في حالة الحروب الخارجية لتجهيز الجيوش.

كما كانت الكنائس والأديرة تملك الأراضي الزراعية والبساتين حولها[3]، وكانت هناك عدة قرى ونواحٍ غالبية سكانها من النصارى أو اليهود كبلدة الشوبك[4] والكرك[5]. وقرية بيت ماما التي تتبع مدينة نابلس وأهلها سامرة[6].وبيت جالا في فلسطين وأهلها نصارى ويزرعون الكرمة[7] وقرية شرافات قرب بيت المقدس وجميع سكانها نصارى ويعصرون العنب للبيع. والمنطقة الممتدة بين سبسطية والقدس حيث كان معظم سكانها من اليهود[8]. ومدينة نابلس مركز تجمع السمرة.

وقد كانت معاملة الصليبين لليهودقاسية وحاقدة حيث حرقوا معبدهم في القدس على من فيه فمات عدد كبير منهم حريقاً[9]، وأسروا من فر منهم وباعوهم في أسواق النخاسة بسعر دينار لكل ثلاثين يهودياً تجقيراً لهم حيث كان هذا الثمن البخس أقل من ثمن الحيوانات، كما

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص664، والخطط، ج1، ص106، كما حرص سلاطين المماليك على ازالة مثل هذه المكوس والمظالم كما حدث عام 677هـ/1279م عندما اسقطها السلطان السعيد ابن الظاهر بيبرس عام 693هـ/1295م كما فعله الأشرف خليل بن قلاوون وما فعله السلطان محمد بن قلاوون عام (689-693هـ/1291-1295م).

(2) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1376م) البداية والنهاية في التاريخ، جـ14، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، بيروت دار الكتب العلمية ط4، 1988، ص187، 189.

(3) العمري: مسالك الأبصار، ج1، باب 6، ص336، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص520.

(4) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم، قرب الكرك، بوادي موسى ياقوت الحموي: ن م، ج3، ص370.

(5) الكرك: اسم لقلعة حصينة جداً في أطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس تحيط بها الأودية ما عدا جهة الربض، ياقوت الحموي: ن م، ج4،ص453.

(6) ياقوت الحموي: ن م، ج1، ص255

(7) العليمي: الحنبلي، الأنس الجليل، م س، جـ2، ص147

(8) Mandevill, The book , P. 183.

(9) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص137.

حرموا على من بقي منهم دخول بيت المقدس والمعيشة في مدن فلسطين بعكس الأمان الذي منحهم اليه صلاح الدين. وقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبي في كل مدن فلسطين فشملهم القتل والأسر في يافا والجليل وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية[1] فهرب معظمهم حتى كادت مدن فلسطين تخلو منهم.

كما ذكر الرحالة اليهودي التطيلي أنه رأى مدناً في فلسطين خالية من اليهود أو تكاد... فذكر أنه لم ير سوى يهودياً واجداً في يافا، وثلاثة في بيت جبرين[2]. وفي بيت المقدس اربعة يهود وفي عكا مائتي يهودي وفي قيسارية مائتين من الربانيين وثلاثمائة في الرملة ومائتي رباني في عسقلان وأحد عشر في بيت لحم وفي نابلس ألف عائلة من السامرين[3] ، ومنهم مائتان في قيسارية.

وعندما خرج ابن جبير من دمشق 580هـ/1184م رأى السلطان صلاح الدين يهاجم حصن الكرك ويهزم الفرنجة ويأسر عدداً كبيراً منهم وبينهم عدد من السامريين[4].

وقد كان معظمهم يعمل في مهنة الصناعة وخاصة صناعة الزجاج حيث عاشت جالية صغيرة من السامرة في نابلس. وقد ظلت القدس محرمة عليهم حتى فتحها صلاح الدين.

---

(1) Ben - Gurion, (D): The Jews in their land, London, 1966, p214.

(2) Benjamin, pp. 65,79,80.

(3) انظر آدم متز: ج1، ص49.

(4) ابن جبير: م س، ص209، Benjamin, Ibid,PP. 65-80

رابعاً: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة في جنوب بلاد الشام في العصرين الايوبي والمملوكي :

لقد تبين لنا تأثير هذه العلاقات الدينية في عادات وتقاليد المجتمع الشامي[1] وفي الحياة الاقتصادية[2] والحياة السياسية في بعض المناسبات ذات الطابع السياسي كالخروج لاستقبال السلطان وتأييده عند قدومه الى المدينة[3] كما تجلّت المشاعر الإنسانية في أعلى درجاتها أيام حدوث المجاعات والأوبئة واحتباس المطر[4] فكان له أكبر الأثر في حسن الجوار والوفاق بينهم[5].

غير أن تشدد بعض القضاة والفقهاء تجاه أهل الملة أدى الى توتر العلاقات الاجتماعية بينهم كما حدث أيام الظاهر بيبرس سنة669هـ/ 1271م إذ أحرق كنيسة لليهود في دمشق بعد افتاء الشيخ العدوي المهراني[6]. وتشددهم في مسألة بناء الكنائس ومعابد جديدة كما حدث في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 721هـ/1321م. حيث هدم كنيس لليهود في

---

(1) ابن الحاج: م س، ج1، ص272، 273، أشار الى أن بعض النساء المسلمات قد تآزرنا كي يقمن بشراء مأكل السمك يوم السبت، وكذلك عدم دخولهن الحمام وغسيل الثياب أو شراء الصابون يوم السبت وتأثر بعضهم بعادات النصارى أيضاً من حيث عدم الذهاب للعمل ليلة الأحد ونهاره. وكذلك كان أهل الشام يتنزهون يوم السبت في أماكن تجمع اليهود ويوم الأحد أماكن تجمع النصارى.

(2) المدني: مدينة حلب ي العصر المملوكي، ص195، وذكر تردد المسلمين والنصارى على حارات اليهود ومحلاتهم التجارية للشراء لشهرة اليهود في التجارة والحرف اليدوية.

(3) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث وتراجم سنين 648-664هـ/1250-1266م البخيت: مملكة الكرك، ص27، حيث خرج أهل الكرك ومعظمهم من النصارى لاستقبال السلطان الظاهر بيرس سنة 661هـ وحلفهم بالانجيل ولكن هذه العلاقات توترت وتعكر صفوفها أيام الأحداث السياسية نتيجة لتصرفات فردية وكردة فعل على مذابح الافرنج عند دخولهم البلاد الاسلامية ووقوف بعضهم لجانب هؤلاء فاستاء المسلمون منهم. أنظر ابن الأثير:الكامل، جـ9، ص95. رنسيمان: م س، جـ1، ص307، 316، 350، 415. قاسم : أثر الحروب الصليبية في العالم الاسلامي، م3، ص162 وردة فعل النصارى على فتح الظاهر بيبرس قيسارية وارسوف في الساحل الفلسطيني، كما تنزه المسلمون في بساتين الأديرة النصرانية. العمري: مسالك الأبصار، ص340، 344. ومتز: م س، ص407. وعمر باشا: الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، بيروت، دار الفكر 1989، ص261 وتنزه بعض نواب القدس وأعيانها في جبل صهيون حيث كان يستقبلهم هناك رهبان دير الفرنسيسكان بالحفاوة والترحيب وكرم الضيافة. زيادة نقولا : رواد الشرق العربي، ص200.

(4) ابن بطوطة: الرحلة، ص95-96. حيث شاهد عام 749هـ/1348م مواكب السكان من مسلمين ويهود ونصارى رافعين كتبهم الدينية متضرعين الى الله ايام الطاعون الأعظم.

(5) زيادة، نقولا: رواد المشرق العربي، ص189، حيث ذكر رواية المهاجر اليهودي الى القدس عام 735هـ/1334م حيث وصف برسالته الى والده في اسبانيا حالة اليهود ومعيشتهم الممتازة في القدس. د. محمد صالحية: اليهود في القدس، ص22.

(6) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج2، ق1، ص274، الذهبي: تاريخ الاسلام: مخطوط، ج2، ورقة 9أ، أبو المحاسن،م س، ج7، ص162.

دمشق[1]. كما كان المسلمون يُكَرّمون أهل الذمة الذين يعلنون اسلامهم في حفل يوم الجمعة اثناء تأدية صلاة الجمعة كما حدث سنة 701هـ/ 1301م عندما أسلم الطبيب اليهودي اسحق بن يحيى الاسرائيلي وأولاده[2].

وبالنسبة للعلاقات بين أهل الذمة لم تكن ودية نتيجة للعداوة الدينية التقليدية بينهم من جهة والمنافسة بين الفريقين في التقرب لأصحاب السلطة من جهة أخرى[3]. ولم يمنع هذا من نجدة اليهود للنصارى زمن الشدة، حيث أعاروهم الغمائم الصفراء منعاً لوثوب العامة عليهم في الطرقات[4].

القيود الاجتماعية على أهل الذمة زمن الأيوبيين والمماليك:

لقد فُرِضَ على أهل الذمة لبس الغيار[5]. فَأُلزِمَ اليهود باللون الأصفر والسامرة باللون الأحمر والنصارى باللون الأزرق رجالاً ونساءً اللواتي فُرِضَ عليهن ايضاً ارتداء الحزام "الزنّار" فوق الإزار بشكل بارز وملوّن حسب الطائفة الدينية، بالاضافة لخُفّيْن أحدهما أبيض والآخر أسود، وتعليق خاتم في أعناقهن عند دخولهن الحمام العام وذلك[6] لتمييزهن عن النساء المسلمات، أما الرجال ففرض عليهم صلبان من نحاس أو رصاص أو حديد عند دخول الحمام فقط وعدم السماح لهم بأظهارها في أسواق وطرق المسلمين، كما سمح لهم بالضرب على النواقيس ضرباً خفيفاً والقراءة بصوت منخفض على موتاهم. وركوب الحمير أو البغال فقط، ومنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح والتقلد بالسيف[7].

---

(1) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج2، ص401، وابن الشحنة: الدر المنتخب، ص72.

(2) الذهبي: ذيول العبر: ج4، ص3، ابن كثير:م س: ج4، ص21.

(3) ترتون: ن م، ص102.

(4) المقريزي: السلوك، جـ2، ق1، ص227: ترتون: ن م، ص78.

(5) الغيار: نوع من الملابس تميز به اهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى: ابن حبيب: تذكرة النبيه/ ج1، ص233، هامش رقم1.

(6) الشيزري: نهاية الرتبة، ص106، ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، ص100، ماير، الملابس المملوكية، ص120.

(7) الشيزري: ن. م.، ص106، 107. ابن قيم الجوزية، م س، ص102، 104..Stillman, the Jews of Arab lands. p. 271

وفي العمران لم يسمح لهم برفع بنيانهم على بنيان المسلمين، وعدم الجلوس في الصدارة بين المسلمين، وعدم مزاحمتهم للمسلمين في الطرق، ومنعوا من بيع الخمرة والخنزير[1]. وعدم شراء الجواري والعبيد المسلمين لأهل الذمة[2].

وقد اشرف على تنفيذ هذه القيود والتعليمات المحتسب، وبموجب تعليمات الحكام لرؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة أثناء تعيينهم[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه القيود لم تكن ملزمة بشكل دائم على أهل الذمة، بل خضع تطبيقها للظروف العامةو ومزاج السلاطين، كما حدث زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي[4]. والملك العزيز بدمشق[5]، والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب[6]، والسلطان قلاوون[7]، والناصر محمد بن قلاوون[8] وأولاده وأحفاده[9].

---

(1) الشيزري: ن. م.، ص، 107.

(2) الشيزري: ن. م.، ص 84، ابن قيم الجوزية، ن م، ص114

(3) الشيزري: ن. م.، ص106، 107. القلقشندي:م س، ج11، ص385 ذكر وصية رئيس اليهود.

(4) فقد شدد في فرض القيود الاجتماعية حينما تآمروا على حكمه بالاتصال بالإفرنج والاسماعيلية في الشام، انظر ابو شامة، م س، ج1، ص220، 241، 242، شافعي: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والايوبي، المقريزي: السلوك:، ج1، ق1، ص77، حوادث سنة 577هـ. حتى انه لم يستثني كاتب ولا طبيب حتى طبيبه النصراني اسعد بن لمطران، الذي كان يتصرف بلباسه وسلوكه كالوزراء (ابن ابي أصيبعة، م س، ص651، 652. وانظر الشيزري: المنهج الملوك في سياسة الملوك، ص21، 51.

(5) المقريزي: ن م: ج1، ق1، ص135، حيث الزمهم بلبس الغيار

(6) ابن الواسطي، الرد على أهل الذمة ص403

(7) المقريزي: الخطط، ج3، ص545. ذكر في حوادث عام 682هـ إجبار النصارى على ركب الحمير بزنانير في أوساطهم وعدم الكلام مع المسلم أثناء ركوبه أو لبس الثوب المعقول. حسن، علي ابراهيم، تاريخ المماليك البحرية، ج3، 1967،ص448، ماير، الملابس المملوكية، ص117. ترتون : أهل الذمة ص135،

(8) القلقشندي: ن م: ج12، ص277، ذكر حسن معاملة أهل الذمة بتعليماته الى ابنه الأمير أحمد عندما عينه في نيابة الكرك "وأهل الذمة فآوهم الى كنف العدل والواسع، وأحمهم أن تمتد الى أنفسهم يد جان والى أموالهم يد طامع، وأقم عليهم بأساً يحل بهم اذا اعتدوا ...." وأدم لهم مهابة تسد من فساد الذرائع بينما شدد عليهم سنة700هـ بلبس الغيار متأثراً برأي الوزير المغربي الزائر وكتب بذلك الى جميع الأعمال فاسلم منهم عدد كبير، أنظر القلقشندي: ن م، ج13، ص377، أبو المحاسن: م س، ج8، ص134. ولكنه استثنى اهل الشوبك والكرك من تلك القيود لأن غالبية سكانها من النصارى الذين كانوا يضيعون العمائم البيضاء على رؤوسهم انظر ابن كثير: م س، ج14، ص16. والمقريزي: السلوك، ج1، ص512، البخيت مملكة الكرك، ص27، ماير :م س، ص121. ويرى الدكتور غوانمة بأن استثناء أهل الشوبك والكرك من هذه القيود لأنهما كانتا مركزاً لنفوذه القوي وملاذاً له وقت الشدائد. د. غوانمة: دراسات، م س، ص27، والتاريخ السياسي لشرقي الأردن: ص144، 153، والتاريخ الحضاري: ص42.

(9) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص85، العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، ج2، ص90-95 وثيقة رقم 335 تاريخ 20 ذي القعدة 795هـ/27 تموز 1392.

ونتيجة لمضايقتهم في فرض القيود عليهم أيام معظم السلاطين للتخلص من نقمة العامة عليهم حين سمح لهم بالخروج على هذه القيود وللمحافظة على وظائفهم فقد أسلم منهم عدد كبير زمن السلطان الصالح صلاح الدين عام 755هـ/1354م[1]. الذي تشدد في القيود المفروضة عليهم بل زاد عليها[2].

وهكذا يتضح لنا من أن القيود الاجتماعية المفروضة على أهل الذمة استمرت طيلة العصر الأيوبي والمملوكي نتيجة غيرة السلاطين الدينية تدعيماً لحكمهم انطلاقاً من شعار الجهد الذي أطلقه السلاطين. أو بسبب سخط العامة على الذميين نتيجة الشعور المعادي الذي خلفته الحروب الصليبية[3]. لما ارتكبه الصليبيون من مذابح وما خلفوا من ويلات للمسلمين أو عن طريق استفزاز شعور المسلمين وخاصة الفقهاء والقضاة ورجال العلم بلبسهم الثياب الفاخرة، واستخدامهم الجواري المسلمات وركوبهم الخيل مما يدفع السلاطين لإصدار مراسيم القيود المتشددة لأخماد ثورة العامة، واستغل هذا بعض السلاطين لتحصيل الأموال منهم لخزينة الدولة أيام الأزمات المالية مقابل التخلص من تلك القيود[4].

وفي الختام نستطيع القول بأن التسامح مع الذميين كان سائداً في معظم العصور الاسلامية خاصة العصور الوسطى المتميزة بتغلب الروح الدينية في العالمين الاسلامي والأوروبي على السواء[5]. حيث تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية باستثناء اوقات الشدة والاضطرابات كما يلاحظ أن تجديد هذه المراسيم المتشددة يعتبر دليلاً على أنها لم تكن موضع التنفيذ دائماً ناهيك عن تمتعهم بحرية التعليم أيضاً.

---

(1) الذهبي: ذيول العبر، ج4، ص162، ابن كثير:م س. ج14، ص262، القلقشندي:م س، ج13، ص378، ومآثر الأناقة، ج2، ص157، 158. المقريزي: السلوك، ج2، ق3، ص922، والخطط، ج2، ص500. حيث يعلق على اسلامهم بقوله: "مكراً منهم وخديعة حتى يستخدموا في المباشرات وينكحوا المسلمات فتم لهم مرادهم، واختلطت بذلك الانساب....". حتّي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. ج2. ص261.

(2) حدد قيمة الحمار الذي يركبه الذمي دون المائة درهم، ومنعت نسائهم من دخول الحمامات مع المسلمات وتغير لون الحق بحيث يكون أحدهما أبيض والآخر أسود على عكس ما كان قبل عهده حيث كان احدهما أحمر والآخر أسود وألزم النساء اليهوديات بالرداء الأصفر والنصرانيات بالرداء الأزرق بعد أن كن يضعن اشارت ملونة فوق ملابسهن لتيميزهن عن المسلمات انظر ابن كثير: م س. ج14، ص262. ابن دقماق، م س، ج2، ص204. القلقشندي: ن م، ج13، ص383.

(3) اليوسفي: نزهة الناظر: ص84، قاسم، أهل الذمة في مصر، ص 183، حتّي: مختصر تاريخ لبنان، ص148.

(4) قاسم: ن م، ص184، حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص448.

(5) Lewis, Benard, The Jews of Islam, London, Routledgeand, Kegan Pual 1981, p. 62.

أعياد أهل الذمة:

كان أهل الذمة يحتفلون بأعيادهم الدينية، في أديرتهم وكنائسهم[1] على نطاق حاراتهم كما احتفلوا بها أحياناً قرب مزاراتهم المقدسة[2]، وقرب الأنهار[3]، وكانت أعياد كل طائفة تختلف عن الأخرى من حيث طرق الاحتفال والموعد المحدد لديها بموجب تقويم الطائفة الخاص بها لذا تعددت الأعياد لتصل الى اربعة عشر عيداً عند النصارى[4]،منها سبعة أعياد كبيرة وسبعة صغيرة كالتالي: فالأعياد الكبيرة هي عيد البشارة، في الخامس والعشرين من شهر آذار[5]. وعيد الزيتون[6] وعيد الفصح[7].والعيد الرابع "خميس الأربعين"[8] والعيد الخامس هو عيد الخميس[9]، والعيد السادس هو عيد الميلاد[10].

---

(1) نعيسه: مجتمع مدينة دمشق، ج2، ص680.

(2) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص95.

(3) الدمشقي: نخبة الدهر، ص280.

(4) القلقشندي: م س، ج2، بيروت، 1987م، ص454

(5) الدمشقي، ن م، ص280، المقريزي: الخطط، ج2، ص495، وسمي بهذا الاسم نسبة الى بشارة غبريال بواسطة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بمولد المسيح.

(6) عيد الزيتون: ويعرف بعيد الشعانين المأخوذ من الكلمة السريانية "سعانين" ومعناها سعف النخيل ومعناها باللغة العبرية التسبيح، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور (الحمار) في القدس وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والناس حوله يسبحون ويرفعون سعف النخيل في سابع أحد من صومهم انظر الدمشقي: ن م، ص280، القلقشندي: ن م، ج2، ص495. والمقريزي: الخطط، ج1، ص445، قاسم أهل الذمة في مصر، ص120

(7) عيد الفصح: وهو العيد الكبير عن النصارى بعد صومهم الأكبر، ويزعمون إقامة المسيح في هذا اليوم بعد صلبه لمدة اربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعوده للسماء. انظر القلقشندي: ن م، ج2، ص454. المقريزي: الخطط، ج1، ص495 وفيه يجتمع النصارى بالقدس حول المذبح الخاص بهم ويقرؤون الانجيل ويرتل المصلون: "المسيح قام من بين الأموات" وتقرع الأجراس بعد منتصف الليل وتبقى الاحتفالات حتى ساعة متأخرة من الليل. السيد: م س، ص267.

(8) عيد خميس الأربعين: يعتقدون بأن المسيح تسلق فيه الى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه من الموت ورجع تلاميذه لبيت المقدس بعدما وعدهم بظهور أمرهم. الدمشقي: نخبة الدهر، ص280، القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص455، المقريزي: الخطط، ج1، ص495، 496. وسمي عند الشاميين "السلاقا" وعيد الصعود.

(9) عيد الخميس: يسمى عيد العنصرة وعيد القيامة بعد خمسين يوماً من القيام ويعتقدون بحلول روح القدس في تلاميذ المسيح وتوزعت عليهم جميع اللغات لدعوة الناس لدين المسيح انظر الدمشقي: ن م، ص28، القلقشندي: ن م، جـ2، ص455. المقريزي: ن م، ج1، ص496.

(10) عيد الميلاد: وهو يوم مولد المسيح في بيت لحم الموافق يوم الاثنين عشية الأحد الذي يصادف الخامس والعشرين من شهر كانون اول (ديسمبر كل عام انظر: المسعودي: مروج الذهب) ج2، ص338، وفيه يحج النصارى الى كعبتهم في بيت لحم كما يحجون الى كنيسة القيامة في عيد الفصح أو القيامة وفيه ايضاً يوقدون النار ويلعبون بالجوز اقتداء بيوسف النجار الذي أوقد نار لمريم العذراء عليها السلام وأطعمها بعض الجوز بعد ولادتها المسيح، انظر متز: الحضارة الاسلامية، ج2، ص285، سيرة القدس في العصر المملوكي، ص 267.

وأما أعيادهم الصغيرة فكانت "عيد الختان[1]" وعيد الأربعين[2]، وخميس العهد[3]، وسبت النور[4] وحد الحدود[5]، وعيد التجلي[6]، وعيد الصليب[7]. هذا بالاضافة الى الأعياد غير الشرعية مثل عيد النيروز[8].

---

(1) عيد الختان: في ذكرى ختان المسيح عليه السلام الذي يصادف الحادي والثلاثين من أيار "مايو" عند الأقباط ويسمى الميلادة الصغيرة. الدمشقي:م س، ص281. وانظر القلقشندي: م س، ج2، ص455،المقريزي: الخطط، ص498

(2) عيد الأربعين: ويسمى عيد الهيكل، الذي يصادف الثاني من شباط "فبراير"، ويزعمون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح وامه عليهما السلام بالهيكل بعد اربعين يوماً من ميلاده لمباركته. انظر الدمشقي: ن م، ص281، القلقشندي: ن م، ج2، ص455، 456، المقريزي: ن م، ج1، ص498.

(3) خميس العهد: ويسمى خميس العدس: عند أهل الشام "خميس الأرز" و "خميس البيض" وهو قبل الفصح بثلاثة أيام ويغسل فيه البطريرك أرجل الحاضرين تقليداً للمسيح عندما غسل أرجل تلاميذه ليعلمهم التواضع ويتهادون فيه العدس والبيض والسمك، انظر الدمشقي: ن م، ص281، القلقشندي: ن م، ج2، ص456. والمقريزي: ن م، ج1، ص498، متز، الحضارة الاسلامية ج2، ص285.

(4) سبت النور أو عيد كنيسة القيامة لظهور النور في هذا اليوم على قبر المسيح من السماء فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة وهو قبل الفصح بيوم في القدس انظر ابن واصل :م س، ج2، ص231. الدمشقي: ن م، ص281. القلقشندي: ن م، ج2، ص456، المقريزي: ن م، ج1،ص 498، لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي: ص182.

(5) حد الحدود أو "أحد الأحود"، الذي يصادف بعد ثمانية أيام من عيد الفصح ويجددون فيه الاتهم وأثاث منازلهم انظر الدمشقي: ن م. ص281م القلقشندي: ن م، ج2، ص457، المقريزي: ن م، ج1، ص499.

(6) عيد التجلي: الذي يصادف السابع من آب ويزعمون بتجلي المسيح لتلاميذه وبعد صعوده إلى السماء في هذا اليوم،أنظر الدمشقي: ن م. ص281، القلقشندي: ن م، ج2، ص457، المقريزي: الخطط، ج1، ص499.

(7) عيد الصليب ويصادف في السابع من ايلول احتفالاً باليوم الذي وجدت فيه هيلانة أم قسطنطين خشبة الصليب وغطتها بالذهب. الدمشقي : ن م، ص281. والقلقشندي: ن م، جـ2، ص45. والمقريزي: ن م، جـ1، ص499. قاسم : م س، ص122.

(8) عيد النيروز: يحتفل به الأقباط المصريين أول يوم من سنتهم كما يسميه أهل الشام "نيروز". الدمشقي: ن م، ص280. والقلقشندي: ن م، جـ2، ص458، يقول القلقشندي: إن كلمة "نيروز" فارسية معربة: معناها اليوم الجديد واستعاره الأقباط من الفرس وعند أهل الشام أول كانون الثاني، والمقريزي: ن م، جـ1، ص501.

وبالنسبة لليهود فكانت لهم خمسة أعياد شرعية وعيدان مُحْدثان. أما الأعياد الشرعية فهي: عيد رأس السنة[1] وعيد صوماريا[2] وعيد المظلة[3] وعيد الفطير[4] وعيد الاسابيع[5]، والأعياد المحدثة مثل عيد الفوز[6] وعيد الحنكة[7]. وأما عيد السامرة فكان عيد الفسح[8].

---

(1) عيد رأس السنة: عيد رأس هيشا بالعبرية ومعناه عيد رأس الشهر ويقابل عيد الأضحى عند المسلمين في ذكرى محاولة سيدنا ابراهيم لذبح ابنه اسماعيل وفداء الله له بذبح عظيم انظر القلقشندي: ن م، ج2، ص463 ويصادف في الحادي والعشرين من ايلول ويعتبرونه عيد حرية وعتق لخلاصهم من فرعون فيسمونه عيد البشارة انظر المقريزي: الخطط، ج3، ص500، نعيسة: يهود دمشق، ومجتمع مدينة دمشق، ج2، ص682.

(2) عيد صوماريا: "الكبور" أو "الغفران" أو "الكفارة" وهو عندهم الصوم الكبير المفروض عليهم في هذا اليوم لمدة خمس وعشرون ساعة. أنظر القلقشندي: ن م، ج2، ص464، المقريزي: الخطط، ج3، ص500، نعيسة: يهود دمشق، ص38.

(3) عيد المظلة: لجلوسهم سبعة ايام تحت ظلال جريد النخل وأغصان الزيتون في منازلهم تذكاراً منهم لاظلالهم بالغمام ويصادف في الخامس من تشرين الأول. القلشندي: ن م، جـ2، ص464. المقريزي: الخطط، جـ3، ص500. نعيسة: ن م، ص38، ويعتبر عيد الاعتكاف عند الربانيين.

(4) عيد الفطير: وسمي عيد الفصح، وذكره المقريزي: باسم "الفاسح" ويصادف في اليوم الأول من نيسان ابريل) خامس عشر من شهر نيسان اليهودي. ويأكلون فيه الفطير في ذكرى تخليصهم من فرعون بعد خروجهم من التيه وغرقه في البحر الأحمر، انظر القلقشندي: ن م، ج2، ص464، المقريزي: ن م، ج3، ص500، نعيسة، يهود دمشق، ص38.

(5) عيد الاسابيع: أو "عيد العنصرة"، أو "عيد الخطاب"، وبالعبرية "عيد عشرتا" ومعناها الاجتماع بعد عيد الفطر بسبعةأيام يزعمون بأن اليوم الذي خاطب الله فيه موسى عيه السلام على جبل طور سيناء بالأوامر والنواهي ويصادف في الثالث من ايار "مايو" انظر البيروني: الآثار الباقية ص281، القلقشندي: ن م، ج2، ص465. المقريزي: م،س. ج3، ص500. نعيسة: ن م، ص38.

(6) عيد الفوز: "لبوريم بالعبرية" ومعناها الفوز ويصادف في اليوم الثالث عشر من آذار لمدة يومين يحتفلون فيه باللهو والخلاعة انظر القلقشندي، ن م، ج2، ص465-466، المقريزي: ن م، ج3، ص511،501،502، نعيسة، يهود دمشق، ص38.

(7) عيد الحنكة: ومدته ثمانية أيام يوقدون فيه ثمانية سرج. البيروني : ن م، ص278، القلقشندي: ن م، جـ2، ص466. والمقريزي: ن م، جـ3، ص511.

(8) عيد الفسح: أو الفصح ويصادف في الرابع عشر من الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج في مدينة نابلس على جبل جرزيم. انظر: محمد كرد علي: خطط الشام ج6، ص217، نعيسة: ن م، ص39.

وكان يوم السبت ومازال يوماً مقدساً عند اليهود كعطلة نهاية الأسبوع وحرمته منع الطوائف اليهودية العمل فيه الذي كان عقوبته القتل[1]. وكانت القدس قبلتهم ومكان تعبدهم[2].

وبالنسبة للوظائف الادارية التي تسلمها أهل الذمة: فقد اعتمد الأيوبيون على أهل الذمة في الوظائف الكبرى في الدولة[3].

كما احتل أهل الذمة مكانة مرموقة في الجهاز الاداري أيام المماليك في البلاد الشامية[4]. فكان كاتب الخزانة[5] عبد الله بن صنيعة القبطي في أيام السلطان صلاح الدين لاجين (696-698هـ/1298-1299م) وكان عبد الله بن تاج الرئاسة بن الغنام الصاحب أمين الدين أمين الملك القبطي وزير مصر والشام زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

كما تولى سنة 733هـ/ 1332م نظر الشام ونظر الخواص[6] ونظر الأوقاف في آن واحد، وتوفي سنة 740هـ/1339م بعد سجنه ومصادرة أمواله[7]. ويلاحظ مراقبة ومحاسبة كبار الموظفين لسوء تصرفهم.

---

(1) المقريزي: الخطط: ج3، ص53، ويقضون هذا اليوم في العبادة والجلوس على شرفات منازلهم ولا يخرجون الى المعبد أو المدرسة وحتى طعامهم يكون معد في اليوم السابق المكون من اللحم والفواكه والمشروبات المسكرة وقراءة التوراة فايزة حجازي: أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة اليرموك 1402هـ/1992م، ص190.

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص142-143، 145.

(3) المقريزي: السلوك: ج1، ق1، ص47-48

(4) أبو المحاسن: م س: ج14، ص275.

(5) كاتب الخزانة: وظيفة كبيرة إذ كانت مستودع أموال المملكة حتى انشئت خزانة الخاص فانتقل ما كان يحمل الى الخزانة الكبرى ويصرف منها الى هذه الخزانة عدا الخلع والأقمشة والتشاريف والطرز، انظر القلقشندي: م س، ج11، ص334. وقد أسلم في سنة 701هـ/1303م وتوفي سنة 734هـ/1334م. وخدم عند الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام حتى جمع ثروة عظيمة ثم صودرت ونكب لمشاركته في غش الذهب. انظر ابن حجر العسقلاني: م س، ج2، ص367-368. واليوسفي : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص117.

(6) انظر الخواص، أو الخاص وهي وظيفة خاصة بمال السلطان ورتبة صاحبها بدرجة وزير أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون. القلقشندي: م س، ج11، ص310-311.

(7) اليوسفي: نزهة الناظر، ص116، المقريزي: الخطط، ج2، ق2، ص358.

حوادث اجتماعية ضد أهل الذمة من النصارى واليهود:

لقد كان أهل الذمة يعيشون حياتهم الخاصة بما فيها من ترف زائد في الملبس والمأكل والحياة الكريمة مما جعل السلاطين يحقدون عليهم حسداً وخاصة عندما كانوا يخرجون على خيولهم المسوقة والبغال الرائعة بالحلي الفاخرة[1]، فصدرت مراسيم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 700هـ/1300م الى باقي الأقاليم للحد من تظاهرهم بهذا أمام الناس كمنافسين للسلطان في أبهة العيش، فقام العامة من الفقراء والحاقدين أصلاً على الأغنياء باستغلال المراسيم السلطانية ضدهم حملها الأمير سيف الدين قشتمر الحاجب برفقة الشريف شهاب الدين المنشيء[2].بهدم كنائس اليهود والنصارى في القاهرة بتصورهم أن هذه المراسيم تبيح لهم النيل من أهل الذمة بمساعدة فتوى الشيخ الفقيه نجم الدين أحمد بن محمد الرفعة كما فعل أهل الاسكندرية أيضاً بهدم كنيسة للنصارى بالاضافة لدورهم الفاخرة والمجاورة لدورهم البسيطة، كما حطموا مساطب حوانيتهم لتصبح أهبط من حوانيت المسلمين[3]، بينما رفض القضاة هذه الأعمال بحجة حرية الأديان ولا توجد سابعة لها بالاسلام كما أُجْبر النصارى على لبس العمامة الزرقاء لتمييزهم عن المسلمين وعندما يخالفون ذلك كانت الأوامر السلطانية تبيح نهب أموالهم وحريمهم وتحريم عملهم في الأملاك السلطانية اضافة الى اعتداء العامة عليهم بالأكف والنعال[4].

وهكذا نرى أن نتيجة هذه الاجراءات هو إثارة عوامل الحقد والجسد والكراهية بين طبقة العامة من المسلمين وأهل الذمة ولولا تدخل السلطة للمحافظة على الاستقرار الاجتماعي ولمنع اعتداءات العامة عليهم. كما حدث سنة 714هـ/1314م برواية المقريزي بمعاقبة علي بن السباق الذي خرج يوم الجمعة في ذي الحجة سنة 714هـ/1314م وهو يضرب بسيفه كل من وجده من اليهود والنصارى وذلك بقتله[5]. ورغم ذك فهذه حادثة فردية لا يمكن التعميم بها على

---

(1) المقريزي : السلوك: ج1، ص909. وابن اياس: م س، جـ1، ص143. وأبو المحاسن:م س، جـ8، ص133.

(2) ابن حجر: م س، جـ3، ص333-334.

(3) المقريزي: ن م: ج1، ص912. وأبو المحاسن: ن م، جـ8، ص134-135.

(4) المقريزي: ن م: ج1، ص914-915. وابن حجر : م س، جـ2، ص276. وأبو المحاسن: ن م، جـ8، ص134-135.

(5) المقريزي: ن م، جـ2، ص139-140.

جميع عامة المسلمين كما تدخلت السلطة بعزل قاضي مصر شمس الدين الحريري لقسوته على أهل الذمة عام 717هـ/1317م[1].

كما قام العامة بدمشق بهدم كنيسة لليهود سنة 721هـ/1221م[2]. وهدموا كنيستين بالزهري وبستان السكري[3]، واستمرت الدعوات في اقليم مصر بهدم الكنائس[4]. هذا الى جانب المشاجرات اليومية في الاسواق العامة بين المسلمين وأهل الذمة كما حدث سنة 727هـ/1326م في الاسكندرية حيث اقتتلوا بالسلاح فسار اليهم ركن الدين الكركي مُتَولّي ثغر الاسكندرية، وحاول حماية الفرنجة ولكن العامة قاتلوه وهزموه فاخبر السلطان بذلك فغضب وأرسل النجدات لتوفير الأمن والسلامة[5].وقد انتقلت اخبار هذه الحوادث الى اقاليم بلاد الشام وبغداد، وتأثر بها أهل الذمة هناك[6] كما شمل التجار الفرنجة الغرباء في الاسواق المملوكية.

وبالنسبة لموقف السلطات الحاكمة فقد ضربت بيد من حديد كل من تسول له نفسه بإثارة النعرة الطائفية وتغذيتها من المسلمين والذميين أيضاً وذلك لتوفير الاستقرار الاجتماعي للجميع كما حدث من عقاب السلطة للعامة سنة 742هـ/1341م[7].

كما طبق المماليك المرسوم العمري[8] الخاص بوضع أهل الذمة في المجتمعات الاسلامية عند تأزم الأحوال عندما كان النصارى يتباهون في التعالي على المسلمين في اظهار الترف

---

(1) المقريزي، السلوك، جـ2، ص173.

(2) ن م، جـ2، ص215.

(3) ن م، جـ2، ص616، والخطط: جـ2، ص512-513، ص303-304. وأبو المحاسن: م س،جـ8، ص133-135.

(4) المقريزي: السلوك، جـ2، ص216-218، ص228، والخطط: جـ2، ص325، 512-517. وابن حجر: م س، جـ3، ص15-18. وأبو المحاسن : ن م، جـ9، ص62-72.

(5) المقريزي: ن م، جـ2، ص284-286. وابن حجر: ن م، جـ1، ص434-435، جـ2، ص42-43، جـ5، ص124.

(6) المقريزي: ن م، ج2، ص390.

(7) المقريزي: ن م، جـ2، ص599. وابن اياس: م س، جـ1، ص178-179. وأبو المحاسن: ن م، ج10، ص56.

(8) في خلافة عمر بن الخطاب حيث ورد فيها ما يلي: "الا يحدثوا في البلاد الاسلامية وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة ولا يجددوا منها ما خرب، ولا يمنعوا من كنائسهم التي عاهدوا عليها أن ينزل بها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمو له ولايكتبوا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يمنعوهم من الاسلام

والابهة في عيشهم من لباس وطعام وسكن فاخر بقصد التفاخر والترفع لايذاء مشاعر المسلمين كما حدث سنة 755هـ/1354م[1].

وقد كُتِبَ عهدٌ بين المسلمين وأهل الذمة في زمن الناصر محمد في رجب سبعمائة هجرية وعندما انتهى كاتب السر علي بن فضل الله من قراءته على بطريرك النصارى ورهابنة اليهود أجابوا بالسمع والطاعة وكان نصه:

"حيث أُمر النصارى بلبس العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر وتميّز نساء أهل الذمة زمن المماليك بشد الزّنار فوق الإزار وفي عنقها خاتم رصاص يدخل معها الحمام ومُنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح، ويسمح لهم بركوب الخيل الحمر بالأكف[2] عرضاً من غير زينة ولا يرفعون اصواتهم على أصوات المسلمين وعدم علو بنيانهم على بناء المسلمين، وعدم اظهار شعائرهم وضرب النواقيس[3]. ولا ينصرون مسلماً ولا يهودياً ومنعهم من شراء الرقيق المسلم. كما يجب عليهم تمييز أنفسهم عند دخولهم الحمامات العامة بتعليق جرس في رقابهم وعدم النقش على خواتمهم بالعربية، وعدم تعليم أولادهم القرآن أو استخدام المسلم في الأعمال الشاقة، وكان الزاني منهم بمسلمة يقتل".

وتم ذلك بحضور بطريرك النصارى ورئيس اليهود الذي تعهد كل منهما بعدم مخالفة ذلك وعُمِمّ هذا الأمر على امراء الشام ما عدا الأمير جمال الدين أقش الأشرقي نائب السلطنة في الكرك الذي اعتذر عن تطبيق هذه التعليمات لأن معظم سكان الكرك نصارى وبها قليل من المسلمين وطّبقَ ذلك على الشوبك أيضاً[4]. ولماّ مُنِعوا من الخدمة بالديار المصرية أسلم جماعة منهم للحفاظ على مناصبهم ظاهرياً ولكنهم استمروا على ما كانوا عليه قبل اسلامهم[5].

وعندما قرئ المرسوم في الجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص هاج المسلمون بعد صلاة الجمعة وامسكوهم من الطرقات واكرهوهم على الاسلام وضربوهم حتى يلفظ بالشهادتين

---

[1] الخطط: ج2، ص273-277، القلقشندي: ن م، ج13، ص378-387.

[2] الخطط: ج2، ص273-277، القلقشندي: ن م، ج13، ص378-387

[3] ن م ،ن ص.

[4] المقريزي: السلوك: ج2، ص960-961

[5] ن.م. ن.ص

وحرقوا بعضهم. فصدرت الأوامر السلطانية بعدم التعرض لهم[1] بعدما حل بهم من البلاء الشديد كما غضب نصارى الوجه القبلي في مصر نتيجة مكرهم واطماعهم ومخالفتهم للعهد فأعاد فرض الجزية مضاعفة عليهم سنة 721هـ وألزمهم تغيير زيهم بأن يلبسوا عمائم وجباب زرقاً وشد الزنار على أوساطهم كما أمر بعدم استخدام أي منهم في وظائف الدولة، وجعل عقوبة المخالف الإعدام[2]. كما سار ابنه الملك الصالح (صلاح بن الناصر بن قلاوون) الذي اعاد التأكيد والتمييز في اللباس وتشدد في تطبيق العهد المنسوب الى عمر بن الخطاب عام 755هـ ويرى بعض المؤرخين أن دولة المماليك لم تستغني عن خدمات أهل الذمة وبقي المرسوم السابق حبراً على ورق.

كما أصدر السلطان الأشرف شعبان سنة 764هـ/1363م مرسوماً بتقليد بطريرك النصارى اليعاقبة، لبسط الحماية على الطائفة المسيحية[3].

وكان الملك المنصور قلاوون قد أصدر مرسوماً عام 684هـ/1286م باسناد رئاسة اليهود الى الطبيب ابن المهذب[4] كما مُنِعوا من الخدم بعد إسلامهم وهدم المسلمون كنائسهم المستجدة ونهبوها[5].

وقد أسلم عدد كبير من نصارى مصر حتى أنه أسلم في مدينة قليوب في يوم واحد حوالي اربعمائة وخمسون شخصاً وتزوج هؤلاء من مسلمات الأرياف وصار أولادهن من العلماء والقضاة[6].

---

(1) الخطط: ج2، ص246-264.

(2) انظر القلقشندي: م س. ج13، ص378-387

(3) ن.م. ج11، ص397-400

(4) ابن الفرات: م س، جـ8، ص18-19.

(5) المقريزي: الخطط، جـ2، ص14، 36، 146-147.

(6) المقريزي: السلوك، جـ2، ص921-927.

رابعاً : الملابس

مقدمة:

ومن حيث اللباس نود الإشارة الى أنّ الناس في صدر الاسلام لبسوا ما وصل اليهم من اللباس الساذج حتى أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي إذ بدؤا يتفننّون في التأنق والتبرّج وخاصة النساء والغلمان، وقد قلدهم الفاطميون والأندلسيون بذلك ثم الأيوبيون والمماليك الذين أكثروا من الألوان ولبسوا على رؤوسهم أنواعاً غريبة من الطواقي والكلوتات، والكالاهان، والدنبكيات، والأقباع كما كانوا يطيلون شعورهم في أكياس من الحرير الأحمر أو الأصفر خلف ظهورهم، ويشدون على أوساطهم بنوداً من صنع بعلبك، وفوق قماشهم إبزيم جلد وفيه نحاس وفي ذلك الإبزيم ملعقة كبيرة من الخشب وسكين كبيرة، واستعلموا مناديل من الخام بمقدار فوطة كبيرة لمسح ايديهم. واستمرت العادة على هذه الحالة حتى جاء السلطان الذي أمر بمنع هذه الثياب المضحكة والشنيعة[1]. وقد ذكر عبد الرحمن بن نصر الشيرزي في كتابه نهاية الرتبة في طلب الحسبة[2] فصلاً مطولاً في الحسبة على الخياطين. يلاحظ منه غلبة الشر على أحوال الناس الاجتماعية أمام الأزمات الاقتصادية إذ تميزت بالغش والدناءة فكثر المصلحون والداعون إلى الخير.

---

(1) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، ج1، ص329.

(2) حتي: تاريخ العرب، ج7، ص182-183. قال فيه: "يؤمرون بجودة التفصيل وحسن فتح الجيب وسعة التخاريس واعتدال الكمين، والأطراف، واستواء الذيل والأجود أن تكون الخياطة درزاً لا شلاً والأبرة دقيقة، والخيط قصير، لأنه اذا طال اتسخ، ومما ذكره من طريق حيل الخياطين في ذلك الوقت قوله: فمنهم من اذا خاط ثوباً حريرياً أو نحوه كمه كفه وحشاه رملاً وأتراباً ويسرق بقدره من الثوب اذا كان موزوناً عليه ومما يذكره في الكلام على الرفائين أن يحلفهم صاحب الحسبة على أن يلا يرفوا لأحد من الخياطين والقصارين ثوباً مخرقاً الا بحضور صاحبه، ولا ينقل المطرز أو الرقام رقم ثوب الى ثوب آخر.

أزياء السكان في شرقي الأردن زمن الصليبيين والأيوبيين:

كان لباس أهل الريف الذرّاعة[1] "الجبّة أو الفرجيّة"[2] فكان من مميزات لباسهم أنه كان واسع الأكمام مفتوحاً من الأمام[3]، أما لباس الرأس فكان العمائم البيضاء عند المسلمين والنصارى وامتاز بعضها بلثامين[4].

وبالنسبة لملابس الصيف فكانت خفيفة تميل للون الأبيض من القطن، بعكس ملابس الشتاء الثقيلة من الصوف والفرو، إذ امتازت مدينة عجلون في شمالي الأردن بوجود سوق للفرائين كما هو الحال حتى اليوم إذ نشاهد الفرائين في مدينة إربد. ومن مظاهر الافتخار باللباس في المناسبات الاجتماعية كان التمنطق بالسيف العربي ذي الحدين[5].

أما الأحذية فكانت من القباقيب الخشبية[6] داخل المنزل، وخاصة للحمام من أجل الوضوء والاغتسال وقد استمرت هذه العادة حتى اليوم، كما لبسوا الزربول والخف الجلديّين المكشوفين من أعلى عند البدو[7] الذين مازالوا يستخدمونها حتى اليوم.

وكانت النساء تضع الخمار على وجوههن حتى قلدهن بذلك النساء الصليبيات اللائي أُعجبن بالخمار فكنّ لا يخرجن إلا للضرورة القصوى للحمامات أو الكنائس[8].

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص183.

(2) ماير: الملابس المملوكية، ص30.

(3) أي الكاملين المفرجة التي تلبس فوق الثياب كالجبة مع ضيق عند الكم مفرجة الذيل من الخلف، ماير: ن.م. ص25.

(4) ابن قاضي شهبه: الإعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج1، ورقة 26، مخطوط. والمقريزي: السلوك: ج2، ص209، ج4، ص160.

(5) ماير: ن.م. ص79.

(6) السخاوي: م س، ج1، ص157.

(7) ابن قاضي شهبة: ن.م. ج1، ورقة 67، مخطوط وماير: ن.م. ص34، حاشية رقم 2.

(8) سعيد عاشور، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص240. وهي مقالة من كتاب تاريخ بلاد الشام ما بين القرن السادس الى القرن السابع عشر وهو ثبت كامل لأعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، المنعقد في الجامعة الأردنية من 28 ربيع الأول- 2 ربيع الثاني من عام 1344هـ/20 - 25 نيسان 1974م. Runciman, Ibid, 11, p.317.

وبالنسبة للملابس الخارجية للفلاحين : لقد اختلفت في بلاد الشام من منطقة لأخرى، إلا أنها كانت متشابهة على الأغلب[1]. ففي قرى فلسطين المنتشرة حول القدس ونابلس مثلاً كان كساء الجسم ثوباً طويلاً من الرأس الى أخمص القدمين، أبيض اللون ولم يلبسوا شيئاً تحته[2].

أما العباءة "المدففة" فقد لبسها بعض الفقراء ومتوسطي الحال في القرى بينما لبس الأغنياء العباءة "المقصبة" المصنوعة من الشال في المناسبات العامة خارج بلدهم[3].

والكمر أي الزّنّار: الذي استخدمه جميع فلاحي القرى[4]. والدرعية أو المدرعة او الدراعة المصنوعة من الصوف بما يشبه الثوب القصير فقد ارتداها الفلاحون والكتاب.

والجبة[5]والقفطان والقنباز[6]، بينما لبست النساء الريط أو الملحفة أو الإزار أو الحبرة وهو عبارة عن ثوب رقيق تلفه المرأة حول نفسها فوق جميع الثياب[7]والذي مازال مستعملاً عند بعض نساء الفلاحين في قرى فلسطين في وقتنا الحاضر.

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص166-167. قال: "ولأهل الشام تجمل يلبسون الأردية كل عالم وجاهل، ولا يتخففون في الصيف، إنما هي نعال الطاق، ....،....،...، وضع البزازين بالرملة حمر مصوبة بسروج ولا يركب به الخيل الا أمير أو رئيس ولا يتدع الا أهل القرى والكتبة ولباس الفريقين برستاق وايليا ونابلس كساء واحد حسب بلا سراويل."

(2) القاسمي: محمد سعيد ت(1317هـ/1900م)، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظاهر القاسمي، باريس، 1928، جـ2، ص302.

(3) القاسيمي: ن م، ن ص. والكمر: ما يشد به الوسط كالزنار اليوم.

(4) سترابح: فلسطين، ص39.

(5) الجبة: رداء مفتوح فوق الرداء الأول القفطان: الذي يشبه الثوب وكانت جبة الأغنياء قصيرة ومزركشة. أحمد رمضان، م.س. ص214.

(6) القنباز: وهو فارسي الاصل، يعرف باسم الشعباز وهو من الملابس الخارجية التي كان فلاحو بلاد الشام يتباهون بلباسها ومازالوا حتى اليوم، إذ يطلق عليه العامة في قرى شمال الأردن "المزنوك". أحمد رمضان، ن م، ن ص.

(7) دوزي: معجم اللباس، مجلة اللسان، ص37، 38.

وبالنسبة للأحذية فقد كانت "الزربول[1]والنعال والمداس[2] للرجال أما النساء فاستخدمن "البابوج العادي[3]، والقبقاب[4].

وأما لباس الرأس: فكان الكوفية والعقال المرعز والطاقية تحتهما[5] أما لباس المرأة الريفية على الرأس فكان الخمار[6]والعصابة[7].

أما الملابس الداخلية: فكانت عند الرجال القمصان الطويلة المرسلة الأردان الواسعة، والتبّان[8]والسرّاويل، والإزار[9]. وعند النساء القرويات "الأتب" وهو ثوب تشقه المرأة وتضعه في عنقها من غير كمين ولا جيب[10] وقيل الأتب ما قصر من الثياب حتى نصف الساق وغير مخيط الجانبين وتسميه نساء الفلاحين في شمال الأردن "الشلحة" في وقتنا الحاضر.

---

[1] الزربول: نعل: أي مداس كبير يصنع في سوق الزرابلية" لفلاحين لمتانته حيث يبقى في رجل الفلاح سنين عديدة، وكلما ثقب اسفله أضاف اليه جلداً غليظاً. القاسمي: ن م، ج1، ص165.

[2] النعال والمداس: كل ما يلبس في القدم دون تمييز: ابن سيدة م.س. ج4، ص114. فقد استعمل سكان السهول النعال الخفيفة بينما استعمل سكان الجبال الحذاء الطويل المعروف بالجزمة كما استعملوا أحذية بسيطة كانت تسمى "بالتاسومة" فالح: الحياة الزراعية، ص152.

[3] البابوج: حذاء مصنوع من الجلد المعكوف الرأسي وقصير جداً : القاسمي: ن م، ج1، ص75.

[4] القبقاب: قطعة خشبية ذات كعب فوقها قطعة من الجلد للمنزل غالباً، فالح:م س، ص152.

[5] دوزي: معجم اللباس، مجلة اللسان، ص48، والقاسمي: م.س. ج2، 2ص316. مايز: م س، ترجمة صالح الشيني: القاهرة، د.ت. ص90.

[6] الخمار: غطاء الوجه وقد وصفه البعض بأنه الجلباب الذي يغطي الرأس والبدن. ابن سيدة: ابو الحسن الأندلسي، ت458هـ/1010م كتاب المخصص، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، بيروت، (د.ت.) ج4، ص2، وأحمد رمضان، م.س. ص215.

[7] العصابة: كل ما يعصب به الرأس ابن منظور، م.س. ج1، ص602، ماير: ن م، ص126.

[8] التبان: من لباس البدن الداخلي، وهو عبارة عن سروال صغير يستر العورة ويسميه الفلاحون هذه الأيام في بلادنا " بالكلسون" ويناسب عمل الفلاحين والملاحين. ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص72، ماير: الملابس المملوكية، ص124. وقد أشار الجاحظ إلاّ ان العرب كانوا يترفعون عن لبس الجربان والتبان. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ/858م. البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مؤسسة الخانجي، القاهرة، د.ت. ج2، ص97.بينما ذكر أحمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، 1977، ص212 "أن طبقات العامة كانت لا تجد غضاضة في لبسه وهذا الاختلاف في الرأي نابع من الفارق الزمني بينهما الذي يقارب سبعمائة عام إذ اعتاد عليه الناس فيما بعد وما زالوا يلبسونه حتى اليوم.

[9] أحمد رمضان: ن م، ص213.

[10] ابن سيدة، ن م، جـ4، ص86.

الملابس المملوكية:

لقد لبس امـراء العـرب قبـل النـاصر محمـد بـن قـلاوون الطراطـير الحمـر تحـت العمـائم الشامية المصنوعة من القطن، كما كانت خلعهم مسمطاً أو كنجياً[1] أمـا اشـراف العـرب مـن آل الرسول فكانت عمائمهم مميزة بخط أخضر تمييزاً لهم عن غيرهم وتعظيمـاً لقدرهـم كمـا لبسـوا العباءة والعقال والكوفية[2].كمـا لبسـت النسـاء الكوفيـة علـى رؤوسـهن مربوطـة عنـد الرقبـة[3]، وتغطي وجهها بمنديل وجسمها بازار عنـد الخـروج وخـف فـي رجلهـا[4]حيـث كـان أهـل الشـام يلبسون صيفاً نعال الطاق[5].

وقد اهتم بعض السلاطين بتقديم هدايا ثمينة لنساء العـرب كالنـاصر محمـد بـن قـلاوون[6] من ذهب وفضة وأحجار كريمة ولبس الزي العربي لبني كلاب لحبه وميله لهم[7] وكـانت هنـاك طوائف أخرى مثل التركمان وغيرهم تشتغل نساؤهم بغـزل الصـوف ونسـج السـجاد لاعتمـادهم على تربية الماشية في معيشتهم. أمـا ملابـس العـرب فكـانت مطـرزة بـالحرير الأطلـس والخلـع البابلي.

وفي العصر المملوكي لم يكن للناس حرية ارتـداء مـا يرغبـون حيـث كـان للسـلطان حـق التدخل في تحديد الزي وقصر ارتداء أنواع معينة على جماعة معينة من الناس[8].

فكان رجال الدولة وامراؤها وقضاتها يرتدون السراويل وشـاركهم النسـاء ذلـك[9] وكـانت نساء بعض مدن الشـام كمدينـة نـابلس مثـلاً يلبسـن كسـاء واحـداً بـلا سـراويل[10]،وكـان الأمـير

---

(1) المسمط: قماش حرير أصفر وأحمر مزركش بنقوش. والكنجي: قماش منسوج مـن القطن، وحريـر: المقريـزي: السـلوك، ج1، ص3، ص847، ج2.

(2) ابن اياس م.س. ق1، ص528.

(3) ابن تغري بردي:م س، ج8، ص142.

(4) ن.م. ج7، ص331.

(5) المقديسي: م.س. ص183.

(6) المقريزي: السلوك، ج2، ق2، ص529.

(7) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص215.

(8) سعد الخادم: الأزياء الشعبية، القاهرة، 1961، ص18.

(9) المقريزي: السلوك، ج1، ص172.

(10) المقدسي: أحسن التقاسيم، ليدن، 1906، ص187.

العربي يلبس تشريفاً أطلسياً اسوة بنائب السلطان[1]، كما لبس العرب الخلع البابلي السكندري[2]، والمطرز بالذهب[3] هذا ولبست النساء الشاميات في عهد السلطان حسن بن قلاوون الطرحة والفرجيات التي بلغ ثمن الواحدة منها عشر الاف دينار[4] وكانت حليهن خلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهبية المرصعة والأزر الحريرية بينما كان لباسهن قبل محمد بن قلاوون ثوب قطني وبُرقُع مصوغ وسوار حديدي في يدها[5].

وأما الملابس المملوكية الخاصة بالسلاطين فكانت: شعار السلطنة: الذي يقصد به أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان السلطان يظهر بها في المواكب والحفلات مثل موكب السلطة وموكب لكسر الخليج عند وفاء النيل.

وموكب صلاة العيدين ونحوها. ومن هذه الملابس والأدوات: زمن الدولتين الأيونية والمملوكية[6] الغاشية وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تُحْمَلُ بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب حيث يحملها أحد الركاب دافعاً إياها على يديه يميناً وشمالاً.

ومنها المظلّة: وتسمى "الخبر" وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، في اعلاها طائر من فضة مَطليّة بالذهب تُحْمَلُ على رأسه في العيدين، وهي من بقايا الفاطميين[7].

ومنها الرقبة: وهي رقبة من أطلس مزركشة بالذهب بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها وتجعل على رقبة الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس الى نهاية عرفه.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص205.

(2) ماجد: الحضارة الاسلامية، ص113، 114.

(3) القلقشندي: ن م، ج4، ص40، ذكر المطرز لا يلبسه الا من كان له اقطاع في الحلقة.

(4) ن م، ج4، ص4، سعيد عاشور: العصر المملوكي، ص416، 438.

(5) ابن تغري بردي:ن م، ج9، ص174. المقريزي: السلوك، ق2، ص529، والبرقع : هو قطعة قماش أسود ويُلبس على الوجه وفيه ثلاثة ثقوب للعينين والأنف وما زال مستخدماً عند معظم نساء الخليج العربي وخاصة في دولة الأمارات العربية المتحدة.

(6) القلقشندي: ن م، ج2، ص127، ج4، ص7-8.

(7) ن م، جـ4، ص7-8.

ومنها الجفنة: وهي اثنتان من أو شافية اصطبله قريبان في السن، عليهما قباءان اصفران من حرير بطراز مزركش، وعلى رأسها قبعتان من زركش وتحتها فرسان أشهبان برقبتين كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان ويركبان[1] أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير، وتسمى اللعب بالأكرة.

ومنها الأعلام: وهي عدة رايات منها راية عظمة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة. وراية أخرى في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر تسمى السناجق ويلاحظ أنه كان لكل موكب ترتيبيب معين[2]. وكانت العادة اذا ولي المملكة من اولاد السلطان فإنه عند ولايته يحضر الأمراء الى داره بالقلعة[3] وتظهرعليه الخلعة الخليفية السوداء ومن تحتها فرجية خضراء.

وعمامة سوداء مدورة ويقلد بالسيف العربي المذهب، ويركب فرس النوبة ويسير الأمراء بين يديه والغاشية أمامه، والجاويشية تصيح وتعزف الشبابة السلطانية بالنفخ، الى أن يعبر باب النحاس الى درج الأيوان المعروف بدار العدل فينزل عن الفرس ويجلس على التخت[4]، ويَقَبِّلُ الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدمون إليه ويقبلون يده على قدر رتبهم ثم يؤدي ذلك مقدمو الحلقة، فإذا فرغوا حضر القضاة والخليفة فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء، ويشهد عليه ذلك، ثم ينصرف ومعه القضاة فيجدد السماط للأمراء، فاذا انتهوا من الأكل يدخل السلطان المقصورة وينصرف الأمراء[5].

أما الطّرّاحة: وجمعها طراريح فهي مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس[6].

---

(1) الأكرة: يراد بها اللعبة المعروفة الآن باسم polo المقريزي: ج1، ص444.

(2) القلقشندي: ن م، جـ4، ص44-49.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص209.

(4) تخت الملك: وهو منبر من رخام بصدر ايوان السلطان الذي يجلس على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند الى الحائط، ويجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل عليه وفي سائر الأيام يجلس على كرسي من خشب مغطى بالحرير بقدر ارتفاع رجليه، وفي داخل مقصورة يجلس على كرسي صغير من حديد يحمل معه الى حيث يجلس. القلقشندي : م س، جـ4، ص6-7.

(5) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص204، ورد هذا الوصف في تولية أحد أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

(6) ابن واصل م.س. ص371.

والفوطة: مرادف للبقجة وهي قطعة قماش من الحرير الإسكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة الى حضرة السلطان(1).

الخلع المملوكية:

لقد كانت قسمين الخلع الخليفية والخلع السلطانية وقد سميت هذه الخلع بالتشاريف(2).

الخلع الخليفية:

وبالنسبة للخلع الخليفية فقد كانت رمزية يقدمها الخليفة العباسي في القاهرة للسلطان المملوكي الجديد. وتتكون من فرجية حرير بنفسجي بطراز ذهبي ودايرها من رأس كمها وعاتقيها وذيلها تركيبة ذهب وتحتانية من حرير أزرق وكان يُلْبِسُ السلطان عمامة عربية من حرير أسود على قبع حرير أسود وارخى لها عذبة حرير مزركش ويجلس على تخت الملك ومد السماط بالايوان فأكل من حضر كالعادة ثم يقوم السلطان ويخلع على الأمراء(3). وأما الخلع السلطانية فكانت ثلاثة أنواع: لأرباب السيوف(4)، والأقلام والعلماء(5).

وبالنسبة لكبار الأمراء فأنه يمنح زيادة سيفاً مُحَلّىً بالذهب وفرساً مُسَرَّجاً بلجام ذهبي وقد مُنِح صاحب حماة ونائب الشام فرسان وزاد نائب الشام وأما خلع صغار الأمراء فكانت تُصنَعُ بدار الطراز في الاسكندرية والقاهرة ودمشق وهي مكونة من قماش جوخ مزركش بالذهب وعليها السنجاب والقندس(6).

وأما خلعة الخطباء فكانت مدورة مكونة من شاش أسود وطرحة سوداء 'كشعار العباسين' وكان على المنبر علمان اسودان مكتوبان بالأبيض او الذهبي وأما المُبَلِّغ والمُؤَذِّنٌ فكان لباسه

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص578.

(2) القلقشندي: ن م، جـ4، ص52.

(3) ن م، ن ص. وسميت هذه الخلع الخليفية بالتشاريف أيضاً. المقريزي: السلوك، جـ3، ق1، ص287.

(4) العمري: م.س. ص130 والمقريزي: الخطط، ج2، ص227، 228.

(5) وأما خلع أرباب الاقلام فكانت بالنسبة للقضاة والعلماء فكانت من الصوف بغير طراز لهم الطرحة وكان أرقاه اللون الأبيض وتحته الأخضر.

(6) ن. م. ن. ص. والقلقشندي: ن م، جـ4، ص53، وقال "وهذه الأصاغر أمراء المئين ومن لحق بهم وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندا والولاة ومن يجري مجراهم".

أسود كالخطيب عدا الطّرْحَة وبيده سيف يسلمه للخطيب. ومن الخلع السلطانية الأخرى فكانت أن يُعَدَّ له كل عيد خلعة ليخص بها بعض كبار أمراء المئين.

كما وُزّعَتِ الخلع في مناسبات أخرى عندما كان السلطان يلعب بالكرة إذ يوزعها على الجوكاندار والولاة والصيادين الذين يقدمون له صيدهم من الغزلان والنعام، وكذلك للبزداوية وحملة الجوارح "صقور الصيد" وهذه العادة مازالت متبعة لدى الشيوخ حكام في دولة الإمارات العربية المتحدة. التي شاهدها الباحث هناك بل حملها على يده كما يوزعها على غلمانه المرافقين له في الصيد[1].

كما وهب الخلع للتجار الذين يحضرون له الجواري والرقيق الأبيض واللحوم والتوابل والحلوى والأعلاف والخيول[2].

أما المناسبات التي يتم فيها الانعام بالتشاريف فأهمها:

أ- عند تولية أمير وصاحب منصب كان يُلَبّسُ تشريفاً يناسب الوظيفة التي عين فيها رتبته.

ب- في عيد الفطر يُخْلع على جميع أرباب الوظائف من الأمراء وأرباب الأقلام كالأستادار والدوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم كل منهم بما يناسبه.

ج- في كل عيد يعد السلطان خلعة على أنها لملبوسه من خلع اكابر المئتين ولا يلبسها ولكن يختص بها احد أكابر المئتين يخلعها عليه.

د- في احتفالات الميادين يخلع على أكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمير أو كبير يلبس فيه خلعة من المفرج الذهب.

هـ- في دوران المحمل في شوال يخلع على أرباب الوظائف بالمخمل كالقاضي والناظر والمحتسب والشاهد والمقدمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشرها ومن في معناهم[3].

---

(1) العمري: ن م، ص134-135.

(2) المعمري: ن.م. ص136، والمقريزي: ن م، ن ص228.

(3) القلقشندي: م س، ج4، ص53-54.

الزي المملوكي للطبقة الارستقراطية:

لقد كان زيهم الأقبية التترية والتكلاوات فوقها[1]. ثم القباء الاسلامي فوق ذلك حيث يشد عليه السيف والمنطقة. وأما الأمراء والمقدمون وأعيان الجند فكانوا يلبسون فوق الأقبية التترية والتكلاوات أقبية قصيرة الأكمام وأقصر من القباء التحتاني.

وبالنسبة للباس الراس فكانوا يلبسون كلوتات صغيرة معظمها من الصوف الملطي الأحمر وفوقها عمائم صغار[2] كما لبسوا الخف المُوشّى بالمهاميز[3] وكان من مظاهر الترف عمل المُديل في الحياصة[4] على الصولق[5] من الجانب الأيمن. وأما الوزراء والكتاب فقد امتاز زينهم بلبس الفَرجيّات المُفَرّجة من الصوف ومن المجرّات[6] صناعة الاسكندرية والنصافى

---

(1) التكلاوات: أنواع من الأردية. العمري:م س، ص99.

(2) الكلوتة: لباس الرأس، المقريزي: الخطط، ج2، ص98-94. وقد كان السكان والأمراء وسائر العسكر يلبسون على رؤوسهم كلونة صفراء بغير عمامة فوقها الى أن أدخل المنصور قلاوون لبس العمائم من الشاش وتطورت العمائم زمن الناصر محمد بن قلاوون حتى سميت بالعمائم الناصرية. انظر القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي: ضوء الصبح المسفر، طبعة مصر 1324هـ/ 1906م ص 39-40. وماير: الملابس المملوكية، ص51-52. والكلوتة: غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة، وتجمع كلوتات وكلاوات وتسمى ايضاً كلفة وكلفتاه وكلقته ويقابلها بالفرنسية calotte واللفظ اللاتيني "calautica" ويقول البعض من اللفظ اللاتين calve أي غطاء أعلى الرأس، كما يقول فريق ثالث أنه معرب من اللفظ الفارسي كلوتة وقد استمر سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة بمصر. المقريزي: جـ1، ص439. فكان الأيوبيون يلبسون الكلونات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، كما استخدمها امراؤهم وجنودهم ومماليكهم ن م، ن ص. واستمر هذا اللباس إلى اواسط دولة المماليك البحرية، فلما ولي السلطان المنصور قلاوون السلطنة أضاف لبس الشاش على الكلوتة.

وفي عهد ابنه الاشرف خليل أمر الأمراء بلبس الكلوتات المزركشة بين مماليكهم وتركت الكلونات الجوخ الصفر لمن دونهم على أنها ظلت تلبس فوق ذوائب الشعر المرخاة على ما كان عليه الأمر اولاً. الى أن غير السلطان قلاوون ذلك بحلق الرأس فحلق الأمراء رؤوسهم ثم حلت الكلوتات اليلبغاوية المنسوبة للأمير يلبغا الخاصكي العمري محل العمائم الناصرية، القلقشندي: ن م، جـ4، ص5-6. والمقريزي: الخطط، جـ2، ص98. واستمر ذلك حتى عهد السلطان برقوق (سلاطين دولة الجراكسة) حيث أحدث برقوق الكلوتات الجركسية الأكبر من اليلبغاوية. ومن أغطية الرأس الشربوش والطاقته حيث كان الشربوش يلبس مع الخلع السلطانية. ن م، جـ2، ص99، ويسمى في بلاد الشام اليوم الطربوش: التربوش كما يلاحظ أن رجال الدين في مصر وبلاد الشام مازالوا يلبسون الطربوش الملفوف بقطعة شاش أبيض والشربوش بشكل مثلث على هيئة تاج يلبسه أحد السلاطين لامرائها تكريماً له، المقريزي: السلوك، ج1، ض49. ويلاحظ بأن كبار السن من التجار والأغنياء في هذه الأيام مازالوا يلبسونها في بلاد الشام.

(3) المهاميز: مفردها مهماز وهو عبارة حديدة في مؤخرة الخف. ابن منظور: لسان العرب، 20 جزء، نشر المطبعة الأميرية، بولاق، 1300-1307هـ، جـ7، ص293. والمقريزي: ن م، جـ2، ص97-98.

(4) الحياصة : المنطقة : وكانت حوائص الأجناد في البداية اربعمائة درهم فضة ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار وثلاثمائة دينار وفي زمن الناصر محمد اتخذوها من الذهب المرصع بالجواهر وكان في القاهرة سوق لبيعها. المقريزي: ن م، ن ص.

(5) الصولق: كيس للمؤن من الجلد الأسود. المقريزي: ن م، ن ص. ومايرز: الملابس المملوكية، ص50-51.

(6) المجرات: نوع من البرود وتستعملها النساء اليوم وقت السفر، العمري:م.س. ص113.

والبياض كما يزيد أكابرهم الباذهنجات[1] في الأكمام ولبس البغالطق[2] تحت فراجهم وربما لبسوا الجبابت المفرجة من ورائها. وكان الطبيب يلبس جبة واسعة عنابية وبقياراً على رأسه[3] وأما التجار واخلاط العامة فقد أختلفت أحوالهم في الملابس والزي فالفقراء وإن جمعهم الفقر وضمهم لباس التصوف فانهُ يظهر تباين حالتهم في الملابس[4].بخلاف زي الكتاب ذوي العمامة الصغيرة والجبة ضيقة الكم بدون عذبة[5].

وأما الملابس الداخلية فكانت من القبع والدلق طويل الأكمام مفتوحاً فوق كتفيه مغطياً لقدميه (من اللون الأبيض) ثم تنوعت الألوان ولبسوا الجوخ في الشتاء[6] وأما قاضي القضاة فرسمه الطرحة التي تستر عمامته وتُسْدَلُ على ظهره[7] كما لبسوا في أرجلهم الخف من الأديم الأسود أو الأحمر كما لبسوا النعال والقباقيب في كثير من الاحيان[8] وقد استخدموا في تنقلاتهم البغال فقط والمكسوة بالقماش الفاخر لتميزهم عن غيرهم من الموظفين والتي لم تكن تصرف الا لأصدقاء السلاطين[9].بالإضافة للخلع التي يخلعها عليهم السلاطين في المناسبات المختلفة كعيد الاضحى والفطر وولاية السلطان فكانت هناك خلعة القضاء وخلعة الرضا وخلعة الاستمرار وخلعة السفر وكلها من الصوف الأبيض والأخضر[10] واختلفت قيمتها حسب الأحوال المادية للدولة[11].

ويلاحظ أن هذا التمييز في معاملة القضاة من حيث ترتيب الجلوس في مجالس السلطان وتفاوت شكل الخلع المهداة من السلطان كان يثير الحسد والحقد في نفوس القضاة فيرفض البعض تسلم الخلعة أو يقابل السلطان.أما حياصات العامة فكانت معظمها من الفضة وأما

---

(1) الباذاهنج: هي الفتحة في كم الجبة العمري: ن.م. ن. ص.

(2) البغالطق: القباء المعروف بالسلاري: المقريزي: الخطط، ج2، ص90

(3) بقياراً لباس الراس الخاص بالنبلاء والقضاة، مصنوع من قماش اسكندراني صلاح العبيدي: الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي الثاني دار الرشيد، بغداد، 1980، ص236.

(4) العمري: م س. ص114.

(5) المقريزي: السلوك، مخطوط، ورقة 363أ والطيلسان: وشاح يغطى به العمامة وهو يشبه الطرحة: العمري: مسالك الأبصار، ص112. وانظر النويري:م س، جـ30، ص21. والقلقشندي: م س، جـ4، ص41.

(6) المقريزي: السلوك، ورقة 196، والخطط، ج2، ص297

(7) العمري: ن م، ص112.

(8) القلقشندي: ن م. ج4، ص41 وابن اياس: م س، جـ5، ص16.

(9) المقريزي: السلوك، ج1، ص851 السخاوي: م س ، ص249

(10) المقريزي: ن م، ورقة 94ب، 322ب، 407أ، مخطوط. والنويري: م س، م س، جـ30، ص514.

(11) ابن اياس: ن م، ج4، ص104. والنويري: ن م، جـ29، ص247.

حياصات الذهب المرصعة بالجوهر فكانت في خلع السلطان لأكابر المئين. وكان معظمهم يلبس المطرز، وبالنسبة للباس المطرز ومهماز الذهب فهو مقتصر على الكبار من إقطاع الحلقة، ولا شيء ذلك للجامكية.

وعلى العموم فقد كانت ملابسهم جميلة ومتنوعة من الكمخا[1] والخطّائي[2] والكنجي[3] والمخمل والأصواف [4] والاسكندراني والنطافي[5].

ومن الملابس المملوكية الأخرى الشائعة فكانت:

الطاقية: كانت أولاً للصبيان والبنات، ثم لبسها كبار رجال الدولة من الامراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم في الدولة الجركسية. وكان نزع الطاقية في البداية أثناء المشي في الشوارع عاراً وعيباً حتى عهد الجراكسة[6].

ولباس الفتوة: لقد نسبت الفتوة إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقد رغب السلطان الظاهر بيبرس في لباس الفتوة فألبسه الخليفة المستنصر ذلك، فاصبح بيبرس رئيس الفتوة بعد موت الخليفة[7].

والتشاهير: الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان.

والمراوات: قطع معدنية يزين بها سرج الحصان حيث تخاط بقماش السرج[8].

والأطلس الخطائي:نوع من الحرير، وأصل صناعته في بلاد الخطاي شمال الصين وكان في زمن ياقوت من مصنوعات تبريز [9].

والبردار:هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة متحدثاًعلى أعوانه والمتصرفين فيه[10].

والطرحات: جمع طرحة وهي من مميزات لباس قضاة القضاة في عصر المماليك[11] تستر عمامته وتنسدل على ظهره.

---

(1) العمري:م س،ص100. Mayer, Costume, P59.

(2) العمري: ن.م. ن.ص. Dozy: Supplement: 11p488.

(3) الكنجي: القطني عند العجم. Dozy: Ibid , p377.

(4) العمري: ن م، ن ص. Dozy Ibid, 11, P.66.

(5) العمري: ن م، ن ص، والمقريزي: الخطط، ج2، ص223. Dozy, Ibid, 11, P.680

(6) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ2، ص99.

(7) المقريزي: السلوك، ج1، ص459، 467، 498.

(8) ن م، ص518

(9) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص812.

(10) القلقشندي: م.س. ج5، ص468، وما بعدها أصل اللفظ فردادار... وهو مركب من لفظتين فارسيتين أحدهما فردا ومعناها الستارة والثاني دار ومعناه ممسك والمراد ممسك الستارة وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة ثم نقل الى الديوان

(11) وصفها القلقشندي: "ويتميز قاضي القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره. القلقشندي: ن م. جـ4، ص142.

رابعاً: العادات والتقاليد:

طبقة الفلاحين من أهل القرية الشامية:

كان مجتمع القرية بسيطاً، يتكون من قبيلة واحدة، وأحياناً أكثر من ذلك وعاش المسلمون والمسيحيون مع بعضهم البعض في القرية حيث كانت نسبة المسلمين أكبر من نسبة المسيحيين بما يقارب 70-80٪ للمسلمين عدا مناطق خاصة بالمسيحين في وادي موسى والكرك والشوبك[1].

وكان يحكمها شيخ أو أكثر يكون مسؤولاً أمام السلط الحاكمة والمالك الإقطاعي حيث يجمع الضرائب من الفلاحين ويقدمها للأمير المُقْطِع أو أستاداره[2].

لذا فإن الشيخ كان والحالة هذه فمثلاً للسلطة الرسمية في مجتمع القرية وكان الشيخ يستقبل ضيوفه في "المضافة"[3] وحتى اليوم. وبالنسبة للمرأة فكانت تقوم باعمال المنزل وتربية أبنائها بالاضافة الى الأعمال الإضافية كنسيج الملابس، وصناعة الجبن، ومساعدة زوجها في الزراعة لذا اعتبرت المرأة الأردنية والفلسطينية عنصراً منتجاً في العصور الوسطى في مجتمع القرية الزراعي، كما خزنوا غلاتهم في الكهوف "المغاير" المحيطة بالقرية بالإضافة لاستخامها في ايواء حيواناتهم وقد شاهد الباحث هذه العادة في قريته في الأربعينيات من هذا العصر.

وبالنسبة لمواردهم المائية فاعتمدوا على الينابيع القريبة منهم وفي حالة عدم توفرها بنوا خزانات "صهاريج" لجمع ماء المطر وما زالت هذه الطريقة في بعض القرى حتى اليوم ونقلوا ماء الشرب بواسطة الجرار أو القرب المصنوعة من جلود الحيوانات كما نشاهدها اليوم إذ يعتمد الفلاحون حتى اليوم على مياه الآبار العادية[4]. وعندما نضب الماء من آبار يافا عام

---

[1] أبو الفداء: تقويم البلدان، مطبعة المتنبي، بغداد، 1950م، ص 247.

[2] السبكي: تاج الدين عبد الوهاب: معيد النقم ومبيد النعم، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، 1948، ص26.

[3] Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem London, 1972, PP.367.

[4] المقدسي م.س، ص 184-185 الذي وصف المياه العادية والمعدنية الباردة والحارة.

672هـ/1274م أمر السلطان بيبرس والي الرملة بنقل ماء قرية عابورة وصبه في آبار يافا فأزال الأوساخ منها[1].

طعام الفلاحين في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي:

لقد اعتمد الفلاحون في غذائهم اليومي على محصولاتهم من الشعير أو القمح الممزوج بالشعير، وحساء العدس، أو العدس والبرغل مناصفة "المجدرة"، وهي الأكلة المفضلة[2]، التي تطبخ كطبيخ الأرز المفلفل اليوم، إلا أنها لا تصبغ بالزعفران[3] وتطبخ إما بالزيت أو السمن وأفضلها ما يطبخ بزيت الزيتون النقي كما هو في وقتنا الحاضر.

وكان الزيتون غذاءً رئيسياً من حيث الزيت او الرصع أو التشطيب[4] وهي الطرق التي ما زالت مستخدمة حتى وقتنا الحاضر.

ومن الأكلات الشعبية في العصر المملوكي في قرى الأردن المنسف الذي يقدم في المناسبات العامة للضيافة والأعراس وغيرها حيث قدمه أهل حوران تكريماً للناصر محمد بن قلاوون عند توجهه من الكرك الى دمشق ماراً بحوران، وكانوا يحملونها على رؤوسهم، وبعد تناول الطعام يَحتَسُونَ القهوة العربية المصنوعة من البن المطحون بواسطة الأجران الخشبية[5] كما استخدمت القهوة منذ أيام الأمويين[6].

---

(1) المقريزي: السلوك، جـ1، ص613. ذكر بأنه كتب للسلطان وقيل له: "إن هذه الآبار إناث تحيض وآبار الجبل ذكور ومنها آبار قرية عابورة في فلسطين.

(2) الصباغ: المجتمع، ص58، 161، مخلص، عدي يوسف "المقدسي البشاري" حياته ومنهجه"، ط1، 1973، ص 214.

(3) البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد من أعيان القرن 7هـ/13م، "كتاب الطبخ"، نشره فخري البارودي، ط1، دار الكتاب الجديد، 1964، ص 29. والصباغ: ن م، ص 61.

(4) قطوس، ابن سكور ابن لوقا الرومي، (عاش في القرن السادس الميلادي) الفلاحة اليونانية، ترجمة سرجس الرومي، القاهرة، 1293، 1876، ص105. فالح: م.س، ص 148.

(5) المنسف: يتكون من اللحم المطبوخ، واللبن الرائب وتحته رقاق الخبز في صينيه نحاسية واسعة تسمى اليوم "الصدر"، وفوق رقاق الخبز الأرز أو البرغل وفوقها جميعاً قطع اللحم الكبيرة ثم يصب عليه السمن البلدي واللبن الذي طبخ به اللحم. العيني: عقد الجمان، جـ22، ق1، ورقة 115، مخطوط. د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 125، والتاريخ السياسي، ص 174، هامش 133،. وما زالت الأكلة الرسمية الشعبية التي نقدمها في قرانا لإكرام الضيوف وفي الأعراس والختان. حتى اليوم.

(6) ماجد، م.س، ص 135.

ومن الأكلات المشهورة عند الفلاحين ايضاً 'المبحترة' أو المفروكة أيام عصر الزيتون وتسمى اليوم في قرى شمال الأردن "اللزاقيات" حيث يصب الزيت المعصور حديثاً على الخبز الساخن ويفرك باليد لتوزيعه ثم يرش السكر عليه حسب الذوق[1].

ومن المواد الغذائية التي يخزنها الفلاح لفصل الشتاء –مادة الكشك المصنوع من البرغل واللبن[2] والذي ما زال يستخدم في قرى شمال الأردن حتى اليوم والسمن والدهون والحبوب ولحم القديد والمربيات والفاكهة المجففة كالتين والزبيب[3]. بالاضافة الى الحلويات الشتوية لمدهم بالطاقة الحرارية اللازمة: مثل الزلابية المصنوعة من العجين والمقلية بزيت الزيتون الجديد[4]، وحلواء الخروب أو "الكباد" في نابلس وذلك بطبخ الخروب وعصره ليخرج منه الرب الذي كان يصدر الى مصر والشام[5]، والناطف: المعتمدة في صناعتها على قصب السكر[6].

والأرز بالحليب المعروف في قرى شمال الأردن بالبحتة اليوم، بالاضافة للدبس والتين المجفف 'القطين". وكان طعام غالبية الفقراء الفول النابت المغلي بالزيت، والترمس المملح[7].

وبالنسبة للحم فكان الفلاح لا يأكله إلا في المناسبات العامة كحفلات الزواج وعشاء الأموات ونزول الضيوف وفي المناسبات الدينية كالأعياد[8]. وقد لاحظ الباحث هذا في طفولته أيام الأربعينات والخمسينات.

---

(1) البغدادي: م.س، ص 81.

(2) شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت727/1326م) "الدر الملتقط في فلا حتى الروم والنبط"، ميكروفيلم عن مخطوطه. مخطوطة بدار الكتب القومية، القاهرة، رقم زراعة 6484، ورقة 38 والقاسمي، م.س، جـ2، ص388، والخوارزمي: م.س، ص 155.

(3) البدري: نزهة الأنام، ص272-273، واللحم القديد، اللحم المملح المجفف في الشمس.

(4) المقدسي: أحسن التقاسم، ص 167، سترانج، فلطسين، ص40، مخلص المقدسي البشاري. ص214

(5) ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص 80.

(6) المقدسي: ن،م، ص167.

(7) المقدسي: ن م، ص 167، والقاسمي، م،س، جـ2، ص 344، سترانج، م س، ص40.

(8) الصباغ: م.س، ص 61، فالح: م.س، ص 49.

أدوات طعام الفلاحين في المطابخ:

كانت قليلة جداً لفقرهم ولطريقة الطبخ المتبعة عندهم بطبخ جميع طعامهم سوية في قدر واحد، وأشهرها القدور والصحون والأواني الفخارية، كما هو شائع اليوم في قرى شمال الأردن.

وهكذا يلاحظ مما تقدم بساطة غذاء غالبية الفلاحين في العصر المملوكي فلم يكن غريباً أن لا تتعدى مأكولاته القمح والشعير والبصل والجبن لسوء حالته الاجتماعية بسبب العمل والسخرة والضرائب التي يدفعونها عن يدوهم صاغرون.

وقد استخدم العرب في تحضير طعامهم بعض الآلات كحجر الرحى لطحن الدقيق، والغرابيل لغربلة الحبوب، وصاجات الحديد للخبز[1].

وقد اختص طباخون بالعدس والفول المقلي بالزيت ويباع مع الزيتون[2]، واشتهر العرب بحسن الضيافة والكرم بتقديم المناسف العربية ومراعاة الجار في المناسبات[3] حيث كان البدو يسكنون خيام الشعر المخصص نصفها للنساء والتي مازالت حتى اليوم في صحاري جنوب بلاد الشام[4]. وكان من أصناف الطعام في شرقي الأردن: البرغل[5]، والكشك[6]، والجميد[7]، والسمّاق[8]، ودبس العنب "المُربّى"، والزلابية[9]، والخبز[10]. وما زالت هذه الأطعمة تشكل الأكلات الشعبية في الأرياف الأردنية حتى اليوم.

---

(1) نعوم شقير، تاريخ سيناء، جـ3، ص381، القاهرة، 1916.

(2) المقدسي: م.س، ص18.

(3) ابن خلدون: المقدمة، الباب الثاني، الفصلين 4،5، نعوم شقير، ن م، ص36.

(4) نعوم شقير: ن م، ص 36.

(5) قمح مسلوق ومجفف في الشمس يستخدم في جميع أوقات السنة.

(6) والكشك: مزيج من البرغل واللبن والملح، ويجفف في الشمس لاستخدامه في الشتاء وقد شاهدت والدتي فهي تصنع البرغل والكشك بيديها. وكان الأغنياء يطحنون اللحم والسمن.

(7) والجميد: لبن مجفف بالشمس مخلوطاً بكمية كبيرة من الملح يخزن لاستخدامه في جميع أوقات السنة وخاصة المناسف، وما زلنا تستخدمه حتى اليوم.

(8) أما السماق: فهو ثمر لشجرة برية تنمو في جبال الأردن حمراء صغيرة بحجم حبة العدس، تقشر وتطحن وترش على الطعام كالتوابل لطعمها الحامض وهو شائع الاستعمال حتى اليوم.

(9) الزلابية: عجين مقلي بالزيت: ما زلنا نستعمله وخاصة في الشتاء وفي موسم عصر الزيتون.

(10) خبز القمح المخبوز في الطوابين المقدسي: أحسن التقاسم، ص 183، أو الخبز في التنور الذي يحمى بالحطب أو الزبلة "الجلة" وفي داخلة أو على جوانبه حصى. ولا زال الطابون مستخدماً في الريف الأردني.

وكانوا يحمصون القهوة ويدقونها في المهابيش الخشبية والتي ما ازلت موجودة في منازلنا الريفية حتى اليوم.

واستعمل الأردنيون المكسرات: من الجوز واللوز والذي تكثر اشجاره وحتى اليوم في جبال عجلون والكرك وجبال مؤاب وأودية حسبان[1].

وكانت الفاكهة المحببة لسلاطين المماليك حَب الرّمان الذي يكثر نمو أشجاره في أودية شمالي الأردن (الكفارات) وعجلون والسلط (الصلت) والكرك والشوبك والتي ما زالت مشتهرة به حتى اليوم لذا فرض المماليك جباية ضريبة الرمان من الأهالي سنة 702هـ/1302م حيث بلغ المتأخر منها على الأهالي في بلاد الشام الفاً وستمائه رطل[2] ومن الأطعمة المستخدمة على نطاق ضيق الأسماك التي يصيدونها من خليج العقبة على البحر الأحمر المصدر الوحيد للأسماك في ذلك الوقت[3] إذ كان السمك يوزع على المدن الأردنية.

ويقول الدكتور يوسف غوانمه بأنه وجدت في حفريات حسبان سنة 1973 عظام لبعض هذه الأسماك[4].

عادات وتقاليد فلاحي جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي:

إن أهم ما يميز مجتمع القرية في جنوب بلاد الشام الى يومنا هذا مضافة شيخ القبيلة التي يستقبل فيها الضيوف والزوار[5]، بالاضافة الى اجتماعات أهل القرية، والقرى المجاورة، كما كانت ملتقى أبناء العشيرة لقضاء السهرات الممتعة وخاصة في فصل الشتاء لتعطل الأعمال الزراعية واليدوية وأعمال البناء، كما هو الحال هذه الأيام.

أما بالنسبة للعادات والتقاليد في القرى، فقد كانت متقاربة على الرغم من اختلافها في بعض القرى حسب قربها أو بعدها عن المدينة وحسب أصول السكان، حيث تأصلت العادات

(1) ابن قاضي شهبه: م س، جـ1، ورقة 9 مخطوط. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 178.

(2) القلقشندي: م س، جـ13، ص 308.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 178.

(4) د. غوانمه: التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص 154، ط2، 1982.

(5) د. غوانمه: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين: ص 88-89، الصباغ، م.س، ص 62.

والتقاليد البدوية[1] عند السكان ذوي الأصول العربية لا سيما أهل حوران شمالي الأردن وجنوبي سوريا.

حفلات الزواج في العصر المملوكي:

لقد درجت العادة على أن يخطب العريس عروسه من والدها بواسطة كبار السن "الجاهة" وأن يدفع المهر لوالدها[2] قبل عقد القران ثم يتم العقد ويزف العريس لعروسه بحفل بهيج.

ويقدم أهل القرية النقوط "الألطاف" وهو مبلغ من المال الى العروسين أو الى والديهما[3]، ثم تُزف العروس إلى منزل زوجها بالأغاني والأهازيج ويرشقها الناس بالعُنْصل[4] أثناء مرورها أمام منازلهم، تيمناً وابتهاجاً ومشاركة جميع الفلاحين لابن هذا الفلاح في فرحه أهله بالإضافة لرشقهم العروس والعريس بالحلوى أمام منازلهم لابعاد عيون الحساد كما نشاهد اليوم، وبالنسبة لمكان العقد فكان المسجد لإشهار الزواج بموجب الشريعة الاسلامية حيث يعلن بواسطة المئذنة اسم العريس واسم والد العروس[5].

أما مراسيم عقد الزواج فكانت أن ينتقل الناس لبيت العروس بعد عقد القران في المسجد، حيث تقام حفلة يوزع فيها المرطبات والحلوى أو المشروبات الساخنة، ويحيي الحفلة المطربون.

ثم ينقل جهاز العروس بعد ثلاثة أيام من عقد القران الى بيت الزوج في حفل بهيج[6]. كما كان يسبق ليلة الزفاف ليلة "التعاليل" يشارك فيها الزجالون والمطربون والموسيقيون وشباب القرية ونساؤها اللاتي يشاركن في ليلة "الحِنّاء" لصبغ يدي العروس ورجليها ومعصميها بالحناء أما العريس فيحنون يديه[7]. كما هو الحال في وقتنا الحاضر.

---

(1) ابن بطوطة، م.س، ص 224.

(2) النابلسي: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض عبد الحميد، ط1، دار المعرفة، دمشق، 1989، ص 239

(3) أحمد رمضان: م.س، ص 209.

(4) العنصل: نوع من أبصال الزهور ويعرف ببصل الفار، أحمد رمضان، ن.م، ن.ص.

(5) أحمد رمضان، ن.م، ص 251.

(6) أحمد رمضان، ن.م، ص 250.

(7) أحمد رمضان: م.س، ص251.

كما شارك أهل القرية الفلاح في عزائه بموت أحد أقاربه كنوع من المشاركة الوجدانية والمحبة والوفاء، إذ يشاركون في تشييع الجثمان إلى المسجد ليصلى عليه، ثم الى مثواه الأخير، وكان العزاء يتم في المسجد لمدة ثلاثة أيام حيث يجلس أهل الميت ويتوافد عليهم أهل القرية والقرى المجاورة للعزاء، حيث يكررون كلمات التوحيد، ويتلو بعض المقرئين آيات بينة من الذكر الحكيم[1]. بينما يتم العزاء اليوم في مضافة العشيرة أو في ساحة عامة أمام منزل الميت بعد نصب الخيام لاستقبال المُعزين.

كما يجتمع أهل القرية على قبر الميت في صباح اليوم الثالث على البسط الممدودة عند القبر، ويوضع ماء الورد، وتنثر الزهور، ويقرأ الحاضرون أجزاء الربعات من القرآن الكريم، ثم يذكرون الله بعد ذلك، وتوزع النقود على الفقراء، ثم يقدم الناس العزاء لأهل الميت، وتتكرر هذه التقاليد في اليوم السابع ويوم الأربعين[2]. وقد تلاشت هذه العادة في قرى شمالي الأردن اليوم لعدم توافقها مع السنة النبوية الشريفة ومن العادات الاجتماعية التعاونية أيضاً:

عادة معونة الحصاد: في موسم الحصاد، حيث يجتمع أهل القرية كل يوم عند شخص لمساعدته في حصاد محصوله، ويحق لنا الاعتزاز بهذه العادة الحميدة التي ما زالت منتشرة في وقتنا الحاضر كدليل على التعاون والتكافل الاجتماعي بين الفلاحين.

وعادة الاحتفال بولادة الطفل: فعندما كانت القابلة تساعد المرأة الحامل في عملية الولادة إذ تبدأ بتحسس المولود في حال نزوله مباشرة، لمعرفة جنسه، والنّاس خارج الغرفة ينتظرون معرفة جنس المولود من صوت القابلة التي كانت تُصلِّي على النبي بأعلى صوتها ليسمعها الجميع إن كان ولداً، وإن كانت بنتاً ترضت على فاطمة الزهراء"، وبعدها يطلب والد الطفل من أحد المتدربين على الآذان في أذن الطفل، ثم يطلق عليه إسماً[3]. وبالنسبة لأم الطفل تقدم إليها

---

[1] كرد علي: خطط الشام، جـ6، ص 285.

[2] أحمد رمضان: م.س، ص210.

[3] ن م، ص 253.

الحلوى المرصعة بالجوز ليدر لبنها، ويقدم لها الشراب لمدة اسبوع من ماء الحمام المنقوع فيه البنفسج كما يرسل لها الأقارب والأصدقاء أنواعاً من الطعام تشمل على الزلابية[1].

وفي اليوم السابع من ولادة الطفل يدعو أهله لحفلة عشاء راقصه يحيها عدد من المطربين للرجال والقيان للنساء، وجرت العادة أن يحضر المدعوون الهدايا النقدية والعينية للأم وللطفل[2]. كما اعتادوا على ختان أولادهم في اليوم السابع ايضاً يحفل بهيج وطعام لذيذ تتخلله أنواع الحلوى الطازجة. ثم يزين الولد بالحلي ويحمله "العريف"[3] بحضنه على دابة تطوف بهما في الشوارع يتقدمها كبير مشايخ الصوفية راكباً على دابة مزركشة بطيلسان أحمر ملوحاً بعصا معقوفة "معوجة" يشير بها إلى جماعته في الموكب أمامه وهم يحملون الأعلام ويضربون الدفوف والطبول[4] أثناء طوافهم في شوارع القرية، وبعدها يعودون لمنزل الغلام فتتلى قصة المولد النبوي الشريف وبعدها يتم ختان الطفل[5]، هذا وتجدر الملاحظة هنا أن الدولة المملوكية كانت تفرض الضرائب على المغنين والمغنيات المعروفة بضريبة المغاني حتى ألغاها السلطان برقوق عام 1390/1791 في كل من الكرك والشوبك[6]. مما لا يدع الشك في ظلم الرعية حيث كانت لا تترك مناسبة صغيرة أو كبيرة لتحصل نقوداً من الشعب المسحوق والمغلوب على أمره بدفعة هذه المغارم غير الشرعية.

الاحتفال بدخول الطفل المدرسة للكتاب وختم القرآن:

كان الناس يرسلون أبناءهم بعد بلوغهم سن الخامسة الى الكتاب في المسجد أو الى الشيخة "المعلمة" اذا كانت بنتاً، وبعد ختمه القرآن الكريم تقام له حفلة كبيرة في منزله يحضرها جماعة المطربين والدوراويش والمنشدون تسمى 'تشييده' ثم يطاف بالغلام ورفاقه في بعض شوارع القرية وهم ينشدون الأزجال والمدائح النبوية، وخلفهم رجل ينثر الشعير على الرؤوس دفعاً للحسد[7]، وبعدها يعود الموكب الى منزل الغلام حيث يتناولون الطعام ويملؤون جيوب

---

(1) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، جـ1، ص 97. والزلابية نوع من الحلوى القروية الذي تصنعه المرأة من العجين المقلي بالزيت ثم يرش عليه السكر أو محلوله "القطر".

(2) أحمد رمضان، ن م، جـ253.

(3) العزولي ابن عبد الله البهائي (ت1412/815)، مطالع البدور في منازل السرور، ط1. مطبعة ادارة الوطن، القاهرة. عام 1299هـ، صـ107.

(4) أحمد رمضان، م.س، ص252.

(5) ن م، ن ص.

(6) ابن الصيرفي: نزهة النفوس. جـ1، ص 211، غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 121.

(7) الغزي، م.س، جـ1، ص 98.

الأولاد نقوداً وزبيباً وفستقاً وقطيناً[1]. وما زال الباحث يذكر ذلك اليوم الذي ختم به المصحف في قريته سوم الشناق على يد الشيخ "يحيى اليمني" الملقب بـ "اليهيوه" البارع في تدريب الديكة بالقفز على العصا عام 1948م.

وهكذا يمكننا القول أن كثيراً من عادات وتقاليد فلاحي جنوبي بلاد الشام في العصر المملوكي لم تختلف كثيراً عما هي عليه الآن، إلا في بعض ترتيباتها الجزئية، لمواكبة العصر الذي يعيشون فيه. كما رأينا وما زلنا نشاهد بأن المرأة الريفيّة في جنوب بلاد الشام تشارك زوجها في الأعمال الزراعية كجني المحصول، وإعداد الطعام من خبز وجبن وزبد وصناعة ملابسه من غزل الصوف ونسجه وهكذا تكون شريكة في تحمل أعباء الحياة حلوها ومرها مما يثبت أصالتها الريفية والبدوية.

تأثر المسيحيين بعادات المسلمين.

لقد كان من الطبيعي أن يتأثر المسيحيون بعادات المسلمين في الأكل والشرب واللباس وتقاليدهم في حياتهم اليومية نتيجة المزج الاجتماعي للطرفين في بوتقة الحياة في فلسطين وشرقي الأردن حتى أنه أسلم عدد من المسيحيين[2] لتأثيرهم النفسي من معاملة صلاح الدين الحسنة لهم وبطولاته والتي أحدثت تأثيراً سحرياً في نفوسهم[3] بالاضافة لتأثرهم بالأداب العربية حيث تعلم بعض امرائهم اللغة العربية، وتثقفوا بالثقافة الاسلامية، وناقشوا الأمور الدينية الاسلامية[4] بعكس المسلمين الذين لم يحاولوا تعلم لغة أعدائهم الفرنجة[5]، وربما كان ذلك نابعاً من كره المسلمين للصليبيين فأحجم المسلمون عن الكتابة بلغتهم[6] بل شجعهم ذلك على النيل

---

(1) أحمد رمضان، م.س، ص 252

(2) سيرتوماس: وأرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدي، واسماعيل النمراوي، القاهرة، 1957، ص 109-110.

(3) ن.م، ص 110. وبالمقابل ذكر ابن جبير اضطرار بعض المسلمين الأسرى اعتناق الديانية النصرانية للنجاة من الموت تحت ذريعة شرعية "الضرورات تبيح المحضورات". ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص215، وابن الأثير: الكامل، جـ8، ص 359.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ2، ص 282-283.

(5) حتى اسامه ابن منقذ الذي كان أكثرهم معاشرة للصليبيين لم يكن يحسن غير العربية، ابن منقذ، م.س، ص66.

(6) ن.م، ص 118، ص 128، 135.

منهم بالقلم بتتبع مثالبهم للنيل منهم لأعمالهم التخريبية من قتل وسلب ونهب فوصفوهم بالكافرين أحياناً وبالشياطين أحياناً خرى.

فكان هذا شيئاً طبيعياً يعكس المشاعر التي خلفها العدوان الصليبي في وجدان الناس في العالم الاسلامي على الرغم من ايمانهم بالمسيح عليه السلام كنبي مرسل.

وهذا يُرَجِّحُ موقفهم السياسي وليس الموقف الديني حيث سجلوا عليهم الغدر والخيانة والإجرام والتهجير وعدم احترام المواثيق والعهود[1] كما حدث عام 552هـ/1156م عند نقضهم هدنة مع نور الدين محمود[2].

ومن العادات الرياضية العربية التي بقيت متأصلة في نفوسهم في عصر الأيوبيين والمماليك اهتمام الناس بتربية الخيول والبغال كعدة للقتال والأسفار والقوافل التجارية فاتقنوا فنون البيطرة لمداواة الخيول واهتموا بإقامة أسواق الخيل وحلبات السباق وخاصة زمن الظاهر بيبرس المهتم بالفروسية ورعاية الخيول والجياد العربية. كما اتقنوا رمي النبال في الميادين العامة فكانت هناك حلبات خاصة للسباق والمران وكانوا يبنون الى جانب هذه الميادن (مصاطب) يجسلون عليها لمشاهدة اللاعبين[3] ويرجع اهتمام المماليك بالفروسية لأنها أوصلتهم للملك فاهتموا بتمرين المماليك على ركوب الخيل، ورمي النبال، وأعمال الفروسية والحروب.

ومن العادات الصحية ذهاب الناس للحمامات العامة للاستحمام فقد انتشرت عادة الاستحمام في حمامات عامة لتوفرها في مدن بيت المقدس وعمان والكرك وعجلون وحسبان وغيرها من المدن[4].

---

(1) العماد الأصفهاني: الفتح العشي، ص 51

(2) ابن القلانسي: م.س، ص 24.

(3) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ1، ص325، ذكر فيه "حب السلطان بيبرس لركوب الجياد ورمي النبال فأنشأ ميدان سماه ميدان القبق... وميدانا للسباق، وكان شاغلاً بقعة من الأرض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الأحمر، وبنى فيه مصطبة سنة 666هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية، وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك، فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء، وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي، والنضال والرهان، فما بقي أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله، وما برح من بعده أولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الألعاب الحربية".

(4) غوانمه: التاريخ الحضاري. ص120.

وقد استعمل فلاحو بلاد الشام، مادة الأشنان في الاغتسال لازالة الأوساخ. ولإضفاء النعومة على البشرة والشعر[1]. وارتأيت توضيح أهمية الحمامات ودورها لعدم توفرها في الأردن وفلسطين في العصر الحاضر إلا ما ندر بعكس استمرارها وتواجدها في المغرب العربي حتى اليوم راجياً من الله أن يقيض لهذه الأمة من يعيد ويحي تراثها الاسلامي بتأسيس الحمامات العامة للجميع التي بها عام 1964-1965م عندما تطوعت كمدرس للمشاركة في عملية التعريب بعد الاستقلال العظيم الذي حققه شعب الجزائر العربي عام 1962م بعد اتفاقية ايفيان.

الحمّامات[2]

تمهيد

لقد عرف العرب المسلمون الحمامات منذ القرن الأول الهجري، وكان حمام عياض بن غنم[3] في القدس[4]، أقدم حمام بُني في الإسلام. ثم انتشرت الحمامات في المدن الاسلامية التي أسّسها المسلمون وزاد عددها في بلاد الشام في العصر الأموي[5]، وزاد الاهتمام بها في أواخر العصر العباسي عندما تعرضت بلاد الشام للغزو الصليبي والمغولي، وكثرت الكتب التي ترغب

---

(1) الاشنان: نبات ينمو في البراري الشامية في بادية الشام وهي كالصابون حيث تستخدم هذه المادة لغسل الملابس ايضاً مساحيق التنظيف في وقتنا الحاضر. ابن الأخوة: م س، ص172، 173، 175. والقاسمي: م س. جـ2، ص216. وفالح: الحياة الزراعية، ص153.

(2) الحمامات: مفردها: حمام من حمى أي سخن، ومعناها الحرفي المسخن، وهو حمام البخار الساخن، هيوار: الحمام، دائرة المعارف الاسلامية، جـ8، ص 68. سيشار له فيما بعد هكذا: هيوار، الحمّام.

(3) أمير الشام في عهد عمر بن الخطاب توفي عام 20هـ/640م في الشام، ابن الأثير: أسد الغابة، م4، ص261.

(4) مجير الدين الحنبلي:م س، م1، جـ1، ص 261.

(5) لمعرفة المزيد عن الحمامات الأموية. انظر د. غوانمه: عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان، 1979، ص 193، وعبد القادر الريحاوي: العمارة العربية الاسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1979، ص 61. ومحمد سليمان الروسان: تطور الحمام في بلاد الشام في العصر الاسلامي المبكر في ضوء المصادر التاريخية والمستجدات من الاكتشافات الأثرية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1989، ص90.

بسكنى بلاد الشام لصفتها الدينية[1]، وللصمود أمام الغزو الأجنبي وعدم تفريغها من سكانها ليحل محلهم المستوطنون الأجانب.

وقد أرتبط بناء الحمّام بالناحية الدينية لأهمية النظافة والتطهر في حياة المسلم كما ارتبط ايضاً بالناحية الصحية وخاصة الحمّامات المعدنية للاستشفاء من الأمراض[2].

بالاضافة للمتعة في بعض قصور الحكام والأثرياء.

ويعود بناء الحمامات العامة في المدن الاسلامية بسبب التكلفة العالية في انشاء حمام بيتي، وعدم توفر المياه في المنازل، فبني الحمام العام في وسط المدينة حيث السوق وسهولة الوصول اليها[3]، وحاجة بعض المؤسسات الأخرى لها كالمساجد والقلاع والمدارس والخانات والبيمارستانات[4].

ويصعب إحصاء الحمامات في بلاد الشام أيام الأيوبيين والمماليك لكثرتها في المدن والقرى ولإغفال المصادر لذكر جميع الحمامات في المدن والقرى إلا من خلال الترجمة لشخص. فقد كان عددها في مدينة القدس في القرن الثامن الهجري ثلاثة عشر حماماً لأنها كانت تعاني من قلة الماء، وعندما حفر الأمير تنكز قناة ماء من عين العروب اليها بنى فيها حمامين[5] ووجد في العصر المملوكي عدد من الحمامات في كل من عمان وعجلون والكرك وحسبان[6].

---

(1) للمزيد من المعرفة انظر: ابن عبد السلام (أبو محمد عبد السلام): ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام: تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي الميادين، المكتبة العالمية، بغداد.

(2) ابن بطوطة: الرحلة، ص58، ذكر أثناء زيارته لمدينة طبريه وبها الحمامات العجيبة، "بها بيتان أحدهما للرجال، والثاني للنساء وماؤها شديد الحرارة". وبنيامين التطلي: رحلة بنيامين، ترجمة عزار حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، 1945. ذكر بأنها كانت تسمى "الحمة" وهو الاسم الشائع في عصرنا الحاضر. ص111. الأدريسي (أبو عبد الله محمد)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، معهد الدراسات الشرقية، نابولي روما، 1965-1977، جـ4، 364.

(3) هيوار: الحمـّام، ص 68.

(4) ابن شداد: الإعلاق الخطيرة، قسم دمشق، ص 40، 120، 122، 124, وابن كثير: البداية والنهاية، م7، جـ13، ص 360 وجـ14، ص 232. وابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ2، ص157.

(5) ابن تغرى بردي: م.س، جـ5، ص154 الإمام: مدينة القدس، ص 183، كامل العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، عمان، 1982، ص164. ذكر البرك والآبار الملحقة بالحمامات.

(6) د. غوانمه: تاريخ شرق الأردن، القسم الحضاري، ص186-187.

وهكذا كانت المدن التي لا يمر بها نهر تتزود من القنوات أو الآبار الخاصة بالحمّامات كالقدس وغيرها. كما عرفت بلاد الشام نوعين من الحمّامات العامة (حمّامات السوق) والحمامات الخاصة في بيوت الأثرياء.

أما الحمامات العامة فكانت قسمين للرجال والنساء في الحمام الواحد اذ يعمل على فترتين الأولى للنساء من الظهر الى غروب الشمس وباقي اليوم للرجال[1].

وقد اهتم الأيوبيون والمماليك بالحمّامات من حيث تنظيمها وترتيبها وترخيمها وتبليط ارضيتها وتزيينها بالزخارف[2].

ومن حيث الهندسة المعمارية فقد انقسم الحمام في بلاد الشام الى أربعة أقسام هي: القسم الأول البرّاني (المسلخ أو المشلح) كما في حمام وادي الكرك[3] وهذا القسم يتكون من قبة معقودة بالطوب والأجر بها نوافذ مغلقة بالزجاج لتوفير الإضاءة اللازمة[4] ويستند على أربع قناطر من الحجارة وفي وسطه بركة ماء باردة وهو عبارة عن قاعة استقبال مفروشة ببسط ملونة.

وتوجد سدة عند المدخل يجلس عليها آمر (معلم) الحمام لاستقبال الداخلين وتوديع الخارجين بالمباركة بحمامهم حيث يتقاضى منهم الأجرة. وفوق هذه السدة أماكن لوضع مناشف الحمام[5].

أما القسم الثاني من الحمام فهو الوسطاني المكون من قسمين: وسطين: برّاني وجُوّاني فالقسم البراني: مَشْلح للمسنين في فصل الشتاء، فيه مقاعد ويغسل من بركة مخصصة لذلك

(1) العلبي: دمشق، ص 121.

(2) ابن بسام (محمد بن أحمد بن علي): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة دار المعارف، بغداد، 1968، ص 67-70.

(3) د. غوانمه: التاريخ الحضاري، ص 243-244 أورد في الملحق (6) وقفية السلطان الأشرف شعبان على البستان أو الحمام بوادي الكرك.

(4) كيال: الحمامات الدمشقية، ص 217.

(5) كيال: ن م، ص 221.

الغرض[1]. أما الجُوانّي (أو الصالة الدافئة) المحتوى على عدة مقصورات فهو مخصص لفصل الصيف كما في حمام وادي الكرك[2].

والقسم الثالث من الحمام هو الجواني الحار: المكون من صالة طويلة مجهزة بمقصورة واحدة، وتنتهي الصالة من الجهتين بنصف دائرة، يجلس فيها المستحمون، لفترة طويلة للتعرق بواسطة الحرارة المنبعثة من فتحة مقابل مدخلها يرسلها الحرّاق كما تضاء هذه الصالة من خلال فتحات زجاجية بالقباب تسمى "قمريات" للتخلص من الزيت المحروق ولمعرفة الوقت من خلال حركة الضوء بهذه القمريات[3].

ومن الملاحظ ان كلمة جوّاني وبرّاني ما زالتا كلمتين شائعتي الإستعمال في اللهجة العامية في جنوبي بلاد الشام في وقتنا الحاضر حيث يقصد بالجواني: الداخل والبراني الخارج والقسم الأخير، و"هو "القميم" وهو القسم الخارجي من الحمام المحتوي على ثلاثة أجزاء هي "الخزانة" لتخزين الماء و "الموقد" و "مسكن التعميم"، وله مدخل خاص به[4]، ويسخن الماء بواسطة حلتان نحاسيتان كبيرة وصغيرة، توضع الكبيرة على الموقد مباشرة حتى يسخن الماء لدرجة الغليان ليصل الى الحلة الصغيرة بواسطة أنبوب صغير للحفاظ على درجة حرارة واحدة للحلتين، ثم يسكب الماء على كامل سطح المكان حتى 40سم فيحصل على احتياطي ماء حار الى جانب سطح كبير للتبخير لتوفر التجار بالسرعة والغزارة اللازمة[5].

وكان الوقود المستخدم من روث الحيوانات والحطب والقش المفروم[6]، الذي يوضع تحت الموقد إذ يسقط الرماد والجمر الصغير من الثقوب الصغيرة في ارضية الموقد فيستفاد منه في طلاء سطح البناء[7].

---

(1) ايكوشار ولوكور: (ميشيل وكلور): حمامات دمشق، تعريب ممدوح الأركلي، ونبيه الكراكبي، دمشق، 1985. جـ1، ص28.

(2) د. غوانمه: التاريخ الحضاري: ص 243-244، (ملحق 6).

(3) ايكوشار، ولوكور: حمامات دمشق، ط1، ص28.

(4) كيال: م س، ص227.

(5) ايكوشار، ولوكور: ن م، جـ1، ص29-30.

(6) ن.م، جـ1، ص31.

(7) كيال: ن م، ص 229.

وبالنسبة لسكن القميم (وأسرته المسؤول عن الوقود الذي يغذي الحمام)[1].

وأما المشرفون على الحمام فكانوا من جنس المستحمين رجالاً أو نساء كما يلي:

- المعلم أو الآمر: المشرف على جميع أمور الحمام من مراقبة جميع العاملين به وتوفير احتياجاته[2].
- الناطور أو الحمامي: وهو نائب المعلم أثناء غيابه، وهو المسؤول عن نظافة الحمام واستقبال رواد الحمام والمحافظة على ملابسهم، وتوفير المآزر بالأجرة وتسمى في حمام النساء الناطورة[3].
- والبلانّ: الذي يقوم بالتدليك والفرك والمعك للرواد. وله مساعدون منهم "تبع" المكلف بنتف الشعر. ويسمى في حمام النساء البلاّنة[4].

وهناك مستخدمون آخرون كالزبّال الذي ينقل الوقود من روث ونشارة خشب وحطب[5].

وهناك مراحل يمر بها المستحم بالحمام من خلع ملابسه على المصطبة في المشلح ثم يلفه الناطور بفوطتين الأمامية على خاصرتيه والظهرية على كتفيه[6]، كما يلبس أحذية خشبية وقاية من حرارة الأرضية المرتفعة[7]، ثم يجلس بالبراني ليتأقلم في الجو المشبع بالبخار، وبعدها ينتقل الى حجرة نتف الشعر بالوسطاني، ثم ينتقل إلى الجواني تحته ثقب البخار لمدة تتراح ما بين 10-30 دقيقة حتى يعرق بغزارة، وينتقل بعدها إلى مقصورة التدليك بجانب جُرن الماء الساخن ليصب عليه المدلك الماء الساخن بوعاء نحاسي صغير ثم يتمدد على أرضية الحمام

---

(1) العيني: م س، جـ1، ص226، وابن كثير: م س، م7، جـ13، ص137، ص229. ذكرا في حوادث عام 657 هـ أن الشيخ يوسف القميني عرف بهذا الاسم لأنه سكن قمين حمام نور الدين زنكي.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق2، ص36، كيال: ن م، ص235-244، ايكوشار، ولوكور: ن م، ص244.

(3) الشيرزي: نهاية الرتبة، م س، ص156، كيال: ن م، ص244. وسعد زغلول الكواكبي: الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب، عاديات حلب، الكتاب الأول: 1975، ص179، ذكر أن مآزر: مفردها مئزر، قطعة من القماش الملون بخطوط حمراء وصفراء وزرقاء وغيرها، جمعها، ميازر.

(4) ايكوشار، ولوكور: ن م، ج1، ص45.

(5) ن م، ن ص.

(6) ن م، ج1، ص46..

(7) هيوار: الحمام، ص68.

ليدلكه بقفاز شعر لتحريك جميع مفاصل الجسم وفي النهاية يعود إلى المشلح لينشف جسمه ويرتدي ملابسه(1).

وبالنسبة لملكية الحمام فقد تكون خاصة لأحد الأشخاص لاستثماره(2)، أو وفقاً على جهة معينة كمدرسة أو بيمارستان أو مسجد(3)، من قبل السلاطين والأمراء وبعض الأغنياء كحمام الأشرف شعبان في الكرك(4) وحمامي الأمير تنكز في القدس(5).

وكانت الحمامات وسيلة للثراء لما تدره من دخل مرتفع حيث تراوحت أجرة المستحم بين نصف درهم وأربعة دراهم(6) بالنسبة للحمام العادي في العصر الملوكي أما حمامات النساء والأعراس والمناسبات الأخرى فكان لها أسعار خاصة وكانت الدولة تفرض ضريبة على دخل الحمامات المختلفة(7).

ومما يميز حمّامات بلاد الشام أنّ روّادها كانوا من مختلف طبقات المجتمع من سلاطين وأمراء وعلماء وعامة رجالاً ونساءً(8) وأهل الذمة الذي أجبروا على وضع أجراس أو خواتم في أعناقهم أو حبلاً في أوساط رجالهم، وجرساً في أوساط نسائهم لتمييزهم عن المسلمين(9).

ونظراً لأهمية الحمّام المحافظة على العادات والتقاليد والأعراض والصحة العامة فقد وضع تحت مراقبة المحتسب مباشرة(10). كما نشير الى بعض المظاهر الاجتماعية كمناسبات الأفراح: إذ كان كل من العريس والعروس يدخل الحمام كل على حده في مظهر احتفالي بهيج

---

(1) ايكوشار، ولوكور: ن م، ج1، ص46-47.

(2) ن.م، ج1، ط5.

(3) العسلي: من آثارنا، ص171.

(4) د. غوانمه: تاريخ شرق الأردن القسم الحضاري، ص 243-244.

(5) ابن تغري بردي: م س، جـ9، ص154-158.

(6) ابن كثير،م س، م7، جـ14، ص102.

(7) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، م4، جـ6، ص47.

(8) المقريزي: السلوك، جـ4، ق1، ص162، ابن طولون: م س، ق2، ص32.

(9) ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، م5، ق4، ص895. وابن طولون: ن م، ق1، ص87.

(10) الشيزري:م س، م س. ص 87-88، ابن الأخوة: معالم القربة، ص155-156. والسبكي: معيد النعم، ص135. والزروبا: الحياة الاجتماعية، ص275.

للاستحمام ونتف الشعر، ثم يزفهم الأصدقاء والأقرباء بالأغاني والأهازيج الشعبية الى بيت العريس بما يعرف بالزفة[1].

هذا وتجدر الاشارة الى أن الزفة للعريس ما زالت تقليداً حتى اليوم في الأرياف والقرى الأردنية في جنوب بلاد الشام كما أن اختيار العروس كان يتم في الحمام، حيث يرسل العريس الخاطبة للتعرف على الفتاة عن قرب لظهور النساء عاريات على بعضهن داخل الحمام[2]. ويحتفل كذلك في الحمام بشفاء المريض[3]. بالاضافة الى أن الحمام يعتبر المكان الممتع للنساء للقاء صديقاتهن وتناقل الحديث[4] كما كُنَّ يصطحبن أولادهن بشكل جماعي ويحملن المأكولات المختلفة كالمجدرة والكشك والخبيزة[5] والملابس الفاخرة للمباهاة والتفاخر[6]. مما دفع بعض العلماء لعدم السماح لنسائهم بارتياد الحمامات لكثرة المفاسد في هذا العصر[7].

ومن الأمثال الشعبية التي ارتبطت بالحمام والتي ما زالت منتشرة حتى اليوم هي :

- (ضاعت الطاسة أو طاسة ضايعة (طاسة الحمام) ويضرب هذا المثل عندما تفقد الوسيلة التي نحتاج اليها بسبب الفوضى)

وما زال هذا المثل شائعاً بين الناس في جنوب بلاد الشام.

- (العروس من على جرن الحمام): يضرب هذا المثل في وجوب انتهاز الفرص المناسبة.
- و(نزل في مغطس حمامي) ويضرب هذا المثل عندما يتوسط احد في أمر صعب.
- (طعمي القيِّم وملوك الحمام) ويعني أدفع شيء بسيط واحصل على شيء كثير.

---

(1) ابن كثير: ن م، م7، جـ14، ص164، وايكوشار ولوكور:م س، جـ1، ص50.

(2) عفيف بهنسي: دمشق، المكتبة العمومية، 1981، ص101.

(3) المقريزي: السلوك، جـ4، ق2، ص586. بهنسي: ن م، ن ص.

(4) عاشور: المؤسسات الاجتماعية، ص 364.

(5) ايكوشار، ولوكور: م س، جـ1، ص50.

(6) الزوربا (فريال): الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الأردنية، 1980، ص 275.

(7) ن م، ن ص.

ومن العادات والتقاليد الأخرى عند رؤية شعاع عظيم شبه الأصابع في الجو النجم الذنب قبيل الفجر في أواخر رمضان يفزع الناس، ويعتبرونها من علامات قرب اجتياح التتار لبلاد المسلمين مرة أخرى[1].

وفي عام 664هـ/1266م أمر السلطان بيبرس بإراقة الخمور ومنع الحانات "أماكن العبث والاستهتار والخواطيء" بجميع أقطار مملكته بمصر والشام. فطهرت البلاد[2].

وقد قال قاضي الاسكندرية شعراً بذلك

ليس لا يلبس عندنا أرب	غير بلاد الأمير مأواه
حَرَمته الخمر – والحشيش معاً	حَرَمَتَهُ مُاءه ومرعاه

وفي عام 666هـ/1268م أمر بإزالة المنكرات من قرية اللد قرب القدس[3]. وفي عام 667هـ/1269م أمر السلطان بيبرس بإزالة الخمور وابطال الفساد والخواطيء بجميع بلاد الشام ومصر وأمر بتطهير البلاد من المنكر، فنهبت الخانات والأموال من أهل الفساد[4].

ومن العادات الأخرى وضع قطعة قماش من الكتنان أو شعر الماعز حول الخيمة أو على بابها لتمييزها من سائر الخيم وجمعها شقاق وأشقاق[5].

---

(1) ابن واصل: م س، ص427.

(2) المقريزي: السلوك، جـ1، ص553-554.

(3) المقريزي: م س، ج1، ص565.

(4) ن م، ص578.

(5) ن م، ص580.

الفصل الخامس

الحياة الفكرية

أولاً : المذاهب الدينية
ثانياً : الحياة الأدبية
ثالثاً : الحياة العلمية

الحياة الدينية

لقد شهدت بلاد الشام في هذه الحقبة الزمنية مظاهر دينية متباينة الاتجاهات تمثلت في المذاهب السنية الأربعة، والمذاهب الشعية المتعددة، ومذاهب التصوف وظهور المصلحين الدينيين الذين يمثلون الثمرة التي أبدعها هذا العصر وكان المسلمون السنة يشكلون غالبية السكان.

أولاً: المذاهب السنية:

لقد حكم السلاجقة بلاد الشام في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري متمثلين بسلطة الخلافة العباسية[1] ولكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على جنوب بلاد الشام حيث تخلوا عن بيت المقدس للفاطميين سنة 489هـ/1096م ثم احتله الصليبيون سنة 492هـ/1092م[2] وفتكوا بالأئمة والعلماء والزّهاد.

وقد تميز الوضع الديني في هذه الفترة في الصراع بين السنة والشيعة[3] وتغير الوضع زمن الزنكيين الذين طهروا معظم البلاد المحتلة من الفرنجة، وأحيوا المذاهب السنية مركزين على المذهب الحنفي اذ جعلوه المذهب الرسمي للدولة[4]. عدا سلطاناً واحداً هو نور الدين أرسلان شاه الذي اتخذ المذهب الشافعي[5]. وقد فضلوا وجود قاضي قضاة واحد في بلاد الشام هو كمال الدين الشهرزوري الذي اسندت اليه بالاضافة الى ذلك أمور الدين والوزارة، وعُلِّقَ عليه تنفيذ الاحكام ويمثله نواب في باقي البلاد[6].

أما في العصر الأيوبي فقد ساد المذهب الشافعي، فكان ملوك الايوبيين جميعاً شافعية عدا الملك المعظم عيسى فكان حنفياً[7] فأصبح المذهب الشافعي مذهب الدولة الرسمي بعد القضاء

---

(1) ابن واصل: م س، جـ1، ص70، ذكر الدعاء والخطبة للخليفة العباسي الذي "حصل له خلافة الله في أرضه".

(2) ابن الوردي: م س، جـ2، ص11.

(3) ابن جبير: م س، 229.

(4) ابن واصل: ن.م، جـ1، ص 74، 75.

(5) ابن الوردي: ن.م، جـ2، ص 130، 131.

(6) ن.م، ن.ص.

(7) ن.م، جـ2، ص 144.

على المذهب الفاطمي[1]. أما في بلاد الشام فقد بقي المذهب الحنفي برئاسة قاضي القضاه كمال الدين الشهرزوري اكراماً له لمنزلته عند مولاه نور الدين زنكي لمساعدته للعوده لبلاد الشام وحكمها بعد أن ضعف امر الملك الصالح، وبعد وفاته احتار صلاح الدين الايوبي الذي كان يطمح لتوحيد مذاهب الدوله في اقليميها مصر والشام[2]وعيّن شرف الدين على قضاء الشام حتى سنة 572هـ/1179م، وكان نائبه محي الدين محمد بن الزكي ثم عين ابنه محي الدين ابي حامد نائباً عن ابيه شرف الدين الذي أصيب بالعمى وبقي حتى 587هـ/1191م. حيث اعاد صلاح الدين الخطبه للعباسيين[3] وعندما جاء المماليك حاولوا احياء الخلافه العباسيه في القاهره مرتين عام 659هـ/1261م[4] وبعد عام بايع أحد أحفاد خلفاء العباسيين احمد الملقب بالحاكم بامر الله امير المؤمنين[5] ليستمدوا منها سلطتهم. ولكنهم اعتمدوا المذاهب الاربعه لزيادة نفوذ قضاة الشافعيه ووقوفهم امام رغباتهم واغراضهم[6] .

وبالنسبه للطوائف الدينيه في منطقة شرقي الاردن فقد كان المسلمون السنه يشكلون غالبية السكان[7]، واكثرهم على مذهب الامام الشافعي وقليل منهم على المذهبين الحنفي[8] والحنبلي[9]، وما زالوا حتى اليوم. وكذلك كان وضع الطوائف الدينيه في فلسطين ايضاً[10].

---

(1) ابن تغري بردي: م س، جـ2، ص 265، ذكر لباس القاضي الشافعي: كالطرحة في المواكب الرسمية والدينية، والموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان.

(2) ابن واصل: م.س، جـ2، ص50.

(3) ن. م: جـ2، ص51 ويذكر ان صلاح الدين اقام المنبر النوري في المسجد الاقصى حيث اعاد الخطبه للخلافه العباسيه في بغداد بعد انقطاعها احدى وتسعين سنه. وانظر: ابن شداد النوادر السلطانيه ص115، 116.

(4) ابن الوردي : م.س، جـ2،ص 213 حيث بايع السلطان الظاهر بيبرس والناس ابي القاسم احمد بن الظاهر با لله محمد بن الناصر عم الخليفه المستعصم با لله اخر والخلفاء في بغداد ولقب بالمستنصر با لله.

(5) السيوطي: حسن المحاضره ،جـ2،ص65.

(6) انظر المقريزي:السلوك،جـ1،ص538،539،والسيوطي حسن المحاضره جـ2،ص99،100.وابن تغري بردي:ن م، جـ7، ص121،122،218.

(7) انظر الملحق عن اعداد السكان موزعين بجداول حسب الطوائف الدينيه.

(8) لقد بنى الامير صرغتمس مدرسة لتدريس المذهب الحنفي في عمّان لنشر المذهب السني المقدسي : احسن التقاسيم ،ص179. ويذكر الدكتور غوانمه : " ان بعض المصادر – ذكرت ان اكثر عمّان شيعه" د. غوانمه : التاريخ الحضاره لشرقي الاردن في العصر المملوكي: ص141.

(9) لقد وجد بعض الحنابله في مدينة حيراص شمالي الاردن بمحافظة اربد اليوم د.غوانمه: ن.م،ن.ص.

(10) المقدسي: ن.م ص199. ذكر مذاهب فلسطين : " وكانوا اهل جماعه وسنه واهل طبريه، ونصف نابلس، وقدس واكثر عمان شيعه ، ولا مكان للمعتزله الا خفيه ، ومعظم الفقهاء شافعيين ومنهم القضاة ، ومنهم الحنفيين".

وأما في بلاد الشام فقد ولّى الظاهر بيبرس القاضي شمس الدين بن خلكان سنة 659هـ/1261م الشافعي. ثم امر بثلاثة نواب له من المذاهب الحنفي والمالكي والحنبلي[1] وكان للحنابلة دور نشيط في بلاد الشام مثل أحمد بن تيمية (ت 728هـ/ 1329م)[2]. وهكذا قضى الظاهر بيبرس على كل الطوائف الدينية الأخرى فأمر سنة 665هـ/1967م بعدم تولية أي قاضٍ أو خطيب أو امام من غير المذاهب الأربعة[3].

وقد انتشرت المذاهب الأربعة عن طريق المدارس وكان القاضي الشافعي في مقدمة قضاة الأئمة الأربعة ويليه الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي[4].

ثانياً: طوائف الشيعة:[5]

لقد ظهرت الشيعة في بعض بلاد الشام كغيرها من العالم الاسلام، منذ عهود الاسلام الاولى، وقد حاول السلاجقة القضاء عليهم وشجع حكم الفاطميين لبلاد الشام التشييع عندما عيّن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره ولي عهده على بلاد الشام[6] فانتشرت الطوائف الشيعية مما أقلق الرحالة ابن جبير عندما زارها عام 580هـ/ 1184م[7].

(1) النعيمي: م س، جـ2، ص11، وابن الوردي، تتمة المختصر، جـ2، ص 217.

(2) محمد ابو زهرة: ابن تيمية حياته وعصره، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات،دار الفكر العربي، القاهرة،1964، جـ1، ص 137.

(3) المقريزي: الخطط، جـ2، ص 100، وابو شامة: ذيل الروضتين، ص 235، ص 236.

(4) والسيوطي: حسن المحاضر، جـ4، ص 166، الصفدي، أعيان العصر (مخطوط)ورقة 6و82و83ومحمد ابو زهرة، ن م،ص137، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 92، وماجد م.س، ص 88، وعبد الوهاب الشعراوي، الطبقات الكبرى، ص 17.

(5) الشيعة: هم الذين شايعوا علياً على وجه الخصوص، وقالوا بامامته وخلافته نصاً ووصية، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عن أولاده إلا لظلم أو تقية من عنده، غير أنهم اختلفوا في تعدية الامامة بعد وفاة زين العابدين بن علي بن الحسين لاختلاف ولديه زيد ومحمد الباقر، انظر احمد شناق: صحوة الخلافة العباسية، رسالة ماجستير سنة 1989م، فصل 5.

(6) انظر كرد علي: خطط الشام، جـ6، ص 252، 258، ابن جبير،م س،ص 229، حيث بدأت في قرية أسعار عند جبل الشيخ زمن علي بن أبي طالب، وقرية زاوية: قرب دمشق، وتدمر وسليمة قرب حماة، وقد انتشرت الطوائف الشيعية في بلاد الشام بشكل اقلق الرحالة ابن جبير حينما زارها 580هـ/1184م، وكان من أهمها الاسماعيلية والنصيرية والدرزية لما كان لها من عظيم الأثر في الحياة السياسية والدينية والفكرية.

(7) ابن جبير،ن م، حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964م، ص 137.

ثالثاً: فرق الصوفية "المتصوفة".

لقد ازدهر التصوف في هذين القرنين، وخرج عن حدود الدين حتى شمل بعض السلاطين والعلماء[1]. وقد استمد التصوف عناصره الأولى من الاسلام حيث اقتصروا في زهدهم على العبادة والتفكير في آلاء الله، وكبتهم لشهواتهم ورغباتهم، ورضاهم من العيش البسيط حتى جاء الفاطميون وحاولوا طبع التصوف بطابعهم فأدخلوا فيه كثيراً من عقائدهم واتجاهاتهم[2] أما صلاح الدين الأيوبي فقد حاول بدوره نشر التصوف السني لطغيان مذاهب الطوائف الشيعية والفاطمية في بلاد الشام، حيث كان يحضر مجالسهم ويستمع لأقوالهم وأناشيدهم على سيرة نور الدين زنكي[3]. وتطور من شكله البسيط الى اسلوب خاص في الحياة الدينية له أماكنه وطرقه، ثم استمر المماليك في الاهتمام بهم ونشر مبادئهم والاعتراف بهم كطائفة دينية مستقلة، فكان شيخ كل طريقة يعين بمرسوم من السلطان ويخلع عليه، وينزل من القلعة في حفل كبير تحيط به أعداد كبيرة من فقراء طائفته[4]، كما قربوا شيوخهم من مجالسهم أمثال شيخ الرفاعية صالح الأحمدي الرفاعي المتوفى سنة 707هـ/1307م في دمشق[5] والذي مازال أتباعه في جنوب بلاد الشام الذي ناظر ابن تيميه أمام السلطان.

ولن يطول بنا الوقت للوقوف عند التصوف السني الذي لم يخرج عن الاسلام وانما نشير الى الطوائف المتطرفة في سلوكها وعقائدها وآرائها لأنها أخذت كثيراً من عقائد النصرانية وغيرها من الغنوصية المعرفية والبوذية كاستعمال السبح في ساعات الخلوة والدعاء[6] والتي مازالت منتشرة بيننا حتى اليوم.

---

(1) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص 119، لقد اعجب بهم وقال: "حيّاهم وبياهم وجمعنا في الجنة نحن واياهم". وابن واصل: مفرج الكروب، جـ1، ص 262-263، ذكر تأثر نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بهم ببنائهما بيتاً منعزلاً من خشب للصلاة والتهجد في أعوام الزلازل. وبنى لهم نور الدين زنكي الربط والخوانق في جميع البلاد، وقربهم من مجالسه لحبه لهم. انظر: ابن جبير ص333، 234، ويقول وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 473.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية ص 77، (قاضي صلاح الدين).

(4) ابن اياس: م س، ص 87.

(5) ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط)، جـ2، ورقة 212-213، ويذكر على أنهم نشروا الاسلام بين التتار الغزاة وخاصة على يد الطائفة الأحمدية مثل ابن هولاكو (لا نوكدار) وزيارة قطلوشاه لشيخ الرفاعية صالح الأحمدي.

(6) نيكلسون: الصوفية في الاسلام، ص 22.

وقد أدىّ هذا التطرف إلى ظهور جماعات المجاذيب أو الدراويش او الحرافيش الذين اشتهروا بافعالهم الغريبة وأزيائهم العجيبة وأقوالهم الكافرة. والذين اشتهر منهم عبد الله الفاقوله الحلبي الدمشقي المتوفى سنة 700هـ/1300م[1]. وقد كفر جماعة من العلماء برئاسة القاضي جمال المالكي كبيرهم الباجريقي هذه الفرق المتطرفة، وحكموا باراقة دمه، ففر الى مصر، وانقطع في الازهر الشريف[2] كما انقسمت المتصوفة الى طوائف كثيرة لكل منها شعارها المميز وطريقتها الخاصة فالرفاعية شعارها اللون الاسود، والأحمدية اللون الأحمر.

ومن أشهر الطوائف المتصوفة التي كان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا العصر القلندرية[3] والعدوية[4]. وعلى ضوء هذا نرجح العوامل التي أدت لنشر مبادئ التصوف بسرعة بين مختلف طوائف الشعب نتيجة للأخطار الخارجية الكبرى التي أحاقت ببلاد الشام، كاحتلال الصليبيين للأماكن المقدسة والثغور الاسلامية وساحله الخصب وتدمير المغول

---

(1) الصفدي: أعيان العصر (مخطوط)، جـ6، ورقة 260، حيث ذكر تركهم للصلاة والفرائض الدينية وأقوالاً شاذة كافرة، كالشيخ علي الحرير الدمشقي، انظر ابن الوردي: م س، جـ2، ص 178.

(2) الصفدي:ن م، ورقة 25-26. كما اعتقدوا أن شيوخهم يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء كالشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ عدي، والشيخ أحمد بن الرفاعي وحياة بن قيس الحراني، انظر: ابن الوردي: م س، حـ2، ص 65، 95، كما أفسدوا حياة الناس بادخال الحشيش في حياتهم فهم أول من اكتشفوه واستعملوه حتى أصبح بحق داء العصر الذي جلبه الشيخ حيدر من خراسان المتوفى سنة 608هـ وانتقل هذا من فارس الى العراق سنة 628هـ عن طريق ملوك البحرين ثم الى الشام فمصر، وغدا موضوعاً شعرياً طرقه المتصوفة في غزلهم الروحي وفضلوه على الخمر.

(3) القلندرية: نسبة الى مؤسسها قلندر يوسف من عرب الأندلس في دمشق سنة 610هـ وتطرفت على يد شيخها جمال الدين محمد بن يونس الساوجي، الذ حلق وجهه ورأسه، كالدركزيني ومحمد البلخي: الذي اعتقد به الظاهر بيبرس ورتب له معاشاً ن س، ص210، ص 211. كما ظهرت الطائفة الحيدرية سنة 655هـ المشابهة للقندرية في معظم سلوكها، حيث كان لبسها الفراجي والطراطير، ويحلقون لحاهم ويتركوا شواربهم على خلاف السنة، ن م، ص218. وقد انتشرت القلندية في بلاد الشام ومصر وسميت نفسها الملامتية وقد طرحوا الادب الاجتماعية فأدخلو الحشيشة، وتهاونوا في الصلاة والصوم والزكاة، ولم يتقشفوا وانما قنعوا لطيب قلوبهم مع الله تعالى، انظر المقريزي: الخطط جـ3، ص 301، ص 3002، 310، وابن الجوزي: تلبيس ابليس ص 363، وابن كثير: م س، جـ11. ص 574.

(4) نسبة الى مؤسسها عدي بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحلم الاموي القريبي المولود في قرية (بيت الغار) من أعمال بعلبك ببلاد الشام سنة 468هـ، وأثنى عليه ابن تيمه بالخير والصلاح ومات بدون زواج، فخلفه أخوه في طريقته صخر بن مسافر وتفرق أولاده في بلاد الشام شمالها وجنوبها ومنهم شمس الدين الحسين بن عدي الذي تحول من مذهب السنة الى مذهب جديد خرج عن الاسلام باعتقادهم بيزيد بن معاوية وتعظيمهم الشيطان لأنه في نظرهم أول الموحدين. إذ لم يسجد لآدم من دون الله وسموا باليزيدية، ولم يعتقدوا بموت الشيخ حسن وقد أصبح عز الدين بن زيد الدين أميراً بدمشق ثم صفد في فلسطين الذي خطط للقضاء على المماليك فاعتقل ومات. وهكذا تحولت لجماعة سياسية لإعادة الخلافة الأموية لأحد أحفاد مروان بن الحكم،انظر: ابن حجر: م س،جـ1، ص 412، المقريزي: الخطط، جـ4، ص 305، 306.

للحضارة بالاضافة للكوارث الطبيعية والأوبئة وما تخللها من غلاء ومجاعات. مما دفع المستضعفين من فقراء ومعوزين الى اتخاذ التصوف سبيلاً ليخفف عنهم مشقة الحياة، وتطورت مذاهبهم حتى أثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية كما ذكرنا.

وهكذا نلاحظ استخدام سلاطين الأيوبيين التصوف كوسيل اساسية بجانب المدارس السنة لمحاربة الدعوة الاسماعيلة في مصر وعملوا على إحياء الخلافة العباسية السنيّة في العراق لمواجهة الخطر الصليبي تحت شعار الوحدة الاسلامية كما مر معنا وذلك لكثرة الفرق الاسلامية شيعاً وأحزاباً.

وقد ازدهرت الحركة الصوفية في شرقي الأردن، ونشطت الدراسات الصوفية حتى ذاعت شهوة علمائهم ومريديهم فَدعُوا للقاهرة لتسليم مشيخة الصوفية هناك[1].

وبعد خضوع فلسطين وشرقي الاردن للخلافة الفاطمية اصطبغ التصوف بمقاصد الشعية وتعاليمهم وكثر الدراويش، وساد اعتقادات باطلة في زعامات التشيع والتصوف من الشيوخ والأولياء وسكان الأضرحة والقباب وخاصة في فترات الحروب الصليبية العصيبة وما تبعها من أوبئة فكان تأثير هذه المحن على عقول الناس شديداً مما افقد الشعب صوابه وهيأت عقليته للأباطيل وتلمس أسباب الركود الى الاستسلام وشاعت الاساطير والخرافات والأوهام عن الأولياء باسم الدين وزعم الكرامات والبركات والمعجزات الخارقة والشفاعات من الرقص على نغمات الدفوف والمزامير والغناء المشبوه للوصول الى الذات الإلهية ورؤيتها حسب زعمهم لاتباعهم، والتي مازال الباحث يشاهدها عند اقربائه من صوفية شرقي الأردن فتصدى علماء أهل السنة في مصر والشام لهذه الأباطيل مما زاد في تيار العداء الصوفي لأهل السنة ولم يفلحوا لأن تيار التصوف اتفق مع سياسة المماليك في اتخاذ الدين سياجاً ظاهرياً لحكمهم للشعب لتقليل نطرته نحوهم لعبيد غرباء فاصيب المجتمع المملوكي وخاصة طبقة الاستقراطية

---

[1] محمد بن علي بن جعفر العجلوني الملقب بِ"العلالي" استدعي لمصر وتسلم مشيخة سعيد السعداء الصوفية في القاهرة، والف "مختصر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي" واختصر "الشفاء" وقرض السيرة النبوية لابن ناهض، السخاوي: م س، جـ8، ص178، ومنهم محمد بن سلامة التوزي الكركي اشتهر في " الأصول والمعقول والتصوف: المقريزي: السوك، ج3،ص913؛ ومحمد بن هلال الباعوني الذي اخذ عن السخاوي والعقلاني والبوصيري: السخاوي، م س، ج10، ص25.

بمرض المعتقدات الباطلة في الأولياء والمشايخ الذي ورثوه عن الايوبيين[1] والذي ساعدت البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على انتشاره[2] بالاضافة للعامل الأصلي غير المباشر المتمثل في الجهل الذي أدى للانحراف الفكري بينما نعتبر العوامل الأخرى ثانونية.

وقد أفلح الشيوخ في السيطرة على عقولهم وايهامهم بقدرتهم على الكشف عن الغيب والإتيان بالخوارق[3] فركن إليهم الحكام التماساً للرضا والنفع.

وهكذا توثقت علاقة السلاطين والأمراء[4] بمريديهم من الشيوخ للتبرك بهم[5] فأثر ذلك في سياسة الحكام ظاهرياً حيث اتفقت مع اساليب الصوفية في الزهد بالحياة ليفرضوا على رجال الدين من المشايخ والفقهاء والفقراء الحرمان والقناعة في الفقر وليصرفوا نظرهم عن حياة النعيم والبذخ والترف التي يستمتع بها الحكام والأمراء[6] وتمادوا في سياسة التستر هذه حتى إن بعض السلاطين اختار القضاة من الزاهدين الذين يفضلون الفقر على الغنى مما دفعت هذه السياسة بعض الشيوخ لاسلوب النفاق بادعاء الصوفية والولاية للتقرب من السلاطين طمعاً في المناصب[7]. لذا استطاع السلاطين توجههم للدعاء للسلاطين وآل بيته وكشف الكرب عنهم مقابل الأجور والرواتب العينية[8] هذا بالاضافة الى سيطرة المعتقدات الصوفية على تفكير السلاطين وعقولهم حتى انهم اصبحوا يخافون من كراماتهم[9] بل ويتسابقون للحصول على

(1) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، جـ1،دار المعارف بمصر 1968، ص 197، فقد ذكر أثر الأحداث التي ألمت بالعالم الاسلامي من هزائم عسكرية وظلم وكوارث طبيعية منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والذي أدى للأحساس باليأس والتذمر والضياع فلجاوا للزهد أملاً في الوصول لدار الخلود في الآخرة بعد أن خسروا دنياهم فهروبوا بوجدانهم للعالم الآخر لنسيان واقعهم المر والغيب عن الوعي للعالم الآخر مما مهد لنشوء الصوفية في هذه الظروف المناسبة التي نفذت الى القلوب وانتشرت مع وسيلة الغياب عن الوعي بالحشيش بين الفقراء، ن.م، ص 197، 198. وسعيد عاشور:المجتمع المصري، ص 36، ومحمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي، جـ3، ص147.

(2) سعيد عاشور: م.س، ص 235، محمد فهمي عبد اللطيف، السيد البدوي، دولة الدراويش في مصر، ص 112.

(3) محمد زغلول سلام: م س، جـ1، ض 193.

(4) ن.م، ص 170، وعبد الرحمن الشرقاوي، ابن تيميه الفقيه المعذب، ص 127.

(5) زغلول سلام: ن.م، ص 127، 130، 182.

(6) محمد فهمي عبد اللطيف:م س، ص 154. وزغلول سلام،م س، ص 193. 201.

(7) محمد فهمي: ن.م، ص 194.

(8) المقريزي: السلوك، جـ1، ص 475، ق3، ص 849.

(9) ابن تغري بردي: م.س، جـ7، ص 162، 176، والسيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص 299، وابن شاكر الكتبي، م س، جـ1، ص 299، محمد زغلول سلام،م س، جـ1، ص 22، ص 193. وعبد الرحمن الشرقاوي، م س، ص 127، "وكان الظاهر بيبرس يزور السيد البدوي ويقدسه وتبرك به، انظر: محمد فهمي عبد اللطيف، م س،ص 50.وكان السلطان حسام الدني لاجين (696-698هـ/1298-200م) يعتقد في كرامات قاضي ** تقي الدين بن دقيق العبد علي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص297، وكذلك اعتقد بالشيخ تقي الدين رجب العجمي المنجي صاحب زاوية تحت قلعة الجبل، السلوك: جـ2، ق1،ص 141، وكان حرمة خاصة عند الحكام، وكذلك كان للشيخ جلال الدين ابراهيم بن محمد القلاعنس (ت 722هـ) ن.م، جـ2،ص238. وانظر للمزيد: ابن حجر: م.س، جـ2، ص 66، وابن تغري بردي،ن م، جـ11، ص 13، وقد رُوي أن الظاهر بيبرس (658-676هـ/ 1260-1277م) رأى في منامه أن الامام الشافعي يهدده بقوله: "لأعزلنك وذريتك الى يوم القيامة، وكان الظاهر بيبرس جَعَلَ الائمة أربعة، ففرق كلمة المسلمين.وانظر علي ابراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية،ص297.

خرقة جلس عليها الشيخ واستعملها[1] بل وقسمّ بعض الأمراء هذه الخرقة ليحتفظ كل منهم بنصيب منها لجلب البركة[2]. وكان من ازدياد اهتمام سلاطين المماليك بمذهب التصوف أن يعينوا شيوخاً لهم كما فعل المنصور قلاوون عام 684هـ/1286م. كما زاد اعتقادهم في قدرتهم على شفاء المرضى[3]. حتى أن بعض السلاطين منع شيوخ السنة، معارضة أفكار الصوفية من ذوي الكرامات[4] لأن السلطان أصبح من مريدي الشيخ الصوفي[5]، فانتشرت زواياهم ورباطاتهم والخانقاوات المخصصة لهم وأماكن العبادة لايواء فقرائهم والنفقة عليهم[6] هذا بالاضافة الى اعتقاد نساء السلاطين والأمراء وكبار الدولة في الاولياء حتى قصورهم بالهدايا والنذور[7].

وهكذا نرى ان سيادة هذا الاعتقاد ناجم عن قصور الفكر والجهل وضعف العقيدة الدينية عند المماليك حتى ان بعض المماليك شطح بادعائه النبوة فقتل[8] مما سبب اضطراباً سياسياً لتنبؤ شيوخ الصوفية بعزل سلطان ومجيء غيره بالاضافة لنتائج المعارك[9].وبالاضافة للصوفية فقد كان هناك مذهب الشيعة والدروز كما شهد العصر الأيوبي التحول من المذهب الرافضي الشيعي[10] الى المذهب السني فبالنسبة للشيعة فلا يتسع المجال هنا للحديث عنها وانما

---

(1) المقريزي:ن م، جـ1، ق3، ص 849، ابن تغري: م.س، جـ11،ص 322.

(2) المقريزي: ن م، جـ1، ق3، ص 894. وابن الفرات: م.س، جـ3، ص29-30

(3)فقد ذهب السلار المنصور قلاوون (676-689هـ/ 1279-1290م) مع جمع من الفقراء إلى الشيخ الصوفي محمد المرجاني عندما مرض ابنه الصالح (ت 687هـ) المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص 744. فوزع عليهم المنصور خمسة آلاف درهم مقابل دعاءهم، ولكنه عاتبهم بعد وفاة ابنه المريض فأجابوه: "بأنهم طلبوه، ووهبهم الله اياه ألا يدخله النار، ويدخله الجنة، فسكت السلطان". المقريزي: ن.م، ص 645، زغلول، م.س، جـ1، ص 194. كما اعتقد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه شفي من مرضه ببركاتهم فوزع الاموال على الفقراء والصوفية. انظر : عبد الرحمن الشرقاوي، ابن تيمية الفقيه المعذب، ص 182، وكذلك فعل الظاهر بيبرس عندما مرض: المقريزي: السوك، ن م، جـ1، ق2، ص 538.

(4) عبد الرحمن الشرقاوي، ن.م، ص 159-127.

(5) ابن حجر، م س، جـ1، ص 449، جـ2، ص 66، جـ5، ص 165. قال: "أو هكذا كانوا معهم لتعلق الأفئدة بهم". وانظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب. جـ5، ص 347.

(6) محمد زعلول سلام، م س. جـ1، 193.

(7) انظر ابن حجر: م.س، جـ2، ص 313، ومحمد فهمي عبد اللطيف، السيد بدوي، ص 85.

(8) ابن تغري بردي: م.س، جـ9، ص 250، ذكر اسمه، وهو سيف الدين قبغا مملوك ركن الدين بيبرس التاجي، المتوفي 720هـ.

(9) ابن حبيب (ت 779هـ/ 1377م)، م.س، جـ2، ص 104.

(10) بالنسب للشعية انظر: احمد شناق، صحوة الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة 1989م، ص. وكانت الشيعة حوالي ثلاث وسبعين فرقة كان أهمها شيعة الامامة.

يهمنا منها الاشارة الموجزة الى أهم فرقها التي أثرت في الأحداث السياسية كالشيعية الإماميـة[1] والاسماعيلية والنزارية والدروز في جنوب بلاد الشام وذلك لعلاقتهم بالصليبيين هذا وقد انتشر مذهب الشعية في جبال لبنان وجنوبي فلسطين كصفد وغيرها.

فبالنسبة للدروز[2] فقد انتشروا ما بين ولاية صفد شرقاً وولاية عكا غرباً حيث كانوا يشكلون غالبية السكان[3] وهم فرقة من الشيعة الدروز، الذين انتشروا في حوران جنوب دمشق وجبال لبنان.

وبالنسبة للدروز في زمن المماليك فقد نزحوا من منطقة كسروان في لبنان عندما هاجمها المماليك عام 699هـ/ 1300م وعام 705هـ/ 1305م حيث أجلتهم عساكر المماليك واسكنوا مكانهم عناصر كردية وتركمانية[4]. وقد حاول بعض سلاطين المماليك ارجاعهم الى مذاهب السنة عندما حاول الاشرف خليل بن قلاوون أن يفرضها عليهم بالقوة، وبنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 717هـ/ 1319م في كل قرية من قراهم ليرجعهم الي مذاهب السنة ولكنهم استمروا على معتقداتهم[5].

أما بالنسبة للأسماعيلية النزارية "العدنانية" في بلاد الشام في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فقد حاربهم صلاح الدين الأيوبي وكذلك السلطان الظاهر بيبرس

---

(1) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 211. "... والشعية الامامية هم الذين يعتقدون بأن الامام يجب أن يكون من بيت النبي، وعليه فالاختيار محصور في ذرية علي وفاطمه، ويذهبون أن علياً قد نُصِّب إماماً بنص أعلن عند غديرخم، والامامة وراثية في ذريته، وينحصر الاختيار فيمن يبايع منهم بالامامة، وهناك فرق أخرجت ذرية الحسن من الاختيار لتزوجه من احدى بنات يزدجرد الثالث، آخر ملوك الساسانيين، وقالت بحق ذرية الحسين وحده في الامامة، ويرون أنه يجب على الإمام أن يعرف خلفه وأن يعينه.

(2) والدرزية: حركة مذهبية ظهرت في زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (386هـ/ 960م) على يد حمزه بن علي بن احمد، ومحمد بن اسماعيل درزي، ويعتقد بأنهما من أصل فارسي، وبالنسبة لاعتقادهم فقد ارتدوا عن الاسلام باعتقادهم ان الحاكم بأمر الله كان آخر من تجسد فيه الله، وينكرون وفاته، وأنه لم يتوف بل استتر ليظهر يوماً ما، وكان انتشار هذا المذهب في بلاد الشام على يد محمد بن اسمعايل درزي عام 413هـ/ 1020م حيث قدم اليها وقام بنشر مذهبه الجديد. دائرة المعارف الاسلامية، الدروز، جـ9، ص 214-219.

(3) شيخ الربوة: ن.م، ن ص.

(4) الدوادار: زبدة الفكرة، ورقة 147، مخطوط. والمقريزي: السلوك، جـ1، ص 902-903.

(5) حتي: م.س، ص 259. Zideh, Urban life, p. 46

هذا وقد وصف شيخ الربوة بعض معتقداتهم المخالفة لأهل السنة فقال: "... وهم قوم دهرية حلولية يكذبون الرسول، وينكرون الشرائع، ويعتقدون التناسخ، وأن لا بعث ولا نشور، ... ويعتقدون أن الحاكم بأمر الله ظهر مظهر الاله، ويشربون الخمرة، وينكحون المحارم ولا يغتسلون من جنابة، ويزرعون الحشيشة المسكرة في قرية الزابود" انظر شيخ الربوة: م س، ص 211.

Lewis "An Arabic Account", p. 485. Ziedeh, Urban life, p. 46.

المملوكي وسيطر عليهم المماليك أكثر من الأيوبيين[1] فاخضعوهم للسلطة المركزية بمصر حيث فرضوا عليهم جزية مائة ألف درهم لحمايتهم وأصبحت حصونهم العذارية في الثغر ومصياف والكهف والقدموس تخدم نيابات الشام مما جعلنا نطلق عليهم تسمية شيعة مصر المملوكية[2].

والخلاصة أن المذاهب السنية هي التي انتشرت في بلاد الشام لجانب أقليات من الشيعة وخاصة فرقة الاسماعلية الشامية أو الاسماعيلة النزارية[3] هذا بالاضافة لمذاهب أهل الذمة التي ورد ذكرها في السابق[4]. وتجدر الاشارة هنا الى علاقتهم مع الصليبيين حيث تحالفوا معهم في بعض الأحيان ضد المسلمين وقتلوا بعض أمرائهم أحياناً أخرى[5].

وقد برز من قياداتهم في بلاد الشام راشد الدين سنان لأكثر من ثلاثين عاماً (561-591هـ/ 1166-1193م) حيث نافس القيادة الرئيسية في قلعة ألموت في بلاد فارس وأوجد مذهباً في الشام عرف بالسنانية خلال عصر الحروب الصليبية[6]وقد لاحظ ذلك بنيامين التطيلي بنفسه أثناء زيارته لجنوبي بلاد الشام.

ويلاحظ أنهم لعبوا دوراً بالغ الخطورة في اضعاف الجبهة الاسلامية ضد الغزو الصليبي كالصراع التيار الشيعي حيث شكلوا فرق اغتيالات متطرفة ارهابية بتصفية المعارضين لها جسدياً ولإرهاب الآخرين بالقوة المسلحة، فيكونوا قد قدموا خدمة كبيرة في تبديد طاقات المسلمين في مجال الصراع المذهبي.

---

(1) وقد استعان بهم الملك الناصر الأيوبي (648-659هـ/ 1250-1260م) لاغتيال أعدائه مقابل المال، فقد كان يحصل على الفدائي منهم يحصل على ديته مقدماً فالدية له وإن أصيب فلولده، حيث كانوا يحملون سكاكين مسمومة: ابن بطوطه، م.س، ص 56.

(2) ن.م، ن.ص، القلقشندي، م س، جـ4، ص 179، جـ13، ص 245، وابن خلدون،م س، بيروت 1968، ص 209.

(3) القلقشندي، م.س، جـ13، ص 226، وجوزيف نسيم، م س، اسكندرية، 1971، جـ13، ص 226، كما تناول ذكرهم الرحالة: بنيامين التطيلي الذي تناول صراعهم مع الصليبيين وأمير طرابلس حيث كانوا يقتلون الملوك والأمراء اذا لزم الأمر ذلك. د. محمد مؤنس احمد عوض: الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس ما بين (1099-1187م) مكتبة المدبولي، ميدان طلعت حرب-القاهرة، 1992، ص 163. كما ذكر ابن جبير: م.س، ص 229 "... انهم يطيعون شيخهم طاعة كاملة وإذا أمر أحدهم أن يتردى من شاهقة الجبل لفعل".

(4) فبالنسبة لليهود: فكانوا القرائين الربانين والسامرة وبالنسبة للمسيحيين فكانوا الارثوذكس، والكاثوليك والبروستانت.

(5) فقد اغتالوا رايموند الثاني أمير طرابلس Raumond II of Tripolis عام 1152. برنارد لويس، م.س، ص 126، اسامة زكي: الصليبيون واسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن 6 هـ/ 12م)، ط، الاسكندرية، 1980، ص 220. وعاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص 1306، كما اغتالوا كونراد المنتفرتي (Conrad Montferrat) عام 1129 ابن قدامة، م.س، ص 208، العماد الأصفهاني: م.س، ص 589. ابن الأثير: م س، جـ12، ص 27، Jacques de vitry, History of Jerusalem, pp. 116-117

(6) شيخ الربوة: م.س، ص 208، ذكر أن أتباعه اعتقدوا في غيبته في حصن الكهف ورجعته كالشيعة الاثني عشرية الذين اعتقدوا بغيبة الامام محمد بن الحسن العسكري بعد ان اختفى في سُرّ من رأى (سامراء) وابن العديم: سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس ص260، 261، سبط ابن الجوزي، م.س، ص 419. وابن تغري بردي، م.س، جـ6، ص 117.

المؤسسات الدينية الثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي

أولا: المساجد في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي

لقد كثر عدد المساجد في العصر المملوكي لتنافس بعض السلاطين والأمراء في ذلك لكسب الثقة والتأييد الشعبي باعتباره دار العبادة للمسلمين وقد أقيمت المساجد في وسط المدن الاسلامية لاعتبارات وظيفية لتسهيل وصول السكان اليها فكانت جميع الشوارع والأروقة تنتهي عند المسجد كما يصعب علينا حصرها لكثرتها، لذا سنذكر بعض أسماء المساجد الهامة في المدن والقرى حيث كانت موزعة على الأسواق والأحياء والمدارس والخوانق والقلاع والترب ومن أهمها في مدينة غزة: جامع الشمعة، وجامع الشيخ عبد الله الأيبكي -وهو من مماليك عز الدين ايبك ومدفون بجانبه- وهناك الجامع الكبير أكبر جوامعها حيث تدل نقوشه على الزيادات التي أضيفت لهذا الجامع(1). ومسجد الزاوية الاحمدية نسبة الى احمد البدوي (ت 675/ 1277م) مؤسس الطريقة البدوية في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومسجد الطقزدمري عام 1365/767(2). كما عقدت بعض المجالس في المساجد لمناقشة بعض الأمور بحضور القضاة والحاجب وغيرهم(3).

ومن المناسبات الاجتماعية التي كانت تقام فيه مناسبة الافراح والأحزان سواء كان ذلك لعقد الزواج أو تقديم العزاء(4) بالاضافة لكونه ملجأ للناس في حالات الكوارث والملمات كبيت من بيوت الله يضفي على قلوب الناس الطمأنينة والراحة النفسية باللجوء الى الله تعالى.

أما دور المسجد الثقافي في بلاد الشام في العصر المملوكي فكان نشر الثقافة والعلم في المجتمع الاسلامي في بداية العصر المملوكي كما أدىّ الى زيادة عدد المدارس واستقلالها عن

---

(1) عطا الله: نيابة غزة، ص 228.

(2) الطقزدمري: شهاب الدين ازفير بن الطقزدمري نائب دمشق حتى سنة 747/ 1346م. عطا الله: ن م، ص 237.

(3) ابن طولون (شمس الدين محمد)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) تحقيق محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962، ق1، ص 8.

(4) ابن شاكر (محمد): عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داوود، دار الرشيد للنشر، 1980م، جـ20، ص 350. سيشار له فيما بعد هكذا: ابن شاكر: عيون التواريخ وابن طولون: مفاكهة الخلان. ق1، ص 147.

المسجد لتراجع دور المسجد الثقافي لاقتصاره على العلوم الدينية واللغوية والكلامية حتى انحصر بعضها في تدريس بعض المذاهب[1] كالمسجد الأقصى الذي اشتهر بمجالاته العلمية[2].

ومن جوامع صفد المملوكية، الجامع الظاهري أو الجامع الأحمر، نسبة الى بانيه الظاهر بيبرس عام 664هـ/1266م، عند فتحها حيث أصبح دار العلم الأولى فيها[3] كما أنشأ أيضاً جامعاً في قلعتها في نفس العام، ومنها جامع الأمير نجم الدين فيروز قبل عام 727هـ/1326م هذا بالإضافة الى عدد كبير من المساجد في قرى صفد[4] وفي شرقي الأردن وُجد عدة مساجد في مدينة عجلون يعود قسم منها للعصر الأيوبي وزاد عددها في العصر المملوكي[5].

ومن المعروف أنّ هناك نوعين من المساجد، النوع الأول المسجد الجامع لاقامة خطبة وصلاة الجمعة، بينما كان النوع الثاني المسجد الذي يقتصر عمله على آداء الصلوات.

هذا وقد اعتمدت المساجد في نفقاتها على أوقاف السلاطين والأمراء والموسرين من أهل الخير، لأن الدولة لم تكن مسؤولة مباشرة عن بناء المساجد ولكنها كانت تصدر مراسيم تعيين الأئمة والخطباء فيها لربطهم بالولاة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

وكان مقدار الوقف يتفاوت من مسجد لآخر حسب عدد العاملين به والخدمة الاجتماعية والثقافية التي يقدمها، فكان من أوقاف جامع غزة للسلطان قايتباي دكاكين العنصرية، فرن خبز، قرية سامرية، وقرية صميل في الخليل[6] ومن الموظفين الذين قاموا بخدمة المساجد، ناظر

---

[1] عبد الله الوشيلي، المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية، مؤسسة الرسالة، مكتبة الجيل الجديد، بيروت، 1988، ص 75.

[2] السخاوي :شمس الدين محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، م1، جـ2، ص 157-158، د. كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع الثقافية، عمان 1981، ص35-36، سيشار له: العسلي، معاهد العلم.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض 1976، ص 26، الطراونه، مملكة صفد، ص 259.

[4] الطراونه:م س، ص 260-261.

[5] د.يوسف غوانمه: المساجد الاسلامية القديمة في منطقة عجلون منشورات مركز الدراسات الاردنية، جامعة اليرموك، 1986، ص 48.

[6] أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين: تحقيق محمد ابشرلي، محمد داوود التميمي، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، استانبول 1982،ص14.

المسجد[1] والامام[2] والخطيب[3] والمؤذن[4] وقيّم المسجد[5]، ومازالت هذه الوظائف قائمة حتى اليوم.

ومن مساجد جنوب الشام الكبرى المسجد الأقصى بالقدس الذي لعب دوراً هاماً في التاريخ الاسلامي وأعاد بناءه الوليد بن عبد الملك الأموي فيما حوّل الصليبيون قبة الصخرة الى كنيسة والمسجد الى سكن لملوكهم لمدة تسعين عاماً[6] حتى استرده صلاح الدين الأيوبي بعد موقعة حطين 583هـ/1187م فعاد ليتبوأ مكانته في نواحي الحياة المختلفة بعد ترتيب أموره من حيث الاوقاف والامام والخطيب والمؤذن والمصاحف وربعات منصوبه على كراسي[7].

ومن الملاحظ أن مدينة بيت المقدس كانت من الوسائل التي استخدمها الأيوبيون في صراعاتهم على السلطة مما كان له أثر كبير على سير عمل المسجد الأقصى في أداء رسالته الدينية والفكرية بينما عاد هذا الدور الرائد في العصر المملوكي للنهضة العلمية في القدس وبلاد الشام والعالم الاسلامي.

---

(1) ناظر المسجد: المسؤول عن شؤونه الادارية والمالية وما يحتاج اليه من تصليح وترميم، ص 14، فقد كانت هذه الوظيفة مربوطة بنائب المدينة كالمسجد الأقصى ثم أصبحت بيد قاضي القضاة الشافعي، القلقشندي: صبح الاعشى، جـ4، ص 198، رشاد الامام: القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976، ص 104، سيشار فيما بعد هكذا: الامام القدس.

(2) الامام: الذي يؤم بالمصلين في أوقات الصلاة وكانت توليته من قبل السلطان أو من الواقف أو الناظر أو قاضي القضاة عندما تتوفر فيه الشروط اللازمة من حفظ القرآن وعلمه بأحكام الصلاة. القلقشندي:ن م، جـ11، ص 223، حسن الباشا: الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، 1965، جـ1، ص 108، سيشار له فيما بعد هكذا: الباشا: الفنون الاسلامية وابن الأخوة (محمد بن محمد القرشي): معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوي، مطبعة دار الفنون، كمبرج، 1937،ص137، وسيشار له فيما بعد هكذا: ابن الأخوة: معالم القربة، ورشاد الامام.

(3) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، م1، جـ2، ص 191، الباشا: ن م، جـ1، ص 480-485.

(4) المؤذن: الذي يدعو للصلاة و يتميز بحسن الصوت وجودة الأداء. والحنبلي: ن م، م1، جـ2، ص192. الباشا: ن م، جـ2، ص 1163-1164. د.غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص 42.

(5) قيّم المسجد: خادمه المسؤول عن نظافته وإشغال قناديله ليلاً واغلاق أبوابه عقب الصلاة. ابن الاخوة:ن م،ص 172، الباشا:ن م، جـ1، ص 446.

(6) احمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، ص 27، سيشار له فيما بعد هكذا: بدوي: الحياة العقلية.

(7) ابن ايبك (ابو بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع الغرر، جـ7 والدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، ص 90. سيشار له فيما بعد هكذا: ابن ايبك: الدر المطلوب، وبقي نظام المسجد الاقصى ساري المفعول حتى بعد تسليم السلطان الكامل الأيوبي (615-635هـ/1217/1237م) مدينة القدس للصليبيين حيث كان ذلك ضمن الشروط معهم. ابن ايبك: ن م، ص 292 وكذلك بعد تسليمها للصليبيين زمن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق عام 1243/641 لكسب مساندتهم ضد الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر.

ويتكون المسجد الأقصى من عدة أقسام، فالجامع الذي في صدر المسجد عند القبلة تقام به صلاة وخطبة الجمعة وهو المشهور بالمسجد والاقصى الذي يتكون من بناء كبير به قبة مرتفعة تحتها المنبر والمحراب ويمتد من جهة القبلة الى الشمال[1] ومن جهة الغرب يوجد بصحن المسجد جامع المغاربة لاقامة صلاة المالكية[2] أما قبة الصخرة المشرفة فتقع في وسط المسجد على الصحن الكبير تعلوها قبة[3] ومن القباب المشهورة قبة السلسلة شرقي الصخرة، وقبة المعراج عن يمين الصخرة التي يقصدها الناس للزيارة، وقبة سليمان، وقبة موسى[4] ومن زواياه المشهورة:الزاوية البسطامية اسفل الصخرة في غربها نسبة الى الفقراء البسطامية الذين كانوا يجتمعون فيها للذكر واغلقت في أواخر العصر المملوكي والزاوية الصمادية شمال البسطامية أغلقها المماليك أيضاً في اواخر عصرهم[5]. وله أربع مآذن مُضاءة:- الأولى من جهة القبلة على مقدمته والثانية على الباب الغربي للمسجد -وهي المئذنة الرئيسية- من بناء الأمير تنكز نائب الشام، والثالثة من جهة الشمال خلف المسجد المسماة مئذنة الغوانمه لقربها من باب الغوانمه، بناها القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب الوزير فخر الدين الخليلي، والمئذنة الرابعة شمال المسجد بين باب الاسباط وباب حطة بناها قطلوبغا ناظر الحرمين[6].

وللمسجد عشرة أبواب مشهورة هي: بابان في الشرف وباب بقربهما من جهة القبلة، وأربعة أبواب في الجهة الشمالية هي باب الأسباط في مؤخرة المسجد وباب حطة وباب الدوادارية وثلاثة أبواب في الجهة الغربية هي باب السلسلة والمغاربةوالقطانين[7]. واعتمد المسجد على آبار المطر في تزويده بالماء اللازم حيث بلغ عددها أربعة وثلاثون بئراً بلغ عدد فوهاتها الى نيف وأربعين فوهة لكفاية رواد المسجد[8].

---

(1) ابن بطوطه: م س، ص 58، مجير الدين الحنبلي: م.س، م1، جـ2، ص 11.

(2) ابن جبير: م س. ص239، مجير الدين: ن.م، م1، جـ2، ص 15، لانه يقع بجانب حارة المغاربة.

(3) مجير الدين الحنبلي، ن.م، جـ2، ص 16.

(4) ابن جبير: م س، ص 238، ومجير الدين الحنبلي، ن.م، جـ2، ص16-17، 21، 19.

(5) مجير الدين الحنبلي، ن م، جـ2، ص 23.

(6) ن.م، م1، جـ2، ص 27-31.

(7) ن.م، جـ2، ص 33.

(8) ن.م، ن.ص.

وكان مصدر الاضاءة فيه ليلاً القناديل التي بلغ عددها سبعمائة وخمسون قنديلاً، بالاضافة الى خمسمائة واربعين قنديلاً في قبة الصخرة وحولها، ويزداد عددها في المناسبات الدينية الشهيرة كليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان، وليلة المولد النبوي الشريف، والنصف من شعبان حتى يبلغ عددها عشرين ألف قنديل[1].

وقد اشار مجير الدين الحنبلي الى طريقة الصلاة فيه وحوله حسب مذاهب الائمة الدائمين فيه: فكان أولهم إمام المالكية: الذي يؤم المصلين في الجامع الواقع غربي المسجد من جهة القبلة ثم يصلي من بعده امام الحنابلة بالرواق الغربي خلف منارة باب السلسلة من جهة الشمال بالاضافة الى بعض الائمة المؤقتين لصلاة التراويح في شهر رمضان[2]. هذا بالاضافة للمدرسة والمعيدين والخدام والمؤذنين والقراء فهم كثيرون جداً[3].

---

(1) مجير الدين الحنبلي، ن م، م1، جـ2، ص 33.

(2) ن.م، ن.ص.

(3) ن.م، ن.ص

دور المساجد الاجتماعي والثقافي في الحياة العامة

يحتل المسجد في قلوب المسلمين مكانة وشرفاً عظيمن بصفته بيت اللـه وارتباطه بتعاليم الاسلام وتطبيقاته من حيث كونه داراً للعبادة، لتوجيه الناس ايمانياً ومادياً ومركزاً للنشاط الديني والاجتماعي فهو مركز لاجتماع أهل البلد[1]يومياً في المناسبات الدينية، بالاضافة لايوائه الفقراء المحتاجين حيث كانوا يستفيدون من ريع الوقف المخصص للمسجد[2]حيث وجد في جامع الخليل (الحرم الابراهيمي) وقف برسم الواردين عليه شمس ضيافة الخليل[3] .

وبقي المسجد كذلك حتى جاء الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260/1278م) فمنع الفقراء من الايواء إليه حيث أمر باغلاق المساجد في أوقات الصلاة، فأنكر عليه بعض الفقهاء ذلك[4]. هذا وقد أدى المسجد وظيفة سياسية أخرى كمكان لإعلان مراسيم السلطان[5]، واجتماع كبار العلماء[6].

---

(1) ابن جبير: م س، ص100.

(2) سالم: طرابلس الشام، ص 475، نص وقفية جامع طينال في طرابلس.

(3) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1462م، ص 241.

(4) ابن عبد الظاهر:م س، ص 263-264.

(5) المقريزي : السلوك، جـ1، ق4، ص895. غوانمه: المساجد الاسلامية، ص 60-61.

(6) مجير الدين الحنبلي:م س، م1، جـ2، ص 300.

المؤسسات الصوفيّة في بلاد الشام

" الخوانق، الربط، الزوايا"

تمهيد :

لقد ظل إهتمام الصوفية[1] منذ القرن الثاني للهجرة وحتى القرن السادس والسابع الهجريين بأمور الذين زاهدين في الدنيا مع وجود بعض الإنحرافات في سلوكهم[2] وجاءت الظروف الملائمة لإنتشار الحركة الصوفية في العالم الإسلامي نتيجة للظروف السياسية والغزو الأجنبي المغولي وبقايا الصليبيين في أطراف بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجري علاوة على سوء الأوضاع الإجتماعية من فقر ومرض ووباء مع الأحساس بضياع العنصر العربي، كل هذا أدى لردة فعل معاكسة نتيجة للإحباط واليأس من مواجهة هذا الواقع المؤلم حيث لجأوا إلى دينهم وتركوا أمور الدنيا كوسيلة للهرب من الحقيقة وعجزهم عن التصدي للأحداث وإنهيارهم النفسي[3] وتوالي إنتشار التصوف لأسباب دينية زمن الزنكيين والأيوبيين[4] وذلك لتشجيع التصوف للقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام. وتقوية روح الجهاد لمواجهة الخطر الصليبي حيث شجع صلاح الذين الأيوبي الصوفية بانشائه الخوانق والربط والزوايا.

وسار المماليك على نهج أسيادهم الأيوبيين من حيث إهتمامهم بالصوفية مؤسساتها فزادت الخوانق والربط والزوايا بفضل السلاطين والأمراء والأغنياء الذين أغدقوا عليها من أموال وأوقاف محبوسة لصالحها كالظاهر بيبرس[5] الذي بنى له زاوية بالقدس وغيرها من مدن

---

(1) لقد إختلفت آراء الباحثين والمؤرخين في تفسير كلمة صوفي. وكان أقربها إلى الصحة ما أشار إليه السهردوري وإبن خلدون بأن كلمة صوفي مشتقة من الصوف لباسهم الدائم بخلاف ملابس الناس الفاخرة.
السهردوري (عبد القادر بن عباله: عوارض المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، 1966، ص59، إبن خلدون: المقدمة،ص467

(2) الأدفوي (كمال الذين أبو الفضل، جعفر بن ثعلب المصري ق 1347/748
الموفي بمعرفة التصوف والصوفي حققه وقدم له وعلق عليه: محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت، 1988 ،ص5،سيشار له فيما بعد: الأدفوي: الموفى.

(3) الأدفوي: ن م،ص5، والسبكي: معيد النعيم، ص67،119.

(4) إبن قاضي شهبة: الكواكب: الدرية، ص38، عمر موسى باشا:م س،ص102.

(5) الأدفوي: ن م، ص6 وإبن العماد الحنبلي: شدرات الذهب في أخبار من دهب تحقيق لجنة أحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديده، بيروت م3، ص351-352 سيشار له فيما بعد: إبن العماد الحنبلي: شذرات الذهب.

الشام. وأصبحت زمن المماليك ملاذاً لكل طالب راحة لتوفر الطعام والشراب واللباس فازداد عدد المنتسبين إلى الصوفية وأصبحوا نموذجاً للتطفل والفضول[1] مما أدى لتصدي الفقهاء والعلماء لبعض أفكارهم كابن تيميّة الذي هاجمهم بشدة[2] وحاربوا قولهم بالحلول والإتحاد والتناسخ وإعتبروا كفرةً مهدوري الدماء مما دفع علماء الصوفية لتكوين فرقاً وأحزاباً لها مبادئها وأصولها وأشياخها وأبناؤها فتكونت الفرق الصوفية في بلاد الشام[3] كالفرقة القادرية[4] والرفاعية[5] والوفائية[6] والقلندرية[7] والنبوية[8] .

أما الفرق المتجولة فكانت اليونسية[9] والأحمدية والحيدرية وبعض الفقراء البسطامية في القدس في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي[10].

---

(1) إبن شاكر: عيون التواريخ، ج21،ص145.

(2) أبن الوردي: م س، ج1، ص289.

(3) أبن شاكر: فوات الوفيات، ج2، ص445، ورمضان: مجتمع بلاد الشام،ص155.

(4) أسسها عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ/1166 في بغداد وإنتقلت إلى بلاد الشام عن طريق محمد البطائحي .
J. Spencer , Trimny hame, the Sufi orders in Islam, oxford , Carendan press, 1971, P.14. Ziadeh, Urban life , P162

(5) ابتدأت في جنوب العراق في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وكان لها زاوية في القدس باسم الزاوية الرفاعية
I.spencer :Ibid, p.14, ziadeh, Ibid,p.162.

(6) إنتشرت في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي وكان لها زاوية في القدس .Ibid, p.163.

(7) أصلها فارسي ولها زاوية في القدس، وكان أول ظهورها في دمشق عام 1213/610 م..Ibid, p.163.

(8) أصلها من الشام Ibid: p. 193.

(9) نسبة إلى مؤسسها يونس الشيباني: العسلي:وللمزيد من المعرفة انظر: العسلي: معاهد العلم.

(10) Ziadeh , Urban life , P 163

الخوانق[1] والربط[2] والزوايا[3] في جنوب بلاد الشام

لقد كثرت الخوانق والربط والزوايا في مدن جنوب بلاد الشام الرئيسية في العصر المملوكي إلى الدرجة التي لانستطيع إحصاءها كمظهر من مظاهر التصوف، فكان في مدينة القدس 19 زاوية وخانقاتان و8 ربط[4] وفي مدينة الخليل كان هناك 23 زاوية و3 ربط[5]. وكان يدير الخانقاه الصلاحية في القدس شيخ الخانقاه الذي يعينه السلطان كمدير[6] وعليه تربية المريدين بالصلاة والتلاوة والذكر[7] وناظر الخانقاه الذي يدير شؤونها وإحتياجاتها من اللوازم[8] وناظر الوقف وخادم الخانقاه[9] ومؤذن[10] وخازن الكتب[11] وبواب[12]. أما الزاوية فكان عدد العاملين بها أقل من الخانقاه، وأعلى الوظائف شيخ الزاوية الذي يعين من قبل نائب السلطنه في دمشق كشيخ الزاوية الأمينية في القدس وبالنسبة لموقع كثير منها كانت في البراري كان على الشيخ تهيئة الطعام للواردين ويعتبر شيخها المعلم والمدرس فيها[13] هذا بالإضافة إلى الإمام للصلاة وخادم وقيمٍ وواعظ وأمين مكتبة[14].

---

(1) خوانق: مفردها: خانقاه، وتلفظ خانكاه، كلمة فارسية الأصل بمعنى مائدة طعام الملك، وتعني بيت أيضاً وتعني محلاً للتعبد والزهد والبعد عن الناس حيث يشبه الذير عند النصارى. دهمان: معجم الألفاظ، ص66.

(2) ربط: مفردها رباط، والرباط من المرابطة: أي ملازمة ثغر العدو: أي أن يربط كل واحد من الفريقين خيلة، ثم صار لـزوم الثغر رباطاً في صدر الإسلام ثم تحولت من مفهومها العسكري إلى معنى صوفي كالزاوية والخانقاه.

أنظر إبن منظور: لسان العرب، مادة ربط.

(3) الزواية: زاوية البيت ركنه، أطلقت في بداية الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم على المسجد الصغير أو على المصلى ثم إرتبطت بالصوفية كمرادف لكلمتي خانقاه، وربط: إبن منظور: ن م، مادة زوي.

وبروفنسال: الزاوية، دائرة المعارف الإسلامية، ص331.

(4) مجير الدين الحنبلي: م س، م1، ج2، ص34-36،37 -43، 79،89، 341،350

(5) ن.م، م1، ج2، ص78 -80.

(6) مجير الدين الحنبلي: ن م، م1، ج1، ص47، الإمام، مدينة القدس، ص106.

(7) السبكي: معيد النعم، ص124.

(8) إبن شاكر: عيون التواريخ، ج21، ص181.

(9) السبكي: ن م، ص126، الباشا: م س، ج1، ص443.

(10) إبن حجر العسقلاني: م س، ج4، ص54.

(11) ن م، ج3، ص171.

(12) إبن طولون: القلائد الجوهرية، ق1، ص152.

(13) السبكي: ن م، ص126، الباشا، ن م، ج2، ص635.

(14) ن م، ج1، ص109.

أما الربط فقد وجد بها أيضاً شيخٌ وناظر ومدرسين وأمين مكتبة وخادم للرباط[1]وكان القائمون على الخوانق والربط والزوايا يحددون أياماً لتلاوة القرآن والأذكار وبعض الدروس إسبوعياً[2]ومن الآداب فيها طاعة المريد للشيخ طاعة عمياء[3]لأنه هو الذي يعلمهم آداب الكلام والطعام وآداب الصحبة ويرسم لهم برنامج الحياة اليومية[4].

هذا وكان مصدر تمويلها من ريع الأوقاف[5]المختلفة من زراعة وحوانيت وخانات إلى جانب الأموال التي تقدمها الدولة لها ومرتبات لشيوخها[6]كزاوية الشيخ خضر بغزه[7]مما جعل طبقة العامه يقبلون على إرتيادها بكثرة ويؤمنون بأفكارهم بالزهد بالدنيا وعدم التفكير بأمور الحياة اليومية فأثرت فيهم إيجابياً أو سلبياً سواء كانوا سلاطين أو أمراء أو عامة الناس. لإعتقادهم ببركة الصوفية للدعاء لهم وإعتقادهم بقدرتهم على الإتيان بالخوارق[8]فترددوا على مؤسساتهم فأجزلوا لهم العطاء والهبات ودعوتهم لإقامة الليالي الراقصة[9]والتبذير في الإنفاق عليها مما أثر سلبياً على المجتمع الشامي باضعاف الحالة الإقتصادية بالرغم من إعتنائها بالفقراء والغرباء[10] وإيواء كبار السن والعجزة من الجنسين[11]كوقف الشيخ برهان الدين إبراهيم المقدسي على ربط القدس للأرامل[12]ومن أهم الزوايا التي بناها الظاهر بيبرس في جنوب الشام زاوية الشيخ خضر بالخليل وأخرى بغزة[13].وكان في نابلس زاوية للشيخ أبو

---

(1) إبن كثير: البداية والنهاية،م7، ج13،ص345،إبن تغري بردي: المنهل الصافي ج4،ص155.

(2) النعيمي:الدارس،ج2،ص202،وإبن طولون، القلائد الجوهرية،ق1 ص289.

(3) الشعراني:الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية،حققة وقدم له،طه عبد الباقي سرور السيد محمد عبد الشافعي، المكتبة العلمية، القاهرة 1962،م1،ج1،ص183 سيشار له فيما بعد: الشعراني:الأنوار القدسية.

(4) عادل الألوسي: مدخل لدراسة الربط الإسلامية، مجلة المورد،، م2، عدد 2،1973،ص27، سيشار له فيما بعد: الألوسي: مدخل.

(5) الأدفوي: م س،ص33-81.

(6) النعيمي: م س، ج2، ص202، وإبن طولون، ن م، ق1، ص293.

(7) إبن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص352.

(8) سلام، الأدب في العصر المملوكي، ط1 ص193، وإبن طولون القلائد الجوهرية، ق1، ص295.

(9) اليونيني، ديل مرآة الزمان، ج2، ص301، الأدفوي: م س، ص9، وصف ليلة صوفية في تثبيت الأمير حسام الدين لاجين عام 659هـ/1265م.

(10) إبن جبير،م س، ص218.

(11) إبن شاكر: عيون التواريخ، ج21، ص26-27.

(12) مقابلة: م س، ص103 وانظر: أبو شامة: الذيل، ص229، عاشور، المؤسسات الإجتماعية ص367.

(13) إبن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص350-352.

عبدالله محمد النابلسي كمأوى لكل من يأتي لنابلس[1] أما في القدس فكان من شروط الخانقاه الدوادارية ومن شروط وقفها أن تكون على ثلاثين نفراً من الصوفية من العرب والعجم ومنهم عشرين نفراً أعزب وعشرة متزوجين.

ومن آثارهم السلبية على المجتمع نشر الخرافات والإعتقاد بالخوارق والكرامات[2] وإشاعتهم عادات جديدة وأساليب مختلفة في االغناء واللباس والشراب كالرقص والضرب على الدفوف[3]وأشاعوا شرب الحشيش [4] التي تغنوا بها وسموها حشيشة العداء ومدامة جيد– القلندرية حتى وصفها شعراؤهم[5] هذا ولاحرج من إظهار دور مؤسساتها الثقافي في مجتمع بلاد الشام في نشر الثقافة الذينية واللغة العربية[6] لإختصاص بعض الخوانق بتدريس المذاهب الأربعة[7]ونشر المذهب السني على حساب المذهب الشيعي الفاطمي، بالإضافة فعتناء بعضها بتأديب الأطفال وتعليمهم[8]والإعتناء بالأيتام[9]وتعليم الفقراء وتحفيظهم القرآن للناس[10]وهكذا كان بعض الخوانق والربط والزوايا تجمع بين المدرسة والخانقاه كالمدرسة السامرية التي كانت تجمع بين دار الحديث وخانقاه[11].

---

(1)إبن صرصري (محمد بن محمد) كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق ونشر وليم برينير، 1963، ج1، ص188 وسيشار له، صرصري: الدرة المضئية.

(2)الأدفوي: م س،ص18-19، كاعتقادهم باللحاق بالملائكة والطيران في الهواء والمشي على الماء إذا جاهدوا في العبادة، وكل من يكذبهم يتعرض للإيداء.

(3)ن م ص21.

(4)ن م ص17، يذكر أن الشيخ حيدر الصوفي المتوفي سنة 1221/618 هو أول من إستخدمها ونصح أتباعه ومريديه بإستعمالها ثم إنتقلت الحشيشة إلى الشام وبغداد ومصر عن طريقة جماعة الحيدرية بعد عام 1257/655 وبعض الروايات ترجع ذلك إلى بيرزطن الهندي الذي أحضرها من الهند ثم إلى بلاد فارس ثم إلى الشام ومصر بواسطة جماعة القلندرية الأدفوي:ن م، ص17.

(5) الادفوي: ن م، ص17-18 وصفها شاعرهم محمد بن علي بن الأعمى فقال:

دع الخمر وإشرب من مدامة حيدر	مـــعنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكا ظبي من الترك أغْيَـــد	يميس على غصن من ألبان أمردِ

(6)بيطار: التعليم في الشام، ص61.

(7) أحمد: مجتمع بلاد الشام، ص153.

(8)السخاوي: الضوء اللامع، م4، ج7، ص24.

(9) إبن طولون: القلائد الجوهرية، ق1، ص278.

(10) إبن قاضي شهبة طبقات الشافعية، ج3، ص54، وإبن كثير: م س،م7، ص14-15.

(11) النعيمي: م س،ج2، وإبن كثير: ن م، م7، ج3، وابن طولون: ن م، ق1، ص285.

المؤسسات الوقفية:

لقد رأيت الإشارة إلى هذه المؤسسات الوقفية في فترة الدراسة المقصودة في هذا البحث لاضاءة الموضوع وتحليته.

فالموقف هو : لغة "الحبس" ويقصد به تلك الأراضي والمنشآت العقارية يخصصها المسلمون تبرعاً للإنفاق على الأعمال الدينية كالمساجد والمدارس والزوايا والخانقات الخيرية مثل : البيمارستانات ومكاتب الأيتام والسبل والخانات وأحيانا الحصون ذات النفع العام أو للإنفاق على الفقراء والمساكين أو المجاهدين. فيما يستخدمونها المسيحيون للإنفاق على الكنائس والأديرة[1] والأوقاف نوعان :

-خاصة يوقفها الأغنياء والأمراء والأتقياء.

-رسمية يوقفها الخلفاء والسلاطين للإنفاق على بعض المنشآت الدينية والإجتماعية العامة لنيل الأجر والثواب[2].أما في العصر المملوكي فكان هناك ثلاثة أنواع من الموقف :

1- **وقف الأحباس** : ويشمل أوقاف المساجد والزوايا والأربطة والخانقاوات.

2- **الوقف الذري** :الذي يشرف عليه أبناء الواقف ومن يأتي بعدهم.

3- **الوقف الحكمي** : أوالخبري المخصص للإنفاق على الأماكن المقدسة والحرمين الشريفين مكة والمدينة والحرميين الشريفين في القدس والخليل[3]وقد عم إنتشاره في بلاد الشام ومصر.وكان الفقهاء يلزمون بذكر الحدود الأربعة للعقار الموقوف كما رأيناه في وثيقة إدر في الكرك [4] .

---

(1)السبكي، م س ص9 / الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط المؤسسة العربية، بيروت، ج3 ص212 فصل الواو، باب الفاء .ومحمد عبد الكبيسي: أحكام الوقف ج1،ص34، مطبعة الارشاد، بغداد،1955،ص634. عاشور: سعيد عبد الفتاح: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة (د:ت) ص377.2

(2)الإمام: رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط،الدار التونسية تونس 1976، ص141 ,وأكثر من ها سلاطين الأيوبيين والمماليك حيث شملت العديد من القرى والضياع: السبكي: ن م ص26،29،31-34. Cohean Pupulation , P.42

ومن الأوقاف الرسمية ما أوقفه الظاهر بيبرس على خان السبيل في بيت المقدس حيث أوقف عليه أوقافاً في قرية لفتا في فلسطين وقيراطاً ونصف في قرية الطرة شمالي الأردن وثلث وربع قرية المشيرفة التابعة لبصرى الشام حيث كان يوزع انطعام مجاناً لمسافرين.

(3)المقريزي: المواعظ، ج2 ص295 والقلقشندي، م س،ج11،ص252. Lapidus Muslim cities , P.74

(4) د. غوانم: التاريخ الحضاري ص102 ومحمد الكبيسي ن م، ج1، ص354،355 Hurani , The Islamic City , P 18

وكانت الأوقاف تدار بواسطة "ديوان خاص"[1] بإشراف القاضي فبالنسبة للمباني التابعة للأوقاف فكان يشرف عليها موظفون كالمتولّي وناظر الوقف وجابي الوقف وكاتب الوقف "شاد الوقف "[2] ومن الأوقاف الزراعية التي أوقفت على المؤسسات العامة في بلاد الشام كالمدارس والمساجد وخاصة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، والأربطة والزوايا والبيمارستانات، قرى زراعية بكاملها كما فعل الظاهر بيبرس بعد إسترجاعه القدس عام 662هـ/1264م إذ بنى فرناً وطاحوناً ووقف عليها 3 قراريط بالطرة[3]ونصف قرية من أعمال القدس وربع قرية المشارفة[4]كما أوقف عام 696هـ/1296م نصف قرية لفتا وغيرها من القرى بأعمال دمشق على الخان الذي بناه في القدس[5]وكانت هناك أوقاف الأسبلة الملحقة بالمساجد وغيرها للحصول على ماء الشرب كما أوقف الأمير علم الذين سنجر الجاولي عام 713هـ/1313م أوقافاً على عين ماء مدينة الخليل فبنوا عمائر بمسجد إبراهيم الخليل[6].

ومن أوقاف المدارس في جنوب بلاد الشام :

أوقفُ الملك الأشرف خليل عام 690هـ/1291م على المدرسة الأشرفية قرية الحمراء ومن ساحل صور طبرية وقرية شعر[7] أوقف الأمير الفارسي البكّي إبن الأمير قطلوملك نائب السلطنه بالأعمال الساحلية والجبلية[8]ونائب غزة عام 755 /1354 على المدرسة المنسوبة إليه (المدرسة الفارسية)حصة من قرية طولكرم في فلسطين[9] وكان هناك أوقاف السلاطين على

---

(1)ديوان الأوقاف: يرجع إنشاؤه إلى زمن المعز الله الفاطمي 363هـ/965م: القلقشندي ،م س ج15 ص452-453

(2)إبن طولون: قضاة دمشق ص123: المقريزي: المواعظ والإعتبار ج2 ص245.

(3)الطرة قرية في شمال الأردن قرب مدينة إربد، كانت مركز البريد في دولة المماليك وما زالت باقية حتى الآن وكانت تابعة لعمل "أذرعات" درعا"اليوم . القلقشندي: م س، ج14، ص399.

(4)المقريزي: السلوك ج1 ق2 ص237، إبن شداد الأعلاق الخطيرة ج2،ق2 ص237.

(5)العليمي الحنبلي: م س، ج2، ص87.

(6)المقريزي: السلوك ج2،ق1 ص131، حجي: الناصر محمد ص52.

(7)المقريزي: ن م، ج1، ق3 ص769.

الحمراء: حصن من نواحي بيت المقدس [ياقوت: ن م،ج2 ص300]

الشعر: قرية على مياه نهر العاصي يتفرع منها طريقان تجاريان إلى من حلب، وإنطاكية إبن الجيعان: القول المستطرف، ص60.

(8)العليمي، الحنبلي: ن م، ج2،ص39.

(9)طولكرم: إسمها طوركرم: أي جبل الكرم، لغنى أرضها وخيراتها وعرفت بهذا الإسم حتى القرن 18م فحرفت إلى طولكرم (الموسوعة الفلسطينية، ط، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق 1984، م3 ص125).

أضرحة الصحابة والأولياء والصالحين إذ زاد الظاهر بيبرس في أوقاف مسجد جعفر الطيار في مؤته جنوب الكرك للإنفاق على الزائرين[1]وأوقف أيضاً على مقام الصحابي الجليل أبي عبيدة عامر بن الجراح بالقرب من قرية عمتا بغور الأردن والذي ما زال يحمل إسمه حتى اليوم بعد أن أمر نائب عجلون ببناء قبة على قبره[2].

ويُرجح زيادة الأوقاف في العصر المملوكي خاصة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ كان الأمراء يوقفون بعض ممتلكاتهم خوفاً من مصادرتها من قبل السلطان[3] بالإضافة لرغبة بعض السلاطين التقرب من الشعب ليتخذ حكمهم طابع الشرعية لتحقيق تطلعاتهم السياسية، لشعورهم بالغربة لوصولهم للسلطة. إلا أنهم أساؤوا إلى الأوقاف، فأخذ بعضهم أموال الأوقاف، كما صادر بعض السلاطين أموال من يشاؤون ليصلوا بها من يشاؤون، واشتروا ممتلكات مدخرة للأوقاف، كما عمد بعض القضاة إلى التحايل بإخراج الوقف عما وضع له، وسرق بعض العلماء عائدات الوقف وسيروها في غير سبيلها[4].

وعمد بعض السلاطين إلى إسترجاع ما أقطع من الأوقاف للأمراء مقابل تعويضهم بدلاً منها كما فعل الظاهر بيبرس سنة 659 هـ/1260م حيث إسترجع عدة أوقاف من ضياع الخليل وعوض الأمراء عنها، وأوقف على مسجد إبراهيم الخليل قرية أذنا[5]. وهكذا أدى حَلّ الإقطاع وبيعه خلال العصر المملوكي إلى عدم الإعتناء بأراضي الأوقاف الزراعية، وتركها بدون زراعة.

---

[1] إبن كثير:م س، ج13،ص276.

[2] ن م، ن ص، عمتا: مدينة في منتصف غور الأردن، بها قرية أبو عبيدة بن الجراح تبعد عن عمان وطبرية 12 مرحلة [ياقوت: معجم البلدان ج3، ص712.

[3] حجي: الناصر محمد، ص50، طرخان: النظم الإقطاعية ص69 -70.

[4] الحصيني:محمد أديب تقي الذين منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة، دمشق، 1934.ج3 ص985، لابيدوس مدن إسلامية ص133.

[5] إبن عبد الظاهر: الروض الزاهر ن ص95، المقريزي: السلوك: ج1، ق2 ص445. النويري: نهاية الأرب، ج3 ص23 وقد وصف الشعراء إسترجاع الأوقاف في شعرهم: طرحوا علينا الملك طرحُ مُصادرٍ ثم إسترذوه بلا أثمانِ
وإذا يد السلطان طالت وأعتدت فيدُ الإله على يدِ السلطانِ

أبو الفداء: المختصر، ج4 ص144، إبن الوردي: تتمة المختصر، الجزء الرابع ص485.

وهكذا أدّى حَلُّ الإقطاع وبيعه خلال العصر المملوكي الى عدم الاعتناء بأراضي الآفات الزراعية وتركها بدون زراعة.

وقد أوضح الفقهاء أن الوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته ويستمر بقاؤها بعد مماته للصرف على وجه البر والخير[1] كإعانة الفقراء وبناء المساجد والمدارس بهدف تحقيق الخير للجميع. وقد أوجده المسلمون منذ أيام الإسلام الأولى إذ شمل الدور والدكاكين والحمامات العامة والقصور والأراضي الزراعية والأفران وغيرها[2] ويرجع إنشاء ديوان الأوقاف لأيام الفاطميين حيث تولى قاضي القضاه أمر الأوقاف[3] وخاصة زمن المعز لدين الله الفاطمي سنة 363هـ/974م[4].

وهكذا يعود الفضل للدولة الفاطمية في جميع المتحصلات المالية من الأوقاف وتنظيم صرفها تحت إشراف إداري من قبل ديوان الأحباس على المساجد والمراكز الدينية والتعليمية تحت إشراف القضاه.

وفي زمن الدولة الأيوبية إنصب إهتمامهم على صرف مال الأوقاف في إنشاء المدارس كما فعل صلاح الذين الأيوبي في بناء المدرسة الناصرية الشافعية وأوقف عليها حي الصاغة وإحدى العشرى[5] والمدرسة المنتمية للمالكية وأوقف عليها قيسارية وقريتين بالفيوم[6] والمدرسة السيوفية للحنفية وأوقف عليها إثنين وثلاثين حانوتاً[7].

وذلك بهدف نشر المذهب السني لتدعيم حكمه سياسياً وإقتصادياً وإجتماعياً.كما نشط خلفاؤه في حكم في مجال الوقف[8] وقد تفانى المماليك في سبيل إزدهار الوقف لتحقيق مصالح سياسية وأقتصادية وإجتماعية أيضاً لإبراز شرعية حكمهم في مصر والشام.

---

[1] فتح الباري: ج5، ص246 لم يرد في القرآن الكريم ولا في الأحاديث الشريفة كلمة وقف.

[2] المقريزي الواعظ والإعتبار، ج2 ص 135-136.

[3] القلقشندي: م س، ج15 ص452-453، المقريزي: ن م ج2، ص295.

[4] المقريزي: ن م،ج2، ص295.

[5] ن م، ج2 ص363، 364.

[6] ن م، ج2 ص364 .،

[7] ن م، ج2 ص365،366.

[8] المقريزي: السلوك، ج1 ص63، وابن تغري : م س، ج6 ص79.

ويظهر هذا في مساندتهم للخلافة العباسية لكسب الصبغة الشرعية مع إهتمامهم بمصادرة أموال كبار الأمراء لزيادة ثرواتهم وتوطيد حكمهم وخاصة زمن حكم الناصر محمد [1]وقد أكثر الناصر محمد من الشهود على كتاب الوقف وإختارهم من كبار فقهاء الدولة وعلمائها للحرص على بقاء الوقف وإستمراره[2] وللتقرب من الشعب والحرص على تطبيق الشريعة بإظهار النشاط الديني المتمثل في بناء المساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا والمدارس والكتب[3] بالإضافة للأسبلة للحصول على ماء الشرب وفي مجال الرعاية الصحية بانشاء البيمارستان كما حدث سنة 689هـ/1290م زمن السلطان المنصور قلاوون الألفي الذي بنى البيمارستان المنصوري وأوقف علية من الأملاك ما يقارب مليون درهم وزوده بالأطباء والعقاقير[4] وكانت الأوقاف في عصر المماليك ثلاثة انواع:

فالنوع الأول سمي: بالأحباس: أوقاف السماجد والجوامع والاربطة والزوايا والخانقاوات.

والنوع الثاني: الأوقاف الخيرية أو الحكمية:وتشمل اوقاف الحرمين وأعمال البرفقط.

والنوع الثالث: يجمع بين الوقف الأهلي "الأحباس" والوقف الخيري.

وقد عمل سلاطين الممماليك بالمحافظة على الأوقاف لتؤدي الغرض الذي أنشئت من أجله ن كما عملوا على رد الأوقاف التي حرم من منفعتها مستحقوها دون وجه حق كما حدث حين رد السلطان حسام الدين لاجين سنة (696-698هـ 1296-1298 م). قرية ضمير من عمل دمشق وكانت وقف الملك الزاهر على أولاده[5] ورد وقف قراقوش على الفقراء وكان قد قطع منذ سنين[6]وقد أشرف على الأوقاف في العصر المملوكي عدة موظفين حيث أشرف على

---

[1]المقريزي: السلوك: ج2 ص97-99، 92، 108،110، 481، 483، 507-508.والمواغظ والاعتبار، ج2،ص89.
وابن تغري: ن م ج9 ص17-20، 31 -32، 135-137، 152.
وابن حجر: م س، ج1 ص484، 487، 526 وابن العبري :م س، ج5 ص64.
وابن كثير: م س، ج14 ص63.

[2] المقريزي: المواعظ والإعتبار، ج2 ص84.

[3] سعيد عاشور: المجتمع المصري ص143، 159-175.

[4] المقريزي: المواعظ والإعتبار، ج2 ص406 -407.

[5] المقريزي: السلوك، ج1 ص 864.

[6] المقريزي: ن م، ج1 ص865.

النوع الأول الأحباس الدوادار وناظر الأحباس[1].وعدد من المباشرين والكتاب ويتولى صاحب ديوان الأحداث توزيع الصدقات من ريع الأراضي

الموقوفة على المؤسسات الدينية [2] وأشرف قاضي قضاة الشافعية (ناظر الأوقاف) وله نائبان على النوع الثاني من الأوقاف الحكمية ونشمل الرياع الموقوفة على الحرمين والأسرى[3] كما أشرف على النوع الثالث : الأوقاف الأهلية[4] ناظر خاص من أولاد الواقف أو من ولاة السلطان أو القاضي ويضم هذا الوقف الأوقاف الأهلية الخيرية المختلفة من أراضي وعقارات ودور، وكان ريعها الزائد يستغل في بناء المدارس والجوامع والأضرحة والخانقاوات[5]وكان هناك نوع آخر من الأوقاف الأهلية[6] إذ كان البعض يعمل على وقف ممتلكاته على نفسه ليضمن حصوله على مورد ثابت طوال حياته ويحافظ على ممتلكاته من المصادرة، وبعد وفاته توزع هذه العقارات الموقوفة حسب الشروط الموضوعة في وصية الوقف والتي تشمل عدداً من مصارف البر كالصرف على المساجد وتزويد المساجين بالطعام، ومساعدة الفقراء، معونة لقراءة القرآن الكريم، وتحرير عدد من العبيد وغير ذلك وقد تمسك العلماء بالدقة والأمانه في تنفيد وصية الواقف[7]ويذكر النويري أنه يحق للناظر على الوقف أن يؤجر هذا العقار لمن يريد لمدة سنة أو أقل ويستغل أجره في الترمميم والإصلاح والمبلغ الزائد يصرفه على المسجد وللفقراء ولمستحقي الوقف، فان تعذر وجود الراشد الكفء حُوِّل حق

---

(1) ناظر الأحباس: وظيفة عالية المقدار يشرف صاحبها على رزق المساجد والجوامع والأربطة والمدارس والزوايا على سبيل البر والصدقة. القلقشندي: م س، ج4 ص37-38 وهكذا يعتبر دديوان الأحباس من الدواوين الهامة في عصر المماليك ويختص صاحبه بالإشراف على المؤسسات الدّينية من جوامع ومساجد وأربطة وزوايا ، القلقشندي، ن م، ج11، ص256-257.

إبن حجر: م س ج3،ص164 -165، 448، ج4 ص 305 -306، ص143.

(2) المقريزي: المواعظ والإعتبار، ج2 ص295.

(3) ن م، ن ص،السلوك، ج1 ص864.

(4)النويري، م س، ج9 ص156-157 ص158 إبن خلدون م س ص460.

(5)المقريزي: المواعظ،ج2ص296، القلقشندي: ن م، ج11 ص269

(6)محمد بن أمين: الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر، (ط1 القاهرة 1980) ص116-119.

(7)إبن حجر الدرر: ج3، ص116-117. كما حدث سنة 719هـ/1319 م بالصالحية.

النظر إلى حاكم المسلمين[1] وعندما تنتهي السلالة يكون ريع الوقف للمساجد أو ما يراه الناظر[2] والمساكين أينما كانوا سواء كانوا في مصر أو في الشام[3].

كما كان يحق لناظر الوقف أن يعين من ينوب عنه للنظر في الأوقاف وأن معالجة المشاكل المتعلقة بالأوقاف كانت منوطة بنائب السلطان في الولايات الصغيرة، ثم تعتمد ويوقع عليها السلطان[4] وبالنسبة لأوقاف السلاطين فقد كان المحتسب (ناظر الحسبة) يتولى مهمة النظر فيها وحتى في الأوقاف الخيرية يكون النظر فيها لأولاد الواقف وذريته [5] ومن الصفات الواجب توفرها في ناظر الأوقاف الأخلاق الحسنة والعلم والمركز الرفيع، السمعة الطيبة، والمعرفة الواسعة، يتمتع باحترام العلماء والفقهاء[6] وكان يساعد ناظر الأوقاف وظيفة "شاد الأوقاف" الذي يلاحظ موظفي الأوقاف أثناء تأديتهم لواجبهم كي لا يخطئوا في الحسابات أو يخونوا الأمانه ويعين هذا من قبل السلطان كما حدث سنة 713هـ/1313م عندما عين الناصر محمد إبن الوزيري بهذه الوظيفة[7] وكان هناك وظيفة ثالثة خاصة بالأوقاف هي وظيفة الإستيفاء[8] أو مستوفي الأوقاف الذي يتسلم أموال الوقف سواء كان المؤجر أو المستثمر ليتمكن من صرف هذه الأموال في مصارف البر المختلفة. كما كان لكل فئة من فئات المذاهب الإسلامية الأربعة مباشر خاص يباشر أوقافها[9].

وقد إزدهر الوقف أيام الناصر محمد تقرباً إلى الله والشعب. والرغبة في المحافظة على الثروة لأبناء الأسرة كمصدر ثابت للرزق الأهلي وسعيَ البعض وراء الشهرة والمنصب. ومن مظاهر الإزدهار يذكر المقريزي لتسعةٍ وثمانين جامعاً، وثلاث و سبعين مدرسة وثلاثة وثلاثين

---

(1) النويري: م س، ج9 ص158.

(2) النويري: م س، ج9، ص157، الناظر: تعني في الأصل من نظر الأموال وينفذ تصرفاته وهو مأخوذ من النظر الذي هو رأي المعين، لأنه يمر نظره في أمور ما ينظر فيه، واما من النظر الذي هو بمعنى الفكر، لأنه يفكر فيه المصلحة من ذلك، القلقشندي، م س، ج5، ص465.

(3) القلقشندي، م س. ج12، ص280.

(4) ن م، ص 61-62.

(5) المقريزي: المواعظ والإعتبار: ج2، ص298.

(6) ابن حجر: م س، ج1، ص267-306، ج4، ص109، ج5، 188.

(7) المقريزي: السلوك، ج2، ص126، القلقشندي: ن م، ج11، ص48 " يقول أنه من وظائف شاد الأوقاف الإشراف على مصاريف ريع الوقف والعمل على صرفها حسب شروط الوقف مستعيناً بموظفين مختصين مع وجود كامل الحسابات من سبقه.

(8) ابن حجر، ن م، ج1، ص451.

(9) ن م، ج2، ص275، ج3، ص230-231.

مسجداً وخمساً وعشرين زاوية وإثنين وعشرين خانقاه وإثني عشر رباطاً وخمس بيمارستانات[1] هذا وقد بلغت الرزق الاحباسية في عهد الناصر محمد سنة 740هـ/1339م على الجوامع والمساجد والزوايا وغير ذلك مائة وثلاثين ألف فدان معفاة من الضرائب[2] ويلاحظ أن الدوافع السياسية وراء إقبال سلاطين المماليك على الوقف التقرب إلى الشعب كمظهر ديني لأنها الرابطة الدينية الوحيدة التي كانت الرابطة بين الشعب والحكام الغرباء عن هذا الشعب في الجنس واللغة إضافة لإغتصابهم السلطة من الأيوبيين وللمحافظة على إستقرار الحياة العامة لفترة تزيد على قرنين ونصف القرن.

فكانت العوامل الإقتصادية والثروة الضخمة وراء إزدهار الأوقاف في مصر والشام وأما العوامل الشخصية وراء إزدهار الأوقاف وهو دأب السلاطين على مصادرة أسلافهم في الحكم، ومن ثم لم يجد المماليك أمامهم إلا نظام الوقف لضمان ريع شرعي ثابت للصرف على أولاده[3] كما كان بيت المال مصدراً لكثير من الأوقاف أثناء الحكم المملوكي[4] بحجة أنه يحق لهم إستخدام مال الأمة في بيت المال المساعده من أجل خدمة الأمة كانشاء الجوامع والمساجد والخانقاوات والبيمارستانات وغير ذلك ويتم القرار باسم السلطان أو بأمر منه لآحد الأمراء المماليك الذين أقبلوا على إقامة المؤسسات الوقفية لأسباب شخصية أو دينية أو للشهرة والعبث[5]. ولوحظ إشتراك الفقهاء والقضاه في وقف كثير من الأراضي والعقار[6] فكان من نتيجة هذا النشاط الوقفي الزائد سلسلة طويلة من المساجد والمدارس والزوايا والأربطة والبيمارستانات كما يعتبر صفحة بيضاء في سجل المماليك كما أباح السّلاطين لأنفسهم اصدار حجج شرعية

---

(1) المقريزي: المواعظ والإعتبار، ج2، ص244-331، 362-405، 405-408، 408-413، 414 -427، 430 -433-436.وانظر إبن خلدون، المقدمة ص400.

(2) المقريزي ن م، ج2 ص295 و السلوك، ج2 ص473 -474.

(3) المقريزي: السلوك، ج2، ص81-82، وابن تغري، م س، ج9 ص17-18.

(4) المقريزي، ن م، ج2 ص82.

(5) المقريزي: المواعظ والإعتبار: ج2 ص309، 311، 312، 325، وابن تغري، م س، ج9 ص190-191.

(6) إبن حجر: م س ج1 ص23، ج3 ص298، ج4 ص27،113،114.

إبن العماد الحنبلي :م س، ج6 ص54، 152 -143.

وتخصيص أجزاءً من وقف السلاطين لخدمة رهبان أهل الذمة[1] وكان المرسوم السلطاني موقع كما يلي :-

الناصري	مغلطاي بالشرقية
الملكي	المراسيم الشريفة شرفها الله
لتمثيل الملوك	وعظمها بالسمع والطاعة.

هذه الوثيقة كانت سنة 710هـ/1310م لمصلحة رهبان دير القديسة كاترين في جبل سيناء زمن الناصر محمد بن قلاوون، بحجة أن هؤلاء الرهبان يقدمون مساعدة للحجاج المسلمين أثناء مرورهم بالجبل في طريقهم إلى مكة، كما كانوا يساعدون الزوار لجبل سيناء وتوضح هذه الوثيقة علاقة الناصر بأهل الذمة بتقديم خدمة لهم عن طريق الوقف فاستفاد الرهبان في إمتلاك الأراضي الزراعية بصفة دائمة والتمتع بكافة حقوقها.

وبالنسبة للخانقاوات :

فيعود الفضل في إنشائها للسلطان صلاح الذين الأيوبي لممارسة التصوف سنة 569هـ/1174م وأوقف عليهم البساتين والقرى[2] كما شرط أنه من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماما بجوارهم ووفر لهم الرعاية الصحية حيث يوجد معهم دائماً طبيبٌ وكحال جرائحي فكانت أول خانقاه بمصر باسم "دويرة الصوفية" [3] ثم زاد عددها في العصر المملوكي وإرتبطت أسماؤها بأسماء كبار الشخصيات من السلاطين والأمراء وارتقت تنظيماً زمنهم[4] وخاصة خانقاه سرياقوس التي أنشأها الاصر محمد سنة 723هـ/1322م[5]

---

[1] د. حياة الحجي السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ص78. حيث تذكر أنه عثر على ذلك في وثائق سانت كاترين بسيناء رقم 33.

[2] القلقشندي: م س ج11 ص370-372، المقريزي المواعظ والإعتبار ج2 ص415

[3] ن م -ج2 ص415

[4] المقريزي: السلوك ج2 ص261-263-539، ابن اياس، م س، ج1 ص163 -175.

وابن تغري: بردي: م س ج9 ص79 -84، وابن كثير: م س، ص118.

[5] المقريزي: ن م ،ج2 ص251.

وبالنسبة للأربطة والزوايا :

فالرباط : هو بيت الصوفية ومنزلهم يسكنه عدد من الفقراء الصوفية ويتم الصرف عليهم من ريع أوقافه[1] وقد إقتصرت بعض الأربطة على خدمة النساء وإيوائهن، مثل رباط البغدادية الذي أنشأته تذكارباي خاتون إبنه السلطان الظاهر بيبرس في القاهرة سنة 684هـ/1285م للنساء الخيرات، وفيه شيخة تعظ النساء وتفقههن بالإضافة إلى أنه ملجأ للمطلقات والمهجورات حتى يتزوجن أو يرجعن لأزواجهن[2] وإتسعت وظيفتها كمراكز للتصوف وملاجئ للمحتاجين لتؤدي وظيفة المسجد كرباط الست كليلة الذي أنشأه الأمير علاء الذين الراباه سنة 694هـ/1295م والذي جعله مسجداً ورباطاً وفيه مؤذناً[3] وقد بنى عدد من الواقفين في أربطتهم مدفناً يدفن فيه صاحب الرباط تبركاً وطلباً للرحمة[4].

أما الزوايا:

فقد إرتبطت بأسماء شخصيات دينية معروفة بالفضيلة والفقه والحديث ولهم أتباع ومريدون ومعارف، ويتمتعون بحظوة لدى السلاطين[5] فشكلوا مدرسة أخلاقية ذا سمة دينية متميزة عن غيرها ومرتبطة برباط معين ينفق عليها، كما ويتوارث الأنباء الزوايا عن آبائهم[6] ويدفن أصحاب الزوايا في زواياهم[7] وتم وقف بعض الزوايا على فئة محتاجة من الناس مثل زاوية الخدام التي جعلها صاحبها وقفاً على الخدام الحبش الأجناد[8] لذا تعتبر الزاوية مدرسة ومركز للتصوف وملجأ للمتضررين فقدمت خدمة إجتماعية جليلة، خاصة زمن الناصر محمد

---

(1) المقريزي: السلوك: م س -ج2 ص427.
(2) ن م ص427 -428.
(3) ن م، ص428.
(4) ن م ص428-430.
(5) ن م، ج2، ص430- 431.
(6) ن م ج2 ص430، 431
(7) ن م، ج2 ص432.
(8) ن م ج2 ص430،43، 432.

حيث كان "جميع الأمراء يتنافسون في أفعال الخير وبناء المساجد والزوايا" كما ذكر إبن حجر[1].

وهكذا نستنتج من هذه الدراسة أهمية الوقف في الحياة الإجتماعية والإقتصادية والعلمية والسياسية أيضاً كما حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون حيث نستطيع إعتبار الوقف جسراً مؤدياً للإزدهار الحضاري نتيجة لشخصية الناصر محمد القوية وشعبيته التي ساعدت على إنتهاج هذه السياسة الأوتوقراطية فتوفر الأمن الإجتماعي والإستقرار السياسي، بالإضافة لوجود عدد من العلماء والفقهاء والقضاه والباحثين عن العلم والمعرفة في عهده حيث هيأ ذلك أرضاً خصبة للتفوق الحضاري بتعاونه معهم على إنشاء المؤسسات الدينية والتعليمية بمساعدة نظام الوقف كركيزة إقتصادية لهذا البناء الثقافي ويرجع الوقف لأيام الفاطميين إلا أن المماليك نظموه بدقة.

المؤسسات الدينية لأهل الذمة في جنوب بلاد الشام:

كان سكان جنوب بلاد الشام خليط من الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية بعد الفتح الإسلامي لانها كانت مهبط اليهودية والمسيحية فكان في القدس 20 كنيسة وديراً[2] يأتي إليهما المسيحيون من جميع أنحاء العالم ويقدسها الجميع. وبالنسبة لليهود فلم يكن لهم أكثر من معبد أو معبدين في القدس[3]هذا وقد إنتشرت الأديرة في صحاري ورؤوس جبال جنوب بلاد الشام لبعدها عن صخب المدن[4].

وأما الإقليات المسيحية في جنوب بلاد الشام فكانوا من بقايا الصليبيين كالروم والأرثودكس والروم الكاثوليك والبروتستانت فكانوا موزعين في أنحاء لبنان وفلسطين وشرقي الأردن[5].

---

(1) ابن حجر، م س، ج1 ص23.

(2) مجير الذين الحنبلي، م س،م1،ج2 ص51.

(3) علي: القدس، ص104 وكانوا ثلاثة فرق: الربانيون والقراؤون والسامرة ولكل منهم توراة خاصة بهم ، فقد إنفرد الربانيون بشروح موضوعة لفرائض التوراة ويؤولون الصفات الربانية أما القراؤون فيلتزمون بظواهر نصوص التوراه ولا يزيدون عليها بينما ينكر القراؤون والربانيون توراة السامره وينكرون أصلهم اليهودي وكان من رؤسائهم في العصر المملوكي: شموئل الطبيب الذي قلده المنصور بن قلاوون عام 684هـ/1285م رئاسة سائر الطوائف اليهودية بمصر والشام؛ المقريزي:السلوك، ج1،ق3،ص727.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص495.

(5) نعوم شقير: تاريخ سيناء، ج4 القاهرة، 1916، ص675.

الكنائس والمعابد والمزارات للنصارى واليهود.

لقد تعددت كنائس النصارى ودياراتهم ومزاراتهم في جنوب بلاد الشام نتيجة لإرتباطها بنشأة السيد المسيح وتلامذته الأوائل في فلسطين وكان أهمها كنيسة القيامة في القدس التي ينسب بناؤها الأصلي إلى أيام الملكة هيلانه أم قسطنطين[1] ويمتاز بناء هذه الكنيسة بالإتساع إلى ثمانية آلاف شخص لأداء الصلاة ومفروشة بالبسط الرومية الحريرية، تزينها النقوش المرمرية، وزينت جدرانها الداخلية بصور المسيح الذهبية وسط القديسين وهو راكب حماراً في معظم جهاتها الداخلية بالإضافة لصور الأنبياء الزيتية المغطاه بصفائح رقيقة شفافة لحمايتها من الغبار لسيدنا إبراهيم وإسماعيل ,إسحق ويعقوب وأبنائه، بالإضافة لصورتي الجنة والنار[2] وإعتبرها الإدريسي من عجائب الدنيا[3].

---

[1] ويرجع تاريخ بنائها إللى هده الملكة عند إكتشاف المغارة الموجودة داخل البستان وفيها الصليب وقبر المسيح وكان شكلها مستطيلاً أما كنيسة الجلجلة فقد بنيت فوق ضخرة الجلجلة التي إنشقت وخرج منها آدم وعليها صلب المسيح عليه السلام .

أنظر : الهروي : كتاب الإشارت إلى معرفة الزيارات ص39 .

وعندما إسترد صلاح الدين بيت المقدس في 27 رجب 83 5هـ/أول (أكتوبر) 1187 أمر بنزع الصليب وتحطيم برج الأجراس الدي رفعة الصليبيون فوق الزاوية الجنوبية الغربية سنة 492هـ/1099م .

أنظر : لي سترانج، م س ، ص183 كما جعل صلاح الدين كنيسة صندحنّة (أم مريم العذراء) مسجداً ورباطاً لعلماء الصوفية ، أنظر : العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامي ، ج1 ض315 والفتح القسي،ص137-143 أبو شامة ،م س،ج2 ص114 وإبن الوردي ، م س، ج2 ،ص148-159 .

وقد سلمت مفاتيح كنيسة القيامة إلى عائلتي نسيبة وجودة مند عهد صلاح الدين وحتى اليوم .

أنظر : السيد، القدس في العصر المملوكي ، ص257، العارف ، م س ، ص236 ، زيادة ، فيلكس قابري في فلسطين .ص198 .

ويقال أنه بنى في هدا الموضع ثلاث كنائس هي : كنيسة القيامة (كنيسة القبر الممقدس) وكنيسة الجلجلة (الجلجثة) وكنيسة الشهادة (كنيسة إكتشاف الصليب، وحول هده الكنائس أروقة جميلة وأعمدة مرمرية وباحات واسعة ويعود تاريخها لعام 335م العارف ، م س ص217 . القلقشندي : م س ، ج2 ص457 ، المقريزي : الخطط ، ج1 ص499 ، العارف المسيحية في القدس ، ص216

[2] ناصر خسرو، م س، ص76 ,القزريني أثار البلاد، ص163 والعمري، م س، ج1، بـاب6 ص138 ويـاقوت الحوي: معجـم البلـدان. ص396 وإن المسيح قامت قيامته منها .

[3] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج5، ص358 وأنظر الهروي: ن م،ص48، وإبن شداد، الأعلاق الخطيرة ج2، ق2 ص198-199.

أما قبر المسيح فمحلى بصفائح الفضة والذهب ونفائس الحلي[1] هذا بالإضافة إلى كنيسة صهيون[2] وكنيسة مار يعقوب "دير الأرمن"[3] وكنيسة المصلبية[4] ومن مزاراتهم المقدسة جبل الزيتون (طورزيتا)[5] في بيت المقدس وكنيسة مهد المسيح في بيت لحم[6] ومدينة الناصرة[7] ومنها إشتق إسم نصارى[8] وكنيسة يوحنا المعمدان المقامة على نهر الأردن في مكان تعميد السيد المسيح[9] .

وبالإضافة للكنائس كانت هناك ديارات كثيرة يزورها النصارى لقدسيتها مثل دير فيق بالقرب من بحيرة طبريا[10] ودير الفاخور على نهر الأردن في مكان تعميد المسيح[11] ودير

---

(1) العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ج1، ص316 .

(2) كنيسة صهيون: الخاصة برهبان الإفرنج في المكان الذي تناول فيه المسيح عشاؤه الأخير مع حوار بية .

إبن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج2ق2، ص288 .

(3) كنيسة مار يعقوب: ويزعمون أن فيها بئراً إغتسل منه السيد المسيح، إبن شداد، ن م، ج2 ق2، ص287 .

(4) كنيسة المصلبية: المختصة بطائفة الكرج . مجير الدين الحنبلي،م س، ج2 ص51 .

(5) طورزيتا: في الشمال الشرقي من القدس، وهو المكان الذي صعد عليه السيد المسيح وتوجد آثار أقدامه، إبن النابلسي الحقيقة والمجاز، ص340 . ويوجد بداخله كنيسة مريم " الجسمانية " التي بنتها الملكة هيلانه: أنظر إبن بطوطة،م س، ص55. وتقع هذه الكنيسة في وادي جهنم غرب القدس الذي ينزل إليه في ستة وثلاثين درجة، وكان إسمه وادي القدرون أو وادي يهو شافاط، أنظر العارف: المفصل في تاريخ القدس ج1،ص493

إبن شداد أعلاق الخطيرة: ج2،ق2،ص288 . ولي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي ص186 .

(6) وفيها آثار النخلة التي أكلت منها مريم، إبن شداد، م ك،ج2، ق2، ص288، القزويني أثار البلاد، ص159،

frescobaldi, visit to the Holy places . pp 69-70

(7) مدينة الناصرة: المقدسة: لأنها مكان ولادة السيدة مريم العذراء، وهنا بشرها جبريل بقدوم السيد المسيح وقد بنى النصارى كنيسة بهذا المكان، وهي التي هدمها السلطان الظاهر بيبرس سنة 661 هـ/1263م .

أنظر المقريزي، السلوك ج1، ق2، ص487/ Frescobaldi, Op, cit , P. 78 .

بينما يزعم بعض النصارى بأنها مكان مولد المسيح ويعتقد أهل بيت المقدس بولادته في بيت لحم ثم إنتقلت به إلى هذه القرية، ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج1،ص251،

أما نص الإنجيل فيذكر ولادته في بيت لحم ثم نقله إلى مصر بواسطة يوسف زوج مريم، فرأى في المنام أمراً بارجاعه إلى بلاد بني اسرائيل فعاد وسكن الناصرة، إنجيل متى، أصحاح 2، عدد 1، وعدد22 أمر .

(8) الهروي، م س، ص22 / ياقوت، م س ج5،ص25، إبن شداد ، ن م، ج2،ق 2 ص284 .

(9) مجير الدين الحنبلي، م س، ج1، ص160 ويذكر: أبن يوحنا المعمدان: هو يحي بن زكريا بن سليمان بن داوود، ولقب يوحنا المعمدان لأنه عمد المسيح .

10 دير فيق: يزعمم النصارى أن المسيح كان يجتمع بالحواريين ويزعمون أنه أول دير للنصرانية وفيه حجر يأخذ منه الزوار قطعاً صغيرة بجلوس المسيح عليه تبركاً.

أنظر: ياقوت الحموي، م س ج2،ص525، 526، العمري، مسالك الأبصار، ج1، باب 6، ص336 .

(11) إبن شداد، م س، ج2، ق2، ص281 .

الطور بين (طبرية واللجون) المشرف على الغور[1] وكـانت الأديرة تبنـى مـن الحجـر والكلـس باتقان ومتانه[2] وإمتاز بناء الكنائس بكثرة العجائب[3] مـن أعمـده مرمريـة ونقـوش[4] ورسـوم وصوروجوهرات نفيسـة للأنبيـاء والجنـة والنـار[5] ومحـاريب[6] وحجـارة مقدسـة[7] وقبـور[8] ومفروشة بالبسط والستائر الحريرية[9] وكثرة الأبوب والإتساع الداخلي[10] والدرج المؤدي إلى الأسفل[11] والأروقـة الجميلـة والباحـات الواسـعة والقنـاديل والقبـاب والصلبـان[12] وبعـض المذابح[13] ومنازل الضيافة للرجال والنساء، والأبار، وأسرّة المرضـى[14].

و إشتهرت فلسطين بكثرة المزارات المقدسة اليهودية أيضاً كقبور الأنبياء ورجـال الديـن كشعيب ويهوذا وسليمان وروبيل وابنة شعيب زوجة موسى في طبريا[15] وقبور حيفـا وكهوفهـا مثل كهف النبي اليـاس[16] وقبر راحيـل زوجـة يعقـوب[17] وقبـور يعقـوب وإبراهيـم وإسـحق وزوجاتهم داخل الكهف بنى عليه المسلمون مسجداً في الخليل[18] وحائطاً فيه نافذه ينظر اليهـود منها إلى القبور ويلقون فيها النقود والبهارات[19]ومقابر جبـل صـهيـون فـي بيـت المقـدس والتـي

---

(1) دير الطور: يعرف بدير التجلي لآن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه ورأوه بعد رفعه وفيه نبع ماء .

أنظر ياقوت الحموي، م س، ج2، ص52، العمري مسالك الأبصار، ج1 باب 6، ص337 .

(2) العمري، ن م، ج1، باب 6، 335 .

(3) الهروي، م س، ص28، إبن شداد،الأعلاق الخطيرة، ج2، ق2، ص198-199.

(4) الهروي، م ن، ص20، وإبن شداد، ن م،ج2 ق2، ص288 Maundeville, The Book, P.136 .

(5) العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ج1، ص316، ناصر خسرو، سفرنامة،ص76 .

(6) إبن شداد، ن م، ج2، ق2، ص 198-199 .

(7) ياقوت الحموي، ن م،ج4، ص199 .

(8) Frescobaldi, Ibid, P. 77.

(9) العماد الأصفهاني، ن م، ج1 ص316.

(10) ناصر خسرو، م س، ص74، 76 .

(11) الأدريسي، نزهة المشتاق، ج5، ص359 .

(12) العارف، م س، ص217 .

(13) Moundrell, The Journery , P. 441 .

(14) Willkinson, Jerualem Pilgrims P. 84 .

(15) إبن جبير، م س، ص282، إبن شداد، م س، ج1، ق2، ص280 .

(16) التطيلي، الرحلة، ص93 .

(17) ن م، ص104

(18) الهروي، م س، ص30، ياقوت الحموي، م س، ج2، ص387، إبن شداد: م س ج2، ق2، 239،289 .

(19) Adler, Tewish Iravellers . P. 185,98.

تضم قبر الملك داود والملك سليمان وغيرهم[1] وحائط المبكى في القدس[2] ومن المزارات المشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى عين البقر قرب عكا لأعتقادهم أن البقر الذي ظهر لآدم خرج ليستخدمه في حرث الأرض [3].

مدارس المسيحيين :

فكان الأطفال يتعلمون في مدارس تابعة لكنائسهم، اللغة العربية ومبادئ الديانة المسيحية بالإضافة للتاريخ المقدس وعلم اللاهوت والحساب[4] أما اليهود فكانوا يعلمون أطفالهم في المنازل أو في مدرسة تابعة لكنيستهم مبادئ القراءة والكتابه والصلوات التي يقومون بها يوم السبت والمناسبات الدينية ثم يرسلون الولد بعد ذلك إلى أحد أكاديميات اليهود ليتلقى الشرائع والقوانين والتاريخ المقدس[5] على يد مدرس أو حبر حتى يصبح مؤهلاً للمشاركة في المناسبات الدينية. وكان اليهود وما زالوا يجمعون الأموال ليهود القدس للإنفاق عليها[6] وهكذا كانت المعابد مراكزاً لأداء طقوس عبادتهم بحرية ومركز لتعليم أبنائهم.

---

(1) Maundeville, The Book , P174

(2) حائط المبكى: هو جدار من حجارة كبيرة، بطول 156 قدماً وارتفاع 56 قدماً وهو الجدار الغربي لسور القدس القديم يبكي عنده اليهود (طلباً للمغفرة والرحمة ويزعم بعضهم أنه جزء من حائط سليمان بينما يزعم آخرون أنه جزء من سور داورد. العارف، المفصل في تاريخ القدس ج2، ص544، السيد القدس في العصر المملوكي، ص259 وهذا إعتقاد خاطئ لآن معبد سليمان دمره القائد الروماني تيطس الروماني سنة 70 م ودمر بهزة أرضية بعد أن أعاد اليهود بناؤه، كما هدمه هادريان سنة 135م وقضى على اليهود ثم أعاد بناء القدس وسماها إيليا وبنى معبداً على أنقاذ المعبد القديم ويذكر العارف أن هذا المكان يسمى بالبراق الشريف حيث ربط عنده جبريل عليه السلام براق النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وما زال قسماً من الحرم القدسي الشريف، العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج1، ص400-401 .

(3) ياقوت الحموي، ن م، ج4، ص176، إبن شداد ن م، ج2، ق2،ص284 .

(4) علي : القدس ص160، 166. قاسم: أهل الذمة ص141-142.

(5) قاسم: ن م، ص142-143، علي: القدس، ص160.

(6) علي السيد :ن م، 167 وقاسم:ن م. ص142-143.

الحيـــــــــاة الأدبيـــــــــة

تهيئـــــــه...

أنّ من الحقائق المسلم بها أن الكشف عن التراث الأدبي والعلمي يساهم في الكشف عن تاريخ الأمة الحضاري، وتنشيط معارف الأمة وتنويعها ليساهم في مسار الأمة الحضاري في العصر الحاضر. ونحن الآن في أمس الحاجة إليه وأجيالنا القادمة ليخلق فينا حوافز جديدة، والواقع أننا لا نستطيع فهم تراث أمتنا دون النظر إليه كنتاج تاريخي وإجتماعي من خلال منظور ثقافي متكامل لأن التراث من منجزات الماضي بعد أن إستطاع المستشرقون التعتيم على هذا التراث ووصفه بميراث التخلف فحذروا من التعامل معه بعد أن غزوا العقول العربية غزواً فكرياً ونالوا من تراثنا وديننا وحضارتنا بعد إستعمار بلادنا العربية.

ومن البديهات المسلم بها أن الإنسان لا يستطيع أن يتحلل من تاريخه وماضيه وحاضره وماضي وحاضر والذي لا ماضي ولا حاضر له.

كما أن إرتباط جنوبي بلاد الشام بدمشق والقدس والفسطاط والقاهرة كان لاعتبارات دينية وعلمية وسياسية، وكان على علماء هذه البلاد أن يرحلوا إلى تلك الديار ليعرفوا على علمائها ويأخذوا عنهم أو يعرضوا عليهم إنتاجهم،فأسْهَمَ هؤلاء العلماء في تنشيط العلوم الدينية[1] والأدب والشعر والتاريخ والطب والكيمياء والسياسة[2].

هذا وقد شهدت هذه المنطقة إنحساراً ثقافياً في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بسبب الظروف التي تعرضت لها الدولة العباسية وأضعفت الخلافة العباسية بعد قيام الدويلات الإنفصالية كالطولونية والأخشيدية والحمدانية وثورة القرامطة فكانت فترة ركود ثقافي[3]حيث تبع ذلك فترة إستقرار نسبي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. عندما وصل

---

[1] مثل أحمد بن مروان بن عثمان النابلسي المقدسي (733 - 805 هـ/1332-1407م)كان له مذهب في التوجيه والتصوف وأتباع وتصانيف العليمي والحنبلي م س، ج2، ص165 إبن العماد الحنبلي م س، ج7،ص44 وابن حجر:أبناء العمر ج2، ص240.

[2] أمثال إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني (715-803 هـ/1315-1405م) كان من الذين تكلموا مع تيمورلنك في الصلح السخاوي، م س،ج1،ص167-168، العماد الحنبلي:ن م ج7، ص22، وأحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسي (612-700 هـ/1212-1300م) إبن شاكر: الوافي بالوفيات:ج7، ص33-34 الصفدي أعيان العصر،ص82،إبن العماد الحنبي:ن م، ج5،ص465.

[3] د.هاني صبحي العمد، معجم النابهين في جنوبي بلاد الشام بفلسطين والأردن، ص11،ج1، عمان المملكة الأردنية الهاشمية دار الكرمل، 1985م، ص12-13.

الفاطميون للحكم، فتجدد النشاط الثقافي، وتعددت العلوم الدينية ونشطت القدس في الحياة الثقافية حيث توافد طلاب العلم إليها للإقامة في المسجد الأقصى الذي أصبح مركز الإشعاع الفكري في المنطقة، وغيره من المدارس ثم حدثت نكسة ثقافية بعد إحتلال الصليبيين لبيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي وسقوط الكرك والشوبك والعقبة بأيديهم أيضاً، مما دفع علماء هذه البلاد للهجرة إلى دمشق وبغداد والقاهرة، ثم عاد النشاط الثقافي بعد زوال الإحتلال الصليبي الغاشم وتأسيس الناصر داوود بن المعظم عيسى المكتبات في الكرك والذي كان يحب العلم والعلماء. ويقال أنه أول من أنشأ مكتبة في الكرك[1] ثم نشطت الحركة الثقافية بعد ذلك حيث إمتلأت بالمكتبات التي إمتلكها بعض العلماء كابراهيم بن جماعة الكناني[2] وهناك من كان يرتزق من بيع الكتب كأحمد بن عبدالله المقدسي[3] وأحمد بن عبد الله بن مالك العجلوني[4].

وبالنسبة للأدب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين الموافق للقرنين الثاني والثالث عشر الميلاديّن فقد تأثر بالأحداث الكبرى كسقوط بيت المقدس، وسيطرة الفرنجة على الطراز الأخضر[5]وإستيلاء المغول على العراق والعاصمة العباسية وتهديد الفرنجة باحتلال مصر، وقيام دول متتابعة في بلاد الشام ومصر وغيرها ثم توحدت هذه البلاد، فتحرر بيت المقدس وطرد الصليبيون والتتار لذا كان من الطبيعي أن يكون الأدب مرآة لهذه الأحداث الكبرى من مصائب والكوارث وصور واقعية لذا يصعب على الباحث دراسة الأدب في قطر معين وذلك لقيام وحدة سياسية شاملة تصدت للخطر الخارجي كالزنكيين[6] والأيوبيين[7]

---

(1) د.هاني صُبّحي العمد، م س، ص13.

(2) إبراهيم بن جماعة الكناني 725-790 هـ/1324-1388م درس في المدرسة الصلاحيه، كان رئيس العلماء في زمانه. ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج1، ص39-40، إبن العماد: م س، ج6، ص311-312 مجير الدين الحنبلي، م س، ج2،ص107-108.
النعيمي: م س ج1، ص40، 63،1335-1336، ج2،ص156-225،وأبو بكر بن أحمد بن عبد الدايم النابلسي (650-718 هـ/1252-1312م) إبن حجر: ن م،ج1،ص48، إبن العماد الحنبلي: ن م، ج6، ص48 النعيمي، ن م، ج1 ص53،60،97،124،733،ج2 ص42،88.

(3) أحمد بن عبدا لله المقدسي (673-723 هـ/1275-1322م) إبن حجر، ن م، هـ،193، إبن العماد الحنبلي ن م.

(4) أحمد بن عبدا لله بن مالك العجلوني (705-780 هـ/1305/1378م، إبن حجر ن م، ج1، ص196، ج6، ص265-266.

(5)أبو شامة: م س، ج2، ص104 ذكر أبو شامة أن الطراز الأخضر هو بلاد الساحل من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وغير ذلك.

(6) أسرة تركية حكمت بلاد الشام من سنة 489-577 هـ وإشهر ملوكهم قسيم الدولة أق سنقر، وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود، والصالح إسماعيل.ن م، ن ص.

(7) وأصلهم من الكراد والروادية من فخد الهنديانية من أشراف الأكراد وأقدم سكان العراق إبن واصل. م س، ج1، ص3-6، وأبو شامة: ن م، ج1، ص128،210، وإبن الأثير:م س، ج11، ص129 وجدهم شادي حكموا من 578-648 هـ.

والمماليك[1] البحرية كما أن الأدباء نشأوا في قطر، وتابعوا علومهم في بلد آخر، فكان هناك رحلات أدبية طلباً للعلم والشهرة في عصر مملوء بالأحداث الكبيرة، ناهيك عن مساعده سلاطين وأمراء هذا العصر لهم من بذل وعطاء.

وهكذا لم يكن الأدب العربي مطبوعاً بالطابع القطري أو الإقليمي لعدة عوامل منها اللغة والدين والتاريخ والثقافة الإسلامية المشتركة التي كانت تجمع شمل العناصر المتباينة في إطار واحد من الثقافة المتشابهه والتوجيه الديني الخاص، وكتب الأدب شاهدة على هذه الوحدة الثقافية.

وتحقق الحلم العربي بقيام دولة عربية كبرى شملت الشام ومصر واليمن والحجاز وغيرها، زمن صلاح الدين الأيوبي، الذي حرر بيت المقدس، ولكن المسلمين أصيبوا بنكسة الإنفصال بعد وفاته نتيجة لنزاع أولاده وإخوته على السلطة فطمع الفرنجة بهم مرة ثانية بالعودة إلى بلاد الشام، وغرب نجم هذه الدولة التي أتمت رسالة سابقها الدولة الزنكية في تحرير البلاد وتوحيدها على يد الناصر صلاح الدين، ولكن خلفاؤه"تفرقوا منذ هبت ريحهم وخلفهم مواليهم من المماليك فأنقدوا البلاد وعلى رأسهم شجرة الدر أول ملكة في مصر والشام في التاريخ الإسلامي[2] وسيف الدين قطز على الرغم من تنازعهم حيث حفظوا البلاد من شر الطامعين القادمين من الشرق والغرب[3].

وهكذا شهدت الحياة السياسية في هذا العصر تتابع ثلاث دول خلال قرنين من الأزمان، إستطاعت خلالهما من تأدية واجبها في الصراع مع الفرنجة والتتار على الرغم من كل الإختلافات الداخلية، والنزاع على الملك والسلطان هذا ونلاحظ بأن سياسة الأيوبيين[4] في شرقي الأردن ورعايتهم للثقافة الأدبية والعلمية أدت لظهور العديد من الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء حيث كان للناصر داوود الفضل في رقي الثقافة في الأردن وخاصة في الكرك مما ساهم في إزدهار الحياة الثقافية في العصر المملوكي في مجال الأدب والعلم ولكن يصعب علينا

---

(1) حكموا من 648 -783 هـ، ن م، ن ص.

(2) إبن إياس: م س، ج1، ص88، وابن تغري بردي،م س، ج6، ص372، وابن كثير:م س، ج13. ص199.

(3) المقريزي السلوك: ج1،ص480، وابن كثير:ن م، ج13، ص220،221،224.

حيث هزم هولاكو شر هزيمة سنة 651هـ في معركة عين جالوت ولكن أغتيل للأسف على يد بيبرس أحد قوادة لعدم توليته نيابة حلب

(4) أبن واصل: م س، ج4، ص330.

في المجال الثقافي فصل الأردن عن دمشق والقاهرة[1] لأنها كانت دولة واحدة، وكان على طلاب العلم الرحلة إلى بيت المقدس الذي إستقطب فحول الأدباء والفقهاء.

ويلاحظ كثير من نقاد الأدب العربي، أن رجال الفكر كانوا يأنفون من الصراع السياسي أو لايعنيهم فيلجأون إلى القصور مهما تغير حكامها، فكان هؤلاء الحكام يستفيدون من تجربتهم وخبرتهم وينافسون غيرهم من الأمراء والملوك، أما الأدباء فكانوا يستغلون هذه الحياة الهادئة فيكتبون ويؤلفون وينتجون ولذا تنقل الكتاب والأدباء والعلماء في معظم البلاد العربية والإسلامية،وبذلك وحدوا نماذج الأدب تقريباً وبما أن البلاد العربية والإسلامية كانت تسهم في الإنتاج العلمي والثقافي والأدبي متأثرة بعواصم البلاد الإسلامية الأخرى فقد توحد الأسلوب الأدبي وشاع إتباع أسلوب موحد للبحث العلمي أو أسلوب الكتابة الأدبية فظهرت مكانة أئمة المذاهب، كما ظهر مقلدون وأتباع، وبذلك كانت الأمة في مراكز الثقافة بالبلاد الإسلامية حيث كان هؤلاء يتوجهون دائماً إلى هذه المراكز العلمية ليخطوا بالتشجيع المادي والأدبي.

وبالنسبة للدراسات التاريخية فقد إهتمت بعروبة المكان وإسلاميته حيث عنيت بالتراجم والسير التي تأثرت بعلوم الفلسفة والحغرافية والفلك، وأرخ الفقهاء والمحدثون.

وفي مجال الترجمة عن اللغات القديمة فقد نشطت لتشجيع الخلفاء والوزراء في مجال الأدب والتاريخ والدين امثال أحمد شاكر الرومي[2] ويلاحظ بأن شهرة جنوب بلاد الشام قد جاءت من كونها ممتده في أعماق التراث العربي الإسلامي الذي شكلّ سداً منيعاً أمام الهجمات الثقافية الأجنبية من لاتينية ورومية وغيرها بعد إستعمار هذه المنطقة، كما أن إختيار المادة التاريخية الحضارية منها يمنحنا الثروة والعزة والتفاخر الأنساني لنستطيع مواجهة الظواهر الثقافية السلبية الخطيرة بين أجيال الحاضر والتعامل مع الواقع بوضوح وعمق وصدق لاستشراق المستقبل للوصول إلى الأمن الثقافي بمواجهة الثقافات الوافدة الخطيرة التي تحاول زعزعة لغتنا وشخصيتنا العربية الإسلامية وعاء التراث الحضاري والفكري.

---

(1) مثل: آل الحسباني: نسبة إلى حسبان القرية من عمان العاصمة وآل الباعوني من قرية باعون قرب عجلون وكانت لهم قبة داخل المسجد الأموي تسمى قبة الباعونية يجلس فيها علماؤهم وفقهاؤهم لتدريس الطلاب.
المرادي: خليل بن علي بن محمد بن مراد، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر 4 أجزاء المطبعة الأميرية بولاق 1291-1301م ص112.

(2) أحمد شاكر الرومي (توفي بعدسنة 800هـ /1402م الذي قدم من بلاد الروم ووعظ ببيت المقدس بالتركي والعربي والعجمي: العليمي الحنبلي، م س،ج2، ص169-170.

علوم اللغة العربية

لقد كانت علوم اللغة العربية ضرورة ملحة لدراسة القرآن الكريم الذي أُنزل على النبي العربي بلسان عربي مبين.

وشملت هذه العلوم : التأليف في اللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض.

اللغة ومعاجمها :

لقد ساهم ياقوت الحموي في إثراء هذا النوع من اللغة في تضيفة المشهور "معجم البلدان " الذي رتبه على الحروف الأبجدية عام 621هـ/1221م[1] وله كتاب آخر باسم " المشترك وضعاً والمختلف صقعاً".

ومن علماء اللغة أيضاً : إبن مالك إمام اللغة العربية في هذا العصر[2] وقد صنف في اللغة كتاب "المثلث في اللغة " الخاص بالألفاظ ومعانيها[3] هذا بالإضافة إلى أرجوزته المؤلفة من ثلاثة الآف بيت "إكمال الأعلام بمثلث الكلام"[4] وكتاب "الإعتقاد في الظاء والصاد".

ومن مشاهير اللغة أيضاً في هذا العصر : حجة الدين بن ظفر الصقيلي اللغوي النحوي[5] صاحب كتب "ملح اللغة" و"الإستنباط اللغوي" و"الإشتراك اللغوي"[6]

النحو والصرف

لقد إهتم علماء الشام بالأبحاث النحوية لتأثرهم بمبادئ المنطق ودراساته. ومن علماء القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي : أبو عبدالله الطليطي في قلعة شيزر ومؤدب أمراء بني منقذ"[7] وأبو نزار حسن بن نزار المتوفي عام 568هـ/1172م ملك النحّاه[8].

---

(1) ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص15.

(2) إبن تغري بردي: المنهل الصافي، ق4، ورقة 190 (مخطوط) وإبن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج2، ص214.

(3) إبن الوردي: تتمة المختصر، ج2، ص222.

(4) إبن تغري: ن م،ق3. ورقة 191.

(5) السيوطي: بغية الوعاظ،ج2،ص59.

(6) ياقوت: معجم الأدباء، ج7، ص102.

(7) وصفه تلميذه أسامة بن منقذ في كتابة: الإعتبار – ص208:209 "بانه سيبويه زمانه في النحو"

(8) إبن الوردي:م س، ج2، ص82.

أما في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي فقد برز النحوي الكبير : جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني الأندلسي المولد[1] في عهد الظاهر بيبرس الذي تخرج من مدرسته أعلام النحاه في بلاد الشام كابن العطار، وأبو الحسن اليونيني[2] وقاضي القضاه بدر الدين بن جماعة وغيرهم[3] بالإضافة إلى مصنفاته المشهورة[4] وكان تلميذاً للنحوي الحلبي ابن الصائغ المتوفي عام 643هـ/1245م صاحب تصانيف النحو الشهيرة وأهمها "شرح المفصل" للزمخشري، وشرح "تصريف الملوكي لا بن جنّي"[5] ومنهم الشيخ بن علي السخاوي المتوفي 1245/643م[6] والملك المؤيد أبو الفداء الذي صنف كتاب "الكناش" كموسوعة كبرى في قواعد النحو والصرف واللغة والمنطق[7] وأبو شامة المقدسي صاحب كتاب "المقدمة" في علم النحو و"نظم مفصل الزمخشري"[8].

ومن علوم اللغة العربية، العلوم التاريخية والإجتماعية التي إهتمت بالتطورات السياسية المعاصرة والأحداث الحربية التي تهددها فاشتهر، مؤرخو هذه الفترة بالرواية الموثوقة وكان أهمهم : "بهاء الدين يوسف بن شداد" مؤرخ حياة صلاح الدين الأيوبي[9] من كبار القضاة للعسكر وبيت المقدس وناظر أوقافه ومرافقه في غزواته وأبو شامة المقدسي "مدرس التاريخ في الجامع الأموي بدمشق "وصاحب كتاب" الروضتين"[10] كما إشتهر بالتاريخ العام عز الدين علي بن الأثير في تصنيفه "الكامل في التاريخ "وإبن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول" وإبن أبي طيئ"ت 630هـ/1232م. صاحب: " تاريخ طبقات العلماء" وسبط إبن الجوزي،

(1) إبن جبير: م س، ص235. وإبن شاكر:م س،ج2، ص284. وإبن تغري بردي:م س، ق3، ص191.

(2) إبن حجر: م س، ج4، ص382. وإبن كثير: م س، ج14 ص126.

(3) إبن تغري: ن م، ن ص. وإبن الوردي: م س، ج2، ص222.

(4) من كتبه الشهيرة في النحو: "تسهيل العوائد" إبن خلدون، المقدمة، ص547 وأرجوزته " الطافية الشافية " في ثلاث آلاف بيت ثمّ إختصرها في ألف بيت وسماها:"الخلاصة الألفية" إبن تغري: ن م ق7، ص191. وإبن الوردي: ن م، ج2 ص222 "ولامية الأفعال "وعمدة اللافظ" و"عمدة الحافظ ".

(5) إبن الوردي، ن م، ن م، ص176.

(6) ن م، ن ص، ذكر أنه رآه بدمشق والناس يتزاحمون عليه في الجامع للقراءة وهو يرد على الجميع ومن مصنفاته "المفضل في شرح المفصل، " سفرا لسعاده وسفر الإفاده".

(7) د. عمر موسى باشا: م س. ص155.

(8) ن م، ن ص.

(9) إبن شداد: النوادر السلطانية ص71، وإبن خلكان:م س، ج2، ص354، والسبكي:م س ج5، ص115.ومجير الدين الحنبلي، م س،ج2، ص447،464.

(10) أبو شامة:م س،ج1،ص 5.

ت654هـ/1256م صاحب : "مرآة الزمان "[1] والملك المؤيد أبو الفداء صاحب : "حماة ت632/1234م وكتابه الشهير : "المختصر في إخبار البشر" وقاضي قضاة حلب[2] شهاب الدين إبراهيم بن أبي الدم (ت 642هـ/1244م) وقد صنف للملك المظفر "التاريخ الكبير المظفري" في تاريخ الملّة الإسلامية.كما برز في التأليف التاريخي فريق تخصصوا في التاريخ الخاص ممن عاصروا ضعف الخلافة العباسية والدول المنفصلة عنها في بلاد الشام التي تحدثوا عنها كالأزرق الفارقي، احمد المتوفي عام 660هـ/1262م، في كتابه "تاريخ الفارقي"[3] وكمال الدين بن العديم صاحب كتاب "تاريخ حلب".

وإبن الأثير المؤرخ السابق، والعماد الكاتب المتوفي عام 597هـ/1201م، صاحب المسجوعتين " الفتح القسي في الفتح القدسي" الذي أرخ لحروب صلاح الدين الأيوبي منذ دخوله دمشق وحتى وفاته[4].

وقد إستخدمه نور الدين في ديوان "الإنشاء "[5] وكان لصلاح الدين بمثابة وكيل وزارة وبهاء الدين بن شداد المتوفي عام 632هـ/1234م صاحب كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" والذي تحدث فيه عن حروب صلاح الدين مع الصليبيين وأبو شامة المقدسي المشهور بـ "الروضتين " والذيل على الروضتين " عن تاريخ دمشق، وجمال الدين بن واصل[6] قاضي حماة المتوفي عام 697هـ/1269م سفير الظاهر بيبرس إلى ملك الصقليتين وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة "منفرد بن فردريك " وبالنسبة لعلم التراجم والطبقات فقد صنفوا

---

(1) إبن تغري بردي: المنهل الصافي، ق3، ورقة 462، مخطوط.

(2) وقال في كتابه "مرآة الزمان " ج8، ص472: (..ولما فارقت دمشق بسبب ما جرى في حديث القدس، طلعت إلى الكرك، وأقمت عند الملك الناصر وكنت أتردد إلى القدس ونابلس).

(3) أبن الأزرق الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض، 1959م القاهرة. ويضم تاريخ مدينتي آمد وميافارقين.

(4) أبو شامة:م س، ج1، ص144، ج2، ص244، السبكي:م س،ج4،ص97، النعيمي، م س، ج1، ص408.

(5) إبن تغري بردي: المنهل: ق2 ورقة 587 مخطوط.

(6) صاحب كتاب: مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، والذي أرّخ لسقوط الدولة الأيوبية قاهرة الصليبية، كما صنف في التاريخ العام في كتابه "التاريخ الكبير" الذي أرخ فيه للعالم الإسلامي منذ عهد الرسول الكريم إلى عصر الملك الصالح في مصر.

هذا وقد ذكر في كتابة "مفرج الكروب: ج4، ص335 " فوجدنا منه إحساسًا كبيراً وتفضيلاً زائداً وشاهدنا ملكاً ذا فضل باهر وعلم زاخر ".

في تراجم أعيان المدن والأقطار كابن عساكر المتوفي عام 571هـ/1175م[1] صاحب كتاب "تاريخ دمشق " وفيه تراجم لعلماء دمشق مرتباً على الحروف الأبجدية وإبن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب المتوفي عام 668هـ/1270م. صاحب كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" وابن القفطي المتوفي عام 646هـ صاحب كتاب " أخبار الحكماء وإبن ابي طيئ المتوفي عام 630هـ/1232م.

وابن خلكان المتوفي عام 681هـ/1283م صاحب كتاب "وفيات الأعيان" وهو مجموعة لتراجم الأعيان في العلم والأدب والسياسة والقضاء مرتباً على الحروف الأبجدية وهذا يؤكد الإتجاه الشعبي في التأليف عند مؤرخي هذا العصر لأنه لم يدكر تراجم الصحابه والتابعين ونلاحظ إستخدام الإسلوب المُسْجَع في هذه الكتب التاريخية التي إمتازت بطول الأخبار، والأسلوب الشعبي في الحلقات المسجدية للمؤرخين الذين كانوا يعرضون للناس الأحداث المعاصرة والماضية، لذا تخصص البحث التاريخي في هذه الفترة في ثلاثة مجالات هي التاريخ العام والتاريخ الخاص، والتراجم والطبقات.

وبالنسبة لعلم التاريخ في العصر المملوكي :

فقد كان للقدس دور بارز في إزدهار الحركة العلمية في القدس أيام المماليك والدين مثلوا المدرسة الشامية في التأريخ والتي تميزت بتسجيل أهم الأحداث المحلية والسياسية بوجه خاص إلى جانب إهتماماتها بالعلماء ورجال الدين من ذوي المذاهب المتنوعه[2] ذلك لأن معظم مؤرخي هذه الفترة كانوا علماء الدين[3] كما قسّم بعض المؤرخين المحدثين مؤرخي بيت المقدس في العصر المملوكي إلى قسمين رئيسين : عالم الدين والمؤرخ ورجل الإدارة المؤرخ من أرباب الأملاح، أما عالم الدين المؤرخ فقد جمع بين دراسة العلوم الدينية المختلفة وبين علم

---

(1) المؤرخ الدمشقي والحافظ والمحدث بالديار الشامية: إبن خلكان: م س: ج1، ص325. وإبن كثير، م س، ج12، ص294، والسبكي: م س، ج4، ص273، وإبن الوردي: م س، ج2، ص87، وسبط إبن الجوزي: م س، ج8، ص336.

(2) أحمد عبد الرزاق أحمد: دراسات في المصادر المملوكية -القاهرة 1974م ص174.

(3) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين، نشر دار المعارف 1982 لآنه كان من الطبيعي أن تفرض عليهم خلقيتهم الثقافية الإهتمام بهذه النواحي ،ص109 وتلك الأمور. ن م، ص111.

التاريخ[1] لجانب توليهم الكثير من المناصب الدينية المختلفة مثل التدريس والقضاء والإفتاء وكان هذا النمط يشكل أغلبية مؤرخي بيت المقدس أمثال أبو شامة المتوفي عام 665هـ/1267م[2] وإبن فضل الله العمري المتوفي عام 749هـ/1348 م المؤرخ الإداري لأنه رتب مراحل العلم في الدواوين والإنتشار زمن الناصر محمد محمد بن قلاوون[3].

وصلاح اليدن الصفدي المتوفي عام 764هـ/1363م والذي يعتبر من الأعلام المشهورين في بلاد الشام إذا كان مؤرخاً واديباً ورساماً[4].

---

(1) قاسم عبده، م س، ص 175 يقول د. علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي ج1، القاهرة 1986 ،ص140 يقول: لم يكن هؤلاء الإداريين يكتبون تاريخاً بالمعنى المفهوم للكلمة، تكون كتاباتهم عبارة عن نسخ وتجميع معلومات من المصادر التي يعتمدون عليها دون مساهمة أصيلة من جانبهم ولكنهم حين يكتبون بقصد آخر غير تدوين التاريخ.

(2) أحمد عبد الرزاق: م س، ص174،180. ومن أهم مؤلفاته "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " والذي يعتبر من أهم المصادر في الحروب الصليبية وخاصة قيام الدولة الأيوبية.

(3) المقدسي الأصل الدمشقي المولد والمنشأ مات في السجن بعد غضب السلطان عليه: ن م، ص142 وكتابه " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " من 14 جزءاً ويعطي إنطباعاً أنه من كتب الجغرافية ويعتبر كتابه موسوعة ودائرة معارف جغرافية ودينية وتاريخية. أحمد عبد الرزاق: ن م، ص48، وقاسم عبده، ن م، ص142 وكتابة الثاني: التعريف بالمصطلح الشريف " والذي شمل معلومات قيمة عن تاريخ دولة سلاطين المماليك،ن م، ص143-144. ومن مؤرخيه محمد بن رافع بن هجرس السلامي العميدي، أبو المعالي تقي الدين(704-774هـ/1304-1372 م مؤرخ فقيه من حفاظ الحديث، حوراني الأصل، ابن حجر:الدرر ج3، ص439، العماد الحنبلي: م س، ج6 ص234.

(4) الدباغ: فلسيطينيات،ج6،ص118.

أدب الحـــروب الصليبيـــــة

لقد تميز أدب هده الفترة بجهاد المسلمين ضد الغزو الصليبي الغاشم بالإضافة للبعد الإجتماعي لحياة الناس في هده الفترة فكان إنعكاساً لهـده الأحداث أحياناً وذاتي الإتجاه فردي النزعة كالمدح والهجاء والرثاء والوصف والغزل أحياناً أخرى ، وهكدا إرتبط الأدب في هده الفترة بالفكر الإسلامي والبيئة الزمانية والمكانية والسياسية فترك الأثر الكبير في نفوس الناس خاصة فيما يتعلق بحفزهم على الجهاد كالشاعر الأبيوردي[1] والقيسراني[2] .

[1] هو محمد بن أحمد القرشي المتوفي في اصفهان عام 557هـ/1161م ومن قصيدته التي انشدها القاضي الهروي في بغداد في بداية الهجوم الصليبي وكان قاضياً بدمشق وتوفي عام 519هـ/1121م . السبكي : م .س ، ج7 ، ص22 .

إيهاً بـــني الإســلام إن وراءكـم   وقائـــع يلحقــن الذرا بالمنـاسـم

وكيـفَ تنـامُ العين ملئ جفـونهـا   على هفـوات أيقظـت كُلَّ نائـم

وإخوانكـم بالشام يضحى مقيلهـم   ظهورا المذاكي أو بطون القشاعـم

تسـومهـم الـروم الـهوان وأنتـم   تجرّون ديل الخفض فعل المسالـم

تفسير المفردات:

المناســم : جممع منسم وهو خف البعير

المذاكي : . جممع مدكية وهي الفرس بعد قروحه سنة أو سنتان

وقشاعـم : جمع قشعم وهو النسر المسن

الخفض : الغنى

د. عبد الرحمن الساريسي : نصوص من أدب الحروب الصليبية ، ط1 ، دار المنارة للنشـر السـعودية – جـده -1985 م وفيهـا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع إخوانهم المسلمين في بلاد الشام ص24 .

[2] والشاعر إبن القيسراني الدي عاصر عماد الدين زنكي بعد تحريره لإمارة الرها عام 539هـ/1141م . ومن شعره بهده المناسبة :

أماَ آن أن يُزهقَ الباطل   وأن ينجـز العـدة الماطـــلُ

فإن يكُ فتحُ الرها لجـة   فساحلها القدس والساحـل

أبو شامة المقدسي: م س ، ط 1287هـ/ج1 ، ص44 واللجة : معظم الماء .

كما هنأ نور الدين زنكي بعدإنتصاره على صاحب أنطاكيه " البرنس" عام 544هـ/1148م بقوله :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لَجَب   يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

وَأْذَنْ لـــوجـك في تطهـير ساحلـه   فإنمـــا أنـــت بحـر لجـه لجـبُ

أبو شامة : ن ،م ج1 ص59 -60 ، اللجب : إرتفاع أصوات الأبطال وإختلاطها .

والعماد الأصفهاني[1]وعلي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي[2] لتحرير القدس وباقي الأراضي المحتله.

وهكذا يلاحظ بأنه كان أدباً رائداً وهادفاً للجهاد ومصوراً لردود العملية على الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية بابراز دور المسلمين المشرف في الصمود والتصدي للعدوان الإستيطاني طيلة قرنين من الزمان بدون كلل أو ملل مما حفز الأدباء والشعراء والخطباء على معايشة هده الفترة معبرين عن هموم وآمال وتطلعات أمتهم العربية والإسلامية فلم يهنأ الشعراء بنصر قبل فتح القدس إلا وطالبوا بفتحها وأغروا به الحكام والسلاطين مستغلين الشعور الديني لمكانة القدس والدعوه للجهاد والشعور الأجتماعي لما لحق بالمسلمين من الدل والهوان .

---

[1] ارسل قصيده إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي بعد إنتصاره على الصليبيين في مصر منها :

فتحت مصراً وأرجوا أن تصير بها ميسراً فتح بيت المقدس عن كثب

كما وجه قصيدة أخرى لصلاح الدين بعد توحيد مصر والشام يستصرخه لتحرير القدس قائلاً

أغزُ الفرنج ، فهدا وقت غزوهم وأحطمْ جموعَهُم بالدابل الخطمِ

وطهر القدس من رجس الصليب وثُسبْ على البغاة وثوّبَ الجدلِ

فملكُ مصرٍ وملك الشام قد نُظما في عقد عِز من الإسلام منتظم

أبو شامة : م س، ج1 ص1755 ، والذابل : هو الرمح الدقيق ، والأجدل : الصقر ،المشتهي اللحم .

[2] وجه قصيده لنور الدين زنكي بعد توحيده مصر والشام بين يديه :

ولست تُعذرُ في ترك الجهاد وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب

وطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والإشراك والصُلبُ

عساك تظفر في الدنيا بحسن نبا وفي القيامة تلقى حسن منقلبِ

أبو شامه : ن م ، ج1 ،ص37 ; 38 .

وبالنسبة للدراسات النحوية[1] فقد شهدت تقدماً وإزدهاراً في شرقي الأردن زمن الأيوبيين لرعاية الملك المعظم عيسى صاحب دمشق (ت624هـ/1226م)[2] وإبنه الملك الناصر داوود (ت656هـ/1258م)[3] الذي إستقر في الكرك وأسس إمارتها فأصبحت قبلة الأدباء والعلماء الدين أحاطهم بحسن الرعاية وبحضور مجالسهم وتقريبهم إليه أمثال النحوي الأديب إبراهيم بن علي بن إسحق إبن علي الأموي القريني وإبن بصاقه القاضي أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري[4] وغيرهم. وذلك لشغفه بالأدب والشعر وتشجيعه للأدباء والشعراء وإغداقه عليهم بالمال والجوائز كما فعل مع الشاعر راجح الحِلّي بأنْ وهبه أربعين ألف درهم على قصيدته التي مدحه فيها عندما زار مدينة نابلس في فلسطين[5] ومن الأدباء الذين جمعوا بين الأدب والنحو والشعر والخط والتاريخ موفق الدين يعقوب بن إسحق بن القف النصراني الكركي[6] وعمل كاتباً في الديوان إذ كان صديقاً للطبيب إبن أبي أصيبعة .

ثم جاء العصر المملوكي في الكرك – جنوب الأردن المتميز بالنهضة الثقافية والعلمية لعطاء علمائه وإبتكاراتهم في مجال العلوم الدينية والعقلية والأدبية نتيجة إنتشار المدارس ، فأمَّ الكرك

---

(1) أمثال النحوي : إبراهيم بن موسى بن بلال بن عمران الكركي : عالم القراءات السبع واللغة العربية بالإضافة لتعمقه في الفقه وكان من مؤلفاته النحوية : شرح ألفية إبن مالك " وإعراب المفصل من الحجرات إلى آخر القرآن" "نثر الألفية النحوية " ورقة اللبيب إلى علم الأعاريب : السخاوي : م س ، ج1 ، ص175 .

(2) كان محباً للأدب حتى أنه اعطى كل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعه : المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص258 .

(3) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج1 ، ص419 ، المشهور بالقصيدة الناصرية : اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج1 ،ص133-134 ومنها :

تقهقـه في تلك الربـوع رعــوده ... وتبكي على تلك الطلول سحائبه

ألا يـا أمير المؤمنـين ومن غـدت ... على كاهل الجوزاء تعلو مراتبـه

ومن جده عم النبي وخدمه ... إذا صار منـه أهلـه وأقاربــه

وأورد من شعره في صفحة 149 :

طرفي وقلـبي قاتـل وشهيــدٌ ... ودمعي على خديك منه شهيدُ

من لي بطيفك بعدما مُنع الكرى ... عن ناظريّ البعدُ والتسْهيــدُ

(4) اليونيني:ن م،ج1 ، ص128 ،132 ، وإبن كثير م.س ، ج13 ،ص184 وإبن الفرات : م س ،ج7 ،ص59 .

(5) زار الحبيب وذيل الليل منسدل ... فانجاب عن وجهه داجي غياهبه

فقال لي صاحبي والضوء قد رفعت ... يـداه مــن لين مـرخي جلابيــه

فقلت يا عادلاً من نور طلعتــه ... أما ترى البــدر في عــقاربــه

اليونيني : ن م ، ج1 ، ص144 .

(6) إبن أبي أصيبعة : م س ، ج2 ص173 ، واليونيني : ن م ،ج4 ،ص312 .

طلابُ العلم للأخذ عن شيوخها وفقهائها[1] وخاصة مند القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي حيث إزدهرت العوم العقلية كالفلسفة والطب[2] .

الأدب في العصر المملوكي

لقد إتفق الباحثون على ربط الحياة الأدبية بالحياة السياسية والإجتماعية فقسموا عصور الأدب العربي حسب العصور الإسلامية كعصر صدر الإسلام الدي ينتهي بعام 40هـ وعصر بني أميه وينتهي بعام 132 هـ والعصر العباسي الذي ينتهي بعام 656 هـ والعصر المملوكي الدي يبدأ بعام 656هـ/1258م وينتهي عام 923 هـ /1516م.

وإعتبر العصر المملوكي من عصور ضعف الأدب العربي بعد تعرض العالم الإسلامي لموجة الغزو المغولي التتري على يد هولاكو فلم يزدهر الشعر لعدم تشجيع سلاطين المماليك للشعر العربي مما دفعهم للإنصراف إلى حرف يتكسبون بها بالإضافة لصراعهم على السلطة الدي نتج عنه فرض الضرائب الباهضة التي أرهقت الشعب .

ولهذا نظمم الشعراء في هذا العصر في أغراض الشعر التقليدية متأثرين بالظروف التي شاعت في ذلك العصر ، كما نظموا في المدائح النبوية والشعر الصوفي وشعر الفكاهة ، وشعراه في المدائح النبوية كالبوصيري صاحب البردة[3] وهكدا أتصف الشعر بالأغراض السطحية وشيوع بعض الألفاظ العامية وإستخدام كثير من مصطلحات العلوم في الشعر، أما الأدب فقد إزدهر في العصر المملوكي لرفعهم من شأن ديوان الإنشاء ومحافظتهم على اللغة

---

(1) السبكي : طبقات الشافعية ، ج6 ، ص106 .والنعيمي : م س ، ج1 ، ص67 .د.غوانمه : التاريخ الحضاري : م س ، ج2 ،ص158.

(2) أمثال : إبن القف الكركي الذي درّس الطب في الكرك ودمشق وألف فيه. والطبيب علم الدين توما بن إبراهيم الشوبكي طبيب الناصر محمد بن قلاوون والذي ألف كتاب : "إختصار مسائل حنين " إبن حجر : م س ، ج2 ، ص63 .

وعالم الكيمياء يوسف بن سليمان الكركي الذي حول النحاس إلى ذهب بوضع قليل من الأكسير على النحاس فيصير ذهباً وعلى الرصاص فيصير فضة وبعد فشل تجاري أعدمه السلطان الناصر محمد بن قلاوون : النويري ، م س ، ج31 ، ورقة 105، 106 ، مخطوط .وإبن حجر : ن م ، ج5 ،ص231 .

(3) ومن تك في رسول الله نصرته ... إن تلقه الأسد في آجامها تجم

هو الحبيبُ الدي تُرجى شفاعتهُ ... لكل هولٍ من الأهوالِ مُقتحمُ

محمد سيدُ الكونين والثقلين ... والفريقين من عربٍ ومن عجم

العربية كلغة رسمية للدولة ، بالإضافة لميلهم للعلم والعلماء وشعورهم بأنهم حماة الإسلام الذين عليهم المحافظة على ترابه بعد فضائع التتار في بغداد.

وكان من مظاهر القوة في أدب العصر المملوكي: إزدهار التأليف في جميع المباحث الأدبية واللغوية والدينية والإنسانية مثل :

-معجم لسان العرب : لإبن منظور ، ومعجم القاموس المحيط للفيروز أبادي في اللغة.

- وألفية إبن مالك (شرح إبن عقيل على ألفية إبن مالك في النحو).

- وتفسير "إبن كثير" في العلوم الدينية .

- والموسوعات الشاملة لشتى الأنواع من الثقافة العربية الإسلامية مثل " نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري و "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " للعمري" و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا " للقلقشندي لذا تميز الأدب في تنظيم الأفكار وإستقصاء المعاني والتعبير عنها بكل دقة والسهولة والوضوح في الألفاظ والإبتعاد عن المجاز والصور البيانية الغريبة وظهر بجانب هذا الرسائل الديوانية ، والأدبية ، والإخوانية ، والمقامات ، الكتب والمجموعات الأدبية التي إتسمت بعدم التسلسل والربط بين الإفكار وفتور العاطفة والمبالغة في الزخرف والإغراق في البديع والإطالة والتكرار وشيوع الأخطاء اللغوية كوصف النويري لغوطة دمشق(685-754هـ/1287-1353م)[1] .

وبالنسبة لأدب التراجم[2] :

فقد إزدهر هذا النوع من الأدب نتيجة لظروف المواجهة الطويلة بين المغول والمماليك إضافة لمواجهة الصليبيين مما ولدّ إحساساً عميقاً بأهمية فعالية الأبطال في التاريخ فشمل هذا الأدب رجالات الحرب والدولة والسلاطين أيضاً بالإضافة لتراجم العلماء ، وقد قاد هذا الإتجاه،

---

[1] هي شَرَك العقول ، وقيد الخواطر ، وعقال النفوس ، ونزهة النواظر ، خلخلت الآمها أسواق أشجارها ، وجاست المياه خلال ديارها، وصافحت أيدي النسيم أكف غدرانها ، ومثله في بواطنها ، مؤانس أغصانها ، أي تمايل أغصانها.

[2] أنظر تراجم السلاطين في العصر المملوكي الأولى "المماليك البحرية"

Holt: The Virtuous Royal Biographies, in : Nottingham Medival Studies 24, 1980, PP. 27-35.P.M.

Holt : Three Biographies of Al- Zahir Bay Bars. in medival historical Writing in the Christianand, Islamic World, London, 1982, PP. 19-29.

إبن فضل الله العمري (700-749 هـ/1300-1348م) في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" ، في عهد الناصر محمد بن قلاوون الدي حكم مابين (694-741 هـ/1293 - 1340م) مع انقطاعين قصيرين في عهد الناصر محمد بن قلاوون حيث أضاف قسماً للتراجم وآخر للأحداث التاريخية[1] والجغرافيا السياسية، لذا توسعت الأنواع الأدبية الموروثة بإضافة موضوعات متعدده في التأليف فسميت بكتب " الموسوعات " أو "دوائر المعارف" وتبعه القلقشندي في موسوعة " صبح الأعشى" في صناعة الإنشا" والتي كان موضوعها الرئيسي " الكتابة الديوانية" لذا فعمد المؤلفون في مجال "أدب الكاتب" إلى جمع موضوعات متعددة والتي منها أدب كاتب ديوان الإنشاء كما أكد الفقيه الفلسطيني السياسي المملوكي بدر الدين إبن جماعة(ت733هـ/1332م) على الجهاد والغزو كل عام بعكس الماوردي (ت 450 هـ/1058م) في "الأحكام السلطانية" الذي بقي في العموميات في باب الجهاد نلاحظ بأن العامل النفسي بالنسبة لأصل المماليك والسياسي بالنسبة للصراع العسكري مع الغزاة كانا سبباً في إزدهار أدب التراجم والدراسات التاريخية في دولة المماليك البحرية بعد إنتصارهم على المغول ليثبتوا قوة المسلمين ووجودهم لإعادة الثقة بالنفس كما فعل إبن جماعة (ت 733 هـ /1332 م) في كتابه "تحرير الأحكام" بعد عصر الناصر محمد بن قلاوون، فظهر نوع ثقافي جديد تمثل في سلسلة من المؤلفات كان هدفها كشف الفساد في الدولة ومناشدة للسلاطين وكبار الأمراء لمحاربة الفساد الإداري وإعادة الإستقرار، مثل كتاب تاج الدين السبكي (ت 771هـ/1369) المسمى " معيد النعم ومبيد النقم" وكتب المقريزي (ت 845 هـ/1442م) و"إغاثة الأمة بكشف الغمة " ومحمد بن محمد بن خليل الأسدي

(ت 8555 هـ /1450 م) في كتابة التيسير والإعتبار والتحرير والإختيار " لذا خرج هذا الأدب السياسي على الأدب التقليدي بمعالجته لمشاكل الدولة المعاصرة وكشف الفساد فظهر هذا الإنتاج الثقافي بعد وفاة الناصر محمد النكسة الإدارية بعد العصر الدهبي حيث تردت الأحوال العامة.

---

[1] سمي عصرهُ " بالعصر الدهبي " الأسعدي : التيسير ، ص68 . المقريزي : الخطط ، ج2 ، ص305 .

شعراء عجلون في شرقي الأردن

لقد عـاش فـي قلعـة عجلـون[1] بعـض الشـعراء منهـم الشـاعر الأديـب محمـود بـن طـي العجلوني[2] المتوفي 734هـ/1333م ما أن قارب السبعين من عمره ويحيى بن خضير السلمي البصري المتوفي عام 711هـ/1311م ومحمد بن سليمان ، وظـافر المـارداني وسـعد الديـن بـن المبارز العجلوني[3]. أما محمود بن طي العجلوني ، فقد إمتاز برقة شعره الوصفي والمؤثر فـي النفس.

مميزات الشعر العجلوني في القرن السابع والثامن الهجريين /الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

لقد إمتاز شعر هده الفترة بالمدح والوصف بشكل عام بالإضافة إلى موضوعات جزئيـة كشعر الهجاء والرثاء والألغاز .وكان الممدوح في المدح واحد ، والموصوف في الوصف متعدد ومن أمثلة المدح الشعر الذي قيل في مدح كمال الدين أبو حفص عمر بـن شـرف الديـن محمد حاكم أذرعات عام 708هـ/1308م للشاعر محمود طي العجلوني الملقب بالحافي[4].

---

(1) تقع على قمة جبل عوف غرب عجلون حيث تبعد عنها ثلاثة كيلو مترات ، ويحيط بها خندق دائري شق في الصخر الصلد بعمق 5-10 أمتار وعرضه ما بين 15-20 م حيث كان يُملأ بالماء ليمنع تقدم العدو نحو القلعة ، وكان بابها في الجهـة الشـمالية الشـرقية مـزود بجسر خشبي متحرك على سلاسل حديدية وكان يرفع في الليل وقت الحرب.

د. غوانمة : التاريخ الحضاري ، ص270-272 وقد شاهدها الباحث بنفسه، بناها عز الدين أسامه زمن العادل سيف الدين أبـي بكـر بـن أيوب للإحتماء بها من بني عوف الأشداء . إبن شداد الأعلاق الخطيرة ، ص87-88 .

وانظر : أبوا الفداء ، تقويم البلدان : ص244 وتسمى أيضاً قلعة الربض..Qalat ERabad.

(2) إبن حجر: م س ،ج5 ، ص 94 . د. قاسم المومن، وفخري كمال:شعراء عاشوا في قلعة عجلون في القرن السـابع والثـامن الهجريـين، ج1 ، دائرة السياحة والآثار ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان الأردن ،1985م ص 10-11 حيث كان يرتـزق مـن شـهادة القسـم في خاص السلطان داوود نظماً له:

بالناظر الفتان الوســـنان ذي الدعج — وما نجد الذي نهوى من الفـرج

قم يا نديم ، فما في الوقت من حرج — أنظر إلى حسن زهر الروضـة البهـج

عمر فروخ :اسمع ترنم هنا الطائر الهزج ،تاريخ الأدب العربي ، ج5 ، ص75 . حيث أورد إسمه "محمد" .

ن م ، ص11 . وأورد من شعره : لما بدا علـى عينيـة من رمـد — شعر به مالها شبه سوى الفسق

حسبته الدر فوق الحجر تسيره — غيم وقد كحل الشمس بالشفق

(3) ن م ، ن ص . وأنظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج12 ، 105 .

4 د. قاسم المومني ، ورفيقه ، ن م،ص17-18 .

ومحمد يونس بن علي العجلوني الشافعي (ت674-749هـ/1275-1348م) سمع منه ابن قاضي شهبه بعض شعره [1] وكان محدثاً أيضاً.

ومن أمثلة المدح:[2]

كمال الدين أكمل من رأينـــا وأكمل في الجميل وفي الجمال

إمام العصر أعلى الناس قدراً وأسبقهـــم إلى رتـب المعالـي

وأحسن من قَسى خَلْقاً وخُـلقاً بصـــــدق من شاهـده مقالـي

كما مدحه الشاعر يحيى بـن خضير بن سليمان بن بدر السلمي النصراوي[3] بقصيده بدأها بالغزل:

وأسمر كالقطـا قـداً وخَطْـوه فلا غرو أن أصبحتُ في حُبه سَمِره

على أنه كالغصن ليناً إذا انثنى ولم أر غصناً قبلـه مُطلعـاً ثـمـره

إلى أن قال :

لأمرك بالمعروف عُرْفٌ وإنما بذكرك في الآفاق قد سارت السيرَه

وحلـــمك حِلمٌ دونه خفَّ يذبُلُ وعلمك علمٌ دونـه ظلت الفكـره

كما مدحه الشاعر محمد بن سليمان عام م715 هـ/1317م بمجلس الحكم بأذرعات[4]:

إذا نظم الفصيح مديح نادٍ فبالغزل الرقيق النّظمُ بـادِ

وأحسن من صفات الحُسن حسني وتعريض بُسعَدي أو سُعـادِ

وسيدنا كمال الدين أولى وأعلى مُنتميً ، وأجَـلُّ نـادِ

إمامُ أئمةٍ ، ومُشير مُلكٍ وكاشفُ غَمةٍ وغياثُ صـادِ[5]

---

(1) ابن قاضي شهبة، الاعلام بتاريخ أهل الأسلام، ج2، ورقة 109"مخطوط".

(2) د. قاسم المومني: م س،ص17-18.

(3) د. قاسم المومني :ن م ،ص46-47 .

(4) أدرعات مدينة كورة " البثنية" ، فلما فتح المسلمون بُصرى صالحهم صاحب أدرعات على ما صولح عليه أهل بصرى ، وعسى أن تكون أرض البثينة خراجاً ، وقد دخلها يزيد بن ابي سفيان ، ويقول إبن شداد " أنها ولايات مضافات إذ ليس فيها مدينة معتبرة " الأعلاق الخطيره ، ص66 . أنظر : إبن حوقل: صورة الأرض ، ج1 ،ص185.حيث ذكر أن حوران والبثنية وستافان عظيمان من جنود دمشق، وتتصل أعمالها بحدود تمرين عند البلقاء وعمان ، وأما حوران : فهي من جند دمشق وفيها بصرى وكورة البثينة ومدينتها أدرعات وكورة الغور ومدينتها أريحا ، . عز الدين محمد بن علي (إبن شداد) الأعلاق الخطيره في ذكر أمراء الشام والجزيرة . تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، 1382هـ/1962م ، ص55-65 .

(5) د. قاسم المومني : ن م ، ص56 _57.

إلى أن يقول :

رفعتَ العِلمَ ، ثـم فتحت باباً　　إلى الحُسنى بكسر ذوي العنادِ
ولستُ براغبٍ في نظمِ شعرٍ　　ولا مُتَطلـــــعٍ للأرتفـــادِ

كما مدحهُ الشاعر إبن ظافر الماردانى بقصيدة مطلعها :

بقـاءُ الصبر بعدهُـمُ مُحـال　　وقـد زُفّـتْ لنبيهـم رجـال
وكيف لكَ التجلدُ عن جمالٍ　　على أخشابها[1] رُفِـع الجمال
تسيرُ بـكلِ ميـاسٍ رطيـبُ　　رشيـق القـد، زينـتهُ إعتدال
كمال الدين دمت لكل راجٍ　　لنجـم عُـلاك بالسعــد أثقـال
ما دام لك الزمان بغير مَينٍ[2]　　حليف بنجاحِ قصدك لا يزالُ

وأما شعر الوصف : فقد تضمن موضوعات وصفها الشعراء في عصـور الشـعر العربـي مـن قبـل كـالربيع والأزهـار ، والليـل والجـواري والشـيب وكـان هـذا الوصـف تقليـداً للعصـور السابقة[3]ومن امثلة ذلك :-

رأيتـه عائمــاً في الماء منغمساً　　من حُبّه كل ما في الكـــون إنساني
كأنه شمسٌ في عينٍ وقد غربت　　قلت انظري في دموعي عوم إنساني

كمـا تميز الشـعر الوصفـي بمجموعـة مـن الإحساسـات البصريـة والدوقيـة واللمسـية والشمسـية كصورة للإدراك الإنساني : مثل هذا القول[4]:-

---

(1) أخشاب : جمع خشب ، يعني الرحل، د. قاسم المومني، م س، ص60-61،

(2) مَين : الكذب والإنحراف ، د. قاسم المومني ، ن م.ن ص.

(3) بكري شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي العثماني ، دار الأزمان الجديد بيروت ، ط2 ، 1399/1979 ، ص153 . وصالح محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف بمصر 1971م ج2 ص1055،121 ، 132 .

(4) د. قاسم المومني ورفيقه : ن م ، ص23 . كما أورد صوراً غزلية وصفية إدراكية :

قالت وقد هجرت، وَعـزّ وصالها　　لا ماثلت من قدي الدي عانقته
لما إلتقينـــا وبـــك إلا مثلمـــا　　قد دقـت من ثغري الذي قبلتـه
مُتْ حسرةً ، وأقضم يديك ندامة　　وأنـدب على هـذا الـذي دقتـــه
فأجبتـها ما حيلتي ؟ هـذا جـزاء　　من يطلـق البازي ويجري تحته

قـــد ، وخدّ ، ونهدٌ دون ملئ يـــد — قضـيـب بان ، وتفاح ، ورمان

عرقٌ ، وريق ، وأنفاس ، مبسمه — مسك ، وخمر ، وزهر وقحوان

محاسن قد حواها حسن منظرهـا — كأنما حسنهـا للــعين إنـــســان

وشملت الموضوعات مليحاً يبيع ورداً أو خبزاً أو مليحاً يرمي بالنشاب ومليح منجم مليـح ومعين.

هذا وقد دكر بروكلمـان هـذه الأشـعار لشـعراء عاشـوا فـي قلعـة عجلـون شمال شـرقي الأردن في القرنين السابع والثامن الهجريين الثـالث عشـر والرابـع عشـر الميلاديـين[1]ويلاحـظ على شعر هذا العصر بأنه تقليد للماضي وخاصة ببدأ قصائد المدح بالغزل كالقصيدة الجاهلية .

أعــــلام الشعــــــراء

كان الشعر منذ قديم الزمان ديوان العرب وأسلوبهم لتصوير شتى مناحي الحيـاة القبليـة والإجتماعية والسياسية. وسنتحدث بإيجاز عن أعلام الشعراء في هدا العصر عن شعراء جنوبي بـلاد الشـام فـي فلسطين والأردن، مثـال إبـن القيسـراني (478 - 548 هــ/1085-1152م) المولود في عكا في ظل الحكم الفاطمي[2] وعاصر عماد الدين[3] زمن الصحوة الإسلامية ونور الدين[4] حيث صور الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير وخاصـة الحـروب بيـن المسلمين والفرنجة شأنه في دلك كأي مؤرخ تحدث في كتـب التـاريخ المعـاصر عنهـا فكـان شـعره سـجل

---

(1) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ، دار المعارف مصر 1975م ص47-133 الجزء الدي حققه د. قاسم المومني ورفيقه .

(2) أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن نصر بن صفر .... خالد بن الوليد المخزومي . ثم إنتقل إلى قيسارية بعد أن أخدها الفرنجة فنشأ فيها ونسب إليها وهاجر إلى حلب ودمشق .

إبن خلكان : م س، ج2، ص16-17،إبن تغري بردي:م س،ج5،ص322 .

العماد الكاتب : الخريدة، قسم شعراء الشام ، ج1 ،ص96 ، إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص322 .

إبن الوردي : تتمة المختصر ج1 ، ص54 ، أبو شامة : م س ، ج1 ،ص91 ، والزركلي : م س ،ج2 ،ص347 .

(3) مدح وزير عماد الدين زنكي ، جمال الدين الدي صحبه خلال فتوح عماد الدين في بلاد الشام .

وإدا الوفود إلى الملوك تبادرت — فعلى جمال الدين وفد من محامدي

يا حبذا هم فيها إليك أصارني — وعزيمـــة تقفـــو ريـاضة قـائـد

العماد الكاتب :م س،ج1،ص103،104-106 .

(4) ومدح نور الدين في شعره أيضاً :دعاءٌ أدعى من غرة النهي والأمرُ — فما الملك إلا ما خبا لربه الأمرُ .

العماد الكاتب : ن م ، ج1 ،ص257 -259 ،وإبن واصل:م س،ج1 ،ص124،125 .

فإستطاع تصوير سياسة نور الدين لتوحيد كلمة المسلمين ضد الصليبيين بقوله :

إدا ما دمشق ملّكتكَ عنانها — تيقن من في إيليا أنه الذبحُ

صادق وتاريخ ناطق بالإضافة إلى الشعراء السياسيين الدين رافقوا قادة المسلمين أمثال عماد الدين زنكي ونور الذين وصلاح الدين الأيوبي، للشاعر إبن قسيم الجموي[1] (500 -542 هـ /1105 - 1146م) وأسامة بن منقد فارس الشام (488 -584 هـ/1095 - 1188م) وغيرهم[2] .

خصائص الشعر في هذه العصور

لقد إتخذ معظم شعراء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي الطباق والجناس والإستعارة مذهباً لهم في شعرهم ، وتطور هذا الإتجاه لدى الشعراء المتأخرين ، فأصبح هذا بسمة عامة للأدب ، وتميز بظهور مدرسة خاصة للفنون الشعرية المستخدمة[3] والمقتبسة من الأدب المغربي والأندلسي كالموشحات والأزجال ومن بغداد وفارس كالدوبيت والمواليا[4] كما أن المدائح الذاتية والنبوية كانت من أبرز أغراض الشعر في هذا العصر، حيث إتجه معظم الشعراء لمدح السلاطين والأمراء وغيرهم ليكسبوا رزقهم، وتطور المديح النبوي منذ أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي[5] لإضطراب الحياة الساسية بسبب النزاع بين السلاطين والأمراء وتدهور الأحوال الإقتصادية وسوء الأحوال الإجتماعية، حيث كان هذا العصر عصر الحروب الصليبية والمغولية مما دفع الناس للتشفع بالرسول الكريم ليفرج عنهم الكروب والمصائب فشجعوا التصوف وإهتموا بالحج[6] .

الملامح الشعرية

---

(1) مدح عماد الدين زنكي

بعزمك أيها الملك العظيم ... تدل لك الصفات وتستقيم

العماد الكاتب:ن م، ج1 ، ص471 ، 472 .

(2) مدح نور الدين زنكي :

فقولوا لنور الدين ، الأجلّ وحده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم.

ديوان أسامة بن منقد ، ص223 .

(3) العماد الكاتب:م س، ج1 ،ص88 ، 123 .

(4) إبن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ورقة 3 ، 413 . والدوبّيات هي : الرباعيات .

(5) عمر موسى باشا :م س، ص446 .

(6) اليونيني : م س ، ورقة 130 ، وابن إياس:م س،ج1،ص99 ، وابن الوردي ،م س،ج2،ص194 ،195، وديوان إبن الساعاتي ج1 ،ص48 ،49 . حيث ذكر قصيدة لإبن الساعاتي في مدح الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام :

وكيف أحمل في دنيا وآخرة ... ومنطقي ورسول الله مأمولُ

هو البشير النذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشهادة تجريح وتعديلُ

لولاهُ لم تكُ شمسٌ ولا قمرُ ... ولا الفراتُ ودجلاها ولا النيلُ ....الخ .

ونعتوا بعض الخلفاء وأشراف الشيعة ببعض النعوت النبوية لصلتهم بالرسول الكريم ، كمثال إبن الساعاتي في مدح الخليفة :

لقد خلفَ المبعوثُ خليفةً ... قوول لما يُرضي الإله فعولُ

تدول لهُ الأيام وهي عزيزةٌ ... وتصغرُ حيث الخطبُ وهو جليلُ

له شرفُ البيت العتيق وزمزمٌ ... وما سامهُ حادٍ إليه عجولُ

ديوان إبن الساعاتي : ج1 ، ص52 ، 53.

لقد تميز شعر هدا العصر قيد الدراسة بـالملاحم الشـعرية الزنكيـة والأيوبيـة والمملوكيـة التي تحدثت عن الملاحم الخالدة في الحروب الصليبية والتترية، حيـث أشـاد الشـعراء بالأبطـال من قادة وملوك وسلاطين وأمراء مما كان لهم من الفضل التاريخي في تسجيل تـاريخ الأحـداث الكبرى بوصفهم الملاحم الخالدة مما تجعلنا نعيش تلك الأحداث[1]

وهكذا نرى أثر الحروب الصليبية في الأدب ، لاستمرار الأدباء فـي تحـريض وإستثارة عزائـم الملوك علـى جهـاد الفرنجـة، وبـث دعـوة الجهـاد والكفـاح بيـن النـاس لتحريـر الثغـور والقـدس المحتلة. وعندما توالت الفتـوح والإنتصـارات الكبـيرة علـى الغـزاة الصليبييـن والمغـول تمـيزت قصـائدهم بصدق العاطفة وحرارتها، حيث لقبـوا بهـا الملـوك والسـلاطين والأمـراء لتنشـيد علـى مسامعهم لتشجيعهم على المضي في طريق الجهاد[2] .

---

[1] أبو شامة : م س، ج1 ص34 ،35 ذكر قصيدة لإبن القيسراني في مدح عماد الدين زنكي :

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خَيلهُ النصرُ ، لا بل جندهُ القدس

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبةً ... فالقـــوم إن نفـروا ألوى بهم نفروا

وديوان إبن الساعاتي :ج2 ،ص407 فيه قصيدة لإبن الساعاتي في مدح صلاح الدين عند دخوله بيت المقدس نذكر منها :

جلَت عـزماتـكَ الفتـحُ المبيـــنا ... فقـــد قـرَتْ عيـــونُ المـؤمنيـــنا

وهان بك الصليـبُ ، وكان قدماً ... يعلـوُ على العوالـسي أن يهـونـــا

أنظر: أبو شامة:ن م: ج1 ، ص59، 60 ذكر تحريض إبن القيسراني لنور الدين زنكي لفتح المسجد الأقصى بقولة:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجبِ ... يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقبُ

وأْذن لموجـــكَ في تطهير ساحلـه ... فانما أنـــت بحـــرٌ لُجـــةُ لجـــبُ

وانظر المصدر السابق : ج1 ،ص175 ذكر فيها تهنئة العماد الكاتب لنور الدين بعد توحيده مصر والشام بعد إسقاط الدولة الفاطمية .

لله دَرك نـــور الديـــن مـن ملـــكٍ ... عـدلٍ لحفـظ أمـور الديـن ملتـزمِ

كانـــت ولايـــة مصـــر قبـل عـزتهـا ... بكشف دولتهـا لحمـاً على وضـمِ

وطهر القدس من رجس الصليب وثُب ... على البغاة وثوب الأجـدل القطـم

فملكُ مصـرَ وملك الشام قـد نظمـا ... في عِقْـد عِزٍّ مـن الإسلام منتظـم

كما مدح العماد الكاتب صلاح الدين الأيوبي :

نهضـــوا إلى القـدس يشفوا الغـلـيلَ ... بفتـــح كفتـــوح ومـــاذا عسـير

ســل الله تسهيـــل صعـــب الخطـوب ... فهـو علـــى كل شـــئ قـديــرُ

ن م : ج1 ، ص247 ومدحه سنة 572 هـ ، ص269 قسِرْ وافتح القدس واسفك به دماءً متى تجرها نطفُ.

[2] أبو شامة : م س ،ج1 ،ص56 ذكر إبن القيسراني وهو ينشد أمام نور الدين :

جرت بالنصر أقـلامُ العـوالي ... وليس ســوى النجيـعُ لها مـــدادُ

طالت أرؤسُ الأعـلاج خصـاً ... فنــــادى السيـف قـد وقـــعَ

وإذ عنت الممالك وإستحالت ... ملبيـة لدعوتـك العبادُ الحصـادُ

وكان أشهر هذه الملاحم ملحمة حطين الخالدة[1]، التي تبارى الشعراء في التحدث عنها والتغني بها، والإشارة والإشادة ببطلها صلاح الدين الأيوبي ، ونكتفي بذكر وصف العماد الكاتب لها في قصيدته السينية عام 583هـ/1187م .

كما سَمّي البعض الآخر قصائده القدسيات،و نكتفي فيها بقدسية الشاعر الفلسطيني رشيد الدين النابلسي[2].

وهكذا نستخلص إلى القول بأن شعر هذا العصر أسهم في الجهاد الإسلامي ، حيث أن بعض الشعراء كان يصحب الجيوش الغازية، وبعضهم الآخر كان يحارب بصدق وإخلاص مما يدل على ظهور الوعي بين مختلف الطبقات الإجتماعية نتيجة لجهود رجال الدين لتشجيع الناس على طرد المحتلين.

وأما بالنسبة لملاحم سلاطين المماليك فقد صور الشعراء جهادهم في تطهير ما تبقى من الثغور الساحلية من الفرنجة[3].

---

(1) أبو شامة :م س، ج2 ، ص83 ، أورد القصيدة وفيها القول :

يا يـومَ حطينَ ، والأبطال عابسة	وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيتُ فيها عظيم الكفر محتقراً	معفـراً خدَّهُ والأنفُ قد تعسا
يا ظهر سيفٍ برى رأس البرنس فقد	أصاب أعظم من بالشرك قد نجا
من سيفه في دماء القوم منغمسٌ	من كل من لم يزل في الكفر منغمساً
أفناهم مثْلُهُم والأسرُ فانتكسوا	وبيت كفرهمُ من خبثهم كنسا

(2) ابن شاكر : فوات الوفيات ج1 ، ص255 ، رشيد الدين ، أبو محمد عبد الرحمن بن بدر النابلسي المتوفي سنة 619 هـ ، وهو أحد الشعراء المجيدين في مدح بني أيوب نذكر من القصيدة :

هذا الذي كانت الآمال تنتظرُ	فليوفِ لله أقوامٌ بما نذروا
بمثل ذا الفتح ، لا والله ما حكيت	في سالف الدهر أخبارٌ ولا سيرُ

ومنها

سَلَبْتهم دولة الدنـيا وعيشتها	حتى لقد ضجرت من وفدهم شُعر
هذا الذي سلبَ الإفرنج دولتهم	وملكهم يا ملوك الأرض فاعتبروا

(3) ملحمة الشاعر الشهاب محمود ، أنظر : إبن تغري بردي : م س، ج7 ، ص323-324 .

في مدحه للسلطان قلاوون حين خرج من مصر وأفتتح طرابلس والشام نذكر منها :

علمنا لمن أولاك نعمته الشكر	لأنك للإسلام يا سيفه نخرُ
نهضت إلى عليا طرابلس التي	أقاأأل عيناها أن خندقها البحرُ

وتدميرهم المغـول التتـار القـادمين مـن الشرق بعد أن قوضّوا معـالم الحضـارة الإسـلامية فـي الشرق(1).

وهكذا نرى بـأن شـعراء هذه العصـور المتتابعـة قد أدوا واجبهم القومـي بكـل حمـاس وإندفاع بدافع ديني لآداء مهـة الجهاد المقدس ، كمـا كـانوا صـوت الحـق بتصويرهـم الأحـداث الكـبرى علـى حقيقتهـا معـبرين عـن مشـاعرهم نظريـاً وعمليـا باشـتراكهم فـي الجهـاد المقـدس لإسترداد أراضيهم السليبه، وحق علينا أن نسجل للشـعر فضلـه كسـجل تـاريخي شـامل للملاحـم الإسلامية والأحداث الكبرى، ضد الفرنجة التتار.

وعلى الجانب الآخر من الحياة كان هناك أنواع الشعر الأخرى من النسب والغزل ونعت الخمـرة جريـاً علـى سـنة الشـعراء سـواء شـربوها أم لـم يشـربوها ، ووصـف الحبيـب الـتركي والكردي والفارسي والفرنجي والمغولي(2) كما اقتبس الشعراء بعض معاني الحـرب،وإسـتخدامها في الغزل(3).

---

(1) إبن تغري بردي :م س،ج7، ص90-91 حيث أورد ملحمة الشاعر الأنصاري في مدح الملك المنصور الثاني ملك حماة الذي فر بجريته إلى مصر وطلب نجدة السلطان قطز في معركة عين جالوت فقال :

بعين جالوت خُضْتَ بحر وغى ... يخالُ فلكاً بـالأسـد مشحوناً
أوسعت فيه التتار ضـربُ طُلـى ... هـذا وطعناً يُخـالُ طاعوناً

وعاد بعدها الملك المنصور إلى ملكه في حماة بعد هرب خسرو شاه عامل هولاكو على حماه

كما تحدث الشاعر الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري المتوفي سنة 677هـ/1278م عن بطولة الظاهر بيبرس في حربه مع التتار نورد من قصيدته :

الملك الظاهـر سُلطاننـا ... نفـديه بالأمـوال والأهـلِ
إقتحـم الماء ليطفـي بـه ... حـرارة القلـب من المغـولِ

ن م: ج7 ، ص282 .

(2) أنظر العماد الكاتب : الخريدة ، ج1 . ص44 ، 478 ، ديوان إبن الساعاتي ، ج2 ، ص49 . ذكر بأن الشاعر إبن القيسراني قصر قصائده الثغريات عن الفرنجيات كما تغزل إبن منير الطرابلسي بالعنصر التتري .

(3) كما فعل الشعار الشرف الأنصاري :

ملامك في الهوى يُغري ويشجـي ... فهل من عـاذل لـي منك يُنجي
أما مـن مسلـم ينهـاك عنـي ... فإني منك في أسـر الفرنـج
حميت شقيق الخد بالمقلة الكحلا ... ونفقت رمح الغدِ بالطعنة النجلا
وأوترت قوسي حاجبيك فقوعت ... من النظر السامي إلى مقلتي نبلا

وتطرف بعضهم فتشبب بالعنصر الهندي، بالإضافة إلى الغزل المذكرّ في الشعر[1] وغزل المجون والخمريات والحشيش لإنتشاره على نطاق واسع في سائر الطبقات جرياً على سنة ملوكهم وأمرائهم ولنشاط أهل الذمة من اليهود والنصارى في رواج الخمر وإقامة الحانات.

وهكذا نرى نمطاً من الحياة الإجتماعية في هذا العصر يصوره شعر المجون والخمرة ، ويوضح هذا الشعر أيضاً إنتشار الغناء والطرب بشكل واسع.

كما عبرت الشتويات الشعرية الإخوانية الوجدانية عن الفرنج في أيام الشتاء الطويله في بلاد الشام حيث كانت للتسلية بين الشعراء وهي صورة من الشعور الإنساني النبيل النابع من أعماق النفس بغير سعي وراء مغنم[2]، أما أغراض الشعر المختلفة التي تناولها شعراء هذا العصر فيكفي أن نشير إلى أهمها كالأحاجي والألغاز والهجاء والرثاء[3] .

---

[1] أنظر : إبن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوط) ، ج2 ورقة 438 .

العماد الكاتب : الخريدة ، ج1 ، ص80 ، ص145 ذكر فيها تغزل إبن القيسراني بغلامٍ يهودي صيرفي وغلام قد إلتحى فقال.

في نبي الأسباط ظبي　　　مالكٌ رِق الأسودِ
صيرفي في غرامـــي　　　في صُرف ونقودِ
أنا في الدين حنفي　　　وفي الحبِ يهودي

ديوان إبن الساعاتي : ج2 ، ص168 ، 265 ، العماد الكاتب : الخريدة،ج1،ص476 -477 . وقد سلاطين الشام الخلفاء الشاميين عرقلة آراء الكلبي صاحب الفلسفة الجديدة بأن الحياة قصيرة المدى فيجب أن لا يضيعها الإنسان سدى فقال :

نديمي قم فقد صفت العُقارُ　　　وقد غنى على الأيكِ الهزارُ
إلى كم ذا التواني في الأماني　　　أفق ما العمرُ إلا مستعارُ

ومن مؤسسي المدينة الخمرية الشامية إبن قيم وإبن الساعاتي والتلعوي .

[2] أبو شامة : م س،ج1 ، ص149 -150 ذكر منها مثالاً بين العماد الكاتب وشرف الدين بن أبي سعد فقال:

أيا شرفَ الدين إن الشتا　　　بكافاته كـفُ آفـاتـــه
وكفلكَ من كرم كامنها　　　لقد كفلتْ لـــي بكافاتــه

فأجابه شرف الدين :

إدا ما الشتاءُ وأمطارهُ　　　عن الخـير حابسـةُ رادعــةْ
فكافاته الستُ أعطيتها　　　وحوشيتُ مـن كافة السابعةْ
وشوقي إلى قربه زائـدٌ　　　ومعـذرتـي إن جفـا واسعةْ

[3] أنظر اليونيني : ديل مرآة الزمان (مخطوط) ورقة 132 ، ديوان إبن الساعاتي ، ج1 ص 21

أمـا الفنـون الشـعرية المسـتخدمة فكـانت الموشـحات الشـرقية كالربـاعي والمواليـا[1] والموشحات الغربية المغربية والأزهار الشعبية التي إنتشرت فـي بـلاد الشـام فـي القـرن السـابع الهجري/الثالث عشر الميلادي كالقاضي إبن سناء الملك والذي ساهم بنقلهـا إلـى مصـر ومحـي الدين بن عربي إلى بلاد الشام حيث كانت مطبوعة بطابع صوفي، لا نتشـار الصوفيـة فـي بـلاد الشام بشكلها الواسع[2] .

ويمكننا القول أن الموشحات الصوفية أدت خدمة للفقراء الذيـن يلحنونهـا وينشـدونها فـي حلقاتهم الخاصة لتوصلهم بالعالم العلوي بعد تجردهم مـن أوراق العـالم الدنيـوي وذلـك لتتحـد أرواحهم بالذات الإلهية، وذلك بالغناء فيها.

---

(1) الرباعيات أو الدوبيات الفارسية : ومعناه إثنان أي مؤلف من بين إثنين سماه العرب الرباعي لكونه مؤلف من أربعة مصاريع ، وسموا الواحده منها (رباعية) د. عمر موسى م س، ص640 .

والمواليا جاء من وسط العراق وإنتقل إلى بلاد الشام على يد الحكيم إبن السويدي نسبة إلى السويداء ، أنظر إبن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج1 ، ورقة 32، 33 ، والنجوم،ج8 ،ص28 .

ومن قوله :

البدر والسعد ، ذا شهبكَ وذا نجمـــكَ   والقدرُ والحسنُ : ذا رمحكَ ، وذا سهمكُ

والبغضُ والحبُ ذا قسمي، وذا قسمك   والمسكُ والحسنُ : ذا خالكَ وذا عمـــكَ

(2) ديوان إبن عربي ، ص213 ، 392 ، 393 .

ومن أمثلة موشحاته : اطو إلي المهيمن الطرقا   عساك يوماً نحوها ترقى

عزيـزة الإنسان قـد دلتْ

عساكر الأحوال قد جَلت

أهلة الأســرار قــد حَلتْ

ألقى الهوى بالقلب ما ألقى   فلا تسل عن كنه ما ألقى

الحياة العلمية في فلسطين وشرقي الأردن

مقدمة

قال تعالى:﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[1]

لقد عرف الكنعانيون العرب الكتابة الأبجدية منذ القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد على ألواح خزفية "وجدت في تل العمارنة" بمصر وكتبوا من اليمين إلى اليسار. ولما فتح المسلمون جنوب بلاد الشام باشروا بتعليم الناس تلاوة القرآن الكريم وتفسيره والحديث الشريف ومايتعلق بهما من علوم هناك.

وكانت البعثة التعليمية الأولى بأمر عمر بن الخطاب تلبية لطلب معاوية بن أبي سفينان برئاسة معاذ بن جبل[2] وعضوية كل من عبادة بن الصامت[3] وعبد الرحمن بن غنم الأشعري[4] وأبو الدرداء "حكيم الأمة"[5].

وقد تخرج على يد هذه البعثة جمع كبير من التابعين مثل رجاء بن حيوة البيساني الفلسطيني، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي وعبدالرحمن الأوزاعي الحنفي إمام أهل الشام، وقد استعمل المسلمون في فلسطين أوراق البردي بعد فتح مصر فزرعوا نبات البردي على ضفاف بحيرة الحولة، واستعمله الوليد بن عبد الملك لأغراضه الخاصة لصنع الأدراج التي بلغ طولها خمسة عشرة متراً، ثم أخذ العرب الورق الصيني من القش النباتي ونقله العرب عن طريق الأندلس، وعرف الورق أيام العباسين بالكاغد وهو نوع من الورق المصنوع في طبريا، وعرف مخترعوه بالورّاقين "اي مايشبه المطابع اليوم" ومن أشهر الوراقين: ياقوت الحموي، ومن أنواع الخطوط التي عرفوها كالخط الكوفي الذي أخذوه من الخبرة والذي كتبت به المصاحف وزينت به المساجد وحلي النقود، كما أخذوا عن الأنباط خط النسخ، ووصف ابن

---

[1]سورة طه الآية رقم 114

[2]ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج7ص387، وابن حجر: الإصابة، ج3ص422،426.

[3] ابن سعد: ن م، ج7،ن ص،وابن حجر: ن م، ج2،ص268،426.

[4] ابن سعد:ن م ج7،ص441،وابن حجر:ن م ،ج2،ص417،والزركلي: الاعلام مج4،ص95.

[5]ابن سعد: ن م، ج7، ص391-392، وابن حجر : ن م، ج4ص61.

جبير في رحلته التي امتدت (578-581هـ/1182-1185) الكتاتيب في بلاد الشام[1]، والتي استمرت حتى القرن الخامس الهجري/الهادي عشر الميلادي وذلك ببناء المدرسة النظامية في بغداد على يد وزير السلطان السلجوقي مكلشاة " نظام الملك" ثم انتشرت المدارس بعد ذلك في العالم الإسلامي[2] وسار الفاطميون على هذا المنهج ببنائهم الكثير من المعاهد التي كان أشهرها الأزهر الشريف واستمرت زمن الزنكيين حيث أنشأ عماد الدين وابنه نور الدين محمود دولته (511-569هـ/1117-1173م) على أنقاض السلاجقة، بينما أبدع الأيوبين في فلسطين بعد استردادها من الإفرنج فأنشا صلاح الدين وخلفاؤه من الأيوبيين المدارس الشهيرة في القدس والخليل وغزة وغيرها مثل المدرسة الصلاحية التي استمرت حتى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فقد إصبحت بلاد الشام منذ عصر الحمدانيين وحتى عصر المماليك منطقة علمية خصبة جذابة للعلماء المسلمين كالشيخ محي الدين بن عربي، كما كان هناك ازدهار فكري لتشجيع المماليك للعلم وبناء المدارس.

وكانت المدارس تلحق عادة بالمساجد وبعضها كان مستقلاص عن المسجد مثل دار القرآن الصابونية نسبة لعلم الدين الصابوني، والمدرسة العمرية في القدس التي أنشأها الشيخ محمد بن المقدسي المتوفي سنة 607هـ/1209هـ واحتوت على 115مجلد مخصصة لتدريس القرآن وعلوم الدين[3].

---

[1] ابن جبير: م س، ص245، وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة "كتاب كبير" بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم يتبع مايقوم وينفق به على الصبيان مايقوم به ويكسوهم، وهذا أيضا من أغرب مايحدث من مفاخر هذه البلاد.

[2] ابن جبير: م س، ص205، ذكر وجود 30مدرسة في بغداد وكان من أشهر مدرسيها الغزالي والشيرازي.

[3] صلاح المنجد: مجلة اللغة العربية بدمشق رقم 48، أبريك 1973.

التيارات الفكرية والعقلية في جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي

ازدهار النهضة العلمية:

لقد ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى، لقدوم نوابغ الفكر وأعلام الدين واساطين العلم في ظل الحضارة الإسلامية والثقافة العربية، حتى أواخر القرن الخامس الهجري، حيث خيم عليها ركود مؤقت بسبب الغزو الصليبي والمغولي إلى أن بزغت أشعة النهضة العلمية في عصر الزنكيين، إذ عممّ نور الدين زنكي المدارس في بلاد الشام شمالها في حلب ووسطها في دمشق وجنوبها في القدس وحواضرها[1]ويمكننا إرجاع عوامل بعث النهضة الفكرية إلى عوامل خارجية وداخلية، فبالنسبة للعوامل الخارجية فقد تمثلت في نكبة الحضارة الإسلامية في بغداد على يد التتار عام(656هـ/1258م) والتي تمثلت بحرق أمهات الكتب العلمية والأدبية، وقتل العلماء والفقهاء والأعيان[2]، فكانت حربا ثقافية هدفها محو الثقافة العربية وتدمير وجه الحضارة العربية من فوق الأرض بعد إغراق مكتبة بغداد في نهري دجلة والفرات ليس بهدف العبور فوقها ولكن بهدف محو محتوياتها من علوم وثقافة راسخة ذلك أن المخطوط يمحى بسهولة بالماء، مما دفع العلماء الناجين من المجزرة الهجرة نحو الشام ومصر فاسهموا في النهضة العلمية المقبلة، كما دفعت كوارث الأندلس وضعفها وانقسامهم وحروبها مع النصارى إلى هجرة علمائها إلى الشام ومصر أيضا لتوافر الملاذ الآمن[3].

أما العوامل الداخلية فترجع إلى تشجيع الطبقة الحاكمة من الملوك والأمراء والسلاطين زمن الزنكيين أيام نور الدين زنكي[4] والأيوبيين زمن صلاح الدين الأيوبي[5] لتكريمهم العلماء

---

(1) ابن جبير: م س ص234،235.

(2) ابن تغرى بردى: م س ج7ص51 روى بأن المغول بنوا بالكتب جسراً من الماء والطين عوضاً عن الآجر بأمر هولاكو زيادة على ماحرقوه من كتب نفيسة.

(3)ابن جبير ن م ص222 ذكر رؤيته قاضي قضاة دمشق بن خلكان والمرادي من اهل اشبيلية ايضا المدارس في المسجد الجامع بدمشق.

(4) ابن واصل: ج1 ص283،284.

واستقدامهم من البلدان الشاسعة والنفقة عليهم[1] حتى بلغت زمن صلاح الدين الأيوبي ثلاثة آلاف دينار[2] بالإضافة إلى أن بعض السلاطين كان من كبار العلماء كالمنصور الأول صاحب حماة[3]، كما استمر سلاطين المماليك في تشجيعهم العلم والعلماء بعطفهم على رجال الدين والمبالغة في الإكثار من المدارس ودور العلم وشجعوا العلماء على تدوين المخطوطات والشروح والمجلدات وهكذا نرى الازدهار العلمي في بلاد الشام عامة في هذا العصر في وقت كان الجهل يخيم على العالم الغربي كله أصحاب الحضارات الزائفة المنحلة.

وبالنسبة للحركة العلمية في شرقي الأردن في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فقد تراجعت وقل نشاطها بسبب احتلال الصلبيين للمنطقة الواقعة بين البحر الأحمر والبحر الميت كالشوبك عام509هـ/1115م والعقبة (آيلة عام 510هـ/ 1116م والكرك عام 537هـ/1142م فقطع الصليبيون بذلك أي صلة بين مصر والشام والعراق. كما اضطر علماء فلسطين والقدس خاصة بالهجرة إلى القاهرة أو دمشق واستمر ركود الحركة العلمية حتى عام 583هـ/1187بعد تحرير القدس لاهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلم والعلماء وحلقات التدريس وبنائه المدارس السنية لتعصبهم إلى مذهب السنة ومحاربتهم مذهب الشيعة ومقاومتهم للصليبية الحاقدة الأمر الذي دفع الأيوبيين لتشجيع الدراسات الدينية واللغوية والعقلية كالمعظم عيسى[4] وابنه الملك الناصر داوود المحب للعلم والعلماء والذي ادى جهده لازدهار الحركة العلمية في الكرك واشتهر بمجالسته للعلماء ومناقشتهم[5] مماشجع العلماء والأدباء للإقبال عليه في الكرك[6]

---

(5) ابن شداد:النواد السلطانيةص25.

(1) ابن واصل: م س، ج1ص136.

(2)كرد علي :م س، ج4، ص39(هذا ما ابلغه القاضي الفاضل لصلاح الدين يخبره عن ميزانية ارباب العمائم في الدولة بما فيها من اقطاعات ورواتب).

(3)أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج3ص124،125.

(4)الذي شجع الدراسات الفلسفية والطبية واستمر ابنه الناصر داوود في نقلها إلى الكرك ابن قطلوبغا، زين الدين قاسم: تاج التراجم في طبقات الحنفية، مطبعة العاني بغداد 1962 واليونيني: م س ج1 ص128،132 وابن كثير: م س ج3ص184، وابن الفرات م س ج 7ص59.

(5) اليونيني: ن م ج1ص128،137، وابن شاكر الكتبي م س ج1ص419، وابن أبي اصيبعه م س ج2ص173،250

وانشأ اول خزانة للكتب في الكرك[1] مما ادى إلى اعتبار الكرك من المراكز العلمية في الشام. كما شهد شرقي الأردن وفلسطين نهضة علمية بفضل تشجيع السلاطين لكسب التأييد الشعبي المتمثل بآراء العلماء التابعين والمقربين لهم وربما كان ذلك لشعورهم القومي بأنهم غرباء عن هذه البلاد فأكثروا من المدارس لكسب رضا سكان هذه البلاد.

كما ساهم في هذه النهضة هجرة العلماء من بغداد بعد تدمير المغول لها واستقرارهم في مدن مصر وبلاد الشام وخاصة القدس، وهجرة العلماء من المغرب العربي والأندلس بعد طردهم من الاندلس والذي عاصر الهجوم الصليبي على المشرق عام 1492م سقوط غرناطة، فكان في بيت المقدس حارة المغاربة المهاجرين من العلماء والفقهاء ورجال العلم[2].

لذا أصبحت القدس مركزاً علمياً يؤمه طلبة العلم من أنحاء العالمين العربي والإسلامي وبالنسبة للمدارس في العهد المملوكي فكانت شبيهة بالمعاهد العلمية العليا والجامعات في عصرنا اليوم حيث تكونت هيئة التدريس من المدرس والمعيد[3] والمنتهي[4].

كما أصبحت الكرك في العهد الأيوبي قبلة العلماء لتشجيع أميرها الناصر داوود، واستمر هذا الازدهار العلمي في العصر المملوكي حيث تفوق أبناء هذه البلاد في مختلف ميادين العلم كالطب والكيمياء والتاريخ والفقه، والقضاء وانتشر في الشام ومصر.

كما برزت أسراً علمية مثل الأسرة الحسبانية والأسرة الباعونية بالإضافة لعدد من العلماء نُسبوا إلى قراهم ومدنهم أمثال الكركي والشوبكي والايلي والصلتي والمعاني، مما دفع أبناءه للمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية، فلقد غرس الأيوبيون البذور الأولى للحركة العلمية في الأردن التي أينعت في العصر المملوكي حيث انتشرت المدارس في جميع أرجاء البلاد وبرز العلماء في شتى العلوم والفنون.

---

[6] ن م ج 1ص145.

[1] ابن ابي اصيبعة، م س، ن م.

[2] ابن جبير: م س ص257، وانظر سعيد عاشور: المجتمع العربي في عصر المماليك ص150.

[3]المدرس: فيكون من العلماء المشهورين فهو أعلى عضو في هيئة التدريس، السبكى م س ص151-152.

المعيد: مهمته اعادة شرح الدرس وتوضيح الغامض على الطلاب ويقوم بتكرار الشرح والتوسع فيه.

[4] المنتهي: فمهمته مناقشة الطلاب لمعرفة مدى تحصيلهم العلمي من الدرس، السبكي: ن م ص155.

لقد كانت مراكز التعليم الكتّاب[1] والمسجد للتعليم العام والقصور والبيوت للتعليمالخاص وهذه سمة العصر في العصر الإسلامي الأول.

وكان معلم الصبية خادم المسجد أو مساعده، وكانت الكتب المدرسية القرآن الكريم وكتابين آخرين في اللغة العربية والحساب كما كان يتم تعليمه الصلاة والأخلاق الحميدة وطاعة الوالدين[2]، وبالنسبة لتعليم الطب في عهد المماليك فكان الاهتمام به اكبر من حيث المراقبة والمتابعة لطالب الطب لارتباط المهنة بحياة الناس[3].

أما مدة الدراسة في الكتّاب فكانت حتى يتم الصبي ختم القرآن اكثر من مرة بهدف حفظ بعضهم القرآن عن ظهر قلب فيلقبون بحفاظ القرآن ليكسبوا مكانة مرموقة في مجتمعهم.

---

[1] هذا اللفظ مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة، والكتاب وجمعه كتاتيب ومكاتب عبارة عن مدرسة صغيرة لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم وقد عرفه العرب قبل الإسلام وأحياه عمر بن الخطاب ثم الأمويين فالعباسيين، انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ج5ص13وأبو فرج الاصفهاني: الاغاني ج18ص2، ج21ص196،ج5ص155، وابن خلكان: م س ج2ص325، وياقوت الحموي: معجم البلدان ج5ص426، والدباغ: فلسطينيات ج3ص20،ج6ص471، وزاد بعض المعلمين على المنهج تعليم اللغة والنحو والتجويد والحساب وكان الطلاب يجلسون في حلقات على الحصر المفروشة ويقرأون القرآن بصوت عال. كما كان شيخ الكتّاب يدرس لكل طالب على حدة ثم ينقله إلى الدرس الجديد بعد استيعاب التلميذ وكان يساعده الطلاب المتفرقون في تلاوة القرآن الكريم وبالنسبة لعمر الطالب فقد تراوح مابين الخامسة والسابعة وقد درس الباحث في الكتاب في قريته (سوم الشناق) عام 1945-1948 وختم القرآن وأتقن التلاوة والقراءة والحساب وبعض القصائد الشعرية.

[2] لقوله ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وقال ﷺ (خير من مشى على وجه الأرض المعلمون الذين كلما خلق الدين جددوه)، وكان عقاب الصبي خفيفاً بضربه بعصا على يديه واسفل الرجلين أو الحبس في حجرة الصف بعد انصراف الطلاب ومنع استخدام الصبيان في خدمة حوائج المعلم الخاصة انظر ابن الاخوة: (ت730هـ/1329م) م س، ص170-172وكان محتسبا سوري المولد وحِتّى : م س: الترجمة العربية، بيروت ص421-422.

[3] النويري: ت 732هـ م س ج6 ص311، اورد نصا عن طبيعة تعليم الطب آنذاك: "فأما من يراعي عمله في الوفور والتقصير في الطب والتعليم، لأن الطب إقدام على النفوس يفضي التقصير فيه إلى تلف أو سقم. وللمعلمين من الطرائف التي ينشأ الصغار عليها مايكون نقلهم عنه بعد الكبر عسيراً فيقر منهم من توفر علمه وحسنت طريقته، ويمنع من قصر وأساء من التصدي لماتفسد به النفوس وتخبث به الآداب....

أما علاقة المعلم بطلابه فكانت حسنة، ومُنع بيعُ المصاحف كما رَفَضَ بعض المعلمين أخذ الاجور عن تعليم القرآن حسنة لله وهم قلة وقلد الصبيان المعلم بوضع القلم على آذانهم[1]، أما المسئول عن مراقبة التعليم والكتاب والثواب والعقاب فكان المحتسب في عهد الفاطمين[2] والمرحلة الثانية من التعليم فكانت بالانتقال إلى المسجد إذا أراد، كما يحق لكل رجل يقرأ القرآن ويعرف الكتابة والأحاديث الشريفة أن يلتحق بالمسجد أيضا بإحدى الحلقات العلمية للفقه أو الحديث أو النحو أو الإنشاء أو الشعر.

وترجع أهمية المسجد إلى عصر الرسول (ﷺ) أول من اتخذ المسجد مدرسة لتعليم المسلمين أمور دينهم وسار على سنته من بعده أصحابه من السلف الصالح كعلي بن ابي طالب وعبد الله بن العباس وغيرهم واستمر ذلك في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين[3] كما وضعوا في كل مسجد خزانة للمطالعة والدرس اشتملت على القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف ومجلدات دينية ولغوية أخرى.

وبالنسبة إلى التعليم في القصور أو البيوت فقد اهتم به الخلفاء والسلاطين والأمراء لتربية أولادهم باختيارهم اشهر المربين خبرة وعلماً وخلقاً، أما بالنسبة لتعليم المرأة فكانت تعترضه بعض الصعوبات الكبيرة في الترحال وخشونة العيش فكانت البنات الصغيرات يلتحقن بالكتاب مع إخوانهن أو يتعلمن في منازلهن عن طريق العلماء من عائلاتهن أو معلم موثوق به لحث

---

(1) ابن عبد ربه، م س ج4 ص161 (ذكر حديثاً شريفا: ضع القلم على أذنك فانه اذكر للمملي وأقضى للحاجة)

(2) الدينوري: عيون الاخبار ج2ص131.

(3) ابن جبير م س ص244-245 أشار في رحلته لبلاد الشام التي استمرت من سنة 578هـ-581هـ/1282م-1285م إلى التدريس في المساجد بعد زيارته للجامع الأموي بدمشق فأورد: " وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيه الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم...ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء واهل الطلب كثيرة واسعة، واغرب مايحدث به ان سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المسند إليها للمذاكرة والتدريس، أبصرنا بها فقيها من اهل اشبيلية يعرف بالمرادى، وعند السبقي القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن. وللصبيان ايضا على قرائنهم جراية معلومة، فأهل الجدة من آبائهم يجبرون ابنائهم على أخذها وسائرهم يأخذها، وهذا من المفاخر الإسلامية.

الإسلام على العلم[1] وكان من نساء الصحابة اللائي نزلن الشام مع أزواجهن أو آبائهن كزوجة الصحابي أبي الدرداء وغيرها كالمحدثة رابعة العدوية فيما بعد، ومن الفلسطينيات المحدثات والفقيهات اللائي تعلمن في بيوتهن على أيدي أبائهن أو أقاربهن أو العلماء المشهود لهم بالكفاءة والخلق مثل:-

عائشة بنت عيسى بن احمد المقدسي التي تعود في نسبها إلى فقهاء وعلماء جمّاعين توفيت عام 697هـ/1299م[2]، وزينت بنت احمد المقدسي وآمنة بنت احمد المقدسي[3] وصفية بنت مسعود المقدسي وخديجة بنت احمد المقدسي، وآسيا أخت ضياء المقدسي[4] وزينت عبد الله المقدسي وجمعيعهن من محدثات القرن السابع الهجري[5].

ومن محدثات القرن الثامن الهجري(رقية بنت احمد آل قدامة وأختها رابعة، وفاطمة بنت عبد الرحمن آل قدامة وأختها زينت ومريم بنت عبد الرحمن النابلسية "قضاة"[6]، وفي عهد المماليك اشتهرت أسماء بنت خليل العلائي 725-795هـ/ 1324-1392م. أخت الشيخ العلائي وزوجة العلامة إسماعيل القلقشندي، أجازت بالفتوى لحفيدها الشيخ القلقشندي[7] وأسماء بنت محمد المقدسية المتوفية عام 723هـ/1323م وكانت محدثة[8].

وبالنسبة إلى المدارس النظامية:

فقد تأسست منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على يد الوزير السلجوقي "نظام الملك" زمن السلطان ملكشاه في بغداد عام 457هـ/1065م على شاطئ دجلة

---

[1] قال رسول الله ﷺ (من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأوسع عليها من نعم الله التي وسع عليه كانت ستراً من النار) متفق عليه رواه البخاري.

[2] كحالة : أعلام النساء ج1ص17.

[3] كحالة: ن م ج3ص184.

[4] المتوفية عام 640هـ العماد الحنبلي: م س ج5ص207 وكحالة: م س ج1ص6.

[5] الدباغ: فلسطينيات ج6ص60.

[6] ن م، ن ص.

[7] ابن حجر : م س ج1ص360، ومجبر الدين الحنبلي: م س ج2ص162وكحالة ن م ج1ص54.

[8] ابن حجر ن م ج1ص361وكحالة ن م ج1ص64.

كأول مدرسة مجانية[1] وسميت باسم " نظامية بغداد" ثم انتشرت المدراس في مدن العراق وخراسان وغيرها ولم يرد ذكر في النصوص التاريخية لتأسيس مدارس سلجوقية في فلسطين والأردن وربما كن ذلك لقصر مدة حكمهم لها.

وأما الفاطميون[2] فقد قلدوا نظام الملك لبناء المدارس فبنوا الجامع الأزهر كجامعة علمية كبرى لتخريج دعاة المذهب الشيعي، وقد قصده طلاب العلم من فلسطين والأردن ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم، واستمر بناء المدارس في عهد الزنكيين[3] أيام نور الدين زنكي والأيوبيين كالمدرسة الصلاحية في القدس[4]، كما ساهمت الأميرات الخواتين بناء المدارس ودور الحديث أمثال ست الشام الخاتون أخت صلاح الدين الأيوبي وغيرها[5] بالإضافة إلى مساهمة التجار والعلماء في بناء المدراس.

---

(1) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) حسن المحاضرة في تاريخ مصروالقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ط1ص255 سنة1968.

(2) النعيمي: م س ج1ص11يذكر إنشاء قاضي طرابلس الفاطمي الحسن بن عمار مدرسة جامعة على غرار دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة عام400هـ، وأنشأ رشأ بن نظيف بن ماشا الله أبا الحسن الدمشقي مدرسة لتعليم القرآن الكريم عام444هـوأسماها المدرسة الرشائية.

(3) كالمدرسة العمرية الشيخية التي بناها الشيخ عمر بن قدامة الجمّاعي المولود في جمّاعين من أعمال نابلس عام 550هـ/1154م في دمشق بعد هجرته مع أبيه وأهله اثر استيلاء الفرنجة على فلسطين.

انظر النعيمي : م س ج2ص104،105. ذكر ترميم نائب الشام سيف الدين بكتمر لها المتوفي عام 724هـ وبنى مدرسته في مدينة السلط الاردنية ،انظر ابن واصل: م س ج1ص281 والنعيمي : ن م ج1ص178،401،648وابن جبير:م س ص333 كرد علي: م س، المطبعة الكاثوليكية، 1949م، ج6،ص99،100 كما بنى ابو عمر الجماعيني(جامع الجبل) المشهور بجامع الحنابلة بسفح جبل قاسيون بدمشق. كرد علي :ن م، ج6ص36، والنعيمي: ن م ج1،ص48.

وقد نسب حي الصالحية في دمشق إلى بني قدامه عندما نزالوا في مسجد أبي صالح خارج الباب الشرقي لدمشق لمدة سنتين فنسبوا إلى المسجد وسميت البقعة الصالحية نسبة إليهم وأصبحت اليوم من أحياء دمشق الكبرى. كرد علي:ن م ج6 ص74 وابن قاضي شهبة(بدر الدين) الكواكب الدرية في السيرة النبوية/ تحقيق محمود زيدان دار الكتاب الجديدة بيروت/ ص35.

(4) كان صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من بعده راعين للنهضة العلمية لكثرة دور العلم والمساجد.

انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق ج16ص292،294. وابن جبير: ن م ص222 والنعيمي ن م، ج1 ص19،49،110،152،216،340،359،368،459،473،585.

(5) ابن جبير ن م ص225 والنعيمي ن م ج1ص277،302،303،503،507.

المدارس والتعليم في العصر الأيوبي والمملوكي

لقد اهتم صلاح الدين بالتعليم والمدارس لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة ومحاربة اهل البدع والزيغ فدفعه ذلك لإنشاء المساجد ومراكز العبادة والعلم لمحو الآثار الثقافية الفاطمية التي اتخذت العلم أسلوبا لنشر مبادئها الشيعية وركز على اعتماد المذهب الشافعي[1]، كما نقل صلاح الدين الايوبي طراز المدارس السلجوقية في سوريا إلى مصر[2]، وقلده ولاته المقربون اليه بل وتسابقوا في بناء المدارس وحبس الأوقاف عليها[3] مع الاهتمام بالطلبة الغرباء من حيث السكن والنفقة والعلاج والاستحمام بالحمامات التابعة للمدارس[4]، كما أهتم صلاح الدين بتوفير التعليم للأيتام والمساكين لإتاحة فرص العيش أمامهم فخصص لهم الأموال والأوقاف الكثيرة والمدرسين الخصوصيين[5] بالإضافة لاهتمامه في بناء المساجد، والخوانق[6] والخانات لإيواء المسافرين، هذا وعلى الرغم من اهتمام صلاح الدين بالعلماء والفقهاء كثيراً فلم يقبل منهم من

---

(1) ابن الأثير: م س، ج11،ص440، المقريزي: السلوك ج1ص63،والمواعظ والإعتبار ج2ص400، وابن تغري بردي، م س، ج6ص56 ربيع، النظم المالية، ص77، والعبادي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة1970ص105-106،303،312،313، نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية القاهرة 1974ص136.

(2) فكان ذلك: الشكل المستطيل يتوسطه فناء كبير مربع مع وجود إيوان كبير في كل جانب من جوانبه الاربعة، علام نعمت: م س، ص136-137.

(3) بدوي: الحياة العقلية: ص63-64.

(4) ن م، ص48، وابن جبير، م س، ص42، الذي شاهد ذلك بأم عينيه فوصف ذلك.

(5) ن م، ص245.

(6) جمع خانقاه، وهي الأماكن المعدة للمتصوفة، وتحتوي على وسائل الراحة ليتفرغ المتصوف للعبادة فقط وقد بناها صلاح الدين محبة للصوفية، حمزة بن عبدالمطلب: الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي القاهرة1968ص104، وللمزيد من المعرفة انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة،ق1ج2،619،193، وأبوشامة م س ج1ص191، والمقريزي: الخطط، ج1ص187، وابن اياس، م س:ج1ص71، وقد اورد ابن كثير: م س ج12،ص193شعر لأحد الصوفين عام 571هـ/1175م الواغظ ابو الفتوح عبدالسلام يوسف التنوخي الذي زاره صلاح ليقتبس من أنواره منها:

يامالكاً مهجتي يامنتهي أملي	ياحاضراً شاهداً في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه	حتى إذا صرت تمثال من الصور
إن غبت فيك فيا فخري وياشرفي	وإن حضرت فياسمعي ويابصري
تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها	وإن تغب عنّي عشت بالأثر

وكان يحترم فقهاء الصوفية حتى الفقراء منهم في ملبسه ومأكله فلايلبس إلا الكتان والصوف، وابن كثير، ن م ، ج2ص97.وابن الاثير: م س ج12ص295.

يفسد عقائد الناس بالسحر والشعوذة وغيرها النافية للتعاليم الشرعية[1]، وبالنسبة للهيكل الوظيفي للمدارس المملوكية في بلاد الشام فكانت ثلاثة أقسام:

أولاً :-الوظائف الإدارية:-

وتشمل ناظر المدرسة وهو المدير العام لها، الذي كان يعين من قبل واقف المدرسة وله نائب يعينه هو أو الواقف[2] كما ويشتمل جابي الوقف الذي يحصل ريع الوقف ويصرفه بأمر الناظر[3] وكاتب الغيبة الذي يقوم بتسجيل أسماء من يتخلف عن الحضور من المدرسين والطلاب والشاهد: الذي يراقب الناظر في مصروفات الناظر المالية حيث يضع توقعه كشاهد على الصكوك والعقود، خوفاً من التلاعب والسرقة من أموال وقف المدارس[4] والمشارف وهو المسئول عن أمور النظافة والخدمة في المدرسة[5] وأما الصدر فمهمته جلب أهل الطلب والعلم إلى المدرسة.

ثانياً: الوظائف العملية:-

وتشمل الإمام الذي يَؤُمُّ بالمصلين في المدرسة[6]:-

الخطيب: الذي يقوم بأداء خطبة الجمعة في المدرسة.

المؤذن: في أوقات الصلاة وذو صوت حسن وعليه التكبير في الصلوات والتراويح[7].

القيِّم: وهو المسؤل عن خدمة المدرسة وتدبير شؤونها[8].

---

(1) حيث امر بقتل الفيلسوف الشهاب السهروردي مدرس العلوم، الأوائل والسحر والسيمياء والمنطق، ابن تغري: م س، ج6، ص114-115، بدوي: م س،291.

(2) بدوين م، ص75،وسيشار له فيما بعد هكذا (بدوي، الحياة، الحياة العقلية، النعيمي: م س، ج1،ص302).

(3) السبكي : معيد النعم، ص110، كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الوسطي، المطبعة التعاونية، دمشق 1973ص100-101وسيشار له فيما بعد: كحالة: دراسات اجتماعية.

(4) ناصر: عمائر السلطان قايتباي، ص76.

(5) ن م، ص258.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى ج11،ص302.

(7) النعيمي: الدارس، ج1ص302.

(8) دهمان: ولاة دمشق، ص138

البوب: المسئول عن باب المدرسة ومراقبة الداخل والخارج[1].

الفراش: ومهمته كنس المدرسة وتنظيفها وفرشها[2].

الوقاد: لإضاءة المصابيح وإطفائها وتنظيفها[3].

السقا: لجلب الماء إلى المدرسة[4].

خازن المكتبة: للمحافظة علىالمكتبة وتنظيم إعارتها[5].

ثالثاً: الوظائف العلمية:

وتشمل المدرسون على اختلاف تخصصاتهم حيث كان السلطان يتدخل عند وقوع خلاف بين العلماء على التدريس بإصداره مرسوماً سنوياً بتعيين بعض العلماء المقربيين إليه[6].

والمعيد: وهو الذي يعيد الدروس على الطلبة بعد انتهاء المدرس من إلقائه ومغادرته، ويكون عادة من الطلاب المتفوقين في المدرسة الذي يعين من قبل الناظر[7].

وسائل وطرق التدريس في المدارس المملوكية في بلاد الشام:-

كانت الوسائل ومازالت العامل المساعد لتحصيل الطالب الدراسي إذ أشار ابن خلدون في باب {وجه الصواب في تعليم العلوم} إلى ذلكمن حيث البدء بتوضيح الاسهل ثم الشرح بصورة مجملة يختمها بشرح مفصل[8] وهذا مشابهُ للنظريات التربويةالحديثة في عصرنا هذا.

---

(1) الحسيني: المدرسة الأسعردية،ص33،ج4،ص590.

(2) ن م، ص591.

(3) ن م، ص590.

(4) ناصر: عمائر السلطان قايتباي، ص77.

(5) السبكي: معيد النعم، ص111، امينة بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة دمشق، 1981-1982،ص117،سيشار له فيما بعد هكذا: بيطار، تاريخ العصر الأيوبي.

(6) اليونيني:(قطب الدين أبي الفتح) ذيل مرآة الزمان، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد: الهند 1954ج4،ص142.

(7) علي سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي 1981،ص310.

(8) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد):المقدمة، دار إحياء التراث العربي ط4،ص5533، سيشار له فيما بعد هكذا: ابن خلدون : المقدمة. ونستشهد بنصه كمؤرخ معاصر لأساليب التدريس في المدارس المملوكية في بلاد الشام " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين، إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً، يلقي عله أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول مايرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكه في ذلك العلم، إلا انها جزئية وضعيفة وغايتها في التلقين عن تلك الرتبة إلى اعلى منها إلى ان ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته.

ومن الأساليب التربوية المتبعة في العصر المملوكي في بلاد الشام طريقة الحلقات الدراسية التي كان يفتتحها المدرس بآيات من الذكر الحكيم[1]. وأسلوب الإلقاء وخاصة في تدريس القرآن والحديث والفقه[2].

وكان آخر هذه الأساليب الإملاء لبعض الكتب المطلوب حفظها وفهمها[3] ومن آداب السلوك لتربوي، أن يأمر المدرس الطلبة بإعادة شرح الدرس بعده، وأن يبقى في الصف حتى خروج آخر طالب عند الانصراف ليتسنى للطلاب الاستفسار عن بعض المعلومات الدراسية وحتى لايزاحمه الطلاب الخروج من الباب[4] كما أعطيت للمدرس صلاحيات منح الإجازة العلمية في علم من العلوم بعد امتحانه مثل إجازة السماع[5] والإجازات العامة للسماح بالتدريس[6]. وعراضة الكتب أي حفظها وفهمها مثال ذلك ما عرضه ابن طولون على شيخ الشافعية، تقي الدين ابن قاضي عجلون شرقي الاردن[7].

هذا وقد ألزم المدرس على التدريس في مدرسة واحدة، حتى يتفرغ لعمله بإخلاص وإتقان وإبعاده عن الإرهاق وتشتت الذهن، حيث منح الإجازة المرضية، وطلب منه الالتزام باحترام النظام والوقت والتسامح في معاملة الطلاب كأبناء له، وبالنسبة لتوفير الأجواء التربوية للطلبة فقد حرص المماليك على توفير كافة المستلزمات للعملية التربية من حيث توفير السكن والغذاء والملابس والمكتبات المشتملة على أمهات الكتب ليعود إليها الدارسون في سهولة ويسر كمكتبة

---

(1) ابن جماعة (بدر الدين أبي اسحاق إبراهيم): تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، 1354هـ، المقدمةس(سيشار له: ابن جماعة تذكرة السامع).

(2) ابن طولون(محمد الصالح الدمشقي) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق1980.

(3) عاشور(سعيد عبد الفتاح) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النضة العربية ص153.

(4) ابن جماعة : ن م ص45-54.

(5) ابن بطوطة: م س ص103.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، ج14،ص367.

(7) ابن طولون: الفلك المشحون في أخبار محمد بن طولون، مكتبة القدس، دمشق1348هـ ص19. ذكر إجازة القاضي لأبن طولون"عرض على الولد المبارك اللبيب الأديب عرضاً حسناً محرراً متقناً دل ذلك على حفظه لجميع الكتب المذكورة أعانة الله على درايتها، كماوفقه لروايتها".

المدرسة العمرية في دمشق[1] أما بالنسبة للعطل المدرسية، فقد اختلفت من مدرسة إلى أخرى حيثتراوحت بين ثلاثة وخمسة أيام في الأسبوع[2] وامتدت العطلة السنوية إلى ثلاثة أشهر وعشرين يوماً في رجب وشعبان ورمضان وعشرين يوماً من شوال[3] بالإضافة إلى أيام الأعياد والمواسم وأيام التشريق[4].

المواد العلمية:

لقد غلبت عليها الصبغة الدينية زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك وذلك لغلبة الصفة الدينية لهذه العصور النابعة من الرغبة في القضاء على المذهب الشيعي في مصر وبلاد الشام. بالإضافة إلى جانب بعض العلوم الأخرى في مدارس بلاد الشام كالعلوم الشرعية وعلوم اللغة والعلوم الرياضية إلى جانب علم التاريخ والمنطق والكلام والفلك[5] وبالنسبة للخدمة الاجتماعية التي كانت تقدمها المدارس المملوكية هي التعليم المجاني وخدمة اليتامى بالتكفل في معيشتهم ورعايتهم[6] وبعضها يتناول الناس فيها طعام الإفطار في شهر رمضان وتوزيع الأضاحي والملابس وأنواع الطعام في عيد الأضحى المبارك[7] كما أقيمت الاحتفالات لمختلف المناسبات في الأفراح والأحزان[8] بالإضافة إلى انها كانت ملجأ للناس أثناء الاضطرابات الداخلية ف مدن

---

(1) ابن كنان(محمد بن عيسى) المروج السندسية الفسيحة في تلخيص الصالحية، تحقيق محمد احمد دهمان دمشق1947، ص166سيشار له فيما بعد هكذا: ابن كنان: المروج السندسية.

(2) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق1ص259، وابن البيطار، تاريخ العصر الأيوبي ص209.

(3) يوسف غوانمة: تاريخ شرقي الأردن (القسم الحضاري) وزارة الثقافة والشباب عمان 1979،ص135 وابن طولون، مفاكهة الخلان، ق1ص308.

(4) أيام التشريق: هي الأيام الثلاثة الأخيرة في الحج ابتداء من الحادي عشر من ذو الحجة، مقابلة: المؤسسات الاجتماعية ص56.

(5) الشيزري: نهاية الرتبة، ص103 وعدنان محمد محمود ظاهر: التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامية في العصر الأيوبي...رسالة ماجستير الجامعة الأردنية ص110-112. سيشار له فيما بعد هكذا: ظاهر: التعليم.

(6) الحسيني : المدرسة الاسعردية/م33ج4ص592-893.

(7) ابن طولون: القلائد الجوهرية/ق1، ص270-271، النعيمي: م س، ج2، ص100،112.

(8) ابو شامة: م س، ص 112، 149، ابن كثير:م س، م7، م13، 350 وذكر النعيمي أنها كانت اماكن والصلاة علهم وإقامة العزاء بها ف حالة وفاة أحد مدرسيها، النعيمي: ن م، ج1، ص206، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق1، ص17.

بلاد الشام[1] وأصبحت فيما بعد مركزا للتدريب على السلاح والدفاع المدني إذا تعرضت البلاد لخطر الغزو كما حدث عام 699هـ/1299م عندما أمر نائب دمشق الأمير جمال الدين اقوش بإلزام أهلها بتعليق الأسلحة في الحوانيت وعمل إماجات[2] في المدارس المساجد في جميع أنحاء بلاد الشام كلها.

وبالنسبة لدور الثقافي للمدارس:-

فقد استطاع الزنكيون والأيوبيون المماليك نشر المذهب السني على حساب المذهب الشيقي مما أدى إلى انتشار علوم الفقه علىالمذاهب السنية الأربعة كما ساهمت المدارس في زيادة عدد المدرسين والمتعلمن والمكتبات الموقوفة على المدارس[3] وانتشار الكتب بين الناس حتى استافادت الطبقات الدنيا من التعليمالمجاني في العصر المملوكي الذين اعتبروه من أعمال البر والخير[4] بالإضافة إلى أعداد الموظفين الأكفاء للدولة[5] ويري لابيدوس[6] أن انتشار الثقافة بين العامة أوجد رابطة قوية بين العلماء والعامة وقوّى المشاعر الدينية في نفوس العامة مما أدى لتضامنهم مع مشايخهم في كثير من الاحيان الامر الذي وفر الحماية للعلماء المعارضين لسياسة الدولة من بطش السلاطين والأمراء حفاظا على الأمن والاستقرار من ثورات العامة، ونلاحظ أن السلاطين الأمراء ف بلاد الشام وبعض الأغنياء من التجار والعلماء هم الذين انشأوا المدارس وأوقفوا عليها أموالا تضمن استمرارها في آداء رسالتها الثقافية والاجتماعية كمدارس المسجد الأقصى مثلا وخلت المدارس في العصر المملوكي.لنظام مالي وإداري دقيق وخصصت الرواتب والأجور للمدرسين وكل العاملين بالمدارس المملوكية ويتكفل مؤسس المدرسة بإغاثة الطلبة والنفقة لهم، وصرفوا عليها من عوائد الوقف المتمثل في عدد من القرى والضاع

---

(1) ابن طولون: مفاكهة ن م الخلان، ق1، ص340.

(2) الاماجات: مفدرها اماجة وهي منصة على الأسطح لاستخدامها في إطلاق السهام، ابن حبيب: تذكرة البنيه، ج1، ص224، هامش1.

(3) ابن كثير: م س، مجلد13، ص317.

(4) طرخان: النظم الافطاعية، ص245.

(5) الباشا: الدراسات في الحضارة ص101.

(6) لابيدوس: مدن إسلامية ص190-191.

والحمامات والفنادق والحوانيت والأراضـي فكـانت هذه المصـادر المملوكية للصرف والإنفـاق على هذه المدارس[1].

ومن المدارس في المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي:-

مدرسـة الفقهـاء الشـافعية[2]، المدرسـة النحويـة[3] والمدرسـة الناصريـة[4] والمدرسـة المعظميـة[5] والمدرسـة الأمينيـة[6] وغيرهـامن المـدارس والزوايـا[7] واستمر الاهتمـام بهـا فـي العصر المملوكـي انطلاقـا مـن الاهتمـام بالنهضـة العلميـة والتركيز علـى نشـر المذهب السـني بمذاهبه الأربعة في مصر والشام للصمود أمام المذهب الشيعي الذي ينشره الفاطميون في مصر والشام، والتصدي للخطر الصليبي بإذكاء روح الجهاد في نفـوس أبنـاء الجيـل الجديـد، ولتعزيـز موقف بعض السلاطين والأمـراء لكسب ثقة النـاس ومحبتهم، بالإضافـة ألـى تخريـج موظفين

(1) المقريـزي: المواعظ ج2، ص463-401، وابن حجر: الدرر ج4، ص50، وابن تعزي: المنهـل، ج1، ص394. والذهبي : الشذرات:ج6 ص142-143، انظر الملحق: حيث تعطينا وصفاً دقيقاً لتنظيم المدرسة المالي والإداري في العصر المملوكي للمدرسة الاشرفية بالقدس، أوردها جلال سعد ناصر: عمائر السلطان قايتاي في بيت المقدس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ص 79-77.

(2) عند باب الاسباط وأوقف عليه وفوضها بالنظر في اوقافها إلى القاض بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية انظر العماد الكـاتب: الفتح القسي فـي الفتح المقدسي، تحقيق محمد صبح القاهرة 1965م. ص14،ص611-612.

(3) المدرسة النحوية: بناها الملك المعظم عيسى 604هـ/1207م بطرف صحن الصخرة من جهة القبلـة/ مجير الدين الحنبلـي: م س، م1، ج2، ص34، عبد الجليل حسن عبد المهدي: المدارس فـي بيت المقدس فـي العصرين الأيوبي والمملوك، أوردها في الحركة الفكرية، مكتبـة الأقصـى، عمـان ج1،ص351، سيشـار لـه فيما بعد هكذا: عبد المهدي: المدارس.

(4) الناصرية نسبة ألي الشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالن: بناهـا المعظم عيسى لجعلها زاوية للقرآن واندثرت في أواخر العصر المملوكي، مجير الديـن الحنبلـي، م س، م1، ج2، ص321 عبد المهدي: ن م، ج1 ص356 العارف المفصل، ج1 ص240.

(5) وتسمى الحنفية التي بناها المعظم عيسى الأيوبي: وأوقفها على فقهاء الحنفية: مقابل بـاب الانبيـاء، المعروف بالدوادارية، المعارف، ن م، ج1، ص240، ومجير الدين الحنبلي: ن م ص 259، 286.

(6) بناها الصاحب أمين الدين عبد الله عام 1329/5730م (غوانمة، بيت المقدس ص156.

(7) مجير الدين الحنبلي: م س، م1، ج2 ص27، كلمدرسـة البدري: بناهـا محمد الهكـاري أحد أمـراء المعظم عيسى الأيوبي عام 610هـ/1212م وأوقفها على فقهاء الشافعية في حي الواد ن م ص 289.

لمختلف الوظائف الإدارية والسياسية والدينية وخصصوا لذلك مصارد مالية أساسية للنفقة عليها[1] وبلغ عدد المدارس في القدس في العصر المملوكي حوالي 41 مدرسة أنشأ المماليك منها 37 مدرسة[2]، كما بلغ عدد المدارس في مدينة غزة 4 مجارس أنأ المماليك منها 3 مدارس[3] ومدرستان في صفد وبالنسبة إلى شرقي الأردن فقد أنشأ فيها المماليك خمس مدارس في كل من عجلون، والكرك، والسلط، وعمان، وحسبان.

وقد تشابهت المدارس في مناطق بلاد الشام في إطارها العام في العصر المملوكي سواء كانت في دمشق أو بيت المقدس أو في القاهرة، وبالنسبة لأنواع المدارس في جنوب بلاد الشام فكانت متعددة من حث تدريس القرآن الكريم وأصول القراءات والتفسير والحديث الشريف[4] وتدرس المذاهب الأربعة، فقد شجع نور الدين محمود زنكي إنشاء المدارس علي المذهب الحنفي[5] بينما شجع الأيوبيون مدارس مذهبهم الشافعي، أما المماليك فلم يستثنوا مذهباً من المذاهب بل اعترفوا بها جميعا حيث عين الظاهر بيبرس قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة في القاهرة والشام[6] وكانت الأولوية لقاض قضاة الشافعية في جميع القضايا من حث اللباس وبيت المال وغيره[7] وبالنسبة لدور المدارس السنية في العصر الأيوبي بمدرسيها العلماء والفقهاء والقضاة الشافعين، فقد لعبت دوراً مهما في إعداد جماهير المسلمين للجهاد ضد

---

(1) المقريزي المواعظ، ج2 ص363،364، 366، 368، 382، 387، 388، 392، -394،397،398،400 وابن حجر: م س، ج4 ص50، وابن تعزي: المنهل ج1 ص 392-393، الذهبي: ن م، ج6 ص142-143.

(2) مجير الدين الحنبلي: م س م1 ج2 ص33-48.

(3) عطا الله: نيابة غزة ص 245-246.

(4) عمر كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الوسطي، المطبعة التعاونية، دمشق 1973 م ص 100، سيشار له فيما بعد هكذا: النعيمي: المدارس.

(5) زيادة: دمشق ص119.

(6) النعيمي(عبد القادر بن محمد) : المدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقي: دمشق 1948، ج1 ص430، سيشار له فيما بعد هكذا: النعيمي: المدارس.

(7) السبكي: معيد النعم، ص78.

الصليبيين حتى أننا نجد بعض النساء المتبرعات ببناء بعضها[1]، وقد تنوعت المدارس في بلاد الشام حسب المذاهب الفقهية الأربعة فكانت هناك المدارس الشافعية[2] والحنفية[3] والمالكية[4] والحنبيلية(الحنابلة)[5].

ويلاحظ الباحث بأن سياسة الزنكيين والأيوبيين قد اتجهت محو الاهتمام بإنشار المدارس في مدن بلاد الشام كما لم يكن المماليك أقل تحمسا من أسلافهم هؤلاء في تحقيق الهدف الذي من أجله شيدت المدارس وهو إحياء المذهب السني والمحافظة عليه.

وهكذا نلاحظ بأن تاريخ إنشار المدارس في مصر والشام يعود للسلطان صلاح الدين الأيوبي وزادها المماليك حيث نعبر العصر المملوكي هو العصر الذهبي لانتشار التعليم نتيجة الإقبال على إنشاء المدارس من قبل السلاطين والأمراء والأغنياء والعلماء المفتدرين لخدمة الدين الإسلامي مع التعمق في الدراسات العقائدية والاجتماعية.

وأما مدارس القدس في العصر المملوكي فكانت:-

المدرسة الجاولية : عام 713هـ/1313م التي بناها علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس والخيل ونابلس واللد والرملة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الجهة الشمالية الغربية للمسجد الأقصى قرب منارة الغوانمة[6].

المدرسة الكريمية[7]: شمالي الحرم عند باب خطة شرقاً عام 718هـ/1318م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

---

(1) ست الشام اخت صلاح الدين الايوبي أقامت مدرسة بظاهر دمشق وتنسب إليها، ابن شداد: الأعلاق الخطرة ج2،ص294.

(2) ابن شداد: ن م ج2 ص255-259، النعيمي، م س ج1 ص 120-172.

(3) ابن شداد: ن م ص199-228، النعيمي،ن م ج1 ص 473 فما بعدها.

(4) ابن شداد: ن م ج2 ص253-254، النعيمي،ن م ج2 ص 21-28.

(5) ابن شداد: ن م ج2، ص255-259، النعيمي، ن م ص29-238.

(6) ابن فضل الله العمري م س ص159، وابن حبيب درة الأملاك ج1ورقة 98مخطوطة.

(7) ابن فضل الله العمري: ن م، ج1، ص157، وابن بطوطة: م س، دار التراث،بيروت 1968م ص 55 الذي ذكر بأنه زارها عام 725هـ/1324م وعدّها خانقاه ومجير الدين الحنبلي م س ج2ص39، وعارف العارف: المفصل في تاريخ القدس ج1ص244 وقد بناها كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله ناظر الخاصة السلطانية.

المدرسة الملكية: نسبة لبانيها الحاج ملك الجوكندار عام 741هـ/1341م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون شمال شرقي الحرم الشريف[1] ويسكنها الآن آل الخطيب[2].

الخانقاه الفخرية: بجوار جامع المغاربة نسبة لمؤسسها القاضي محمد بن فضل الله الملقب بفخر الدين[3] المصري ويسكنها اليوم آل أبي المسعود وتضم مسجداً للصلاة وأماكن لإقامة الأذكار وتهجد المتصوفين.

وفي عهد إسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة 745هـ/1343 أنشئت الزاوية المهمازية نسبة للشيخ كمال الدين المهمازي. أوقف إسماعيل على ريعها قرية بيت لقيا من أعمال القدس الشريف.

منشآت حسن بن محمد بن قلاوون(755-762هـ/1354-1361م).

المدرسة الفارسية: في شمال الحرم نسبة لواقفها الأمير فارس الدين البكر بن الأمير قطلو نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية وغزة. أوقف عليها سنة 755هـ/1354 حصة من قرية طولكرم[4] هي اليوم دار سكنها.

المدرسة الأرغونيه: بباب الحديد في الجهة الغربية من الحرم[5]،بناهاالأمير أرغون الكاملي نائب الشام سنة 758هـ/1357م ودفن فيها، يقيم فيها اليوم آل العفيف وبجانبها قبر الحسين بن علي قائد الثورة العربية ضد العثمانيين سنة 1916م.

---

(1) مجير الدين الحنبلي: ن م ج2ص38، وابن فضل الله العمري ن م ج1ص159.

(2) عارف العارف: ن م ص246.

(3) مجير الدين: ن م ص 281.

(4) ن م ص 286، عارف العارف: ن م، مطبعة المعارف، القدس 1961م ج1ص247.

(5) المنهاجي السيوطي: اتحاف الأخصا ورقة 46أ، مخطوط ومحمد كرد علي م س ص 121، وعارف العارف م س ص 248.

المدرسة الخاتونية: باب الحديد غربي الحرم: أوقفتها أوغل خاتون بن محمد سيف البغدادية سنة 755هـ/1354وأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان سنة 782هـ/1380م[1]وفيها قبر الخاتون القازانية البغدادية.

المدرسة التشتمرية: بباب الناظر: اوقفها الأمير تشتمر السيفي سنة 759هـ/1358م[2].

دار القرآن السلامية: أوقفها سراج الدين عمر السلامي سنة 761هـ/1360م([3]).

المدرسة الحسنية: بباب الأسباط: أوقفها شاهين الحسيني الطواشي.

المدرسة الاسعردية: بالقرب من المدرسة الجاولية شمالي الجرم أوقفها التاجر مجد الدين عبدالغني الأسعردي سنة 760هـ/1358م[4] نسبة إلى بلدة "سعرد" التركية جنوب بحيرة دان شرق الأناضول[5].

المدارس في عهد المنصور صلاح الدين بن سيف حاجي بن الناصر محمد سنة 762-764هـ/ 1361-1363م:

-**المدرسة الكازية:** قرب باب السلسلة من الشمال نسبة للامير كاز[6].

-**المدرسة المنجكية:** بباب الناظر: أوقفها الأمير منجك نائب الشام[7].

-**المدرسة المحدثية:** عند قبو باب الغوانمة: سنة762هـ أوقفها المحدث عز الدين أبو محمد عبدالعزيز العجمي الأردبيك[8].

---

(1) مجير الدين الحنبلي: م س ص282 دفن فيها الزعيم الهندي مولانا محمد علي سنة 1930وموسى كاظم الحسيني سنة 1933ونجله الشهيد عبد القادر الحسيني سنة 1940، الدباغ م س ص 275، عارف العارف ن م ص255.

(2) الحنبلي: ن م ص287؛

(3) ن م ص288.

(4) ن م 38 ذكر بأن واقفها الخواجة مجد الدين عبد الغني بن يوسف الاسعردي عام 770هـ/1368م.

(5) عارف العارف، ن م ص248.

(6) الحنبلي: ن م ص288.

(7) ن م ص 283.

(8) الحنبلي: م س ص286.

-**المدرسة الباوردية:** بباب الناظر قرب المدرسة القشتمرية، أوقفتها الست الحاجة سفري خاتون المعروف والدها بالباوردي سنة 768هـ/1367م[1] وهي اليوم دار سكن.

-**المدرسة الحنبلية:** بباب الحديد، أوقفها الأمير بيدمر نائب الشام سنة 768هـ/1367م[2] ويسكنها اليوم آل القطب[3].

-**المدرسة اللؤلؤية:** أوقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان[4] عام 759هـ/1358م وهي الآن مسكونة[5] وكانت خارج الحرم في الجهة الغربية.

ومن الأبنية التي أقيمت في زمن الأشرف شعبان:-

المنارة: عند باب الأسباط سنة 769هـ/1367م كما جددت الأبواب الخشبية للمسجد الأقصى والقناطر في صحن الضخرة[6].

ومن الأبنية في عهد السلطان المنصور علي بن شعبان سنة778-783هـ/1376-1381:-

مدرسة البلدية: شمال باب السكينة قرب باب السلطة، ودفن فيها بانيها الامير الاحمدي نائب حلب سنة 782هـ/1380م[7]، ولقد حول الملك الناصر حسن قلعة الخليل الرومية إلى مدرسة مجير الدين الحنبلي سنة 416هـ/1021م.

المدارس في مدينة السلط في العهد المملوكي:-

1-**المدرسة السيفية:** التي بناها سيف الدين بكتمر الحسامي عام 724هـ/1323م أيام الناصر محمد بن قلاوون لتدريس المذهب الشافعي[8] ومن أساتذتها شهاب الدين بن

---

(1) مجير الدين الحنبلي، م س، 287.

(2) ن م ص287.

(3) مجير الدين الحنبلي م س ج2 ص44 والمقريزي: السلوك ج3ق1ص224وعارف العارف م س ص250.

(4) مجير الدين الحنبلي ن م ص289.

(5)عارف العارف ن م ص250.

(6) مجير الدين الحنبلي ن م ص321.

(7) ن م ص 282.

(8) النويري: نهاية الأرب ج31، لوحة 91،92(مخطوطة) وأبو المحاسن: م س، ج9ص278،279.

سليمان بن داوود الكوراني الشافعي (784هـ/1382م)، وكان فيها خزانة كبيرة للكتب[1].

كما كان من علماء السلط شمس الدين بن محمد بن ابراهيم راضي المتوفي سنة 784هـ/1382م وكان مدرساً بالمدرسة الشامية وقاضياً في قوص بمصر[2].

وقاضي القضاة بدر الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الهادي الصلتي الشافعي المتوفى عام 786هـ/1384م وتولى قضاء الصلت والقدس والخليل ونابلس وحمص، ومن مؤلفاته" ميدان الفرسان" في ثلاث مجلدات[3].

وعبد المنعم بن احمد بن أبي بكر الصلتي (712-788هـ/1312-1386م) اشتهر بعلم الحديث وقد حدث في بيت المقدس[4].

وبدر الدين محمد بن البرهان الصلتي(706-786هـ/1306-1384) تولى القضاء في نابلس، ثم بعلبك ثم نائبا لقاضي القضاة في دمشق ثم تولى قضاء طرابلس، وكان خطيبا ومدرسا في المدرسة الزنكية والمشيخة الاسدية بدمشق كما حدث في نابلس ودمشق وبعلبك وطرابلس وكان يقرض الشعر[5].

ومحمد بن عباس بن محمد بن حسين بن عباس الصلتي(745-807هـ/1344-1405م)، وكان فقيها ولي قضاء القدس وغزة معاً، وقضاة الشافعية في دمشق[6].

والشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن شمس الدين الصلتي الشافعي (776-852هـ/1378-1451م)، كان فقيهاً وعالماً تولى نيابة الحكم في القدس[7].

---

(1) النعيمي: م س ج1ص275، ج2ص104.

(2) ابن حجر العسقلاني: أبناء الغمر بأبناء العمر ج1ص268.

(3) مجير الدين الحنبلي: م س ج2ص270.

(4) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ج3ص29،30.

(5) ن م ج1ص168،167.

(6) السخاوي: م س ج7ص277.

(7) مجير الدين: م س ج2 ص522.

وقد أسس الفلسطينيون المدارس في دمشق والقاهرة بعد هجرتهم هربا من الصليبية[1] كما ظهر من اهل فلسطين مدرسون كبار ومشايخ لبعض المدارس العالية في القاهرة ودمشق:- ففي القاهرة برز منهم : شيخ الاسلام احمد بن محمد المشهور بالهائم، كان مدرسا للرياضيات، توفي بالقدس عام 715هـ/1315م وفي دمشق ابوشامة المقدسي، عبد الرحمن إسماعيل، الذي أسس

---

[1] 1-مدرسة الشيخ نصر بن إبراهيم الفقيه النابلسي شمال غرب الجامع الأموي بدمشق: وقد أوقف عليها صلاح الدين الايوبي عام 572هـ قرية حزم من أعمال حوران، وتعرف أيضا باسم المدرسة الغزالية، النعيمي: م س ج1ص493 ومابعدها. وابن كثير، ت(774هـ) م س ج13ص353، وكرد علي: م س ج6ص87.

2-دار الحديث الفاضلة في دمشق: بجوار قبر صلاح الدين في الكلاسة، وسميت نسبة إلى مؤسسها القاضي الفاضل المولود في عسقلان قرب غزة(529-596) والذي انتهت اليه صناعة الإنشاء، انظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ج4ص324، والنويري: نهاية الإرب في فنون الأدب ج8ص1وكان صاحب سر صلاح الدين الأيوبي، وكتب في الإنشاء مالم يكتبه أحد، وقد درس فيها المؤرخان الذهبي وابن كثر من رجال القرن الثامن الهجري.

دار الحديث والإقراء في دمشق[1] وحسن بن علي الطبراني المدرس بمدرسة ابي عمر بدمشق في القرن السادس الهجري[2].

---

[1]-المدرسة العمرية الشيخية في دمشق: أسسها عام 550هـ/154م الشيخ عمر بن قدامة الجماعيني الحنبلي " ولد بجماعين من أعمال نابلس عام 528هـ/1133م) وسميت نسبة اليه ثم هاجر إلى دمشق بعد استيلاء الفرنجة على فلسطين، وقد اعتني بهم نور الدين زنكي، وقد شارك مع اخوته في فتح بيت المقدس: المقريزي: الخطط ج6ص99-100 والنعيمي: ن م ج2 ص104-105وكانت مختصة بتدريس المذهب الحنفي وابن بطوطة(704-779هـ/1304-1377م) : الرحلة ص101.

[2] -دار الحديث ألا شرفية بسفح جبل قاسيون: بناها الفلسطيني الجماعيني عبدالله بن عبدالغني الحنبلي: النعيمي ن م ج1ص48، المقريزي: الخطط ج6ص73.

-المدرسة الضيائية: بسفح جبل قاسيون بناها الفقيه المقدسي محمد بن عبدالواحد السعدي الخبلي" ضياء الدين" ت 643هـ/1245م) وكانت اكبر المدارس بدمشق والصالحية، بناها عام 621هـ/1223 وأوقف عليها كثيراً من كتبه، النعيمي ن م ج2ص15، ومن مؤلفات هذا الفقيه المقدسي: -

-سير المقادسية في عدة مجلدات.-الأحاديث المختارة (90جزء)

-فضائل القرآن -فضائل الشام.

-مناقب أصحاب الحديث. -النهي عن سب الصحابة.

فكان علامة عصره: كرد علي، خطط الشام ج6ص99.

-المدرسة العمادية المقدسية عند كهف جبرائيل بسفح جبل قاسيون: أنشأها احمد بن عماد الدين المقدسي المتوفي عام688هـ:كرد علي:ن م ج6ص141.

أما المدارس التي أسسها الفلسطينيون في القاهرة فكانت:

-مدرسة بن الأرسوفي العسقلاني(ت593هـ) التي بناها عام 570هـ/1174م بحي البزازين بالقاهرة، انظر المقريزي: الخطط ج4ص144، وبطرس البستاني: دائرة المعارف، بيروت 1876م ج1ص373.

ارسوف: مدينة محصنة في جند فلسطين وهي من المدن الكنعانية العربية القديمة: الدباغ، بلادنا فلسطين ج4،ق2 ص348.

-المدرسة الفاضلية: بناها القاضي الفاضل بدرب" ملوخيا" بالقاهرة عام 580هـ/ 1184م وحوت مكتبها حوالي أربعمائة ألف مجلد، وكان من مدرسيها للقرآن الشيخ الشاطبي صاحب حرز الأماني، انظر على مبارك: الخطط التوفيقية ج1القاهرة 1969م، ج2 ص238،

وقد بنى هذا الفلسطيني السوق المسقوفة في القاهرة والمسماة القيسارية، والبستان الكبير مع جامع وحمام بجانبه:الدباغ، فلسطينيات ج3 ص194،195،196.

-المدرسة المجدية الخليلية: في القاهرة بمصر العتيقة " اسسها الشيخ ابو المجد ابو محمد عبد العزيز بن الحسين الخليلي الداري عام 663هـ/1265م وهي مدرسة شافعية، لها مدرسين ومعيدين وعدة موظفين وأوقافاً. انظر المقريزي: الخطط، ج4ص250: مصر عام 1326 وسلاطين المماليك ج3ص51.

-المدرسة القيسرانية في القاهرة: بناها القاضي شمس الدين محمد ابراهيم المعروف بابن القيسران عام 575هـ/1179م ويصل نسبة إلى أسرة خالد بن الوليد، وقد رحلت أسرته عن قيسارية إلى حلب ودمشق والقاهرة، ومن قبيلته برز وزراء وشعراء وإداريون. ابو المحاسن: م س ج15ص252، المقريزي: الخطط ج4 ص240، وعلي مبارك: ن م القاهرة 1305 ج6ص14.

5-المدرسة المسرورية: أسسها مسرور الصفدي في القاهرة وهي الآن زاوية صغيرة، انظر المقريزي: الخطط: القاهرة 1326م ج4ص216، وعلي مبارك، ن م ج6ص15 وتابع الكثيرون من محبي الخير والإحسان في بناء المدارس أثناء الحروب الصليبية وبعدها.

لذا نستطيع القول أنه كان لعلماء وفقهاء فلسطين اثر كبير في رفع المستوى العلمي بدمشق والقاهرة بواسطة مدارسهم وعلمائهم وفقهائهم، امثال ابن حجر العسقلاني وابو شامة المقدسي[1] وهكذا ساهمت الشخصية الفلسطينية من مشاهير علمائها في صياغة وتشكيل حضارتها على مر الأزمان، فكان من الضروري الحفاظ على الإرث الثقافي لفلسطين التي كانت ومازالت هدفاً للطامعين السياسيين وغزاة الحضارة من الصهاينة مما دفعني إلى ذكر اعلام الحضارة الفلسطينية المتفرقة أخبارهم في ثنايا كتب التراجم والأعلام.

وأما النظام المتبع في المدارس: فقد كان لكل مدرسة مدرسيها ومعيديها وإمامها ومؤذنها وخادمها وطلابها الذين يدعون " بالمتفقهة"[2] وكان عددهم محدوداً في معظم الأحيان بحسب شروط الواقف، كما ينقسمون إلى أقسام بحسب قدمهم في الدراسة والاختصاص، فمنهم الفقيه المنتهي صاحب البحث والمناظرة على من دونه بمايعادل طالب الدكتوراه الآن[3].

وهكذا نرى ان كثير من دور العلم لايقل عن الجامعات المعروفة في عصرنا من حيث نظام الدراسة وهيئة التدريس والإجازات العلمية التي تمنحها منذ تدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيهاً منتهياً مختصاً بعلم من العلوم التي يؤثرها، فينال إجازته العلمية ويشهد المدرس له بإتمام الدراسة المقررة وأنه أصبح أهلاً للتدريس والفتوى فيمنحه الإجازة العلمية فيُذكر فيها أسم الطالب وشيخهُ المُجيز له ومذهبهُ وتاريخ الإجازة، كشهادات الجامعة الآن وتميز

---

(1) علي مبارك: الخطط التوفيقية، القاهرة 1970ج3ص123، المقريزي: الخطط، القاهرة سنة 1326هـج4ص216.

(2) السبكي..معيد النعم ومبيد النقم ص105 قارن بين المدرس والمعيد فقال: "وحق عليه ان يحسن القاء الدروس وتفهيمه للحاضرين، ثم ان كانوا مبتدئين فلايلقي عليهم مالا يناسبهم من المشكلات، بل يدرسهم ويأخذهم بالأهون، إلى ان ينتهوا إلى درجة التحقيق".

اما المعيد: المعيد عله قدر زائد من سماع الدرس، من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل مايقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو والفقيه سواء.

(3) ابن جبير م س ص222، وقد وصف لنا طريقة تعليم الصبيان المبتدئين في الجامع الأموي:" وفي هذا الجامع مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة القرآن دائماً ومثله إثر صلاة العصر لقراءة ماتسمي بالكوثرية يقرؤون فهيا من سورة الكوثر إلى الخاتمة ويحضر هذا المجتمع الكوثري كل من لايجيد حفظ القرآن وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم، يعيش فيه اكثر من خمسمائة إنسان.. وعند فراغ المجتمع السبقي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلي أمامه صبي يلقنه القرآن، وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة، وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تتريها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات.

هذا العصر بنوع من الاجازات العلمية المسماة بـ"الإجازة بعرافة الكتب"[1]، وبعد ان أسهبنا في هذا العرض المتواضع لذور العلم يبقى حَرِيًّاً علينا ان نشير إلى النواحي الثقافية العامة في العصر الذي نؤرخ له، من حيث نشاط الحركة الثقافية والنضج الفكري، وكثرة التأليف والتصنيف بحيث يضيق بنا البحث لو حاولنا الإلمام بكل الاتجاهات العامة، لذا سنحاول في هذه الدراسة الإلمام بشتى أنواع الثقافة العامة بذكر أبرز ما ألف في علوم الدين واللغة العربية والعلوم الاجتماعية والتاريخية والعلوم العقلية والعلمية.

وكان من أبرز النواحي العلمية: ظهور التخصص في التأليف عند الكتاب نتيجة لنضج تفكيرهم وتعمقهم في الأبحاث، مما جعل السيوطي يركز على تصنيف العلماء كل بحسب علومه، حيث ذكر فقهاء المذاهب الأربعة، وذكر المحدثين ونقاد الحديث، وأئمة القراءات وأئمة اللغة والنحو والصرف، وأشهر المؤرخين والنابهين من الأدباء والشعراء.

علوم الدين

لقد نشطت حركة إحياء علوم الدين في الأصول والفروع، لتشجيع السلاطين والأمراء للعلماء والفقهاء، فبرز منهم إمام العصر ابن تيمية وتلاميذه من دعاة الإصلاح، مما كان لهم الأثر الكبير في حركة التأليف التي شملت علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه.

أولاً: القرآن الكريم: -

لقد تميز هذا العصر بعدم تقليد المفسرين السابقين تبعاً للمذاهب الدينية والمفسرين[2] كما اهتموا بإحياء القراءات السبع للقرآن الكريم[3].

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ج14ص326-327: وصفها " بحفظ الطالب لكتاب في الفقه أو الحديث أو الأدب أو النحو أو التاريخ، ثم يعرضه على مدرسه فيختبره فيه فإذا أحسن الإجابة ولم يخطئ فيه كتب له الإجازة في ذلك، وقال فيها: " عرض على فلان أو عرض على وكتبه فلان" هذا وتوثقت فيه الإجازة على شهرة الأستاذ المجيز.

[2] كرد علي: م س ج4ص41وابن الوردي: م س ج2 ص87 ذكر عزالدين عبدالسلام صاحب تصنيف (التفسير والمجاز في القرآن) ومحمد بن ظفر (المتوفي عام 565هـ) الذي صنف تفسير (ينبوع الحياة) وابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة 83، 461 ذكر سبط بن الجوزي (المتوفي سنة 654هـ) الذي صنف معادن الابريز في تسعة وعشرين مجلداً) انظر الصابوني: تاريخ حماة ص139 ذكر تقي الدين أحمد بن تيميه المتوفي سنة 728هـ الذي اعتمد في التفسير على حفظه، وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الذي قال عنه السبكي في طبقاته: (حاكم الإقليمين مصر وشاما، وناظم عقد الفخار الذي لايسامى) وسمى كتاب تفسيره (كشف المعاني).

[3] انظر السيوطي: حسن المحاضرة ج1ص212وابن تغري بردي: ن م (مخطوطة) ورقة 3،190، وابن تغري: النجوم الزاهرة ج7ص244 والصفدي : اعيان العصر ق2،ورقة 25464 مخطوطة، وابن الوردي: م س. أشاروا إلى تاريخ القراءات للقران الكريم وتطورها حتى جاء القرن السادس الهجري عندما ظهر في الاندلس القاسم بن الشاطبي المقرئ الضرير (المتوفي سنة 590هـ) ونظم في القراءات ورسم المصحف قصيدتين: هما (حرز الاماني) والرائية) وقد حضر إلى مصر للدراسة واصبح رئيس الإقراء فيها، ثم تناول علماء الشام ومصر في القصيدتين الشاطبيتين بالتقليد والشرح، منهم شهاب الدين أبو شامة المقدسي(المتوفي سنة 655هـ) وغيرهم.

وقد برز من علماء الأردن في القراءات الذين درسوا في مدارس القاهرة وكانت لهم مصنفات أمثال علي بن يوسف بن حريزبن فضل البلقاوي[1]، وإبراهيم بن موسى بن بلال الكركي[2]، وعبد الرحمن بن محمد بن مجد الكركي[3]، وعبد الحمن بن ابي بكر بن ابى العباس الكركي[4]، وعلى بن يوسف بن حريز اللخمي" الشطنوفى" الشافعي البلقاوي ت713هـ إمام القراء والنحويين[5].

ثانيا: الحديث الشريف:-

لقد زاد اهتمام نور الدين وصلاح الدين بعلم الحديث لسماعهم له[6] فأنشأ نور الدين دورا للحديث في بلاد الشام ومصر، وكذلك كان صلاح الدين الأيوبي يسمع ويتلو الحديث بنفسه طيلة حياته الحافلة بالجهاد[7].وهكذا اكثر المحدثون في هذا العصر، حتى أننا نستكيع اعتباره، عصر الحديث النبوي الذهبي في بلاد الشام وغيرها اعتبارا من القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[8]، كما تميز هذا العصر بكثرة النساء المحدثات[9].

---

(1) ابن حجر، م س ج3ص216 وصفه بإمام الشعراء والنحويين من كتبه " البهجة" في ثلاث مجلدات ودرس في الجامع الطولوني بالقاهرة.

(2)السخاوي،م س ج1 ص175، وصفه بعالم القراءات السبع والفقه واللغة العربية ومن مصنفاته "الإسعاف إلى معرفة القطع والاستئناف"، "نكت على الشاطبية" عمدة المحصل التمام في مذاهب السبعة الأعلام" " درة المجيد في أحكام القرآن والتجويد" وكان مدرساً للقراءات في المدرسة الظاهرة بالقاهرة.

(3) ن م، ج4 ص124، وصفه السخاوي بالشيخ الصالح المقرئ المتقف المجود الحافظ، عمل رئيساً في الجامع الطولوني بالقاهرة.

(4) ابن حجر، الدرر، ج2 ص434، جلس للقراءات في الكرك وقصده طلاب دمشق وغيرهم.

(5) تصدر القراءة بالجامع الأزهر، جمع مناقب الشيخ عبد القادر الجبلي في كتابه " البهجة" في ثلاث مجلدات، انظر ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ج1ص585، وابن حجر ن م ج3ص216.

(6)ابو شامة: م س؛ ج1، ص6،12: حيث ذكر عن نور الدين بأنه حدث وروى وأجازه العلماء وذلك على الرغم من انشغاله بالحروب، ابن واصل: م س ج1ص181،182، وابو شامة: ن م ج1ص11، يذكر اهتمامه برواية أحاديث الجهاد والاستعداد للحرب.

(7)ابن شداد: النواد السلطانية ص8،18، وابن واصل ن م ج2ص112وذكر قاضيه ابن شداد في ص10انه ليلة فتح صفد سنة 585هـ روى صلاح الدين له الحديث المشهور:" عينان لاتمسهما النار، عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله " فدمعت عيناه وبكى من خشية الله.

(8) ابو شامة: ن م ج1ص10، وابن خلكان: م س ج2ص235: أشار إلى محدث الشام ومؤرخها:الحافظ ابو القاسم على بن عساكر الدمشقي (المتوفي سنة 571هـ) الذي كان من أعيان الشافعية، وشيخ أئمة الحديث زمن نور الدين وصلاح الدين، وانظر: ابن خلكان: ن م ج1ص235، 312،313، وابن الوردي: م س ج2ص78،175،176، حيث ورد ذكر المحدث تقي الدين عثمان بن الصلاح الابن الذي كان زمن عماد الدين ودرس في المدرسة الناصرية بالقدس ثم بني له الملك الأشرف دار الحديث الأشرفية بدمشق ودرس فيها وكان من مصنفاته"مناسك الحج" و"اشكالات".

(9) الصفدي: أعيان العصر، ق1، ورقة 3،227، وورقة 79،98 مخطوط، ذكر اشهر أسماء المحدثات، يهمنا ذكر اسم عائشة بنت عيسى الموفق القدسي(المتوفاه سنة 697هـ)، ومنهن ايضا بنات السلاطين مثل خاتون بنت يونس بن محمد العادل (المتوفاه سنة 697هـ).

كما تميزت الكرك بعلم الحديث بعد إقامة عدد كبير من علماء الحديث فيها أمثال أحمد بن كمال الدين بن العطار[1]. وعبد الرحمن بن ابي بكر بن مالك الكركي[2] ودانيال بن منكلي الكركي ت 696هـ/ 1992[3] وعلاء الدين علي بن بلبان أبوالقاسم الكركي 648هـ/ 1286 وتلميذه دانيال[4].

كما وضع علماء الحديث مصنفات أمثال إسماعيل بن خليفة بن عبد العال الحسباني(ت 778هـ 1376) الذي صنف" شرح المنهاج في عشرة مجلدات"[5] وأخذ علماء الحديث في الأردن عن كثر من رواة الحديث المشهورين[6]، وعبد المنعم بن احمد بن محمد الصلتي (ت712هـ)[7].

ثالثا: الفقه الإسلامي:-

لقد اسهم علماء هذا العصر بنصيب وافر من التأليف الديني في فقه المذاهب الأربعة من حيث دراسة مختلف الأمور التي عرفت م قبل، وقاسوا عليها أمورا كثرة كما شرحوا الأصول والمتون القديمة وفروعها وعلّقوا على المسائل الشرعية وفقاً للمذهب والظروف الطارئة، وقد كان للجامعات الدينية الأثر الكبير في هذا الفن من التأليف حيث كان أسلوب البحث فيها على ثلاث درجات: أولها بحث واسع، وثانيهما بحث متوسط وثالثهما بحث موجز[8].

---

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج8 ص167.

(2) ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد: غاية النهاية في طبقات القراء، مطبعة دار السعادة، القاهرة،1932م، ج1،ص366.

(3) ن م ج1ص278، وابن حجر م س ج2ص268، وابن طولون م س ق11ص43،44.

(4) اليونيني: م س ج4 ص269، وابن العماد الحنبلي م س ج5ص388،435.

(5) ابن حجر: ن م ج1ص391،ذكر احتراق هذا الكتاب عند غزوة تيمور لنك لدمشق.

(6) كالذهبي، وابن رافع، وسنجر الجاولي، والسخاوي، وغيرهم.. السخاوي: الضوء اللامع ج1ص237.

(7) تعلم في القدس ودمشق وحدث عنه ابو حامد بن ظهيرة والبرهان الحلبي وتوفي عام 788هـ، انظر ابن حجر ن م ج2ص82، وابن قاضي شهبة: م س ج2ورقة 15(مخطوط)، وابن العماد الحنبلي:ن م ج7ص15.

(8) ابن الوردي: م س ج2ص92،284،289، وابن تغري بردي: المنهل الصافي(مخطوط) ورقة 1والنجوم الزاهرة ج6 ص79، والسبكي: طبقات الشافعية ج4ص54،283،وكرد علي: م س ج4ص54. ولانستطيع الإحاطة بأسماء جميع الفقهاء وأبحاثهم لأن هذا ليس مجال بحثنا. وانما نذكر أشهر العلماء الفقهاء: أمثال عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء الذي كان في صراع دائم مع السلاطين والأمراء في مصر والشام والذي كان من مؤلفاته:" قواعد الإسلام" والقواعد الصغرى" والأماني" والفتاوي الموصلية"، وكذلك تقي الدين أحمد بن تيمية الحنبلي المصلح القائد الذي سجن نتيجة لمجابهمة جمود علماء الدين ومجادلتهم مثل:تكفير من يحلف بالطلاق ومسألة شد الرحال إلى قبور الانبياء والصالحين وكان عددا تصانيفه في الفقه خمس مائة مجلد حيث كان يذكر أقوال المذاهب الأربعة في كل مسألة وكان يخالفها ويحتج لها بالكتاب والسنة ونذكر من أشهر مصنافاته:(رفع الملام عن الأئمة الأعلام)،(والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)،(والفتاوى الموصلية). وغيرها كثير.

وقد برز من علماء الفقه في شرقي الأردن في العصر المملوكي محمد بن عبد الله الهكاري الصلتي[1]، وابراهيم بن محمد بن زياد العجلوني[2]، ومحمد بن أحمد بن موسى العجلوني[3]، وعبد الله بن خليل بن زيادالرمشاوي[4]،ومحمد بن إبراهيم بن راضي الصلتي الشافعي ت(784هـ/1382م)، أخذ العلم عن فقهاء دمشق ودرس بالمدرسة الشامية، رحل لمصر عام 770هـ وتولى قضاء[5] قوص وإسماعيل بن أبي بكر بن شجاع الصلتي (ت794هـ/1392م)[6]. ومحمد بن عباس بن محمد الصلتي[7] (ت807هـ)، وعبد الرحمن بن سعادة الحسباني[8]، وإسماعيل بن خليفة الحسباني (ت778هـ)[9]، وحجي بن موسى بن أحمد الحسباني(ت782هـ/1800م)[10]، وداوود بن سعيد بن فريد الحسباني (ت800هـ)[11].

---

(1) الذي وضع عدة مصنفات فقهية أهمها مختصر لكتاب "ميدان الفرسان" في 3مجلدات مجير الدين الحنبلي م س ج2ص470 وابن قاضي شهبة تاريخه/ج3ص48، وابن عماد الحنبلي م س ج6ص293، وقد تولى قضاء نابلس والقدس والخليل.

(2) من مصنفاته "شرح على المزاج" ودرّس في المدرسة الركنية في دمشق، السخاوى، م س ج1ص157.

(3) من مصنفاته :" التلويح إلى معرفة الجامع الصحيح" في خمسة مجلدات وكتاب " الأحكام في أحكام المختار" "ونكت التنبيه في خمسة مجلدات السخاوي ن م ج7ص111.

(4) من مصنفاته: "منارسبل الهدى وعقيدة أهل التقى" و" الذكر المطلق" السخاوي ن م ج5ص18.

(5) ابن حجر، أنباء الغمر، ج1ص68، وابن قاضية شهبة:م س، ورقة 280(مخطوط) بدار الكتب المصرية تاريخه/ تحقيق عدنان درويش دمشق 1977 ص155.

(6) ابن قاضي شهابة : ن م ج3 ورقة 83 (مخطوط).

(7) المقريزي: السلوك ج2ص168، السخاوي، ن م ج7 ص277 وابن طولون معنا في دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الشرقي، دمشق،1956م،ص128.

(8) السخاوي: م س ج6ص180.

(9) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، 3أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية ج3ورقة42.

(10) ابن قاضي شهبة: ن م ج3ورقة 43،44 ابو المحاسن، م س ج11ص268 وابن العماد الحنبلي م س ج6ص274.

(11) ابن قاضي شهبة: ن م ج3ص675.

علوم اللغة العربية

لقد زاد اهتمام علماء هذا العصر باللغة العربية لدراسة علوم القرآن الكريم، كما نشط التأليف في اللغة[1] والصرف والبلاغة والعروض.

علوم النحو والصرف:-

لقد ازدهر علم النحو والصرف في بلاد الشام في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي لأهميتها في علوم القرآن والحديث واللغة[2] وفي بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[3] توضحت معالم المذهب الشامي على يدي النحوي الكبير/ جمال الدين الطائي في عهد الظاهر بيبرس والذي أشير إليه بأنه كان أمة وحده في علوم اللغة الغربية[4]، مما ساهم في تخرج جماعة من أعلام النحاة في بلاد الشام من مدرسته[5]، وشهدت إمارة الكرك الأردنية

---

(1) ظهرت المعاجم اللغوية: مثل معجم البلدان: لياقوت الحموي الذي انتهي من مسودته سنة 621هـ وشرع في تبييضه سنة 625هـ وقدمه للوزير القاضي جمال الدين علي الشيباني والذي رتبه على الحروف الأبجدية. كما ظهرت تصانيف لغوية مثل كتاب {المثلث في اللغة} و{إكمال الإعلام بمثلث الكلام} و{والنظم الأوجز بمايهمز} و {الاعتقاد في الفاء والضاد} وكلها لابن مالك إمام اللغة العربية في عصره، انظر : ابن تغري بردي:المنهل الصافي،ورقة3، 190، 191 مخطوط وابن شاكر: فوات الوفيات ج2ص214،وابن الوردي:م س ج2ص222.

(2) ابن الوردي: ن م ج2ص82، من أشهر علماءالنحو والصرف: ابو نزار حسن بن نزار المتوفي سنة 568هـ.

(3) تشجيع الملك الناصر داوود للنحو والأدب في الكرك إذ نظم اللغوي جمال الدين ابو عمر بن الحاجب، مقدمته الكافية في النحو وقدمها للناصر داوود، ابن واصل م س، ج4، ص330، واستقر عنده في الكرك وسبط ابن الجوزي م س، ج8، ص472.

(4) ابن جبير: م س ص235،وابن شاكر : م س ج2ص284 وابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة3، 190، 191،مخطوط وأشاروا إليه بأنه صاحب مدرسة نحوية جديدة مجدداً لامقيداً ومستشهداً بالقرآن الكريم والحديث وشعر العرب، توفي سنة 672هـ.

(5) ابن الوردي: ن م ج2ص222، من تلاميذه ابنه بدر الدين محمد، وابن العطار والشيخ أبو الحسن اليونيني وغيرهم، وكان من أشهر تصانيفه{ تسهيل الفوائد} الذي يحتوي على قواعد نحوية مفيدة وأرجوزته الكبرى {الكافية الشامية} وأرجوزته الصغرى{الخلاصة الألفية} والذي جمع فيها قواعد اللغة العربية بكاملها، انظر :ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج3، ورقة191مخطوط، وابن خلدون:المقدمة ص547،وابن الوردي: ن م ج2ص222.

ومنهم أيضاً: علم الدين بن علي السخاوي المتوفي سنة 643هـ الذي ألف { المفصل في الشرح المفضل} و {سفر العادة وسفير الإفادة}، وقد ذكر ابن الوردي أنه رآه بدمشق، ابن الوردي: ن م ج2ص176، ومنهم الملك المؤيد أبو الفداء صاحب كتاب {الكناس} موسوعة كبرى في قواعد النحو والصرف والمنطق، الصابوني:تاريخ حماة ص126، وابو شامة المقدسي الذي وضع {المقدمة في النحو}.

انتعاش الحركة العلمية في العصر المملوكي بعد أن أصبحت إحدى المراكز الثقافية الهامة في بلاد الشام.

البلاغة والعروض:-

لقد استقل هذا العلم في هذا العصر فظهر علماء البلاغة ن امثال بد الدين بن مالك(المتوفى سنة 686هـ/1287م) صاحب كتاب (المصباح) في البلاغة، وجلال الدين القزويني (المتوفى سنة 739هـ/1338م) صاحب كتاب (الإيضاح) ونظم الشعراء البديعيات[1]، كما درس علماء العربية علم العروض وصنفوه[2].

العولم التاريخية والاجتماعية

لقد كان للتطورات السياسية، والأحداث الحربية المتتابعة أثرها الفعال في تنشيط العلوم التارخية والاجتماعية، فأبدع المؤرخون في الروايات المؤثقة التي شهدها الرواي نفسه، أو رواها عن طريق رجال صدق وعدل، إن لم يتمكن من رؤية الحادثة بنفسه، كالمؤرخ المشهور بهاء الدين يوسف بن شداد[3] مؤرخ حياة صلاح الدين الأيوبي، وأبو شامة المقدسي (ت665هـ/1267م) مدرس التاريخ في الجامع الأموي بدمشق[4].

ذلك هو أسلوب البحث التاريخي إذ أصبح علم التاريخ أحد العلوم الرئيسية التي لابد لكل مثقف من الإطلاع عليها لعلاقته بالدراسات الإسلامية وثقافة العصر العامة حينما أصبح الناس يستمعون في الحقات المعقودة داخل المساجد إلى أحداث الماضي البعيد والقريب والأحداث المعاصرة. وقد تفرع البحث التاريخي في ثلاثة مجالات هي التاريخ العام[5].

---

(1) البديعيات: قصائد نبوية، بحرها البسيط ورويها الميم الذي اختاروه اقتداءً بالبوصيري في بردته المشهورة د/ عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص156.

(2) ن م ص157: أمثال بن مالك في كتابه (العروض) وهبة الله البارزي،وجمال الدين بن واصل.

(3) ان شداد النوادر السلطانية ص71.

(4) أبو شامة: الروضتين ج1ص5: حاول أبو شامة تبسيط بعض الكتب التاريخية الطويلة المسجعة، حيث حذف منها بعض الأسجاع لكي يفهم الكلام الخاص والعام وكان مؤرخاً ومحدثاً ونحوياً وفقيهاً.

(5) تميز مؤرخو هذا العصر بتأريخ الأحداث بحسب توالي السنين كالطبري(ت 310هـ)، أمثال بن الأثير في تصنيفه "الكامل في التاريخ" وابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول)، وسبط بن الجوزي(ت654هـ) صاحب مرآة الزمان، وصاحب حماة: الملك المنصور في كتابه:"المضمار في التاريخ" وصاحبهاالملك المؤيد أبوالفداء صاحب "المختصر في أخبار البشر"، وقاضي قضاتها شهاب الدين بن أبي الدم (ت سنة 642هـ) والذي صنف للملك المظفر " التاريخ الكبير المظفر" في تاريخ الملة الإسلامية ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوط) ورقة3،462.

والتاريخ الخاص[1] والتراجم والطبقات[2].

أما بالنسبة لعلم الجغرافية والفلك:-

لقد كثرت في هذا العصر المصنفات في تقويم البلدان والأقاليم[3].

---

(1) لقد تميز مؤرخوه بالتحدث عن تاريخ دولةعاصرها أو أدرك بعض أيامها أو شهد زوالها، ومنهم من تحدث عن تاريخ مدينة أو إمارة أو نيابة أمثال: أحمد بن الأزرق الفارقي (م سنة 660هـ) في كتابه (تاريخ الفارقي) ويضم تاريخ فارقين، وكمال الدين بن العديم:" تاريخ حلب" وابن الاثير:" الدولة الأتاكية الزنكية" نعرض فيه كثيرمن أخبار صلاح الدين. والعماد الكاتب (ت597هـ) الذي ألف كتابين مسجوعين: أحدهما: الفتح القسي في الفتح القدسي عن حروب صلاح الدين من سنة ثلاث وثمانين وخمسة مائة، والثاني" البرق الشامي" منذ دخوله دمشق : وأبو شامة :الروضتين ج1ص4،5 وبهاء الدين يوسف بن شداد(ت632هـ) : صنف سيرتمولاه صلاحالدين الأيوبي في كتابه:" النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) كما صنف أبو شامة المقدسي: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين) الذي اعتمد فيه على من سبقه من المؤرخين كالحافظ أبي القاسم علي وابن الأثير وابن شداد والعماد الكاتب ووضع ذيلاً لتاريخ دمشق واختصره مرتين، انظر أنظر أبو شامة: ن م ج1ص4-5، وابن تغري البردي: المنهل الصافي ورقة 2و587 مخطوط، وقاضي حماة جمال الدين ابن واصل (ت 697هـ) حيث عاصر الظاهر بيبرس وسقوط الدولة الأيوبية وصنف كتابه المشهور (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)، انظر ابن تغري م س ورقة 2-3،158،578 مخطوط، وصنف " التاريخ الكبير" منذ عهد الرسول (الى السنة التي توفي فيها الصالح نجم الدين أيوب.

(2) لقد اهتم هذا النوع بتراجم العلماء والأدباء ورجال السياسة والقضاء أمثال: أبو القاسم علي بن عساكر (ت571هـ) صاحب كتاب "تاريخ دمشق" صنفه حسب الحروف الأبجدية وابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب (ت668هـ) في كتابه عيون الانباء في طبقات الأطباء وابن القفطي (ت681) في كتابه تاريخ الحكماء وابن خلكان(ت681هـ) في كتابه "وفيات الأعيان" مرتباً على الحروف الأبجدية. وقد بذل أقصى جهوده لتحقيق وفاه من يترجم له. والمؤرخ صلاح الدين الصفدي (ت764هـ الذي كان مؤرخ وأديباً وشاعراً.

(3) أمثال : ابو الفداء ملك حماة: صاحب كتاب" تقويم البلدان" وهو كتاب جغرافية عامة من حيث وصف الأرض وماعليها، وصنف الأقاليم وذكر خطوط الطول والعرض. وياقوت الحموي في كتابه " معجم البلدان" الذي تحدث فيه عن صفة الأرض والجبال والبحار والأقاليم السبعة، والبروج الإثني عشرية ممار بط الجغرافيا بالفلك. وظهر من الفلكيين أبو الفضل بن ياسين الحلبي (ت 604هـ) كما بنى الملك الأيوبي المظفر تقي الدين محمود في حماة أبراجا فلكية وطواحين مائية مازالت حتى اليوم، ورسم خارطة كبيرة على كرة خشبية عين عليها جمع الكواكب المرصودة وذلك بواسطة المهندس الرياضي علم الدين قيصر (المتوفي 642هـ) ومساعدة ابن واصل المار ذكره. انظر: ابن الوردي: م س ج2ص174، ومنهم عبد الله الفلسطيني المتوفي سنة 620هـ. ومن علماء الفلك والرياضيات المهندس مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم الحارثي، انظر: ابن أبي اصبعة، م س ص669-670.

وأما العلوم العقلية

قعد كثير من العلماء عن الاشتغال بالفلسفة التي تبحث فيما وراء الطبيعة فلم تزدهر زمن صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري لمعارضة السلاطين لها نتيجة مقاومة رجال الدين وإفتائهم بقتل الفلاسفة باعتبارهم زنادقة منحلين، لذا اختفوا عن العوام خشية على حياتهم[1]، ولكنها نشطت أحيانا عندما لقيت التشجيع من السلطان الأيوبي الناصر داود لميله لها وعطفه على الفلاسفة[2] تقليدا لأبيه المعظم عيسى الذي صنف في العروض إذ ألف: شرح الجامع الكبير" و" السهم المصيب في الرد على الخطيب"[3]، كما أهتم البعض بالمنطق والجدل في عصر المماليك لحاجتهم إليها في المناقشات الدينية والمناظرات العلمية وفي البراهيم والقواعد النحوية لحاجة طالب المعرفة إليها.

لذا امتد النشاط العلمي في شرقي الأردن خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وخاصة بعد تأسيس الملك الناصر داوود لأمارة الكرك عام 626هـ/1228م لمشاركته في النشاط العلمي ومجالسه العلماء والفقهاء ومناظرته لهم[4].

وهكذا أصبحت الكرك إحدى المراكز العلمية في الشام واختصت بالدراسات الفلسفية والعقلية والطبية[5].

---

(1) كرد علي: م س ج4ص40،47 وكان صلاح الدين يكرهها، أحمد بدوي، م س، ص28.

(2) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ورقة 2،3،34،158 مخطوط، حيث ذكر ظهور الفيلسوف:الحسن بن نجا الأربلي الرافضي (ت 660هـ) والذي جهر بترك الصلاة، وتفضيل علي بن ابي طالب على أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان، ابن واصل الذي درس المنطق في حلقته، وصنف(هداية الألباب في المنطق)، و(الأنبرورية التي صنفها عن إمبراطور الصقليتين عندما أرسله الطاهر بيبرس سفيراً هناك.

(3) ان قطلوبغا زين الدين قاسم: تاج التراجم في طبقات الحنفية، مطبة العاني م بغداد، 1962 ص49، 110، وقد جعل لمن يحفظ " الجامع" مائتي دينار ولمن يحفظ " العضد" مائة دينار ولمن يحفظ: " الإيضاح" ثلاثون ديناراً.

(4) اليونيني: م س، ج1ص128، 137، وذكر في ص145: أنه أجاز الشاعر شرف الدين الحلي أربعين ألف درهم على قصيدة مدحه فيها، وعلى أُخري مدحه فيها وهو في نابلس بألف درهم وانظر ابن كثير م س ج13 ص124-148. والنعيمي: م س ج1ص993.

(5) لقد اهتم بهذه العلوم الملك المعظم عيسى وابنه الناصر داوود الذي نقلها إلى الكرك بعد أن منعها الملك الأشرف في دمشق وخاصة العالم الحكيم عبد الحميد بن يونس الخسر وشاهي مؤسس الدراسات الطبية في الكرك، وابن ابي اصيبعةم.س ج2ص174، واستمع إلى قراءة كتاب"عيون الحكمة" لابن سينا، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج8ص527، والسبكي، طبقات الشافعية ج5ص60، ابن كثير م س ج13ص185.

العلوم العملية

لقد لقي رواجاكبرا لحاجة المجتمع إليها بما لها من علاقة بحياة الإنسان، كالب أو بأساليب الحرب كالهندسة في القرن السادس والسابع الهجريين، فظهرت مدارس طبية بجانب البيمارستانات العامة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[1] ومدارس هندسية[2]ومن علماء الرياضيات والإسطرلاب/ إبراهيم بن أيبك الصفدي (ت742هـ/1340م)[3]، وابن مظفر بن مزهر النابلسي (ت703هـ/1303م) [4]، كان كاتبا بديوان دمشق وخبيرا بصناعةالحساب، كما أشتهر العالم الكركى يوسف بن سليمان بالكيمياء أيام الناصر محمد بن قلاوون[5].

---

(1) أمثال الطيب: ابن النقاش (ت 545هـ) وتلميذه أبا زكريا يحي البياسي من أطباء صلاح الدين، كما ظهر في القرن السابع نجم الدين بن يحي اللبودي (ت 621هـ) صاحب المدرسة الطبية ودار الهندسة واتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب، انظر : ابن ابي اصبيعة: م س ج2ص185 ومهذب الدين يوسف بن ابي سعيد السامري(ت624هـ)، وابن اليطار (ت646هـ) اتصل بالملك الكامل وابنه الملك الصالح، وابن ابي اصيبعة (ت661هـ) صاحب كتاب " عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ويعقوب الحكيم (ت685هـ) من نصارى الكرك صاحب كتاب " الشافي في الطب" في أربع مجلدات وكتابه" العمدة في صناعة الجراح شمل على علم الجراحة" انظر ابن تغري م س ورقة 3،427مخطوط، كما اشتهروا في علم العقاقير، أنظر: ابن واصل : م س ج2ص316.

(2) ومنهم اللبودي وإبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرية بدمشق ولايزال أسمه منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل، وأبو الفضل الحارثي (ت 599هـ) الذي اصلح الساعة بجامع دمشق وهندس أبواب البيارمستان النوري، د/ عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام، عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص170 ومنهم المهندس ابو بكر المقدسي: (سعيد بن عبدالله (ت532هـ) ومحمد الصفدي زمن المماليك، انظر : الجامعة العربية، منشورات الجامعة العربية، القاهرة 1958ص96 وقد سمي المهندس المعماري في عصر المماليك بلقب "المعلم" "وكبير المهندسين" معلم المعلمين" ومنهم المهندس الفلكي محمد بن نصر المخزومي المولود في عكا.

(3) ابن الكتبي: الوافي بالوفيات ج5ص133.

(4) ابن حجر: م س ج1ص318 وابن الكتبي ن م ج8ص182.

(5) النويري: م س ج13 ورقة 105،106(محفوظ)، وابن حجر ن م ج5 ص231.

الإنتاج العلمي في جنوب بلاد الشام زمن الأيوبيين

فقد ورث الأيوبيين خلال ثمانين عاما من الحكم ما بين (567-648هـ/1171-1250م) تراث الخلافة الفاطمية في مصر، وأضافوا إليه تراث الخلافة العباسية في بغداد، فأخرجوا مزيجا حضاريا ناضجا في بلاد الشام ومصر والعراق. وكان سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر إحياءً للدعوة السنية، وتقريبا لأوجه الخلافات الكلامية والسياسية بين الفرق الإسلامية وحربا علىالفرق الشيعية المتمثلة في الدعوة الفاطمية بمصر والنزارية بإيران وقية الفرق في اليمن والشام، ومما يلفت النظر التطور العلمي والإنتاج الفكري في بلاد الشام في الوقت الذي شهدته بلاد الشام من صراع وحوادث سياسية متشابكة، كما مر معنا.

كما تجدر الإشارة إلى عدم إمكانية تتبع الحركة العلمية في بلاد الشام بفصل شماله عن جنوبه وذلك لما شهدته بلاد الشام من مئات المدارس في الشمال والجنوب والغرب والشرق، وتتبع هذا التطور يحتاج إلى مجلدات كثيرة لذا اقتصرها البحث على ذكر أهم السمات العامة للحركة العلمية والتاريخ لها ولأهم مظاهرها زمن الأيوبيين الذين كان لملوكهم الدور الأكبر في ازدهار الجانب الحضاري ولاسيما الحياة العلمية لتشجيعهم العلماء وطلاب العلم، وتأسيسهم المدارس والمكتبات وأوقفوا لها أوقافا وميزابية خاصة.

فبدأها الملك الأفضل بن صلاح الدين حاكم دمشق الذي ذاق حلاوة العلم في صباه مما دفعه لاحترام العلماء وتقريبهم[1] وتأسيسه مدرسة الأفضلية بالقدس المختصة بتدريسها المذهب المالكي وأوقف عليها حتى استمرت طوال العصريين الأيوبي والمملوكي[2] والمعظم عيسى بن العادل ملك دمشق " عالم بني أيوب بلا مدافعه"[3] الذي أسهم في ازدهار الحياة العلمية عن طريق إنشاء المدارس، نذكر منها في القدس مدرسة الحنفية عند باب المسجد الأقصى، ومدرسة أخرى على باب آخر صحن الصخرة من جهة القبلة وهي المدرسة النحوية والعظمية لتدريس

---

(1) ابن واصل م س،ج3 ص37-38،دائرة المعارف الإسلامية ج1 ص433.

(2) مجير الدين الحنبلي: م س ج2 ص46، محمد كرد علي: م س خطط الشام ج6 ص122، وعبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس في العصريين الأيوبي والمملوكي ج1 ص336-339.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج6 ص268.

علوم العربية وأوقف عليها[1] ثم الناصر داوود بن المعظم عيسى صاحب الكرك العالم الذي كان شغوفاً بالمناظرات العلمية في مجلسه بالكرك عام 62هـ/1232م، وكان يناقش فيه علماء الشافعية لأنه ينتمي إلى المذهب الحنفي كوالده[2] كما كان شاعرا[3].

ولن يسعنا البحث لدور جميع ملوك بني أيوب وجميع العلماء بل اقتصر ذكر بعض العلماء في جنوب الشام موضوع البحث الذين كان لهم دور بارز في تطور الحياة العلمية وازدهارها.

ومن أشهرهم: القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد الموصلي والذي اسند إليه صلاح الدين الأيوبي قضاء بيت المقدس وظل ملازما له حتى وفاته عام 589هـ/1193م[4] كما استمر دوره العلمي في عهد أبناء صلاح الدين الأفضل والظاهر.

أما اشهر العلماء الذين برزوا في ميدان العلوم الشرعية ابن قدامه المقدسي الملقب بموفق الدين المولود بجماعيل سنة 541هـ/1146م[5] والذي تعمق في علوم الفقه حتى بلغ درجة الاجتهاد في زمنه[6]، وذكر ابو شامة انه درس على يديه مسند الأمام الشافعي[7] وألف عدداً كثيرا من الكتب واستمر نهر العلم دفاقا زمن المماليك بزيادة عدد المدارس منذ عصر الظاهر بيبرس، إذ تميز عصر المماليك بظهور مدارس الطب في بلاد الشام لأول مرة إذ أكثر السلاطين من بناء البيمارستانات كمشافي عامة.

---

(1) مجير الدين العليمي: م س، ج1 ص403، العمري: مسالك الابصار ج1 ص403، العمري: ن م، ج1، ص359، عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس ج1 ص351.

(2) ابن الفرات:م س، ج6 ورقة 202 مخطوط، ابن واصل: م س، ج5 ص14.

(3) يعتبره بن واصل في المرتبة الثانية بعد الملك الأمجد في ترتيبه لشعراء بني أيوب، ابن واصل مفرج الكروب ج5 ص285-286 ولقراءة نماذج من أشعاره ارجع إلى ابن واصل: ن م ج5 ص102-106، 318، 321، 355، 357، 364-368.

(4) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج7 ص87-88، السبكي: طبقات الشافعية ج8 ص360، وابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" وهو المعروف بسيرة صلاح الدين": مقدمة المحقق ص3-4.

(5) جماعيل : قرية على جبل نابلس بفلسطين" جماعين اليوم".

(6) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج5 ص88.

(7) ابو شامة ذيل الروضتين ورقة 139-140(مخطوط).

المكتبات

بالنسبة للمكتبات في العصر الأيوبي فقد حمل صلاح الدين الأيوبي إلى قبة الصخرة وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات توصع بين أيدي الزائرين علىكراسي مرفوعة[1] وسار على نهجه أبناء البيت الأيوبي كالمعظم عيسى الذي انشأ الزاوية الناصرية المملوءة بالكتب النفيسه[2] في العصر الأيوبي فكانت مكتبة القاضي الفاضل في القلعة عام 626هـ/1228م وضمّت ثمانية وستون ألف مجلد وقد أعتني بها أيضاً ابنه الأشرف أحمد[3].

وقد لعبت المكتبات دوراً هاماً في الحياة العلمية في العصر المملوكي مما ساعد على نشر الثقافة وزيادة فرص التعليم آنذاك وخاصة مكتبة المسجد الاقصى أهم مكتبات بيت المقدس والتي زوّدها أيضاً بنفائس الكتب[4] بالإضافة لهدايا ملوك المغرب العربي من الكتب[5] وقد شمل هذا الاهتمام جميع مكتبات مدارس بيت المقدس في ذلك العصر ومكتبات الزوايا في القدس[6]، هذا بالإضافة ألى انتشار أسواق الكتب وتجارتها وذلك لرغبة السلاطين في العلم وأهله بالإضافة لارتباطها بسياسة المماليك في الحكم، ونتيجة للثراء الاقتصادي الذي مكن الدولة من اقتناء الكتب الثمينة والنادرة وأوقفوها على الزوايا والمساجد والمدارس لينتفع بها العلماء وطلابهم[7] في دراستهم وأبحاثهم[8]وقد أشرف على خزانة الكتب"خازن الكتب" أو شاهد خزانة الكتب

---

(1) العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص66، والسيوطي: إتحاف الأخصّا بفضائل المسج الأقصى ورقة 94 (مخطوط بدار الكتب المصرية) حيث أحضر نسخ القرآن الكريم من مكتبة دمشق ولاتزال حتى الآن، العابدي: قدسنا، ص 79 حتى أصبحت أهم الخزائن ببلاد الشام.

(2) مجبر الدين الحنبلي: م س ج2ص386، كرد علي، م س ج2ص119.

(3) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت 1972ص119.

(4) مجير الدين الحنبلي: ن م ج2ص380؛386،443-445.

(5) كرد علي: ن م، ج6ص200، وعبد الحميد زايد: القدس الخالدة ص262، والعابدي: ن م ص123.

(6) كرد علي: ن م ج6ص192.

(7) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة ص1-35.

(8) فقد كان عمل المدرس الترغيب في تحصيل العلم والاعتماد على الكتب ن م ص37بالإضافة لتدريب الطلاب على البحث بأنفسهم.

: السبكي، م س ص105، وعبد اللطيف إبراهيم ن م ص36-37.

ويشترط فيه الأمانة ويقوم على تبويبها[1]، وتجليدها وترميمها وحفظها[2]، وكانت طريقة استعارة الكتب نوعين:-

1-**الاستعارة الداخلية**:- لطلبة العلم والمدرسين والمنازلين بالمؤسسة نفسها.

2-**الاستعارة الخارجية**: - وهي مرهونة بعدة شروط[3].

وقد وجدت مكتبات خاصة لبعض العلماء الذين كونوها في منازلهم لفائدة الغير[4] حيث ملؤوها بالكتب النفيسة بوساطة النسخ بخط جيد[5] مع حرصهم على اقتنائها بخطوط مؤلفيها أنفسهم بطريقة الشراء[6]، ومن هذه المكتبات الخاصة في القدس، دار الكتب الفخرية وقفها القاضي/ فخر الدين أبوعبد الله بن فضل الله (ت732هـ/1331م) وكان فيها حوالي عشرة آلاف[7] اقتسمها أفراد أسرة أبي السعود أصحاب الزاوية الفخرية بعد وفاته، وبالنسبة لمكتبات أهل الذمة فكانت في الأديرة والكنائس كمراكز تعليمية[8]، كما أسست بعض الأسر الغنية المكتبات الخاصة بها لاسيما رجال الدين الذين تنافسوا في نسخ تلك المخطوطات واقتنائها وصيانتها[9].

---

(1) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية ص255-256.

(2) اليونيني: الذيل على مرآة الزمان، ج1ص145، ذكر بأن الناصر داوود أنشأ أول خزانة للكتب في الكرك التي اشتملت على الكتب النفيسة ولكنها اختفت بعد وفاته.

(3) السبكي: م س، ن ص ذكر : " والظنة بها على من ليس بأهلها وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكثيراً مايشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته، وهو شرط صحيح معتبر، فليس للخازن أن يُعير إلا برهن".

(4) مؤلف مجهول: رحلة إلى فلسطين والقدس، ظهر ورقة 65 "مخطوطة بدار الكتب المصرية".

(5) الزركلي: الأعلام ج1ص46.

(6) ابن حجر، أنباء الغمر، ج1ص335،ص343-344.

(7) فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخانقين، جزءان، طبعة بيروت سنة 1947م، ج1ص294.

(8) يذكر بعض الحجاج المسيحيين لبيت المقدس أثناء زيارتهم لبيت المقدس زمن المماليك وحود مكتبة كبيرة في كنيسة القديسة مريم د.علي السيد م س ص170-171، وكذلك وجود مكتبة في كنيسة القبر المقدس للروم الأرثوذكس وبها عدد كبير من المخطوطات باللغة السريانية واليونانية والعربية، فيليب دي طرازي ن م ج2ص475.

(9) ويرجع كثرة المكتبات لتوفر مصانع الورق في المدن القريبة من فلسطين مماساعد على انتشار الكتب وتجارتها، ن م ج2ص476-477.

ومن المكتبات الهامة في فلسطين القديمة كانت:-

أ- مكتبة دير الكرمل في حيفا:

التي تأسست في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[1] ويرجع الفضل إلى رؤساء الطوائف المسيحية لاسيما الرهبان في حرصهم علىاقتناء الكتب ونسخ المخطوطات كاليعاقبة لوضعها تحت أيدي الدارسين[2].

ب- مكتبات القدس مثل:-

1- **مكتبة الرهبان الفرنسيسكان:** التي تعبر من أغنى مكتبات العالم بوثائق الأرض المقدسة حيث حوت ألفين وستمائة وأربع وأربعين وثيقة يعود أقدمها إلى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين (764-778هـ/1363-1376م)[3].

2- **مكتبة القبر المقدس:** أنشأها الروم الأرثوذكس سنة 451م، نحو حوالي ثلاثة آلاف مخطوط،وعشرة آلاف كتاب مطبوع، وما يزيد عن مائة كتاب يوناني مجزأة[4].

3- **مكتبة دير مار يعقوب للأرمن:** غنية بالمصورات والرقوق الخاصة بالوثائق الأرمنية المقدسية، وفيها وثائق إسلامية أصدرها السلاطين للجالية الأرمنية في القدس.

4- **مكتبة مار مرقص للسريان:** غنية بالمخطوطات والرقوق[5].

ج- مكتبات اليهود ومنها(6):-

1- مكتبة يافا

2-مكتبة الطبيب عمران الإسرائيلي (ت637هـ/1239م) الخاصة.

وهكذا نلاحظ اهتمام سلاطين المماليك بهذه الشؤون ليظهروا دليلا على مدى اهتمامهم بشؤون الشعب مثلما أصدر الملك المنصور قلاوون عددا من المراسيم القضائية والتعليمية،

---

(1) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة بيروت 1972مص119.

(2) دي طرازي، م س، جـ2،د.ت، ص413.

(3) دي طرازي، م س، ص475-477.

(4) ن م ج2ص475، العسلي وثائق مقدسية تاريخية ج6ص59.

(5) دي طرازي م س ج2ص170. والعسلي، ن م، جـ1،ص65،69.

(6) ابن أبي اصيبعة، م س ص696،697، دي طرازي ن م ج2ص653.

كمرسومه في العفو عن القاضي والمؤرخ شمس الدين بن خلكان المؤرخ الشهير وتعيينه قاضيا[1] ثم تعيينه مدرسا في المدرسة الأمينية بدمشق عام(681هـ/1283م)[2] والملاحظ انه أسبغ عليه ألقابا طنانة مثل: الجناب العالي المولوي القضائي الإمامي الأوحدي الأفضلي الأرشدي، وعين رئيسا للطب 684هـ/1286م وبنى البيمار ستانات وعينّ الأطباء الأكفاء فيها[3]، كما أصدر المراسيم لتعيين الأطباء للتدريس في بيمار ستانه[4].

وقد سار ابنه السلطان الناصر بن قلاوون على سياسة والده في تشجيع العلم والعلماء والصوفية والأطباء حيث عين شهاب الدين حكيم رئيساً للطب عام709هـ/1309م) في مصر وبلاد الشام[5]،كما عين الشيخ علاء الدين للشيوخ في بلاد الشام[6] بالنسبة للصوفيه، ويبدو أن مشيخة الشيوخ في بلاد الشام كانت تابعه لشيخ شيوخ مصر الذي يعين بمرسوم ملكي[7].

---

(1) أنظر ابن عبد الظاهر: محيي الدين : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1969م.

(2) اليونيني: م س ج4ص142-144.

(3) ن م، ج8 ص22-25 هذا وقد قسم مرسومه الأطباء إلى ثلاثة أقسام: الطبائعية، والجراحون، والكحالون.

(4) القلقشندي : م س ج11 ص253-256 وطلب الطبيب مهذب الدين تقسيم طلابه إلى خمسة أقسام هم:طبائعية، وكحالون، وجراحون ومجبرون ومحضرو أدوية.

(5)القلقشندي م س ج11ص380-383.

(6)ن م، ج12ص411-412.

(7) ن م، جـ11، ص372-375.

الطب في جنوبي بلاد الشام

لقد بدأ العرب المسلمين يعملون في مجال الطب منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نتيجة لتوسع حركة الترجمة التي شجعها العباسيون، فدرسوا نباتات وأعشاب كثيرة للاستفادة منها في تحضير العقاقير الجيدة والمفيدة، وصدّرت بلاد الشام قسماً منها كالنعناع والرّاوند[1] من شرقي الأردن، ومرهم جودي من فلسطين، وترياق القدس المصنع من الحبّاب المسحوقة[2]، كما اشتهرت القدس بالزعتر لذا قيل بأن أحسن أنوا العسل هو عسل بيت المقدس وخاصة في جبل عامله[3].

واشتهرت منطقة شرقي الأردن بزراعة الزعفران (الورس)، وخاصة في مدينة جادية[4]، والذي صدوره إلى أوروبا لاستخدامه كدواء وفي الصباغة، كما اشتهرت الأغوار بزهرة البابونج على شاطيء نهر الأردن والشريعة[5]، ومن النباتات البرية في فلسطين وشرقي الأردن، الحماض واللوف والخردل[6] والتي ما زالت حتى اليوم.

---

(1) نبات الراوند: عبارة عن عروق خشبية مستديرة في غلظ الأصابع، ويسمى الراوند الشامي أو راوند الدواب لأن البياطرة كانوا يسقونه للدواب اذا احترت أكبادها.

ابن الجزار – "الاعتماد" ص41، وابن الأخوة "معالم القرية ص94"، واستخدم الراوند الصيني الذي يشبه القلقاس في علاج الكلى والمغص والكبد.

(2) المقدسي "أحسن التقاسيم ص180-181"، الزيود: محمد أحمد، النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع الهجري، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام 1990 ص1-40.

الترياق: دواء لمعالجة حالات التسمم.

(3) سترانج، فلسطين ص37.

(4) جادية: قرية من عمل البلقاء من ارض الشام، ياقوت: معجم البلدان ج2، ص192.

(5) القاياتي، الشيخ محمد عبد الجوار (1320هـ/1902م) "نفحة البشام في رحلة الشام" دار الرائد العربي، بيروت 1980، ص112، والشريعة: هو نهر الأردن، حيث أطلق الصليبيون هذه التسمية على الجزء الواقع جنوب بحيرة طبرية حتى مصبه في البحر الميت وما زالت هذه التسمية تطلق عليه حتى الوقت الحاضر، د. غوانمه: إمارة الكرك، ص81.

(6) الخردل: نبته يبلغ ارتفاعها حوالي متر تزهر في شهري حزيران وتموز أزهاراً عنقودية، بذورها حمراء تتحول الى اللون الأسود، وهذه البذور تستخدم لآلام العضلة، والاحتقانات وغيرها، (وديع جبر، معجم النباتات الطبية، مطبعة دار الجبل، بيروت، 1987، ص159). وعمل الباحث بتجارته أيام طفولته في الأربعينات من هذا القرن.

كما نبت في جبالها الكرمل[1]، الشيخ[2] والقيصوم، بالإضافة إلى الورود، والرياحين التي كانت لها فوائد طبية كبيرة كشقائق النعمان والآس والقرنفل[3].

وهكذا نرى بأن هناك محاصيل حقلية زرعت لغرض الحصول على العقاقير الطبية منها، سواء كانت الأزهار أم الأجزاء الخضرية للنباتات أو الثمار أو البذور كالقنب والسوس والبابونج والحلبة والنعناع والزعتر وسُمّي استخراج الأدوية من النباتات بعلم الاترباذين[4]، كما استخدم دهن البيلسان لعلاج الفالج وارتخاء الأعصاب وسائر الأمراض كما خلطوا به ماء المعمودية عند النصارى الذي لا يصح التنصر إلا بالغمس في ماء المعمودية[5].

ومن الأعشاب الطبية:

- القرصعنة[6] والصنم السليماني، والسبسب انفع دواء للاستسقاء ينبت قرب القاهرة.
- ومن الأدوية أيضاً الأفيون عصارة الخشخاش الأسود المصري والجوز المائل بدمياط.
- والمريافلون ذات الألف ورقة النافعة ضد السموم القاتلة والتي تنبت بجبال الأردن وفلسطين وغيرها من الحشائش[7] الكثيرة كالبابونج والميرامية والزعتر والجعدة والدنيدلة واللوف والحرمل والتي ما زلنا نشاهدها في ربوع بلادنا حتى اليوم.

---

(1) الحرمل: الأبيض والأحمر ويسمى بالفارسية اسفند، الأشرق الرسولي، المعتمد ص95.

(2) الشيخ: نبات أجوف العود، ورقه كورق السرو، يستخدم للدغ العقارب وقتل الديدان وغيرها من السموم (القزويني "آثار البلاد" ص325. وشاهد الباحث جدته تعالج به لدغ العقارب في الخمسينات من هذا القرن.

(3) عن فوائد الورود: انظر: "البدري" نزهة الأنام" ص118، والنويري: نهاية الأرب، ج1، ص186-178، وابو القاسم الغساني "حديقة الأزهار" ص99، ابن اياس: بدائع الزهور: "ج4 ص102-172. كما وصفوا فوائدها "بأن شمها تسكن حرارة الصفراء"، وماء الورد يبرد مر المعدة، وينفع من الغثيان والخفقان والصداع الحار. وبذوره يعالج بها لثة الفم واقماعه تمنع الإسهال ونزيف الدم، وأما دهنه فيستخدم في الجراحات وما زال استخدامه حتى أيامنا هذه.

(4) للمزيد من المعرفة انظر ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

(5) العمري: م س، ص 129.

(6) القرصعنة: نبات بري في جنوب بلاد الشام ويكثر في فصل الربيع ويأكله الفلاحون مطبوخاً أو مع السلطات وقد اكل منه الباحث في بلدته سوم الشناق غربي مدينة اربد.

(7) العمري: ن م، ن م.

- كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الأطباء الأدوية المفردة والمركبة حتى إن بعضهم صنع الأوية وعمل المراهم والمعاجين والأقراص وغيرها[1]، ومن أشهرهم ابن البيطار، الأندلسي الذي درس علم الصيدلة بدمشق أيام السلطان الكامل[2].

البيمارستانات[3] في بلاد الشام:

كان أول بيمارستان أنشيء في الإسلام في بلاد الشام عام 88 هجري / 640 ميلادي في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ/ 705 - 715م) [4] وكان ثاني بيمارستان في بلاد الشام البيمارستان الدقاقي[5] وكانت البداية الحقيقية لبناء البيمارستانات في بلاد الشام في عهد نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي مما زاد عددها في بلاد الشام حتى وجد في كل مدينة من مدن الشام الرئيسية بيمارستانا كما بنى صلاح الدين الأيوبي بيمارستانا في القدس (583هـ/1187م) بعد ترتيبه لمدينة القدس[6] كما أمر بتحويل دار الأسقف في عكا عام

---

(1) ابن أبي اصيبعه: م س، ص 601-628.

(2) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ ج15، لوحة 16، مخطوط ابن أبي اصيبعه م س، ص601، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج2، ص159-160.

(3) بيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية الأصل مركبة من كلمتين (بيمار) وتعني المريض أو العليل أو المصاب و(ستان) تعني دار أو مكان وترجمتها الحرفية دار المرضى ودرجة على الألسن مارستان لسهولة لفظها وأصبحت تدل الآن على المستشفى أو المشفى للمجانين. (أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار التراث العربي، بيروت ط2 1981، ص4، سيشار له فيما بعد هكذا: عيسى بك: تاريخ البيمارستانات.

(4) المقريزي: الخطط، ج4، ص385، حيث قال "أول من بنى بيمارستانا في الإسلام ودار للمرضى الوليد بن عبد الملك".

(5) أو العتق أو الصغير ويذكر أحمد عيسى أن هذه الأسماء له بينما يرى محمد احمد دهمان أنه ينسب لنور الدين زنكي لتجديده بناءه وحبسه أوقافاً عليه: محمد احمد دهمان على هامش تاريخ البيمارستانات في الإسلام تحقيقات واستدراكات، مجلة المجمع العربي، دمشق، 1143هـ، م18 ج1 ص62-72.

(6) ابن شداد: (بهاء يوسف، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) تحقيق جمال الشيال، المؤسسة العامة للتأليف 1964 ص239 وابن العماد: م س ص251 ذكر: وجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتاريه بقرب القيامة بيمارستانا للمرضى ووقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القاضي بهاء الدين يوسف الموصلي المولد وكان من أطباء مستشفى صلاح الدين هذا يعقوب بن صقلاب المقدسي ورشيد الدين الصوري. كما رأى ناصر خسرو مستشفى غظيماً في بيت المقدس عام 483هـ/1047م، والذي كان يصرف عليه من الأوقاف الطائلة لتوفير الدواء والأطباء انظر ناصر خسرو: ص55-75 كما وجد مستشفى الإفرنج في القدس بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان في عهد أموري الول (1163-1174م)، مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ج9 ق2 ص228.

583هـ/1187م إلى بيمارستانات للضعفاء[1] ومن أمثلة ازدهار الطب في بلاد الشام زمن الأيوبيين، أن الطبيب المعاصر ابن أبي اصيبعة ترجم لأكثر من خمسين طبيباً شامياً زمن الحروب الصليبية[2] حتى أنّ بعضهم حصل على منصب الوزارة لدى بعض ملوك بني أيوب كما كان بدمشق مدرستان لتعليم الطب بالإضافة للبيمارستان النوري (نور الدين زنكي) الذي هيأه للتدريب العملي للأطباء وزوده بمكتبة اصبحت مركزاً للبحث الطبي للطلبة.

ومن أشهر الأطباء يعقوب بن صقلاب المقدسي الذي عمل في مستشفى صلاح الدين الأيوبي بالقدس، وكان الملك المعظم عيسى يعتمد عليه في الأمور الطبية، كما استمر في عهد ابنه الملك الناصر داوود الذي اكرمه وأحسن اليه وتوفي في عام 625هـ/1228م بدمشق[3].

والطبيب سديد الدين أبو منصور ابن يعقوب ابن صقلاب: خدم الملك الناصر داوود ابن الملك المعظم عيسى في الكرك[4].

والطبيب: رشيد الدين الصوري: (573-639هـ/ 1177-1243م) المولود في صور من أعمال جند الأردن (الشام الثانية) خدم في مستشفى صلاح الدين بالقدس، وخدم الملك العادل وولده من بعده المعظم عيسى فيما عينه الملك الناصر داوود رئيساً للطب[5].

والطبيب الكركي النصراني: أبو الفرج ابن القف (630-685هـ/ 1232-1287م) وقد أخذ عن ابن أبي اصيبعة في الطب[6].

---

(1) الأصفهاني العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي 1960 ص182، كما جعل الكنيسة المجاورة الإسبتارية قرب كنيسة القيامة بيمارستان للمرضى عام 588هـ/1192م.

(2) ابن أبي اصيبعة م س، ص603-677. وابن العبري: م س، تصحيح وفهرست الأب اليسوعي أنطوان، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان ص443، ذكر وفاة الطبيب بن صقلاب الطبيب النصراني الملكي المقدسي عام ست وعشرون وستمائه، وقال كان مولده بالقدس الشريق وبه قرأ شيئاً من الحكمة وأقام يعقوب هذا بالقدس على حالته في مباشرة البيمارستان الى أن ملكه الملك المعظم ابن الملك العادل بن أيوب فاختص به وكان حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية، ثم نقله الملك الأعظم الى دمشق ليكون طبيباً له وتحسنت أحواله وكثر ماله.

(3) ابن أبي اصيبعة، م س، ص698، الدباغ: بلادنا فلسطين ج9، ق2 ص513-514.

(4) ابن أبي أصيبعة، ن م، ص699.

(5) ن م، ن ص.

(6) ن م، ص 767 وما بعدها.

والطبيب الإمام فخر الدين الماريني المقدسي الأصل (512-594هـ/ 1118-1198م) عمل في حلب[1].

والطبيب أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي البركات الشغري الصفدي المتوفى عام (738هـ/1336م)، خدم في مستشفى قلاوون بالقاهرة المجهز بمختبر كيماوي[2].

والطبيب محمد بن أحمد بن سعيد أبو عبد التميمي المقدسي: زمن الفاطميين ألف للوزير الفاطمي يعقوب بن كليس حيث ألف له كتاباً اسماه "مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرر من ضرر الوباء"[3].

والطبيب أبو سليمان داوود بن ابي المنى بن ابي فانه المقدسي النصراني: زمن صلاح الدين الأيوبي، واوصى أخاه الملك العادل بالاعتناء بأبنائه الأربعة الذين اصبحوا أطباء في خدمة الأيوبيين، وكان طبيب الملك العادل وولده المعظم عيسى في الكرك[4].

والطبيب رشيد الدين أبو حليقة حفيد داوود بن أبي سليمان، خدم الملك الكامل وولده الصالح نجم الدين أيوب ثم الظاهر بيبرس[5].

والطبيب رشيد الدين أبو سعيد المقدسي النصراني، خدم الملك الكامل الأيوبي وولده نجم الدين أيوب[6]. والطبيب النابلسي زين الدين: أيوب نعمة المتوفى عام (730هـ/1328)[7] والطبيب إسماعيل ابن إبراهيم المقدسي المتوفى عام (732هـ1330م)[8]. وأحمد بن يوسف بن هلال الصفدي (ت 737هت/1335م) انتقل الى مصر وخدم في محلة أطباء السلطان والبيمارستان المنصوري[9]. وأما راتب الطبيب الشهري فقد ذكره القلقشندى بوجه عام خمسة

---

(1) ابن ابي اصيبعة، ص767.

(2) ابن حجر، م س ج2 ص362 والدباغ: فلسطينيات ج3، ص58.

(3) ابن ابي اصيبعة، ن م، ص546، 548.

(4) ن م، ص 589-590.

(5) ن م، م س، ص590-597.

(6) ن م، ص599.

(7) ن م، ن ص.

(8) ن م، ن ص، وابن حجر، م س، ج1، ص363.

(9) ابن حجر ن م، ج1، ص341، وابن الكتبي، م س، ج8، ص295.

عشر ديناراً بينما كان راتب الطبيب المتفرغ للسلطان خمسون ديناراً شهرياً، أما باقي أطباء القصر فكان راتبهم الشهري عشرة دنانير[1]، ومن سلاطين المماليك الذين اهتموا بالطب الملك المنصور قلاوون باختياره الأطباء الأكفاء عام (684هـ/1286م)، وبنى البيمارستانات، وقسم الأطباء الى ثلاثة أقسام: الطبائعيون والجراحون والكحالون، وأسند مهمة التدريس في بيمارستان القاهرة الى مهذب الدين وأوقف عليه الأوقاف العظيمة، وطلب منه أن يقسم طلابه الى خمسة اقسام: طبائعية وجراحين وكحالين ومجبرين ومحضري أدوية[2]، وسار ابنه الناصر محمد بن قلاوون على سياسته في تشجيع العلم والعلماء والصوفية والأطباء اذ عمل على تنظيم مهنة الطب بتعيينه شهاب الدين حكيم رئيساً للطب عام (709هـ/1309م) في مصر وبلاد الشام[3].

واستمرت هذه البيمارستانات في تقديم خدماتها طوال العصر المملوكي بعد ترميمها وإجراء بعض التجديد عليها، حيث زاد اعتناء سلاطين وأمراء المماليك في بناء البيمارستانات لكسب ثقة العامة وتخليداً لذكراهم، هذا الى جانب الاهتمام بالناحية الصحية لكثرة انتشار الأوبئة الخبيثة التي كانت تقضي على الآلاف من الناس كالطاعون وغيره.

وكان أول بيمارستان انشيء في بلاد الشام في العصر المملوكي في مدينة الخليل بفلسطين عام (680هـ/1282م) وأوقفه الملك المنصور قلاوون عام (678-689هـ/1279-1291م)[4].

كما أنشأ الأمير سنجر الجاولي بيمارستانين الأول في الكرك وعرف بالناصري[5] عندما كان نائباً عليها زمن السلطان الناصر محمد قلاوون (709-741هـ/1309-1339م)، والآخر

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص521، وكانت قيمة الدينار خمسة عشر فرنكاً ذهبياً.
انظر: علي مبارك: الخطط التوفيقية، ح4، ص46، ومن المعلوم أن قوة الدينار الشرائية كانت أكبر منها الآن.

(2) القلقشندي، ن م، ج11، ص253-256.

(3) الدواداري: عبد الله بن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر تحقيق رويمر، القاهرة 1960، ص130-142.

(4) مجير الدين الحنبلي: م س، م1، ص79.

(5) الأمير سنجر الجاولي: المولود عام 653هـ/1125م والمتوفى عام 1344/745، خدم كلاً من الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون، تولى نيابة الشوبك حيث ارسله الملك الناصر محمد لعمل الروك في الشام. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ح2، ص266-268.

في غزة حيث أوقف عليه[1]. كما أنشأ الأمير تنكز[2] بيمارستاناً في صفد[3] وأنشأ القاضي فخر الدين بن فضل الله القبطي[4] ناظر الجيوش بالديار المصرية بيمارستاناً في الرملة وآخر في نابلس[5].

وبالنسبة للتنظيم الإداري للبيمارستانات في العصر المملوكي :

فقد كان نظاماً دقيقاً ومحكماً ويشتمل على:

- ناظر البيمارستان: وهو المدير العام لهذه المؤسسة وكانت منوطة بنائب السلطة واصبحت فيما بعد تُناط بقاضي القضاة الشافعي في دمشق، حيث كان للناظر نواب أكفاء يعينهم بنفسه[6].
- ناظر الوقف[7] ورئيس الأطباء العام ورؤساء الأقسام الطبية كقسم الكحالة "العيون" وقسم الجراحة وكذلك الصيدلي والخزانة والجباية وامين المكتبة وخازن المستودع والفراشين والطهاة ومعمار البناء الذي يرمم الأقسام المتلفة والقديمة.
- والمشارف المسئول عن الخدمة والنظافة[8].

---

(1) الصفدي: (صلاح الدين خليل بن ابيك): الوافي بالوفيات، تحقيق بيرند رافله دار النشر فرانز ستايز، فيسبادن 1979م، ج15، ص483. بناه علم الدين سنجر عام 652هـ/1255م وهو أحد أمراء الظاهر بيبرس عندما ولي نيابتها وبنى بيمارستانا ببيسان في الغور شمال القدس وكلمة سنجر تركية الأصل ومعناها طائر: المقريزي: السلوك، ج2، ق3، ص673، وابن تغرى، م س، ج10، ص110.

(2) الأمير تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري، كان من مماليك المنصور حسام الدين لاشين واصبح بعد مقتله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون الذي ولاه نيابه الشام ثم قتله عام 741هـ/1340م بثغر الإسكندرية: ابن تغري بردى: ن م، ج4، ص327.

(3) ابن كثير، م س، م7، ج9/ ص327.

(4) المولود عام 659هـ/1260م) والمتوفى عام 732هـ/1331م، كان نصرانياً واسلم في خدمة الناصر محمد: ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص255.

(5) ن م، ن ص، وابن تغري بردى: ن م، ج9، ص296.

(6) السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص160-161 والقلقشندي: صبح الأعشى ج4، ص192-196، والغزي (نجم الدين): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ج2، ص136. وابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص23.

(7) السعيد: ن م، ص166.

(8) ن م، ن س، القلقشندي: ن م، ج4، ص200، والسخاوي، م س، م1، ج1، ص73، وابن طولون: ن م، ق1، ص22.

كما كان مقسماً في العصر المملوكي الى جناحين الأول للرجال والثاني للنساء[1] وفي كل جناح عدة قاعات اشبه بالعيادات المختلفة حسب الأمراض وامتازت باحتوائها على جناح خاص بالجانين والمجذوبين وذلك لحفظ سلامة المرضى حيث يتم حجز الحالات الهستيرية (الأمراض العصبية والنفسية) في غرف معزولة[2] تطل على حدائق الورود والرياحين، وتجلب لهم آلات الطرب والموسيقى والمغنيين كوسيلة لعلاجهم[3] النفسي بالإضافة لقراءة القرآن للمرضى المصابين بالأرق أو الذين لا يستطيعون النوم من الألم[4] وهكذا نلاحظ الرقي الحضاري الإسلامي في بلاد الشام الذي فاق أوروبا في العصور الوسطى حيث كان ينظر لهؤلاء المجانين بأن لعنة السماء قد حلت بهم فتقيد أيديهم وأرجلهم في غياهب السجون، ويخضعون للضرب والتعذيب[5] بعيداً عن روح الإنسانية التي عومل بها أمثالهم في العالم الإسلامي.

كما ألحقت بالبيمارستان صيدلية تشتمل على الأدوية الضرورية واللوازم الطبية تتكون من أدراج بعض جدرانها لوضع الأدوية[6] من معاجين وأنواع الأشربة والعطريات بينما حفظ البعض الآخر في زبادي وجرار وغيرها[7].

وكانت هذه الصيدلية مختبراً لتحضير أنواع الأدوية الضرورية للبيمارستانات فضلاً عن كونها مستودعاً لحفظ الأدوية لذا كان بها أكثر من موظف لتحضير الأدوية وصرفها يومي الاثنين والخميس للمرضى الذين لا تدع حالاتهم المكوث في المستشفى[8]، ومن المحتمل ارجاع

---

(1) ابن أبي اصيبعة، م س، 1965، ص732، وابن طولون، ن م، ق1، ص347.

(2) أنور دويدري:البيماستانات في حلب، جامعة حلب، الكتاب الأول، 1975،ص137، ص137، سيشار له فيما بعد هكذا: دويدرى: البيمارستانات.

(3) زيغرب هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي، مراجعة فاروق عيسى الخوري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط6، عام 1981، ص254-255.

(4) السخاوي: م س، م3، ج4، ص248.

(5) هونكه: م س، ص254-255.

(6) دويدرى: م س، ص137، والصيدلية كانت الشرابخانة "خزانة الشراب" وهي مؤلفة من لفظين: شراب وخانة بمعنى البيت: القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص521.

(7) أحمد عيسى بك: م س، ط2، عام 1981، ص20-21.

(8) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق1، ص347، هامش 1.

سبب ذلك لطول الوقت الذي يحتاجه الصيدلي لإعداد الدواء او لصعوبة الحصول على أعشاب الأدوية او لندرتها.

ومن الأقسام الأخرى للبيمارستان ما يشبه اليوم العيادات الخارجية المشتملة على قاعة انتظار المراجعين، وحجرات المعاينة بالإضافة لقاعات مزودة بشبابيك مجهزة بقبضان حديدية معدة لزوار البيمارستان حتى لا يختلطوا بالمرضى للوقاية من العدوى[1].

ومن الملاحظ أنها جاءت نتيجة لخبرات طبية عند المسلمين في العصور الوسطى حيث ما زالت هذه التقسيمات معروفة في العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا مما يدل على وصول علم الطب عند المسلمين الى أرقى المستويت، بالإضافة الى تخصيص حجرات لاستراحة الأطباء واحتوائها على بعض الأدوية التي يحتاجونها مما يساهم في الإستشارات الطبية للأطباء المناوبين للحالات المستعصية وروجوعهم أيضاً الى قاعة المكتبة الطبية للاستتارة بالمراجع العلمية[2]، كما احتوت البيمارستانات المملوكية على مطابخ لإعداد الطعام المناسب للمرضى، فقد كان الطبيب الشامي ابن النفيس لا يقدم على معالجة المرضى[3] إلا بعد التأكد من غذائهم[4].

واشتملت البيمارستانات على مستودعات مختلفة تحوي كل مستلزماتها[5] ودورات مياه، ومسجد أحياناً[6].

وهكذا نستطيع القول بأن المستشفيات الحديثة هي نسخة ثانية للبيمارستانات المملوكية من حيث الدقة والتنظيم والأقسام المختلفة المكملة لبعضها لتشكيل البيمارستان المتكامل وبه نظام

---

(1) دويدرى: م س، ص142.

(2) ابن ابي اصيبعة، م س، ص628، فيليب حتى: م س، ج2، ص282.

(3) ابن طولون: ن م، ق1، ص347.

(4) علي القيم: ابن النفيس: دار المعرفة، 1988م، ص20، أورد معلومات عن ابن النفيس علاء الدين ابن أبي الحزم المولود عام 607هـ/209م، وكان من اشهر أطباء عصره إذ تتلمذ على يد مهذب الدين الداخور في البيمارستان النوري بدمشق.

(5) دويدري: م س، ص143.

(6) ابن كنان: المروج السندسية، ص85.

المعالجة بفتح ملف للمريض فوق رأسه ومتابعته[1]، وبالنسبة لنفقات البيمارستان فقد اعتمدت في تمويلها على الأوقاف لذا لم تتقاض أجوراً مقابل خدماتها[2] كأوقاف بيمارستان الناصر محمد بن قلاوون في غزة 8 قرى و4 مزارع و34 دكان من القيسارية في غزة ومصبغة ناتجها 2000 درهم سنوياً[3]، مما يوحي برقي النظام المملوكي الذي وفر مجانية العلاج إلى الدرجة التي لم تصلها الدول الحضارية في العصر الحاضر التي تتبع نظام التأمين الصحي في مقابل الرسوم أو الاشتراكات السنوية أو اقتطاع نسبة معينة من رواتب الموظفين أو العاملين، بل فاقتها في معاملة المرضى بعد خروجهم من المستشفى بكسوة المريض وإعطائه بعض النقود لراحته من العمل حتى لا يؤثر على وضعه الصحي[4]، هذا وقد تخرج الأطباء من مدارس الطب في دمشق كالمدرسة الداخورية[5]، واللبودية[6]، والدنيسرية[7]، بالإضافة الى البيمارستانات التي كانت بمثابة كليات لتدريس الطب[8].

---

(1) حتي، ن م، ص281، ذكر احتجاج المؤرخ الكبير ابن الاثير الذي احتج على مجانية العلاج لانه ميسور الحال عند خروجه من البيمارستان النوري.

(2) ابن الأخوة:م س، ص167.

(3) المقابلة: المؤسسات الاجتماعية، ص74 وانظر الملحق رقم .... الذي يبين مرتبات القائمين على البيمارستان المملوكي.

(4) سامي حداد: المارستنات العربية، مجلة المقتطف 1937م، م9، ج1، ص14، ذكر بأن الأطباء كانوا يستقبلون المرضى في غرف المعينات الخارجية في أيام محدودة من الأسبوع فيصرفون له الدواء من الصيدلية اذا كانت حالته ضعيفة أو يوصون بإدخاله المستشفى فتنزع ثيابه، ويلبس الملابس الخاصة بالبيمارستان ويوضع في سرير خاص في القسم المختص بمرضه ويسجل اسمه في سجل البيمارستان ويمر عليه الأطباء يومياً ومعهم المشارفين والقوام والممرضين. انظر ابن أبي أصيبعة م س، ص628، وكانت علامة شفاء المريض مقدرته على أكل فروج من الدجاج ورغيف خبز، انظر سعيد عاشور: المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م، م3، ص302.

(5) أنشأها طبيب العيون في البيمارستان النوري: مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالداخور في دمشق بالصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي عام 621هـ/1224م زمن الملك العادل بن أيوب (596-625هـ/1199-1227م) الذي ولاه رئاسة الطب في مصر والشام وأوقف عليها بستاناً وعدد من الضياع للصرف عليها، وكان منهم ابن النفيس وشرف الدين محمد بن الرحبي شيخ الأطباء وغيرهم، انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، دمشق ص265، النعيمي م س، ج2، ص127 وابن العماد الحنبلي، م س، م3، ج5، ص127-128، وانظر: بيبرس الدوادار (ركن الدين): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، صورة عن مخطوطة جامعة بيل تحت رقم 758 على شريط رقم 78 ج1، ورقة 7أ، ودكتور محمد عيسى صالحية، بحوث ومقالات في الحضارة العربية والإسلامية، دار التقدم العربي، بيروت، مؤسسة دار الكتب، الكويت 1988 ص351 سيشار له فيما بعد: صالحية بحوث ومقالات.

(6) أنشأها نجم الدين يحى بن محمد اللبودى عام 664هـ/1266م خارج دمشق الذي خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب وأصبح ناظراً للدواوين في دمشق في عهد السلطان الظاهر بيبرس، وأوقف عليها ثلث املاكه وهي تحت وصاية قاضي القضاة عز الدين بن الصائغ، انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، م س، ص265، 266، العيني، م س، ج2، ص374.

(7) أنشأها الطبيب عماد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الربعي الدنيسري الذي عمل في البيمارستانات النوري بدمشق، له عدة مؤلفات في الطب منها "المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة وكان قد أوقف بيته مدرسة للأطباء: ابن حبيب: تذكرة النبيه ج1، ص112.

(8) ابن أبي اصيبعة:ن م، ص628.

ويعتقد أن معظم الأ"باء في جنوب الشام قد تخرجوا منها بعد دراستهم النظرية والتطبيقية، حيث كانت على شبه كبير من كليات الطب في وقتنا الحاضر مما يدل بوضوح لا لبس فيه على تقدم علم الطب في العصر المملوكي وارتقاء شأنه لتقديرهم للأطباء وخضوع هذه المهنة لمراقبة الدولة المباشرة وإلزام الأطباء بأخلاقيات المهنة.

حيث كان لا يسمح للطبيب بمزاولة المهنة إلا بعد نجاحه في الامتحان المخصص لذلك[1]، بواسطة المحتسب وآداء القسم الطبي وأن لا يفشي سراً من أسرار المرضى والبيوت التي يدخلها والمحافظة على المحارم[2].

---

(1) ابن أبي اصيبعة: م س، ص257-274، كان برنامج امتحان الأطباء على مرحلتين حيث يمتحن الطبيب بكتاب حنين بن إسحاق المتوفى عام 264هـ/867م المعروف (بمحنة الطبيب) فإذا اجتاز هذا الامتحان يؤخذ عليه عهد أبوقراط بن اقليدس اليوناني (ابو الطب)، حيث يُقسمون والقسم الطبي بأن لا يعطوا المريض دواءً مضراً ولا يركبوا له سما ولا يصفوا له التمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الذي يقطع النسل، ثم يتأكد المحتسب من أدوات الطبيب اللازمة (ابن أبي اصيبعة، ن م، ص45، الشيزري: م س، ص98-99، وابن الأخوة:م س، ص167-168، أما أطباء العيون "الكحالين" فكان يمتحنهم المحتسب بتكاب حنين بن اسحق (العشر مقالات في العين)، ابن الأخوة: ن م، ن ص، الشيزري: ن م، ص155. أما أطباء العظام "المجبرون" فكان المحتسب يمتحنهم بالمقالة السادسة من كتاب (الكناس في الطب) لبولص الأجانيطي: ابن الأخوة ن م، ص151، 169. أما الجراحون: فقد امتحنهم المحتسب بكتاب جالينوس وكتاب الزهراوي "التصريف لمن عجز عن التأليف" الشيزري: ن م، ص101-102، وابن الأخوة: ن م، ص169، وكان المحتسب يراقب الصيادلة بشكل دقيق ويعاقبهم، الشيزري، ن م، ص42-47.

(2) ابن أبي اصيبعة: ن م، ص768.

ومن الكتب الطبية المؤلفة في العهد المملوكي:

- الشافي في الطب.
- مقالة في حفظ الصحة.
- العهدة في صناعة الجراح.
- شرح الكليات في كتب القانون لموفق الدين يعقوب السامري.
- الأحكام النبوية في الصناعة الطبية لعلاء الدين الكحال الصفدي[1].

كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الأطباء الأدوية المفردة والمركبة حتى أن بعضهم صنع الأدوية وعمل المراهم والمعاجين والأقراص وغيرها[2]، ومن أشهرهم ابن البيطار الأندلسي الذي درس علم الصيدلة بدمشق[3] أيام السلطان الكامل.

---

(1) ابن ابي أصيبعة، ن م، ص755-768.

(2) ن م، ص601-628.

(3) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جزء 15، لوحة 16 مخطوطة، ابن أبي اصيبعة، ن م، ص601، وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص159-160.

أولاً: القرية في جنوب بلاد الشام:

"الأردن وفلسطين في العصرين الأيوبي والمملوكي".

لقد بنيت القرية على مكان مرتفع مثل التلال لتشرف على إحدى الطرق أو بجانب نبع ماء، ولقد روعي في بناء القرية العوامل الاقتصادية والصحية والأمنية معاً من حيث ارتفاع المكان على رؤوس التلال لمراقبة الطرق، أو بجانب نبع الماء لتأمين مياه الشرب وذلك في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

ولوحظ ارتفاع الكثافة السكانية فيها[1]، واستمرت هذه الكثافة المرتفعة في العصر المملوكي لأهميتها الاقتصادية[2]، هذا وأثّر في الكثافة السكانية الغزو الصليبي الذي أدىّ لهجرة السكان من قراهم، بالإضافة الى المنازعات والحروب الداخلية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي، وجاء عبث الخوارزميين والتتار في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي سبباً آخر في خراب المدن والقرى مما أدّى لنقص عددها[3]، ناهيك عن الأمراض الفتاكة والزلازل وغزوت القبائل العربية[4].

---

(1) Ben venisti M. The crusaders in the Holy Land P. 27.

(2) ابن قاضي شهبة، الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، ج2، لوحة 143 مخطوط.

(3) Ben venisti, OP, CIT. P. 215.

بلغ عدد القُرى في فلسطين ما بين 700-800 قرية في العصر المملوكي أما عدد قرى شرقي الأردن: فبلغ في الكرك أربعمائة قرية في البلقاء و1000 قرية في حوران "يدخل في إقليم حوران أجزاء كبيرة من شمال الأردن"، انظر: ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، باريس 1894، ص46-47.

(4) المقريزي: السلوك، ج2، ص774، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، القاهرة 1932م، ج10، ص197-198.

تخطيط بناء القرية[1]:

لقد قسمت إلى أربعة اقسام هي قسمان للزراعة، وقسم لرعي الدواب والاستراحة، وقسم لغرس الأشجار والكروم، حيث يتبع كل سكن منها مرافق عامة مثل المتبن الخاص، وموضع دواب الضيوف، ومخزن الحبوب، والمطبخ بالإضافة الى بناء المسجد الأساسي فيها، مع ملاحظة تقارب البيوت التي تفصل بينها جدران عالية مع بوابة رئيسية مؤدية إلى فناء الدار[2] وبالنسبة لمساكن القرية فقد بنيت من الحجر أو الطين أو الخشب أو الجص والتراب[3] حيث يتوفر أحدهما في البيئة كمنازل فلسطين وحوران في شمال الأردن التي بنيت من الحجر ومنازل غور الأردن التي بنيت من القصب[4] أو الطوب "الأجر" خاصة في القباب القائمة فوق الأواوين الواسعة حيث وجدت بعض الدور في وادي الكرك المؤلفة من طابقين وهي تشبه نظام الفيلا في الوقت الحاضر[5]، كما استخدم القرويون مادة الحُوّر الجيرية لطلاء واجهات منازلهم، ومن الجدير بالملاحظة أنها ما زالت مستخدمة حتى اليوم من قبل الفلاحين[6].

أما مكونات الدار: فكانت مؤلفة من أواوين مفقودة متقاطعة في بعض أبنية فلسطين[7] ومقامة على قناطر حجرية ما بين قطرتين الى اربع قناطر.

خصائص ومميزات البيت القروي في جنوب بلاد الشام:

لقد كان البيت العربي مكون من طابقين للصيف والشتاء، فقد كان الطابق السفلي للصيف لرطوبته واعتدال درجة حرارته، والعلوي لفصل الشتاء لكونه معرضاً للشمس فيصبح دافئاً، وكانت ذو شرفات خشبية متجهة للداخل والخارج، مستورة بالأخصاص الخشبية لتحجب سكان

---

(1) شيخ الربوة: الدرر الملتقط، مخطوطة بدار الكتب المصرية، القاهرة ورقة 36.

(2) د.غوانمه: دراسات 87.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج4، ص374.

(4) ابن قدامه، م س، ج5، ص538.

(5) د.غوانمه: دراسات ص88، كما أشار: ولابد أن يكون الحائط منيعاً يمنع ما وراءه ويكون مما جرت عادتهم بالحجارة وحدها كأهل حوران وفلسطين أو بالطين كالفطائر لأهل دمشق أو بالخشب أو بالقصب كأهل الغور.

(6) د.غوانمه: التاريخ الحضاري، ص107.

(7) ن م، ن ص.

المنزل عن المارين في الشارع[1]، وكانت معظم المنازل خالية من النوافذ وإن وجدت تكون ضيقة وعالية خوفاً من السرقات، ولعدم تمكين الرجال من مشاهدة النساء داخل المنزل، وتوجد غرفة تُسمى "بيت المونة" المسمى اليوم "بالكوارة" الطينية أو الخشبية التي تستخدم لحفظ المونة "للغذاء السنوي والبذار للزراعة السنوية"[2].

وبالنسبة لمأوى الحيوانات فقد استخدم سكان قُرى الأردن وفلسطين الكهوف والمقابر خارج القرية، كما استخدموها لخزن التبن، وبعض الغلات، واستخدم الفقراء منهم بعضها للسكنى[3]، هذا كما انتشرت البيوت الترابية "المصنوعة من الطابوق الطيني أو من الطين وحجر الحوّر لقلة التكاليف وسهولة البناء وملائمته للصيف والشتاء[4]، كما استخدم الفلاح الشامي في جنوب بلاد الشام مزيجاً من التبن الأبيض الناتج من "القمح" والأحمر الناتج من "العدس" مع قليل من الطين لطلي السطوح العلوية قبل فصل الشتاء لمنع الدلف "الواكف"[5] في معظم مساكن الفقراء بعكس الأغنياء الذين كانوا وما زالوا يبنون بيوتهم من الحجارة[6].

---

(1) صفوح: غوطة دمشق، ص387-388. وما زال بعضها صامداً حتى اليوم في قُرى شمال الأردن وبعض أحياء مدينة اربد.

(2) صفوح: م س، ص293.

الكوارة: شكل مستطيل مصنوع من الطين الممزوج بالتبن، طولها متران وعرضها متر ومقطعها متر، ويوضع الحب فيها من فتحة علوية، بينما يؤخذ من فتحة ضيقة في أسفله وقد شاهد الباحث جدته عام 1955 وهي تصنع الكواره في قريته سوم الشناق شمال اربد، وقد أخذ الباحث منها حب القمح لشراء الحلوى من دكان القرية لقلة النقود بما يشبه نظام المقايضة في التجارة "أي مبادلة السلع"، كما شاهد استخدام الجرار الفخارية لخزن زيت الزيتون وتبريد الماء.

(3) د. غوانمه: دراسات ص92، وقد شاهد الباحث بأم عينه هذه الكهوف وما زالت حتى اليوم في منزل والده القديم.

(4) صفوح خير: م س، دمشق ص292 وما زال هذا النوع في منزلنا القديم منذ عام 1925م.

(5) القاسمي: م س، ج1، ص66.

(6) عارف العارف "المفصل في تاريخ القدس"، ج1، ص212، زياد نقولا: م س، ج1، ص196. هذا وقد ساهم الباحث في طفولته بمساعدة والدته وجدته في طلي السطح بالطين والتبن وكانت تهب نساء الجيران للمساعدة كنوع من التعاون والإخاء.

وهكذا يمكننا القول بأن البيوت الريفية في جنوب بلاد الشام انقسمت الى ثلاثة أقسام ليستطيع الفلاح التكيّف مع بيئته الطبيعية[1] كوقايته من الحر والبرد ومخزناً للمحصول الزراعي وتأمين حاجياته بالرغم من كونه قِنّاً للأرض وعبداً للإقطاعي وهي:

- البيوت الحجرية ذات السقف المكون من المعقود من قناطر الحجارة عند الأغنياء.
- والبيوت الطينية ذات السقف المكون من الخشب أو القصب أو قبة مخروطية من اللبن نفسه.
- البيوت الحجرية أو الطينية ذات الطابقين.

وقد استنتجنا من وثيقة وقف قرية ادر[2] للسلطان الأشرف شعبان عام 777هـ/1275م الموجودة في دار الوثائق القومية بالقاهرة، مساحة قرية ادر من عمل الكرك وحدودها الأربع بالإضافة لعدد بيوت القرية وصهاريجها ومساجدها ومغايرها والقطع الوقوف عليه.

وكانت بيوت القرية متقاربة يفصل بينها جدران عالية للحماية، فيها البوابة الرئيسية المؤدية الى ساحة الدار، بالإضافة الى ممرات ضيقة متعرجة، وبالنسبة لارتفاع البناء، فقد تكونت بعض الدور من طابقين بشكل عقود متقاطعة من الطين والحجر في معظم الأبنية بفلسطين[3]، انتشر نظام القناطر الحجرية والقباب القائمة فوق الأواوين[4] وبالنسبة لمساحة القرية فقد اختلفت من قرية الى أُخرى فيما كانت مساحة القرية في الكرك 2500 دونم، كانت مساحتها في عكا 11700 دونم، وفي الخليل الأعلى شمال فلسطين بلغت المساحة ما بين 10.000 و 26.000 دونم بينما كانت في نابلس 1600 دونم، وفي القدس 24000 دونم[5]، ومن منشآت القرية المسجد في وسطها والبرج الحصين للدفاع عنها ومعصرة الزيتون وطاحون

---

(1) لمعرفة المزيد عن طريقة بناء بيوت الفلاحين انظر: صفوح: م س، دمشق، ص288-292، ص294-295، وفالح: الحياة الزراعية، ص139-144.

(2) رقم الوثيقة: 49، رقم المحفظة: 8، نوع الوثيقة: خاصة، موضوع التصرف: حجة وقف، المتصرف: السلطان الملك الأشرف شعبان، تاريخ الوثيقة: 3 جمادى الأولى 777هـ، مكان الوثيقة: دار الوثائق القومية في القاهرة.

(3) وقف البستان والحمام بوادي الكرك للسلطان الأشرق شعبان رقم 49 بدار الوثائق القومية في القاهرة "مخطوطة".

(4) وثيقة وقف البستان والحمام الكرك. Ben venisti OP. CIT. P. 366

(5) Ben venisti, OP, CIT. P. 214-217.

الدقيق، وقد اطلق السلطان على بعض هذه المنشآت اسم الرومي إشارة الى قدمها زمن الرومان مثل حائط رومي، معصرة رومية، زيتون رومي ... الخ، وكان في بعض القُرى المسيحية معصرة للنبيذ[1] وفيها الكُتّاب والمدرسة.

ثانياً: إنجازات صلاح الدين الأيوبي العمرانية في القدس:

لقد اعتني بمحراب داوود داخل حصن وبنى له جداراً ورتب له إماماً ومؤذنين وخدماً، وكان الوالي يقيم في هذا الحصن الذي بُنى فوق منزل داوود وابنه سليمان عليهما السلام[2].

كما أمر صلاح الدين بعمارة جميع المساجد والمشاهد والزاوية الخشبية بجوار قبلة المسجد الأقصى خلف المنبر سنة 587هـ/1191م[3]، كما بنى المدرسة الميمونية عند باب الساهرة[4]، وأنشأ المستشفى (البيمارستان)[5]، كما رمم سور المدينة المقدسة وحفر خندق حوله[6]، وتوفى في دمشق بعد اصابته بالحُمّى عام 589هـ/1193م وكان كردياً قوي الشخصية[7].

منجزات الملك الأفضل علي بن صلاح لادين في بيت المقدس:

بناء المدرسة الأفضلية[8]، كما أوقف الأراضي التي تحيط بموضع البراق الشريف على طائفة المغاربة الذين نُسبَ اليهم حي المغاربة، كما بنى المسجد العمري جنوب ساحة كنيسة القيامة.

---

(1) مجير الدين الحنبلي: م س، 1968م، ج2، ص147، وما زالت آثار هذه القناطر الحجر والقالب فوق الأواوين موجودة في قرية الباحث سوم الشناق.
Ben venisti, OP. CIT. P. 220.

(2) الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص145.

(3) مجير الدين الحنبلي: ن م، ص28 ويقيم فيها الآن بعض خدم المسجد ويستعمل كمستودع لحفظ القناديل وتنظيفها: عارف العارف: م س، ص236.

(4) وهي الآن كنسية رومية، ن م، ن ص.

(5) عارف العارف: ن م، ص178-179 في الحي المعروف الآن بالدباغة وكان قبل ذلك سوق البازار.

(6) الدباغ، م س، ص209.

(7) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص147-149.

(8) مجير الدين الحنبلي، م س، ص288-289، عرفت قديماً بالقبة في حارة المغاربة وقفها على فقهاء المالكية.

وبنى الأمير عز الدين الزنجيلي "قبة المعراج" إحياءً لذكرى عروج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سنة 597هـ/1200م غربي الصخرة المشرفة[1]، كما أتم بناء الزاوية الجراحية شمال القدس وأوقف عليها وتنسب لواقفها حسام الدين الجرّاحي أحد أمراء الملك صلاح الدين الأيوبي المتوفى[2] سنة 598هـ/1201م، كما عملت السقاية والمطهرة سنة 599هـ/1202م في الحرم الشريف زمن العادل ومات العادل سنة 516هـ/1218م ودفن بقلعة دمشق[3]، ومن منشآت الحرم الشريف في العهد الأيوبي تجديد المعظم عيسى بن عادل الأيوبي لعمارة القناطر في الحرم الشريف التي تقع على درج الصخرة القبلى عند قبة الطومار، كما ركب أبواباً خشبية للمسجد الأقصى مكتوب عليها اسمه، وبنى قلعة الطور على جبل الطور المشرف على طبرية عام 608هـ/1121-1212م لتهديد مركز الصليبيين في عكا ويافا وباقي مدن ساحل فلسطين[4]، وبنى سبيل شعلان في شمال الحرم الشريف عام 613هـ/1215م[5]، وبنى عز الدين عمر يغمور "البرج" وسط القلعة بباب الخليل عام 616هـ/1218م[6]، وتوفي المعظم عيسى عام 624هـ/1226م بدمشق ودفن بقلعتها وخلفه ابنه الملك الناصر داوود وعمره إحدى وعشرون سنة[7] مما أطمع عمه الكامل بالاستيلاء على أملاكه بما فيها القدس لانشغاله باللهو[8].

---

(1) ومن حسن المصادفة أن الباحث أرخ لهذه الحادثة في يوم الإسراء والمعراج 27 رجب 1414هـ/1993/1/20م الموافق يوم الأربعاء.

(2) مجير الدين الحنبلي، م س، ص290.

(3) انظر المقريزي: السلوك ج1، ص193-194. ورنسيمان، م س، ج3، ص273.

(4) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص545، وأبو شامة: ذيل الروضتين، ص70، وابن الفرات: م س، ج5، ق1، ص107.

(5) عارف العارف: م س، ص289ز

(6) ن م ص185، يوجد نقش على جدرانه ينص على أن البرج بنى بأمر من الملك العظيم عيسى.

(7) المقريزي: السلوك ج1 ص224.

(8) ن م ص227.

ما ذكره الرحالة عن عمائر بيت المقدس في القرنين

السابع والثامن الهجريين بين الرابع عشر الميلادي الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

1- ذكر ابو الفداء المتوفى سنة 732هـ/1331م في مؤلفه تقويم البلدان[1]:

ذكر بأن باني بيت المقدس سليمان بن داوود وخرّبه بختنصر ثم بناه بعض ملوك الفرس وخرّبه طيطس "تيطس" الروماني وبُني ورُمم حتى جاء قسطنطين الذي تنصر وأمه هيلانه التي أمرت ببناء كنيسة القيامة على قبر عيسى المزعوم، وخرّبت البناء الذي كان على الهيكل "الصخرة" وألقت عليها زبالة البلد عناداً لليهود وبقي الوضع على ذلك حتى فتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب الذي بحث عن موضع الصخرة "الهيكل" وبنى عليها مسجداً، وبقي الوضع حتى بني عبد الملك بن مروان قبة الصخرة الحالية.

وأما الرحالة ابن بطوطة المتوفى سنة 779هـ/1377م:

قال "سافرت من الخليل إلى القدس وفي الطريق مررت بقرية حلحول (فيها قبر يونس عليه السلام) ثم مررت ببيت لحم وبه أثر جزع النخلة وعليه عمارة كبيرة "كنيسة المهد" ثم وصل بيت المقدس الذي هدم سورها صلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر وأخبر بأن الذي أمّن الماء لها الأمير تنكز نائب الشام[2]، كما ذكر وادي جهنم شرقي القدس وفيه تل يقال أنه مصعد عيسى الى السماء، وعليه قبر رابعة العدوية وليست رابعة العدوية المشهورة، وفي بطن وادي جهنم قبر مريم في "الكنيسة سانتا مريم" اليوم وهناك كنسية أخرى يجتمع اليها النصارى لاعتقادهم بأن قبر عيسى عليه السلام موجود بها للتبرك به[3] وهي كنيسة القيامة اليوم.

ثم ذكر بها بعض فضلاء القدس وعلمائها: القاضي شمس الدين محمد المقري والخطيب الصالح: الفاضل عماد الدين النابلسي والمحدث المفتي شهاب الدين الطبري وشيخ الخانقاه أبو عبد الله الغرناطي نزيل القدس[4]، وكانت زيارته لبيت المقدس سنة 749هـ/1348م ووجد فيها

---

(1) ابو الفداء: تقويم البلدان ص211.

(2) ابن بطوطة، م س، ص57.

(3) ن م ص59.

(4) ن م، ن ص.

الوباء ولقي خطيب بيت المقدس عز الدين بن جماعة ابن عز الدين قاضي القضاة بمصر، وكان راتبه على الخطابة ألف درهم في الشهر[1]، كما ذكر الإدريسي سنة 548هـ/1154م كنيسة صهيون في آخر مدينة القدس من جهة القبلة[2].

أبواب بيت المقدس[3]: عشرة أبواب وهي:

1- من الجهة القبلية: باب حارة المغاربة وباب صهيون.

2- من جهة الغرب: باب سري صغير ملاصقاً لدير الأرمن، وباب المحراب المسمّى الآن بباب الخليل، وباب لد (باب داوود الغربي) عند محراب داوود ويعرف بباب الرحمة[4].

3- من جهة الشمال: باب دير السر وباب العمود وباب الداعية الذي يصل باب الساهرة وحارة بني زيد.

4- من جهة الشرق: باب الأسباط.

المنشآت المعمارية لدولة المماليك البحرية التركية الأولى في بيت المقدس:

لقد اهتم المماليك كالأيوبيين بالعلم فكان عهدهم استمراراً حضارياً لعصر الأيوبيين من حيث إنشاء المدارس وإقامة المساجد والأربطة والزوايا والتكايا للحجاج القاديمن الى القدس بالإضافة لبناء السبل والصهاريج والأروقة، فقد أرسل الظاهر بيبرس عام 659هـ/1261م الآلات والصناع المعماريين لعمارة قبة الصخرة في القدس التي كانت آيلة للسقوط، كما جدد قبة

---

(1) ن م ص65.

(2) الدباغ: بلدانية فلسطين العربية ص255، وذكر الإدريسي "وفيها العلبة التي أكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ، وفيها المائدة باقية الى الآن، ولها ميعاد في يوم الخميس".

(3) الدباغ، ن م، ص311.

(4) وهو الذي ذكره الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن عيسى بن مريم سيقتل عنده الدجال، ن م، ن ص، هذا وقد زارها الباحث في شهر مايو 1967م، وتعرف على هذه الأبواب في رحلة مدرسية.

السلسلة وزخرفتها[1]، وأوقف على الحرم الإبراهيمي في الخليل[2] قرية "أذنا" بفلسطين وأرسل لإعادة إعمار الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة[3].

1- منشآت الملك المنصور سيف الدين قلاوون (678-689هـ/1279-1290م):

1- الرباط المنصوري سنة 1283/681 بباب الناظر، وأوقفه على الفقراء وزوار بيت المقدس[4].

2- عمَّر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة[5].

3- المسجد القلندري نسبة الى قلندر يوسف الفرقة الصوفية القلندرية، بناه سنة 680هـ/1282م[6].

2- منشآت السلطان كتبغا المنصوري (664-696هـ) (1266-1298م):

جدد فصوص الصخرة، وجدد عمارة السور الشرقي المطل على مقبرة باب الرحمة سنة 695هـ/1267م، وبنى المدرسة الدوادارية بباب شرف الأنبياء المعروفة بدار الصالحين وكانت مدرسة وخانفاه أوقف عليها قرى [بيت نبالا وحجلة من أعمال اريحا وخربة طبرس في أراضي كفر راعي من أعمال جنين وأبنية أخرى وبساتين وحوانيت في القدس ونابلس وبيسان على يد المهندس علي بن سلامه] [7].

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص445.

(2) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص468.

الخليل: مدينة فلسطينية فيها قبر سيدنا إبراهيم الخليل واسمها الأصلي "حبرون" وتقع بالقرب من القدس جنوباً.

(3) ابن عبد الظاهر، م س، ص89: وهو أول من أرسل كسوة الى الحرمين الشريفين باعتباره خادماً لهما. انظر: دائرة المعارف الإسلامية مجلد 8، ص489، وأبو المحاسن: م س، ج7، ص121.

(4) عرف ذلك من البلاطة المثبتة فوق بابه، ويقال أنه الباب الذي ربط به جبريل عليه السلام البراق ليلة الإسراء، مجير الدين الحنبلي، م س، ص278.

(5) ن م ص318.

(6) عارف العارف: م س، ج1، ص200.

(7) مجير الدين الحنبلي: م س، ص284، 319، عارف العارف: م س، ص242، 243.

3- منشآت السلطان الملك الناصر حسام الدين لاشين (696-698هـ / 1298-1300م):

جدد عمارة محراب داوود بالسور القبلي عند مهد عيسى بالحرم، وعمر منارة الغوانمه بالمسجد[1].

4- منشآت السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون:

أ- في عهد سلطنته الأولى (693-694هـ/ 1295-1296م):

بناء "رباط كرد" سنة 693هـ/1295م بباب الحديد بجوار السور[2] ويسكنه اليوم جماعة آل الشهابي[3].

ب- في عهد سلطنته الثانية (698-708هـ/1289-1308م):

1- المدرسة الوجيهية: عند باب الغوانمه وهي اليوم دار سكن[4].

2- المدرسة السلامية: بباب شرف الأنبياء ويسكنها اليوم جماعة من آل جار الله[5].

3- زاوية المصمودي: بأعلى حارة المغاربة، أنشأها الشيخ عمر بن عبد اللـه المصمودي من ماله الخاص ووقفها للفقراء سنة 703هـ/1303م.

ومن العلاقات السياسية في عهد السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون:

إرسال ملك الكرج وصاحب القسطنطينية رسلاً للملك ناصر الدين محمد يرجونه في إعادة كنيسة المصلبة للنصارى فأعادها اليهم[6].

ج- في عهد سلطنته الثالثة (709-741هـ/1309-1340م):

1- بنى جامع القلعة سنة 710هـ/1310م ورمم القلة بتجديدها وتحصينها[7]، كما زار القدس برفقة خمسين أميراً منهم تنكز نائب الشام سنة 717هـ/1317م[8].

---

(1) مجير الدين الحنبلي: ن م. ص230-450.

(2) ن م: ن م، ص282.

(3) عارف العارف، م س، ص241.

(4) نسبة إلى لحارة بني غانم، مجير الدين الحنبلي،ن م، ص286.

(5) ن م، ن ص، وعارف العارف، ن م ، ص243.

(6) بلاد الكرج: هي جورجيان الآن وعاصمتها تفليس، مجير الدين الحنبلي، م س، ص292.

(7) عارف العارف، ن م، ص202.

(8) أبو المحاسن، م س، ج9، ص55.

2- بُنيت زاوية الشيخ الإمام ابي قدّين شعيب بن الحسين الأندلسي[1].

3- أنشأ تنكز نائب الشام قناة السبيل في القدس مع حوض كبير ومجاري للماء في الجبل حتى دخل الماء للقدس سنة 728هـ/1327م، كما أنشأ حماماً وخانقاه[2].

4- بنى في أيامه السور القبلي عند محراب داوود عليه السلام وزين صحن المسجد الأقصى ومسجد سيدنا الخليل عليه السلام بإشارة تنكز، وفُتح بالمسجد الأقصى شباكان عن يمين المحراب وشماله سنة 731هـ/1330م، وجدد تذهيب القبتين في المسجد الأقصى سنة 728هـ/1327 وقبة الصخرة المشرفة سنة 718هـ/1318م، وما زال هذا التذهيب في غاية الحسن والجمال حتى اليوم، وعمّر القناطر على الدرجتين الشماليتين لصحن الصخرة، كما عمّر باب القطانين[3].

5- ومن المدارس التي أنشئت في عهد سلطنة محمد بن قلاوون الثالثة:

1- المدرسة الجاولية: شمالي الحرم الى الغرب، بُنيت فوق "برج أنطونيا" الروماني وهي الآن مدرسة، أوقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة[4].

2- المدرسة الكريمية: بباب حطة سنة 718هـ[5].

3- المدرسة التنكزية: بخط باب السلسلة[6]، أوقفها نائب الشام الأمير تنكز الناصري سنة 729هـ/1228، درس فيها أساتذة قديرون منهم الشيخ أحمد الشهابي بن

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص602-605.

(2) المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص302، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص175.

مجير الدين الحنبلي، م س، ص111، ص281.

(3) عارف العارف، م س، ص203-204، ومكتوب عليه ان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جدد عمارته عام 734هـ، مجير الدين الحنبلي، ن م، ص278، ويقع هذا السوق في الغرب من الحرم ويسمونه خان تنكر.

(4) مجير الدين الحنبلي، م س، ص203-204.

(5) ن م، ص284.

(6) ن م، ص281.

محمد تنكز والشيخ المحدث أحمد بن هلال مؤلف كتاب "مثير الغرام بفضائل أهل القدس والشام"[1].

4- المدرسة الأمينية: بباب شرف الأنبياء شمالي الحرم أوقفها الصاحب أمين الدين عبد الله سنة 730هـ/1329م[2].

القلاع والحصون الصليبية:

لقد شهدت البلاد العربية والإسلامية في العصر العباسي الأخير في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين أحداثاً دامية تمثلت في الحروب الصليبية والغزو المغولي استمرت طيلة قرن من الزمان على نحو متقطع حتى توقفت تماماً بسقوط القسطنطينية عاصمة بيزنطة على يد السلطان محمد الفاتح سنة 1453م.

وما زالت البلاد العربية والإسلامية تعاني من نتائجها وآثارها بينما استفادت أوروبا منها حضارياً بعد نقلها علوم وفنون الحرب والتحصين عند المسلمين، وعندما زرت بعض هذه القلاع في الكرك والشوبك وعجلون كباحث ومؤرخ أيقنت ضرورتها من حيث التحصين والبناء ومهارة ودقة الفن المعماري وقد تمثلت بسلسلة من الحصون العسكرية المتكاملة المترابطة فيما بينها للمحافظة على استمرارية الوجود في بلادنا الى أن قيّض الله لنا قيادة حكيمة مؤمنة بالله استطاعت إفشال مخططات الفرنجة في استمرارية دولهم وطردهم من بلاد الشام.

وبقيت هذه الحصون والقلاع بعدهم شاهداً أبدياً على ذلك بطول خمسمائة ميل تقريباً ابتداءً من ساحل البحر الأحمر وحتى ضفاف الفرات شرقاً، وكان أقصى عرض لها يبلغ ستين ميلاً، اذ امتدت القلاع على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط داخل أراضي جنوبي بلاد الشام المتاخمة لهذه السواحل كامتداد لقلاع قبرص والأكروبول الأتيني في جبال اليونان وسواحل آسيا الصغرى للتصدي للسلاجقة الأتراك والأتراك العثمانيين.

---

[1] ن م، ص245.

[2] ن م، ص245-246.

قلاع وحصون الصليبيين في سوريا وفلسطين والأردن:

لقد أظهر بلدوين الأول تسامحاً مع المسلمين واليهود من رعاياه بالسماح لهم بعدد قليل من المساجد والمعابد والقلاع[1]، وسُمح لهم بالحلف على القرآن والتوراة وأجاز الزواج المختلط بين الفرنجة والمسلمين[2]، حتى توفى عام 1118م أثناء مهاجمته لمصر عند بحيرة المنزلة ونصب بعده ابن عمه بلدوين الثاني أمير الرهامن (1118-1131م) الذي اعتمد في حكمه على طائفتي الفرسان الاسبتارية والداوية[3]، وأوصى لإبنته وزوجها "فولك أوف انجلو" الذي حكم من (1131-1143م) واشتهر هذا بتشييد القلاع الضخمة في مختلف أنحاء مملكته[4]، كما شيّد الإقطاعيون قلاعاً في الأراضي التي استولوا عليها من الأمراء العرب مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة المرقب (Margat) في أراضي سوريا[5].

ودراسة ظاهرة القلاع للمؤرخ الحضاري مهمة جداً من حيث ارتباطها السياسي ووضعها الاستراتيجي والظروف التاريخية التي أحاطت ببنائها بالإضافة لفنها المعماري المميز الذي يشير الى الأرض العربي كموطن لحضارات قديمة اضاف عليها الغزاة الجدد عدداً من القلاع لحماية ممتلكاتهم ومراقبة خصومهم أصحاب الأرض الأصليون، كما لوحظ عليها كقواعد هجومية انطلقت منها جيوش الفرنجة تجاه المدن الساحلية بالإضافة لموقعها الاستراتيجي الهام

---

(1) رنسيمان، م س، ج2، ص162-164.

لقد شيد قلعتين هما قلعة صفد عام 1102م، وقلعة تبنين (Letoron) لحماية حدود ممكنة الشمالية من جهة دمشق، انظر: فولففانغ مولر- القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، مراجعة سعد الطيان، ط2، دار الفكر، دمشق 1404هـ/ 1984م، م ص 15.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص543، ابو المحاسن،م س، ج5،ص71.

حيث بلغت مملكته أوج مجدها فامتدت من العقبة إلى بيروت عدا صور التي بقيت مع المسلمين حتى عام 1124م، وعسقلان التي بقيت مع المسلمين حتى عام 1153م، ووصلت حدود دولته إلى وادي الأردن شرقاً.

(3) عاشور، ن م، ج1، ص55.

(4) لقد عُرف سابقاً باسم كونت انجو (Cont Angou) وبني قلعة صغيرة في بيت جبرين (Bethegibelin) وقلعة بيننا (Ibelin) وإعادة بناء قلعة كوكب بلفورا(Belvoir) وتسمى اليوم كوكب الهوى، وأمر أحد إقطاعية بايان لوبو تيبه (Payen Botei) ببناء قلعة الكرك(Al- Kerak) عام 1142م، في شرقي الأردن لصد الغارات المصرية المستعمرة المنطلقة من عسقلان. مولر، م س، ص16، وأبو الفداء تقويم البلدان ص242.

(5) مولر، ن م، ص17-18.

لقربها من طرق القوافل الرئيسية بين مصر والشام كقلاع الكرك والشوبك والعقبة ومعان والقويرة، ومن حيث فنها المعماري فقد لاحظت عند زيارتها بأن أسوارها وابراجها كانت مبنية من الحجارة المتينة، أما قلاع فلسطين الجبلية الساحلية فقد كانت تشبه قلاع شمالي فرنسا وجنوب انجلترا طبقاً للتقاليد النورماندية(1).

ومنذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي بدأ المسلمون في بناء قلاع حصينة مقابل قلاعهم كقواعد هجومية مثل قلعة "عجلون" مقابل قلعة كوكب الهوى (Belvoir) سنة 1184م، مما أفقد التحصينات الصليبية دورها الهجومي وتحولت للطابع الدفاعي كقلعة كوكب الهوى وصفد والشوبك والتي اضطرت الى التسليم في شتاء 1188م نتيجة للحصار المفروض عليها بسبب الجوع ونقص المدافعين وعدم وصول النجدات بعد هزيمتهم في حطين واستيلاء المسلمين على مملكة القدس والأراضي الأخرى(2).

وبالنسبة لسياسات المماليك نحو القلاع والمدن الإفرنجية المتحصنة بعد رحيلهم عام 1291م، إذ خربت بعض القلاع والمدن التي هجرها سكانها، وذلك لحرمان الفرنجة من قواعد احتياطية يمكن استخدامها مستقبلاً اذا ما عادوا الكرّة من قبرص، فتداعت بسبب هجرة السكان والإهمال.

وأما معظم المعاقل الكبيرة فقد شغلها المماليك قبل سقوط عكا وأعادوا بناءها ووسعوا فيها كقلعة المرقب والحصن في سوريا مثلاً وبقيت مقراً للحكومات المحلية، أو قواعد عسكرية متقدمة حتى نهاية سلطة المماليك في سوريا وفلسطين.

---

(1) مولر، ن م، ص17، الدباغ، م س، ص176-177.

(2) مولر، ن م ص74، وبالنسبة لأهمية قلعة عجلون الهجومية انظر:

Bibliogrphy, Enc, 1st , D. Soudel, 1960, P. 214.

C.N. Johns, Medieval, Ajlun, in Quarterly of the Department of the Antiquities in Palestine, 1, 1931,p.21-33.

وبالنسبة لقلعة عجلون فقد خربها المغول عام 1260م ورممها الظاهر بيبرس.

ومن القلاع الهامة في جنوب بلاد الشام التي أولاها المماليك اهتمامهم قلعة الصلت[1]، وقلعة عجلون[2] اللتين هدم المغول سوريهما وعملوا على تخريبهما فأمر الظاهر بيبرس بإعادة بناء ما تهدم منها، ونظفت الخنادق المحيطة بهما، وملأهما بالأجناد والعتاد[3].

وأما من حيث صفات القلاع الفرنجية المعمارية في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد عمل الصليبيون على زيادة مناعتها بزيادة عدد كوات الرمي فيها وإقامة طبقات من الشرفات الدفاعية المتراكبة فوق بعضها تخترقها فتحات للرمي (Phole)، وبناء شرفات بارزة ذات كوى، ثم حولوا الأبراج المستطيلة الى أشكال نصف دائرية متأثرة بالبناء الأرمني بحيث يمكن الرمي منها على طول الجدران المجاورة[4]، وذلك منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، ولم يبقى من هاتين القلعتين اليوم إلاّ الآثار بعد أن دمرها ابراهيم باشا العثماني بالديناميت عام 1848م.

كما اهتم العسكريون بتحصين بوابات الدخول بحيث يمكن رميها جانبياً من الشرفات المحمية جيداً مع تقوية جدران البوابة والحواجز المختلفة [الشعريات الحديدية والجسر المتحرك والأبواب وغيرها] [5].

واستخدموا الأسوار المزدوجة حول المدن والقلاع مع وجود مسافات مكشوفة وزيادة عدد الأبراج والخنادق كقلعة الحصن والمرقب[6]. وبصفة عامة فقد كانت القلاع الفرنجية مقراً للسلطة الحاكمة بالإضافة الى وظيفتها الرئيسية الاستراتيجية للسيطرة على البلاد الجديدة التي احتلوها، وكانت على وجه العموم متكيفة مع الأرض الجبلية ومقسمة الى قلعة علوية وقلعة سفلية والقلب محمي ببرج محصن مع فناء مكشوف صغير في الداخل مثل القلاع الأوروبية الغربية القديمة.

---

(1) الصلت: بلدة وقلعة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها وهي تقابل أريحا وتشرف على الغور من مكان مرتفع، وقد بنى قلعتها الملك المعظم عيسى، أبوالفداء: تقويم البلدان، ص245.

(2) عجلون قلعة حصينة بناها على جبل عوف أسامة بن منقذ أحد أمراء صلاح الدين عام580هـ/1184م، وكان مكانها راهب اسمه عجلون سميت باسمه. القلشندي، صبح الأعشى، ج5،ص394، وانظر، د.يوسف غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، ص81.

(3) ابن عبد الظاهر:الروض الزاهر ص93.

(4) مولر: م س، ص29.

(5) ن م، ن ص.

(6) مولر، م س، ص36، إذ يعلق مولر على هذه التحصينات الجديدة.. " لا يوجد مثلها في اليونان ولا في فرنسا او إيطاليا التي أقتبست من طراز العمارة الحربية المتقنة المتمثلة في الأبنية الصليبية في كل من سوريا وفلسطين".

ملخص الرسالة وخاتمتها

ملخص الفصل الأول وخاتمة

ويستنتج الباحث من مادة الدراسة في الفصل الأول ما يلي :

أولاً: لقد كانت نتيجة الصراع بين القوى الاسلامية المختلفة في بلاد الشام كالسلاجقة والفاطميين والقبائل العربية التي أسست امارات مستقلة بالإضافة لخطر الباطنية وتعاونهم مع الصليبيين ضعفت الخلافة العباسية وعجزها عن مواجهة الهجمة الصليبية والمغولية مما أدى لسقوطها.

كما يشهد التاريخ على أن الفوضى وسوء الأحوال وانتشار الأخطار والمخاوف كثيراً ما ينتهي بظهور أحد المصلحين الذي يضع حداً لتلك الفوضى والأخطار، ويوفر الأمن والاستقرار بعد كثرة المعاناة من القلق، وخير مثال على ذلك ظهور صلاح الدين الأيوبي عام 565هـ/1169م كبطل منقذ للأمة الاسلامية فكان عصره عصر وحدة عربية كبرى شملت الشام ومصر وغيرها من الأقاليم. هذه الوحدة التي قامت على أسس قوية عقائدية مؤمنة بدينها وأرضها وتراثها وأهدافها، مما دفع أبناءها على الاستشهاد في سبيل الحق واثقة بنصر الله وصدق الله العظيم بقوله: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم). ولم تُجدِ الصليبيين والمغول كثرتهم وسلاحهم أمام العزيمة والثبات وقوة الإيمان "القوة الموحدة للمسلمين"، لأن الجيوش الجرارة المدججة بالسلاح والعتاد لم تكن دائماً هي عوامل الانتصار ولكن انقسام الأمة الاسلامية شيعاً وأحزاباً ساعد على انتصار جيوش الصليبيين والتتار وأذاقوهم الذل والهوان والويلات بعد اجتياحهم للعواصم والمدن الاسلامية واحدة تلو الأخر، وصدق رسولنا الكريم بقوله: "إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني".

كما لا نستطيع تحميل الخلافة العباسية كثيراً في مواجهة هذا الغزو فهي لم تكن من القوة أو السلطة بحيث تؤثر كثيراً في مجريات الأمور خارج العراق لسيطرة المتغلبين وولاة الأطراف عليها بتأسيسهم دويلات عنصرية استقلالية أنانية في الشرق والغرب حتى سقطت على أيدي المغول وأحياها الأيوبيون والمماليك في

مصر مرة أخرى، فانحطّ منصب الخلافة ورضــي الخلفـاء بدورهـم نفسـياً بمحاولـة رفع معنوياتهم أيام الأيوبيين والمماليك وذلك باصدارهم العهـود الرنّانـة التـي تؤكـد حق الخليفة في تقليد السلاطين مناصبهم لتصبـح شـرعية كمـا حـدث لصـلاح الديـن عندما أسقط الدولة الفاطمية عام 567هـ/1171 وضمها للخلافة العباسية في بغـداد ليكسب رضـا وتأييد السلطة الشرعية في بغداد، ولاحظنا اضطرار صلاح الدين فـي أواخر أيامه قطع صلاته بالخلافة العباسية بعد يأسه من مساعدتها أو قيامها بدورها الإيجـابي فـي توحيـد المسلمين أو ربمـا كـان ذلـك لعدم حاجتـه اليهـا بعـد تحقيـق انتصاراته وإعادة الحـق المغتصـب فـي استرداده للقدس وعكـا وطبريـة والنـاصرة وقيسارية.

وانتكست وحدة المسلمين بعد وفاته عام 589هـ/1193م لصراع أبنائه وأخوته على الحكم مما أعاد دور الخلافة العباسية في بغداد للتدخل عندما أيدت العادل (أخو صلاح الدين) أيام الخليفة الناصر لدين الله العباسي الـذي شرّفه بلبـاس الفتـوة عـام 599هـ/1202م، فـاعترفت الخلافـة بنفوذه علـى الشـام ومصـر، ثـم قـامت بمهمـة التوفيق بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي حتى انتهـى حكمهـم بمقتـل تـوران شـاه بـن الصالح أيوب عام 648هـ/1250م على أيدي مماليكه، فانقسـمت الجبهـة الاسـلامية مرة أخرى بثورة الأمراء الأيوبيين ضد المماليك الذين انتزعوا السيادة من أيديهم.

وعندمـا آلـت السلطة ليد امرأة "شـجرة الـدر" أرملـة الصـالح أيـوب تدخلـت الخلافة العباسية حيث استنكر الخليفة العباسي المستعصم بالله ذلك، وعرض عليهـم ارسال "رجل يتولى الحكم إن كانت الرجال قد عدمت عندكم" مما دفعهـم الـى إقامـة مُدبّر العسكر الأتابك عز الدين أيبك ملكاً على البلاد، فبدأ بذلك عصر دولة المماليك البحرية التي تسلمت زمام المبادرة فـي الجهـاد ضـد الغـزاة الصليبييـن والتتـار بعـد سقوط الخلافة العباسية على أيديهم.

فكان قيام دولة المماليك الأولى ضـرورة حتميـة لمواجهـة هذه الأخطـار، كمـا كانت معركة عين جالوت بداية النهاية للدولة الأيوبية بعد عجز الأمراء والسـلاطين

الأيوبيين في الدفاع عن البلاد العربية أمام الهجمة المغولية الوحشية المدمرة وكانت أيضاً بداية لقيام دولة المماليك.

ولكن نسب المماليك الوضيع أمام معاصريهم من السكان الأصليين في مصر والشام سبّب لهم إحراجاً كبيراً دفعهم الى اتخاذ سياسة ذات شقين هما:

- **الجانب العسكري**: إذ اهتموا بالجيش للظهور دائماً بمظهر القوة، والذي كان له الفضل في ردّ المغول وتطهير البلاد الشامية من بواقي الصليبيّن.
- **والجانب الديني**: إتخذوا الدّين ستاراً وسنداً شرعياً لكسب ولاء الشعب لشعورهم بالغربة، فأحيوا الخلافة العباسية بمصر لسد شعور النقص في نفوسهم، ولتكون سنداً شرعياً لهم ضد عداء الأيوبيين لهم علماً بأنه لم يكن للخليفة العباسي في القاهرة سوى الاسم، حيث كان يقتصر عمله على مبايعة السلطان لإضفاء الشرعية على حكمه، ومباركة من يحصل على السلطة بالسيف. كما جعلوا من مدينة القدس رمزاً لوحدة المسلمين وعنصراً فعالاً في الحياة الاسلامية بجوانبها المختلفة، وكان فضلهم من النواحي الحضارية اسهامهم في المحافظة على التراث العربي الاسلامي.

وهكذا كان عنصر المماليك بمثابة رحلة جديدة متميزة في تاريخ الشام ومصر سياسياً وإدارياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً.

وإن دل هذا فإنما يدل على فترات من الاستقرار والأمن والهدوء الذي أدّى الى الثراء والازدهار الحضاري. كما تجدر الملاحظة بأن الدور السياسي والحضاري الكبير لمنطقة جنوب شرق الأردن قد بدأ في العصر الأيوبي وازدهر في العصر المملوكي.

إنها لعبرة لعل في تأملها درساً يفيدنا في مرحلة حاسمة من مراحل أمتنا الاسلامية المعاصرة نتيجة لتكالب أعداء الاسلام والمسلمين عليها لثقتنا بأمتنا

العربية والاسـلامية عبر العصـور التاريخيـة عندمـا أثبتـت دائمـاً أنهـا قـادرة علـى الصمود والاتحاد أمام كـل خطـر يهـدد كيانهـا وبقاءهـا بعـد أن مـرّت فـي تاريخهـا الطويل بفترات من الانحلال والتخلف والتدهور مثلما اصابنا اليوم.

فلنبعد اليأس عن أنفسنا، ونبتعد عن التشكيك في قدراتنـا ونتوحـد علـى روابـط اسلامية متينة وعقيدة راسخة لنستطيع النهوض والجهاد ضد أعدائنا المتربصين بنـا لاسترداد قبلة المسلمين الأولى والتي كانت ومـا زالـت مـن عوامـل وحـدة المسـلمين لاستردادها بعون الله وهو نعم المولى ونعم المصير.

ثانياً: وبالنسبة لعروبة المنطقة وأصولها السكانية وأهميتها الحضارية:

فقد أدت حالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لجنوبي بلاد الشام خلال العهود التاريخية الى فراغ سُكاني وهجرات متعاكسة بحثاً عـن الأمـن والسلام والرزق أو الاستيطان الأجنبي.

فكان الكنعانيون أول من نزّل فلسطين حوالي 3000 ق.م وخاصة منطقـة الخليـل المتنـازع عليها اليوم بين العرب واليهود، ثـم شـهدت موجـة أموريّـة فـي القـرن الثـالث عشر قبل الميلاد (1200 ق.م) جاءت من بلاد الرافدين. وتوالـت الهجـرات الأجنبيـة، ففي حوالي الألف عام قبل الميلاد(1000ق.م)، هاجر الفلسطينيون مـن جزيـرة كريـت وسكنوا فلسطين. وفي العصر البابلي حدثت هجرة معاكسة، حيـث أفـرغ بنوخـذ نصـر الثاني الكلداني فلسطين من اليهود بسبيهم الى بابل حتـى أرجعهـم قـورش الفارسـي ثـم قضى عليهم تيطس الرّوماني عام 70م وبقيت جنوب بـلاد الشـام تحـت حكـم الرومـان حتى الفتوحات الاسلامية الى حدوث الهجمة الصليبية الشرسـة التـي أحدثـت خلـلاً فـي المجتمع العربي.

ويرجع المؤرخون أصول القبائل العربية في بـلاد الشـام الـى اليمـن وخاصـة فـي أطراف الشام وباديتها والمناطق المجاورة لها حيث انتشرت على شكل هلال يمتـد مـن جنوبي بلاد الشام الى الشمال الغربي منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد (1000 ق.م) حتى القرن الثالث الميلادي، فاستقرت قبائل قضاعة فـي جهـة البلقـاء وجنوبـي شـرقي

الأردن، ولخم وجذام في جنوبي الأردن وفلسطين، وغسّان في منطقة دمشق وحوران وقبيلة كلب في تدمر والجنوب الشرقي من بلاد الشام، أما قبيلة تغلب فاستقرت في الجزيرة الفراتية، وربيعة الى الشمال الشرقي منها.

واستمرت هجرة القبائل اليمنية من معين وحمير وهمذان ومذحج والأزدوطيء الى بلاد الشام أيام الفتح الاسلامي بعد معركة اليرموك ولحقت بها قبائل قيسيّة من البوادي مما ساهم في إرسال قوات لفتح مصر والجزيرة حيث ذكر البلاذري أن مركز التجمع الأول للمقاتلين في الجابية من حوران على أطراف بادية الشام الجنوبية، كما حتّمت الظروف العسكرية ومناطق توطين القبائل الى اتخاذ الأجناد مراكز رئيسية للمقاتلين، وتطورت الأجناد الى مراكز إدارية وجغرافية مع ملاحظة سيطرت مجموعة قبلية في بعض الأجناد.

وتجدر الإشارة هنا الى أن هجرة القبائل العربية الى الشام كانت استيطانية حيث اعطيت القبائل المهاجرة الأراضي للزراعة والرّعي، كما أُعطيت القبائل القديمة أراضي جديدة لاعتبارات اقتصادية واستراتيجية زمن الخلفاء الراشدين والأمويين.

ويلاحظ أن بلاد الشام لم تشهد التوتر بين السلطة والقبائل على الأراضي ونتاجها لنجاح سياسة الأمويين في توزيع القبائل على خمسة أجناد مع منحها الأراضي من الصوافي وغيرها، حتى أن قصور الأمويين الصحراوية [قصر الحرانة والحلابات والعمري وباير وغيرها] كانت مراكز للاستثمار الزراعي على الحد الشرقي من بادية الشام في شرقي الأردن لتوفير منشآت الري حولها، كما تعود أهميتها لقربها من مراكز أجناد ودمشق [حوران، البلقاء، تدمر] والأردن [الغور وطبريه].

وبالنسبة لأهمية شرقي الأردن في أواخر العصر الروماني وقبيل الفتح الإسلامي فقد كان حلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب لكثرة الطرق التجارية المهمة التي تمر بها، وفي العهد الإسلامي شارك الرسول الكريم أيام طفولته عمه أبو طالب في رحلات إلى بلاد الشام مروراً بشرقي الأردن واستمر اتصاله بتجار البلقاء الذين كانوا يبيعون الزيت والدقيق في الحجاز.

وتمهيداً لنشر الدعوة الإسلامية فيها وجّه سرايا عسكرية إلى جنوبي الأردن ووادي السرحان عام 5هـ/626م لوادي الجوف (في دومة الجندل) لتأديب بدو هذه المنطقة لكثرة اعتدائهم على القوافل التجارية من المدينة المنورة وسوريا ثم غزوة مؤته عام 8هـ/629م، وبقي الرسول الكريم يفتح أعين المسلمين ويستنفرهم لغزو الشام بارسال السرايا إلى التخوم الرومانية شمال جنوبي الأردن حتى توجها بغزوة تبوك التي قادها بنفسه عام 9هـ/630م وأوصى بتسيير جيش أسامة بن زيد لمقاتلة الروم في آبل الزيت من مشارف شرقي الأردن [قرية القويلبه اليوم من أعمال منطقة عجلون] عام 11هـ/632م.

وبعد الفتوحات الإسلامية رَحّبَت القبائل العربية في بلاد الشام بالحكم العربي العادل الذي أنقذها من ظلم الحكم الروماني الفاسد. وأصبح جند الأردن "كور الأردن" زمن الخلفاء الراشدين يشمل إربد وأذرعات "درعا اليوم" وبيسان وعكا وصور وعاصمته طبريا أما جند فلسطين فكان يمتد من رفح إلى اللجون ومن يافا إلى عمّان وزغُر على شاطيء البحر الميت وجبال الشراة.

وفي زمن الأمويين اصبحت الأردن مركز استجمام وراحة للخلفاء الأمويين لقربها من البادية ودمشق العاصمة فشيدوا فيها القصور مما يدل على استقرار الأمن فيها.

ومن الحميمة (بين العقبة ومعان)، في شرقي الأردن بدأت الدعوة العباسية التي نقلت عاصمتها لبغداد عام 132هـ/749م مما أثر في الأحوال العامة لشرقي الأردن بعد إهمال قصورها وقلاعها وتغيير طرق الحاج المار فيها، وبعد سيطرة الدولة الفاطمية 358هـ/969م بسطوا نفوذهم على فلسطين وشرقي الأردن، وعندما ضعف العباسيون والفاطميون عام 410هـ/1021م شبت الثورات في شرقي الأردن وفلسطين وسوريا لمدة سبع سنوات حتى استولى الأتراك على فلسطين وسوريا وشرقي الأردن عام 491هـ/1099م. مما مهد النجاح للصليبيين في غاراتهم الأولى واستولوا على القدس عام 491هـ/1099م ثم زحفوا شرقاً على الأردن عام 499هـ/1107م وشرعوا

في تشييد القلاع والحصون خاصة بعد أن أدركوا أهمية القسم الجنوبي من شرقي الأردن لحماية مملكة بيت المقدس والتحكم في الطرق الرئيسية بين مصر وسوريا والحجاز.

وبالنسبة للاستيطان اليهودي في فلسطين فيرى الباحث أن حاخامنهم كتبوا تعليماتهم المقدسة في التوراة المعاصرة المزيفة وأثبتوا أن اليهود جنسية تبحث عن أرض الميعاد وليست ديانة نستطيع التعايش مع بقية الأديان في وطن واحد وهي حِكْرٌ على شعب بعينه يكون أفضل الشعوب حتى لو سرق أو زنى أو أشرك بالله.

ويدّعون بأنهم ورثة الأنبياء وشعب الله المختار الذين وعدهم الله وراثة الأرض وإقامة دولتهم، من النيل الى الفرات بالإضافة الى ما تأثر به بعض المؤرخين المسلمين بفكر المستشرقين في نسبة اليهود الى النبي ابراهيم عليه السلام وإن ابراهيم واسحق ويعقوب كان يهودياً وأن اليهود الحاليين هم ورثتهم لأنهم من أصلابهم وأن الله قد وعد ذرية ابراهيم وراثة الأرض وفلسطين، فيصبح لذريته من العرب واليهود الحق في فلسطين وخير مثال على ذلك الدكتور حسن صبري الخولي، مستشار الرئيس جمال عبد الناصر للأسف عندما أثبت في رسالة دكتوراة بأنّ لليهود الحق في فلسطين في ص33 بعنوان سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين يقول فيها "يقرر الصهيونيون أن فلسطين هي الأرض التي وعدهم الله بها تأسيساً على ما جاء في التوراة...، وأن الله قد وعد ابراهيم عليه السلام وذريته من بعده أن يعطيه فلسطين لإنشاء دولة فيها" حيث استشهد بفسر التكوين من ص3-5 لنسلك ... أُعطي هذه الأرض من نهر مصر الى نهر الفرات الكبير] ويضيف ونحن نُسلِّم بما جاء في التوراة على أساس أنه كتاب مقدس من عند الله ولكننا لا نستطيع مجاراة اليهود في تفسيرهم التعسفي لأن الوعد الإلهي ليس موجهاً الى اليهود وحدهم وإنما هو وعد لإبراهيم وذريته اسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط يتساوى في ذلك الحق اسحاق جد اليهود واسماعيل جد العرب وعلى ذلك فالحق في فلسطين ليس مقصوراً على اليهود وانما هو لذرية ابراهيم على الإطلاق...".

وساهم المستشرقون الصهاينة في نشر هذا الفكر في المدارس والجامعات مما أدّى الى انصياع بعض الجماهير العربية وتسليمهم بمخطط الأعداء ... لأن كُتّاب التاريخ أفهموهم بأن الحق رجع أو الى أصحابه، وبهذا هُزِم المسلمون فكرياً ولم يجدوا من ينبههم ويوقظهم من غفلتهم... فيجب على المؤرخ الاسلامي إعادة ثقة الأمة الاسلامية في وجودها وحقها في الاستقلال بأرضها وكرامتها وكيانها، وذلك بالتنبيه الى خطورة ما تتعرض له الأمة على ايدي كُتاب التاريخ، ويجب عليه تصحيح هذه الأخطاء متبعاً المنهجية العلمية الصحيحة بما يجده في القرآن الكريم الذي يفضح هذا التزوير في كتاب التوراة المزيّفة والتاريخ "الاسرائيليات، في سير الأنبياء والرسل. فأصبح من الواجب عليّ كباحث ومؤرخ اسلامي أن أوضح الحقيقة الدينية القائلة بأن جميع الأنبياء والرسل دعوا الى الاسلام، واليهود لا يرثون الأنبياء والرسل المسلمين. فابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وداود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام ... دينهم جميعاً الاسلام، ولم يكونوا هوداً أو نصارى والدليل قوله تعالى:

(ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمتُ لربِّ العالمين. ووصّى بها ابراهيمُ بنيه ويعقوب يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلاهاً واحداً ونحن له مسلمون)[1].

وقال تعالى: (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إنّ اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين)[2].

---

(1) البقرة آية 130-133.

(2) آل عمران، 68.

وقال تعالى: (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[1].

وقال تعالى: (قالت يا أيها الملأ إني أُلقي الى كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين)[2].

وهكذا حسم القرآن الكريم قضية الدين والوراثة. فأنبياء الله المذكورين كانوا مسلمين وأن الذين لهم الحق في وراثتهم هم المسلمون الذي اتبعوا ملة ابراهيم ونبي الله محمد (ص) الذين آمنوا منهم وأسلموا لله رب العالمين.

قال تعالى: (إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا) . (ولا ينال عهدي الظالمين)[3].

وقال تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها عبادي الصالحون)[4].

لذا نرى بأن القرآن خاطب اليهود بأنهم ليسوا أتباعاً لابراهيم لأنه نبي مسلم ويقول لهم أيضاً ودليل انحرافكم هو أنكم لم تؤمنوا بمحمد (ص)، وبالتالي فلا حق لكم في وراثة هؤلاء الأنبياء المسلمين، ولا حق لكم في شبر واحد من أرض الاسلام، لأن الكافر لا يرث مسلماً.

كما أثبت القرآن بأن اليهودية والنصرانية بدعه وليست من الله تعالى، قال تعالى: (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بله ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق

---

(1) يونس آية 84.

(2) النمل آية 29-31.

(3) البقرة آية 124.

(4) الأنبياء آية 105.

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرقُ بين أحد منهم ونحن له مسلمون)[1].

لذا يجب على المؤرخين المسلمين الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية عند التأريخ للأمة الاسلامية وعدم الاعتماد على المصادر غير الموثوقة ومنها التوراة والإنجيل والتلموذ والتفاسير والشروح النصرانية. وبعض المراجع الحديثة المتأثرة بالمستشرقين الذين قسموا التاريخ الى قديم ووسيط وحديث والتي وقعت في حرمة الاعتداء على ذات الله ورسله، وزعمت أن الأنبياء المسلمين كانوا يدينون باليهودية وأن لهم حق وراثة النبي الكريم ابراهيم وسليمان عليها السلام ... فكان هذا لخدمة الصهيونية.

ونخلص الى القول بأن نسيان الأمة الاسلامية للحقيقة التي بينها الله رب العالمين لنا في كتابه وهي: "أن الاسلام هو دين الله في الأرض وفي السماء وأن اليهودية والنصرانية ليسا دينين سماويين". وقد ورد ذلك في تفاسير القرآن الكريم فعندما تقرأ على سبيل المثال لا الحصر تفسير الإمام الحافظ ابن كثير لقوله تعالى: (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)[2].

أي ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام، وأنتم تعلمون، إن دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة، وليست من الله، لأنهم ارادوا بزعمهم الباطل لباس ثوب الدين ووراثة الأنبياء، وزيفوا تاريخ البشرية لخدمة مصالحهم بحق زعمهم لأنفسهم في فلسطين فالموعودون بالتمكين في الأرض المقدسة وغيرها من أرض الله والمبشرون بوراثة الأرض المقدسة وغيرهم هم المسلمون من ذرية ابراهيم بدليل نص الآيتين الكريمتين، قال تعالى: (واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك

---

(1) البقرة آية 135-136، وانظر أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الفكر، ج1، ص132، 1966.

(2) سورة البقرة آية 42 وانظر الإمام الحافظ اسماعيل ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ج1، ص84.

للناس إماماً قال ومن ذريتي، قال لا ينـال عهدي الظـالمين)[1]، فيكون اللـه قد حجب الإمامة "أي الرئاسة" عن الظالمين الفاسقين والكفرة من ذرية ابراهيم عليه السـلام كما حسم الله الأمر بقوله: (إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهـذا النبـي والذين آمنـوا والله ولي المؤمنين)[2].

ويأتي الحديث الشريف المروي عن رسول الله الكريم ليؤكد هذه الحقيقة:

قال رسول الله صلـى اللـه عليـه وسلم: "لـن تقوم السـاعة حتـى يقـاتل المسـلمون اليهـود، فيقتلهم المسـلمون حتـى يختبـيء اليهـودي مـن وراء الحجـر والشـجر، فيقـول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فأقتله إلا الفرقد فانه مـن شجر اليهود) [3].

وفيما يتعلق بنسبة التوراة الم الى ابراهيم عليه السلام والزعم بأنـه كـان يهوديـاً فهذه شبهة قديمة وقد ردّ الله عليها في كتابه الكريم بقوله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت من التوراة والإنجيل الا من بعده أفلا يعقلون، ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إنّ أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين) [4].

وألّف اليهود كتاباً سموه التوراة والتي لا علاقة لها بالتوراة التي أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام بدليل قول رسول الله –صلـى اللـه عليـه وسـلم–: "إن أهـل الكتـاب بدلوا كتاب الله، وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند اللـه، ليشـتروا بـه ثمنً قليلاً" [5].

---

(1) البقرة 124.

(2) آل عمران 65-68 وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج1، ص375.

(3) صحيح الجامع الصغير وزيارته، حديث (3074-3078) أخرجه الشيخان واللفظ المسلم.

(4)

(5) صحيح البخاري.

وشهد بذلك شاهد من أهلها الا وهو موسكاتي في كتابه الحضارات السامية القديمة ص139 وديوانت في كتابه قصة الحضارة[1].

ولقد أدرك اليهود، أن هناك قطاعاً كبيراً من بني البشر، لن يقرأ التوراة المحرفة... ولن يقتنع بها ... ولذلك لجأوا الى كتب التاريخ يزيفون ويشوهون بتاريخ الأنبياء والرسل ودين الله ومن له حق وراثة الأرض ... لكي يربوا في المدارس والجامعات أجيالاً تعتنق ذلك التاريخ المزيف ... حتى اذا ما وصلوا الى موقع المسؤولية في قيادة الأمة سلموا لليهود باغتصابهم فلسطين وقيام دولتهم من (النيل الى الفرات) وعاصمتها بيت المقدس "أورشليم" وزعموا أنهم جادون في البحث عن هيكل سليمان اليهودي اسفل المسجد الأقصى الذي بناه آدم عليه السلام بعد المسجد الحرام بأربعين سنة[2]، وجدده سليمان وابراهيم واسحاق ويعقوب وداوود عليهم السلام والذي اليه تشتد الرجال والأرض المباركة حوله بعد المسجد الحرام. ارض فلسطين التي جعلها الله ميراثاً للأمة الاسلامية، تقيم حكم الله عليها بعد تحريرها قال تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) [3].

---

[1] ديورانت، قصة الحضارة، م1، ج2، ص367، قال : "كيف كُتبت هذه الاسفار؟ ومتى كُتبت؟ وأين كُتبت، ذلك سؤال لاضير فيه، ولكنه سؤال كُتب فيه خمسون ألف، مجلد، ويجب أن نفرغ منه هنا بفقرة واحدة تُركة بعدها من غير جواب، فذلك يعني أن هذه التوراة مشكوك في نسبها للنبي موسى عليه السلام.

[2] د. جمال عبد الهادي وزوجته: أخطاء يجب ان تصحح في التاريخ ص35.

[3] سورة الأنبياء آية 105.

وفي القرآن الكريم شواهد عظيمة على عداوتهم للمسلمين الى يوم القيامة منها:

قوله تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) [1].

وقوله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إنّ هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير) [2]. وقوله تعالى: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) [3].

وقوله تعالى: (لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) [4].

ومن هنا يبرز المفتاح الصحيح لاسترجاع الحق المغتصب في فلسطين، إنه العقيدة الاسلامية التي تكشف زيف اليهود من براءة ابراهيم وسليمان منهم.

كما أن ادعاءات اليهود بتراثهم الحضاري العميق هو زيف باطل لأنهم عاشوا قديماً على هامش أقدم المراكز الحضارية في وادي الرافدين ووادي النيل وحضارة شبه الجزيرة العربية. فالتوراة الحالية مقتبسة من حضارات أخرى بينما قلبت الصهيونية الحديثة الأمور بتوظيف التوراة المعاصرة في علاقة اليهود مع الآخرين للوصول الى أهدافها السياسية، ونجحت في ترسيخ هذه الأوهام السياسية والحقوق التاريخة لها بفلسطين "ارض الميعاد" في عقول الملايين من مختلف القارات عامة والشعب اليهودي خاصة.

فأطماع الصهيونية ليست لها حد ترتضيه حتى لو تنازلنا لهم عن الأراضي التي احتلوها علماً بأن التنازل عن ذرة تراب واحدة من تراب فلسطين خيانة وعار في

---

(1) المائدة، آية 82.

(2) البقرة، آية 120.

(3) البقرة، آية 217.

(4)

جبين الأمة العربية والاسلامية، كما يشكلون خطراً على الإنسانية جمعاء بسبب عقائدهم العرقية العنصرية اللانسانية.

ثالثاً: اما بالنسبة لدور القبائل العربية في الأردن وفلسطين أثناء الحروب الصليبية والمغولية:

نلاحظ ارتباط البدوي في جنوب بلاد الشام بقبيلته برابطة الدم والمصلحة، فكان ولاؤه لقبيلته قبل الولاية للدولة لتمسكه بالعادات والتقاليد مما ادى للصراع القبلي والمنازعات هذا بالإضافة للأصول السكانية لبلاد الشام عبر التاريخ والذي أظهر عصبيات عرقية عنصرية كالأكراد والأتراك والتركمان والأرمن وقد ساهمت هذه القبائل أثناء الحروب الصليبية بحراسة القوافل والطرق التجارية وأدلاءً لها بالاضافة الى مساهمتهم الكبرى في نصرة الجيش الصلاحي والدفاع عن الحدود "الثغور الاسلامية" كبني كلاب الذي تعاونوا مع الأيوبيين ضد الصليبيين حيث قدموا لهم الخدمات كإمدادهم ملوك الأيوبيين بالجمال لحمل الغلال لمناطق الثغور الشامية خاصة زمن الكامل الأيوبي وقاموا بدور الطلائع العسكرية الاستكشافية زمن الأشرف موسى الأيوبي بجمع أخبار العدو من الصليبيين والتتار لمعرفة تحركاتهم وتتبعها وعلى نجمهم زمن الناصر محمد بن قلاوون حيث مال اليهم ولبس زيهم وأمّن زعماءهم المعارضين لنوّاب الشام، وعيّن سليمان بن مهنا من آل ربيعة أميراً عليهم وهم ايضاً من عرب جنوب الشام. وهكذا اصبحوا تحت إمرة الأمراء من آل ربيعة. كما برز آل فضل من ربيعة بزعامة عيسى بن محمد ثم مانع من بن فضل وابنه من بعده مهنا بن نافع، فقد شارك زعميهم بقيادة عربة في معركة عين جالوت، وترجع اصولهم الى طيء وهم من عرب الجنوب. فكافأة السلطان قطز بإقطاعه مدينة سلميه من أعمال حماة ومن القبائل المؤثرة ايضاً في الأحداث السياسية في العصرين الأيوبي والمملوكي بنو خالد ومنهم الصيالة والزمول والشقرة وآل ملحم وآل جراح ولا زالت هذه القبائل في جنوب بلاد الشام حتى اليوم وخاصة في شرق الأردن.

كما شارك جيش الكرك في عهد الناصر داوود الأيوبي في حرب أعدائه من المعارضين والفرنجة في عكا وحقق انتصارات باهرة لاستعمالهم سلاح المدافع لأول

مرة في بلاد الشام وذلك أثناء ثورة الناصر أحمد بن قلاوون عام 743هـ/1342م التي نعتبرها ثورة وطنية وقومية ضد المماليك بزعامته عندما اعتبر نفسه مواطناً كركياً وعمل على جعلها عاصمة ومقراً مركزياً لمملكته.

واستمرت هذه المنطقة كمركزاً هاماً للثورات الشعبية والتحريرية أيام دولة المماليك الثانية "الجراكسة".

ملخص الفصل الثاني وخاتمة

النظام الإداري

لقد أوضحت هذه الدراسة الحضارية، ان الدولة الأيوبية ورثت نظم الحكم وفلسفته عن الدولة السلجوقية الأم شأنها في ذلك شأن الدولة الزنكية الذي قام على فلسفة خاصة من القوة وليس العدل بل الوراثة، هذه النظرة الوراثية كانت تعتبر الدولة إرث يقسم بين ابناء السلطان بعد موته، مما أدى لتمزق الدولة وضعفها، بالاضافة إلى الآثار السيئة للإقطاع الحربي الأيوبي على الاوضاع السياسية، إذ كان هم الأمراء المقطعون هو الاستقلال عن ملوك بني أيوب، وتأكيد سيطرتهم على قطاعاتهم وكان ولاؤهم بمقدار مايمنحون من إقطاعات كالمرتزقة الذي يقاتلون مع من يدفع اكثر، مماساهم في زيارة الاضطرابات والتفكك إلى مملكات المدن الصغيرة حتى وصلت إلى حد استحالت معه محاولات الاصلاح بين الأخوة، فزاد النزاع العسكري بينهم مما عاد بعواقب سيئة على البلاد. وكان أكبرها خطراً ووقعاً في نفوس المسلمين الاستعانة بقوى خارجية اسلامية وغير اسلامية، كالخوارزمية التي استعان بها المعظم ابن العادل والصليبية التي استعان بها الملك الكامل وخاصة زمن الامبراطور فردريك الثاني الذي سلمه مقابل ذلك بيت المقدس في وقت كان يتحتم فيه عليهم توحيد قواهم البشرية الاسلامية وحشد طاقتهم المادية لمواجهة العدوان الصليبي المستمر على بلاد الشام ومصر، والاستعداد للخطر المغولي الذي بدأ يظهر للعيان هذه الأمور أدت إلى القضاء على الكثير من القيم والمفاهيم لدى المسلمين، وخيم بانعكاساته السيئة على الحياة الاقتصادية لصغار المزارعين والتجار الذين دفعوا الثمن مضاعفاً دون مبرر، كما هدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية للمسلمين والتي كان يمكن ادخالها لجهاد الصليبيين والمغول فيمابعد:

وهناك حقيقة واضحة للعيان وهي استفادة الأيوبيين من شراء المماليك وتجنيدهم إلا أنّ المماليك هم الذين قضوا على الدولة الأيوبية كما قال المثل "وعلى نفسها جنت براقش" ولاحظنا ان الدولة الأيوبية في الشام ومصر أخذت تعاني ظواهر الضعف والسقوط منذ عام 635هـ/1237، كما ضعف تيار الجهاد بعد موت صلاح الدين الأيوبي، واقتصر موقف المسلمين على الدفاع وشن المفارات الغارات كما لاحظنا اخطاء عسكرية تغتعز بهدم أسوار

وقلاع المدن الاسلامية خوفاص من وقوعا بأيدي الافرنج كما فعل المعظم عيسى بن العادل بهدم أسوار وتحصينات بيت المقدس قبل الحملة الصليبةي الخامسة والذي أدى فشلها إلى هذا الخطأ الواضح وخاصة عندما عجز الكامل عن الدفاع عنها فسلمها للامبراطور فريريك الثاني.

وبالنسبة لسياسة صلاح الدين الداخلية:

فقد أوعز صلاح الدين إلى مستشارين وقضاته وكتابه أمثال عماد الدين الاصفهاني وبهاء الدين بن شداد، والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الفلسطيني ليرسلوا رسائل وكتب إلى الخلفاء العباسين والأمراء واصحاب الشأن وشيوخ القبائل العربية كتعبئة فكرية للشعب العربي السملم لمواجهة الغزو الصليبي

وكان من أهم العوامل التي أدت إلى بعث حركة الجهاد ضد الصلبين تلك السياسة التي انتهجوها في خلال غزوهم لبلاد الشام وهي سياسة ارتبطت برغبتهم الجامحة في الانتقام من المسلمين بصورة تنطوي على جانب كبير من الوحشية والعنف البالغين حيث عملوا على ذبح كل من صادفهم.

وبشكل عام كان سلاطين الأيوبين وبقية ملوك الأطراف يحرصون على مظاهر التبعية للخلافة العباسية.

كما استخدموا التصوف كوسيلة أساسية بجانب المدارس لمحاربة الدعوة الاسماعيلية بمصر، كما عملوا على إحياء الخلافة العباسية بالطرق بعد أن ترددت نداءات صلاح الدين والخلافة العباسية في أرجاء العالم الاسلامي لوحدة المسلمين كما استمر شعار الوحدة الاسلامية حول الخلافة العباسية مرفوعاً طوال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لعدم تقبل المسلمين لفكرة قيام خلافة أخرى خاصة بعد أن أوكلت القيادة السياسية في بغداد إلى الأيوبيين قيادة حركة الجهاد الاسلامي منذ الربع الأخير للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث تسلموا مسؤولية الجهاد وبكل جدارة بعد وراثتهم لممتلكات الفاطمين بجنوب الشام والحجاز ولايمن وممتلكات آل زنكي في الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام، كما امتد نفوذهم إلى أرمينة 'خلاط وميافارقين' مما جعلهم جيراناً للدولة سلاجقة الروم بأسيا الصغرى 'تركيا اليوم' والدولة الخوارزمية بايران. كما لوحظ بان جميع فتوحات الساحل الشامي بقيادة

صلاح الدين الأيوبي قد تمت باسم الخلافة العباسية بالاضافة إلى استشارة الخليفة العباسي وتبشيره في كل نصر يحققه وتفاصيل غزواته.

وسار المماليك على النمط الأيوبي في الحكم بعد زوال ملك الأيوبيين واستيلائهم على دفة الحكم، ولكنهم زادوا في شُعب الإدارة كما كان السلطان رأس النظام، فإذا كان طفلا تولى الأمر عنه القيم " المسمى" بكا او وصياً ويحق له التصرف في امور المملكة ويليه كبير الأمراء " قائد الجيش' والملقب ب(أتابك العسكر) ويليه "مقدموا الألوف".

كما يلاحظ على النظام المملوكي انهم لم يستطيعوا تأصيل الشرعية في نفوس امراء وضباط الجيش المملوكي وذلك بعد قتل بيبرس لقطز، والجلوس معه كما لم يتركوا إلا المناصب الدينية والقضائية والتجارية والأدبية لأفراد الشعب مما أدى إلى ضعفهم في النهاية، وبالنسبة لعلاقتهم في الخلافة العباسية كان لابد من تأصيل فكرة شرعية الخلافة العباسية على الرغم من خلع السلاطين لبعض الخلفاء، أمثال الناصر محمد بن قلاوون الذي خلع الخليفة الواثق ونصب مكانه الحاكم بأمر الله ولم يتقبل الناس هذا الوضع الجديد باستيلاء العبيد المماليك على السلطة من أسيادهم بغير وجه حق.

كما رفضت الإمارات الأيوبية في بلاد الشام الاعتراف بسلطة المماليك الجديدة لاسقاطهم السلطة الأيوبية في مصر وانقسام المماليك وفرار بعضهم إلى الشام كالظاهر بيبرس وقلاوون، وغيرهم من المماليك لبلاد الشام وتحريضهم للأيوبين في بلاد الشام على غزو مصر، فكانت فرصة سانحة لضرب سلطة المماليك واضعافها في مصر أراد الأيوبيين استغلالها بعد انقسام المماليك على انفسهم بقيادة الناصر يوسف بن ايوب، حيث سيطر على سوريا وحتى عجلون في شرقي الاردن وتوجهوا لقتال المماليك في مصر عند العباسية فتنبه عز الدين أيبك الذي تولى الحكم بعد شجرة الدر من الناصر يوسف الأيوبي، صاحب دمشق (648-249هـ/649/1250-1251م) فخرج إلى بلدة العباسية وعسكر فيها لمدة ثلاث سنوات تحسباً لهجوم عسكري من بلاد الشام حتى انهت الخلافة العباسية حالة الطوارئ هذه بوساطتها بن المماليك والأيوبيين وعقد صلح بين الطرفين.

احياء الخلافة العباسية في القاهرة

لقد شعر سلاطين المماليك بضرورة احياء الخلافة العباسية لإضفاء الشرعية على حكمهم الذي اعتصبوه من سادتهم الأيوبين، حيث حاولوا في البداية التحايل على الأيوبين باشراك بعضهم في الحكم بالاضافة إلى اغتصاب السلطة من بعضهم عندما اغتصب الظاهر بيبرس منصب السلطنة من قطز قاهر المغول في عين جالوت. ولمواجهة الثورات ضده.

فاسرع الظاهر بيبرس لاستدعاء الأمير العباسي أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي من دمشق الىالقاهرة وبابعه امام الشهود والفقهاء ولقبه المستنصر بالله . فقام الخليفة بعد ذلك بتقليد الظاهر بيبرس وهكذا أخذ التفويض بالحكم من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الاسلامي وهي الخلافة. وضرب النقود باسم السلطان الخليفة بالاضافة للدعاء له قبل السلطان مما جعله يتضايق فيما بعد من ذلك ففكر في الخلاص منه بعد أن كسب الرأي العام في العالم الاسلامي. فأعلن بأنه يرغب في اعادة الخليفة لبغداد فصحبه إلى دمشق ثم تركه يتجه عبر الصحراء برفقة جماعة من الأعراب والترك نحو بغداد.مما ادى لمقتله على يد المغول. ونصب مكانه الأمير العباسي ابو العباس احمد وبايعه بالخلافة سنة 662هـ/1264م. ولقبه الحاكم بأمر الله وهنا حرص على الحد من نفوذه.

واستمر الوضع طوال العصر المملوكي على هذه الحالة بان يفوض الخليفة الأمور العامة للسلطان ويدعى له قبل السلطان على المنابر. وكان يكتفي بالتردد على ابواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالاعياد.

ويعتبر السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك لأن الفترة الطويلة نسبياً والتي قضاها في الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية والتي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدراً من الهيبة كانت أحوج ماتكون إليها بعد أن قيض الله له النصر على اعدائه من المغول والفرنجة والأرمن. فملك دمشق وبعلبك وعجلون والصلت والشوبك والكرك وصرخد وتدمر وعندها حتى شملت دولة مصر وسوريا وكثير من الاناضول وارمينيا والنوبة وبرقة وبعض بلاد العرب وكان أول مافعله مبايعة الخليفة العباسي احمد بن الامام الظاهر وكتب السلطان بيبرس إلى البلاد ليأخذ البيعة له ومما يجدر الاشارة اليه أنه استحدث

نظماً ادارية جديدة مما يجعلنا نجرم القول بأن دولة المماليك اتخذت في عهده طابعها المميز الاداري الذي سارت عليه حين اوائل القرن السادس عشر الميلادي وكان كغيره من المماليك لايحترم مبدأ الوراثة الا انه غلبت عليه غريزة الابوة فتحدى طبيعة المماليك ونظامهم وورّث العرش لابنه البكر سعيد بركة، حيث أخذ البيعة له من كبار الأمراء بعد أن أقسموا بعين الطاعة للملك السعيد بركة عام 660هـ/1262م كما اوصى ابنه ضرورة الحيطة والحذر من كبار الامراء عند موته

وقد تحققت نبوته بحيث ظلوا بنظرون لابنه السلطان بركة بعين الصبي وسببوا له المتاعب في مصر والشام حت أجبرو كبار أمراء المماليك على خلع نفسه عام 678هـ/1280م، مقابل اقطاعه الكرك وأعمالها وإقطاع أخيه خضر الشوبك.

وبعد موت الملك السعيد في الكرك عام 678هـ/1280م. ودفنه في مؤتة بالقرب من مقبرة جعفر الطيار حيث نقل فيما بعد إلى دمشق ودفن بمقبرة والده الظاهر بيبرس.

وقيل ان السلطان المنصور قلاوون هو الذي امر بدس السم له التخلص منه كمنافس على السلطة واعتبر المؤسس الثاني في دولة المماليك في مصر والشام واستمر الحكم في عائلته حوالي مائة عام وسلم الملك بعده اخوه نجم الدين خضر ولقبوه بالملك المسعود. والذي قام بثورة ضد الملك المنصور قلاوون في مصر وحدثت مجابهة بينهما حتى اصحبت الاردن مقسمة بين ثلاث قوى هي:

القسم الشمالي منها: تحت سلطة سنقر الأشقر الثائر بدمشق والقسم الأوسط (البلقاء ومؤاب والشراه بيد الملك المسعود) والشوبك بيد المنصور بن قلاوون.

من الجدير بالذكر بالملاحظة : ان السلطان قلاوون عيّن المؤرخ بيبرس الدوادار في نيابة الكرك بعد نقل نائبها عز الدين ايبك الرملي نيابة قلقة صفد وجعل بامرته مائة فارس ومن الثابت ان المماليك لم يؤمنوا قط بمبدأ الوراثة في الملك، فالأمراء جميعاً سواء، والملك للأقوى والأكثر حرصاً على سلامة الملك والأوفر ذكاءً.

فقد حاول المماليك اظهار بعض الوفاء لسلطانهم الراحل فعينوا ابنه سلطاناً، ولكن الغيوم لم تلبث ان تنقشع بعد زوال صدمة الموت، فيدرك كبار الامراء أن ذلك الوضع غير طبيعي،

وأنهم لايقلّون أحقية في الملك عن السلطان الراحل مما أدى لتنافس كبار الأمراء عقب موت السلطان فقبلوا تولية ابنه حسماً للنزاع بانتظار انكشاف الأمور وظهور الرجل القوي، فلم يحدث خلال القرنين ونصف القرن من حكم المماليك ان ظلت السلطة في بيت واحدة مدة طويلة باستثناء بيت قلاوون الذي كسر القاعدة فقد بقيت السلطنة في هذا البيت مدة طالت على القرن من [من677-784هـ/1279-1382م]

هذا وقد فشل النظام الملكي الوراثي عند المماليك بتساوي كبار امرائهم في الاصل والتربية، وتقارب قوتهم العسكرية وذلك على الرغم من محاولة بعض السلاطين توريث أبنائهم كما ذكرنا كالسلطان الظاهر بيبرس عام 662هـ/1264م والناصر محمد بن قلاوون حيث ورث ولده ابي بكر المنصور قبل وفاته واستطاع ستة من أبنائه الذكور الاثني عشر الوصول للسلطنة لفترة قصيرة.

وكان لفشك المبدأ الوراثي في النظام المملوكي آثاره الأيجابية من حيث عدم وصول اطفال أو فتيان للسلطة في الغالب. كما أنه لم تكن هناك حقوق ملكية وراثية تفرض تولية أبناء السلطان بعض الأقاليم مماساهم على وحدة أراضي الدولة وعدم انقسامها إلى دويلات بعد موت السلطان كما حدث للسلاجقة.

فكان يشرف على تربية الأمراء الصغار أتابك من الامراء الكبار والذي سرعان ما يتنزع السلطة من الأمير الصغير رسمياً وينشيء دويلة خاصة به مما ساهم في ظهور دويلات الأتابكة الكثيرة في أجزاء من الشام والجزيرة العربية وايران وهو الطريق الذي اوصل الأيوبيين للسلطة بطريقة شرعية بعد موت نور الدين محمود بن زنكي عام 569هـ/1173ن عندما ترك بعدد الصبي الصالح اسماعيل وارثاً.

كما ان نظام انتخاب السلطان من ضمن كبار الأمراء المماليك دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار ذلك كعودة لمبدأ الشورى في الاسلام ولكن الحقيقة باقتصار الانتخاب على كبار الامراء جعلنا نجزم القول بانه تقاسم للأدوار والمصالح الشخصية حيث يكون السلطان الجديد قوياً بقوة الفريق الذي انتخبه أو بقوة شخصيته فوق الأنصار والفرقاء.

كما ان كان هذا النوع من الانتخاب كحل وسط لإحداث توازن لأطماع الأمراء الكبار وهذا الشكل يجعل الخليفة ضعيفاً منذ البادية لصراع المجموعات حوله والتي كانت تؤدي بعزله وتولية آخر مكانه مما أضعف النظام كله كما كان لهذا النظام الانتخابي لرأس السلطة بعض الإيجابيات من حيث المحافظة على وحدة الدولة لسيطرة السلطان المنتخب شرعياً على اجزاء دولته في مصر والشام والحجاز سياسياً واقتصادياً وجغرافياً حيث كان يعين النواب في الأقاليم والمدن والأعمال وقضاة المذاهب الاربعة وصاحب ديوان الإنشاء بشكل مباشر في مصر والشام.

لهذا كانت سلطة الدولة محسوسة في الأقاليم البعيدة ايضا على عكس مدن الشام أيام الأيوبين التي تحولت إلى دويلات مستقلة تقريباً نتيجة لتسلط امراء السلطة الأيوبية من أولاد وأحفاد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل بحق الوراثة للملك كما مر معنا.

كما تمتعت اسرة قلاوون بأهمية خاصة في تاريخ المماليك حيث احتفظت بمنصب السلطنة في ذريته المنصور سيف الدين قلاوون لمدة زادت عن القرن من 678-784هـ/ 1280-1382م والمقر بمصر عصر ازدهار الدولة المملوكية حضارياً وعسكرياً واستقرارها امنياً.

ويرجع الفضل للسلطان المنصور قلاوون في إرساء هيبته وهيبة اسرته في النفوس فاعتبر المؤسس الثاني للدولة المملوكية كما تمتعت اسرة قلاوون وخاصة الناصر محمد وأولاده بحب الناس وإخلاصهم حُباً في الاستقرار والأمن وفر لهم السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد مما جعلهم يتمسكون بعد وفاة الناصر عام 741هـ/1340م باولاده واحفاده حتى 784هـ/1382م لمدة اربعين سنة.

وبعد هذا العرض فقد تكونت لدينا فكرة من دراسة تاريخ المماليك بعد موت السلطان الناصر محمد حيث سيطر كبار امراء المماليك صغر سن السلاطين حيث طغت شخصياتهم على السلاطين الصغار أمثال الأمير قوصون ويلبغا البجاوي وأقسنقر اللاري وآرغون العلائي وشيخو وصرغتمش وقشتمرالمنصوري وبرقوق الذي كان من المماليك البرجية (الجراكسة) مما

زاد في نفوذ تلك الطائفة وأدى إلى تمكنهم من انتزاع الحكم عام 784هـ/1382م وقيام دولة المماليك البرجية.

أثر نواب الشام في أحوال دولة المماليك

لقد شكل نواب الشام قوة يخشاها السلاطين في مصر فلجأوا إلى تقصير فترة حكمهم وخاصة في أوائل حكم كل سلطان

كما كان السلطان الجديد يسرع بخبر سلطته إلى نواب الشام ليكسب تأييدهم وشارك أمراء الشام مع بعض امراء مصر في خلع اربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء المماليك والموالين لهم.

هذا بالاضافة إلى المساعدات القيمة التي قدموها لسلطان مصر في أوقات الحرج وحرب الصليبيين والمغول، لان وحدة مصر وسوريا عبر التاريخ، كانت ومازالت محتومة لمواجهة الأخطار الخارطية ضد العروبة والاسلام في الشرق الاوسط.

ولوحظ على نظام الحكم في النيابات الشامية بأنه كان صورة مصغرة لسلطنة المماليك في مصر حتى اطلق القلقشندي عليها اسم (المماليك الشامية) وقال :" كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاهية للمملكة المستقلة" حيث شُبّه نائب كل ولاية شامية بسلطان مستقل مع تبعيته لسلطان مصر، فكان له حاشيته ومماليكه وأتباعه حتى أطلق عليه اسم (ملك الأمراء) لخدمة كبار الأمراء له لقيامه مقام السلطان في السلطنة وكان لنواب الشام بيوت خدمة مشابهة لبيوت الخدمة السلطانية كالشراب خاناه والفراش خاناه والزرد خاناه، والطبلخاناه وغيرها

كما كان يتبعهم موظفون مشابهين لوظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة، وأمير مجلس وأمير اخور وأمير جاندرا وغيرها كما كان لكل نائب في النيابات الشامية وزيراً كوزير السلطان في مصر ولكن بفارق بسيط بانه لم يطلق عليه اسم وزير إلاّ اذا كان قد مارس الوزارة في مصر وإلا فانه كان يلقب(ناظر النظار) وكان في كل نيابة شامية أربعة قضاة يمثلون المذاهب الاربعة كحال القضاء في مصر منذ زمن الظاهر بيبرس هذا بالاضافة إلى وظائف ارباب السيوف وارباب القلم والوظائف الدينية المشابهة لمثيلتها في مصر وبالنسبة لدواوين النيابات الشامية فكان أهمها ديوان الانشاء وديوان النظر وديوان الجيش.

وكانت نيابة دمشق أهم النيابات الشامية الاخرى بالنسبة للسلطان لذا حرص سلاطين المماليك على مراقبة خفية لنوابهم في الشام عامة ودمشق خاصة عن طريق صاحب ديوان الإنشاء ونائب القلعة الموجودة في الاقليم حيث أولكه بحرب النائب إذا فكر بالخروج على السلطان لانه كان يتبعه اجناد القلعة التابعين له.

كما حرص السلطان على التدخل في شؤونهم لاشعارهم بوجوده مما يشير إلى أن نواب الشام لم يكونوا مطلقي التصرف في كل شيء لانهم معينين من قبل السلطان ويحق لهم التعيين في وظائف ارباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها بينما كان التعيين في الوظائف العليا كالطبلخاناه من حق السلطان، وكذلك بالنسبة لوظائف ارباب الأقلام فكان النواب لا يعينون الا صغار الموظفين ككتاب الدرج بنما يُعَيِّن الوزير وكاتب السر ونظر المال ونظر الجيش من قبل السلطان ومثلها في الوظائف الدينية حيث يعين السلطاهن قاضي القضاة بنما يختص النائب بتعين خطباء الجوامع الصغيرة. وهكذا سمح هذا النظام الاداري المملوكي لسيادة السلطان المملوكي على مصر والشام ومختلف ارجاء الدولة المملوكية.

وفي ايام المماليك كانت الدولة مقسمة الى تسعة ممالك:

واولها: المملكة المصرية وحاضرتها القاهرة: وهي مقر الخليفة والسلطان وكبار رجال المماليك والديوان الشريف الذي منه كافة التعيينات، وتسيير الجيوش، وتنظيم الغزوات والفتوح.

وثانيها: المملكة الشامية: وبها كامل الديار الشامية (نائب السلطان) وتحت يده الاف المماليك سواء كانوا ملكه الخاص او ملك الدولة، وعلى رأس هؤلاء المماليك (امير كبير) ومملوك يسمى(صاحب الحجاب) وتقسم هذه المملكة الى عدة مراكز في كل مركز والى ينصبه الكافل.

وثالثها: المملكة الكركية: وتشمل بلاد الكرك وقلعتها وماحولها ويتولاها أتابك العسكر.

ورابعها: المملكة الحلبية .**وخامسها**: المملكة الطرابلسية، **وسادسها**: المملكة الحمادية.

وسابعها: المملكة السكندرية، **وثامنها**: المملكة الصفدية، **وتاسعها**: المملكة الغزاوية.وكافلها مقدم العساكر.

واما الضرائب، فكانت تختلف باختلاف السلطان ظالماً أو رحيماً. وهكذا نرى ان الحكومة تدخلت في كل فروع التجارة ومراقبة الاسواق ما ادى لهجرة الناس.

وكانت القيادة الجماعية مكونة من ثمانية امراء لتحمل اعباء السلطة باتباع من الشورى بينهم. وكانوا من حاشية السلطان في القاهرة المكونة من الجاشنكير، والخزندار، والسلحدار، وامير جاندارا، والحاجب، والاستادار، وكاتب الانشاء والدوادار.

ومن سلاطينهم الكبار ساسياً وعسكرياً السلطان المنصور قلاون لصراعه مع الصليبيين والمغول، وابنه السلطان الاشرف خليل فاتح عكا اخر معاقل الصليبيين في فلسيطين عام 690هـ/1292م. ثم السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب اطول فترة زمنية في حكم المماليك بما بقارب ثلاث واربعون سنة ويعتبر المؤرخون عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتوفي 741هـ/1340م. عصلا الثورة والازدهار وخلفه ابنه المنصور ابو بكر كما يلاحظ بشكل عام صراع البيوتات المملوكية على النفوذ والحكم مما أدّى لانقسامهم وتكتلهم ضد السلطان الامر الذي ساعد على طغيان نفوذ الامراء عليه حتى بلغ الامر ان يحل الامير القاتل محل السلطان المقتول.

وهكذا يمكن القول بان مبدأ القوة والغلبة كانت المؤهلات الكافية لاعتلاء العرش.

وقد اسس المماليك دولتهم في مصر والشام والحجاز واليمن محاولين اجبار الخلافة العباسية وذلك بعد تصديهم للمغول وبقايا الصليبيين الامر الذي مكنهم من حماية الحضارة الانسانية منهم بجيوشهم النظامية في ذلك الوقت ومع ذلك فقد رافق حكمهم بعض المظاهر السلبية من ارهاب وظلم واحتكار مما نتج عنه سوء الاحوال الاجتماعية وكان سلوكهم السلبي نابع من شعورهم بمركب النقص الناجم عن عبوديتهم واغضابهم للحكم وشعورهم بالغربة عن أهل الوطن حماة للاسلام محبيه للخلافة العباسية ليضفوا على انفسهم نوعاً من الشرعية والمهابة.

كما لاحظنا من تقارير المقريزي في خططه سبباً اخر لشدتهم وصرامتهم في الحكم هو تربيتهم العسكرية القاسية والتي كانت بداية الانحراف الخلقي حتى كانوا ممنوعين من مغادرة القلعة، ثم السماح لهم بالنزول منها نهاراً والعودة ليلاً زمن السلطان الاشرف خليل 689-

693هـ. هذا وقد اكتملت الصورة السلبية من الانحرافات الخلقية حيث بلغت الاوج بولاية السلطان برقوق 784-801هـ. ولقد اخترت مثالاً لهذه السلبيات التي شدت انتباهي حالة القضاء في العصر المملوكي.

وبالنسبة للقضاء المملوكي فلم يكن مستقلاً حيث حكمته الصراعات السياسية والشخصية والنفعية، واستبداد السلاطين وإصدارهم الاوامر للقضاء بما يراعي مصالحهم مما جعل بعض القضاة الاحناف يتصدون لهم فقد واجه القضاء صعوبات بالغة أمام الله وامام الناس بل وفي ضمائرهم مما حدا ببعض المؤرخين توجيه الاتهامات لبعض القضاة لتمايلهم للوصول الى المنصب ولانتقالهم من مذهب لاخر لارضاء السلطان لان القضاء كان مصدراً هاماً لتمويل الخزائن السلطانية بمصادرة القضاء للاملاك لحساب السلاطين باسم الشرع وبيع المنصب القضائي.

لذا كره الناس القضاة وازدروهم لسوء سمعتهم وظلمهم في الاحكام وبعدهم عن النزاهة، وخضوعهم لأهواء الأمراء الذين لا يختلفون في سلوكهم شيئاً عن القضاة حيث كانوا في حالة ضياع وصراع، هذا بالإضفاة إلى الصراع بين القضاة والأمراء المؤيدين للسلاطين.

ومن مساوئ القضاة والمعاملة التي عوملوا بها مما جعلني اتساءل هل كانت هذه المساوئ كالتملق والوشاية والدس نابعة من أعماقهم؟ أم أن الظروف هي التي أجبرتهم على هذا الطريق؟.

وبعد التدقيق والتحميص بعد اطلاعي على مخطوطة نزهة البيطار في قضاء الامصار لسراج الدين عمر بن الملقن تحقيق الاستاذ حسين حبشي عام 1972 لوحظ ان تصرف القضاة هذا كان نابعاً من الحالة العامة للدولة من صراعات سياسية وشخصية ونفعية ونتيجة استبداد السلاطين باصدار الاوامر الى القضاء وتدخلهم في الاحكام لصالحهم مما جعل بعض القضاة يتصدون لهم.

لذا واجه القضاة صعوبات بالغة امام الله والناس بل وفي ضمائرهم عندما حول السلاطين القضاء ستراً لاعمالهم السيئة بالشرعية، لذا عانى القضاء من صعوبات جمة طوال العصر المملوكي من تدخل في شؤونه ومن سوء الاختيار والنوعية وعدم الكفاءة.

وكان الدافع للسلاطين لهذه التصرفات هو رغبتهم في توريث ابنـائهم العرش رغمـاً عـن كبار الامراء المعارضين. لهذا فاحتاجوا للسند الشرعي من القضـاة والفقهاء الذيـن اسـتفادوا مـن ذلك بالثراء وجمع الاموال بأي وسيلة كانت كالرشوة واخذ اموال الاوقاف وأمـوال الايتـام، كمـا كان القضاة مصدراً هاماً لتمويل الخزائن السلطانية بالمال ببيعهم المنصب القضائي او مصـادرة القضاء للاملاك لحساب السلاطين تحت اسم الشـرع، هـذا بالاضافـة الـى الصـراع بيـن القضـاء والامراء المؤيدين للسـلاطين كمـا سـمح فـي العصـر المملوكـي الاول (648-784هـ) السـماح للحاجب بممارسة بعض الاختصاصات.

ملخص الفصل الثالث وخاتمة

لقد طبق نظام الاقطاع الزراعي في العصرين الأيوبي والمملوكي كما أسهم أهل الذمة من ملاكين زراعيين وفلاحين في النشاط الزراعي في بلاد الشام ودفعوا ضريبة الخراج على أراضيهم وغلاتهم الزراعة، وكانت الدولة تعاقب البدو والفلاحين والعابثين.

وقد حرص بعض السلاطين على إزالة بعض المكوس والضرائب الظالمة التي لا تستند إلى سند شرعي على البساتين والغلة في بلاد الشام كصلاح الدين الأيوبي الذي عمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بضمان حقوق المُقطعين والمقطعين بان أعاد توزيع الاقطاعات وحدد الايجارات والرسوم والجبايات مع مراعات الظروف الاقتصادية المستجدة من جفاف وقحط ووباء وحروب وبلغ الازدهار الاقتصادي أوْجَه لتوفيره للأمن والاستقرار وعلاقاته الجيدة من مركزه وبدمشق مع الجمهوريات الايطالية مما عاد بالنفع العام والرخاء على الشعوب الشامية كما قامت الدولة الايوبية بجباية الزكاة وخصصت لها ديوان خاص لتصرف في أوجه الجهاد الشرعية كالاسطول وغيره.

واعتمدت الزراعة على الامطار على الرغم من وجود بعض الانهار فاقاموا السدود والنواعير وأنشأوا القنوات واستفادوا من أنهارها وكان غور الاردن ينتج قصب السكر لتصديره للخارج بالاضافة للارز في بيسان والجولة لتزويد دمشق وبصفة عامة فقد اشتهرت بلاد الشام كلها شمالها وجنوبها بانتاج الزيتون الوفير والعنب ومختلف الفواكه والخضروات والحبوب حيث وصلت إلى حد الاكتفاء الذاتي وصدرت ما يفيض عن حاجتها إلى البلدان الأخرى.

واصبحت الاردن بموقعها المتوسط مركزاً لعبور تجارة الترانزيت للقوافل التجارية مما دفع الأهالي إلى الاسواق التجارية الموسمية في الزرقاء والرمثا وزيزاء والتنية قرب الكرك ومعان والعقبة وجاءت بمردود اقتصادي مرتفع جداً، كما كانت عمان حاضرة تجارية مزدهرة في العصر الأيوبي بين بغداد ودمشق والقاهرة.

وقد كان لهذا الازدهار الزراعي الأثر الكبير في التوسيع نحو الانتاج الصناعي وخاصة استثمار الفائض من المحصولات الزراعية النقدية التي قامت عليها الصناعات مثل قصب السكر والقطن والعنب والقنب والزيتون، مما جعل سلاطين المماليك يحتكرونها بجعلهم الأغوار

إقطاعات خاصة بهم كالناصر داوود وأبنائه هذا بالاضافة للحمضيات والصبار والبندق والخروب والسماق وسائر الفواكه والورود والرياحين بالاضافة للثروة الطبيعية من الاشجار الحرجية والغابات والمراعي وكانت غارات العربان على المزارع والكروم والمقاثي تسبب أضراراً كبيرة تؤثر على الوضع الاقتصادي والغذائي مما دفع بعض السلاطين لتاديبهم بشن غارات عسكرية عليهم.

وهكذا كان للحروب الاهلية بين المماليك أثراً على الحياة العامة من تخريب المدن وقطع الطرق والنهب والسلب ناهيك عن الآفات الطبيعية من جموع الجراد الصحراوي والأوبئة التي كانت تهلك الحرث والنسل بالإضافة للجفاف وانحباس المطر.

كما طبقوا نظام الخراج بنوعية "خراج المقاسمة كالخمس والربع والثلث وخراج الوظيفة الذي يدفع سنوياً " على الأراضي الخراجية بحسب جودة الأرض ونوعية الماء التي تسقى بها تحت اشراف مباشر الخراج.

وكانت معظم أراضي الشام إقطاعات استغلال [عشر وخراج] حيث يقطعها السلاطين إلى الأمراء والاجناد مقابل تأديتهم للخراج إلى بيت المال.

وقبل الروك الناصري لبلاد الشام ومصر عام 713-715هـ/1313-1315م، كان للجوالي ديوان بينما أصبح جوالي كل بلد تضاف إلى متحصل خراجها بعد الروك الناصري.

وكانت أصناف الاراض الزراعية ثلاثة هي أرض الخراج، وأرض العشرة "الزكاة " وأرض الموات "التي لامالك لها" فيقطعها السلطان لمن يُحْيِها، فتصبح نوعاً من إقطاعات التمليك.

ومن طرق استغلال الأرض في العصر المملوكي عند الفلاح الشامي:

- طريقة الاستثمار الشخصي للمساحات الصغيرة بالعمل بنفسه أو تأجيرها مقابل مبلغ من المال أو المشاركة بين المالك والفلاح لقاء أجر عيني من منتوج الأرض.
- المزارعة باشتراك المالك "بالبذار" والفلاح "بالجهد".
- المساقاة: مشاركة بين رب الشجرة والفلاح لتعهده بالسقي والحراثة مقابل نسبة متفق عليها.

- المغارسة "عقد بين الطرفين لغرس الشجر مقابل حصة معلومة".
- المقاسمة: بين المالك والمزارع بنسبة متفق عليها حسب نوع الري للارض.
- التضمين: وهي دفع مبلغ من المال لقاء جني محاصيل الزيتون أو ثمار الفاكهة دون القيام باي عمل زراعي أخر وما زالت هذه الطرق شائعة منذ العصر الاموي وحتى عصرنا الحالي.
- تأجير الأرض مقابل مبلغ من المال بالاتفاق بينهما على تحديد نوعية المحصول في العقد وربما يشترط عليه أن يأخذ صاحب الأرض محصولاً من ناتجها لا مالاً.

وعرفت هذه الطريقة 'بالمزارعة أو المخابرة' ويلاحظ تشابه هذه الطريقة بطريقة التسليف النقدية على ثمار الاشجار كالكروم والزيتون بما نستطيع تسميته استثمار التمر مقابل تقديم المال قبل جني الشجر.

وبالنسبة للصناعات في جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي فكانت تقوم على الإنتاج النباتي والحيواني والمعدني لتوفر المواد الخام لها كصناعة الزيت والسكر والصابون والنيل والبلسم والحصر وطحين الدقيق والمنسوجات القومية والجلود والبسط والفحم النباتي والخمور وصناعة السلاح كالنفط والمراكب والسيوف والأقواس والكنائن والنبال والخشب المزخرف المنقوش، وصناعة التحف الخزفية والتعدين للحديد والكبريت والنحاس والرخام وصياغة الذهب والفضة وغيرها، وسبك المجوهرات والحلي وتزيينها والتكفيت" تطعيم معدن بمعدن أثمن' في عجلون والكرك وصناعة الحرير القائمة على تربية دودة القز في عكا وصور وقد انعكست اثار الازدهار الاقتصادية والسيولة النقدية على المنشآت العمرانية والمرافق العامة ورفع مستوى المعيشة للسكان كما مر معنا.

وبالنسبة للتجارة فقد تنوعت حسب الدول الحاكمة كالصليبيين الذي نشطوا التجارة مع جنوب أوروبا تلبية لاحتياجات الجنود والفرسان والسكان ففتحوا اسواقاً اوروبية جديدة تستقبل منتجات فلسطين الزراعية والصناعية وبالعكس وضربوا النقود، واستخدموا الحوالات المالية فأقيمت فروع لشركات الصيارفة في المدن الاسلامية تابعة لجنوة وبيزا في ايطاليا كما استخدمت الصكوك المالية من قبل فرسان الداوية.

وابتكروا طريقة الأوراق المالية الخاصة بتسجيل ما للعميل من المصارف CreditNots، كما أوجدوا وظيفة القنصل كوظيفة تجارية وسياسية فكان أول قنصل لجنوة في عكا عام 576هـ/1160م. ونلاحظ ارتفاع الاسعار ست مرات بعد خروج الصليبيين من البلاد للدمار الشامل الذي أصابها بالاضافة إلى إهمال الزراعة لأنه لم يعد يعنيهم تقدم البلاد اقتصادياً، فعملوا على تهريب العملات الصعبة كالذهب إلى أسواق اوروبا في البندقية ومرسيليا وبرشلونة فتدهورت كمية الذهب في الأسواق العربية وخاصة السوق الفلسطينية.

وهكذا نلاحظ الدور التجاري للجاليات الإيطالية في الصفقات العامة في الموانئ البحرية الشامية.

وبالنسبة للأهمية الإقتصادية لشرقي الأردن فكان يُمدُ مملكة بيت المقدس بالغلال والقمح أيام الصليبيين، كما كان طريقاً للتجار والحجاج بين دمشق وموانئ فلسطين وكانت خطاً دفاعياً لمملكة بيت المقدس الصليبية ضد أي تقدم اسلامي أو غارات القبائل العربية المجاورة، فعملوا على تحصين جنوبي شرق الاردن بالقلاع والحصون في الشوبك والكرك والطفية وسلع وايلة "العقبة" وجزيرة فرعون قرب ساحل البحر الاحمر.

ومن الأمور الجديرة بالذكر سماح الصليبين للتجار المسلمين بالمرور بالأراضي التي احتلوها بعد وضعهم مراكز جمركية "ديوان" على الجسور ومداخل الاودية وأمام الحصون.

وكان الديوان بمثابة خان لنزول القوافل والتجار والمسافرين وحفظ البضائع، وكانت ضريبتهم بمقدار دينارين وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس وتأثرت هذه الضريبة بضعف الصليبية وقوة المسلمين كما حدث زمن الملك المنصور قلاوون وولده الملك الاشرف خليل وبين الملكة "مدام مرجريت بنت هنري بن الإبرنسي".

وبالنسبة للتجارة الداخلية فقد تبادل أهل القرى والمدن السلع التجارية عن طريق المقايضة ولوحظ نشاط التجارة بين فلسطين وشرقي الأردن بعد إنشاء الظاهر بيبرس لجسر دامية فوق نهر الأردن بالغور، والذي اوقف له لاصلاحه ليكون معبراً تجارياً بين فلسطين وشرقي الاردن كما أشتهرت اربد في شمالي الاردن بأسواقها التجارية بين دمشق والقاهرة مع كثرة خاناتها وكانت العقبة سوقاً جنوبياً للاردن لعبور الحجاج المصريين والمغاربة والسودان وغيرهم،

وكانوا يدفعون الرسوم الجمركية في ديوان "بويب العقبة" وكانت السلع المستوردة: "التوابل والعطور والصمغ العربي، والورق، والحرير الصيني والنبل، والمعادن.

أما الصادرات فكانت أخشاب الصنوبر والخيول العربية والمنسوجات المصرية والدمقشية والتحف وكان ذلك نتيجة نتيجة تمتع منطعة شرقي الأردن بعلاقات تجارية وثيقة مع العالم الاسلامي في القاهرة ودمشق وبيت المقدس والساحل الفلسطيني وبغداد والحجاز، بالإضافة لعلاقاته التجارية مع اوروبا عبر البحر الأحمر ووفّر وسائل الراحلة للمسافرين والتجار والحجاج "كدار الطعم" و"القياسر" في عجلون شمالي شرق الأردن، لايواء التجار الاجانب بتعيين حراس لها من بني عقبة "عرب الكرك" و "بني مهدي" عرب البلقاء وتوفير الخانات مثل "خان العقبة" و"خان الحسا"و "خان القطرانة".

فأدّى اهتمام سلاطين الايوبيين والمماليك بتنشيط التجارة لتأسيس هذه الوكالات والخانات والفنادق والقياسر والأسواق والموانئ. وزاد المماليك بالاسواق المختصة بنوع السلع كأسواق عجلون مثل سوق الجلود والقطّانين واللحامين والحنطة والصاغة، وحوانيت الخبازين والطباخين ومحلات بيع الجملة "القياسر" التي استخدمها المماليك لاستثمار أموالهم بما يشبه اليوم تخطيط المدن الحديثة.

أماّ الأوزان فقد اختلفت من منطقة إلى اخرى مقدرة بالدرهم كالرطل والأوقية، وكان أثقلها رطل عكا وأخفها رطل دمشق وكان هناك الرطل العجلوني والكركي وبالنسبة للمكاييل فكانت المد والصاع وملحقاتها من الربعية والتمنية في الريف الأردني والفلسطيني والكباجية والمكوك والويّة والقفيز زمن المماليك.

وفي مجال المقاييس استخدم السكان 'الذراع' لقياس القماش و "ذراع العمل" لقياس المنازل والدور و"الفدان" للاراضي الزراعية والقصبة التي تساوي 7.5ذراع حديد.

كما لاحظنا أهمية معرفة الأوزان والمقاييس الأخرى لعلاقتها بالنقود وبالنصاب الشرعي لتقدير الحالات الاقتصادية وتفهم الحوادث التاريخية، وكان هذا من واجب الحسبة "البلدية اليوم" وغرفة 'التجارة والصناعة' لانها كانت تراقب العيارات في الأوزان.

وكان من ايجابياً الإقتصاد المملوكي بناء الجسور الحور وإصلاحها وشق القنوات الزراعية وبناء السدود والقناطر والسواقي في مختلف الأقاليم والنواحي وعملوا على توفير المال اللازم للمشاريع "الإنمائية الزراعية " كالدول الحديثة اليوم كما حدث زمن الناصر محمد بن قلاوون عام 711هـ/1311م. من أجل تحقيق هدف خدمة الأراضي الزراعية في ظل نظام الإقطاع المملوكي وذلك عن طريق تبرعات السلاطين والأمراء والتجار من أموالهم الخصاصة أو بإلزام كل المستفيدين من المشروع بدفع رسوم رمزية أو بفرض ضرائب على سكان الأقليم، أو من بيت المال العام.

ومن النتائج التي توصلنا اليها ارتباط الوضع الإقتصادي بطبيعة النظام السياسي القائم، فالأزمات الساسية كانت تسبب أزمات اقتصادية في الاسواق والحوانيت كما مر معنا. وكانت عامة الشعب 'الطبقة العامة' أكثر تأثراً بالأزمات الاقتصادية وخاصة ارتفاع الأسعار كما يحدث اليوم في الدول الحديثة وارتبطت الحالة الاقتصادية في جميع الأقاليم المملوكي ببعضها خاصة في أقليم الشام ومصر حيث يمتد الغلاء من الشام لمصر وبالعكس، فعندما تحدث مجاعة في مصر يبادر اقليم الشام بمده بالغلات اللازمة من القمح والذرة والفول للتخفيف حدة الآزمة، وهذا يؤدي إلى دوام الانشطة التجارية والفعاليات الاقتصادية بين إقليمي مصر والشام مما يؤكد النظرية القائلة بضرورة التكامل الإقتصادية العربية بالوحدة الشاملة والسوق المشتركة الضرورية لنمو الاقتصاد العربي اليوم وعلاج مشكلاته وعلى العموم فقد لوحظ بأن ظاهرة غلاء الأسعار في المجتمع المملوكي كانت الاكثر تكراراً لاسباب سياسية كالصراع على الحكم، واقتصادية 'فيضان النيل' واجتماعية "الظلم الاجتماعي وقطاع الطرق وصراع القبائل البدوية وعسكرية "الحروب الداخلية والخاجية" .

فافرزت بعض المظاهر الاقتصادية في مجتمع المماليك تأثيرات اجتماعية على مستوى الحاكم "الطبعة الارستقراطية من المماليك" والمحكوم من العامة العاملين والعاطين عن العمل بما نستطيع تسميتها بسلبيات الاقتصاد المملوكي بصور عديدة من الظالم الاجتماعي كاحتكار بعض ولاة الأقليم المملوكية شراء جميع المحاصيل الزراعية في الاقاليم بسعر منخفض مستخدمين صلاحياتهم وسلطاتهم لبيعه بسعر مرتفع لصالحهم، ومنهج الضمان "بدفع الضامن مبلغاً معيناً

من المال مقدماً مقابل ضرائب معينة مفروضة في أحد الأقاليم فيحصل زيادة لجيبه مما يزيد من معاناة الناس الذي سار عليه المماليك بهدف جمع الضرائب والمكوس، ويجوز لنا أن تتعجب من ظاهرة تأييد الوزراء للضامن أو الكفيل المتعهد بجميع الضريبة بطرق ملتوية جشعة إذ المفروض وقوف الوزراء مع الشعب لحمايته والسهر على راحته فأصبح من المتعذر على هؤلاء المضطهدين الشكوى للمسؤولين الرسميين لعدم وجود من يستمع إليهم فضاعت نداءات الاستغاثة التي كانوا يرجون الخير.

بالاضافة لشيوع الرشوة والفساد، وبيع الوظائف في فترات الحكم المملوكي مما أبعد الرجل المناسب عن المكان المناسب في السلطة، وبقيت طوائف العامة الفقيرة محرومة حقوق المواطنة، كما شاعت ظاهرة تزييف النقد كزيادة نسبة الرصاص والنحاس في الفضة وطرحها في الاسواق على أنها فضة خالصة كما حدث عام 749هـ/1938م، حيث توقفت الحياة بالقاهرة بسبب هذا الغش ولوحظ أيضاً في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي اعتداء الأمراء الأجلاب على ممتلكات الناس بل ونسائهم واموالهم كما حدث عام 768هـ/1967م، فتصدى لهم كبار الأمراء وقبضوا على زعيمهم الأمير تغري برقس وغيره من امرائهم ونفوهم من أرض مصر.

وبالنسبة للنقود وأثرها في النشاط التجاري الدولي بين اوروبا والشرق العربي فقد أدت الى ازدهار النشاط التجاري نتيجة لتداول نفوذ الحجاج الصليبيين والجيوش الصليبية حيث تطلبت الظروف المالية الجديدة تداولاً أسرع للعملة النقدية فابتكروا طريقة الأوراق المالية الخاصة برصيد حساب العميل في المصارف وتأسست البيوت المالية في جنوة وبيزا وانتشرت فروعها وأعمالها شرقي البحر المتوسط كما تأسست في جزيرة رودس وقبرص مصارف للايداع والتسليف للعسكريين الصليبيين كما استعملوا الصكوك " الشيكات الحالية":

واستمر الأيوبيون في استخدام نقود الصلبية المسكوكة من الذهب والفضة كالدينار والدراهم التي ضربها اللاتين البنادقة في فلسطين بكتابات عربية أطلق عليها العملة البيزنطية العربية "Byzantini Saracenati" وكانت هذه العملة المتداولة في البلاد الإسلامية تحمل نقوشاً عربية مقرونة بتاريخ هجري على الرغم من استياء البابا إينوسنت الرابع.

وكانت دنانير بلدوين الثاني بمدينة القدس ذهبية على وجهها صليب وقلعة على ظهرها بكتابات لاتينية تحمل اسم القدس. وزيفوا النقود العربية الدنانير والدراهم الأيوبية والفاطمية المضروبة بدمشق بتاريخ 641هـ/1243م باسم الخليفة العباسي المستنصر بالله.

وبالنسبة للنقود الأيوبية زمن صلاح الدين فكانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية المضروبة في كل من القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وحماة مقلداً النمط الفاطمي حيث نقش على ظهرها اسم الخليفة العباسي مضافاً إلى اسمه ومكان وزمان الضرب وعلى الوجه الثاني محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" أما دراهمه الفضية فقد عرفت برداءتها لارتفاع نسبة النحاس المخلوط بها مع الفضة. أما فلوس صلاح الدين فلم يظهر عليها اسم الخليفة بل ذكر اسم الملك الأيوبي فقط وكانت كل ستة فلوس تساوي درهماً فضياً " النقرة " وعمل الصليبيون على تقليد وتزييف النقود العربية الأيوبية بعد موت الملك توران شاه الذي انتهت الدولة الأيوبية بموته عام 648هـ/1250م. كأسلوب من أساليب المقاومة اليائسة خاصة وقد وصلوا إلى مرحلة الإنهيار العسكري والسياسي وقد أحدثت هذه الدراهم المزيفة 'اليافية' عام 658هـ/1260م مجاعة وغلاء شديد، وبيعت الدراهم المغشوشة بمقدار النصف.

أما نقود المماليك فقد كانت الدنانير والدراهم والفلوس ومثلت دراهم الفضة القاعدة النقدية في الغالب في بداية دولتهم وكانت شجرة الدر أول ملوك المماليك ضرباً للنقود نقشت عليها لقبها مصحوباً باسم الخليفة العباسي المستعصم بالله.

كما تميزت نقود عز الدين أيبك بعدها برمز 7 فوق اسمه بينما نقش المظفر قطز على نقوده الذهبية والفضية اسمه ولقبه عام 657هـ/1259م أما بيبرس فنقش على نقوده شعاره الجديد "رنك الأسد' ولقبه الجديد قسيم أمير المؤمنين.بينما شوهد على وجه دنانير قلاوون: اسم السلطان ومكان وتاريخ الضرب بالخط النسخ وعلى الظهر: "لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقلده سلاطين آل قلاوون من بعده.

وبالنسبة للفلوس فقد ضرب الناصر محمد 697هـ/1297م فلوساً خفيفة الوزن، كان الرطل منها يساوي درهمي فضة.

ويمكننا الاستنتاج من ذلك أن من أسباب الأزمات الاقتصادية ماكان يكتنزه الأمراء لأنفسهم ليضاعف من الكساد وعدم السيولة النقدية بما يسمىا اليوم بالتضخم فتضطر الدولة لتخفيض عملتها نتيجة لانفتاح الاقتصاد على الغرب وتحكم صندوق النقد الدولي باقتصادنا كما حدث في أواخر الدولة المملوكية عندما سحب الغرب الذهب من الأسواق بأسعار مغرية من الاسواق العربية وإعادة سكها (دوكات) وفلورين لإغراق الأسواق التجارية بنقودهم. واستمر هذا الغزو الإقتصادي الأيوبي لبلاد الشام ومصر حتى نهض السلطان فرج بن برقوق (801-815هـ) لمجابهته عام 803هـ/ 1400م وذلك بتحسين السكة العربية الاسلامية بضربه دنانير ذهبية "السالمية' أو دينار فرج السالمي.

وقد لوحظ على السياسة الاقتصادية للمماليك بنزعتهم إلى السيطرة الاقتصادية بتوجيه الاقتصاد لصالحهم وزيادة ثرواتهم كما لاحظنا توزيع الارض إقطاعات عسكرية لاستغلالها لإعالة أسرهم.

ولكن بذخهم واسرافهم أخل بالميزان التجاري مما دفعهم لاحتكار التجارة ورفع الاسعار وفرض الضرائب والأتاوات التي عانى الشعب منها كثيراً فزادت الفوارق الطبقية بين الاسرة الحاكمة " الطبقة الارستقراطية' وعامة الشعب.

ولوحظ ازدياد الترف أيام المماليك لغنى بلاد الشام ومصر وتركز اسواق التجارة بين الشرق والغرب، فكان ذلك سبباً لتغنيهم في البذخ والترف والشراء مثل ترصيع المماليك لآنية شرابهم وطعامهم بالذهب والحجارة الكريمة واستخدموا في مجالس شرابهم ولهوهم آنية وتماثيل ودُمى من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة واللؤلؤ كما رصعوا عصائب شعور نسائهم وثيابهم بالجواهر واللآلئ كما لبسوا الثياب المزخرفة وتسربلوا بالحرير وكانت في خزائن بعضهم بملايين الدنانير مما أثر على الميزانية العامة للدولة وضعف اقتصادها.

وهكذا نلاحظ عدم غياب قوى أجدادنا العرب عن الساحة بكيانهم الإقتصادي المتين المتجاوب مع كل اقتصاديات العالم كما نأمل من خلال دراسة النقود إذكاء روح الإنتماء ورؤية ملامحنا الأصلية ذات الجذور المديدة.

وتعزيز الوعي الآثاري عند كل فرد لكي يقدر كل قطعة خلفها لنا الأجداد من مسكوكاتهم وأدوانهم ليكون سنداً قومياً ونزاثاً علمياً، حتى إذا وصلنا بهذا الوعي درجة الإعتقاد باستحالة التفريط أو المساس بها نكون قد نجحنا في تربية جيل قادر على العطاء بالوراثة الحضارية خاصة ونحن نعيش في خضم تيارات ومؤسسات وكيانات اجتماعية وسياسية تحاول جاهدة طمس ملامحنا التاريخية.

ملخص الفصل الرابع وخاتمته

لقد غرق العالم الاسلامي وخاصة العرب في أواخر أيام الدولة العباسية في صعوبات التفتيش عن صنع جديدة لتركيب اجتماعي يؤمن استقلالية الذات العربية من جهة وانتمائها الخلاق لركب الحضارة الانسانية من جهة ثانية، فكانت أزمة تشمل مختلف انواع العلاقات السياسية والاقتصاية والثقافية والروحية نتيجة التمازج الحضاري للشعوب الاسلامية المتعددة الجنسيات من أتراك وفرس وعرب ومماليك وصليبيين ومغول.... فكانت بلاد الشام وخاصة اطرافها الجنوبية بحاجة لهمة قوية وجرأة متحدية للغزو الثقافي والفكري والتأثير الحضاري للصليبية والمغول الخطير على الوجود والتراث، للوقوف أمام هذا المد الأوروبي والمد الهمجي المغولي المتصمم باستمرار عن طريق الاحتلال والتدمير ونهب التراث والكتب العلمية لنقلها للقارة الأوروبية وحتى لا نكون تحت وصاية غيرنا، وللمشاركة في بناء الحضارة الانسانية في العصر الحاضر ولنعتبر من دراسة تلك الاحداث المشابهة لما تمر به الأمة العربية والاسلامية اليوم. وبالنسبة للحياة الاجتماعية في نهاية الخلافة العباسية والعصرين الأيوبي والمملوكي انتقل المجتمع من مجتمع زراعي إلى مجتمع إقطاعي أعجمي ذي خصائص تجارية وصناعية بارزة أثرت على التركيب الاجتماعي وكانت سبباً في موجة عارمة من التذمر والاضطراب الاجتماعي خاصة في العصر المملوكي.

كما أدى التطور الثقافي وانتعاش الآراء المختلفة القديمة والحديثة وتصادمها إلى ظهور حركات فلسفية منحرفة عن الدين الاسلامي وربما كانت هذه الحركات الهرطقية الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التذمر في مجتمع ديني في العصور الوسطى.

وبالنسبة للمجتمع الاردني والفلسطيني في ظل النظام الاسلامي فقد كان سعيداً لاوجود للفوارق الطبقية والنظرات الاستعلائية والحسد والاحقاد مما يشير الى النسيج المتماسك للمجتمع والمترابط بوشائج من أنبل الأحاسيس الإنسانية والقيم الإيمانية والتعاطف الإجتماعي.

وبالنسبة للقبائل العربية التي شكلت مجتمع جنوب بلاد الشام كانت تتمسك بتقاليد الأصالة والشرق وتحرص على التراحم والتعاطف والو فاء الذي نشبهه ما يكون بالضمان الاجتماعي الذي عرفته الانظمة الحديثة، حيث كان شيخ القبيلة أو كبير العائلة يتفقد

المعوزين، ويأخذ بيد المحتاجين وخاصة عند موسم الحصاد "والمنايح" حيث ينالوا نصيبهم من الزروع والثمار والشياه كمنوحة ينتفع بلبنها وصوفها، بالاضافة إلى وجود الدواوين والمضافات وبيوت الشعر التي كانت مفتوحة للقريب والبعيد مما أشاع بين الناس ذلك الاحساس النبيل بوحدتهم وتآلفهم، بعيداً عن الاستغلال والطمع المادي.

وهكذا نرى مجتمع جنوب بلاد الشام في ظل هذه القيم النبيلة حيث عاش الناس في بيوتهم المتواضعة، وفي مجتمعهم الزراعي والرعوي أكثر سعادة واعمق طمأنينة مما ساعدهم على بناء وطنهم الحبيب حتى جاء الغزو الصليبي والمغولي وفعرّضهم للمذابح والإبادة والهجرة من منازلهم هؤلاء الغزاة الذين لهم إلا القتل وتجميع الأموال فمزقوا النسيج الوطني للمجتمع وسيطروا على كل موقع اقتصادي وسياسي. فاضطر الطيبون من رموز القبائل الاردنية لبيع مالديهم من عقار وغيره لمواجهة الظروف الجديدة والانفاق على استمراية فتح دواوينهم ومضافاتهم لاستقبال الناس وإكرامهم سيراً على سنة الآباء والأجداد أصحاب المروءات المشهورة والنخوة العربية الأصيلة، وكادت هذه الصفحة المشرقة من سفر الآباء والجود والكرم ان تنطوي في هذا المجتمع أمام هذه الهجمة الشرسة.

وزاد من هذه الكارثة الاجتماعية سيطرة الاتراك السلاجقة والاكراد والمماليك على مقاليد الحكم والتحكم في شؤون المجتمع فصارا أمرهم مطاعاً وقولهم مسموعاً، وصار الناس يميلون إليهم ويتقربون منهم مما أحدث شرخاً في الحياة الاجتماعية بعد ان استحوذوا على كل مصدر رزق ومجال استثمار مما حول أبناء العرب الى عبيد أرقاء في المزرعة التي كانت وطناً أبياً حراً ذا سيادة مستقلة فانتقلوا الى عصر جديد لا عهد لهم به من قبل وأصبحت المادة والجاه هي المقاييس الاجتماعية كما قال الشاعر:

رأيت الناس قد مالـــــوا　　　إلى من عنده مـــــال

ومـن لا عنده مـــــال　　　فعنه الناس قد مـالوا

وأصبح مجتمع جنوب بلاد الشام بوجه عام في العصريـن الأيوبـي والمملوكـي مجتمعاً طبقياً طغت على وجـه الفوارق الاجتماعيـة منذ زمـن الصليبيـن حيث انقسم المجتمـع أيـام الفرنجة إلى ثلاثة طبقات العليا والوسطى والدنيا .

وقد شملت الطبقة العليا الاسر الحاكمة من النبلاء والفرسان والمحاربين الفرنجة.

والطبقة الوسطى وهم أصحاب الحرف البسيطة والتجـار الإيطـاليين والمسلمون سكان البلاد الأصليين والعبيد وأما الطبقة الدينا فكانت من الأقنان والعبيد يباعون ويُشترون من قبل الإقطاعيين الفرنجة ومنهم الأقليات اليهودية.

اخلاق العصر:

لقد اتصف الزنكيون بعدم التهاون في أمر المنكرات، وشدة الغيرة على النساء، وتحريـم الخمرة وخاصة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين.

أما صلاح الدين فقد اعرض عن أسباب اللهـو والمجـون فعندمـا اسقط الدولـة الفاطيمـة وجد في قصورهم عدد كبير من الجواري بما يقدر ب "2000" نسخة من الغلمـان والجـواري حيث باعهم خلال عشر سنين.

أما بالنسبة للناس فقد كان بعضهم يجهر باللهو والمجون فـي عهد ملك ويستترون فـي عهد آخر، هذا بالاضافة إلــى تعـاطي فقراء الصوفيـة فـي بـلاد الشام الحشيش ممـا أغضب الظـاهر بيبرس مـن هـذا الانحـلال الخلقـي، فـأمر بـاغلاق الحانـات وهدم المواخير وحـرق الحشيش وأهراق الخمور.

ولكن المدمنين على الحشيش والخمرة لم تمنعهم هذه الاجراءات الشديدة، وفضّل النـاس الحشيش على الخمرة، لرخص أثمانـه، وتغنـى الشعـراء بـه، ونسبوه مكتشفه شيخ الصوفيـة حيدر.

وربما سهل اقبالهم عليه عدم ورود نص صريح عن تحريمـه، حتـى أن بعـض القضـاة أفتى بجواز أكل الحشيش.

كما انتشرت الزندقة بسبب الاحتكاك بين الدين والفلسفة الأخرى، مما أدى لظهور جيل من الحكماء فاسدي العقائد، لتهاونهم بالاديان السماوية. ومساهم في انتشار الزندقة، لتهاون بعض السلاطين، انطلاقاً من حرية الرأي والاعتقاد، وقد تأثرت الفرق الاسلامية السنية والشيعية بالزندقة وانبرى بعض العلماء ايام صلاح الدين الأيوبي لمجابهة الزندقة، خوفاً من فتنة الناس في الوقت الذي تجابه به الأمة الاخطار الصليبية الخارجية فأفتوا بقتل الزنادقة.

وهكذا نرى انشار الاباحية نتيجة لشرب الحشيش والخمور والزندقة على الرغم من تشدد رجال الدين ومحاولة السلاطين القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بفرض عقوبة الموت، مما جعل الاباحيون يتخذون من الصوفية ستراً لهم.

الأعياد الدينية:

يحتفل المسلمون حتى الآن باعياد الفطر والاضحى والمولد النبوي الشريف والهجرة والإسراء والمعراج وقد بذل السلاطين الأموال الكبيرة لاحيائها مع عطفهم على الفقراء والمساكين بهذه المناسبات بمد الأسطمة لهم وتوزيع الحلوى والدراهم عليهم، كما شارك المسلمون الطوائف الاخرى في أعيادهم.

أما عن الحالة الاجتماعية زمن الايوبيين فقد اختل التوازن الاجتماعي نتجية انشقاق الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين وتقسيمهم مملكته الممتدة من مصر الى الشام والموصل واليمن والحجاز، وتبع ذلك اضطراب الامن الذي نتج عنه اختلال القيم الأخلاقية لكثرة الدسائس في البلاط الملكي وقصور الأمراء وامتدت هذه الدسائس لطبقات الشعب مما أدى لضعف عصبية أسرة صلاح الدين واختلال نظامها مما دفعها للاستعانة ببعض العناصر الاجنبية كالشركس والاتراك والصقالبة والروم ممن دخلوا في الاسلام فأخذوا يتحينون الفرص لاستعادة أمجادهم السابقة عن طريق الإحتيال والدس وإبقاء الفتنة بين رجال الأسرة الحاكمة أو بين الشعب وطبقاته. فكان لهم الأثر القوي في الحياة الاجتماعية حين أصبح الملوك والأمراء الأيوبيون ألعوبةً في ايديهم، كما أضحى الشعب مدافعاً عنه من الغزاة، فكانوا حماة بلاد الشام ومصر فطردوه والمغول وشردو الصليبيين الذين فرضوا أنظمتهم وقوانينهم وأحوالهم الاجتماعية على البلاد وبالنسبة لأفراد الشعب، فأغلب الظن أنهم كانوا مسوقين

كالقطعان يعملون على تقليد أمرائهم من الأيوبيين والمماليك، لانهم أصبحوا في نظرهم القدوة الصالحة على الرغم من فسادهم وسوء أخلاقهم، الاّ من رحم ربك.

وقد كان للماليك تقاليد وأحكام وشارات يتميزون بها عن غيرهم، وكانوا عدة طبقات، لكل طبقة شارات خاصة بها مثل صور الأسد والفهد والنمر والصقر والطاووس وطبقة أخرى شاراتها صور الزهور كالزنبق والاقحوان واليسمين والقرنفل، وطبقة شاراتها صور بعض الأدوات الحربية كالسيوف والسناجق والفؤوس والخناجر ولكل طبقة لباس ملون خاص بها، وقد ساهم معظم امراء الأيوبيين والمماليك في الرقي الاجتماعي بين طبقات الشعب لسعيهم الى مجاراة الخلفاء الفاطميين والعباسية الذين ورثوا أرضهم وملكهم وحضارتهم ايضاً ومن الملاحظ أن الترف قد ازداد أيام المماليك لغنى بلاد الشام ومصر وتمركز أسواق التجارة من الشرق والغرب فكان ذلك سبباً لتغنهم في البذخ والترف والشراء.

وبعد نقد وضح لنا من هذه الدراسة المستفيضة أن المماليك البحرية كانوا مزيجاً من جنسيات متعددة ربطت بينهم العبودية "رفيقاً أبيضاً" باعهم التجار في سوق النحاسة الى ملوك الأيوبين ثم إلى سلاطين المماليك من بني جلدتهم في مصر، حيث قامت فلسفة حكمهم على القوة العسكرية والدين باسم الخلافة العباسية الاسمية وعدم توريث العرش لانه من حق الجميع وسادت فترة حكمهم الصراعات السياسية والعسكرية الدموية للوصول الى الحكم، كما ولّد اعتمادهم على أهل الذمة في أجهزة الدولة استياءً شعبياً ادى للثورة ضد هؤلاء العبيد الغرباء فقمعوها بالعنف ليفرضوا هيبتهم الداخلية وسيطرتهم الإقتصادية بتوجيه الإقتصاد لصالحهم وزيادة ثرواتهم وطغت الفوارق الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية الحاكمة وعامة الشعب وفي ظل تلك الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية، طغت على سطح الأحداث الأمراض الاجتماعية بين أفراد الطبقة الأرستقراطية كالإدمان على المخدرات "كالحشيش والافيون وادمان الخمرة" والزنا والشذوذ الجنسي علاوة على الرشوة والاعتقادات الباطلة في السحر والتنجيم والاعتقاد بمساعدة الأولياء والمشايخ، والتطير والتشاؤوم.

هذه الامراض الاجتماعية انتقلت إليهم ممن سبوقهم ولكن الجديد وضع تنظيمات لادارتها وتحصيل الضرائب عليها مما اسهم في انتشار الرذيلة والانحلال الخلقي تحت

إشراف الدولة وحمايتها. حيث شجعوا صناعة الخمور وتجارة الحشيش وتعاطيه مما أذهبت هيبتهم وباؤا بغضب من الله ورسوله والمسلمين أيضاً فعاقب الله سلاطينهم بقصر مدة حكمهم ممن كانوا من المدنين والمحلين اخلاقياً والشاذين إذ لاحظنا العلاقة العكسية بين شدة الإدمان ومدة الحكم كما مر معنا ونتج عن تفشي الرشوة بين السلاطين والأمراء وموظفي الدولة واجهزتها عدم وجود الموظفين الأكتفاء وأهملوا مبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب فكان همهم من يدفع أكثر لتولي هذه المناصب فعمت المحنة الأخلاقية ببيع الوظائف والولايات والإقطاعات فانتفخت جيوبهم.

لذا نخلص إلى القول بأن رفعهم شعار الخلافة العباسية والاحتماء وراء سياج الدين الظاهري باظهارهم الاهتمام بالعلماء والفقهاء والقضاة والأوقاف والمذاهب الاسلامية كان تخطيطاً ذكياً لكسب الشرعية والطاعة والولاء حيث لاحظنا زيف عقيدتهم بالاعتقاد في الاؤلياء والمشايخ والصالحين من الاحياء والأموات والسحر والتنجيم والتبشير بعلم الغيب فناصروهم للتصدي لأفكار فقهاء السنة ببدعهم، كما أشرف المحتسب على شؤون المنجمين الذين قرّبهم السلاطين لمجالسهم واستشارتهم في أمور السمتقبل، هذا بالاضافة إلى الرقي والتمائم والأجرار التي يقوم بها المشعوذ من طقوس الدجل وضرب الرمل، وكان من مظاهر انحراف معتقداتهم التمسح بالأضرح والقبور، فاستطاع تيار الفساد الخلقي هذا إلى جر بعض العلماء والفقهاء. وقد تصدى فقهاء أهل السنة لهذه الأوضاع الفاسدة والمعتقدات الباطلة فنصحوا السلاطين وطالبوا بمنع المنكر والغاء تنظيمات حمايته تمشياً مع الشريعة الاسلامية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فعمل بهذه النصائح قلة منهم كالظاهر بيبرس والناصر محمد قلاوون الذين عفوا عنها وتابوا باصدار مراسيم يمنع تدخين الحشيش وإراقة الخمور وإغلاق بيوت المنكرات فكانت اجراءات بيبرس شديدة حتى أمر بنهبها.

والحقيقة تقول بأن المجتمعات تمرض كالأفراد ببعدها عن كتاب الله وسنة رسوله العلاج الشافي لجميع هذه الأمراض الاجتماعية لان الحضارة الاسلامية توازن بين مطالب الفرد الروحية والجسمية وتعالج جميع القضايا لأخلاقية، وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ويصلح به خلقاً كثيراً انطلاقاً من توجيه الرسول الكريم: " كلكم راع وكلكم مسؤول

عن رعيته" ففي ظل المناخ الاجتماعي يكون الخروج عن الدين والأخلاق أمراً طبيعياً كما نشاهد اليوم في مجتمعاتنا الاسلامية التي تأثرت بالحضارة الوضعية الغربية وابتعدت عن نغمة الحضارة السماوية التي خصها الله بها التوفيق الهداية الشعوب الاسلامية وتمسكها بدينها للوصول الى كمال البناء النفسي والخلقي والله الموفق وبه المستعان.

كما أمر بيبرس عماله في كافة المقاطعات بتنظيم الحسبة والتشديد على أهل الغش والدجالين والأمر بالمروف والنهي عن المنكر، ومراقبة الأسعار وتحديد الأرباح بالإنصاف والعدل بين المشتري والبائع.

ونتيجة لهذه الاوضاع الاجتماعية أكثر أهل الوعظ والارشاد بتأليف الكتب والرسائل لدعوة الناس للخير والابتعاد عن الشر، أمثال عبد الرحمن بن نصر الشيريزي589هـ صاحب كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) تعرض فيه لمسائل المحتالين وأنواع غشهم ومنهم ابو الفضل جعفر بن علي الدمشقي مؤلف كتاب (الاشارة الى محاسن التجارة) بين فيه تدليس المدلسين ومنهم الامام الكبير تقي الدين ابن تيمية الحراني الدمشقي المتوفي (728هـ/1330م).

كما لوحظ تفاوت شدة الامراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر والشام وإن اتسمت محصلتها بانتشارهان فلم تكن تلبث أمور الفساد أن تعود إلى سيرتها الأولى بزوال سبب ابطالها من تغيير السلطان أو الأمر القائم يها وبمجرد أن تنقشع الغمة، حيث كانت الكوارات تفسر على أساس من الدين والأخلاق وأن مرجعها غضب الله من انتشار الفسق.

ولوحظ ايضاً أن عملية المكافحة اقتصرت غالباً على أمراض الفساد الخلقي دون المعتقدات الباطلة نظراً لأنّ الأخيرة أمراض نفسية ارتبطت بنفوسهم ولم تكن بحاجة لاعتراف الدولة أوقيامها في إلغائها إلا ما كان أحياناً من عقاب السحرة والمنجمين لما نُسب إليهم من الإضرار بالحريم السلطاني وإفساد حريم الناسن بالاضافة إلى أن اساليب الدولة في معالجة الأمراض يبدو أنها انسحب عليها روح العصر من البساطة والارتجالية.

اما بالنسبة للطبقة العامة فقد تعرضت للظلم والاضطهاد الجماعي هذا وقد ارتبط وضعهم الاجتماعي بالاحوال الاقتصادية المضطربة حيث كانوا أكثر الفئات المتضررة من الغلاء وارتفاع الأسعار وإغلاق الاسواق الذي كان يسبب لهم المعاناة والعسر والضيق إذا اشتغل بعضهم بالأعمال الحقيرة والحرف المتواضعة فكان معظمهم في حالة فقر مدقع كما عانوا من مصادرة ممتلكاتهم، وإجبارهم في أعمال البناء والتعمير والاعتداء على نسائهم على أيدي كبار الإداريين في الدولة، وحرمانهم من وسائل اللهو البرئ في الأعياد والمناسبات الدينية.

وهكذا نرى حرمان العامة من الرعاية الاجتماعية وفقدانهم الأمن والاستقرار نتيجة لإهمال شؤونهم وعدم احترامهم كبشر حيث كانوا ميداناً خصباً للظلم والتعسف الأمر الذي ولد عندهم الإحساس والشعور بالظلم والمرارة الأمر الذي دفعهم للثورة والتمرد على السلطة الظالمة والتي كانت تتاجر بارزاق الناس وفرض الضرائب بالاضافة لفرض الأسعار، ناهيك عن بيع الوظائف الإدارية لمن يدفع أكثر، فكانت النتيجة عدم تحقيق العدالة الاجتماعية الضرورية والتي جاء بها ديننا الحنيف لأجل كرامة الفرد وطمائنينة النفسية وتوفير الحياة الكريمة لأفراد المجتمع عن الاجتماعي والسياسي في ظل حكم المماليك، وبالمقابل فقد شكلوا خطراً في كثير من الأحيان على أصحاب السلطة من كبار الأمراء والولاة والمحتسبين وجامعي الضرائب كردة فعل على ظلمهم واضطهادهم لهم بتوزيع النقود والثياب والطعام عليهم بالإضافة الى تعاطف القضاة وعلماء الدين معهم. لموازرتهم في رفع الظلم عنهم حيث أظهرت بعض الحوادث خشية كبار الأمراء المماليك الأوليجاريكة من تجمعات العامة بما يشبه اليوم "التكتلات الحزبية المعارضة" فعملوا على تهدئة خواطرهم واستنكار أفعال الولاة بهم وعزلهم كما حدث عام 735هـ/1334م، عندما عزل الناصر محمد النشو ناظر الخاص الذي عانت منه مختلف الطبقات الاجتماعية. وكان ملجؤهم الوحيد في موسم الكوارث الطبيعية والسياسية والإقتصادية المساجد للتضرع إلى الله أن يرأف بحالهم ويرفع عنهم البلاء كما حدث عام 702هـ/1302م.

كما تكون وسيلة لإعلام السلطان بما يحدث في المجتمع لمساعدتهم، هذا بالاضافة إلى الإيمان القوي الذي يمثل الركيزة الاساسية للتقرب من الله أثناء الأزمات سعياً وراء الراحة النفسية، حتى تقوم الدولة بإصلاح الأوضاع العامة، فكانوا يكثرون من ذكر الله واستغفاره.

وكانت النتيجة المتوقعة لتفشي الأمراض الاجتماعية المذكورة بين الطبقة الاسقراطية الحاكمة الانحلال الخلقي في الطبقة الحاكمة، التي تتربع على قمة الهرم الاجتماعي، التعجيل في سقوط دولة المماليك البحرية، إضافة للعوامل الأخرى من السيطرة والتسلط والظلم والجشع والبذخ والترف ونظرة الشعب لغربة الحكام وأصولهم الوضعية وعزلتهم عن الشعب وثورة الأمراء وتمردهم بمشاركة العامة والعربان والتركمان والتي انتهت بتسليم برقوق العثماني زمام السلطة وبزوخ نجمة وإسقاط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك الجراكسة.

والنسبة لمعاملة الصليبيين لأهل الذمة فقد استبعدوهم من الخدمة في الدواوين الحكومية لنشاط الحركة الصليبية التبشيرية آنذاك، خاصة بعد تجنيدهم لكبار كتاب النصارى في أواخر العصر الفاطمي للتجسس لحسابهم.

هذا بالاضافة الى نظرة الحركة الصليبية في الاندلس للمسلمين واليهود كأعداء مما دفع يهود الأندلسي للهجرة إلى مصر في العصر الأيوبي وكان من أشهرهم طبيب صلاح الدين الأيوبي "موسى بن ميمون" الذي أعاد صياغة الفكر اليهودي متأثراً بالعقيدة الاسلامية.

أما معاملة صلاح الدين الأيوبي لهم فقد عاملهم معاملة حسنة وعملوا في دواوينه وكان طبيبة منهم وعاشوا في أمن واستقرار كما كانت معاملة المماليك لأهل الذمة حسنة منذ زمن الملك المنصور قلاوون وابنه الناصر إذ أصدر قلاوون عام 684هـ/1286م مرسوماً بتعيين ابن المهذب رئيساً للطائفة اليهودية.

مما يشير إلى اهتمامه بجيمع رعاياه ولحفظ الأمن والاستقرار، مع الأخذ بالاعتبار عدم تساهلم مع أهل الذمة عند خروجهم على القوانين والمواثيق والعهود كما حدث زمن ابنه الناصر عام 721هـ/1321م. إذ فرض على نصارى الوجه القبلي بمصر" صعيد مصر" وألزمهم بتغيير لباسهم الى لبس العمائم والجباب الزرقاء والزنّاد المشدود في وسطهم، ومنع توظيفهم، وجعل عقوبة الإعدام لمن يخالف هذه الأوامر.

ملخص الفصل الخامس وخاتمته

لقد اتضح لنا من خلال دراسة الحياة الاجتماعية من حيث طبقات المجتمع بما فيها الطبقة الحاكمة من السلاطين والأخرى، حيث لاحظنا وجود مذاهب دينية متعددة مضارعة كالتصوف والزندقة والاباحية، والتي كان لها الأثر الهام في الحياة الإجتماعية.

كما بحثنا في الحياة الفكرية لهذه الدول المتابعة الثلاث التي تداولت فوجدنا الكثير من المدارس ودور العلم، مما أدى لازدهار الثقافة وكثرة العلماء، والكتب المؤلفة والمصنفة في مختلف النواحي الدينية والفكرية ومما تجدر الإشارة إليه أن الحياة الفكرية لم تكن منفصلة عن سائر الأقليم العربية الأخرى، محققة الوحدة الفكرية بين الشام ومصر من حيث تبادل العلماء والأدباء وتنقلهم فخلفوا ثروة أدبية تراثية في الشعر والأدب بفروعه المتعددة منذ الاحتلال الصليبي الذي رافقه نمو الشعر الحماسي ذي المسحة الدينية ثم ترعرع وازدهر في العصرين الأيوبي والمملوكي بالاضافة لفروع اللغة الأخرى وخاصة كتابة الإنشاء التي وصلت إلى أرقى درجاتها في العصر المملوكي بظهور الموسوعات الأدبية للاصفهاني والقلقشندي والنويري وابن منظور.

كما نوكد على أن جماعة الباطنية من أصحاب المذاهب المختلفة كانوا باستمرار ضد المسلمين وبهذا تتفق اهدافهم مع الصليبيين واليهود وخصوم الاسلام، كما كانوا من أبرز العناصر في المنعطف الخطير والأخير الذي مرت به الخلافة العباسية الذي يعتبر بداية النهاية حيث تأمر الوزير الباطني ابن العليغي وسلم العاصمة لهولاكو 656هـ/1258م، والذي قضى على الخلافة العباسية التي دامت حوالي الخمسة قرون كما قُضيَ على الباطنيّة وبذلك انتهى دور الباطنية الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الشرق الإسلامي.

ويكتفي الاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ عن هؤلاء حيث روى الأمام زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين (عم جعفر الصادق) إذ رُوي عنه في كتاب "الجوار العين" لنشوان الخميري، ص185، قال: ﴿انه سيتكون قوم يدعون حنّا، لهم نَبْزٌ يُعْرفون به، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون﴾.

وقد شهدت جنوبي بلاد الشام انحساراً للحركة العلمية منذ القرن الرابع الهجري بسبب الظروف السياسية الانفصالة كالحمدانية والاخشيدية والفاطمية وبروز حركات ثورية كالقرامطية، وعاد النشاط الثقافي نسبياً الى هذه البلاد خلال القرن الخامس الهجري إلى أن أحتل الصليبيون القدس في أواخر القرن الخامس الهجري الذي أوقف نشاطه الفكري حتى حرره المسلمون عام 583هـ على يد صلاح الدين الأيوبي.

كما أثر الصراع السياسي بين بغداد والقاهرة على الحركة العلمية الثقافية، ومهد الطريق أمام الحملات الصليبية دون عناء فاحتلت القدس والساحل والشوبك والعقبة والكرك وغيرها من البلاد، الأمر الذي دفع علماء هذه البلاد للهجرة الى عواصم الاسلام الأخرى كالقاهرة ودمشق وبغداد فافادتهم علماً وعادت شعلة الثقافة بعد زوال الاحتلال الصليبي والصراع المذهبي وقد لاحظنا خلال هذه الفترة ان فلسطين لم تشهد انحساراً ثقافياً من ذلك النوع الذي أصاب الأردن، إلا بعد الإنحسار الثقافي الذي امتد أكثر من مائتي سنة في الاردن إلى ان تاسست إمارة الكرك في جنوبي الاردن على يد الناصر داوود بن المعظم عيسى. الذي كان يحب العلم والعلماء ويحترمهم ويشجعهم، ويجالسهم ويغدق عليهم، لانه كان عالماً ومصنفاً وأحاط به الفقهاء والأدباء والمؤرخين ويقال أنه أول من أنشأ خزانة كتب بالكرك بنفسه، كما أدت سياسة الملوك والسلاطين الأيوبيين والمماليك إلى الاشتغال بالعلم والأدب والواقع أن الدراسات التاريخية في هذه المنطقة قد تأثرت بعلوم الجغرافيا والفلك والفلسفة وكَتَبَ في التاريخ فقهاء ومحدثون بالاضافة للفلاسفة فارتقت العلوم في الأردن ونشطت بذور الحياة العقلية كالدراسات الفلسفية لأول مرة على يديه.

وقد تعرضت الأمة العربية الاسلامية في بغداد والشام ومصر عبر تاريخها لحروب ثقافية لمحو الارض حيث أغرقوا مكتبة بغداد في نهري دجلة والفرات، ليس بهدف العبور فوقها ولكن بهدف محو محتوياتها من علوم وثقافة راسخة ومنح هويتها الاسلامية، ذلك لأن المخطوط يمحى بسهولة بالماء لانه مكتوب بأحبار مائية فتقهقرت الحضارة باتجاه بلاد الشام ومصر لمدة قرنين ونصف طيلة حكم المماليك (648-922هـ/1250-1517م).

وكان من حسن حظ المسلمين في هذه الحقبة وجود سلطة المماليك القوية في مصر التي صدت الهجوم المغولي في عين جالوت الخالدة، وشعرت مصر ان الأمة في خطر فشجعت العلماء على تدوين المخطوطات والشروح والمجلدات منذ القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي حيث قدم معظم العلماء العرب للاستقرار في مصر.

فقد ظهر عدد كبير من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين والعلماء واللغويين وغيرهم ومؤلفات حفظ التراث كصبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، بالاضافة للمخطوطات الموسوعية مثل مسالك الابصار لابن فضل الله العمري والوافي بالوفيات للصفدي، وزبدة الفكرة لبيرس المنصوري، وعقد الجمان للعنين...الخ ، كما وجد علماء موسوعيون أثروا حقول المعرفة الانسانية كالسيوطي وظهر كذلك الكتاب الديوانيون أمثال : محي الدين بن عبد الظاهر كاتب بيبرس وقلاوون وغيرهم من السلاطين وامتاز أسلوبهم بالبلاغة والفصاحة واستخدام المحسنات البديعية والسجع.

كما اشتهر هذا العصر بمؤرخين الذين عاصروا الأحداث فأورثونا وثائق اساسية لدراسة التارخي المملوكي كابن الفرات الذي أرخ حتى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.

لذا يعتبر سلاطين المماليك المنقذون للحضارة الاسلامية من دمار المغول والمساهمة في ازدهارها ببلاد الشام ومصر، حيث أنهم قلعوا الجذور الصليبية والمغول من بلاد الشام واحيوا الخلافة العباسية في القاهرة، وأقاموا علاقات اقتصادية وسياسية وتجارية مع الدول المجاورة.

ومما يؤسف له استغلال بعض الباحثين والكتاب والمؤرخين سماحة الاسلام في حرية الفكر والرأي والبحث العلمي فتطاولوا عليه بفهمهم الخاطئ فأخذوا يفسرون الآيات القرآنية تفسيراً خاطئاً بما يوافق مع أهوائهم، وتحقيرهم للسنة النبوية ومطالبتهم للاعتماد على القرآن الكريم وحده. " قاتلهم الله ألى يؤفكون" وكان ذلك لتأثرهم بما كتبه أساتذتهم من المستشرقين فأخذوا التوحيد وراثة وليس دراسة فأصبحوا بالفعلة في دينهم وحياتهم.

ونرد عليهم بأن حضارتنا إسلامية وبدون الإسلام سنتحول إلى شعوب ممسوخة لا هوية لها وسنذوب مع الآخرين، لذا يجب أن تتوقف الصراعات الفكرية المفتعلة للمحافظة على هويتنا العربية والإسلامية حتى لا تنشا الأجيال القادمة في أحضان أيدلوجيات فكرية وثقافية تجاهل قيم

وأخلاقيات الدين كما يحدث الآن في الغرب ولكن أصالتنا الاسلامية هي اليت تهيئ لنا أفضل مناخ نفسي وعقلي يمكن ان تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوجية راسخة يقوم عليها مجتمع اسلامي وهاذ المناخ هو الذي ترعرت في ظلاله حضارتنا العربية والاسلامية التي مزجت بين الدين والدنيا، وجمعت بين العلم والإيمان ووصلت الابداع المادي بالسمو الروحي والخلقي، كما نُحذّر من الفصل بين الدين والعلم لأن هذا الفصل يورث العالم الفوضى والتعصب والانحراف في الأفكار والمعتقدات في حين ان الاسلام طالب باستثمار العلم من اكتشاف اسرار الكون وتسخيراها لخدمة الانسان.

فالمطلوب منا الآن هو ربط علوم العصر بقيم الايمان والدين والأخلاق حتى لاتتحول المنجزات العلمية إلى معاول هدم ودمار والحل الأمثل لمواصلة هذا التراث الحضاري العظيم لأمتنا هو الاهتمام بالثقافة الاسلامية في مناهج التعليم في المدارس والجامعات لحمايتهم من الفكر الدخيل والمتطرف عن منهج الإسلام وهذا هو مطلب الجماهير المسلمة في كل مكان.

ولا يتوفر ذلك الإ من خلال ديمقراطية الحكم وتطعيم الأجيال القادمة ضد عملية الهزيمة الثقافية لنبدأ بعدها عملية البعث الجديد للحضارة العربية الاسلامية والخروج من حالة الانحسار الفكري.

لذا أصبح من الضروري العودة لقراءة التاريخ ونبشه دون إصدار الأحكام المطلقة وإعادة كتابته من جديد، باسقاط الحاضر على الماضي، ودراسة الماضي بمعطيات الحاضر "أي صهر التاريخ بالحاضر ومتطلبات المستقبل لتستعيد الأمة العربية دورها في صنع الحضارة الانسانية وتحافظ على أصالتها العربية الاسلامية بعيداً عن التزمت والإنكفاء.

فالخطوة الأولى في طريق التطوير هي الرجوع إلى الثقافة الإسلامية الشاملة لنشرها في أرجاء الوطن العربي والتي تستند الى أساس متين هو العقيدة الاسلامية والايمان بنصر الله.

وأني لأتذكر قول الشاعر:

كلا ولا ترقى المعارج أمة ... ترجو سيادتها بجهل مطبقِ

الدين والدنيا إذا اجتما معاً ... هتفا بخيارت المدائق أغدقي

وفي ختام الحياة العلمية وبعد زيارتي لقرية ام قيس الأثرية يوم الثلاثاء الموافق 18 آب 1997م ردّدت قول الشاعر الأردني محمد سمحان في صرخته الشعرية التاريخية التراثية في المهرجانيين التاريخيين المنعقدين في (1992/5/14و 1996/6/7م) بعنوان "صرخة أم قيس" في شمالي اربد والتي اشتهرت بمواردها الاقتصادية ومعاصرها في العصر المملوكي حيث قال:

وقفت في رباها أُوقظُ الحُقباَ — لأ ستعيد من الأمجاد ماعذبا

يا أمّ قيسٍ هل الأيام راجعة — أم السيوف بأيدينا غدت خشبا

أيّام كانت أثينا فيك ماثلة — وكنت تحكين فيها الفكر والأدبا

ومجد روما الذي دانت له أمم — وأنت تهدينها الفرسان والقضبا

فجاء "خالدٌ" لليرموك يطلقه — من الأسار وفرّ العلج مضطربا

وعين جالوت مازالت تحدثنا — عن التتار ومملوكٌ بهم ذهبا

يا أمّ قيسٍ ترى هل أنت عالمة — بما يُدبَّرُ أم وهج النضال خبا

يا أمّ قيسٍ وللدنيا عجائبها — لكنّ ما نحنُ فيه جاوز العجبا

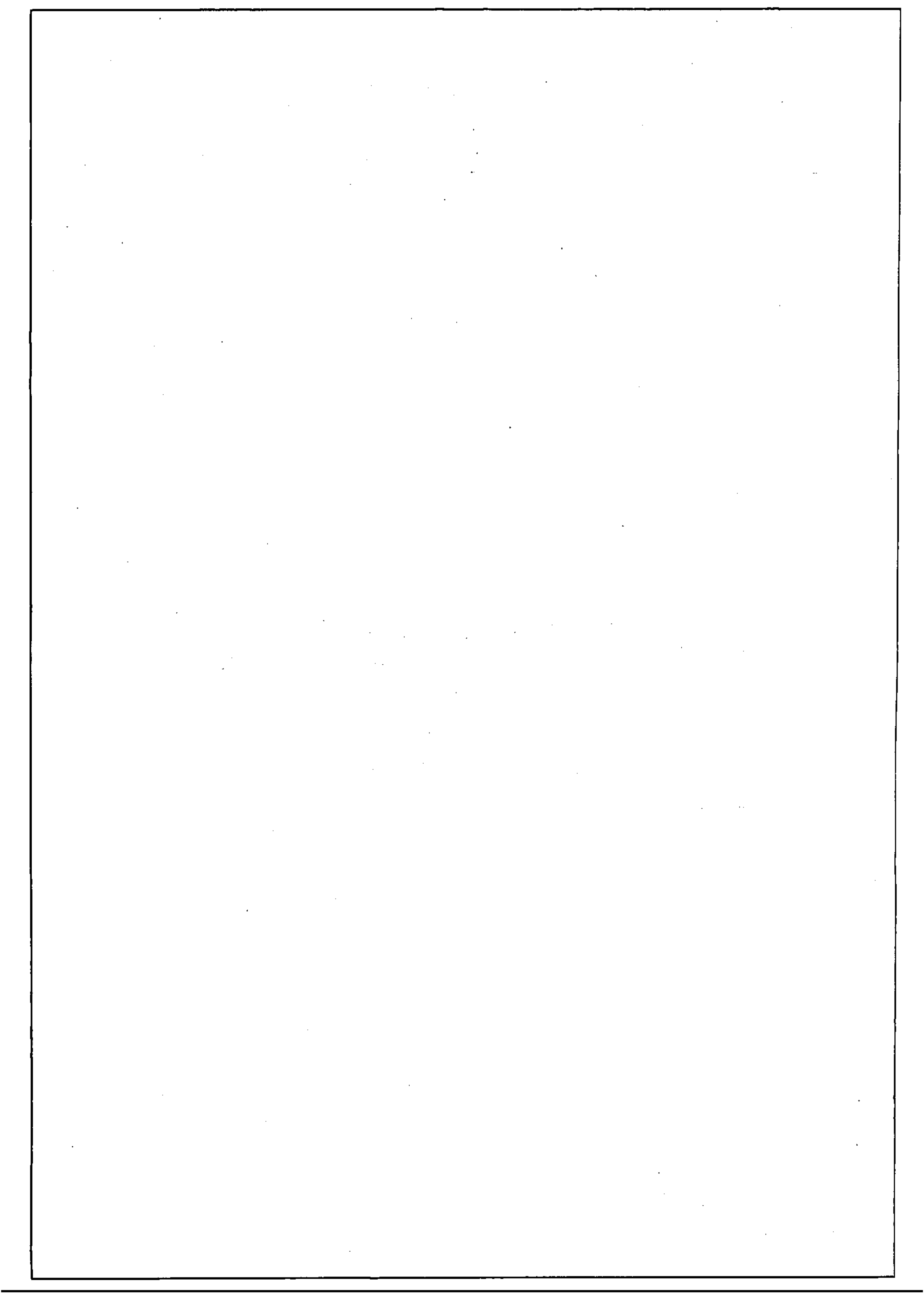
وقد ختمها بالبيتين التاليين:

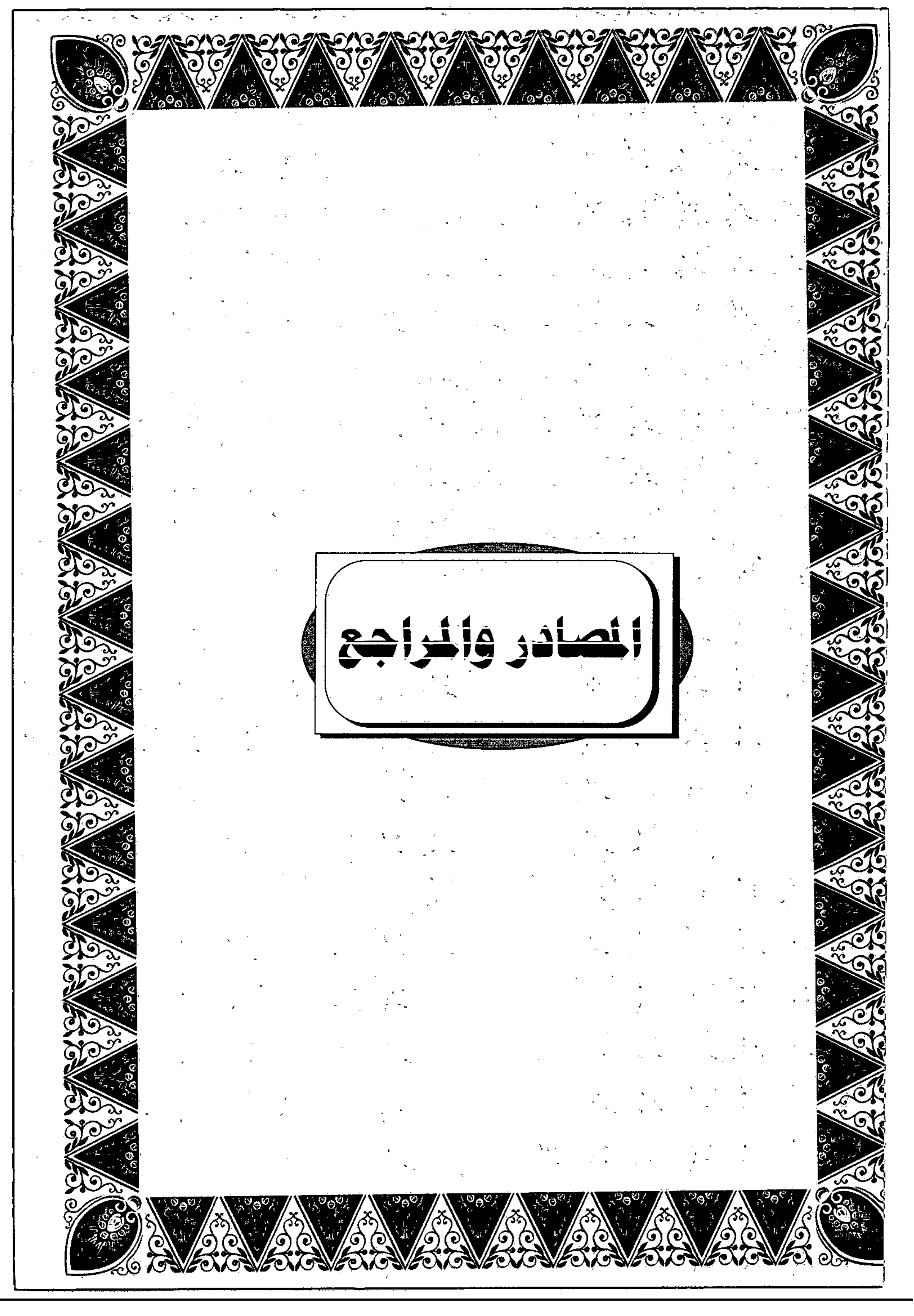
وحكمةُ الله أسمى من مداركنا — فقد تكونين أمر الله إن حزبا

بُركتِ ياجارة اليرموكِ يا حُلماً — في خاطر المجد والتاريخ ما غربا

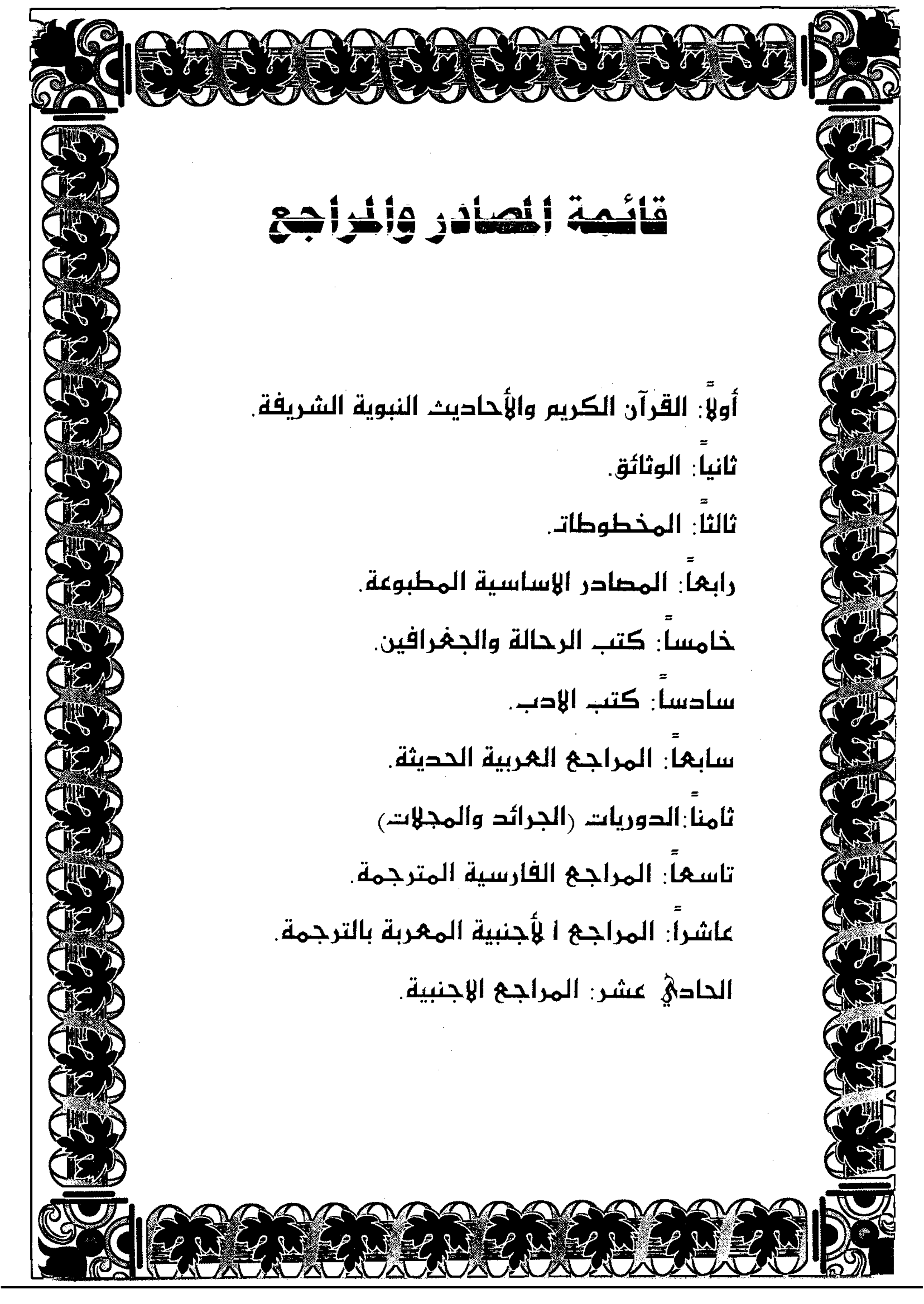
- جريدة الرآي الأردنية، الاربعاء: 1996/7/3، ص34.

بعنوان "صرخة في أم قيس" . "جارة اليرموك".





المصادر والمراجع



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

ثانياً: الوثائق.

ثالثاً: المخطوطات.

رابعاً: المصادر الاساسية المطبوعة.

خامساً: كتب الرحالة والجغرافين.

سادساً: كتب الادب.

سابعاً: المراجع العربية الحديثة.

ثامناً: الدوريات (الجرائد والمجلات)

تاسعاً: المراجع الفارسية المترجمة.

عاشراً: المراجع ا لأجنبية المعربة بالترجمة.

الحادي عشر: المراجع الاجنبية.

أولاً :

القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة

ثانياً:

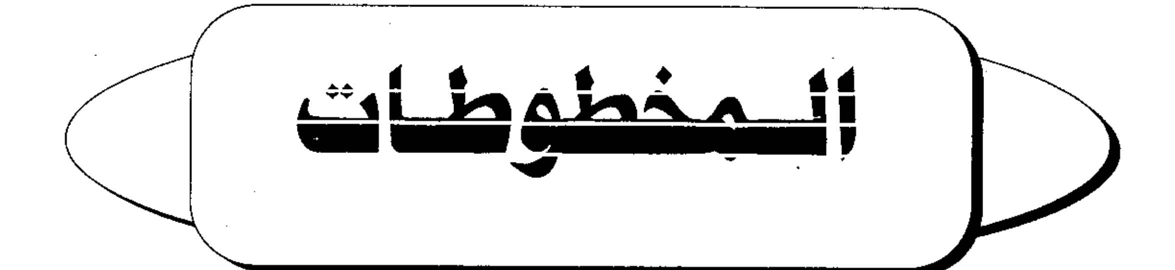
الوثائق

1- وثيقة وقف غنيم بن سالم بن الياس الملكي الشوبكي، من وثائق دير سانت كاترين رقم 1965، درسها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم، مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، مايو 1963.

2- وثيقة حجة وقف السلطان الملك الأشرف شعبان، محفظة 8، رقم 49 بدار الوثائق القومية، القاهرة.

3- مرسوم بعض الملوك الصلاحية في الزام أهل الذمة بالشروط الشرعية التي حددها أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة 755هـ/ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، رقم 4314تاريخ.

ثالثاً :



1- ابن الدوادار، الأمير ركن الدين بيبرس(ت 825هـ/ 1422م).

" **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**"، الجزء التاسع. مخطوط مصوّر بجامعة القاهرة تحت رقم 024048.مأخوذة من جامعة بيل على شريط رقم 78.

2- ابن الفرات، ناصر الدين الحنفي (ت 807هـ/1405م)

"**تاريخ الدول والملوك**"، ج5،6،7،8، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم63.95رقم الميكروفلم41186.

3- ابن الكتبي، محمد بن شاكر بن محمد، (ت764هـ/1362م)

"**عيون التواريخ**" 5 مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 949تاريخ

4- ابن النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني.

"**الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجا ز**"، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية، رقم 359ب.

5- ابن اياس، ابو البركات، محمد بن أحمد بن اياس الحنفي المصري(ت930هـ/1523م)

- " **بدائع الزهور في وقائع الدهور**"، 5أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم2113.

- " **نسق الأزهار في عجيب الأقطار**" مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم439جغرافيا.

6- ابن ايبك، ابو بكر عبدالله من ايبك الدوادراي(ت 732هـ).

" **كنز الدرر وجامع الغرر**"، 9أجزاء في 27مجلد، بدون ترقيم، مخطوط، مصوّرة عن نسخة بالاستانة، دار الكتب المصرية، بولاق، تحت رقم2578، رقم الميكروفلم، 362288.

7- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد(ت 809هـ/1406م).

" **الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين**"، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم1522تاريخ.

8- ابن سباهي، محمد بن سباهي،

"**أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**"، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم1،جغرافيا.

9- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد (ت 749هـ/1348م)

"**مسالك الابصار في ممالك الأمصار**"، 20جزء في 22 مجلد مخطوط بدار الكتب المصرية القاهرة، تحت رقم 594معارف عامة، ونسخة مصورة بمكتبة الاسكندرية العامة، تحت رقم3702، ب. لم تذكر سنة تحريره.

10- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الدمشقي(ت779هـ/1377م).

- "**الإعلام بتاريخ أهل الإسلام**"، جزءان، مخطوط بدار الكتب المصرية، بولاق، تحت رقم 392.

- **ونسخة أخرى رقم 2402 تاريخ تيمور.**

11- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (697هـ/1297م)

"**مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، تاريخ الواصلين**"، مخطوط بدار الكتب المصرية، بولاق، رقم 5319تاريخ.

12- ابو المحاسن، جمال الدين يوسف بن ثغري بردى، (ت874هـ/1470م)

"**المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**" 3 أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم2355 تاريخ.

13- اسامة بن منقذ (ت 584هـ/1188م)

"**اللباب الأدب**" مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 8918أدب.

14- البدري، ابو بكر بن عبدالله :

"**تزهرة الأنام في محاسن الشام**". مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم1642، ميكروفيلم10878.

15- البصروي، محمد:

" **تاريخ دمشق وغيرها من أرض الشام**" مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم2546رقم الميكروفلم14575.

16- البلوي المغربي، خالد بن عيسى بن أحمد.

"رحلته المسماه" **تابج المفرق في تحلية علماء المشرق**". مخطوط بدار الكتب المصرية،رقم 400جغرافيا.

17- الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الدين عبدالله العمري:

"**كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا**". مخطوط في مكتبة جامعة القاهرة، رقم24045 تاريخ .

18- الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي طالب المعروف بشيخ الربوة(ت 727هـ/1326م)

" **الدر الملتقط**" مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة.

19- الذهبي، أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان(ت748هـ/1354م)

- "**تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام من الهجرة الى سنة 700هـ أو"تاريخ الذهبي**". مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 42تاريخ ونسخة أخرى رقم 396تاريخ.

- "**سير اعلام النبلاء**"، 13 جزء، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 12195 خ.

20- العسقلاني، شهاب الدين بن حجر (ت852هـ).

"**أنباء الغمر بأبناء العمر**". مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم2476، ميكروفيلم35985.

21- العيني، بدر الدين ابو محمد محمود بن أحمد(ت855هـ/1451م)

"**عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**" 25 جزءاً في 69مجلداً. مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، تحت رقم 1584تاريخ.

22- الغزي، محمد بن أحمد العامري رضي الدين (ت 935هـ/1528م).

" **جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الملاحة**" إلى ميكروفيلم عن مخطوطة، محفوظة بدار الكتب السلطانية، في استانبول، رقم134 زراعة، مجموعة أ، صورها الاستاذ الدكتور محمد صالحية- جامعة اليرموك- اربد- الأردن.

23-المدني، ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري(ت 1083هـ).

"**تحفة الأدباء وسلوك الغرباء**"، مخطوط من مكتبة المتحف العراقي، نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم545،جغرافيا 278ورقة، 23سطراً، فهرس دار الكتب المصرية،6:15، مكروفيلم 178ملم×128م.

وقد حققها فيما بعد رجاء محمود السامرائي، ج1، وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة كتب التراث(12).

24- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت 854هـ/1441م.

" **خطط مصر**"، مخطوط بدار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية تحت رقم 57، جعرافية البلدان.

25- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت 734هـ/1333م)

" **نهاية الأرب في فنون الأرب**". مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 2572، رقم الميكروفلم35881والأجزاء من 27-31 تحت رقم549 معارف عامة.

26- وقف السبتان والحمام بوادي الكرك للسلطان الاشرف شعبان.

رقم**94، مخطوط بدار الوثائق القومية القاهرة.**

رابعاً:

المصادر الأساسية العربية المطبوعة

1- ابن ابي أصيبعة، احمد بن القاسم الخزرجي،(ت668هـ/1321م)
"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" تحقيق نزار رضا، طبعة دار الفكر، بيروت، 1965م، 1969. عدة طبعات.
2-ابن الأثير: عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الجزري (ت630هـ/1233م)
"**الكامل في التاريخ**"، 12جزء، عدة طبعات اشرت اليها ج8،9،10،11،12، خاصة طبعة دار صادر، بيروت 1966م.
3- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت 729هـ/1328م)
"معالم القرية في أحكام الحسبة"، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1976.
4- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الاندلسي (ت 664هـ /1268م)
"**الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**" ج3.
5- ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد (ت597هـ/1201م)
"**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**"، 5أجزاء، ط1، مطبعة دار المعارف، العثمانية بعاصمة حيدر أباد، الركن، 359هـ/1946م. والاجزاء الأربعة الأولى مفقودة.
6- ابن الحجاج، ابو عبد الله محمد العبدري الفاسي (ت737هـ/1336م)
"**المدخل الى الشرع الشريف**"، ج2، بيروت، دار الكتاب العربي، ط2،1972م.
7- ابن السباعي، تاج الدين ابو طالب علي بن أنجب(ت674هـ/1276م).
- "**مختصر أخبار الخلفاء**"، القاهرة، ط1، 1309هـ.
- "**الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السّير**"، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السّريانية، بغداد،1934م.
8- ابن الشحنة، ابو الفضل محب الدين محمد (ت 890هـ/1485م).
"**الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**" تقديم عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، 1404هـ/1948م.
9- ابن الصيرفي، على بن داوود (ت400هـ/1494م)
" **نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان**"، 3 اجزاء، تحقيق حسن حسني، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1970-1974م.

10- ابن العبري: غريغو ريوس، ابو الفرج بن أهرون الطبيب، (ت685هـ/1286م).
" **تاريخ مختصر الدول**" تحقيق انطون صالحاني، بيروت1890م.
11- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد أبي جرادة(ت660هـ/1262م)
"**زبدة الحلب في تاريخ حلب**"، دمشق، 1958-1968م،3أجزاء، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي.
12- ابن العماد الحنبلي، ابو العلاج عبد الحي بن علي بن محمد (ت 1089هـ/1678م)
- " **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**" 8أجزاء، القاهرة، 1350هـ.
- "**كتاب الفتوة**"، تحقيق مصطفى جواد واخرون، بغداد، 1956م.
13- ابن الفرات، ناصر الدين بن محمد (807هـ/1405م).
تاريخ ابن الفرات " **تاريخ الدول والملوك**"، تحقيق أسد رستم، وقسطنطين زريف ونجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، 1942م،الاجزاء7،8،9، أرخ حتى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. عدة طبعات.
14- ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد الصابوني (ت 723هـ/1382م)
- "**تلخيص مجمع الاداب في معجم الألقاب**" ج4،ق1،2،3،تحقق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1962-1967م.
- "**الحوادث الجامعة والتجارب النافعة**".
15- ابن القفطي، جمال الدين ابو الحسن بن علي (ت 646هـ/1248م).
- "**انباه الرواة على أنباء النحاة**"، دار الكتب المصرية 1950.
- "**أخبار العلماء باخبار الحكماء**" ليبرغ، 1903م، "عدة طبعات".
16- ابن القلانسي، ابو يعلى حمزة بن أسد (ت 555هـ/1160م)
"**ذيل تاريخ دمشق**"، بيروت، 1918، مطبعة الآباء اليسوعيين، تحقيق امدروز، واعيد طبعه بالافست، المثنى، بغداد،ط1، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1983، عدة طبعات.
17- ابن القيم، شمس الدين محمود بن أبي بكر (ت751هـ/1350م)
"**احكام أهل الذمة**" دمشق، 1961.
18- ابن النديم، محمد بن اسحق(ت385هـ/993م):
"**الفهرست**"، القاهرة،1348هـ (عدة طبعات).
19- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت 749هـ/1348م)
"**تاريخ ابن الوردي**" (تتمة المختصر في أخبار البشر) جزآن، ط2،النجف، 1969م.

20- ابن اياس، ابو البركات محمد بن أحمد الحنبلي، المصري، (ت930هـ/1523م).
"**بدائع الزهور في وقائع الدهور**"5اجزاء، تحقيق محمد مصطفى، بولاق،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1311هـ/1960-1963م، 1404هـ/1984م "عدة طبعات".
21- ابن ايبك الدواداري: ابو بكر عبد الله بن عبد الله بن ايبك(ت732هـ/1331م)
"**كنز الدرر، وجامع الغرر**" **والدرر الفاخرة في سيرة الملك الناصر**"، تحقيق رويمر، طبع الخانكين القاهرة 1960-1972م، وخاصة الاجزاء6،7،8،9.
22- ابن بسام،
"**نهاية الرتبة في طلب الحسبة**" الهيئة المصرية للكتاب، 1976م.
23- ابن بصال، عبد الله محمد بن ابراهيم (عاش في القرن 5هـ/11م)
" **كتاب الفلاحة**" تحقيق خوسيه ماريه مياس ومحمد عريمان، ومحمد مولاي الحسن، المغرب، تطوان، 1955م.
24- ابن بهاء الدين ت(632هـ/1234م)
- "**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**"، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964م.
25- ابن تيمية، علاء الدين ابو الحسن احمد بن علي بن محمد (ت 803هـ/1400م)
- "**فتاوي الخمر والمسكرات**"، تحقيق محمد ابراهيم الحفناوي. طنطا، دار البشير للثقافة، 1988م. و ط 1980.
- " **مناقب الشام وأهله**"، ط1، بيروت، 1306هـ/1960م.
26- ابن ثغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف،(ت874هـ/1470م).
- "**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**"، 6اجزاء، القاهرة1932-1972م.عدة طبعات.
- "**المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**'، ج1، تحقيق احمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1965م.
27- ابن حبيب، الحسن بن عمر(ت 779هـ،1377م)
"**تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**"ج2،تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور، القاهرة، 1976-1982م.
28- ابن حجاج، أبو عمر أحمد (من أعيان القرن 5هـ/ 11م)
" **المقنع في الفلاحة** " تحقيق صلاح جرار ورفيقه، منشورات مجمع اللغة العربية الاردني، عمّان،1980م.

29- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت 852هـ).
- "**الاصابة في تمييز الصحابة**" المطبعة الشرقية، 1907م.
- "**أنباء الغمر بأبناء العمر**"، 3اجزاء، تحقيق حسن حبشي، دار التحرير للطباعة، القاهرة، 1969م.
- "**الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**" طبعة حيدر اباده،135هـ.عدة طبعات.
30- ابن حزم (ت 456هـ/1062م)
"**جمهرة أنساب العرب** " تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1962.
31- ابن خرداذبة، ابو القاسم عبد الله بن عبدالله (ت300هـ/906م).
" **المسالك والممالك**" ينشر دي غو، طبعة ليدن، 1967م.
32- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر(ت808هـ/140م)
تاريخ ابن خلدون "**العبر وديوان المبتدأ والخبر**" 7أجزاء، ط بيروت، دار الفكر، 1399هـ/1979م.وطبعة دار الطباعة العامرية، القاهرة، 1284هز
- "**مقدمة ابن خلدون**"، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، القاهرة، (د.ت).
33- ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن ابي بكر (ت681هـ/1283م).
"**وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان**"،6أجزاء،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1948.ومطبعة دار العادة 1949م.
34- ابن رجب، ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب (ت795هـ/1393م).
"**الذيل على طبقات الحنابلة**"، مطبعة السنة المحمدية.
35- ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد، (ت764هـ/1363م).
"**فوات الوفيات**"، جزءان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،ط السعادة، القاهرة، 1951م.
36- ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهر، (837هـ/1468م)
"**زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**"، صحيحة بولس راوبيس، باريس 1894.
37- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت 684هـ/ 1286م)
"**الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**"، حققه يحيى عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978،عدة طبعات.
38- ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بالطقطقي(ت 709هـ/1309م)
"**الفخري في الأدب السلطانية**" ألفه عام 701هـ، ط2،القاهرة،1930م. وط، دار صادر، بيروت، للطباعة والنشر، بيروت،1966م.

39- ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد.
- "**القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**"، تحقيق محمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980م.
- "**مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**" تاريخ مصر والشام، تحقيق صلاح المنجد، جزءان، القاهرة، 1964م.
- "**قضاة دمشق**"، الثغر البسام في ذكرى من ولي قضاء الشام، تحقيق المنجد، مطبعة الترقي،دمشق، 1956م.

40- ابن عبد السلام، احمد:
"**ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام**"، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي الميادني، المكتبة العالمية، بغداد، د ت.

41- ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين.
- "**تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**"، تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م.
- "**الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**" تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة،1961م.
- "**الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**" تحقيق فاطمة صديق، اكسفورد، 1956م.
- "**الدمشقي**"، شمس الدين محمد بن أبي طالب، شيخ الربوة الانصاري(ت727هـ/1326م)
"نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" بطر سبيرغ، 1866م).

42- ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسين (ت 571هـ/1175م)
تهذيب " تاريخ دمشق" 5 اجزاء، تهذيب وترتيب عبد القادر بدران، دمشق، 1331، طبعة دار السيرة بيروت، 1979، "عدة طبعات".

43- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين (ت749هـ/1348م)
- "**التعريف بالمصطلح الشريف**"،مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312ه. وطبعة بيروت 1988تحقيق أحمد حسن.
- "**مسالك الابصار في ممالك الامصار**" تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب، القاهرة، 1924م.

44- ابن قاضي شهبة : تقي الدين أحمد بن محمد الاسدي الدمشقي (779هـ/1377م)
" **الكواكب الذرية في السيرة النبوية**" تحقيق محمود زيدان، دار الكتب الجديدة، بيروت.

45- ابن قطلوبغا، زين الدين قاسم:
"**تاج التراجم في طبقات الحنفية**" مطبعة العاني، بغداد، 1962م.
46- ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م)
"**البداية والنهاية**"، 4 أجزاء، القاهرة، 1932م."عدة طبعات".
47- ابن مماتي، أسعد بن المهذب بن أبي مليح (ت 606هـ/1209م)
كتاب " **قوانين الدواوين**" تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر 1943م.
48- ابن منقذ، اسامة، (589هـ/1193م)
أو "**سيرة أسامة**" نشر Derenbourgواعاد نشره فيلب حتى 1930م.
49- ابن هلال الصابئ، ابو الحسن بن هلال بن المحسن (ت448هـ/1046م).
- "**رسوم دار الخلافة**"، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد.
- "**تحفة الامراء في تاريخ الوزراء**"، القاهرة، 1958م.
50- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم
"**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**" تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1972م.
51- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت697هـ/1297م).
"**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**" نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، وطبعة المطبعة الوهبية، القاهرة، 1285هـ.
52- ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل(ت732هـ/1331م):
- "**المختصر في أخبار البشر**"، مجلدان، 4 اجزاء، دار المعرفة للطباعة والنشر بدون تاريخ، لبنان."عدة طبعات".
- "**تقويم البلدان**"، مطبعة المتنبي، بغداد،1850م.
53- ابو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (ت665هـ/1267م).
- "**الذيل على الروضتين**": تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، نشره السيد عزت العطار، القاهرة، 1947." عدة طبعات".
- "**كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية**"، جزءان، القاهرة، 287هـ/1974م. "عدة طبعات".
54- الادفوي، كمال الدين ابو الفضل جعفر المصري(ت784هـ/1382م)
" **الموفي بمعرفة التصوف والصوفي**" حققه د. محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت1988م.

55- الاربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو (ت 717هـ/1317م).
" **خلاصة الذهب المسبوك**" صححه مكي السيد جاسم، مكتبة المتنبي، بغداد، 1964.
56- الاشرف الرسولي، يوسف بن عمر بن علي الغساني (ت694هـ/1294م)
"**ملح الملاحة في معرفة الفلاحة**" تحقيق عبد الله محمد علي المجاهد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1972م.
5- الاصفهاني، عماد الدين (ت 597هـ/1101م)
- "**الفتح القسي في الفتح القدسي**"، تحقيق محمد محمود صبح، مطبعة الموسوعات القاهرة، 1321هـ.
- كتاب "**البرق الشامي**" الذي اختصره الفتح النداري في "سناء البرق الشامي" حققته الدكتورة: فتحية النبراوي - القاهرة، وطبعة ليدن 1888.
- "**تاريخ دولة آل سلحوق**"، اختصار البنداري، بيروت،
58- الاندلسي، ابي محمد علي أحمد بن سعيد بن حزم (ت 456هـ)
"جمهرة أنساب العرب" دار الكتب العامة، بيروت، لبنان.
59- الاوسي الانصاري، عمر بن ابراهيم (أوائل القرن التاسع/ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي).
"**تفريج الكروب في تدبير الحروب**"، حققه وترجمه إلى الانجليزية الدكتور جورج سكانلون، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 1961م.
60- البدري، ابو البقاء عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ت788هـ/1385م)
"**تزهة الأنام في محاسن الشام**" المطبعة السلفية، القاهرة، 1341هـ/1923م.
61- البغدادي السويدي:
"**مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**"، 3اجزاء، نشرة ليدن 1864م.
62- البكري، ابو عبدالله بن عبد العزيز:
"**معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع**"، 4أجزاء، تحقيق مصطفى السقالي، القاهرة، 1945-1951.
63- البلاذري، ابو العباس احمد بن يحيى:
- " **انساب الأشراف**" طبعة بيت المقدس.
- "**كتاب النقود**"، نسخة الاستانة، نقلها نعمان الألوسي، 1869م، نشرها دير الاباء الكرمليين، شبرا القاهرة، 31تموز (جويلية) 1939م.
- كتاب" **فتوح البلدان**"، نشره، دي جويه، بريل،1866م.
- " **أنساب الأشراف**"، القدس، 1970م.

64- الدواداري، عبد الله أيبك (ت 732هـ).
- "**كنز الدرر وجامع الغرر**" تحقيق رويمر، القاهرة،1960م.
65- الذهبي، ابو سالم محمد بن طلحة القرشي (ت 652هـ)
"**العقد الفريد للملك السعيد ثائر الماوردي**"
66- الذهبي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان(ت784هـ/1382م)
- "**دول الإسلام**"، جزءان، تحقيق فهيم شلتوت، حيدر أباد1337هـ/1918م. وطبعة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
- "**العبر في خبر من غبر**" تحقيق صلاح المنجد، الكويت 1960م.
- "**تاريخ الاسلام**"، "**وطبقات مشاهير الاعلام**"، مطبعة دار السعادة، مصر، 1368هـ.
- كتاب "**المعين في طبقات المحدثين**"، تحقيق الدكتور همام غبد الرحيم، عمان.

67- الراصدي، تقي الدين محمد بن أحمد يوسف(ت 993هـ/1585م):
"**الطرق السنية في الآلات الروحانية**" تحقيق أحمد يوسف، 1976م.
68- سبط ابن الجوزي، ابو المظفر بن غزا أوغلي:
"**مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**"، ج8،نسخة مصورة.
69- السبكي، تقي الدين بن عبد الوهاب (ت 771هـ/1269م).
- " معيد النعم ومبيد النقم"، تحقيق محمد على النجار، أبو زيد شبلي، محمد ابو العيون، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1949م.
- " **طبقات الشافعية الكبرى**"، 6 اجزاء، المطبعة الحسينية، القاهرة،1324هت.
70- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن.
- "**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**" 12 جزء، مكتبة القدسي.
- "**التبر المسبوك في ذيل السلوك**" مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة.
78- السيوطي، ابو عبدالله محمد بن شهاب الدين المنهاجي (ت 880هـ/1484م)
"**اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى**"، القاهرة، تحقيق احمد رمضان 1948.
79- السيوطي، الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ).
- "**تاريخ الخلفاء**" تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة اوفست، بغداد.
- "**طبقة الحفاظ**"، تحقيق علي محمد عمر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1967م،1972.
80- السيوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت 723هـ/1322م)
" **الحوادث الجامعة** "، تحقيق مصطفى جواد، بغداد 1932م.

81- الشعراني:
"**الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**"، حققه وقدم له طه عبد الباقي سرور والسيد محمد عبد الشافي، المكتبة العلمية، القاهرة، ج12، 1962م.
82- الشهردوري، عبد القادر عبالة، دار الفرقان (ت 1404هـ/1984م).
"**عوارض المعارف**" دار الكتاب العربي، بيروت، 1966.
83- الشيرازي، عبد الرحمن بن نصر (ت 589هـ/1193م)
" **المنهج المسلوك في سياسة الملوك**".
84- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله :
"**نهاية الرتبة في طلب الحسبة**" تحقيق السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1964.
85- الصفدي، صلاح الدين بن أيبك:
"**الوافي بالوفيات**" 8 اجزاء تحقيق هلموت رينز، دار صادر، بيروت، 1962-1971م.
86- الطبري، محمد بن جرير(ت 310هـ/1923م)
"**تاريخ الطبري**" ، دائرة المعارف، القاهرة، 1970و1939.وتاريخ الامم والملوك"
87- العزولي، ابن عبد الله البهائي (815هـ/1412م).
"**مطالع البدور في منازل السرور**" ط1، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، 1299، ص252.
88- العليمي الحنبيل، مجير الدين القاضي ابو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت928هـ/1522م)
"**الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل**" جزءان، طبعة مكتبة المحتسب، عمان 1973م، وطبعة القاهرة، المطبعة الوهبية، القاهرة 1283، ومطبعة دار الجيل، ج2، بيروت،1973م.
89- الفراء، ابو يعلى محمد بن الحسن الخيلي:
" **الاحكام السلطانية**" تصحيح محمد الفيضي، القاهرة،1966، وطبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر 1956 هـ/1938م.
90- الفقطي، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف:
"**أخبار العلماء بأخبار الحكماء**" مطبعة السعادة، القاهرة، 1326هـ.
91- القاسمي، محمد سعيد (ت1317هـ/1900م).
"**قاموس الصناعات الشامية**" تحقيق: ظاهر القاسمي، باريس 1928م.

92- القاضي الفاضل (ت 596هـ1200م)

"**رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل**"، اختارها موفق الدين ابن الديباجي، ت615هـ، حققها الدكتور محمود نعش.

93- القلقشندي: (ت 821هـ/1488م).

- "**صبح الاعشى في صناعة الانشا**" 4اجزاء، مصابع كوستي توماس، القاهرة، 1963م.
- " **ماثر الاناقة في معالم الخلافة**"، ق1،م. 3اجزاء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، 1964م.
- "**نهاية الارب في معرفة أنساب العرب**"، مطبعة الرياض، بغداد.

94- الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب(450هـ)

"**كتاب الأحكام السلطانية**" مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1909م. وطبعة انجر بوتا 1833م.

95- المرادي، خليل بن علي بن محمد بن مراد:

" **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**"4أجزاء،المطبعة الاميرية،بولاق،1291-1301هـ.

96- مسكويه، ابو علي احمد بن محمد الخازن (ت 421هـ/1030م)

" **تجارب الامم وتعاقب الهمم**" ج5، 6، القاهرة، 1914م.

97- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت 845هـ/1441م)

- "**السلوك لمعرفة دول الملوك**" 4 أجزاء، تحقيق دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد 98- مصطفى زيادة، القاهرة، 1973-1974."عدة طبعات"
- "**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**" المعروف بالخطط المقريزية 4اجزاء،القاهرة، بولاق 1270هـ.
- "**اتعاظ الحنفا في ذكر الائمة الفاطميين الخلفاء** " 3 اجزاء تحقيق محمد علي، القاهرة، 1948.
- "**النقود السلامية**"، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 1298م.
- "**اغاثة الأمة بكشف الغمة**"، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ط2،1957.
- "**شذور العقود في ذكر النقود**" تحقيق محمد صادق، آل بحر، المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، 1356هـ.
- "**رسالة في النقود الاسلامية** "نسخة الاستانة، نسخها شكري الفضلي، البغدادي ونشرها الاب أنستاس ماري الكرملي/ جويلية/ 1939، ونسخة نشرها فارس الشدياق، مطبعة الجوائب، 1933م.
- "**البيان والاعراب في تاريخ العروبة في وادي النيل**" تحقيق وتاليف عبد المجيد عابدين، القاهرة، 1961.

99- النابلسي، الشيخ عبد الغني (ت 1143هـ/1730م)

- "**علم الملاحة في علم الفلاحة**"، بيروت، 1979م.

- "**لمع القوانين المضيئة**" كتب عن الوظائف الديوانية (د.ت)

100- النعيمي، عبد القادر محمد بن عمر

"**الدارس في تاريخ المدارس** " جزءان ، تحقيق جعفر الحسيني.مطبعة الترقي، دمشق، 1948م.

101- الهروي:

" **كتاب الارشاد الى معرفة الزيارات**"، دمشق، 1953م.

102- اليافعي، عبدالله بن سعيد اليمني المكي (ت 768هـ/1367م)

"**مراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**" 4اجزاء، منشورات الاعلمي للمطبوعات، بيروت، 1390هـ/1979م. وطبعة حيدر أباد، 1237ه. وطبعة 1970م.

103- اليوسفي، محمد بن يحيى (ت 759هـ/1358م)

"**نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**" تحقيق أحمد حطيط، ط1.

104- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد:

"**ذيل مراة الزمان**"، 4 اجزاء، مطبعة دار المعارف القديمة، حيدر أباد، الهند 1954-1961م.

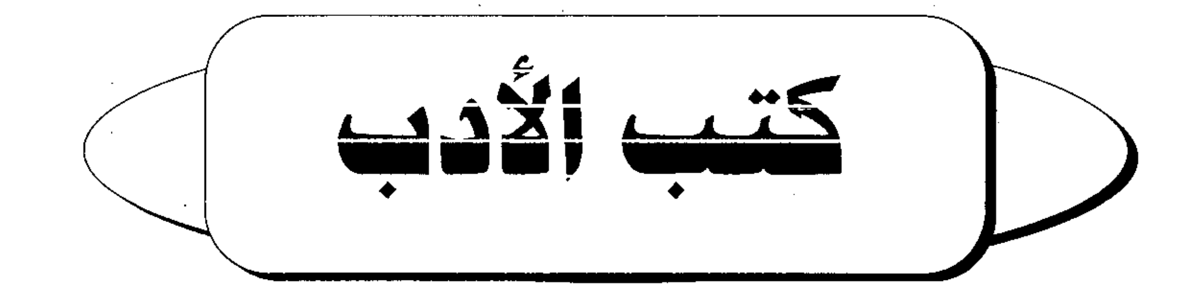
خامساً:

مصادر الرحالة والجغرافيين

1- ابن الوردي، زين الدين مظفر، (ت 749هـ/ 1348م).
" **فريدة العجائب وفريدة الغرائب**" تصحيح أحمد سعيد علي، ط2، القاهرة 1939م.
2- ابن بطوطة، ابو عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي(ت 779هـ/1377م).
- رحلة ابن بطوطة السمماة: "**تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**" جزآن، ط القاهرة، 1964م. وطبعة دار باريس 1808م، وطبعة بيروت1968م، وطبعة دار صادر، بيروت للطباعة والنشر، 1384هـ/1964، ليدن، مطبعة بريل1866.
3- ابن جبير، ابو الحسن محمد إبن أحمد، (ت 614هـ/1217م):
"**الرحلة**" ، تحقيق د. حسين نصار، طبعة دار الهلال، بيروت، 1981، "عدة طبعات".
4- ابن حوقل، ابو القاسم محمد النعيمي(ت367هـ/1977م).
- "**المسالك والممالك**"، نشر دي غويه، ليدن، 1872م.
- "**صورة الأرض**"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
5- ابن سعيد المغربي (ت 673هـ / 1275م)
" **كتاب الجغرافيا**"، تحقيق اسماعيل العربي، ط1، بيروت، 1970م.
6- ابن يحيى، صالح:
" **تاريخ بيروت وأخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير العرب**"، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وآخري، بيروت، 1969م.
7- الادريسي، ابو عبدلله محمد بن محمد
" **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**" القسم الخاص بفلسطين وسوريا .
8- الاصطخري، ابو اسحق الفارسي إبراهيم بن محمد(ت 321هـ/933م).
- "المسالك والممالك"، ليدن،1967م.
- "كتاب الأقليم"، نتشر مُكر، غوتميرغ، 1938م.
9- الباكوي، عبد الرشيد صالح (من أعيان القرن 9هـ/15م).
" **تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار**" ترجمة ضياء الدين ابن موسى،موسكو،1971م.
10- البغدادي، محمد بن حسن محمد (من أعيان القرن 7هـ/13م).
-"**مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**"، تحقيق علي البجاوي،بيروت 1957م.
- " **كتاب الطبخ**" نشره البارودي، ط1، دار الكتاب الجديد، 1964م.

11-بنيامين بن بوكه التطيلي الأندلسي،
" **رحلة بنيامين**" 561-569هـ/1165-1173م.
ترجمها عن الأصل العبري عزاز حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، 1945م.
12-الحموي، ياقوت، شهاب الدين ابو عبدالله بن الدومي الحموي البغدادي، (ت626هـ/1228م)
- "**معجم البلدان**"، 5 أجزاء - طبعة دار صادر بيروت، وطبعة دار العادة، القاهرة،1907م.
- وطبعة لبزج 1868م.
- وطبعة الأوفس، طهران، 1965،"عدة طبعات".
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، طبع جوتنجن، ألمانيا، 1846م.
13- الخيار المدني، ابراهيم بن عبد الرحمن (ت 1083هـ)
" **رحلة الخياري**" المسماة: تحفة الأدباء وسلوة الغرباء.
تحقيق رجاء محمود السامرائي، وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة كتب التراث(12).
14- السباهي زادة، محمد بن علي (ت 997هـ /1588م).
" **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**" ميكروفيلم عن مخطوطة لندن بمركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم 559 وقرة 23،66.
15- عوض، محمد مؤنس أحمد:
"**الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس**"، مابين 1099-1178م، مكتبة المدبولي، ميدان طلعت حرب- القاهرة، 1922م.
16- القزويني: زكريا محمد بن محمد (ت 682هـ/1284م)
" **آثار البلاد واخبار العباد**" طبعة، بيروت، 1389هـ/1966م وطبعة 1960، 1969م.
17- المسعودي، ابو الحسن علي (ت 346هـ/ 947م)
" **مروج الذهب ومعادن الجوهر**"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، دار السعادة، 1948م، ط3 القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1958م.
18- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد الشافعي (ت 1387هـ/ 1967م).
" **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**"، جزءأن ، ط2،بغداد.
وطبعة ليدن ثانية 1909" عدة طبعات"
19-اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 282هـ/ 895م).
"**كتاب البلدان**"، طبعة دي خويه، ليدن، 1892م

سادساً:



1- الابشيهي، الشيخ شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت850هـ/1446م)
'**السمتطرف في كل من مستظرف**' ط2، جزءان، القاهرة، 1279هـ.
2- ابن جماعة، بدر الدين ابن اسحاق ابراهيم:
" **تذكرة العالم والمتعلم**"، دار الكتب العلمية1354هـ.
3- ابن منظور، جمال الدين محمد كرم (711هـ/1311م)
"**لسان العرب**" دار صادر،بيروت،1955م،وطبعة مصورة عن بولاق،دار الكتب المصرية،ج9.
4- الاصفهاني، عماد الدين الكاتب، ابو عبدالله محمد بن محمد:(597هـ/1220م)
"**خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الشامي**"، ج3،تحقيق الدكتور شكري فيصل، طبعة المطبعة الهاشمية، دمشق، 1959م.
5- الانباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت577هـ/1181م)
"**نزهة الالباء في طبقات الادباء**"، ط2، تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي،بغداد،1970م.
6- باشا، د. عرم موسى.
"**الادب في بلاد الشام**" عصر الزنكيين والايوبيين والمماليك. ط2، دمشق، 1972، وطبعة 1409هـ/1989م.
7- بروكلمان، كارل، (ت1336هـ/1956م)
'**تاريخ الادب العربي**' ترجمة د.عبد الحليم النجار، ص2، دار المعارف، مصر1968م.
8- بكري، شيخ أمين،
"**مطالعات في الشعر المملوكي العثماني**"، بيروت ط2، 1399هـ/1979م.
9- بلاستير، ديجيس،
'**تاريخ الادب العربي**'، ترجمة د.ابراهيم الكيلاني، دمشق،1973م.
10- حسين، الدكتور محمد كامل،
'**دراسات في الشعر في عصر الايوبيين**'، ط، دار الفكر العربي، مصر.
11- حمزة، د. عبد اللطيف.(ت1391هـ/1971م)
"**نصوص من ادب الحروب الصليبية**" مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1949م.
12- خليف، د. يوسف:
"**تاريخ الشعر في العصر العباسي**"، القاهرة، 1911م.
13- الرافعي، مصطفى صادق:(ت1356هـ/1937م)
"**تاريخ اداب العرب**، ط4، بيروت،1974م.

14- الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ/1443م)
- '**اساس البلاغة**' كتاب الشعب، القاهرة1960م.
- '**الكشاف**' ط، بولاق، 1381هـ.

15- الساريسي، د.عمر عبد الرحمن،
"**نصوص من ادب الحروب الصليبية**" جدة، ط1، 1985م.

16- سلام، محمد زغلول:
- '**الادب في العصر الأيوبي**'، ج1، دار المعارف بمصر، 1967م.
- '**الادب في العصر المملوكي**'، ج2،دار المعارف بمصر، 1971م.

17- شوقي، ضيف:
'**تاريخ الادب العربي**'، عصر الامارات، ج5،ط4، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

18- فروخ، د.عمر:
"**تاريخ الادب العربي**"، عصر الامارات.

19- القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي (ت821هـ/1418م)
"**صبح الاعشا في صناعة الانشا**" 4 اجزاء، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1913م.(عدة طبعات'.

20- الكردي، محمد علي الصويركي:
"**الاردن في اشعار العرب**"، عمّان، 1988م.

21- محمود، محمد عبد العزيز:
"**تطور الخط العربي في مصر في عصر الايوبين والمماليك**"، جامعة الاسكندرية، 1974م، الرمز962، 392صفحة.

22- المومني، د.قاسم ورفيقه:
"**شعراء عاشوا في قلعة عجلون في القرنين السابع والثامن الهجري**"عمّان، 1984م.

23- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م)
"**نهاية الارب في فنون الادب**" 21جزءاً، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1923-1976م. عدة طبعات.

24- الهاشمي،أحمد:
'**جواهر الادب**'، مؤسسة المعارف، بيروت.

25- الهباهبه، طه علي:
'**الشوبك في التاريخ والوجدان الشعبي**'، عمّان، 1984م.

26- ياقوت، الحموي شهاب الدين (626هـ/1228م)
س'**معجم الادباء** '،20جزءاً، القاهرة، 1907-1927م، وطبعة القاهرة، 1936-1938م. 'عدة طبعات'.

سابعاً:

المراجع العربية الحديثة

1- أبو عليه، الدكتور عبد الفتاح ورفيقاه:

- "**النظم الاسلامية**"، جامعة البصرة، 1980م.

- "**تاريخ مدينة القدس**"، الرياض، 1986م.

2- أحمد أمين :

- "**ظهر الاسلام**"،ط4، القاهرة، 1966م.

- "**ضحى الاسلام**"،ط1، القاهرة، 1933م.

- "**فجر الاسلام**"ط1، القاهرة، 1965م.

3- أحمد دراج :

- " **المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي**" دار الفكر العربي بالقاهرة، 1961م.

- "**وثائق دير صهيون بالقدس الشريف**"، القاهرة، مكتبة الانجلوا مصرية، 1968م.

4- ابن الجزري، شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد:

"**غاية النهاية في طبقات القرار**"، ج1، مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1932م.

5- ابن يحيى، صالح:

" **تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني المغرب**"، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت، 1898.

6- ابو دلو، ربى احمد:

"**معاصر السكر في غور الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين**" رسالة ماجستير في معهد الاثار، جامعة اليرموك، الاردن، اربد 1991م، غير منشورة.

7- ابو زهرة، محمد احمد:

"**المذاهب الاسلامية**"، القاهرة، مكتبة الادب.

8- احسان النمر:

"**تاريخ جبل نابلس والبلقان**"،جا،نابلس، 1961م.

9- احسان عباس:

"**تاريخ دولة الانباط**" عمّان، 1987م.

10- احمد صادق سعد:

"**تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي**"، بيروت، 1979.

11- احمد عبد الرزاق احمد:

"**دراسات في المصادر المملوكية**"، القاهرة، 1974م.

12- احمد عيس بك:

"**تاريخ اليمارستانات في الاسلام**"، دار التراث العربي، بيروت، ط2، 1981.

13- اسد رستم:

"**الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب**"،بيروت، 1969م.

14- الاسطل، علي رضوان احمد :

"**دراسة في تاريخ العلوم عند العرب**".وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، مطبعة العالي المركزية،1989م.

15- اسكندر، ميخائيل:

"**القدس عبر التاريخ** " طبعة القاهرة، 1972م.

16- اسماعيل، نعمت:

"**فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية**"، القاهرة، .

17- الباشا، حسن:

" **الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والاثار**" مكتبة النهضة المصري،1975م.

18- باشا، علي مبارك: (ت1311هـ/1893م).

"**الخطط التوفيقية الجديدة**"، ج20، مبطعة بولاق، 1309.

19- البخيت، محمد عدنان:

- " **مملكة الكرك في العصر المملوكي**"،1976.
- "**ناحية بني كنانة شمال الاردن في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي**". منشورات الجامعة الاردينة ، عمان، 1984م.

20- بدوي، أحمد:

- "**مأمون بني أيوب -المعظم عيسى**" مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1953م.
- "**الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**" دار نهضة مصر،القاهرة،1953.

21- البرغوثي، عمر الصالح:

- "**تاريخ فلسطين**" **مطبعة بيت المقدس**، القدس 1923م.
- "**تاريخ فلسطين، مطبعة بيت المقدس**"، بيروت، بدون تاريخ.

22- البستاني، بطرس:

"**دائرة المعارف**"، بيروت،1876م.ج1.

23- بيطار، أمينة:

- "**تاريخ العصر الايوبي**"، دار الطباعة الحديثة، دمشق، 1981-1982م.

- "**الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام**" منشورات وزارة التعاون والارشاد القومي، دمشق، 1980م.

24- بيك، فردريك:

" **تاريخ شرق الاردن وقبائلها**، القدس، 1934م.

25- بيومي، علي احمد:

"**قيام الدولة الأيوبية في مصر**"، رسالة ماجستير(مدارس، وجيوش) غير منشورة، القاهرة1946م.

26- توفيق، الدكتور عمر كمال:.

"**مملكة بيت المقدس الصليبية**"، الاسكندرية، 1958م.

"**درسة تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي**"، الاسكندرية، مؤسسة شبك 1958، الجامعة للطباعة والنشر

27- الثعلبي،

"**التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**"، القاهرة، 1983م.

28- الثعلبي، محمد:

"**التعريفات بمصطلحات صبح الاعشى**" القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1983م.

29- جبران ، نعمان محمود:

" **مملكة حماة في العهدين الايوبي والمملوكي الاول**" رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية، عمان، 1981م، غير منشروة،ص195.

30- جرجي، جمال:

"**القضاء في الدولة المملوكية**" رسالة ماجستير، عين الشمس، القاهرة، 1972م.

31- الجندي، جمعة الجندي،

"**حياة الفرنج ونظمهم في الشام**"، رسالة دكتوراه، عين شمس، 1985م.

الجنزوري، علية عبد السميع:

"**الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية**"، مكتبة الانجلوا أمريكية،1965.

32- جودت صادق، احمد:

"**مدينة الرملة**"، 1986م.

33- حبشي، الدكتور حسن:
- "**اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**" دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م.
- "**الحروب الصليبية الأولى**" 1970م.
34- حجازي، فايزة:
"**أهل الذمة في بلاد الشام في العصر الايوبي والمملوكي**"، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اربد، الاردن، 1412هـ/1992م.
35- حجي، الدكتورة حياة ناصر:
- "**احوال العامة في عصر المماليك**"، مكتبة الفلاح، الكويت، ط، 1403هـ/1983م.
- "**السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**"، مكتبة الفلاح، الكويت،ط1، 1403هـ/1983م.
36- حسن احمد محمود:
" **العالم الاسلامي في العصر العباسي**"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966.
37- حسن، زكي محمد:
"**فنون الاسلام**"، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1948م.
38- حسن، علي ابراهيم:
"**تاريخ دولة المماليك البحرية**".
39- حسن، علي ابراهيم:
"**تاريخ المماليك البحرية**"، مطبعة الشبكشي، القاهرة، 1948م.
40- حسين، محمد كامل:
"**طائفة الاسماعلية، (تاريخها، نظمها، عقائدها)**"،القاهرة،الفكر العربي.
41- الحسيني، محمد باقر:
- "**تطور النقود الاسلامية**" ، دار الجاحظ، بغداد 1960م،
- " **العملة الاسلامية في العهد الاتابكي**"، دار الجاحظ، بغداد، 1966م.
42- الحصيني، محمد اديب تقي الدين:
"**منتخبات التواريخ لدمشق**"، المطبعة الحديثة، دمشق، 1934.
43- حمادة، محمد ماهر:
"الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة(**247-656هـ/861-1258م)**".

44- حمارنه، صالح:
"**زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين**" حولية دائرة الاثار الاردنية، 1977-1978م.
45- حمزة بن عبد المطلب:
"**الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي والمملوكي**"، القاهرة،1966م.
46- حمزة، عبد اللطيف:
"**الحركة الفكرية في صمر في العصرين الايوبي والمملوكي الأول**" دار الفكر العربي، القاهرة 1947م.
47- الحموي، محمد ياسين:
"**دمشق في العصر الايوبي**"، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1946م.
48- الحويري: الدكتور محمود:
"**الاوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين**"، ط1، القاهرة، 1979م.
49- الحياري، مصطفى:
"**الامارة الطائية في بلاد الشام**"، ط1، وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1977م.
50- الخربوطلي، علي حسن:
"**البحر المتوسط بحيرة اسلامية**"، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة،1963.
51- الخضري بك، محمد:
- " **محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية، الدولة العباسية**"، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- "**تاريخ الامم الاسلامية**"، جزءان،مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1953م.
52-خليل، عماد الدين:
- "**عماد الدين زنكي**"، بيروت دار القلم.
- "**نور الدين محمود (الرجل والتجربة)**"، دمشق، بيروت.
53- الخولي، امين:
"**الجندية والسطح**" **مطبعة الرسالة**"، دار المعرفة، القاهرة، 1960م.
54-دائرة المعارف الاسلامية:
"**الترجمة الاسلامية للمستشرق كليمان هيوار**".

55- الدباغ، مصطفى وراد:

- "**القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين**"، بيروت، 1986م.

- "**الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسيطن**"، بيروت، 1986م.

- "بلادنا فلسيطن"، ج1، دار الطبيعة، بيروت، 1965م.

- فلسطينيات من هنا وهناك، بيروت، 1986م.

56- الدسوقي، عمر:

"**الفتوة عند العرب**"، القاهرة، (د.ت).

57- دهمان، محمد أحمد:

"**معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي**"، ط1، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1990م.

58- الدوري، عبد العزيز:

"**دراسات في العصور العباسية المتأخرة**"، بغداد، 1945م.

59- الدوري، عبد العزيز:

- "**تشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية**"، مجلة المجتمع العلمي العراقي، م20، 1970.

- "**مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي**" بيروت، 1980م.

60- ربيع، محمد حسنين:

"**النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين**"، مطبعة جامعة القاهرة، 1964م.

61- الرحاوي، عبد القادر:

"**العمارة العربية الاسلامية، خصائصها واثارها في سوريا**" منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق 1979.

62- رستم، اسد:

"**الروم وصلاتهم بالعرب**"، بيروت، 1965م.

63- الرفاعي، انور:

"**النظم الاسلامية**"، دار الفكر، 1392هـ/1973م.

64- الروسان، محمد سليمان:

"**تطور الحمام في بلاد الشام في العصر الاسلامي المبكر في ضوء المصادر التاريخية والمستجدات والاكتشافات الاثرية**"، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك.

65- زايد، عبد الحميد:
"القدس الخالدة" ط القاهرة.
66- الزركلي، خير الدين:
"الاعلام"،ط2،القاهرة،8 مجلدات.
67- زكار، الدكتور سهيل:
- **"مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية"**، دمشق،1973م.
- **"حطين مسيرة التحرير من دمشق الى القدس"**، دمشق1984م.
- **"تاريخ العرب والاسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد"**، دار الفكر، بيروت.
68- زكي، اسامة:
"الصليبيون واسما عيلية الشام في عصر الحروب الصليبية القرن 6هـ/12م"، طبعة الاسكندية، 1980م.
69- زكي، محمد أمين:
"تاريخ الكردوكرد ستان" ترجمة محمد علي عويس.
70- الزوربا، فريال:
"الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي"، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، 1980م.
71- زيادة، محمد مصطفى:
- **"المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي"**، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1949م.
- **"نهاية السلاطين المماليك في مصر"**، القاهرة، 1948م.
72- زيادة، نقولا:
"دمشق في عصر المماليك"، بيروت، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر1966م.
73- زيان، حامد زيان غانم زيان:
- **"الصراع السياسي والعسكري بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية"**، دار الثقافة للتشر، القاهرة، 1403هـ/1983م.
- "العلاقات الحضارية بين مصر والشام وبين صقلية، **490-659هـ/1096-1261م**".
- **"العلاقات السياسية بين نورمان صقلية وصليبي الشام، 490-584هـ/1096-1118م"**.

74- **زيدان، جورجي:**

"تاريخ التمدن الاسلامي"، منشورات دار مكتبة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة، 1960.

75- **الزيود، محمد احمد:**

"النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع الهجري، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الاسلام، 1990".

76- سالم، السيد عبد العزيز:

- "**التاريخ والمؤرخين العرب**"، الاسكندرية، 1967م.
- "**تاريخ الدولة العربية**"، دار النهضة العربية، بيروت، 1971م.
- "**طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي**"، دار المعارف، الاسكندرية، 1967م.

77- السبع، محمد،

اسس الزراعة ونظمها عند العرب، الندوة العالمية الثالثة، لتاريخ العلوم عند العرب، بعنوان "**اسهامات في علم الملاحة**" مؤسسة الكويت،ط1، 1983م.

78- سرور، الدكتور محمد جمال الدين:

- "**تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق**" القاهرة، 1969.
- "**النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق**"، ط3.
- "**دولة الظاهر بيبرس**"، دار الفكر العربي،1964.

79- سرور، محمد جمال الدين:

- "**دولة بني قلاوون في مصر**" مطبعة الاعتماد، القاهرة1947.
- " **دولة الظاهر بيبرس في مصر**" القاهرة،1960.

80- سعداوي، نظر حسان:

- " **نظام البريد في الدولة الاسلامية**"، دار مصر للبطاعة، القاهرة، 1953م.
- "**صور ونظام من عصر المماليك**"، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة،1966م.

81- سليمان، وليم سليمان:

"**الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية**"، القاهرة، 1968.

82- شافعي، الدكتور سلام محمد:

"**اهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي والايوبي**"، القاهرة.

83- شاكر، محمود شاكر:

"**التاريخ الاسلامي، الدولة العباسية**"،ج2، بيروت.

84- الشامي، حسن محمود:
"**العملة وتاريخها**" الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980.
85- شقير، نعوم:
"**تاريخ سيناء**"، مطبعة المعارف، القاهرة، 1916م.
86- شلبي، ابو زيد احمد :
"**تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي**"، مكتبة وهبة، القاهرة.
87- شلبي، احمد:
"**موسوعة النظم والحضارة الاسلامية، النهضة المصرية** "، القاهرة، 1962م.
88- شناق، أحمد:
"**صحوة الخلافة العباسية**"، القاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة 1989م.
89- الشيال، جمال الدين:
"**تاريخ مصر الاسلامية**" جزءان، الاسكندرية، 1967م.
90- الشيبي، الدكتور كامل:
"**الفكر الشيعي والنزعات الصوفية**"، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، 1966م.
91- صالحية، الدكتور محمد عيسى:
"**بحوث ومقالات في الحضارة العربية والاسلامية**"، دار التقدم العربي، بيروت، مؤسسة دار الكتب، الكويت1988.
92- الصباغ، ليلى:
"**المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني**"، منشورات وزارة الثقافة،دمشق 1969.
93- صبحي صالح:
"**النظم الاسلامي**"، بيروت، دار العلم للملايين.
94- صفوح، خير:
"**غوطة دمشق**" دراسة في الجغرافية الزراعية، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، 1966م.
95- ضومط، انطون خليل:
"**الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري**"، دار الحداقة، بيروت، 1994م.

96- طرخان، ابراهيم علي :

- "**النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى**"، دار الكاتب العربي، القاهرة1968م.
- "**الاقطاع زمن السلاجقة والايوبيين**"، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.
- "**النظم الاقطاعية في الشرق المتوسط**" دار الكتاب العربي، القاهرة،1968م.
- **مصر في عصر دولة المماليك الجراكشة.**

97- ظاهر، عدنان محمد محمود:

"**التعليم في مدارس بيت المقدس الاسلامية في العصر الايوبي**" رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية.

98- عادل عبد السلام:

"**جغرافية سورية (طبيعية وبشرية)**"، دمشق، 1973م.

99- العارف، عارف :

- "**تاريخ القدس**" دار المعارف، القاهرة، 1951م.
- "**تاريخ غزة**" ، القدس، 1943م.

100- عاشور، سعيد عبد الفتاح:

- "**الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى**"، جزءان، القاهرة، 1963م.
- "**تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**"، دار النهضة العربية، بيروت،1976.
- "**الظاهر بيبرس**" مطبعة مصر، القاهرة، 1963م.
- " **مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك**"، دار النهضة، بيروت،1972.
- "**بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**"، كلية الاداب، القاهرة، 1977،وفيه المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، 1965.
- " **العصر المماليكي في مصر والشام**"، القاهرة، 1976.
- "**المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**"، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1962، وطبعة، 1962.

101- عاشور، فايد محمد:
" **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**" الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1401هـ/1981م.
102- العبادي، احمد مختار:
"**قيام دولة المماليك في مصر والشام**"، بيروت، 1972م،وطبعة 1969م.
103- عبد الرحمن زكي،
"**السلاح في الاسلام**"، دار المعرفة، القاهرة، 1951م.
104- عبد الرحمن، عبد الجليل حسن عبد المهدي:
"**المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي**"، مكتبة الاقصى، عمان،الاردن.
105- عبد السلام، محمد:
"**الحضارة العربية طابعها ومقوماتها**"، دار النهضة العربية، بيروت.
106- عبد السلام، موسى:
" **قرية الدوايمة**"، دار الجيل للنشر، عمان، 1985م.
107- عبد اللطيف، محمد فهمي:
"**السيد البدوي، دولة الدراويش في مصر**".
108- عبد الملك بطرس ورفاقه،
"**قاموس الكتاب المقدس**"، ج1، ج2، بيروت.1964-1967م.
109- العبيدي، صلاح حسين:
"**الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي**"، دار الرشيد، بغداد، 1980م.
110- عثمان، فتحي:
"**الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري**" نشر الدار القومية، القاهرة ، 1966م.
111- العدوي، ابراهيم احمد:
- "**تاريخ العالم الاسلامي بعصر البناء والانطلاق**"، ج1، القاهرة، 1983م.
- "**الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية**"، مطبعة لجنة البيان العربي، 1951م.
112- العريني، السيد الباز:
"**الاقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك والأيوبين**"، دار النهضة، القاهرة، 1956م.

113- العزاوي، عباس:
"**تاريخ النقود العراقية**"، مطبعة شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1377هـ/1458م.
114- العسلي، كامل:
"**من آثارنا في بيت المقدس**"، عمان 1982.
115- عطا، زبيدة محمد:
- "**الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين**".
- "**بيرس، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**" ج4، تحقيق زبيدة محمد عطا، رسالة دكتوراه، عين شمس.
116- العقاد، عباس محمود:
"**الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين**" المكتبة الثقافية، الهيئة العامة للكتاب، 1985.
117- علي، عبد الحفيظ:
"**المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنيين الثالث والسادس الهجريين/ التاسع والثاني عشر الميلاديين**"، النهضة العربية للطباعة والنشر، ج2،ط،القاهرة، 1982م.
118- علي، محمد كرد:
- "**خطط الشام**"، أجزاء، المطبعة المدنية، دمشق، 1925م.
- "**الاسلام والحضارة العربية**"، جزءان، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1950-1951م.
- "**غوطة دمشق**"، ط2، مطبعة الترقي، دمشق، 1952م.
- "**الادارة الاسلامية في عز العرب**"، القاهرةن 1934م.
119- العمد، الدكتور هاني صبحي:
" **معجم الناهين في جنوب بلاد الشام**" فلسطين، الاردن، ج1،عمان، 1985م.
120- عمر ، الدكتور فاروق:
- "**الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة**"، دولة الامارات.
- "**العين**"، 1983.
- "**الخلافة العباسية في عصور الفوضى**"بيروت،1979.
- "**النظم الاسلامية**- دار الخليج للطباعة والثقافة والنشر، ط1، الشارقة، دولة الأمارات،1983.

121- عنان، عبدالله:

"**مؤرخوا مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصري**"، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1388هـ/1969م.

122- عوض، محمد مؤنس أحمد:

"**التنظيمات الدينية الاسلامية والمسيحية في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين**"، القاهرة، 1948.

123- عيسى، احمد:

"**تاريخ البيمارستانات في الاسلام**" دمشق، 1357هـ.

124- غالب، مصطفى:

"**الحركات الباطنية في الاسلام**"، بيروت، دار الكتاب العربي.

125- الغامدي، علي محمد:

"**بلاد الشام قبيل الغزو المغولي**" (586-657هـ/1193-1259م)مكة، 1988.

126- غربال محمد شفيق:

"**الموسوعة العربية الميسرة**" القاهرة، 1965.

127- الغزي، نجم الدين الداري:

"**الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**"، تحقق جبران سليمان جبور، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1975م.

128- **غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام**، جمعية عمال المطابع الاردنية، عمان، 1981م.

129- الغمراوي:

" **دراسة بين المنهج التطبيقي لتاريخ الطب العربي**" القاهرة 1979.

130- غوانمة، الدكتور يوسف حسن درويش : "الاستاذ المشارك بدائرة":

- "**العلوم الانسانية والاجتماعية**" - بجامعة اليرموك، دار الفكر والنشر والتوزيع، عمان، 1983.
- "**التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي**"، ط2، عمان، 1982م.
- "**تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى**"، القسم الحضارية.
- "**تاريخ مدينة عمانَ وحضارتها**" منشورات دار اللواء، عمان، 1979م، للصحافة والنشر، عمان، 1979.
- "**تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**"، دار الحياة، الزرقاء، 1982،1986م.
- "**امارة الكرك الأيوبية** "جمعية عمال المطابع الأردنية، الناشر: بلدية الكرك، عمان 1400هـ/1980م.

131- فكري، احمد:
"**بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية**" اسكندرية، 1983م.
132- فهمي، عبد الرحمن:
- "**فجر السكة العربية**"، القاهرة،1965م.
- "**مجموعة النقود العربية وعلم النميات**" فجر السكة العربية،مطبعة دار الكتب، القاهرة،1957م.
- "**النقود العربية ماضيها وحاضرها**"، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دار العلم، 18شارع التوقيفية 1964م.
133- فهمي، نعيم زكي:
"**طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب**"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة1973م.
134- قاسم عبده قاسم:
"**الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين**" نشر دار المعارف،1982.
135- القاياني، الشيخ محمد عبد الجواد (ت 1320هـ/1902م)
"**تفحة البشام في رحلة الشام**"، دار الرائد العربي، بيروتن 1980م.
136- القزاز، محمد صالح:
"**الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير من 512-656هـ**"
137- القطب، سمير عبد الرزاق:
"**أنساب العرب**"، بيروت.
138- القطب، سمير عبد الرزاق:
"**انساب العرب**" منشورات دار البيان، بيروت.
139- القطب، سمير عبد الرزاق:
"**أنساب العرب**"، منشورات دار البيان، بيروت.
140- القيم، علي:
"**ابن النفيس**"، دار المعرفة 1988م.
141- كحالة، عمر رضا:
- "**دراسات اجتماعية في العصور الوسطى**"، المطبعة التعاونية، دمشق، 1973.
- "**معجم قبائل العرب** " المطبعة الهاشمية، دمشق، 1949.
- "**معجم المؤلفين**"، مطبعة الترقي، دمشق، 1957.
- "**اعلام النساء**"دمشق، 1959م، وطبعة 1940م.
- "**نشأة المدارس المستقلة في الاسلام**"، مطبعة الأزهر، بغداد، 1966م.

142- كحالة، محمد رضا:

"**دراسات اجتماعية في العصور الوسطى**"، المطبعة التعاونية، دمشق، 1973م.

143- الكرملي، الأب أنستاس:

"**النقود العربية والاسلامية وعلم النميات**" المطبعة الاميرية، القاهرة، 1939، ومكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987.

144- الكواكبي، سعد زغلول:

"**الحمامات في حلب عبر التاريخ والادب**"، الكتاب الاول، حلب، دمشق، المكتبة العمومية، 1981م.

145- كيال، منير:

"**الحمامات الدمشقية وتقاليدها**" ، دمشق 1964.

146- مؤنس، الدكتور حسين ورفقاه:

"**الوطن العربي وحضارته في العصور القديمة والوسطى**" للصف الثالث الثانوي، القسم الادبي، الكويت، ط4، 1977، 1978.وزارة التربية والتعليم.

147- ماجد، الدكتور عبد المنعم:

- "**نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**"، مكتبة الانجلوا المصرية، القاهرة، 1973.
- "**تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى**"، مطابع سجل العرب، ج1، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1979 وطبعة 63، القاهرة، 1973.
- "**الناصر صلاح الدين الايوبي**"، القاهرة، 1958م.

148- ماهر، سعاد:

"**عقود الزواج على المنتوجات الاثرية**"، القاهرة، 1960.

149- المبيض، سليم عرفات:

- "**غزة وقطاعها، دراسة في خلود المكان وحضارة السكان الهيئة المصرية العامة** للكتاب، القاهرة،1987م.
- "**النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الاجنبية.**" من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام1946م. والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.

150- محاسنة، محمد سلامة:

"**الاحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الايوبي**"، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1986.

151- محسن، محمد حسين:

"**الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**"، مؤسسة الرسالة.

152- محمد باقر الحسيني:

"**العملة الاسلامية في العهد الاتابكي**"، دار الجاحظ، بغداد، 1969.

153- محمد فهمي عبد اللطيف السيد البدوي:

"**دولة الدروايش في مصر**".

154- محمود العابد:

"**البتراء**" عمان، نابلس،1956.

155- محمود وصفي محمد:

"**دراسات في الفنون والعمارة الاسلامية**" دار الثقافة، القاهرة، 1980م.

156- مرحبا، الدكتور محمد عبد الرحمن:

" **المرجع في تاريخ العلوم عند العرب**" بيروت، درا العودة، منشورات دار الفيحاء، 1978.

157- معروف ناجي:

"**نشأة المدارس المستقلة في الاسلام**"، مطبعة الأزهر، بغداد، 1966.

158- المعستي، الدكتور محمد ابو الفرج:

" **النقود العربية الاسلامية المحفوظة بمتحف قطر الوطني**"، وزارة الاعلام، الدوحة، 1984م.

159- مكاحلة، نهى محمد حسين:

"**الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي**"، رسالة ماجستير غير منشورة، اربد ، جامعة اليرموك، 1991م.

160- المناوي، الدكتور محمود حمدي:

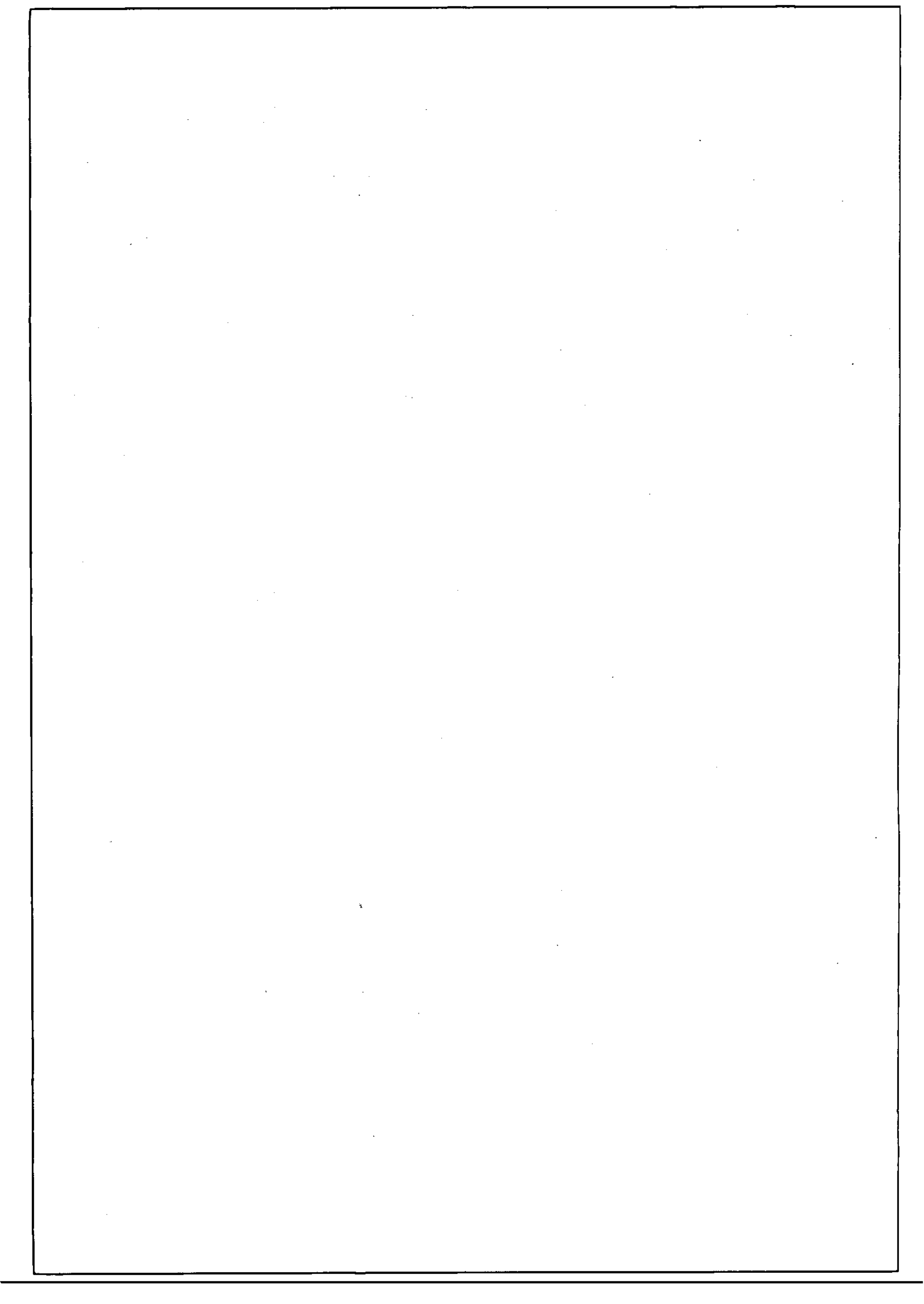
"**الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**"، دار المعارف بمصر.

161- المنذري، زكي:

"**التكمله لوفيات النقله**" تحقيق بشار معروف، مطبعة الادب في النجف الاشرف، 1388هـ/1986م.

162- المهايتي، رفيق:

"**الاسطول الاسلامي منذ الفجر الاسلامي وحتى اواخر عهد المماليك**" بيروت،1942.



176- الوشيلي، عبدالله :
"**المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلف العلمي**"، مؤسسة الرسالة، مكتبة الجيل الجديد، بيروت.1988.
177- وصفي، زكريا احمد :
"**المفكرة الزراعية**"، مطبعة الترقي، 1930م.
178- ولفنستون، اسرائيل:
"**تاريخ اليهود في بلاد العرب**"، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1927.
179- يوسفن جوزيف نسيم:
"**الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي**"،ص1966،القاهرة.

ثامناً:

الدوريات " الجرائد والمجلات"

1- احمد سوسة:
"**اللغة العبرية وصلتها باليهودية**"، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، نيسان، 1970.
2- جريدة الخليج اليومية:
"**التوراة المعاصرة وهم وخدعة**"، وحقائق جرمية في الديانة اليهودية، للمؤلف نواف حردان، والدكتور قصي الحسين، للناشر: دار الحداثة، بيروت، 1996، العدد، 6376، الجمعة 20جمادي الاخرة، 1417هـ/نوفمبر، 1996م. من مكتبة الخليج.
3- جريدة الخليج:
نشرت كتاب روجيه جارودي: المفكر الفرنسي اليهودي الأصل" **الصهيونية**" الشارقة، دولة الامارات العربية المتحدة ، 2 ذي الحجة، 1419هـ/8 مايو 1996م.
4- حمارنة:
"**قصب السكر**"، حولية دائرة الاثار، م22، ص14-15.
5- حولية دار الاثار الاردنية، المجلدان السادس والسابع، عمان وفلسطين، الهيئة العربية العليا، العدد 90 لعام 1992، والعدد 102لعام 1969م.
6- الرأي الاردنية:
"**عروبة القدس**" حديث للسيد حازم نسيبة، مندوب الاردن الدائم لدى الامم المتحدة، عدد يوم السبت الموافق، الاردن، عمان 1997/8/2م.
7- زكي، عبد الرحمن:
"**العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبية**"، المجلة التاريخية المصرية، عدد7، 1958م.
8- سامي حداد
"**المارستانات العربية**"، مجلة المقتطف،1937، م9،ج1،ص14.
9- صلاح المنجد:
"**مجلة اللغة العربية بدمشق**"، رقم 48، ابريل.
10- العارف، عارف:
"**الاماكن المقدسة الاسلامية**"، مقالة بمجلة الهروب الحديث، 1962، عمان، الاردن.

11- عاشور:
"**بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى**"، المجلة التاريخية، م14، 1968، ص22.
12- عبد العزيز سالم
"**الصلات التاريخية بين مصر والشام في العصر الاسلامي**"، مجلة العلوم، بيروت، مارس 1962.
13- عبد الكريم، احمد عزت:
"**التقسيم الاداري لسورية**"، مجلة كلية اداب جامعة القاهرة، عدد مايو 190م.
14- العدوي، ابراهيم أحمد:
"**الحمام الزاجل في العصور الوسطى، بحث في المجلة التاريخية المصرية**"م2،عدد1، مايو1949.
15- العريني، السيد الباز :
- "**الفارس المملوكي**"، بحث في المجلة التاريخية المصرية، م5، 1956م.
- "**الحسبة والمحتسبون في مصر**"، بحث في المجلة التاريخية المصرية، م3، عدد2، اكتوبر1950م.
16- عماد الدين خليل :
مقال: "**فلسطين في الادب الجغرافي والعربي**". المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، 1980، المنقذ في عمان، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1983م.
17- **قانون نامة ال عمران**، ترجمة خليل ساحوري، مجلة الابحاث، الجامعة الاردنية، 1986، م13،ع3، ص164م.
18- القوصي:
"**صلاح الدين واليهود**"، المجلة التاريخة المصرية، م24، 1977، ص41.
19- مجلة الرسالة الاسلامية:
"**اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية**"، بقلم: جمال الدين الألوسي، بغداد، 1968، ع1، ص91،
20- مجلة الرسالة:
"**استيلاء المغول على بغداد لنصير الدين الطوسي**"، بقلم: علوان عباس الصالح، القاهرة، 1934م، ص855-857.

21- المجلة العسكرية:
"**ادوار الحروب الصليبية ومداها الزمني**" بقلم: المقدم الركن: سالم احمد زينو، بغداد، ص4،1965.
22- مجلة الفجر الاردنية،
"**سكة فلسطين الاسلامية**"، عدد مارس، 1983،ص38، السامرائي، حشام الدين، مجالات الضرائب على الأرض والانتاج الزراعي،مجلة الحضارة الاسلامية، مجلة الحضارة الاسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية، مؤسسة ال البيت ج2، ص124.
23- مجلة المشرق:
"**احتيال الملوك الايوبيين في رشوة النساء الفرنجيات للتجسس على الصليبيين**"، بقلم حبيب زيات (ت1373هـ/1954م)، الخزانة الشرقية، بيروت، 1938م.
24- مجلة مركز الدراسات الفلسطينية:
- "**العلاقة الحضارية والسياسية بين العرب واليهود**"، الدكتور الخربوطي.
- "**اراء ابن خلدون في اليهود**"، 1973م.
- "**لمحة تاريخية عن أحوال اليهود في العصر العباسي**"، للدكتور فاروف عمر، 1973.
25- محمد الصالح:
"**تتائج الصدقة الاقتصادية لغزو الفرنجة**"، مجلة تاريخ العرب، بيروت، 1989، ص123-124م.
26- "**مدخل لدراسة الربط الاسلامية**"، مجلة المورد، م2،عدد2، 1973م.
27- المغربي، عبد القادر:
"**يهود الشام**"، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، تشرين ثاني " نوفمبر) م9،ج11،ص610،1929.

تاسعاً:

المراجع الفارسية المترجمة

1- الدهلوي، شاه عبد العزيز غلام حكيم، ت1293هـ/1819م.
"**مختصر التحفة الاثنى عشرية، اختصار الالوسي 1301هـ**"، طبعة الأوفست، استانبول، تركيا1399هـ/1979م، ونقله من الفارسية إلى العربية الشيخ الحافظ الاسلمي 1227هـ، المطبعة الاسلمية، القاهرة، 1373هـ.

2- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت، ق، 7هـ)
"**راحة الصدور واية السرور في تاريخ الدولة السجلوقية**"، الفه بالفارسية، الترجمة العربية، القاهرة، 1960م.

3- رشيد الدين، فضل الهمداني (ت 718هـ/1317م)
"**جامع التواريخ**" م2، فارس معزم، القاهرة، 1960، نقله إلى العربية مجموعة من الاساتذة اذ الفه، أيام السلطان غازان خان (694-703هـ) وهو عن سيرة هولاكو واعماله.

4- علوي، ناصر خسرو (ت 481هـ/ 1088م)
"**سفر نامة**"، باريس، 1881م، نقله عن الفارسية إلى العربية يحيى الخشاب، 1946، مطبعة لجنة التاليف والترجمة، القاهرتن 1954م.

5- يحيى بن عبد المطلب القزويني:
"**لب التواريخ**" تاريخ عام، مكتبة ولي الدين أفندي.

عاشراً:

المراجع الأجنبية الأوروبية المعرّبة بالترجمة

1- "**دراسات في حضارة الاسلام**" ترجمة احسان عباس ومحمد نجم، ومحمود زايد، بيروت، 1964م.
2- ا ، هـ، م جونز :
"**مدن بلاد الشام**"، ترجمة دكتور احسان عباس، عمان 1987م.
3- ارنولد توماس:
- "**الخلافة**"، دار اليقظة، دمشق، تعريب عبد الهادي، ابو زيدة، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، "عدة طبعات".
- "**تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة**"، ترجمة زكي حسن، سوريا 1984م.
- "**الدعوة الى الاسلام**" ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، القاهرة،1970م وطبعة 1957م.
4- اس، نزتون
"**أهل الذمة في الاسلام**"، ترجمة حسن حبشي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1949م.
5- الانجر، وليم:
"**موسوعة تاريخ العالم**"، ترجمة د. مصطفى زيادة، القاهرة.
6- ايكوشار ولوكو (ميشيل وكلورا):
"**حمامات دمشق**"، تعريب محمود الاركلي ونبيه الكواكبي، دمشق.
7- بارتولد:
"**تاريخ الحضارة الاسلامية**" ط4، نقله إلى العربية حمزة طاهر ، القاهرة، دار المعارف، 1966م.
8- بالور، لويس:
" **القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**" ترجمة احمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، القاهرة، 1960م.
9- براور:
"**عالم الصليبيي**" ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم، ود. محمد خليفة حسن ط1، دار المعارف 1981م.
10- بروتز، هـ:
"**التاريخ الثقافي للحروب الصليبية**"، برلين، 1883م.

11- بروكلمان، كارل:

"**تاريخ الشعوب الاسلامية**" ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1977، 4 اجزاء.

21- بهايم، سوبر:

"**صلاح الدين الايوبي**" ترجمة صبحي، القاهرة د.ت.

22- بولياك:

" **الاقطاع في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان**" ترجمة عاطف أكرم، ط1، بيروت، 1984م.

23- بيركهارت:

" **سوريا الجنوبية**" ج2، ترجمة أنور عارف، المطبعة الاردنية، عمان.

24- بيك، اللفتانت كولونيل فردريك:

" **تاريخ شرق الاردن وقبائله**"، ترجمة بهاء الدين طوقان،الدار العربية للنشر والتوزيع، الاردن، عمان، 1934م.

25- "**تاريخ فلسيطن في العصور الوسطى**"، ترجمة حداد، بغداد، 1973م.

26- جب هلتون وهارولد:

"**المجتمع الاسلامي** - الغرب" جزءان، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1971.

27- جورج كيرك:

"**موجز تاريخ الشرق الاوسط منذ ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر**" ترجمة عمر الاسكندري، القاهرة، 1957م.

28- جونز، سي:

"**تاريخ فلسطين في عهد الصليبين، ط3.**

29- جيرلاند، ي:

" **تاريخ الفرنجة في الأراضي المقدسة**"همبورغ، 1965م.

30- حتي، فيليب:

"**تاريخ العرب (تاريخ سوريا ولبنانة وفلسطين)**" جزءان، ج1، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رزق، القدس، 1946-1952م، 1961م. عدة طبعات.

31-**الخوارج والشيعة**: ترجمة عن الالمانية عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م.

32- دوزي، رينهارت:

"**المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب**" ترجمة د. أكرم فاضل، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، 1971م.

33- دوزي، رينهارت:

" **تكملة المعاجم العربية**"، ج3، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، 1981م.

34- دي شامب، ب:

"**قصور الصليبين في الأراضي المقدسة**." مجلد1، باريس، 1939م.

35- ديماند، م س:

"**الفنون الاسلامية**" ترجمة أحمد محمد عيسى، دار المعارف، القاهرة، 1953م.

36- ديورانت، ول:

"**قصة الحضارة**" الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والنشرالقاهرة، 1950م.عدة طبعات 1952.

38- ر، سي، سميل:

"**فن الحروب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر**"، ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلاد، دمشق، 1985م.

39- رادولوف:

"**رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين**"، ترجمة سليم التكريتي،العراق،1978م.

40- رانيسمان، ستيسفن:

"**تاريخ الحروب الصليبية**" 3 مجلدات، لنيدن، 1951-1954م، ترجمة د. الباز العريني، بيروت، 1968م.

41- روبرت لوبيز:

" **التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب**" ترجمة: توفيق اسكندر، في كتاب يشمل على خمس بحوث مترجمة باسم بحوث في التاريخ الاقتصادي، القاهرة، 1961م.

42- روهر يخت :

" **تاج مملكة القدس (1100-1291)**"، سبوك 1899م.

43- ريسلر، جاك، س:
"**الحضارة العربية**"، ترجمة غنيم عبدون ومراجعة أحمد الرهوات، الدار المصرية للتاليف والترجمة.
44- زامبارو، ادوارفون:
"**معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي**" ارجه الدكتور زكي محمد حسن، وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول 1952م.
45- سبولر، ب:
"**تاريخ الاقطار الاسلامية**" الاخلافة، نشوء الدولة الاسلامية وسقوطها.
46- ستانلي لين بول:
"**الدولة الاسلامية**" نقله من التركية الى العربية محمد صبحي فررزات، اشراف علي ترجمته وعلق عليه محمد احمد دهمان، دمشق.
47- علي، سيد أمير:
"**مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي**" تعريب رياض رافت، 1938م.
48- فالتز، هانس:
"**المكاتيل والموازين الاسلامية وما يعادلها في النظام المنزي**" ترجمة كامل العكسي، عمان، منشورات الجامعة الاردنية، 1970م.
49- فلهلم، رودلف :
" **صلة القرآن باليهودية والمسيحية**" بيروت، 1974م.
50- فلهوزن، يوليوس:
" **تاريخ الدولة العربية**"، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، وحسين مؤنس، لجنة التاليف والنشر، القاهرة، 1968م.
51- فولني:
"**ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام**" ج1، ترجمة ادورد البستاني، دار المكشوف، بيروت، 1949م.
52- كاهن كلود:
"**تاريخ العرب والشعوب الاسلامية**" ، ج1، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1972.

53- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفتش:

" **تاريخ الادب الجغرافي العربي**"، ج1، ترجمة صلاح الجين هاشم مراجعة ايغور بليابيف، القاهرة، لجنة التأليف والنشر.

54- كونل، أرنست:

" **الفن الاسلامي**" ترجمة، أحمد موسى، مطبعة أطلس، القاهرة، 1961م.

55- ل.ا، ماير:

"**الملابس المملوكية**" ترجمة صالح الشيتي، جنيف مراجعة وتقديم الدكتور عبد الرحمن فهمي، نشر، 1952م. والهيئة المصرية العامة للكتاب 1972م.

56- لامنس هنري:

"**الشام تحت حكم الفرنجة الصليبيين**"، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد.

57- لانكستر هاردنج:

" **اثار الأردن**"، ترجمة سليمان الموسى، عمان، 1971، وطبعة 1965م.

58- لويس، برنارد:

"**العرب في التاريخ**" دار العلم للملايين، بيزوت، 1995م.

59- لي، سترانج:

- "**فلسطين في العهد الاسلامي** "، ترجمة محمود عمايرة، عمان، 1970.
- "**بلدان الخلافة الاسلامية**"، ترجمة بشر فرانسيس و كوركيس عواد، مطبوعات المجمع العالمي العراقي، بغداد، 1954م، وطبعة بيروت 1985م.

60- ماسنيون:

" **التنظيمات الحرفية والمدنية في الاسلام**" دراسات المستشرقين ترجمها وعلق عليها:"ابراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر، عمان 1985م.

61- ماكدويل، ديفيد وليام:

" **مجموعة النقود صيانتها، تنظيفها، عرضها**" ترجمة نبيل زين الدين الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 19786م.

62- ماير:

" **الملابس المملوكية**" ترجمة صالح الشيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1972.

63- متز، آدم:
"**تاريخ الحضارة الاسلامة في القرن الرابع الهجري**"، جزءان، ط القاهرة، 1377هـ/1957م،

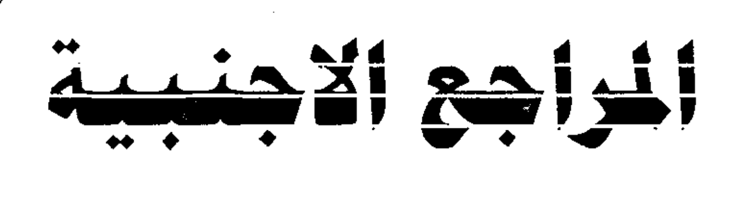
64- موير، وليم:
"**تاريخ دولة المماليك في مصر**"، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن مطبعة المعارف، القاهرة، 1924م.

65- ميللر، بروز:
- "**مخطوطات البحر الميت**"، ترجمة محمود العابدي، المطابع التعاونية، عمان 1967م.
- "**مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين**"، ج1، القاهرة، 1974م.

66- هاري بارتز:
"**تاريخ الكتابة التاريخية**" ، ترجمة د. محمد برج، الهيئة العامة، القاهرة 1984م.

67- هونكة، زيغريد:
"**شمس العرب تسطع على الغرب**" أثر الحضارة العربية في اوروبا"، الترجمة العربية، بيروت، 1964م.

الحادي عشر:



1- A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.

2- Aldo R. Travel of Markopolo, 2 vlos London, 1931.

3- Archer. (T.A.): the Crusades, the Story of Latin Kingdom, London. 1962.

4- Arnold Sir Thomas, The Caliphate, Oxford, 1942.

5- Ben - Sason, Jewish Society Throw the Ages, 1937, PP. 181-184.

6- City Coine of Palestine, vol 2, Jerusalem, 1977.

7- Conder, (J. L.) The Kingdom of Jerusalem, 1099 to 1291, London, 1897.

8- Condercc Ann: The Survey of Eastern Palestine, London, 1889.

9- Conhen & Leweis, Population and Revenue in the Towns of Palestine, U.S.A. 1978.

10- Fatimid Coins, New York, 1951.

11- Frescobaldi, Gucci, and Sigoli, Visit to the Holly Places of Egypt, Palistine and Syrian 1384.

12- George. C. Miles, Rane Islamic Coins, New York, 1950.

13- Hittphilip, K. History of The Arabs from the Earlies times to the present, 1985, 1964.

14- Holf, The Eastern Mediterranian Lands in the Period of the Crusades, England, 1977.

15-J. Spencer, Trimny hame, The Sufi orders in Islam, Oxford, Carendan Press, 1971.

16- Jacob Dehaas: History of Palestine, New York, P. 289.

17- Keer, A. G. C. The Crusades, London, 1966.

18- Lan - Poole, History of Egypt in the Middle ages, London, 1901.

19- Lane Poole: - Catalonge of the Collection of Arabic Coins.

20- Laoidus, I. M. "Muslim Cittes in Later Middle Ages" Mussacha settes, 1967.
21- Lapidus, Muslem Cities in the Later Middle Ages, 1967.
22- Le Strange (Gey): Palestine under the Moslems, Beirut, 1965.
23- Lewis B., The Arabs in History, London, 1985, 1964.
24-Lopes & Raymond: Medival Trade in the Mediterranian World, New York, 1955.
25-Lopez & Rymond: The Commercial Revolution of the Middle Ages, U.S.A. 1976.
26-M. A. Mayer, History of the City of Gaza, Ams Press, New York, 1966.
27-M. Broome, Hand book of Islamic Coins, Seaby's London, 1985.
28-M. Rosenberger: - City Coine of Palestine, vol I, Jeerusalem, 1972.
29-Mann (Jacob): The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 vols. Oxford, 1920.
30-MarcoPolo: The Travels of Marcopolo, New. York.
31-Maundrelle, Henry, The Journy of Henry Maundrell from Aleppo to Jerusalem, A. D, 1697. in Thomas wright (ed) Early Travels in Palestine, London, 1848, PP. 383-506.
32-Medival Trade in the Mediterranian world New York, 1955.
33-Muir (W):
34-Muller (W): Casttes of the Crusaders, London, 1966.
35-Mury: Hand book for Travelles in Syria and Palestine, London, 1868.
36-Nelson (Gluec): The Other Side of the Jordan, Combridge, 1970.
37-Painter, S. A History of the Middle Ages, London, 1966.
38-Poliak (A. N.): Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250-1900, London, 1939.

39-Runciman. S. A History of the Crusades, 3 vols, Cambrigge, 1984-1985, 1962.

40- Rusell: Michael "Palestine of the Holly Land, Third Edition, 1833, P161.

42-Saunders, J. J.: A History of Medieval Islam, London, 1965.

43-Sauvaget: "Introduction of the History of Muslim East, California, 1965.

44-Setton. K. M. A History of the Crusades, vol one, The University of Wisconsin, Press, London, 1969.

45-Smith CG. A.: The Historical Geography of the Holy Land, London, 1896.

46-Stevenson, W. The Crusaders in The East, Lebanon, Beirut 1968 & Cambridge 1907.

47-The Caliphate, its rise, Decline and Fall, London, 1924. and Beirut. 1963.

48-The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 vols, (Oxford 1922).

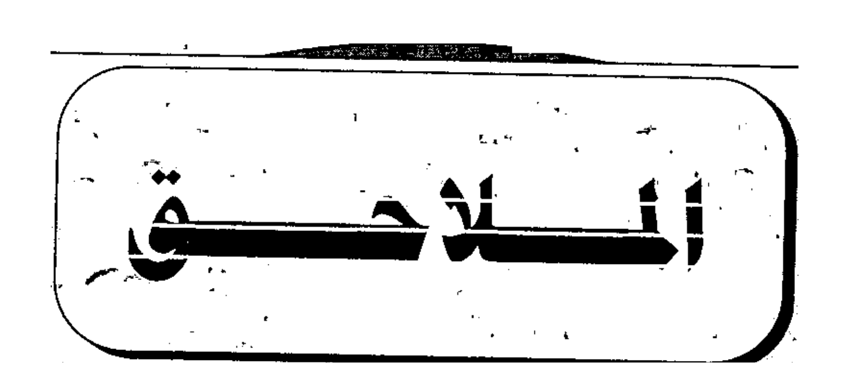
49-Tritton, A. S: "Muslim Education in the Middle Ages, London, 1957.

50-Watson: Andrew, "Amedieval Green Revolution New Crops and Forming Techniques in the Early Islamic world, The Islamic Middle East, 1960, PP.7, 23.

51-Wikinson John, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, 1977, P. 82.

52-Wiliam of Tyre, A History of Deads done beyond the Sea U.S.A. 1943 (Translated by Babcoh and Krey, U.S.A, 1967).

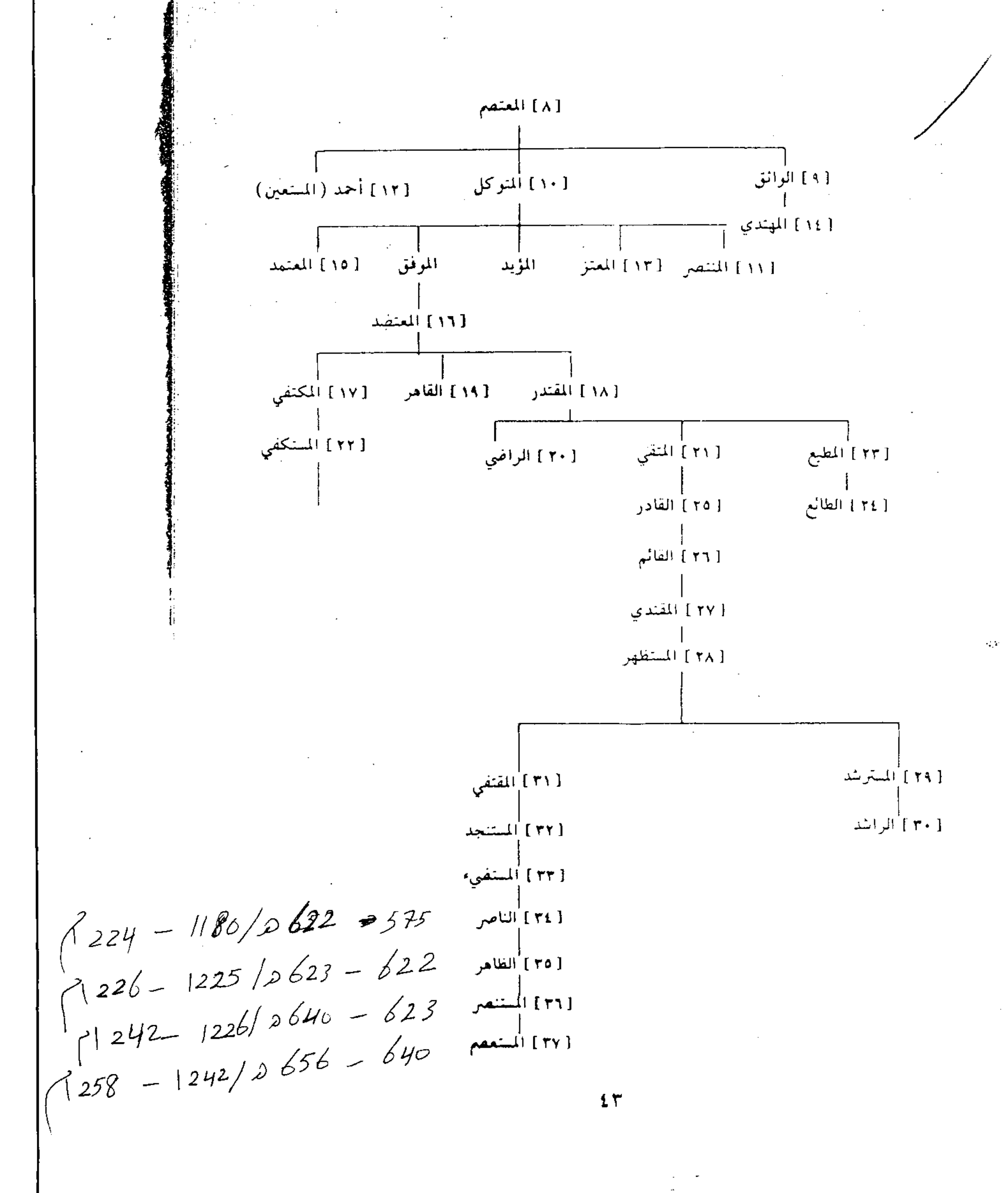
53-Ziadeh CN. Urban Life in Syria, Beirut, 1953.


الملاحق

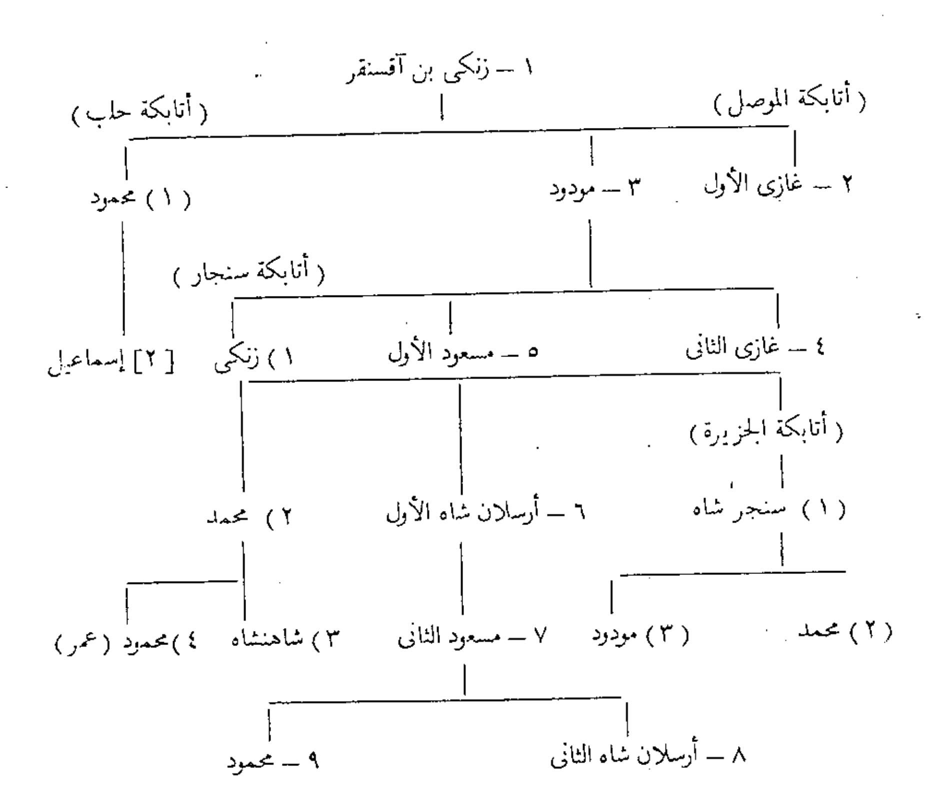


أولاً:

ملاحق الحكام


[٨] المعتصم
[٩] الواثق
[١٠] المتوكل
[١٢] أحمد (المستعين)
[١٤] المهتدي
[١١] المنتصر
[١٣] المعتز
المؤيد
الموفق
[١٥] المعتمد
[١٦] المعتضد
[١٨] المقتدر
[١٩] القاهر
[١٧] المكتفي
[٢٢] المستكفي
[٢٣] المطيع
[٢١] المتقي
[٢٠] الراضي
[٢٤] الطائع
[٢٥] القادر
[٢٦] القائم
[٢٧] المقتدي
[٢٨] المستظهر
[٢٩] المسترشد
[٣٠] الراشد
[٣١] المقتفي
[٣٢] المستنجد
[٣٣] المستضيء
[٣٤] الناصر
[٣٥] الظاهر
[٣٦] المستنصر
[٣٧] المستعصم
575 - 622هـ/1180 - 1224م
622 - 623هـ/1225 - 1226م
623 - 640هـ/1226 - 1242م
640 - 656هـ/1242 - 1258م

بنو زنكى



بدر الدين لؤلؤ

(الوزير ناصر الدين محمود أتابك الموصل)

الصالح ركن الدين إسماعيل (الموصل) — المجاهد إسحاق (جزيرة ابن عمر) — المظفر على (سنجار)

(١) يذكر لين پول عدا من ذكرنا من أبناء لؤلؤ ابنين آخرين هما السعيد الذى حكم فى حلب وسيف الدين (فى الجزيرة) ، وربما ذكر سيف الدين أيضاً باسم أبى الفرج .

بنو زنكى

١١٧ ــ أتابكة الموصل

٥٢١ ــ ٦٣١ هـ		١١٢٧ ــ ١٢٣٣ م
٥٢١	عماد الدين زنكى (استولى أيضاً على حلب)	١١٢٧
٥٤١	سيف الدين غازى الأول	١١٤٦
٥٤٤	قطب الدين مودود	١١٤٩
٥٦٥	سيف الدين غازى الثانى	١١٧٠
٥٧٦	عز الدين مسعود الأول	١١٨٠
٥٨٩	نور الدين أرسلان شاه الأول	١١٩٣
٦٠٧	عز الدين مسعود الثانى	١٢١١
٦١٥	نور الدين أرسلان شاه الثانى	١٢١٨
٦١٦ ــ ٦٣١	ناصر الدين محمود	٢١٩ ــ ١٢٣٣

٥٨ ـ المماليك الترك فى مصر

٦٤٨–٧٩٢هـ ١٢٥٠–١٣٩٠م

٦٤٨	المعز عز الدين أيبك التركمانى	١٢٥٠
٦٥٥	المنصور نور الدين على	١٢٥٧
٦٥٧	المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
٦٥٨	الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقدارى	١٢٦٠
٦٧٦	السعيد ناصر الدين بركة قان	١٢٧٧
٦٧٨	العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
٦٧٨	المنصور سيف الدين قلاون	١٢٧٩
٦٨٩	الأشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠
٦٩٣	الناصر ناصر الدين محمد	١٢٩٣
٦٩٤	العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤
٦٩٦	المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٧م
٦٩٨	الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثانية)	١٢٩٩
٧٠٨	المظفر ركن الدين بيبرس الثانى الجاشنكير	١٣٠٩
٧٠٩	الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثالثة)	١٣١٠
٧٤١	المنصور سيف الدين أبو بكر	١٣٤١
٧٤٢	الأشرف علاء الدين كجك	١٣٤١
٧٤٢	الناصر شهاب الدين أحمد	١٣٤٢
٧٤٣	الناصر عماد الدين إسماعيل	١٣٤٢
٧٤٦	الكامل سيف الدين شعبان الأول	١٣٤٥
٧٤٧	المظفر سيف الدين حاجى الأول	١٣٤٦
٧٤٨	الناصر ناصر الدين حسن	١٣٤٧
٧٥٢	الصالح صلاح الدين صالح	١٣٥١
٧٥٥	الناصر ناصر الدين حسن (مرة ثانية)	١٣٥٤
٧٦٢	المنصور صلاح الدين محمد	١٣٦١
٧٦٤هـ	الأشرف ناصر الدين شعبان الثانى	١٣٦٣
٧٧٨	المنصور علاء الدين على	١٣٧٧
٧٨٣	الصالح صلاح الدين حاجى الثانى	١٣٨١
٧٨٤	برقوق (من المماليك الجراكسة)	١٣٨٢
٧٩١ – ٧٩٢	المنصور ناصر الدين حاجى الثانى (مرة ثانية)	١٣٨٩ – ١٣٩٠

[ثم كان حكم المماليك الجراكسة]

3

١ ـ جدول باسماء ملوك امارة الكرك في العصر الايوبي :

٥٨٤ ـ ٥٩٢هـ العادل سيف الدين أبو بكر .
١١٨٩ ـ ١١٩٦م

٥٩٢ ـ ٥٩٤هـ الملك المعظم عيسى بن العادل (على الكرك وحدها) .
١١٩٦ ـ ١١٩٨م

٥٩٤ ـ ٦٢٤هـ الملك المعظم عيسى على دمشق والكرك معا .
١١٩٨ ـ ١٢٢٧م

٦٢٤ ـ ٦٢٦هـ الملك الناصر داود بن عيسى على دمشق والكرك معا .
١٢٢٧ ـ ١٢٢٩م

٦٢٦ ـ ٦٤٧هـ الملك الناصر داود على الكرك وحدها نقلا .
١٢٢٩ ـ ١٢٤٩م

٦٤٧ ـ الملك المعظم عيسى بن الناصر داود .
١٢٤٩م

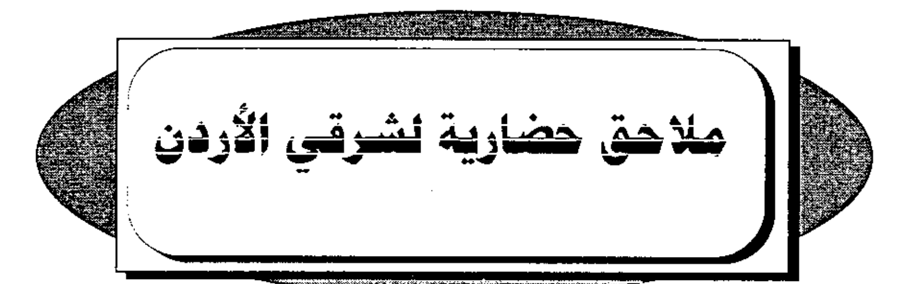
٦٤٧ ـ ٦٤٨هـ الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر وابنه المعظم
١٢٤٩ ـ ١٢٥٠م تورانشاه . ونائبهما فيها بدر الدين الصوابي .

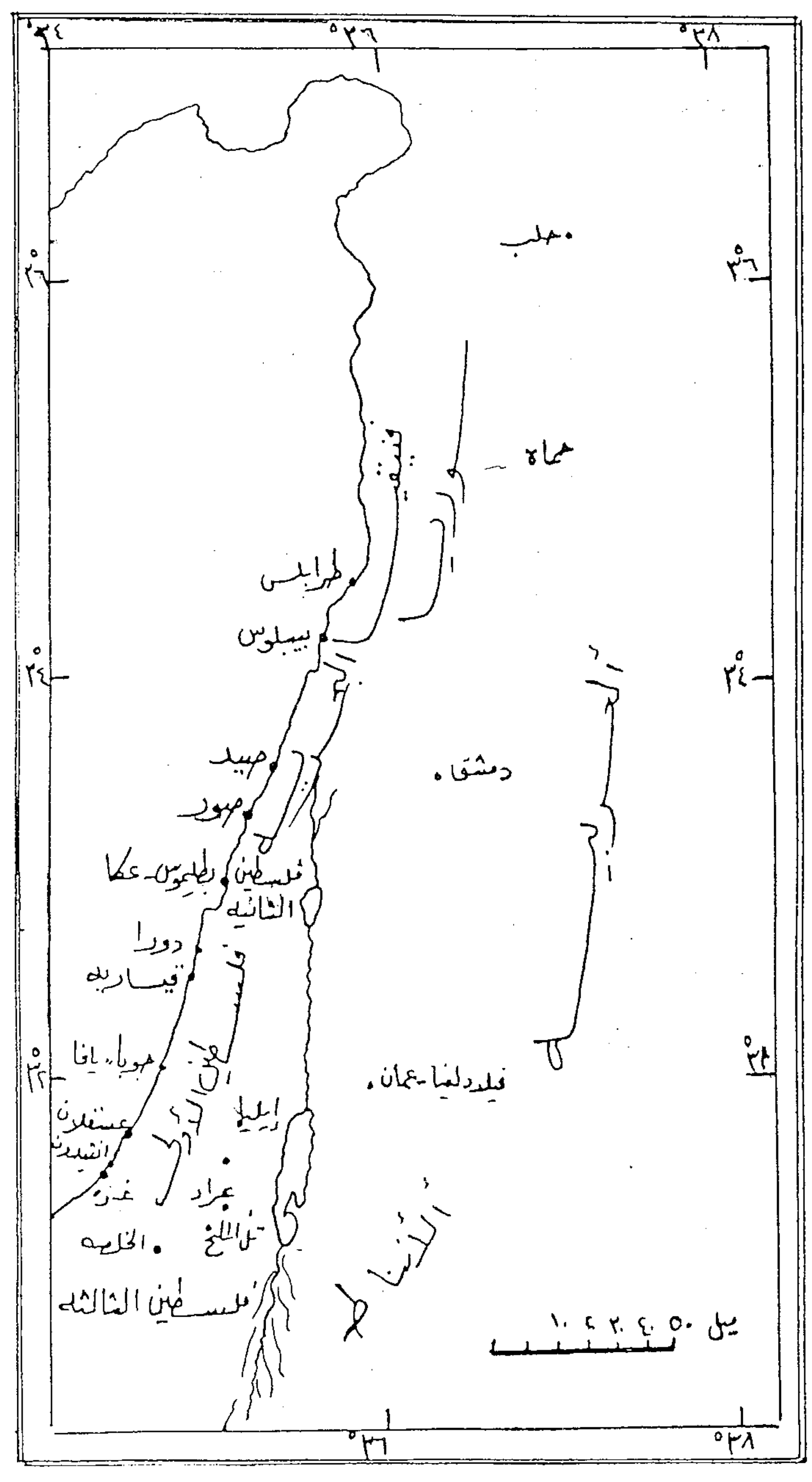
٦٤٨ ـ ٦٦١هـ الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل .
١٢٥٠ ـ ١٢٦٣م

٢ ـ جدول بنسب ملوك امارة الكرك من البيت الايوبي :

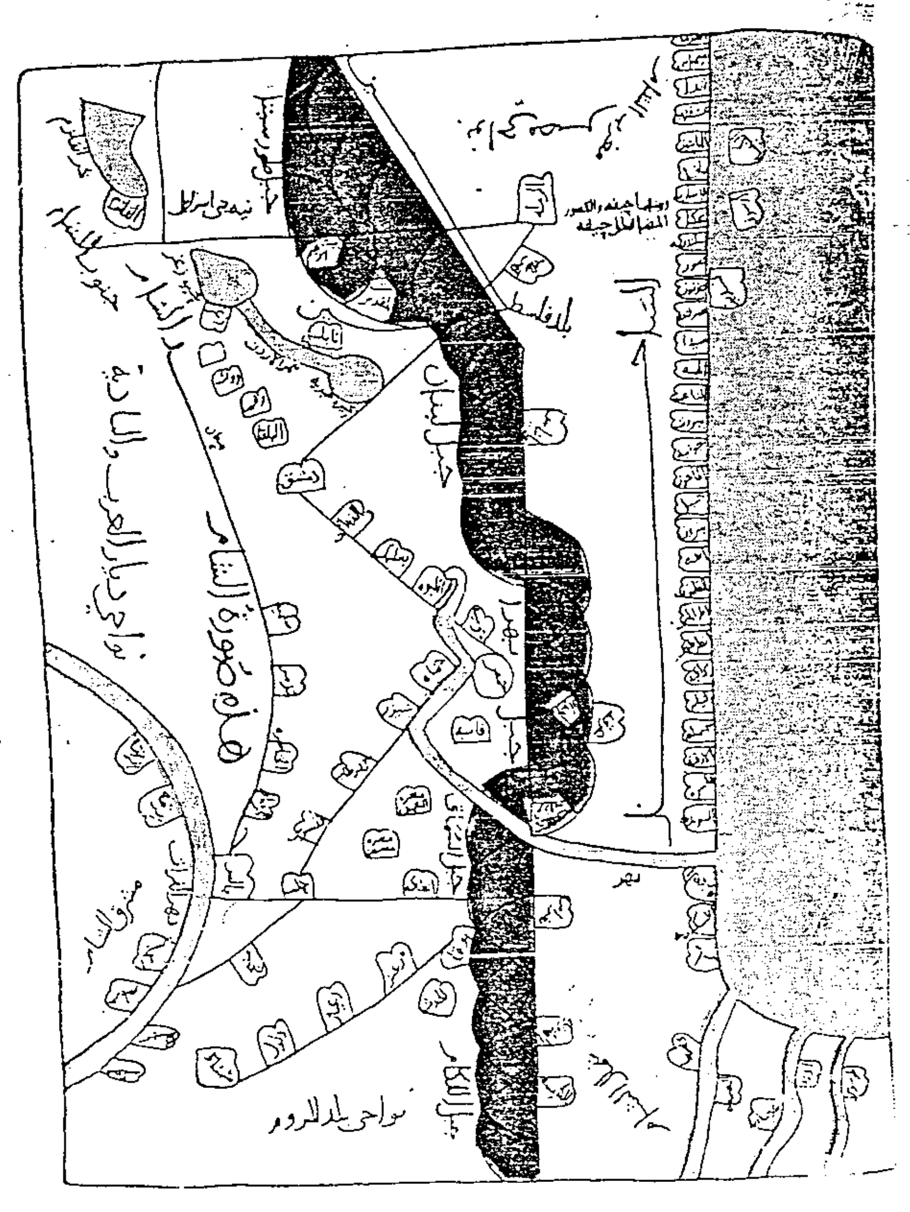
- نجم الدين أيوب
  - (١) العادل الاول أبو بكر
    - (٢) المعظم عيسى
      - (٣) الناصر داود
        - الظاهر شاذي
        - الامجد حسن
        - (٤) المعظم عيسى الثاني
    - الكامل محمد
      - العادل الثاني
        - (٥) المغيث فتح الدين عمر
          - العزيز عثمان
      - الصالح نجم الدين أيوب

ثانياً:



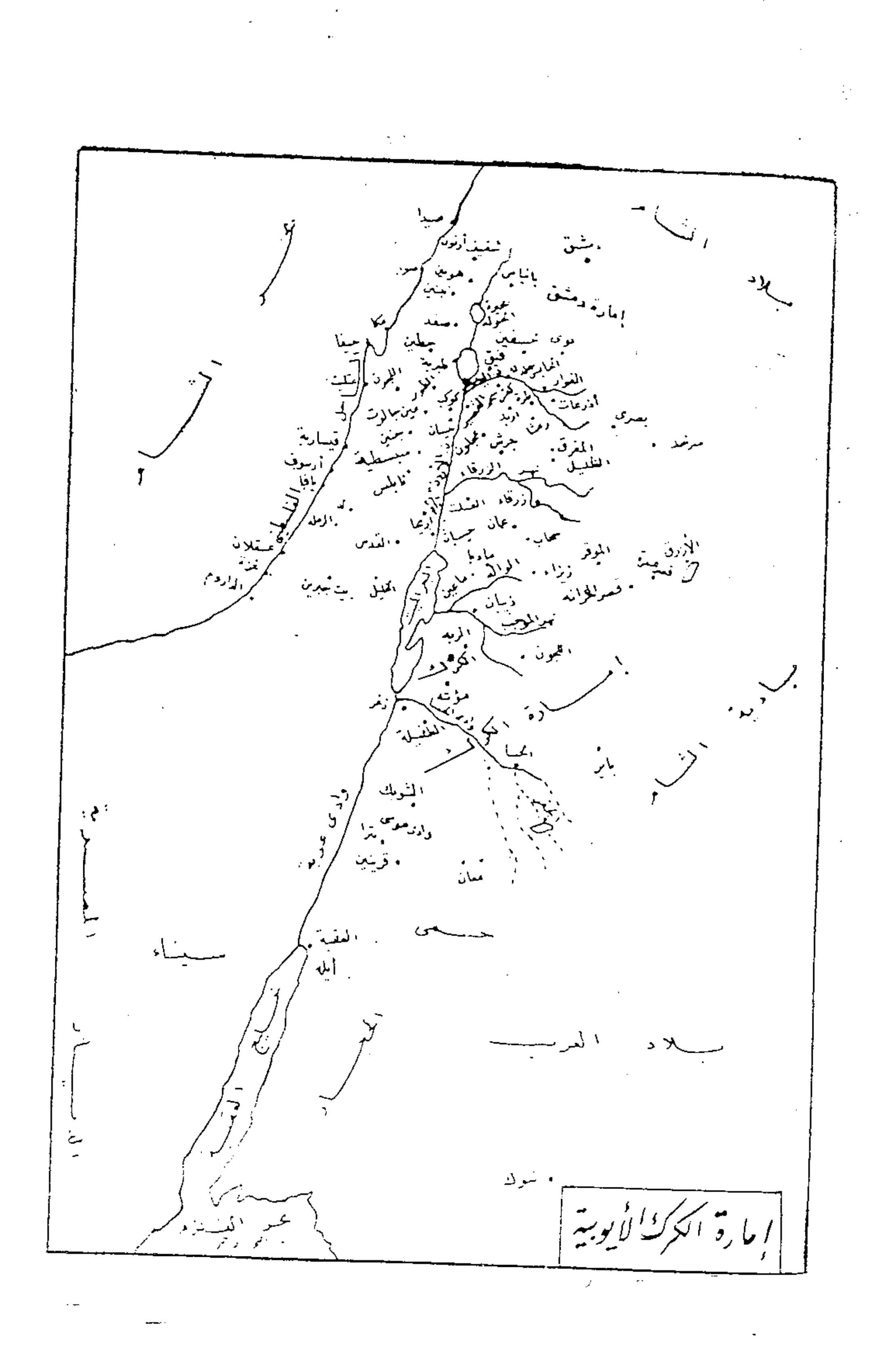


(خريطة ٦) التقسيمات الادارية فى الفترة البيزنطية

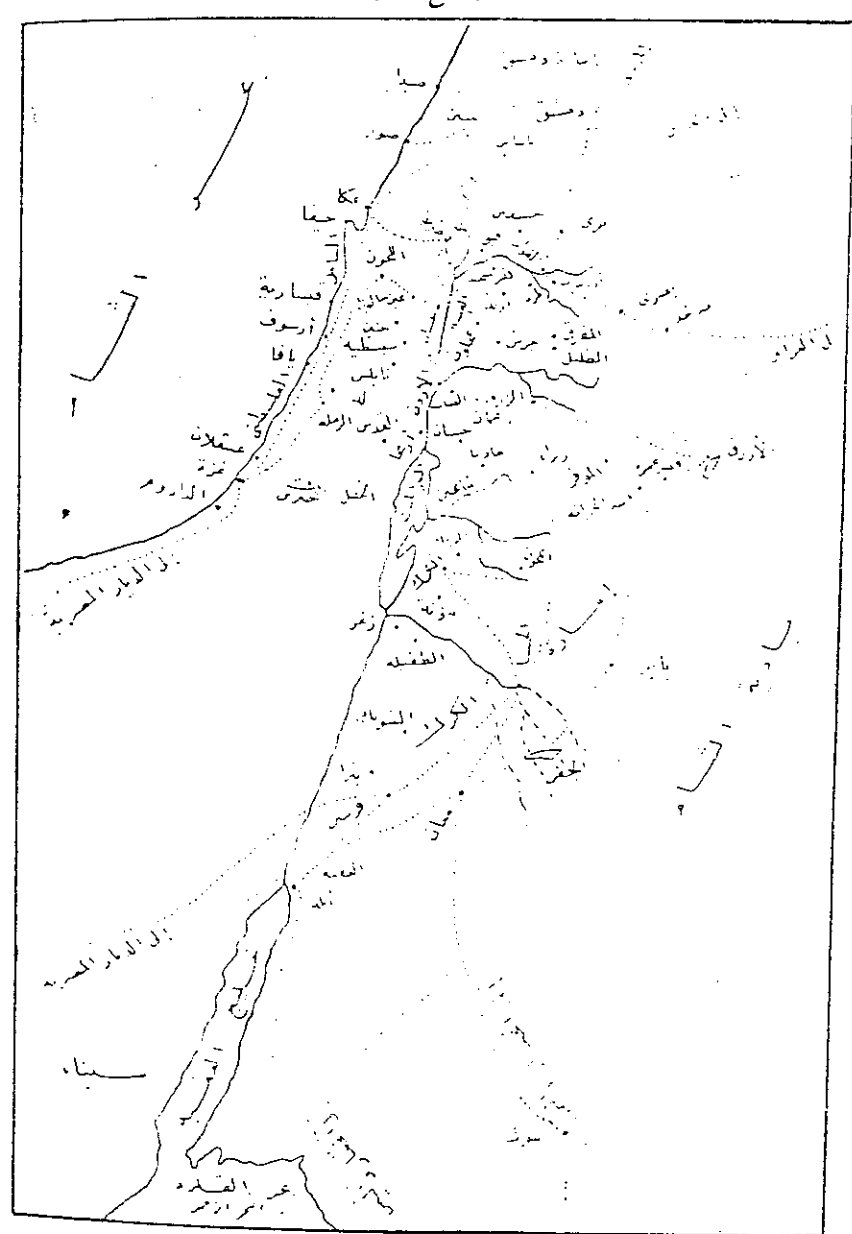


صورة الشام

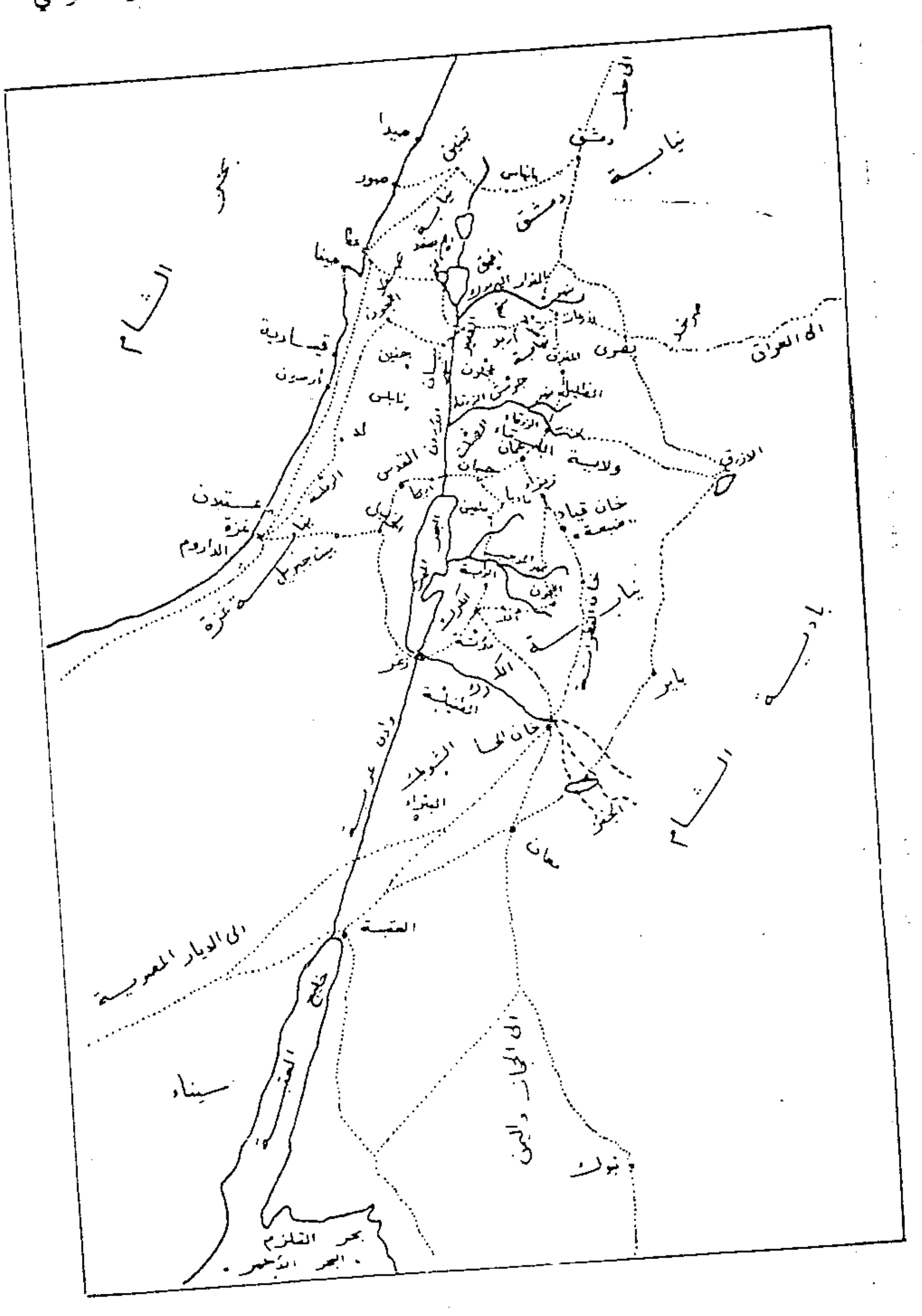
الاصطخري : مسالك الممالك ، مجلد 3 ، ص 65

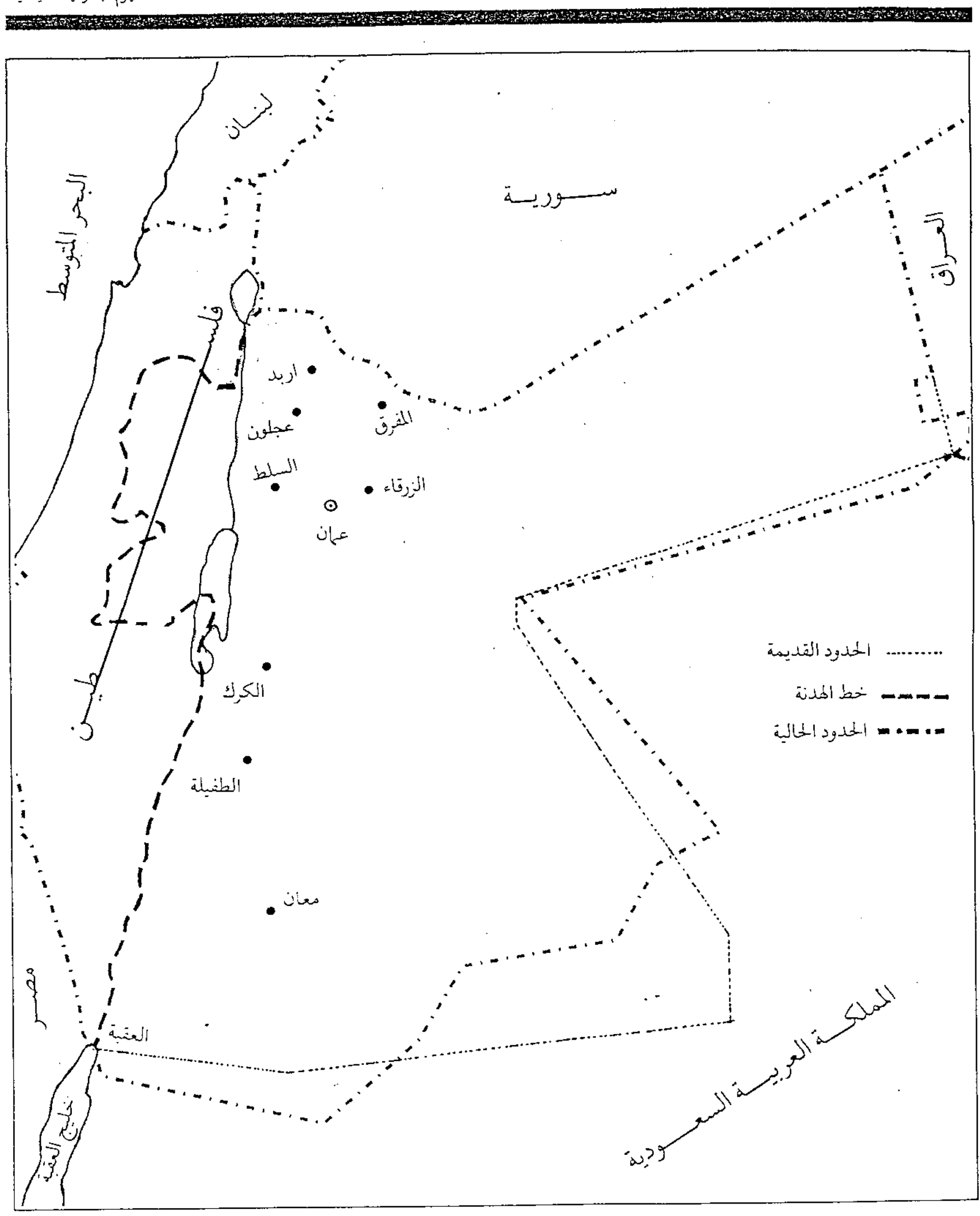

إمارة الكرك الأيوبية
صيدا
دمشق
بانياس
إمارة دمشق
صفد
عكا
حيفا
طبرية
قيسارية
أرسوف
يافا
نابلس
الرملة
القدس
عسقلان
غزة
الداروم
الخليل
بيسان
جرش
عجلون
اربد
بصري
أذرعات
المفرق
عمان
حسبان
الموقر
الأزرق
ماعين
ذيبان
الكرك
مؤتة
الطفيلة
الشوبك
وادي موسى
قرين
معان
العقبة
أيلة
سيناء
بلاد العرب
تبوك

شبكة المواصلات وطرق التجارة في القرنين السادس والسابع الهجريين
وموقع امارة الكرك منها

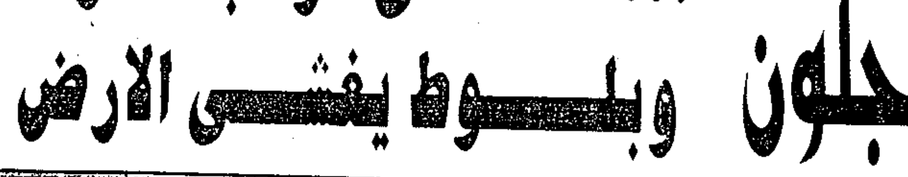


شبكة المواصلات وطرق التجارة في منطقة شرقي الأردن في العصر المملوكي

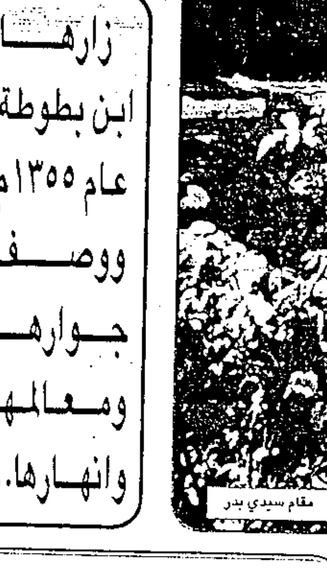




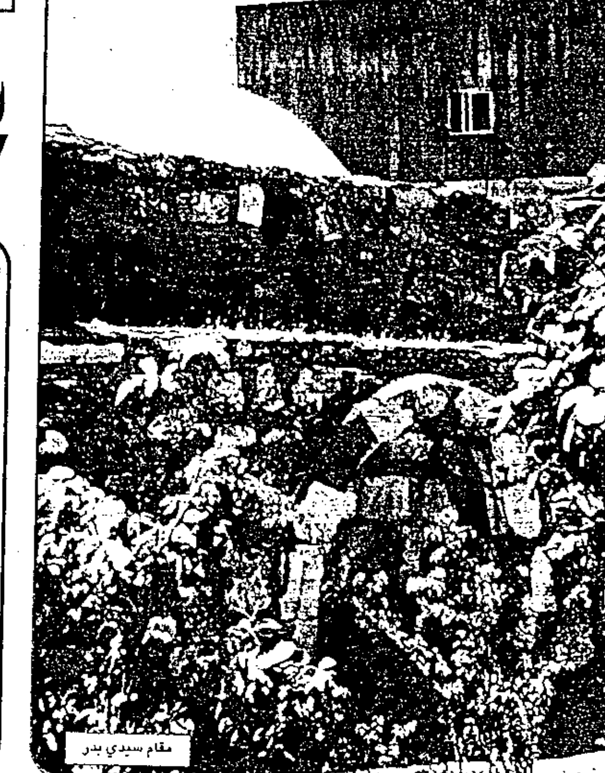
الشكل (٥-١): تطور الحدود السياسية للأردن.



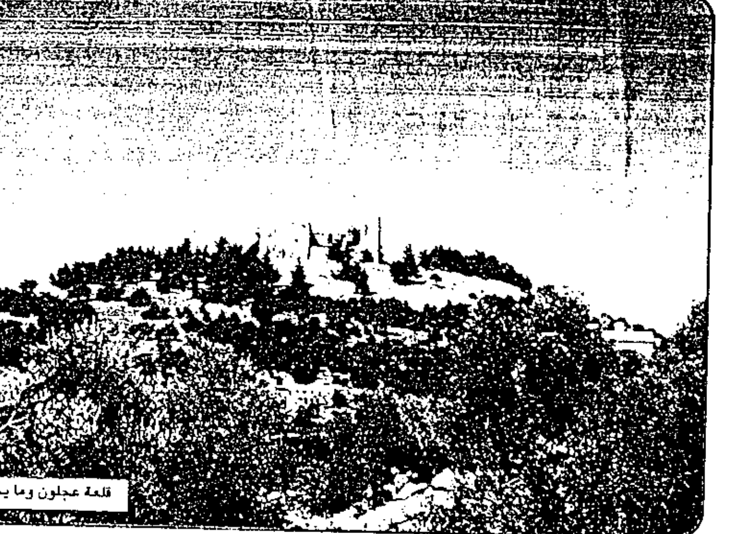
... قلعة على كوكب الهوا..
عجلون وبلــــوط يغشى الارض



زارهـــا
ابن بطوطة
عام ١٣٥٥م
ووصـــف
جـــوارهـــا
ومـعـالمهـا
وانهـارها..



مقام سيدي بدر



قلعة عجلون وما يحيط بها

يكتبها ويصورها : حسين دعسة

بين صمت الوديان وحفيف اوراق البلوط والزيتون وعبر جبال وتلال تتقاسم لوعة الطبيعة القاسية، تقع عجلون وما يحيط بها من قرى واقانيم وانوار تتعدد كأنها دفاتر الريح او الغيم.

ووسط الاجزاء الشمالية وبعض من الجنوبية للاردن تشملها الاراضي الواقعة بين ضفاف نهر اليرموك شمالا ونهر الزرقاء جنوبا.. لتحتل مساحات من غابات عظيمة ومزارع للعنب والرمان والزيتون، تأتي ضمن مساحة قدرت بحوالي (١٥٨٢) كيلومتر مربع.. فيها من روعة الطبيعة وسماحة الحياة الشيء الكثير.

من جرش كان الدليل يأخذنا مرورا ببلدات رائعة مثل ريمون وساكب وعنجرة.. الى ان وصلنا الى وسط عجلون حيث اعظم شجرة كينيا تتوسط الشارع العام.. ومنها خرجنا مع احباء عرفونا على عجلون، عبر عين مختلفة عن عين السائر.. ومع عبدالسميع ابو دية واسامة جبر من مديرية الاثار العامة كانت الرحلة تسير عبر وادي الطواحين (كفرنجة) ومرافقنا وليد طيفور (ابن عبين) يصف لـ«الراي» كيف كان هذا الوادي عبر التاريخ والاف الاشجار المعمرة التي تعاقب عليه وعشرات الطواحين المائية التي ما زال بعضها في وسطه.

سلطي التل، من الادباء والاعلام الذين سكنوا عجلون، وعشقها وتعود على مصايفها واثارها السياحية التي لا تقدر، قال مستذكرا عجلون قبل وبعد الخمسينات.

وصلت عجلون سنة ١٩٥٤ وكانت تضم عين جنة، ومجموع بيوتها بحدود (٢٤٠) بيتا واذكر ان اول عمل قمت به فيها هو فرض ضريبة مسقفات على الابنية والاراضي.. وهي التي كانت مزروعة بالزيتون والعنب ويزرعها فلاحون بسطاء مخلصين كل حياتهم معتمدة على الزراعة او الانضمام الى الجيش.. ويذكر التل بان اول معصرة زيت في عجلون كانت لطبيب شاركه فيها اشخاص من الشام.

ترتبط عجلون الان بطرق حديثة خاصة ما بين جرش واربد وبالتالي الى عمان والزرقاء وكانت سابقا - حسب سلطي التل - طرقها ترابية وحتى عام ١٩٥٥ وربما بعدها لم يكن فيها الا سيارة واحدة لصاحبها حنا سلامة وهي سيارة من مخلفات الجيش البريطاني، كانت تذهب الى اربد في الصباح وتعود في المساء واذا ما حدث لها طارئ او احتاجتها الحكومة او المحاكم او لجان التفتيش تنقطع عجلون عن العالم.

اما محمد ابو عيلة من مديرية اثار عجلون فيقول بان اسم عجلون هو لفظ سامي ارامي قدم نسبة الى احد ملوك مؤاب الذي كان اسمه عجلون.. ومنها اخذت القلعة هذا الاسم.

في العام ١٣٥٥م، زار عجلون وجوارها الرحالة العربي (ابن بطوطة) وقال عنها بانها مدينة حسنة، تحفة وجميلة ولها اسواق كثيرة وقلعة خطيرة يسقيها نهر ماؤه عذب..

وما زالت بقايا النهر الاتي من عين جنة، تسير تحت سقف وسط المدينة الى وادي الطواحين حيث عاشت الغزلان التي غازلت ضوء القمر في عتمة البلاد المترامية. فكانت الغابات موطنها والماء موردها ومعالم القلعة تحيط بها فتحتمي من عيون الصيادين ولهفة الغرباء.

في عبين وارحابا وزوبيا وعبلين واشتفينا وكفرنجة.. وغيرها من الجوار العجلوني، يسافر الركب ولا يمل سجادة تعج باللون وصخب الشجر وروائح البخور والزعتر البري ونبت الارض الساكن ديار لها سجل من الق التاريخ والناس ومجرى للمطر والثلج متوزع على احد عشر حوضا ترشح منها مياه القلب وسحب تسافر عبر بر الشام وفلسطين والعراق.

عجلون.. حصن كوكب الهوا.. ودنيا «القلعة الساحرة».. تلك التي شيد عام (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م) القائد المسلم عز الدين اسامة احد ابناء اخ صلاح الدين الايوبي ومن قادته الكبار في جبل بني عوف على غور الاردن حيث بحيرة طبريا والبحر الميت والمراقب لوادي كفرنجة والراجب واليابس، ومن هذه القلعة واليها، ما زال التاريخ هو التاريخ.. وما زالت العين الاخرى، تطل من كوة الريح، على سماء عطشى للزمن والناس الذي يأتي من وفود السياح التي لا تغادر عجلون لما فيها من طيب واضح وماء عذب وفاكهة من الادب والخضرة والكروم والزيت!!

منظر عام لجبل عجلون وجامعها القديم



بيت من بيوت قرية صمد

مرحلة متأخرة . شقت القناة التي تحيط بالموقع بأكمله عميقاً في الصخر الأصم . والقلعة ماتزال محفوظة في حالة جيدة إلى حد ما .

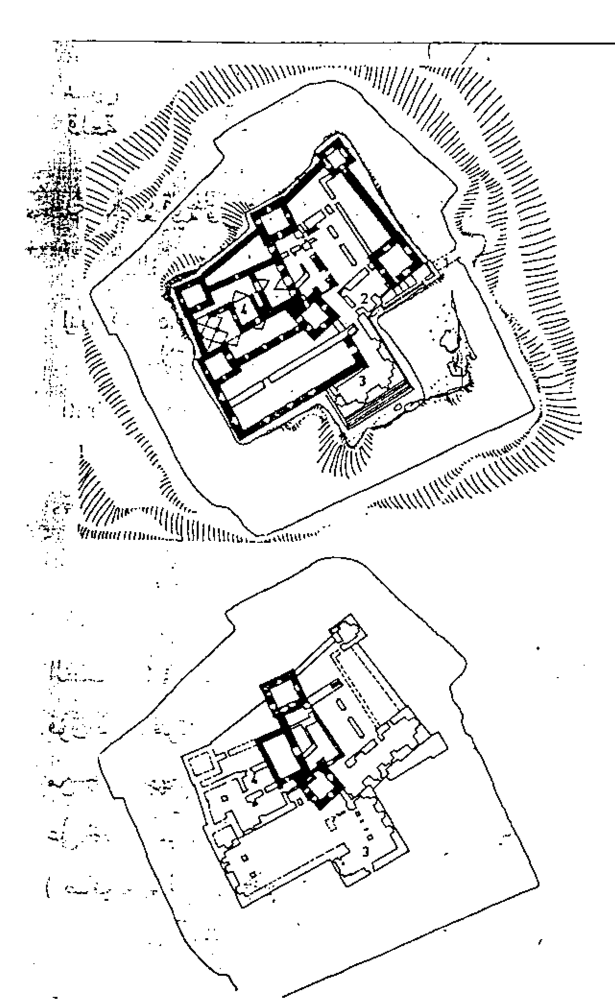
التاريخ :

١١٨٤ ـ ١١٨٥ أسس الأمير عز الدين أسامة القلعة لحماية الجناح الجنوبي الغربي لمنطقة دمشق ، وطريق المواصلات الحيوي بين دمشق والقاهرة (ويسمى درب الحج) الذي كان ضعيف الحماية حتى ذلك الحين ، كذلك اعتبرت القلعة كثقل موازن لقلعة كوكب (بلفوار) الفرنجية . وتذكر المصادر العربية بأن هذا الموقع كان يشغله دير سابق .

١٢١١ حوصرت القلعة لأن صاحبها رفض أن يقسم يمين الطاعة للسلطان الجديد بعد وفاة صلاح الدين . ومنحت إلى أيبك بن عبد الله .

١٢١٤ ـ ١٢١٥ أجرى صاحبها الجديد تحسينات معمارية مكثفة على القلعة وقوى الواجهة الجنوبية وسقف الفناء المكشوف .

منتصف القرن الثالث عشر : بعد أن فقدت القلعة أهميتها الاستراتيجية بانتصار العرب في حطين ، أصبحت تستخدم كمحطة للتموين فقط ، ورغم ترميمها على يد الملك الظاهر بيبرس بعد أن خربها المغول في العام ١٢٦٠ ، لم تعد قلعة عجلون تلعب أي دور رئيسي ، ثم أصبحت مقراً لعدة أسر عربية ، وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر .



المخطط ١٣ : قلعة عجلون Qal'at Ajlûn

مخطط أرضي للقلعة ، المقياس ٢٠٠٠ / ١ (الطابق الأرضي إلى اليسار ، والطابق العلوي إلى اليمين) . رسمت الأقسام العائدة إلى العام ١١٨٤ ـ ١١٨٥ باللون الأسود ، والإضافات العائدة للعام ١٢١٤ ـ ١٢١٥ غير مظللة .

١ ـ المدخل الرئيسي ، ٢ ـ غرفة البوابة الداخلية ، ٣ ـ البرج الجنوبي ، ٤ ـ القلعة الداخلية (بالاستناد إلى س . ن . جونز) .

المراجع :

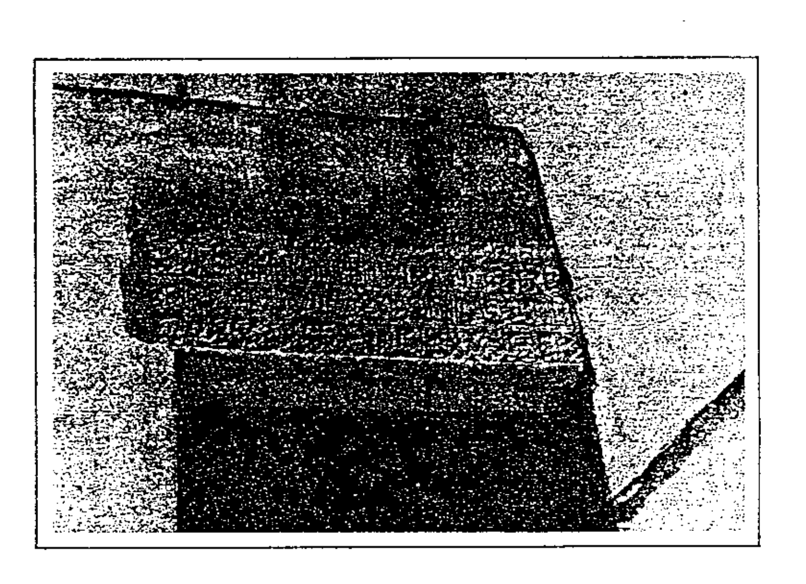
الموسوعة الإسلامية (٢) ١ ، ٢١٤ (د . سورديل ١٩٦٠) .

س . ن . جونز عجلون في القرون الوسطى : المجلة الفصلية لفرع الأثريات في فلسطين ، I ، ١٩٣١ ، ٢١ ـ ٣٣ .

Bibliography:

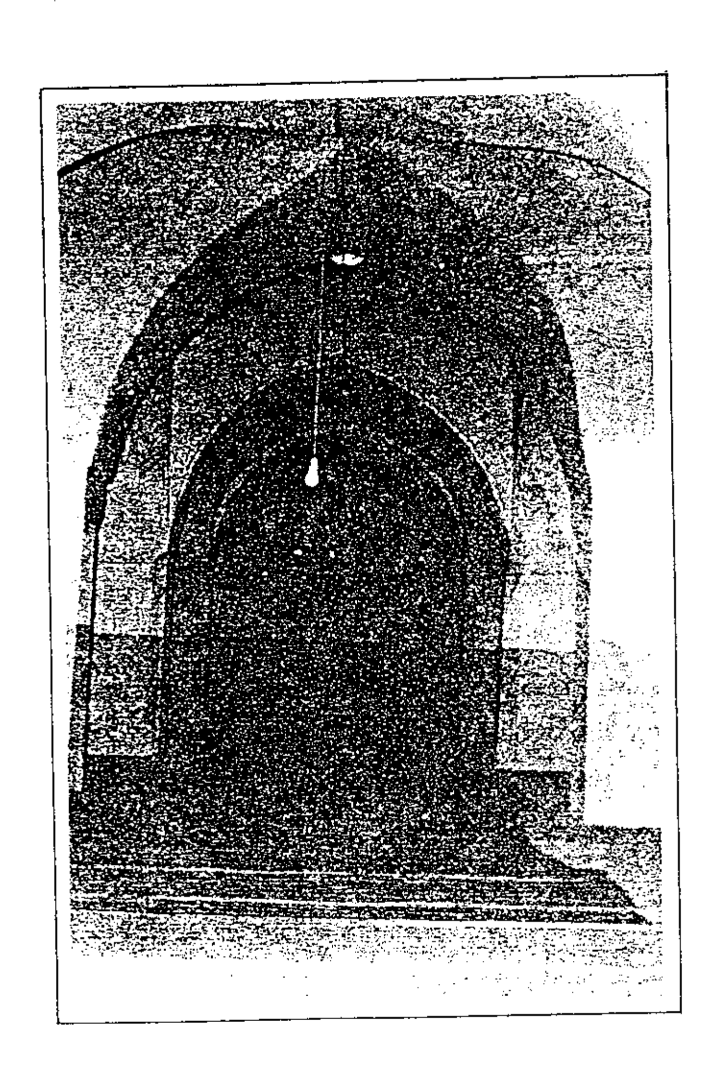
Enc. Isl. (2) I, 214 (D. Sourdel 1960);

C. N. Johns, Medieval 'Ajlun', in: *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, I 1931, 21–33.



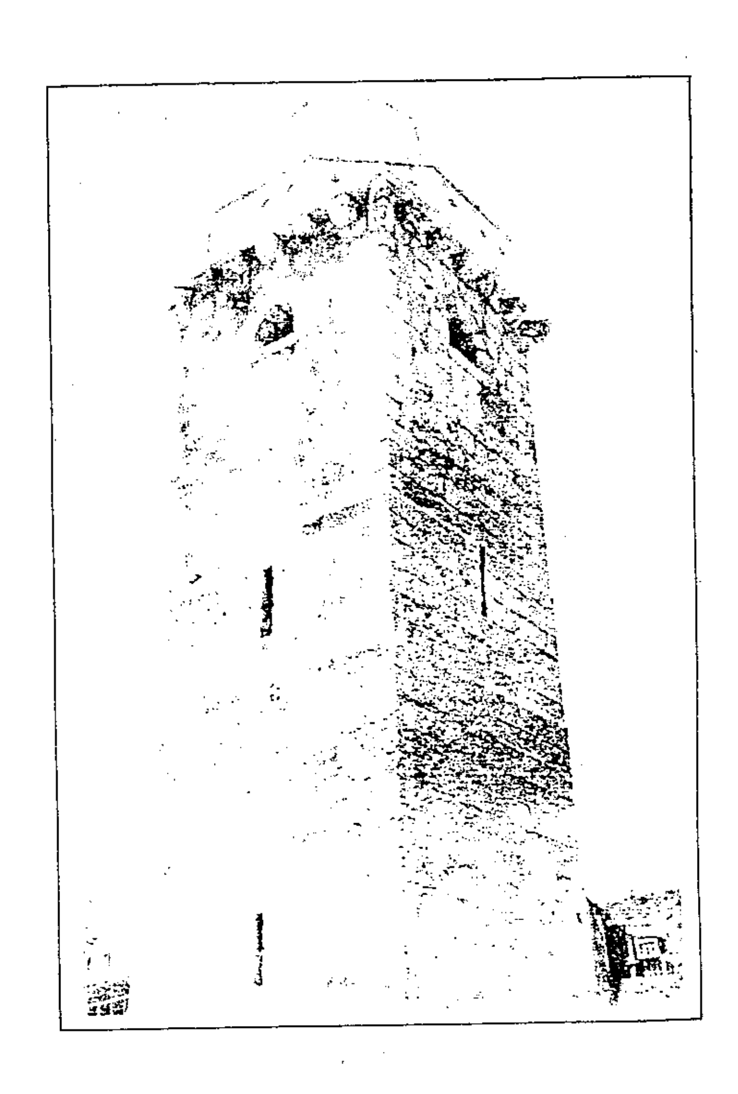
نقش يمثل اللوحة التأسيسية لبناء جامع عجلون في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٥هـ

//



منظر لإحدى بلاطات بيت الصلاة في جامع عجلون والدعائم التي يقوم عليها

16 12

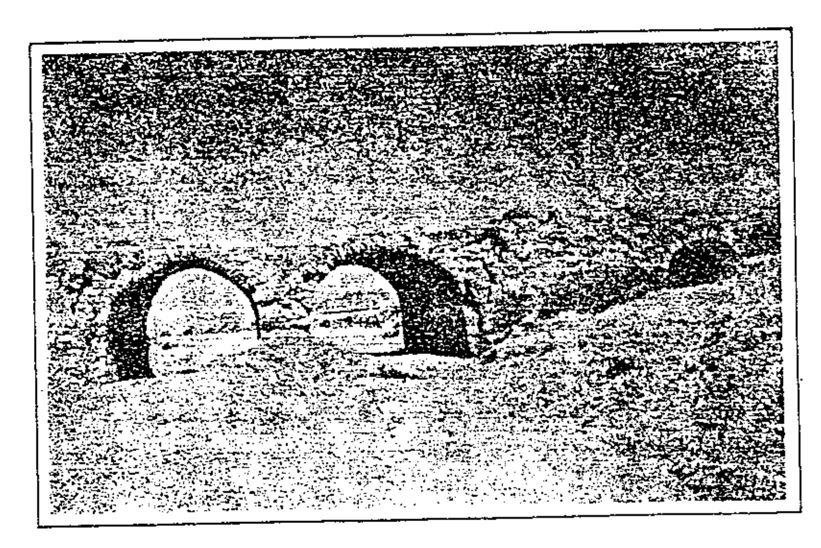


مئذنة جامع عجلون من بناء الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ

13

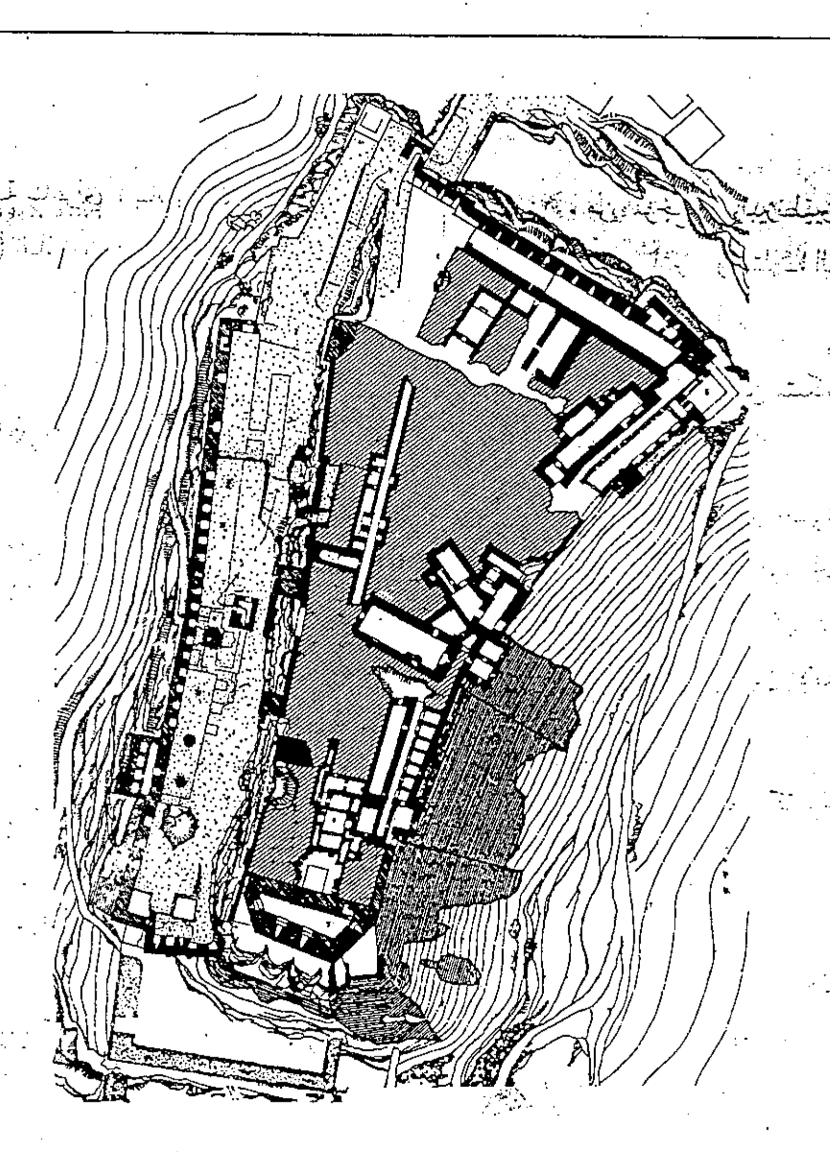


الطريق المعبد المار بجانب خان الحسا شمالا وجنوبا



منظر لجسر الحسا الذي ذكرته المصادر العربية وعنده قباض المكوس

١٤١



المخطط ٤ : الكرك AL KARAK

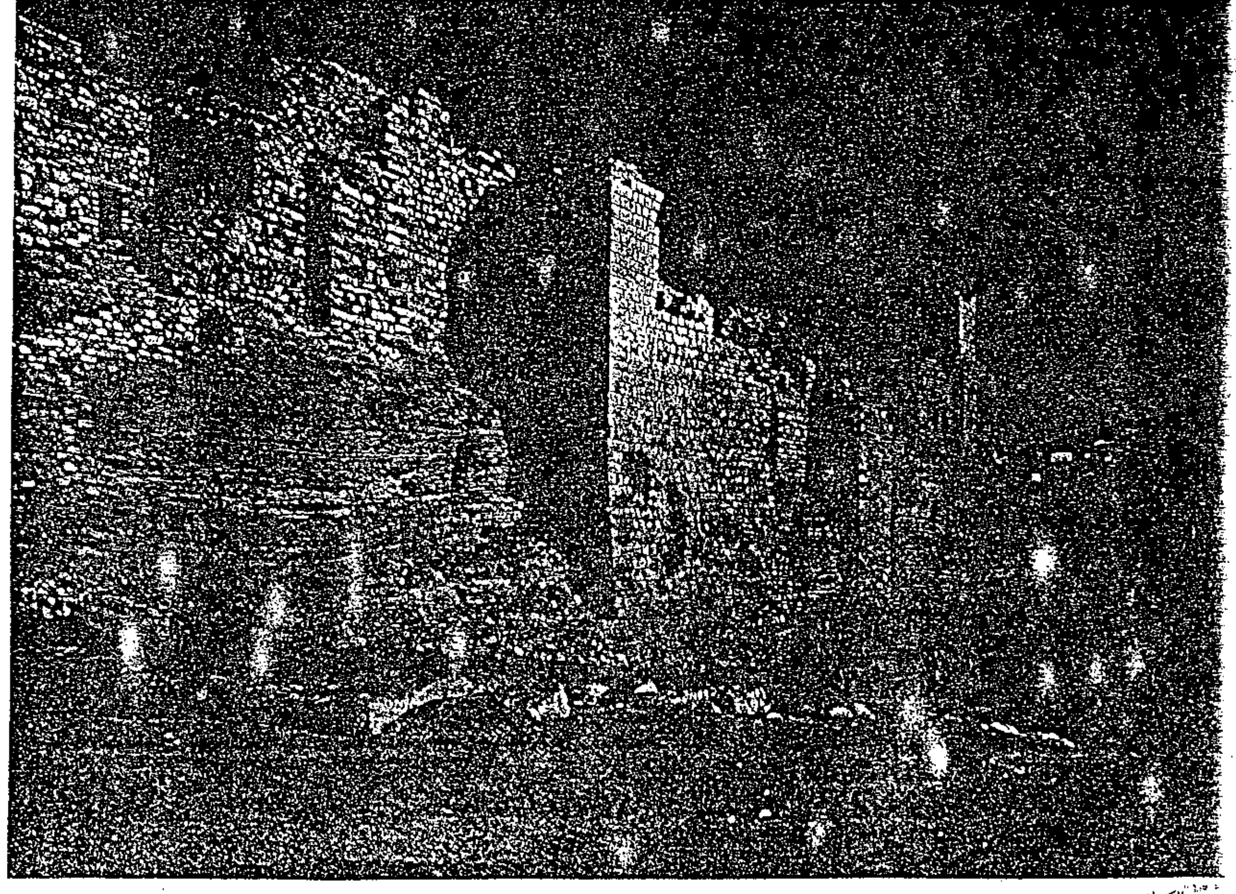
مخطـط أرضي للقلعـة العلـويـة والسفليـة مقيـاس ١ / ٢٠٠٠ .

يبين المخطط المبنى والأراضي التابعة له التي تقع تحت مستوى الأرض من القلعة العلوية ، كذلك نفذت القلعة السفلى على مستوى الأرض لكشف الغرف تحت الأرضية التي أشير إليها بالرسم المنقط . وأشير إلى طوري البناء الفرنجي الأول والثاني (١١٤٢ ـ ١١٨٨) باللون الأسود والتهشير المتقاطع ، كما أشير إلى الفترة العربية (بعد العام ١١٨٨) بالتهشير المكثف بينما رسمت الأبنيـة التحتيـة المطمـورة تحت التراب والصخر بـالتهشير العريض .

١ ـ البوابة الرئيسية الحديثة ، ٢ ـ القلعة السفلية ، ٣ ـ البوابة السفلية ، ٤ ـ السور الخارجي للقلعة السفلية ، ٥ ـ البرج الزاوي الشمالي الشرقي (خرب) ، ٦ ـ المباني التابعة للقصر ، ٧ ـ برج محصن ، ٨ ـ جدار حاجز (ساتر) .

15

٢٦ ـ الكرك



٢٧ ـ الكرك



بيت قديم من تراث كفرنجة

قمة القلعة وزوارها السعداء

من البرك الرومانية القديمة حول قلعة عجلون

سقا ماء داخل القلعة!!

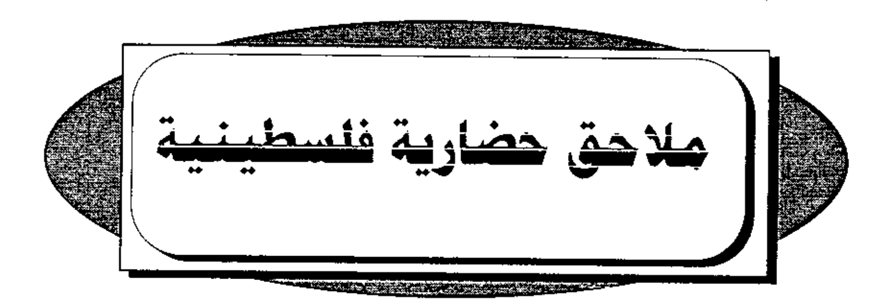
الاقواس العلوية على سطح القلع

طاحونة ماء قديمة في وادي كفرنجة (الطواحين)

داخل جامع كفرنجة الذي يعود
الى العهد العثماني المتأخر

فسحة على الغيم من قلعة عجلون

ثالثاً:

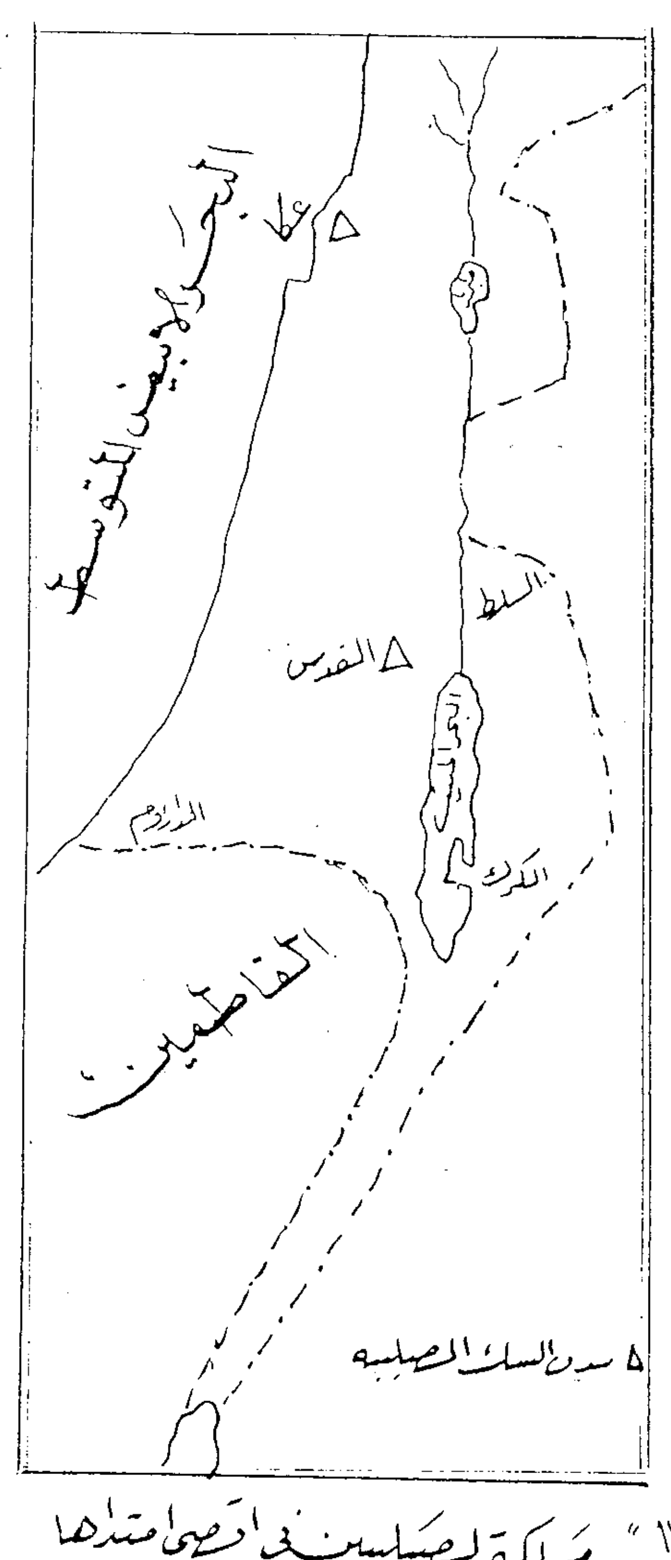


الحملات الصليبية

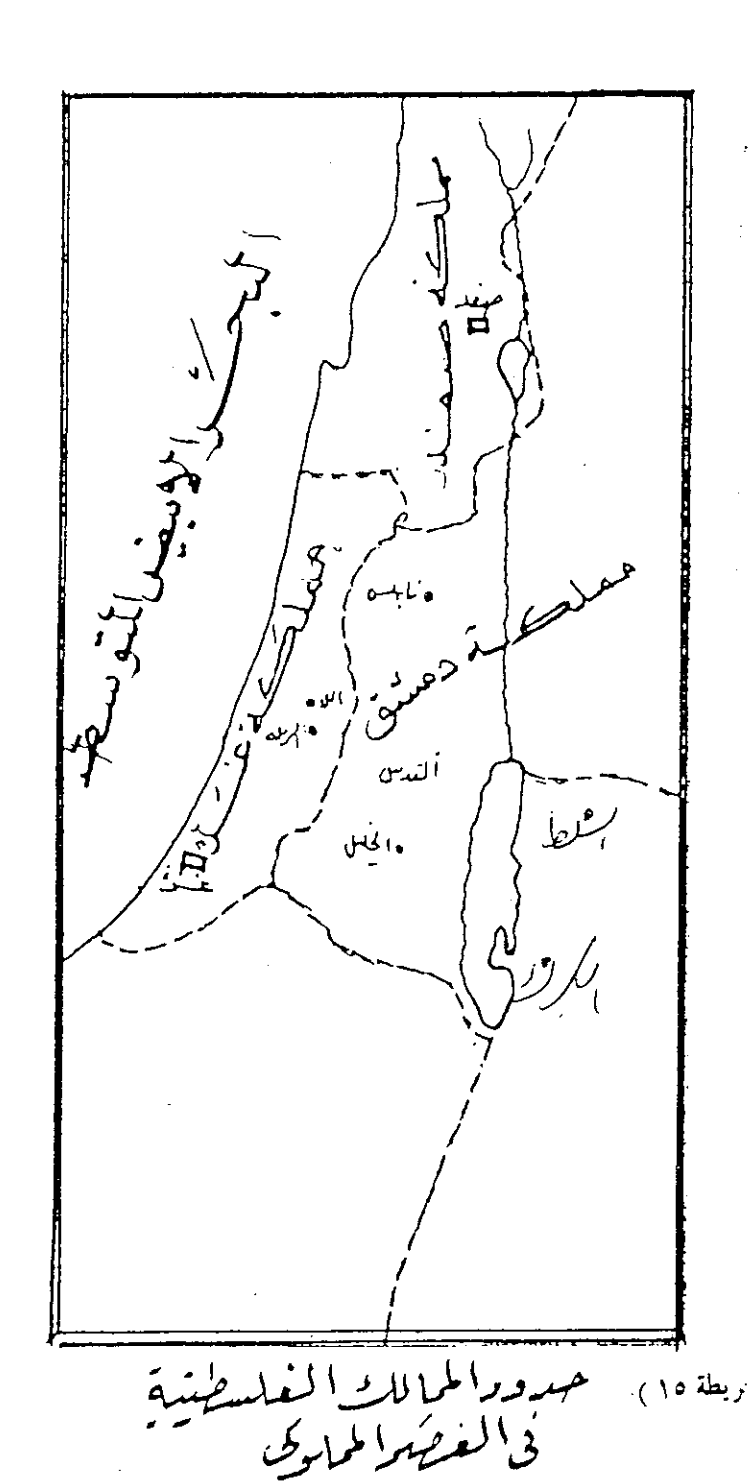
في هذه المرحلة

٤٨٩ - ٦٥٦

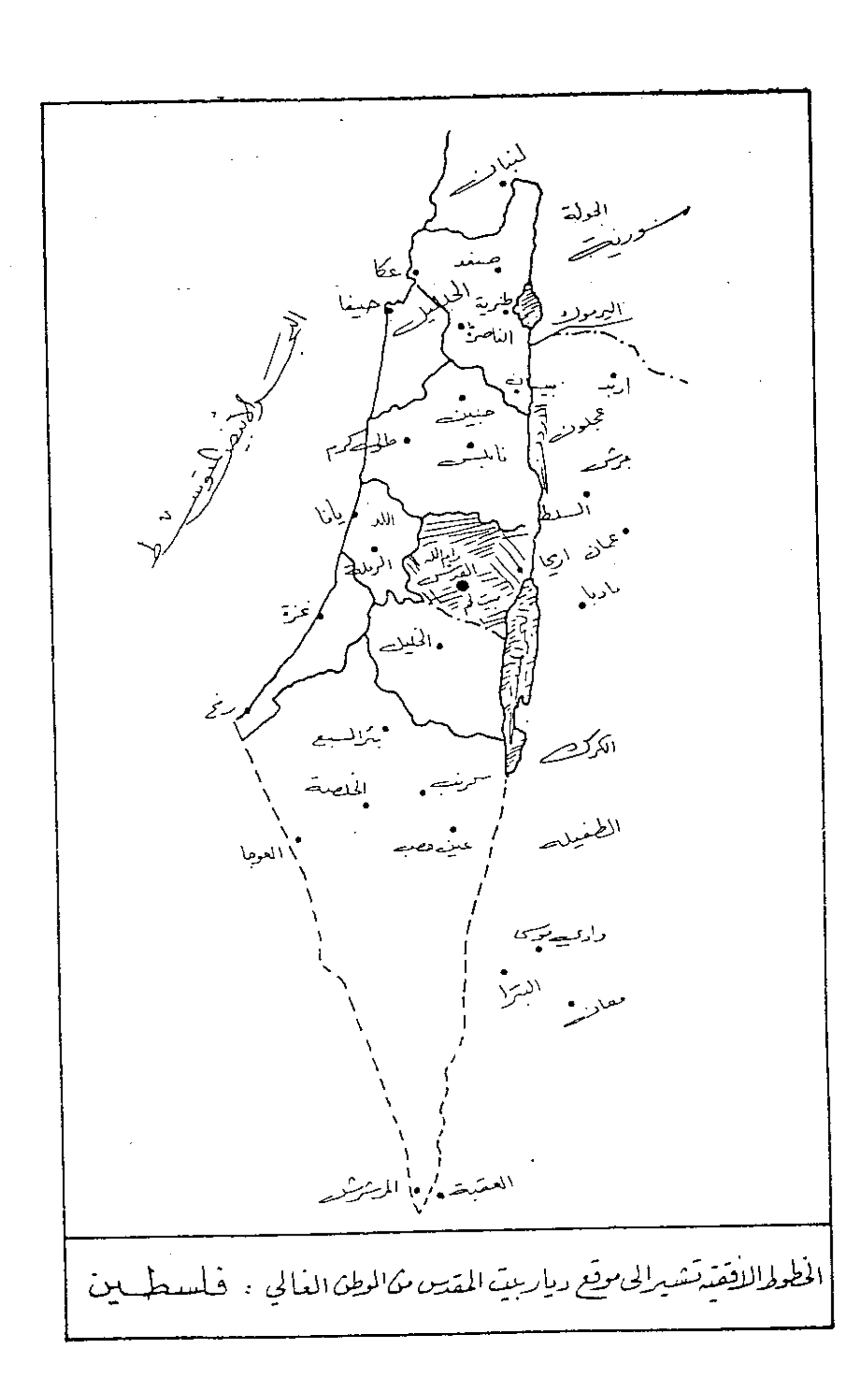
الحملة الصليبية	عام البداية	القيادة	الأسباب	النهاية
الأولى	٤٨٩	بطرس الناسك - وأمراء	الحقد الصليبي	استقرت
الثانية	٥٤١	كونراد الثالث ملك ألمانيا	استعادة الرها	٥٤٩
		لويس السابع ملك فرنسا		
الثالثة	٥٨٥	ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا	استعادة بيت المقدس وما	
		فيليب اغسطس ملك فرنسا	أضاعه الصليبيون بحروبهم	
		فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا	مع صلاح الدين الأيوبي	
الرابعة	٥٩٤	أمراء فرنسيون		
الخامسة	٦١٥	ليوبولد دوق النمسا	بناء على طلب الصليبيين في	
		اندريه الثالث ملك هنغاريا	بلاد الشام.	٦١٨
		بهاير ملك قبرص		
السادسة	٦٢٥	فريدريك ملك ألمانيا	بناء على طلب الصليبيين في	٦٢٦
			بلاد الشام	
السابعة	٦٣٧	ثيبوب الرابع الفرنسي	دعت الكنيسة الى هذه	٦٣٩
			الحملة عندما رأت ضعف	
			المسلمين واختلاف بعضهم	
			مع بعض	
	٦٣٩	ريتشارد كورنول الانكليزي	اتجهت الى تونس	٦٥٢
	٦٤٩	لويس التاسع ملك فرنسا		



"خريطة ١٢" مملكة الصليبيين في أقصى امتدادها



ريطة ١٥) حدود الممالك الفلسطينية
في العصر المملوكي

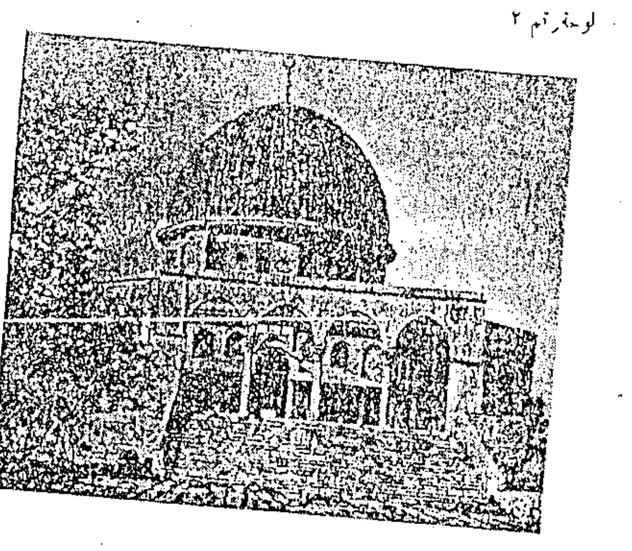


الخطوط الافقية تشير الى موقع ديار بيت المقدس من الوطن العالي : فلسطين

لوحة رقم ١

بيت المقدس كما يبدو من جبل الزيتون
وتظهر في الصورة قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى اليسار ،
وكنيسة القيامة خلف قبة الصخرة إلى اليمين .

لوحة رقم ٢

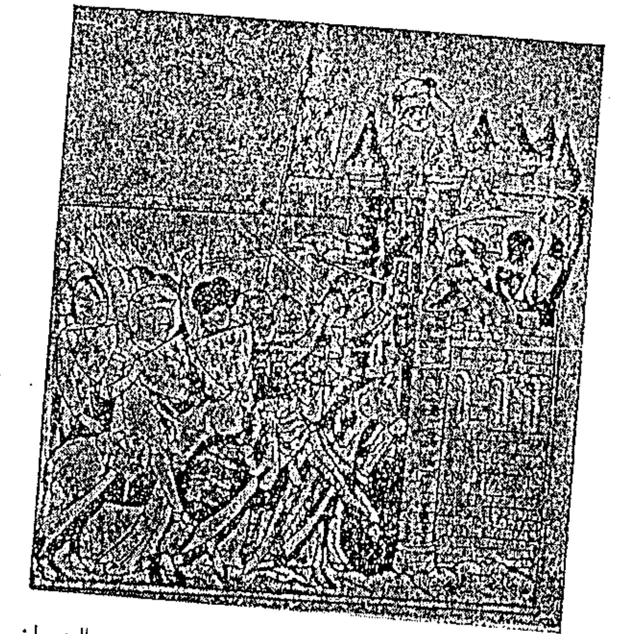


قبة الصخرة

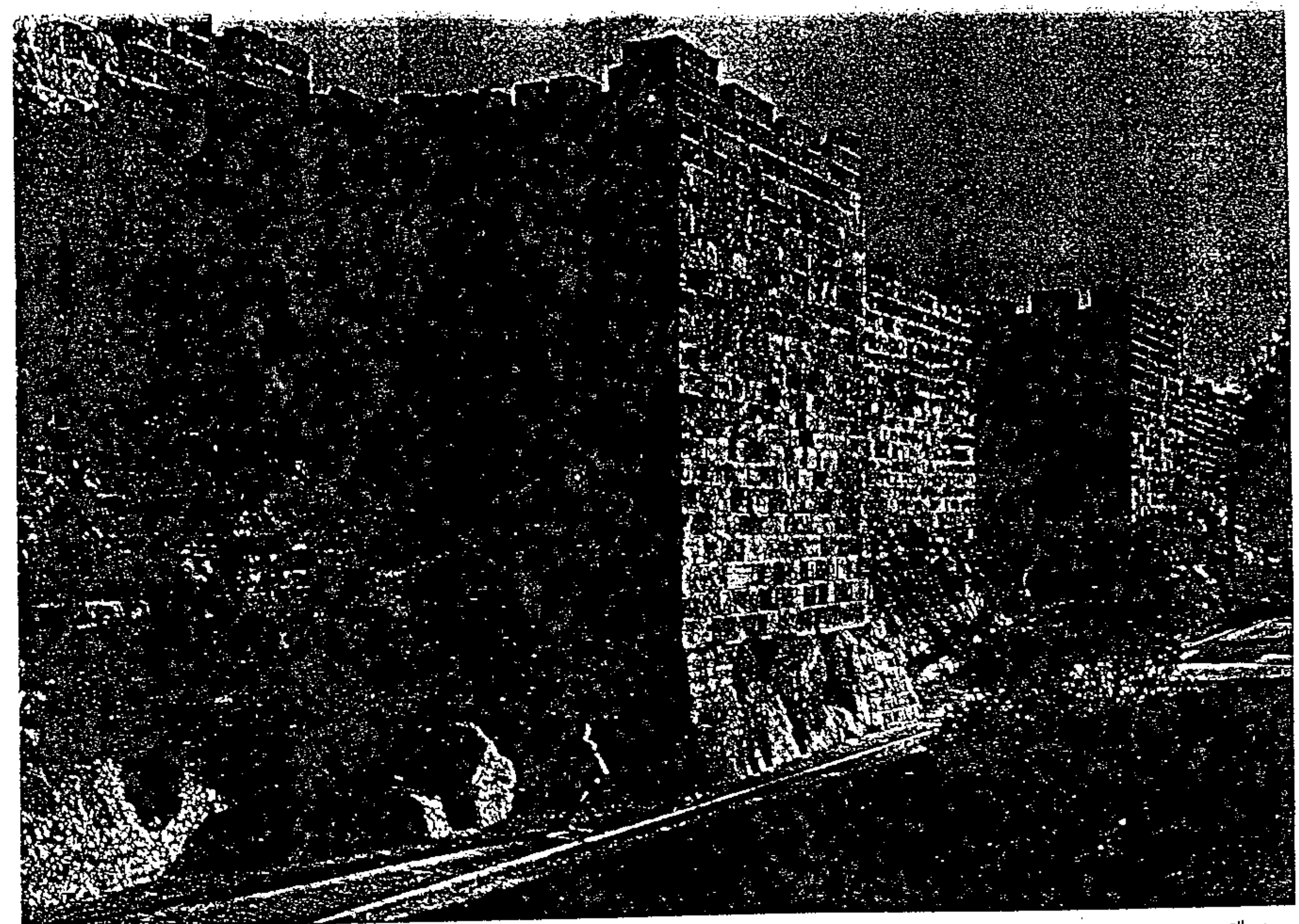
لوحة رقم ٣

كنيسة القيامة

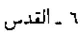
لوحة رقم ٤

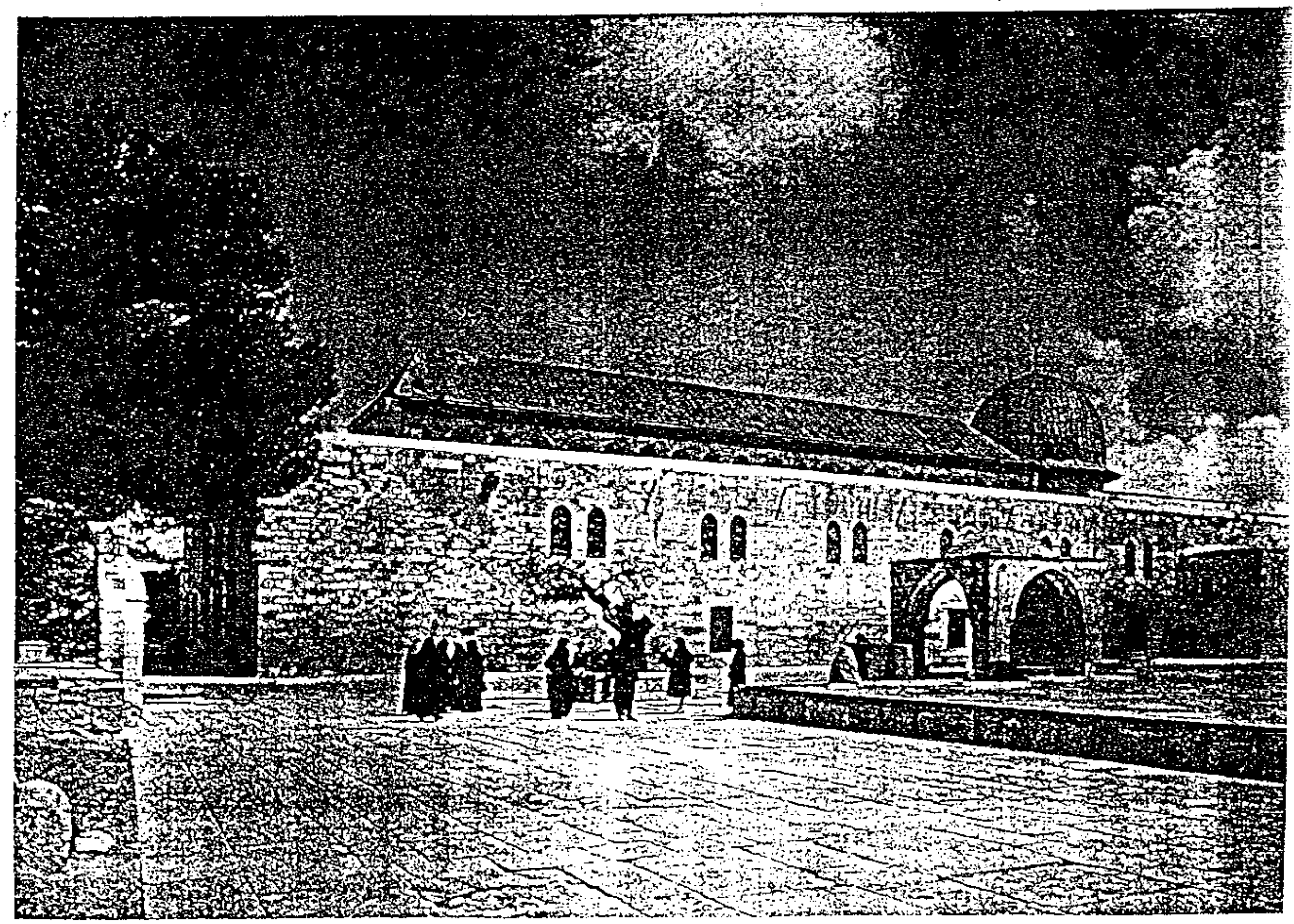


تضامن الجيش والشعب العربي في مصر ضد قوات العدوان
أثناء معركة المنصورة
(منتصف ق ٧ هـ / ق ١٣ م)



٦ ـ القدس





٧ ـ القدس

باب الوليد

محراب يعقوب

باب ابراهيم

محراب زكريا

قبة النبي

قبة المعراج

مقام جبرائيل

مقام النبي

بيت المقدس

باب السماء

قبة السلسلة

قبة الصخرة

باب أم خالد

أبواب الهاشميين

باب داود

أبواب الأسباط

باب الحطة

مرتفع محراب مريم

باب النبي

مسجد القدس "المسجد الأقصى"

كما صوره جغرافيو المسلمين القدماء

Bibliography:

Enc. Isl. (2) I, 351–52 (Fr. Buhl 1960);

Rey, *Arch. Militaire*, 171 et seq.;

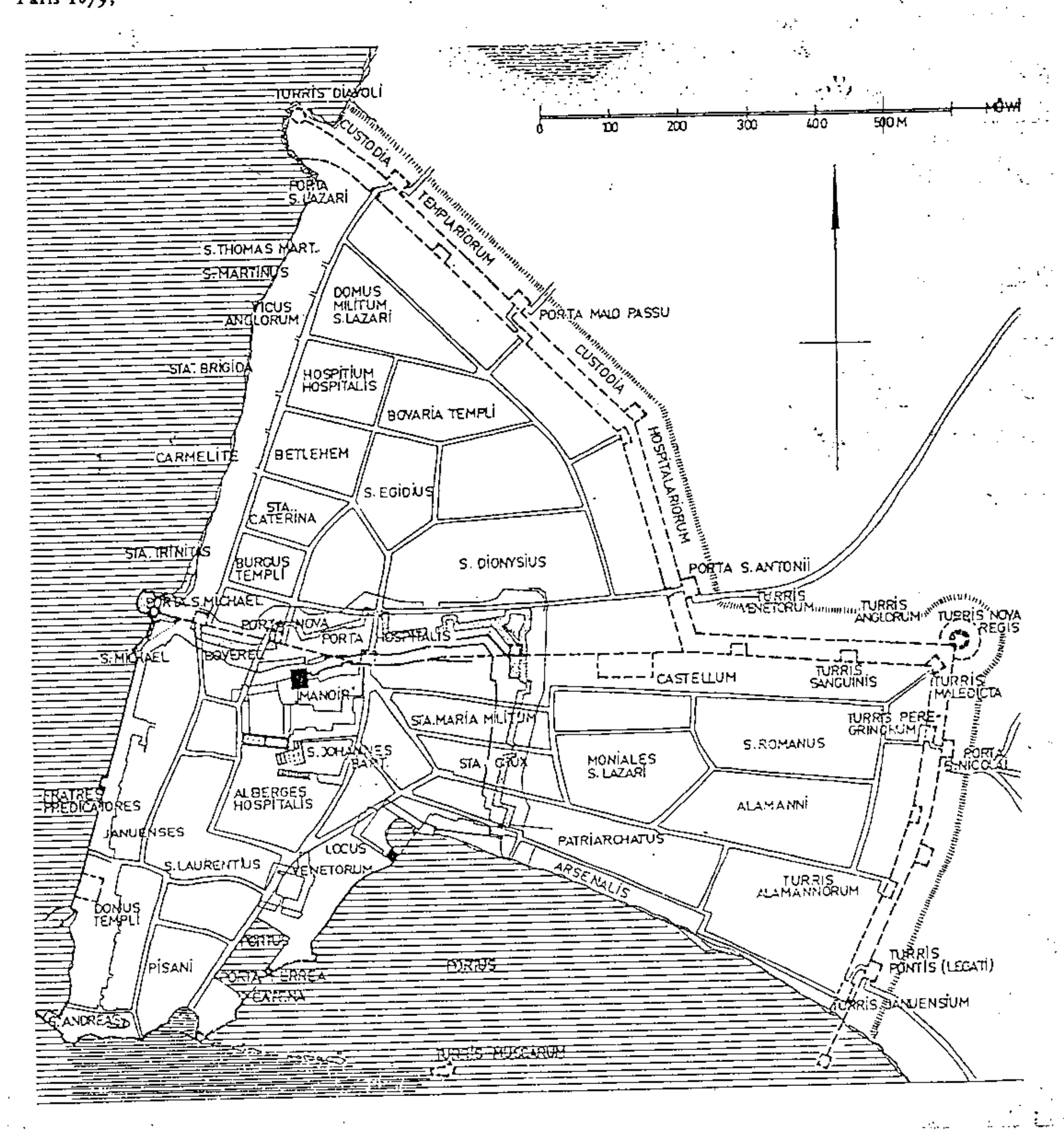
Rey, *Les colonies franques de Sytie au 12e et 13e siècles*, Paris 1883;

Rey, 'Etude sur la topographie de la ville d'Acré au XIIIe siècle', in: *Mém. Soc. Ant. de France*, Vol. 39, Paris 1879;

Conder-Kitchener, *Survey I*, 160–67;

Deschamps, *Châteaux I*, 65–69, containing old plan of city (1686);

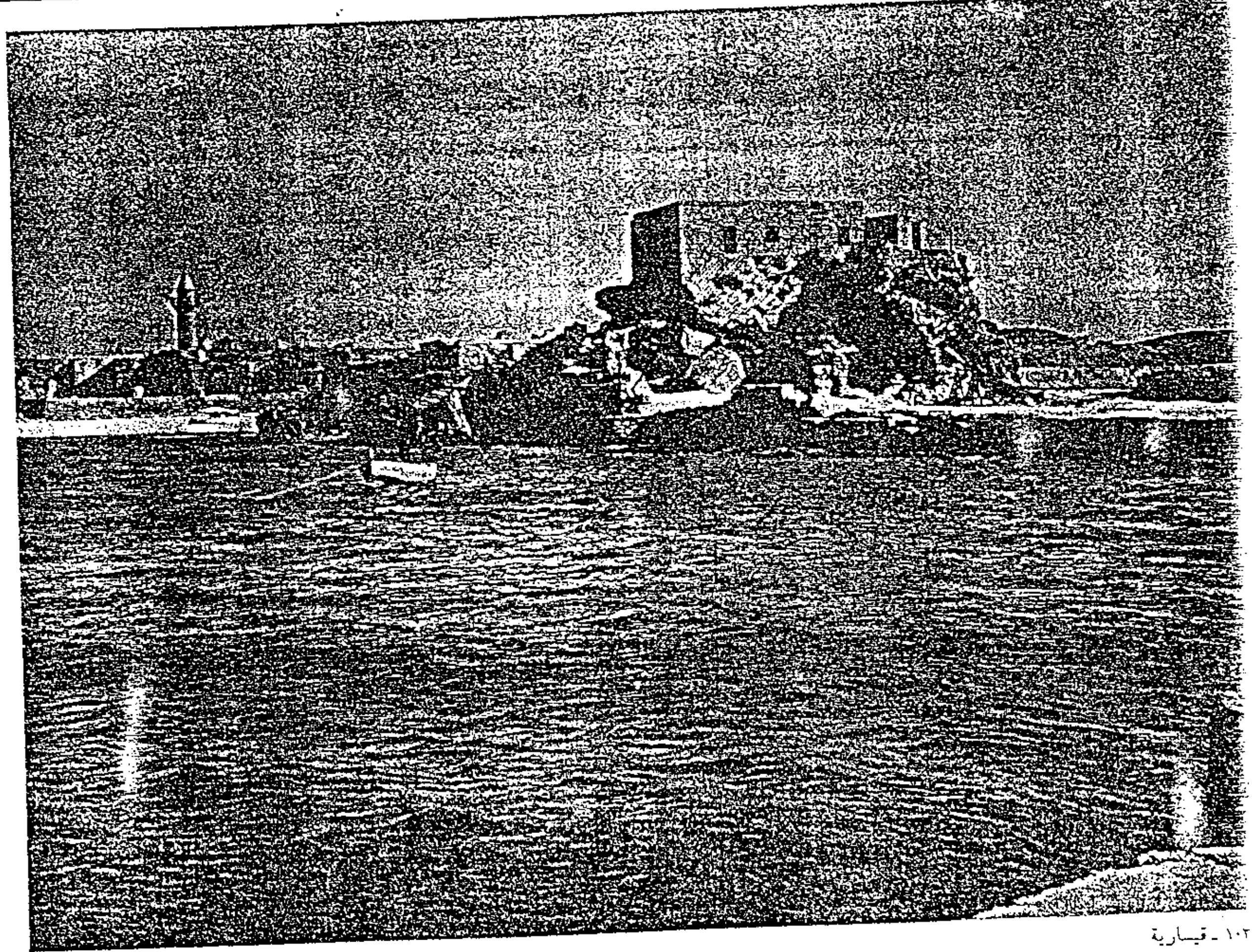
N. Makhouly – C. N. Johns, *Guide to Acre*, Jerusalem 1946, with exhaustive descriptions, plans and bibliographical data.



مخطط ٣٢ : عكا Acre

مخطط المدينة يشمل محاولة لإعادة تركيب الأسوار
دية ، المقياس ١٠٠٠٠ / ١ ، بالاستناد إلى مخطط المدينة الحالي
شير إلى التحصينات الجديدة بخطوط متقطعة) ولكنه يبين
حياء التي أشير إليها في الخرائط القديمة للقرون ١٤ ـ ١٨ مع
أسمائها اللاتينية « الأصلية !! » . استند تمديد الشوارع على
الخرائط المذكورة جزئياً وإلى الآثار المتبقية التي ما تزال قابلة
للتميز في المدينة الحديثة . إن المباني القائمة أو التي جرى التنقيب
عنها مؤخراً مرسومة باللون الأسود (أي بقايا حي الأسبتارية
والبرج المسمى برج السلطان والذي ما يزال قائماً بجانب المرفأ) .

١٠ - قيسارية



١٠٢ - قيسارية

وقفية المدرسة الاشرفية بالقدس، قائمة بأسماء العاملين بها ومقدار مايحصلون عليه من مرتبات شهرية على النحو التالي:

الرقم	الوظيفة	الراتب الشهري	ملاحضات
1.	وظيفة المشيخة والتدريس	10 دينار ذهب اشرفي وظاهري[1]	
2.	قارئ الحديث		يصرف 4 أرطال مصرية خبز كل يوم[2]
3.	21صوفي لكل واحد منهم	200درهم	
4.	خادم مصحف		
5.	كاتب غيبة		
6.	الامام	300 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم
7.	المكبر	200 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
8.	قارئ المصحف الشريف	200 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
9.	قارئ البخاري	200 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
10.	البواب	600 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
11.	مفرق الربطة الشريفة	100 درهم	ورغيف من الخبز في اليوم
12.	الفراش، والوقاد	200 درهم	
13.	المزملاتي[3]	500 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم
4	الشاهد	250 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم
5	السقا	300 درهم	ورغيفان من الخبز في اليوم

---

[1] الدينار الأشرفي: نسبة الى الاشرف قياتباي والدينار الظاهري نسبة الى الظاهر برقوق.

[2] الرطل المصري: يساوي 12أوقية، وكل أوقية تساوي 12 درهم أي انه يساوي 144درهم: انظر فالترهنش، المكاييل والاوزان، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، 1970، ص33.

[3] المزملاتي: هو القائم على السبيل، ويشرف على توزيع الماء. انظر علي السيد علي، مدينة القدس في العصر المملوكي، دار الفكر القاهرة، 1986م،ص243.

جدول يوضح الأجور الشهرية للقائمين على البيمارستان مأخوذة عن وقفية البيمارستان القيمري[1] بالصالحية في دمشق 652هـ/1254م مجتمع بلاد الشام ص337 موجودة بديوان الاوقاف بدمشق "رقم 237" وثائق وحجج.

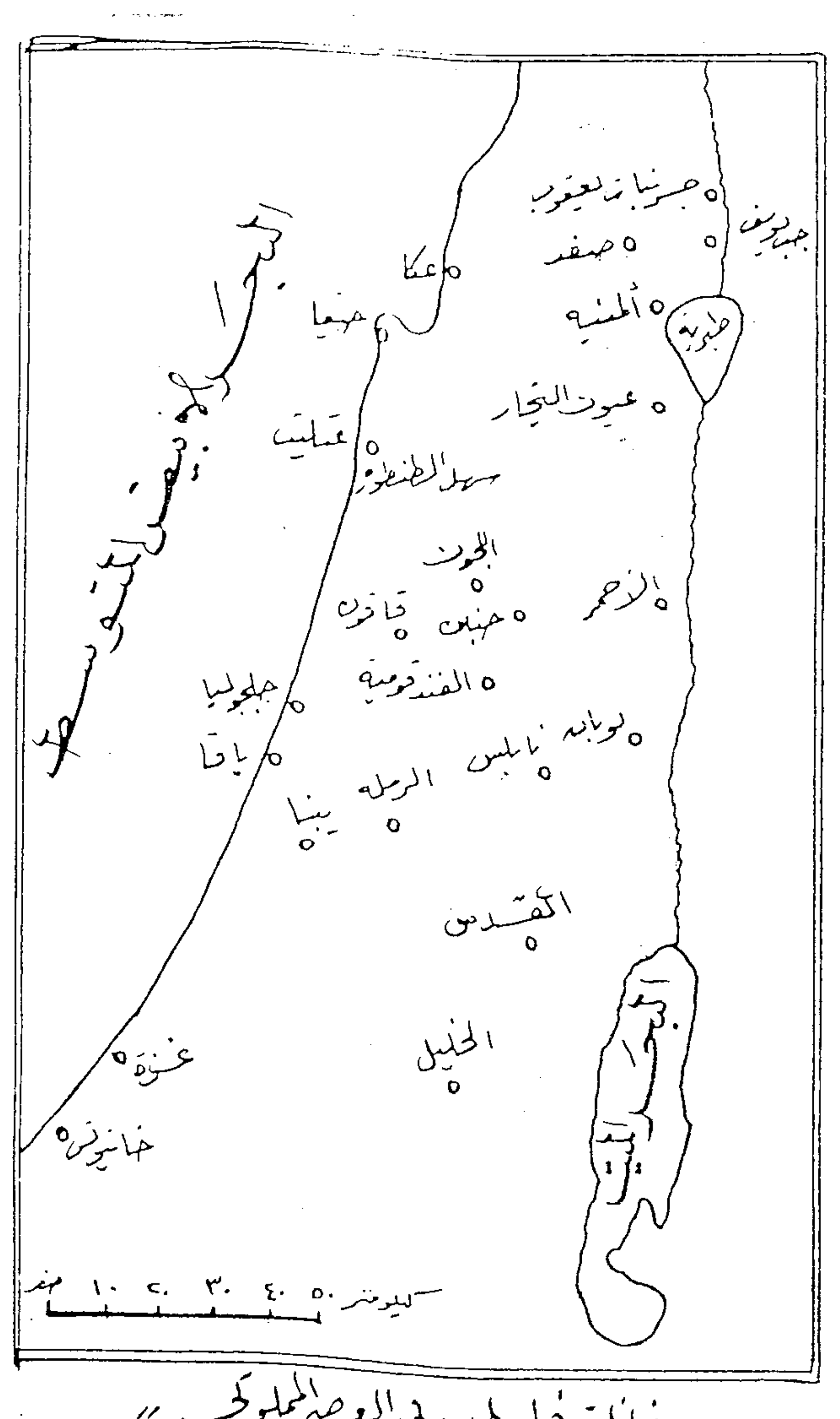
الرقم	الموظف	المرتب الشهري بالدرهم	حصة القمح والشعير الشهرية
1.	الطبيب	60-70	نصف غرارة قمح[2]
2.	المشارف	40	نصف غرارة القمح
3.	كحال	45	نصف غرارة القمح
4.	خادم	13	ربع غرارة قمح
5.	ممرضة	10	سدس غرارة قمح
6.	صيدلي	26	ثلث غرارة قمح
7.	ناظر الوقف	60	غرارة قمح وغرارة شعير[3]
8.	الإمام	40	ثلاث غرارة قمح
9.	بناء	12	ثلاث غرارة قمح
10.	عتال	8	سدس غرارة قمح
11.	مؤذن	25	سدس غرارة قمح
12.	الناظر	له عشر المغل	-

---

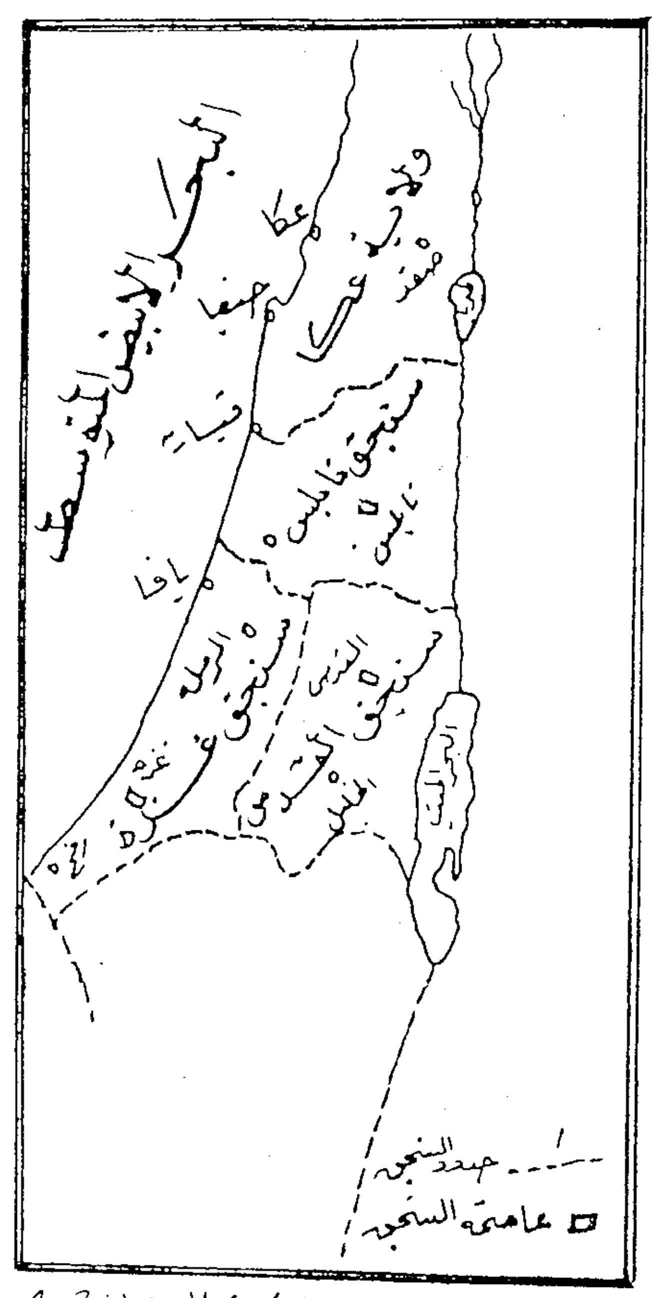
(1) زيادة : دمشق،ص124، وقفية البيمارستان القيمري بالصالحية.

(2) غرارة: تساوي مكيال دمشقي، وتعني العدل من صوف او شعير، تتألف من 12 كيلو أو 72مداً. هنش: م س، ص64

(3) كان يصرف لناظر الوقف غرارة شعير لدابته، وذلك لطبيعة عمله. حيث يطلب منه التجول على أوقاف البيمارستان المختلفة للنظر فيها.

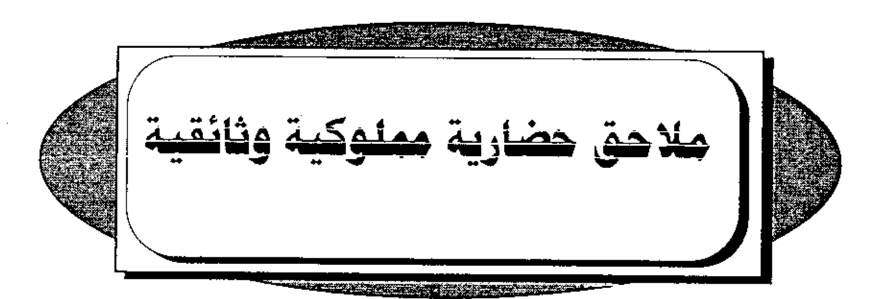


(خريطة ١٤) " خانات فلسطين في العصر المملوكي "



(خريطة ١٦) التقسيمات الإدارية في الفترة العثمانية
(القرن السابع عشر الميلادي)

رابعاً:



إقطاعات الروك الناصري مقدرة بالدينار الجيشي

١ . أمراء الألوف ومماليكهم = ٢٤٢٤ فارساً

أ . نائب
ب . وزير
ج . أُلوف خاصكيّة } ١٠ أمراء
د . أُلوف خَرْجيّة ١٤ أميراً
} مماليكهم ٢٤٠٠

٢٤٢٤ فارساً

الرواتب:

أ .
ب . } ١٠٠٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)
ج .
د . ٨٥٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

٢ . أُمراء الطبْلَخانات ومماليكهم = ٨٢٠٠ فارساً

أ . خاصكيّة ٥٤ أميراً
ب . خَرْجيَة ١٤٦ أميراً
مماليكهم ٨٠٠٠

٨٢٠٠ فارساً

الرواتب:

أ . ٤٠٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)(١)
ب . ٣٠٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ٨ دراهم)

٣ . أمراء العشرات ومماليكهم = ٢٢٠٠ فارساً

أ . خاصكية ٣٠ أميراً
ب . خَرجية ١٧٠ أميراً
مماليكهم ٢٠٠٠

٢٢٠٠ فارساً

---

(١) ليس في قائمة المقريزي.

الرواتب:

أ. ١٠٠٠٠ دينار جيشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

ب. ٧٠٠٠ دينار جيشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

٤. **كُشّاف الأقاليم ومماليكهم** = ٥٧٤ فارساً

المقريزي	الأسدي	
كاشف الإسكندرية	نائب الإسكندرية[1]	
البُحَيرة	البُحَيْرة	
الغربيّة	دِمياط	
الشرقيّة	قوص	
المنوفيّة	كاشف الغربيّة	
قَطْيا	الشرقيّة	
الجيزة	المنوفيّة	مماليكهم ٥٦٠
الفيّوم	الفيّوم	
البهنسا	البهْنسا	
الأُشمونَين	الأُشمونَين	
قوص	الوجه البحري	
أُسوان	الوجه القبلي	
الوجه البحري	متولّي قَطْيا	
الوجه القبلي	أُسوان	

٥٧٤ فارساً

الرواتب: ٢٠٠٠٠ دينار جيشي (الدينار الواحد = ٨ دراهم)

(١) كان السلطان يعيّن أحياناً على الإسكندرية رجلاً من أمراء الألوف.

٥ . وُلاة الأقاليم ومماليكهم = ٧٧ فارساً

أ. وُلاة الطبلخانات } ٧ أمراء } مماليكهم ٧٠
ب. وُلاة العشرات

٧٧ فارساً

الرواتب:

أ. ١٠٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ٨ دراهم)

ب. ٥٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ٧ دراهم)

٦ . مماليك السلطان والحَلْقة = ١١ ١٧٦ فارساً

أ. مقدَّمو مماليك السلطان	٤٠
ب. مقدَّمو الحلقة	١٨٠
ج. نقباء الألوف	٢٤
د. مماليك السلطان	٢٠٠٠
هـ. أجناد الحلقة	٨ ٩٣٢
	١١ ١٧٦ فارساً

الرواتب:

أ. ١٢٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

ب. ١٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ٩ دراهم)

ج. ٤٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ٩ دراهم)

د. ١٥٠٠ ــ ١٠٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

هـ. ٩٠٠ ــ ٣٠٠ دينار جَيْشي (الدينار الواحد = ١٠ دراهم)

ملحق رقم (١)

نص الكتاب المرسل من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠ هـ الى الأمير قراسنقر نائب دمشق يوصيه فيه ببلاد حوران بعد أن ظلم عماله أهلها، (من كتاب عقد الجمان للعيني، جزء ٢٢ قسم ١، لوحة ٢١٥ - ٢١٦ « مخطوط »):

إن الله تعالى مكننا في البلاد والعباد، وأمرنا بالعدل والاحسان، والنظر في حال الرعية. وقد بلغنا أن بلاد حوران قد خربت من كثرة الجبايات، وأنت تعلم أن بلاد حوران هي قوام دمشق، وقوام جندها. وقد تقدم لك مرسوم منا بمسامحة أهل حوران من الجبايات. ومن كان فيها رأس فتنة أو بادي شر، فقد أمرناك بقتله. ثم اتصل بنا أن أجناد دمشق قد هلكوا من عدم تحصلهم منها، ولا سيما أرباب النفذ، فهذا الذي جرى فيها سبب للخراب وزوال الدولة والأجناد هم عمد الملك، ولا يتم الملك إلا بهم، فإذا كانوا على هذه الحالة فكيف يقيمون البيكارات؟ وقد بلغنا أنكم قد جبيتم حقوق البلاد، فلا الأجناد أعطيتم، ولا إلينا حملتم، فمقصودنا نعلم أن هذه الأموال وصلت الى من؟. فتجعل بالك وتكشف أحوال الجند، وتوصل إليهم حقوقهم وتزيل ضروراتهم، وتقطع مادة الشكوى. وإياك وأخذ أموال الناس بغير حق، فهذا لا يخفى علينا، لأن من الشام من يطالعنا بذلك، وبكل ما تعملونه. وقد بلغنا أنه جاء إليك جماعة من شياطين حلب، ووليتهم أكثر أعمال دمشق. وكذا وليت مماليكك وظايف دمشق وبلادها وأعمالها. فالشاد الذي متولي من جهتنا ما يعمل، إذا كان مماليكك يستغلون الجهات؟ فساعة وقوفك على هذا الكتاب، تعزل مماليكك من الأعمال وكذا تعزل الحلبيين، وتحضر بأناس من أعيان الحلقة ومشايخها الذين

يخافون على أعراضهم وتوليهم الجهات والأعمال. وتكتب عليهم حججاً بأن يوصلوا الى الأجناد حقوقهم. ولا تول أحداً من شياطين الحلقة، لأجل حمل الأموال إليك، أو تولي أحداً بالبرطيل فيفسد الدنيا. فان لم تعملوا ما قلناه لكم، كشفنا بنظر العين عند وصولنا الى الشام. ومع هذا أنت ما تحتاج إلى وصية مع علمك بالأشياء، فإن كان هؤلاء يعملون هذه المفاسد وأنت لا تعلم ولا يعلمك أحد فقد أعلمناك، وإن كنت تعلم ذلك فأزله، فإن الشام لا يحمله هذا.

5

ملحق رقم (٢)

نسخة كتاب المحضر المرسل من مدينة عجلون الى دمشق يتضمن الاشارة الى السيل الذي دهم المدينة وأخرب وهدم الكثير فيها سنة ٧٢٨ هـ (من كتاب نهاية الأرب للنويري، جزء ٣١ لوحة ٩٠ - ٩٢ « مخطوط »):

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي يرسل آياته تخويفاً للعباد، ويريهم باهرات قدرته ليسلكوا سبل الرشاد، ويظهر لهم جبروته في ملكوته، ليحسنوا لأنفسهم الارتياد. وليعلموا ان الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله لا يخلف الميعاد. ثم يدركهم برأفته ورحمته ويكشف ما نزل بهم من المعضلات السداد. ولما كان في يوم الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، أرسل الله تعالى بقدرته ومشيئته بمدينة عجلون ريحاً عاصفاً، فأثارت سحاباً ثقالا هطلت بهم بدوي وريح زعزع فلم تزل الأمطار متواترة الهطل، والبروق تلمع، وأصداء الجبال والأودية بأصوات الرعود للقلوب تصدع، حتى ظن أهلها أنها قد أزفت الآزفة حق. فارتفعت الأصوات بأن ليس من دون الله كاشفة، ولفت الروس، ووجلت القلوب، وذرفت العيون، وطاشت الألباب، وخضعت الرقاب، ومدت الأيدي بالدعاء الى من بيده أمر الأرض والسماء. وغانوا في ذلك اليوم هولاً عظيماً، وأشفقوا أن يكون الله أرسل عليهم عذاباً أليماً، فبينا الناس على ذلك الحال ذاهلين، يقولون: ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، إذ دهمهم سيل عظيم ماؤه طام عبابه، هام سحابه، له دوي شديد قد اجتمع من عيون الجبال وبطون الأودية، وقرار الوهاد. فالتقى الماء على أودية بأمر قد قدر، إن في ذلك لآية فهل من مذكر. فارتفع العويل، وسكبت العبرات، واشتد الخوف، وتضاعفت الحسرات، وفر كل من الناس يطلب

النجاة لنفسه، واحتسب عند الله جميع ماله وعقاره وغرسه. فأخذ هذا السيل العظيم ما كان في ممره من الدور والقياسير والأسواق، ودخل الطواحين والبساتين، وأخذ جانباً من حارة المشارقة المجاورة للوادي. وأخذ المعرصة، وسوق الآدميين، وسوق القطانين، وبعض دور (الطعم)، وسوق الاقباعين، وسوق الخليع، وقيسارية التجار المعروفة بإنشاء الأمير سيف الدين بكتمر، والقيسارية القديمة، وأخذ من قيسارية ملك الأمراء الموقوفة على البيمارستان بصفد عشرين حانوتاً، وضعضع بقية الجدر، وهدم الأبواب، وهدم سوق الصاغة، وهدم سوق الفامية الذي بقرب العين، وهدم وقف الجامع، وسوق السقطيين، وحوانيت الخبازين فإنه أخذه. وأخذ السوق المعروف بإنشاء الأمير سيف الدين النايب بقلعة عجلون. والحوانيت المعروفة بوقف القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية الموقوفة على مدرسته بنابلس. وأخذ المدرسة اليقينية وهدم رواق الجامع القبلي، وباب الجامع الشرقي، وهدم جانباً من الحمام الصالحي المعروف بأمير موسى، وبعض الحمام السلطاني، وأخذ طهارة الجامع والمربعة، والمسلخ المعروف بابن معبد. وأخذ ما كان في مجراه من الجسور والقناطر والاقباء، التي كان يجوز الناس عليها عندما تمد الأودية. وعدم من عجلون تقدير عشرة أبقار، وهذه قدرة الملك الجبار، فاعتبروا يا أولي الأبصار. وكان من بواتر الأمطار والسيل من أول ساعة من النهار المذكور الى وقت العصر، وفي ذيل المشروح خط جماعة من الشهود.

* * *

هذا ما أورده الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه، ونقل الشيخ علم الدين بن البرزالي في تاريخه، نسخة الكتاب الوارد من عجلون فقال:

الحمد لله المحمود في السراء والضراء، المشكور على الشدة والرخاء، الذي يخوف عباده بما شاء من معضلات اللواء، ويريهم باهرات قدرته في ملكوت الأرض والسماء ثم يعود عليهم برحمته ويجللهم بسوابغ النعماء. أحمده حمداً يزيد على الاحصاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العظمة

7

والكبرياء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء ومبلغ الأنبياء صلى الله عليه وعلى آله الأمناء وأصحابه الأتقياء، صلوة دائمة بلا نفاذ ولا انقضاء وبعد:

فإنه لما كان بتاريخ نهار بكرة الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، أرسل الله تعالى بقدرته ريحاً عاصفة، فأثارت سحباً والفة في خلالها بروق خاطفة، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة، فطبقت الوهاد، وجللت الآكام، وأطبقت على مدينة عجلون، وما قاربها من أرض الشام، ثم أرخت عزاليها كأفواه القرب، حتى خيل لمن رآها ان الوعد الحق قد اقترب. فلم يكن إلا كحلب شاة من الضان، أو ما قارب ذلك من الزمان. حتى صارت مدينة عجلون كما قال الله تعالى في كتابه المكنون: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر. فوجلت القلوب لهول ذلك، وتصدعت وكادت الحوامل أن تضع حملها. وقد ذهل كل مرضعة عما أرضعت. واندهش أهل البلد عند معاينة هذا الهول الكبير، واختلفت همومهم، فكل الى ما اشتمل عليه قلبه يشين. فمن باكٍ على ما في يده من متاع الدنيا الحقير، ومن مشفق خايف على ولده الصغير، ومن غريق عدم نفسه النفيسة، ما له من ملجأ يومئذ وما له من نكير ومن ناج يقول: أشهد أن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير. ومن ضارع الى من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. ومن قايل ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ولسان الحال يتلو قوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. ولم تزل الأمطار متوافرة والسيول من كل فج متواترة، حتى تحير من حضر ذلك من الانس والجان، وشغلوا بما عاينوه عن الأموال والأولاد والاخوان، وظنوا أنهم أحيط بهم، وجاءهم الموج من كل مكان. فتلاقى على البلد واديان أحدهما من شمالها يسمى الجود، والآخر من شرقها يسمى جنان فأخرب وادي الجود بهذه الآية الخارقة جانباً من حارة المشارقة. ودمر وادي جنان ما كان على جانبه من البنيان، ثم اختلطا. فرأى الناس منهما ما لا يطاق. وأخربا ما مرا عليه من: رباع، وقياسير وأسواق، فأخربا العرصة والمصبغة، والفرايين والعلافين، وحوانيت الدق، وسوق الآدميين، وسوق البز العتيق،

والاقباعية، والقطانين، وحوانيت البضاعة وما يليها من البساتين. وردم أمام دار الطعم بعد اخراب بعضها احجاراً وصخوراً، وكل ذلك ليتعظ أهل المكس وما يزيدهم إلا نفوراً. وذهب هذا السيل العظيم الطامي بجميع سوق الخليع لبكتمر الحسامي، وأخرب من قيسارية ملك الأمراء للتجارة نحو عشرين حانوتاً، وذهب بكل ما فيها من التجار. ثم ردم باقيها على ما فيه بالأخشاب والأحجار والطين، حتى رجعت قيمة ما سلم منه من المابة الى العشرين وأخرب ما جاوز بحيز المدينة من سوق أم معبد، واللحامين، ومن الوقف السقطيين والحصريين، وحوانيت العجز، وسوق الأمير ركن الدين. ثم دمر باقي وقف الجامع على ما فيه من الأمتعة والبضائع. ثم ردم العين بالأحجار والخشب والصخور حتى خشي عليها أهل البلد أن تغور. ثم أخرب حوانيت الطباخين، وجانباً من حمام الأمير موسى، وكان ذلك على من لم يرض بقضاء الله يوماً منحوساً. ثم أخرب الدباغة وجانباً من حمام السلطان، وما يلي ذلك من المطهرة، ومسلخ المعز والضان. وأعظم من ذلك اخرابه المدرسة اليقينية، والرواق القبلي من المسجد الجامع. وفي ذلك ما يحرق قلب كل مثبت وخاشع. وردم داخل الجامع بقايا السيل والطين والأخشاب. فاعتبروا يا أولي الألباب. وبلغ الماء في داخل الجامع الى القناديل المعلقة، وذلك بتقدير من يعلم ما في البر والبحر، وما يسقط من ورقه. ولم يخرب شيئاً من غالب ما ذكر إلا على ما فيه من الأمتعة والبضائع والأموال، حتى أتيح لكثير من أرباب ذلك أن يمد يده للسؤال. وكانت مدة استدامته من بكرة النهار الى وقت العصر. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الهم. وكان غرض السيل قدر رمية بحجر، وارتفاعه عن بسيط الأرض قدر قامتين أو أكثر. وقدر ما ذهب فيه من الأمتعة والبضائع والأموال، وقيمة الأملاك هذا القضاء المبرم، فكان ذلك يزيد على خمس مابة ألف درهم. وذلك خارج عن الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر مدينة عجلون. إنا لله وإنا إليه راجعون. ومن جملة لطف الله تعالى مجيئه بالنهار فحذر الناس منه، فلم يعرف في البلد غريق إلا سبعة أنفار، ولو كان والعياذ بالله ليلاً لزادوا على الإحصاء في المقدار. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار، وليس الخبر في جميع ما ذكرناه كالعيان، ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان.

9

ملحق رقم (٣)

نص وقف البستان والحمام بوادي الكرك للسلطان الأشرف شعبان في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٧٧ هـ (من وثيقة حجة وقف السلطان الأشرف شعبان رقم ٤٩ بدار الوثائق القومية بالقاهرة « مخطوط »).

ومن الموقوف جميع البستان وأراضيه، وجميع الحمام الآتي ذكر ذلك وتحديده فيه. وهذا البستان المذكور والحمام بوادي الكرك المحروس من الخاص الشريف المشتمل البستان المذكور أشجار ثابتة بأراضيه هي: الحور، والرمان، والمشمش، والتفاح، والورد، والتين، والعنب، والاترنج، والحلب، وغير ذلك. وما به من الدور المعدة لسكنى مستأجريه وهي ثلاث دور: الأولى، تشتمل على سفل وعلو، فالسفل يشتمل على قبوين وايوان معقود ذلك جميعه بالطين والحجر، وعلى بيت مسقف بالخشب والقصب. والعلو يشتمل على قبو معقود بالطين والحجر، يصعد إليه من سلم حجر من داخل الدار، ولها باب يفتح من جهة القبلة. والدار الثانية تشتمل على قبوين وايوان معقود ذلك جميعه بالطين والحجر، ولها باب مفتح من جهة الشرق، وطابق هذه الدار المذكورة قبو معقود بالطين والحجر يفتح بابه متشملا. والدار الثالثة في جهة الشمال من البستان المذكور، تشتمل على قبو واحد معقود بالطين والحجر، وطاقة باب يفتح من جهة القبلة المذكورة. والبركة المعدة لجمع الماء من العين المختصة بالبستان المذكور المعروفة بحيص، هذه العين المذكورة بالبستان المذكور وأمام الحمام الآتي ذكرها فيه، فإن مساحتها بذراع العمل أربعة عشر ذراعاً طولا وعرضاً، كذلك، وعمقها أربعة أذرع، وهي مبنية بالشيد والطين والحجر، والقاعة التي على حافة البركة المذكورة من

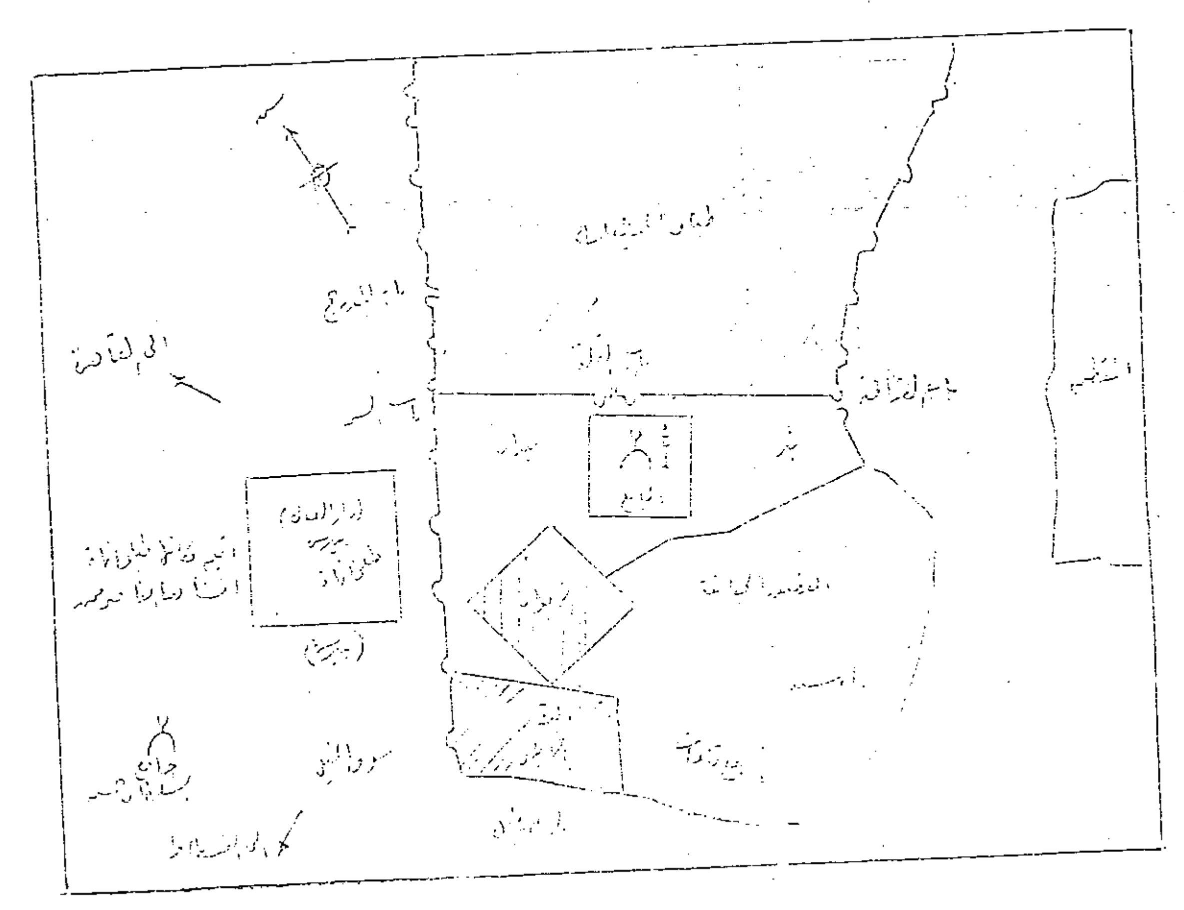
جهة القبلة، وبنى قاعة مستهدمة في داخلها قائم الجدارات الأربعة، وهي شعسات، ويفتح باب القاعة المذكورة من جهة الغرب، والقبو الذي هو تحت البركة المذكورة من جهة الغرب معقود بالطين والحجر، يعرف بالطاحونة قديماً، وهي الآن عاطلة. يشتمل الحمام المذكور على مسلح بأربعة قناطر حجارة بجنب، بسراويل بجنب اتنعشري، وعليه قبة معقودة بالطوب الآجر، وبه ايوانان شرقي وغربي، معقود ذلك بالطين والحجر، وبها مقصورتان معقودتان بالحجر والطين، وفي وسطه فسقية برسم الماء البارد، وبالمسلح المذكور باب يتطرق منه الى بيت السخن في دهليز، وعن يمين الدهليز بيت البارد، يشتمل على قبة وحوض كبير. ويتطرق من الدهليز المذكور الى بيت وسطاني، يشتمل على قبة وحوض وخلوة فيه من جهة القبلة يشتمل على قبة وحوضين، ويتطرق منه الى صدر مثمن يشتمل على قبة كبيرة مضلعة ستة عشرية، وأربعة أحواض، وبه مقصورتان قبلية وشمالية تشتمل كل واحدة منها على قبة وحوضين. وفي حايطه من جهة الشرق خزانة برسم الماء السخن موضوع بها قدرتان نحاسا برسم تسخين الماء احديها كبيرة والأخرى صغيرة، وبدهليز الحمام المذكور ميضأة تشتمل على قبة. وجميع الحمام المذكورة مبلطة بحجر ما وغيره. ويتطرق الى الحمام المذكورة والى الأماكن المذكورة فيه من باب يفتح متشاملا، وللحمام المذكور مستوقد، وهو قبة معقودة بالطين والحجر وعليها قبو معقود بالطين والحجر. وعلى سطح باب الحمام المذكورة بركة معدة لجمع الماء طولها ثمانية أذرع بذراع العمل، وهي مبنية بالشيد والطين والحجر ومساحة الحمام المذكورة ومستوقدها وبركتها المذكورة بقصبة القياس التي طولها سبعة أذرع ونصف بذراع الحديد المعامل به يوم يذن بالكرك المحروس ست وأربعون قصبة، ومساحة خطة الحمام المذكورة بالقصبة اثنان وثلاثون قصبة. ويحيط بالحمام المذكورة حدود أربعة من القبلة البستان المذكور، ومن الشمال الوادي وفيه يفتح بابها، ومن الشرق البستان المذكور، ومن الغرب الوادي. ويحيط بالبستان المذكور وما هو في حقوقه حدود أربعة، الحد القبلي ابتداؤه من جهة الغرب الوادي الكبير، ويستمر مصعداً على عقبة طريق يعرف بعقبة الحبيس، وهي درب سالك الى أن ينتهي الى الكوم المعروف بأولاد

اسحق بن يومصان ، وشركتهم الفاصل بين البستان المذكور وبين الكوم المذكور حجارة حمر ثابتا وهو انتهاء الحد القبلي. والحد الثاني هو الشرقي ابتداؤه الحجارة الحمر...... الكرم العنب المعروف .... « بقية الوقفية مفقودة ».

رسم تخطيطي لقلعة الجبل

مركز الحكم الأيوبي

(بناها صلاح الدين الأيوبي ٥٧٢ هـ ـ ١١٧٦م)



- القلعة مركز حكم المماليك ، دار منها السلطان سياستها
- بها قصورهم وبيوتهم وقاعات الحريم والجواري
- وكان بها حياتهم وتربية مماليكهم من الأجناس
- حوت جميع المؤسسات الحكومية والإدارية
- واتخذ السلطان بداخل القلعة كل مستلزماته
- ونقلت إليها المياه بالسواقي للشرب والزراعة

- [illegible]



ملحق رقم (٣٠)



جنديان من جند المماليك يرتديان الجبة والقفطـــــان



أحد فرسان المماليك بملابس ركوب الخيل

من كتاب الملابس في العصرين القبطي والإسلامي (لثناء بلال) شكل ٣٨ ، ٣٦

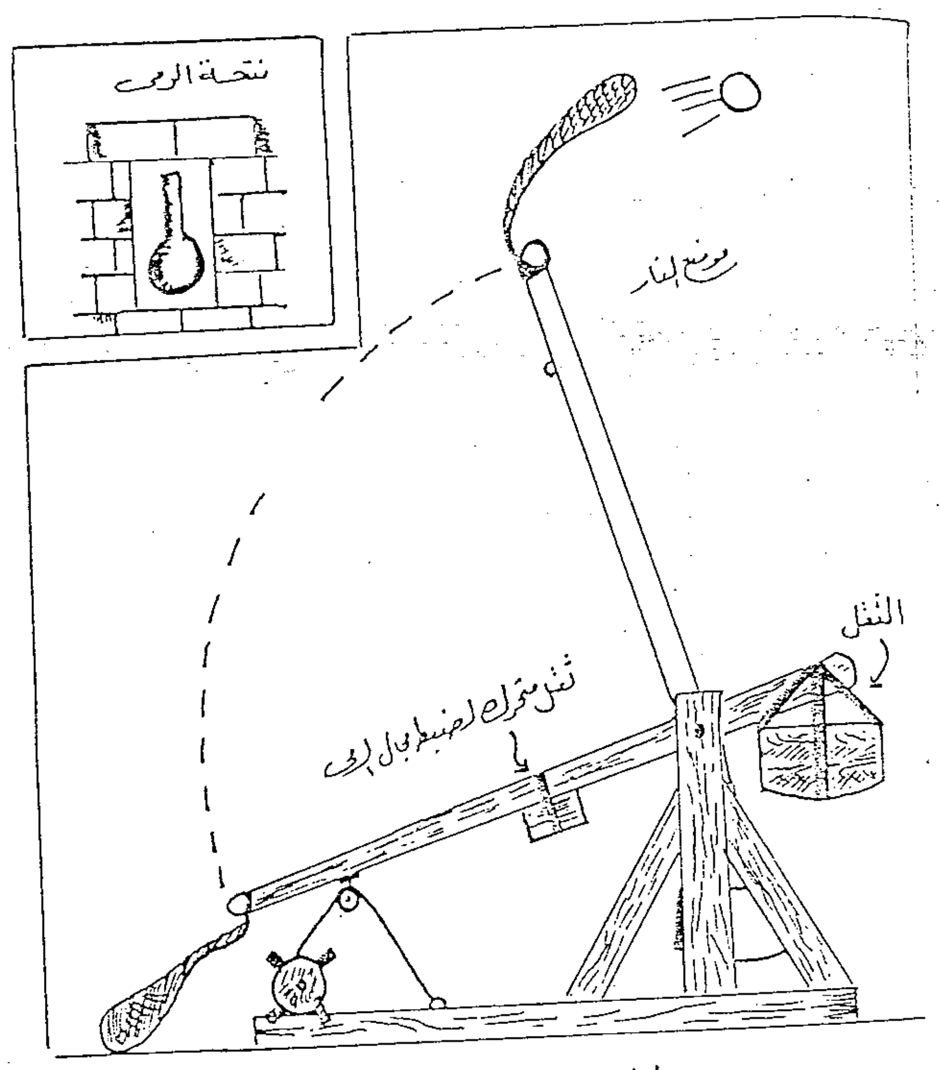
ملحق رقم (٧)



مجموعة من المماليك بالملابس الحربية

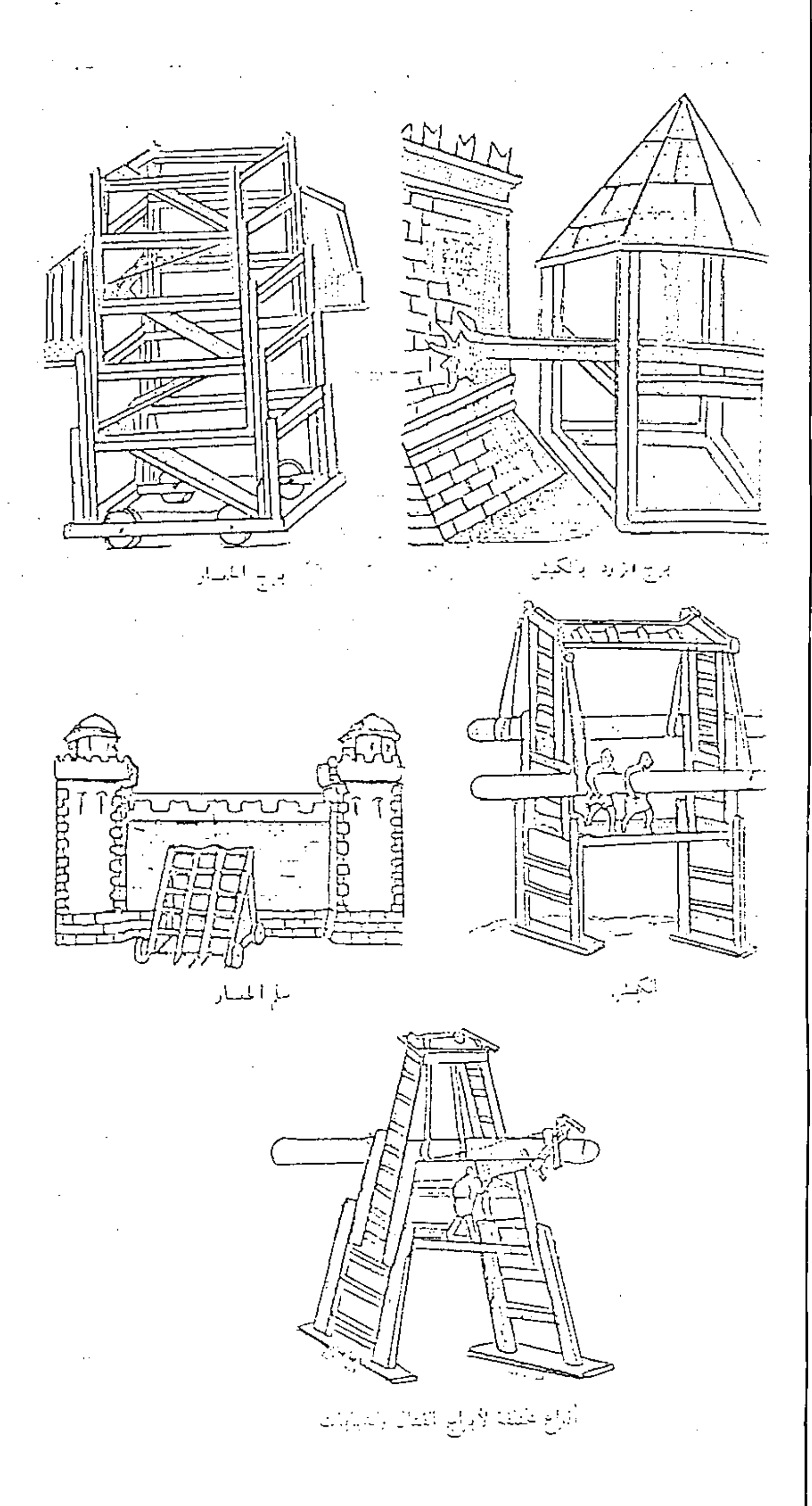
(يبدو أنهم يدخنــــون)

(من كتاب الملابس في العصرين القبطي والإسلامي - لثناء بـــلال (شكل ٣٢)



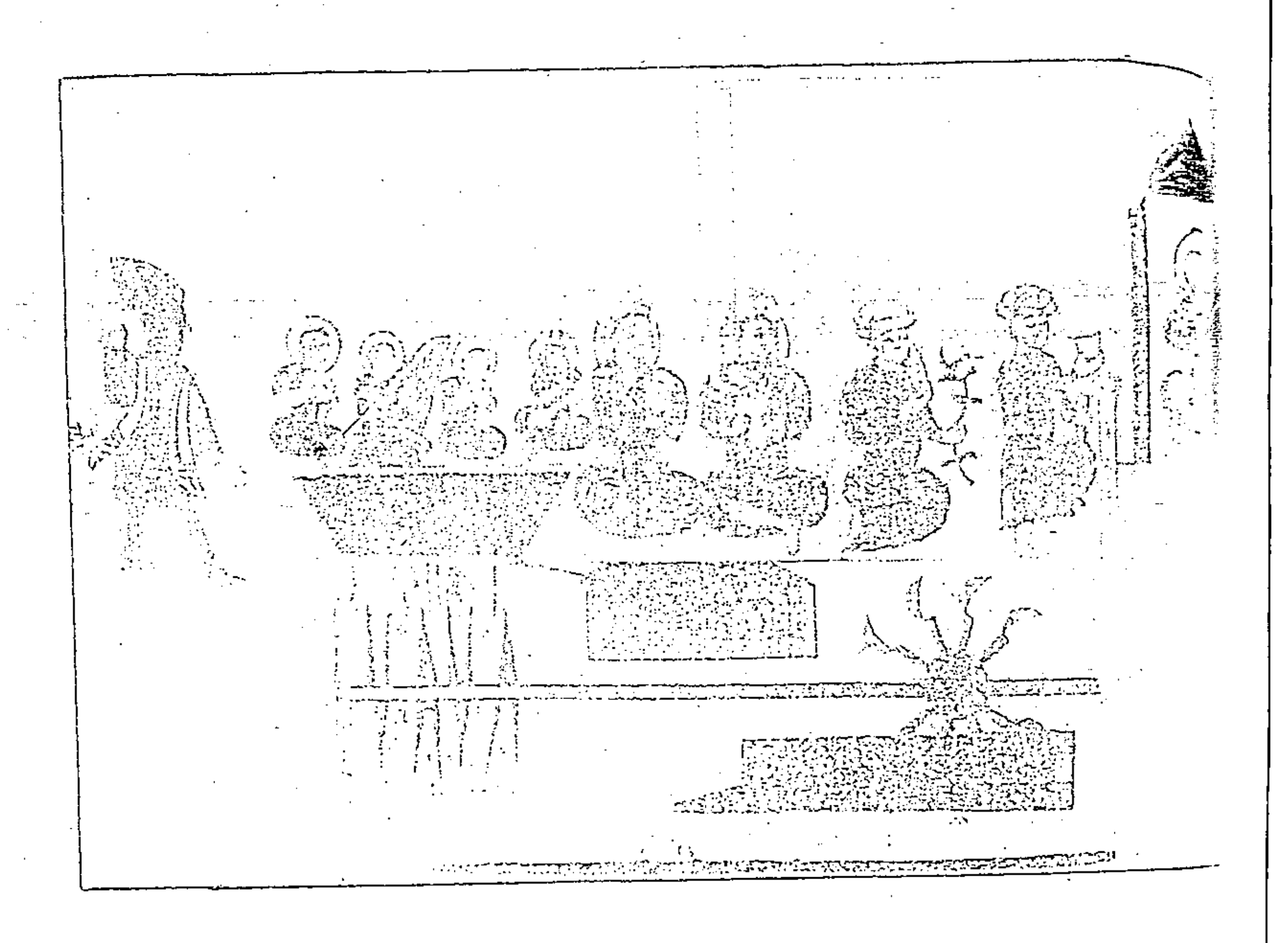
المنجنيق نقلاً عن

Sllman, Castles and fortresses, p..



أنواع مختلفة لأبراج القتال والدبابات

ملحق رقم (٥)



مجلس الشراب والطرب

يصور جانبا من الحياة الاجتماعيـــة المملوكية

به أحد أمراء المماليك يجلس على دكة ، من حوله ندماؤه يستمعون إلى الغناء والطرب يقدم الخدمة لهم كؤوس الشراب ، ويلاحظ أن عمامة الأمير الأسطوانية الشكل تختلف في حجمها شيئا ما عن عمائم ندمائه — فهي أكبر — وتفترق تماما عن عمائم الخدمة .

عن ميكروفيلم : الرزاز : الجامع بين العلم والعمل (مخطوط) برقم ٥ صناعة أطعمة بتيمور ، مخطوطات جامعة الدول العربية من القرن السابع الهجري — الثالث عشر الميلادي .

ملحق رقم (٦)



صورة ...

عن ميكروفيلم : الرزاز : الجامع بين ...

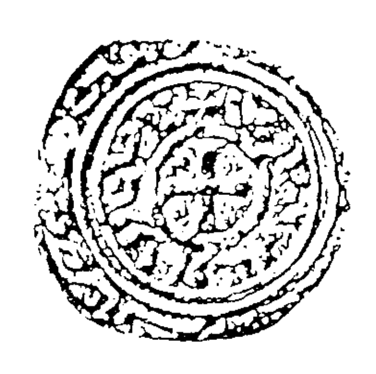
عن اللوحة ( ) ... (مخطوط)

(بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربيــــــة)

خامساً:



درهم مزيف للصالح اسماعيل
ضرب بمدينة عكا (القرن ١٣)



وجه دينار ضرب بمدينة عكا
فى خمسينات القرن ١٣ عليه
مأثورات عربية اسلامية[١٠٥]

وبمدينه عكا سك الصليبيون دنانير نقش عليها بالعربية عبارات مسيحية على هيئة حلقات على النمط الفاطمى جاء على بعضها[١٠٣] .

الوجه :
فى المركز : إله
واحد
على الهامش الأول : الأب والإبن + والروح القدس .
الهامش الثانى : ضرب بعكا سنة ألف ومائتين واحد وخمسين تجسد ربنا المسيح .

الظهر :
داخل دائرة : نفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذى به سلامتنا وبه قيامتنا وبه تخلصنا وعفينا .

كما جاء مثل هذا الدينار الذى ضرب أيضاً سنة ١٢٥٠ م بمدينة عكا ذكره[١٠٤] فى كتاب الدكتور العش .

كما ضرب دينار آخر سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٥م) بمدينة عكا جاء عليه .

الوجه :
وفى المركز/إله
واحد
الهامش/مقسم بواسطة صليب
الظهر :
فى المركز/صليب
الهامش/ضرب بعكا سنة ألف ومائتين وخمس[١٠٦] .

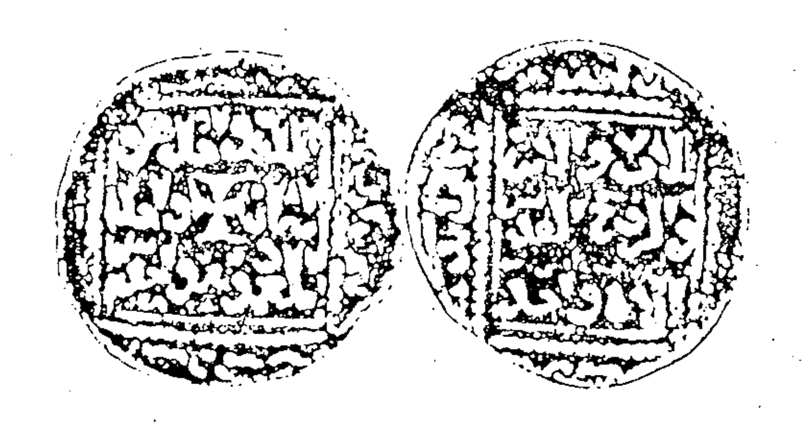
ومعظم هذه النقود كانت قد ضربت بأمر من القديس لويس سنة ١٢٥٠ ميلادية وما بعدها تقليداً للنقود الأيوبية وقد تميزت فى معظمها بعبارة التثليث (الأب والإبن والروح القدس) وشارة المسيحية على الظهر محاطة بعبارة « الله واحد هو الإيمان واحد والمعمودية واحدة » .

• انظر مجموعة النقود المزورة فى كتاب : بول ـ كتالوج النقود العربية ص ٢٠٠ .

وقد ضربت من الذهب والفضة ، ويوجد بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة نماذج منها .

كما ظهرت على الدراهم الفضية بعض المأثورات ضمن مربع(١٠٧) :

الوجه : الأب والابن
والروح القدس
إله واحد
الهامش/لله المجد إلى أبد الأبدين آمين
الظهر :
صليب ضمن دائرة حولها كتابة مربعة
فى ثلاثة أسطر :
الله واحد هو
الايمان واحد
المعمودية واحدة



حتى إذا ما اندحر الصليبيون من البلاد تركوها وقد أصاب اقتصادها من زراعة وصناعة الدمار فارتفعت الأسعار إلى ستة أضعاف ما كانت عليه من قبل(١٠٨) .

اليوم (٢٢) .
أما نقود صلاح الدين الايوبي فهذا نقشها وصورتها :





وعندما اعتلى صلاح الدين الأيوبي عرش الحكم سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) ضرب له نقوداً فى مصر فى كل من القاهرة والاسكندرية أما فى الشام فقد سك نقوداً فى مدن دمشق وحلب وحماة . ضربها على النمط الفاطمى بحيث نقش على ظهر النقود اسم الخليفة العباسى بالإضافة لاسمه ومكان وزمان الضرب فضرب الدنانير عليها كتابة على هيئة حلقات ثلاث جاء عليها[١١٠] .

الوجه :




بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بالقاهرة سنة سبعين وخمسماية ١
لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو محمد ٢
المستضى بأمر الله أمير المومنين ٣
فى المركز : الامام
الحسن

الظهر :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ١
ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله ٢
الملك الناصر عال غايه ٣
فى المركز/يوسف
بن أيوب

كما ضرب الدراهم الفضية (الدراهم الناصرية) والتى وصفت برداءتها وارتفاع نسبة النحاس المخلوط بها أى بالفضة والتى قدرت بالضعف ، من هنا كانت قيمتها الاسمية القانونية تتفوق على قيمتها المعدنية حتى أطلق عليها الناس « الزيوف » مما كان له المردود الاقتصادى السيىء على الناس .

فقد ظهر على وجه الدراهم وعلى هيئة مربع

فى ثلاث سطور :

الإمام النا

صـر لـدين

الله

أمير المؤمنين



وجه درهم (١١٢)

وعلى الهامش وفوق كل ضلع من المربع

لا إله الا/الله/محمد رسول الله

والظهر :

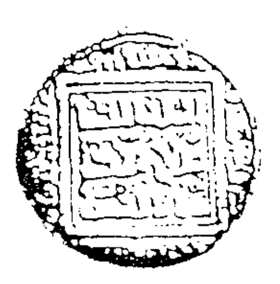
اسم الملك على هيئة مربع فى ثلاثة أسطر

الملك النا

صر صلاح الدين

يوسف بن أيوب





درهم ضرب بدمشق ٥٧٦ هـ(١١٣)

وعلى الهامش/ضرب دمشق سنة ٥٧٦ هجرية .

وهناك درهم آخر لصلاح الدين الأيوبى يحمل زخارف مميزة كتب نقوشه داخل نجمة سداسية مزخرفة جاء عليه(١١٤) :-

الوجه :

الامام

الناصر لدين

الله أمير المؤمنين

الهامش وفوق كل ضلع من أضلاع النجمة :

ضرب/لا اله/رسول/الله . . .



الظهر :

الملك

الناصر صلاح

الدين يوسف . . .

أيوب

الهامش/م . . /ضرب/ . . / .

أما بالنسبة لفلوس صلاح الدين فلم يظهر عليها اسم الخليفة بل ذكر اسم الملك الأيوبي فقط(١١٥) .

الوجه :

داخل دائرة : الملك

الناصر

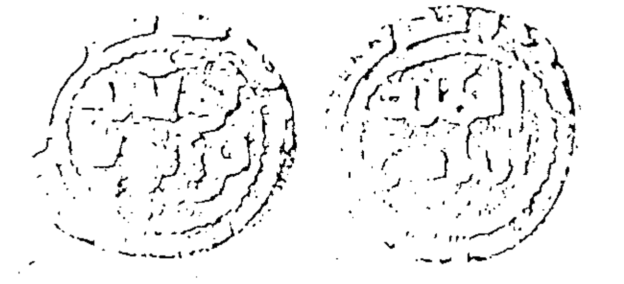
الهامش/صلاح الدنيا والدين سلطان المسلمين

الظهر :

داخل دائرة : يوسف

بن أيوب

الهامش/ . . . ضرب بدمشق . . . .



وبما هو لافت للانتباه العثور على قطعة نقدية نحاسية على شاطىء مدينة دير البلح(١١٦) تحمل مأثورات تناقض ما ألفناه من عدم وجود صور للملوك العرب المسلمين يبدو أنها ترجع لعهد صلاح الدين الأيوبي فقد ظهر عليها :

الوجه :

وجه صلاح الدين يوسف بن أيوب بلحيته وشاربه وعلى رأسه غطاء أشبه بطاقية مرتفعة . وأمامه وجه رجل ربما هو ريتشارد قلب الأسد وعلى رأسه اكليل من الغار يذكرنا بأكاليل الملوك الرومانيين واليونان ووجهه حليق .

الظهر :

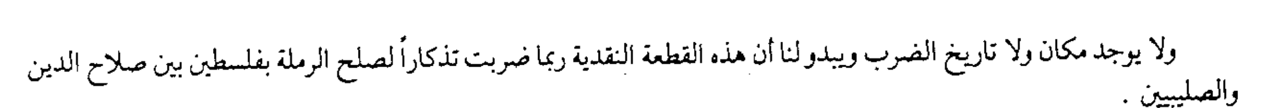
ظهرت عليه كتابة بالخط الكوفي الجميل داخل دائرة منقطة

الملك الناصر

صلاح الدين

. . . . دولة

أمير المؤمنين



ولا يوجد مكان ولا تاريخ الضرب ويبدو لنا أن هذه القطعة النقدية ربما ضربت تذكاراً لصلح الرملة بفلسطين بين صلاح الدين والصليبيين .

وفي عهد العزيز عماد الدين عثمان (٥٨٩هـ) ضرب هذا الفلس(١١٧) :

الوجه :

داخل دائرة عثمان

الملك العزيز

الظهر :

داخل دائرة : سيف

الملك الناصر

أيو

وهناك درهم نقشت عباراته داخل نجمة سداسية مزخرفة يرجع للظاهر غازي (٥٨٢ ــ ٦١٣هـ)(١١٨) .

جاء عليه :



الوجه :

الامام

الناصر أحمد

الملك العادل

أبو بكر .





الهامش . . . غير واضح . . .

الظهر :

الملك

الظاهر غازى

بن يوسف بن

أيوب

الهامش . . . غير واضح ويعتقد أنه ضرب جلب مع بداية القرن السابع الهجرى .

وفى عهد الملك العادل سيف الدين أبو بكر ضربت الدنانير والدراهم والفلوس فقد ضرب دينار سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) جاء عليه(١١٩) .

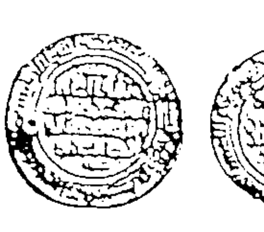
الوجه :

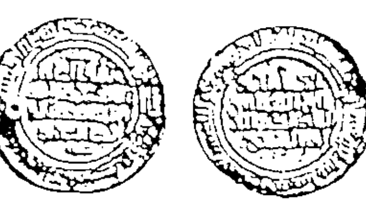
داخل دائرة : الإمام أحمد

أبو العباس

الناصر لدين الله

أمير المؤمنين





الهامش/بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بالاسكندرية سنة ست وتسعين وخمس مائة .

الظهر :

داخل دائرة :

عال

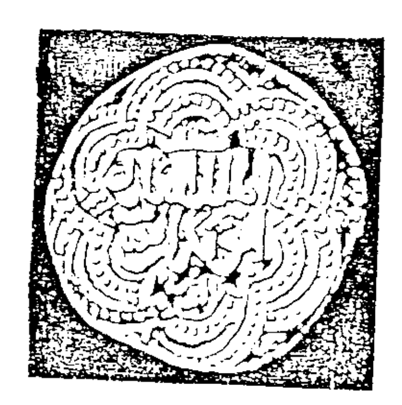
الملك العادل

أبو بكر محمد بن أيوب

ولى عهده الملك

الكامل محمد

غايه



الهامش/محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وضرب دراهم فضية مزخرفة بأسلوب متميز حاد على ظهرها(١٢٠) :

سيف

الملك العادل

أبو بكر بن أيوب

الدين

الهامش/ضرب/دمشق/سنة/ثلث عشر وستماية

وبنفس النمط ضربت دراهم للملك العادل جاء عليها(١٢١) .

Z

الوجه :

المو

الامام الناصر

لدين الله أمير

المؤمنين

الظهر :

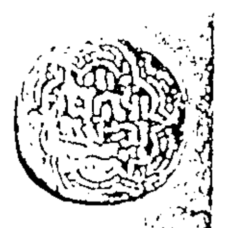
الدين

الملك العادل

أبو بكر أيوب

سيف





كما ضرب دراهم فضية ظهرت مأثوراتها داخل مربع جاء عليها[١٢٢] :

الوجه : الامام

المستنصر

بالله أبو جعفر

المنصور بن . . .

الهامش / . . . غير واضح .

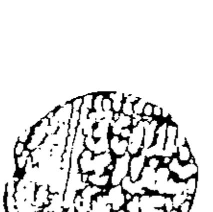
الظهر :

الملك العادل

سيف الدين

أبو بكر بن محمد

الهامش / . . . غير واضح .







وهناك درهم ضربت نقوشه داخل مربع جاء عليه[١٢٣] .

الوجه :

الامام المعتز

بالله أبو جعفر

المنصور بن أبى . .

الهامش . . ./غير واضح .

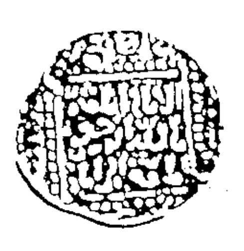
الظهر :

الملك العادل

سيف الدين

أبو بكر بن محمد .





كما ضرب فلوسا ضرب عليها اسمه دون الخليفة داخل دائرة ذات زوايا[١٢٤] عديدة جاء عليها :

الوجه :

الامام

الناصر

الظهر :

الملك

العادل



وهناك فلس أيوبي متميز بزخارفه النادرة ظهر عليه(١٢٥) :

الوجه :

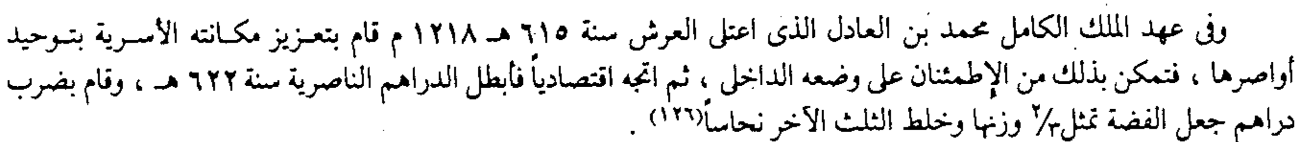
أبو بكر بن أيوب

الظهر :

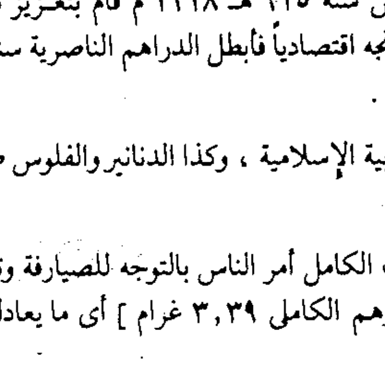
فراغ في معظم أطرافه .

وظهر على جزء من الاطار : ثمان وسبعين .

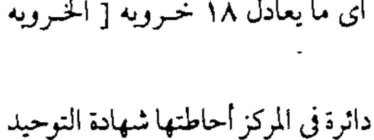
وفي عهد الملك الكامل محمد بن العادل الذى اعتلى العرش سنة ٦١٥ هـ ١٢١٨ م قام بتعزيز مكانته الأسرية بتوحيد أواصرها ، فتمكن بذلك من الإطمئنان على وضعه الداخلي ، ثم اتجه اقتصادياً فأبطل الدراهم الناصرية سنة ٦٢٢ هـ ، وقام بضرب دراهم جعل الفضة تمثل٢/٣ وزنها وخلط الثلث الآخر نحاساً(١٢٦) .



وقد انتشرت هذه الدراهم في فلسطين كجزء من الدولة العربية الإسلامية ، وكذا الدنانير والفلوس طيلة التواجد الأيوبي وحتى العصر المملوكي .



وبما مهد السبيل لانتشارها وشيوع استعمالها ، أنه أي الملك الكامل أمر الناس بالتوجه للصيارفة وتبديل ما لديهم من دراهم ناصرية على حساب كل رطل منها بدرهمين ونصف كاملية [الدرهم الكاملي ٣,٣٩ غرام] أي ما يعادل ١٨ خروبه [الخروبه ٠,١٩٤ غرام]



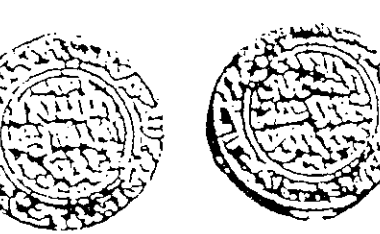
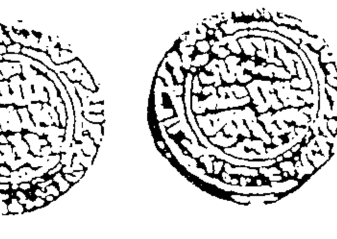
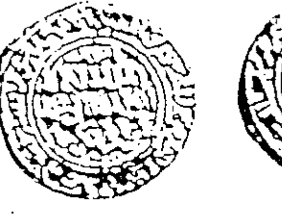
وقد تميزت دنانير الملك الكامل بأنها ضربت على النمط الفاطمي فتركزت الكتابة في وسط دائرة في المركز أحاطتها شهادة التوحيد على الهامش على الوجه التالي(١٢٧) .



الوجه :

داخل دائرة : الإمام
المنصور أبو
جعفر المستنصر
بالله أمير المؤمنين

الهامش/بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالإسكندرية سنه اثنين وعشرين وستمائة .

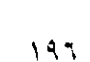





الظهر :

داخل دائرة : الملك الكامل
أبو المعالي محمد
ابن ابى بكر بن ايوب

الهامش/لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وقد ضرب دراهم ظهرت على نمطين احدهما كانت المأثورات داخل دائرة تشبه مأثورات الدينار السابق وآخر كان داخل مربع ، فقد ظهر على أحد الدراهم مايلي :

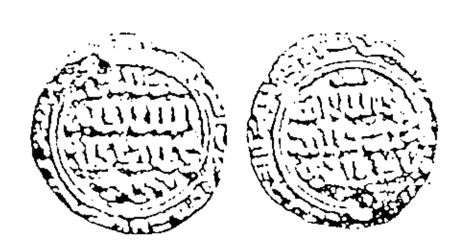


وقد ضرب بيبرس نقوده فى عام ٦٥٨ هـ متميزة بشعاره الجديد « رنك » وهو « الأسد » ولقبه الجديد « قسيم أمير المؤمنين فضرب دنانير بمأثورات تشبه تلك التى على دنانير شجرة الدر حيث جاء عليها(١٤٥) :

الوجه

فى المركز : لا إله إلا الله
محمد رسول الله
أرسله بالهدى

الهامش : ضرب . . سكندريه سنة تسع وخمسون وستمايه



دينار بيبرس ضرب بالاسكندرية ١٢٦١ م

الظهر

فى المركز : السلطان
الملك الظاهر
ركن الدنيا والدين
« أسد يعدو لليسار »

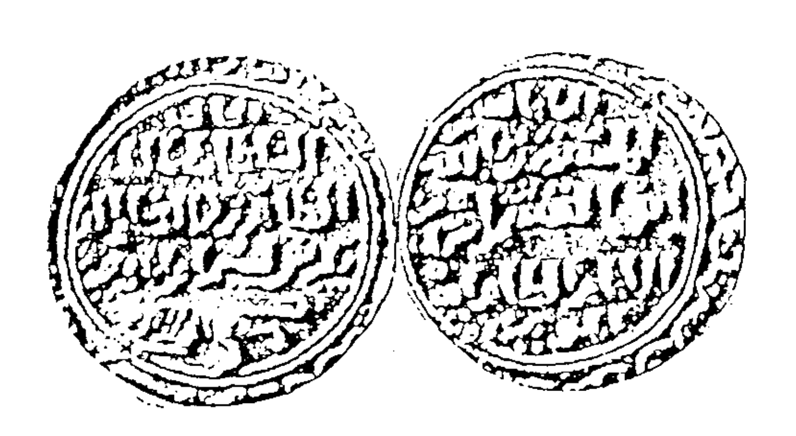
الهامش / . . . غير واضح .

وقد ضرب دنانير بمأثورات مختلفة جاء على بعضها(١٤٦) :

الوجه :

داخل دائرة : الإمام
المستنصر بالله
أبو القاسم أحمد بن
الامام الظاهر أمير
المؤمنين

الهامش . . غير واضح



الظهر :

داخل دائرة : الصالحى
السلطان الملك
الظاهر ركن الدين والدنيا
بيبرس قسيم أمير المؤمنين
« أسد » يعدو لليسار .



(خريطة ١١) * مدن السكة الفلسطينية *
في العصر العباسي
والطولوني والاخشيدي